تاريخ الطبري

تاريخ الأمم والملوك

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري
٢٢٤ - ٣١٠ هجرية

المجلد الثالث

من سنة ٣٦ للهجرة لغاية السنة ٩٠ للهجرة

مكتبة دار البيان
[illegible]
[illegible]

تاريخ الطبري

تاريخ الأمم والملوك

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري
٢٢٤ - ٣١٠ هجرية

المجلد الثالث

من سنة ٣٦ للهجرة لغاية السنة ٩٠ للهجرة

دار الكتب العلمية
بيروت . لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم دخلت سنة ستّ وثلاثين

تفريق عليّ عمّاله على الأمصار

ولّما دخلت سنة ستّ وثلاثين فرّق عليٌّ عمّالَه ؛ فممّا كتب إليّ السريّ ، عن شُعيب ، عن سيف ، عن محمد وطلحة ، قالا : بعث عليٌّ عماله على الأمصار ، فبعث عُثمان بن حُنَيف على البصْرة ، وعُمارة بن شهاب على الكوفة ، وكانت له هجرة ؛ وعبيدَ الله بن عباس على اليَمن ، وقيسَ بن سعد على مصر ، وسهل بن حُنَيف على الشأم ؛ فأمّا سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتَبوك لقِيَتْه خيلٌ ، فقالوا : مَنْ أنت؟ قال : أمير، قالوا : على أيّ شيء؟ قال : على الشأم ، قالوا : إن كان عثمان بعثَك فحيَّهلاً بك ، وإن كان بعثك غيرُه فارجع ! قال : أوَما سمعتم بالذي كان؟ قالوا : بلَى ؛ فرجع إلى عليّ . وأما قيس بن سعد فإنه لما انتهى إلى أيلَة لقِيَتْهُ خيلٌ ، فقالوا : مَنْ أنت؟ قال : من فالَّة عثمان ، فأنا أطلُب من آوي إليه وأنتصر به ، قالوا : من أنت؟ قال : قيس بن سعد ، قالوا : امض ؛ فمضَى حتى دخل مصرَ ، فافترق أهلُ مصر فِرَقاً ؛ فرقةٌ دخلت في الجَماعة وكانوا معه ، وفِرْقة وقَفَت واعتزلت إلى خَرْبتَا وقالوا : إن قُتِل قَتَلةُ عثمان فنحن معكم ، وإلاّ فنحن على جدِيلتنا حتى نحرّك أو نصيب حاجتنا ؛ وفرقةٌ قالوا : نحن مع عليّ ما لم يُقِدْ إخواننَا ، وهم في ذلك مع الجماعة ؛ وكتب قَيْس إلى أمير المؤمنين بذلك . وأمّا عثمان بن حُنيف فسار فلم يردّه أحدٌ عن دُخول البصرة ولم يوجد في ذلك لابن عامر رأيٌ ولا حزم ولا استقلال بحرب . وافترق الناس بها ، فاتّبعت فرقةُ القومَ ، ودخلت فرقةٌ في الجماعة ، وفرقةٌ قالت : ننظرُ ما يصنع أهلُ المدينة فنصنع كما صنعوا . وأمّا عُمارة فأقبل حتى إذا كان بزُبالة لقيه طليحة بن خُويلد ؛ وقد كان حين بلغهم خبرُ عثمان خرج يدعو إلى الطلب بدمه ويقول : لهفي على أمْرٍ لم يسبقني ولم أدْرِكْه !

يـا لَيتَـنـي فـيـهـا جَـذَعْ أكـرُّ فـيـهـا وأضَـعْ

فخرج حين رجع القعقاعُ من إغاثة عثمان فيمن أجابه حتى دخل الكوفَة ، فطلع عليه عُمارة قادماً على الكوفة ، فقال له : ارجع فإنّ القومَ لا يريدون بأميرهم بدلاً ، وإن أبيت ضربتُ عنقَك . فرجع عُمارة وهو يقول : احذر الخطرَ ما يماسُّك ، الشرُّ خير من شرّ منه .

فرجع إلى عليّ بالخبر . وغلب على عُمارة بن شهاب هذا المثلُ من لدُن اعتاصَت عليه الأمور إلى أن مات .

وانطلق عبيدُالله بن عباس إلى اليَمن ، فجمع يَعْلَى بن أميّة كلّ شيء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائرٌ على حاميته إلى مكة فقدِمَها بالمال . ولما رجع سهلُ بن حُنَيف من طريق الشأم وأتَتْه الأخبار ورجع من رجع ، دعا عليٌّ طلحةَ والزُّبير، فقال : إنّ الّـذي كنت أحذّركم قد وَقَع يا قوم ، وإنّ الأمر الذي وقع لا يُدرَك إلا بإمَاتَتِه ، وإنها فِتنة كالنار ؛ كلَّما سُعّرَت ازدادت واستنارت . فقالا له : فَأذنْ لنا أن نخرج من المدينة ، فإمّا أن نُكابر وإما

أن تَدَعنا، فقال: سأمسِك الأمر ما استَمْسك؛ فإذا لم أجد بُدًّا فآخِر الدواء الكيّ.

وكتب إلى معاوية وإلى أبي موسى. وكتب إليه أبو موسى بطاعة أهْل الكوفة وَبيْعتهم، وبيّن الكاره منهم للّذي كانَ، والرَّاضيَ بالذي قد كانَ، ومن بَين ذلِكَ حتى كأن عليًّا علَى المُواجَهَة من أمْر أهل الكوفة. وكان رسول عليّ إلى أبي موسى مَعْبد الأسلميّ؛ وكان رسول أمير المؤمنين إلى مُعاوية سَبْرة الجُهَنيّ، فقدم عليه فلم يكتب معاوية بشيء ولم يُجِبْه وردَّ رسولَه، وجعل كلما تنجّز جوابَه لم يزد على قوله:

أدِمْ إدَامَـةَ حِصـن أو خُـداً بِـيَـدي حَرْباً ضَـروساً تَشُبُّ الجَـزْلَ والضَّرَمَـا
في جـارِكُم وابـنِكُـمْ إذ كـان مَقْتَلَهُ شَنعـاءَ شَيَّبَـتِ الأصـداغَ واللِّمَـمَـا
أعْيـا المَســودُ بهـا والسَّيِّـدون فلَم يـوجَـدْ لهـا غَيْـرُنـا مـولًى ولا حَكَمـا

وجعل الجُهنيُّ كلما تنجّز الكتاب لم يزدْه على هذه الأبيات؛ حتى إذا كان الشّهر الثالث من مَقْتل عثمان في صفر، دعا معاويةُ برجُل من بني عبْس، ثم أحد بني رواحة يُدْعى قبيصة، فدفع إليه طُوماراً مَخْتوماً، عنوانهُ: من معاوية إلى عليّ. فقال: إذا دخلتَ المدينة فاقبض على أسفل الطّومار، ثمّ أوصاه بما يقولُ وسَرَّح عليّ. وخرجا فقدِما المدينة في ربيع الأوّل لغُرّته، فلما دخلا المدينة رفع العبسيّ الطُّومار كما أمره؛ وخرج الناس ينظرون إليه؛ فتفرّقوا إلى منازلهم وقد علموا أنّ معاوية معترض، ومضى حتى يدخل على عليّ، فدفع إليه الطُّومار، ففضَّ خاتمه فلم يجد في جَوْفه كتابةً، فقال للرّسول: ما وراءك؟ قال: آمنٌ أنا؟ قال: نعم، إنّ الرّسل آمنة لا تُقتل؛ قال: ورائي أني تركتُ قوماً لا يرضوْن إلا بالقوَد، قال: ممن؟ قال: من خَيْط نفسك، وتركتُ ستين ألف شَيْخٍ يبكي تحت قَميص عُثمان وهو منصوب لهم، قد ألبسوه منْبَر دمشق. فقال: منِّي يطلبون دمَ عثمان! ألستُ موتوراً كِترَة عثمان! اللهمّ إني أبرأ إليك من دَم عثمان؛ نجا والله قتلةُ عثمان إلاّ أن يشاء الله، فإنَّه إذا أراد أمراً أصابه؛ اخرج؛ قال: وأنا آمنٌ؟ قال: وأنت آمن. فخرج العبسيّ وصاحت السَّبَئيَّة قالوا: هذا الكلبُ، هذا وافد الكلاب، اقتلوه! فنادى: يا آل مُضر، يا آل قَيس، الخيل والنَّبْل، إني أحلف بالله جلّ اسمُه ليُردّنَّها عليكم أربعة آلاف خَصيّ، فانظروا كم الفجولة والرِّكاب! وتعاوَوْا عليه ومنَعنَه مُضَر، وجعلوا يقولون له: اسكُت، فيقول: لا والله، لا يفلح هؤلاء أبداً، فلقد أتاهم ما يوعَدُون. فيقولون له: اسكت، فيقول: لقد حلّ بهم ما يحذَرون، انتهت والله أعمالُهم، وذهبَتْ ريحُهم، فوالله ما أمسوا حتى عرف الذلّ فيهم.

استئذان طلحة والزبير عليًّا

كتب إليّ السَّريّ عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: استأذن طلحةُ والـزّبير عليًّـا في العُمرة، فأذن لهما، فلحقا بمكة؛ وأحبَّ أهلُ المدينة أن يعلموا ما رَأيُ عليّ في معاوية وانتقاضه، ليعرفوا بذلك رأيَه في قتال أهل القبلة؛ أيجسُر عليه أوينكُلُ عنه! وقد بلَغهم أنّ الحسن بن عليّ دخل عليه ودَعاه إلى القُعود وترْك النّاس، فدسّوا إليه زيادَ بن حنظلة التميميّ ـ وكان مُنقطعاً إلى عليّ ـ فدخل عليه فجلس إليه ساعةً ثمّ قال له عليّ: يا زياد، تيسَّر؛ فقال: لأيّ شيء؟ فقال: تغزو الشّأم، فقال زياد: الأناةُ والرفق أمْثل، فقال:

وَمنْ لا يُصـانِـعْ فـي أمـور كثيـرةٍ يُضَـرَّسْ بـأنيـابٍ ويـوطـا بمنْسِمِ

فتمثّل عليٌّ وكأنه لا يريده:

متى تَجمع القلبَ الذّكيَّ وصارِماً وأنْفاً حَمِيًّا تَجْتَنِبْكَ المظالِمُ

فخرج زياد على النّاس والناس ينتَظرونه، فقالوا: ما وراءك؟ فقال: السَّيف يا قوم، فعرفوا ما هو فاعِل. ودعا عليٌّ محمد بن الحنفيّة فدَفَعَ إليه اللواء، وولّى عبد الله بن عباس ميمنَتَه، وعمر بن أبي سَلمَةَ ـ أوعمرو بن سفيان بن عبد الأسد ـ ولّاه ميسرته، ودعا أبا ليلى بن عمر بن الجرّاح؛ ابن أخي أبي عُبيدة بن الجرّاح، فجعله على مقدّمته، واستخلف على المدينة قُثَم بن عبّاس، ولم يولّ ممن خرج على عثمان أحداً، وكتب إلى قيس بن سعد أن يندب الناس إلى الشام، وإلى عثمان بن حُنَيف وإلى أبي موسى مثل ذلك، وأقبل على التهيُّؤ والتجهّز، وخطب أهلَ المدينة فدعاهم إلى النهوض في قتال أهل الفُرْقة، وقال: إنّ الله عزّ وجلّ بعث رسولاً هادياً معديًّا بكتاب ناطِق وأمْر قائم واضح؛ لا يهلك عنه إلا هالك، وإنّ المبتدَعات والشبهات هنّ المهلكات إلّا من حفظ الله، وإنّ في سُلْطان الله عصمة أمركم، فأعطوه طاعَتَكم غيرَ مَلْويَّة ولا مستكرَه بها، والله لتفعلُنّ أو ليَنقُلنّ الله عنكم سلطانَ الإسلام ثمّ لا ينقلُه إليكم أبداً حتى يأرِزَ الأمر إليها، انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون يفرّقون جماعَتكم، لعلّ الله يصلح بكم ما أفْسد أهلُ الآفاق، وتقضُون الذي عليكم. فبينا هم كذلك إذ جاءَ الخبرُ عن أهل مكة بنحو آخر وتمام على خلاف، فقام فيهم بذلك؛ فقال: إنّ الله عزّ وجلّ جعل لظالم هذه الأمة العفو والمغفرة، وجعل لمن لزم الأمْر واستقام الفوزَ والنَّجاةَ، فمن لم يسعه الحقّ أخذ بالباطل. ألاَ وإنّ طلحة والزّبير وأمّ المؤمنين قد تمالؤوا على سخط إمارتي، وَدَعَوا النّاس إلى الإصلاح، وسأصبر ما لم أخَفْ على جماعتكم، وأكفّ إن كفّوا وأقتصر على ما بلغني عنهم.

ثمّ أتاه أنهم يريدون البصرة لمشاهدة النّاس والإصلاح، فتعبّى للخروج إليهم، وقال: إن فعلوا هذا فقد انقَطع نظامُ المسلمين وما كان عليهم في المقام فينا مَؤُونة ولا إكْراه. فاشتدّ على أهل المدينة الأمرُ، فتثاقَلوا، فبعث إلى عبد الله بن عمر كُمَيْلا النَّخَعِيّ، فجاء به فقال: إنهض معي، فقال: أنا مع أهل المدينة، إنما أنا رجل منهم وقد دخلوا في هذا الأمر فدخلت معهم لا أفارقهم، فإن يخرجوا أخرجْ وإن يقعدوا أقعد. قال: فأعطِني زعيماً بألاّ تخرج، قال: ولا أعطيك زعيماً، قال: لولا ما أعرف من سوء خُلقك صغيراً وكبيراً لأنكرْتني، دعوه فأنا به زعيم. فرجع عبد الله بن عمر إلى المدينة وهم يقولون: لا والله ما ندري كيف نصنع، فإنّ هذا الأمر لمشتَبه علينا، ونحن مُقيمون حتى يُضيء لنا ويسفِر.

فخرج من تحت ليلته وأخبر أمّ كلثوم بنت عليّ بالذي سمع من أهْل المدينة؛ وأنه يخرج معتمراً مقيماً على طاعة عليّ ما خلا النهوض؛ وكان صدوقاً فاستقرَّ عندها؛ وأصبح عليّ فقيل له: حدث البارحة حدَثٌ هو أشدّ عليك من طلحة والزبير وأمّ المؤمنين ومعاوية. قال: وما ذلك؟ قال: خرج ابن عُمر إلى الشّام؛ فأتى عليّ السوق ودعا بالظّهر فحمل الرّجال وأعدَّ لكل طريق طُلّاباً. وماج أهل المدينة، وسمعت أمّ كلثوم بالذي هو فيه، فدعت ببَغْلتها فركبتْها في رَحْل ثمّ أتت عليًّا وهو واقفٌ في السوق يفرّق الرّجالَ في طلبه، فقالت: مَالَك لا تَزَنَّد من هذا الرّجل؟ إنّ الأمر على خلاف ما بُلِّغتَه وحُدّثته. قالت: أنا ضامِنَة له، فطابت نفسُه وقال: انصرفوا، لا والله ما كذَبَتْ ولا كذَب، وإنه عندي ثِقة فانصرفوا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سَيف، عن محمد وطلحة، قالا: ولما رأى عليّ من أهل المدينة ما رأى لم يَرْض طاعتَهم حتى يكون معها نُصرته، قام فيهم وجمع إليه وجُوه أهْل المدينة، وقال: إنّ آخر هذا الأمر لا

يَصْلُح إلاّ بما صلَح أوّلُه، فقد رأيتم عواقِبَ قضاء الله عزّ وجلّ على من مضى منكم، فانصروا الله يَنْصرْكم ويصلح لكم أمركم. فأجابه رجلان من أعلام الأنصار؛ أبو الهيثم بن التَّيِّهان ـ وهو بدريّ ـ وخزيمة بن ثابت؛ وليس بذي الشهادتين؛ مات ذو الشهادتين في زمن عثمان رضي الله عنه.

كتب إليّ السريّ عن شعيب، عن سيف، عن محمد، عن عبيد الله، عن الحَكم، قال: قيل له: أشَهِد خُزَيمة بن ثابت ذو الشَّهادتين الجَمَل؟ فقال: ليس به، ولكنّه غيره من الأنصار؛ مات ذو الشهادتين في زمان عثمان بن عفان رضي الله عنه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سَيْف، عن مجالد، عن الشعبيّ، قال: بالله الذّي لا إله إلا هو؛ ما نهض في تلك الفتنة إلاّ ستَّة بدريِّين ما لهم سابع، أو سَبْعة ما لهم ثامن.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد، عن الشعبيّ، قال: بالله الذّي لا إله إلاّ هو ما نهض في ذلك الأمر إلاّ ستة بدريين ما لهم سابع. فقلتُ: اختلفتما. قال: لم نختلف، إنّ الشّعبِيَّ شكَّ في أبي أيوب: أخرَج حيثُ أرسلتْه أمّ سَلَمة إلى عليّ بعد صِفين، أم لم يخرج! إلاّ أنه قدِم عليه فمضى إليه، وعليٌّ يومَئِذ بالنَّهروان.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عبد الله بن سعيد بن ثابت، عن رجل، عن سعيد بن زيد، قال: ما اجتمع أربعةٌ من أصحاب النبي ﷺ ففَازوا على الناس بخَيْر يحوزونَه إلاّ وعليّ بن أبي طالب أحدهم.

ثم إنّ زياد بن حنظلة لما رأى تثاقل الناس عن عليّ ابتدر إليه وقال: مَن تثاقل عنك فإنا نخفّ معك ونقاتل دونك. وبينما عليٌّ يمشي في المدينة إذ سمع زينب ابنة أبي سُفيان وهي تقول: ظلامتنا عند مُدَمَّم وعند مكحلة، فقال: إنها لَتعلم ما همّا لها بثأر.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة؛ أن عُثمان قُتِل في ذي الحجة لثمان عشرة خلَتْ منه، وكان على مكة عبدُ الله بن عامر الحضرميّ، وعلى الموسم يومئذ عبد الله بن عباس، بعثه عثمان وهو مَحْصور، فتعجّل أناسٌ في يومين فأدركوا مع ابن عباس، فقدموا المدينة بعد ما قُتِل وقبل أن يُبايَع عليّ، وهرب بنو أميَّة فلحقوا بمكة، وبويع عليّ لخمس بقين من ذي الحجَّة يوم الجمعة؛ وتساقط الهرّاب إلى مكة، وعائشة مقيمة بمكّة تريد عُمرة المحرّم، فلما تساقط إليها الهرّاب استَخْبرتهم فأخْبروها أنْ قد قُتِل عثمان رضي الله عنه ولم يُجِبْهم إلى التأمير أحَدٌ؛ فقالت عائشة رضي الله عنها: ولكن أكياس، هذا غِبُّ ما كان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح؛ حتى إذا قضَتْ عمرتَها وخرجت فانتهت إلى سَرِف لقيها رجلٌ من أخوالها من بني لَيْث ـ وكانت واصلة لهم، رفيقة عليهم ـ يُقال له عبيد بن أبي سلِمة يعرف بأمّه أمّ كلاب، فقالت: مَهْيم! فأصمّ ودمدم، فقالت: ويحك! علينا أو لنا؟ فقال: لا تدري، قُتل عثمان وبقوا ثمانياً، قالت: ثمّ صنعوا ماذا؟ فقال: أخذوا أهلَ المدينة بالاجتماع على عليّ، والقومُ الغالبون على المدينة. فرجعت إلى مكة وهي لا تقول شَيْئاً ولا يخرج منها شيء، حتى نزلت على باب المَسْجد وقصدت للحِجْر فستَّرَتْ فيه، واجتمع الناس إليها فقالت: يا أيُّها الناس، إنّ الغَوْغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتَمعُوا أن عاب الغوغاءُ على هذا المقتولِ بالأمْس الإِرْب واستعمال مَنْ حدثت سنُّه، وقد استُعمل أسنانهم قبله، ومواضع من مواضع الحِمَى حماها لهم، وهي

أمورٌ قد سُبق بها لا يصلح غيرها، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم، فلما لم يجدوا حجّةً ولا عذراً خلجوا وبادوْا بالعدْوان ونَبَا فِعْلُهُم عن قَوْلهم؛ فسفكوا الدَّمَ الحرامَ واستحلّوا البَلَد الحرام وأخذوا المالَ الحرامَ؛ واستحلّوا الشهر الحرام. واللهِ لإصبَع عثمان خيرٌ من طِباق الأرْض أمثالهم. فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرَّد مَنْ بعدهم، ووالله لو أن الّذي اعتدّوا به عليه كان ذنباً لخُلّص منه كما يخلّص الذّهب من خَبثِه أو الثّوب من دَرَنه إذ ماصُوه كما يماصُ الثوب بالماء. فقال عبد الله بن عامر الحضرميّ: هأنذا لها أوّل طالب ـ وكان أوّلَ مُجيب ومنتدِب.

حدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن المدائنيّ، قال: حدّثنا سُحيم مولى وبرة التميميّ، عن عبيد بن عمرو القُرشيّ، قال: خرجتْ عائشة رضي الله عنها وعُثمان محصورٌ، فقدم عليها مكّة رجلٌ يقال له أخضر، فقالت: ما صنع الناس؟ فقال: قَتَلَ عثمانُ المصريين، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون! أيَقْتلُ قوماً جاؤوا يطلبون الحقّ وينكرون الظلم، والله لا نَرْضَى بهذا. ثمّ قدِم آخرُ فقالت: ما صنع الناس؟ قال: قَتَل المصريّون عثمانَ، قالت: العجبُ لأخْضر، زَعم أنّ المقتول هو القاتل!. فكان يُضْرب به المثلُ: «أكْذبُ من أخْضر».

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد، عن الشعبيّ، قال: خرجَت عائشة رضي الله عنها نحو المدينة من مكّة بعد مقتل عثمان، فلقيها رجلٌ من أخْوالها، فقالت: ما وراءَك؟ قال: قُتِل عثمان واجتمع الناس على عليّ، والأمرُ أمرُ الغَوْغاء. فقالت: ما أظنّ ذلك تامًّا، رُدُّوني. فانصرفَتْ راجعة إلى مكة، حتى إذ دخلَتْها أتاها عبدالله بن عامر الحضرميّ ـ وكان أميرَ عثمان عليها ـ فقال: ما ردَّك يا أمّ المؤمنين؟ قالت: ردّني أنّ عثمانَ قُتِل مظلوماً، وأنّ الأمرَ لا يستقيم ولهذه الغوغـاء أمرٌ، فـاطلبوا بـدَم عُثمان تُعِـزّوا الإسلامَ. فكان أوّل من أجابَها عبد الله بن عامر الحضرميّ، وذلك أوّل ما تكلمت بنو أميّة بالحِجاز ورفعوا رؤوسَهم، وقام معهم سعيد بن العاص، والوليد بن عقبة، وسائرُ بني أميّة. وقد قدِم عليهم عبد الله بن عامر من البصْرة؛ ويَعْلَى بن أميّة من اليَمن، وطلحة والزّبير من المدينة، واجتمع ملؤهم بعد نظر طويل في أمرهم على البصرة، وقالت: أيُّها الناس، إنّ هذا حدَث عظيمٌ وأمْرٌ منكر، فانهضوا فيه إلى إخوانِكم من أهْل البصرة فأنكِروه، فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم، لعلّ الله عزّ وجلّ يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم.

كتب إليّ السريّ، عن شُعَيْب، عن سَيْف، عن محمد وطلحة، قالا: كان أوّل من أجاب إلى ذلك عبد الله بن عامر وبنو أميّة؛ وقد كانوا سقَطوا إليها بعد مَقْتل عثمان، ثم قدِم عبـد الله بن عامِـر، ثمّ قدِم يَعْلَى بن أميّة، فاتَّفَقَا بمكة، ومع يَعْلَى ستمائة بَعير وستمائة ألف، فأناخ بالأبْطح معسكراً؛ وقدِم معَهُما طلحةُ والزّبير، فلقيا عائشةَ رضي الله عنها، فقالت: ما وراءَكُما؟ فقالا: وراءَنا أنا تحملنا بقلَّيْتنا هُرّاباً من المدينة من غوغاء وأعْراب، وفارَقْنا قوماً حيارَى لا يعـرفون حقّـا ولا ينكرون بـاطِلاً ولا يمنعـون أنفسَهم. قالت: فائْتمِرُوا أمراً؛ ثمّ انهضوا إلى هذه الغوغاء.

وتمثّلت:

ولـو أنَّ قـومي طِـاوَعتني سَـراتُهمْ لأنْقَـذْتُهمْ من الحِبـالِ أو الخَبْـلِ

وقال القومُ فيها ائتمروا به: الشام. فقال عبد الله بن عامر: قد كفاكم الشامَ من يستمرّ في حَوْزَته، فقال

له طلحة والزّبير: فأين؟ قال: البصرة، فإنّ لي بها صنائعَ ولهم في طَلْحة هوًى، قالوا: قبحك الله! فوالله ما كُنت بالمسالم ولا بالمحارب، فهلاّ أقمتَ كما أقام مُعاوية فَنَكْتَفي بك، ونَأتي الكوفَة فنسدّ عـلى هؤلاء القوم المذاهب! فلم يجِدُوا عنده جواباً مقبولاً، حتى إذا استقام لهم الرّأي على البصرة قالوا: يا أمّ المؤمنين، دعي المدينةَ فإنّ مَن معنا لا يُقرنون لتلك الغوغاء التي بها، واشْخصي مَعنا إلى البصرة، فإنّـا نأتي بلداً مضيَّعـاً، وَسَيحْتجّون علينا فيه ببيعة عليّ بن أبي طالب فتُنهضينهم كما أنْهَضْتِ أهلَ مكّة ثم تقعدين، فإن أصْلَح الله الأمْرَ كان الذي تُريدين، وإلاّ احتسبنا ودَفَعْنا عن هذا الأمر بجُهْدنا حتى يَقْضيَ الله ما أراد.

فلما قالوا ذلك لها ـ ولم يكن ذلك مستقيماً إلاّ بها ـ قالت: نعم؛ وقد كان أزواج النبيّ ﷺ معها على قَصْد المدينة، فلمّا تحوّل رأيها إلى البصرة تركنَ ذلك؛ وانطلق القومُ بعدها إلى حَفْصة، فقالت: رأيي تَبَعٌ لـرأي عائشة؛ حتى إذا لم يبق إلاّ الخرُوج قالوا: كيف نستقلّ وليس معنا مالٌ نجهّز به الناس! فقال يَعْلَى بن أميَّة: معي ستمائة ألف وستمائة بَعير فاركبوها؛ وقال ابن عامر: معي كذا وكذا فتجهّزوا به. فنادى المنادى: إنّ أمّ المؤمنين وطلحة والزّبير شاخِصون إلى البصرة، فمن كان يُريد إعْزاز الإسْلام وقِتال المحِلّين والطلب بثأر عثمان ومن لم يكن عِنْده مَرْكَب ولم يَكن له جِهاز فهذا جهازٌ وهذه نفقةٌ، فحملوا ستمائة رجُل على ستمائة ناقَةٍ سِوى مَن كان له مَرْكب ـ وكانوا جميعاً ألفا ـ وتجهّزوا بالمال، ونادَوْا بالرّحيل واستقلُّوا ذاهبين. وأرادت حَفْصة الخروجَ فأتاها عبد الله بن عمر فطلب إليها أن تقعد، فقَعدت وبعثت إلى عائشة: أنّ عبـد الله حال بيني وبَـيْنَ الخروج، فقالت: يغفر الله لعبد الله! وبعثَتْ أمّ الفَضْل بنت الحارث رجلاً من جُهَيْنة يُدْعَى ظفْراً، فاستأجَرَتْه على أن يطويَ ويأتي عليًّا بكِتابها، فقدِم على عليّ بكتاب أمّ الفضل بالخَبر.

حدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا عليّ، عن أبي مخنف، قال: حدّثنا عبد الله بن عبد الرّحمن بن أبي عمرة، عن أبيه، قال: قال أبو قَتادة لعليّ: يا أميرَ المؤمنين، إنّ رسول الله ﷺ قلّدني هذا السيف وقد شِمْته فطال شَيْمه، وقد أنَى تَجْريدُه على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألُوا الأمّة غشًّا، فإن أحببتَ أن تُقَدّمني، فقدّمني. وقامت أمّ سلمة فقالت: يا أميرَ المؤمنين، لولا أنْ أعصيَ الله عَزّ وجلّ وأنك لا تقبله منّي لخرجتُ معك؛ وهذا ابني عُمر ـ والله لهو أعزّ عليّ من نَفْسي ـ يَخْرج معك فيشهد مشاهدَك. فخرج فلم يَزَل معه، واستَعْمَله على البَحْرين ثم عَزله، واستعمل النُّعمان بن عَجْلان الزُّرَقيّ.

حدّثني عُمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا مسلمة، عن عوف، قال: أعانَ يَعْلَى بن أميّة الزُّبير بأربعمائة ألف، وحمل سبعين رجلاً من قُريش، وحَمل عائِشة رضي الله عنها على جَمَل يقال له عسكر، أخذه بثمانين ديناراً وخرجوا. فنظر عبد الله بن الزّبير إلى البَيْت؛ فقال: ما رأيتُ مثلك بركةَ طـالب خير، ولا هاربٍ من شرّ.

كتب إليّ السريّ عن شعيب، عن سَيْف، عن محمد وطلحة، قالا: خرج المغيرة وسعيد بن العاص معهم مرحلةً من مكةّ، فقال سعيد للمغيرة: ما الرّأي؟ قال: الرّأي والله الاعتزال، فإنّهم ما يفلح أمرهم، فإن أظفره الله أتَيْناه، فقلنا: كان هَوَانَا وصَغْوُنا معك؛ فاعتزَلاَ فجلسا، فجاء سعيدٌ مكة فأقام بها، ورجع معهما عبد الله بن خالد بن أسيد.

حدّثني أحمد بن زُهَيْر، قال: حدّثنا أبي، قال: حدّثنا وَهْب بن جَرير بن حازم، قال: سمِعْتُ أبي، قال:

سمعتُ يونس بن يزيد الأيْلي، عن الزهريّ، قال: ثُمّ ظهرَا - يعني طلحة والزّبير - إلى مكة بعد قتل عثمان رضي الله عنه بأربعة أشْهر وابن عامر بها يجرُّ الدّنيا، وقدِم يَعْلى بن أميّة معه بمال كثير، وزيادة على أربعمائة بَعير، فاجتمعوا في بَيْت عائشة رضي الله عنها فأرادوا الرّأي، فقالوا: نسيرُ إلى عليّ فنُقاتِله، فقال بعضُهم: ليس لكم طاقة بأهْل المدينة، ولكنّا نَسِيرُ حتى نَدْخل البصرة والكوفة، ولطلحة بالكوفة شيعَةٌ وهَوًى، وللزّبير بالبصرة هوًى ومعونـة. فاجتمع رأيُهم على أن يسيروا إلى البصرة وإلى الكوفة، فأعطاهم عبد الله بن عامر مالاً كثيراً وإبلا، فخرجوا في سبعمائة رَجُلٍ من أهل المدينة، ومكة، ولحِقَهم الناس حتى كانوا ثلاثةَ آلاف رَجُل، فبلغ عليًّا مسيرهم، فأمّر على المدينة سَهْل بن حُنَيْف الأنصاريّ، وخَرَجَ فسار حتى نزل ذَاقَارٍ، وكان مسيره إليها ثمان ليال، ومعه جماعةٌ من أهل المدينة.

حدّثني أحمد بن مَنْصور، قال: حدّثني يَحْيى بن مَعِين، قال: حدّثنا هِشام بن يوسف قاضي صَنْعاء، عن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزّبير، عن موسى بن عُقْبة، عن علقمة بن وقّاص الليثيّ، قال: لما خرج طَلْحةُ والزّبير وعائِشة رضي الله عنهم عرضوا الناس بذَات عِرْق، واستَصْغَروا عروة بن الزّبير وأبا بكر بن عبد الرّحمن بن الحارث بن هِشام فردُّوهما.

حدّثني عُمر بن شبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: أخبرنا أبو عمرو، عن عتبة بن المغيرة بن الأخنَس، قال: لقِيَ سعيد بن العاص مَرْوان بن الحكم وأصحابه بذاتِ عِرْق، فقال: أيْن تَذْهبون وثأركم على أعجاز الإبل! اقتلوهم ثمّ ارجعوا إلى مَنازلكم لا تقتلوا أنفسكم؛ قالوا: بل نسير فلَعلّنا نقتل قتلَةَ عثمان جميعاً. فخلا سعيدٌ بطلحة والزّبير، فقال: إنْ ظفِرْتُما لمن تَجْعلان الأمْر؟ أصْدِقاني؛ قالا: لأحَدِنا أيَّنا اختارَه الناس. قال: بل اجعلوه لوَلَد عُثمان فإنكم خَرَجْتم تَطْلبون بدَمِه، قالا: نَدَع شيوخَ المُهاجرين ونَجْعلُها لأبنائهم! قال: أفلا أراني أسْعى لأخرِجَها من بني عَبد مناف. فرجع ورجع عبدُ الله بن خالد بن أسِيد، فقال المغيرة بن شعبة: الرّأي ما رأى سعيد، مَن كان ها هنا من ثَقيف فلْيرجع؛ فرجع ومضى القومُ، معهم أبَان بن عثمان والوليد بن عثمان، فاختلفوا في الطريق فقالوا: من ندعو لهذا الأمْر؟ فخلا الزّبير بابنه عبد الله، وخلا طلحةُ بعَلْقمة بن وقّاص الليثيّ - وكان يُؤثِره على ولَده - فقال أحدهما: ائت الشام، وقال الآخر: ائت العِراق، وحَاوَرَ كلُّ واحد منهما صاحبَه ثم اتّفقا على البصرة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن قيس، عن الأغرّ، قال: لما اجتمع إلى مكّة بنو أميَّة ويَعْلَى بن مُنْية وطلحةُ والزّبير، ائتَمَرُوا أمْرَهم، وأجمَع ملؤهم على الطلب بدَمِ عُثمان وقِتال السبئيّة حتى يثأروا ويَنْتقموا؛ فأمَرَتهم عائشةُ رضي الله عنها بالخُروج إلى المدينة، واجتمَع القومُ على البصرة وردّوها عن رأيها، وقال لها طلحة والزّبير: إنا نأتي أرضاً قد أضيعت وصارت إلى عليّ، وقد أجبرنا عليّ على بَيْعته، وهم محتجّون علَيْنا بذلك وتاركو أمْرنا إلاّ أن تَخْرجي فتأمُري بمثل ما أمرت بمكة، ثم ترجعي. فنادى المنادِي: إن عائِشة تريد البصرة وليس في ستمائة بعير ما تُغْنون به غوغاء وجَلَبة الأعراب وعبيداً قد انتشروا وافتـرشوا أذرعهم مسعِدِين لأوّل واعية. وبعثَتْ إلى حَفْصة، فأرادت الخُروج، فعزم عليها ابن عمر فأقامَتْ؛ فخرجت عائِشةُ ومعها طلحةُ والزّبير، وأمّرَت على الصّلاة عبدَ الرحمن بن عتّاب بن أسيد، فكان يُصلِّي بهم في الطريق وبالبصرة حتى قُتِل، وخرج معها مروانُ وسائر بني أميّة إلاّ من خَشع، وتَيامنت عن أوطاس؛ وهم ستمائة

راكب سوى من كانت له مطيّة، فتركت الطّريق ليلةً وتيامنت عنها كأنهم سيّارة ونَجعة، مساحلين لم يَدْنُ من المنكدر ولا واسط ولا فلْج منهم أحَدٌ، حتّى أتوا البصرة في عام خصيب. وتمثّلت:

دَعى بلادَ جُموع الظُّلْم إذ صُلِحت فيها المياهُ وسيري سيْرَ مذْعورِ
تَخَيَّري النَّبْتَ فارْعيْ ثمَّ ظاهِرَةً وَبَطْنَ وَادٍ من الضِّمَّارِ مَمْطُورِ

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن عمر بن راشد اليماميّ، عن أبي كثير السُّحَيميّ، عن ابن عباس، قال: خرج أصحابُ الجمل في ستمائة، معهم عبد الرّحمن بن أبي بَكْرة وعبد الله بن صَفْوان الجُمَحِيّ، فلما جاوزا بِئْر مَيمون إذا هم بجَزُور قد نُحِرت ونَحْرُها ينثعب، فتطيّروا. وأذّن مَروانُ حين فصل من مكة ثمّ جاء حتى وقف عليهما، فقال: أيُّكما أسَلِّم بالإمرة وأؤذّن بالصّلاة؟ فقال عبد الله بن الزّبير: عَلَى أبي عبد الله، وقال محمد بن طلحة: على أبي محمد. فأرْسلَتْ عائشةُ رضي الله عنها إلى مروان فقالت: مَالَك؟ أتُريد أن تفرّق أمْرنا! لِيُصَلِّ ابنُ أخْتي، فكان يصلّي بهم عبد الله بن الزّبير حتى قدِم البصرة، فكان معاذ بن عبيد الله يقول: والله لو ظفرنا لافْتَتَنَّا ما خلّى الزبير بين طلحة والأمر، ولا خلّى طلحة بين الزّبير والأمر.

خروج عليّ إلى الرَّبَذَة يُريد البصرة

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سَيْف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، قال: جاء عليًّا الخبرُ عن طلحة والزّبير وأمّ المؤمنين، فأمّر على المدينة تمّام بن العباس، وبعث إلى مكّة قُثَم بن العباس، وخرج وهو يَرْجو أن يأخذهم بالطريق، وأراد أن يَعْتَرِضهم، فاستَبان له بالرَّبَذَة أن قد فَاتُوه، وجاءه بالخَبَر عطاءُ بن رئاب مولى الحارث بن حَزْن.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: بلغ عليًّا الخبرُ ـ وهو بالمدينة ـ باجْتماعهم على الخروج إلى البصرة وبالّذي اجتمع عليه ملؤهم؛ طلحةُ والزّبيرُ وعائشةُ ومَنْ تَبعهم، وبلغه قولُ عائشة، وخَرَجَ عليٌّ يبادِرُهم في تَعْبِيته التي كان تعبّى بها إلى الشام، وخرج معه من نشِط من الكوفيّين والبصريّين متخفِّفين في سبعمائة رجُل، وهو يرجو أن يُدْرِكَهم فيَحُول بينهم وبين الخروج، فلقيَه عبد الله بن سَلام فأخذ بعنانِه، وقال: يا أميرَ المؤمنين، لا تَخْرُج منها؛ فوالله لئن خرَجْتَ منها لا ترجع إليها ولا يعود إليها سُلطان المسلمين أبداً. فسبُّوه، فقال: دَعُوا الرّجل؛ فنعم الرّجل من أصحاب محمد ﷺ! وسار حتى انتهى إلى الرَّبَذَة فبلغه مَمَرُّهم، فأقام حين فَاتُوه يأتمر بالرَّبَذَة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سَيْف، عن خالد بن مِهران البَجَليّ، عن مرْوان بن عبد الرحمن الخُميسيّ، عن طارق بن شهاب، قال: خَرَجْنا من الكوفة معتمرين حين أتانا قَتْلُ عثمانَ رضي الله عنه، فلما انتهَيْنا إلى الرَّبَذَة ـ وذلك في وجه الصّبح ـ إذا الرّفاق وإذا بعضهم يحدو بعضاً، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: أمير المؤمنين، فقلتُ ما لَهُ؟ قالوا: غَلَبَهُ طلحة والزّبير، فخرج يعترض لهما ليردّهما، فبلغَهُ أنهما قد فاتاه، فهو يُريد أن يخرج في آثارهما، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون! آتي عليًّا فأقاتل معه هذين الرّجلين وأمَّ المؤمنين أو أخالفه! إنّ هذا لشديد. فخرجت فأتَيْتُه، فأقيمت الصّلاة بغَلَس، فتقدّم فصلّى، فلما انصرَف أتاه ابنُه الحسن فجلس فقال: قد أمَرتك فعصيتَني، فتقتل غداً بمَضِيعَة لا ناصر لك، فقال عليّ: إنك لا تزال تَخِنُّ خنين الجارية! وما الّذي أمرتَني فعصيتك؟ قال: أمَرْتُك يوم أُحيطَ بعثمان رضي الله عنه أن تَخْرج من المدينة فيُقْتل ولست بهَا، ثمّ

أمَرْتُك يوم قُتِل ألاّ تُبايع حتى يأتيَك وُفود أهل الأمصار والعَرب وَبَيْعةُ كلّ مصر، ثمّ أمرتك حين فَعل هذان الرّجلان ما فعلا أن تجْلس في بيتك حتى يَصْطلحوا، فإن كان الفساد كان على يديْ غَيْرك، فعصيْتَني في ذلك كله. قال: أيْ بُنيّ، أمّا قولُك: لو خرجتَ من المدينة حين أحيط بعُثمان؛ فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به. وأما قولُك: لا تُبايع حتى تأتيَ بَيْعةُ الأمصار، فإنّ الأمْر أمرُ أهل المدينة، وكَرِهْنا أن يضيع هذا الأمر. وأما قولُك حين خرج طلحةُ والزّبير، فإنّ ذلك كان وهْناً على أهل الإسلام، ووَاللهِ ما زلتُ مقهوراً مذ وليتُ، منقوصاً لا أصل إلى شيء مما ينبغي. وأما قولك: اجلسْ في بيتك، فكيف لي بما قد لَزمني! أوَ مَن تُريدني؟ أتريد أن أكون مثل الضبع التي يُحاط بها ويقال: دَبابِ دبابِ! ليست ها هنا حتى يحلّ عُرْقوباها ثم تُخرج؛ وإذا لم أنظرْ فيما لزمني من هذا الأمر ويعنيني فمن يَنْظر فيه! فكفّ عنك أي بُنيّ.

شراءُ الجمل لعائشة رضي الله عنها، وخبرُ كلاب الحوْأب

حدّثني إسماعيلُ بن موسى الفزاريّ، قال: أخْبرنا عليّ بن عابس الأزْرق، قال: حدّثنا أبو الخطّاب الهجَريّ، عن صَفْوان بن قبيصة الأحمسيّ، قال: حدّثني العُرَنيّ صاحب الجَمَل، قال: بينما أنا أسيرُ على جَمَل إذ عَرَض لي راكبٌ فقال: يا صاحبَ الجمل، تبيعُ جملَك؟ قلت: نعم، قال: بكم؟ قلتُ: بألْف درهم، قال: مجنون أنت! جَمَلٌ يُباع بألف درهم! قال: قلت: نعم، جملي هذا، قال: وممّ ذلك؟ قلت: ما طلبتُ عليه أحدا قَطُّ إلاّ أدركته، ولا طَلبني وأنا عليه أحدٌ إلا فُتّه. قال: لو تَعْلم لمن نُريده لأحْسَنْتَ بيعنا. قال: قلت: ولمن تريده؟ قال: لأمّك، قلتُ: لقد تركتُ أمي في بيتها قاعِدةً ما تريد بَراحا، قال: إنما أريدُه لأمّ المؤمنين عائشة، قلت: فهو لك، فخُذْه بغَيْر ثمن، قال: لا، ولكن ارجع معنا إلى الرّحل فَلنُعْطِك ناقةً مَهريَّة ونزيدُك دراهِمَ، قال: فرجعتُ فأعطوْني ناقةً لها مَهريّة، وزادوني أربعمائة أو ستمائة درهم، فقال لي: يا أخا عُرَيْنة، هل لك دَلالة بالطريق؟ قال: قلت: نعم، أنا من أدْرِك الناس، قال: فسِرْ معنا، فسِرْتُ معهم فلا أمرّ على واد ولا ماء إلاّ سألوني عنه؛ حتى طرقْنا ماء الحَوْأب فنبحتْنا كلابُها، قالوا: أيّ ماء هذا؟ قلتُ: ماء الحَوْأب، قال: فصرخت عائشةُ بأعْلَى صوتها، ثم ضربت عَضُد بعيرها فأناخَتْه، ثم قالت: أنا والله وصاحبةُ كلاب الحوْأب طرُوقاً، رُدُّوني! تقول ذلك ثلاثاً. فأناخَتْ وأناخوا حَوْلَها وهم على ذلك، وهي تأبى حتى كانت الساعة التي أناخوا فيها من الغَد. قال: فجاءها ابن الزّبير فقال: النّجاء النّجاء، فقد أدْرَكَكُم والله عليّ بن أبي طالب! قال: فارتَحلوا وشَتَموني، فانصرفْتُ، فما سِرْت إلاّ قليلاً وإذا أنا بعليّ ورَكْب معه نحو من ثلثمائة، فقال لي عليّ: يا أيُّهاالراكب! فأتَيْتهفقال: أين أتيت الظَّعينة؟ قلت: في مكان كذا وكذا، وهذه نَاقتها، وبعتُهم جَمَلي، قال: وقد رَكِبَتْه؟ قلت: نعم؛ وسِرْتُ معهم حتى أتينا ماء الحَوْأب فنبحَتْ عليها كلابها، فقالت كذا وكذا، فلما رأيتُ اختِلاط أمْرهم انفَتلْتُ وارتَحلوا؛ فقال عليّ: هل لك دلالة بذي قار؟ قلت: لَعليّ أدَلّ الناس، قال: فَسِر معنا؛ فسِرْنا حتى نزلنا ذا قار، فأمر عليّ بن أبي طالب بجُوالقين فضمّ أحدَهُما إلى صاحبه، ثم جيء برحْل فوضع عليهما، ثم جاء يمشي حتى صعد عليه، وسدَل رجليه من جانبٍ واحدٍ، ثمّ حمِد الله وأثنى عليه، وصلّى على محمّد ﷺ، ثم قال: قد رأيتم ما صنع هؤلاء القَوْمُ وهذه المرأة. فقام إليه الحسنُ فبكى، فقال له عليّ: قد جئتَ تحنُّ خنين الجارية! فقال: أجَلْ، أمرتُك فعصَيْتَني، فأنت اليوم تقتل بمضِيعة لا ناصِر لك، قال: حَدِّث القوم بما أمرتَني به، قال: أمرتُك حينَ سار الناس إلى عثمان ألاّ تبسط يدك ببَيْعة حتى تجول جائِلةُ العرب، فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك، فأبيتَ عَلَيَّ، وأمرتُك حين سارت هذه المرأة وصَنَع هؤلاء القَوْم ما صَنَعوا أن تلزم المدينةَ

وترسل إلى من استَجاب لك من شِيعتك، قال عليّ: صدق والله، ولكنْ والله يا بنيّ ما كنتُ لأكون كالضّبُع تستمع لِلّدْم، إنّ النبيّ ﷺ قُبض وما أرى أحداً أحقّ بهذا الأمر مني، فبايع الناس أبا بكر، فبايَعْتُ كما بايعوا، ثم إن أبا بكر رضي الله عنه هلك وما أرى أحداً أحقّ بهذا الأمر مني، فبايع الناس عُمَر بن الخطاب، فبايَعْتُ كما بايعوا، ثمّ إنّ عمر رضي الله عنه هلك وما أرى أحداً أحقّ بهذا الأمر منّي، فجعلني سهماً من ستّة أسهم، فبايع الناس عثمانَ فبايعتُ كما بايعوا، ثم سار الناس إلى عثمان رضي الله عنه فقَتلُوه، ثم أتوْني فبايعوني طائِعين غير مكرَهين، فأنا مُقاتِل مَن خالفني بمن اتّبعني حتى يحكم الله بيني وبينهم وهو خَيْر الحاكمين.

قَوْلُ عائشة رضي الله عنها: والله لأطلبنّ بدم عُثمان وخروجُها وطلحة والزّبير فيمن تبعهم إلى البصرة

كتب إليّ عليّ بن أحمد بن الحسن العجليّ أن الحسين بن نصر العطار، قال: حدّثنا أبي نصر بن مُزاحم العطار، قال: حدّثنا سيف بن عمر، عن محمد بن نُويرة وطلحة بن الأعلم الحنفيّ. قال: وحدّثنا عمر بن سعد، عن أسد بن عبد الله، عمّن أدرك من أهل العِلْم؛ أنّ عائشة رضي الله عنها لما انتَهتْ إلى سَرِف راجعة في طريقها إلى مكة، لقيها عبد بن أمّ كلاب ـ وهو عبد بن أبي سِلمة، ينسب إلى أمه ـ فقالت له: مَهْيم؟ قال: قتلوا عثمان رضي الله عنه، فمكثوا ثمانياً؛ قالت: ثم صنعوا ماذا؟ قال: أخَذَها أهل المدينة بالاجتماع، فجازت بهم الأمور إلى خَيْر مجاز؛ اجتمعوا على عليّ بن أبي طالب. فقالت: والله ليت أنّ هذه انطبقت على هذه إن تمّ الأمرُ لصاحبك! رُدّوني ردّوني، فانصرَفَتْ إلى مكّة وهي تقول: قُتِل والله عُثمان مظلوماً، والله لأطلبنّ بدَمِه، فقال: لها ابن أمّ كلاب: ولِمَ؟ فوالله إنّ أول من أمالَ حرفه لأنت! ولقد كُنْتِ تقولين: اقتلوا نعْثلا فقد كفر؛ قالت: إنهم استَتابوه ثم قَتَلُوه، وقد قلت وقالوا: وقولي الأخير خيرٌ من قولي الأوّل؛ فقال لها ابن أمّ كلاب:

فَمِنكِ البداءُ ومِنكِ الغِيَرْ ... ومِنكِ الرِّياحُ ومنكِ المَطَرْ
وأنْتِ أمَرْتِ بقَتْلِ الإمام ... وقُلْتِ لنا إنّه قد كَفَرْ
فَهَبْنا أطَعناكِ في قَتْلِه ... وقاتِلُهُ عِندنا مَن أمَرْ
ولَمْ يَسْقطِ السّقْفُ مِن فَوْقِنا ... ولَمْ تَنْكَسِفْ شَمْسنا والقَمَرْ
وقَدْ بايَعَ النَّاسُ ذا تُدْرَإٍ ... يُزيلُ الشَّبا ويُقيمُ الصَّعَرْ
وَيَلْبَسُ لِلْحَرْبِ أثْوابَها ... وما مَنْ وَفى مِثْلُ مَنْ قد غَدَرْ

فانصرفت إلى مكة فنزلت على باب المسجد فقصدت للحِجْر، فستّرت واجتمع إليها الناس، فقالت: يا أيُّها الناس، إنّ عثمان قُتِل مظلوماً، ووالله لأطلبنّ بدَمِه.

كتب إليّ السريّ عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: كان عليٌّ في همّ مَنْ توجه القوم لا يدري إلى أين يأخذون! وكان أن يأتوا البصرَة أحبَّ إليه. فلما تيقّن أنّ القوم يعارِضون طريقَ البصرة سُرّ بذلك، وقال: الكوفة فيها رجالُ العرب وبُيوتاتهم، فقال له ابن عباس: إنّ الذي يسرّك من ذلك ليسوؤني، إنّ الكوفة فُسْطاطٌ فيه أعلام من أعلام العرب، ولا يحملهم عِدّة القوم، ولا يزال فيهم من يسمو إلى أمرٍ لا ينالُه؛ فإذا كان كذلك شغب عليّ الذي قد نال حتى يفْثأه فيفسد بعضهم على بعض. فقال عليّ: إن الأمر ليشبه ما

تقول، ولكنّ الأُثْرة لأهْل الطاعة وأَلْحَقُ بأحسنهم سابقةً وقُدْمة، فإن استووا أعفَيْناهم واجتبرناهم، فإن أَقْنَعهم ذلك كان خيراً لهم، وإن لم يقنعهم كلّفونا إقامتهم وكان شرًّا على من هو شرّ له. فقال ابن عباس: إن ذلك لأمرٌ لا يدرَك إلاّ بالقنوع.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: لّما اجتمع الرّأي من طلحة والزّبير وأمّ المؤمنين ومَن بمكة من المسلمين على السّير إلى البصرة والانتصار من قَتَلة عثمان رضي الله عنه، خرج الزّبير وطلحة حتى لقيا ابن عمر ودعَوَاه إلى الخفُوف، فقال: إني امرؤٌ من أهل المدينة، فإن يجتمعوا على النهوض أنهض، وإن يجتمعوا على القُعود أقعد، فتركاه ورجعا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سَيْف، عن سعيد بن عبد الله، عن ابن أبي مُلَيكة، قال: جمع الزّبير بَنيه حين أراد الرّحيل، فودّع بعضَهم وأخرج بَعْضَهم، وأخرج ابنَيْ أسْماء جميعاً، فقال: يا فلان أقِمْ، يا عمرو أقم. فلما رأى ذلك عبد الله بن الزّبير، قال: يا عُرْوة أقم، ويا مُنْذر أقِمْ، فقال الزّبير: وَيْحك! أستصحب ابنيّ وأستمتع منهما، فقال: إن خرجتَ بهم جميعاً فاخرجْ، وإن خلّفت منهم أحداً فخلّفهما ولا تُعرّض أسماء للثُّكْل من بين نسائِك. فبكَى وتركَهُما، حتى إذا انتهوا إلى جِبال أوطاس تيامَنُوا وسلَكوا طريقاً نحو البصرة، وتركوا طريقها يساراً، حتى إذا دَنَوْا منها فدخلوها ركبوا المنكدِر.

كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سَيْف، عن ابن الشَّهيد، عن ابن أبي مُلَيكة، قال: خرجَ الزّبير وطلحة ففصَلا، ثمّ خرجَتْ عائشةُ فتبِعها أمّهاتُ المؤمنين إلى ذات عِرْق، فلم يُرَ يومٌ كان أكثر باكياً على الإسلام أو باكياً له من ذلك اليوم، كان يُسَمىّ النَّحيب. وأمَّرتْ عبدَ الرحمن بن عتّاب، فكان يصلّي بالناس، وكان عَدْلا بينهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن عبد الله، عن يزيد بن معن السُّلميّ، قال: لما تيامَنَ عسكرها عن أوطاس أتَوْا على مَليح بن عوف السّلميّ، وهو مطلع ما له، فسلّم على الزبير، وقال: يا أبا عبد الله، ما هذا؟ قال: عُدِيَ على أمير المؤمنين رضي الله عنه فقُتل بلا ترةٍ ولا عذر، قال: ومَن؟ قال: الغوغاءُ من الأمصار ونزّاع القبائل، وظاهَرَهم الأعراب والعبيد، قال: فتُريدون ماذا؟ قال: نُنْهض الناس فيدرَك بهذا الدّم لئلاّ يُبْطل، فإن في إبطاله توهينَ سُلطان الله بَيْننا أبداً؛ إذا لم يُفطَم الناس عن أمثالها لم يبق إمامٌ إلاّ قتله هذا الضّرب، قال: والله إنّ تَرْك هذا لَشديد، ولا تدرون إلى أين ذلك يسير! فودَّع كلّ واحد منهما صاحبَه، وافترقا ومضَى الناس.

دخولهم البصرة والحربُ بينهم وبين عثمان بن حُنَيف

كتب إليّ السريّ عن شُعيب، عن سيف، عن محمد وَطلحة، قالا: ومضى الناس حتى إذا عاجوا عن الطريق وكانوا بفناء البصرة، لقيَهم عُمَير بن عبد الله التميميّ، فقال: يا أمّ المؤمنين، أنشدك بالله أن تقدَمي اليوم على قوم تُراسلي منهم أحداً فيكفيَكهم! فقالت: جئتَني بالرأي، امرؤٌ صالح، قال: فعجّلي ابن عامر فليدخل، فإنّ له صنائع فَلْيذهب إلى صنائعه فليْلقُوا الناس حتى تقدمي ويسمعوا ما جئتم فيه. فأرسَلَتْه فاندَسَّ إلى البصرة، فأتَى القومَ. وكتبَتْ عائشة رضي الله عنها إلى رجال من أهل البصرة، وكتبت إلى الأحنف بن قَيْس وصَبْرة بن شَيْمان وأمثالهم من الوُجوه؛ ومضت حتى إذا كانت بالحُفَيْر انتظرت الجوابَ بالخبر؛ ولما بلغ ذلك

أهلَ البصرة دعا عثمان بن حُنَيف عمران بن حُصَيْن ـ وكان رجلَ عامّة ـ وألزَّه بأبي الأسود الدؤليّ ـ وكان رجل خاصّة ـ فقال: انطلِقا إلى هذه المرأة فاعْلَما علمَها وعلم من معها، فخرجا فانتهيا إليها وإلى الناس وهم بالحُفَير، فاستأذَنا فأذنتْ لهما، فسلّما وقالا: إنّ أميرَنا بعثنا إليكِ نسألك عن مَسيرك، فهل أنت مخبرتنا؟ فقالت: والله ما مثلي يَسير بالأمْر المكتوم ولا يغطّي لبنيه الخبر. إنّ الغوغاء من أهل الأمصار ونزّاع القبائل غزوْا حَرَم رسول الله ﷺ وأحدَثوا فيه الأحْداث، وآوَوْا فيه المحدِثين، واستوجبوا فيه لَعْنة الله ولعنة رسوله، مع ما نالوا من قَتْل إمام المسلمين بلا تِرَة ولا عُذر، فاستحلّوا الدَّمَ الحرام فسفكوه، وانتهبوا المالَ الحرام، وأحلّوا البلدَ الحرام، والشهر الحرام، ومَزّقوا الأعْراض والجلُود، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقَامهم ضارِّين مضِرّين، غير نافعِين ولا متّقين؛ لا يقدرون على امتناع ولا يأمَنون، فخرجْتُ في المسلمين أعْلمِهم ما أتى هؤلاء القَوْمُ وما فيه الناس وراءنَا، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا. وقرأتْ: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾(١). ننهض في الإصلاح ممن أمر الله عزّ وجلّ وأمر رسول الله ﷺ؛ الصغير والكبير والذّكر والأنثى، فهذا شأننا إلى معروفٍ نأمُركم به؛ ونحضّكم عليه، ومنكر نَنْهاكم عنه، ونحثّكم على تغييره.

كتب إليّ السريّ عن شُعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: فخرج أبو الأسود وعمران من عندها فأتيا طَلْحة فقالا: ما أقْدَمَك؟ قال: الطلب بدم عُثمان، قالا: ألم تُبَايعْ عليًّا؟ قال: بلى، واللُّجُّ على عنقي، وما استقيل عليًّا إن هو لم يُخْل بيننا وبين قَتَلَة عثمان، ثمَّ أتيا الزّبير فقالا: ما أقدمك؟ قال: الطلب بدَم عثمان، قالا: ألم تُبايعْ عليًّا؟ قال. بلى، واللجّ على عُنقي، وما استقيل عليًّا إن هو لم يخل بيننا وبين قَتلَة عثمان. فرجعَا إلى أمّ المؤمنين فودّعاها فودّعت عمران، وقالت: يا أبا الأسود إيَّاك أن يقودَك الهوى إلى النار، ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ . . . ﴾(٢) الآية. فسَرَّحتْهما، ونادى مُناديها بالرّحيل، ومضى الرجلان حتى دَخلا على عثمان بن حُنَيْف، فبدر أبو الأسود عمران فقال:

يَا ابْنَ حُنَيْفٍ قد أتيتَ فانْفِرِ وطاعِنِ القَوْمَ وجالِدْ واصْبِرِ
وابْرُزْ لَهمْ مُسْتَلئماً وشَمِّرِ

فقال عثمان: إنا لله وإنا إليه راجعون! دارت رَحا الإسلام وربِّ الكعبة؛ فانظروا بأيّ زَيَفان تزيف! فقال عمران: إي والله لتعْرُكنّكم عركاً طويلاً ثم لا يساوي ما بقيَ منكم كثير شيء؛ قال: فأشرْ عَليَّ يا عمران، قال: إني قاعد فاقعد، فقال عثمان: بل أمنعُهم حتى يأتيَ أمير المؤمنين عليّ، قال عمران: بل يحكم الله ما يريد، فانصرف إلى بيته، وقام عثمان في أمْره، فأتاه هِشام بن عامر فقال: يا عثمان، إنّ هذا الأمر الذي تروم يُسلم إلى شرٍّ مما تكره، إنّ هذا فَتْقٌ لا يُرتَق، وصَدْع لا يُجبر، فسامِحهم حتى يأتيَ أمرُ عليّ ولاتحادَّهم، فأبَى ونادى عثمان في الناس وأمرَهم بالتَّهيُّؤ، ولبسوا السِّلاح، واجتمعوا إلى المسجد الجامع، وأقبلَ عُثمان على الكَيْد فكاد الناسَ لينظر ما عندهم، وأمرهم بالتهيُّؤ، وأمر رجلاً ودسَّه إلى الناس خَدِعاً كوفيّاً قيسيّاً، فقام فقال: يا أيُّها الناس، أنا قيس بن العَقَديّة الحُمَيْسيّ، إنّ هؤلاء القوم الذين جاؤوكم إن كانوا جاؤوكم خائفين فقد جاؤوا من

(١) سورة النساء: ١١٤.

(٢) سورة النساء: ١٣٥.

المكان الذي يأمَن فيه الطير، وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدَم عثمان رضي الله عنه فما نحن بقَتَلَة عثمان. أطيعوني في هؤلاء القَوْم فردّوهم من حيث جاؤوا. فقام الأسود بن سريع السعديّ، فقال: أوَزعموا أنّا قتلة عثمان رضي الله عنه! فإنما فزعوا إلينا يَسْتعينون بنا على قَتَلة عثمان منا ومن غيرنا، فإن كان القوم أخرجوا من ديارهم كما زعمت، فمن يمنعهم من إخراجهم الرجال أو البُلْدان! فحصبه الناس، فعرف عثمان أنّ لهم بالبصرة ناصراً ممن يقوم معهم، فكسره ذلك. وأقبلت عائشة رضي الله عنها فيمن مَعَها، حتى إذا انتهوا إلى المِرْبد ودخلوا من أعْلاه أمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان فيمن معه، وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يخرج إليها ويكونُ معَها، فاجتمعوا بالمِرْبد وجعلوا يثوبون حتى غصَّ بالناس.

فتكلّم طلحةُ وهو في ميمنة المربد ومعه الزّبير وعثمان في ميسرته، فأنصتوا له، فحمِد الله وأثنى عليه، وذكر عثمان رضي الله عنه وفضْله والبلدَ وما استحلّ منه، وعظّم ما أتيَ إليه، ودعا إلى الطلب بدَمه، وقال: إنّ في ذلك إعزازَ دين الله عزّ وجلّ وسلطانه، وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فإنه حدٌّ من حُدود الله، وإنّكم إن فعلتم أصبتم وعادَ أمركم إليكم، وإن تَرَكْتُم لم يقُم لكم سلطانٌ، ولم يكن لكم نظام.

فتكلم الزّبير بمثل ذلك. فقال مَن في ميمنة المِرْبد: صَدَقا وبرّا، وقالا الحق، وأمرَا بالحقّ. وقال مَن في ميسرته: فَجَرا وغَدَرا، وقالا الباطل، وأمرا به، قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان! وتحاثى الناس وتحاصَبُوا وأرهجوا. فتكلّمت عائشةُ ـ وكانت جهوريّة يعلو صوتها كثرة كأنّه صوت امرأة جليلة ـ فحمِدت الله جلّ وعزّ وأثنت عليه، وقالت: كان الناس يتجنّوْن على عثمان رضي الله عنه ويُزْرُون على عمّاله ويأتوننا بالمدينة فيَسْتَشيرونَنا فيما يخبروننا عنهم، ويرون حسناً من كلامنا في صلاح بينهم، فننظر في ذلك فنَجده بريّاً تقيّاً وفيّاً ونجدهم فجرَةً كذَبَةً يحاولون غير ما يظهرون. فلما قوُوا على المُكاثرة كاثروه فاقتحموا عليه دارَه، واستحلوا الدّمَ الحرامَ، والمال الحرامَ، والبلد الحرامَ، بلا تِرةٍ ولا عُذْر، ألا إن مما ينبغي لا ينبغي لكم غيره، أخْذ قتلة عثمان رضي الله عنه وإقامة كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ (١).

فافترق أصحابُ عثمان بن حنيف فِرْقَتَيْن، فقالت فرقة: صَدَقَتْ والله وبرَّت؛ وجاءت والله بالمعروف؛ وقال الآخرون: كذبتم والله ما نعرف ما تقولون، فتحاثَوْا وتحاصَبوا وأرْهجوا، فلما رأت ذلك عائشةُ انحدرت وانحدر أهل المَيْمَنة مفارقين لعثمان حتى وقفوا في المِرْبد في موضع الدّباغين، وبقيَ أصحابُ عثمان على حالهم يتدافَعون حتى تحاجزوا، ومال بعضُهم إلى عائشة، وبقي بعضُهم مع عثمان على فم السكة. وأتى عثمانُ بن حُنَيف فيمن معه، حتى إذا كانوا على فَم السكة، سكة المسجد عن يمين الدّباغين استقبلوا الناس فأخذوا عليهم بفمها.

وفيما ذكر نَصْر بن مُزاحم، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، قال: وأقبل جارية بن قُدامة السّعديّ، فقال: يا أمّ المؤمنين؛ والله لَقتلُ عثمان بن عفان أهونُ من خُروجك من بيتكِ على هذا الجَمل الملعون عُرْضةً للسلاح! إنه قد كان لك من الله سِتْرٌ وحرمة، فهتكْتِ سِترَك وأبحتِ حُرْمَتك، إنه مَن رأى قتالك فإنه يرى قَتْلَكِ، وإن كنتِ أتَيْتِنا طائعةً فارجعي إلى منزلك، وإن كنت أتيتِنا مستكرهةً فاستعيني

---

(١) سورة آل عمران: ٢٣.

بالناس. قال: فخرج غلامٌ شابٌ من بني سعد إلى طلحة والزّبير، فقال: أمّا أنت يا زُبير فحواريُّ رسول الله ﷺ، وأمّا أنت يا طلحة فوقّيْت رسول الله ﷺ بيدك، وأرى أمّكما معكما فهل جئتما بنسائكما؟ قالا: لا، قال: فما أنا منكما في شيء، واعتزل. وقال السعديّ في ذلك:

صُنْتُمْ حلائلَكُمْ وقُدْتُمْ أمّكُمْ ... هذا لَعَمْرُكَ قِلَّةُ الإنْصافِ
أُمِرَتْ بجَرِّ ذيولها في بيتها ... فَهَوَتْ تشُقُّ البيدَ بالإيجاف
غَرَضاً يُقاتِلُ دونَها أبناؤها ... بالنَّبْلِ والخَطِّيِّ والأسياف
هُتِكَتْ بطلحةَ والزُّبيْرِ سُتورُها ... هذا المُخَبِّرُ عنهمُ والكافي

وأقبل غلامٌ من جُهينة على محمد بن طلحة ـ وكان محمد رجلاً عابداً ـ فقال: أخبرني عن قَتَلة عثمان! فقال: نعم، دمُ عثمان ثلاثة أثلاث، ثلثٌ على صاحِبة الهوْدَج ـ يعني عائشة ـ وثلثٌ على صاحب الجمل الأحمر ـ يعني طلحة ـ وثلثٌ على عليّ بن أبي طالب وضحك الغلام وقال: ألا أراني على ضلال! ولحق بعليّ، وقال في ذلك شعراً:

سَأَلْتُ ابْنَ طَلْحَةَ عنْ هالِكٍ ... بجَوْفِ المَدينَةِ لَمْ يُقْبَرِ
فقالَ ثلاثَةُ رَهْطٍ هُمُ ... أماتوا ابنَ عفَّانَ واسْتُعْبِر
فثُلْثٌ على تِلْكَ في خِدْرِها ... وثُلْثٌ على راكِبِ الأحْمَرِ
وثُلْثٌ على ابْنِ أبي طالِبٍ ... ونَحْنُ بدَوِّيَّةٍ قَرْقَرِ
فقلْتُ صَدَقْتَ على الأوَّلَيْنِ ... وأخْطَأْتَ في الثَّالِثِ الأزْهرِ

رجع الحديث إلى حديث سيف عن محمد وطلحة. قال: فخرج أبو الأسود وعمران وأقبلَ حُكَيْم بن جَبَلة؛ وقد خرج وهو على الخيل، فأنشب القتال، وأشرع أصحابُ عائشة رضي الله عنها رماحَهم وأمسكوا ليُمسكوا فلم يَنْتَهِ ولم يُثنَ، فقاتلهم وأصحاب عائشة كافّون إلاّ ما دَافَعُوا عن أنفسهم، وحُكَيْم يذمُر خيله ويركبهم بها، ويقول: إنها قريش ليُرْدِيَنَّها جُبْنُها والطَّيش، واقتتلوا على فم السكة، وأشرفَ أهل الدور ممن كان له في واحد من الفريقين هوىً، فرموا باقي الآخرين بالحجارة، وأمرت عائشةُ أصحابها فتيامنوا حتى انتهوْا إلى مقبرة بني مازن، فوقفوا بها مليّاً، وثار إليهم الناس، فحجز الليل بينهم. فرجع عثمان إلى القصر، ورجع الناس إلى قبائلهم، وجاء أبو الجَرْباء؛ أحدُ بني عثمان بن مالك بن عمرو بن تميم إلى عائشة وطلحة والزّبير، فأشار عليهم بأمثل من مكانهم فاستنصحوه وتابعوا رَأْيَه، فساروا من مقبرة بني مازن فأخذوا على مُسَنّاة البصرة من قبَل الجبَّانة حتى انتهوْا إلى الزّابوقة، ثم أتوا مقبرة بني حِصْن وهي متنحية إلى دار الرِّزق، فباتوا يتأهّبون، وبات الناس يسيرون إليهم، وأصبحوا وهم على رِجْل في ساحةِ دار الرّق، وأصبح عُثمان بن حُنَيف فغاداهم، وغدا حُكَيْم بن جَبَلة وهو يُبَربر وفي يده الرّمح، فقال له رجل من عبد القيس: مَن هذا الذي تسبّ وتقول له ما أسمع؟ قال: عائشة، قال: يابن الخبيثة، ألأمّ المؤمنين تقول هذا! فوضع حُكَيم السِّنان بين ثدييه فقتله. ثمّ مرّ بامرأة وهو يسبُّها ـ يعني عائشة ـ فقالت: مَنْ هذا الذي ألجأك إلى هذا؟ قال: عائشة، قالت: يابن الخبيثة، ألأمّ المؤمنين تقول هذا! فطعنها بين ثدييها فقتلها، ثمّ سار، فلما اجتمعوا واقفوهم، فاقتتلوا بدار الرّزق قتالاً شديداً من حين بزغت الشمس إلى أن زال النهار وقد كثر القَتْلى في أصحاب ابن حُنَيف وفشت الجراحة في الفريقين،

ومنادي عائشة يُناشدهم ويدعوهم إلى الكفّ فيأبوْن، حتى إذا مسّهم الشرّ وعضّهم نادوْا أصحابَ عائشة إلى الصّلح والمَتَات. فأجابوهم وتواعدوا، وكتبوا بينهم كتاباً على أن يبعثوا رسولاً إلى المدينة؛ وحتى يرجع الرّسول من المدينة، فإن كانا أكْرِها خرج عثمان عنهما وأخلى لهما البصرة، وإن لم يكونا أكْرِها خرج طلحة والزّبير:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما اصطلح عليه طلحة والزّبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين، وعثمان بن حُنَيف ومَنْ معه من المؤمنين والمسلمين. إنّ عثمان يقيم حيث أدركه الصّلْح على ما في يده، وإنّ طلحة والزّبير يُقيمان حيث أدركهما الصّلح على ما في أيديهما، حتى يرجع أمينُ الفريقين ورسولُهم كعب بن سُور من المدينة. ولا يضارّ واحدٌ من الفريقين الآخرَ في مسجد ولا سوق ولا طريق ولا فُرْضة، بينهم عيْبة مفتوحة حتى يرجع كعب بالخبر؛ فإن رجع بأنّ القوم أكرهوا طلحةَ والزّبير فالأمر أمرُهما، وإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بطِيَّته، وإن شاء دخل معهما؛ وإن رجع بأنّهما لم يكرَها فالأمرُ أمر عثمان، فإن شاء طلحة والزّبير أقاما على طاعة عليّ وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بطِيّتهما؛ والمؤمنون أعوانُ الفالح منهما.

فخرَجَ كعبٌ حتى يقدم المدينةَ، فاجتمع الناس لقدومه، وكان قدومه يوم جمعة، فقام كعب فقال: يا أهلَ المدينة، إني رسول أهل البصرة إليكم؛ أأكرَهَ هؤلاء القومُ هذين الرّجلين على بيعة عليّ، أم أتياها طائعين؟ فلم يجبْه أحدٌ من القوم إلّا ما كان من أسامة بن زَيْد، فإنه قام فقال: اللهم إنهما لم يُبايعا إلّا وهما كارِهان. فأمر به تمّام، فواثبه سهل بن حُنَيف والناس، وثار صُهيب بن سِنان وأبو أيّوب بن زيد، في عدّة من أصحاب رسول الله ﷺ، فيهم محمد بن مسلمة، حين خافوا أن يُقتَل أسامة، فقال: اللهم نعم؛ فانفرِجُوا عن الرّجل؛ فانفرجوا عنه، وأخذ صهيب بيده حتى أخرجه فأدخله منزلَه، وقال: قد علمت أن أمّ عامر حامِقة، أما وسَعك ما وسعنا من السكوت! قال: لَا والله، ما كنت أرى أن الأمر يترامى إلى ما رأيت، وقد أبسَلْنَا لِعظيم. فرجع كعبٌ وقد اعتدّ طلحة والزّبير فيما بين ذلك بأشياء كلها كانت مما يعتدّ به، منها أنّ محمد بن طلحة ـ وكان صاحب صلاة ـ قام مقاماً قريباً من عثمان بن حُنَيْف، فخشي بعضُ الزُّطّ والسيابجة أن يكون جاء لغير ما جاء له، فنحَّياه، فبعثا إلى عثمان، هذه واحدَة. وبلغ عليّا الخبرُ الذي كان بالمدينة من ذلك، فبادر بالكتاب إلى عُثمان يعجّزه ويقول: والله ما أكْرِها إلا كَرْهاً على فرقة، ولقد أكْرِها على جماعة وفضل، فإن كانا يُريدان الخلع فلا عذرَ لهما، وإن كانا يُريدان غير ذلك نَظَرْنا ونظرا. فقدِم الكتابُ على عثمان بن حُنيف، وقدم كعبٌ فأرسلوا إلى عثمان أن اخرج عنا، فاحتجّ عثمان بالكِتاب وقال: هذا أمرٌ آخر غير ما كنا فيه؛ فجمع طلحة والزّبير الرّجالَ في ليلة مظلمة باردة ذات رياح وندىً، ثمّ قصدا المسجدَ فوافقا صلاةَ العشاء ـ وكانوا يؤخرونها ـ فأبطأ عثمانُ بن حُنيف فقدّما عبد الرحمن بن عتاب، فشهر الزُّطُّ والسيابجة السلاح ثم وضعوه فيهم، فأقبلوا عليهم فاقتتلوا في المسجد وصبروا لهم، فأناموهم وهم أربعون، وأدخلوا الرّجال على عُثمان ليُخرجوه إليهما، فلما وصل إليهما توطّؤوه وما بقيت في وجهه شعرة، فاستعظما ذلك، وأرسلا إلى عائشة بالذي كان، واستطلعا رأيها، فأرسلت إليهما أن خلّوا سبيلَه فليذهب حيث شاءَ ولا تحبسوه، فأخرجوا الحرَس الذين كانوا مع عثمان في القصر ودخلوه، وقد كانوا يعتقبون حرسَ عثمان في كلّ يوم وفي كلّ ليلة أربعون، فصلّى عبد الرحمن بن عتاب بالناس العشاءَ والفجرَ، وكان الرّسول فيما بين عائشة وطلحة والزّبير هو، أتاهـا بالخبـر، وهو رجـع إليهما بالجواب، فكان رسول القوم.

حدّثنا عمر بن شبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن عن أبي مِخنف، عن يوسف بن يزيد، عن سهل بن سعد، قال: لما أخذوا عُثمان بن حُنيف أرسلوا أبانَ بن عثمان إلى عائشة يستشيرونها في أمره، قالت: اقتلوه، فقالت لها امرأة: نشدتُك بالله يا أمّ المؤمنين في عُثمان وصحبته لرسول الله ﷺ! قالت: ردّوا أباناً، فردّوه، فقالت: احبسوه ولا تقتلوه، قال: لو علمتُ أنّك تدعينني لهذا لم أرجع، فقال لهم مجاشع بن مسعود: اضربوه وانتِفوا شعرَ لحيته، فضربوه أربعينَ سوطاً، ونتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه وحبسوه.

حدّثني أحمد بن زُهير، قال: حدّثنا أبي، قال: حدّثني وهب بن جرير بن حازم، قال: سمعتُ يونس بن يزيد الأيْليّ، عن الزهريّ، قال: بلغني أنه لما بلغ طلحة والزّبير منزل عليّ بذي قار انصرفوا إلى البصرة، فأخذوا على المُنْكَدِر، فسمِعَتْ عائشة رضي الله عنها نُباح الكلاب، فقالت: أيّ ماء هذا؟ فقالوا: الحَوْأب، فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون! إني لهِيَهْ، قد سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ وعنده نساؤه: « ليتَ شِعْري أيّتكنّ تنبحها كلاب الحَوْأب! ». فأرادت الرّجوعَ، فأتاها عبد الله بن الزّبير فزعم أنه قال: كَذَب من قال إنّ هذا الحوأب. ولم يزل حتى مضت، فقدِموا البصرة وعليها عثمان بن حُنيف، فقال لهم عثمان: ما نقَمتم على صاحبكم؟ فقالوا: لم نرَه أوْلى بها منّا، وقد صنع ما صنع، قال: فإنّ الرجل أمّرني فأكتب إليه فأعلمه ما جئتم له، على أن أصلّي بالناس حتى يأتيَنا كتابُه، فوقفُوا عليه وكتب، فلم يلبث إلاّ يومين حتى وثبوا عليه فقاتلوه بالزّابوقة عند مدينة الرّزق، فظهروا، وأخذوا عثمان فأرادوا قَتْله، ثم خشُوا غضب الأنصار، فنالوه في شعره وجَسده. فقام طلحةُ والزّبير خطيبين فقالا: يا أهل البصرة، توبة بحوْبة، إنما أردنا أن يستعتب أميرُ المؤمنين عثمانَ ولم نرد قتله، فغلب سُفهاء الناس الحلماءَ حتى قتلوه. فقال الناس لطلحة: يا أبا محمد، قد كانت كُتبك تأتينا بغير هذا، فقال الزبير: فهل جاءكم مني كتاب في شأنه؟ ثمّ ذكر قتلَ عثمان رضي الله عنه وما أتى إليه، وأظهر عيب عليّ. فقام إليه رجلٌ من عبد القيس فقال: أيّها الرّجل، أنصت حتى نتكلّم، فقال عبد الله بن الزبير: ومَالك وللكلام! فقال العبديّ: يا معشر المهاجرين، أنتم أوّل من أجاب رسولَ الله ﷺ، فكان لكم بذلك فضل، ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم، فلما توفّيَ رسول الله ﷺ بايعتم رجلاً منكم، والله ما استأمرتمونا في شيء من ذلك فرضينا واتّبعناكم، فجعل الله عزّ وجلّ للمسلمين في إمارته بركة، ثمّ مات رضي الله عنه واستخلف عليكم رجلاً منكم، فلم تشاورونا في ذلك، فرضينا وسلّمنا، فلمّا تُوُفّيَ الأمير جعل الأمر إلى ستّة نفر، فاخترتم عثمان وبايعتموه عن غير مشورة منا، ثمّ أنكرتم من ذلك الرّجل شيئاً، فقتلتموه عن غير مشورة منا، ثمّ بايعتم عليّاً عن غير مشورة منا، فما الذي نقَمتم عليه فنقاتله؟ هل استأثر بفيء، أو عمل بغير الحقّ؟ أو عمل شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه! وإلاّ فما هذا! فهمُّوا بقتل ذلك الرّجل، فقام من دونه عشيرتُه؛ فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى مَن كان معه، فقتلوا سبعين رجلاً.

رجع الحديث إلى حديث سيف، عن محمد وطلحة. قالا: فأصبح طلحة والزّبير وبيتُ المال والحرسُ في أيديهما، والناس معهما، ومن لم يكن معهما مغمور مستسرّ، وبعثا حين أصبَحا بأن حُكَيماً في الجمع، فبعثت: لا تحبسا عثمان وَدَعاه. ففعلا، فخرج عثمان فمضى لطلبته، وأصبح حُكَيم بن جَبَلة في خيله على رجل فيمن تبعه من عبد القيس ومَنْ نزع إليهم من أفناء ربيعة، ثمّ وجّهوا نحو دار الرّزق وهو يقولُ: لستُ بأخيه إن لم أنصره، وجعل يشتم عائشة رضي الله عنها، فسمعته امرأةٌ من قومه فقالت: يابنَ الخبيثة، أنت أوْلى بذلك! فطعنها فقتلَها، فغضبت عبد القيس إلاّ من كان اغتُمِر منهم، فقالوا: فعلتَ بالأمس وعُدتَ لمثل ذلك اليوم! والله

لندعنّك حتى يقُيدك الله . فرجعوا وتركوه ، ومضى حُكيم بن جَبَلة فيمن غزا معه عثمان بن عفان وحصره من نزّاع القبائل كلها ، وعرفوا أن لا مقام لهم بالبصرة ، فاجتمعوا إليه ، فانتهى بهم إلى الزّابوقة عند دار الرّزق ، وقالت عائشة : لا تقتلوا إلّا من قاتلكم ، ونادوا من لم يكن من قَتَلة عثمان رضي الله عنه فليكفف عنا ، فإنا لا نريد إلا قتلة عثمان ولا نبدأ أحداً ، فأنشب حُكَيمُ القتال ولم يُرَعْ للمنادى ، فقال طلحة والزّبير: الحمد لله الذي جمع لنا ثأرنا من أهل البصرة ، اللهمّ لا تُبْقِ منهم أحداً ، وأقِدْ منهم اليوم فاقتلهم . فجادّوهم القتالَ فاقتتلوا أشدّ قتال ومعه أربعةُ قوّاد ، فكان حُكَيم بحيال طلحة ، وذَرِيح بحيال الزّبير، وابن المحرِّش بحيال عبد الرحمن بن عتّاب ، وحُرْقوص بن زُهير بحيال عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فزحف طلحةلحكيم وهو في ثلثمائة رجُل ، وجعل حُكيم يضرب بالسيف ويقول :

أضْـرِبُهُـمْ بـالـيـابِس ضَـرْبَ غُـلامٍ عـابِس
مـن الحـيـاةِ آيِس في الـغُـرفـات نـافِس

فضرب رجل رِجْله فقطعها ، فحبا حتى أخذها فرمى بها صاحبه ، فأصاب جسده فصرَعه ، فأتاه حتى قتله ، ثم اتّكأ عليه وقال :

يـا فـخْـذِ لـن تـراعـي إنَّ مَـعـي ذراعـي
أحْمـي بهـا كُـراعـي

وقال وهو يرتجز :

لـيس عـليَّ أنْ أمُـوتَ عـارُ والعـارُ في الـنـاس هـو الـفِـرارُ
والمَـجْـدُ لا يَـفْـضَـحُـهُ الـدَّمـارُ

فأتى عليه رجلٌ وهو رثيث ، رأسه على الآخر ، فقال : مَالَك يا حُكيم؟ قال : قُتلتُ ، قال : مَن قتلك؟ قال : وِسادتي ؛ فاحتمله فضمّه في سبعين من أصحابه ، فتكلم يومئذ حُكيم وإنه لقائم على رِجل ، وإن السيوف لتأخذهم فما يُتَعتَع ، ويقول : إنا خلّفنا هذيْن وقد بايعا عليّاً وأعطياه الطاعة ، ثم أقبلا مخالفين مُحاربين يطلبان بدم عثمان بن عفان ، ففرّقا بيننا ، ونحن أهلُ دار وجوار. اللهمَّ إنهما لم يريدا عثمان . فنادى منادٍ : يا خبيث ، جزعت حين عضّك نَكال الله عزّ وجلّ إلى كلامِ من نَصَبك وأصحابك بما ركبتم من الإمام المظلوم ، وفرّقْتُم من الجماعة ، وأصبتم من الدّماء ، ونلتم من الدّنيا! فذُق وبالَ الله عزّ وجلّ وانتقامه ، وأقيموا فيمن أنتم .

وقتِل ذَرِيح ومن معه ، وأفلت حُرْقوص بن زهير في نَفَر من أصحابه فلجؤوا إلى قومهم ، ونادى مُنادى الزّبير وطلحة بالبصرة : ألاّ من كان فيهم من قبائلكم أحدٌ ممن غزا المدينة فليأتِنا بهم . فجيء بهم كما يُجَاءُ بالكلاب ، فقُتِلوا فما أفلت منهم من أهل البصرة جميعاً إلّا حرقوص بن زُهير؛ فإنّ بني سعد منعوه ، وكان من بني سعد ، فمسَّهم في ذلك أمرٌ شديد ، وضربوا لهم فيه أجلاً وخَشَّنوا صدورَ بني سعد وإنَّهم لعُثْمانية حتى قالوا : نَعتزل ؛ وغضبت عبدُ القَيْس حين غضبت سعد لمن قتل منهم بعد الوقعة ومَن كان هرب إليهم إلى ما هم عليه من لزوم طاعةِ عليّ ، فأمرا للنّاس بأعطياتهم وأرزاقهم وحُقوقهم ، وفضّلا بالفضل أهـل السمع والـطاعة . فخـرجت عـبـدُ القـيس وكثـيرٌ مـن بكـر بـن وائـل حـين زَووْا عنهـم الفـضـول ، فبـادروا إلى بيت المال ، وأكبّ عليهم الناس فأصابوا منهم ، وخرج القوم حتى نزلوا على طـريق عليّ ، وأقـام طلحة

والزّبير ليس معهما بالبصرة ثأر إلاّ حُرْقوص، وكتبوا إلى أهل الشام بما صنعوا أو صاروا إليه: إنا خرجنا لوضْع الحرب وإقامة كتاب الله عزّ وجلّ بإقامة حُدوده في الشريف والوضيع والكثير والقليل، حتى يكون الله عزّ وجلّ هو الذي يردنا عن ذلك، فبايَعنَا خيارُ أهل البصرة ونجباؤهم؛ وخالَفنَا شرارهم ونزّاعهم، فرَدُّونا بالسلاح وقالوا فيما قالوا: نأخذُ أمَّ المؤمنين رهينة؛ أن أمَرَتهم بالحقّ وحثّتْهم عليه. فأعطاهم الله عزّ وجلّ سُنَّة المسلمين مرّة بعد مرّة، حتى إذا لم يبقَ حجّة ولا عذر استبسل قتلةُ أمير المؤمنين فخرجوا إلى مضاجعهم فلم يُفلت منهم مخبر إلاّ حرقُوص بن زُهير، والله سبحانه مُقيده إن شاء الله. وكانوا كما وصف الله عزّ وجلّ؛ وإنا نناشدكم الله في أنفسكم إلاّ نهضتم بمثل ما نهضنا به؛ فنلقى الله عزّ وجلّ وتلقوْنه وقد أعذرنا وقضيْنا الّذي علينا.

وبعثوا به مع سيَّار العجليّ، وكتبوا إلى أهل الكوفة بمثله مع رجُل من بني عمرو بن أسد يدعَى مظفّر بن معرّض. وكتبوا إلى أهل اليمامة وعليها سَبْرة بن عمر والعنبريّ مع الحارث السَّدوسيّ. وكتبوا إلى أهل المدينة مع ابن قُدامة القُشيريّ، فدسّه إلى أهل المدينة.

وكتبت عائشةُ رضي الله عنها إلى أهل الكوفة مع رسولهم: أمّا بعد فإني أذكّركم الله عزّ وجلّ والاسلام، أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه، اتقوا الله واعتصموا بحبله، وكونوا مع كتابه؛ فإنا قدمنا البصرة فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله بإقامة حُدوده، فأجابَنا الصالحون إلى ذلك؛ واستقبلَنا من لا خير فيه بالسلاح، وقالوا: لنُتبعنّكم عثمانَ، ليَزيدوا الحدود تعطيلاً، فعاندوا فشهدوا علينا بالكفر وقالوا لنا المنكر، فقرأنا عليهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إلى كتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ (١). فأذعن لي بعضهم، واختلفوا بينهم، فتركناهم وذلك، فلم يمنع ذلك مَن كان منهم على رأيه الأوّل من وضع السلاح في أصحابي، وعزم عليهم عثمان بن حُنيف إلاّ قاتَلوني حتى منعني الله عزّ وجلّ بالصّالحين، فردّ كيدهم في نحورهم، فمكثنا ستّاً وعشرين ليلة ندعوهم إلى كتاب الله وإقامة حُدوده ـ وهو حَقْن الدّماء أن تُهراق دون من قد حلّ دمُه ـ فأبَوْا واحتجّوا بأشياء، فاصطلَحْنَا عليها، فخافوا وغدروا وخَانُوا، فجمع الله عزّ وجلّ لعثمان رضي الله عنه ثأرهم، فأقادهم فلم يُفِلت منهم إلاّ رجلٌ، وأرْدَأنا الله، ومنَعَنَا منهم بعُمير بن مرثَد ومرثَد بن قيس، ونفر من قيس، ونفر من الرِّباب والأزْد. فالزموا الرضا إلاّ عن قتلة عثمان بن عفان حتى يأخذ الله حقّه، ولا تخاصموا الخائنين ولا تمنعوهم، ولا ترضَوْا بِذُوِيِّ حدود الله فتكونوا من الظالمين. فكتبتُ إلى رجال بأسمائهم. فثبِّطوا الناس عن منع هؤلاء القوم ونُصْرتهم واجلسوا في بيوتكم؛ فإنَّ هؤلاء القوم لم يرضوا بما صنعوا بعثمان بن عفان رضي الله عنه، وفرّقوا بين جماعة الأمة، وخالفوا الكتاب والسنَّة، حتى شهدوا علينا فيما أمرناهم به، وحثثناهم عليه من إقامة كتاب الله وإقامة حدوده بالكفر، وقالوا لنا المنكر، فأنكر ذلك الصّالحون وعظَّموا ما قالوا، وقالوا: ما رضيتم أن قتلتم الإمام حتى خرجتم على زوجة نبيكم ﷺ، أن أمرَتكم بالحقّ لتقتلوها وأصحاب رسول الله ﷺ وأئمة المسلمين! فعزموا وعثمان بن حُنيف معهم على من أطاعهم من جهّال الناس وغوغائهم على زُطّهم وسيابجهم، فلُذنا منهم بطائفة من الفُسْطاط؛ فكان ذلك الدّأب ستة وعشرين يوماً ندعوهم إلى الحقّ وألاّ يحولوا بيننا وبين الحقّ فغدَروا وخانوا فلم نُقايِسْهم، واحتجّوا ببيعة طلحة والزّبير؛ فأبردُوا بريداً فجاءهم بالحجّة فلم يعرفوا الحقّ، ولم يصبروا عليه؛ فغادَوْني في الغَلس ليقتلوني؛

(١) سورة آل عمران: ٢٣.

والذي يحاربهم غيري، فلم يبرحوا حتى بلغوا سدَّةَ بيتي ومعهم هادٍ يهديهم إليّ، فوجدوا نفراً على باب بيتي؛ منهم عُمير بن مرثَد، ومرثَد بن قيس، ويزيد بن عبد الله بن مَرْثَد؛ ونفر من قيس، ونفر من الرِّباب والأزْد، فدارت عليهم الرّحا، فأطاف بهم المسلمون فقتلوهم، وجمع الله عزّ وجلّ كلمة أهل البصرة على ما أجمع عليه الزُّبير وطلحة؛ فإذا قتلنا بثأرنا وسعنا العذر. وكانت الوقعة لخمس ليال بقين من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين. وكتب عبيد بن كعب في جُمادى.

حدّثنا عمر بن شبّة، قال: حدثنا أبو الحسن، عن عامر بن حفص، عن أشياخه، قال: ضَرب عنقَ حُكَيم بن جبلة رجلٌ من الحُدّان يقال له ضُخَيم، فمال رأسهُ، فتعلّق بجلده، فصار وجهُه في قفاه. قال ابن المثنّى الحدّاني: الذي قتل حُكَيْماً يزيدُ بن الأسحم الحُدانيّ، وجُد حُكَيم قتيلاً بين يزيد بن الأسحم وكعب بن الأسحم، وهما مقتولان.

حدّثني عمر، قال: حدثني أبو الحسن، قال: حدثنا أبو بكر الهُذليّ، عن أبي المِلِيح، قال: لما قتل حُكَيم بن جبلة أرادوا أن يقتلوا عثمان بن حُنيف، فقال: ما شئتم، أما إن سهل بن حُنيف والٍ على المدينة، وإن قتلتموني انتصر. فخلّوْا سبيله. واختلفوا في الصّلاة، فأمّرت عائشة رضي الله عنها عبد الله بن الزبير فصلّى بالناس، وأراد الزّبير أن يعطيَ الناس أرزاقَهم ويقسم ما في بيت المال، فقال عبد الله ابنه: إن ارتزق الناس تفرّقوا. واصطلحوا على عبد الرحمن بن أبي بكر، فصيّروه على بيت المال.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن عليّ، عن أبي بكر الهُذَليّ، عن الجارود بن أبي سَبْرة، قال: لّما كانت الليلة التي أخِذ فيها عثمان بن حُنيف، وفي رَحَبَة مدينة الرّزق طعامٌ يرتزقه الناس، فأراد عبد الله أن يرزقه أصحابه وبلغ حُكَيم بن جبلة ما صنع بعثمان، فقال: لستُ أخاف الله إن لم أنصره، فجاء في جماعة من عبد القيس وبكر بن وائل وأكثرهم عبد القيس، فأتى ابن الزّبير مدينة الرزق، فقال: مَالَك يا حُكَيم؟ قال: نريد أن نرتزق من هذا الطعام، وأن تخلّوا عثمان فيقيم في دار الإمارة على ما كتبتم بينكم حتى يقدم عليّ، والله لو أجد أعواناً عليكم أخبِطكم بهم ما رضيت بهذه منكم حتى أقتلَكم بمن قتلتم، ولقد أصبحتم وإنّ دماءكم لنا لحلال بمن قتلتم من إخواننا، أما تخافون الله عزّ وجلّ! بم تستحلّون سَفْك الدّماء؟ قال: بدم عثمان بن عفان، قال: فالّذين قتلتموهم قتلوا عثمان! أما تخافون مقتَ الله؟ فقال له عبد الله بن الزبير: لا نرزقكم من هذا الطعام، ولا نخلّي سبيل عثمان بن حُنيف حتى يخلع عليّاً، قال حُكيم: اللهمّ إنك حكَم عَدْل فاشهد. وقال لأصحابه: إنّي لست في شكّ من قتال هؤلاء، فمن كان في شكّ فلينصرف. وقاتَلَهم فاقتتلوا قتالاً شديداً، وضرب رجل ساق حُكَيم فأخذ حكيمٌ ساقَه فرماه بها، فأصاب عنقه فصرعه ووَقَذَه ثم حبا إليه فقتله واتّكأ عليه، فمرّ به رجلٌ فقال: من قتلك؟ قال: وسادتي، وقتل سبعون رجلاً من عبد القيس. قال الهذليّ: قال حكيم حين قطعت رجله:

أقولُ لَما جدَّ بي زَماعي ... للرِّجْل يا رجليّ لن تراعي
إنّ مَعي مِنْ نجْدَةٍ ذراعي

قال عامر ومسلمة: قتل مع حُكيم ابنهُ الأشرف وأخوه الرِّعِل بن جبَلة.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا المثنّى بن عبد الله، عن عوف الأعرابيّ، قال: جاء رجلٌ إلى طلحة والزّبير وهما في المسجد بالبصرة، فقال: نشدتكما بالله في مسيركما! أعَهِد إليكما فيه رسول الله

ﷺ! فقام طلحة ولم يجبْه، فناشد الزّبير فقال: لا، ولكن بلغنا أنّ عندكم دراهم فجئنا نشارككم فيها.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا سُليمان بن أرقم، عن قتادة، عن أبي عمرة مولى الزّبير، قال: لما بايع أهل البصرة الزّبيرَ وطلحة، قال الزّبير: ألا ألف فارس أسيرُ بهم إلى عليّ، فإما بيّتُّه وإما صبَّحته، لعلِّي أقتله قبل أن يصل إلينا! فلم يُجبه أحدٌ، فقال: إنّ هذه لهي الفتنة التي كنا نحدّث عنها؛ فقال له مولاه: أتُسمّيها فتنة وتُقاتل فيها! قال: ويحك! إنا نُبصّر ولا نَبصُر، ما كان أمر قطّ إلاّ علمتُ موضع قدمي فيه، غير هذا الأمر فإني لا أدري أمُقْبل أنا فيه أم مُدبر!

حدّثني أحمد بن منصور، قال: حدّثني يحيى بن معين، قال: حدّثنا هشام بن يوسف، قاضي صَنْعاء، عن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزّبير، عن موسى بن عقبة، عن علقمة بن وقّاص الليثيّ، قال: لما خرج طلحة والزّبير وعائشة رضي الله عنهم رأيتُ طلحة وأحبّ المجالس إليه أخلاها، وهو ضاربٌ بلحيته على زَوْرِه، فقلت: يا أبا محمد، أرى أحبّ المجالس إليك أخلاها، وأنت ضارب بلحيتك على زَوْرك؛ إن كرهتَ شيئاً فاجلس. قال: فقال لي: يا علقمة بن وقاص، بينا نحن يدٌ واحِدة على مَن سوانا، إذ صرنا جبلين من حديد يَطلبُ بعضنا بعضاً، إنه كان منّي في عثمان شيءٌ ليس توبتي إلاّ يُسفَك دمي في طلب دمه. قال: قلت: فرُدّ محمد بن طلحة فإنّ لك ضيعة وعيالاً؛ فإن يك شيء يخلفك؛ فقال: ما أحبّ أن أرى أحداً يخفّ في هذا الأمر فأمنعه. قال: فأتيت محمد بن طلحة فقلت له: لو أقمتَ، فإن حدث به حدَثٌ كنتَ تخلفه في عياله وضيعته، قال: ما أحبّ أن أسأل الرجال عن أمره.

حدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا أبو مخنف، عن مجالد بن سعيد، قال: لما قدمت عائشةُ رضي الله عنها البصرْة كتبتْ إلى زيد بن صُوحان: من عائشة ابنة أبي بكر أمّ المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ إلى ابنها الخالص زيد بن صُوحان، أمّا بعد: فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم؛ فانصرنا على أمرنا هذا، فإن لم تفعل فخذِّل الناس عن عليّ.

فكتب إليها: من زيد بن صُوحان إلى عائشة ابنة أبي بكر الصدّيق حبيبةِ رسول الله ﷺ، أمّا بعد: فأنا ابنك الخالص إن اعتزلتِ هذا الأمر ورجعتِ إلى بيتك، وإلاّ أوّل من نابَذَك. قال زيد بن صُوحان: رحم الله أمَّ المؤمنين! أمِرت أن تلزم بيتها وَأُمرنا أن نُقاتل، فتركتْ ما أمِرتْ به وأمَرَتْنا به، وصنعت ما أمِرْنا به ونَهتنا عنه!

ذكر الخبر عن مسير عليّ بن أبي طالب نحو البصرة

مما كتب به إليّ السريّ، أن شعيباً حدّثه، قال: حدّثنا سيفٌ، عَن عُبيدة بن معتّب، عن يزيد الضّخم، قال: لما أتى عليّاً الخبرُ وهو بالمدينة بأمر عائشة وطلحة والزّبير أنهم قد تَوَجّهوا نحو العراق، خرج يُبادر وهو يرجو أن يُدركهم ويردّهم، فلما انتهى إلى الرّبَذَة أتاه عنهم أنهم قد أمنعوا، فأقام بالرَّبَذة أياماً، وأتاه عن القوم أنهم يُريدون البصرة، فسرّيَ بذلك عنه، وقال: إنَّ أهلَ الكوفة أشدُّ إليَّ حبّاً، وفيهم رؤوس العرب وأعلامهم. فكتب إليهم: إنّي قد اخترتكم على الأمصار وإنّي بالأَثْرة.

حدّثني عُمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن بشير بن عاصم، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، قال: كتب عليّ إلى أهل الكوفة: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإني اخترتُكم والنزول بين أظهركم

لما أعرف من مودَّتكم وحبكم لله عزّ وجلّ ولرسوله ﷺ، فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحقَّ وقضى الذي عليه.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن. قال: حدّثنا حبّان بن موسى، عن طلحة بن الأعلم وبشر بن عاصم، عن ابن أبي ليلَى، عن أبيه، قال: بُعِث محمد بن أبي بكر إلى الكوفة ومحمّدُ بن عون، فجاء الناس إلى أبي موسى يستشيرونه في الخروج، فقال أبو موسى: أمَّا سبيلُ الآخرة فأنْ تقيموا، وأمَّا سبيل الدّنيا فأن تخرجوا، وأنتم أعلم. وبلغ المحمّديْن قولُ أبي موسى، فبايناه وأغلظا له، فقال: أما والله إنّ بيعة عثمان في عُنقي وعُنق صاحبكما الذي أرسلكما، إن أردْنا أن نُقاتِل لا نقاتل حتى لا يبقى أحد من قَتَلة عثمان إلا قُتل حيث كان. وخرج عليّ من المدينة في آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين، فقالت أخت عليّ بن عديّ من بني عبد العزَّى ابن عبد شمس:

لاهُمَّ فـاعْقِـرْ بِعَـلِيّ جَمَلَهْ ولا تُبَـارك في بعـيرٍ حَمَـلَهْ
ألَا عَـلِيّ بـنُ عَـديٍّ لـيس لَـهْ

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن أبي مخنف، عن نُمَير بن وَعْلة، عن الشعبيّ؛ قال: لَمَّا نزل عليٌّ بالرَّبَذَة أتته جماعة من طيِّىء، فقيل لعليّ: هذه جماعة من طيِّىء قد أتتك، منهم من يريد الخُروج معك ومنهم من يريد التسليم عليك؛ قال: جزَى الله كلاًّ خيراً وفَضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً. ثمّ دخلوا عليه فقال عليّ: ما شهدتمونا به؟ قالوا: شهدناك بكلّ ما تحبّ، قال: جزاكم الله خيراً! فقد أسلمتم طائعين وقاتلتم المرتَدّين ووافيتم بصدقاتكم المسلمين. فنهض سعيد بن عبيد الطائيّ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ من الناس من يعبّر لسانه عما في قلبه، وإني والله ما كلّ ما أجد في قلبي يعبّر عنه لساني وسأجهد وبالله التوفيق. أمّا أنا فسأنصح لك في السرّ والعلانية وأقاتل عدوّك في كلّ موطن وأرى لك من الحقّ ما لا أراه لأحَد من أهل زمانك لفضلك وقَرابَتِك. قال: رحمك الله! قد أدّى لسانُك عما يجنّ ضميرك. فقُتِل معه بصفِّين رحمه الله.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: لما قدم عليٌّ الرَّبَذَة أقام بها وسرّح منها إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر؛ وكتب إليهم: إني اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث، فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً، وأيِّدونا وانهضوا إلينا فالإصلاح ما نُريد، لتعود الأمة إخواناً، ومن أحبَّ ذلك وآثره فقد أحبَّ الحقّ وآثره، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحقّ وغمصه.

فمضى الرّجلان وبقي عليّ بالرَّبَذة يتهيّأ، وأرسل إلى المدينة فلحقه ما أراد من دابّة وسِلاح، وأمِر أمرُه وقام في الناس فخطبهم؛ وقال: إنّ الله عزّ وجلّ أعزَّنا بالإسلام ورفَعَنا به وجعلنا به إخواناً بعد ذلَّة وقِلَّة وتباغُض وتباعد؛ فجرى الناس على ذلك ما شاء الله؛ الإسلام دينهم والحقّ فيهم والكتاب إمامهم، حتى أصيب هذا الرّجل بأيدي هؤلاء القوم الذّين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة، ألا إنّ هذه الأمّة لا بُدَّ مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم، فنعوذ بالله مِن شرّ ما هو كائن. ثمّ عاد ثانية، فقال: إنه لا بدَّ مما هو كائن أن يكون، ألا وإنّ هذه الأمة ستَفْتَرِقُ على ثلاث وسبعين فرقة؛ شرّها فرقة تنتحلني ولا تعمل بعَمَلي، فقد أدركتم ورأيتم فالزموا دينكم واهدوا بهدي نبيّكم ﷺ، واتّبعوا سنته، واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن، فما عرفه القرآن فالزموه وما أنكره فردّوه، وارضُوا بالله جلّ وعزّ ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّد ﷺ نبيّاً، وبالقرآن حكماً

وإماماً.

كتب إليّ السريّ عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: لما أراد عليّ الخروجَ من الرَّبَذَة إلى البصرة قام إليه ابنٌ لرفاعة بن رافع، فقال: يا أمير المؤمنين، أيّ شيء تريد؟ وإلى أين تذهب بنا؟ فقال: أمَّا الذي نُريد وننوي فالإصلاح؛ إن قبلوا منّا وأجابونا إليه، قال: فإن لم يجيبوا إليـه؟ قال: نـدَعُهم بعذرهم ونعطيهم الحقّ ونصبر؛ قال: فإن لم يرضَوْا؟ قال: ندَعهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا؟ قال: امتنعنا منهم، قال: فنعم إذاً. وقام الحجّاج بن غزّية الأنصاريّ فقال: لأرضينّك بالفعل كما أرضيتني بالقول. وقال:

دَرَاكِـهـا دَراكِـهـا قَـبْـلَ الـفَـوْتْ وانِفـرْ بنا واسْمُ بنـا نحْـوَ الصَّـوْتْ
لا وَأَلَـتْ نَفْسيَ إنْ هِـبْـتُ المـوْتْ

والله لأنصرنّ الله عزّ وجلّ كما سمّانا أنصاراً. فخرج أمير المؤمنين وعلى مقدمته أبو ليـلى بن عمر بن الجرّاح، والرّاية مع محمّد بن الحنفيّة، وعلى الميمنة عبد الله بن عباس، وعلى الميسرة عمـر بن أبي سلِمة أو عمرو بن سفيان بن عبد الأسد، وخَرَجَ عليّ وهو في سبعمائة وستين؛ وراجزُ عليّ يرجز به:

سيـروا أبـابيـلَ وحُثُّـوا السَّـيْـرَا إذْ عَـزَمَ السَّـيْـرَ وقـولـوا خَـيْـرا
حـتّى يُـلاقـوا وتُـلاقـوا خَـيْـرا نـغـزو بـهـا طَـلْحَـةَ والـزُّبَـيـرا

وهو أمام أمير المؤمنين، وأميرُ المؤمنين عليّ على ناقة له حمراء يقود فرساً كُميتاً. فتلقّاهم بفَيْدَ غلامٌ من بني سعد بن ثعلبة بن عامر يدعى مُرّة، فقال: من هؤلاء؟ فقيل: أمير المؤمنين، فقال: سفرة فانية فيها دماء من نفوس فانية؛ فسمعها عليّ فدعاه، فقال: ما اسمك؟ قال: مُرَّة، قال: أمَرَّ الله عيشْك، كاهن سائِر اليوم؟ قال: بل عائف؛ فلما نزل بفَيْد أتته أسد وطيِّىء فعرضوا عليه أنفسهم، فقال: الزموا قراركم، في المهاجرين كفاية. وقدِم رجلٌ من أهل الكوفة فَيْد قبل خروج عليّ فقال: مَن الرجل؟ قال: عامر بن مطر، قال: الليثيّ؟ قال الشيبانيّ: قال: أخبرني عما وراءك، قال: فأخبره حتى سأله عن أبي موسى، فقال: إن أردت الصّلح فأبو موسى صاحبُ ذلك، وإن أردت القتال فأبو موسى ليس بصاحب ذلك، قال: والله ما أريدُ إلا الإصلاح حتى يُردَّ علينا، قال: قد أخبرتك الخبر، وسكت وسكت عليّ.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن أبي محمد، عن عبد الله بن عمير، عن محمد بن الحنفيّة، قال: قدِم عُثمان بن حُنيف على عليّ بالرَّبَذة وقد نتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، بعثْتَني ذا لحية وجئتك أمرَد، قال: أصبت أجراً وخيراً، إنّ الناس ولِيَهم قبلي رجلان، فعمِلا بالكتاب، ثمّ وليهم ثالث، فقالوا وفعلوا، ثم بايعوني، وبايعني طلحةُ والزّبير، ثمّ نكثَا بيعتي، وألَّبَا الناس عـليَّ، ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعُمر وخلافهما عليّ، والله إنهما ليعلمان أني لستُ بدون رجل ممن قد مضى، اللهم فاحلل ما عقدا، ولا تبرم ما قد أحكما في أنفسهما وأرِهما المساءة فيما قد عملا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: ولّما نزل عليّ الثعلبيَّة أتاه الّذي لقي عثمانُ بن حُنَيف وحرسُه، فقام وأخبر القوم الخبر، وقال: اللهمّ عافني مما ابتليتَ به طلحة والزّبير من قَتْل المسلمين، وسلّمنا منهم أجميعن. ولما انتهى إلى الإساد أتاه ما لقي حُكَيمُ بن جَبَلة وقتلةُ عثمان بن عفان رضي

الله عنه، فقال: الله أكبر، ما ينجيني من طلحة والزبير إذا أصاب ثأرهما أو ينجيهما! وقرأ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إلاّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[1]. وقال:

دَعا حُكَيْمٌ دَعوَةَ الزِّماعِ حَلَّ بِها مَنزِلَةَ النِّزاعِ

ولما انتهوْا إلى ذي قار انتهى إليه فيها عثمان بن حُنَيف، وليس في وجهه شعر؛ فلما رآه عليّ نظر إلى أصحابه فقال: انطلق هذا من عندنا وهو شيخٌ، فرجع إلينا وهو شابٌ. فلم يزل بذي قار يتلوّم محمداً ومحمداً، وأتاه الخبر بما لقيَتْ ربيعة وخروجِ عبد القيس ونزولِهم بالطريق، فقال: عبد القيس خيرُ ربيعة، في كلّ ربيعة خير. وقال:

يا لَهفَ نَفسي على رَبيعَهْ رَبيعَةَ السامِعَةِ المُطيعَهْ
قد سَبَقَتني فيهِمُ الوَقيعَهْ دَعا عَليٌّ دَعوةً سَميعَهْ
حَلُّوا بها المَنْزِلَةَ الرَّفيعَهْ

قال: وعرضَتْ عليه بكر بن وائل، فقال لهمْ مثل ما قال لطيّء وأسد.

ولما قدم محمد ومحمد على الكوفة وأتيا أبا موسى بكتاب أمير المؤمنين، وقاما في الناس بأمره، لم يجابا إلى شيء، فلما أمسوا دخل ناسٌ من أهل الحِجَى على أبي موسى، فقالوا: ما ترى في الخروج؟ فقال: كان الرّأي بالأمس ليس باليوم، إنّ الّذي تهاونتم به فيما مضى هو الذي جرّ عليكم ما تَرَوْن؛ وما بقِيَ إنما هما أمران: القُعود سبيل الآخرة والخُروج سبيل الدّنيا، فاختاروا. فلم ينفِر إليه أحدٌ، فغضِب الرّجلان وأغلظا لأبي موسى، فقال أبو موسى: والله إنّ بيعة عثمان رضي الله عنه لفي عُنقي وعنق صاحبكما، فإن لم يكن بُدٌّ من قتال لا نقاتل أحداً حتى يُفرَغ من قَتَلة عثمان حيث كانوا. فانطلقا إلى عليّ فوافياه بذي قار وأخبراه الخبر، وقد خرج مع الأشتر وقد كان يعجِل إلى الكوفة، فقال عليّ يا أشتر، أنت صاحبنا في أبي موسى والمعترِض في كلّ شيء، اذهب أنت وعبدالله بن عبّاس فأصْلِحْ ما أفْسَدت.

فخرج عبدالله بن عباس ومعه الأشتر، فقدما الكوفة وكلّما أبا موسى واستعانا عليه بأناس من الكوفة، فقال للكوفيين: أنا صاحبكم يوم الجَرَعة وأنا صاحبكم اليوم؛ فجمع الناس فخطبهم وقال: يا أيُّها الناس، إنّ أصحاب النبيّ ﷺ الّذين صحبوه في المواطن أعلم بالله جلّ وعزّ وبرسُوله ﷺ ممن لم يصحبه، وإنّ لكم علينا حقًّا فأنا مؤدّيه إليكم. كان الرّأي ألاّ تستخفُّوا بسلطان الله عزّ وجلّ، ولا تجترئوا على الله عزّ وجلّ، وكان الرّأي الثاني أن تأخذوا من قَدِم عليكم من المدينة فتردّوهم إليها حتى يجتمعوا، وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم، ولا تَكلّفوا الدّخول في هذا، فأمّا إذا كان ما كان فإنها فتنة صمّاء، النائم فيها خيرٌ من اليقظان، واليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خيرٌ من الرّاكب، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب، فاغمدوا السيوف، وأنصِلوا الأسنّة، واقطعوا الأوتار، وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر، وتنجليَ هذه الفِتْنة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: ولما رجع ابن عباس إلى عليّ بالخبر

(١) سورة الحديد: ٢٢.

دعا الحسنَ بن علي فأرسله ، فأرسل معه عمَّار بن ياسر ، فقال له : انطلق فأصلح ما أفسدتَ ؛ فأقبلا حتى دخلا المسجد ، فكان أوّل من أتاهما مسروق بن الأجْدع ، فسلّم عليهما ، وأقبل على عمّار فقال : يا أبا اليقظان ، عَلام قتلتم عثمان رضي الله عنه؟ قال: عَلَى شَتْم أعراضنا وضرب أبشارنا! فقال: والله ما عاقَبْتُمْ بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لكان خيراً للصّابرين. فخرج أبو موسى، فلقي الحسَن فضمَّه إليه، وأقبل على عمّار فقال: يا أبا اليقظان، أعَدَوْت فيمن عدا على أمير المؤمنين، فأحللت نفسَك مع الفجّار! فقال: لم أفعل، ولِمَ تسؤني؟ وقطع عليهما الحسن، فأقبل عَلَى أبي موسى، فقال: يا أبا موسى، لِمَ تثبّط النّاس عنا! فوالله ما أردنا إلاّ الإصلاح، ولا مثل أمير المؤمنين يُخاف على شيء. فقال: صدَقْتَ بأبي أنت وأمّي! ولكنّ المستشار مُـؤْتمن، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنةٌ، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خيرٌ من الراكب» ؛ قد جعلنا الله عزّ وجلّ إخواناً، وحرَّم علينا أموالنا ودماءنا، وقال: ﴿ يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالْبَاطِلِ ﴾(١)، ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾(١). وقال جلَّ وعزَّ: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مؤمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾(٢). فغضب عمارٌ وساءَهُ وقام وقال: يا أيُّها الناس، إنما قال له خاصّةً: أنت فيها قاعداً خيرٌ منك قائماً. وقال رجلٌ من بني تميم، فقال لعمّار: اسكت أيُّها العبد، أنت أمس مع الغوغاء واليوم تُسافِه أميرَنا؛ وثارزَيْدُ بن صُوحان وطبقتُه وثار الناس، وجعل أبو موسى يُكَفْكِفُ الناس، ثمّ انطلق حتى أتى المنْبر، وسكن الناس، وأقبل زيد على حمار حتّى وقف باب المسجد ومعه الكتابان من عائشة رضي الله عنها إليه وإلى أهل الكوفة؛ وقد كان طلب كتاب العامّة فضمّه إلى كتابه، فأقبل بهما ومعه كتاب الخاصة وكتاب العامّة: أمّا بعد، فثبّطوا أيّها الناس واجلسوا في بيوتكم إلاّ عن قَتَلة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فلما فرغ من الكتاب قال: أمِرتْ بأمر وأمِرْنَا بأمر؛ أمِرَت أن تقرّ في بيتها، وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة، فأمرتْنا بما أمِرَت به ورَكِبَتْ ما أمِرنا به. فقام إليه شبَث بن رِبْعيّ فقال: يا عُمَانيّ - وزيد من عبد القيس عُمان وليس من أهل البَحْرَيْن - سرقتَ بجَلُولاء فقطعك الله، وعصيتَ أم المؤمنين فقتلك الله! ما أمرتْ إلا بما أمر الله عزّ وجلّ به بالإصلاح بين الناس؛ فقلت: وربِّ الكعبة؛ وتهاوى الناس. وقام أبو موسى فقال: أيّها الناس، أطيعوني تكونوا جرثومة من جراثيم العرب يأوي إليكم المظلوم ويأمن فيكم الخائف، إنّا أصحابَ محمد ﷺ أعلم بما سمعنا، إن الفتنة إذا أقبلت شبَّهت وإذا أدبرت بيّنت، وإنّ هذه الفتنة باقِرة كَدَاء البطن تجري بها الشَّمال والجَنوب والصَّبا والدَّبور، فتسكن أحياناً فلا يُدْرَى من أين نؤتَى، تَذَر الحليم كابن أمس، شيموا سيوفكم وقَصّدوا رماحكم، وأرسلوا سهامكم، واقطعوا أوتاركم، والزموا بيوتكم. خلّوا قريشاً - إذا أبوا إلا الخروج من دار الهجرة وفراق أهل العلم بالإمرة - ترتُق فتقَها، وتشعَب صدعَها، فإن فعلت فلأنفسها سَعَت، وإن أبَتْ فعلَى أنفسها منَتْ سمْنها تُهريق في أديمها؛ استنصحوني ولا تستغِشُّوني، وأطيعوني يسلم لكم دينُكم ودنياكم، ويشقى بحرّ هذه الفتنة مَنْ جَناها.

فقام زيد فشال يدَه المقطوعة فقال: يا عبدَ الله بن قيس؛ ردّ الفرات عن دِراجه، اردده من حيث يجيء حتى يعود كما بدأ، فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تُريد، فدعْ عنك ما لست مدركه. ثمّ قرأ: ﴿الٓم *

---

(١) سورة النساء: ٢٩.

(٢) سورة النساء: ٩٣.

أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾(١) إلى آخر الآيتين؛ سيروا إلى أمير المؤمنين وسيّد المسلمين، وانفِروا إليه أجمعين تصيبوا الحقّ.

فقام القعقاع بن عَمرو فقال: إني لكم ناصِح، وعليكم شفيق، أحبّ أن ترشُدوا، ولأقولنّ لكم قولاً هو الحقّ، أمّا ما قال الأمير فهو الأمر لو أنّ إليه سبيلاً، وأمّا ما قال زيد فزيدُ في الأمر فلا تستَنْصِحوه فإنّه لا ينتزِع أحد من الفتنةِ طعَن فيها وجرى إليها؛ والقول الذي هو القول إنه لابدّ من إمارةٍ تنظم الناس وتزَع الظالم وتُعزّ المظلوم، وهذا عليّ يلِي بما ولي، وقد أنصف في الدّعاء، وإنما يدعو إلى الإصلاح، فانفِروا وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع.

وقال سَيْحان: أيّها الناس، إنه لا بدّ لهذا الأمر وهؤلاء الناس من والٍ يدفع الظالم ويُعزّ المظلوم ويجمع الناس، وهذا واليكم يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحبيه، وهو المأمون على الأمّة، الفقيه في الدّين، فمن نهض إليه فإنا سائرون معه. ولاَنَ عمّار بعد نَزْوته الأولى. فلما فرغ سَيْحان من خطبته، تكلم عمار فقال: هذا ابن عمّ رسول الله ﷺ يستنفركم إلى زوجة رسول الله ﷺ وإلى طلحة والزّبير، وإني أشهد أنّها زوجته في الدنيا والآخرة، فانظروا ثمّ انظروا في الحق فقاتلوا معه؛ فقال رجل: يا أبا اليقظان؛ لَهو مع مَن شهدتَ له بالجنة على من لم تشهد له. فقال الحسن: اكفف عنّا يا عمار، فإنّ للإصلاح أهلاً.

وقام الحسن بن عليّ، فقال يا أيُّها الناس؛ أجيبوا دَعْوة أميركم؛ وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر مَن ينفر إليه، والله لأنْ يليَه أولو النهي أمثلُ في العاجلة وخير في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم. فسامح الناس وأجابوا ورضوا به. وأتى قومٌ من طيِّىء عديًّا فقالوا: ماذا ترى وماذا تأمر؟ فقال: ننتظر ما يصنع الناس، فأخبِر بقيام الحسن وكلام من تكلم، فقال: قد بايعنا هذا الرّجل، وقد دعانا إلى جميل، وإلى هذا الحدَث العظيم لننظر فيه، ونحن سائرون وناظرون.

وقام هند بن عمرو، فقال: إنّ أمير المؤمنين قد دعانا وأرسل إلينا رسلَه حتى جاءنا ابنه، فاسمعوا إلى قوله، وانتهوا إلى أمره، وانفروا إلى أميركم فانظروا مَعه في هذا الأمر وأعينوه برأيكم.

وقام حُجْر بن عديّ، فقال: أيّها الناس أجيبوا أميرَ المؤمنين وانفِروا خِفافاً وثِقالاً مُروا، أنا أوّلكم. وقام الأشتر فذكر الجاهليّة وشدتها، والإسلام ورخاءه وذكر عثمان رضي الله عنه. فقام إليه المقطّع بن الهيثم بن فجيع العامريّ ثم البُكائيّ، فقال: اسكت قبحك الله! كلْب خُلّيَ والنُّباح؛ فثار الناس فأجلسوه.

وقام المقطّع، فقال: إنا والله لا نحتمل بعدها أن يبوء أحدٌ بذكر أحد من أئمتّنا، وإنّ عليًّا عندنا لَمُقْنع، والله لئن يكن هذا الضرب لا يرضى بعليّ، فعضّ امرؤ على لسانه في مشاهدنا؛ فأقبلوا على ما أحثّاكم.

فقال الحسن: صدق الشيخ، وقال الحسن: أيّها الناس، إنّي غاد فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظَّهْر، ومن شاء فليخرج في الماء، فنفَرَ معه تسعة آلاف، فأخذ بعضهم البرّ، وأخذ بعضهم الماءَ وعلى كل سُبْع رجُلٌ؛ أخذ البرّ ستة آلاف ومائتان، وأخذ الماء ألفان وثمانمائة.

وفيما ذكر نصرُ بن مزاحم العطار، عن عمر بن سعيد، عن أسد بن عبدالله، عمّن أدرك من أهل العلم:

---

(١) سورة العنكبوت: ١ ـ ٢.

أن عبد خير الخَيْوانيّ قام إلى أبي موسى فقال: يا أبا موسى، هل كان هذان الرّجلان ـ يعني طلحة والزبير ـ ممن بايع عليًّا؟ قال: نعم، قال: هل أحدث حدَثاً يحلّ به نقضُ بيعتِه؟ قال: لا أدري، قال: لا دريتَ، فإنا تاركوك حتى تدري! يا أبا موسى هل تعلم أحداً خارجاً من الفتنة التي تزعم أنها هي فتنة؟ إنما بقي أربع فِرَق: عليٌّ بظهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقة أخرى بالحجاز؛ لا يُجبَى بها فيء، ولا يقاتَل بها عدوّ؛ فقال له أبو موسى: أولئك خيرُ الناس، وهي فتنة؛ فقال له عبد خير: يا أبا موسى، غلب عليك غِشُّك.

قال: وقد كان الأشتر قام إلى عليّ فقال: يا أميرَ المؤمنين، إني قد بعثت إلى أهل الكوفة رجلاً قبل هذين فلم أره أحكم شيئاً ولا قدر عليه، وهذان أخلَقُ من بعثت أن يُنْشَبَ بهم الأمر على ما تحبّ، ولستُ أدري ما يكون، فإن رأيتَ ـ أكرمك الله ـ يا أمير المؤمنين أن تبعثني في أثرهم، فإنّ أهل المصر أحسن شيء لي طاعةً، وإن قدمت عليهم رجوت ألّا يُخالفني منهم أحدٌ. فقال له عليّ: الحقْ بهم؛ فأقبل الأشترُ حتى دخل الكوفةَ وقد اجتمع الناس في المسجد الأعظم، فجعل لا يمرُّ بقبيلة يرى فيها جماعةً في مجلس أو مسجد إلّا دعاهم ويقول: اتّبعوني إلى القصر، فانتهى إلى القصر في جماعةٍ من الناس، فاقتحم القصر فدخله وأبو موسى قائمٌ في المسجد يخطب الناس ويثبِّطهم، ويقول: أيُّها الناس، إنّ هذه فتنة عمياء صماء تطأُ خِطامها، النائم فيها خير من القاعد، والقاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، والساعي فيها خير من الراكب؛ إنها فتنة باقرة كداء البطن، أتتكم من قِبَل مأمنكم، تَدَع الحليم فيها حيرانَ كابن أمس. إنا معاشر أصحاب محمد ﷺ أعلم بالفتنة، إنها إذا أقبلت شبَّهت وإذا أدبرت أسْفرت. وعمّارٌ يُخاطبه والحسن يقول له: اعتزل عَمَلَنا لا أمّ لك! وتنحّ عن منبرنا. وقال له عمار: أنت سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال أبو موسى: هذه يدي بما قلت، فقال له عمّار: إنما قال لك رسول الله ﷺ هذا خاصةً، فقال: «أنتَ فيها قاعداً خيرٌ منك قائماً»، ثمّ قال عمّار: غلب الله مَنْ غالَبَه وجاحَده.

قال نصر بن مزاحم: حدّثنا عمر بن سعيد، قال: حدّثني رجل، عن نُعَيم، عن أبي مريم الثقفيّ، قال: والله إني لفي المسجد يومئذ وعمّار يخاطبُ أبا موسى ويقول له ذلك القولَ، إذْ خرج علينا غلمان لأبي موسى يشتدّون ينادون: يا أبا موسى، هذا الأشتر قد دخل القصر فَضَرَبَنا وأخرجنا؛ فنزل أبو موسى، فدخل القصرَ، فصاح به الأشتر: اخرج من قَصْرنا لا أمّ لك! أخرج الله نفسَك، فوالله إنك لمن المنافقين قديماً، قال: أجلني هذه العشيّة، فقال: هي لك، ولا تبيتنّ في القصر الليلة. ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى؛ فمنعهم الأشتر وأخرجهم من القصر، وقال: إني قد أخرجته، فكفّ الناس عنه.

نزول أمير المؤمنين ذا قار

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو، عن العشبيّ، قال: لما التقوا بذي قار تلقّاهم عليّ في أناس، فيهم ابن عباس فرحّب بهم، وقال: يا أهلَ الكوفة، أنتم ولّيتم شوكة العَجَم وملوكهم، وفضضتم جموعهم؛ حتى صارت إليكم مواريثُهم، فأغنيتم حَوْزَتكم، وأعنتم الناس على عدوّهم، وقد دعوتُكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة؛ فإن يرجعوا فذاك ما نُريد وإن يلجّوا داويناهم بالرفق، وبايَنّاهم حتى يبدؤونا بظلم، ولن ندع أمراً فيه صلاحٌ إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله، ولا قوّة إلا بالله.

فاجتمع بذي قار سبعة آلاف ومائتان، وعبد القيس بأسرها في الطريق بين عليّ وأهل البصرة ينتظرون

مرور عليّ بهم، وهم آلاف ـ وفي الماء ألفان وأربعمائة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة بإسنادهما، قالا: لما نزل عليٌّ ذا قار أرسل ابن عباس والأشتر بعد محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر، وأرسل الحسنَ بن عليّ وعماراً بعد ابن عباس والأشتر، فخفّ في ذلك الأمر جميعُ من كان نَفَر فيه، ولم يقدُم فيه الوجوه أتباعَهم فكانوا خمسة آلاف أخذ نصفهم في البرّ ونصفهم في البحر، وخفّ مَن لم ينفر فيها ولم يعمل لها. وكان على طاعته ملازماً للجماعة فكانوا أربعة آلاف، فكان رؤساء الجماعة: القعقاع بن عمرو وسعْر بن مالك وهند بن عمرو والهيثم بن شهاب؛ وكان رؤساء النّفّار: زيد بن صُوحان، والأشتر مالك بن الحارث، وعـديّ بن حاتم، والمسيّب بن نَجَبَـة، ويزيد بن قيس ومعهم أتباعهم وأمثال لهم ليسوا دونهم إلّا أنهم لم يؤمّروا؛ منهم حُجْر بن عديّ وابن مَحْدُوج البكريّ؛ وأشباه لهما لم يكن في أهل الكوفة أحد على ذلك الرأي غيرهم. فبادروا في الوقعة إلا قليلاً، فلما نزلوا على ذي قار دعا القعقاعَ بن عمرو فأرسله إلى أهل البصرة وقال له: الق هذين الرجلين يابن الحنظليّة ـ وكان القعقاع من أصحاب النبي ﷺ ـ فادعُهما إلى الألْفة والجماعة، وعظِّم عليهما الفُرْقَة، وقال له: كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه وصاة منّي؟ فقال: نلقاهم بالّذي أمرتَ به، فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأيٌ اجتهدنا الرّأي وكلّمناهم على قدر ما نَسْمع ونرى أنه ينبغي. قال: أنت لها. فخرج القعقاعُ حتى قدم البصرة، فبدأ بعائشة رضي الله عنها فسلّم عليها، وقال: أيْ أمَّهْ؛ ما أشخصكِ وما أقدمـكِ هذه البلدة؟ قالت: أيْ بنيّ، إصلاح بين الناس، قال: فابعثي إلى طلحة والزّبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما، فبعثت إليهما فجاءا، فقال: إني سألت أمَّ المؤمنين: ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد؟ فقالت: إصلاح بين الناس، فما تقولان أنتما؟ أمتابعـان أم مخالفان؟ قالا: مُتابعان، قال: فأخبراني ما وَجْهُ هذا الإصلاح؟ فوالله لئن عرفنا لنُصلحنّ، ولئن أنكرناه لا نُصلح. قالا: قتلة عثمان رضي الله عنه، فإنّ هذا إن تُرِك كان تَرْكاً للقرآن؛ وإن عمِل به كان إحياء للقرآن. فقال: قد قَتَلْتُما قتلةَ عثمان من أهل البصرة، وأنتم قبل قَتْلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليومَ، قتلتم ستمائة إلّا رجلاً، فغضب لهم ستة آلاف، واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم، وطلبتم ذلك الّذي أفلتَ ـ يعني حرقوص بن زُهير ـ فمنعه ستة آلاف وهم على رِجْل، فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون؛ وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأُديلوا عليكم فالّذي حذِرتم وقرِبتم به هذا الأمر أعظم ممّا أراكم تكرهون؛ وأنتم أحميتم مُضَر وربيعة من هذه البلاد، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نُصرةً لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدَث العظيم والذنب الكبير. فقالت أمّ المؤمنين: فتقول أنت ماذا؟ قال: أقول هذا الأمر دواؤه التّسكين، وإذا سكن اختُلِجُوا، فإن أنتم بايعتمونا فعلامةُ خير وتباشير رَحْمة ودرَكُ بثأر هذا الرّجل، وعافية وسلامة لهذه الأمة، وإن أنتم أبيتم إلّا مكابَرة هذا الأمر واعتسافه، كانت علامة شرّ، وذهاب هذا الثأر، وبعثه الله في هذه الأمة هَزاهِزَها، فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مَفاتيح الخير كما كنتم تكونون، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرَّضوا له فيصرعنا وإياكم. وآيم الله إنّي لأقول هذا وأدعوكم إليه وإني لخائفٌ ألّا يتمّ حتى يأخذ الله عزّ وجلّ حاجتَه من هذه الأمة التي قلَّ متاعُها ونزل بها ما نزل، فإنّ هذا الأمر الّذي حدَث أمرٌ ليس يقدّر، وليس كالأمور، ولا كقتل الرّجل الرّجل، ولا النّفر الرجلَ، ولا القبيلة الرجلَ.

فقالوا: نعم، إذاً قد أحسنت وأصبت المقالةَ؛ فارجع فإن قَدم عليٌّ وهو على مثل رأيك صلَح هذا الأمر. فرجع إلى عليّ فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصّلح؛ كَرِه ذلك مَن كرهه، ورضيَه مَنْ رضيه.

وأقبلت وُفود البصرة نحو عليّ حين نزل بذي قار، فجاءت وفود تميم وبكْر قبل رجوع القعقاع لينظروا ما رأى إخوانهم من أهل الكوفة، وعلَى أيّ حال نهضوا إليهم، وليعلِموهم أنّ الذي عليه رأيُهم الإصلاح، ولا يخطر لهم قتالٌ علَى بالٍ. فلمّا لقُوا عشائرَهم من أهل الكوفة بالذي بعثهم فيه عشائرُهم من أهل البصرة وقال لهم الكوفيون مثلَ مقالتهم، وأدخلوهم على عليّ فأخبروه خبرَهم؛ سأل عليٌّ جرير بن شرس عن طلحة والزّبير، فأخبره عن دقيق أمرهما وجليله حتى تمثّل له:

ألا أَبْـلِغْ بَـنـي بَـكْـرٍ رَسـولا ... فَلَيْسَ إلى بَني كَعبٍ سَبيلُ
سَيَـرْجِـعُ ظُلْمَكُمْ مِنْكُمْ عَلَيْكُمْ ... طَـويـلُ السـاعِـدَيْنِ لـه فُضـولُ

وتمثّل عليٌّ عندها:

أَلَـمْ تَـعْـلمْ أبـا سِـمْـعـانَ أَنّـا ... نَـردُّ الشَّيْـخَ مِـثلَكَ ذا الصُّـداعِ!
ويَـذْهَـلُ عَـقْلهُ بـالـحَـرْبِ حَـتى ... يَـقـومَ فَيَسْتـجيبَ لِغَـيْـرِ داعِ
فـدافَـعَ عن خُـزاعَـةَ جَمْـعُ بَكْـرٍ ... ومـا بـك يـا سُـراقَـةُ مِنْ دِفـاعِ

قال أبو جعفر: أخرج إليّ زيادُ بن أيوب كتاباً فيه أحاديث عن شيوخ ذكر أنه سمعها منهم؛ قرأ عليَّ بعضَها ولم يقرأ عليّ بعضها، فممّا لم يقرأ عَليّ من ذلك فكتبتُه منه؛ قال: حدّثنا مُصعب بن سلام التميميّ، قال: حدّثنا محمد بن سُوقة، عن عاصم بن كُليب الجرميّ، عن أبيه، قال: رأيتُ فيما يرى النائم في زمان عثمان بن عفان أنّ رجلاً يلي أمورَ الناس مريضاً على فراشه وعند رأسه امرأةٌ؛ والناس يريدونه ويَبْهَشُون إليه، فلو نهتهم المرأة لا نتهوْا؛ ولكنها لم تفعل، فأخذوه فقتلوه. فكنتُ أقصّ رؤيايَ على الناس في الحضَر والسفر، فيعجبون ولا يدرون ما تأويلها! فلما قتل عثمان رضي الله عنه أتانا الخبرُ ونحن راجعون من غَزاتنا؛ فقال أصحابنا: رؤياكَ يا كُليب. فانتهينا إلى البصرة فلم نلبث إلّا قليلاً حتى قيل: هذا طلحة والزّبير معهما أمّ المؤمنين؛ فراعَ ذلك الناسَ وتعجّبوا، فإذا هم يزعمون للناس أنهم إنما خرجوا غِضَباً لعثمان وتوبةً مما صنعوا من خذلانه، وإنّ أمّ المؤمنين تقول: غضبنا لكم على عثمان في ثلاث: إمارة الفُتيّ، وموقع الغمامة، وضربة السوط والعصا، فما أنصفنا إن لم نغضب له عليكم في ثلاث جررتموها إليه: حرمة الشهر، والبلد، والدم. فقال الناس: أفلم تُبايعوا عليًّا وتدخلوا في أمره! فقالوا: دخلنا واللُّجّ على أعناقنا. وقيل هذا عليّ قد أظلّكم، فقال قومُنا لي ولرجلين معي: انطلقوا حتى تأتوا عليًّا وأصحابَه فسلوهم عن هذا الأمر الّذي قد اختلط علينا؛ فخرجنا حتى إذا دنونا من العسكر طلع علينا رجل جميل على بغلة، فقلت لصاحبيّ: أرأيتم المرأةَ التي كنت أحدّثكم عنها أنها كانت عند رأس الوالي؟ فإنها أشبه الناس بهذا، ففطن أنّا نخوضُ فيه، فلما انتهى إلينا قال: قفوا، ما الّذي قلتم حين رأيتموني؟ فأبينا عليه، فصاح بنا وقال: والله لا تبرحون حتى تخبروني، فدخلتنا منه هيبةٌ، فأخبرناه، فجاوزَنا وهو يقول: والله لقد رأيت عجباً، فقلنا لأدنى أهل العسكر إلينا: مَن هذا؟ فقال: محمّد بن أبي بكر، فعرفنا أن تلك المرأة عائشة رضي الله عنها، فازددنا لأمرها كراهيةً، وانتهينا إلى عليّ فسلمنا عليه، ثم سألناه عن هذا الأمر، فقال: عَدا الناس على هذا الرّجل وأنا مُعتزل فقتلوه، ثمّ ولَّوني وأنا كارهٌ ولولا خشية على الدّين لم أجبهم، ثمّ طفق هذان في النّكث فأخذت عليهما وأخذتُ عهودهما عند ذلك، وأذنْتُ لهما في

العُمْرة، فقدما على أمّهما حليلة رسول الله ﷺ فرضيا لها ما رغبا لنسائهما عنه، وعرّضاها لما لا يحلّ لهما ولا يصلح؛ فاتّبعتُهما لكيلا يفتقوا في الإسلام فتقاً، ولا يخرقوا جماعة.

ثم قال أصحابه: والله ما نُريد قتالهم إلاّ أن يقاتلوا وما خرجنا إلاّ لإصلاح. فصاح بنا أصحابُ عليّ: بايعوا بايعوا، فبايع صاحبيَّ، وأمّا أنا فأمسكتُ وقلت: بعثني قومي لأمر، فلا أحدِث شيئاً حتى أرجع إليهم. فقال عليّ: فإن لم يفعلوا؟ فقلتُ: لم أفعل، فقال: أرأيتَ لو أنهم بعثوك رائداً فرجعت إليهم، فأخبرتَهم عن الكَلإ والماء فحالوا إلى المعاطش والجُدوبة ما كنت صانعاً؟ قال: قلتُ: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلإ والماء، قال: فمدّ يدك، فوالله ما استطعتُ أن أمتَنع، فبسطتُ يدي فبايعتُه. وكان يقول: عليٌّ من أدْهَى العرب. وقال: ما سمعتَ من طلحة والزّبير؟ فقلتُ: أما الزّبير فإنه يقول: بايعنا كرهاً، وأمّا طلحة فمقبل على أن يتمثّل الأشعارَ، ويقول:

ألاَ أبلِغ بني بكرٍ رسولاً فليسَ إلى بني كَعب سبيلُ
سيَرجِعُ ظُلمَكمْ منكمْ عليكمْ طويلُ السَّاعدين له فضُولُ

فقال: ليس كذلك، ولكن:

ألمْ تعْلَمْ أبا سِمْعان أنَّا نُصِمّ الشَّيخ مثلك ذَا الصُّداعِ
ويذْهَلْ عقلُه بالحرب حتّى يقومَ فَيستجيب لغير داعِ

ثم سار حتى نزل إلى جانب البصرة؛ وقد خَنْدق طليحة والزّبير، فقال لنا أصحابنا من أهل البصرة: ما سمعتم إخواننا من أهل الكوفة يريدون ويقولون؟ فقلنا: يقولون خرجنا للصّلح وما نريد قتالاً؛ فبينا هم على ذلك لا يحدّثون أنفسهم بغيره، إذْ خَرج صبيان العسكرين فتسابّوا ثم ترامَوْا، ثم تتابع عبيدُ العسكرين، ثم ثلّث السفهاء، ونشبت الحرب، وألجأتهم إلى الخندق، فاقتتلوا عليه حتى أجْلَوْا إلى موضع القتال؛ فدخل منه أصحاب عليّ وخرج الآخرون.

ونادى عليّ: ألا لا تُتبعوا مُدبِرا، ولا تُجْهِزوا على جَريح، ولا تدخلوا الدّور، ونَهى الناسَ، ثم بعث إليهم أن اخرجوا للبيعة، فبايعهم على الرّايات وقال: من عرف شيئاً فلْيأخذه، حتى ما بقي في العسكرين شيء إلاّ قبض، فانتهى إليه قوم من قيس شباب، فخطب خطيبُهم، فقال: أين أمراؤكم؟ فقال الخطيب: أصيبوا تحت نُظّار الجمل؛ ثمّ أخذ في خطبته، فقال عليٌّ: أما إنّ هذا لهو الخطيب السحْسَح. وفرغ من البيعة؛ واستعمل عبدالله بن عباس وهو يُريد أن يقيم حتى يحكم أمرها، فأمرني الأشتر أن أشتريَ له أثمنَ بَعير بالبصرة ففعلتُ، فقال: ائت به عائشة، وأقرئها مني السلام، ففعلتُ، فدعتْ عليه وقالت: اردُدْه عليه؛ فأبلغته، فقال: تلومُني عائشة أن أفلتُّ ابنَ أختها!

وأتاه الخبر باستعمال عليّ بنَ عباس فغضب وقال: علامَ قتلنا الشيخ! إذ اليَمَنُ لعبيد الله، والحجاز لقُثَم، والبصرة لعبدالله، والكوفة لعليّ. ثم دعا بدابّته فركب راجعاً. وبلغ ذلك عليًّا فنادى: الرّحيل، ثمّ أجَدَّ

السّير فلحق به فلم يُره أنه قد بلغه عنه وقال: ما هذا السير؟ سبقتَنا! وخشيَ إن تُركَ والخروج أن يُوقع في أنفس الناس شرًّا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: لما جاءت وفودُ أهل البصرة إلى أهل الكوفة ورجع القعقاع من عند أمّ المؤمنين وطلحة والزّبير بمثل رأيهم، جمع عليّ الناس، ثمّ قام على الغرائر، فحمِد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه وصلى على النبيّ ﷺ. وذكر الجاهليّة وشقاءَها والإسلامَ والسعادة وإنعامَ الله على الأمّة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ﷺ، ثمّ الذي يليه، ثمّ حدّث هذا الحدث الّذي جرّه على هذه الأمّة أقوامٌ طلبوا هذه الدنيا، حسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة، وأرادوا رَدَّ الأشياء على أدبارها، والله بالغٌ أمره، ومصيبٌ ما أراد. ألا وإنّي راحلٌ غداً فارتحلوا، ألاّ ولا يرتحلنّ غداً أحدٌ أعان على عُثْمان بشيء في شيء من أمور الناس، وليُغْنِ السفهاء عني أنفسهم.

فاجتمع نفرٌ، منهم عِلباء بن الهيثم، وعديّ بن حاتم، وسالم بن ثعلبة العبسيّ، وشُرَيح بن أوفى بن ضُبَيعة، والأشتر؛ في عدّة ممن سار إلى عثمان: ورضيَ بسيْر مَن سار، وجاء معهم المصريون: ابن السوداء وخالد بن ملجم وتشاوروا، فقالوا: ما الرّأي؟ وهذا والله عليّ، وهو أبصر النّاس بكتاب الله وأقرب ممّن يطلب قتلة عثمان وأقربهم إلى العمل بذلك، وهو يقول ما يقول، ولم ينفر إليه إلّا هم والقليلُ من غيرهم، فكيف به إذا شامّ القوم وشامّوه، وإذا رأوا قِلّتنا في كثرتهم! أنتم والله ترادُون، وما أنتم بأنْجَى من شَيْء. فقال الأشتر: أمّا طلحة والزّبير فقد عرفنا أمْرَهما، وأمّا عليّ فلم نعرف أمره حتى كان اليوم، ورأيُ الناس فينا والله واحد، وإن يصطلحوا وعليّ فعَلَى دمائنا؛ فهلمّوا فلنتواثبْ على عليّ فنلحِقه بعثمان؛ فتعود فتنة يُرضَى منّا فيها بالسّكون.

فقال عبدالله بن السوداء: بئس الرّأي رأيت! أنتمْ يا قتلةَ عثمان من أهل الكوفة بذي قارٍ ألفان وخمسمائة أو نحو من ستمائة، وهذا ابن الحنظليّة وأصحابُه في خمسة آلاف بالأشواق إلى أن يجدوا إلى قتالكم سبيلاً، فارقأ على ظَلْعك.

وقال عِلباء بن الهيثم: انصرفوا بنا عَنْهُم ودعوهم، فإن قلّوا كان أقوى لعدّوهم عليهم، وإن كثروا كان أحرى أن يصطلحوا عليكم؛ دَعُوهم وارجعوا فتعلّقوا ببلد من البُلْدان حتى يأتيَكم فيه مَن تتّقون به، وامتنعوا من الناس. فقال ابن السوداء: بئس ما رأيت! ودّ والله الناس أنكم على جَديلة، ولم تكونوا مع أقوام براء، ولو كان ذلك الذي تقول لتخطّفكم كلّ شيء. فقال عديّ بن حاتم: والله ما رضيتُ ولا كرهت، ولقد عجبت مِن تردّد مَن تَرَدَّد عن قتله في خوض الحديث، فأمّا إذ وقع ما وقع ونزل من الناس بهذه المنزلة، فإنّ لنا عتاداً من خيول وسلاح محموداً، فإن أقدمتم أقْدَمْنا وإن أمسكتم أحجمنا. فقال ابن السّوداء: أحسنت!

وقال سالم بن ثعلبة: مَنْ كان أراد بما أتى الدّنيا فإنّي لم أرِدْ ذلك، والله لئن لقيتُهم غداً لا أرجع إلى بيتي، ولئن طال بقائي إذا أنا لاقيتُهُم لا يزد على جَزْر جَزور. وأحلف بالله إنكم لتفرَقون السيوف فرَق قوم لا تصير أمورُهم إلاّ إلى السّيف. فقال ابن السوداء: قد قال قولاً.

وقال شريح بن أوفى: أبرِمَوا أمَوركم قبل أن تخرجوا، ولا تؤخّروا أمراً ينبغي لكم تعجيلُه؛ ولا تعجّلوا

أمراً ينبغي لكم تأخيره؛ فإنّا عندَ الناس بشرّ المنازل، فلا أدري ما الناس صانِعون غداً إذا ما هم التقوا!

وتكلّم ابن السوداء فقال: يا قوم، إنّ عزّكم في خُلْطة الناس، فصانعوهم، وإذا التقى النـاس غداً فأنشبوا القتال، ولَا تفرّغوهم للنظر، فإذا مَن أنتم معه لا يجد بدّاً من أن يمتنع؛ ويشغل الله عليّاً وطلحة والزبير ومن رَأى رأيهم عمّا تكرهون. فأبصَروا الرّأي، وتفرّقوا عليه والناس لا يشعرون.

وأصبح عليّ على ظَهر، فمضى ومضى الناس حتى إذا انتهى إلى عَبْد القيس نزل بهم وبمن خرج من أهل الكوفة وهم أمام ذلك، ثم ارتحل حتى نزل على أهل الكوفة وهو أمام ذلك، والناس متلاحِقون به وقد قطعهم، ولما بلغ أهلَ البصرة رأيُهم ونزل عليٌّ بحيث نزل، قام أبو الجرباء إلى الزّبير بن العوّام فقال: إنّ الرّأي أن تبعث الآن ألف فارس فيمسّوا هذا الرّجل ويصبّحوه قبل أن يوافي أصحابه؛ فقال الزّبير: يا أبا الجرباء، إنا لنعرف أمور الحرب؛ ولكنهم أهل دعوتنا؛ وهذا أمر حدث في أشياء لم تكن قبل اليوم، هذا أمرٌ مَنْ لم يلق الله عزّ وجلّ فيه بعذر انقطع عذره يوم القيامة؛ ومع ذلك إنه قد فارقَنا وافدُهم على أمرٍ، وأنا أرجو أن يتمّ لنا الصّلح؛ فأبشروا واصبروا. وأقبل صَبْرة بن شَيْمان فقال: يا طلحة، يا زبير، انتهزا بنا هذا الرّجُل فإنّ الرّأي في الحرب خيرٌ من الشدّة. فقالا: يا صَبْرة إنا وهم مسلمون، وهذا أمرٌ لم يكن قبل اليوم فينزل فيه قرآن، أو يكون فيه من رسول الله ﷺ سُنّة، إنما هو حدَث. وقد زعم قوم أنه لا ينبغي تحريكه اليوم. وهمّ عليّ ومَنْ معه، فقلنا: نحن لا ينبغي لنا أن نتركه اليوم ولا نؤخّره. فقال عليّ: هذا الّذي ندعوكم إليه من إقرار هؤلاء القوم شرّ وهو خير من شرّ منه، وهو كأمر لا يدرك، وقد كاد أن يبين لنا، وقد جاءت الأحكام بين المسلمين بـإيثار أعمّهـا منفعةً وأحوَطِها. وأقبل كعب بن سُور فقال: ما تنتظرون يا قوم بعد تورّدكم أوائلهم! اقطعوا هذا العُنق من هؤلاء. فقالوا: يا كعب، إنّ هذا أمر بيننا وبين إخواننا، وهو أمرٌ ملتبس، لا والله ما أخذ أصحابُ محمد ﷺ مذ بعث الله عزّ وجلّ نبيّه طريقاً إلّا علموا أين مواقع أقدامهم؛ حتى حدث هـذا فإنهم لا يـدرون أمُقبلون هم أم مدبرون! إن الشيء يحسن عندنا اليوم ويقـبح عند إخواننا؛ فإذا كان من الغد قَبُحَ عندنا وحسن عندهم؛ وإنا لنحتجّ عليهم بالحجّة فلا يروْنها حجّة، ثم يحتجّون بها على أمثالها، ونحن نرجو الصّلح إن أجابوا إليه وتمّوا، وإلّا فإن آخر الدواء الكيّ.

وقام إلى عليّ بن أبي طالب أقوامٌ من أهل الكوفة يسألونه عن إقدامهم على القوم، فقام إليه فيمن قام الأعورُ بن بُنان المِنْقريّ؛ فقال له عليّ: على الإصلاح وإطفاء النائرة، لعلّ الله يجمع شمل هذه الأمة بنا ويضع حَرْبَهم؛ وقد أجابوني، قال: فإن لم يجيبونا؟ قال: تركناهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا؟ قال: دفعناهم عن أنفسنا، قال: فهل لهم مثل ما علیهم من هذا؟ قال: نعم.

وقام إليه أبو سلامة الدّألانيّ فقال: أترى لهؤلاء القوم حجّة فيما طلبوا من هذا الدم، إن كانوا أرادوا الله عزّ وجلّ بذلك؟ قال: نعم، قال: فترى لك حجّة بتأخيرك ذلك؟ قال: نعم، إنّ الشيء إذا كان لا يُدرك فالحكم فيه أحوطُه وأعمُّه نفعاً، قال: فما حالنا وحالكم إن ابتلينا غداً؟ قال: إنّي لأرجو ألاّ يُقتَل أحدٌ نَقّى قلبه لله منّا ومنهم إلا أدخله الله الجنّة.

وقام إليه مالك بن حبيب، فقال: ما أنت صانع إذا لقيتَ هؤلاء القوم؟ قال: قـد بان لنـا ولهم أن

الإصلاح الكفّ عن هذا الأمر، فإنْ بايعونا فذلك، فإن أبْوا وأبينا إلّا القتال فصَدْعٌ لا يلتئم؛ قال: فإن ابتلينا فما بال قتلانا؟ قال: من أراد الله عزّ وجلّ نفعه ذلك وكان نجاءه.

وقام عليّ، فخطب الناس فحمِد الله وأثنى عليه وقال: يا أيُّها الناس، املكوا أنفسكم، كفُّوا أيديكم وألسنتكم عن هؤلاء القوم، فإنهم إخوانكم، واصبروا على ما يأتيكم، وإياكم أن تسبقونا فإنّ المخصوم غداً من خَصم اليوم.

ثم ارتحل وأقدم ودفع تعبيته التي قدم فيها حتى إذا أطلّ على القوم بعث إليهم حَكيم بن سلامة ومالك بن حبيب: إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفّوا وأقِرّونا ننزل وننظر في هذا الأمر.

فخرج إليه الأحنف بن قيس وبنو سعد مشمّرين؛ قد منعوا حرقوص بن زهير، ولا يرون القتِال مع عليّ بن أبي طالب. فقال: يا عليّ، إنّ قومنا بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم غداً أنك تقتل رجالهم وتسبي نساءَهم. فقال: ما مثلي يُخاف هذا منه، وهل يحلّ هذا إلّا ممّن تولّى وكَفَر، ألم تسمع إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إلاَّ مَنْ تَولَّى وَكَفَر ﴾ [1]، وهم قوم مسلمون! هل أنت مُغنٍ عني قومك؟ قال: نعم، واخْتَر مني واحدةً من ثنتين، إمّا أن أكون آتيك فأكون معك بنَفْسي، وإمّا أن أكفّ عنك عشرة آلاف سيف. فرجع إلى الناس فدعاهم إلى القُعود وقد بدأ فقال: يالَ خِنْدف، فأجابه ناسٌ، ثمّ نادَى يال تميم! فأجابه ناسٌ، ثم نادى: يالَ سعد؛ فلم يبق سعديّ إلّا أجابه، فاعتزل بهم، ثم نظرَ ما يصنع الناس، فلما وقع القِتال وظفر عليّ جاؤوا وافرين، فدخلوا فيما دخل فيه الناس.

وأما الذّي يرويه المحدّثون من أمر الأحنف، فغير ما رواهُ سيفٌ عمن ذكر من شيوخه. والذي يرويه المحدّثون من ذلك ما حدّثني يعقوب بن إبراهيم، قال: حدّثنا ابن إدريس، قال: سمعت حُصيناً يذكر عن عمرو بن جأوان، عن الأحنف بن قيس، قال: قدمنا المدينةَ ونحن نريد الحجّ، فإنا لبمنازلنا نضع رحالَنا إذ أتانا آتٍ فقال: قد فزِعوا وقد اجتمعوا في المسجد، فانطلقنا فإذا الناس مجتمعون على نَفَر في وسط المسجد، وإذا عليّ والزّبير وطلحة وسعد بن أبي وقّاص، وإنا لكذلك إذ جاء عثمان بن عفان؛ فقيل: هذا عثمان قد جاء وعليه مُلَيئة له صفراء قد قنّع بها رأسه، فقال: أهاهنا عليّ؟ قالوا: نعم، قال: أهاهنا الزّبير؟ قالوا: نعم، قال: أهاهنا طلحة؟ قالوا: نعم، قال أنشدكم بالله الذي لا إله إلّا هو؛ أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ قال: من يَبْتَعْ مِرْبد بني فلان غفر الله له؛ فابتعتُه بعشرين أو بخمسة وعشرين ألفاً، فأتيتُ النبيّ ﷺ فقلت: يا رسولَ الله، قد ابتعته، قال: « اجعله في مسجدنا وأجرُهُ لك »! قالوا: اللهمّ نعم، وذكر أشياء من هذا النوّع. قال الأحنف: فلقيتُ طلحةَ والزّبير فقلتُ: من تأمُراني به وترضيانه لي؟ فإني لا أرى هذا الرّجل إلّا مقتولاً، قالا: عليّ؟ قلتُ: أتأمراني به وترضيانه لي؟ قالا: نعم، فانطلقتُ حتى قدِمت مكة، فبينا نحن بها إذ أتانا قتلُ عثمان رضي الله عنه وبها عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، فلقيتُها فقلت: من تأمريني أن أبايع؟ قالت: عليّ، قلتُ: تأمرينني به وترضينه لي؟ قالت: نعم؛ فمررتُ على عليّ بالمدينة فبايعتُه، ثمّ رجعت إلى أهلي بالبصرة ولا أرى الأمر إلّا قد

---

(١) سورة الغاشية: ٢٢ ـ ٢٣.

استقامَ، قال: فبينا أنا كذلك، إذ آتاني آتٍ فقال: هذه عائشة وطلحة والزّبير قد نزلوا جانب الخُرَيْبة، فقلت: ما جاء بهم؟ قالوا: أرسلوا إليك يدعونك يستنصرون بك على دَم عثمان رضي الله عنه، فأتاني أفظعُ أمر أتاني قطّ! فقلت: إنّ خِذْلاني هؤلاء ومعهم أمّ المؤمنين وحواريّ رسول الله ﷺ لَشديد، وإنّ قتالي رجلاً ابن عمّ رسول الله ﷺ قد أمروني ببيعته لشديد. فلما أتيتهم قالوا: جئنا لنستنصر على دم عثمان رضي الله عنه، قُتل مظلوماً؛ فقلت: يا أمّ المؤمنين، أنشدك بالله أقلتُ لك: مَن تأمريني به؟ فقلت: عليّ؟ فقلتُ: تأمرينني به وترضيْنه لي؟ قلتِ نعم! قالت: نعم، ولكنه بدّل. فقلت: يا زُبيريا حواريّ رسول الله ﷺ، يا طلحة، أنشدكما الله، أقلتُ لكما: ما تأمراني فقلتما: عليّ؟ فقلت: أتأمراني به وترضيانه لي؟ فقلتما نعم! قالا: نعم، ولكنه بدّل، فقلتُ: والله لا أقاتِلُكم ومعكم أمّ المؤمنين وحواريّ رسول الله ﷺ ولا أقاتِل رجلاً ابن عمّ رسول الله ﷺ، أمرتموني ببيعته؛ اختاروا مني واحدةً من ثلاث خِصال: إما أن تفتحوا لي الجسر فألحق بأرض الأعاجِم حتى يقضيَ الله عزّ وجلّ مِن أمره ما قَضى، أو ألحق بمكّة فأكون فيها حتى يقضي الله عزّ وجلّ من أمره ما قضى، أو أعتزل فأكونُ قريباً. قالوا: إنا نأتمر، ثم نرسل إليك. فائتمروا فقالوا: نفتح له الجسرَ ويخبرهم بأخباركم! ليس ذاكم برأي، اجعلوه ها هنا قريباً حيث تطئون على صِماخه وتنظرون إليه. فاعتزل بالجلحاء من البصرة على فرسخين، فاعتزل معه زُهاءُ على ستة آلاف.

ثم التقى القوم فكان أوّل قتيل طلحة رضي الله عنه، وكعب بن سُور معه المصحف يذكّر هؤلاء وهؤلاء؛ حتى قتل مَنْ قتل منهم، ولحق الزبير بسَفَوان، من البصرة كمكان القادسيَّة منكم، فلقيه النَّعِر؛ رجلٌ من مجاشع، فقال: أين تذهب يا حواريّ رسول الله ﷺ؟ إليّ فأنت في ذمتي لا يوصَل إليك؛ فأقبل معه؛ فأتى الأحنف خبرُه فقيل: ذاك الزّبير قد لُقي بِسَفَوان فما تأمر؟ قال: جَمَع بين المسلمين حتى ضرب بعضُهم حواجب بعض بالسيوف ثم يلحق ببيته، فسمعه عمير بن جُرموز وفَضَالة بن حابس، ونُفيع؛ فركبوا في طلبه، فلقوه مع النَّعِر، فأتاه عمير بن جرموز من خلفه وهو على فرس له ضعيفة، فطعنه طعنةً خفيفة، وحمل عليه الزّبير وهو على فرس له يقال له ذو الخِمار، حتى إذا ظنّ أنه قاتِله نادى عمير بن جُرموز: يا نافع، يا فضالة، فحملوا عليه فقتلوه.

حدّثني يعقوب بن إبراهيم، قال: معتمر بن سليمان، قال: نبّأني أبي، عن حصين، قال: حدّثنا عمرو بن جاوان؛ رجل من بني تميم، وذاك أني قلت له: أرأيتَ اعتزال الأحنف ما كان؟ فقال: سمعت الأحنفَ يقول: أتيتُ المدينةَ وأنا حاجّ؛ فذكر نحوه. الحمد لله على ما قضى وحَكَم.

بعثة عليّ بن أبي طالب من ذي قار ابنه الحسن وعمّار بن ياسر ليستنفرا له أهل الكوفة

حدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا بشير بن عاصم، عن ابن أبي ليلى، عن أبيه، قال: خرج هاشم بن عتبة إلى عليّ بالرّبذَة؛ فأخبره بقُدوم محمد بن أبي بكر وقول أبي موسى، فقال: لقد أردتُ عزله، وسألني الأشترُ أن أقِرّه فردّ عليّ هاشماً إلى الكوفة وكتب إلى أبي موسى: إنّي وَجّهْت هاشم بن عتبة لِيُنهض مَنْ قبَلك من المسلمين إليّ، فأشخِص الناس فإني لم أولّك الذي أنت به إلاّ لتكون من أعواني على الحقّ.

فدعا أبو موسى السائب بن مالك الأشعريّ، فقال له: ما ترى؟ قال: أرى أن تتبع ما كتب به إليك، قال: لكني لا أرى ذلك. فكتب هاشم إلى عليّ: إني قد قدِمْتُ على رجُل غالٍ مشاقٍّ ظاهر الغلّ والشنآن. وبعث بالكتاب مع المُحلّ بن خليفة الطائيّ. فبعث عليّ الحسن بن عليّ وعمّار بن ياسر يستنفران له الناس، وبعث قَرظَة بن كعب الأنصاريّ أميراً على الكوفة، وكتب معه: إلى أبي موسى: أما بعد، فقد كنت أرى أن بعدك من هذا الأمر الّذي لم يجعل الله عزّ وجلّ لك منه نصيباً سيمنعك من ردّ أمري، وقد بعثتُ الحسنَ بن عليّ وعمّار بن ياسر يستنفران الناس، وبعثتُ قَرظة بن كعب والياً علىَ المصر، فاعتزل عَمَلَنا مذموماً مدحوراً، فإن لم تفعل فإنّي قد أمرته أن ينابِذك، فإن نابذته فظفر بك أن يقطّعك آراباً.

فلما قدِم الكتابُ على أبي موسى اعتزل، ودخل الحسن وعمار المسجد فقالا: أيّها الناس، إنّ أمير المؤمنين يقول: إني خرجتُ مخرَجي هذا ظالماً أو مظلوماً؛ وإني أذكّر الله عزّ وجلّ رجلاً رعى لله حقّاً إلا نفر، فإن كنتُ مظلوماً أعانني، وإن كنت ظالماً أخذ مني، والله إنّ طلحة والزّبير لأوّلُ من بايعني، وأوّلُ من غدر، فهل استأثرتُ بمال، أو بدّلت حُكماً! فانفِروا، فمُروا بمعروف وانهَوْا عن منكر.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا أبو مِخنف، عن جابر، عن الشعبيّ، عن أبي الطُّفَيْل، قال: قال عليٌّ: يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألفَ رجل ورجل، فقعدت على نَجَفةِ ذي قار، فأحصيتُهم فما زادوا رجلاً، ولا نقصوا رجلاً.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن بشير بن عاصم، عن ابن أبي ليلى، عن أبيه، قال: خرج إلى عليّ اثنا عشر ألف رجل، وهم أسباع على قريش وكنانة وأسَد وتميم والرِّباب ومُزينة معقل بن يسار الرّياحيّ، وسُبْع قيس عليهم سعد بن مسعود الثقفيّ، وسُبْع بكر بن وائل وتغلِب عليهم وَعْلة بن مخدوج الذّهلي، وسُبْع مَذْحِج والأشعَرِين عليهم حُجْر بن عديّ، وسُبْعُ بجيلة وأنمار وخَثْعم والأزْد عليهم مِخنف بن سُلَيم الأزديّ.

نزول عليّ الزاويةَ من البصرة

حدّثني عمر بن شبَّة، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن مسلمة بن محارب، عن قتادة، قال: نزل عليٌّ الزاويةَ وأقام أياماً، فأرسل إليه الأحنف: إن شئتَ أتيتُك، وإن شئتَ كففتُ عنك أربعة آلاف سيف، فأرسل إليه عليٌّ: كيف بما أعطيت أصحابَك من الاعتزال! قال: إنّ من الوفاء لله عزّ وجلّ قتالَهم، فأرسل إليه: كُفَّ مَن قدرتَ على كفّه. ثم سار عليٌّ من الزّاوية، وسار طلحة والزبير وعائشة من الفُرْضَة، فالتَقَوْا عند موضع قصر عُبيد الله - أو عبد الله - بن زياد، فلما نزل الناسُ أرسل شقيق بن ثور إلى عمرو بن مرحوم العبديّ: أن اخرج، فإذا خرجتَ فمِلْ بنا إلى عسكر عليّ. فخرجا في عبد القَيْس وبكر بن وائل، فعدَلوا إلى عسَكر أمير المؤمنين، فقال الناس: مَن كان هؤلاء معه غَلب، ودفع شَقيق بن ثور رايتهم إلى مولىً له يقال له: رَشْراشة، فأرسل إليهٔ وَعْلة بن محدوج الذُّهْلي: ضاعت الأحساب، دفعتَ مكرُمة قومك إلى رَشراشة، فأرسل شقيق: أن أغنِ شأنَك؛ فإنا نُغني شأنَنا. فأقاموا ثلاثةَ أيام لم يكن بينهم قتال، يرسل إليهم عليّ، ويكلّمهم ويردَعهم.

حدّثنا عمر، قال: حدّثنا أبو بكر الهُذَليّ، عن قتادة، قال: سار عليٌّ من الزاوية يريد طلحة والزبير

وعائشة، وساروا من الفُرْضة يريدون عليّاً، فالتقَوْا عند موضع قصرِ عُبيد الله بن زياد في النصف من جمادى الآخرة سنة ستٍّ وثلاثين يوم الخميس، فلما تراءى الجَمعان خرج الزبيرعلى فرس عليه سلاح، فقيل لعليّ: هذا الزبير؛ قال: أما إنه أحرى الرّجلين إن ذُكّر بالله أن يذكره، وخرج طلحة، فخرج إليهما عليّ، فدنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابّهم، فقال عليّ: لعَمري لقد أعددتُما سلاحاً وخيلاً ورجالاً، إن كنتما أعددتُما عند الله عذراً فاتّقيا الله سبحانه، ولا تكونا كالتي نَقضتْ غزلَها من بعد قوّة أنكاثاً. ألم أكن أخاكما في دينكما، تحرِّمان دمي وأحرِّم دماءكما! فهل من حَدَث أحلّ لكما دمي؟ قال: طلحة: ألّبْت الناسَ على عثمان رضي الله عنه، قال عليّ: ﴿ يَوْمَئذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُم الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ الْمُبِين ﴾ (١)؛ يا طلحة، تطلُب بدم عثمان رضي الله عنه! فلعن الله قَتَلَة عثمانَ. يا زبير، أتذكر يوم مررتَ مع رسول الله ﷺ في بني غَنْم، فنظر إليّ فضحك وضحكت إليه، فقلتَ: لا يَدعَ ابن أبي طالب زَهوَه، فقال لك رسولُ الله ﷺ: « صَه، إنه ليس به زهو، ولتقاتلَنه وأنت له ظالم »؟ فقال: اللهمّ نعم، ولو ذكرتُ ما سرتُ مسيري هذا، والله لا أقاتلك أبداً.

فانصرف عليّ إلى أصحابه، فقال: أمّا الزّبير فقد أعطى الله عهداً ألاّ يقاتلكم، ورجع الزبير إلى عائشة فقال لها: ما كنت في موطن منذ عقلت إلاّ وأنا أعرف فيه أمري غيرمَوطِني هذا، قالت: فما تريد أن تصنع؟ قال: أريد أن أدعَهم وأذهب؛ فقال له ابنه عبدالله: جمعتَ بين هذين الغارَيْن، حتى إذا حدّد بعضهم لبعض أردتَ أن تتركهم وتذهب! أحسست رايات ابن أبي طالب، وعلمتَ أنها تحملها فتيةٌ أنجاد؛ قال: إني قد حلفتُ ألاّ أقاتله، وأحفَظَه ما قال له، فقال: كفِّر عن يمينك، وقاتلْه، فدعا بغلام له يقال له مكحول، فأعتقه، فقال عبد الرحمن بن سليمان التيميّ:

لم أرَ كاليومِ أخا إخوانِ أعْجَبُ مِنْ مُكَفِّرِ الأيمانِ
بالعِتقِ في مَعْصِيَةِ الرَّحْمٰن

وقال رجل من شعرائهم:

يُعتِقُ مَكْحولا لصَونِ دينِهْ كفّارةً لله عن يَمِينِهْ
والنَّكثُ قد لاحَ على جَبِينِهْ

رجع الحديث إلى حديث سيف عن محمد وطلحة: فأرسل عمران بن حُصين في الناس يخذّل من الفريقين جميعاً، كما صنع الأحنف، وأرسل إلى بني عديّ فيمن أرسل، فأقبل رسولُه حتى نادى على باب مسجدهم: ألاَ إنّ أبا نُجَيْد عمران بن الحُصين يقرئكم السلام، ويقول لكم: والله لأن أكون في جبل حَضَن مع أعنُز خضْر وضأن، أجزُّ أصوافها، وأشرَب ألبانَها، أحبُّ إليّ من أن أرميَ في شيء من هذين الصفين بسهم، فقالت بنو عديّ جميعاً بصوت واحد: إنا والله لا نَدَع ثقلَ رسول الله ﷺ لشيء - يَعنُون أمّ المؤمنين.

حدّثنا عمرو بن عليّ، قال: حدّثنا يزيد بن زُرَيع، قال: حدّثنا أبو نعامة العدويّ، عن حُجَير بن الربيع، قال: قال لي عمران بن حصين: سرْ إلى قومك أجمعَ ما يكونون، فقم فيهم قائماً، فقل: أرسلَني إليكم

(١) سورة النور: ٢٥.

عمران بن حصين صاحبُ رسول الله ﷺ، يقرأ عليكم السلام ورحمةَ الله، ويحلف بالله الذي لا إله إلّا هو، لأن يكون عبداً حبشياً مجدَّعاً يرعَى أعنزاً حضنيّاتٍ في رأس جبل حتى يدركَه الموت، أحبّ إليّ من أن يرمي بسهم واحد بين الفريقين؛ قال: فرفع شيوخُ الحيّ رؤوسهم إليه، فقالوا: إنا لا نَدَع ثقلَ رسول الله ﷺ لشيء أبداً.

رجع الحديث إلى حديث سيف عن محمد وطلحة: وأهل البصرة فِرَق: فرقة مع طلحة والزبير، وفرقة مع عليّ، وفرقة لا ترى القتال مع أحد من الفريقين، وجاءت عائشةُ رضي الله عنها من منزلها الذي كانت فيه حتى نزلت في مسجد الحُدّان في الأزْد، وكان القتال في ساحتهم، ورأس الأزد يومئذ صَبْرة بن شَيْمان، فقال له كعب بن سور: إنّ الجموع إذا تراءَوا لم تستطع، وإنما هي بحور تَدفَّق، فأطِعني ولا تشهدهم، واعتزل بقومك، فإني أخاف ألّا يكون صُلح، وكن وراءَ هذه النطفة، ودع هذين الغارَيْن من مُضَر وربيعة، فهما أخَوان، فإن اصطلحا فالصّلح ما أردنا، وإن اقتتلَا كنا حكّاماً عليهم غداً ـ وكان كعبٌ في الجاهليَّة نصرانيّاً ـ فقال صبرة: أخشى أن يكون فيك شيء من النصرانيَّة؛ أتأمرني أن أغيبَ عن إصلاح بين الناس، وأن أخذُل أم المؤمنين وطلحة والزبير إن ردّوا عليهم الصلح، وأدَع الطلبَ بدم عثمانَ! لا والله لا أفعلُ ذلك أبداً، فأطبق أهلُ اليمن على الحضور.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الضُّرَيس البَجَليّ، عن ابن يعمَر، قال: لما رجع الأحنف بنُ قيس من عند عليّ لقيه هلالُ بن وكيع بن مالِك بن عمرو، فقال: ما رأيك؟ قال: الاعتزال، فما رأيُك؟ قال: مكانفة أمّ المؤمنين، أفتدَعنا وأنت سيّدنا! قال: إنما أكون سيِّدكم غداً إذا قتِلتَ وبقيتُ؛ فقال هلال: هذا وأنت شيخُنا! فقال: أنا الشيخ المعْصيّ، وأنت الشابّ المطاع. فاتّبعتْ بنو سعد الأحنف، فاعتزل بهم إلى وادي السباع، واتّبعت بنو حنظلة هلالا، وتابعت بنو عمرو أبا الجرباء فقاتلوا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد، عن أبي عثمان، قال: لما أقبل الأحنف نادى: يالأدّ، اعتزلوا هذا الأمر، وولُّوا هذين الفريقين كَيْسَه وعَجْزَه، فقام المنجاب بن راشد فقال: يالَ الرّباب! لا تعتزلوا، واشهدوا هذا الأمر، وتولوا كَيْسَه، ففارقوا. فلما قال: يَال تميم؛ اعتزِلوا هذا الأمر وولوا هذين الفريقين كيسَه وعجْزه، قام أبو الجرباء ـ وهو من بني عثمانَ بن مالك بن عمرو بن تميم ـ فقال: يالَ عمرو، لا تعتزِلوا هذا الأمر وتولَّوا كيسَه. فكان أبو الجرباء على بني عمرو بن تميم، والمنجاب بن راشد على بني ضبَّة، فلما قال: يالَ زيد منَاة، اعتزلوا هذا الأمر، وولُّوا هذين الفريقين كيْسَه وعَجْزه قال هلالِ بن وَكيع: لا تعتزِلوا هذا الأمر؛ ونادى: يالَ حنظلة تولَّوْا كَيْسَه؛ فكان هلالٌ على حنظلة، وطاوعتْ سعدٌ الأحنف، واعتزلوا إلى وادي السباع.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: كان على هَوازن وعلى بني سُلَيم والأعجاز مجاشع بنُ مسعود السُّلَميّ، وعلى عامر زُفَر بن الحارث، وعلى غَطفَان أعصُر بن النعمان الباهليّ، وعلى بكر بن وائل مالكُ بن مِسمَع، واعتزلت عبد القيس إلى عليّ إلّا رجلاً فإنه أقام، ومن بكر بن وائل قُيَّام، واعتزل منهم مثل مَن بقي منهم، عليهم سِنان، وكانت الأزد على ثلاثة رؤساء: صَبْرة بن شَيْمان، ومسعود،

وزياد بن عمرو، والشواذب عليهم رجلان: على مضرَ الخِرّيت بن راشد، وعلى قضاعة والتوابع الـرّعبي الجَرْميّ ـ وهو لقب ـ وعلى سائر اليمن ذو الآجرة الحِمْيَريّ.

فخرج طلحة والزبير فنزلا بالناس من الزّابوقة، في موضع قريةِ الأرزاق، فنزلتْ مضر جميعاً وهم لا يشكّون في الصلح، ونزلتْ ربيعة فوقّهم جميعاً وهم لا يشكّون في الصّلح، ونزلت اليمن جميعاً أسفل منهم، وهم لا يشكّون في الصلح، وعائشة في الحدّان، والناس في الزّابوقة، على رؤسائهم هؤلاء وهم ثلاثون ألفاً، وردّوا حَكيماً ومالكاً إلى عليّ؛ بأنّا على ما فارقْنا عليه القعقاع فاقدَم. فخرجا حتى قدما عليه بذلك، فارتحل حتى نزل عليهم بحيالهم، فنزلتِ القبائل إلى قبائلهم؛ مضر إلى مضر، وربيعة إلى ربيعة، واليمن إلى اليمن، وهم لا يشكّون في الصّلح، فكان بعضهم بحيال بعض، وبعضهم يخرج إلى بعض، ولا يـذكرون ولا ينـوون إلّا الصّلح، وخرج أمير المؤمنين فيمن معه، وهم عشرون ألفاً، وأهل الكوفة على رؤسائهم الّذين قدموا معهم ذا قار، وعبد القيس على ثلاثة رؤساء: جَذيمة وبكرٌ على ابن الجارود، والعمور على عبد الله بن السّوداء، وأهل هَجَر على ابن الأشجّ، وبكر بن وائل من أهل البصرة على ابن الحارث بن نهار، وعلى دنور بن عليّ الـزّط والسيابجة، وقدِم عليّ ذا قار في عشرة آلاف، وانضمّ إليه عشرة آلاف.

حدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن بشير بن عاصم، عن فطْر بن خليفة، عن منذر الثوريّ، عن محمد بن الحنفيّة، قال: أقبلْنا من المدينة بسبعمائة رجل، وخرج إلينا من الكوفة سبعة آلاف، وانضمّ إلينا مَن حولنا ألفان، أكثرهم بكر بن وائل، ويقال: ستة آلاف.

رجع الحديث إلى حديث محمد وطلحة: قالا: فلما نزل الناس واطمأنوا، خـرج عليّ وخـرج طلحَة والزبير، فتواقَفوا، وتكلموا فيما اختلفوا فيه، فلم يجدوا أمراً هو أمثل من الصّلح ووضع الحرب حين رأوا الأمرَ قد أخذ في الانقِشاع، وأنه لا يُدرَك، فافترقوا عن موقفهم على ذلك، ورجع عليٌّ إلى عسكره، وطلحة والزبير إلى عسكرهما.

أمر القتال

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: وبعث عليّ من العشيّ عبد الله بن عبّاس إلى طلحة والزبير، وبعثاهما من العشيّ محمد بن طلحة إلى عليّ، وأن يكلم كل واحد منهما أصحابَه، فقالوا: نعمْ، فلما أمسَوْا ـ وذلك في جُمادى الآخرة ـ أرسل طلحةُ والزُّبيرُ إلى رؤساء أصحابهما، وأرسل عليّ إلى رؤساء أصحابـه، ما خلا أولئك الّذين هَضُوا عثمان، فباتوا على الصّلح، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية من الذي أشرفوا عليه، والنُّزوع عمّا اشتهى الذين اشتهوا، وركبوا ما ركبوا، وبات الذين أثاروا أمرَ عثمان بشرّ ليلة باتوها قطّ، قد أشرَفوا على الهَلَكة، وجعلوا يتشاورون ليلتَهم كلّها، حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السرّ، واستسرّوا بذلك خشية أن يُفطَن بما حاولوا من الشرّ، فغدَوا مع الغَلَس، وما يَشعُر بهم جيرانُهم، انسلُّوا إلى ذلك الأمر انسلالا، وعليهم ظلمة، فخرج مُضَريُّهم إلى مضريِّهم، ورَبعيُّهم إلى رَبعيِّهم، ويمانيُّهم إلى يمانيِّهم، فوضوعوا فيهم السلاح، فثار أهل البصرَة، وثار كلّ قوم في وجوه أصحابهم الذين بَهَتوهم. وخرج الزبـير

وطلحة في وجوه الناس من مضرَ فبعثا إلى الميمنة، وهم ربيعة يعبّئها عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وإلى الميسرة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيِّد، وثبتا في القلب، فقال: ما هذا؟ قالوا: طرقنا أهل الكُوفة ليلا، فقالا: قد علمنا أنّ عليّاً غير منتهٍ حتى يسفك الدماء، ويستحلّ الحرْمة، وأنه لن يطاوعَنا، ثم رجعا بأهل البصرة، وَقَصف أهل البصرة، أولئك حتى رَدّوهم إلى عسكرهم، فسمع عليّ وأهلُ الكوفة الصوتَ، وقد وضعوا رجلاً قريباً من عليّ ليخبره بما يريدون، فلما قال: ما هذا؟ قال: ذاك الرّجل ما فاجأنا إلاّ وقوم منهم بيّتونا، فرددّناهم من حيث جاؤوا، فوجدْنا القوم على رِجْل فركبونا، وثارَ الناس، وقال عليّ لصاحب ميمنته: ائتِ الميمنة، وقال لصاحب ميسرته: ائت الميسرةَ، ولقد علمتَ أنّ طلحة والزّبير غير منتهيين حتى يَسْفِكا الدّماء، ويستحلّا الحرمة، وأنهما لن يطاوِعانا، والسّبئيّة لا تفتُر إنشاباً. ونادى عليّ في الناس: أيها الناس، كفّوا فلا شيء، فكان من رأيهم جميعاً في تلك الفتنة ألاّ يقتتلوا حتى يُبدؤوا؛ يطلبون بذلك الحُجّة، ويستحقون على الآخرين، ولاَ يقتُلوا مدبراً، ولا يُجْهزوا على جريح، ولا يُتبعوا. فكان مما اجتمع عليه الفريقان ونادَوا فيما بينهما.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وأبي عمرو، قالوا: وأقبل كعب بن سور حتى أتى عائشة رضي الله عنها، فقال: أدْركي فقد أبى القومُ إلاّ القتال، لعلّ الله يُصلح بكِ. فركبتْ، وألبسوا هَودَجها الأدراع، ثم بعثوا جملَهَا، وكان جَملُها يدعى عسكراً ،حمَلَها عليه يَعلَى بن أميّة، اشتراه بمائتي دينار، فلما برزتْ من البيوت ـ وكانت بحيثُ تَسمَع الغوغاء ـ وقفتْ، فلم تلبث أن سمعتْ غوغاء شديدة، فقالت: ما هذا؟ قالوا: ضجّة العسكر؛ قالت: بخير أو بشر؟ قالوا: بشرّ. قالت: فأيّ الفريقين كانت منهم هذه الضجّة فهم المهزومون. وهي واقفة، فوالله ما فَجئَها إلاّ الهزيمة، فمضى الزبير من سننِه في وجهه، فسَلَك وادي السباع، وجاء طلحة سَهْم غَرْب يخُلّ ركبتَه بصفحة الفرس، فلما امتلأ مَوْزَجه دماً وثَقُل قال لغلامه: أردفني وأمْسكني، وابغني مكاناً أنزل فيه، فدخل البصرة وهو يتمثّل مثلَه ومثَل الزبير:

فــإن تـكُنِ الـحــوادِثُ أقْصَــدَتْـنـي وأخْــطَأهُــنَّ سَـهْـمـي حـيـن أرْمــي
فقــد ضُيِّـعْتُ حين تَبِعْتُ سَهْمــاً سَفـاهــاً مّــا سَفِهْتُ وضَــلَّ حِـلْمي
نــدِمْـتُ نَــدَامــةَ الـكُـسَـعِيِّ لـمَّــا شَــرَيْتُ رِضَــا بني سَهْـمٍ بــرَغْمِـي
أطَــعْــتُـهُــمُ بــفُــرْقَــةِ آلِ لأيٍ فــألْـقَــوْا لـلسِّبــاعِ دَمـي ولَـحْـمِـي

خبر وقعة الجمل من رواية أخرى

قال أبو جعفر: وأما غير سيف فإنه ذكر من خبر هذه الوقعة وأمرِ الزبير وانصرافه عن الموقف الذي كان فيه ذلك اليوم غيرَ الذي ذكر سيفَ عن صاحبيه، والذي ذكر من ذلك بعضُهم ما حدّثَنيه أحمد بن زهير، قال: حدّثنا أبي أبو خَيْثمة، قال: حدثنا وهب بن جرير بن حازم، قال: سمعتُ أبي قال: سمعتُ يونس بن يزيد الأيْليّ، عن الزّهريّ، في قصة ذكرها من خبر عليّ وطلحة والزبير وعائشة في مسيرهم الذي نحن في ذكره في هذا الموضع. قال: وبلغ الخبرُ عليّاً ـ يعني خبرَ السَّبْعين الذين قُتلوا مع العبديّ بالبصْرة ـ فأقبل ـ يعني عليّاً ـ في اثني عشر ألفاً، فقدِم البصرة، وجعل يقول:

يَـالَـهْـفَ نَـفْـسَـيَ عَـلى رَبـيـعَـهْ رَبـيـعَـةَ الـسَّـامـعَـةَ الـمُـطـيـعَـهْ
سُـنَّـتُـهـا كـانت بـهـا الـوَقـيـعَـهْ

فلما تواقفوا خرج عليّ على فرسه، فدعا الزبيرَ، فتواقفا، فقال عليّ للزبير: ما جاء بك؟ قال: أنت، ولا أراك لهذا الأمر أهلا، ولا أولى به منّا؛ فقال عليّ: لستَ له أهلاً بعد عثمانَ! قد كنا نَعدُّك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنُك ابنُ السوء ففرَّق بيننا وبينك؛ وعظّم عليه أشياء، فذكَر أن النبيّ ﷺ مرّ عليهما فقال لعليّ: « ما يقول ابن عمتك؟ ليُقاتِلنّك وهو لك ظالم ». فانصَرَف عنه الزبير، وقال: فإني لا أقاتُلك. فرجع إلى ابنه عبدِ الله فقال: مَالي في هذه الحرب بصيرة، فقال له ابنه: إنك قد خرجت على بصيرة، ولكنك رأيتَ رايات ابن أبي طالب، وعرفت أن تحتها الموت، فجبُنت. فأحفَظَه حتى أُرعد وغضِب، وقال: ويحك! إني قد حلفت له ألاّ أقاتله، فقال له ابنه: كفِّر عن يمينك بعتْق غلامك سَرْجس، فأعتقه، وقام في الصّفّ معهم، وكان عليّ قال للزّبير: أتطلب مني دمَ عثمان وأنت قتلتَه! سلّط الله على أشدّنا عليه اليومَ ما يكره. وقال عليّ: يا طلحة، جئت بعِرْسِ رسول الله ﷺ تقاتل بها وخبَأتَ عِرْسَك في البيت! أما بايعتني! قال: بايعتُك وعلى عُنُقي اللجّ، فقال عليّ لأصحابه: أيّكم يعرض عليهم هذا المصحف وما فيه، فإن قطعت يدُه أخَذَه بيده الأخرى، وإن قطعتْ أخذَه بأسنانه؟ قال فتىً شابٌّ: أنا، فطاف عليٌّ على أصحابه يعرض ذلك عليهم، فلم يقبله إلاّ ذلك الفتى، فقال له عليٌّ: اعرضْ عليهم هذا، وقل: هو بيننا وبينكم من أوّله إلى آخره، والله في دمائنا ودمائكم. فحُمل على الفتى وفي يده المصحف، فقُطعت يداه، فأخذه بأسنانه حتى قُتل، فقال عليّ: قد طاب لكم الضِّراب فقاتلوهم، فقتِل يومئذ سبعون رجلاً، كلهم يأخذ بُخطام الجمل، فلما عُقر الجمل وهُزِم الناس، أصابت طلحة رَمية فقتلْته، فيزعمون أن مروان بنَ الحَكَم رماه، وقد كان ابن الزبير أخذ بخِطام جمل عائشة، فقالت: من هذا؟ فأخبرها؛ فقالت: واثُكْل أسماء! فجُرِح، فألقى نفسَه في الجَرْحَى، فاستُخرِج فبرأ من جراحته، واحتمل محمد بنُ أبي بكر عائشة، فضُرب عليها فُسطاط، فوقف عليٌّ عليها فقال: استفززتِ الناس وقد فزّوا، فألَّبتِ بينهم، حتى قتَل بعضُهم بعضاً. . . في كلام كثير. فقالت عائشة: يا بنَ أبي طالب، ملكتَ فأسجح، نعْم ما أبليت قومَكَ اليوم! فسرّحها عليّ، وأرسل معها جماعةً من رجال ونساء، وجهزها، وأمر لها باثني عشر ألفاً من المال؛ فاستقلّ ذلك عبدُ الله بن جعفر، فأخرج لها مالا عظيماً، وقال: إن لم يُجزه أمير المؤمنين فهو عليّ. وقتِل الزبير، فزعموا أن ابن جُرموز لهو الذي قتله، وأنه وقف بباب أمير المؤمنين؛ فقال لحاجبه: استأذن لقاتل الزُّبير؛ فقال عليّ: ائذن له، وبشّره بالنار.

حدّثني محمد بن عُمارة، قال: حدّثنا عبيد الله بن موسى، قال: أخبرنا فُضيل، عن سفيان بن عقبة، عن قرّة بن الحارث، عن جوْن بن قتادة. قال قرّة بن الحارث: كنتُ مع الأحنف بن قيس، وكان جَوْن بن قتادة ابن عمّي مع الزبير بن العوام، فحدّثني جَوْن بن قتادة، قال: كنتُ مع الزّبير رضي الله عنه، فجاء فارسٌ يسير ـ وكانوا يسلّمون على الزّبير بالإمْرة ـ فقال: السلام عليك أيّها الأمير؛ قال: وعليك السلام؛ قال: هؤلاء القوم قد أتَوْا مكان كذا وكذا، فلم أرَ قوماً أرثّ سلاحاً، ولا أقلّ عدداً، ولا أرعب قلوباً من قوْم أتَوك، ثمّ انصرَف عنه. قال: ثمّ جاء فارسٌ فقال: السَّلام عليك أيها الأمير، فقال وعليك السلام، قال: جاء القوم حتى أتَوا مكانَ كذا وكذا، فسمعوا بما جمع الله عزّ وجلّ لكم من العدد والعُدّة والحدّ، فقذف اللهُ في قلوبهم الرعب، فولّوْا مدبرين؛ قال الزُّبير: إيهاً عنك الآن؛ فوالله لو لم يجد ابن أبي

طالب إلا العَرْفَج لدبّ الينا فيه؛ ثم انصرف. ثم جاء فارس وقد كادت الخيول أن تخرج من الرّهَج فقال: السلام عليك أيّها الأمير، قال: وعليك السلام، قال: هؤلاء القوم قد أتَوْك، فلقيت عمّاراً فقلتُ له وقال لي؛ فقال الزبير: إنه ليس فيهم، فقال: بلى والله إنه لَفيهم؛ قال: والله ما جعله الله فيهم، فقال: والله لقد جعله الله فيهم. قال: والله ما جعله الله فيهم؛ فلمّا رأى الرجلَ يخالفه قال لبعض أهله: اركب فانظر: أحقٌّ ما يقول! فركب معه، فانطلقا وأنا أنظر إليهما حتى وقفا في جانب الخيل قليلاً، ثم رجعا إلينا، فقال الزبير لصاحبه: ما عندك؟ قال: صدق الرجل؛ قال الزبير: يا جدْع أنفاه ـ أو يا قَطْع ظَهْراه؟ ـ قال محمد بن عُمارة: قال عبيد الله: قال فضيل: لا أدري أيّهما قال ـ ثم أخذه أفكَل، فجعل السلاح ينتفض، فقال جون: ثكلتني أمي، هذا الذي كنت أريد أن أموت معه، أو أعيشَ معه، والذي نفسي بيده ما أخذ هذا ما أرى إلاّ لشيء قد سمعه أو رآه من رسول الله ﷺ. فلمّا تشاغل الناسُ انصرف فجلس على دابته، ثم ذهب، فانصرف جون فجلس على دابتّه، فلحق بالأحنف، ثم جاء فارسان حتى أتَيَا الأحنف وأصحابه، فنزلا، فأتيا فأكبّا عليه، فناجيَاه ساعة، ثم انصرَفا. ثم جاء عمرو بن جُرموز إلى الأحنف، فقال: أدركتُه في وادي السباع فقتلتُه، فكان يقول: والذي نفسي بيَدِه إن صاحب الزبير الأحنف.

حدّثني عمر بن شبة، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا بشير بن عاصم، عن الحجّاج بن أرطاة، عن عمار بن معاوية الدُّهني ـ حيّ من أحمَس بَجيلة ـ قال: أخذ عليٌّ مصحفاً يوم الجَمَل، فطاف به في أصحابه، وقال: مَنْ يأخذ هذا المصحف، يدعوهم إلى ما فيه وهو مقتول؟ فقام إليه فتىً من أهل الكوفة عليه قباء أبيَض محشوّ، فقال: أنا، فأعرَض عنه، ثم قال: مَنْ يأخذ هذا المصحفَ يدعوهم إلى ما فيه وهو مقتول؟ فقال الفتى: أنا، فأعرَض عنه، ثم قال: مَنْ يأخذ هذا المصحفَ يدعوهم إلى ما فيه وهو مقتول؟ فقال الفتى: أنا؛ فدفعه إليه، فدعاهم فقطعوا يَده اليمنى، فأخذه بيده اليسرى، فدعاهم فقطعوا يدَه اليسرى، فأخذه بصَدره والدّماء تسيل على قَبائه، فقتِل رضي الله عنه، فقال عليّ: الآن حلّ قتالُهم، فقالت أمّ الفتى بعد ذلك فيما ترثي:

لا هُمَّ إنَّ مُسْلِماً دَعَاهُمُ ... يَتْلُو كتابَ الله لا يخْشاهُمُ
وأُمُّهُمْ قائمة تراهُمُ ... يأتمرون الغَيّ لا تَنْهاهُمُ
قد خُضِبَتْ مِنْ عَلقٍ لِحاهُمُ

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا أبو مخنف، عن جابر، عن الشعبيّ، قال: حملت ميمنةُ أمير المؤمنين على ميسرةِ أهلِ البصرة، فاقتتلوا، ولاذَ الناس بعائشةَ رضي الله عنها، أكثرهم ضَبّة والأزْد، وكان قتالهم من ارتفاع النهار إلى قريبٍ من العصر؛ ويقال: إلى أن زالت الشمس، ثم انهزموا، فنادى رجل من الأزد: كرّوا، فضربه محمد بن عليّ فقطع يده، فنادى: يا معشر الأزد فرّوا، واستحرّ القتل بالأزد، فنادَوا: نحن على دين عليّ بن أبي طالب؛ فقال رجل من بني ليث بعد ذلك:

سائلْ بنا يَوْمَ لقينا الأزْدا ... والخَيْلُ تَعْدو أشْقَراً ووَرْدَا
لمّا قَطَعْنا كِبْدَهُمْ والزَّندَا ... سُحْقاً لَهُمْ في رَأْيِهِمْ وبُعْدَا!

حدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا جعفر بنُ سليمان، عن مالك بن دينار، قال: حمل عمّار على الزبير يومَ الجمل، فجعل يحُوزه بالرُّمح، فقال: أتريد أن تقتلني؟ قال: لا، انصرفْ؛ وقال

عامر بن حفص: أقبل عمّارٌ حتى حاز الزبير يومَ الجمل بالرمح، فقال: أتقتلني يا أبا اليَقْظان! قال: لا يا أبا عبدالله.

رجع الحديث إلى حديث سيف، عن محمد وطلحة: قالا: ولما انهزم الناس في صدر النهار، نادى الزبير: أنا الزّبير، هلُمّوا إليَّ أيُّها الناس، ومعه مولًى له ينادي: أعن حواريّ رسول الله ﷺ تنهزمون! وانصرف الزبير نحو وادي السباع، واتّبعه فُرسان، وتشاغل الناسُ عنه بالناس، فلما رأى الفُرسان تتبعه عطف عليهم، ففرّق بينهم، فكرُّوا عليه، فلمّا عرفوه قالوا: الزّبير! فدعوه، فلما نفر فيهم علباء بن الهيثم، ومرّ القعقاع في نفر بطلحة وهو يقول: إليَّ عباد الله، الصبرَ الصبر! قال له: يا أبا محمد؛ إنك لجريح، وإنك عمّا تريد لعليل؛ فادخل الأبياتَ، فقال: يا غلام، أدخِلني وابغني مكاناً. فأدخِلَ البصرة ومعه غلام ورجلان، فاقتتل الناس بعْده، فأقبل الناس في هزيمتهم تلك وهم يريدون البَصرة. فلمّا رأوا الجمل أطافت به مضر عادوا قَلْباً كما كانوا حيث التقَوا، وعادوا إلى أمر جديد، ووقفتْ ربيعة البصرة، منهم ميمنة ومنهم ميسرة، وقالت عائشة: خلّ يا كعب عن البعير؛ وتقدّم بكتاب الله عزّ وجلّ فادعُهم إليه، ودفعت إليه مصحفاً. وأقبل القوم وأمامهم السبئيّة يخافون أن يجري الصّلح، فاستقبلهم كعب بالمصحف، وعليٌّ من خلفهم يَزَعُهم ويأبَوْن إلّا إقداماً، فلما دعاهم كعب رشَقوه رِشْقاً واحداً، فقتلوه، ورمَوا عائشةَ في هَودجها، فجعلت تنادي: يا بنيَّ، البقيّة البقيّة ـ ويعلو صوتُها كَثْرة ـ الله الله، اذكروا اللهَ عزّ وجلّ والحساب، فيأبوْن إلّا إقداماً، فكان أوّل شيء أحدثته حين أبوْا أن قالت: أيُّها الناس، العنوا قتلَة عثمان وأشياعَهم، وأقبلتْ تدعو.

وضجّ أهل البصرة بالدعاء، وسمع عليٌّ بن أبي طالب الدعاءَ فقال: ما هذه الضجّة؟ فقالوا: عائشة تدعو ويدعون معها على قَتَلة عثمان وأشياعهم، فأقبل يدعو ويقول: اللهم العنْ قتلةَ عثمان وأشياعهم. وأرسلتْ إلى عبد الرحمن بن عتّاب وعبد الرحمن بن الحارث: اثبُتا مكانَكما، وذمرت الناسَ حين رأت أنّ القوم لا يريدون غيرَها، ولا يكفّون عن الناس، فازدلفت مُضَر البصرة، فقصفت مضرَ الكوفة حتى زُوحم عليّ، فنخس عليٌّ قفا محمد، وقال: احمِل، فنكَل، فأهوى عليٌّ إلى الرّاية ليأخذَها منه، فحمل، فترك الراية في يده، وحملت مضر الكوفة، فاجتَلَدوا قدّام الجمل حتى ضرسوا، والمجنّبات على حالها، لا تصنع شيئاً، ومع عليٍّ أقوام غير مُضَر، فمنهم زيد بن صُوحَان، فقال له رجل من قومه: تنحّ إلى قومك، مَالَك ولهذا الموقف! ألستَ تعلم أن مضرَ بحيالك، وأنّ الجمل بين يديك، وأن الموتَ دونه! فقال: الموت خير من الحياة، الموت ما أريد؛ فأصيب وأخوه سَيْحان، وارْتُثّ صعصعة، واشتدّت الحرب. فلما رأى ذلك عليّ بعث إلى اليمن وإلى ربيعة: أن اجتمعوا على مَن يليكم، فقام رجلٌ من عبد القيس فقال: ندعوكم إلى كتاب الله عزّ وجلّ؛ قالوا: وكيف يدعونا إلى كتاب الله مَن لا يقيم حدودَ الله سبحانه، ومن قتل داعيَ الله كعب بن سُور! فرمَتْه رَبيعة رِشْقاً واحداً فقتلوه، وقام مسلم بن عبد الله العجليّ مَقامه، فرشقوه رِشقاً واحداً، فقتلوه، ودعت يَمَنُ الكوفة يَمن البَصْرة فرشَقوهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: كان القتال الأوّل يستحرّ إلى انتصاف النهار، وأصيب فيه طلحة رضي الله عنه، وذهب فيه الزّبير، فلما أوَوْا إلى عائشةَ وأبَى أهل الكوفة إلّا القتال، ولم يريدوا إلّا عائشة، ذمرتْهم عائشة، فاقتتلوا حتى تنادَوْا فتحاجزوا، فرجعوا بعد الظهر فاقتتلوا.

وذلك يومَ الخميس في جُمادى الآخرة، فاقتتلوا صدْرَ النهار مع طلحة والزبير، وفي وسطه مع عائشة، وتزاحف الناس، فهزمت يَمَنُ البصرة يمنَ الكوفة، وربيعةُ البصرة ربيعةَ الكوفة، ونهد عليٌّ، بمضر الكوفة إلى مضر البصرة، وقال: إن الموت ليس منه فَوْت، يُدرِك الهارب، ولا يَترك المُقيم.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا أبو عبد الله القرشيّ، عن يونس بن أرقم، عن عليّ بن عمرو الكنديّ، عن زيد بن حساس، قال: سمعتُ محمد بن الحنفيّة يقول: دفع إليّ أبي الرايةَ يومَ الجمل، وقال: تقدّم؛ فتقدّمتُ حتى لم أجد متقدّماً إلّا على رمح؛ قال: تقدّم لا أمَّ لك! فتكاكأت وقلتُ: لا أجد متقدَّماً إلّا على سنان رُمْح، فتناوَل الرّايةَ من يدي متناوِلٌ لا أدري مَن هو! فنظرتُ فإذا أبي بين يديّ وهو يقول:

أنتِ الَّتي غَرَّكِ مِنِّي الحُسْنَى ... يا عَيْشَ إنَّ القَوْمَ قَوْمٌ أَعْدَا

الخَفْضُ خَيْرٌ مِن قِتالِ الأبْنا

كتبَ إليّ السَّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: اقتتلتِ المجنِّبتان حين تزاحفتا قتالاً شديداً، يشبه ما فيه القَلْبان، واقتتل أهلُ اليمن، فقتِل على راية أمير المؤمنين من أهل الكوفة عشرة، كلما أخذها رجلٌ قتل خمسة من هَمْدان وخمسة من سائر اليمن، فلما رأى ذلك يزيد بن قيس أخذها، فثبتتْ في يده وهو يقول:

قد عِشْتِ يا نَفْس وقد غَنِيتِ ... دَهْراً فقَطْكِ اليومَ ما بَقِيتِ

أطْلُبُ طولَ العُمْرِ ما حَيِيتِ

وإنما تمثّلها وهو قول الشاعر قبله. وقال نِمْران بن أبي نِمْران الهَمْدانيّ:

جَرَّدتُ سَيْفي في رِجالِ الأزْدِ ... أضْرِبُ في كُهولِهِمْ والمُرْدِ

كلَّ طويلِ الساعِدَيْنِ نَهْدِ

وأقبلتْ ربيعة، فقتِل على راية الميسرة من أهل الكوفة زيد، وصرِع صعصعة، ثم سَيْحانَ، ثم عبد الله بن رَقبة بن المغيرة، ثم أبو عُبيدة بن راشد بن سُلمَى وهو يقول: اللهمّ أنت هَديتَنا من الضّلالة، واستنقذْتَنا من الجهالة، وابتليتَنا بالفتنة، فكنّا في شُبهة وعلى ريبة؛ حتى قتل، ثمّ الحصين بن معبد بن النُّعمان، فأعطاها ابنه معبداً، وجعل يقول: يا معبد، قرِّب لها بَوُّها تحدَب، فثبتتْ في يده.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: لما رأت الكُماة من مضر الكوفة ومضر البصرة الصبر تنادَوا في عسكر عائشة وعسكر عليّ: يا أيُّها الناس، طرِّفوا إذا فرِغ الصبر، ونزِع النصر. فجعلوا يتوجّؤون الأطراف: الأيدي والأرجُل، فما رُئيت وقعة قطّ قبلَها ولا بعدَها، ولا يسمع بها أكثر يداً مقطوعة ورجلاً مقطوعة منها، لا يُدرى مَن صاحبها. وأصيبت يدُ عبد الرحمن بن عتّاب يومئذ قبل قتلِه، وكان الرجل من هؤلاء وهؤلاء إذا أصيب شيء من أطرافه استَقْتَل إلى أن يُقتَل.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصعب بن عطيّة بن بلال، عن أبيه، قال: اشتدّ الأمر حتى أرِزت ميمنة الكوفة إلى القلب، حتى لزِقت به، ولزِقت ميسرة البصرة بقلْبهم، ومنعوا ميمنةَ أهلِ الكوفة

أن يختلطوا بقلبهم، وإن كانوا إلى جنبهم، وفعلَ مثل ذلك ميسرة الكوفة وميمنة البصرة، فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ لمن عن يسارها: مَن القوم؟ قال صَبْرة بن شيمان: بَنُوكِ الأزْد، قالت: يآل غَسّان! حافِظوا اليومَ جلادكم الذي كنا نسمع به، وتمثّلتْ.

وجـالَـدَ مِنْ غَسَّـانَ أهْـلُ حِفـاظِهـا   وهِـنْـبُ وأوْسٌ جـالَـدَتْ وَشَـبِـيـبُ

وقالت لمن عن يمينها: مَن القوم؟ قالوا: بكر بن وائل؛ قالت: لكم يقول القائل:

وجـاؤوا إلَيْنـا في الحَـديـدِ كَـأَنَّهُمْ   مِنَ العِـزّةِ القَعْسـاءِ بكْـرُ بنُ وائـلِ

إنما بإزائكم عبدُ القيس. فاقتتلوا أشدّ القتال مِن قتالهم قبل ذلك، وأقبلتْ على كتيبة بين يديها، فقالت: مَن القوم؟ قالوا: بنو ناجية، قالت: بَخٍ بَخٍ! سيوفُ أبطحيّة، وسيوف قرشيّة، فجالدوا جلاداً يُتفادى منه. ثمّ أطافت بها بنو ضبّة، فقالت: ويهاً جَمْرةَ الجمرات! حتى إذا رقُّوا خالَطَهم بنو عديّ، وكثروا حولَها، فقالت: مَن أنتم؟ قالوا: بنو عديّ، خالطنا إخواننا، فقالت: ما زالت رأس الجمل معتدلا حتى قتِلت بنو ضبّة حولي، فأقاموا رأسَ الجمل، ثم ضربوا ضرباً ليس بالتعذير، ولا يعدّلون بالتطريف؛ حتى إذا كثر ذلك وظهر في العسكريْن جميعاً. رامُوا الجمل وقالوا: لا يُزال القومُ أو يصرع، وأرزتْ مجنِّبتا عليّ فصارتا في القلب، وفعل ذلك أهلُ البصرة، وكره القومُ بعضهم بعضاً، وتلاقَوا جميعاً بقلبيهم، وأخذ ابن يثربيّ برأس الجمل وهو يرتجز، وادّعى قتل علباء بن الهيثم وزيد بن صُوحان وهند بن عمرو، فقال:

أنـا لِمَنْ يُـنْـكِـرُني ابْـنُ يَـثْـربيّ   قـاتِـلُ عِـلْبـاء وهِـنْـدِ الجـمـليّ
وابْنٍ لِصُـوحـانَ عَـلَى دينِ عـليّ

فناداه عمّار: لقد لعمري لذتَ بحريز، وما إليك سبيل، فإن كنتَ صادقاً فاخرج من هذه الكتيبة إليّ؛ فترك الزمام في يد رجل من بني عديّ حتى كان بين أصحاب عائشة وأصحاب عليّ، فزحم الناس عمّاراً حتى أقبل إليه، فاتّقاه عمار بَدرَقته، فضربه فانتشب سيفه فيها، فعالجه فلم يخرج، فخرج عمّار إليه لا يَملك من نفسه شيئاً، فأسفّ عمار لرجليه فقطعهما، فوقع على أسته، وحمله أصحابه، فارتُثّ بعدُ، فأتِي به عليّ، فأمَر بضرب عنقه. ولما أصيب ابن يثربيّ ترك ذلك العدَويُّ الزِّمام، ثم خرج فنادى: مَن يبارز؟ فخَنَس عمّار، وبرز إليه ربيعة العُقَيليّ ـ والعدويّ يدعى عمرة بن يَجْرة، أشدّ الناس صوتاً، وهو يقول:

يـا أمّـنـا أعَـقّ أُمٍّ نـعْـلَـمُ   والأُمُّ تَـغْـدو ولَـداً وتَـرْحَـمُ
ألا تَـرَيْـنَ كَـمْ شـجَـاعٍ يُـكـلَـمُ   وتُخْتَـلَى مِـنْـه يَـدٌ ومِـعْـصَـمُ!

ثم اضطَربا، فأثْخنَ كلّ واحد منهما صاحبَه، فماتا.

وقال عطيّة بن بلال: ولحق بنا من آخر النهار رجل يدعى الحارث، من بني ضبّة، فقام مقام العَدَوِيّ، فما رأينا رجلا قطّ أشدَّ منه، وجعل يقول:

نحن بني ضَبَّـةَ أصحـابُ الـجمـلْ   نَنْعَى آبن عفـانَ بـأطـرافِ الأسَـلْ
المـوتُ أحلَى عنـدنـا من العسـلْ   رُدُّوا عـلـيـنـا شـيـخَنـا ثـمَّ بَـجَـلْ

حدّثني عمرُ بن شبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن المفضّل بن محمد، عن عديّ بن أبي عديّ، عن أبي رجاء العطارديّ، قال: إني لأنظر إلى رجل يومَ الجمل وهو يقلِّب سيفاً بيده كأنه مِخراق، وهو يقول:

نحن بني ضبّــة أصحــابُ الـجمــلْ ... نـنــازِلُ المــوتَ إذا الـمــوتُ نَـزَلْ

والمــوتُ أشهى عنــدَنــا من العَسَــلْ ... نَنعى ابنَ عفَّــانَ بــأطــراف الأسَــلْ

رُدُّوا عـلينــا شيـخَنــا ثمَّ بَـجَـلْ

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن المفضّل الضبّيّ، قال: كان الرجل وسيمَ بن عمرو بن ضِرار الضبّيّ.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن الهُذَليّ، قال: كان عمرو بن يثربيّ يحضّض قومَه يوم الجمل، وقد تعاوروا الخِطام يَرتجزون:

نـحــن بـنــي ضَـبَّــةَ لا نَـفِــرُّ ... حـتـى نَـرَى جـمــاجـمــاً تَـخِـرُّ

يَـخِـرُّ منهــا العَـلَقُ الـمُـحْـمَـرُّ

يــا أُمّنــا يــا عيْشُ لن تُــراعي ... كــلّ بنِيــكِ بــطَلٌ شُــجــاعُ

يــا أُمّنــا يــا زوجَــة الـنـبـيّ ... يــا زوجة المبــاركِ المهْــدِيّ

حتى قُتل على الخِطام أربعون رجلاً، وقالت عائشة رَضي الله عنها: ما زال جَملي معتدلا حتى فقدت أصواتَ بني ضَبّة. وقتل يومئذ عمرو بن يثربيّ علباءَ بن الهيثم السَّدوسيّ، وهندَ بن عمرو والجَمَليّ، وزيد بن صوحان وهو يرتجز ويقول:

أَضــرِبُـهُـمْ ولا أرى أبــا حَـسَـنْ ... كفى بـهــذا حَـزَنــاً من الـحــزنْ

إنــا نُـمِــرُّ الأمــرَ إمــرارَ الـرَّسَنْ

فزعم الهُذَليّ أنّ هذا الشعر تُمثِّل به يومَ صِفّين. وعرض عمار لعمرو بن يثربيّ - وعمار يومئذ ابن تسعين سنة، عليه فَرْوٌ قد شَدّ وَسَطه بحبَل من ليف - فبَدَره عمرو بن يثربيّ فنحّى له دَرَقته فنشب سيفه فيها، ورماه الناس حتى صُرِع وهو يقول:

إن تـقـتـلوني فــأنــا ابـنُ يثْـربـيّ ... قــاتــلُ عِلبــاءَ وهـنْـدِ الـجـمــليّ

ثمَّ ابنِ صُــوحــانَ عــلى دينِ عــليّ

وأخِذ أسيراً حتى انتُهي به إلى عليّ، فقال: استَبْقني. فقال: أبعد ثلاثة تُقبل عليهم بسَيْفك تضربُ به وجوههم! فأمر به فقُتل.

وحدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا أبو مخنف، عن إسحاق بن راشد، عن عبّاد بن عبد الله بن الزّبير، عن أبيه، قال: مشيت يوم الجمل وبي سبع وثلاثون جراحة من ضربةٍ وطَعنةٍ، وما رأيتُ مثلَ يوم الجمل قطّ، ما ينهزم منا أحد، وما نحن إلّا كالجبل الأسود، وما يأخذ بخِطام الجمل أحد إلّا قُتل، فأخذه عبدُ الرحمن بن عتاب فقُتل، فأخذه الأسوَد بن أبي البَخْتَريّ فصُرع، وجئتُ فأخذتُ بالخِطام، فقالت

عائشة: مَن أنت؟ قلت: عبد الله بن الزّبير. قالت: واثُكْل أسماء! ومرّ بي الأشتر، فعرفتُه فعانقْته، فسقطنا جميعاً، وناديت: «اقتُلُوني ومالِكاً»؛ فجاء ناسٌ منا ومنهم، فقاتلوا عنا حتى تحاجزْنا، وضاع الخِطام، ونادى عليّ: اعقِروا الجمل، فإنه إن عُقر تفرّقوا؛ فضرَبه رجلٌ فسقط، فما سمعتُ صوتاً قطّ أشدّ من عَجيج الجمل.

وأمر عليّ محمدَ بن أبي بكر فضرب عليها قبّة، وقال: انظر، هل وصل إليها شيء؟ فأدخل رأسَه، فقالت: من أنتَ؟ وَيْلَك! فقال: أبغضُ أهلِك إليكِ، قالت: ابن الخَثعميّة؟ قال: نعم؛ قالت: بأبي أنت وأميّ! الحمد لله الذي عافاك.

حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشَّهيد، قال: سمعتُ أبا بكر بن عيّاش يقول: قال علقمة: قلت للأشتر: قد كنتَ كارهاً لقتل عثمان رضي الله عنه، فما أخرجكَ بالبصرة؟

قال: إنّ هؤلاء بايعوه، ثم نكثوا ـ وكان ابن الزبير هو الذي أكره عائشةَ على الخروج ـ فكنت أدعو الله عزّوجلّ أن يلقِّينيه، فلقيني كفّةً لكفّة، فما رضيت بشدّة ساعدي أن قمت في الركاب فضربته على رأسه فصرعتُه.

قلنا فهو القائل: «اقتُلوني ومالِكاً»؟ قال: لا، ما تركته وفي نفسي منه شيء، ذاك عبدُ الرحمن بن عتّاب بن أسيد، لقيني فاختلفنا ضربتين، فصرَعَني وصرعْتُه، فجعل يقول. «اقتُلُوني ومالِكاً»، ولا يَعلَمون مَن مالِك، فلو يعلمون لقتلوني.

ثم قال أبو بكر بن عياش: هذا كتابك شاهده.

حدّثني به المغيرة، عن إبراهيم، عن علقمة، قال: قلت للأشتر: حدّثني عبد الله بن أحمد، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثني سليمان، قال: حدّثني عبدالله، عن طلحة بن النضر، عن عثمان بن سليمان، عن عبدِالله بن الزبير، قال: وقف علينا شابّ، فقال: احذَروا هذين الرّجلين؛ فذكره ـ وعلامة الأشتر أنّ إحدى قدميه بادية من شيء يجدُ بها ـ قال: لما التقينا قال الأشتر: لما قصد لي سوّى رمحه لرِجلي، قلت: هذا أحمَق، وما عسى أن يدركَ مني لو قطعها، ألستُ قاتلَه!.

فلما دنا مني جمع يديه في الرمح، ثم التمس به وجهي، قلتُ: أحدُ الأقران.

حدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن أبي مخنف، عن ابن عبد الرحمن بن جُندَب، عن أبيه، عن جدّه، قال: كان عمرو بن الأشرف أخذ بِخطام الجمل، لا يدنو منه أحدٌ إلا خَبطَه بسيفه، إذْ أقبل الحارث بن زُهَير الأزديّ وهو يقول:

يــا أُمَّـنــا يــا خـيْـرَ أُمٍّ نَـعـلَـمُ ... أمـا تَـرَيْـنَ كَمْ شُجـاعٍ يُكـلَمُ!

وتُـختَـلَى هـامَـتُـهُ والـمِـعْـصَـمُ!

فاختلَفا ضربتين، فرأيتُهما يفحَصان الأرض بأرجُلهما حتى ماتا. فدخلتُ على عائشة رضي الله عنها بالمدينة، فقالت: مَن أنت؟ قلت: رجل من الأزْد، أسكُن الكوفة؛ قالت: أشهِدْتنا يومَ الجمل؟ قلت: نعم؛ قالت: ألنا أمْ علينا؟ قلتُ: عليكم؛ قالت: أفتعرف الذي يقول:

يــا أُمَّـنــا يــا خـيــرَ أمٍّ نـعـلمُ

قلت: نعم، ذاك ابنُ عمّي، فبكتْ حتى ظننتُ أنها لا تسكت.

حدّثني عمر، قال: حدثنا أبو الحسن، عن أبي ليلى، عن دينار بن العَيْزار، قال: سمعت الأشتر يقول: لقيتُ عبد الرحمن بن عتّاب بن أسِيد، فلقيت أشدَّ الناس وأروَغَه، فعانقتُه، فسقطْنا إلى الأرض جميعاً، فنادى: «اقتُلُوني ومالِكاً».

حدّثني عمر قال: حدّثنا أبو الحسن، عن ابن أبي ليلى، عن دينار بن العيزار، قال: سمعت الأشتر يقول: رأيت عبدَ الله بن حَكِيم بن حزام معه رايةُ قريش؛ وعديّ بن حاتم الطائيّ وهما يتصاوَلان كالفَحلين، فتعاوَرْناه فقتلناه ـ يعني عبدَ الله ـ فطعن عبد الله عديًّا ففقأ عينَه.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن أبي مخنف، عن عمّه محمّد بن مخنف، قال: حدَّثني عدّةٌ من أشياخ الحيّ كلّهم شهد الجَمَل، قالوا: كانت راية الأزد من أهل الكوفة مع مِخْنف بن سُلَيم، فقتل يومئذ، فتناول الرايةَ من أهل بيته الصَّقعب وأخوه عبد الله بن سُلَيم، فقتلوه، فأخذها العلاء بن عروة، فكان الفتح، وهي في يده، وكانت راية عبد القيس من أهل الكوفة مع القاسم بن مسلم، فقتِل وقتل معه زيد بن صُوحان وسَيْحان بن صُوحان؛ وأخذ الراية عدّة منهم فقُتِلوا؛ منهم عبد الله بن رقبة، وراشد. ثم أخذها مُنْقذ بن النُّعمان، فدفعها إلى ابنه مُرّة بن منقذ، فانقضى الأمر وهي في يده، وكانت راية بكْر بن وائل من أهل الكُوفة في بني ذُهْل، كانت مع الحارث بن حسَّان بن خُوط الذُّهليّ، فقال أبو العَرْفاء الرقاشيّ: أبقِ على نفسك وقومك، فأقدمَ وقال: يا معشرَ بكر بن وائل، إنّه لم يكن أحدٌ له من رسول الله ﷺ مثل منزلةِ صاحبكم، فانصروه، فأقدمَ، فقُتل وقُتل ابنه وقُتِل خمسة إخوة له، فقال له يومئذ بشر بن خوط وهو يقاتل:

أنـا ابـنُ حَسَّـانَ بـنِ خُـوطٍ وأبِـي ... رسـولُ بَكْـرٍ كـلّهـا إلـى النَّـبِـي

وقال ابنه:

أنْعَى الرئيسَ الحارثَ بنَ حسَّانْ ... لآلِ ذُهْـلٍ ولآلِ شَـيْـبـانْ

وقال رجل من ذُهْل:

تَنعَى لنـا خيـرَ امْـرِىءٍ مِنْ عَـدْنـانْ ... عـنـد الـطِّعـانِ ونـزالِ الأقـرانْ

وقُتل رجال من بني محدوج، وكانت الرِّياسة لهم من أهل الكوفة، وقُتل من بني ذُهْل خمسةٌ وثلاثون رجلاً، فقال رجل لأخيه وهو يقاتل: يا أخي، ما أحسنَ قتالَنا إنْ كنّا على حقّ! قال: فإنا على الحقّ، إن الناسَ أخذوا يميناً وشمالا، وإنما تمسَّكنا بأهل بيت نبيّنا؛ فقاتَلَا حتى قُتلا. وكانت رياسة عبدِ القيس من أهل البصرة ـ وكانوا مع عليّ ـ لعمرو بن مرحوم، ورياسة بكر بن وائل لشَقيق بن ثَوْر، والرّاية مع رَشراشة مولاه، ورياسة الأزْد من أهل البصرة ـ وكانوا مع عائشة ـ لعبد الرحمن بن جُشَم بن أبي حُنَيْن الحِمّاميّ ـ فيما حدّثني عامر بن حفص، ويقال لصبرة بن شيْمان الحُدّانيّ ـ والراية مع عمرو بن الأشرف العَتَكيّ، فقُتل وقتل معه ثلاثة عشر رجلاً من أهل بيته.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا أبو ليلى، عن أبي عُكّاشة الهَمْدانيّ، عن رفاعة البَجَليّ، عن أبي البَخْتريّ الطائيّ، قال: أطافت ضبّة والأزد بعائشةَ يومَ الجمل، وإذا رجال من الأزد يأخذون

بعْرَ الجمل فيفتّونه ويشُمّونه، ويقولون: بعر جملِ أمِّنا ريحُه ريحُ المسك؛ ورجل من أصحاب عليّ يقاتل ويقول:

جَرَّدتُ سيفي في رجال الأزْدِ　　أَضْرِبُ في كُهولِهِمْ والمُرْدِ
كلَّ طويل الساعِدَيْنِ نَهْدِ

وماج الناس بعضُهم في بعض، فصرخ صارخ: اعقروا الجمل؛ فضَربه بُجَير بن دُلْجة الضّبيّ من أهل الكوفة، فقيل له: لِمَ عَقرتَه؟ فقال: رأيتُ قومي يقتَلون، فخفت أن يفنَوا، ورجوت إن عقرته أن يبقَى لهم بقيّة.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا الصّلْت بن دينار، قال: انتهى رجلٌ من بني عُقَيْل إلى كعب بن سُور ـ رحمه الله ـ وهو مقتول، فوضع زُجَّ رمحه في عينيه، ثم خَضخضه، وقال: ما رأيت مالاً قطّ أحكم نَقْداً منك.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا عَوانة، قال: اقتَتلُوا يومَ الجمل يوماً إلى الليل، فقال بعضهم:

شَفى السَّيْف من زَيدٍ وهِنْدٍ نفوسَنا　　شِفاءً ومن عيْنيْ عَدِيِّ بن حاتِم
صبَرْنا لهم يوماً إلى الليلِ كلَّه　　بُصمِّ القَنَا والمُرْهَفاتِ الصَّوارِمِ

وقال ابن صامت:

يا ضَبّ سِيري فإنّ الأرضَ واسعةٌ　　على شِمَالِكِ إن الموتَ بالقاعِ
كَتيبةٌ كشعاعِ الشّمْسِ إذ طلعتْ　　لها أتِيٌّ إذا ما سال دُفّاعُ
إذاً نُقيم لكمْ في كلّ مُعْتَرَكٍ　　بالمَشْرَفِيّةِ ضَرباً غيرَ إبْدَاعِ

حدّثنا العباس بن محمد، قال: حدّثنا رَوْح بن عُبادة، قال: حَدّثنا رَوْح، عن أبي رَجاء، قال: رأيت رجلاً قد اصطُلِمت أذُنه، قلت: أخِلْقة، أم شيء أصابك؟ قال: أحدّثك؛ بينا أنا أمشي بين القتلى يومَ الجمل، فإذا رجل يَفحَص برِجله، وهو يقول:

لقد أورَدَتْنا حَوْمَةَ الموتِ أمُّنا　　فلم ننصرفْ إلاّ ونحن رِواءُ
أطعْنا قريشاً ضَلَّةً من حُلومِنا　　ونُصْرَتنا أهلَ الحجاز عِناءُ

قلت: يا عبد الله، قل لا إله إلاّ الله، قال: ادنُ مني، ولقِّنّي فإنّ في أذني وَقراً، فدنَوت منه، فقال لي: ممن أنت؟ قُلت: رجل من الكوفة؛ فوثب عليّ، فاصطَلَم أذني كما ترى، ثمّ قال: إذا لقيت أمّك فأخبرها أن عُمير بن الأهلب الضبيّ فَعَل بك هذا.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا المفضَّل الراوية وعامر بن حفص وعبد المجيد الأسديّ، قالوا: جُرِح يوم الجمل عُمير بن الأهلب الضبيّ، فمرّ به رجلٌ من أصحاب عليّ وهو في الجرحى، فقال له عُمير: ادْنُ مني، فدنا منه، فقطع أذنه، وقال عُمير بن الأهلب:

لقــد أوردتْنا حــومةَ المــوت أمُّنــا ... فــلمَ نــنـصــرف إلا ونــحــن رِواءُ
لقــد كــان عن نَصــرِ ابن ضَبَّة أمَّــهُ ... وشــيـعَــتَـهــا مَــنــدوحــةٌ وغَـنَــاءُ
أطـعنــا بـني تَـيمِ بـن مُـرَّةَ شَـقْـوَةً ... وهــل تَــيْـمٌ إلاَّ أَعْــبُـدٌ وإمــاءُ!

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن المقدام الحارثيّ، قال: كان منّا رجل يدعى هانىء بن خطّاب، وكان ممن غزا عثمان، ولم يشهد الجمل، فلمّا سمع بهذا الرجز - يعني رجزَ القائل:

نحنُ بني ضَبَّــة أصحـابُ الجَمَــلْ

في حديث الناس، نقض عليه وهو بالكوفة:

أبَتْ شيــوخُ مَــذْحِــجٍ وهَـمْــدانْ ... ألاَّ يَــرُدُّوا نَــعْــثَــلاً كــمــا كــانْ
خلْقــاً جَـدِيـداً بعـد خَلق الـرَّحْمٰنْ

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصّعب بن عطيّة، عن أبيه، قال: جعل أبو الجرباء يومئذ يرتجز ويقول:

أســامــعٌ أنــتَ مـطيــعٌ لـعَــلِيّ ... من قَبْــلِ أن تَـذوقَ حَــدَّ المَشْــرِفي
وخــاذِلٌ فـي الـحــقِّ أزواجَ الـنّــبـي ... أعْــرِفُ قــومــاً لــستُ فـيــه بِـعَـنـى

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: كانت أمّ المؤمنين في حَلْقة من أهل النَّجَدات والبصائر من أفناء مُضَر، فكان لا يأخذ أحد بالزمام إلاّ كان يحمل الرّاية واللواء لا يحسِّن تركها، وكان لا يأخذه إلاّ معروف عند المُطيفين بالجمل فينتسب لها: أنا فلان بن فلان، فوالله إن كانوا ليَقاتلون عليه؛ وإنه للموتُ لا يوصل إليه إلا بطِلَبةٍ وعنَت، وما رامه أحد من أصحاب عليّ إلاّ قُتل أو أفلت، ثم لم يَعُد. ولما اختلط الناس بالقلب جاء عديّ بن حاتم فحمل عليه، ففُقِئَت عينه ونكل، فجاء الأشتر فحامله عبد الرحمن بن عتّاب بن أسِيد وإنه لأقطَع مَنْزوف، فاعتنقه، ثم جلد به الأرض عن دابّته، فاضطرب تحته، فأفلت وهو جريض.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: كان لا يجيء رجل فيأخذ بالزّمام حتى يقول: أنا فلان بن فلان يا أمّ المؤمنين، فجاء عبدُ الله بنُ الزّبير، فقالت حين لم يتكلم: مَن أنت؟ فقال: أنا عبد الله، أنا ابن أختك، قالت: واثُكْل أسماء! - تعني أختها - وانتهى إلى الجمل الأشتر وعديّ بن حاتم، فخرج عبد الله بن حَكِيم بن حزام إلى الأشتر، فمشى إليه الاشتر، فاختلفا ضربتين، فقتله الأشتر، ومشى إليه عبد الله بن الزبير، فضربه الأشتر على رأسه، فجرحه جرحاً شديداً، وضرب عبد الله الأشتر ضربةً خفيفة، واعتنق كلّ واحد منهما صاحبَه، وخرّا إلى الأرض يعتركان، فقال عبد الله بن الزبير: «اقْتُلُوني ومالكاً».

وكان مالك يقول: ما أحبّ أن يكون قال: «والأشتر» وأنّ لي حُمْر النَّعَم. وشدّ أناس من أصحاب عليّ وأصحاب عائشة فافترقا، وتنقّذ كلّ واحد من الفريقين صاحبَه.

كتب إليّ السّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصَّعْب بن عَطيّة، عن أبيه، قال: وجاء محمد بن

طلحة فأخذ بزمام الجمل، فقال: يا أمتّاه، مُرِيني بأمرِك. قالت: آمُرك أن تكون كخير بني آدم إن تُرِكتَ. قال: فحمل فجعل لا يَحمِل عليه أحد إلاّ حمل عليه ويقول: « حَم لا يُنصَرون »، واجتمع عليه نفر، فكلّهم ادّعى قتلَه: المكعْبر الأسديّ، والمكعبر الضّبّي، ومعاوية بن شدّاد العَبْسيّ، وعفّان بن الأشقر النصريّ، فأنفذه بعضهم بالرّمح، ففي ذلك يقول قاتلُه منهم:

وأشْعَثَ قوّامٍ بآياتِ ربِّهِ | قليلِ الأذى فيما ترى العَيْنُ مُسْلِمِ
هَتَكتُ له بالرمح جَيْبَ قميصِه | فخَرَّ صريعاً لليدين ولِلفَمِ
يُذَكِّرُني حَم والرمحُ شاجِرٌ | فَهلا تَلا حَم قبلَ التّقَدُّم!
على غيرِ شيءٍ غيرَ أن ليس تابِعاً | عَلِيّاً ومن لا يَتْبع الحقَّ يَنْدَمِ

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصّعب بن عطيّة، عن أبيه، قال: قال القعقاع بن عمرو للأشتر يؤلِّبه يومئذ: هل لك في العوْد؟ فلم يجبه. فقال: يا أشتر، بعضنا أعلَم بقتالِ بعض منك. فحمل القعقاع، وإنّ الزمام مع زُفَر بن الحارث، وكان آخر مَنْ أعقب في الزّمام، فلا والله ما بقي من بني عامر يومئذ شيخٌ إلاّ أصيب قدّام الجمل، فقُتِل فيمن قُتل يومئذ ربيعة جدّ إسحاق بن مسلم، وزفر يرتجز ويقول:

يا أمَّنا يا عَيْش لن تُراعِي | كلُّ بَنيكِ بَطَلٌ شجاعُ
ليس بوَهّامٍ ولا بِراعِي

وقام القعقاع يرتجز ويقول:

إذا وَرَدْنا آجِناً جَهَرْناهْ | ولا يُطاقُ وِرْدُ ما منعناهْ

تمثّلها تمثّلا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: كان من آخر مَنْ قاتل ذلك اليوم زُفَر بن الحارث، فزحف إليه القعقاع، فلم يبق حول الجمل عامريّ مكتهِل إلاّ أصيب، يتسرّعون إلى الموت، وقال القعقاع: يا بُجير بن دُلجة، صِحْ بقومك فليَعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أمّ المؤمنين؛ فقال: يالَ ضَبة، يا عمرو بنَ دُلْجة، ادعُ بي إليك؛ فدعا به، فقال: أنا آمن حتى أرجع؟ قال: نعم. قال: فاجتثّ ساق البعير، فرمى بنفسه على شِقّه وجرجر البعير. وقال القعقاع لمن يليه: أنتم آمنون. واجتمع هو وزُفَر على قَطْع بِطَان البعير، وحَمَلا الهودج فوضَعاه، ثم أطافا به، وتفارّ مَن وراء ذلك من الناس.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصعب بن عطيّة، عن أبيه، قال: لما أمسى الناس وتقدّم عليٌّ وأحيط بالجمل ومَن حولَه، وعَقَره بُجَير بن دُلْجة، وقال: إنكم آمنون؛ كفَّ بعضُ الناس عن بعض. وقال عليّ في ذلك حين أمسى وانخَنَس عنهم القتال:

إليك أشكو عُجَري وبُجَري | ومَعْشَراً غَشَّوْا عَليَّ بصَري
قَتلتُ منهمْ مُضَراً بِمُضَري | شفَيْتُ وقتلتُ مَعْشَري

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن حكيم بن جابر، قال: قال طلحة يومئذ: اللهمّ أعطِ عثمانَ منّي حتى يَرضَى؛ فجاء سهم غَرْب وهو واقف، فَخلّ ركبتَه بالسرج، وثبت

حتى امتلأ مَوْزجُه دماً، فلما ثَقُل قال لمولاه: أردِفْني وابغني مكاناً لا أُعرَف فيه، فلم أر كاليوم شيخاً أضيَعَ دماً [مني]. فركب مولاه وأمسكه وجعل يقول: قد لحقَنا القوم، حتى انتهى به إلى دار من دُور البصرة خَرِبة، وأنزله في فيئها، فمات في تلك الخَرِبة، ودفن رضي الله عنه في بني سعد.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن البَخْتريّ العبديّ، عن أبيه، قال: كانت ربيعة مع عليّ يوم الجمل ثُلث أهل الكوفة، ونصف الناس يوم الوقعة، وكانت تعبيتهم مُضَر ومضر، وربيعة وربيعة، واليمن واليمن؛ فقال بنو صُوحان: يا أميرَ المؤمنين، ائذن لنا نقف عن مُضر؛ ففعل، فأتى زيد فقيل له: ما يوقفك حيال الجمل وبحيال مضر! الموت معك وبإزائك، فاعتزِل إلينا؛ فقال: الموتَ نريد. فأصيبوا يومئذ، وأفلت صَعْصعة من بينهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصّعب بن عطية، قال: كان رجل منا يدعَى الحارث، فقال يومئذ: يَال مُضَر؛ علامَ يقتل بعضكم بعضاً! تبادرون لا ندري إلاّ أنّا إلى قضاء، وما تُكْفَوْن في ذلك.

حدّثني عبد الله بن أحمد، قال: حدّثني أبي، حدّثني سليمان، قال: حدّثني عبد الله بن المبارك، عن جرير، قال: حدّثني الزبير بن الخرّيت، قال: شيخٌ من الحرّامينْ يقال له أبو جُبير، قال: مررتُ بكعب بن سُور وهو آخذ بخِطام جملِ عائشة رضي الله عنها يومَ الجمل، فقال: يا أبا جُبير، أنا والله كما قالت القائلة:

بُـنَـيَّ لا تـبِـنْ ولا تُـقـاتِـلْ

فحدّثني الزبير بن الخرّيت، قال: مرّ به عليّ وهو قتيل، فقام عليه فقال: والله إنك ـ ما علمتُ ـ كنتَ لصليباً في الحقّ، قاضياً بالعدل، وكيتَ وكيتَ؛ فأثنى عليه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن ابن صعصعة المُزنيّ ـ أو عن صعصعة ـ عن عمرو بن جأوان، عن جرير بن أشرس، قال: كان القتال يومئذ في صدْر النهار مع طلحة والزبير، فانهزم الناس وعائشة تَوَقّع الصّلح، فلم يَفْجأها إلاّ الناس، فأحاطت بها مُضَر، ووقف الناس للقتال، فكان القتال نصفَ النهار مع عائشة. وعليّ. . . كعب بن سُور أخذ مصحفَ عائشة وعليّ فبدر بين الصّفين يناشدهم الله عزّ وجلّ في دمائهم، وأعطِيَ فرمى بها تحته، وأتىَ بتُرْسه فتنكّبه، فرشقوه رِشْقا واحداً، فقتلوه رضي الله عنه، ولم يُمهلوهم أن شدّوا عليهم، والتَحم القتال، فكان أول مقتول بين يدي عائشة من أهل الكوفة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مخلَد بن كثير، عن أبيه، قال: أرسلْنا مسلم بن عبد الله يدعو بني أبينا، فرَشَقوه ـ كما صنع القلب بكعب ـ رِشْقاً واحداً، فقتلوه، فكان أوّلَ من قتل بين يديْ أمير المؤمنين وعائشة رضي الله عنها، فقالت أمّ مسلم ترثيه:

لاهُـمَّ إنّ مُـسـلـمـاً أتـاهـمُ ... مُـسْـتَـسْـلِـمـاً لـلـموتِ إذ دَعـاهُـمُ
إلـى كـتـابِ اللهِ لا يـخـشـاهُـمُ ... فـرمّـلوهُ مـن دَمٍ إذ جـاهُـمُ
وأمُّـهـم قـائـمـةٌ تـراهُـمُ ... يـأتـمـرون الـغَـيَّ لا تـنـهـاهُـمُ

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصّعب بن حكيم بن شريك، عن أبيه، عن جدّه، قال: لما انهزمت مجنّبتا الكوفة عشيّة الجمل، صاروا إلى القلب ـ وكان ابن يثربيّ قاضيَ البصرة قبل كعب بن

سُور، فشهدهم هو وأخوه يوم الجمل، وهما عبد الله وعمرو، فكان واقفاً أمامَ الجمل على فرس ـ فقال عليّ: مَن رجل يحمل على الجمل؟ فانتدب له هند بن عمرو المراديّ، فاعترضه ابن يثربيّ، فاختلفا ضربتين، فقتله ابن يثربيّ، ثم حمل علباء بن الهيثم، فاعترضه ابن يثربيّ، فقتله، ثم حمل صعصعة فضربه، فقتل ثلاثة أجهزَ عليهم في المعركة: علباء، وهند، وسَيْحان، وارتُثَّ صعصعة وزيد، فمات أحدهما، وبقي الآخر.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد، عن الشعبيّ، قال: أخذ الخِطامَ يومَ الجمل سبعون رجلاً من قريش، كلُّهم يُقتل وهو آخذ بالخِطام، وحمل الأشتر فاعترضه عبد الله بن الزبير، فاختلفا ضربتين، ضربة الأشتر فأمّه، وواثَبه عبد الله، فاعتنقه فخرّ به، وجعل يقول: « اقتُلوني ومالكاً » ـ وكان الناس لا يعرفونه بمالك، ولو قال: « والأشتر »، وكانت له ألف نفس ما نجا منها شيء ـ وما زال يضطرب في يديْ عبدِ الله حتى أفلَت، وكان الرجل إذا حمل على الجمل ثم نجا لم يَعُد. وجرِح يومئذ مَرْوان وعبدُ الله بن الزبير.

حدّثني عبدُالله بنُ أحمد، قال: حدّثني عمّي، قال: حدّثني سليمان، حدّثني عبدالله، عن جرير بن حازم، قال: حدّثني محمد بن أبي يعقوب وابن عون، عن أبي رَجَاء، قال: قال يومئذ عمرو بن يثربيّ الضّبيّ؛ وهو أخو عميرة القاضي:

نحن بني ضَبَّـة أصحـابُ الجمـلْ ... ننْـزِلُ بـالمـوتِ إذا المـوتُ نَـزَلْ

وزاد ابن عون ـ وليس في حديث ابن أبي يعقوب:

القَتْـلُ أحْلَى عِنـدنـا مـن العَسَـلْ ... ننْعَى آبنَ عفَّـانَ بـأطـراف الأسَـلْ
رُدُّوا علينـا شَيْخَنـا ثمَّ بَجَـلْ

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن داود بن أبي هند، عن شيخ من بني ضَبّة، قال: ارتجز يومئذ ابن يثربيّ:

أنـا لـمـن أنكـرَنـي ابـنُ يـثْـرَبـيّ ... قـاتِـلُ عِلْبـاءَ وهِـنْـدِ الـجَـمَـليّ
وآبنٍ لِصُـوحـانَ عَـلى دينِ عَـلِي

وقال: مَن يُبارز؟ فبَرَز له رجل، فقتله، ثم برز آخر فقتَلَه، وارتجز وقال:

أقْـتُـلُهُـمْ وقـد أرى عـليّـا ... ولـو أشـأ أوْجَـرْتُـه عَـمْـريّـا

فبرز له عمّار بن ياسر؛ وإنه لأضعفِ مَن بارَزه، وإنّ الناس ليسترجعون حين قام عمار، وأنا أقول لعمار من ضعفه: هذا واللهِ لاحقٌ بأصحابه، وكان قضيفاً، حَمْش الساقين، وعليه سيفٌ حمائلُه تشفّ عنه قريب من إبطه، فيضربه ابنِ يثربيّ بسيفه، فنشِب في حَجَفته، وضَرَبه عمار وأوهطه، ورَمى أصحابُ عليّ ابن يَثربي بالحجارة حتى أثخنوه وارتثّوه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن حمّاد البُرجُميّ، عن خارجة بن الصَّلت، قال: لما قال الضبّيّ يومَ الجمل:

نحن بني ضبّـة أصحـابُ الـجَمَـلْ ننعَى آبن عفّـانَ بـأطـراف الأسَـلْ
ردُّوا عـلينـا شـيخَنـا ثمَّ بَجَـلْ

قال عُمير بنُ أبي الحارث:

كـيف نَـرُدُّ شيخَكـم وقـد قَـحَـلْ نحن ضَـرَبنـا صـدَره حتَّى انجفَـلْ

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصّعب بن حكيم، عن أبيه، عن جدّه، قال: عقَر الجملَ رجلٌ من بني ضبّة يقال له: ابنُ دُلْجة ـ عمرو أو بُجير ـ وقال في ذلك الحارث بن قيس ـ وكان من أصحاب عائشة:

نحن ضـربنـا سـاقَـهُ فـانجـدلا من ضـربَـةٍ بـالنّفْرِ كـانت فَيْصَـلاَ
لـو لـم نكَـوِّنْ لـلرَّسـول ثَـقَـلا وحُـرْمَـةً لاقْـتَسَـمـونـا عُـجَّـلا

وقد نُحِل ذلك المثنّى بن مخرمة من أصحاب عليّ.

شدَّة القتال يوم الجمل وخبر أعينَ بن ضُبيعة واطلاعه في الهودج

كتب إليّ السـريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن نُـوَيرة، عن أبي عثمـان، قـال: قـال القعقاع: ما رأيتُ شيئاً أشبَه بشيء من قتال القلب يومَ الجَمَل بقتال صِفّين، لقد رأيتُنا ندافعهم بأسنّتنا ونتّكىء على أزِجَّتنا، وهم مثل ذلك حتى لو أنّ الرجال مشت عليها لاستقلّت بهم.

حدّثني عيسى بن عبد الرحمن المَروزيّ، قال: حدّثنا الحسن بن الحسين العُرَنيّ، قال: حدّثنا يحيى بن يعلى الأسلميّ، عن سليمان بن قَرْم، عن الأعمش، عن عبد الله بن سنان الكاهليّ، قال: لما كان يوم الجمل ترامَينا بالنَّبل حتى فَنيتْ، وتَطاعنَّا بالرِّماح حتى تشبّكت في صدورنا وصدورهم، حتى لو سُيِّرت عليها الخيل لسارت، ثم قال عليّ: السيوفَ يا أبناءَ المهاجرين. قال الشيخ: فما دخلتُ دارَ الوليد إلا ذكرتُ ذلك اليوم.

حدّثني عبد الأعلى بن واصل، قال: حدّثنا أبو فُقيم، قال: حدّثنا فِطْر، قال: سمعت أبا بشير قال: كنتُ مع مولاي زمنَ الجمل، فما مررتُ بدار الوليد قَطّ، فسمعت أصواتَ القَصّارين يَضرِبون إلاّ ذكرت قتالهم:

حدّثني عيسى بن عبد الرحمن المروزيّ، قال: حدّثنا الحسن بن الحسين، قال: حدّثنا يحيى بن يعلَى، عن عبد الملك بن مسلم، عن عيسى بن حطّان قال: حاصَ الناس حَيْصة، ثم رجعنا وعائشة على جمل أحمر، في هَوْدج أحمر، ما شبّهته إلا بالقنفذ من النَّبل.

حدّثني عبد الله بن أحمد، قال: حدّثني أبي؛ قال: حدّثني سليمان، قال: حـدّثني عبد الله، قـال: حدّثني ابن عون، عن أبي رَجاء، قال: ذكروا يومَ الجمل فقلتُ: كأنّي أنظر إلى خِدْر عائشةَ كأنه قنفذ مما رُمِيَ فيه من النَّبل، فقلت لأبي رجاء: أقاتلتَ يومئذ؟ قال: واللهِ لقد رميتُ بأسهم فما أدري ما صنَعْن.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن راشد السُّلَميّ، عن ميسرة أبي جميلة، أنّ محمد بن أبي بكر وعمّار بن ياسر أتَيا عائشة وقد عُقِر الجمل، فقطعا غُرْضة الرَّحْل، واحتَمَلا الهودج، فنحيَّاه حتى أمرهما عليٌّ فيه أمرَه بعد؛ قال: أدخِلاها البصرة، فأدخَلاها دارَ عبد الله بنِ خلف الخُزاعيّ.

كتب إليّ السّريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: أمر عليٌّ بحَمل الهَوْدج من بين القتلى، وقد كان القعقاع وزُفَر بن الحارث أنزَلاه عن ظهر البعير، فوَضَعاه إلى جَنْب البعير، فأقبل محمد بن أبي بكر إليه ومعه نفر، فأدخل يدَه فيه، فقالت: مَن هذا؟ قال: أخوكِ البَرّ، قالت: عَقوق. قال: عمّار بن ياسر: كيف رأيت ضرْب بنيك اليوم يا أمّهْ؟ قالت: مَن أنت؟ قال: أنا ابنك البارّ عمّار؛ قالت: لستُ لك بأمّ؛ قال: بلى، وإن كرهْتِ. قالت: فخرتم أن ظفرتم، وأتيتم مثل ما نقَمتم، هيهات؛ والله لن يظفر مَن كان هذا دأبه. وأبرزوها بهَوْدجها من القتلى، ووَضَعوها ليس قربها أحد، وكأنّ هودجَها فرخ مقصَّب مما فيه من النَّبل، وجاء أعين بن ضُبيعة المجاشعيّ حتى اطّلع في الهَوْدج، فقالت: إليكَ لعنك الله! فقال: والله ما أرى إلّا حُمَيْراء؛ قالت: هتَك الله سترَك، وقطع يَدَك، وأبدى عورَتك! فقُتل بالبصرة وسُلب، وقطعتْ يده، ورُمي به عرياناً في خَرِبة من خَرِبات الأزْد، فانتهى إليها عليّ، فقال: أيْ أمّه، يغفر الله لنا ولكم؛ قالت: غفر الله لنا ولكم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصعب بن حكيم بن شريك، عن أبيه، عن جده، قال: انتهى محمد بن أبي بكر ومعه عمّار، فقطع الأنساع عن الهودج، واحتملاه، فلما وضعاه أدخل محمد يده وقال: أخوكِ محمد، فقالت: مذمّم، قال: يا أُخيَّة، هل أصابَكِ شيء؟ قالت: ما أنت من ذاك؟ قال: فمَن إذاً الضُّلّال؟ قالت: بل الهُداة، وانتهى إليها عليّ، فقال: كيف أنتِ يا أمّه؟ قالت: بخير، قال: يغفر الله لكِ. قالت: ولكَ.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: ولما كان من آخر الليل خرج محمد بعائشة حتى أدخلها البصرة، فأنزلها في دارِ عبد الله بن خلف الخُزاعيّ على صفيَّة ابنة الحارث بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد العُزَّى بن عبد الدّار، وهي أمّ طلحة الطَّلَحات بن عبد الله بن خَلَف.

وكانت الوقعة يومَ الخميس لعشرٍ خلوْن من جُمادى الآخرة سنة ستّ وثلاثين، في قول الواقديّ.

مقتل الزبير بن العوَّام رضي الله عنه

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الوليد بن عبد الله، عن أبيه، قال: لما انهزم الناس يوم الجمل عن طلحة والزّبير، ومضى الزّبير رضي الله عنه حتى مرّ بعسكر الأحنف، فلما رآه وأخبر به قال: والله ما هذا بخيار، وقال للناس: مَن يأتينا بخبره؟ فقال عمرو بن جُرموز لأصحابه: أنا، فأتبعه، فلما لحِقه نظر إليه الزبير ـ وكان شديدَ الغضب ـ قال: ما وراءك؟ قال: إنما أردتُ أن أسألك؛ فقال غلام للزّبير يُدعَى عطية كان معه: إنه مُعِدٌّ؛ فقال: ما يَهولك من رجل! وحضرت الصّلاة، فقال ابن جُرموز: الصلاة؛ فقال: الزبير: الصلاة، فنزلا، واستدبره ابن جُرموز فطعنه من خلفه في جُرُبّان دِرعه، فقتله، وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه، وخلّى عن الغلام، فدفنه بوادي السباع؛ ورجع إلى الناس بالخبر. فأما الأحنف فقال: والله ما أدري أحسنت أم أسأت! ثمّ انحدر إلى عليّ وابن جُرموز معه، فدخل عليه، فأخبره، فدعا بالسيف، فقال: سيف طالَما جلّى

الكُرَب عن وجه رسولِ الله ﷺ! وبعث بذلك إلى عائشة، ثم أقبل على الأحنف فقال: تربّصتَ؛ فقال: ما كنتُ أراني إلّا قد أحسنتُ، وبأمرك كان ما كان يا أميرَ المؤمنين، فارفقْ فإنّ طريقك الذي سلكتَ بعيد، وأنت إليَّ غداً أحوَج منك أمسِ، فاعرف إحساني، واستصِف مودّتي لغَدٍ، ولا تقولَنَّ مثلَ هذا، فإني لم أزل لك ناصحاً.

من انهزم يوم الجمل فاختفى ومضى في البلاد

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: ومضى الزبير في صدر يوم الهزيمة راجلًا نحو المدينة، فقتله ابن جُرموز، قالا: وخرج عُتْبة بن أبي سُفيان وعبدُ الرحمن ويحيى ابنا الحكم يوم الهزيمة، قد شُجِّجوا في البلاد، فلقوا عصمة بن أبَير التيميّ، فقال: هل لكم في الجوار؟ قالوا: مَن أنت؟ قال: عصمة بن أبَير. قالوا: نعم، قال: فأنتم في جِواري إلى الحَوْل؛ فمضى بهم، ثم حَماهم وأقام عليهم حتى بَرَأوا، ثم قال: اختاروا أحبَّ بلد إليكم أبْلِغكُموه، قالوا: الشام، فخرج بهم في أربعمائة راكب من تَيْم الرِّباب، حتى إذا وغلوا في بلاد كلب بدُومة قالوا: قد وفّيتَ ذمتك وذِمَمَهم، وقضيتَ الذي عليك فارجع، فرجع. وفي ذلك يقول الشاعر:

وَفَى ابنُ أبَيْرٍ والرِّماح شوارعٌ بآل أبي العاصي وفاءُ مُذَكَّرَا

وأما ابن عامرٍ فإنه خرج أيضاً مشجّجاً، فتلقاه رجل من بني حُرْقوص يُدعَى مُرَيّاً، فدعاه للجِوار، فقال: نعم، فأجاره وأقام عليه، وقال: أيّ البلدان أحبّ إليك؟ قال: دمَشق، فخرج به في رَكب من بني حُرْقوص حتى بلغوا به دمشق. وقال حارثةُ بن بدر ـ وكان مع عائشة، وأصيب في الوقعة ابنه أو أخوه زراع:

أتاني من الأنباء أنَّ ابْنَ عامرٍ أناخ وألقى في دِمَشْقَ المَراسِيَا

وأوَى مَرْوان بن الحكَم إلى أهل بيت من عنَزة يومَ الهزيمة، فقال لهم: أعلِموا مالكَ بنَ مِسمع بمكاني، فأتَوْا مالكاً فأخبروه بمكانه، فقال لأخيه مقاتل: كيف نصنع بهذا الرجل الذي قد بعث إلينا يُعلمنا بمكانه؟ قال: ابعث ابن أخي فأجِرْه، والتمسوا له الأمان من عليّ، فإن آمنَه فذاك الذي نحبّ وإن لم يؤمنه خرجْنا به وبأسيافنا؛ فإن عرض له جالَدْنا دونَه بأسيافنا، فإمّا أن نسلم، وإمّا أن نَهلك كراماً. وقد استشار غيره من أهله من قَبْل في الذي استشار فيه مقاتلاً، فنهاه، فأخذ برأي أخيه، وترك رأيَهم، فأرسل إليه فأنزله داره، وعزم على منعه إن اضطر إلى ذلك، وقال: الموت دون الجوار وفاءٌ، وحفظ لهم بنو مَرْوانَ ذلك بعد، وانتفَعوا به عندهم، وشرّفوهم بذلك، وأوى عبد الله بن الزبير إلى دار رجل من الأزْد يُدعَى وزيراً؛ وقال: ائتِ أمَّ المؤمنين فأعلمها بمكاني، وإيّاك أن يطّلع على هذا محمد بن أبي بكر، فأتَى عائشةَ رضي الله عنها فأخبَرَها، فقالت: عليٌّ بمحمد، فقال: يا أمّ المؤمنين، إنه قد نهاني أن يعلم به محمد، فأرسلت إليه فقالت: اذهب مع هذا الرجل حتى تجيئَني بابن أختك؛ فانطَلَق معه فدخل بالأزديّ على ابن الزبير، قال: جئتك والله بما كرهتَ، وأبتْ أمّ المؤمنين إلّا ذلك، فخرج عبدُ الله ومحمد وهما يتشاتمان، فذكر محمد عثمان فشتَمَه وشتم عبد الله محمداً حتى انتهى إلى عائشة في دار عبد الله بن خلف ـ وكان عبد الله بن خلف قبل يوم الجمل مع عائشة، وقُتل عثمانُ أخوه مع عليّ ـ وأرسلت عائشةُ في طلب من كان جريحاً فضمّت منهم ناساً، وضمّت مرْوان فيمن ضَمّت، فكانوا في بيوت الدار.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: وغشيَ الوجوهُ عائشة وعليٌّ في عسكره، ودخل القعقاع بن عمرو على عائشة في أوّل من دخل، فسلّم عليها، فقالت: إني رأيت رجلين بالأمس اجتلَدا بين يديّ وارتجزا بكذا، فهل تَعرف كُوفيَّك منهما؟ قال: نعم، ذاك الذي قال: « أعقٌّ أمٌّ نَعْلم »، وكذَب والله، إنكِ لأبرّ أمّ نَعلم، ولكن لم تطاعي. فقالت: والله لوددت أني متُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وخرج فأتى عليّاً فأخبره أنّ عائشة سألتْه، فقال: ويْحك! مَن الرجلان؟ قال: ذلك أبو هالة الذي يقول:

كيما أرى صاحبه عليّا

فقال: والله لوددتُ أنّي متّ قبلَ هذا اليومِ بعشرين سنة، فكان قولُهما واحداً.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: وتسلّل الجرحى في جوف الليل، ودخلَ البَصْرة مَن كان يطيق الانبعاث منهم، وسألتْ عائشة يومئذٍ عن عِدّة من الناس، منهم من كان معها، ومنهم من كان عليها، وقد غشيَها الناس، وهي في دار عبدِ الله بن خلَف، فكلما نُعيَ لها منهم واحد قالت: يرحمُه الله، فقال لها رجل من أصحابها: كيف ذلك؟ قالت: كذلك قال رسولُ الله ﷺ: فلانٌ في الجنة، وفلانٌ في الجنة. وقال عليّ بن أبي طالب يومئذ: إني لأرجو ألّا يكون أحد من هؤلاء نَقَّى قلبَه إلّا أدخله الله الجنّة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطيّة، عن أبي أيّوب، عن عليّ، قال: ما نُزِّل على النبي ﷺ آية أفرَح له من قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفو عَنْ كَثيرٍ ﴾ (١)، فقال ﷺ: « ما أصاب المسلمَ في الدّنيا من مصيبة في نفسه فبذَنْب، وما يعفو الله عزّ وجلّ عنه أكثر، وما أصابه في الدّنيا فهو كفّارة له وعفوٌ منه لا يُعتدّ عليه فيه عقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عزّ وجلّ عنه في الدنيا فقد عفا عنه، واللهُ أعظم من أن يعودَ في عفوه ».

توجّع عليّ على قتلى الجمل ودفنُهم وجمعه ما كان في العسكر والبعثُ به إلى البصرة

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: وأقام عليّ بن أبي طالب في عسكره ثلاثةَ أيام لا يدخل البصرة، ونُدب الناس إلى موتاهم، فخرجوا إليهم فدفنوهم، فطاف عليٌّ معهم في القتْلى، فلما أتِيَ بكَعْب بن سُور قال: زعمتم أنما خرج معهم السفهاء، وهذا الحَبْر قد تروْن. وأتى علَى عبد الرحمن بن عتّاب فقال: هذا يَعْسوب القوم ـ يقول الذي كانوا يُطيفون به ـ يعني أنهم قد كانوا اجتمعوا عليه، ورضُوا به لصلاتهم. وجعل عليّ كلما مرّ برجل فيه خير قال: زعَم مَن زعم أنه لم يخرج إلينا إلّا الغوغاء، هذا العابد المجتهد. وصلّى على قتلاهم من أهل البصرة، وعلى قتلاهم من أهل الكوفة؛ وصلى على قريش من هؤلاء وهؤلاء، فكانوا مدَنيِّين ومَكّيّين، ودَفن عليٌّ الأطرافَ في قبر عظيم، وجمع ما كان في العسكر من شيء، ثم بعث به إلى مسجد البصرة؛ أنْ من عرف شيئاً فليأخذه، إلّا سلاحاً كان في الخزائن عليه سِمَة السلطان، فإنه لمّا بقي لم يعرف، خذُوا ما أجلَبوا به عليكم من مال الله عزّ وجلّ، لا يحلّ لمسلم من مال المسلم المتوفَّى شيء، وإنما

(١) سورة الشورى: ٣٠.

كان ذلك السلاح في أيديهم من غير تنفيل من السلطان.

عدد قتلَى الجمل

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: كان قتلَى الجمل حول الجمل عشرة آلاف؛ نصفهُم من أصحاب عليّ، ونصفهم من أصحاب عائشة؛ من الأزد ألفان، ومن سائر اليمن خمسمائة، ومن مضرَ ألفان، وخمسمائة من قيس، وخمسمائة من تميم، وألف من بني ضبّة، وخمسمائة من بكر بن وائل. وقيل: قتِل من أهل البصرة في المعركة الأولى خمسة آلاف، وقتل من أهل البصرة في المعركة الثانية خمسة آلاف، فذلك عشرة آلاف قتيل من أهل البصرة، ومن أهل الكوفة خمسة آلاف. قالا: وقُتل من بني عديّ يومئذ سبعون شيخاً، كلهم قد قرأ القرآن، سوى الشّباب ومن لم يَقرأ القرآن.

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما زلتُ أرجو النصرَ حتى خفيتْ أصواتُ بني عديّ.

دخول عليّ على عائشة وما أمر به من العقوبة فيمن تناولها

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: ودخل عليّ البصرة يومَ الاثنين، فانتهى إلى المسجد، فصلّى فيه، ثم دخل البصرة، فأتاه الناس، ثم راح إلى عائشة على بغلته، فلما انتهى إلى دار عبدِ الله بن خلف وهي أعظم دار بالبصرة، وجد النِّساءَ يبكين على عبد الله وعثمان ابني خَلَف مع عائشةَ، وصفيّةُ ابنة الحارث مختمِرة تبكي، فلما رأته قالت: يا عليّ، يا قاتلَ الأحبّة، يا مفرّق الجمع، أيتمَ اللهُ بَنيك منك كما أيتمت ولَد عبد الله منه! فلم يردّ عليها شيئاً، ولم يزل على حاله حتى دخل على عائشة، فسلّم عليها، وقعد عندَها، وقال لها: جَبَهَتْنَا صفيّة، أما إني لم أرها منذ كانت جاريةً حتى اليوم، فلما خرج عليّ أقبلت عليه فأعادت عليه الكلام، فكفّ بغلته وقال: أمَا لهمَمْتُ - وأشار إلى الأبواب من الدار - أن أفتح هذا الباب وأقتلَ من فيه، ثم هذا فأقتل مَن فيه، ثم هذا فأقتل من فيه - وكان أناس من الجرحَى قد لجؤوا إلى عائشة، فأخبِر عليٌّ بمكانهم عندها، فتغافل عنهم - فسكتت. فخرج عليٌّ، فقال رجل من الأزد: واللهِ لا تُفلتنَا هذه المرأة. فغضب وقال: صَه! لا تَهْتِكُنّ ستراً، ولا تَدخُلنّ داراً، ولا تهيِّجُن امرأةً بأذى، وإن شَتَمن أعراضَكم، وسفَّهن أمراءكم وصُلَحاءكم، فإنهنّ ضعاف؛ ولقد كنا نؤمر بالكفّ عنهنّ، وإنهنّ لمشركات، وإن الرجل ليكافىء المرأة ويتناولها بالضّرب فيُعيَّر بها عَقِبه من بعده، فلا يبلغنّي عن أحد عرض لامرأة فأنكّل به شرار الناس. ومضى عليّ، فلَحِق به رجل، فقال: يا أميرَ المؤمنين، قام رجلان ممن لقيتُ على الباب، فتناولا مَنْ هو أمضُّ لك شتيمة من صفيّة. قال: ويحك! لعلها عائشة. قال: نعم، قام رجلان منهم على باب الدار فقال أحدهما:

جُـزيـتِ عـنّـا أمَّـنـا عُـقـوقـا

وقال الآخر:

يـا أمَّـنـا تُـوبي فـقـد خَـطِيتِ

فبعث القعقاعَ بن عمرو إلى الباب، فأقبل بمن كان عليه، فأحالوا على رجلين، فقال: أضربُ أعناقهما، ثم قال: لأنهَكنّهما عقوبة. فضرَبهما مائةً مائة، وأخرجَهما من ثيابهما.

كتب إليّ السريُّ، عن شعيب، عن سيف، عن الحارث بن حَصِيرة، عن أبي الكنود، قال: هما رجلان

من أزْد الكوفة يقال لهما عِجْل وسعد ابنا عبد الله.

بيعة أهل البصرة عليّاً وقسمُه ما في بيت المال عليهم

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: بايع الأحنف من العشيّ لأنه كان خارجاً هو وبنو سَعد، ثم دخلوا جميعاً البصرة، فبايع أهل البصرة على راياتهم، وبايع عليّ أهل البصرة حتى الجرحى والمستأمِنة، فلما رجع مروان لحق بمعاوية. وقال قائلون: لم يبرح المدينة حتى فرغ من صِفين.

قالا: ولما فرغ عليّ من بيعة أهل البصرة نظر في بيت المال فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة، فقسمها على من شهد معه [الوقعة]، فأصاب كلّ رجل منهم خمسمائة خمسمائة، وقال: لكم أن أظفركم الله عزّ وجلّ بالشام مِثلُها إلى أعطياتكم. وخاض في ذلك السبَئِيّة، وطعَنوا على عليّ من وراء وراء.

سيرة عليّ فيمن قاتل يوم الجمل

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن راشد، عن أبيه، قال: كان من سيرة عليّ ألّا يَقتل مدبراً ولا يذفِّف على جريح، ولا يكشف سِتراً، ولا يأخذ مالا، فقال قوم يومئذ: ما يُحلّ لنا دماءهم ويُحرّم علينا أموالهم؟ فقال عليّ: القومُ أمثالكم، من صفح عنّا فهو منّا، ونحن منه، ومن لجَّ حتى يصاب فقتاله منّي على الصّدر والنّحر، وإنّ لكم في خُمْسِهِ لغنىً، فيومئذ تكلّمت الخوارج.

بعثة الأشتر إلى عائشة
بجَمل اشتراه لها وخروجها من البَصرة إلى مكّة

حدّثنا أبو كريب محمد بن العلاء، قال: حدّثنا يحيى بن آدم، عن أبي بكر بن عيّاش، عن عاصم بن كُليب، عن أبيه، قال: لما فرغوا يوم الجمل أمرني الأشتر فانطلقت فاشتريتُ له جملاً بسبعمائة درهم من رجل من مَهْرة، فقال: انطلِق به إلى عائشة فقل لها: بعث به إليكِ الأشتر مالكُ بن الحارث، وقال: هذا عِوَض من بعيرك، فانطلقْت به إليها، فقلت: مالكٌ يقرئكِ السلام ويقول: إنّ هذا البعير مكان بعيرك؛ قالت: لا سَلّم الله عليه؛ إذ قتل يَعسوبَ العرب ـ تَعني ابن طلحة ـ وصنع بابن أختي ما صنع! قال: فرددنه؛ الأشتر، وأعلمتُه، قال: فأخرَج ذراعين شعراوين؛ وقال: أرادوا قتلي فما أصنع!

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: قصدتْ عائشة مكة فكان وجهها من البصرة، وانصرف مروان والأسوَد بن أبي البَخْتَريّ إلى المدينة من الطريق، وأقامت عائشة بمكّة إلى الحجّ، ثم رجعت إلى المدينة.

ما كتب به عليّ بن أبي طالب من الفتح إلى عامله بالكوفة

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: وكتب عليّ بالفتح إلى عامله بالكوفة حين كتب في أمرها وهو يومئذ بمكة:

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين. أمّا بعد، فإنا التقينا في النصف من جمادى الآخرة بالخُرَيبة ـ فِناءٌ من أفنية البصرة ـ فأعطاهم الله عزّ وجلّ سُنّة المسلمين، وقُتل منّا ومنهم قتلَى كثيرة، وأصيب ممّن أصيب منا ثُمامَة بن المثنّى، وهند بن عمرو، وعِلباء بن الهيثم، وسَيْحَان وزيد ابنا صُوحان، ومحدوج.

وكتب عبيد الله بن رافع. وكان الرسول زُفَر بن قيس إلى الكوفة بالبشارة في جمادَى الآخرة.

أخذ عليّ البيعة على الناس

وخبر زياد بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن أبي بكرة

وكان في البيعة: عليك عهد الله وميثاقُه بالوَفاء لتكوننّ لِسلْمِنا سِلْماً، ولحربنا حرباً، ولتكفَّنّ عنّا لسانك ويدَك. وكان زياد بن أبي سفيان ممن اعتزل ولم يشهد المعركة، قعد. وكان في بيت نافع بن الحارث، وجاء عبد الرحمن بن أبي بَكْرَة في المستأمنين مسلّماً بعدما فرغ عليّ من البيعة، فقال له عليٌّ: وعمُّك المتربص المقاعد بي! فقال: والله يا أمير المؤمنين، إنه لك لوَادّ، وإنه على مسرّتك لحريص، ولكنه بلغني أنه يشتكي، فأعلم لك علمَه ثم آتيك. وكتم عليّاً مكانه حتى استأمره، فأمره أن يُعلمه فأعلمه، فقال عليٌّ: امشِ أمامي فاهدني إليه، ففعل؛ فلما دخل عليه قال: تقاعدتَ عني، وتربّصت ـ ووضع يده على صدره، وقال: هذا وجع بيِّن ـ فاعتذر إليه زياد، فقبل عذره واستشاره. وأراده عليٌّ على البصرة، فقال: رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس؛ فإنه أجدر أن يطمئنّوا أو ينقادوا، وسأكفيكه وأشيرُ عليه. فافترقا على ابن عباس، ورجع عليٌّ إلى منزله.

تأمير ابن عبَّاس على البصرة وتولية زياد الخراج

وأمَّر ابنَ عبّاس على البصرة، وولّى زياداً الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس أن يسمع منه، فكان ابن عباس يقول: استشرته عند هَنَة كانت من الناس، فقال: إن كنتَ تعلم أنك على الحقّ، وأنّ مَنْ خالفك على الباطل، أشرتُ عليك بما ينبغي، وإن كنتَ لا تدري، أشرتُ عليك بما ينبغي كذلك. فقلت: إنّي على الحقّ، وإنهم على الباطل، فقال: اضرب بمن أطاعك مَنْ عصاك ومن ترك أمرَك، فإن كان أعزّ للإسلام وأصلح له أن يُضرب عنُقه فاضرب عنقه. فاستكتبتُه، فلما ولّى رأيتُ ما صنع، وعلمتُ أنه قد اجتهد لي رأيَه، وأعجلت السَّبَئيّةُ عليّاً عن المقام، وارتحلوا بغير إذنه، فارتحل في آثارهم ليقطع عليهم أمراً إن كانوا أرادوه، وقد كان له فيها مقام.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: علم أهلُ المدينة بيوم الجمل يومَ الخميس قبل أن تغرب الشمس من نَسْر مرَّ بما حول المدينة، معه شيء متعلّقه، فتأمّله الناس فوقع، فإذا كفٌّ فيها خاتم، نقشه «عبد الرحمن بن عتّاب»، وجفل مَن بين مكة والمدينة من أهل البصرة، مَنْ قرُب من البصرة أو بعد، وقد علموا بالوقعة مما ينقل إليهم النُّسور من الأيدي والأقدام.

تجهيز عليّ عليه السلام عائشةَ رضي الله عنها من البصرة

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: وجهز عليّ بكلّ شيء ينبغي لها من مركَب أو زاد أو متاع، وأخرج معها كلَّ مَن نجا ممّن خرج معها إلّا من أحبّ المقام، واختار لها أربعين امرأةً من نساء أهل البصرة المعروفات، وقال: تجهّز يا محمّد، فبلّغها، فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه، جاءها حتى وقف لها، وحضر الناس، فخرجتْ على الناس وودّعوها وودّعتهم، وقالت: يا بَنِيّ، تَعتَّب بعضُنا على بعض استبطاءً واستزادة، فلا يعتدّنَّ أحدٌ منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك؛ إنه والله ما كان بيني وبين عليّ

في القدم إلّا ما يكون بين المرأة وأحمائها؛ وإنه عندي على معتبتي من الأخيار. وقال عليٌّ: يا أيها الناس: صدقت والله وبرّت، ما كان بيني وبينها إلّا ذلك، وإنها لزوجة نبيِّكم ﷺ في الدنيا والآخرة.

وخرجت يوم السبت لغرّة رجب سنة ست وثلاثين، وشيَّعها عليٌّ أميالاً، وسرّح بنيه معها يوماً.

ما رُوي من كثرة القتلَى يوم الجمل

حدثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا محمد بن الفضل بن عطيّة الخُراسانيّ، عن سعيد القُطَعِيّ، قال: كنّا نتحدّث أنّ قتلى الجمل يزيدون على ستّة آلاف.

حدّثني عبدُالله بن أحمد بن شبّوَيْه، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثنا سليمان بن صالح، قال: حدّثني عبدالله، عن جرير بن حازم، قال: حدّثني الزبير بن الخِرّيت، عن أبي لبيد لِمازة بن زياد، قال: قلت له: لِمَ تسبّ عليّاً؟ قال: ألا أسبّ رجلاً قتل منا ألفين وخمسمائة، والشمس ها هنا! قال جرير بن حازم: وسمعتُ ابن أبي يعقوب يقول: قَتَل عليّ بن أبي طالب يومَ الجمل ألفين وخمسمائة؛ ألف وثلثمائة وخمسون من الأزْد وثمانمائة من بني ضبّة، وثلثمائة وخمسون من سائر الناس.

وحدّثني أبي، عن سليمان، عن عبدالله، عن جرَير، قال: قتِل المعرِّض بن عِلاط يوم الجمل، فقال أخوه الحجّاج:

لم أر يَـوْمـاً كـان أكثـرَ سـاعِيـاً بكفّ شِمـالٍ فـارقتْـهـا يمـينُـهـا

قال معاذ: وحدّثني عبدالله، قال: قال جرير: قتل المعرِّض بن عِلاط يوم الجمل، فقال أخوه الحجّاج:

لم أرَ يـومـاً كـان أكْثـرَ سـاعِيـاً بكفّ شِمـالٍ فـارَقَتْـهـا يَمـينُـهـا

ما قال عمّار بن ياسر لعائشة حين فرغ من الجمل

حدّثني عبدالله بن أحمد، قال: حدّثني أبي، عن سليمان، قال: حدّثني عبدالله، عن جرير بن حازم، قال: سمعت أبا يزيد المدينيّ يقول: قال عمّار بن ياسر لعائشة - رضي الله عنها - حين فرغ القوم: يا أمّ المؤمنين، ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عُهد إليك! قالت: أبو اليقظان! قال: نعم، قالت: والله إنّك - ما علمتُ - قوّال بالحق، قال: الحمد لله الذي قضى لي على لسانك.

آخر حديث الجمل

بعثة عليّ بن أبي طالب قيس بن سعد بن عبادة أميراً على مصر

وفي هذه السنة - أعني سنة ستّ وثلاثين - قُتِل محمد بن أبي حذيفة، وكان سبب قتله أنه لما خرج المصريّون إلى عثمان مع محمد بن أبي بكر، أقام بمصر، وأخرج عنها عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح، وضبطها، فلم يزل بها مقيماً حتى قتل عثمان رضي الله عنه، وبويع لعليّ، وأظهر معاوية الخلاف، وبايعه على ذلك عمرو بن العاص، فسار معاوية وعمرو إلى محمد بن أبي حُذيفة قبل قدوم قيس بن سعد مصر، فعالجا دخولَ مصر، فلم يقدرا على ذلك، فلم يزالا يخدعان محمد بن أبي حذيفة حتى خرج إلى عَريش مصر

في ألف رجل ، فتحصّن بها ، وجاءه عمرو فنصب المنجنيق عليه حتى نزل في ثلاثين من أصحابه وأخِذوا وقُتلوا رحمهم الله .

وأما هشام بن محمد فإنه ذكر أن أبا مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سُليم ، حدّثه عن محمد بن يوسف الأنصاريّ من بني الحارث بن الخزرج ، عن عبّاس بن سهل الساعديّ أنّ محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف هو الذي كان سَرّب المصريين إلى عثمان بن عفان ، وإنهم لمّا ساروا إلى عثمان فحصروه وثب هو بمصر على عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح أحد بني عامر بن لؤيّ القرشيّ ، وهو عامل عثمانَ يومئذ على مصر ، فطرده منها ، وصلّى بالناس ، فخرج عبدالله بن سعد من مصر فنزل على تُخوم أرضِ مصر مما يلي فِلسطين ، فانتظر ما يكون من أمر عثمان ، فطلع راكبٌ فقال : يا عبدالله ، ما وراءك ؟ خبِّرنا بخبر الناس خلفك ؛ قال : أفعل ، قتل المسلمون عثمانَ رضي الله عنه ، فقال عبدالله بن سعد : ﴿إنّا لله وإنّا إليْهِ رَاجِعونَ!﴾ ، يا عبدالله ، ثم صنعوا ماذا؟ قال: ثم بايعوا ابن عَمّ رسول الله ﷺ عليّ ابن أبي طالب، قال عبدالله بن سعد: ﴿إنّا لله وَإنّا إليْهِ رَاجِعُونَ﴾(١)، قال له الرجل: كأنّ ولاية عليّ بن أبي طالب عدلتْ عندك قتلَ عثمان ! قال : أجل . قال : فنظر إليه الرّجل ، فتأمّله فعرفه وقال : كأنّك عبدالله بن أبي سرْح أمير مصر ! قال : أجلْ ؛ قال له الرجل : فإن كان لك في نفسك حاجة فالنَّجاء النَّجاء ، فإنّ رأيَ أمير المؤمنين فيك وفي أصحابك سَيِّيء ، إن ظفر بكم قتلَكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين ، وهذا بعدي أمير يقدم عليك . قال له عبدالله : ومن هذا الأمير؟ قال : قيس بن سعد بن عُبادة الأنصاريّ ، قال عبدالله بن سعد : أبْعَد الله محمدَ بن أبي حذيفة ! فإنه بغى على ابن عمِّه ، وسعى عليه ، وقد كان كفله ورباه وأحسن إليه ، فأساء جوارَه ، ووثب على عمّاله ، وجهز الرجال إليه حتى قتل ، ثم ولي عليه من هو أبعد منه ومن عثمان ، لم يمتِّعه بسلطان بلاده حولاً ولا شهراً ، ولم يره لذلك أهلاً ، فقال له الرجل : انجُ بنفسك ، لا تقتَل . فخرج عبدالله بن سعد هارباً حتى قدم على معاوية بن أبي سُفيان دِمَشق .

قال أبو جعفر : فخبرُ هشامٍ هذا يدلّ على أن قيس بن سعد ولِّي مصر ومحمد بن أبي حذيفة حيّ .

وفي هذه السنة بعث عليّ بن أبي طالب على مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاريّ ، فكان من أمره ما ذكر هشام بن محمد الكَلبيّ ، قال : حدّثني أبو مخنف ، عن محمد بن يوسف بن ثابت ، عن سهل بن سعد ، قال : لما قُتِل عثمان رضي الله عنه وولي عليّ بن أبي طالب الأمر ، دعا قيس بن سعد الأنصاريّ فقال له : سر إلى مصرَ فقد ولّيتُكها ، واخرج إلى رحلك، واجمع إليك ثقاتك ومَن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند ، فإن ذلك أرعب لعدوّك وأعزّ لوليّك ، فإذا أنت قدِمتها إن شاء الله فأحسِن إلى المحسن ، واشتدّ على المريب . وارفُق بالعامة والخاصّة ، فإنّ الرفق يُمن .

فقال له قيس بن سعد : رحمك الله يا أميرَ المؤمنين ! فقد فهمتُ ما قلتَ ، أمّا قولك : اخرج إليها بجند ، فوالله لئن لم أدخلها إلاّ بجند آتيها به من المدينة لا أدخلها أبداً ، فأنا أدَعُ ذلك الجند لك ، فإن أنت احتجت إليهم كانوا منك قريباً ، وإن أردت أن تبعثهم إلى وجه من وجوهك كانوا عُدّة لك ، وأنا أصير إليها بنفسي وأهل بيتي . وأمّا ما أوصيتَني به من الرفق والإحسان ، فإنّ الله عزّ وجلّ هو المستعان على ذلك .

---

(١) سورة البقرة: ١٥٦ .

قال : فخرج قيس بن سعد في سبعة نفر من أصحابه حتى دخل مصر ، فصعد المنبر ، فجلس عليه ، وأمرَ بكتابٍ معه من أمير المؤمنين فقرىء على أهل مصر :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله عليّ أمير المؤمنين إلى مَن بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين . سلامٌ عليكم ، فإنّي أحمَد إليكم الله الذي لا إله إلا هو . أمّا بعد ، فإنّ الله عزّ وجلّ بحسن صنعِه وتقديره وتدبيره ، اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله ، وبعث به الرّسل عليهم السلام إلى عباده ، وخصّ به مَن انتخب من خلقه ، فكان مما أكرم الله عزّ وجلّ به هذه الأمّة ، وخصّهم به من الفضيلة أن بعث إليهم محمداً ﷺ ، فعلّمهم الكتاب والحكمة والفرائضَ والسنّة ، لكيما يهتدوا ، وجمعهم لكيما لا يتفرّقوا ، وزكّاهم لكيما يتطهّروا ، ورفّهَهُمْ لكيما لا يجوروا ، فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله عزّ وجلّ صلوات الله عليه ورحمته وبركاته . ثم إنّ المسلمين استخلفوا به أميريْن صالحين ، عَمِلا بالكتاب والسنّة ، وأحسَنَا السيرة ، ولم يَعدُوَا السنّة ، ثم توفّاهما الله عزّ وجلّ ، رضي الله عنهما . ثم وليَ بعدهما والٍ فأحدث أحداثاً ، فوجدت الأمة عليه مقالاً فقالوا ، ثم نقموا عليه فغيّروا ، ثم جاؤوني فبايعوني ، فأستهدِي الله عزّ وجلّ بالهُدى ، وأستعينه على التقوى . ألاّ وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ، والقيام عليكم بحقه والتنفيذ لسنّته ، والنّصح لكم بالغيب ، والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . وقد بعثت إليكم قيسَ بن سعد بن عبادة أميراً ، فوازِروه وكانِفوه ، وأعينوه على الحقّ ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم ، والشدّة على مُريبكم ، والرّفق بعوامّكم وخواصّكم ، وهو ممّن أرضىَ هديَه ، وأرجو صلاحَه ونصيحته . أسأل الله عزّ وجلّ لنا ولكم عملاً زاكياً ، وثواباً جزيلاً ، ورحمةً واسعة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتب إلى عبدالله بن أبي رافع في صفر سنة ستّ وثلاثين .

قال : ثمّ إنّ قيس بن سعد قام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد ﷺ ، وقال : الحمد لله الذي جاء بالحقّ ، وأمات الباطل ، وكبت الظالمين . أيّها الناس ، إنا قد بايعْنا خير من نعلم بعد محمد نبينا ﷺ ، فقوموا أيّها الناس فبايعوا على كتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله ﷺ ، فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعةَ لنا عليكم .

فقام الناس فبايَعوا ، واستقامت له مصر ، وبعث عليها عمّاله ، إلاّ أن قريةً منها يقال لها : « خِربْتَا » فيها أناس قد أعظموا قتلَ عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وبها رجل من كنانة ثم من بني مُدْلِج يقال له يزيد بن الحارث من بني الحارث بن مُدْلج . فبعث هؤلاء إلى قيس بن سعد : إنّا لا نقاتلك فابعث عمّالك ، فالأرض أرضكَ ، ولكن أقِرّنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس .

قال : ووثب مسلمة بن مخلّد الأنصاريّ ، ثمّ مَنْ ساعده من رهط قيس بن سعد، فنعى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ودعا إلى الطلب بدمه ، فأرسل إليه قيس بن سعد : ويحك ، عليَّ تَثِب! فوالله ما أحبّ أنّ لي ملك الشام إلى مصرَ وأني قتلتك . فبعث إليه مسلمة : إني كافٌّ عنك ما دمت أنت واليَ مصر .

قال : وكان قيس بن سعد له حزم ورأي ، فبعث إلى الذين بِخِربتَا : إنيّ لا أكرِهكم على البيعة ، وأنا أدَعكُم وأكفّ عنكم . فهادَنَهم وهادَن مسلمة بن مخلّد ، وجَبى الخراجَ ، ليس أحد من الناس ينازعه .

قال : وخرج أمير المؤمنين إلى أهل الجمل وهو على مصر ، ورجع إلى الكُوفة من البصرة وهو بمكانه ،

فكان أثقلَ خلق الله على معاوية بن أبي سفيان لقربه من الشام، مخافة أن يُقبِل إليه عليٌّ في أهل العراق، ويُقبل إليه قيس بن سعد في أهل مصر، فيقع معاوية بينهما.

وكتب معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد ـ وعليّ بن أبي طالب يومئذ بالكوفة قبل أن يسير إلى صِفّين:

من معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد. سلام عليك، أمّا بعد، فإنكم إن كنتم نقمتم على عثمانَ بن عفان رضي الله عنه في أُثْرةٍ رأيتموها، أو ضربةِ سوط ضربها، أو شتيمة رجل، أو في تسييره آخرَ، أو في استعماله الفُتيّ، فإنكم قد علمتم ـ إن كنتم تعلمون ـ أنَّ دمه لم يكن يحلّ لكم، فقد ركبتم عظيماً من الأمر، وجئتم شيئاً إدّاً، فتبْ إلى الله عزّ وجلّ يا قيس بن سعد. فإنك كنت في المجلِبين على عثمان بن عفان ـ إن كانت التوبة من قتل المؤمن تُغني شيئاً ـ فأمّا صاحبك فإنا استيقنّا أنّه الذي أغْرَى به الناس، وحَمَلَهم على قتله حتى قتلوه، وأنه لم يسلم من دمه عُظْم قومك، فإن استطعت يا قيس أن تكون ممّن يطلب بدم عثمانَ فافعل. تابِعْنا على أمرنا، ولك سلطانُ العِراقَين إذا ظهرتُ ما بقيت، ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان، وسلْني غير هذا مما تحبّ، فإنّك لا تسألني شيئاً إلا أوتيتَه، واكتب إليَّ برأيك فيما كتبت به إليك. والسلام.

فلما جاءه كتاب معاوية أحبّ أن يدافعه ولا يبدي له أمره، ولا يتعجّل له حربه، فكتب إليه:

أمّا بعد، فقد بلغني كتابُك وفهمتُ ما ذكرتَ فيه من قتل عثمانَ، وذلك أمر لم أقارفه، ولم أطِفْ به. وذكرتَ أنّ صاحبي هو أغرى الناسَ بعثمان، ودسَّهم إليه حتى قتلوه، وهذا ما لم أطّلع عليه، وذكرت أن عُظْم عشيرتي لم تَسلَم من دم عثمان، فأوّل الناس كان فيه قياماً عشيرتي. وأمّا ما سألتَني من متابعتك، وعرضتَ عليّ من الجزاء به، فقد فهمتُه، وهذا أمر لي فيه نظر وفكرة، وليس هذا مما يسرَع إليه، وأنا كافّ عنك، ولن يأتيَك من قِبَلي شيء تكرهه حتى تَرَى ونرى إن شاء الله، والمستجارُ الله عزّ وجلّ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال: فلما قرأ معاوية كتابَه، لم يره إلّا مقارِباً مباعِداً، ولم يأمن أن يكون له في ذلك مباعداً مكايداً، فكتب إليه معاوية أيضاً:

أمّا بعدُ، فقد قرأتُ كتابك، فلم أرك تدنو فأعُدّك سِلْما، ولم أرك تباعِد فأعُدّك حرباً، أنت فيما هاهنا كحنَك الجزَور، وليس مثلي يصانع المخادِع، ولا يَنْتزع للمكايد، ومعه عدد الرّجال، وبيده أعنّةُ الخيل، والسلام عليك.

فلما قرأ قيس بن سعد كتاب معاوية، ورأى أنه لا يقبل معه المدافعة والمماطلة، أظهر له ذاتَ نفسه، فكتب إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم. من قيس بن سعد، إلى معاوية بن أبي سُفيان. أما بعد، فإن العَجب من اغترارك بي، وطمعِك فيّ، واستسقاطك رأيي. أتسومني الخروج من طاعة أوْلى الناس بالإمْرة، وأقْوَلِهم للحق، وأهداهم سبيلاً، وأقربهم من رسول الله ﷺ وسيلةً، وتأمرني بالدّخول في طاعتك، طاعة أبعد

الناس من هذا الأمر ، وأقْوَلهم للزّور ، وأضلِّهم سبيلا ، وأبعدِهم من الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ وسيلةً ، ولد ضالِينَ مُضلِّين ، طاغوتٍ من طواغيت إبليس ! وأمّا قولك إني مالىء عليك مصر خيلًا ورَجْلًا فوالله إن لم أشغَلك بنفسك حتى تكون نفسك أهمَّ إليك ؛ إنك لذو جَدّ ؛ والسلام . فلما بلغ معاوية كتاب قيس أيس منه ، وثقل عليه مكانُه .

حدثني عبدالله بن أحمد المروزيّ ، قال : حدثني أبي قال : حدّثني سليمان ، قال : حدّثني عبدالله ، عن يونس، عن الزهريّ، قال: كانت مصر من حين عليّ، عليها قيس بن سعد بن عبادة، وكان صاحبَ راية الأنصار مع رسول الله ﷺ ، وكان من ذوي الرأي والبأس ، وكان معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص جاهدَيْن على أن يُخرجاه من مصر ليَغلِبا عليها ، فكان قد امتنع فيها بالدّهاء والمكايدة ، فلم يقدرا عليه ، ولا على أن يفتتحا مصر ، حتى كاد معاوية بن قيس بن سعد من قِبَل عليّ ، وكان معاوية يحدّث رجالًا من ذوِي الرأي من قريش يقول : ما ابتدعتُ مكايدةً قطّ كانت أعجبَ عندي من مكايدة كدتُ بها قيساً من قبَل عليّ وهو بالعراق حين امتنع منّي قيس . قلت لأهل الشأم : لا تسبّوا قيسَ بن سعد ، ولا تدْعوا إلى غزوه ، فإنه لنا شِيعة ، يأتينا كيِّس نصيحته سرّاً . ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خِرِبْتَا ، يُجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، ويؤمّن سِرْبَهم ، ويُحسن إلى كلّ راكب قدم عليه منكم ، لا يستنكرونه في شيء !

قال معاوية : وهممتُ أن أكتب بذلك إلى شيعتي من أهل العراق ، فيسمع بذلك جواسيس عليّ عندي وبالعراق . فبلغ ذلك عليّاً ، ونماه إليه محمد بن أبي بكر ومحمّد بن جعفر بن أبي طالب . فلما بلغ ذلك عليّاً اتهَم قيساً ، وكتب إليه يأمره بقتال أهل خِرِبْتَا - وأهل خِرِبْتَا يومئذ عشرة آلاف - فأبى قيس بن سعد أن يقاتلهم ، وكتب إلى عليّ : إنهم وجوه أهل مصر وأشرافُهم ، وأهلُ الحِفاظ منهم ، وقد رَضُوا منّي أن أؤمِّن سِربَهم ، وأجرِيَ عليهم أعطياتِهم وأرزاقَهم ، وقد علمت أنّ هواهم مع معاوية ،فلست مكايدهم بأمر أهونَ عليّ وعليك من الذي أفعل بهم ، ولو أني غزوتُهم كانوا لي قِرْناً ، وهم أُسود العرب ، ومنهم بُسْر بن أبي أرطأة ، ومسلمة بن مخلَّد ، ومعاوية بن حُديج ، فذَرْني فأنا أعلم بما أداري منهم . فأبى عليّ إلّا قتالَهم ، وأبى قيس أن يقاتلهم .

فكتب قيس إلى عليّ : إن كنت تتّهمني فاعزلني عن عملك ، وابعث إليه غيري . فبعث عليٌّ الأشتر أميراً إلى مصر ، حتى إذا صار بالقلزُم شربَ شربَة عسل كان فيها حتفُه . فبلغ حديثهم معاوية وعمراً . فقال عمرو : إن لله جُنداً من عَسَل .

فلما بلغ عليّاً وفاة الأشتر بالقُلْزَم بعث محمد بن أبي بكر أميراً على مصر . فالزُّهري يذكر أن عليّاً بعث محمد بن أبي بكر ، أميراً على مصر بعد مَهلك الأشتر بقلزم ، وأما هشام بن محمد ، فإنه يذكر في خبره أنّ عليّاً بعث بالأشتر أميراً على مصر بعد مَهلِك محمد بن أبي بكر .

رجع الحديث إلى حديث هشام عن أبي مخنف : ولما أيس معاوية من قيس أن يتابعه على أمره ، شقّ عليه ذلك ، لما يعرف من حزمه وبأسِه ، وأظهر للناس قبلَه ، أنّ قيس بن سعد قد تابعكم ، فادعوا الله له ، وقرأ عليهم كتابه الذي لان له فيه وقاربه . قال : واختلَق معاوية كتاباً من قيس بن سعد ، فقرأه على أهل الشام :

بسم الله الرحمن الرحيم : للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد ، سلامٌ عليك ، فإنّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو ، أمّا بعد ، فإنّي لّما نظرت رأيت أنه لا يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامَهم مُسلِماً مُحرَّماً برّاً تقيّاً ، فنستغفر الله عزّ وجلّ لذنوبنا ، ونسأله العصمةَ لديننا . ألاَ وإنّني قد ألقيت إليكم بالسِّلم ، وإني أجبتك إلى قتال قَتَلة عثمانَ ، إمام الهدى المظلوم ، فعوِّل عليّ فيما أحببت من الأموال والرجال أعجّل عليك ، والسلام .

فشاع في أهل الشام أنّ قيس بن سعد قد بايع معاوية بن أبي سُفيان ، فسرّحتْ عيون عليّ بن أبي طالب إليه بذلك ؛ فلما أتاه ذلك أعظمه وأكبره ، وتعجّب له ، ودعا بنيه ، ودعا عبدالله بن جعفر فأعلمهم ذلك ، فقال : ما رأيكم ؟ فقال عبدالله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، دَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يريبُك ، اعزِل قيساً عن مصر . قال لهم عليّ : إني والله ما أصدّق بهذا على قيس ؛ فقال عبدالله : يا أمير المؤمنين ؛ اعزِله ، فوالله لئن كان هذا حقّاً لا يعتزل لك إن عزلتَه .

فانهم كذلك إذ جاء كتابٌ من قيس بن سعد فيه :

بسم الله الرحمن الرّحيم ، أما بعد فإني أخبر أميرَ المؤمنين أكرمه الله أنّ قِبَلي رجالاً معتزلين قد سألوني أن أكفّ عنهم ، وأن أدَعَهم على حالهم حتى يستقيمَ أمرُ الناس ، فنرى ويَروْا رأيَهم ، فقد رأيتُ أن أكفّ عنهم ، وألاّ أتعجّل حربَهم ، وأن أتألّفهم فيما بين ذلك لعلّ الله عزّ وجلّ أن يُقبل بقلوبهم ، ويفرّقهم عن ضلالتهم ، إن شاء الله .

فقال عبدالله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، ما أخوَفَني أن يكون هذا ممالأة لهم منه ، فمُرْه يا أمير المؤمنين بقتالهم ، فكتب إليه عليّ :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فِسْر إلى القوم الّذين ذكرت ، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون وإلا فناجزْهم إن شاء الله .

فلما أتى قيسَ بن سعد الكتابُ فقرأه ، لم يتمالك أن كتب إلى أمير المؤمنين :

أما بعد يا أمير المؤمنين ، فقد عجبتُ لأمرك ، أتأمرني بقتال قوم كافّين عنك ، مُفرِّغيك لقتال عدوّك ! وإنّك متى حاربتَهم ساعدوا عليك عدوّك ، فأطعني يا أمير المؤمنين ، واكفُف عنهم ، فإنّ الرأي تركهم ، والسلام .

فلما أتاه هذا الكتاب قال له عبدالله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، ابعَثْ محمد بن أبي بكر على مصر يَكفِك أمرَها ، واعزِل قيساً ، والله لقد بلغني أن قيساً يقول : والله إنّ سلطاناً لا يتمّ إلاّ بقتل مسلمة بن مخلَّد لسلطان سَوْء ؛ والله ما أحبّ أنّ لي ملك الشام إلى مصر وأني قتلت ابن المخلّد . قال : وكان عبدالله بن جعفر أخا محمد بن أبي بكر لأمّه ، فبعث عليّ محمد بن أبي بكر على مصر ، وعزل عنها قيساً .

ولاية محمد بن أبي بكر مصر

قال هشام ، عن ابن مخنف : فحدّثني الحارث بن كعب الوالبيّ ـ من والبة الأزْد ـ عن أبيه ، أنّ عليّاً كتب معه إلى أهل مصر كتاباً ، فلما قدم به على قيس قال له قيس : ما بال أمير المؤمنين ! ما غيّره ؟ أدَخل

أحــدٌ بيني وبينه ؟ قال له : لا ، وهذا السلطان سلطانك ؟! قال : لا ، والله لا أقيم معك ساعة واحدة . وغضب حين عزله ، فخرج منها مقبلاً إلى المدينة ، فقدمها ، فجاءه حسان بن ثابت شامتاً به ـ وكان حسان عثمانياً ـ فقال له : نَزَعك عليّ بن أبي طالب ، وقد قتلت عثمان فبقيَ عليك الإثم ، ولم يحسن لك الشكر ! فقال له قيس بن سعد : يا أعمى القلب والبصر ، والله لولا أن ألقِيَ بين رهطي ورهطك حرباً لضـربتُ عنقك ، اخرُج عني .

ثم إن قيساً خرج هو وسهل بن حُنَيف حتى قدما على عليّ ، فخبّره قيس ، فصدّقه عليّ . ثم إن قيساً وسهلا شهدا مع عليّ صِفينّ .

وأما الزّهريّ ، فإنه قال فيما حدّثني به عبدالله بن أحمد ، قال : حدثني أبي ، قال : حدّثني سليمان ، قال : حدّثني عبدالله ، عن يونس ، عن الزُّهريّ ، أنّ محمد بن أبي بكر قدم مصروخرج قيس فلَحِق بالمدينة ، فأخافه مروان والأسودَ بن أبي البَخْتَريّ ، حتى إذا خاف أن يؤخذ أو يُقتل ، ركب راحلته ، فظهر إلى عليّ . فبعث معاوية إلى مروان والأسود يتغيّظ عليهما ، ويقول : أمَددتما علياً بقيس بن سعد ورأيه ومكانه ، فوالله لو أنّكما أمددْتُماه بمائة ألف مقاتل ما كان ذلك بأغيظَ لي من إخراجكما قيس بن سعد إلى عليّ . فقدم قيس بن سعد على عــليّ ، فلما باثّه الحديث وجاءهم قتل محمد بن أبي بكر ، عرف أنّ قيس بن سعد كان يقاسي أموراً عظاماً من المكايدة ، وأنّ من كان يهزُه على عزل قيس بن سعد لم ينصح له ، فأطاع عليٌّ قيسَ بن سعد في الأمر كلّه .

قال هشام : عن أبي مِخْنَف ، قال : حدّثني الحارث بن كعب الوالبيّ ، عن أبيه ، قال : كنت مـع محمد بن أبي بكر حين قدم مصر ، فلمّا قدم قرأ عليهم عهدَه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهِد عبدالله عليٌّ أمير المؤمنين ، إلى محمد بن أبي بكر حين ولاّه مصر ، وأمره بتقوى الله والطاعة في السرّ والعلانية ، وخوفِ الله عزّ وجلّ في الغيب والمشهد ، وباللين على المسلمين ، وبالغِلظْة على الفاجر ، وبالعدل على أهل الذمّة ، وبإنصاف المظلوم ، وبالشدّة على الظالم ، وبالعفـو عن الناس ، وبالإحسان ما استطاع ، والله يجزي المحسنين ، ويعذّب المجرمين . وأمره أن يدعـوَ منْ قبله إلى الطاعة والجماعة ، فإنّ لهم في ذلك من العاقبة وعظيم المثوبة مالا يَقدُرون قدره ، ولا يَعرِفون كُنهه ، وأمره أن يَجبيَ خراج الأرض على ما كانت تُجبىَ عليه من قبل ، لا يُنتقص منه ولا يُبتدع فيه ، ثمّ يقسمَه بين أهله على ما كانوا يقسمون عليه من قبل ، وأن يُلين لهم جناحَه ، وأن يواسيَ بينهم في مجلسه ووجهه ، وليْكن القريبُ والبعيدُ في الحقّ سواء . وأمره أن يحكم بين الناس بالحقّ ، وأن يقوم بالقسط ، ولا يتّبع الهوى ، ولا يَخَفْ في الله عزّ وجلّ لومة لائم ، فـإنّ الله جلّ ثناؤه مع من اتقى وآثر طاعته وأمرَه على ما سواه .

وكتب عبيدالله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ لغرّة شهر رمضان .

قال : ثمّ إن محمد بن أبي بكر قام خطيباً ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : الحمد لله الذي هدانا وإيّاكم لما اختُلِـف فيه من الحقّ ، وبصرنا وإيّاكم كثيراً مما عمي عنه الجاهلون . ألا إنّ أمير المؤمنين ولاني أمورَكم ، وعهد إليّ ما قد سمعتم ، وأوصاني بكثيرمنه مشافهةً ، ولن آلوَكم خيراً ما استطعت ، ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ؛ فإن يكن ما ترون من إمارتي وأعمالي طاعة لله وتقوى؛ فاحمدوا الله عزّ

وجلّ على ما كان من ذلك ، فإنه هو الهادي ، وإن رأيتم عاملاً عمل غير الحقّ زائغاً ، فارفعوه إليّ ، وعاتبوني فيه ، فإني بذلك أسعدَ ، وأنتم بذلك جديرون . وفقّنا الله وإيّاكم لصالح الأعمال برحمته ، ثمّ نزل .

وذكر هشام ، عن أبي مخنف ، قال : وحدّثني يزيد بن ظَبْيان الهمْدانيّ ، أنّ محمد بن أبي بكر كتب إلى معاوية بن أبي سفيان لمّا وُليَ ؛ فذكر مكاتبات جرت بينهما كرهتُ ذكرها لما فيه ممّا لا يحتمل سماعَها العامّة . قال : ولم يلبث محمد بن أبي بكر شهراً كاملاً حتى بعث إلى أولئك القوم المعتزلين الذين كان قيس وادَعهم . فقال : يا هؤلاء ، إمّا أن تدخلوا في طاعتنا ، وإمّا أن تخرجوا من بلادنا ، فبعثوا إليه : إنا لا نفعل ، دعْنا حتى ننظرَ إلى ما تصير إليه أمورنا ، ولا تعجل بحرْبنا ، فأبى عليهم ، فامتنعوا منه ، وأخذوا حِذْرهم ، فكانت وقعة صِفّين ، وهم لمحمّد هائبون ، فلما أتاهم صبرُ معاوية وأهل الشام لعليّ ، وأنَّ عليّاً وأهل العراق قد رجعوا عن معاوية وأهل الشام ، وصار أمرُهم إلى الحكومة ، اجترؤوا على محمد بن أبي بكر ، وأظهروا له المبارزة ، فلما رأى ذلك محمد بعث الحارث بن جُمْهان الجعفيّ إلى أهل خِرِبْتا ، وفيها يـزيد بنُ الحـارث من بني كنانـة ، فقاتلهم ، فقتلوه . ثم بعث إليهم رجلاً من كلب يُدعَى ابن مُضاهم ، فقتلوه .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة فيما قيل : قدم ماهَوَيْهِ مَرْزبان مَرْو مقرّاً بالصلح الذي كان جرى بينه وبين ابن عامر على عليّ .

ذكر من قال ذلك :

قال عليّ بن محمد المدائنيّ ، عن أبي زكرياء العجْلانيّ ، عن ابن اسحاق ، عن أشياخه ، قال : قدم ماهوْيه أبراز مَرْزُبان مرْو على عليّ بن أبي طالب بعد الجمل مقرّاً بالصلح ، فكتب له عليٌّ كتاباً إلى دَهاقِين مرْو والأساورة والجند سلارين ومن كان في مَرْو :

بسم الله الرحمن الرّحيم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن ماهويه أبراز مَرْزبان مَرْو جاءني ، وإنّي رضيتُ عنه . وكتب سنة ست وثلاثين . ثم إنهم كفروا وأغلقوا أبْرَشَهْر .

توجيه عليّ خُلَيد بن طَريف إلى خراسان

قال عليّ بن محمد المدائنيّ : أخبرنا أبـو مخنف ، عن حنظلة بن الأعلم ، عن مـاهان الحنفيّ ، عن الأصبغ بن نُباتة المُجاشعيّ ، قال : بعث عليٌّ خُلَيد بن قرّة اليَربوعيّ ـ ويقال خُليد بن طريف ـ إلى خُراسان .

ذكر خبر عمرو بن العاص ومبايعته معاوية

وفي هذه السنة ـ أعني سنة ستٍّ وثلاثين ـ بايع عمرو بن العاص معاوية ، ووافقه على محاربة عليّ ، وكان السبب في ذلك ما كتب به إليّ السريّ ، عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان ، قالوا . لما أحيط بعثمانَ ـ رضي الله عنه ـ خرج عَمرو بن العاص من المدينة متوجّهاً نحو الشام ، وقال : والله يا أهل المدينة ، ما يقيم بها أحد فيدركَه قتْل هذا الرجل إلاّ ضربه الله عزّ وجلّ بذلّ ؛ من لم يستطع نصرَه فليهرُب . فسار وسار معه ابناه عبدالله ومحمد ؛ وخرج بعدَه حسّان بن ثابت ، وتتابع على ذلك ما شاء الله .

قال سيف ، عن أبي حارثة وأبي عثمان ، قالا : بينا عمرو بن العاص جالس بعَجْلان ومعه ابناه ، إذْ مرّ بهم راكب فقالوا : من أين ؟ قال : من المدينة ، فقال عمرو : ما اسمك ؟ قال : حَصيرة . قال عمرو :

حُصير الرجل ، قال : فما الخبر ؟ قال : تركت الرجل محصوراً ؛ قال عمرو : يُقتَل . ثم مكثوا أياماً ، فمرّ بهم راكب ، فقالوا : من أين ؟ قال : من المدينة ؛ قال عمرو : ما اسمُك ؟ قال : قَتّال ؛ قال عمرو : قُتِل الرجل ، فما الخبرُ ؟ قال : قُتِل الرجل . قال : ثم لم يكن إلّا ذلك إلى أن خرجتُ ، ثم مكثوا أيّاماً ، فمرّ بهم راكب ، فقالوا : من أين ؟ قال : من المدينة ؛ قال عمرو : ما اسمُك ؟ قال : حرب ، قال عمرو : يكون حرب ؛ فما الخبر ؟ قال : قُتِل عثمانُ بنُ عفّان رضي الله عنه ، وبويع لعليّ بن أبي طالب ، قال عمرو : أنا أبو عبدالله ؛ تكون حربٌ من حكَّ فيها قرحة نكّأها ، رحم الله عثمان ورضيَ الله عنه ، وغفَر له ! فقال سلامة بن زِنْباع الجُذاميّ : يا معشر قريش : إنه والله قد كان بينكم وبين العرب باب ، فاتخذوا باباً إذ كُسر الباب . فقال عمرو : وذاك الّذي نريد . ولا يُصلِح البابَ إلا أشافٍ تُخرِج الحقّ من حافرة البأس ، ويكون الناس في العدل سواء ، ثم تمثّل عمرو في بعض ذلك :

يا لَهْفَ نفسي على مالِكٍ ... وهل يَصْرِفُ اللهفُ حِفْظَ القَدَرْ!
أنَزْعٌ من الحرِّ أوْدَى بهمْ ... فأعذِرَهم أم بقومي سَكَرْ !

ثم ارتحل راجلًا يبكي كما تبكي المرأة ، ويقول : واعُثْماناه ! أنعَى الحياءَ والدين ! حتى قدم دمشق ، وقد كان سقط إليه من الذي يكون عِلْمٌ، فعمل عليه .

كتب إليّ السريّ ، عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد بن عبدالله ، عن أبي عثمان ، قال : كان النبيّ ﷺ قد بعث عمراً إلى عُمان ، فسمع هنالك من حَبْرٍ شيئاً ، فلما رأى مِصداقَه وهو هناك أرسل إلى ذلك الحبْر ، فقال : حدِّثني بوفاة رسول الله ﷺ ، وأخبرني من يكون بعده ؟ قال : الذي كتب إليك يكون بعده ، ومدّته قصيرة ، قال : ثمّ من ؟ قال : رجل من قومه مثله في المنزلة ؛ قال : فما مدّته ؟ قال : طويلة ؛ ثم يقتل . قال أغيلة أم عن ملاءٍ؟ قال : غِيلة ؛ قال : فمن يلي بعدَه ؟ قال : رجل من قومه مثله في المنزلة ، قال : فما مدّته ؟ قال : طويلة ، ثم يُقتل ، قال : أغيلة أم عن ملإ ؟ قال : عن ملاءٍ. قال : ذلك أشدّ ؛ فمن يلي بعده ؟ قال : رجل من قومه ينتشر عليه الناس ، وتكون على رأسه حرب شديدة بين الناس ، ثمّ يُقتل قبل أن يجتمعوا عليه ، قال : أغيلة أم عن ملاءٍ؟ قال : غيلة ، ثم لا يروْن مثلَه . قال : فمن يلي بعدَه ؟ قال : أمير الأرض المقدّسة ، فيطول ملكه ، فيجتمع أهل تلك الفرقة وذلك الانتشار عليه ، ثم يموت .

وأما الواقديّ ، فإنه فيما حدّثني موسى بن يعقوب ، عن عمّه ، قال : لما بلغ عَمراً قتلُ عثمانَ رضي الله عنه ، قال : أنا عبدالله ،قتلتُه وأنا بوادي السِّباع ، مَن يلي هذا الأمر من بعده ! إن يَلِه طلحة فهو فتى العرب سيْباً ، وإن يَلِه ابن أبي طالب فلا أراه إلّا سيستنظِف الحقّ ، وهو أكره مَن يليه إليّ . قال : فبلغه أنّ عليّاً قد بويع له ، فاشتدّ عليه ، وتربّص أياماً ينظر ما يَصنع الناس ، فبلغه مسير طلحة والزبير وعائشة وقال : أستأني وأنظر ما يصنعون ، فأتاه الخبر أنّ طلحة والزبير قد قُتِلا ، فأُرتِج عليه أمرُه ، فقال له قائل : إن معاوية بالشام لا يريد أن يبايع لعليّ ، فلو قاربت معاوية ! فكان معاوية أحبّ إليه من عليّ بن أبي طالب . وقيل له : إنّ معاوية يُعظِم شأنَ قتل عثمان بن عفان ، ويحرّض على الطلب بدمه ، فقال عمرو : ادعوا لي محمداً وعبدَ الله ، فدُعيا له ، فقال : قد كان ما قد بلغكما من قتل عثمانَ رضي الله عنه ، وبَيعة الناس لعليّ ، وما يُرصد معاوية من مخالفَة عليّ ، وقال : ما تَريان ؟ أمّا عليٌّ فلا خيرَ عنده ، وهو رجل يُدِلّ بسابقته ، وهو غير مُشرِكي في شيء

من أمره . فقال عبدالله بن عمرو : توفي النبيّ ﷺ وهو عنك راضٍ ، وتوفّي أبو بكر رضي الله عنه وهو عنك راضٍ ، وتوفي عمرُ رضي الله عنه وهو عنك راضٍ ، أرى أن تكفّ يدك ، وتجلسَ في بيتك ، حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعَه . وقال محمد بن عمرو : أنتَ نابٌ من أنياب العرب ، فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ولا ذكر . قال عمرو : أمّا أنت يا عبدَالله فأمرتَني بالذي هو خير لي في آخرتي ، وأسلمَ في ديني ، وأما أنت يا محمد فأمرتني بالّذي أنبه لي في دنياي ، وشرٌّ لي في آخرتي . ثم خرج عمرو بن العاص ومعه ابناه حتى قدم على معاوية ، فوجد أهـلَ الشام يخضّون معاوية على الطلب بدم عثمان ، فقال عمرو بن العاص : أنتم على الحقّ ، اطلبوا بِدم الخليفة المظلوم ـ ومعاوية لا يلتفت إلى قول عمرو ـ فقال ابنا عمرو لعمرو : ألا ترى إلى معاوية لا يَلتفت إلى قولك ! انصرِف إلى غيره . فدخل عمرو على معاوية فقال : والله لَعَجب لك ! إني أرفِدك بما أرفِدك وأنت مُعرِض عني ! أما والله إن قاتلْنا معك نَطلب بدم الخليفة إنّ في النفس من ذلك ما فيها ، حيث نقاتل من تعلم سابقتَه وفضلَه وقرابتَه ؛ ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا . فصالحه معاويةُ وعطَفَ عليه .

توجيه عليّ بن أبي طالب جرير بن عبدالله البَجَليَّ إلى معاوية يدعوه إلى الدخول في طاعته

وفي هذه السنة وجّه عليّ عند منصرَفه من البصرة إلى الكوفة وفراغه من الجمل جريرَ بنَ عبدالله البَجَليّ إلى معاوية يدعوه إلى بَيعته ، وكان جرير حين خرج عليّ إلى البصرة لقتال مَنْ قاتله بها بهمَذان عاملا عليها ، كان عثمان استعمله عليها ، وكان الأشعث بن قيس على أذْربيجانَ عـاملاً عليهـا ، كان عثمـان استعمله عليها ، فلما قدم عليّ الكوفة منصرفاً إليها من البصرة ، كتب إليهما يأمرهما بأخذ البَيْعة له على مَن قبلهما من الناس ، والانصراف إليه . ففعلا ذلك ، وانصَرفَا إليه .

فلما أراد عليٌّ توجيهَ الرسول إلى معاوية ، قال جرير بن عبدالله ـ فيما حدّثني عمرُ بن شبّة ، قال : حدّثنا أبو الحسن ، عن عوانة ـ : ابعثْني إليه ، فإنه لي وِدّ حتى آتيه فأدعوَه إلى الدخول في طاعتك ، فقال الأشتر لعليّ : لا تبعثه ، فوالله إنّي لأظنّ هواه معه ؛ فقال عليّ : دعْه حتى ننظرَ ما الذي يرجع به إلينا ، فبعثه إليه ، وكتب معه كتاباً يُعلِمه فيه باجتماع المهاجرين والأنصار على بَيْعته ، ونكث طلحة والزبير ، وما كان من حربِه إياهما ، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته ، فشَخَص إليه جرير ، فلمّا قدم عليه ماطله واستنظره ، ودعا عمراً فاستشاره فيما كتب به إليه ، فأشار عليه أن يرسل إلى وجوه الشام ، ويُلزم عليّاً دم عثمان ، ويقاتله بهم ، ففعل ذلك معاوية ، وكان أهل الشّام ـ فيما كتب إليّ السريّ يذكر أن شعيباً حدّثه عن سيف ، عن محمد وطلحة ـ لما قدم عليهم النّعمان بن بشير بقميص عثمانَ رضي الله عنه ـ الذي قتل فيه مخضباً بدمه وبأصابع نائلةَ زوجته مقطوعة بالبَراجم ، إصبعان منهـا وشيء من الكفّ ، وإصبعان مقـطوعتان من أصولهما ونصف الإبهام ـ وضع معاوية القميصَ على المنبر ، وكتب بالخبر إلى الأجناد ، وثابَ إليه الناس ، وبكَوْا سنة وهو على المنبر والأصابع معلّقة فيه ، وآلى الرجال من أهل الشام ألاّ يأتوا النساءَ ، ولا يمسهم الماء للغسل إلاّ من احتلام ، ولا يناموا على الفُرُش حتى يَقْتلوا قَتلَة عثمـان ، ومَن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهُم . فمكثوا حول القميص سنة ، والقميص يوضع كلّ يوم على المنبر ويجلِّلهُ أحياناً فيُلبَسه . وعُلّق في

أردانه أصابع نائلة رضي الله عنها .

فلما قدم جرير بن عبدالله على عليّ - فيما حدّثني عمر بن شبّة ، قال : حدّثنا أبو الحسن ، عن عوانة - فأخبره خبر معاوية واجتماع أهل الشام معه على قتاله ، وأنهم يبكون على عثمان ، ويقولون : إنّ عليّاً قتله ، وآوى قَتَلَته ، وإنّهم لا ينتهون عنه حتى يقتلهم أو يقتلوه . فقال الأشتر لعليّ : قد كنت نهيتُك أن تبعث جريراً ، وأخبرتُك بعداوته وغشّه ، ولو كنتَ بعثتَني كان خيراً من هذا الذي أقام عنده حتى لم يَدَع باباً يرجو فتحَه إلّا فتحَه ، ولا باباً يخاف منه إلّا أغلَقَه . فقال جرير : لو كنتَ ثمّ لقتلوك ؛ لقد ذكروا أنّك من قَتَلة عثمان رضي الله عنه ، فقال الأشتر : لو أتيتُهم والله يا جرير لم يُعيِني جوابُهم ، ولحملتُ معاوية على خُطّة أعجِله فيها عن الفكر ، ولو أطاعني فيك أميرُ المؤمنين لحبَسَك وأشباهَك في محبس لا تخرجون منه حتى تستقيم هذه الأمور .

فخرج جرير بن عبدالله إلى قَرْقِيسياءَ ، وكتب إلى معاوية ، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه . وخرج أميرُ المؤمنين فعسكر بالنُّخَيلة ، وقدم عليه عبدُ الله بنُ عباس بمن نهض معه من أهل البصرة .

خروج علي بن أبي طالب إلى صِفّين

حدّثني عبدالله بن أحمد المروزيّ ، قال : حدّثني أبي ، عن سليمان ، عن عبدالله ، عن معاوية بن عبد الرحمن ، عن أبي بكر الهُذَليّ ، أن عليّاً لما استخلف عبدَ الله بن عبّاس على البصرة سار منها إلى الكوفة ، فتهيَّأ فيها إلى صِفّين ، فاستشار الناسَ في ذلك ، فأشار عليه قوم أن يبعث الجنود ويقيم ؛ وأشار آخرون بالمسير . فأبَى إلّا المباشرة ، فجهّز الناس . فبلغ ذلك معاوية ، فدعا عمرو بن العاص فاستشاره . فقال : أمّا إذ بلغك أنه يسير فسِرْ بنفسك ، ولا تغبْ عنه برأيك ومَكيدتك . قال : أمّا إذاً يا أبا عبدالله فجهِّز الناس . فجاء عمرو فحضّض الناسَ ، وضعّف عليّاً وأصحابَه ، وقال : إنّ أهل العراق قد فرّقوا جمعهم ، وأوهَنُوا شوكتَهم ، وفلّوا حدّهم ، ثم إنّ أهل البصرة مخالفون لعليّ ، وقد وترهم وقتلهم ، وقد تفانت صنَاديدُهم وَصناديدُ أهل الكوفة يومَ الجمل ، وإنما سار في شِرذِمة قليلة ، ومنهم مَن قتَل خليفتَكم ؛ فالله الله في حقّكم أن تضّيعوه ، وفي دمكم أن تُبطلوه !

وكتب في أجناد أهل الشأم ، وعقد لواءه لعمرو ، فعقد لوَرْدان غلامِه فيمن عقد ، ولأبنيه عبدِالله ومحمد ، وعقد عليٌّ لغلامه قَنْبَر ، ثم قال عمرو:

هَـل يُـغْـنِـيَـنْ وَرْدانُ عَـنّـى قَـنْـبَـرَا وتُـغنِـيَ الـسَّـكـونُ عـنّـى حِـمْـيَـرَا
إذا الـكُـمـاةُ لَـبِـسُـوا الـسَّـنَـوَّرَا

فبلغ ذلك عليّاً فقال :

لأُصْـبِـحَـنَّ الـعـاصِـيَ آبنَ الـعـاصِـي سبعين ألـفـاً عـاقِـدي الـنّـواصِـي
مُـجَـنِّـبِـيـنَ الـخـيـلَ بـالـقِـلاصِ مُـسْـتَـحْـقِـبـيـنَ حَـلَق الـدِّلاصِ

فلما سمع ذلك معاوية قال : ما أرى ابنَ أبي طالب إلّا قد وفَى لك ؛ فجاء معاوية يتأنّى في مسيره . وكتب إلى كلّ من كان يرى أنه يخاف عليّاً أو طعن عليه ومَن أعظم دمَ عثمان واستعواهم إليه . فلما رأى ذلك الوليد بعث إليه يقول :

الا أبْـلِـغْ مُـعـاويـة بـن حـرْبٍ فـإنَّـكَ مـن أخـي ثِـقَـةٍ مُـلِـيـمُ

قَـطَعْتَ الـدهـرَ كـالسَّـدِمِ المُعَنّى ... تُـهـدِّرُ في دِمَـشْقَ فـمـا تَـريـمُ
وإنّـك والـكـتـابَ إلـى عـليٍّ ... كـدابِـغَـةٍ وقـد حَـلِمَ الأديـمُ
يُـمَـنّـيـكَ الإمـارةَ كـلُّ ركْـبٍ ... لأنْـقـاضِ الـعـراقِ بِـهـا رَسيـم
ولـيس أخـو التِّـرات بـمن تَـوانَـى ... ولـكـنْ طـالِـبُ التِّـرَةِ الـغَـشـومُ
ولـو كـنـتَ الـقـتيـلَ وكـان حـيّـاً ... لَـجَـرَّدَ ؛ لا ألَـفٌّ ولا سَـؤُومُ
ولا نَـكِـلٌ عـن الأوتـارِ حـتّـى ... يُـبـيءَ بـهـا ، ولا بَـرِمٌ جَـثـومُ
وقـومُـكَ بـالمـديـنـة قـد أبيـروا ... فـهُـمْ صَـرْعَـى كـأنـهُـم الـهَـشيـمُ

وقال غيرُ أبي بكر: فدعا معاوية شدّاد بن قيس كاتبه وقال: ابغني طُوماراً، فأتاه بطُومار، فأخذ القلم فكتب، فقال: لا تَعجَل، اكتب:

ومُسْتعجِبٍ مِمـا يَـرَى مـن أنـاتِنـا ... ولـو زَبَنَتْـه الحـربُ لم يـتـرمـرَمِ

ثم قال: اطوِ الطّومار، فأرسل به إلى الوليد، فلما فتحه لم يجد فيه غير هذا البيت.

قال أبو بكر الهذليّ: وكتب رجل من أهل العراق حيث سار عليّ بن أبي طالب إلى معاوية بيتين:

أَبْـلِغْ أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـ ... ـن أخـا الـعِـراق إذا أتَـيْتَـا
أنَّ الـعِـراقَ وأهـلـهـا ... عُـنُـقٌ إلـيـك فَـهَـيْـتَ هَـيْـتَـا

عاد الحديث إلى حديث عوانة. فبعث عليٌّ زيادَ بن النّضر الحارثي طليعةً في ثمانية آلاف، وبعث معه شُريح بن هانىء في أربعة آلاف، وخرج عليٌّ من النُّخَيلة بمن معه، فلمّا دخل المدائنَ شَخصَ معه مَن فيها من المقاتلة، وولىّ على المدائن سَعدَ بن مسعود الثقفيّ عمّ المختار بن أبي عُبيد، ووجّه عليٌّ من المدائن معقلَ بنَ قيس في ثلاثة آلاف، وأمره أن يأخذ على الموصل حتى يوافيَه.

ما أمر به عليّ بن أبي طالب من عمل الجسر على الفرات

فلما انتهى عليٌّ إلى الرّقة قال فيما حُدِّثت عن هشام بن محمد، عن أبي مخنف، قال: حدّثني الحجّاج بن عليّ، عن عبدالله بن عمار بن عبد يغوث البارقيّ ـ لأهل الرّقة: اجسُروا لي جسْـراً حتى أعبر من هذا المكان إلى الشأم؛ فأبوا. وقد كانوا ضمّوا إليهم السفن، فنهض من عندهم ليعبر من جسر منبج، وخلّف عليهم الأشتر، وذهب ليمضيَ بالناس كيما يعبرَ بهم على جسر منْبج، فناداهم الأشتر، فقال: يا أهل هذا الحصن، ألا إني أقسم لكم بالله عزّ وجلّ؛ لئن مضى أمير المؤمنين ولم تُجسِّروا له عند مدينتكم جِسرْاً حتى يَعبُر لأجرّدنّ فيكم السيف، ثم لأقتلنّ الرجال ولأخـرّبنّ الأرض، ولآخذنّ الأمـوال. قال: فلقيَ بعضهم بعضـاً، فقالوا: أليس الأشتر يفي بما حلف عليه، أو يأتي بشرٍّ منه؟ قالوا: نعم، فبعثوا إليه: إنّا ناصبون لكم جسراً، فأقبلوا، وجاء عليٌّ فنصبوا له الجسر، فعبر عليه بالأثقال والرجال. ثم أمر عليٌّ الأشترَ فوقف في ثلاثة آلافِ فارس، حتى لم يبق من الناس أحد إلاّ عبر، ثم إنه عبر آخر الناس رجلاً.

قال أبو مخنف: وحدّثني الحجّاج بن عليّ، عن عبدالله بن عمّار بن عبد يغوث، أنّ الخيل حين عبرت زَحمَ بعضُها بعضاً، فسقطت قَلَنْسوة عبدالله بن أبي الحصين الأزديّ، فنزل فأخذها ثم ركب، وسقطتْ

قلنسوةَ عبدِ الله بن الحجاج الأزديّ ، فنزل فأخذها ، ثم ركب ، وقال لصاحبه :

فـإن يكُ ظَنُّ الـزاجرِي الـطَّيْرِ صـادقاً كمـا زعمـوا أُقْتَـلْ وَشيكـاً وتُقْتـلُ

فقال له عبد الله بن أبي الحصين : ما شيء أُوتاه أحبّ إليّ مما ذكرت ، فقُتِلا جميعاً يومَ صِفّين .

قال أبو مخنف : فحدّثني خالد بن قطَن الحارثي ، أنّ علياً لما قطع الفرات دعا زياد بن النَّضْر ، وشُريح بن هانىء ، فسرّحهما أمامَه نحو معاوية على حالهما التي كانا خرجا عليها من الكُوفة . قال : وقد كانا حيث سرّحهما من الكُوفة أخذَا على شاطىء الفرات من قِبَل البرّ مما يلي الكوفة حتى بلغا عانات ، فبلغهما أخذُ عليّ على طريق الجزيرة ، وبلغهما أنّ معاوية قد أقبل من دمشق في جنود أهل الشأم لاستقبال عليّ ، فقالا : لا والله ما هذا لنا برأي ؛ أن نسير وبيننا وبين المسلمين وأمير المؤمنين هذا البحر ! وما لنا خير في أن نلقَى جنود أهل الشام بقلّة مَن معنا منقطعين من العدد والمدد . فذهبوا ليَعبُروا من عانات ، فمَنَعَهم أهلُ عانات ، وحبسوا عنهم السُّفُن ، فأقبلوا راجعين حتى عبروا من هيت ، ثم لحقوا عليّاً بقرية دون قَرْقِيسياء، وقد أرادوا أهلَ عانات ، فتحصَّنوا وفرّوا ، ولما لحقت المقدّمة عليًّا قال : مقدّمتي تأتيني من ورائي . فتقدّم إليه زياد بن النَّضر الحارثيّ وشريح بن هانىء ، فأخبرَاه بالذي رأيَا حين بلغهما من الأمر ما بلغهما ، فقال : سددتما . ثم مضى عليّ ، فلما عبر الفرات قدّمهما أمامه نحوَ معاوية ، فلما انتهيا إلى سور الرّوم لقيهما أبو الأعور السُّلمي عمرو بن سفيان في جند من أهل الشام ، فأرسلا إلى عليّ : إنّا قد لقينا أبو الأعور السُّلميّ في جند من أهل الشأم ، وقد دعوناهم فلم يُجبنا منهم أحد ، فمرْنا بأمرك ، فأرسل عليّ إلى الأشتر ، فقال : يا مالك ، إنّ زياداً وشريحاً أرسلا إليّ يعلماني أنهما لقيا أبا الأعور السلميّ في جمع من أهل الشام ، وأنبأني الرسول أنه تركهم متواقفين ، فالنَّجاء إلى أصحابك النّجاء ، فإذا قدمتَ عليهم فأنت عليهم . وإيّاك أن تبدأ القوم بقتال إلّا أن يبدؤوك حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع ، ولا يَجرِ منّك شنآنُهم على قتالهم قبل دعائهم ، والإعذار إليهم مرة بعد مرّة ، واجعل على ميمنتك زياداً ، وعلى ميسرتك شريحاً ، وقف من أصحابك وسطاً ، ولا تدنُ منهم دنوّ من يريد أن يُنشب الحرب ، ولا تباعد منهم بُعد من يهاب البأس حتى أقدم عليك ، فإنّي حثيث السير في أثرك إن شاء الله . قال : وكان الرّسول الحارث بن جُمهان الجُعفيّ ، فكتب عليٌّ إلى زياد وشريح :

أمّا بعد ، فإني قد أمّرتُ عليكما مالكاً ، فاسمعا له وأطيعا ، فإنه ممن لا يخاف رهقُه ولا سِقاطُه ولا بطؤه عمّا الإسراع إليه أحزَم ، ولا الإسراع إلى ما الإبطاء عنه أمثَل ، وقد أمرْته بمثل الذي كنتُ أمرتكما به ألّا يبدأ القوم حتى يلقاهم فيدعوَهم ويُعذرَ إليهم .

وخرج الأشتر حتى قدم على القوم ، فاتبَع ما أمره عليّ وكفّ عن القتال فلم يزالوا متواقفين حتى إذا كان عند المساء حمل عليهم أبو الأعور السُّلَميّ ، فثبتوا له ، واضطربوا ساعة . ثم إنّ أهل الشام انصرفوا ، ثم خرج إليهم من الغد هاشمُ بن عُتبة الزّهريّ في خيل ورجال حسن عَددها وعُدّتها ، وخرج إليه أبو الأعور فاقتتلوا يومَهم ذلك ، تَحمِل الخيلُ على الخيل والرجالُ على الرجال ، وصبر القوم بعضهم لبعض ، ثم انصرَفوا ، وحمل عليهم الأشتر ، فقُتل عبد الله بن المنذر التّنوخيّ ، قتله يومئذ ظَبيان بن عمّار التميميّ ، وما هو إلّا فتىً حدث ، وإن كان التنوخيّ لفارس أهل الشام ، وأخذ الأشتر يقول : وَيْحَكم ! أروني أبا الأعور .

ثم إن أبا الأعور دعا الناس ، فرجعوا نحوَه ، فوقف من وراء المكان الذي كان فيه أوّل مرةً ، وجاء

الأشتر حتى صفّ أصحابه في المكان الذي كان فيه أبو الأعور ، فقال الأشتر لسنان بن مالك النَّخَعِيّ : انطلِق إلى أبي الأعور فادعه إلى المبارزة ، فقال : إلى مبارزَتي أو مبارزتك ؟ فقال له الأشتر : لو أمرتُك بمبارزته فعلتَ ؟ قال : نعم ، والله لو أمرتني أن أعترض صفهّم بسيفي ما رجعتُ أبداً حتى أضرب بسيفي في صفّهم ، قال له الأشتر: يا ابنَ أخي ، أطال الله بقاءك! قد والله ازددتُ رغبةً فيك، لا أمرتك بمبارزته، إنما أمرتُك أن تدعوَه إلى مبارزتي ، إنه لا يبرزُ إن كان ذلك من شأنه إلّا لذوي الأسنان والكفاءة والشرف ـ وأنت ـ لربّك الحمد ـ من أهل الكفاءة والشرف ، غير أنّك فتىً حدَث السنّ ، فليس بمبارز الأحداث ، ولكن ادعه إلى مبارزتي . فأتاه فنادى : آمنوني فإنّي رسول . فأومن ، فجاء حتى انتهى إلى أبي الأعور . قال أبو مخنف : فحدّثني النضر بن صالح أبو زهير العبسيّ ، قال : حدّثني سنان ، قال : فدنوت منه فقلت : إنّ الأشتر يدعوك إلى مبارزته . قال : فسكت عني طويلاً ثم قال : إنّ خفّة الأشتر وسوءَ رأيه هو حمله على إجلاء عمّال ابن عفان رضي الله عنه من العراق ، وانتزاؤه عليه يقبّح محاسنه ، ومن خِفّة الأشتر وسوء رأيه أن سار إلى ابن عفان رضي الله عنه في داره وقراره حتى قتله فيمن قتله ، فأصبح متّبعاً بدمه ؛ ألا لا حاجة لي في مبارزته . قال : قلتُ : إنك قد تكلمت ، فاسمع حتى أجيبَك ، فقال : لا ، لا حاجة لي في الاستماع منك ولا في جوابك ، اذهب عني . فصاح بي أصحابه فانصرفتُ عنه ، ولو سمع إليّ لأخبرته بعذر صاحبي وحجّتِه . فرجعت إلى الأشتر ، فأخبرتُه أنه قد أبىَ المبارزة ، فقال : لنفسه انظر ، فواقفناهم حتى حجز الليلُ بيننا وبينهم ، وبتنا متحارسين ، فلما أصبحنا نظرنا فإذا القوم قد انصرفوا من تحت ليلتهم ، ويصبّحنا عليّ بن أبي طالب غُدوة . فقدم الأشتر فيمن كان معه في تلك المقدّمة حتى انتهى إلى معاوية ، فواقفه ، وجاء عليٌّ في أثره فلحق الأشتر سريعاً ، فوقف وتواقفوا طويلاً .

ثمّ إنّ علياً طلب موضِعاً لعسكره ، فلما وجده أمر الناسَ فوضعوا الأثقال ، فلما فعلوا ذهب شبابُ الناس وغِلمَتُهم يستقون ، فمنعهم أهلُ الشام . فاقتتل الناس على الماء ، وقد كان الأشتر قال له قبل ذلك : إنّ القوم قد سبقوا إلى الشريعة وإلى سهولةِ الأرض وسعةِ المنزل ، فإن رأيتَ سرنا نجوزهُم إلى القرية التي خرجوا منها ، فإنهم يشخصون في أثرنا ، فإذا هم لحِقونا نزَلْنا فكنّا نحن وهم على السواء ، فكَرِه ذلك عليٌّ ، وقال : ليس كلّ الناس يقْوَى على المسير ، فَنَزل بهم .

القتال على الماء

قال أبو مخْنَف : وحدّثني تميم بن الحارث الأزديّ ، عن جندَب بن عبد الله ، قال : إنّا لما انتهينا إلى معاوية وجدناه قد عسكر في موضع سهل أفْيَح قد اختاره قبل قدومنا إلى جانب شريعة في الفُرات ، ليس في ذلك الصُّقع شريعة غيرها ، وجعلها في حيّزه ، وبعث عليها أبا الأعور يمنعها ويحميها ، فارتفْعنا على الفرات رجاءَ أن نجد شريعةً غيرَها نستغني بها عن شريعتهم فلم نجدها ، فأتينا عليًّا فأخبرناه بعطش الناس ، وأنا لا نجد غيرَ شريعة القوم . قال : فقاتِلوهم عليها . فجاءه الأشعث بن قيس الكنديّ فقال : أنا أسير إليهم ، فقال له عليّ : فسر إليهم . فسار وسرنا معه ، حتى إذا دنونا من الماء ثاروا في وجوهنا ينضِحوننا بالنَّبل ، ورشَقْناهم والله بالنّبل ساعة ، ثم اطَّعنّا والله بالرماح طويلاً ، ثم صرنا آخر ذلك نحن والقوم إلى السيوف ، فاجتلَدْنا بها ساعة ، ثم إنّ القوم أتاهم يزيد بن أسد البَجَليّ مُمِدّاً في الخيل والرجال ، فأقبلوا نحونا ، فقلت في

نفسي : فأمير المؤمنين لا يبعث إلينا بمن يغني عنا هؤلاء ، فذهبتُ فالتفتّ فإذا عدّة القوم أو أكثر ، قد سرّحهم إلينا ليغنُوا عنّا يزيدَ بن أسد وأصحابه ، عليهم شَبَث بن رِبْعيّ الرّياحيّ ، فوالله ما ازداد القتال إلاّ شدّة . وخرج إلينا عمرو بن العاص من عسكر معاوية في جند كثير ، فأخذ يُمِدّ أبا الأعور ويزيدَ بن أسد ، وخرج الأشتر من قِبَل عليّ في جمع عظيم . فلمّا رأى الأشتر عمرو بن العاص يُمِدّ أبا الأعور ويزيد بن أسد ، أمد الأشعثَ بن قيس وشَبَث بن ربعيّ ، فاشتدّ قتالنا وقِتالهم ، فما أنسى قولَ عبد الله بن عوف بن الأحمر الأزديّ :

خَلوا لنا ماءَ الفُراتِ الجاري ... أو اثبُتوا لجحفلٍ جَرَّارِ
لكلِّ قَرْمٍ مستميتٍ شارِي ... مُطاعنٍ برُمْحِه كَرَّارِ
ضَرابِ هاماتِ العِدَا مغوارِ

قال أبو مخنف : وحدّثني رجل من آل خارجة بن التميميّ أنّ ظَبْيان بن عُمارة جعل يومئذ يقاتِل وهو يقول :

هل لك يا ظَبْيانُ مِن بقاءِ ... في ساكِنِ الأرْضِ بغَيْرِ ماءِ
لا وإلهِ الأرضِ والسّماءِ ... فاضْرِبْ وجوهَ الغُدُرِ الأعْداءِ
بالسَّيْفِ عند حَمَسِ الوغاءِ ... حتّى يُجيبوك إلى السّواء

قال ظَبْيان : فضربناهم والله حتى خلّوْنا وإيّاه .

قال أبو مخنف : وحدّثني أبي يحيى بن سعيد ، عن عمّه محمد بنِ مِخْنَف ، قال : كنت مع أبي مِخْنف بن سُلَيم يومئذ ، وأنا ابن سبع عشرة سنة ، ولست في عطاء ، فلما مُنِع الناس الماءَ قال لي أبي : لا تبرحنّ الرّحْل ، فلما رأيت المسلمين يذهبون نحو الماء لم أصبر ، فأخذتُ سيفي ، وخرجتُ مع الناس فقاتلت ، قال : وإذا أنا بغلام مملوك لبعض أهل العراق ومعه قربة ، فلما رأى أهل الشأم قد أفرجوا عن الشريعة اشتدّ حتى ملأ قِرْبته ، ثم أقبل ، ويَشُدّ عليه رجل من أهل الشام فيضربه فيَصرعه ، وسقطت القربة منه . قال : وأشدّ على الشاميّ فأضربه فأصرَعه . واشتدّ أصحابُه فاستنقذوه ، فسمعتُهم وهم يقولون : لا نأمن عليك . ورجعتُ إلى المملوك فاحتملتُه ، فإذا هو يكلّمني وبه جرح رَغيب ، فما كان أسرع من أن جاءه مولاه ، فذهب به ، وأخذتُ قربته وهي مملوءةٌ ، وآتي بها أبي مخنفاً ، فقال : من أين جئت بها ؟ فقلت : اشتريتها ـ وكرهت أن أخبره الخبر ، فيَجِدَ عليَّ ـ فقال : اسقِ القومَ ، فسقيتُهم ، ثم شرب آخرهم ، ونازعتْني نفسي والله إلى القتال ، فأنطلق فأتقدّم فيمن يقاتل ، فقاتلناهم ساعة ، ثم أشهدُ أنهم خلّوا لنا عن الماء ، فما أمسينا حتى رأينا سُقاتنا وسُقاتهم يزدحمون على الشريعة ، وما يؤذِي إنسانٌ إنساناً ، فأقبلت راجعاً ، فإذا أنا بمولَى صاحب القربة ، فقلت : هذه قِرْبتك عندنا ، فأرسِل من يأخذها ، أو أعلِمني مكانَك حتى أبعث بها إليك ، فقال : رحمك الله ! عندنا ما نكتفي به ؛ فانْصرفت وذهب ، فلما كان من الغد مرّ على أبي ، فوقف فسلّم عليه ، ورآني إلى جَنْبِيه ، فقال : ما هذا الفتى منك ؟ قال : ابني ؛ قال : أراك الله فيه السرور ، أنقذ الله عزّ وجلّ أمسِ غلامي به من القتل ، حدّثني شباب الحيّ أنه كان أمس أشجعَ الناس ، فنظر إليّ أبي نظرةً عرفتُ منها في وجهه الغضب ، فسكتّ حتى إذا مضى الرجل قال : هذا ما تقدّمت إليه فيه ! فحلفني ألاّ أخرج إلى قتال إلاّ بإذنه ، فما شهدت من قتالهم إلا ذلك اليوم حتى كان يوم من أيامهم .

قال أبو مخنف : وحدّثني يونس بن أبي إسحاق السَّبيعيّ ، عن مهران مولى يزيد بن هانىء ، قال : والله إنّ مولاي يزيد بن هانىء ليُقاتل على الماء ، وإنّ القربة لفي يده ، فلما انكشف أهل الشأم انكشافةً عن الماء ، استدرتُ حتى أسقى ، وإنّي فيها بين ذلك لأقاتل وأرامي .

قال أبو مِخْنف : وحدّثني يوسف بن يزيد، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر، قال: لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصِفّين، وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستوياً بِساطا واسعاً، أخذوا الشريعة، فهي في أيديهم، وقد صفّ أبو الأعور السُّلميّ عليها الخيل والرجال، وقد قدّم المُرامية أمام من معه، وصفّ صفّاً معهم من الرماح والدّرَق، وعلى رؤوسهم البَيْض، وقد أجمعوا على أن يمنعونا الماءَ، ففزعنا إلى أمير المؤمنين، فخبّرناه بذلك، فدعا صعصعة بن صُوحان فقال له: ائت معاوية وقل له: إنّا سِرْنا مسيرنا هذا إليكم، ونحن نكرَه قتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنك قدّمت إلينا خيلَك ورجالك فقاتلتّنا قبل أن نقاتِلَك، وبدأتَنا بالقتال، ونحن من رأينا الكفّ عنك حتى ندعوَك ونحتجّ عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها، قد حُلتم بين الناس وبين الماء، والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث إلى أصحابك فليخلّوا بين الناس وبين الماء، ويكفّوا حتى ننـظر فيما بيننا وبينكم، وفيما قدِمنا له وقدمتم له، وإن كان أعجبَ إليك، أن نترك ما جئنا له، ونترك الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب. فعلْنا. فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ فقال الوليد بن عقبة: امنعهم الماء كما منعوه عثمان بن عفّان رضي الله عنه، حصروه أربعين صباحاً يمنعونه بَرْدَ المـاء، ولينَ الـطعام، اقتُلهم عطشاً، قَتَلهم الله عطشاً! فقال له عمرو بن العاص: خلِّ بينهم وبين الماء، فإنّ القوم لن يَعطَشوا وأنت ريان؛ ولكن بغير الماء، فانظر ما بينك وبينهم. فأعاد الوليد بن عقبة مقالته؛ وقال عبد الله بن أبي سَرْحٍ : امنعهم المَاء إلى الليل، فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا، ولو قد رجعوا كان رجوعهُم فَلاًّ، امنعهم الماء منعهم الله يوم القيامة! فقال صعصعة: إنما يمنعه الله عزّ وجلّ يوم القيامة الكَفَرة الفَسَقة وشَرَبة الخمر؛ ضَرْبك وضَرْب هذا الفاسق ـ يعني الوليد بن عقبة ـ قال: فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهدّدونه، فقال معاوية: كُفّوا عن الرجل فإنه رسول.

قال أبو مِخْنف: وحدّثني يوسف بن يزيد، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر، أن صعصعة رجـع إلينا فحدّثنا عمّا قال لمعاوية، وما كان منه وما ردّ، فقلنا: فما ردّ عليك؟ فقال: لما أردت الانصرافَ من عنده قلت: ما ترد عليّ؟ قال معاوية: سيأتيكم رأيي؛ فوالله ما راعنا إلا تسرَيته الخيل إلى أبي الأعور ليكفّهم عن الماء. قال: فأبرَزَنا عليٌّ إليهم، فارتميّنا ثم اطّعنّا، ثم اضطربنا بالسيوف، فنُصِرنا عليهم، فصار الماء في أيدينا، فقلنا لا والله لا نسقيهُموه، فأرسل إلينا عليّ: أن خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى عسكركم، وخَلّوا عنهم؛ فإنّ الله عزّ وجلّ قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم.

دعاء عليّ معاوية إلى الطاعة والجماعة

قال أبو مخنف: حدّثني عبد الملك بن أبي حرّة الحنفيّ، أنّ عليّاً قال: هذا يومٌ نُصِرتم فيه بالحميّة، وجاء الناس حتى أتوا عسكرهم، فمكث عليٌّ يومين لا يُرسل إلى معاوية أحداً، ولا يرسل إليه معاوية. ثم إن عليّاً دعا بشير بن عمرو بن مِحْصَن الأنصاريّ، وسعيد بن قيس الهمدانيّ، وشَبَث بن ربعيّ التميميّ، فقال: ائتوا هذا الرّجل فادعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة، فقال له شَبَث بن رِبعيّ: يا أمير المؤمنين، ألا تُطمِعه في سلطان

تولّيه إياه، ومنزلة يكون له بها أُثرة عندك إن هو بايعك؟ فقال عليّ: ائتوه فالقوه واحتجُّوا عليه، وانظروا ما رأيُه ـ وهذا في أول ذي الحجّة ـ فأتَوْه، ودخلوا عليه، فحمِد الله وأثنى عليه أبو عَمرة بشير بن عمرو، وقال: يا معاوية، إنّ الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وإنّ الله عزّ وجلّ محاسبك بعملك، وجازيك بما قدّمتْ يداك، وإني أنشُدك الله عزّ وجلّ أن تفرّق جماعةَ هذه الأمة، وأن تَسفِك دماءها بينها! فقطع عليه الكلام، وقال: هلاّ أوصيت بذلك صاحبَك؟ فقال أبو عَمرة: إنّ صاحبي ليس مثلك، صاحبي أحقّ البريّة كلّها بهذا الأمر في الفضل والدّين والسابقة في الإسلام، والقرابةِ من الرسول ﷺ. قال: فيقول، ماذا؟ قال: يأمرك بتقوى الله عزّ وجلّ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحقّ، فإنّه أسلم لك في دنياك، وخيرٌ لك في عاقبة أمرك. قال معاوية: ونُطلّ دمَ عثمان رضي الله عنه! لا والله لا أفعل ذلك أبداً. فذهب سعيد بن قيس يتكلّم، فبادره شَبث بن رِبْعيّ، فتكلّم فحمِد الله وأثنَى عليه، وقال: يا معاوية، إني قد فهمت ما رددت على ابن محصَن، إنه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب؛ إنك لم تجد شيئاً تَستغوِي به الناسَ وتستميل به أهواءهم، وتستخلص به طاعتهم، إلاّ قولك: «قتل إمامكم مظلوماً، فنحن نطلب بدمه»، فاستجاب له سفهاء طغام، وقد علمْنا أن قد أبطأتَ عنه بالنصر، وأحببتَ له القتل، لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب، ورُبّ متمنٍّ أمر وطالبِه، اللهُ عزّ وجلّ يحول دونَه بقدرته، وربما أوتِيَ المتمنّي أمنيّته وفوق أمنيّته، ووالله مَالَك في واحدة منهما خير، لئن أخطأتَ ما ترجو إنك لشرّ العرب حالاً في ذلك، ولئن أصبت ما تَمنّى لا تصيبه حتى تستحقّ من ربِّك صُليَّ النار، فاتّق الله يا معاوية، ودع ما أنت عليه، ولا تنازع الأمر أهلَه.

فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن أوّل ما عرفت فيه سَفَهَك وخفّة حلمك، قطعُك على هذا الحسيب الشريف سيّد قومه منطقَه، ثم عنِيت بعد فيما لا علم لك به، فقد كذبتَ، ولَؤُمتَ أيها الأعرابي الجِلْف الجافي في كلّ ما ذكرت ووصفت. انصرِفوا من عندي، فإنه ليس بيني وبينكم إلاّ السيف. وغضب، وخرج القوم وشَبث يقول: أفَعلَيْنا تهوّل بالسيف! أقسم بالله ليُعجَلنّ بها إليك. فأتوا عليّاً وأخبروه بالذي كان من قوله، وذلك في ذي الحجة، فأخذ عليٌّ يأمر الرجل ذا الشرف، فيخرج معه جماعة، ويخرج إليه من أصحاب معاوية آخر معه جماعة، فيقتتلان في خيلهما ورجالهما ثم ينصرفان، وأخذوا يكرهون أن يلقَوا بجمع أهل العراق أهل الشام لما يتخوّفون أن يكون في ذلك من الاستئصال والهلاك، فكان عليٌّ يخرج مرّة الأشتر، ومرّة حُجْر بن عديّ الكنديّ، ومرّة شَبَثَ بن رِبْعيّ، ومرّة خالد بن المعمّر، ومرّة زياد بن النضر الحارثيّ، ومرّة زياد بن خَصفَة التيميّ، ومرّة سعيد بن قيس، ومرّة معقل بن قيس الرّياحيّ، ومرّة قيس بن سعد. وكان أكثر القوم خروجاً إليهم الأشتر، وكان معاوية يُخرج إليهم عبدَ الرحمن بن خالد المخزوميّ، وأبا الأعور السُّلميّ، ومرّة حبيب بن مسلمة الفهريّ، ومرّة ابن ذي الكَلاع الحِمْيريّ، ومرة عبيد الله بن عمر بن الخطّاب، ومرّة شُرحبيل بن السِّمْط الكنديّ، ومرّة حمزة بن مالك الهمدانيّ، فاقتَتَلوا من ذي الحجة كلها، وربما اقتتلوا في اليوم الواحد مرّتين أوّله وآخره.

قال أبو مخنف: حدّثني عبد الله بن عاصم الفائشيّ، قال: حدّثني رجل من قومي أنّ الأشتر خرج يوماً يقاتل بصفّين في رجال من القرّاء، ورجال من فُرسان العرب، فاشتدّ قتالهم، فخرج علينا رجل واللهِ لَقَلَّما رأيتُ رجلا قطّ هو أطوَل ولا أعظم منه. فدعا إلى المبارزة، فلم يخرج إليه أحد إلاّ الأشتر، فاختلفا ضربتين، فضربه الأشتر، فقتله، وايمُ الله لقد كنا أشفَقْنا عليه، وسألناه ألاّ يخرج إليه، فلما قتله الأشتر نادى منادٍ من أصحابه:

يــا سَــهْمُ سَــهْمَ ابـن أبـي الـعَـيْــزَارِ يـا خَـيْـرَ مَـنْ نَـعْـلَمُـهُ مـن زارِ

وزارة: حيٌّ من الأزد، وقال: أقسم بالله لأقتلنّ قاتلَك أو ليقتلنّي، فخرج فحمل على الأشتر، وعطف عليه الأشتر فضرَبَه، فإذا هو بين يديْ فرسه، وحمل عليه أصحابُه فاستنقذوه جريحاً، فقال أبو رُفَيْقة الفهميّ: هذا كان ناراً، فصادَف إعصاراً، واقتتل الناس ذا الحجّة كلّه، فلما انقضى ذو الحِجّة تداعى الناس إلى أن يكفّ بعضهم عن بعض المحرّم، ولعلّ الله أن يُجرى صلحاً أو اجتماعاً، فكفّ بعضُهم عن بعض.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبدُ الله بن العباس بن عبد المطلب بأمر علي إيّاه بذلك، كذلك حدّثني أحمد بن ثابت الرازيّ، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر.

وفي هذه السنة مات قُدَامة بن مظعون، فيما زعم الواقديّ.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين

ذكر ما كان فيها من الأحداث وموادعة الحرب بين علي ومعاوية .

فكان في أوّل شهر منها ـ وهو المحرّم ـ موادَعة الحرب بين عليّ ومعاوية ، قد توادعا على ترْك الحرب فيه إلى انقضائه طمعاً في الصلح ؛ فذكر هشام بن محمد ، عن أبي مِخْنَف الأزديّ ، قال : حدّثني سعد أبو المجاهد الطائيّ ، عن المُحِلّ بن خليفة الطائيّ ، قال : لما توادَع عليّ ومعاوية يوم صِفّين ، اختلف فيما بينهما الرُّسل رجاء الصُّلْح ، فبعث عليّ عديَّ بنَ حاتم ويزيدَ بنَ قيس الأرحبيّ وشبَث بن رِبْعيّ وزياد بن خَصَفة إلى معاوية ، فلمّا دخلوا حمد اللّهَ عديّ بن حاتم ، ثم قال: أمّا بعد، فإنّا أتينا ندعوك إلى أمر يجمع الله عزّ وجلّ به كلمتنا وأمّتنا ، ويحقن به الدماء ، ويؤمِّن به السُّبل ، ويصلح به ذاتَ البين . إنّ ابن عمك سيّد المسلمين أفضلها سابقة ، وأحسنها في الإسلام أثراً ، وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدهم الله عزّ وجلّ بالذي رأوْا ، فلم يبق أحد غيرك وغير مَن معك ، فانتهِ يا معاوية لا يصبْك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل . فقال معاوية : كأنك إنما جئت متهدّداً ، لم تأت مصلحاً! هيهات يا عديّ ، كلّا والله إني لابنُ حرب ، ما يُقعقَع لي بالشّنان ، أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفّان رضي الله عنه ، وإنك لَمِن قَتَلتِه ، وإنّي لأرجو أن تكون ممن يَقتل اللّهُ عزّ وجلّ به . هيهات يا عديّ بن حاتم! قد حلبت بالساعد الأشدّ . فقال له شَبَث بن رِبعيّ وزياد بن خَصَفة ـ وتنازَعا جواباً واحداً : أتيناك فيما يصلحنا وإيّاك ، فأقبلتَ تضرب لنا الأمثال! دَعْ ما لا يُنتفع به من القول والفعل ، وأجبنا فيما يعمّنا وإياك نفعُه . وتكلم يزيد بن قيس ، فقال : إنا لم نأتك إلّا لنبلغك ما بُعثنا به إليك ، ولنؤدّيَ عنك ما سمعنا منك ، ونحن على ذلك لم نَدَع أن ننصحَ لك ، وأن نذكر ما ظنّنا أن لنا عليك به حجّة ، وأنّك راجع به إلى الألفة والجماعة . إنّ صاحبنا من قد عرفتَ وعرفَ المسلمون فضلَه ، ولا أظنّه يخفى عليك ؛ إنّ أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعليّ ، ولن يميِّلوا بينك وبينه ، فاتّق الله يا معاوية ، ولا تخالف عليّاً ، فإنّا والله ما رأينا رجلاً قطّ أعملَ بالتقوى ، ولا أزهدَ في الدنيا ، ولا أجمعَ لخصال الخير كلّها منه .

فحمد اللّهَ معاويةُ وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة ، فأمّا الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي ، وأمّا الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها ؛ إنّ صاحبكم قتل خليفتَنا ، وفرّق جماعتَنا ، وآوى ثأرنا وقتلَتَنا ، وصاحبكم يزعم أنه لَم يقتلْه ، فنحن لا نردّ ذلك عليه ، أرأيتم قتَلة صاحبنا؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم؟ فليدفعْهم إلينا فلنقتلهم به ، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة .

فقال له شَبَث : أيسرّك يا معاوية أنك أُمْكِنْت من عمّار تقتله! فقال معاوية : وما يمنعني من ذلك ! والله لو أمكِنْتُ من ابن سُميَّة ما قتلتُه بعثمانَ ، ولكن كنتُ قاتلَه بناتل مولَى عثمان . فقال له شَبَث : وإله الأرض وإله

النساء، ما عدلتَ معتدلاً، لا والذي لا إله إلاّ هو لا تصل إلى عمّار حتى تندرُ الهام عن كواهل الأقوام، وتضيق الأرض الفضاء عليك برُحْبها. فقال له معاوية: إنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيَق.

وتفرّق القوم عن معاوية، فلما انصرفوا بعث معاوية إلى زياد بن خصفَة التيميّ، فخلا به، فحمِد الله وأثنى عليه، وقال: أمّا بعد يا أخا ربيعة، فإن عليًّا قطّع أرحامنا، وآوى قَتلَة صاحبنا، وإني أسألك النصر عليه بأسرَتك وعشيرتِك، ثم لك عهدُ الله جلّ وعزّ وميثاقُه أن أوَلِّيَك إذا ظهرتُ أيَّ المِصْريْن أحببت.

قال أبو مخنف: فحدّثني سعد أبو المجاهد، عن المِحِلّ بن خليفة، قال: سمعت زياد بن خَصفة يحدّث بهذا الحديث، قال: فلما قضى معاوية كلامَه حمدتُ الله عزّ وجل وأثنيتُ عليه، ثم قلت: أما بعد، فإني على بيِّنة من ربِّي وبما أنعم عليّ، فلن أكون ظَهيراً للمجرمين، ثم قمت. فقال معاوية لعمرو بن العاص - وكان إلى جنبه جالساً: ليس يكلّم رجل منّا رجلاً منهم فيُجيب إلى خير. ما لهم عَضبهم الله بشرّ! ما قلوبهم إلاّ كقلب رجل واحد.

قال أبو مِخْنف: فحدّثني سليمان بن أبي راشد الأزديّ، عن عبدالرحمن بن عبيد أبي الكُنود، أنّ معاوية بعث إلى عليّ حبيبَ بن مسلمة الفهريّ وشُرَحبيل بن السِّمْط ومعن بن يزيد بن الأخنس، فدخلوا عليه وأنا عنده، فحمِد الله حبيب وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنّ عثمان بنَ عفّان رضي الله عنه كان خليفةً مهديًّا، يعمل بكتاب الله عزّ وجلّ، ويُنيب إلى أمر الله تعالى، فاستثقلتم حياته، واستبطأتم وفاتَه، فعدوْتم عليه فقتلتموه؛ فادفع إلينا قتلةَ عثمان - إنْ زعمت أنك لم تقتله - نقتلهم به، ثم اعتزِل أمرَ الناس فيكونَ أمرُهم شورى بينهم، يولّي الناس أمرَهم مَن أجمع عليه رأيهم. فقال له عليّ بن أبي طالب: وما أنت لا أمَّ لك والعزل وهذا الأمر! اسكُت فإنك لستَ هناك ولا بأهل له! فقام وقال له: والله لتَرَيَنّي بحيث تكره. فقال عليّ: وما أنت ولو أجلبتَ بخَيْلك ورَجِلك! لا أبقى الله عليك إن أبقيت عليّ؛ أحُقْرَةً وسوءاً! اذهب فصوِّب وصعِّد ما بدا لك.

وقال شُرحبيل بن السّمط: إنّي إن كلمتك فلَعَمْري ما كلامي إلاّ مثل كلام صاحبي قبلُ، فهل عندك جواب غير الذي أجبتَه به؟ فقال عليّ: نعم لك ولصاحبك جواب غير الذي أجبتُه به. فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنّ الله جلّ ثناؤه بعث محمداً ﷺ بالحق، فأنقَذ به من الضلالة، وانتاش به من الهَلَكة، وجمع به من الفُرْقة، ثمّ قَبَضه الله إليه وقد أدّى ما عليه ﷺ، ثم استَخلف الناسُ أبا بكر رضي الله عنه، واستخلف أبو بكر عمرَ رضي الله عنه، فأحسَنَا السِّيرة، وعدَلاَ في الأمّة، وقد وَجَدنا عليهما أن تَولَّيا علينا - ونحن آل رسول الله ﷺ - فغفرنا ذلك لهما، وولي عثمان رضي الله عنه فعمِل بأشياءَ عابها النّاس عليه، فساروا إليه فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورَهم، فقالوا لي: بايع، فأَبَيتُ عليهم، فقالوا لي: بايعْ، فإنّ الأمة لا ترضى إلاّ بك!، وإنّا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس؛ فبايعتُهم، فلم يَرعْني إلاّ شقاق رجُلين قد بايَعاني، وخلافُ معاوية الذي لم يجعل الله عزّ وجلّ له سابقةً في الدين، ولا سلفَ صِدْق في الإسلام، طليق ابن طَليق، حِزْب من هذه الأحزاب، لم يزل لله عزّ وجلّ ولرسوله ﷺ وللمسلمين عدوًّا هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين، فلا غَرْوَ إلاّ خلافكم معه، وانقيادُكم له، وتدَعون آلَ نبيكم ﷺ الذين لا ينبغي لكم شقاقُهم ولا خلافُهم، ولا أن تَعدِلوا بهم من الناس أحداً. ألا إني أدعوكم إلى كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيّه ﷺ وإماتة

الباطل، وإحياء معالم الدين ؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، ولكلّ مؤمن ومؤمنة، ومسلم ومسلمة.

فقالا: إشهَدْ أنّ عثمانَ رضي الله عنه قُتل مظلوماً، فقال لهما: لا أقول إنه قُتل مظلوماً، ولا إنه قتل ظالماً، قالا: فمَنْ لم يزعم أنّ عثمان قتل مظلوماً فنحن منه برآء، ثم قاما فانصرفا. فقال عليّ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1]. ثم أقبل عليٌّ على أصحابه فقال: لا يكن هؤلاء أوْلى بالجِدّ في ضلالهم منكم بالجِدّ في حقّكم وطاعة ربّكم.

قال أبو مِخْنَف: حدّثني جعفر بن حُذَيفة، من آل عامر بن جُوَين، أنّ عائذ بن قيس الحِزمريّ واثبَ عديَّ بن حاتم في الرّاية بصِفّين ـ وكانت حِزْمر أكثر من بني عديّ رهط حاتم ـ فوثب عليهم عبدالله بن خليفة الطائيّ البَوْلانيّ عند عليّ، فقال: يا بني حِزْمر، على عديّ تتوثّبون! وهل فيكم مثل عَدِيّ أو في آبائكم مثل أبي عَدِيّ! أليس بحامي القربة ومانع الماء يوم رَوِيّة؟ أليس بابن ذي المِرباع وابن جواد العرب؟! أليس بابن المُنْهِب ماله، ومانع جاره؟! أليس مَن لم يغدر ولم يفجُر، ولم يجهل ولم يبخَل، ولم يمْنُن ولم يجبن؟! هاتوا في آبائكم مثلَ أبيه، أو هاتوا فيكم مِثلَه. أوَليس أفضلكم في الإسلام! أوَليس وافدَكم إلى رسول الله ﷺ! أليس برأسكم يوم النُّخَيلة ويوم القادسيّة ويوم المدائن ويوم جَلُولاء الوقيعة ويوم نِهاوَند ويوم تُسْتَر؟! فما لكم وله! والله ما من قومكم أحد يطلب مثلَ الذي تطلبون. فقال له عليّ بن أبي طالب: حسبُك يا بن خليفة، هَلُمّ أيّها القوم إليّ، وعليَّ بجماعة طيّىء، فأتوْه جميعاً، فقال عليّ: من كان رأسكم في هذه المواطن؟ قال له طيّىء: عديّ. فقال له ابن خليفة: فسلْهم يا أمير المؤمنين، أليسوا راضين مسلّمين لعديّ الرياسة؟ ففعل، فقالوا: نعم، فقال لهم: عديّ أحقُّكم بالراية. فسلّموها له، فقال عليّ ـ وضجّت بنو الحِزْمِر ـ: إنّي أراه رأسَكم قبل اليوم، ولا أرى قومه كلهم إلا مسلّمين له غيرَكم؛ فأتّبع في ذلك الكثرة. فأخذها عديّ، فلما كان أزمان حُجْر بن عديّ طُلِب عبدُالله بن خليفة لِيُبْعَثَ به مع حُجر ـ وكان من أصحابه ـ فسيِّر إلى الجبلين؛ وكان عديّ قد منّاه أن يردّه، وأن يطلب فيه، فطال عليه ذلك، فقال:

وَتَنْسَوْنَني يَوْمَ الشَّرِيعَةِ والقَنا ... بِصِفِّينَ في أكتافِهِمْ قد تَكَسَّرا
جَزَى رَبُّهُ عَنّي عَدِيَّ بنَ حاتِمٍ ... بِرَفْضي وخِذلاني جَزاءً مُوَفَّرا
أتَنْسَى بَلائي سادراً يابْنَ حاتِمٍ ... عَشِيَّةَ ما أغْنَتْ عَدِيُّكَ حِزْمَرا
فَدافَعْت عنك القَوْمَ حتى تَخاذَلوا ... وكُنْتُ أنا الخَصْمَ الألَدَّ العَذَوَّرا
فَوَلَّوا وما قاموا مقامي كأنما ... رأوْنيَ لَيْثاً بالأباءَة مُخْدِرا
نَصَرْتُكَ إذ خامَ القَريبُ وَأبْعَطَ الـ ... ـبَعيدُ وقد أفْرِدْتُ نَصْراً مُؤَزَّرا
فكانَ جزائي أن أجَرَّدَ بينكم ... سَجيناً، وأنْ أُولَى الهَوانَ وأوسَرا
وكم عِدَةٍ لي مِنْكَ أنكَ راجِعي ... فَلَمْ تُغْنِ بالميعادِ عَنّيَ حَبْتَرا

(١) سورة: سورة النمل ٨٠.

تكتيب الكتائب وتعبئة الناس للقتال

قال: ومكث الناس حتى إذا دنا انسلاخ المحرَّم أمر عليّ مَرْثَد بن الحارث الجُشَميّ فنادى أهل الشأم عند غروب الشمس: ألَا إنّ أمير المؤمنين يقول لكم: إنّي قد استدمتكم لتراجعوا الحقّ وتُنيبوا إليه، واحتججت عليكم بكتاب الله عزّ وجلّ، فدعوْتكم إليه، فلم تَناهَوْا عن طغيان، ولم تجيبوا إلى حقّ، وإنّي قد نبذت إليكم على سواء، إنّ الله لا يحبّ الخائنين. ففزع أهل الشأم إلى أمرائهم ورؤسائهم، وخرج معاوية وعمرو بن العاص في الناس يكتبان الكتائب ويعبيان الناس، وأوقدوا النيران، وبات عليٌّ ليلتَه كلَّها يعبِّي الناس، ويكتِّب الكتائب، ويدور في الناس يحرِّضهم.

قال أبو مخنف: حدّثني عبدالرحمن بن جندب الأزديّ، عن أبيه، أنّ عليًّا كان يأمرنا في كل موطن لقينا فيه معه عدوًّا يقول: لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم، فأنتم بحمد الله عزّ وجلّ على حجّة، وتركُكم إيّاهم حتى يبدءوكم حجّة أخرى لكم، فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبِراً، ولا تُجهِزوا على جريح، ولا تكشفوا عورةً، ولا تمثّلوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتِكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً إلاَّ بإذن، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم، ولا تُهيِّجوا امرأةً بأذًى، وإن شتمن أعراضَكم، وسبَبن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهنّ ضعاف القُوَى والأنفس.

قال أبو مِخْنف: وحدّثني إسماعيل بن يزيد، عن أبي صادق، عن الحضرميّ، قال: سمعت عليًّا يحرّض الناس في ثلاثة مواطن: يحرّض الناس يومَ صِفّين، ويومَ الجمل، ويوم النَّهر، يقول: عباد الله، اتقوا الله، وغُضّوا الأبصار، واخفضوا الأصوات، وأقلُّوا الكلام، ووطِّنوا أنفسكم على المنازلة والمجاوَلة والمبارَزة والمناضَلة والمُجالَدة والمعانَقة والمكادَمة والملازمة، فاثبُتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون. ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إنّ الله مع الصابرين. اللهم ألهمهم الصبر، وأنزل عليهم النصر، وأعظم لهم الأجر.

فأصبح عليّ من الغد، فبعث على الميمنة والميسرة والرجّالة والخيل. قال أبو مخنف: فحدّثني فضيل بن خَديج الكِنديّ أن عليًّا بعث على خيل أهل الكوفة الأشتر، وعلى خيل أهل البصرة سهل بن حُنَيف، وعلى رجّالة أهل الكوفة عمّار بن ياسر، وعلى رجّالة أهل البصرة قيس بن سعد وهاشم بن عُتبة ومعه رايته، ومِسعر بن فَدَكيّ التميميّ على قرّاء أهل البصرة، وصار أهل الكوفة إلى عبدالله بن بُدَيل وعمّار بن ياسر.

قال أبو مخنف: وحدّثني عبدالله بن يزيد بن جابر الأزديّ، عن القاسم مولى يزيد بن معاوية، أنّ معاوية بعث على ميمنته ابن ذي الكَلاع الحِمْيَريّ، وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهريّ، وعلى مقدّمته يوم أقبل من دمشق أبا الأعور السُّلَميّ - وكان على خيل أهل دمشق - وعمرو بن العاص على خيول أهل الشأم كلها، ومسلم بن عقبة المرّيّ على رجّالة أهل دمشق، والضحّاك بن قيس على رجّالة الناس كلها. وبايع رجال من أهل الشأم على الموت، فعقّلوا أنفسهمَ بالعمائم، فكان المعقّلون خمسة صفوف، وكانوا يخرجون ويُصفّون عشرة صفوف، ويخرج أهل العراق أحد عشر صفاً، فخرجوا أوّل يوم من صِفّين فاقتتلوا. وعلى مَن خرج يومئذٍ من أهل الكوفة الأشتر، وعلى أهل الشأم حبيبُ بن مسلمة، وذلك يوم الأربعاء، فاقتتلوا قتالاً شديداً جُلَّ النهار، ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض، ثم خرج هاشم بن عُتبة في خيل ورجال حَسَنٍ عددُها

وعُدّتها، وخرج إليه أبو الأعور، فاقتتلوا يومَهم ذلك، يحمل الخيل على الخيل، والرجال على الرجال، ثمّ انصرفوا وقد كان القوم صَبر بعضُهم لبعض. وخرج اليومَ الثالث عمّارُ بن ياسر، وخرج إليه عمرو بن العاص، فاقتتل الناس كأشدّ القتال، وأخذ عمّار يقول: يا أهلَ العراق، أتريدون أن تنظروا إلى من عادَى الله ورسوله وجاهدَهما، وبغى على المسلمين، وظاهَرَ المشركين، فلما رأى الله عزّ وجلّ يعزُّ دينَه ويُظهر رسوله أتى النبيَّ ﷺ فأسلم، وهو فيما نرَى راهب غير راغب؛ ثم قبض الله عزّ وجلّ رسوله ﷺ! فوالله إنْ زال بعدَه معروفاً بعداوة المسلم، وهَوادة المجرم. فاثبُتوا له وقاتِلوه فإنه يطفئ نورَ الله، ويظاهر أعداءَ الله عزّ وجلّ.

فكان مع عمّار زياد بن النّضْر على الخيل، فأمره أن يحمل في الخيل، فحمل، وقاتله الناس وصبروا له، وشدّ عمّار في الرجال، فأزال عمرو بن العاص عن موقفه. وبارز يومئذٍ زياد بن النّضر أخاً له لأمّه يقال له عمرو بن معاوية بن المنتفِق بن عامر بن عُقَيل ـ وكانت أمّهما امرأة من بني يزيد ـ فلما التقيا تعارَفا فتواقفا، ثم انصرف كلّ واحد مُنهما عن صاحبه، وتراجع الناس.

فلمّا كان من الغد خرج محمد بن عليّ وعبيد الله بن عمر في جمعين عظيمين، فاقتتلوا كأشدّ القتال. ثم إن عبيد الله بن عمرَ أرسل إلى ابن الحنفيّة: أن أخرج إليَّ؛ فقال: نعم، ثم خرج يمشي، فبصُربه أمير المؤمنين فقال: مَنْ هذان المتبارِزان؟ فقيل: ابن الحنفيّة وعُبيد الله بن عمر؛ فحرّك دابّته ثم نادى محمّداً، فوقف له، فقال: أمسِكْ دابّتي، فأمسَكَها، ثم مشى إليه عليّ فقال: أبرز لك، هلمّ إليّ؛ فقال: ليست لي في مبارزتك حاجة، فقال: بلى، فقال: لا، فرجع ابن عمر. فأخذ ابن الحنفيّة يقول لأبيه: يا أبتِ، لم منعتَني من مبارزته؟ فوالله لو تركتَني لرجوتُ أن أقتلَه، فقال: لو بارزتَه لرجوتُ أن تقتله، وما كنتُ آمن أن يقتلَك، فقال: يا أبتِ أو تَبرز لهذا الفاسق! والله لو أبوه سألك المبارزة لرغبتُ بك عنه؛ فقال عليّ: يا بُنيّ، لا تَقُلْ في أبيه إلاّ خيراً. ثم إنّ الناس تحاجزوا وتراجعوا.

قال: فلما كان اليوم الخامس خرج عبدالله بن عباس والوليد بن عُقْبة فاقتتلوا قتالاً شديداً، ودنا ابن عبّاس من الوليد بن عقبة، فأخذ الوليد يسبّ بني عبدالمطّلب، وأخذ يقول: يابن عباس، قطّعتم أرحامَكم، وقتلتم إمامَكم، فكيف رأيتم الله صنع بكم؟! لم تُعطَوْا ما طلبتم، ولم تُدرِكوا ما أمّلتم، واللّهُ إن شاء مُهلِككم وناصرٌ عليكم. فأرسل إليه ابن عباس: أن أبرز لي، فأبى. وقاتل ابن عباس يومئذٍ قتالاً شديداً، ـ وغشيَ الناس بنفسه.

ثم خرج قيس بن سعد الأنصاريّ وابن ذي الكَلاع الحِميَريّ فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انصرَفا، وذلك في اليوم السادس.

ثمّ خرج الأشتر، وعاد إليه حبيب بن مَسلمة اليوم السابع، فاقتتلا قتالاً شديداً، ثم انصرفا عند الظهر، وكلٌّ غير غالب، وذلك يومَ الثلاثاء.

قال أبو مِخْنف: حدّثني مالك بن أعينَ الجُهَنيّ، عن زيد بن وهب، أن عليًّا قال: حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا! فقام في النّاس عشيّة الثلاثاء، ليلة الأربعاء بعد العصر، فقال: الحمد لله الذي لا يُبرَم ما نَقَض، وما أبرَم لا ينقضُه الناقضون، لو شاء ما اختلف اثنان من خَلْقه، ولا تنازعت الأمة في شيء من أمره، ولا جحد المفضولُ ذا الفضل فضلَه، وقد ساقتْنا وهؤلاء القوم الأقدار، فلفّت بيننا في هذا المكان، فنحن من

رَبِّنا بمرأى ومسمع ، فلو شاء عجّل النِّقمة ، وكان منه التغيير، حتى يكذِّب الله الظالم ، ويَعلم الحقُّ أين مصيره ؛ ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، وجعل الآخرة عنده هي دار القرار، ليجزيَ الذين أساءوا بما عملوا ويجزيَ الذين أحسنوا بالحسنى . ألاّ إنكم لاقُوا القومِ غداً ، فأطِيلوا الليلة القيامَ ، وأكثروا تلاوة القرآن ، وسلُوا الله عزّ وجلّ النّصر والصبر ، والقَوْهم بالجدّ والحزم ، وكونوا صادقين . ثم انصرف ، ووثب الناسُ إلى سيوفهم ورماحِهم ونبالِهم يصلحونها ، ومرّ بهم كعب بن جُعَيل التغلَبيّ وهو يقول :

أصْبَحَتِ الأمّةُ في أمْرٍ عَجَبْ والمُلك مجْموعٌ غداً لمن غَلَبْ
فقلتُ قولاً صادقاً غيرَ كَذِبْ إنَّ غداً تَهلِكُ أعلامُ العربْ

قال : فلما كان من الليل خرج عليٌّ فعبّى الناس ليلته كلها ، حتى إذا أصبح زحف بالناس ، وخرج إليه معاوية في أهل الشأم ، فأخذ عليٌّ يقول : مَن هذه القبيلة؟ ومَن هذه القبيلة؟ فنُسبت له قبائل أهل الشأم ، حتى إذا عرفهم ورأى مراكزَهم قال للأزد : اكفُوني الأزد ، وقال لخثْعم : اكفوني خَثْعم . وأمر كلَّ قبيلة من أهل العراق أن تكفيَه أختها من أهل الشأم إلاّ أن تكون قبيلة ليس منها بالشأم أحد فيصرفها إلى قبيلة أخرى تكون بالشأم ، ليس منهم بالعراق واحد، مثل بَجيلة لم يكن منهم بالشأم إلاّ عدد قليل ، فصرفهم إلى لخْم . ثم تناهض الناس يومَ الأربعاء فاقتتلوا قتالاً شديداً نهارهم كلّه ، ثم انصرفوا عند المساء وكلٌّ غير غالب ، حتى إذا كان غداة الخميس صلى عليٌّ بغَلَس .

قال أبو مخنف : حدّثني عبدالرحمن بن جندب الأزديّ ، عن أبيه ، قال : ما رأيت عليًّا غلّس بالصلاة أشدّ من تَغْليسه يومئذ ، ثم خرج بالناس إلى أهل الشأم فزحف إليهم ، فكان يبدؤهم فيسير إليهم ، فإذا رأوه قد زحف إليهم استقبلوه بوجوههم .

قال أبو مخنف : حدّثني مالك بن أعينَ ، عن زيد بن وهب الجُهَنيّ ، أنّ عليًّا خرج إليهم غَدَاة الأربعاء فاستقبلهم فقال : اللهمّ ربَّ السقف المرفوع ، المحفوظ المكفوف ، الذي جعلته مَغيضاً لليل والنهار ، وجعلتَ فيه مجرى الشمس والقمر ومنازل النجوم ، وجعلت سكّانه سِبْطاً من الملائكة ، لا يسأمون العبادة . وربّ هذه الأرض التي جعلتَها قراراً للأنام ، والهوامّ والأنعام ، وما لا يُحصى مما لا يُرَى ومما يُرَى من خَلْقك العظيم . وربّ الفُلْك التي تجري في البحر بما يَنفع الناس ، وربّ السحاب المسخَّر بين السماء والأرض ، وربّ البحر المسجور المحيط بالعالم ، وربّ الجبال الرّواسي التي جعلتَها للأرض أوتاداً ، وللخلق متاعاً ؛ إن أظهرّتنا على عدوّنا فجنِّبنا البغيَ ، وسدِّدنا للحقّ ، وإن أظهرتَهم علينا فارزقني الشهادة ، واعصم بقيَّة أصحابي من الفتنة .

قال : وازدلف الناس يومَ الأربعاء فاقتتلوا كأشدّ القتال يومَهم حتى الليل ، لا ينصرف بعضهم عن بعض إلاّ للصّلاة ، وكثرت القتلَى بينهم ، وتحاجزوا عند الليل وكلٌّ غيرُ غالب ، فأصبحوا من الغد ، فصلىّ بهم عليٌّ غداة الخميس ، فغلّس بالصّلاة أشدّ التَّغليس ، ثم بدأ أهل الشأم بالخروج ، فلما رأوه قد أقبل إليهم خرجوا إليه بوجوههم ، وعلى ميمنته عبدالله بن بُديل ، وعلى ميسرته عبدالله بن عبّاس ، وقرّاء أهل العراق مع ثلاثة نفر : مع عمّار بن ياسر ، ومع قيس بن سعد ، ومع عبدالله بن بُدَيل ، والناس على راياتهم ومراكزهم ، وعليٌّ في القلْب في أهل المدينة بين أهل الكوفة وأهل البصرة ، وعُظْم مَن معه من أهل المدينة الأنصارُ ، ومعه من خُزاعة عدد حَسن ، ومن كنانة وغيرهم من أهل المدينة .

ثم زحف إليهم بالناس، ورفع معاوية قبّةً عظيمة قد ألقى عليها الكرابيس وبايعه عُظْم الناس من أهل الشأم على الموت، وبعث خيلَ أهل دمشق فاحتاطت بقبّته، وزحف عبدالله بن بُدَيل في الميمنة نحو حبيب بن مسلمة، فلم يزل يحوزه، ويكشف خيلَه من الميسرة حتى اضطرهم إلى قبّة معاوية عند الظهر.

قال أبو مِخْنف: حدّثني مالك بن أعيَن، عن زيد بن وهب الجُهَني، أن ابن بُدَيل قام في أصحابه فقال: ألاَ إنّ معاوية ادَّعى ما ليس أهلَه، ونازع هذا الأمرَ من ليس مثلَه، وجادل بالباطل ليُدحِض به الحقّ، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب، قد زيّن لهم الضلالة، وزرع في قلوبهم حبَّ الفتنة، ولبّس عليهم الأمر، وزادهم رِجْساً إلى رجسهم، وأنتم على نورٍ من ربّكم، وبرهان مبين. فقاتلوا الطغاة الجفاة، ولا تخشَوهم، فكيف تخشوْنهم وفي أيديكم كتاب الله عزّ وجلّ طاهراً مبروراً! ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾[1]، وقد قاتلناهم مع النبيّ ﷺ مرّة، وهذه ثانية، والله ما هم في هذه بأتقى ولا أزكى ولا أرشد، قوموا إلى عدّوكم بارك الله عليكم! فقاتَل قتالاً شديداً هو وأصحابه.

قال أبو مِخْنف: حدّثني عبدالرحمن بن أبي عَمْرة الأنصاريّ، عن أبيه ومولًى له، أنّ علياً حرّض الناس يومَ صِفّين، فقال:

إنّ الله عزّ وجلّ قد دلّكم على تجارة تُنجِيكم من عذابٍ أليم، تُشفي بكم على الخير: الإيمان بالله عزّ وجلّ وبرسوله ﷺ، والجهاد في سبيل الله تعالى ذكره، وجعل ثوابه مغفرة الذنب، ومساكنَ طيّبة في جناتِ عدن. ثم أخبركم أنه يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص؛ فسوُّوا صفوفَكم كالبنيان المرصوص، وقدِّموا الدارع، وأخِّروا الحاسر، وعضّوا على الأضراس، فإنه أنبَى للسيوف عن الهام، والتَوُوا في أطراف الرماح، فإنّه أصوَن للأسنّة. وغُضّوا الأبصار فإنه أربَط للجأش، وأسكَن للقلوب، وأميتوا الأصوات فإنه أطرَد للفشل، وأولى بالوقار. راياتكم فلا تُميلوها ولا تزيلوها، ولا تجعلوها إلاّ بأيدي شجعانكم، فإن المانع للذّمار، والصابر عند نزول الحقائق، هم أهل الحفاظ الذين يحفّون براياتهم ويكنفونها؛ يضربون حِفافيها خَلفها وأمامها، ولا يضعونها. أجزأ امرؤٌ وقذقِرْنه ـ رحمكم الله ـ وآسى أخاه بنفسه، ولم يَكِل قِرنَه إلى أخيه، فيكسب بذلك لائمةً، ويأتِيَ به دناءة. وأنّى لا يكون هذا هكذا! وهذا يقاتل اثنين، وهذا ممسك بيده يُدخل قرنه على أخيه هارباً منه، أو قائماً ينظر إليه! من يفعل هذا يمقتْه الله عزّ وجل، فلا تعرّضوا لمقت الله سبحانه فإنما مردّكم إلى الله، قال الله عزّ من قائل لقوم: ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ المَوْتِ أَوِ القَتْلِ وَإِذاً لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[2]. وايمُ الله لئن سلمتم من سيف العاجلة لا تَسلمون من سيف الآخرة. واستعِينوا بالصّدق والصبر، فإنّ بعد الصبر يُنزل الله النصر.

الجدّ في الحرب والقتال

قال أبو مخنف: حدّثني أبو رَوْق الهمدانيّ، أن يزيد بن قيس الأرحبي حرّض الناس فقال: إنّ المسلم السليمَ مَن سَلِم دينُه ورأيُه، وإنّ هؤلاء القوم والله إن يقاتلوننا على إقامة دين رأونا ضيّعناه، وإحياءِ حقٍّ

---

(١) سورة التوبة: ١٣، ١٤.

(٢) سورة الأحزاب: ١٦.

رأونا أمَّتْناه ، وإن يقاتلوننا إلاَّ على هذه الدنيا ليكونوا جبابرةً فيها ملوكاً، فلو ظهروا عليكم ـ لا أراهم الله ظهوراً ولا سروراً ـ لزموكم بمثل سعيد والوليد وعبدالله بن عامر السفيه الضالّ، يخبر أحدهم في مجلسه بمثل ديَته وديَة أبيه وجَدّه، يقول: هذا لي ولا إثمَ عليّ ، كأنما أعطى تراثه عن أبيه وأمه ، وإنما هو مال الله عزّ وجلّ ، أفاءه علينا بأسيافنا وأرماحنا ، فقاتِلوا عباد الله القومَ الظالمين ، الحاكمين بغير ما أنزل الله، ولا يأخذكم في جهادهم لومُ لائم، فإنهم إن يظهروا عليكم يُفسِدوا عليكم دينَكم ودنياكم؛ وهم مَن قد عرفتم وخبرْتم؛ وايمُ الله ما ازدادوا إلى يومهم هذا إلَّا شرًّا.

وقاتلهم عبدالله بن بُدَيل في الميمنة قتالاً شديداً حتى انتهى إلى قبَّة معاوية. ثم إنّ الذين تبايعوا على الموت أقبلوا إلى معاوية، فأمرهم أن يصمُدوا لابن بديل في الميمنة، وبعث إلى حبيب بن مسلمة في الميسرة، فحمل بهم وبمن كان معه على ميمنة الناس فهزمهم ، وانكشف أهلُ العراق من قِبَل الميمنة حتى لم يبقَ منهم إلاّ ابن بُديل في مائتين أو ثلثمائة من القرّاء، قد أسند بعضهم ظهره إلى بعض، وانجفل الناس، فأمر عليٌّ سهلَ بن حُنيف فاستقدم فيمن كان معه من أهل المدينة ، فاستقبلتْهم جموعٌ لأهل الشأم عظيمة ، فاحتملتهم حتى ألحقتْهم بالميمنة ، وكان في الميمنة إلى موقف عليٍّ في القلب أهل اليمن، فلما كَشِفوا انتهت الهزيمة إلى عليّ، فانصرف يتمشّى نحو الميسرة، فانكشفت عنه مُضَر من الميسرة، وثبتت ربيعة.

قال أبو مِخْنف: حدّثني مالك بن أعيَن الجُهَنيّ، عن زيد بن وهب الجُهَني، قال: مرّ عليّ معه بنوه نحو الميسَرة، [ومعه ربيعة وحدها]، وإنّي لأرى النَّبل يمرّ بين عاتقه ومنكبه، وما من بنيه أحد إلاّ يقيه بنفسه ، [فيكره عليٌّ ذلك] ، فيتقدم [عليه] ، فيحول بين أهل الشأم وبينه ، فيأخذه بيده إذا فعل ذلك فيلْقيه بين يديه أو من ورائه ، فبصُر به أحمر ـ مولى أبي سفيان ، أو عثمان ، أو بعض بني أميّة ـ فقال [عليّ] : وربِّ الكعبة ؛ قتلني الله إن لم أقتلك أو تقتلني ! فأقبل نحوه ، فخرج إليه كَيْسانُ مولى عليّ ، فاختلفا ضربتين ، فقتله مولى بني أمية ، وينتهزه عليٌّ ، فيقع بيده في جيب درعه ، فيجبِذه ، ثم حمله على عاتقه ؛ فكأنّي أنظر إلى رُجَيْلَتَيْهِ ، تختلفان على عنق علي ، ثم ضرب به الأرض فكسر منكبه وعَضُديه ،وشدّ ابنا علي عليه: حسين ومحمد، فضرباه بأسيافهما، [حتى بَرَد] ، فكأني أنظر إلى علي قائماً وإلى شِبليْه يضربان الرجلَ، حتى إذا قتلاه وأقبلا إلى أبيهما ، والحسن قائماً قال له : يا بنيّ ، ما منعك أن تفعل كما فعل أخواك؟ قال: كَفَيَاني يا أميرَ المؤمنين . ثمّ إن أهل الشأم دنَوا منه ووالله ما يزيده قربهم منه سرعةً في مشيه ، فقال له الحسن : ما ضرّك لو سعيتَ حتى تنتهي إلى هؤلاء الذين قد صبروا لعدوّك من أصحابك؟ فقال: يا بنيّ ، إن لأبيك يوماً لن يَعدُوَه ولا يبطِّىءُ به عند السعي ، ولا يعجّل به إليه المشي ، إنّ أباك والله ما يبالي أوَقَع على الموت ، أو وَقَع الموتُ عليه .

قال أبو مخنف : حدّثني فُضَيل بن خَدِيج الكِنْديّ ، عن مولًى للأشتر ، قال : لما انهزمتْ ميمنة العراق وأقبل عليٌّ نحو الميسرة ، مرّ به الأشتر يركض نحو الفَزع قبل الميمنة ، فقال له علي: يا مالك ، قال : لبّيك ، قال: ائت هؤلاء القومَ فقل لهم: أين فراركم من الموت الذي لن تُعجزوه ، إلى الحياة التي لن تبقى لكم! فمضى فاستقبل الناسَ منهزمين ، فقال لهم هذه الكلمات التي قالها له

عليٌّ . وقال : إليَّ أيّها النـاس ، أنا مـالك بن الحـارث ، أنا مـالك بن الحـارث ، ثم ظنّ أنه بـالأشتر أعرف في الناس، فقال: أنا الأشتر، إليّ أيُّها الناس. فأقبلت إليه طائفة ، وذهبت عنه طائفة ، فنادى : أيُّها الناس ، عضِضتم بهَنِ آبائكم ! ما أقبح ما قاتلتم منذ اليوم ! أيّها النـاس ، أخلِصوا إليّ مـذحِجاً ، فأقبلت إليه مذحِج ، فقال : عضِضتم بصمّ الجندل ! ما أرضَيتُم ربّكم ، ولا نصحتُم له في عـدوّكم ، وكيف بذلكَ وأنتم أبناء الحروب ، وأصحـاب الغارات ، وفِتيـان الصباح ، وفـرسان الـطِّراد ، وحتوف الأقران ، ومذحِج الطّعان ؛ الذين لم يكونوا يُسبَقون بثأرهم ، ولا تُطلّ دماؤهم، ولا يُعرفون في مـوطن بخسفٍ، وأنتم حَدُّ أهل مصركم ، وأعدّ حيٍّ في قومكم ، وما تفعلوا في هـذا اليوم ، فـإنه مـأثور بعـد اليوم؛ فاتقوا مأثور الأحاديث في غـد ، واصدقـوا عدوَّكم اللقـاء فإن الله مـع الصادقين . والـذي نفسُ مالك بيَده ما من هؤلاء ـ وأشار بيَده إلى أهـل الشام ـ رجـلٌ على مثال جنـاح بعوضـة من محمد ﷺ . أنتم ما أحسنتم القِراع ، اجْلُوا سواد وجهي يرجعْ في وجْهي دمي . عليكم بهذا السواد الأعظم ، فـإنّ الله عزّ وجلّ لو قد فضّه تبعه مَن بجانبيه كما يتبع مؤخّر السيل مقدّمه .

قـالوا : خـذ بنا حيث أحببت . وصمـد نحو عُـظْمهم فيما يلي الميمنـة ، فأخـذ يزحف إليهم ، ويردّهم ، ويستقبله شبابٌ من هَمْدان ـ وكانوا ثمانمائة مقاتل يومئذٍ ـ وقد انهزموا آخرَ الناس ، وكانوا قد صبروا في الميمنة حتى أصيب منهم ثمانون ومائة رجل ، وقتل منهم أحد عشر رئيساً ، كلّما قُتـل منهم رجل أخذ الراية آخرُ ، فكان الأوّل كُريب بن شُرَيح ، ثم شُرحبيل بن شريـح ، ثم مرثَـد بن شُريـح ، ثم هُبيرة بن شريح ، ثم يريم بن شُرَيح ، ثم سُمَير بن شريح ، فقتِل هؤلاء الإخـوة الستّة جميعـاً . ثم أخذ الراية سُفيان بن زيد ، ثم عبد بن زيد ، ثم كُرَيب بن زيد ، فقتل هؤلاء الإخـوة الثلاثـة جميعاً ، ثم أخـذ الرايـة عميرة بن بشيـر ، ثم الحارث بن بشيـر ، فقتِلا ، ثم أخـذ الرايـة وهب بن كُرَيب أخـو القَلوص ، فأراد أن يستقبل ، فقـال له رجـل من قومـه : انصرف بهـذه الرايـة ـ رحمك الله ـ فقـد قُتِل أشرافُ قومك حولَها ، فلا تقتل نفسك ولا من بقيَ من قومك ؛ فانصرفوا وهم يقولون : ليت لنا عِـدّتَنا من العـرب يحالفـوننا على المـوت ، ثم نستقدم نحن وهم فـلا ننصرف حتى نقتَـل أو نظفـر . فمـرُّوا بالأشتر وهم يقولون هذا القول ، فقال لهم الأشتر : إليَّ أنا أحالفكم وأعاقدكم على ألّا نرجع أبداً حتى نَظفَر أو نَهلِك . فأتوه فوقفوا معه ، ففي هذا القول قال كعب بن جُعَيل التغلَبيّ :

وَهَمدانُ زُرْقٌ تبتّغي مَن تُحالِفُ

وزحف الأشتر نحو الميمنة ، وثاب إليه ناس تراجعوا من أهل الصبر والحيـاء والوفـاء ، فأخـذ لا يصمُد لكتيبة إلّا كَشفهـا ، ولا لجمع إلّا حـازه وردّه ؛ فإنـه لكذلـك إذ مرّ بـزياد بن النَّضْـر يحمَل إلى العسكر ، فقال : مَن هذا ؟ فقيل : زياد بن النَّضر ، استُلحم عبدالله بن بديـل وأصحابـه في الميمنة ، فتقدّم زياد فرفع لأهل الميمنة رايته ، فصبروا ، وقاتل حتى صُرع ، ثم لم يمكثوا إلّا كَلَا شيء حتى مُرّ بيزيد بن قيس الأرحبيّ محمولاً نحو العسكر ، فقال الأشتـر : مَن هذا؟ فقـالوا : يـزيد بن قيس ، لمـا صُرِع زياد بن النّضـر رفع لأهـل الميمنة رايتَـه ، فقاتـل حتى صُرِع ، فقـال الأشتر : هـذا واللّهِ الصبرُ الجميـل ، والفعل الكـريم ، ألا يستخي الرّجـلُ أن ينصـرف لا يقتُـل ولا يُقتَـل ، أو يُشفى بـه عـلى القتل!

قال أبو مخنف : حدّثني أبو جَناب الكلبيّ ، عن الحرّ بن الصيّاح النّخَعيّ ؛ أن الأشتر يومئذٍ كان يقاتل على فرس له في يده صفيحة يمانية ، إذا طأطأها خِلْت فيها ماء منصبًّا ، وإذا رفعها كاد يُغْشِي البصرَ شعاعُها ، وجعل يضرب بسيفه ويقول :

الغَمَرَاتِ ثمَّ يَنجَلِينا

قال : فبصُر به الحارث بن جُمهان الجُعفيّ والأشتر متقنّع في الحديد ، فلم يعرفه ، فدنا منه فقال له : جزاك الله خيراً منذ اليوم عن أمير المؤمنين ، وجماعةِ المسلمين ! فعرفه الأشتر ، فقال : يا ابن جمهان ، مثلُك يتخلّف عن مثل موطني هذا الّذي أنا فيه ! فنظر إليه ابن جُمهان فعرفه ، فكان أعظم الرجال وأطوَله ـ وكان في لحيته خِفّةٌ قليلة ـ فقال : جُعلت فداك ! لا والله ما علمت بمكانك إلاّ الساعة ، ولا أفارقك حتى أموت . قال : ورآه منقذٌ وحِميْر ابنا قيس الناعِطيّان ، فقال منقذ لحميَر : ما في العرب مثل هذا ، إن كان ما أرى من قتاله على نيّته ، فقال له حمير: وهل النيّة إلاّ ما تراه يصنع ! قال: إني أخاف أن يكون يحاول مُلْكاً.

قال أبو مخنف : حدّثني فُضيل بن خَدِيج ، عن مولًى للأشتر ، أنه لما اجتمع إليه عُظْم من كان انهزم عن الميمنة حرّضهم ، ثم قال : عَضّوا على النَّواجذ من الأضراس ، واستقبِلوا القوم بهامِكم ، وشُدّوا شِدّةَ قوم موتورين ثأراً بآبائهم وإخوانهم ، حِناقاً على عدوِّهم ، قد وطّنوا على الموت أنفسَهم كيلا يُسبَقُوا بوَتر ، ولا يلحقوا في الدنيا عاراً ، وايمُ الله ما وُتِر قوم قطّ بشيء أشدّ عليهم من أن يوتَروا دينَهم ، وإنّ هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلاّ عن دينكم ليُميتوا السنّة ، ويُحيُوا البدعة ، ويعيدوكم في ضلالة قد أخرجكم الله عزّ وجلّ منها بحسن البصيرة . فطِيبوا عبادَ الله أنفساً بدمائكم دون دينكم ، فإن ثوابكم على الله ، والله عنده جنّات النعيم . وإنّ الفِرار من الزّحف فيه السلب للعزّ ، والغلبة على الفيء، وذلّ المحيَا والممات ، وعارُ الدنيا والآخرة .

وَحَمَلَ عليهم حتى كشفهم ، فألحقهم بصفوف معاويةَ بين صلاة العصر والمغرب، وانتهى إلى عبدالله بن بُديل وهو في عُصْبة من القرّاء بين المائتين والثلاثمائة ، وقد لصِقوا بالأرض كأنّهم جُثاً فكشف عنهم أهلَ الشأم ، فأبصروا إخوانَهم قد دنَوا منم ، فقالوا : ما فعل أميرُ المؤمنين؟ قالوا: حيٌّ صالح في الميسرة، يقاتل الناس أمامه ، فقالوا : الحمد لله ، قد كنا ظننا أن قد هلك وهلكتم. وقال عبدالله بن بُدَيل لأصحابه : استقدموا بنا ؛ فأرسل الأشتر إليه : ألاّ تفعل ، أثبتْ مع الناس فقاتِل ، فإنّه خيرٌ لهم وأبقَى لك ولأصحابك . فأبى ، فمضى كما هو نحو معاوية ، وحوله كأمثال الجبال ، وفي يده سَيْفان ، وقد خرج فهو أمامَ أصحابه ، فأخذ كلّما دنا منه رجلٌ ضربه فقتله ، حتى قتل سبعة ، ودنا من معاوية فنهض إليه الناس من كل جانب ، وأحيط به وبطائفة من أصحابه ، فقاتَلَ حتى قُتِل ، وقُتِل ناس من أصحابه ، ورجعتْ طائفة قد جرحوا منهزمين ، فبعث الأشتر بن جَمُهان الجعفيّ فحمل على أهل الشأم الذين يُتبعون مَن نجا من أصحاب ابن بُديل حتى نفّسوا عنهم ، وانتهَوْا إلى الأشتر ، فقال لهم : ألم يكن رأيي لكم خيراً من رأيكم لأنفسكم ! ألم آمرْكم أن تثبتُوا مع الناس ! وكان معاوية قال لابن بُديل وهو يضرب قُدُما : أترَونه كبش القوم! فلما قُتِل أرسل إليه، فقال: انظروا مَنْ هو؟ فنظر إليه

ناس من أهل الشأم فقالوا: لا نعرفه، فأقبل إليه حتى وقف عليه، فقال: بلى، هـذا عبدالله بن بُـدَيل، والله لو استطاعت نساءُ خُزاعة أن تقاتِلَنا فضلاً على رجالها لفعلتْ، مُدّوه، فمَدُّوه، فقـال: هذا واللّهِ كما قال الشاعر:

أخو الحَرْب إنْ عَضَّتْ بـه الحرب عَضَّهـا وإن شَمَّـرَتْ يـومـاً بـه الحـربُ شَمَّرَا

والبيت لحاتم طيّيء. وإن الأشتر زحف إليهم فاستقبله معاويـة بعك والأشعَـرِين، فقال الأشتر لمذحِج: اكفونا عَكّا، ووقف في هَمْدان وقال لِكنْدة: اكفونا الأشعرين، فاقتتلوا قتالاً شديـداً، وأخذ يخرج إلى قومه فيقول: إنما هم عَكّ، فاحمِلوا عليهم، فيجثُون على الرُّكب ويرتجزون:

يـا وَيـلَ أمِّ مَـذْحِـجٍ مـن عَـكِّ هـاتـيـكَ أمُّ مَـذْحِـجٍ تُـبَـكِّـي

فقاتلوهم حتى المساء. ثم إنه قاتلهم في هَمْدَانَ وناس من طوائف الناس، فحمل عليهم فأزالهم عن مواقفهم حتى ألحَقَهم بالصفوف الخمسة المعقَّلة بالعمائم حول معاوية، ثم شَدّ عليهم شَدّة أخرى فصرع الصفوف الأربعة، ـ وكانوا معقَّلين بالعمائم ـ حتى انتهوا إلى الخامس الذي حول معاوية، ودعا معاوية بفرس فركب ـ وكان يقول: أردت أن أنهزم فذكرتُ قولَ ابنِ الإطنابة من الأنصار ـ كان جاهليًّا، والإطنابة امرأة من بَلْقَيْن:

أبـتْ لي عِـفّـتي وحَـيـاءُ نَـفْسي وإقـدامي عـلى البَـطَلِ المُشيحِ
وإعـطائي على المَكْـروهِ مـالي وأخـذي الحَمْـدَ بـالثَّمَنِ الـرَّبيـح
وَقَـوْلي كُلَّمـا جَشَـأت وجـاشَتْ مَكـانَـكِ تُحْمَـدي أو تَستَـريحي

فمنعني هذا القولُ من الفرار.

قال أبو مِخْنف: حدّثني مالك بن أعين الجُهنيّ، عن زيد بن وهبْ، أنّ عليًّا لما رأى ميمنته قد عادت إلى مواقعِها ومصافّها وكشفت مَن بإزائها من عدوّها حتى ضاربوهم في مواقفِهم ومراكزهم، أقبل حتى انتهى إليهم فقال: إني قد رأيت جَولتكم وانحيازَكم عن صفوفكم، يحوزكم الطغاة الجفاة وأعراف أهل الشأم، وأنتم لَهامِيمُ العرب، والسَّنام الأعظم، وعُمّار الليل بتلاوة القرآن، وأهلُ دعوة الحق إذْ ضلّ الخاطئون؛ فلولا إقبالكم بعد إدباركم، وكرُّكم بعد انحيازكم، وجب عليكم ما وجب على المولِّي يومَ الزّحف دبرَه، وكنتم من الهالكين؛ ولكنْ هوّن وَجدي، وشفَى بعضَ أُحاحِ نفسي، أني رأيتكم بآخرَة حُزتموهم كما حازوكم، وأزلتموهم عن مصافّهم كما أزالوكم، تحسُّونهم بالسيوف، تركب أولاهم أخراهم كالإبل المطرَّدة الهيم؛ فالآن فاصبروا، نزلت عليكم السكينة، وثبَّتكم الله عز وجل باليقين، ليعلم المنهزم أنه مسخِط ربّه، وموبِق نفسه؛ إن في الفرار موجِدةَ الله عزّ وجلّ عليه، والذلّ اللازم، والعارَ الباقي، واعتصار الفيء من يده، وفساد العيش عليه. وإنّ الفارّ منه لا يزيد في عُمره، ولا يُرضِي ربّه، فموت المرء مُحِقًّا قبل إتيان هذه الخصال، خير من الرضا بالتأنيس لها، والإقرار عليها.

قال أبو مخنف: حدّثنا عبدالسلام بن عبدالله بن جابر الأحمسيّ، أن رايةَ بَجيلة بصِفِّين كانت في أحْمس بن الغوث بن أنْمار مع أبي شدّاد ـ وهو قيس بن مَكْشوحِ بن هلال بن الحارث بن عمرو بن جابر بن عليّ بن

أسلم بن أحْمَس بن الغوث ـ وقالت له بجيلة: خذ رايتنا؛ فقال: غيري خيرٌ لكم منّي، قالوا: ما نريد غيرَك، قال: والله لئن أعطَيتُمونيها لا أنتهي بكم دون صاحب التُّرْس المُذهَب قالوا: اصنَع ما شئتَ، فأخذها ثم زحف، حتى انتهى بهم إلى صاحب التُّرس المذهب ـ وكان في جماعة عظيمة من أصحاب معاوية، وذكروا أنّه عبدالرحمن بن خالد بن الوليد المخزوميّ ـ فاقتتل الناسُ هنالك قتالاً شديداً، فشدّ بسيفه نحو صاحب التُّرس، فتعرّض له روميّ، مولًى لمعاوية فيضرب قَدَم أبي شدّاد فيقطعها، ويضربه أبو شدّاد فيقتله، وأشرِعت إليه الأسنَّة فقتِل، وأخذ الرَّاية عبدالله بن قِلْع الأحمسيّ وهو يقول:

لا يُبْعِدِ اللّهُ أبا شَدَّادِ حَيْثُ أجاب دَعْوَةَ المنادِي
وشَدَّ بالسيف على الأعادي نِعْمَ الفَتى كان لَدَى الطِّرادِ
وفي طِعانِ الرَّجْلِ والجِلادِ

فقاتل حتى قُتِل؛ فأخذ الرَّاية أخوه عبدالرحمن بن قِلْع، فقاتل حتى قُتِل، ثم أخذها عَفيف بن إياس، فلم تزل في يده حتى تحاجَز الناس، وقتِل حازم بن أبي حازم الأحمسيّ ـ أخو قيس بن أبي حازم ـ يومئذ، وقتِل نُعيم بن صُهيب بن العُلَيّة البَجَليّ يومئذ، فأتى ابنُ عمّه وسميُّه نُعيم بن الحارث بن العُليّة معاويةَ ـ وكان معه ـ فقال: إن هذا القتيل ابن عمّي، فهبه لي أدفنه، فقال: لا تدفنه فليس لذلك أهلاً، والله ما قدرنا على دفن ابن عفَّان رضي الله عنه إلاَّ سرًّا. قال: والله لتأذننّ في دفنه أو لألحقنّ بهم ولأدَعنّك. قال معاوية: أترى أشياخ العرب قد أحالتهم أمورُهم، فأنت تسألني في دفن ابن عمك! ادفنه إن شئتَ أو دَعْ. فَدفَنه.

قال أبو مخنف: حدثني الحارث بن حَصِيرة الأزديّ، عن أشياخ من النَّمِر من الأزد، أن مِخْنَف بن سُليم لما نُدبت الأزْد للأزْد، حمِد الله وأثنى عليه ثم قال: إنّ من الخطإ الجليل، والبلاءِ العظيم، أنّا صُرفنا إلى قومنا وصُرفوا إلينا، والله ما هي إلاّ أيدينا نقطّعها بأيدينا، وما هي إلاّ أجنحتنا نجدّها بأسيافنا، فإن نحن لم نؤاس جماعتَنا، ولم نناصحْ صاحبنا كفرْنا، وإن نحن فعلْنا فعزَّنا أبحْنا، ونارنا أخْمَدْنا؛ فقال له جُندَب بن زهير: والله لو كنّا آباءهم وولدناهم ـ أو كنّا أبناءهم ووَلَدونا ـ ثم خرجوا من جماعتنا، وطعنوا على إمامنا، وإذاً هم الحاكمون بالجوْر على أهل ملّتنا وذمّتنا، ما افترقنا بعد أن اجتمعنا حتى يرجعوا عمّا هم عليه، ويدخلوا فيما ندعوهم إليه، أو تكثر القتلى بيننا وبينهم.

فقال له مخنف ـ وكان ابن خالته: أعزّ الله بك النيّة؛ والله ما عُلمت صغيراً وكبيراً إلاّ مشؤوماً، والله ما ميَّلْنا الرأيَ قطّ أيَّهما نأتي أو أيّهما نَدَع ـ في الجاهلية ولا بعد أن أسلمنا ـ إلاّ اخترتَ أعسرهما وأنكدَهما، اللهمّ إن تُعافيَ أحبّ إلينا من أن تَبتَلِيَ، فأعطِ كلّ امرىء منّا ما يسألك.

وقال أبو بُريدة بن عوف: اللهمّ احكم بيننا بما هو أرضَى لك. يا قوم إنكم تبصرون ما يصنع الناس، وإنّ لنا الأسوة بما عليه الجماعة إن كنا على حقّ، وإن يكونوا صادقين فإنّ أُسْوةً في الشرّ ـ والله ما علمنا ـ ضَررٌ في المحيا والممات.

وتقدّم جندَب بن زهير، فبارز رأسَ أزْد الشأم، فقتله الشاميّ، وقُتل من رهطه عِجْل وسَعْد ابنا عبدالله من بني ثعلبة، وقُتِل مع مِخْنف من رهطه عبدالله وخالد ابنا ناجد، وعمرو وعامر ابنا عُوَيف، وعبدالله بن الحجاج وجُندَب بن زهير، وأبو زينب بن عوف بن الحارث، وخرج عبدالله بن أبي الحصين الأزديّ في القرّاء

الذين مع عمّار بن ياسر فأصيب معه .

قال أبو مخنف: وحدّثني الحارث بن حَصِيرة ، عن أشياخ النَّمِر ، أنّ عقبة بن حديد النمريّ قال يوم صِفّين : ألا إنّ مرعَى الدنيا [قد] أصبح هشيماً ، وأصبح شجرُها خضِيداً ، وجديدها سَمَلاً ، وحلوها مرَّ المذاق . ألا وإنّي أنبئكم نبأ امرىء صادق: إني قد سئمتُ الدنيا وعزفتُ نفسي عنها ، وقد كنت أتمنّى الشهادة ، وأتعرّض لها في كلّ جيش وغارة؛ فأبى الله عزّ وجلّ إلاّ أن يبلّغني هذا اليوم. ألا وإني متعرّض لها من ساعتي هذه، قد طمعت ألا أحرمها، فما تنتظرون عبادَ الله بجهاد مَنْ عادى الله؟ خوفاً من الموت القادم عليكم، الذاهب بأنفسكم لا محالة، أو من ضربة كفٍّ بالسيف! تستبدلون الدنيا بالنظر في وجه الله عزّ وجلّ وموافقة النبيّين والصّدّيقين والشهداء والصالحين في دار القرار! ما هذا بالرأي السديد . ثم مضى فقال : يا إخوتي، قد بعتُ هذه الدار بالتي أمامها، وهذا وجهي إليها لا يبرح وجوهَكم ، ولا يقطع الله عزّ وجلّ رجاءكم . فتبعه إخوته : عبيدالله وعوف ومالك، وقالوا: لا نطلب رزقَ الدنيا بعدَك، فقبّح الله العيشَ بعدك! اللهمّ إنا نحتسب أنفسَنا عندك! فاستقدموا فقاتَلوا حتى قُتِلوا .

قال أبو مخنف: حدّثني صلة بن زهير النهديّ، عن مسلم بن عبدالله الضّبابيّ، قال: شهدت صِفّين مع الحيّ ومعنا شَمر بن ذي الجوشن الضبابيّ ، فبارزه أدهم بن محرز الباهليّ ، فضرب أدهم وجه شَمِر بالسيف ، وضربه شَمِر ضربةً لم تضْره ، فرجع شَمِر إلى رَحْله فشرب شربةً ـ وكان قد ظمىء ـ ثم أخذ الرمح ، فأقبل وهو يقول :

إنّي زَعِيمٌ لأخي باهِلَهْ ... بطَعْنَةٍ إنْ لم أُصِبْ عاجِلَهْ
أو ضَرْبَةٍ تَحْتَ القَنا والوَغَى ... شَبِيهَةٍ بالقَتْلِ أو قاتِلَهْ

ثم حمل على أدهم فصرعه ، ثم قال : هذهِ بتلك .

قال أبو مخنف : حدّثني عمرو بن عمرو بن عوف بن مالك الجُشَميّ أن بشر بن عِصْمة المُزَنيّ كان لحق بمعاوية، فلما اقتتل الناس بصِفّين بَصُر بشر بن عِصْمة بمالك بن العَقَدِيّة ـ وهو مالك بن الجُلاح الجُشَميّ ، ولكنّ العَقَدِيّة غلبتْ عليه ـ فرآه بِشْر وهو يَفري في أهل الشأم فَرْياً عجيباً ، وكان رجلاً مسلماً شجاعاً، فغاظ بشراً ما رأى منه ، فحمل عليه فطعنه فصرعه ، ثم انصرف، فندم لطعنته إيّاه جبّاراً ، فقال :

وإني لأرْجو مِنْ مَليكي تَجاوُزاً ... ومنْ صاحِب الموسوم في الصَّدْر هاجسُ
دَلَفْتُ له تحْتَ الغُبارِ بطَعْنَةٍ ... على ساعَةٍ فيها الطِّعان تخالُسُ

فبلغتْ مقالتُه ابنَ العَقَدِيّة ، فقال :

الا أَبْلِغَا بِشْرَ بنَ عِصْمَةَ أنّني ... شُغِلْتُ وأَلْهاني الّذين أمارِسُ
فصادَفْتَ مِنّي غِرّةً وَأَصَبْتَها ... كذَلكَ والأبْطالُ ماضٍ وخالِسُ

ثم حمل عبدالله بن الطُّفَيْل البَكّائيّ على جمع لأهل الشأم ، فلمّا انصرف حمل عليه رجل من بني تميم ـ يقال له قيس بن قُرّة ، ممّن لحق بمعاوية من أهل العراق ـ فيضع الرُّمح بين كتفي عبدالله بن الطُّفيل، ويعترضه يزيد ابن معاوية ، ابن عم عبدالله بن الطُّفيل، فيضع الرمح بين كتفي التميميّ ، فقال: والله لئن طعنتَه لأطعننّك،

فقال: عليك عهد الله وميثاقُه لئن رفعتُ السنان على ظهر صاحبك لترفعنّ سنانَك عنّي! فقال له: نعم، لك بذلك عهدُ الله؛ فرفع السّنان عن ابن الطُّفيل، ورفع يزيد السنانَ عن التّميميّ، فقال: مّمن أنت؟ قال: من بني عامر؛ فقال له: جعلني الله فداكم! أينما أُلفكم أُلفِكم كراماً، وإني لحادي عَشَرَ رجلاً من أهل بيتي ورهطي قتلتموهم اليوم، وأنا كنت آخرَهم. فلما رجع الناس إلى الكوفة عتب على يزيد بن الطُّفَيل في بعض ما يعتب فيه الرجل على ابن عمّه، فقال له:

ألم تَـرَني حـامَيْتُ عنـك مُنـاصِحـاً ... بِـصِـفّـينَ إذْ خَـلاَّكَ كـلُّ حَمِـيـمِ
وَنَهْنَهْـتُ عـنـك الحـنـظَليَّ وقـدْ أَتىٰ ... عـلى سابـحٍ ذي مَيْعَـةٍ وَهَـزِيمِ!

قال أبو مخنف: حدّثني فُضَيل بن خَدِيج، قال: خرج رجل مِن أهل الشأم يدعو إلى المبارزة، فخرج إليه عبدالرحمن بن محرز الكنديّ، ثم الطَمَحِيّ، فتجاوَلا ساعة. ثم إن عبدالرحمن حمل على الشأميّ فطعنه في ثُغرة نحره فصرعه، ثم نزل إليه فسلبه درعه وسلاحَه، فإذا هو حبشيّ، فقال: إنّا لله! لِمَنْ أخطرت نفسي! لعبد أسود! وخرج رجل من علكّ يسأل المبارزة، فخرج إليه قيس بن فَهْدان الكِنانيّ، ثم البَدَنِيّ، فحمل عليه العكّيّ فضربه واحتمله أصحابُه فقال قيس بن فَهْدان:

لَـقَـدْ عَلِمَـتْ عَـكٌّ بِصِفّـينَ أننـا ... إذا التَقَتِ الخيـلان نَـطْعُنهـا شَـزْرَا
ونَحْمِـلُ رايـاتِ الـطِّعـانِ بِحَقِّهـا ... فَنُـورِدُهـا بيضـاً وَنُصْـدِرُهـا حُمْـرا

قال أبو مخنف: وحدّثني فُضَيل بن خَدِيج أن قيس بن فهدان كان يحرّض أصحابه فيقول: شدّوا إذا شددتم جميعاً، وإذا انصرفتم فأقبلوا معاً، وغُضّوا الأبصار، وأقلّوا اللفظ، واعتوِروا الأقران، ولا يؤتَيَنّ مِن قِبَلكم العرب. قال: وقتِل نُهيك بن عُـزَير - من بني الحـارث بن عديّ وعمـرو بن يزيـد من بني ذُهل، وسعيد بن عمرو - وخرج قيس بن يزيد وهو ممن فرّ إلى معاوية من عليّ، فدعا إلى المبارزة، فخرج إليه أخوه أبو العَمَرّطة بن يزيد، فتعارفا، فتواقفا وانصرفا إلى الناس، فأخبر كلّ واحد منهما أنه لقي أخاه.

قال أبو مِخْنف: حدّثني جعفر بن حذيفة من آل عامر بن جوَين الطائيّ، أن طيّئاً يوم صِفّين قاتلت قتالاً شديداً، فعبّيَت لهم جموع كثيرة، فجاءهم حمزة بن مالك الهمْداني، فقال: ممّن أنتم، لله أنتم! فقال عبدالله بن خليفة البَوْلانيّ - وكان شيعيًّا شاعراً خطيباً: نحن طيّء السهل، وطيّء الرمل، وطيّء الجَبل، الممنوع ذي النخل؛ نحن حُماة الجبلين، إلى ما بين العُـذَيب والعَيْن، نحن طيّـء الـرماح، وطيّء النِّطاح، وفُرسـان الصّباح. فقال حمزة بن مالك: بخٍ بخٍ! إنك لحسن الثناء على قومك؛ فقال:

إنْ كُنْتَ لم تَـشْعُـر بِـنَجـدَةِ مَعْشَرٍ ... فـأَقـدِمْ عَلَيْنـا وَيْبَ غَـيْـرِك تَشْعُـرِ

ثم اقتتل الناس أشدّ القتال، فأخذ يناديهم ويقول: يا معشر طيّىء، فِدًى لكم طارِفي وتالِدي! قاتِلوا على الأحساب، وأخذ يقول:

أنـا الـذي كنْت إذا الـدّاعـي دَعـا ... مُـصَمِّـماً بـالـسَّيْـفِ نَـدْبـاً أرْوَعـا
فـأُنْـزِل المُـسْتَـلْئِـمَ المُـقَـنّـعـا ... وأقـتـلُ المُـبـالِطَ الـسَّـمَـيْـدَعـا

وقال بشر بن العَسوس الطائيّ ثم المِلْقطيّ:

يَـا طـيِّءَ السُّهـولِ والأجبـالِ ... ألا انهَدُوا بـالـبِـيضِ والـعَـوالـي
وبـالـكُـمـاةِ مِـنْـكُـمُ الأبـطـالِ ... فـقـارِعـوا أئِـمَّـةَ الجُـهَّـالِ
السّالِكينَ سُبُلَ الضَّلالِ

ففُقِئتْ يومئذ عينُ ابن العَسوس ، فقال في ذلك :

ألا لَيْتَ عَيني هـذِهِ مِـثْـلُ هـذِهِ ... فـلَم أمشِ في الأنـاسِ إلاّ بقـائِـدِ
ويـا لَيْتَني لم أبْقَ بـعـد مُـطَرِّفٍ ... وسَعدٍ وبعـد المُسْتَنِيرِ بنِ خـالِـدِ
فـوارِسَ لم تَـغْـذُ الحَـواضِنُ مِثْلَهُمْ ... إذا الحَربُ أبدَتْ عن خدامِ الخَرائِدِ
ويـا ليت رِجـلي ثَمّ طُنَّتْ بِنِصْفِهـا ... ويـا ليت كفِّي ثَمَّ طـاحَتْ بِسـاعـدي

قال أبو مخنف : حدّثني أبو الصّلت التيميّ ، قال: حدّثني أشياخ محارب ، أنّه كان منهم رجل يقال له خنثر بن عبيدة بن خالد ، وكان من أشجع الناس ، فلما اقتتل الناس يومَ صِفِّين ، جعل يرى أصحابه منهزمين ، فأخذ ينادي : يا معشر قيْس ، أطاعةُ الشيطان آثرُ عندكم من طاعة الرحمن ! الفِرار فيه معصية الله سبحانه وسخطُه ، والصبر فيه طاعة الله عزّ وجلّ ورضوانُه ، فتختارون سخطَ الله على رضوانِه ، ومعصيتَه على طاعته ! فإنما الراحة بعد الموت لمن مات محاسباً لنفسه . وقال :

لا وَأَلَتْ نَفْسُ امْرِىءٍ وَلَّى الـدُّبُـرْ ... أنـا الَّـذِي لا يَـنـثـني ولا يَـفِـرّ
ولا يُـرَى مـع المعـازيـلِ الغُـدُرْ

فقاتَل حتى ارتُثّ . ثم إنه خرج مع الخمسمائة الذين كانوا اعتزلوا مع فَرْوة بن نَوْفل الأشجعيّ ، فنزلوا بالدَّسكرة والبَنْدنيجَيْن ، فقاتلت النَّخَع يومئذ قتالاً شديداً ، فأصيب منهم يومئذ بكْر بن هوْذة وحيّان بن هَوذة وشُعيب بن نُعيم من بني بكْر النَّخع ، وربيعة بن مالك بن وَهْبيل ، وأبيّ بن قَيْس أخو علقمة بن قيس الفقيه ، وقُطِعت رِجل علقمة يومئذ ، فكان يقول : ما أحِبّ أنّ رجلي أصحّ ما كانت ، وإنها لمما أرجو به حسنَ الثواب من ربي عزّ وجلّ . وقال : لقد كنت أحبّ أن أرى في نومي أخي أو بعض إخواني ، فرأيتُ أخي في النوم فقلت : يا أخي ، ماذا قَدمتم عليه؟! فقال لي: إنا التقينا نحن والقوم ، فاحتججنا عند الله عزّ وجلّ ، فحججناهم ، فما سُررت منذ عقلتُ سروري بتلك الرؤيا .

قال أبو مِخْنف: حدّثني سُوَيد بن حيّة الأسديّ ، عن الحُضَين بن المنذر ، أنّ أناساً كانوا أتوْا عليًّا قبل الوَقْعة فقالوا له: إنا لا نرى خالد بن المعمَّر إلاّ قد كاتب معاوية ، وقد خشينا أن يتابعَه . فبعَث إليه عليّ وإلى رجال من أشرافنا ، فحمِد الله وأثنى عليه . ثم قال: أما بعدُ يا معشر ربيعة ، فأنتم أنصاري ومجيبو دَعْوَتي ومِن أوثقِ حيٍّ في العرب في نفسي ، وقد بَلَغني أنّ معاوية قد كاتب صاحبَكم خالد بن المعمَّر ، وقد أتيتُ به ، وجمعتُكم لأشهِدَكم عليه ولتسمعوا أيضاً ما أقوله . ثمّ أقبل عليه ، فقال: يا خالد بن المعمر ، إن كان ما بلغني حقًّا فإني أُشهِد الله ومَن حَضرَني من المسلمين أنّك آمِنٌ حتى تلحق بأرض العراق أو الحجاز أو أرضٍ لا سلطان لمعاوية فيها ، وإن كنتَ مكذوباً عليك ، فإنّ صدورنا تطمئنّ إليك . فحلف بالله ما فعل ، وقال رجال منّا كثير: لو كنا نعلم أنه فعل أمثلناه ، فقال شقيق بن ثوْر السَّدوسيّ : ما وُفّق خالد بن المعمَّر أنْ نصرَ معاوية وأهل

قال أبو جعفر: وقد ذكر أن عماراً لما قتِل قال عليّ لربيعة وهمْدان : أنتم دِرعي ورُمحي ، فانتدب له نحو من اثني عشر ألفاً ، وتقدّمهم عليٌّ على بغلته فحمل وحملوا معه حملةَ رجل واحد، فلم يبق لأهل الشأم صفّ إلّا انتقض، وقتلوا كلَّ من انتهوا إليه ، حتى بلغوا معاوية ، وعليٌّ يقول :

أَضْـــرِبُهُــمْ ولا أرى مــعــاويَــهْ الجـاحِظَ العَيْنِ العظيمَ الحـاوِيَـهْ

ثم نادى معاوية ، فقال عليٌّ: علامَ يُقتَّل الناس بيننا! هلمّ أحاكمك إلى الله ، فأيّنا قتل صاحبَه استقامت له الأمور، فقال له عمرو: أنصَفك الرجل، فقال معاوية: ما أَنْصَفَ، وإنك لتعلم أنه لم يبارزْه رجل قطّ إلا قتله ، قال له عمرو: وما يجمُل بك إلّا مبارزته ، فقال معاوية: طمعت فيها بعدي .

قال هشام، عن أبي مخنف: قال: حدّثني عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي عَمْرة ، عن سليمان الحضرميّ ، قال: قلت لأبي عَمرة : ألا تراهم ، ما أحسن هيئتَهم ! يعني أهلَ الشأم ، ولا ترانا ما أقبح رعيّتنا! فقال: عليك نفسَك فأصلِحها، ودَع الناسَ فإنّ فيهم ما فيهم .

خبر هاشم بن عُتْبة المرقال وذكر ليلة الهَرير

قال أبو مخنف: وحدّثني أبو سلمة ؛ أنَّ هاشم بن عتبة الزُّهريّ دعا الناسَ عند المساء: ألا مَن كان يريدُ الله والدار الآخرة فإليّ ، فأقبل إليه ناسٌ كثير ، فشدّ في عصابة من أصحابه على أهل الشأم مراراً ، فليس من وجه يحمل عليه إلّا صَبَر له وقاتَلَ فيه قتالاً شديداً ، فقال لأصحابه: لا يهولنّكم ما تروْنَ من صبرهم ، فوالله ما تروْن فيهم إلّا حميَّة العرب وصَبْراً تحت راياتها ، وعند مراكزها، وإنهم لعلى الضّلال، وإنكم لعلى الحقّ . يا قوم اصبروا وصابِروا واجتمعوا ، وامشوا بنا إلى عدّونا على تؤدة رويداً ، ثم اثبتوا وتناصَروا ، واذكروا الله، ولا يَسأل رجلٌ أخاه ، ولا تُكثروا الالتفات ، واصمدوا صمدَهم ، وجاهدوهم محتسبين ، حتى يحكمَ الله بيننا وبينهم وهو خيرُ الحاكمين .

ثم إنه مضى في عصابة معه من القرّاء، فقاتل قتالاً شديداً هو وأصحابُه عند المساء حتى رأوْا بعض ما يُسرُّون به ، قال: فإنهم لكذلك إذ خرج عليهم فتًى شابّ وهو يقول :

أنــا ابــنُ أربــابِ المـلوكِ غَـسّـانْ والــدَّائنُ الـيــومَ بــدِيـن عـثـمـان
إنّي أتــانـي خــبــرٌ فــأشــجــانْ أنَّ عــليًّــا قَــتَــلَ ابــنَ عــفَّــانْ

ثم يشدّ فلا ينثني حتى يضرب بسيفه ، ثم يشتم ويلعن ويُكثر الكلام ، فقال له هاشم بن عتبة: يا عبدَالله، إن هذا الكلام، بعده الخِصام، وإنّ هذا القتال، بعده الحساب، فاتّق الله فإنك راجع إلى الله فسائلك عن هذا الموقف وما أردتَ به . قال: فإني أقاتلكم لأنّ صاحبكم لا يصلِّي كما ذكر لي، وأنتم لا تصلّون أيضاً، وأقاتلكم لأنّ صاحبكم قتل خليفتنا، وأنتم أردتموه على قتله. فقال له هاشم: وما أنت وابن عفان! إنما قتله أصحابُ محمد وأبناء أصحابه وقرّاء الناس، حين أحدث الأحداث، وخالف حكم الكتاب؛ وهم أهل الدّين، وأوْلى بالنّظر في أمور الناس منك ومن أصحابك، وما أظنّ أمر هذه الأمة وأمرَ هذا الدين أهمِل طرفة عين. فقال له: أجَلْ ، والله لا أكذب ، فإنّ الكذب يضرّ ولا ينفع . قال: فإنّ أهل هذا الأمر أعلم به ؛ فخلّه وأهل العلم به. قال: ما أظنك والله إلّا نصحت لي؛ قال: وأمَّا قولك : إنّ صاحبنا لا يصلِّي، فهو أوّل من

صلَّى، مع رسول الله وأفقَه خلق الله في دين الله، وأولى بالرسول. وأما كلّ مَنْ ترى معي فكلهم قارىء لكتاب الله لا ينام الليل تهجُّداً، فلا يغوينّك عن دينك هؤلاء الأشقياء المغرورون. فقال الفتى: يا عبدَالله، إنّي أظنك امرأً صالحاً؛ فتخبرَني: هل تجد لي من توبة؟ فقال: نعم يا عبدالله؛ تُبْ إلى الله يتب عليك، فإنه يقبل التوبةَ عن عباده ويعْفو عن السيئات ويحبّ المتطهرين. قال: فجشر والله الفتى الناس راجعاً، فقال له رجل من أهل الشأم: خدعَك العراقيّ، خدعك العراقيّ، قال: لا، ولكن نصحَ لي. وقاتل هاشمٌ قتالاً شديداً هو وأصحابه، وكان هاشم يُدعَى المِرْقال، لأنه كان يُرْقِل في الحرب، فقاتل هو وأصحابه حتى أبرّوا على من يليهم، وحتى رأوا الظفر، وأقبلتْ إليهم عِند المغرب كتيبةٌ لتَنوخ فشدّوا على الناس، فقاتلهم وهو يقول:

أعور يبغِي أهلَهُ محلَّا ... قد عالج الحياةَ حتَّى مَلَّا
يَتُلُّهم بذي الكُعوبِ تَلَّا

فزعموا أنه قتل يومئذ تسعةً أو عشرة. وحمل عليه الحارث بن المنذر التَّنوخيّ فطعنه فسقط، وأرسل إليه عليٌّ: أن قدّم لواءك، فقال لرسوله: انظر إلى بطني، فإذا هو قد شُقّ، فقال الأنصاريّ الحجّاج بن غزيّة:

فإن تَفْخروا بابن البُدَيل وهاشِمٍ ... فنحن قَتَلْنا ذا الكَلاعِ وَحَوْشَبا
ونحن تَرَكْنا بَعدَ مُعتَرَكِ اللِّقا ... أخاكم عبيدَ الله لَحْماً مُلَحَّبا
ونحن أحَطْنا بالبعيرِ وأهلِه ... ونحن سقيناكمْ سِماماً مُقَشَّبا

هشام، عن أبي مخنف، قال: حدّثني مالك بن أعينَ الجُهنيّ، عن زيد ابن وهب الجهنيّ، أنّ عليًّا مرّ على جماعة من أهل الشأم فيها الوليد بن عقبة، وهم يشتمونه، فخبِّر بذلك، فوقف فيمن يليهم من أصحابه فقال: انهدّوا إليهم، عليكم السكينة والوقار، وقار الإسلام، وسيما الصالحين، فوالله لأقربُ قوم من الجهل قائدهم ومؤذنهم معاوية وابن النابغة، وأبو الأعور السلميّ وابن أبي مُعيط شارب الخمر المجلود حدًّا في الإسلام، وهم أوْلى من يقومون فينقصونني ويجدبونني، وقبل اليوم ما قاتَلوني، وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام، وهم يَدْعُونني إلى عبادة الأصنام، الحمدُ لله، قديماً عاداني الفاسقون فعيدهم الله ألم يُقْبَحوا! إنّ هذا لهو الخَطب الجليل؛ إن فسّاقاً كانوا غير مرضيّين، وعلى الإسلام وأهله متخوِّفين، خدعوا شطر هذه الأمّة، وأشرَبوا قلوبهم حبّ الفتنة، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان، قد نصبوا لنا الحرب في إطفاء نور الله عزّ وجلّ، اللهمّ فافضض خدَمتهم، وشتّت كلمتهم، وأبسلهم بخطاياهم فإنه لا يذلّ من والَيت، ولا يعزّ من عاديت.

قال أبو مخنف: حدّثني نمير بن وَعْلة، عن الشعبيّ، أنّ عليًّا مرّ بأهل راية فرآهم لا يزولون عن موقفهم، فحرّض عليهم الناس، وذُكر أنهم غسّان، فقال: إنّ هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعن دَرَّاك يخرج منهم النَّسم، وضرب يفلِق منه الهام، ويُطيح بالعِظام، وتسقط منه المعاصم والأكفّ، وحتى تُصدع جباههم بعُمُد الحديد، وتنتشر حواجبهم على الصدور والأذقان. أين أهل الصبر، وطلّاب الأجر! فثاب إليه عصابة من المسلمين، فدعا ابنه محمداً؛ فقال: امش نحوَ أهل هذه الراية مشياً رُويداً على هِينتك، حتى إذا أشرعتْ في صدورهم الرماح، فأمسك حتى يأتيَك رأيي. ففعل، وأعدّ عليٌّ مثلهم، فلمّا دنا منهم فأشرع بالرماح في صدورهم أمر على الذين أعدّ فشدّوا عليهم، وأنهض محمداً بمن معه في وجوههم، فزالوا عن مواقفهم، وأصابوا منهم رجالاً، ثم اقتتل الناس بعد المغرب قتالاً شديداً، فما صلّى أكثر الناس إلّا إيماء.

الشأم على عليّ وربيعة؛ فقال زياد بن خَصفة التّيميّ : يا أمير المؤمنين ، استوثِق من ابن المعمَّر بالإيمان لا يغدرنّك . فاستوثق منه ، ثم انصرفنا . فلما كان يوم الخميس انهزم الناس من قِبَل الميمنة ، فجاءنا عليّ حتى انتهى إلينا ومعه بنوه ، فنادى بصوت عالٍ جهير ، كغير المكترِث لما فيه الناس: لمن هذه الرايات؟ قلنا: رايات ربيعة ، فقال: بل هي رايات الله عزّ وجلّ ، عصم الله أهلها ، فصبّرهم ، وثبّت أقدامهم . ثم قال لي: يا فتى ، ألا تُدْنِي رايتَك هذه ذراعاً؟ قلت: نعم والله وعشَرَةَ أذرُع ؛ فقمت بها فأدنيتُها، حتى قال: إنّ حسبَك مكانك ، فثبتُّ حيث أمرني، واجتمع أصحابي .

قال أبو مخنف : حدّثنا أبو الصّلت التيميّ ، قال: سمعتُ أشياخَ الحيّ من تيم الله بن ثعلبة يقولون: إنّ راية ربيعة؛ أهل كوفتها وبصرتها، كانت مع خالد بن المعمّر من أهل البصرة . قال: وسمعتُهم يقولون : إنّ خالد بن المعمّر وسُفيان بن ثور السَّدوسيّ اصطلحا على أن ولّيا راية بكر بن وائل من أهل البصرة الحُضينْ بن المنذر الذُّهليّ ، وتنافَسا في الرّاية ، وقالا : هذا فتىً منّا له حَسَب ، نجعلها له حتى نرى من رأينا .

ثم إنّ عليًّا ولّى خالد بن المعمّر بعدُ راية ربيعة كلّها. قال: وضرب معاوية لحمير بسهمهم على ثلاث قبائل، لم تكن لأهل العراق قبائل أكثر عدداً منها يومئذ: على ربيعة وهَمْدان ومذحِج ، فوقع سهم حِمْيَر على ربيعة ، فقال ذو الكَلاع : قبّحك الله من سهم ! كرهتَ الضِّراب ! فأقبل ذو الكَلاع في حميَر ومَن تعلّقها، ومعهم عبيدالله بن عمرَ بن الخطّاب في أربعة آلاف من قرّاء أهل الشأم، وعلى ميمنتهم ذو الكَلاع ، فحملوا على ربيعة، وهم ميسرة أهلِ العراق، وفيهم ابنُ عبّاس، وهو على الميسرة فحمل عليهم ذو الكَلاع وعبيدالله بن عمر حَمْلةً شديدة بخيلهم ورجلهم ، فتضعضعتْ رايات ربيعة إلّا قليلاً من الأخيار والأبدال . قال: ثمّ إن أهل الشأم انصرفوا ، فلم يمكثوا إلّا قليلاً حتى كرّوا ، وعبيد الله بن عمر يقول : يا أهل الشأم ، إنّ هذا الحيَّ من أهل العراق قتلة عثمان بن عفّان رضيَ الله عنه ، وأنصار عليّ بن أبي طالب، وإن هزمتم هذه القبيلة أدركتم ثأركم في عثمان وهلك عليّ بن أبي طالب وأهل العراق ، فشَدّوا على الناس شَدّة ، فثبتتْ لهم ربيعة، وصبروا صبراً حسناً إلا قليلاً من الضعفاء والفَشَلة، وثبت أهل الرايات وأهلُ الصَّبر منهم والحِفاظ، فلم يزولوا ، وقاتَلوا قتالاً شديداً. فلما رأى خالد بن المعمّر ناساً من قومه انصرفوا انصرف ، ولمّا رأى أصحاب الرايات قد ثبتوا ورأى قومه قد صبروا رجع وصاح بمن انهزم ، وأمرهم بالرّجوع ، فقال: مَنْ أراد من قومه أن يتّهمه ؛ أراد الانصراف. فلمّا رآنا قد ثبتنا رجع إلينا وقال هو: لما رأيت رجالاً منا انهزموا رأيتُ أن أستقبلهم وأردّهم إليكم ، وأقبلت إليكم فيمن أطاعني منهم ، فجاء بأمر مشبّه .

قال أبو مخنف: حدثني رجل من بكر بن وائل ، عن محرز بن عبدالرحمن العجْليّ ، أنّ خالداً قال يومئذ: يا معشرَ ربيعة ، إنّ الله عزّ وجلّ قد أتى بكلّ رجل منكم من منبِته ومسقِط رأسه ، فجمعكم في هذا المكان جمعاً لم يجمعكم مثله منذ نشرَكم في الأرض، فإنْ تمسِكوا بأيديكم، وتنكُلوا عن عدوّكم ، وتزولوا عن مصافّكم لا يرض الله فعلَكم، ولا تقدَموا من الناس صغيراً أو كبيراً إلّا يقول : فضحتْ ربيعة الذِّمار ، وحاصَت عن القتال ، وأتِيتْ من قِبَلها العرب، فإيّاكم أن يتشاءم بكم العرب والمسلمون اليوم. وإنكم إن تمضُوا مقبلين مقدِمين ، وتصيروا محتسبين فإنّ الإقدام لكم عادة ، والصبر منكم سجيّة ، واصبروا ونيّتكم [صادقة] أن تؤجَروا ، فإنّ ثواب مَن نَوَى ما عند الله شرفُ الدنيا وكرامةُ الآخرة ، ولن يُضِيع اللّهُ أجرَ من أحسن عملاً .

فقام رجل من ربيعة فقال: ضاع والله أمرُ ربيعة حين جعلتْ إليك أمورَها ! تأمرنا ألّا نزول ولا نحُول حتى تَقتل أنفسَنا ، وتَسفِك دماءنا ! ألا ترى الناس قد انصرف جُلُّهم ! فقام إليه رجال من قومه فنهروه وتناولوه بألسنتهم. فقال لهم خالد: أخرِجوا هذا من بينكم ، فإنّ هذا إن بقيَ فيكم ضرّكم ، وإن خرج منكم لم يَنْقُصكم ، هذا الذي لا ينقص العدَد ، ولا يَملأ البلد، برّحك الله من خطيب قوم كرام! كيف جُنِّبتَ السداد! واشتدّ قتال ربيعة وحمير وعُبيد الله بن عمر حتى كثرتْ بينهم القتلى، فقتِل سُمَير بن الرّيان بن الحارث العجليّ ، وكان من أشدّ الناس بأساً .

قال أبو مخنف : حدّثني جيفر بن أبي القاسم العبديّ ، عن يزيد بن علقمة ، عن زيد بن بدر العَبْديّ ، أن زياد بن خَصَفة أتى عبدَ القيس يومَ صِفّين وقد عُبّيتْ قبائلُ حميَر مع ذي الكَلاع ـ وفيهم عُبيد الله بن عمرَ بن الخطاب ـ لبكر بن وائل ، فقوتلوا قتالاً شديداً ، خافوا فيه الهلاك . فقال زياد بن خَصَفة : يا عبدَالقيس ، لا بَكْر بعد اليوم . فركبنا الخيولَ ، ثم مضينا فواقفناهم، فما لبثْنا إلّا قليلاً حتى أصيب ذو الكلاع ، وقُتل عبيدالله بن عمرَ رضيَ الله عنه ، فقالت همْدان : قتله هانىء بن خطّاب الأرحبيّ ؛ وقالت حَضْرَمَوْت : قتله مالك بنُ عمر والتّنْعيّ ، وقالت بكر بن وائل : قتله مُحرِز بن الصّحصح من بني عائش بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة ، وأخذ سيفه ذا الوشاح ، فأخذ به معاوية بالكُوفة بكرَ بن وائل ، فقالوا : إنما قتله رجل منا من أهل البصرة ، يقال له: محرز بن الصَّحْصَح ، فبعث إليه بالبصرة فأخذ منه السيف ، وكان رأسَ النِّمِر بن قاسط عبدُالله بن عَمرو من بني تيم الله بن النّمِر .

قال هشام بن محمد: الذي قتل عُبَيد الله بن عمرَ رضيَ الله عنه محرزُ بن الصّحصح ، وأخذ سيفه ذا الوشاح ، سيفَ عمر ، وفي ذلك قول كعب بن جُعيل التغلبيّ :

ألا إنّمـا تَـبْكِـي الـعُـيـونُ لِـفـارسٍ ... بِـصِفّـينَ أَجْـلَـتْ خَيْـلُهُ وَهْـوَ واقِـفُ
يُـبَـدِّلُ مِـنْ أَسْـماءَ أسيـافَ وائِـلٍ ... وكـان فـتًى لـو أَخْـطَأَتْـهُ المَتـالِفُ
تـركْنَ عُبَيْـدَ الله بـالقـاعِ مُسْنَـداً ... تَمُـجُّ دَمَ الخرْقِ العُـرُوقُ الـذَّوارِفُ

وهي أكثر من هذا . وقُتل منهم يومئذ بِشر بن مرّة بن شُرَحبيل ، والحارث بن شرحبيل، وكانت أسماء بنة عطارد بن حاجب التميميّ تحت عبيدالله بن عمر ، ثمّ خلَف عليها الحسن بن عليّ .

قال أبو مخنف : حدّثني ابن أخي غياث بن لَقيط البكريّ أن عليًا حيث انتهى إلى ربيعة، تبارتْ ربيعة بينها، فقالوا : إن أصيب عليّ فيكم وقد لجأ إلى رايتكم افتضحتم . وقال لهم شقيق بن ثور: يا معشر ربيعة، لا عذرَ لكم في العرب إن وُصِل إلى عليّ فيكم وفيكم رجلٌ حيّ ، وإن منعتموه فمجدُ الحياة اكتسبتموه . فقاتَلوا قتالاً شديداً حين جاءهم عليّ لم يكونوا قاتَلوا مثلَه ، ففي ذلك قال عليّ :

لِمَـنْ رَايَـةٌ سَـوْداءُ يَخْـفِـق ظِـلُّهـا ... إذا قيـل قَـدِّمها حُضَيْنُ تَقَـدَّما
يُقَـدِّمُها في المَـوْتِ حتى يُـزيـرهـا ... حِياضَ المَنايا تَقْطُرُ الموتَ والدَّما
أذَقْنـا ابنَ حَربٍ طَعنَنـا وضِـرَابَنـا ... بِـأَسيـافـنـا حتى تَـوَلَّى وأحجَـما
جَـزَى اللّهُ قَـوماً صابَـروا في لقـائهمْ ... لـدى الموتِ قَـوماً ما أعَفَّ وأكْـرَما!
وَأَطيَـبَ أَخْـبـاراً وأَكْـرَمَ شيـمَـةً ... إذا كـان أصواتُ الـرِّجال تَغَمغُـما

رَبِيعَةَ أعني أَنَّهُمْ أهلُ نَجْدَةٍ وَبَأْسٍ إذا لاقَوْا جَسِيماً عَرَمْرَما

مقتل عمَّار بن ياسر

قال أبو مخنف : حدّثني عبدالملك بن أبي حرّة الحنفيّ ، أنّ عمّار بن ياسر خرج إلى الناس، فقال : اللهمّ إنك تعلم أنّي لو أعلم أنّ رضاك في أن أقذفَ بنفسي في هذا البحر لفعلتُه، اللهمّ إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظُبَةَ سيفي في صدري ثم أنحني عليها حتى تَخرُج من ظهري لفعلتُ، وإنّي لا أعلم اليومَ عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم أنّ عملاً من الأعمال هو أرضَى لك منه لفعلته .

قال أبو مخنف: حدّثني الصّقْعب بن زُهير الأزديّ ، قال: سمعتُ عمّاراً يقول: واللّهِ إني لأرى قوماً ليضربُنّكم ضرباً يرتاب منه المبطِلون ، وايم الله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سَعَفات هَجَر لعلمنا أنّا على الحقّ، وأنهم على الباطل .

حدّثنا محمد بن عباد بن موسى، قال: حدّثنا محمد بن فُضَيل، قال: حدّثنا مسلم الأعور، عن حبّة بن جُوَين العُرَنيّ ، قال : انطلقتُ أنا وأبو مسعود إلى حُذَيفة بالمدائن ، فدخلنا عليه ، فقال : مرحباً بكما ، ما خلّفتما من قبائل العرب أحداً أحبّ إليّ منكما . فأسندته إلى أبي مسعود ، فقلنا : يا أبا عبدالله، حدّثنا فإنا نخاف الفِتَن؛ فقال: عليكما بالفئة التي فيها ابن سميّة، إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية الناكبة عن الطريق، وإنّ آخر رزقه ضَياح من لبن». قال حبّة: فشهدتهُ يومَ صِفِّين وهو يقول: ائتوني بآخر رزق لي من الدنيا ، فأُتي بضَياح من لبن في قدَح أَرْوح له حلقة حمراء ، فما أخطأ حُذَيفة مقياسَ شعرة ، فقال :

اليومَ ألقى الأحبَّهْ محمّداً وحزبَهْ

والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سَعَفات هَجَر لعلمنا أنا على الحقّ وأنهم على الباطل، وجعل يقول: الموت تحت الأسَل، والجنة تحت البارقة.

حدّثني محمد، عن خلف، قال: حدّثنا منصور بن أبي نويرة، عن أبي مِخْنف. وحُدِّثت عن هشام بن الكلبيّ ، عن أبي مخنف ، قال: حدّثني مالك بن أعينَ الجُهَنِيّ ، عن زيد بن وهب الجُهَنيّ ، أنّ عمّار بن ياسر رحمه الله قال يومئذ: أين مَن يبتغي رضوانَ الله عليه ، ولا يئوب إلى مال ولا ولد! فأتته عصابة من الناس، فقال: أيّها الناس، اقصدوا بنا نحوَ هؤلاء الذين يبغون دمَ ابن عفان ، ويزعمون أنه قتِل مظلوماً ، والله ما طلبتهُم بدمه ، ولكنّ القوم ذاقوا الدّنيا فاستحبُّوها واستمرؤوها وعلموا أن الحقّ إذا لزمهم حالَ بينهم وبين ما يتمرّغون فيه من دنياهم ، ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقّون بها طاعةَ الناس والولايةَ عليهم، فخدعوا أتباعَهم أن قالوا: إمامُنا قتِل مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرةً ملوكاً، وتلك مكيدة بلغوا بها ما تَرَوْن ، ولولا هي ما تبعهم من الناس رجلان . اللهمّ إنْ تنصرْنا فطالما نصرت ، وإن تجعل لهم الأمر فادّخر لهم بما أحدثوا في عبادك العذابَ الأليم. ثم مضى، ومضت تلك العصابة التي أجابته حتى دنا من عَمرو فقال: يا عَمرو ، بعتَ دينك بمصر ، تبًّا لك تبًّا! طالما بغيت في الإسلام عِوَجاً. وقال لعُبيد الله بنِ عمرَ بن الخطاب: صرعَك الله! بعتَ دينَك من عدوّ الإسلام وابن عدوّه ، قال: لا ، ولكن أطلب بدم عثمانَ بن عفّان رضيَ الله عنه ؛ قال له : أشهد على علمي فيك أنك لا تطلب بشيء من فعلك وجْهَ الله عزّ وجلّ ؛ وإنّك إن لم تُقتل اليوم تمتْ

غداً ، فانظر إذا أعطِيَ الناسُ على قدر نِيّاتهم ما نيّتك .

حدثني موسى بن عبدالرحمن المسروقيّ ، قال: أخبرنا عبيد بن الصبّاح ، عن عطاء بن مسلم ، عن الأعمش ، عن أبي عبدالرحمن السُّلَميّ ، قال: سمعت عمّاربن ياسر بصِفِّين وهو يقول لعَمرو بن العاص: لقد قاتلتُ صاحبَ هذه الراية ثلاثاً مع رسول الله ﷺ ، وهذه الرابعة ما هي بأبرّ ولا أتقى .

حدّثنا أحمد بن محمد، قال: حدّثنا الوليد بن صالح، قال: حدّثنا عطاء بن مسلم ، عن الأعمش ، قال: قال أبوعبدالرحمن السُّلميّ : كنا مع عليّ بصِفِّين ، فكنا قد وكّلْنا بفرسه رجلين يحفظانه ويمنعانه من أن يحمل، فكان إذا حانت منهما غفلةٌ يحمِل فلا يرجع حتى يخضِب سيفَه، وإنه حمل ذات يوم فلم يرجع حتى انثنى سيفُه ، فألقاه إليهم، وقال: لولا أنه انثنى ما رجعتُ ـ فقال الأعمش: هذا والله ضربُ غير مرتاب، فقال أبو عبدالرحمن : سمع القوم شيئاً فأدّوه وما كانوا بكذّابين ـ قال: ورأيت عماراً لا يأخذ وادياً من أودية صِفّين إلا تبعه مَن كان هناك من أصحاب محمد ﷺ ؛ ورأيته جاء إلى المِرْقال هاشم بن عتبة وهو صاحب راية عليّ ، فقال : يا هاشم ، أعَوراً وجبناً ! لا خير في أعوَر لا يغشى البأس، فإذا رجلٌ بين الصفّين قال: هذا والله ليخلُفَنّ إمامه، وليخذلَنّ جنده، وليَصْبِرَنّ جهده، اركب يا هاشم؛ فركب، ومضى هاشم يقول :

أعْـوَرُ يَـبْـغـي أهـلَهُ مَحَـلَّا ... قـد عَـالَـجَ الحيـاةَ حتى مَـلَّا
لا بدَّ أن يَفُـلَّ أو يُفَـلَّا

وعمّار يقول: تقدّم يا هاشم ، الجنّة تحت ظلال السيوف ، والموتُ في أطراف الأسَل، وقد فُتِحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين .

اليـوم ألقَى الأحبّـهْ ... محـمَّـداً وحـزبَـهْ

فلم يرجعا وقُتلا ـ قال: يفيد لك علمهما مَنْ كان هناك من أصحاب رسول الله ﷺ ، أنّهما كانا عَلَما ـ فلما كان الليل قلت: لأدخلنّ إليهم حتى أعلم: هل بلغ منهم قتل عمّار ما بلغ منّا! وكنا إذا توادعنا من القتال تحدّثوا إلينا وتحدّثنا إليهم ، فركبت فرسي وقد هدأت الرِّجل ، ثم دخلت فإذا أنا بأربعة يتسايرون : معاوية ، وأبو الأعور السُّلَميّ ، وعمرو بن العاص ، وعبدالله بن عمرو ـ وهو خير الأربعة ـ فأدخلت فرسي بينهم مخافة أن يفوتني ما يقول أحد الشّقّيْن ، فقال عبدالله لأبيه : يا أبت ، قتلتم هذا الرجلَ في يومكم هذا ، وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال! قال: وما قال؟ قال: ألم تكن معنا ونحن نبني المسجد، والناس يَنقلون حجراً حجراً ولَبِنة لَبِنة ، وعمّار ينقل حجريْن حَجريْن ولبِنتين لبِنتين ، فغُشي عليه ، فأتاه رسولُ الله ﷺ ، فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: «ويحك يا بن سُمَيّة! الناس ينقلون حجراً حجراً ، ولَبِنة لَبِنة ، وأنت تنقل حجرين حجرين ولَبِنتين لبنتين رغبةً منك في الأجر ! وأنت ويحك مع ذلك تقتلك الفئة الباغية!» . فدفع عمرو صدرَ فرسه ، ثم جذب معاوية إليه ، فقال: يا معاوية ، أما تسمع ما يقول عبدالله! قال: وما يقول؟ فأخبره الخبر، فقال معاوية: إنك شيخ أخرق، ولا تزال تحدّث بالحديث وأنت تدحَض في بَوْلك ! أونحن قتلنا عمّاراً! إنما قتل عمّاراً مَن جاء به . فخرج الناس من فَساطيطهم وأخبيتهم يقولون: إنما قتل عمّاراً من جاء به ، فلا أدري مَن كان أعجب؟ هو أو هم!

قال أبو مخنف : حدّثني أبو بكر الكنديّ ، أن عبدالله بن كعب المراديّ قتل يومَ صِفِّينَ ، فمرّ به الأسوَدُ بن قيس المراديّ ، فقال : يا أسوَد ، قال : لبّيك! وعرفه وهو بآخر رَمَق ، فقال : عزّ والله عليّ مصرَعُك ، أما والله لو شهدتك لآسيتك ، ولدافعتُ عنك ، ولو عرفت الذي أشعرك لأحببتُ ألّا يتزايل حتى أقتله أو ألحق بك . ثم نزل إليه فقال : أما والله إن كان جارُك ليأمن بوائقَك ، وإن كنتَ لَمِن الذاكرين اللّهَ كثيراً ، أوصِني رحمك الله! فقال : أوصيك بتقوى الله عزّ وجلّ ، وأن تُناصحَ أميرَ المؤمنين ، وتقاتل معه المحِلّين حتى يظهر أو تلحق بالله . قال : وأبلغه عنّي السلام ، وقل له : قاتِل عن المعركة حتى تجعلَها خلْفَ ظهرك ، فإنه من أصبح غداً والمعركة خلف ظهره كان العاليَ ، ثمّ لم يلبث أن مات ، فأقبل الأسوَد إلى عليّ فأخبره ، فقال رحمه الله! جاهد فينا عدوّنا في الحياة ، ونصح لنا في الوفاة .

قال أبو مخنف : حدّثني محمد بن إسحاق مولى بني المطّلب ، أنّ عبدالرحمن بن حنبل الجُمحيّ ، هو الذي أشار على عليّ بهذا الرأي يوم صِفّين .

قال هشام : حدّثني عَوانة ، قال : جعل ابن حَنْبل يقول يومئذ :

إنْ تَـقتـلوني فـأنـا آبْـنُ حنبَـلْ أنـا الـذي قَـدْ قلتُ فيكم نـعْثـلْ

رجع الحديث إلى حديث أبي مِخْنف : قال أبو مخنف : فاقتتل الناس تلك الليلة كلّها حتى الصباح ؛ وهي ليلة الهَرير ، حتى تقصّفت الرّماح ونفد النَّبْل ، وصارَ الناس إلى السيوف ، وأخذ عليّ يسير فيها بين الميمنة والميسرة ، ويأمر كلَّ كتيبة من القرّاء أن تقدم على التي تليها ، فلم يزل يفعل ذلك بالناس ويقوم بهم حتى أصبح والمعركة كلّها خَلْف ظهره ، والأشتر في ميمنة الناس ، وابن عبّاس في الميسرة ، وعليّ في القلْب ، والناس يقتتلون من كلّ جانب ، وذلك يومَ الجمعة ، وأخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل فيها ، وكان قد تولّاها عشيَّة الخميس وليلة الجمعة إلى ارتفاع الضحى ، وأخذ يقول لأصحابه : ازحفوا قِيد هذا الرّمح ، وهو يزحف بهم نحو أهل الشام ، فإذا فعلوا قال : ازحفوا قادَ هذا القوس ، فإذا فعلوا سألهم مثل ذلك ، حتى ملّ أكثر الناس الإقدام ، فلمّا رأى ذلك الأشتر قال : أعيذكم بالله أن ترضعوا الغنم سائرَ اليوم ، ثم دعا بفرسه ، وترك رايتَه مع حيَّان بن هوذة النخعيّ ، وخرج يسير في الكتائب ويقول : من يشتري نفسَه من الله عزّ وجلّ ، ويقاتل مع الأشتر ، حتى يظهر أو يلحق بالله! فلا يزال رجل من الناس قد خرج إليه ، وحيّان بن هوذة .

قال أبو مخنف : عن أبي جناب الكلبيّ ، عن عُمارة بن ربيعة الجَرْميّ ، قال : مرّ بي واللّهِ الأشترُ فأقبلتُ معه ، واجتمع إليه ناسٌ كثير ، فأقبل حتى رجع إلى المكان الذي كان به الميمنة ، فقام بأصحابه ، فقال : شدّوا شَدّة ، - فِدًى لكم عمّي وخالي - تُرضُون بها الربّ ، وتُعِزّون بها الدّين ، إذا شَددتُ فشُدّوا ، ثم نزل فضرب وجهَ دابّته ، ثم قال لصاحب رايته قدّم بها ، ثم شَدّ على القوم ، وشَدّ معه أصحابُه ، فضرب أهل الشأم حتى انتهى بهم إلى عسكرهم ؛ ثم إنهم قاتلوه عند العسكر قتالاً شديداً ، فقتل صاحب رايته ، وأخَذ عليّ - لمّا رأى من الظفر من قِبَله - يَمُدّه بالرّجال .

حدّثني عبدالله بن أحمد ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني سليمان قال حدّثني عبدالله ، عن جويرية ، قال : قال عمرو بن العاص يومَ صفّين لوَرْدان : تدري ما مَثَلي وَمَثلك! مثل الأشقر إنْ تقدّم عُقِر ، وإن تأخَّر نُحِر ، لـئن تأخَّرتَ لأضربنّ عنقك ، ائتوني بقيد ، فوضعه في رجليه فقال : أما والله يا أبا عبدِالله لأورِدنّك

حياضَ الموت، ضع يدك على عاتقي، ثم جعل يتقدم وينظر إليه أحياناً، ويقول: لأورِدنّك حياضَ الموت.

رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف. فلما رأى عمرو بن العاص أنّ أمر أهل العراق قد اشتدّ، وخاف في ذلك الهلاك، قال لمعاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً، ولا يزيدهم إلاّ فُرقة؟ قال: نعم؛ قال: نرفع المصاحف ثم نقول: ما فيها حَكَمٌ بيننا وبينكم، فإن أبى بعضُهم أن يقبلها وجدت فيهم مَن يقول: بلى، ينبغي أن نقبل، فتكون فرقة تقع بينهم، وإن قالوا: بلى، نقبل ما فيها، رفعنا هذا القتال عنّا وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين. فرفعوا المصاحفَ بالرّماح وقالوا: هذا كتاب الله عزّ وجلّ بيننا وبينكم، مَن لثغور أهل الشام بعد أهل الشام! ومَن لثغور أهلِ العراق بعدَ أهل العراق! فلما رأى الناس المصاحفَ قد رفعتْ، قالوا: نجيب إلى كتاب الله عزّ وجلّ وننيب إليه.

ما روي من رفعهم المصاحف ودعائهم إلى الحكومة

قال أبو مخنف: حدّثني عبدالرحمن بن جُندَب الأزديّ، عن أبيه أنّ عليًّا قال: عبادَ الله، امضُوا على حقكم وصِدقكم قتالَ عدوّكم، فإنّ معاوية وعمرو بن العاص وابنَ أبي مُعيط وحبيب بن مَسلمة وابن أبي سرْح والضّحّاك بن قيس، ليسوا بأصحاب دِين ولا قرآن، أنا أعرَف بهم منكم، قد صحبتُهم أطفالاً، وصحبتهم رجالاً، فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال، ويْحكم! إنهم ما رفعوها، ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعةً ودَهْناً ومَكيدة، فقالوا له: ما يسعنا أن نُدْعَى إلى كتاب الله عزّ وجلّ فنأبى أن نَقبله؛ فقال لهم: فإنّي إنما قاتلتُهم ليدينوا بحكم هذا الكتاب، فإنّهم قد عصَوا الله عزّ وجلّ فيما أَمَرَهم ونسُوا عهدَه، ونبذُوا كتابه. فقال له مِسْعر بن فَدَكيّ التميميّ وزيد بن حصين الطائيّ ثم السِّنْبِسي، في عصابة معهما من القرّاء الذين صاروا خوارج بعد ذلك: يا عليّ، أجِب إلى كتاب الله عزّ وجلّ إذْ دعيتَ إليه، وإلاّ ندفعك برُمّتك إلى القوم، أو نفعل كما فعلنا بابن عفان؛ إنه علينا أن نعمل بما في كتاب الله عزّ وجلّ فقبلناه؛ والله لتفعلنّها أو لنفعلنّها بك. قال: فاحفظوا عني نهيي إياكم، واحفظوا مقالتَكم لي، أمّا أنا فإن تطيعوني تقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم! قالوا له: إمّا لا فابعث إلى الأشتر فليأتك.

قال أبو مخنف: حدّثني فضَيل بن خَديج الكنديّ، عن رجل من النَّخَع، أنه رأى إبراهيم بن الأشتر دخل على مصعب بن الزبير، قال: كنت عند عليّ حين أكرَهه الناس على الحكومة، وقالوا: ابعث إلى الأشتر فليأتك، قال: فأرسل عليّ إلى الأشتر يزيدَ بن هانىء السَّبيعيّ: أن ائتني؛ فأتاه فبلّغه، فقال: قل له ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تُزيلني فيها عن موقفي، إني قد رجوت أن يُفتَح لي، فلا تعجلني. فرجع يزيد بن هانىء إلى عليّ فأخبره، فما هو إلاّ أن انتهى إلينا، فارتفع الرَّهَج، وعلَت الأصوات من قِبَل الأشتر، فقال له القوم: والله ما نراك إلاّ أمرتَه أن يقاتل؛ قال: من أين ينبغي أن تَرَوا ذلك! رأيتموني ساررْته؟ أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية، وأنتم تسمعونني! قالوا: فابعث إليه فليأتك، وإلا والله اعتزلناك. قال له: ويْحك يا يزيد! قل له: أقبل إليّ فإنّ الفتنة قد وقعتْ، فأبلغه ذلك، فقال له: ألرفع المصاحف؟ قال: نعم؛ قال: أما والله لقد ظننت حين رُفعتْ أنّها ستوقع اختلافاً وفُرقة، إنها مشورة ابن العاهرة، ألا ترى ما صنع الله لنا! أينبغي أن أدعَ هؤلاء وأنصرفَ عنهم! وقال يزيد بن هانىء: فقلت له: أتحب أنك ظفرتَ ها هنا، وأنّ أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به يُفرج عنه أو يُسْلَم؟ قال: لا والله، سبحان الله! قال: فإنهم قد قالوا: لَتُرسلنّ إلى الأشتر

فليأتينّك أو لنقتلنّك كما قتلْنا ابن عفّان. فأقبل حتى انتهى إليهم فقال: يا أهلَ العراق، يا أهل الذّلّ والوَهَن، أحين علوتم القوم ظهراً، وظنّوا أنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها! وقد واللّهِ تركوا ما أمر الله عزّ وجلّ به فيها، وسنّةَ من أنزلتْ عليه ﷺ، فلا تجيبوهم، أمهلوني عَدْوَ الفرس، فإني قد طمعت في النصر؛ قالوا: إذاً ندخل معك في خطيئتك؛ قال: فحدِّثوني عنكم، وقد قُتل أماثِلُكم، وبقيَ أراذلكم، متى كنتم محقّين! أحين كنتم تقاتلون وخياركم يُقتلون! فأنتم الآن إذ أمسكتم عن القتال مبطلون، أم الآن أنتم محقّون، فقتْلاكم الذين لا تنكرون فضلَهم فكانوا خيراً منكم في النار إذاً! قالوا: دعنا منك يا أشتر، قاتَلْناهم في الله عزّ وجلّ، ونَدَع قتالهم لله سبحانه، إنا لسنا مُطِيعيك ولا صاحبَك، فاجتنِبْنا، فقال: خُدِعتم والله فانخَدعتم، ودُعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم. يا أصحابَ الجباه السود، كنا نظنّ صلواتِكم زَهادةً في الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله عزّ وجلّ، فلا أرى فِراركم إلاّ إلى الدنيا من الموت، ألا قبحاً يا أشباهَ النِّيب الجَلاّلة! وما أنتم برائين بعدَها عزًّا أبداً، فابعَدُوا كما بَعِدَ القوم الظالمون! فسبّوه، فسبّهم، فضربوا وجه دابّته بسياطهم، وأقبل يضرب بسوطه وجوهَ دوابّهم، وصاح بهم عليّ فكَفّوا؛ وقال للناس: قد قبِلنا أن نجعلَ القرآن بيننا وبينهم حَكَما، فجاء الأشعثُ بن قيس إلى عليّ فقال له: ما أرى الناسَ إلاّ قد رضُوا، وسرّهم أن يجيبوا القومَ إلى ما دَعْوهم إليه من حكم القرآن، فإن شئتَ أتيتُ معاوية فسألتُه ما يريد، فنظرتَ ما يسأل؛ قال: ائته إن شئتَ فسَلْه، فأتاه فقال: يا معاوية، لأيّ شيء رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله عزّ وجلّ به في كتابه، تبعثون منكم رجلاً ترضَوْن به، ونبعث منّا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أن يعمَلا بما في كتاب الله لا يعدُوانه، ثم نتبع ما اتّفقا عليه، فقال له الأشعث بنُ قيس: هذا الحقّ، فانصرف إلى عليّ فأخبرَه بالذي قال معاوية؛ فقال الناس: فإنا قد رضينا وقبِلنا، فقال أهل الشأم: فإنا قد اخترنا عمرو بن العاص؛ فقال الأشعث وأولئك الذين صاروا خوارجَ بعد: فإنا قد رضينا بأبي موسى الأشعريّ، قال عليّ: فإنكم قد عصيتموني في أول الأمر، فلا تعصُوني الآن، إني لا أرى أن أولِّيَ أبا موسى. فقال الأشعث وزيد بن حُصين الطائيّ ومسعر بن فدكيّ: لا نرضى إلاّ به، فإنه ما كان يحذّرنا منه وقعنا فيه؛ قال عليّ: فإنه ليس لي بثقة، قد فارقني، وخذّل الناسَ عني ثم هرب مني حتى آمنتُه بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس نولّيه ذلك، قالوا: ما نبالي أنت كنت أم ابن عباس! لا نريد إلاّ رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكما بأدنى منه إلى الآخر، فقال عليّ: فإنّي أجعل الأشتر.

قال أبو مخنف: حدّثني أبو جناب الكلبيّ، أن الأشعث قال: وهل سَعّر الأرضَ غيرُ الأشتر؟!.

قال أبو مخنف؛ عن عبدالرحمن بن جُندَب، عن أبيه: إنّ الأشعث قال: وهل نحن إلا في حكم الأشتر! قال عليّ: وما حُكمُه؟ قال: حكمه أن يَضرِب بعضُنا بعضاً بالسيوف حتى يكون ما أردتَ وما أراد؛ قال: فقد أبَيتم إلا أبا موسى! قالوا: نعم؛ قال: فاصنعوا ما أردتم؛ فبعثوا إليه وقد اعتزل القتال، وهو بعُرْض، فأتاه مولًى له؛ فقال: إنّ الناس قد اصطلحوا؛ فقال: الحمد لله ربّ العالمين! قال: قد جعلوك حَكَماً؟ قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! وجاء أبو موسى حتى دخل العسكر، وجاء الأشتر حتى أتى عليًّا فقال: ألِزّني بعمرو بن العاص، فوالله الذي لا إله إلاّ هو، لئن ملأتُ عيني منه لأقتلنّه؛ وجاء الأحنف فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنك قد رُميتَ بحجَر الأرض، وبِمَنْ حارب اللّهَ ورسوله أنْفَ الإسلام، وإنّي قد عجمتُ هذا الرجلَ وحلبتُ أشطُرَه فوجدتُه كَلِيلَ الشَّفرة، قريبَ القعر، وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلاّ رجل يدنو منهم حتى يصير في أكفّهم،

ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم ، فإن أبيتَ أن تجعلَني حَكَماً، فاجعلني ثانياً أو ثالثاً، فإنه لن يعقد عقدةً إلاَّ حللتُها، ولن يحلّ عقدة أعقدها إلا عقدت لك أخرى أحكَم منها. فأبى الناسُ إلا أبا موسى والرِّضا بالكتاب؛ فقال الأحنف: فإنْ أبيتم إلا أبا موسى فأدفئوا ظهرَه بالرجال. فكتبوا: بسم الله الرحمن الرّحيم ؛ هذا ما تَقاضَى عليه عليٌّ أميرُ المؤمنين . . . . فقال عمرو: اكتب اسمه واسم أبيه، هو أميرُكم فأما أميرُنا فلا، وقال له الأحنف: لا تمح اسم «إمارة المؤمنين»، فإني أتخوّف إنْ محوتَها ألّا ترجع إليك أبداً، لا تمحُها وإن قتل الناسُ بعضهم بعضاً؛ فأبى ذلك عليٌّ مليًّا من النهار، ثم إنّ الأشعث بنَ قيس قال: امحُ هذا الاسم برحَه الله! فمُحِيَ وقال: عليّ: الله أكبر، سنّة بسنّة، ومثَل بمثَل، والله إني لكاتب بين يديْ رسول الله ﷺ يومَ الحُدَيبية إذ قالوا: لستَ رسول الله، ولا نشهد لك به، ولكن اكتب اسمك واسمَ أبيك، فكتبه، فقال عمرو بن العاص: سبحان الله! ومَثَلُ هذا أن نشبّه بالكفّار ونحن مؤمنون! فقال عليّ: يا بن النابغة، ومتى لم تكن للفاسقين وليًّا، وللمسلمين عدوًّا! وهل تشبه إلا أمك التي وضعت بك! فقام فقال: لا يجمع بيني وبينَك مجلسٌ أبداً بعد هذا اليوم؛ فقال له عليّ: وإني لأرجُو أن يطهّر الله عزّ وجلّ مجلسي منك ومن أشباهِك. وكتب الكتاب.

حدثني علي بن مسلم الطوسي، قال: حدّثنا حَبّان، قال: حدّثنا مُبارك، عن الحسن، قال: أخبرني الأحنف، أنّ معاوية كتب إلى عليّ أن امحُ هذا الاسمَ إن أردتَ أن يكون صلح ؛ فاستشار ـ وكانت له قبّة يأذن لبني هاشم فيها، ويأذن لي معهم ـ قال: ما ترَوْن فيما كتب به معاوية أن امح هذا الاسم؟ ـ قال مبارك: يعني أميرَ المؤمنين ـ قال: برّحه الله! فإنّ رسول الله ﷺ حين وادع أهل مكة كتب: «محمّد رسول الله»، فأبوا ذلك حتى كتب: هذا ما قاضى عليه محمد بنُ عبدالله ؛ فقلت له: أيّها الرجل مالَك وما لرسول الله ﷺ ! إنا والله ما حابَيْناك ببيعتِنا، وإنا لو علمنا أحداً من الناس أحقّ بهذا الأمر منك لبايعناه، ثم قاتلناك، وإني أقسم بالله لئن محوتَ هذا الاسم الذي بايعتَ عليه وقاتلتهم لا يعود إليك أبداً.

قال: وكان واللّهِ كما قال. قال: قلّما وُزِن رأيه برأيِ رجل إلاّ رَجَحَ عليه.

رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف. وكتب الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سُفيان، قاضَى عليّ على أهل الكوفة ومَنْ معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضَى معاوية على أهل الشأم ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين، إنا ننزل عند حُكم الله عزّ وجلّ وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله عزّ وجلّ بيننا مِن فاتحتِه إلى خاتمته، نُحيي ما أحيا، ونُميت ما أمات، فما وجد الحَكَمان في كتاب الله عزّ وجلّ ـ وهما أبو موسى الأشعريّ عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي ـ عَمِلاَ به، وما لم يجِدَا في كتاب الله عزّ وجلّ فالسُّنّة العادلة الجامعة غير المفرّقة. وأخذ الحَكَمان من عليّ ومعاوية ومِن الجندين من العهود والميثاق والثقة من الناس، أنهما آمِنان على أنفسهما وأهلِهما، والأمّة لهما أنصار على الذي يتقاضَيَان عليه، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهدُ الله وميثاقُه أنّا على ما في هذه الصحيفة، وأن قد وجبتْ قضيّتهما على المؤمنين، فإنّ الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وشاهِدهم وغائبهم، وعلى عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص عهدُ الله وميثاقُه أن يحكُما بين هذه الأمة، ولا يَرُدّاها في حرب ولا فُرقة حتى يُعصيا، وأَجَلُ القضاء إلى رَمضان. وإن أحبّا أن يؤخّرا ذلك أخّراه على تراضٍ منهما، وإن تُوفِّي أحد الحَكَمين فإنّ أمير الشيعة يختار مكانه، ولا يألوا من أهل المَعدلة والقِسط، وإنّ مكان قضيّتهما الذي يقضيان فيه مكان

عدلٌ بين أهل الكوفة وأهل الشأم ؛ وإن رضيَا وأحبّا فلا يَحضرهما فيه إلا من أرادا ، ويأخذ الحَكَمان من أرادا من الشهود، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة ، وهم أنصارٌ على مَن ترك ما في هذه الصحيفة ، وأراد فيه إلحاداً وظُلماً . اللهم إنا نستنصرك على من تَرَك ما في هذه الصحيفة .

شَهِد من أصحاب عليّ الأشعثُ بنُ قيس الكنديّ ، وعبدُ الله بن عباس، وسعيد بن قيس الهمدانيّ ، وورقاء بن سُمَيّ البَجَليّ ، وعبدالله بن مُحِلّ العِجليّ ، وحُجْر بن عديّ الكِنديّ ، وعبدالله بن الطفيل العامريّ ، وعقبة بن زياد الحَضْرميّ ، ويزيد بن حجيَّة التيميّ ، ومالك بن كعب الهمدانيّ . ومن أصحاب معاوية أبو الأعور السلميّ عمرو بن سفيان ، وحبيب مسلمة الفِهريّ ، والمخارق بن الحارث الزُّبيديّ ، وزِمْل بن عمرو العذريّ ، وحمزة بن مالك الهَمْدانيّ ، وعبدالرحمن بن خالد المخزوميّ ، وسُبيع بن يزيد الأنصاريّ ، وعلقمة بن يزيد الأنصاريّ ، وعُتبة بن أبي سُفيان ، ويزيد بن الحرّ العبسيّ .

قال أبو مخنف : حدّثني أبو جناب الكلبيّ ، عن عُمارة بن ربيعة الجَرْميّ ، قال: لما كُتبت الصحيفة دُعِيَ لها الأشتر فقال : لا صحِبتْني يميني ، ولا نفعتْني بعدَها شمالي، إن خُطّ لي في هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادَعة. أوَلستُ على بيِّنة من ربّي ، ومن ضلال عدوّي! أوَلستم قد رأيتم الظَّفَر لو لم تُجمِعوا على الجَوْر! فقال له الأشعث بن قيس : إنك واللّهِ ما رأيت ظَفَرا ولا جَوْراً، هلمَّ إلينا فإنه لا رغبة بك عنّا ؛ فقال : بلى واللّهِ لرغبة بي عنك في الدّنيا للدّنيا والآخرة للآخرة ، ولقد سفَكَ الله عزّ وجلّ بسيفي هذا دماءَ رجال ما أنت عندي خيرٌ منهم ، ولا أحرَم دماً ؛ قال عُمارة : فنظرتُ إلى ذلك الرجل وكأنما قُصع على أنفه الحُمم ـ يعني الأشعث .

قال أبو مخنف، عن أبي جَناب ، قال : خرج الأشعث بذلك الكتاب يقرؤه على الناس ، ويَعرِضه عليهم ، فيقرؤونه، حتى مرّ به على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدَيّة ، وهو أخو أبي بلال ، فقرأه عليهم ، فقال عروة بن أدَيَّة: تحكّمون في أمر الله عزّ وجلّ الرجال! لا حكم إلاَّ لله ؛ ثم شدّ بسيفه فضرب به عجزُ دابته ضربةً خفيفة، واندفعت الدّابة، وصاح به أصحابه، أن أملك يَدك، فرجع، فغضب للأشعث قومُه وناس كثير من أهل اليمن، فمشى الأحنف بنُ قيس السعديّ ومعقِل بن قيس الرِّياحيّ ، ومِسْعر بن فَدَكِي ، وناس كثيرٌ من بني تميم ، فتنصّلوا إليه واعتذروا ؛ فقَبِل وصَفَح .

قال أبو مخنف : حدّثني أبو زيد عبدالله الأوديّ ، أن رجلاً من أوْد كان يقال له عمرو بن أوس ، قاتَلَ مع عليّ يومَ صِفّين ، فأسره معاوية في أسارَى كثيرين ، فقال له عمرو بن العاص : اقتلهم ، فقال له عمرو بن أوس: إنك خالي، فلا تقتلْني ، وقامت إليه بنو أوْد فقالوا: هب لنا أخانا؛ فقال: دعوه، لعمري لئن كان صادقاً فلنستغنينّ عن شفاعتكم، ولئن كان كاذباً لتأتينّ شفاعتكم من ورائه ، فقال له: من أين أنا خالك! فوالله ما كان بيننا وبين أوْدٍ مصاهَرة؛ قال: فإن أخبرتُك فعرفتَه فهو أماني عندَك؟ قال: نعم؛ قال: ألستَ تعلم أن أمّ حبيبة ابنة أبي سُفيان زوجُ النبيّ ﷺ ؟ قال: بلى، قال: فإنّي ابنُها ، وأنتَ أخوها ، فأنت خالي؛ فقال معاوية: لله أبوك! ما كان في هؤلاء واحد يفطُن لها غيره. ثم قال للأوْدِيّين : أيستغني عن شفاعتكم! خلُّوا سبيله .

قال أبو مخنف: حدّثني نُمَير بن وَعْلَة الهَمْدانيّ، عن الشعبيّ ، أن أسارى كان أسرهم عليٌّ يومَ صِفّين

كثير، فخلّى سبيلهم ، فأتوْا معاوية ، وإنّ عمراً ليقول ـ وقد أسر أيضاً أسارى كثيرة : اقتلهم ، فما شعروا إلا بأسَرائهم قد خُلِّيَ سبيلهم ، فقال معاوية : يا عمرو ، لو أطعناك في هؤلاء الأسرى وقعْنا في قبيح من الأمر؛ ألا ترى قد خُلِّي سبيل أسارانا! وأمر بتخلية سبيل من في يديه من الأسارى.

قال أبو مِخنف : حدّثني إسماعيل بن يزيد، عن حُميد بن مسلم ، عن جندب بن عبدالله ، أن عليًّا قال للناس يومَ صِفِّين : لقد فعلتم فَعلةً ضَعضعتْ قوّة ، وأسقطتْ مُنّة ، وأوهنت وأورثت وَهْناً وذلّة ، ولّما كنتم الأعْلَيْنْ ، وخاف عدوّكم الاجتياح ، واستحرّبهم القتل ووجدوا ألم الجراح ، رفعوا المصاحف ، ودَعوْكم إلى ما فيها ليفثَئوكم عنهم ، ويقطعوا الحرب فيما بينكم وبينهم، ويتربّصوا [بكم] ريبَ المنون خديعة ومكيدة، فأعطيتموهم ما سألوا ، وأبيتم إلا أن تُدْهِنوا وتجوّزوا! وايم اللّهِ ما أظنُكم بعدها توافقون رَشَداً ، ولا تصيبون بابَ حزم .

قال أبو جعفر: فكُتِب كتاب القضيّة بين علي ومعاوية ـ فيما قيل ـ يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين من الهجرة، على أن يوافي علي ومعاوية موضع الحكمين بدُومة الجندل في شهر رمضان ، مع كلّ واحد منهما أربعمائة من أصحابه وأتباعه .

فحدّثني عبدالله بن أحمد، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثني سليمان بن يونس بن يزيدَ، عن الزّهريّ، قال: قال صعصعة بن صُوحان يومَ صِفِّين حين رأى الناس يتبارون: ألا اسمعوا واعقلوا، تعلمُنّ واللّهِ لئن ظهر علي ليكوننّ مثل أبي بكر وعمرَ رضي الله عنهما ، وإن ظهر معاوية لا يُقِرّ لقائل بقول حقّ .

قال الزّهريّ: فأصبح أهل الشأم قد نشروا مصاحفَهم، ودَعَوا إلى ما فيها، فهاب أهل العراقين ، فعند ذلك حكّموا الحَكَمين ، فاختار أهلُ العراق أبا موسى الأشعريّ ، واختار أهلُ الشأم عمرَو بن العاص، فتفرّق أهلُ صِفِّين حين حُكِّمَ الحَكَمان ، فاشترطا أن يرفعا ما رفع القرآن ، ويخفِضا ما خفض القرآن ، وأن يختارا لأمة محمد ﷺ ، وأنّهما يجتمعان بدُومة الجندل، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرُح.

فلما انصرف علي خالفت الحَرورية وخرجت ـ وكان ذلك أول ما ظهرت ـ فآذنوه بالحرب، وردّوا عليه: إنّ حكم بني آدم في حكم الله عزّ وجلّ ، وقالوا: لا حكمَ إلا لله سبحانه ! وقاتلوا ، فلما اجتمع الحكمان بأذرُح ، وافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس، فأرسل الحَكَمان إلى عبدالله بن عمرَ بن الخطاب وعبدالله بن الزّبير في إقبالهم في رجال كثير، ووافى معاويةُ بأهل الشأم ، وأبى عليّ وأهل العراق أن يوافُوا؛ فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوِي الرأي من قريش: أترَوْن أحداً من الناس برأي يبتدعه يستطيع أن يعلم أيجتمع الحَكَمان أم يتفرّقان؟ قالوا: لا نرى أحداً يعلم ذلك، قال: فوالله إنّي لأظنّ أنّي سأعلمه منهما حين أخلُو بهما وأراجعهما. فدخل على عمرو بن العاص وبدأ به فقال: يا أبا عبدالله، أخبرني عمّا أسألك عنه ، كيف ترانا معشر المعتزلة ، فإنا قد شككْنا في الأمر الذي تبينّ لكم من هذا القتال، ورأيْنا أن نستأنيَ ونتثبّت حتى تجتمع الأمة! قال: أراكم معشرَ المعتزِلة خَلْفَ الأبرار، وأمامَ الفُجّار! فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، حتى دخل على أبي موسى فقال له مثلَ ما قال لعمرو ، فقال أبو موسى : أراكم أثبتَ الناس رأياً ، فيكم بقيّة المسلمين ، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك ، فلقي الذين قال لهم ما قال من ذوِي

الرّأي من قريش ، فقـال : لا يجتمع هـذان على أمـر واحد ، فلما اجتمـع الحَكَمان وتكلّما قـال عمرو بن العاص: يا أبا موسى، رأيت أوّل ما تقضى به من الحقّ أن تقضيَ لأهل الوفاء بوفائهم ، وعلى أهل الغدر بغَدرِهم ؛ قال أبو موسى: وما ذاك؟ قال: ألستَ تعلم أنّ معاوية وأهل الشأم قد وَفَوا، وقَـدِموا للمـوعد الذي واعدْناهم إيّاه؟ قال: بلى، قال عمرو: اكتُبها ؛ فكتَبها أبو موسى؛ قال عمرو: يا أبا موسى، أأنتَ على أن نسمِّيَ رجلاً يلي أمرَ هذه الأمة؟ فسمِّه لي، فإن أقدر على أن أتابعَك فلك عليّ أن أتـابعك ، وإلاّ فـلي عليك أن تتابعني! قال أبو موسى: أسمِّي لك عبدَالله بن عمر ، وكان ابن عمر فيمن اعتزل؛ قال عمرو : إني اسمِّي لك معاويةَ بن أبي سُفيان ، فلم يَبرحا مجلسهـما حتى استبّا ، ثم خـرجا إلى النـاس، فقال أبـو موسى: إنّي وجدت مَثَلَ عمرو مَثَل الّذين قال الله عزّ وجلّ ؛ ﴿ وَاتلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخ مِنْهَا ﴾[١] ، فلمّا سكت أبو موسى تكلم عمرو فقال: أيُّها الناس وجدت مَثَلَ أبي موسى كَمَثَلِ الذي قال عزّ وجلّ : ﴿ مَثَلُ الذِينَ حُمِّلوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلوها كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً﴾[٢] وكتب كلُّ واحد منهما مَثَلَه الذي ضرب لصاحبه إلى الأمصار .

قال ابن شهاب: فقام معاوية عشيَّةً في الناس، فأثنَى على الله جلّ ثناؤه بما هو أهله ، ثم قال: أما بعد ، فمن كان متكلّماً في الأمر فليطلِع لنا قَرْنَه ، قال ابن عمر : فأطلقتَ حُبْوَتي ، فأردت أن أقول قولاً يتكلَّم فيه رجالٌ قاتلوا أباك على الإسلام، ثم خشيت أن أقول كلمة تفرِّق الجماعة ، أو يُسفك فيها دم، أو أحمَل فيها على غير رأي، فكان ما وعد الله عزّ وجلّ في الجنان أحبَّ إليّ من ذلك. فلما انصرف إلى المنزل جاءني حبيب بن مَسْلمة فقال: ما منعك أن تتكلم حين سمعت الرجل يتكلّم؟ قلت: أردت ذلك، ثم خشيت أن أقول كلمةً تُفرِّق بين جميع، أو يُسفَك فيها دم ، أو أحمَل فيها على غير رأي ، فكان ما وعد الله عزّ وجلّ من الجنان أحبَّ إليّ من ذلك. قال: قال حبيب: فقد عُصِمْتَ .

رجع الحديث إلى حديث أبي مِخْنف : قال أبو مخنف : حدثني فُضيل بن خَديج الكنديّ ، قال: قيل لعلي بعد ما كُتبت الصحيفة: إن الأشتر لا يُقرّ بما في الصحيفة ، ولا يرى إلاّ قتال القوم ؛ قال علي : وأنا والله ما رضيتُ ولا أحببتُ أن ترضَوْا، فإذْ أبيتم إلا أن ترضَوا فقد رضيتُ، فإذْ رضيت فلا يصلح الرّجوع بعد الرّضا ، ولا التبديل بعد الإقرار، إلا أن يُعصَى الله عزّ وجلّ ويُتعدّى كتابهُ ، فقاتِلوا مَن تَرَكَ أمرَ الله عزّ وجلّ . وأمّا الذي ذكرتم من تركه أمري وما أنا عليه فليس من أولئك ، ولستُ أخافه على ذلك ، يا ليت فيكم مثله اثنين ! يا ليت فيكم مثله واحداً يرى في عدوّي ما أَرَى ، إذاً لخفّتْ عليّ مئونتكم ، ورجوتُ أن يستقيم لي بعض أَوَدكم ؛ وقد نهيتكم عما أتيتم فعصيتموني، وكنت أنا وأنتم كما قال أخو هَوازن :

وهـل أنـا إلاّ مِنْ غَـزِيَّـة إن غَـوَتْ غَـوَيتُ وإن تَـرْشُـدْ غـزيّـةُ أَرْشُـدِ

فقالت طائفة ممَّن معه : ونحن ما فعلْنا يا أمير المؤمنين إلاّ ما فعلت ؛ قال: نعم ، فلِمَ كانت إجابتكم إياهم إلى وضع الحرب عنّا! وأما القضيّة فقد استوثقنا لكم فيها ، وقد طمعت ألاّ تَضلُّوا إن شاء الله ربّ العالمين .

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٥ .

(٢) سورة الجمعة: ٥ .

فكان الكتاب في صَفَر والأجل رمضان إلى ثمانية أشهر ، إلى أن يلتقي الحَكَمان . ثم إنّ الناس دفنوا قتلاهم ، وأمر عليٌّ الأعورَ فنادى في الناس بالرّحيل .

قال أبو مِخْنف : حدّثني عبدالرحمن بن جندب ، عن أبيه ، قال : لما انصرفنا من صفّين أخذنا غير طريقنا الذي أقبلْنا فيه ؛ أخذنا على طريق البرّ على شاطىء الفرات ، حتى انتهينا إلى هِيتَ ، ثم أخذْنا على صَنْدوداء ، فخرج الأنصاريّون بنو سعد بن حرام ، فاستقبلوا عليًّا ، فعرضوا عليه النزول ، فبات فيهم ثم غدا ، وأقبلْنا معه ، حتى إذا جُزْنا النُّخَيلة ، ورأينا بيوت الكوفة ، إذا نحن بشيخ جالس في ظلّ بيت على وجهه أثر المرض ، فأقبل إليه عليّ ونحن معه حتى سلم عليه وسلمنا معه ، فردّ ردًّا حسناً ظننا أن قد عرفه ، قال له علي : أرى وجهك منكفتاً فمِنْ مَهْ؟ أمِن مرض؟ قال : نعم ؛ قال : فلعلّك كرهتَه ، قال : ما أحبّ أنه بغيري ، قال : أليس احتساباً للخير فيما أصابك منه؟ قال : بلى ، قال : فأبشر برحمةِ ربِّك وغفرانِ ذنبِك . مَن أنت يا عبدَ الله؟ قال : أنا صالح بن سُلَيم ، قال : ممَّن؟ قال : أمّا الأصل فمِن سَلاَمَان طيِّىء ، وأما الجِوار والدّعوة ففي بني سُليم بن منصور ؛ فقال : سبحان الله ! ما أحسَن اسمَك واسمَ أبيك واسمَ أدْعِيائك واسمَ من اعتزيتَ إليه ! هل شهدتَ معنا غَزاتنا هذه ؟ قال : لا ، والله ما شهدتُها ، ولقد أردتها ولكن ما ترى من أثر لحَبِ الحمَّى خزلتي عنها ؛ فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحوا لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[1]. خبِّرني ما تقول الناس فيما كان بيننا وبين أهل الشام؟ قال : فيهم المسرور فيما كان بينك وبينهم ـ وأولئك أغِشّاء الناس ـ وفيهم المكبوت الآسف بما كان من ذلك ـ وأولئك نُصحاء الناس لك ـ فذهب لينصرف فقال : قد صدقت ، جعل الله ما كان من شكواك حطًّا لسيّئاتك ، فإنّ المرض لا أجرَ فيه ، ولكنه لا يَدَع على العبد ذنباً إلا حطَّه ، وإنما أجرٌ في القول باللسان والعمل باليد والرِّجل ، وإنّ الله جلّ ثناؤه ليُدخل بصدق النيّة والسريرة الصالحة عالَماً جمًّا من عباده الجنة . قال : ثم مضى عليٌّ غير بعيد ، فلقيه عبدالله بن وَديعة الأنصاريّ ، فدنا منه ، وسلَّم عليه وسايره ، فقال له : ما سمعتَ الناس يقولون في أمرنا؟ قال : منهم المعجَب به ، ومنهم الكاره له ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّك ﴾[2]. فقال له : فما قول ذَوِي الرّأي فيه؟ قال : أما قولهم فيه فيقولون إنّ عليًّا كان له جمع عظيم ففرّقه ، وكان له حِصن حَصِين فهدّمه ، فحتى متى يبني ما هدم ، وحتى متى يجمع ما فرّق ! فلو أنه كان مضى بمن أطاعه ـ إذ عصاه من عصاه ـ فقاتل حتى يظفر أو يهلك إذاً كان ذلك الحزم . فقال عليٌّ : أنا هدمت أم هم هدموا ! أنا فرّقت أم هم فرّقوا! أما قولهم : إنه لو كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه فقاتل حتى يَظفرَ أو يهلك ، إذاً كان ذلك الحزم ، فوالله ما غَبِيَ عن رأيي ذلك ، وإن كنتُ لسخيًّا بنفسي عن الدنيا ، طيِّبَ النفس بالموت ، ولقد هممتُ بالإقدام على القوم ، فنظرت إلى هذين قد ابتدَرَاني ـ يعني الحسن والحسين ـ ونظرتُ إلى هذين قد استقدماني ـ يعني عبدَالله بنَ جعفر ومحمد بنَ علي ـ فعلمت أن هذين إنْ هلكا انقطع نسْلُ محمدﷺ من هذه الأمّة ، فكرهت ذلك ، وأشفقتُ على هذين أن يَهلِكا ، وقد علمتُ أن لولا مكاني لم يستقدما ـ يعني محمد بن علي وعبدَالله ابن جعفر ـ وايمُ الله لئن لقيتُهم بعد يومي هذا لألقينّهم وليسوا معي في عسكر ولا دار . ثم مضى حتى إذا

(١) سورة التوبة : ٩١.

(٢) سورة هود: ١١٨ ، ١١٩ .

جُزْنا بني عوف إذا نحن عن أيماننا بقبور سبعة أو ثمانية ، فقال عليٌّ : ما هذه القبور؟ فقال قُدامة بن العجلان الأزديّ : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ خبّاب بن الأرتّ توفِّي بعد مخرجك، فأوصَى بأن يُدفَن في الظَّهر ، وكان الناس إنما يُدفنون في دُورهم وأفنِيَتهم ، فدفن بالظُّهر رحمه الله ، ودفَن الناس إلى جنبه ، فقال عليٌّ : رحم الله خبّاباً، فقد أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتُلِيَ في جسمه أحوالا! وإنّ الله لا يُضيع أجرَ من أحسن عملاً . ثم جاء حتى وقف عليهم فقال : السّلام عليكم يا أهلَ الديّار الموحِشة ، والمحالّ المقفِرة ، من المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات . أنتم لنا سَلَف فارط ، ونحن لكم تَبَعٌ ، بكم عمّا قليل لاحقون . اللهمّ اغفر لنا ولهم ، وتجاوَز بعفوك عنّا وعنهم! وقال: الحمد لله الذي جعل منها خلقَكم، وفيها معادَكم ، منها يبعثكم ، وعليها يحشركم ، طوبَى لمن ذكر المَعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكَفاف ، ورضِي عن الله عزّ وجلّ ! ثم أقبل حتى حاذَى سكّة الثوريّين ، ثم قال: خُشّوا، ادخُلوا بين هذه الأبيات .

قال أبو مخنف : حدّثني عبدالله بن عاصم الفائشيّ ، قال: مرّ عليٌّ بالثوريِّين، فسمع البكاء، فقال: ما هذه الأصوات؟ فقيل له: هذا البكاء على قتلَى صِفّين، فقال: أما إنّي أشهد لمن قُتل منهم صابراً محتسِباً بالشهادة. ثم مرّ بالفائشيّين ، فسمع الأصوات ، فقال مِثلَ ذلك ، ثم مضى حتى مرّ بالشِّباميّين ، فسمعَ رجّة شديدة ، فوقف ، فخرج إليه حرب بن شُرحبيل الشِّباميّ ، فقال عليٌّ : أيغلبكم نساؤكم! ألا تنهونهنّ عن هذا الرَّنين ! فقال : يا أمير المؤمنين ، لو كانت داراً أو دارين أو ثلاثاً قدَرنا على ذلك ، ولكن قُتِل من هذا الحيّ ثمانون ومائة قتيل ، فليس دار إلاّ وفيها بكاء ، فأمّا نحن معشرَ الرجال فإنا لا نبكي ، ولكن نفرح لهم ، ألا نفرح لهم بالشهادة! قال عليٌّ : رحم الله قَتلاكم وموتاكم! وأقبل يمشي معه وعليٌّ راكب ، فقال له علي: ارجع ، ووقف ثم قال له: ارجع، فإن مَشْيَ مِثلِك مع مثلي فتنةٌ للوالي، ومذَلّة للمؤمن. ثم مضى حتى مرَّ بالناعطيّين ـ وكان جُلُّهم عثمانية ـ فسمع رجلاً منهم يقال له عبدالرحمن بن يزيد ، من بني عُبيد من الناعِطِيّين يقول: والله ما صنع علي شيئاً، ذهب ثم انصرف في غير شيء! فلما نظروا إلى علي أبلَسوا، فقال: وجوه قومٍ ما رأوا الشأمَ العامَ. ثم قال لأصحابه : قومٌ فارقْناهم آنفاً خير من هؤلاء ، ثم أنشأ يقول :

أخـوكَ الـذي إنْ أَجْـرَضَتْـكَ مُلِمَّـةٌ ... مِنَ الـدَّهْـرِ لم يَبْـرَحْ لِبَثِّـك واجِمَـا
وليس أخـوكَ بـالَّـذِي إنْ تَشَـعَّبَـتْ ... عليـكَ الأمـورُ ظَـلَّ يلحَـاكَ لائمـا

ثم مضى ، فلم يزل يذكر الله عزّ وجلّ حتى دخل القصر .

قال أبو مخنف : حدّثنا أبو جَناب الكلبيّ ، عن عُمارة بن ربيعة ، قال : خرجوا مع علي إلى صفّين وهم متوادُّون أحبّاء ، فرجعوا متباغضين أعداء ، ما برِحوا من عسكرهم بصِفّين حتى فشَا فيهم التحكيم ، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريقَ كله ويتشاتمون ويضطَرِبون بالسِّياط ، يقول الخوارج : يا أعداء الله، أدهنتم في أمر الله عزّ وجلّ وحكّمتم! وقال الآخرون: فارقتم إمامَنا. وفرّقتم جماعتَنا. فلمّا دخل علي الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوْا حَرُوراء، فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ، ونادى منادِيهم : إنّ أمير القتال شَبَث بن رِبعيّ التميميّ . وأمير الصلاة عبدالله بن الكوّاء اليَشْكُري ، والأمر شُورَى بعد الفتح ، والبيعة لله عزّ وجلّ ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

بعثة علي جعدَة بن هُبيرة إلى خراسان

وفي هذه السنة بعث عليٌّ جَعدة بن هبيرةَ فيما قيلَ إلى خُراسان .

ذكر الخبر عن ذلك :

ذكر عليٌّ بن محمد ، قال : أخبرنا عبد الله بن ميمون ، عن عمرو بن شُجَيرة ، عن جابر ، عن الشعبيّ ، قال : بعث عليٌّ بعدما رجع من صِفِّين جَعدة بنَ هُبَيرة المخزوميّ إلى خُراسان ، فانتهى إلى أَبْرَشَهْر ، وقد كفروا وامتنعوا، فقدم على عليّ . فبعث خُليد بن قُرّة اليربوعيّ ، فحاصر أهلَ نيسابور حتى صالحوه ، وصالحه أهلُ مَرْو ، وأصاب جاريتين من أبناء الملوك نزلتا بأمان ، فبعث بهما إلى عليّ ، فعرض عليهما الإسلام وأن يزوّجهما ، قالتا : زوِّجْنا ابنيك ، فأبى ، فقال له بعض الدّهَاقِين : ادفعهما إليّ ، فإنه كرامة تُكرِمُني بها ، فدفعهما إليه ، فكانتا عنده ، يفرش لهما الديباج ، ويُطعِمهما في آنية الذهب ، ثمّ رجعتَا إلى خُراسان .

اعتزال الخوارج عليًّا وأصحابه ورجوعهم بعد ذلك

وفي هذه السنة اعتزل الخوارج عليًّا وأصحابه، وحكّموا، ثم كلّمهم عليٌّ فرجعوا ودخلوا الكوفة .

ذكر الخبر عن اعتزالهم عليًّا :

قال أبو مخنف في حديثه عن أبي جَناب ، عن عُمارة بن ربيعة ، قال : ولما قدم عليٌّ الكوفة وفارقتْه الخوارج ، وثبتْ إليه الشيعة فقالوا : في أعناقنا بَيعة ثانية ، نحن أولياء من واليت ، وأعداء من عاديت ؛ فقالت الخوارج : استبقتم أنتم وأهل الشأم إلى الكُفْر كَفَرَسَيْ رِهان ، بايع أهل الشأم معاوية على ما أحبّوا وكرهوا ، وبايعتم أنتم عليًّا على أنكم أولياء من والى وأعداءُ من عادى؛ فقال لهم زياد بن النَّضْر : والله ما بسط عليٌّ يَدَه فبايعناه قطّ إلا على كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيِّه ﷺ ، ولكنكم لما خالفتموه جاءته شيعتُه ، فقالوا : نحن أولياء مَن والَيت ، وأعداءُ مَن عاديت ؛ ونحن كذلك ، وهو على الحقّ والهدى ، ومن خالفه ضالٌّ مُضِلّ . وبعث عليّ ابن عبَّاس إليهم ، فقال : لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك . فخرج إليهم حتى أتاهم ، فأقبلوا يكلّمونه ، فلم يصبر حتى راجعهم ، فقال : ما نقَمتم من الحَكَمين ، وقد قال الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾[1] ! فكيف بأمّة محمد ﷺ ! فقالت الخوارج : قلنا : أمَّا ما جعل حكمَه إلى الناس، وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به ، وما حَكَم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ؛ حَكَم في الزاني مائة جلدة ، وفي السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا في هذا . قال ابن عبَّاس : فإن الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾[2] ، فقالوا: أَوَتجعل الحُكم في الصَّيْد ، والحَدَث يكون بين المرأة وزوجها كالحُكم في دماء المسلمين! وقالت الخوارج: قلنا له: فهذه الآية بيننا وبينك ، أعَدْلٌ عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويَسفِك دماءنا! فإن كان عَدْلاً

(١) سورة النساء: ٣٥.

(٢) سورة المائدة: ٩٥.

فلسنا بعدُول ونحن أهلُ حربه. وقد حكّمتم في أمر الله الرّجال، وقد أمضى الله عزّ وجلّ حكمه في معاوية وحزبهِ أن يُقتَلوا أو يرجعوا، وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عزّ وجلّ فأبوْه ، ثم كتبتم بينكم وبينه كتاباً ، وجعلتم بينكم وبينه الموادَعة والاستفاضة ، وقد قطع عزّ وجلّ الاستفاضة والموادَعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلتْ براءة ، إلاّ من أقرّ بالجزية .

وبعث عليّ زياد بن النّضر إليهم فقال : انظر بأيّ رؤوسهم هم أشدّ إطافة ، فنظر فأخبره أنه لم يرهم عند رجل أكثر منهم عند يزيدَ بن قيس . فخرج عليّ في الناس حتى دخل إليهم ، فأتى فُسطاط يزيد بن قيس ، فدخله فتوضّأ فيه وصلى ركعتين ، وأمّره على إصبهان والرّيّ ، ثم خرج حتى انتهى إليهم وهم يخاصمون ابنَ عبّاس ، فقال : انتهِ عن كلامهم ، ألم أنْهَك رحمك الله! ثم تكلّم فحمِد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه ثم قال: اللهمّ إنّ هذا مقامٌ مَنْ أفلجَ فيه كان أَولَى بالفُلْج يوم القيامة ، ومن نطق فيه وأوعث فهُوَ في الآخرة أعمَى وأضلّ سبيلاً . ثم قال لهم : مَن زعيمُكم؟ قالوا : ابن الكوّاء . قال عليٌّ : فما أخرجكم علينا؟ قالوا : حكومَتُكم يومَ صِفّين . قال : أنشُدُكم بالله ، أتعلمون أنهم حيث رفعُوا المصاحف فقلتم : نجيبهم إلى كتاب الله قلت لكم : إني أعلم بالقوم مِنكم؛ إنهم ليسوا بأصحاب دِين ولا قرآن، إني صحبتهم وعَرفتهم أطفالاً ورجالاً ، فكانوا شرَّ أطفال وشرَّ رجال. امضُوا على حقّكم وصِدقكم، فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعةً ودَهْناً ومَكيدة. فرددتم عليَّ رأيي ، وقلتم: لا، بل نقبل منهم. فقلت لكم: اذكروا قولي لكم، ومعصيتَكم إيّاي، فلما أبيتم إلا الكتاب اشترطتُ على الحَكَمين أن يُحييا ما أحيا القرآن، وأن يُميتا ما أماتَ القرآن، فإن حَكَما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حُكماً يحكَم بما في القرآن، وإن أبيَا فنحن مِن حكمهما برآء. قالوا له : فخبِّرنا أتراه عدلاً تحكيم الرّجال في الدماء؟ فقال: إنا لسنا حكّمنا الرجال، إنما حكّمنا القرآن ، وهذا القرآن إنما هو خطّ مسطور بين دفّتين ، لا ينطق ، إنما يتكلّم به الرجال ، قالوا : فخبّرنا عن الأجل ، لم جعلتَه فيما بينك وبينهم؟ قال: ليعلم الجاهل ، ويتثبّت العالم ، ولعل الله عزّ وجلّ يصلح في هذه الهدنة هذه الأمّة . ادخلوا مصرَكم رحمكم الله ! فدخلوا مِن عند آخِرهم .

قال أبو مخنف: حدّثني عبدالرحمن بن جُنْدَب الأزديّ ، عن أبيه بمثل هذا .

وأما الخوارج فيقولون: قلنا: صدقتَ، قد كنا كما ذكرت، وفعلنا ما وصَفْت، ولكنّ ذلك كان منّا كفراً، فقد تُبْنا إلى الله عزّ وجلّ منه، فتبْ كما تُبْنا نبايعْك، وإلا فنحن مخالفون. فبايَعَنا عليّ وقال: ادخلوا فلنمكث ستّة أشهر حتى يجبي المال، ويَسمَن الكُراع، ثم نخرج إلى عدوّنا. ولسنا نأخذ بقولهم؛ وقد كذبوا .

وقدم معن بن يزيد بن الأخنس السلَمِيّ في استبطاء إمضاء الحكومة وقال لعليّ : إنّ معاوية قد وفى ، فَفِ أنت لَا يَلْفِتنّك عن رأيك أعاريبُ بكر وتميم. فأمر عليٌّ بإمضاء الحكومة، وقد كانوا افترقوا من صِفّين على أن يقدم الحَكَمان في أربعمائة أربعمائة إلى دومة الجَنْدَل .

وزعم الواقديّ أنّ سعداً قد شهد مع من شهد الحكمين، وأن ابنه عمر لم يدَعْه حتى أحضره

أذرُح، فندم ، فأحرم من بيت المَقدس بعُمرة .

اجتماع الحَكَمين بدُومة الْجندَل

وفي هذه السنة كان اجتماع الحكَمين .

ذكر الخبر عن اجتماعهما :

قال أبو مخنف : حدّثني المجالد بن سعيد ، عن الشعبيّ ، عن زياد بن النَّضر الحارثيّ ، أنّ عليًّا بعث أربعمائة رجل ، عليهم شريح بن هانىء الحارثيُّ ، وبعث معهم عبدالله بن عباس ، وهو يصلّي بهم ، ويلي أمورَهم ، وأبو موسى الأشعريّ معهم . وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشأم ، حتى توافَوْا بدُومة الجندل بأذْرح ، قال : فكان معاوية إذا كتب إلى عمرو جاء الرسول وذهب لا يدري بما جاء به ، ولا بما رجع به ، ولا يسأله أهلُ الشأم عن شيء ؛ وإذا جاء رسول علي جاؤوا إلى ابن عبَّاس فسألوه : ما كتب به إليك أمير المؤمنين؟ فإن كتَمهم ظنوا به الظنون فقالوا: ما نُراه كتب إلا بكذا وكذا. فقال ابن عباس: أما تعلقون! أما تَرَوْن رسولَ معاوية يجيء لا يعلم بما جاء به ، ويرجع لا يعلم ما رجع به ، ولا يُسمع لهم صياح ولا لفظ ، وأنتم عندي كلّ يوم تظنُّون الظنون!

قال: وشهد جماعتهم تلك عبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي وعبدالرحمن بن عبد يَغوث الزُّهريّ وأبو جَهْم بن حُذَيفة العدويّ والمغيرة بن شُعبة الثَّقَفِيّ ؛ وخرج عمر بن سعد حتى أتى أباه على ماء لبني سُليم بالبادية ، فقال : يا أبتِ ، قد بلغك ما كان بين الناس بصِفّين ، وقد حكَّم الناسُ أبا موسى الأشعريّ وعمرَو بن العاص ، وقد شهدهم نفر من قريش ؛ فاشهدهم فإنك صاحبُ رسول الله ﷺ وأحد الشورى ، ولم تدخل في شيء كرهتْه هذه الأمة ، فاحضُر فإنك أحقّ الناس بالخلافة . فقال : لا أفعل ، إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنه تكون فتنةٌ؛ خيرُ الناس فيها الخفيّ التقيّ »، والله لا أشهد شيئاً من هذا الأمر أبداً .

والتقى الحَكَمان ، فقال عمرو بن العاص: يا أبا موسى، ألستَ تعلم أنّ عثمانَ رضيٌّ الله عنه قتل مظلوماً؟ قال: أشهد، قال: ألستَ تعلم أنّ معاوية وآل معاوية أولياؤه؟ قال: بلى؛ قال: فإن الله عزّ وجلّ قال : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾[1] ، فما يمنعك من معاوية وليِّ عثمانَ يا أبا موسى ، وبيتُه في قريش كما قد علمت ؟ فإن تخوّفت أن يقول الناس : وليَ معاوية وليست له سابقة ؛ فإن لك بذلك حُجَّة ؛ تقول : إني وجدته وليّ عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه ، الحسن السياسة، الحسن التدبير، وهو أخو أمّ حبيبة زوجة النبي ﷺ ، وقد صحبه ، فهو أحد الصحابة . ثم عرّض له بالسلطان، فقال: إن وَلِي أكرَمك كرامةً لم يُكرِمها خليفة. فقال أبو موسى: يا عمرو، اتّق الله عزّ وجلّ ! فأما ما ذكرت من شرَف معاوية فإنّ هذا ليس على الشرف يولّاه أهلُه ، ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآلِ أبْرَهة بن الصَّبّاح ، إنما هو لأهل الدين والفضل، مع أني لو كنت

(١) سورة الإسراء : ٣٣.

معطيَه أفضلَ قريش شرفاً أعطيتُه عليَّ بنَ أبي طالب . وأما قولك : إنّ معاوية وليّ دم عثمان فولّـه هذا الأمر ، فإني لم أكن لأولِّيَه معاوية وأدَعَ المهاجرين الأوّلين . وأما تعريضُك لي بالسلطان ، فوالله لو خرج لي من سلطانه كلِّه ما ولَّيتُه ، وما كنت لأرتشيَ في حكم الله عـزّ وجلّ ، ولكنـك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطّاب .

قال أبو مِخْنَف : حدثني أبو جَناب الكلبيّ ، أنه كان يقول : قال أبو موسى : أما والله لئن استطعتُ لأحيينّ اسم عمر بن الخطاب رضيَ الله عنه . فقال له عمرو : إن كنت تحبّ بَيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضلَه وصلاحَه ! فقال : إنّ ابنك رجل صِدْق ، ولكنّك قد غمستَه في هذه الفتنة .

قـال أبو مخنف : حـدّثني محمد بن إسحـاق ، عن نافـع مولى ابن عمـر ، قال : قـال عمرو بن العاص : إنّ هذا الأمر لا يُصلحه إلاّ رجل له ضِرْس يأكل ويطعم ، وكانت في ابن عمرَ غفلة ، فقال له عبدالله بن الزبير : افطن ، فانتبه ، فقال عبدالله بن عمر : لا والله لا أرشو عليها شيئاً أبداً ، وقال : يابن العاص ، إنّ العرب أسندتْ إليك أمرَها بعدما تقارعتْ بالسيوف ، وتناجزتْ بالرّماح ، فلا تُردَّنّهم في فتنة .

قال أبو مخنف : حـدّثني النّضر بن صـالح العبسيّ ، قـال : كنت مع شـريح بن هـانيء في غزوة سِجِسْتان ، فحدّثني أنّ عليًّا أوصاه بكلمات إلى عَمرو بن العاص ، قال : قل له إذا أنت لقيتَه : إنّ عليًّا يقول لك : إنّ أفضلَ الناس عند الله عزّ وجلّ من كان العمل بالحقّ أحبَّ إليه وإن نقصَه وكـرثه ، من الباطل وإن حنّ إليه وزاده ، يا عمرو ، والله إنك لتعلم أينَ موضع الحقّ ، فلم تَجاهل؟ إن أوتيت طمعاً يسيراً كنتَ به لله وأوليائه عدوًّا ، فكأنْ والله ما أوتيتَ قد زال عنك ؛ وَيْحك! فلا تكن للخائنين خصيماً ، ولا للظالمين ظهيراً . أمَا إني أعلم بيومك الذي أنت فيه نادم ، وهو يوم وَفاتك ، تَمنَّى أنك لم تُظهِرْ لمسلم عداوةً ، ولم تأخذ على حُكم رِشْوة . قال : فبلغتُه ذلك ، فتمعّرَ وجهه ، ثم قال : متى كنت أقبل مشورة عليّ أو أنتهي إلى أمره ، أو أعتدّ برأيه! فقلت له : وما يمنعك يابن النابغة أن تقبل من مولاك وسيّد المسلمين بعد نبيّهم مشورته! فقد كان من هو خير منك أبو بكر وعمرَ يستشيرانه ، ويعمّلان برأيه ، فقال : إنّ مِثلي لا يكلّم مثلك ، فقلت له : وبأيّ أبويك ترغب عنّي ! بأبيك الوَشِيظ أم بأمّك النـابغة! قـال : فقام عن مكانه وقمت معه .

قال أبو مِخْنف : حدّثني أبو جَناب الكلبيّ أنّ عَمراً وأبا موسى حيث التقيا بدُومة الجندل ، أخـذ عَمرو يقدّم أبا موسى في الكلام ، يقول : إنك صاحب رسول الله ﷺ وأنت أسنّ مني ، فتكلّم وأتكلّم . فكان عمرو قد عوّد أبا موسى أن يقدّمه في كلّ شيء ، اغتزى بذلك كله أن يقـدّمه فيبـدأ بخلع عليّ . قال : فنظر في أمرهما وما اجتَمَعا عليه ، فأراده عمرو على معاوية فأبى ، وأراده على ابنه فأبى ، وأراد أبو موسى عمراً على عبدالله ابن عمر فأبى عليه ، فقال له عمرو : خبِّرْني ما رأيك ؟ قـال : رأيي أن نخلع هٰذين الرّجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، فيختار المسلمـون لأنفسهم مَن أحبّوا . فقـال له عمرو : فإنّ الرأي ما رأيتَ ، فأقبَلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فقال : يا أبا موسى ، أعلِمْهم بأنّ رأينا قد اجتمع واتّفق ، فتكلم أبو موسى فقال : إنّ رأيي ورأي عَمرو قد اتّفق على أمر نـرجو أن يُصلِح الله

عزّ وجلّ به أمرَ هذه الأمة. فقال عمرو: صـدق وبرّ، يـا أبا مـوسى، تقدّم فتكلّم. فتقـدّم أبو مـوسى ليتكلم، فقال له ابنُ عباس: وَيْحك! واللّهِ إني لأظنّه قد خدعك. إن كنتما قد اتّفقتما على أمر، فقدّمه فليتكلمْ بذلك الأمر قبلك، ثم تكلّمْ أنتَ بعده، فإنّ عمراً رجل غادر، ولا آمن أن يكـون قد أعـطاك الرّضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت في الناس خالَفَك - وكان أبو موسى مغفّلاً - فقال له: إنّا قد اتفقنا. فتقدّم أبو موسى فحمِد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه ثم قال: أيّها الناس، إنّا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نَرَ أصلح لأمرها، ولا ألمّ لشَعَثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه؛ وهـو أن نخلع عليًّا ومعـاوية، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولّوا منهم مَنْ أحبوا عليهم، وإني قـد خلعت عليًّا ومعـاوية، فـاستقبلوا أمرَكم، وولّوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمـر أهلاً؛ ثم تنحّى. وأقبـل عَمرو بن العـاص فقام مَقـامه، فحمِد اللّهَ وأثنى عليه وقال: إنّ هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبَه، وأنا أخلع صاحبَه كمـا خلعه، وأثبتُ صاحبي معاوية، فإنّه وليّ عثمان بن عفان والطالب بدمه، وأحقّ الناس بمقامه. فقال أبو موسى: ما لك لا وفّقك الله، غدرتَ وفجرتَ! إنما مَثَلك كمثل الكلب إن تَحمِل عليه يَلْهَثْ أو تتركْه يَلْهث. قال عمرو: إنما مَثَلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً. وَحَمَل شُرَيح بن هانىء على عَمرو فقنّعه بالسوط، وحَمَل على شُرَيح ابنٌ لعَمرو فضربه بالسوط، وقام الناس فحجزوا بينهم. وكان شُريح بعد ذلك يقول: ما ندمتُ على شيء ندامتي على ضرب عَمرو بالسوط ألّا أكون ضربته بالسيف آتياً بـه الدّهـرُ ما أتى. والتمس أهلُ الشأم أبا موسى، فركب راحلتَه ولحق بمكّة.

قال ابن عباس: قبّح الله رأيَ أبي موسى! حذّرته وأمرْته بالرأي فما عَقَل. فكان أبو موسى يقول: حذّرني ابنُ عباس غَدْرة الفاسق، ولكني اطمأننت إليه، وظننت أنه لن يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة. ثم انصرف عمرو وأهل الشأم إلى معاوية، وسلموا عليه بالخلافة، ورجع ابن عباس وشريح بن هانىء إلى علي، وكـان إذا صلّىٰ الغداة يَقنُت فيقـول: اللهمّ إلعن معـاويَـة وعَمـراً وأبـا الأعـوَر السُّلَميّ وحبيباً وعبدالرحمن بن خالد والضحّاك بن قيس والوليد. فبلغ ذلك معاوية، فكان إذا قَنت لَعَنَ عليًّا وابن عباس والأشتر وَحَسَناً وحُسيناً.

وزعم الواقديّ أن اجتماع الحَكَمين كان في شعبان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة.

ذكر ما كان من خبر الخوارج عند توجيه علي الحَكَم للحكومة وخبر يوم النَّهر

قال أبو مخنف: عن أبي المغفّل، عن عون بن أبي جُحَيفة، أنّ عليًّا لما أراد أن يبعث أبا موسى للحكومة، أتاه رجلان من الخوارج: زُرْعة بن البُرْجِ الطائيّ وحُرْقوص بن زُهير السعديّ، فدخلا عليه، فقالا له: لا حكمَ إلا لله، فقال علي: لا حكم إلا لله، فقال له حُرْقوص: تُبْ من خطيئتك، وارجع عن قضيتـك، واخرج بنـا إلى عدوّنـا نقـاتلهم حتى نلقى ربّنـا. فقـال لهم علي: قـد أردتكم على ذلـك فعصيتموني، وقد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً، وشرطنا شروطاً، وأعطينا عليها عهودَنا ومواثيقنا، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ

اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُون ﴾(١) . فقال له حُرقوص : ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه ؛ فقال علي : ما هو ذنب ، ولكنه عَجْز من الرأي ، وضعفٌ من الفعل، وقد تقدّمت إليكم فيما كان منـه ، ونهيتُكم عنه . فقـال له زُرعة بن البُرْج : أما والله يا علي ، لئن لم تَدَع تحكيمَ الرجال في كتاب الله عزّ وجلّ قاتلتُك ؛ أطلبُ بذلك وجهَ الله ورضوانَه ، فقال له علي : بؤساً لك ، ما أشقاك ! كأني بك قتيلاً تَسفِي عليك الريح ؛ قال : وددتُ أن قد كان ذلك ؛ فقال له عليّ : لو كنت محقًّا كان في الموت على الحقّ تعزية عن الدنيا ، إنّ الشيطان قد استهواكم ، فاتّقوا الله عزّ وجل ، إنه لا خيرَ لكم في دُنيا تقاتِلون عليها ؛ فخرجا من عنده يحكّمان .

قال أبو مخنف : فحدّثني عبدالملك بن أبي حرّة الحنفيّ ، أنّ عليًّا خرج ذات يوم يخطب، فإنه لفِي خطبته إذْ حكّمت المحكّمة في جوانب المسجد، فقال عليّ : الله أكبر! كلمةُ حقّ يراد بها باطل! إن سكتوا عممناهم، وإن تكلّموا حَجَجْناهم، وإن خرجوا علينا قاتلناهم. فوثب يزيد بن عاصم المحاربيّ، فقال: الحمد لله غير مودّع ربّنا ولا مستغنًى عنه . اللهمّ إنا نعوذ بك من إعطاء الدنيَّة في ديننا ، فإنّ إعطاء الدنيّة في الدّين إدْهانٌ في أمرِ الله عزّ وجلّ ، وذلّ راجع بأهله إلى سخط الله. يا علي، أبالقتل تخوّفنا! أما والله إني لأرجو أن نضربكم بها عما قليل غير مصفَحات، ثم لتعلمُنّ أيّنا أولَى بها صِليًّا. ثم خرج بهم هو وإخوة له ثلاثة هو رابعهم ، فأصيبوا مع الخوارج بالنّهر ، وأصيب أحدهم بعد ذلك بالنُّخَيْلة .

قال أبو مخنف : حدثني الأجلح بن عبدالله ، عن سلمَة بن كُهَيل ، عن كثير بن بَهْز الحضرميّ ، قال : قام عليّ في الناس يخطبهم ذات يوم ، فقال رجلٌ من جانب المسجد : لا حكمَ إلاَّ لله ، فقام آخرُ فقال مِثلَ ذلك ، ثم تَوالَىٰ عدّة رجال يحكّمون ، فقال عليّ : الله أكبر ؛ كلمة حقّ يلتمس بها باطل ! أما إنّ لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا : لا نمنعكم مساجدَ الله أن تذكروا فيها اسمَه ، ولا نمنعكم الفيءَ ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا ؛ ثم رجع إلى مكانه الذي كان فيه من خطبته .

قال أبو مخنف : وحُدّثنا عن القاسم بن الوليد ، أن حكيم بن عبدالرحمن بن سعيد البَكائيّ كان يرى رأيَ الخوارج ، فأتى عليًّا ذات يوم وهو يخطب ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(٢) ، فقال علي : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ﴾(٣) .

حَدّثنا أبو كُريب ، قال : حدّثنا ابن إدريس ، قال : سمعت اسماعيل بن سَميع الحنفيّ ؛ عن أبي رَزين ، قال : لما وقع التحكيم ورجع علي من صِفّين رجعوا مُباينين له ، فلمّا انتهوْا إلى النَّهر أقاموا به ، فدخل علي في الناس الكوفة ، ونزلوا بحَرُوراء ، فبعث إليهم عبدالله بن عباس ، فرجع ولم يصنع شيئاً ، فخرج إليهم عليّ فكلّمهم حتى وقع الرِّضا بينه وبينهم ، فدخلوا الكوفة، فأتاه رجل فقال: إنّ الناس قد تحدّثوا أنك رجعتَ لهم عن كُفرك . فخطب النَّاس في صلاة الظهر ، فذكر أمرَهم فعابه ؛ فوثبوا من نواحِي المسجد يقولون ؛ لا حُكمَ إلا لله. واستقبله رجل منهم واضع إصبعيه في أذنيه ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ

(١) سورة النحل: ٩١.
(٢) سورة الزمر: ٦٥.
(٣) سورة الروم: ٦٠.

إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، فقال علي : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ﴾ .

حدّثنا أبو كُرَيب ، قال : حدّثنا ابن إدريس ، قال : سمعت ليثَ بن أبي سُليم يذكر عن أصحابه ، قال : جعل عليّ يقلّب يديه يقول يديه هكذا وهو على المنبر ، فقال : حُكمْ الله عزّ وجلّ يُنتَظر فيكم مرّتين ، إنّ لكم عندنا ثلاثاً : لا نمنعكم صلاةً في هذا المسجد ، ولا نمنعكم نصيبَكم من هذا الفَيْء ما كانت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تقاتِلونا .

قال أبو مِخْنف عن عبدالملك بن أبي حُرّة : إنّ عليًّا لما بعث أبا موسى لإنفاذ الحكومة لقيت الخوارج بعضُها بعضاً ، فاجتمعوا في منزل عبدالله بن وهب الرّاسبيّ ، فحمِد الله عبدُ الله بن وهب وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد ، فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، وينيبون إلى حُكم القرآن ، أن تكون هذه الدنيا ، التي الرّضا بها والرّكون بها والإيثار إياها عناء وتَبار ، آثرَ عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحقّ ، وإنْ مُنّ وضُرّ فإنه مَن يُمنّ ويُضرّ في هذه الدنيا فإنّ ثوابه يوم القيامة رضوان الله عزّ وجلّ والخلود في جنّاته . فاخرجوا بنا إخوانَنا من هذه القرية الظالمِ أهلُها إلى بعض كُوَر الجبال أو إلى بعض هذه المدائن ، منكِرين لهذه البدع المضلّة . فقال له حُرْقوص بن زهير : إنّ المتاع بهذه الدنيا قليل ، وإنّ الفراق لها وشيك ، فلا تدعوَنّكم زينتها وبهجتها إلى المقام بها ، ولا تلفتنّكم عن طلب الحقّ ، وإنكار الظلم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . فقال حمزة ابن سنان الأسَدِيّ : يا قوم ، إنّ الرأي ما رأيتم ، فولّوا أمركم رجلاً منكم ، فإنه لا بدّ لكم من عماد وسِناد وراية تحفّون بها ، وترجعون إليها . فعرضوها على زيد بن حصين الطائيّ فأبَى ، وعرضوها على حُرقوص بن زهير فأبى ، وعلى حمزة بن سنان وشُريح بن أوفَى العبسيّ فأبَيَا ، وعرضوها على عبدالله ابن وهب ، فقال : هاتوها ، أما والله لا آخذها رغبةً في الدنيا ، ولا أدَعها فَرَقاً من الموت . فبايعوه لعشر خلوْن من شوال ـ وكان يقال له ذو الثَّفِنات ـ ثم اجتمعوا في منزل شُريح بن أوفى العبسيّ ، فقال ابن وهب : اشخَصُوا بنا إلى بلدة نجتمع فيها لإنفاذ حكمِ الله ، فإنكم أهلُ الحق . قال شريح : نخرج إلى المدائن فننزلها ، ونأخذ بأبوابها ، ونخرِج منها سكّانها ، ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا . فقال زيد بن حصين : إنكم إن خرجتم مجتمعين اتُّبِعْتُم ، ولكن اخرجوا وُحْداناً مستَخْفِين ، فأمّا المدائن فإنّ بها مَنْ يمنعكم ، ولكن سِيروا حتى تنزلوا جسرَ النّهروان ، وتكاتِبوا إخوانكم من أهل البصرة . قالوا : هذا الرّأي .

وكتب عبدالله بن وهب إلى مَن بالبصرة منهم يعلمهم ما اجتمعوا عليه ، ويحثّهم على اللحاق بهم ، وسيّر الكتاب إليهم ، فأجابوه أنهم على اللحاق به . فلما عزموا على المسيرِ تعبّدوا ليلتَهم ـ وكانت ليلة الجمعة ويوم الجمعة ـ وساروا يومَ السبت ، فخرج شُريح بن أوفَى العبسيّ وهو يتلو قول الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَلَما تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾(1) . وخرج معهم طَرفة بن عديّ بن حاتم الطائي ، فاتّبعه أبوه فلم يقدر عليه ، فانتهى إلى

---

(١) سورة القصص : ٢١ ، ٢٢ .

المدائن ثم رجع ، فلما بلغ ساباطَ لقيَه عبدُالله بن وهب الراسي في نحو عشرين فارساً ، فأراد عبدالله قتلَه ، فمنعه عمرو بن مالك النَّبْهانيّ وبشر بن زيد البَوْلَانيّ . وأرسل عديّ إلى سعد بن مسعود عامل عليّ على المدائن يحذّره أمرَهم ، فحذِر ، وأخذ أبوابَ المدائن ، وخرج في الخيل واستخلف بها ابن أخيه المختار بن أبي عبيد ، وسار في طلبهم ، فأخبر عبدالله بن وهب خبرَه فرابأ طـريقه ، وسـار على بغداد ، ولحقهم سعد بن مسعود بالكَرْخ في خمسمائةِ فارس عند المساء ، فانصرف إليهم عبدُالله في ثلاثين فارساً ، فاقتتلوا ساعة ، وامتنع القومُ منهم ؛ وقال أصحاب سعد لسعد : ما تريد من قتال هؤلاء ولم يأتك فيهم أمر! خلّهم فليذهبوا ، واكتب إلى أمير المؤمنين ، فإنْ أمَرَك باتّباعهم اتَّبعتَهم ، وإن كَفَاكَهُم غيرُك كان في ذلك عافية لك . فأبى عليهم ، فلما جَنّ عليهم الليلُ خرج عبدالله بن وهب فَعَبَرَ دِجلة إلى أرض جُوخَى ، وسار إلى النَّهروان ، فوصـل إلى أصحابـه وقد أيِسُـوا منه ، وقـالوا : إن كـان هلك ولَّيْنا الأمـرَ زَيدَ بن حصين أو حُرقوص بن زهير ، وسار جماعة من أهل الكوفة يريدون الخوارج ليكونوا معهم ، فردّهم أهلوهم كَرْهاً ؛ منهم القعقاع بن قيس الطائيّ عمّ الطِّرِمّاح بن حكيم ، وعبدالله بن حكيم بن عبدالرحمن البكّائيُّ ، وبلغ عليًّا أن سالم بن ربيعة العبسي يريد الخروج ، فأحضره عنده ، ونهاه فانتهى .

ولما خرجت الخوارج من الكوفة أتى عليًّا أصحابُه وشيعتُه فبايعوه وقالوا : نحن أولياء مَن واليتَ ، وأعداءُ مَن عادَيْت ، فشرط لهم فيه سنّة رسولِ الله ﷺ ، فجاءه ربيعة بن أبي شدّاد الخثعمي ـ وكان شهد معه الجمل وصِفِّين ، ومعه راية خَثْعَم ـ فقال له : بايِع على كتاب الله وسنّةِ رسولِ الله ﷺ ؛ فقال ربيعة : على سُنَّة أبي بكر وعمر ؛ قال له عليّ : ويلك ! لو أنَّ أبا بكر وعمرَ عَمِلا بغير كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لم يكونا على شيء من الحقِّ ، فبايعه ، فنظر إليه علي وقال : أما والله لكأني بك وقد نفرتَ مع هذه الخوارج فقُتلتَ ، وكأني بك وقد وطئتْك الخيل بحوافرها ، فقُتِل يوم النَّهر مع خوارج البصرة .

وأما خوارج البصرة فإنهم اجتمعوا في خمسمائة رجل ، وجعلوا عليهم مِسعر بن فَدَكيّ التميميّ ، فعلم بهم ابن عباس ، فأتبعهم أبا الأسود الدُّؤليَّ ، فلحقهم بالجسر الأكبر ، فتـواقفوا حتى حجـز بينهم الليل ، وأدلجَ مِسعر بأصحابه ، وأقبل يعترِض الناس وعلى مقدِّمته الأشرسُ بنُ عوف الشيبانيّ ، وسار حتى لحق بعبد الله بن وهب بالنّهر . فلما خرجت الخوارجُ وهَرَب أبو موسى إلى مكة ، وردَّ عليٌّ ابنَ عباس إلى البصرة ، قام في الكوفة فخطبهم فقال : الحمد لله وإن أتى الدّهرُ بالخَطْب الفادح ، والحَدَثان الجليل ، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنّ محمداً رسول الله ؛ أما بعد ، فإن المعصية تورث الحسرة ، وتُعقِب الندم ، وقد كنت أمرتُكم في هذين الرّجلين وفي هذه الحكومة أمري ، ونحَلْتكم رأيي ، لو كان لقصيرٍ أمر! ولكن أبيتم إلاَّ ما أردتم ، فكنتُ أنا وأنتم كما قال أخو هوازن :

أَمَـرْتُـهُـمْ أَمـري بـمُـنْـعَـرَجِ الـلِّوَى   فلم يَسْتَبينـوا الـرُّشْـدَ إلاَّ ضُحَى الغَـدِ

ألا إنّ هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حَكَمين قد نَبَذَا حكمَ القرآن وراء ظهورهما ، وأحييَا ما أماتَ القرآن ، واتّبع كل واحد منهما هَواه بغير هدًى من الله ، فحَكَما بغير حجّة بيّنة ، ولا سُنّةٍ ماضية ، واختَلَفا في حكمهما ، وكلاهما لم يرشد ، فبرىء اللّهُ منهما ورسولُه وصالحُ المؤمنين . استعِدّوا وتأهّبوا للمسير إلى

الشأم، وأصبِحوا في معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين . ثم نزل .

وكتب إلى الخوارج بالنهر: بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله علي أمير المؤمنين ، إلى زيد بن حصين وعبدالله بن وهب ومن معهما من الناس . أمّا بعد ، فإن هذين الرجلين اللذين ارتضيْنا حكمَهما قد خالفا كتابَ الله ، واتّبعا أهواءهما بغير هدًى من الله ، فلم يَعمَلا بالسنّة ، ولم ينفِّذا للقرآن حُكماً ، فبرىء الله ورسولُه منهما والمؤمنون! فإذا بلغكم كتابي هذا فأقبلوا فإنا سائرون إلى عدوّنا وعدوّكم، ونحن على الأمر الأوّل الذي كنا عليه. والسلام.

وكتبوا إليه: أمّا بعد، فإنّك لم تغضب لربّك، إنما غضبتَ لنفسك ، فإن شهدتَ على نفسك بالكفر، واستقبلتَ التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابَذْناك على سواءٍ إنّ الله لا يحبّ الخائنين . فلما قرأ كتابهم أيس منهم ، فرأى أن يَدَعَهم ويمضيَ بالناس إلى أهل الشأم حتى يلقاهم فيناجزهم .

قال أبو مخنف ، عن المعلّي بن كُليب الهمْدانيّ ، عن جبر بن نَوْف أبي الودّاك الهمْدانِيّ : إنّ عليًّا لما نزل بالنُّخيلة وأيِس من الخوارج، قام فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنه من ترك الجهاد في الله وأدْهن في أمره كان على شَفَا هُلْكِه إلاّ أن يتداركَه الله بنعمة ؛ فاتقوا الله ، وقاتِلوا من حادّ الله ، وحاوَلَ أن يطفىء نورَ الله ، قاتلوا الخاطئين الضالين ، القاسطين المجرمين ، الذين ليسوا بقرّاء للقرآن ، ولا فقهاءَ في الدين، ولا علماءَ في التأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل سابقة في الإسلام ، والله لو ولُوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كِسْرى وهِرَقل ، تيسّروا وتهيّئوا للمسير إلى عدوّكم من أهل المغرب ، وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة ليقدموا عليكم ، فإذا قَدِموا فاجتمعتم شخصْنا إن شاء الله ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله .

وكتب علي إلى عبدالله بن عباس مع عتبه بن الأخنس بن قيس ، من بني سعد بن بكر : أمّا بعد ، فإنا قد خرجنا إلى معسكرنا بالنُّخيلة ، وقد أجمعْنا على المسير إلى عدوّنا من أهل المغرب ، فاشخص بالناس حتى يأتيَك رسولي ، وأقم حتى يأتيك أمري . والسلام .

فلما قدم عليه الكتاب قرأه على الناس ، وأمرهم بالشخوص مع الأحنف بن قيس، فشخص معه منهم ألفُ وخمسمائة رجل ، فاستقلّهم عبدالله بن عبّاس ، فقام في الناس ، فحمِد الله وأثْنى عليه ثم قال : أما بعد يا أهل البصرة ، فإنه جاءني أمرُ أميرِ المؤمنين يأمرني بإشخاصكم ، فأمرتُكم بالنُّفير إليه مع الأحنف ابن قيس ، ولم يَشخَص معه منكم إلاّ ألف وخمسمائة، وأنتم ستون ألفاً سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم! ألا انفِروا مع جارية بنِ قدامة السعديّ، ولا يجعلَنّ رجلٌ على نفسه سبيلا ، فإني مُوقِع بكلّ من وجدتُه متخلِّفاً عن مكتبه ، عاصياً لإمامه ، وقد أمرت أبا الأسود الدُّؤَليّ بحشْركم ، فلا يَلُمْ رجل جعل السبيل على نفسه إلاّ نفسَه .

فخرج جارية فعسكر ، وخرج أبو الأسود فحشر الناس ، فاجتمع إلى جارية ألف وسبعمائة ، ثم أقبل حتى وافاه عليٌّ بالنُّخَيلة، فلم يزل بالنُّخَيلة حتى وافاه هذان الجيشان من البَصرة ثلاثة آلاف ومائتا رجل، فجمع إليه رؤوس أهل الكوفة ،ورؤوس الأسباع ، ورؤوس القبائل، ووجوه الناس. فحمِد الله وأثْنَى عليه ثم قال: يا أهلَ الكوفة، أنتم إخواني وأنصاري، وأعواني على الحق، وصَحَابَتِي على جهاد عدوّي المحلّين

بكم، أضرب المدْبِر ، وأرجو تمام طاعة المقْبِل ، وقد بعثتُ إلى أهل البصرة فاستنفرتُهم إليكم ، فلم يأتني منهم إلاّ ثلاثة آلاف ومائتا رجل ، فأعينوني بمناصحة جليّة خليّة من الغشّ، إنكم. . . . . . مَخرَجنا إلى صفّين ، بل استجمعوا بأجمعكم ، وإني أسألكم أن يكتب لي رئيس كلّ قوم ما في عشيرته من المقاتلة وأبناء المقاتِلة الذين أدركوا القتال وعبدان عشيرته ومواليهم ، ثم يرفع ذلك إلينا .

فقام سعيد بن قيس الهمْدانيّ ، فقال: يا أمير المؤمنين ، سمعاً وطاعة، وودًّا ونصيحة، أنا أوّل الناس جاء بما سألت ، وبما طلبت . وقام معقل بن قيس الرّياحيّ فقال له نحواً من ذلك ، وقام عديّ بن حاتم وزياد بن خَصَفة وحُجْر بن عديّ وأشراف الناس والقبائل فقالوا مِثلَ ذلك .

ثمّ إن الرؤوس كتبوا مَن فيهم ، ثم رفعوهم إليه ، وأمروا أبناءهم وعبيدهم ومواليَهم أن يخرجوا معهم، وألاّ يتخلّف عنهم أحد، فرفعوا إليه أربعين ألف مقاتل، وسبعة عشر ألفاً من الأبناء ممن أدرك، وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم، وقالوا: يا أمير المؤمنين، أمّا مَن عندنا من المقاتِلة وأبناء المقاتلة ممّن قد بلغ الحُلُم ، وأطاق القتال، فقد رفعنا إليك منهم ذَوِي القوّة والجَلَد ، وأمرْناهم بالشّخوص معنا، ومنهم ضعفاء، وهم في ضِياعنا وأشياءَ مما يُصلحنا. وكانت العرب سبعةً وخمسين ألفاً من أهل الكوفة ، ومن مواليهم ومماليكهم ثمانية آلاف ، وكان جميع أهل الكوفة خمسةً وستين ألفاً ، وثلاثة آلاف ومائتي رجل من أهل البصرة ، وكان جميع من معه ثمانيةً وستّين ألفاً ومائتي رجل .

قال أبو مِخْنَف ، عن أبي الصَّلْت التيميّ : إن عليًّا كتب إلى سعد بن مسعود الثقفي ـ وهو عامله على المدائن : أما بعد، فإني قد بعثتُ إليك زيادَ بنَ خَصَفة فأشخِص معه مَن قِبَلك من مقاتِلة أهل الكوفة ، وعجّل ذلك إن شاء الله ولا قوّة إلاّ بالله .

قال : وبلغ عليًّا أنّ الناس يقولون : لو سارَ بنا إلى هذه الحَروريّة فبدأنا بهم ، فإذا فرغنا منهم وجّهنا من وجّهنا ذلك إلى المُحِلّين! فقام في الناس فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنه قد بلغني قولُكم : لو أنّ أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التي خرجتْ عليه فبدأنا بهم، فإذا فرغنا منهم وجهنا إلى المحِلّين؛ وإن غير هذه الخارجة أهمّ إلينا منهم، فدعوا ذكرَهم، وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبّارين ملوكاً، ويتّخذوا عباد الله خَوَلا .

فتنادَى الناسُ من كلّ جانب: سرْ بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت. قال: فقام إليه صيفيّ بن فَسيل الشيبانيّ فقال: يا أميرَ المؤمنين، نحن حِزبُك وأنصارُك، نعادي من عاديت، ونشايع من أناب إلى طاعتك، فسِر بنا إلى عدوّك؛ من كانوا وأينما كانوا؛ فإنك إن شاء الله لن تُؤتَى من قلّة عَدَد، ولا ضعف نيّةِ أتباع. وقام إليه مُحرز بن شهاب التيميّ من بني سعد فقال: يا أميرَ المؤمنين، شيعتك كقلْبِ رجل واحد في الإجماع على نُصْرتك، والجدّ في جهاد عدوّك، فأبْشِر بالنصر، وسِرْ بنا إلى أيّ الفريقين أحببت، فإنّا شيعتك الذين نرجو في طاعتك وجهاد من خالَفَك صالحَ الثواب،ونَخاف في خذلانك والتخلّف عنك شدّةَ الوبال.

حدّثني يعقوب، قال: حدّثني إسماعيل، قال: أخبرَنا أيُّوب، عن حُميد بن هلال، عن رجل من عبد القيس كان من الخوارج ثم فارقهم، قال: دخلوا قريةً، فخرج عبدالله بن خبّاب صاحب رسول الله ذَعِراً يجرّ

رداءه، فقالوا: لِمَ تُرَعْ؟ فقال: والله لقد ذَعَرْتموني! قالوا: أأنت عبدالله بن خبّاب صاحب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم؛ قالوا: فهل سمعتَ من أبيك حديثاً يحدِّث به عن رسول الله ﷺ أنه ذكر فتنةً، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي؟ قال: فإن أدركتم ذلك فكن يا عبدَ الله المقتول ـ قال أيّوب: ولا أعلمه إلا قال: «ولا تكن يا عبدالله القاتل» ـ قال: نعم، قال: فقدّموه على ضِفّة النهر، فضربوا عنقَه، فسال دمُه كأنه شِراكُ نعل، وبَقَروا بطنَ أمّ ولده عمّا في بطنها.

قال أبو مخنف عن عطاء بن عجلان، عن حُميد بن هلال: إنّ الخارجة التي أقبلتْ من البصرة جاءت حتى دنتْ من إخوانها بالنّهر، فخرجتْ عِصابة منهم، فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار، فعبروا إليه، فدعوه فتهدّدوه وأفزعوه، وقالوا له: مَن أنت؟ قال: أنا عبدالله بن خبّاب صاحبُ رسولِ الله ﷺ، ثم أهوَى إلى ثوبه يتناوله من الأرض ـ وكان سقط عنه لما أفزعوه ـ فقالوا له: أفزعناك؟ قال: نعم؛ قالوا له: لا رَوْع عليك! فحدِّثنا عن أبيك بحديث سمعَه من النبيّ ﷺ، لعلّ الله ينفعنا به! قال: حدّثني أبي، عن رسول الله ﷺ، «أنّ فتنةً تكون، يموت فيها قلبُ الرجل كما يموتُ فيها بدنُه، يمسي فيها مؤمناً ويصبحُ فيها كافراً، ويصبح فيها كافراً ويمسي فيها مؤمناً»، فقالوا: لهذا الحديث سألناك، [فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنَى عليهما خيراً، قالوا: ما تقول في عثمانَ في أوّل خلافتِه وفي آخرها؟ قال: إنه كان محقًّا في أوّلها وفي آخرها؛ قالوا: فما تقول في عليّ قبل التحكيم وبعده؟ قال: إنه أعلم بالله منكم، وأشدّ تَوقِّياً على دينه، وأنفَذُ بصيرةً. فقالوا: إنك تتّبع الهوى، وتُوالي الرّجال على أسمائها لا على أفعالها]، والله لنقتلنّك قِتلة ما قتلناها أحداً، فأخذوه فكتّفوه ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حُبلى مُتِمٌّ حتى نزلوا تحت نَخْلٍ مَواقر فسقطتْ منه رطبةٌ، فأخذها أحدهم فقذف بها في فمه، فقال أحدهم، بغير حِلِّها، وبغير ثمن! فَلَفظها وألقاها من فمه، ثم أخذ سيفه فأخذ بيمينه، فمرّ به خنزير لأهل الذمّة فضربَه بسيفه، فقالوا: هذا فسادٌ في الأرض، فأتى صاحبَ الخنزير فأرضاه من خنزيره، فلما رأى ذلك منهم ابن خبّاب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى فما عليَّ منكم بأس، إني لَمُسلِم؛ ما أحدثتُ في الإسلام حَدَثاً، ولقد أمّنتموني، قلتم: لا رَوْع عليك! فجاؤوا به فأضجَعوه فذبَحوه، وسالَ دمه في الماء، وأقبَلوا إلى المرأة، فقالت: إنّي إنما أنا امرأة، ألاّ تتقون الله! فبَقَروا بطنَها، ! وقَتَلوا ثلاثَ نسوةٍ من طيّىء، وقتلوا أمَّ سِنان الصّيداويّة، فبلغ ذلك عليًّا ومن معه من المسلمين مِن قتلهم عبدالله بن خبّاب، واعتراضهم الناس، فبعث إليهم الحارثَ بن مرّة العبديّ ليأتيَهم فينظر فيما بلغه عنهم، ويكتبَ به إليه على وجهه، ولا يكتمه. فخرج حتى انتهى إلى النهر ليُسائلهم، فخرج القومُ إليه فقتلوه، وأتى الخبرُ أميرَ المؤمنين والناس، فقام إليه الناس، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، عَلاَم تَدَع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالِنا! سِرْ بنا إلى القوم فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سِرْنا إلى عدوّنا من أهل الشأم. وقام إليه الأشعث بن قيس الكِنْديّ فكلّمه بمثل ذلك. وكان الناس يَرَوْن أن الأشعث يَرَى رأيَهم لأنه كان يقول يومَ صِفّين: أنصفَنا قوم يدعون إلى كتاب الله، فلما أمر عليًّا بالمسير إليهم علم الناس أنه لم يكن يَرَى رأيهم. فأجمع على ذلك، فنادى بالرحيل، وخرج فعَبَر الجسر فصلّى ركعتين بالقنطرة، ثم نزل ديرَ عبدِ الرحمن، ثم دير أبي موسى، ثم أخذ على قرية شاهي، ثم على دبَاها، ثم على شاطىء الفرات، فلقيَه في مسيره ذلك منجِّم، أشار عليه يسير وقت من النهار، وقال له: إن سرتَ في غير ذلك الوقت لقيت أنت وأصحابك ضرًّا شديداً. فخالفه، وسار في الوقت الذي نهاه عن السير فيه، فلما فرغ من النهر حمد الله وأثنَى عليه ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها المنجِّم لقال الجهّال الذين لا

يعلمون: سار في الساعة التي أمره بها المنجِّم فظفر.

قال أبو مخنف : حدّثني يوسف بن يزيد ، عن عبدالله بن عوف ، قال : لما أراد عليّ المسيرَ إلى أهل النهر من الأنبار ، قدّم قيس بن سعد بن عُبادة وأمره أن يأتيَ المدائنَ فينزلَها حتى يأمرَه بأمره ، ثم جاء مقبلاً إليهم ، ووافاه قيس وسعد بن مسعود الثقفيّ بالنّهر ، وبعث إلى أهل النّهر : ادفعوا إلينا قَتَلة إخواننا منكم نقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكافٌّ عنكم حتى ألقَى أهلَ الشأمْ ؛ فلعلّ الله يقلِّب قلوبَكم ، ويردّكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم . فبعثوا إليه ، فقالوا : كلنا قَتَلْتُهُم ، وكلنا نستحلّ دماءهم ودماءَكم .

قال أبو مِخْنف : فحدثني الحارث بن حَصِيرة ، عن عبدالرحمن بن عبيد أبي الكنود ، أن قيس بن سعد بن عبادة قال لهم : عباد الله ، أخرِجوا إلينا طَلِبَتَنا منكم ، وادخلوا في هذا الأمر الذي منه خرجتم ، وعودوا بنا إلى قتال عدوّنا وعدوّكم ، فإنكم ركبتُم عظيماً من الأمر ، تشهدون علينا بالشِّرْك ، والشِّرْك ظلمٌ عظيم ، وتسفكون دماءَ المسلمين ، وتعدّونهم مشركين ! فقال عبدالله بن شجرة السُّلَميّ : إنّ الحقّ قد أضاء لنا ، فلسنا نتابعكم أو تأتونا بمثل عمر ، فقال : ما نعلمه فينا غير صاحبنا ، فهل تعلمونه فيكم؟ وقال : نشدتكم بالله في أنفسكم أن تُهلكوها ، فإنّي لأرى الفتنةَ قد غلبتْ عليكم! .

وخطَبَهم أبو أيُّوب خالد بن زيد الأنصاريّ ؛ فقال : عبادَ الله ، إنّا وإيّاكم على الحال الأولى التي كنا عليها ، ليست بيننا وبينكم فُرْقة ، فعلام تقاتلوننا؟ فقالوا: إنا لو بايعناكم اليوم حكّمتم غداً . قال : فإنّي أنشُدكم الله أن تعجّلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في قابل .

قال أبو مخنف : حدّثني مالك بن أعيَن ، عن زيد بن وهب ، أن عليًّا أتى أهلَ النّهر فوقف عليهم فقال : أيّتها العصابة التي أخرجَتْها عداوةُ المِراء واللَّجاجة ، وصدّها عن الحقّ الهَوَى ، وطمح بها النَّزَق ، وأصبحت في اللبس والخطب العظيم ، إني نذيرٌ لكم أن تُصبِحوا تُلفيكم الأمة غداً صرعى بأثناء هذا النهر ، وبأهضام هذا الغائط ، بغير بيِّنة من ربكم ، ولا برهان بيِّن . ألم تعلموا أني نهيتُكم عن الحكومة، وأخبرتكم أنّ طلب القوم إيّاها منكم دَهْن ومكيدة لكم! ونبّأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأني أعرفُ بهم منكم ، عرفتُهم أطفالاً ورجالاً ، فهم أهل المكر والغدر ، وأنكم إن فارقتم رأيي جانبتم الحزم ! فعصيتموني ، حتى أقررت بأن حَكَّمْتُ ، فلما فعلت شرطت واستوثقت ، فأخذت على الحَكَمين أن يُحيِيا ما أحيَا القرآن ، وأن يُميتَا ما أماتَ القرآن ، فاختَلَفا وخالَفَا حكم الكتاب والسُّنَّة ، فنبذنا أمرَهما ، ونحن على أمرنا الأوّل ، فما الذي بكم؟ ومن أين أتيتم! قالوا : إنا حكَّمنا ، فلما حكَّمنا أثمنا ، وكنا بذلك كافرين ، وقد تُبْنا فإن تبتَ كما تبنا فنحنُ منك ومعك ، وإن أبيتَ فاعتزِلْنا فإنا منابِذُوك على سواء إن الله لا يحبُّ الخائنين . فقال علي : أصابكم حاصب ، ولا بقي منكم وابر! أبَعْدَ إيماني برسول الله ﷺ وهجرتي معه ، وجهادي في سبيل الله ، أشهد على نفسي بالكُفر! لقد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين . ثم انصرف عنهم .

قال أبو مِخنف : حدثني أبو سَلَمة الزُّهري ـ وكانت أمّه بنت أنس بن مالك ـ أنّ عليًّا قال لأهل النَّهر : يا هؤلاء ، إنّ أنفسكم قد سوّلت لكم فراقَ هذه الحكومة التي أنتم ابتدأتموها وسألتموها وأنا لها كارهٌ ، وأنبأتكم أنّ القوم سألوكُمُوها مكيدةً ودَهْناً ، فأبيتم عليَّ إباءَ المخالِفين ، وعدلتم عنّي عدولَ

النّكَداء العاصِين ، حتى صرفت رأيي إلى رأيكم ؛ وأنتم والله معاشر أخفَّاء الهام ، سُفَهاء الأحلام ، فلم آت ـ لا أبا لكم ـ حراماً. والله ما خبلتُكم عن أموركم ، ولا أخفيتُ شيئاً من هذا الأمر عنكم ، ولا أوطأتكم عشوة ، ولا دَنّيتُ لكم الضَّرّاء ، وإن كان أمرُنا لأمرِ المسلمين ظاهراً ، فأجمع رأيُ مَلَئِكم على أن اختاروا رجلين ، فأخذنا عليهما أن يَحكما بما في القرآن ولا يَعدُواه ، فَتَاها وتركا الحقّ وهما يُبصِرانه ، وكان الجور هواهما ، وقد سبق استيثاقُنا عليهما في الحكم بالعدل ، والصدّ للحقّ سوءَ رأيهما ، وجَوْر حكمهما . والثقة في أيدينا لأنفسنا حين خالفا سبيلَ الحق ، وأتيا بما لا يعرف ؛ فبيّنوا لنا بماذا تستحلّون قتالنا ، والخروج من جماعتنا ؛ إن اختار الناس رجلين أن تضعوا أسيافَكم على عواتقكم ، ثم تستعرضوا الناس ، تضربون رقابَهم ، وتَسفِكون دماءهم ! إن هذا لهو الخسران المبين. والله لو قتلتم على هذا دجاجة لَعَظُم عند الله قتلها ، فكيف بالنفس التي قَتْلُها عند الله حرامٌ ! .

فتنادَوا : لا تُخاطبوهم ، ولا تكلّموهم ، وتهيئوا للقاء الربّ ، الرّواحَ الرّواحَ إلى الجنَّة! فخرج عليٌّ فعبّأ الناس ، فجعل على ميمنته حُجْر بن عديّ ، وعلى ميسرته شَبَث بن رِبْعيّ ـ أو معقل بن قيس الرّياحي ـ وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري ، وعلى الرجالة أبا قَتادة الأنصاري ، وعلى أهل المدينة ـ وهم سبعمائة أو ثمانمائة رجل ـ قيس بن سعد بن عُبادة .

قال : وعبّأت الخوارج ، فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصين الطائيّ ، وعلى الميسرة شُريح بن أوفى العبسي ، وعلى خيلهم حمزة بن سنان الأسَديّ ، وعلى الرّجالة حُرقوص بن زُهير السعديّ .

قال : وبعث علي الأسود بن يزيد المُرادي في ألفي فارس ، حتى أتى حمزة بن سنان وهو في ثلاثمائة فارس من خيلهم ، ورفع عليٌّ رايةَ أمان مع أبي أيوب ، فناداهم أبو أيوب : مَن جاء هذه الرّاية منكم ممّن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ، ومن انصرف منكم إلى الكُوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمِن ؛ إنّه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قَتلةَ إخواننا منكم في سفك دمائكم . فقال فَرْوة بن نوفل الأشجعي : والله ما أدري على أيّ شيء نقاتل عليًّا ! لا أرى إلاّ أن أنْصرف حتى تنفذ لي بصيرتي في قتاله أو اتّباعه . وانصرف في خمسمائة فارس ، حتى نزل البَنْدَنيجَين والدَّسْكرة ، وخرجت طائفةٌ أخرى متفرقين فنزلت الكوفة ، وخرج إلى علي منهم نحو من مائة ، وكانوا أربعة آلاف ، فكان الذين بقُوا مع عبدالله بن وهب منهم ألفين وثمانمائة ، وزحفوا إلى علي ، وقدّم علي الخيلَ دون الرجال ، وصفّ الناس وراء الخيل صَفّين ، وصَفّ المرامية أمامَ الصفّ الأوّل ، وقال لأصحابه : كفّوا عنهم حتى يبدؤوكم ، فإنهم لو قد شدوا عليكم ـ وجُلّهم رجال ـ لم ينتهوا إليكم إلاّ لاغِبين وأنتم رادّون حامُون . وأقبلت الخوارج ، فلمّا أن دنَوا من الناس نادَوا يزيد بن قيس ، فكان يزيد بن قيس على إصبهان فقالوا : يا يزيد بن قيس ، لا حُكْمَ إلاّ لله ، وإن كرهت إصبهان! فناداهم عباس بن شريك وقَبيصة بن ضُبَيعة العبسيان : يا أعداء الله ، أليس فيكم شُرَيح بن أوفى المسرِف على نفسه؟ هل أنتم إلا أشباهه! قالوا : وماحجّتكم على رجل كانت فيه فتنة ، وفينا توبة ، ثمّ تنادَوا : الرّواحَ الرّواحَ إلى الجنّة! فَشَدّوا على الناس والخيل أمام الرجال ، فلم تثبت خيل المسلمين لشدّتهم ، وافترقتْ الخيل فرقتين : فِرقة نحو الميمنة ، وأخرى نحو الميسرة ، وأقبلوا نحو الرجال ، فاستقبلتْ المرامية وجوهَهم بالنَّبْل ، وعطفْت عليهم الخيل من الميمنة

والميسرة، ونهض إليهم الرّجال بالرّماح والسيوف، فوالله ما لَبّثوهم أن أناموهم.

ثم إنّ حمزة بن سنان صاحبَ خيلهم لما رأى الهلاك نادى أصحابه أن انـزِلوا، فـذهبوا لينـزِلوا فلم يتقارّوا حتى حمل عليهم الأسود بن قيس المراديّ، وجاءتهم الخيل من نحو علي، فأهمدوا في الساعة.

قـال أبو مخنف: فحـدّثني عبدالملك بن مسلم بن سـلام بن ثُمامـة الحنفي، عن حكيم بن سعد، قال: ما هـو إلّا أنْ لقينا أهـلَ البصرة، فـما لبّثناهم، فكـأنما قيـل لهم: موتـوا؛ فماتـوا قبل أن تشتـدّ شوكتهم، وتعظمَ نكايتُهم.

قال أبو مخنف: فحدّثني أبو جَناب؛ أن أبا أيّوب أتى عليًّا، فقال: يا أمير المؤمنين، قتلتُ زيدَ بن حُصين، قال: فما قلتَ له وما قال لك؟ قال: طعنتُه بالرّمح في صدره حتى نجمَ من ظهره؛ قال: وقلتُ له: أبشر يا عدوّ الله بالنار! قال: ستعلم أيُّنا أولَى بها صِليًّا؛ فسكت عليٌّ عليها.

قال أبو مخنف، عن أبي جناب: إن عليًّا قال له: هو أوْلى لها صِليًّـا. قال: وجـاء عائـذ بن حملة التميميّ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، قتلتُ كلاباً، قال: أحسنت! أنت محقّ قتلتَ مُبطِلاً. وجاء هانىء بن خطاب الأرْحَبيّ وزياد بن خَصَفة يحتجّان في قتل عبدِالله بن وهب الـراسبيّ، فقال لهـما: كيف صنعتما؟ فقالا: يا أمير المؤمنين، لما رأيناه عرفناه، وابتدرناه فطعنّاه برمْحَيْنا، فقال علي: لا تختلفا، كلاكُما قاتِل. وشدّ جيش بن ربيعة أبو المعتمر الكنانيّ على حُرقوص بن زهير فقتَلَه، وشدّ عبدالله بن زَحْر الخَـوْلانيّ على عبدِالله بن شَجَرَة السُّلمِيّ فقتله، ووقع شُريح بن أوفَى إلى جانب جدار، فقاتل على ثُلْمة فيه طـويلاً من نَهار، وكان قَتَل ثلاثةً من هَمْدان، فأخذ يرتجز ويقول:

قـد عَلِمَتْ جـارِيَـةٌ عَبْسِيَّـهْ ... نـاعِـمَـةٌ في أَهلِهـا مَـكْفِيَّـهْ
أنّي سَأَحْمي ثُلْمَتِي العَشِيَّـهْ

فشدّ عليه قيسُ بن معاوية الدُّهنيّ فقطع رجلَه، فجعل يقاتلهم، ويقول:

القَـرْمُ يَحْمـي شَـوْلَهُ مَعْقـولاَ

ثم شدّ عليه قيس بن معاوية فقتله، فقال الناس:

اقتَتَلَتْ هَمْـدانُ يَـوْمـاً وَرَجُـلْ ... اقتَتَلوا مِنْ غُـدْوة حتى الأصُـلْ
فَفَتحَ اللّهُ لَهمْـدانَ الرَّجُلْ

وقال شُريح:

أَضْـرِبُهُمْ ولَـوْ أَرَى أَبـا حَسَنْ ... ضَـرَبْتُـهُ بـالسيفِ حتى يَطْمَئِنّْ

وقال:

أَضْـرِبُهُـمْ ولـو أَرَى عَـلِيًّـا ... أَلْـبَسْتُـهُ أبْيَضَ مَشْـرَفِيًّـا

قال أبو مخنف: حدثني عبدالملك بن أبي حرّة، أن عليًّا خرج في طلب ذي الثُّدَيّة ومعه سليمـان بن ثُمامة الحنفي أبو جَبْرة، والرّيان بن صبرة ابن هَوْذة، فوجده الرّيان بن صبرة بن هَوْذة في حُفْرة على شاطىء

النهر في أربعين أو خمسين قتيلاً . قال : فلما استُخرِج نظر إلى عَضُدِه ، فإذا لحم مجتمع على منكبِه كثَدْي المرأة ، له حَلَمة عليها شَعَرات سُودَ ، فإذا مُدّت امتدّت حتى تحاذى طول يده الأخرى ، ثم تُترك فتعود إلى منكبه كثدي المرأة ، فلما استُخرج قال علي : الله أكبر ! والله ما كذَبتُ ولا كُذِبت ، أما والله لولا أن تنكلوا عن العمل، لأخبرتُكم بما قضى الله على لسان نبيّه ﷺ لمن قاتلهم مستبصراً في قتالهم ، عارفاً للحقّ الذي نحن عليه . قال : ثم مرَّ وهم صرعَى فقال : بؤساً لكم ! لقد ضرّكم مَن غرّكم ؛ فقالوا : يا أمير المؤمنين ، مَن غرّهم ؟ قال : الشيطان ، وأنفسٌ بالسوء أمّارة ، غرّتهم بالأماني ، وزينت لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون . قال: وطلب من به رمق منهم فوجدناهم أربعمائة رجل ، فأمر بهم علي فدفعوا إلى عشائرهم ، وقال: احملوهم معكم فداووهم، فإذا بَرِئوا فوافُوا بهم الكوفة ، وخذوا ما في عسكرهم من شيء .

قال : وأما السلاح والدواب وما شهدوا به عليه الحرب فقسَّمه بين المسلمين ، وأما المتاع والعبيد والإماء فإنه حين قدم ردّه على أهله . وطلب عدي بن حاتم ابنه طَرفة فوجده ، فدَفَنه ، ثم قال : الحمد لله الذي ابتلاني بيومك على حاجتي إليك . ودَفَن رجالٌ من الناس قَتْلاهم ، فقال أمير المؤمنين حين بلغه ذلك: ارتحِلوا إذاً ، أتقتلونهم ثم تدفنونهم ! فارتحل الناس .

قال أبو مِخنف عن مجاهد ، عن المحلّ بن خليفة : أنّ رجلاً منهم من بني سَدوس يقال له العَيْزار بن الأخنس كان يرى رأيَ الخوارج ، خرج إليهم ، فاستقبل وراء المدائن عديّ بن حاتم ومعه الأسود بن قيس والأسود بن يزيد المُراديّان ، فقال له العيزار حين استقبلَه : أسالمٌ غانم ، أم ظالمٌ آثم؟ فقال عديّ : لا ، بل سالمٌ غانم ، فقال له المراديّان : ما قلت هذا إلاّ لشرّ في نفسك ، وإنك لنعرفك يا عَيزار برأي القوم ، فلا تفارقنا حتى نذهب بك إلى أمير المؤمنين فنخبرَه خبرَك . فلم يكن بأوشَكَ أن جاء علي فأخبَراه خبَره ، وقالا : يا أميرَ المؤمنين ، إنه يرى رأيَ القوم ، قد عرفْناه بذلك ، فقال : ما يحِلّ لنا دمه ، ولكنا نحبسه ، فقال عديّ بن حاتم: يا أميرَ المؤمنين ، ادفَعْه إليّ وأنا أضمن ألاّ يأتيَك مِن قِبَله مكروه . فدَفَعه إليه .

قال أبو مخنف: حدّثني عمران بن حُدير ، عن أبي مِجْلز ، عن عبدالرحمن بن جندب بن عبدالله ، أنه لم يقتَل من أصحاب عليّ إلاّ سبعة .

قال أبو مخنف ، عن نُمَير بن وَعْلة اليناعيّ ، عن أبي دَرْداء ، قال : كان علي لما فرغ من أهل النهروان حَمِد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله قد أحسن بكم ، وأعزّ نصركم ، فتوجّهوا من فَوْركم هذا إلى عدوّكم . قالوا : يا أمير المؤمنين ، نفدَتْ نبالُنا ، وكَلّت سيوفُنا ، ونصَلَتْ أسنّة رماحِنا ، وعاد أكثرها قِصَداً، فارجع إلى مِصرنا ، فلنستَعدّ بأحسن عدّتنا، ولعلّ أمير المؤمنين يزيد في عُدّتنا عُدّة من هلك منا ، فإنه أوفى لنا على عدّونا . وكان الذي تولى ذلك الكلام الأشعث بن قيس ، فأقبل حتى نزل النُّخَيلة ، فأمر الناسَ أن يلزموا عسكَرَهم ، ويوطّنوا على الجهاد أنفسَهم ، وأن يُقلّوا زيارَةَ نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوّهم ، فأقاموا فيه أياماً ، ثم تسلّلوا من معسكرهم ، فدخلوا إلاّ رجالاً من وجوه الناس قليلاً ، وتُرك العسكر خالياً ، فلما رأى ذلك دخل الكوفة ، وانكسر عليه رأيُه في المسير .

قال أبو مخنف عمّن ذكره ، عن زيد بن وهب : إنّ عليًّا قال للناس ـ وهو أوّل كلام قاله لهم بعد النّهر :

أيّها الناس ، استعدّوا للمسير إلى عدوّ في جهاده القُربة إلى الله ودرَك الوسيلة عنده . حيارَى في الحقّ ، جُفاة عن الكتاب ، نُكُبٌ عن الدّين ، يَعمَهون في الطّغيان ، ويُعْكَسون في غَمْرة الضلال ، فأعِدّوا لهم ما استطعتْم من قوّة ومن رباط الخيل ، وتوكّلوا على الله ، وكفى بالله وكيلا ، وكفى بالله نصيراً !

قال : فلا هم نفروا ولا تيسّروا ، فتركهم أياماً حتى إذا أيس من أن يفعلوا ، دعا رؤساءهم ووجوهَهم ، فسألهم عن رأيهم ، وما الذي يُنظرهم ، فمنهم المعتلّ ، ومنهم المكرَه ، وأقلّهم من نَشِط . فقام فيهم خطيباً ، فقال :

عبادَ الله ، ما لكم إذا أمرتُكم أن تنفِروا أثّاقلتم إلى الأرض! أرَضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، وبالذّل والهوان من العِزّ! أوَ كلّما ندبتُكم إلى الجهاد دارت أعينُكم كأنكم من الموت في سَكْرة ، وكأنّ قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون ! وكأن أبصاركم كُمْه فأنتم لا تُبصِرون . لله أنتم ! ما أنتم إلّا أسُود الشّرَى في الدَّعة ، وثعالبُ رَوّاغة حين تُدْعَوْن إلى البأس . ما أنتم لِي بثقة سَجيسَ الليالي ، ما أنتم برَكْب يُصالُ بكم ، ولا ذي عِزّ يُعتصَم إليه . لَعمرُ الله ، لبئس حُشّاش الحرب أنتم ! إنكم تُكادون ولا تَكِيدون ، ويتنقّص أطرافكم ولا تتحاشَوْن ، ولا يُنام عنكم وأنتم في غفلةٍ ساهون ؛ إن أخا الحَرب اليَقْظان ذوعقل ، وبات لذلّ مَن وادَع ، وغلب المتجادلون ، والمغلوب مقهور ومسلوب . ثم قال : أما بعد ، فإنّ لي عليكم حقًّا ، وإن لكم عليَّ حقًّا ، فأمّا حقكم عليّ فالنّصيحة لكم ما صحبتُكم، وتوفيرُ فَيْئكم عليكم ، وتعليمُكم كيما لا تجهلوا ، وتأديبُكم كي تَعلَّموا ؛ وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة ، والنصح لي في الغيب والمشهد ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم ، فإن يُرِد اللّهُ بكم خيراً انتزعتم عما أكرَه ، وتَراجَعوا إلى ما أحِبّ ، تنالوا ما تَطلُبون ، وتُدرِكوا ما تأمُلون .

وكان غير أبي مخنف يقول : كانت الوقعة بين عليّ وأهل النّهر سنة ثمان وثلاثين ، وهذا القول عليه أكثرُ أهل السِّيَر .

وممّا يصحّحه أيضاً ما حدّثني به عُمارة الأسديّ ، قال : حدّثنا عبيد الله بن موسى ، قال : أخبرنا نعيم ، قال : حدّثني أبو مريم أن شَبَث بنَ رِبْعيّ وابن الكوّاء خَرَجَا من الكُوفة إلى حَروراء ، فأمر عليٌّ الناسَ أن يخرجوا بسلاحهم ، فخرجوا إلى المسجد حتى امتلأ بهم ، فأرسل إليهم : بئسَ ما صنعتمْ حين تدخلون المسجدَ بسلاحكم ! اذهَبوا إلى جبّانة مُراد حتى يأتيَكم أمري .

قال أبو مريم : فانطلقْنا إلى جبانة مرُاد فكنّا بها ساعة من نهار ، ثم بلغَنا أن القوم قد رجعوا وهم زاحفون . قال : فقلت : أنطلق أنا حتى أنظرَ إليهم ، فانطلقت حتى أتخلّل صفوفَهم ، حتى انتهيت إلى شَبَث بن رِبعيّ وابن الكوّاء وهما واقفان متورّكان على دابّتيهما ، وعندهما رسل عليٍّ وهم يناشدونَهما الله لّما رجعا بالناس! ويقولون لهم: نعيذكم بالله أن تعجّلوا بفتنة العام خشية عام قابل. فقام رجل إلى بعض رسل عليّ فعقر دابته ، فنزل الرجل وهو يسترجع ، فحمل سرجَه ، فانطلق به وهم يقولون : ما طلبُنا إلّا

منابذتهم ، وهم يناشدونهم الله ، فمكثْنا ساعة ، ثم انصرفوا إلى الكُوفة كأنه يوم فِطْر أو أضحَى .

قال : وكان عليٌّ يحدّثنا قبل ذلك أنّ قوماً يَخرُجون من الإسلام يَمرُقون من الدين كما يَمرُقا السهم من الرميّة ، علامتهم رجل مُخْدَج اليد . قال : وسمعتُ ذلك منه مراراً كثيرة ، قال : وسمعه نافع «المخدج» أيضاً ـ حتى رأيته يتكرّه طعامه من كثرة ما سمعه ، يقول : وكان نافع معنا يصلي في المسجد بالنهار ويبيت فيه بالليل ، وقد كنت كسوتُه بُرْنُساً ، فلقيته من الغد ، فسألتُه : هل كان خرج مع الناس الذين خرجوا إلى حَرُوراء ؟ فقال : خرجت أريدُهم حتى إذا بلغت إلى بني سعد ، لقيَني صِبيان فنَزَعوا سلاحِي ، وتلعّبوا بي ، فرجعت حتى إذا كان الحوْل أو نحوه خرج أهل النّهر ، وسار عليّ إليهم ، فلم أخرج معه وخرج أخي أبو عبدالله . قال : فأخبرني أبو عبدالله أنّ عليًّا سار إليهم حتى إذا كان حذاءَهم على شطّ النّهروان أرسل إليهم يناشدُهم اللّهَ ويأمرهم أن يرجعوا ، فلم تزل رسُلُه تختلف إليهم ، حتى قَتَلوا رسولَه ، فلما رأى ذلك نهض إليهم فقاتَلَهم حتى فرغ منهم ، ثم أمر أصحابه أن يلتمسوا المخدَج ، فالتمَسوه ، فقال بعضهم : ما نجدُه ، حتى قال بعضهم : لا ، ما هو فيهم . ثم إنه جاء رجل فبشّره وقال : يا أمير المؤمنين ، قد وجدناه تحت قَتيلين في ساقِيَة . فقال: اقطَعوا يدَه المخدَجة ، وأتوني بها ، فلما أُتِي بها أخَذها ثم رَفَعها ، وقال: والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِّبتُ .

قال أبو جعفر : فقد أنبأ أبو مريم بقوله : « فرجعت حتى إذا كان الحول أو نحوه ، خرج أهل النهر » ، أنّ الحرب التي كانت بين عليّ وأهل حَرُوراء كانت في السنة التي بعد السنة التي كان فيها إنكار أهل حَروراءَ على علي التحكيم ، وكان ابتداء ذلك في سنة سبع وثلاثين على ما قد ثبت قبلُ ، وإذا كان كذلك ، وكان الأمر على ما روينا من الخبر عن أبي مريم ، كان معلوماً أنّ الوقعة كانت بينه وبينهم في سنة ثمان وثلاثين .

وذكر علي بن محمد، عن عبدالله بن ميمون ، عن عمرو بن شُجَيرة ، عن جابر ، عن الشعبيّ ، قال : بعث عليٌّ بعدما رجع من صِفّين جَعْدة بن هبيرة المخزوميّ ، وأمّ جعدة أمّ هانىء بنت أبي طالب ـ إلى خُراسان ، فانتهى إلى أَبْرشهر وقد كَفَروا وامتنعوا، فقدم على علي ، فبعث خُليد بن قرّة اليربوعيّ فحاصر أهل نَيْسابور حتى صالحوه ، وصالحه أهلُ مروْ .

وحجّ بالناس في هذه السنة ـ أعني سنة سبع وثلاثين ـ عبيد الله بن عبّاس ، وكان عامل عليٍّ على اليَمَن ومخاليفها . وكان على مكة والطائف قُثَم بن العبّاس ، وعلى المدينة سهل بن حُنَيف الأنصاريّ ، وقيل : كان عليها تمّام بن العباس . وكان على البصرة عبدالله بن العباس ، وعلى قضائها أبو الأسود الدُّؤَليّ ، وعلى مصر محمد بن أبي بكر ، وعلى خُراسانَ خليد بن قرّة اليربوعيّ .

وقيل : إن عليًّا لما شخص إلى صِفّين استَخلَف على الكوفة أبا مسعود الأنصاري ؛ حدّثني أحمد بن إبراهيم الدّوْرقيّ ، قال : حدّثنا عبدُ الله بن إدريس ، قال : سمعتُ ليثاً ذكر عن عبدالعزيز بن رُفَيع ، أنه لما خرج عليّ إلى صِفّين استخلف على الكوفة أبا مسعود الأنصاريّ عقبة بن عمرو . وأمّا الشام فكان بها معاوية بن أبي سُفْيان .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين
ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها مَقتَل محمّد بن أبي بكر بمصر ، وهو عاملٌ عليها ، وقد ذكرنا سببَ تولية عليٍّ إياه مصر ، وعزل قيس بن سعد عنها ، ونذكر الآن سببَ قتله ، وأين قتل ؟ وكيف كان أمره ؟ ونبدأ بذكر من تتمّة حديث الزّهريّ الذي قد ذكرنا أوّله قبلُ ، وذلك ما حدّثنا عبدالله ، عن يونس ، عن الزّهريّ ، قال : لما حُدّث قيس بن سعد بمجيء محمد بن أبي بكر ، وأنه قادم عليه أميراً ، تلقّاه وخلا به وناجاه ، فقال : إنك جئت من عند امرىء لا رأيَ له ، وليس عَزْلُكم إيّايَ بمانعي أن أنصح لكم ، وأنا مِن أمرِكم هذا على بصيرة ، وإني في ذلك على الذي كنت أكايد به معاوية وعمراً وأهل خِرْبَتا ، فكايِدْهم به ، فإنك إن تكايِدْهم بغيره تَهلِك . ووصف قيس بن سعد المكايدة التي كان يكايدهم بها ، واغتشّه محمد بن أبي بكر ، وخالف كلّ شيء أمره به . فلما قدم محمد بن أبي بكر وخرج قيس قِبَل المدينة بعث محمد أهلَ مصر إلى خِرْبَتا ، فاقتتلوا ، فهزِم محمد بن أبي بكر ، فبلغ ذلك معاوية وعمراً ، فسارا بأهل الشام حتى افتتحا مصر ، وقتَلا محمد بن أبي بكر ، ولم تزل في حيّز معاوية ، حتى ظهر . وقدم قيس بن سعد المدينة ، فأخافه مروان والأسود بن أبي البَخْتَريّ ، حتى إذا خاف أن يؤخذ أو يُقتَل ركب راحلته ، وظهر إلى علي . فكتب معاوية إلى مرْوان والأسود يتغيّظ عليهما ويقول : أمددتُما عليًّا بقيس بن سعد ورأيه ومكايَدته ، فوالله لو أنّكما أمددتُماه بمائة ألفِ مقاتل ما كان بأغيظَ إليَّ من إخراجِكما قيسَ بن سعد إلى علي . فقدم قيس بن سعد على علي ، فلما باثّه الحديثَ ، وجاءهم قتلُ محمد بن أبي بكر ، عرف أنّ قيس بن سعد كان يوازي أموراً عظاماً من المكايدة ، وأنّ مَن كان يشير عليه بعزل قيس بن سعد لم يَنصَح له .

وأمّا ما قال في ابتداء أمرِ محمد بن أبي بكر في مصيرِه إلى مصر وولايتِه إياها أبو مخنف ، فقد تقدّم ذكرُنا له ، ونذكر الآن بقيّة خبره في روايته ما روى من ذلك عن يزيد بن ظَبْيان الهَمْدانيّ ، قال : ولما قتل أهل خِرْبَتا ابنَ مضاهم الكلبيّ الذي وجّهه إليهم محمد بن أبي بكر ، خرج معاوية بن حُديج الكنديّ ثم السَّكُوني ، فدعا إلى الطلب بدم عثمانَ ، فأجابه ناس آخَرون ، وفسدتْ مصر على محمد بن أبي بكر ، فبلغ عليًّا وثوبُ أهل مصرَ على محمد بن أبي بكر ، واعتمادُهم إياه ، فقال : ما لمصرَ إلاّ أحد الرَّجُلين ! صاحبنا الّذي عزَلْناه عنها ـ يعني قيساً ـ أو مالك بن الحارث ـ يعني الأشتر . قال : وكان علي حين انصرف من صِفِّين ردّ الأشترَ على عمله بالجزيرة ، وقد كان قال لقيس بن سعد : أقم معي على شُرَطِي حتى نفرغ من أمر هذه الحكومة ، ثم أخرج إلى أذْرَبيجان ؛ فإنّ قيساً مقيم مع علي على شُرْطته . فلما انقضى أمرُ الحكومة كتب علي

إلى مالك بن الحارث الأشتر ، وهو يومئذ بنَصِيبين : أمّا بعد ، فإنك ممّن استظهرتُه على إقامة الدين ، وأقمعُ به نخوةَ الأثيم ، وأشُدّ به الثّغر المَخُوف . وكنت ولّيت محمد بن أبي بكر مصر ، فخرجتْ عليه بها خوارج ، وهو غلامٌ حَدَث ليس بذي تجربة للحَرْب ، ولا بمجرِّب للأشياء ، فاقدم علي لننظر في ذلك فيما ينبغي ، واستخلِفْ على عَملك أهلَ الثقة والنصيحة من أصحابك . والسلام .

فأقبَل مالكٌ إلى عليٍّ حتى دخل عليه ، فحدّثه حديثَ أهل مصرَ ، وخبّره خبرَ أهلها ، وقال : ليس لها غيرك ، أخرج رحِمَك الله! فإني إن لم أوصِك اكتفيتُ برأيك . واستعِن بالله على ما أهمّك ، فاخلِط الشدّة باللِّين ، وارفق ما كان الرفق أبلَغ ، واعتزِم بالشدّة حين لا يغني عنك إلّا الشدّة .

قال : فخرج الأشتر من عند علي فأتى رحله ، فتهيَّأ للخروج إلى مصر ، وأتت معاويةَ عيونُه ، فأخبروه بولاية علي الأشتر ، فعظُم ذلك عليه ، وقد كان طمع في مصر ، فعلم أن الأشتر إنْ قدمها كان أشدّ عليه من محمد بن أبي بكر ، فبعث معاوية إلى الجايستار ـ رجل من أهل الخراج ـ فقال له : إنّ الأشتر قد وُلِّيَ مصر، فإن أنت كَفَيْتَنيه لم آخذْ منك خراجاً ما بقيتَ ، فاحتلْ له بما قدرتَ عليه . فخرج الجايستار حتى أتى القُلْزم وأقام به ، وخرج الأشتر من العراق إلى مصرَ ، فلما انتهى إلى القلزُم استقبله الجايستار ، فقال : هذا مَنزِل ، وهذا طعامٌ وعَلَف ، وأنا رجلٌ من أهل الخراج ، فنزل به الأشتر ، فأتاه الدِّهقان بعَلَف وطعام ، حتى إذا طَعِم أتاه بشربة من عَسَل قد جعل فيها سُمًّا فسقاه إيّاه ، فلما شربها مات . وأقبل معاوية يقول لأهل الشأم : إنّ عليًّا وجّه الأشتر إلى مصرَ ، فادعوا اللّهَ أن يَكفيَكُموه . قال : فكانوا كلّ يوم يَدْعون الله على الأشتر ، وأقبل الذي سقاه إلى معاوية فأخبَرَه بمَهلِك الأشتر ، فقام معاوية في الناس خطيباً ، فحَمِد اللّهَ وأثنَى عليه وقال : أمّا بعد ، فإنه كانت لعليّ بن أبي طالب يدان يمينان ، قُطعتْ إحداهما يومَ صِفِّين ـ يعني عمّار بن ياسر ـ وقُطِعت الأخرى اليوم ـ يعني الأشتر .

قال أبو مخنف: حدّثني فُضَيل بن خَدِيج ، عن مولًى للأشتر ، قال : لما هلك الأشتر وجدنا في ثَقَله رسالة علي إلى أهل مصر :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى أمّة المسلمين الذين غَضِبوا لله حين عُصيَ في الأرض ، وضَرَب الجورُ بأرواقه على البرّ والفاجر ، فلا حقّ يُستراح إليه ، ولا منكَر يُتناهَى عنه . سلام عليكم ، فإني أحمَد اللّهَ إليكم الذي لا إله إلّا هو . أما بعد فقد بعثتُ إليكم عبداً من عبيد الله لا ينام أيام الخوف ، ولا يَنكل عن الأعادي حِذارَ الدّوائر، أشدّ على الكفّار من حريق النار ، وهو مالك بن الحارث أخو مَذحِج ، فاسمَعوا له وأطيعوا ، فإنه سيفٌ من سيوف الله ، لا نابي الضّريبة ، ولا كَليل الحدّ ، فإن أمَرَكم أن تُقدموا فأقدموا، وإن أمَرَكم أن تَنفِروا فانفروا ، فإنه لا يُقدم ولا يُحجم إلا بأمري ، وقد آثرتكم به على نفسي لنُصحِه لكم ، وشدّة شَكيمته على عدوّكم ، عصَمَكم الله بالهدى ، وثبّتكم على اليقين . والسلام .

قال : ولما بلغ محمّد بن أبي بكر أنّ عليًّا قد بعث الأشتر شقّ عليه ، فكتب علي إلى محمد بن أبي بكر عند مَهلِك الأشتر ، وذلك حين بلغه مَوْجِدةُ محمد بن أبي بكر لقُدوم الأشتر عليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله علي أميرِ المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر ، سلامٌ عليك ، أما بعد ؛ فقد بلغني موجِدَتُك

من تسريحي الأشترَ إلى عَمَلِك ، وإني لم أفعل ذلك استبطاءً لك في الجهاد ، ولا ازدياداً مني لك في الجدّ ، ولو نزعتُ ما تحتَ يدك من سلطانك لولّيتُك ما هو أيسرُ عليكَ في المئونة ، وأعجب إليك ولايةً منـه . إنّ الرجل الذي كنتُ وليته مصرَ كان لنا نصيحاً ، وعلى عدوّنا شديداً ، وقد استكمَل أيّامَه ، ولاقَى حِمامَه ، ونحن عنه راضُون ، فرضي الله عنه ، وضاعَفَ له الثواب ، وأحسَنَ فله المآب . اصبـر لعدوّك، وشمِّـر للحرب ، وادعُ إلى سبيلِ ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأكثِرْ ذكرَ الله، والاستعانةَ به، والخوفَ منه، يَكفِك ما أهمّك، ويُعِنْك على ما ولّاك، أعاننا الله وإيّاك على ما لا يُنال إلّا برحمته . والسلام عليك .

فكتب إليه محمد بن أبي بكر جواب كتابه :

بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عليٍّ أمير المؤمنين من محمد بن أبي بكر، سلامٌ عليك، فإنّي أحمد الله إليك الذي لا إلَهَ غيره ، أما بعد ، فإنّي قد انتهى إليّ كتابُ أمير المؤمنين ، ففهِمْته وعـرفتُ ما فيـه ، وليس أحد من الناس بأرضَى مني برأي أمير المؤمنين ، ولا أجهَد على عـدوّه ، ولا أرأف بولّيـه مني ، وقد خرجتُ فعسكرتُ ، وأمَّنتُ الناس إلّا من نَصَب لنا حرباً ، وأظهَر لنا خلافاً ، وأنا متّبع أمرَ أمير المؤمنـين وحافظُه ، وملتجىء إليه ، وقائمٌ به ، والله المستعان على كلّ حال ؛ والسلام عليك .

قال أبو مخنف: حدّثني أبو جَهضم الأزدي - رجل من أهل الشأم - عن عبدالله بن حَوالة الأزديّ ، أنّ أهل الشأم لما انصرفوا من صِفِّين كانوا ينتظرون ما يأتي به الحَكَمان ، فلما انصرفا وتفرّقا بايع أهلُ الشأم معاويةَ بالخلافة ، ولم يزدد إلّا قوّة ، واختلف الناسُ بالعراق على علي ، فما كان لمعاوية همٌّ إلّا مصر، وكان لأهلها هائباً خائفاً، لقربهم منه، وشدّتهم على من كان على رأي عثمان، وقد كان عَلَى ذلك علِم أن بها قوماً قد ساءهم قتلُ عثمانَ، وخالفوا عليًّا ، وكان معاوية يرجو أن يكون إذا ظهر عليها ظهر على حرب عـلي، لعظم خَراجها. قال: فدعا معاوية من كان معه من قريش: عمرَو بن العاص وحبيب بن مسلمة وبُسْرَ بن أبي أرطاة والضحّاك بن قيس وعبدَ الرحمن بن خالد بن الوليد ؛ ومن غيـرهـم أبا الأعـور عَمرَو بن سُفيـان السُّلَميّ وحمزةَ بن مالك الهَمْداني ، وشُرَحبيل بن السِّمْط الكِندي فقال لهم: أتـدرون لِمَ دعوتكم؟ إنّي قـد دعوتُكم لأمر مُهِمّ أحبّ أن يكون اللّهُ قد أعانَ عليه ، فقال القوم كلهم - أو من قال منهم: إنّ الله لم يُطلِع على الغيب أحداً ، وما يُدرِينا ما تُريد! فقال عمرو بن العاص : أرى واللّهِ أمرَ هذه البلاد الكثير خراجُها، والكثير عُدَدُها وعدد أهلها ، أهمّك أمرُها، فدعوتَنا إذاً لتسألَنا عن رأينا في ذلك، فإن كنتَ لذلك دعوتَنا، وله جمعتَنا، فاعزم وأقدِم، ونِعمَ الرأي رأيتَ! ففي افتتاحها عِزُّك وعزّ أصحابك، وكَبْت عدوّك، وذلّ أهل الخلاف عليك. قال له معاوية مجيباً: أهمَّك يا بن العاصِ ما أهمّك - وذلك لأنّ عمرو بن العاص كان صالَح معاويةَ حين بايعه على قتال علي بن أبي طالب، على أنّ له مصرَ طُعْمةً ما بقيَ - فأقبل معاوية على أصحابه فقال: إنّ هذا - يعني عَمراً - قد ظنّ ثم حقّق ظنّه، قالوا له: لكنا لا ندري؛ قال معاوية: فإنّ أبا عبدالله قد أصاب، قال عمرو: وأنا أبو عبدالله؛ قال: إنّ أفضل الظُّنون ما أشبه اليقين .

ثمّ إنّ معاوية حمد الله وأثنَى عليه، ثم قـال: أما بعـد، فقد رأيتم كيف صنـع اللّهُ بكم في حربكم عدوّكم، جاؤوكم وهم لا يَروْن إلّا أنهم سيقيضون بَيضتَكم، ويُخربون بلادَكم، ما كانوا يرَون إلّا أنكم في أيديهم، فردّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً مما أحبّوا ، وحاكَمْناهم إلى الله ، فحكم لنا عليهم . ثم جمع لنا

كلمتَنا ، وأصلح ذاتَ بيننا ، وجعلهم أعداء متفرّقين يشهدُ بعضُهم على بعض بالكُفْر ، ويسفِك بعضهم دَم بعض. واللّهِ إنّي لأرجو أن يتمّ لنا هذا الأمر، وقد رأيت أن نُحاول أهلَ مصرَ، فكيف ترَوْن ارتئاءنا لها ! فقال عمرو : قد أخبرتُك عمّا سألتَني عنه ، وقد أشرتُ عليك بما سمعت ؛ فقال معاوية : إنّ عَمراً قد عزم وصَرَم ، ولم يفسّر ، فكيف لي أن أصنع ! قال له عمرو: فإنّي أشير عليك كيف تصنع ، أرى أن تَبعث جيشاً كثيفاً ، عليهم رجلٌ حازم صارم تأمَنُه وتثِق به، فيأتي مصرَ حتى يدخلَها ، فإنه سيأتيه مَن كان من أهلها على رأينا فيظاهرُه على من بها مِن عدوّنـا ، فإذا اجتمـع بها جنـدُك ومَن بها من شيعتك على مَن بهـا من أهل حربك ، رجوتُ أن يعين الله بنصرِك ، ويُظهر فُلْجَك. قال له معاوية : هل عندك شيء دون هذا يُعمَل به فيما بيننا وبينهم؟ قال : ما أعلَمه، قال : بلى، فإنّ غير هذا عندي، أرى أن نكاتِب مَن بها مِن شيعتنا، ومَن بها من أهل عدوّنا ، فأمّا شيعتنا فآمُرُهم بالثبات على أمرهم ، ثم أمنِّيهم قُدومَنا عليهم ، وأما مَن بها مِن عدوّنا فندعوهم إلى صُلْحنا ، ونمنِّيهم شكرَنا ، ونخوّفهم حرَبنا ، فإن صلَح لنا ما قبَلهم بغير قتال فذاك ما أحببنا ، وإلاّ كان حربُهم من وراء ذلك كلّه . إنك يابن العاص امرؤ بُورِك لك في العَجَلة ، وأنا امرؤٌ بورك لي في التُّؤدة؛ قال: فاعمل بما أراك الله، فوالله ما أرى أمرَك وأمرَهم يصيرُ إلاّ إلى الحرب العَوان . قال: فكتب معاوية عند ذلك إلى مسلمة بن مخلّد الأنصاريّ وإلى معاوية بن حُـدَيج الكِنـديّ ـ وكانـا قد خـالفا عليًّا : بسم الله الرَّحمن الرحيم ، أمّا بعد، فإنّ الله قد ابتَعَثكما لأمـر عظيم أعـظمَ به أجـرَكما ، ورفَـع به ذِكرَكما ، وزيّنكُـما به في المسلمـين ؛ طَلبكما بـدمِ الخليفةِ المـظلوم ، وغضبكما لله إذ تُـرِك حكم الكتاب، وجاهدتما أهلَ البغِي والعُدوان ، فأبشروا بِرضوان الله، وعاجِل نصرِ أولياءِ الله ، والمواساة لكما في الدنيـا وسلطاننا حتى يُنْتَهى في ذلك ما يُرضيكما ، ونؤدّي به حقَّكما إلى ما يصير أمرُكما إليه . فـاصبروا وصـابروا عدوَّكما ، وادعوا المدبِر إلى هُداكما وحفظِكما ، فإنّ الجيش قد أضِلّ عليكما ، فانقشع كلّ ما تكرهان ، وكان كلّ ما تَهوَيان ؛ والسلام عليكما .

وكَتب هذا الكتابَ وبَعث به مع مولًى له يقال له سُبَيع .

فخرج الرسول بكتابه حتى قدم عليهما مصر ومحمد بن أبي بكر أميرهـا ، وقد نـاصَب هؤلاء الحربَ بها ، وهو غير متخوّن بها يوم الإقدام عليه . فدفع كتابَه إلى مسلمة بن مخلّد وكتابَ معاوية بن حُدَيج ، فقال مسلمة : امضِ بكتاب معاوية إليه حتى يقرأه ، ثم القني به حتى أجيبه عني وعنه ، فانطلق الرسول بكتاب معاويةَ بن حُدَيج إليه ، فأقرأه إيّاه، فلما قرأه قال: إنّ مسلمة بن مخلّد قد أمرني أن أردّ إليه الكتاب إذا قرأتَه لكي يجيبَ معاوية عنك وعنه . قال: قل له فليفعل؛ ودفع إليه الكتاب، فأتاه. ثم كتب مسلمة عن نفسه وعن معاوية بن حُدَيج : أما بعد ، فإنّ هذا الأمر الذي بذلنا له نفسَنا ، واتّبعْنا أمرَ الله فيه ، أمرٌ نرجو به ثوابَ ربّنا ، والنصرَ ممن خالفنا ، وتعجيلَ النِّقمة لمن سَعَى على إمامنا ، وطأطأ الرّكض في جهادنا ، ونحن بهذا الحيِّز من الأرض قد نَفَينا مَن كان به من أهل البغي ، وأنهَضْنا من كان به من أهل القِسْط والعدل ، وقد ذكرتَ المواساة في سلطانِكَ ودنياك ، وبالله إنّ ذلك لأمرٌ ما لَه نهضْنا ، ولا إيّاه أردْنا ، فإنْ يجمع الله لنا ما نطلب ، ويؤتنا ما تمنّينا ، فإنّ الدنيا والآخرةَ لله ربِّ العالمين، وقد يؤتيهما الله معاً عالماً من خلقه ، كما قال في كتـابه ، ولا خلفَ لمـوعوده ، قـال : ﴿ فَآتَـاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الـدُّنْيَـا وَحُسْنَ ثَـوَابِ الآخِـرَةِ وَٱللّهُ يُحِبُّ

المُحْسِنِينَ ﴾(١) ، عجّل علينا خَيلَك ورَجْلك ، فإنّ عدوّنا قد كان علينا حرباً ، وكنا فيهم قليلاً ، فقد أصبحوا لنا هائبين ، وأصبحْنا لهم مقرنين ، فإن يأتنا الله بمَدَد من قِبَلك يفتح الله عليكم ، ولا حولَ ولا قوّة إلاّ بالله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ والسلام عليك .

قال : فجاءه هذا الكتاب وهو يومئذٍ بفِلَسطين ، فدعا النّفرَ الذين سمّاهم في الكتاب فقال: ماذا ترون ؟ قالوا : الرأي أن تبعث جُنداً من قِبَلك ، فإنك تفتحها بإذن الله . قال معاوية : فتجهّز يا أبا عبدالله إليها - يعني عمرَو بنَ العاص - قال: فبعثه في ستة آلاف رجل ، وخرج معاوية وودّعه وقال له عند وداعه إيّاه : أوصيك يا عَمرو بتقوى الله والرفق فإنه يُمْن ، وبالمَهَل والتُّؤدَة، فإنَّ العَجَلَة من الشيطان ، وبأن تقبلَ ممن أقبَل ، وأن تعفوَ عمّن أدبرَ ، فإن قَبل فَبِها ونعمتْ ، وإن أبَى فإنّ السطوة بعد المعذرة أبلَغ في الحجّة ، وأحسن في العاقبة ، وادعُ الناسَ إلى الصلح والجماعة ، فإذا أنت ظهرتَ فليكن أنصارُك آثرَ الناس عندَك ، وكلَّ الناس فأوْلِ حُسْناً . قال: فخرج عَمرٌو يسير حتى نزل أدانيَ أرض مصرَ ، فاجتمعتَ العثمانية إليه ، فأقام بهم ، وكتب إلى محمد بن أبي بكر :

أما بعد، فتنحّ عني بدمك يابن أبي بكر ، فإنّي لا أحبُّ أن يصيبَك مني ظَفَر ، إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ، ورفضِ أمرِك ، ونَدِموا على اتّباعك ، فهم مُسلِموك لو قد التقت حَلْقتا البِطان ، فاخرج منها ، فإني لك من الناصحين ؛ والسلام .

وبعث إليه عمرو أيضاً بكتاب معاوية إليه :

أما بعد، فإنّ غبَّ البغي والظلمِ عظيم الوَابل ، وإنّ سَفْك الدم الحرام لا يَسلَم صاحبه من النّقمة في الدنيا ، ومن التَّبِعة الموبِقة في الآخرة ، وإنا لا نعلم أحداً كان أعظم على عثمانَ بغياً ، ولا أسوأ له عيباً ، ولا أشدّ عليه خلافاً منك ؛ سعيتَ عليه في الساعين ، وسفكتَ دَمه في السافكين ، ثم أنت تظنّ أني عنك نائمٌ أو ناسٍ لك ، حتى تأتي فتأمّر على بلاد أنتَ فيها جاري ، وجُلّ أهلِها أنصاري ، يَرَون رأيي ، ويَرْقُبون قولي ، ويَستصرخوني عليك . وقد بعثتُ إليك قوماً حِناقاً عليك ، يستسقون دمَك ، ويتقرّبون إلى الله بجهادك ، وقد أعطَوا الله عهداً ليمثّلُنّ بك ، ولو لم يكن منهم إليك ما عدا قتلك ما حذّرتك ولا أنذرتك ، ولأحببتُ أن يقتلوك بظُلمك وقطيعتك وعَدْوك على عثمان يوم يُطعَن بمَشاقِصك بين خُشَشائه وأوداجِه ، ولكن أكرَه أن أمثّل بقرَشيّ ، ولن يُسلِمك اللّهُ من القصاص أبداً أينما كنت . والسلام .

قال : فطوى محمد كتابيْهما ، وبعث بهما إلى علي ، وكتب معهما :

أما بعد ، فإنّ ابن العاص قد نزل أدانيَ أرضِ مصرَ ، واجتمع إليه أهلُ البلد جلُّهم ممن كان يَرى رأيَهم ، وقد جاء في جيش لجب خُرّاب ، وقد رأيت ممن قِبَلي بعضَ الفشل ، فإن كان لك في أرض مصرَ حاجة فأمدّني بالرجال والأموال ؛ والسّلام عليك .

فكتب إليه علي :

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٨ .

أمّا بعد ، فقد جاءني كتابُك تذكُر أنّ ابن العاصِ قد نزل بأداني أرضِ مصرَ في لجبٍ من جيشِه خُرّاب ، وإنّ مَن كان بها على مِثل رأيه قد خرج إليه ، وخروجُ مَن يرى رأيه إليه خيرٌ لكَ من إقامتهم عندَك . وذكرتَ أنك قد رأيتَ في بعض مَنْ قِبَلك فَشَلا ، فلا تَفشَل ، وإن فشلوا فحصِّنْ قريَتك ، واضمُم إليك شيعتَك ، وانْدُب إلى القوم كنانةَ بنَ بِشر المعروفَ بالنصيحة والنّجدة والبأس ، فإني نادبٌ إليك الناسَ على الصَّعب والذَّلول ، فاصبر لعدوّك ، وامض على بصيرتك ، وقاتلْهم على نيّتك ، وجاهِدْهم صابراً محتسباً ، وإن كانت فئتُك أقلَّ الفئتين ؛ فإنّ الله قد يُعزّ القليل ، ويَخذُل الكثير . وقد قرأتُ كتابَ الفاجر ابن الفاجر معاوية ، والفاجر ابن الكافر عَمرو ، المتحابَّيْن في عمل المعصية ، والمتوافِقَين المرتَشِيين في الحكومة ، المنكَرَين في الدنيا ، قد استمتَعوا بخَلاقهم كما استمتَع الذين من قبلهم بخَلاقهم ، فلا يَهُلْك إرعادُهما وإبراقُهما ، وأجبْهما إن كنتَ لم تجبْهما بما هما أهله ، فإنك تجد مقالاً ما شئت ؛ والسلام .

قال أبو مخنف : فحدّثني محمد بن يوسف بن ثابت الأنصاري ، عن شيخ من أهل المدينة ، قال : كتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية بن أبي سُفيان جوابَ كتابه :

أما بعد ، فقد أتاني كتابُك تذكّرني من أمرِ عثمانَ أمراً لا أعتذِر إليك منه ، وتأمُرني بالتنحّي عنك كأنك لي ناصح ، وتُخوّفني المُثلَة كأنك شفيق ، وأنا أرجو أن تكون ليَ الدائرةُ عليكم ، فأجتاحَكم في الوقعة ، وإن تُؤتَوا النصرَ ويكن لكم الأمر في الدّنيا ، فكَم لَعمري من ظالم قد نَصرْتم ، وكم من مؤمن قَتلتم ومثّلتم به! وإلى الله مصيرُكم ومصيرُهم ، وإلى الله مَرَدّ الأمور ، وهو أرحم الراحمين ، والله المستعان على ما تصفون . والسلام .

وكتب محمد إلى عَمرو بن العاص :

أمّا بعد، فقد فهمتُ ما ذكرتَ في كتابك يا بنَ العاص ، زعمتَ أنك تكره أن يصيبَني منك ظَفَر ، وأشهدُ أنك من المبطِلين . وتَزعم أنك لي نصيح ، وأقسم أنك عندي ظَنين ، وتَزعم أنّ أهل البلد قد رفضوا رأيي وأمري ، ونَدِموا على اتّباعي ، فأولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء ، فحسبُنا الله ربّ العالمين ، وتوكّلنا على الله ربّ العرش العظيم ؛ والسلام .

قال : أقبل عَمرو بن العاص حتى قصد مصرَ ، فقام محمد بن أبي بكر في الناس ، فحمِد الله وأثنَى عليه وصلّىٰ على رسوله ، ثم قال : أمّا بعد معاشرَ المسلمين والمؤمنين ، فإنّ القوم الذين كانوا ينتهكون الحُرمة ، ويَنعَشُون الضّلال ، ويَشُبّون نارَ الفتنة ، ويتسلّطون بالجبَريّة ، قد نصبوا لكم العداوة ، وساروا إليكم بالجنود . عبادَ الله ! فمن أراد الجنّة والمغفرة فلْيخرج إلى هؤلاء القوم فلْيجاهدْهم في الله ؛ انتدِبوا إلى هؤلاء القوم رحمكم الله مع كنانة بن بشر .

قال : فانتدب معه نحو من ألفي رجل ، وخرج محمد في ألفَيْ رجل ، واستقبل عمرو بن العاص كنانةَ وهو على مقدِّمة محمد ، فأقبل عَمرو نحو كنانةَ ، فلما دنا من كنانة سرّح الكتائبَ كتيبةً بعد كتيبة ، فجعل كنانةُ لا تأتيه كتيبةٌ من كتائب أهلِ الشام إلّا شدّ عليها بمن معه ، فيضربها حتّى يقرّبها لعمرو بن العاص . ففعل ذلك مراراً ؛ فلما رأى ذلك عمرو بعث إلى معاوية بن حُدَيج السَّكونيّ ، فأتاه في مثل

الدّهْم ، فأحاط بكنانةَ وأصحابه ، واجتمع أهلُ الشأم عليهم من كلّ جانب، فلما رأى ذلك كنانةُ بن بشر نزل عن فرسه ، ونزل أصحابُه وكنانة يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾(١) . فضارَبَهم بسيفه حتى استُشهد رحمه الله .

وأقبل عمرو بن العاص نحوَ محمد بن أبي بكرَ ، وقد تفرّق عنه أصحابُه لمّا بلغهم قتل كنانة ، حتى بقي وما معه أحد من أصحابه . فلما رأى ذلك محمد خرج يمشي في الطريق حتى انتهى إلى خَربة في ناحية الطريق ، فأوَى إليها ، وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفُسطاط ، وخرج معاوية بن حُدَيج في طلب محمّد حتى انتهى إلى عُلوج في قارعة الطريق ، فسألهم : هل مرَّ بكم أحد تنكرونه؟ فقال أحدهم : لا والله ، إلَّا أني دخلت تلك الخِربة ، فإذا أنا برجل فيها جالس، فقال ابن حُدَيج : هو هو وربِّ الكعبة ؛ فانطلقوا يركُضون حتى دخلوا عليه ، فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً ؛ فأقبلوا به نحو فسطاط مصرَ . قال : ووثب أخوه عبدُالرحمن بن أبي بكر إلى عَمرو بن العاص ـ وكان في جنده فقال: أتقتل أخي صبراً ! ابعث إلى معاويةَ بن حُدَيْج فانهَه ، فبعث إليه عَمرو بن العاص يأمره أن يأتيَه بمحمد بن أبي بكر ، فقال معاوية : أكذاك ! قتلتم كنانةَ بنَ بشر وأخلّي أنا عن محمد بن أبي بكر ! هيهات ، ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾(٢) . فقال لهم محمد : اسقُوني من الماء ، قال له معاوية بن حُدَيج : لا سقاه الله إن سقاك قطرةً أبداً ! إنكم مَنعتمْ عثمانَ أن يشرب الماءَ حتى قتلتموه صائماً مُحرِماً ، فتلقّاه الله بالرَّحيق المختوم، والله لأقتلنك يابن أبي بكر فيسقيك الله الحميمَ والغَسّاق! قال له محمد: يابن اليهوديّة النّسّاجة ، ليس ذلك إليك وإلى من ذكرت ، إنما ذلك إلى الله عزّ وجلّ يَسقي أولياءَه ، ويُظمِيء أعداءَه ؛ أنتَ وضُرَباؤك ومَن تولّاه ، أما والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني هذا ؛ قال له معاوية : أتدري ما أصنعُ بك؟ أدخِلك في جوفِ حمار، ثم أحْرِقُه عليك بالنار؛ فقال له محمد: إن فعلتم بي ذلك، فطالما فُعِل ذلك بأولياء الله ! وإني لأرجو هذه النارَ التي تُحْرِقني بها أن يَجعَلها الله عليَّ برداً وسلاماً كما جعلها على خليلِه إبراهيمَ ، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمروذَ وأوليائِه ، إنّ الله يحرقك ومن ذكرته قبل وإمامكَ ـ يعني معاوية ، وهذا ـ وأشار إلى عمرو بن العاص ـ بنار تَلظّى عليكم ؛ كلّما خَبَتْ زادها الله سعيراً . قال له معاوية : إني إنما أقتلك بعثمان ؛ قال له محمد: وما أنتَ وعثمان ! إنّ عثمانَ عَمِل بالجور ، ونبذ حكمَ القرآن ، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(٣) ، فنقَمنا ذلك عليه فقتلناه ، وحسّنت أنت له ذلك ونظراؤك ، فقد برّأنا الله إن شاء الله من ذنبه ، وأنت شريكُه في إثمه وعظم ذنبه ، وجاعِلك على مثاله . قال : فغضب معاوية فقدّمه فقتله ، ثم ألقاه في جيفة حمار ، ثم أحرقه بالنار ؛ فلما بلغ ذلك عائشةَ جزعت عليه جزعاً شديداً ، وقَنَتت عليه في دُبُر الصلاة تدعو على معاوية وعمرو ، ثم قبضتْ عيالَ محمّد إليها ، فكان القاسم بن محمد بن أبي بكر في عيالها .

(١) سورة آل عمران: ١٤٥ .

(٢) سورة القمر: ٤٣

(٣) سورة المائدة: ٤٧ .

وأما الواقديّ فإنه ذكر لي أنّ سُوَيد بن عبدالعزيز حدّثه عن ثابت بن عجلان ، عن القاسم بن عبدالرحمن ، أنّ عمرو بن العاص خرج في أربعةِ آلاف ، فيهم معاوية بن حُدَيج ، وأبو الأعور السلَميّ ، فالتقوا بالمسنّاة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، حتى قتِل كنانة بن بشر بن عتّاب التُّجيبيّ ، ولم يجد محمد بن أبي بكر مقاتلاً ، فانهزم ، فاختبأ عند جَبَلة بن مسروق ، فدلّ عليه معاوية بن حُدَيج ، فأحاط به ، فخرج محمد فقاتل حتى قُتِل .

قال الواقديّ : وكانت المسنّاة في صفرَ سنة ثمان وثلاثين ، وأذْرُح في شعبانَ منها في عام واحد .

رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف . وكتب عَمرو بنُ العاص إلى معاوية عند قتله محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر :

أما بعد، فإنا لقينا محمد بن أبي بكر وكنانةَ بن بشر في جموع جَمّة من أهلِ مصرَ، فدعوْناهم الى الهدى والسنّة وحكمِ الكتاب، فرفضوا الحقّ ، وتورّكوا في الضلال ، فجاهَدْناهم ، واستنصَرْنا اللّهَ عليهم ، فضرب الله وجوهَهم وأدبارَهم ، ومنحونا أكتافهم ، فقتل الله محمد بن أبي بكر وكنانةَ بن بشر وأماثلَ القوم ، والحمد لله رب العالمين ، والسّلام عليك .

وفيها قُتِل محمد بن أبي حُذَيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

ذكر الخبر عن مقتله :

اختلف أهلُ السيَر في وقت مَقتِله ؛ فقال الواقديّ : قُتل في سنة ست وثلاثين . قال : وكان سبب قتله أنّ معاوية وعَمراً سارا إليه وهو بمصر قد ضبطها ، فنزلا بعَيْن شمس ، فعالجا الدّخول ، فلم يقدرا عليه ، فخدعا محمد بن أبي حُذَيفة على أن يخرج في ألف رجل إلى العَريش ، فخرج وخلّف الحَكَم بن الصلت على مصرَ، فلما خرج محمد بن أبي حُذَيفة إلى العريش تحصّن ، وجاء عمرو فنصب المجانيقَ حتى نزل فيْ ثلاثينَ من أصحابه ، فأخِذوا فقُتلوا . قال: وذاك قبل أن يَبعث عليٌّ إلى مصرَ قيسَ بنَ سعد .

وأما هشام بن محمد الكلبي فإنه ذكر أنّ محمد بن أبي حُذَيفة إنما أخِذ بعد أن قتِل محمد بن أبي بكر ودخل عَمرو بن العاص مصرَ وغلَب عليها ، وزعم أنّ عمراً لما دخل هو وأصحابه مصرَ أصابوا محمد بن أبي حُذَيفة ، فبعثوا به إلى معاوية وهو بفِلسطين ، فحبسه في سجن له ، فمكث فيه غيرَ كثير ، ثم إنه هرب من السجن ـ وكان ابنَ خَال معاوية ـ فأرَى معاويةُ الناسَ أنه قد كره انفلاته ، فقال لأهل الشأم : مَنْ يطلبه؟ قال: وقد كان معاوية يحبّ فيما يرون أن ينجوَ ، فقال رجل من خَشْعم ـ يقال له عبدُالله بن عمرو بن ظلام ، وكان رجلاً شجاعاً ، وكان عثمانيًا : أنا أطلبه فخرج في حالة حتى لحقه بأرض البَلْقاء بحَوْران وقد دخل في غارٍ هناك ، فجاءت حُمُرٌ تدخله ، وقد أصابها المطر ، فلما رأت الحمُر الرجلَ في الغار فزِعت ، فنفرتْ ، فقالَ حصّادُون كانوا قريباً من الغار: واللّهِ إنّ لنفْرِ هذه الحمُرِ من الغار لشأناً . فذهبوا لينظروا ، فإذا هم به ، فخرجوا، ويوافِقهم عبدُالله بن عمرو بن ظلام الخَثْعَميّ ، فسألهم عنه، ووصفَه لهم ، فقالوا له : ها هو ذا في الغار ؛ قال : فجاء حتى استخرجه ، وكره أن يُرجعه إلى معاوية فيخليّ سبيله . فضرب عنقه .

قال هشام ، عن أبي مخنف : قال: وحدّثني الحارث بن كعب بن فُقَيم ، عن جُندَب ، عن عبدالله بن

فقيم ، عمّ الحارث بن كعب. . . . يستصرِخ من قبَل محمد بن أبي بكر إلى علي ـ ومحمد يومئذٍ أميرُهم ـ فقام علي في الناس وقد أمر فنُـوديَ : الصّلاةَ جـامعة! فـاجتمع النـاس، فحمِد الله وأثْنَى عليـه ، وصلى عـلى محمد ﷺ ، ثم قال : أمّا بعد ، فإنّ هذا صريخُ محمد بن أبي بكر وإخوانكم من أهلِ مصر، قد سار إليهم ابن النّابغة عدوّ الله ، ووليّ من عادَى الله ، فلا يكوننّ أهل الضّلال إلى باطلهم والرّكون إلى سبيل الطاغوت أشدَّ اجتماعاً منكم على حقّكم هذا ، فإنهم قد بدؤوكم وإخوانكم بالغَزْو ، فاعجلوا إليهم بالمؤاساة والنصر . عباد الله ، إنّ مصرَ أعظم من الشام ، أكثرُ خيراً ، وخيرٌ أهلاً ، فلا تغلَبوا على مصر، فإنّ بقاءَ مصر في أيديكم عزٌّ لكم ، وكبْتٌ لعدوّكم ، اخرجوا إلى الجَرَعة بين الحِيرة والكُوفة ، فوافُوني بها هناك غداً إن شاء الله . قال : فلمّا كان من الغد خرج يمشي ، فنزلها بُكرَةً ، فأقام بها حتى انتصف النهار يومه ذلك ، فلم يوافِه منهم رجل واحد ؛ فرجع . فلما كان من العشيّ بعث إلى أشراف الناس، فدخلوا عليه القصر وهو حزين كئيب ، فقال: الحمد لله على ما قضَى من أمري ، وقدّر مِن فعلي ، وابتلاني بكم أيَّتُها الفرقة ممن لا يطيع إذا أمرتُ ، ولا يُجيب إذا دَعوتُ ، لا أبا لغيركم ! ما تنتظرون بصبركم ، والجهاد على حقكم! الموت والذلّ لكم في هذه الدنيا على غير الحقّ ، فوالله لئن جاء الموت ـ وليأتينّ ـ ليفرّقنّ بيني وبينكم ، وأنا لصحبتكم قالٍ ؛ وبكم غيرُ ضَنين ، لله أنتم ! لا دينَ يجمعكم ، ولا حميّة تحميكم ، إذا أنتم سمعتم بعدوّكم يَرِدُ بلادَكم ، ويشنّ الغارة عليكم . أوَليس عجباً أنّ معاوية يدعو الجفاةَ الطَّغام فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة! ويجيبونه في السنة المرّتين والثلاث إلى أيّ وجه شاء ، وأنا أدعوكم ـ وأنتم أولو النّهيَ وبقيّةالناس ـ على المعونة وطائفةً منكم على العطاء ، فتقومون عنّي وتعصَوْنني ، وتختلفون عليّ ! فقام إليه مالكُ بن كعب الهَمْداني ثم الأرحبي ، فقال: يا أميرَ المؤمنين ، اندب الناسَ فإنه لا عطرَ بعد عروس ؛ لِمثْلِ هذا اليوم كنتُ أدّخر نفسي ، والأجر لا يأتي إلاّ بالكرْة. اتقوا الله وأجيبوا إمامَكم ، وانصروا دعوتَه، وقاتلوا عدوَّه ، أنا أسير إليها يا أميرَ المؤمنين ؛ قـال: فأمر عـلي مناديَـه سعداً ، فنادى في الناس : ألا انتدبوا إلى مصرَ مع مالك بن كعب .

ثمّ إنه خرج وخرج معه علي ، فنظر فإذا جميعُ من خرج نحو ألفي رجل ، فقال : سِرْ فوالله ما إخالك تُدرِك القوم حتى ينقضيَ أمرهم ؛ قال : فخرج بهم ، فسار خمساً . ثمّ إن الحجاج بن غَزيّة الأنصاري ، ثم النّجّاريّ قَدِم على علي من مصر ، وقَدِم عبدُالرحمن بن شَبيبٍ الفَزاري ، فأمّا الفَزاريّ فكان عينَه بالشأم ، وأما الأنصاري فكان مع محمـد بن أبي بكر ، فحـدثه الأنصـاري بما رأى وعـايَن وبهلاك محمـد ، وحدّثـه الفزاري أنه لم يخرج من الشأم حتى قَدمت البُشَراء من قِبَل عمرو بن العاص تَتْرى ، يَتبعُ بعضُها بعضاً بفتح مصر وقَتْل محمد بن أبي بكر ، وحتى أُذِّنَ بقتله على المنبر ، وقال : يـا أميرَ المؤمنـين ، قلّما رأيت قوماً قطّ أسرّ ، ولا سروراً قطّ أظهَرَ من سرور رأيته بالشأم حين أتاهم هلاكُ محمد بن أبي بكر . فقال علي: أما إنّ حُزْننا عليه على قدر سرورهم به ، لا بل يزيد أضعافاً. قال: وسرّح عليٌّ عبدَالرحمن بن شُريح الشّباميّ إلى مالك بن كعب ، فردّه من الطريق . قال : وحَزِن علي على محمـد بن أبي بكر حتى رئيَ ذلـك في وجهه ، وتبيّن فيه ، وقامَ في الناس خطيباً ، فحمِد الله وأثنَى عليه ، وصلّى على رسوله ﷺ ، وقال : ألا إنّ مصر قد افتتحها الفَجَرة أولو الجَوْر والظلم الذين صدّوا عن سبيل الله ، وبغَوا الإسلام عِوَجاً . ألا وإنّ محمد بن أبي بكر قد استُشهد رحمه الله ، فعند الله نَحتسبه . أما والله إنْ كان مـا علمت لمَمّن ينتظر القضـاء ، ويعمل

للجزاء ، ويُبغض شكل الفاجر ، ويحبّ هدى المؤمن ، إني والله ما ألوم نفسي على التقصير ، وإني لُمقاساة الحرب لجدّ خبير ، وإنّي لأقدِم على الأمر وأعرف وجهَ الحزم ، وأقومُ فيكم بالرأي المصيب ، فأستصرخكم معلناً ، وأناديكم نداءَ المستغيث مُعرِباً ، فلا تسمعون لي قولاً ، ولا تطيعون لي أمراً ، حتى تصير بيَ الأمور إلى عواقب المساءة ، فأنتم القومُ لا يُدرَك بكم الثار ، ولا تُنقَض بكم الأوتار ؛ دعوتُكم إلى غِياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلةً فتجرجرتم جَرجرةَ الجَمَل الأشدق ، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقُلَ من ليس له نيّة في جهاد العدوّ ، ولا اكتساب الأجر ، ثم خرج إليّ منكم جُنيْد متذانب كأنّما يُساقون إلى الموت وهم يَنظرون . فأفٍّ لكم ! ثم نزل . وكتب إلى عبدالله بن عباس وهو بالبَصرة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله علي أميرِ المؤمنين إلى عبدالله بن عبّاس ، سلامٌ عليك ، فإنّي أحمد اللّهَ إليك الذي لا إله إلاّ هو ، أمّا بعد ، فإنّ مصر قد افتتِحت ، ومحمد بن أبي بكر قد استُشهد ، فعند الله نَحتسبه وندّخره ، وقد كنت قمتُ في الناس في بدئه ، وأمرْتهم بغياثِهِ قبل الوقعة ، ودعوتهم سرًّا وجهراً ، وعَوداً وبدءًا ، فمنهم من أتى كارهاً ، ومنهم من اعتلّ كاذباً ، ومنهم القاعد حالاً ، أسأل الله أن يجعل لي منهم فَرَجا ومَخرَجا ، وأن يُريحَني منهم عاجلاً . والله لولا طمعي عند لقاء عدوّي في الشهادة لأحببتُ ألاّ أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً . عَزَم الله لنا ولك على الرُّشد ، وعلى تقواه وهداه ، إنه على كلّ شيء قدير . والسلام .

فكتب إليه ابنُ عبّاس :

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ لعبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، من عبدِ الله بنِ عباس . سلامٌ عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أما بعد ، فقد بلغني كتابك تذكر فيه افتتاحَ مصر ، وهلاكَ محمد بن أبي بكر ، فالله المستعان على كلّ حال ، ورحم الله محمد بن أبي بكر وآجَرَك يا أميرَ المؤمنين ! وقد سألت الله أن يجعل لك من رعيّتك التي ابتليت بها فَرجاً ومخرجاً ، وأن يُعزّك بالملائكة عاجلاً بالنصرة ، فإنّ الله صانعٌ لك ذلك ، ومعزّك ومجيب دعوتك ، وكابتٌ عدوّك . أخبرك يا أميرَ المؤمنين أنّ الناس ربما تثاقلوا ثم ينشَطون ، فارفق بهم يا أميرَ المؤمنين ، وداجِنْهم ومَنِّهم ، واستعِن بالله عليهم ، كفاك الله ألَمهم . والسلام .

قال أبو مخنف : حدّثني فُضَيل بن خَديج ، عن مالك بن الحور ، أنّ عليّاً قال : رحِم الله محمداً ! كان غلاماً حَدَثاً ، أما والله لقد كنتُ على أن أولّي المرْقال هاشم بن عُتْبة مصرَ ، أما والله لو أنه وليَها ما خلّى لعمرو بن العاص وأعوانه الفَجَرة العَرْصة ، ولَما قُتِل إلاّ وسيفه في يده ، لا بلا دمٍ كمحمد . فرحم الله محمداً ، فقد اجتهد نفسه ، وقَضَى ما عليه .

وفي هذه السنة وجّه معاوية بعد مَقتل محمد بن أبي بكر عبدَالله بن عمرو بن الحضرميّ إلى البصرة للدعاء إلى الإقرار بحُكم عَمرو بن العاص فيه .

وفيها قُتل أعينَ بن ضبيعة المُجاشعي ، وكان عليٌّ وجّهه لإخراج ابن الحضرميّ من البَصرة .

ذكر الخبر عن أمر ابن الحضرميّ وزياد وأعين وسبب قتل من قتل منهم

حدّثني عمرُ بن شبّة ، قال : حدّثني علي بن محمد، قال: حدّثنا أبو الذّيال ، عن أبي نَعامة ، قال : لما قُتِل محمد بن أبي بكر بمصرَ ، خرج ابن عباس من البَصرة إلى عليٍّ بالكوفة ، واستَخلف زياداً ، وقدم ابنُ الحضرميّ من قِبَل معاوية ، فنزل في بني تميم ، فأرسل زياد إلى حُضَين بن المنذر ومالك بن مِسمَع ، فقال: أنتم يا معشر بَكْر بن وائل من أنصار أمير المؤمنين وثِقاتِه ، وقد نزل ابن الحَضْرميّ حيث ترون ،ـ وأتاه مَنْ أتاه ، فامنعوني حتى يأتيَني رأيُ أميرِ المؤمنين . فقال حُضَين : نعم ، وقال مالك ـ وكان رأيه مائلاً إلى بني أميّة ، وكان مروانُ لجأ إليه يومَ الجمل: هذا أمرٌ لي فيه شركاء، أستشير وأنظر. فلما رأى زياد تَثاقُلَ مالك خاف أن تختلف ربيعة ، فأرسل إلى نافع أن أشِرْ علي ، فأشار عليه نافع بصَبِرة بن شَيْمان الحُدّانيّ ، فأرسل إليه زياد ، فقال : ألاّ تجيرني! وبيت مالِ المسلمين فإنه فَيئُكم ، وأنا أمينُ أمير المؤمنين . قال : بلى إن حملتَه إليّ ونـزلتَ داري . قال: فإني حامله ، فحَمَله ، وخرج زياد حتى أتى الحُدّان ، ونـزل في دار صَبِرة بن شيْمان، وحوّل بيت المال والمنبر ، فوضعه في مسجد الحُدّان ، وتحوّل مع زياد خمسون رجلاً ، منهم أبو أبي حاضر ـ وكان زياد يصلي الجمعة في مسجد الحُدَّان ، ويطعم الطعام ـ فقال زياد لجابر بن وهب الرّاسبيّ : يا أبا محمد ، إني لا أرى ابنَ الحضرمي يكفّ ، لا أراه إلاّ سيقاتلكم ، ولا أدري ما عند أصحابك فآمِرْهم ، وانظر ما عندهم . فلما صلّى زياد جلس في المسجد ، واجتمع الناس إليه ، فقال جابر: يا معشرَ الأزد ، تميم تَزعم أنهم هم الناس، وأنهم أصبرُ منكم عند البأس ، وقد بلغني أنهم يريدون أن يسيروا إليكم حتى يأخذوا جارَكم ، ويخرجوه من المِصر قسْراً ، فكيف أنتم إذا فعلوا ذلك وقد أجَرْتموه وبيت مال المسلمين ! فقال صَبِرة بن شَيْمان ـ وكان مفخّماً ـ : إن جاء الأحنف جئت ، وإن جاء الحُتَات جئت ، وإن جاء شُبّان ففينا شُبّان . فكان زياد يقول : إنني استضحكت ونهضت ، وما كدتُ مكيدةً قطّ كنتُ إلى الفضيحة بها أقربَ مني للفضيحة يومئذٍ ؛ لِما غلبني من الضّحك . قال : ثمّ كتب زياد إلى علي : إنّ ابن الحضرميّ أقبل من الشأم فنزل في دار بني تميم ، ونَعَى عثمان ، ودعا إلى الحرب ، وبايعتْه تميم وجُلُّ أهل البصرة ، ولم يبقَ معي مَن أمتِنع به ، فاستجرت لنفسي ولبيت المال صَبِرة بن شَيْمان ، وتحوّلت فنزلت معهم ، فشيعةُ عثمان يختلفون إلى ابن الحضرمي ، فوجّه علي أعين بن ضُبَيعة المجاشعيّ ليفرّق قومه عن ابن الحضْرميّ ، فانظر ما يكون منه ، فإن فُرّق جمعُ ابن الحضرمي فذلك ما تُريد ، وإن ترقّت بهم الأمور إلى التمادي في العصيان فانهض إليهم فجاهدْهم ، فإنْ رأيتَ ممن قِبَلك تثاقلاً ، وخِفتَ ألاّ تبلغ ما تريد، فدارهمْ وطاوِلهم ، ثم تسمّع وأبصر ، فكأنّ جنود الله قد أظلّتك ، تقتل الظالمين . فقَدِم أعينَ فأتى زياداً ، فنزل عنده ، ثم أتى قومَه ، وجمع رجالاً ونهض إلى ابن الحضرمي ، فدعاهم ، فشتموه وناوشوه ، فانصرف عنهم ، ودخل عليه قوم فقتلوه ، فلما قتِل أعينَ ابن ضُبيعة ، أراد زياد قتالَهم ، فأرسلتْ بنو تميم إلى الأزدْ : إنّا لم نَعرِض لجاركم ، ولا لأحد من أصحابه ، فماذا تريدون إلى جارنا وحربنا ! فكرِهَت الأزد القتالَ ، وقالوا : إن عَرَضوا لجارنا منعناهم ، وإن يكفُّوا عن جارنا كففْنا عن جارهم . فأمسكوا . وكتب زيادٌ إلى علي : أن أعينَ بن ضُبَيعة قَدِم فجمعَ مَن أطاعه

من عشيرته ، ثم نهض بهم بجدّ وصدق نيّة إلى ابن الحضرميّ ، فحثّهم على الطاعة ، ودعاهم إلى الكفّ والرجوع عن شِقاقهم ، ووافقتْهم عامّة قوم ، فهالَهم ذلك ، وتصدّع عنهم كثير ممن كان معهم ، يمنّيهم نُصرَته ، وكانت بينهم مناوَشة . ثم انصرف إلى أهله ، فدخلوا عليه فاغتالوه فأصيب ، رحم الله أعيَنَ ! فأردت قتالَهم عند ذلك ، فلم يخفّ معي مَن أقوَى به عليهم ، وتَراسَل الحيّان ، فأمسك بعضُهم عن بعض .

فلما قرأ عليٌّ كتابَه دعا جارية بن قدامة السعدي ، فوجّهه في خمسين رجلاً من بني تميم ، وبعث معه شريك بن الأعور ـ ويقال بعث جارية خمسمائة رجل ـ وكَتَب إلى زياد كتاباً يصوّب رأيه فيما صنع ، وأمَرَه بمعونة جارية بن قُدامة والإشارةِ عليه ، فقدِم جارية البصرة ، فأتى زياداً فقال له : احتفِزْ واحذر أن يصيبَك ما أصاب صاحبَك ، ولا تثِقنّ بأحد من القوم . فسار جارية إلى قومه فقرأ عليهم كتابَ علي ، ووعدهم ، فأجابه أكثرُهم ، فسار إلى ابن الحضرميّ فحصره في دار سُنْبيل ، ثم أحرَق عليه الدار وعلى من معه ، وكان معه سبعون رجلاً ـ ويقال أربعون ـ وتفرّق الناس ، ورجع زياد إلى دار الإمارة ، وكتب إلى علي مع ظَبْيان ابن عُمارة ، وكان ممن قَدِم مع جارية ..... وأنّ جارية قَدِم علينا فسار إلى ابن الحضرمي فقَتله حتى اضطرّه إلى دار من دُور بني تميم ، في عدّة رجال من أصحابه بعد الإعذار والإنذار ، والدعاء إلى الطاعة ، فلم يُنيبوا ولم يَرجِعوا ، فأضرَم عليهم الدّار فأحرَقَهم فيها ، وهُدّمتْ عليهم ، فبعُداً لمن طغى وَعَصَىٰ ! فقال عمرو بن العَرَنْدَس العَوْديّ :

رَدَدْنا زِياداً إلى دارِهِ	وجارُ تَميمٍ دخاناً ذَهَبْ
لَحَى اللّهُ قَوماً شَوَوْا جارَهُمْ	ولِلشّاءِ بالدُّرْهَمَين الشَّصَبْ
يُنادي الخِناقُ وحُمّانُها	وقد سَمَطوا رَأسَهُ باللَّهَبْ
ونَحْنُ أُناسٌ لنا عَادَةٌ	نحامِي عَنِ الجارِ أنْ يُغْتَصبْ
حَمَيْناهُ إذْ حَلَّ أبياتَنا	ولا يَمْنَعُ الجارَ إلّا الحَسَبْ
ولَمْ يَعْرِفُوا حُرْمَةً لِلْجِوا	رِ إذْ أعْظَم الجارَ قَوْمٌ نُجُبْ
كفِعْلِهِمُ قَبلَنا بالزُّبَيْر	عَشِيَّةَ إذْ بَزُّهُ يُسْتَلَبْ

وقال جرير بن عطيّة بن الخَطَفي :

غَدَرْتُمْ بالزُّبَيْرِ فما وَفَيْتُمْ	وَفاءَ الأزدِ إذ مَنَعوا زِيادَا
فَأصْبَح جارُهُمْ بنجاةِ عِزٍّ	وجارُ مُجاشعٍ أمسىٰ رَمادا
فلوْ عاقَدتَ حَبْلَ أبي سعيدٍ	لَذادَ القَوْمَ ما حَمَلَ النِّجادا
وأدْنى الخَيْلَ مِنْ رَهَجِ المنايا	وأغْشاها الأسِنَّةَ والصِّعادا

ومما كان في هذه السنة ـ أعني سنة ثمان وثلاثين ـ إظهار الخِرِّيت بن راشد في بني ناجية الخلاف على علي وفراقُه إياه ؛ كالذي ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، عن الحارث الأزدي ، عن عمّه عبدالله بن فُقَيم ، قال : جاء الخِرِّيت بن راشد إلى علي ـ وكان مع الخِرّيت ثلاثمائة رجل من بني ناجية مقيمين مع علي بالكوفة ، قَدِموا معه من البصرة ، وكانوا قد خرجوا إليه يومَ الجمل ، وشَهِدوا معه صِفّينَ والنّهروان ـ فجاء

إلى علي في ثلاثين راكباً من أصحابه يسير بينهم حتى قام بين يَديْ علي ، فقال له : والله يا علي لا أطيع أمرَك ، ولا أصلّي خلفَك ، وإنّي غداً لُمفارِقك . وذلك بعد تحكيم الحَكَمين . فقال له علي: ثكلتْك أمّك! إذاً تعصي ربّك ، وتَنكُث عهدَك، ولا تضرّ إلا نفسك . خبِّرني لِمَ تفعل ذلك؟ قال: لأنك حكّمتَ في الكتاب ، وضعُفتَ عن الحقّ إذ جدّ الجدّ ، وركنتَ إلى القوم الذين ظلموا أنفسَهم ، فأنا عليك زارٍ ، وعليهم ناقِم ، ولكم جميعاً مُبَاين . فقال له علي : هلمّ أدارِسْك الكتاب ، وأناظِرْك في السنن ، وأفاتحْك أموراً من الحقّ أنا أعلَم بها منك ، فلعلك تعرف ما أنت له الآن مُنكِر ، وتَستبصِر ما أنت عنه الآن جاهل . قال : فإني عائد إليك ؛ قال : لا يستهوينّك الشيطان ، ولا يستخفّنك الجهل ، ووالله لئن استرشدْتني واستنصحتني وقبلتَ منّي لأهدينّك سبيلَ الرشاد .

فخرج من عنده منصرفاً إلى أهله ، فعجِلْت في أثره مسرِعاً . وكان لي من بني عمّه صديق ، فأردت أن ألقى ابنَ عمّه ذلك فأعلمه بشأنه ، ويأمره بطاعة أميرِ المؤمنين ومناصحته ، ويخبره أنّ ذلك خير له في عاجل الدنيا وآجلِ الآخرة . فخرجت حتى انتهيت إلى منزله وقد سبقني ، فقمت عند باب داره ، وفي داره رجال من أصحابه لم يكونوا شهدوا معه دخولَه على علي . قال : فوالله ما جزم شيئاً مما قال ، ومما ردّ عليه ، ثم قال لهم : يا هؤلاء ، إني قد رأيت أن أفارقَ هذا الرجل ، وقد فارقتُه على أن أرجعَ إليه من غد ، ولا أراني إلاّ مُفارقه من غد . فقال له أكثر أصحابه : لا تفعل حتى تأتيَه ، فإنْ أتاك بأمرٍ تعرفه قبلتَ منه ، وإن كانت الأخرى فما أقدَرَك على فراقه . فقال لهم : فنِعم ما رأيتم . قال: ثم إني استأذنت عليه ، فأذنوا لي ، فدخلتُ فقلت :أنشُدك اللّهَ أن تفارق أمير المؤمنين ، وجماعةَ المسلمين ، وأن تجعل على نفسك سبيلاً ، وأن تقتل مَنْ أرى من عشيرتك! إنّ عليًّا لعَلَى الحقّ. قال: فأنا أغدو إليه فأسمع منه حجّته ، وأنظر ما يعرض عليٌّ به ويذكر ، فإن رأيتُ حقًّا ورُشْداً قبلتُ ، وإن رأيتُ غيًّا وجَوراً تَركتُ . قال: فخلوت بابن عمّه ذلك ـ قال: وكان أحد نفره الأدنين ، وهو مدرك بن الرّيان ، وكان من رجال العرب ـ فقلت له: إنّ لك عليّ حقًّا لإخائك وودّك ذلك عليّ بعد حقّ المسلم على المسلم . إنّ ابنَ عمّك كان منه ما قد ذكر لك ، فأخِدّ به ، فاردد عليه رأيَه ، وعظّم عليه ما أتَى ، فإني خائف إن فارق أمير المؤمنين أن يقتله نفسه وعشيرته . فقال: جزاك الله خيراً من أخ! فقد نصحتَ وأشفقتَ ، إن أراد صاحبي فراقَ أمير المؤمنين فارقتُه وخالفته ، وكنتُ أشدّ الناس عليه . وأنا بعدُ فإني خالٍ به ، ومشيرٌ عليه بطاعة أمير المؤمنين ومناصحتِه والإقامةِ معه ، وفي ذلك حظّه ورشْدُه .

فقمت من عنده ، وأردتُ الرُّجوعَ إلى أمير المؤمنين لأعلِمَه بالذي كان ، ثم اطمأننت إلى قولِ صاحبي ، فرجعتُ إلى منزلي فبتّ به ثم أصبحت ، فلما ارتفع الضحى أتيتُ أميرَ المؤمنين ، فجلستُ عنده ساعةً وأنا أريد أن أحدّثه بالذي كان من قوله لي على خَلوة ، فأطلت الجلوس ، فلم يزدد الناسُ إلا كثرةً ، فدنوت منه ، فجلستُ وراءه ، فأصغى إليّ بأذنيه ، فخبَّرته بما سمعتُ من الخِرّيت بن راشد ، وبما قلتُ له ، وبما ردّ علي ، وبما كان من مقالتي لابن عمّه ، وبما ردّ عليّ ، فقال : دَعْه ، فإن عَرَف الحقّ وأقبلَ إليه عرفْنا ذلك وقَبِلْنا منه ، وإن أبى طلبناه . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ولِمَ لا تأخذه الآن وتستوثِقُ منه وتحبسه؟ فقال : إنا لو فعلنا هذا بكلِّ مَنْ نتّهمه من الناس ملأنا سجننَا منهم ، ولا أراه ـ يعني الوثوبَ على الناس والحبس والعقوبة ـ حتى يُظهروا لنا الخلاف . قال : فسكتّ عنه ، وتنحّيت ، فجلست مع القوم .

ثم مكث ما شاء الله. ثم إنه قال: ادنُ منّي ؛ فدنوتُ منه ، فقال لي مسرًّا : إذهب إلى منزل الرجل فاعلَم لي ما فعل ، فإنه كلّ يوم لم يكن يأتيني فيه إلاّ قبل هذه الساعة . فأتيتُ منزلَه ، فإذا ليس في منزله منهم ديّار ، فدعوتُ على أبواب دور أخرى كان فيها طائفة من أصحابه ، فإذا ليس فيها داعٍ ولا مجيب ، فرجعت . فقال لي حين رآني : وطنوا فأمِنوا، أم جنبوا فظَعَنوا ! فقلت: بل ظعنوا فأعلنوا ، فقالَ : قد فعلوها! بُعداً لهم كما بَعِدتْ ثمود! أما لو قد أشرعَتْ لهم الأسنّة وصبّبَتْ على هامهم السيوف ، لقد ندموا. إنّ الشيطان اليومَ قد استهواهم وأضلّهم ، وهو غداً متبرىء منهم ، ومخلٍّ عنهم .

فقام إليه زياد بن خَصَفة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه لو لم يكن من مضرّة هؤلاء إلاّ فراقهم إيّانا لم يعظم فقدُهم فنَأسَى عليهم ، فإنّهم قلّما يزيدون في عددنا لو أقاموا معنا ، وقلّما ينقصون من عددنا بخروجهم عنّا ، ولكنا نخاف أن يفسدوا علينا جماعةً كثيرة ممن يقدمون عليه من أهل طاعتك، فأذَنْ لي في اتّباعهم حتى أردّهم عليك إن شاء الله . فقال له علي : وهل تدري أين توجّه القوم؟ فقال: لا، ولكني أخرج فأسأل وأتبع الأثر . فقال له : أخرُج رحمك الله حتى تنزل ديرَ أبي موسى، ثم لا تتوجّه حتى يأتيَك أمري ، فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين للناس في جماعة ، فإنّ عمّالي ستكتب إليّ بذلك ، وإن كانوا متفرّقين مستخفين فذلك أخفَى لهم ، وسأكتب إلى عمّالي فيهم . فكتب نسخةً واحدةً فأخرجها إلى العمّال :

أما بعد ، فإنّ رجالاً خرجوا هُرّاباً ونظنّهم وجّهوا نحوَ بلاد البَصرة ، فسلْ عنهم أهلَ بلادِك ، واجعل عليهم العيونَ في كلّ ناحية من أرضك ، واكتب إليّ بما ينتهى إليك عنهم ؛ والسلام .

فخرج زياد بن خَصَفة حتى أتى دارَه ، وجمع أصحابه ، فحمِد الله وأثنى عَليه ، ثمّ قال : أمّا بعد يا معشرَ بكر بن وائل ، فإنّ أمير المؤمنين ندَبني لأمر من أمره مُهِمّ له ، وأمرني بالانكماش فيه ، وأنتم شيعتُه وأنصارُه ، وأوثقُ حيٍّ من الأحياء في نفسه ، فانتدبوا معي الساعة ، واعجلوا . قال : فوالله ما كان إلاّ ساعةً حتى اجتمع له منهم مائة وعشرون رجلاً أو ثلاثون ؛ فقال: اكتفينا ، لا نريد أكثرَ من هذا ، فخرجوا حتى قطعوا الجسر ، ثم دير أبي موسى ، فنزله ، فأقام فيه بقيّة يومه ذلك ينتظر أمرَ أمير المؤمنين .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو الصَّلْت الأعوَر التيمي ، عن أبي سعيد العُقَيلي ، عن عبدالله بن وأل التيمي ، قال : واللّهِ إني لَعندَ أمير المؤمنين إذ جاءه فَيْج ، كتابٌ بيديه ، من قِبَل قَرَظة بن كعب الأنصاري :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أمّا بعد فإنّي أخبر أميرَ المؤمنين أنّ خيلاً مرّت بنا من قِبَل الكوفة متوجِّهةً نحوَ نِفّر ، وإنّ رجلاً من دَهاقِين أسفل الفرات قد صلّى يقال له : زاذان فرّوخ ، أقبل من قبَل أخواله بناحية نِفّر ، فَعرَضوا له ، فقالوا : أمسلِم أنت أم كافر؟ فقال: بل أنا مسلم ، قالوا: فما قولُك في علي؟ قال: أقول فيه خيراً، أقول: إنه أميرُ المؤمنين ، وسيّد البَشرَ ، فقالوا له: كفرت يا عدوّ الله! ثم حَملتْ عليه عصابةٌ منهم فقطّعوه ، ووجدوا معه رجلاً من أهل الذمّة، فقالوا: ما أنت؟ قال: رجل من أهل الذّمة ، قالوا : أمّا هذا فلا سبيلَ عليه ، فأقبل إلينا ذلك الذمّي فأخبَرَنا هذا الخبر ، وقد سألتُ عنهم فلم يخبرْني أحدٌ عنهم بشيء ، فليكتب إليّ أميرُ المؤمنين برأيه فيهم أنْتهِ إليه . والسلام .

فكتب إليه :

أما بعد ، فقد فهمتُ ما ذكرت من العصابة التي مرّت بك فقتلت البَرَّ المُسلِم ، وأمِن عندهم المخالِف الكافر ، وإنّ أولئك قومٌ استهواهم الشيطان فضَلّوا وكانوا كالذين حسبوا ألّا تكونَ فتنةٌ فعَموا وصَمُّوا ، فأسمِع بهم وأبصِر يوم تُخبَر أعمالهم . والزم عملَك ، وأقبِل على خَراجِك فإنك كما ذكرتَ في طاعتك ونصيحتك ؛ والسلام .

قال أبو مخنف : وحدّثني أبو الصّلت الأعور التيْميّ عن أبي سعيد العُقَيْليّ ، عن عبدالله بن وأل ، قال : كتب عليٌّ عليه السلام معي كتاباً إلى زياد بن خَصَفة ، وأنا يومئذ شابٌ حَدَث :

أما بعد ، فإنّي كنت أمرتك أن تنزل ديرَ أبي موسى حتى يأتيَك أمري وذلك لأنّي لم أكن علمت إلى أيّ وجه توجّه القوم ، وقد بلغني أنهم أخذوا نحو قرية يقال لها نِفّر ، فاتّبع آثارَهم ، وسلْ عنهم ، فإنهم قد قتلوا رجلاً من أهل السواد مصلّياً ، فإذا أنت لحقتَهم فارددْهم إليّ ، فإن أبوْا فناجِزْهم ، واستعِن بالله عليهم ، فإنهم قد فارقوا الحقّ ، وسَفَكوا الدم الحرام ، وأخافوا السبيل . والسلام .

قال : فأخذتُ الكتاب منه ، فمضيتُ به غيرَ بعيد ، ثم رجعتُ به ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، ألا أمضي مع زياد بن خَصَفة إذا دفعتُ إليه كتابك إلى عدوّك ؟ فقال : يابنَ أخي ، افعل ، فوالله إني أرجو أن تكون من أعواني على الحقّ ، وأنصاري على القوم الظالمين ؛ فقلت له : أنا والله يا أميرَ المؤمنين كذلك ومن أولئك ، وإنا حيث تحبّ .

قال ابن وأل : فوالله ما أحبّ أنّ لي بمقالة علي تلك حُمْر النَّعَم .

قال : ثمّ مضيت إلى زياد بن خَصَفة بكتاب عليٍّ وأنا على فرس لي رائع كريم ، وعليَّ السلاح ، فقال لي زياد : يابن أخي ، والله ما لي عنك من غَناء ، وإنّي لأحبّ أن تكون معي في وجهي هذا ؛ فقلت له : قد استأذنتُ في ذلك أميرَ المؤمنين فأذِن لي ، فسرّ بذلك .

قال : ثمّ خرجنا حتى أتينا نِفّر ، فسألنا عنهم ، فقيل لنا : قد ارتفعوا نحو جَرْجَرايا ، فاتّبعناهم ، فقيل لنا : قد أخذوا نحو المذار ، فلحِقناهم وهم نزول بالمذار ، وقد أقاموا به يوماً وليلة ، وقد استراحوا وأعلفوا وهم جامّون ، فأتيناهم وقد تقطّعنا ولَغِبنا وشَقِينا ونَصِبنا ، فلما رأوْنا وثبوا على خيولهم فاستوَوْا عليها ، وجئنا حتى انتهينا إليهم ، فواقَفْناهم ، ونادانا صاحبهم الخِرّيتُ بن راشد : يا عميانَ القلوب والأبصار ، أمع اللّهِ أنتم وكتابه وسنّة نبيه ، أم مع الظالمين؟ فقال له زياد بن خَصَفة : بل نحن مع الله ومَن اللّهُ وكتابه ورسوله آثرُ عندَ ثواباً من الدّنيا منذ خلقت إلى يوم تفنى ، أيُّها العُمْي الأبصار ، الصمُّ القلوب والأسماع . فقال لنا : أخبروني ما تريدون؟ فقال له زياد ـ وكان مجرّباً رفيقاً : قد ترى ما بنا من اللُّغوب والسغوب ، والذي جئنا له لا يُصلِحه الكلامُ علانيةً على رؤوس أصحابي وأصحابك ، ولكن أنزل وتنزل ، ثم نخلو جميعاً فنتذاكر أمرَنا هذا جميعاً وننظر ، فإن رأيتَ ما جئناك فيه حظّاً لنفسك قبِلتَه ، وإن رأيتَ فيما أسمعه منك أمراً أرجو فيه العافية لنا ولك لم أرْدُدْه عليك . قال : فانزل بنا ؛ قال : فأقبل إلينا زياد فقال : انزلوا بنا على هذا الماء ؛ قال : فأقبلْنا حتى إذا انتهينا إلى الماء ، نزلناه فما هو إلا أن نزلْنا فتفرّقنا ، ثم تحلّقنا من عشرة وتسعة وثمانية وسبعة ، يضعون طعامَهم

بين أيديهم فيأكلون ، ثم يقومون إلى ذلك الماء فيشربون . وقال لنا زياد : علّقوا على خيولكم ، فعلّقنا عليها مَخاليَها ، ووقف زياد بيننا وبين القوم ، وانطلق القوم فتنحّوا ناحية ، ثم نزلوا، وأقبل إلينا زياد ، فلما رأى تفرّقنا وتحلُّقَنا قال : سُبحان الله ، أنتم أهلُ حرب؟ والله لو أنّ هؤلاء جاؤوكم الساعةَ على هذه الحال ما أرادوا من غيركم أفضل من حالكم التي أنتم عليها . اعجَلوا ، قوموا إلى خيلكم ، فأسرعْنا ، فتحشحشْنا فمنّا من يتنفّض، ثم يتوضّأ ، ومنّا من يشرب، ومنا من يسقي فرسَه ، حتى إذا فرغنا من ذلك كله ، أتانا زياد وفي يده عرق ينهشه ، فنهش منه نهشتينْ أو ثلاثاً ، وأتي بأداوة فيها ماءٌ ، فشرب منه ، ثم ألقى العَرْق من يده. ثم قال : يا هؤلاء ، إنا قد لقينا القومَ ، ووالله إن عدّتكم كعدتّهم ، ولقد حَزرْتكم وإيّاهم فما أظنّ أحدَ الفريقين يزيدُ على الآخر بخمسة نفر ، وإنّي والله ما أرى أمرَهم وأمرَكم إلّا يرجع إلى القتال ، فإن كان إلى ذلك ما يصيِّر بكم وبهم الأمور فلا تكونوا أعجزَ الفريقين . ثم قال لنا : ليأخذْ كلّ امرىء منكم بعِنان فرسِه حتى أدنوَ منهم ، وادعوا إليّ صاحبَهم فأكلّمه ، فإن بايعَني على ما أريد وإلّا فإذا دعوتكم فاستَوُوا على متون الخيل ، ثم أقبِلوا إليّ معاً غيرَ متفرِّقين .

قال : فاستقدم أمامنا وأنا معه ، فأسمع رجلاً من القوم يقول : جاءكم القوم وهم كالُّون معيُون ، وأنتم جامُّون مستريحون ، فتركتموهم حتى نزلوا وأكلوا وشربوا واستراحوا ؛ هذا والله سوءُ الرأي ! والله لا يرجع الأمرُ بكم وبهمْ إلاّ إلى القتال . فسكتوا ، وانتهينا إليهم ، فدعا زياد بن خَصَفة صاحبهم ، فقال : اعتزل بنا فلننظرْ في أمرنا هذا ، فوالله لقد أقبل إليّ زياد في خمسة ، فقلت لزياد : ادع ثلاثةً من أصحابنا حتى نلقاهم في عدّتهم ؛ فقال لي : ادعُ مَن أحببت منهم ، فدعوت من أصحابنا ثلاثاً ، فكنّا خمسةً وخمسةً . فقال له زياد : ما الذي نقمْتَ على أمير المؤمنين وعلينا إذ فارقْتَنا؟ فقال: لم أرضَ صاحبكم إماماً ، ولم أرض سيرتَكم سيرة ، فرأيتُ أن أعتزِل وأكونَ مع مَن يدعو إلى الشورى من الناس، فإذا اجتمع الناس على رجل لجميع الأمة رضاً كنت مع الناس. فقال له زياد: ويحك! وهل يجتمع الناس على رجلٍ منهم يداني صاحبك الذي فارقته علماً بالله وبسُنن الله وكتابه، مع قرابته من الرسول ﷺ وسابقته في الإسلام! فقال له: ذلك ما أقول لك؛ فقال له زياد: ففيم قتلتَ ذلك الرجل المسلم؟ قال: ما أنا قتلتُه ، إنما قتلتْه طائفةٌ من أصحابي، قال: فادفعهم إلينا؛ قال: ما إلى ذلك سبيل؛ قال: كذلك أنت فاعل؟ قال: هو ما تسمع؛ قال: فدعَوْنا أصحابَنا ودعا أصحابه، ثم أقبلنا؛ فوالله ما رأينا قتالاً مثلَه منذ خلقني ربي، قال: اطّعنا والله بالرماح حتى لم يبقَ في أيدينا رُمح ، ثم اضطربنا بالسيوف حتى انحنتْ وعقِر عامّة خيلِنا وخيلهم، وكثرت الجراح فيما بيننا وبينهم، وقُتِل منّا رجلان: مولَى زياد كانت معه رايتُه يدعى سُوَيداً، ورجلٌ من الأبناء يدعى وافد بن بكر، وصرعنا منهم خمسة ، وجاء الليل يحجز بيننا وبينهم، وقد والله كرهونا وكرهناهم، وقد جرح زياد وجرحت.

قال: ثمّ إنّ القوم تنحّوا وبتْنا في جانب، فمكثوا ساعةً من الليل، ثمّ إنهم ذهبوا واتّبعناهم حتى أتينا البصرة، وبلغنا أنهم أتوا الأهواز، فنزلوا بجانب منها، وتلاحق بهم أناس من أصحابهم نحو من مائتين كانوا معهم بالكوفة، ولم يكن لهم من القوّة ما يُنهضهم معهم حتى نهضوا فاتبعوهم فلحقوهم بأرض الأهواز، فأقاموا معهم وكتب زياد بن خصفة إلى علي:

أمّا بعد ، فإنا لقينا عدوّ الله الناجيّ بالمذار ، فدعَوْناهم إلى الهدى والحقّ وإلى كلمةِ السَّواء ، فلم

ينزلوا على الحقّ ، وأخذتْهم العزّة بالإثم ، وزَيّن لهم الشيطان أعمالَهم فصدّهم عن السبيل ، فقَصَدوا لنا ، وصَمدْنا صمدَهم ، فاقتتلْنا قتالاً شديداً ما بين قائم الظَّهيرة إلى دُلُوك الشمس ، فاستشهد منّا رجلان صالحان ، وأصيب منهم خمسةُ نفَر ، وخلّوا لنا المعركة ، وقد فشت فينا وفيهم الجراح . ثم إنّ القوم لما لبسهم الليل خرجوا من تحته متنكّبين إلى أرض الأهواز، فبلغنا أنهم نزلوا منها جانباً ونَحن بالبصرة نُداوِي جراحَنا ، ونَنتظِر أمرَك رحمكَ الله والسّلام عليك .

فلما أتيتُه بكتابه قرأه على النّاس ، فقام إليه معقِل بن قيس ، فقال : أصلَحك الله يا أميرَ المؤمنين ! إنما كان ينبغي أن يكون مع من يطلب هؤلاء مكان كلّ رجل منهم عشرة من المسلمين ، فإذا لحِقوهم استأصَلوهم وقطعوا دابرَهم ، فأمّا أن يلقاهم أعدادُهم فلعَمري ليصبرُنّ لهم ، هم قومٌ عرب ، والعدّة تصبر للعدّة ، وتنتصف منها. فقال: تجهّز يا معقلَ بنَ قيسٍ إليهم . وندب معه ألفين من أهل الكُوفة منهم يزيد بن المغفّل الأزديّ . وكتب إلى ابن عباس :

أما بعد ، فابعث رجلاً من قِبَلك صليباً شجاعاً معروفاً بالصّلاح في ألفي رجل ، فليتبع معقِلاً ، فإذا مرّ ببلاد البصرة فهو أمير أصحابه حتى يلقى معقِلا ، فإذا لقي معقلا فمعقلٌ أميرُ الفريقين ، وليسمع من معقل وليُطِعه ، ولا يخالفه ، ومُر زيادَ بن خَصَفة فليُقبل ، فنعم المرءُ زياد ، ونعم القبيل قبيله !

قال أبو مخنف: وحدّثني أبو الصَّلت الأعور ، عن أبي سعيد العُقيليّ ، قال : كتب عليّ إلى زياد بن خَصَفة :

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وفهمتُ ما ذكرت من أمر الناجيّ وإخوانه الذين طبع الله على قلوبهم ، وزيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم فهم يعمهون ، ويحسبون أنهم يُحسِنون صُنْعاً ، ووصفت ما بلغ بك وبهم الأمر ، فأما أنت وأصحابك فلله سعيُكم ، وعلى الله تعالى جزاؤكم! فأبشرْ بثواب الله خيرٌ من الدنيا التي يقتل الجهّال أنفسَهم عليها ، فإنّ ما عندكم يَنفَد وما عندَ الله باقٍ ولنجزينّ الذين صبروا أجرَهم بأحسن ما كانوا يعملون . وأما عدوّكم الذين لقِيتموهم فحسْبهم بخروجهم من الهدى إلى الضّلال ، وارتكابهم فيه ، وردّهم الحق ، وبلجاجهم في الفتنة ، فذرْهم وما يفتَرون ، ودَعْهم في طغيانهم يَعمَهون ، فتسمّع وتبصّر ، كأنك بهم عن قليل بين أسير وقتيل . أقبِل إلينا أنت وأصحابك مأجورين ، فقد أطعتم وسمعتم ، وأحسنتم البلاء ؛ والسلام .

ونزل الناجيّ جانباً من الأهواز ، واجتمع إليه عُلوجٌ من أهلها كثير أرادوا كسر الخَراج ، ولصوصٌ كثيرة ، وطائفة أخرى من العرب تَرَى رأيَه .

حدّثني عمر بن شبّة ، قال : حدّثنا أبو الحسن ، عن عليّ بن مجاهد ، قال: قال الشعبي : لما قتل عليٌّ عليه السلام أهلَ النّهروان ، خالَفَه قوم كثير ، وانتقضت عليه أطرافه ، وخالَفَه بنو ناجية ، وقدم ابن الحضرميّ البصرة ، وانتقض أهلُ الأهواز ، وطَمِع أهلُ الخراج في كسرِه ، ثم أخرجوا سهل بن حُنَيف من فارِس ، وكان عامل عليٍّ عليها ، فقال ابن عبّاس لعليّ : أكفيك فارسَ بزياد ، فأمره عليٌّ أن يوجّهه إليها ، فقدِم ابن عباس البَصرة ، ووجّهه إلى فارسَ في جمع كثير ، فوطىء بهم أهل فارس ، فأدَّوا الخراج .

رجع الحديث إلى حديث أبي مِخْنف . قال أبـو مخنف : وحدّثني الحـارث بن كعب، عن عبدالله بن فُقَيم الأزديّ ، قال : كنت أنا وأخي كعب في ذلك الجيش مع مَعْقل بن قيس ، فلما أراد الخروج أقبل إلى علي فودّعه فقال : يا معقِل ، اتّق الله مـا استطعت ، فإنّها وصية الله للمؤمنين ، لا تَبغِ على أهل القبلة ، ولا تظلم أهلَ الذّمّة ، ولا تتكبّر فإن الله لا يحبّ المتكبّرين . فقال : الله المستعان ؛ فقال لـه علي : خيرُ مستعان ؛ قال: فخرج وخرجنا معه حتى نزلنا الأهواز ، فأقمنا ننتظر أهلَ البصرة ، وقد أبطئوا علينا ، فقام فينا معقلُ بن قيس فقال: يأيّها الناس، إنا قد انتظرنا أهل البصرة، وقد أبطئوا علينا، وليس بحمد الله بنا قِلّةٌ ولا وَحْشـة إلى الناس، فسيـروا بنا إلى هـذا العدوّ القليـل الذليـل ، فإني أرجـو أن ينصركم الله وأن يهلِكهم .

قال : فقام إليـه أخي كعب بن فُقَيم ، فقال: أصبتَ ـ أرشَـدَك الله ـ رأيَك ! فـوالله إني لأرجو أن يَنصرنَا الله عليهم ، وإن كانت الأخرى فإنّ في الموت على الحقّ تعزيةً عن الدنيا . فقال: سيروا على بَرَكة الله ؛ قـال: فَسِرْنـا ووالله ما زال معقِـل لي مُكرماً وَادًّا ، ما يَعـدل بي من الجند أحـداً ؛ قـال ولا يـزال يقول : وكيف قلت : إنّ في الموت على الحقّ تعزية عن الدّنيـا ؟ صدقت واللّهِ وأحسنت ووُفِّقت ! فـوالله ما سِرْنا يوماً حتى أدركَنَا فيْج يشتدّ بصحيفة في يده من عنـد عبدالله بن عبـاس : أما بعـد ، فإن أدركـك رسولي بالمكان الذي كنت فيـه مقيماً ، أو أدركـك وقد شخصْتَ منـه ، فلا تبـرحْ المكانَ الـذي ينتهي فيه إليـك رسولي ، واثبتْ فيـه حتى يقدم عليـك بعثُنا الـذي وجّهناه إليـك ، فإني قـد بعثتُ إليك خـالدَ بن معـدان الطائيّ ، وهـو من أهل الإصلاح والدِّين والبـأس والنجدة ، فـاسمع منـه ، واعرف ذلـك له ؛ والسلام .

فقرأ معقل الكتابَ على الناس، وحَمِد الله ، وقد كان ذلك الوجـه هالهم . قـال: فأقمنـا حتى قدم الطائي علينا ، وجاء حتى دخل عـلى صاحبنـا ، فسلَّم عليه بـالإمْرة ، واجتمعـا جميعاً في عسكـر واحد . قال : ثم إنا خرجْنا فسرنا إليهم ، فأخذوا يرتفعون نحو جبال رامَهُرْمُز يريدون قَلعـةً بها حصينـة وجاءنـا أهلُ البلد فأخبرونا بذلك ، فخرجْنا في آثارهم نُتبعهم ، فلحقناهم وقـد دَنوا من الجبـل ، فصففنا لهم ، ثم أقبلْنا إليهم ، فجعل معقِل على ميمنته يزيـدَ بن المُغْفِل ، وعـلى ميسرتـه مِنجاب بن راشـد الضبِّيّ من أهل البَصرة ، وصَفّ الخِرّيت بن راشد الناجيّ مَنْ معه من العـرب ، فكانـوا ميمنةً ، وجعـل أهل البلد والعُلوج ومَنْ أراد كسرَ الخـراج وأتباعهم من الأكـراد ميسرة . قـال: وسار فينـا مَعْقِل بن قيس يحـرّضنـا ويقول لنا: عبادَ الله! لا تَعدِلوا القومَ بأبصاركم ، غُضّوا الأبصار ، وأقلّوا الكلام ، ووطّنوا أنفسَكم عـلى الطعن والضرب ، وأبشِروا في قتالهم بالأجر العظيم ، إنما تقاتلون مارقةً مرقتْ من الدين ، وعُلوجاً مَنعوا الخَـراج وأكراداً ، انـظروني فإذا حملتُ فشـدّوا شَـدّة رجـل واحـد . فمـرّ في الصفّ كله يقـول لهم هـذه المقالة ، حتى إذا مرّ بالناس كلّهم أقبل حتى وقف وسط الصفّ في القلب ، ونظرنا إليه ما يصنع ! فحرّك رايته تحريكتين ، فوالله ما صبروا لنا ساعةً حتى ولّوا ، وشَـدَخْنا منهم سبعـين عربيًّـا من بني ناجيـة، ومن بعض من اتّبعهم من العرب، وقتلْنا نحواً من ثلاثمائة من العُلوج والأكراد. قال كعب بن فُقَيم : ونظرتُ فيمن قُتِل من العرب، فإذا أنا بصـديقي مدرك بن الـرّيان قتيـلاً ، وخرج الخِـرّيت ابن راشد وهـو منهزِم

حتى لحق بأسياف البحر ، وبها جماعة من قومه كثير ، فما زال بهم يسير فيهم ويدعوهم إلى خلاف علي ، ويبيّن لهم فراقه ، ويخبرهم أنّ الهدى في حربه ، حتى اتبعه منهم ناس كثير ، وأقام معقل بن قيس بأرض الأهواز ، وكتب إلى علي معي بالفتح ، وكنت أنا الذي قدمتُ عليه ، فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله علي أمير المؤمنين ، من معقِل بن قيس . سلامٌ عليك ، فإني أحمد إليكَ اللّهَ الذي لا إله إلاّ هو ، أما بعد ، فإنا لقِينا المارقين ، وقد استظهَروا علينا بالمشركين ، فقتَلْناهم قتلَ عاد وإرَم ، مع أنّا لم نَعْدُ فيهم سيرتَك ، ولم نقتل من المارقين مدبراً ولا أسيراً ، ولم نذفّف منهم على جريح ، وقد نصرك الله والمسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

قال : فقدمتُ عليه بهذا الكتاب ، فقرأه على أصحابه ، واستشارهم في الرأي ، فاجتمع رأيُ عامّتهم على قول واحد ، فقالوا له : نرى أن تكتب إلى معقل بن قيس فيتبع أثرَ الفاسق ، فلا يزال في طلبه حتى يَقتلَه أو ينفيَه ، فإنا لا نأمن أن يُفسد عليك الناس . قال : فردّني إليه ، وكتب معي :

أمّا بعد ، فالحمد لله على تأييد أوليائه ، وخِذلانِ أعدائه ، جزاك الله والمسلمين خيراً ، فقد أحسنتم البلاء ، وقضيتم ما عليكم ، وسَلْ عن أخي بني ناجية ، فإنْ بلغك أنه قد استقرّ ببلد من البُلدان فسرْ إليه حتى تَقتلَه أو تنفيَه ، فإنه لن يزال للمسلمين عدوًّا ، وللقاسِطِين وليًّا ، ما بقي ؛ والسلام عليك .

فسأل معقِل عن مستقرّه ، والمكان الذي انتهَى إليه ، فنُبِّىءَ بمكانه بالأسياف ، وأنّه قد ردّ قومه عن طاعة علي ، وأفسد مَنْ قِبَله من عبد القيس ومَن والاهم من سائر العرب ، وكان قومُه قد منعوا الصَّدَقة عام صِفّين ومنعوها في ذلك العام أيضاً ، فكان عليهم عِقالان ، فسار إليهم معقِل بن قيس في ذلك الجيش من أهل الكوفة وأهل البصرة ، فأخذ على فارسَ حتى انتهى إلى أسْياف البحر ، فلما سمع الخِرّيت بن راشد بمسيره إليه أقبل على مَنْ كان معه من أصحابه ممن يَرَى رأيَ الخوارج ، فأسرَّ لهم : إني أرى رأيَكم ، فإنّ عليًّا لن ينبغي له أن يُحكِّم الرجالَ في أمر الله ، وقال للآخرين منْدّداً لهم : إنّ عليًّا حَكّم حَكَماً وَرَضِيَ به ، فَخَلَعَه حَكَمُه الذي ارتضاه لنفسه ، فقد رضيتُ أنا من قضائه وحكمه ما ارتضاه لنفسه ، وهذا كان الرأي الذي خرج عليه من الكوفة . وقال سرًّا لمن يرى رأيَ عثمان : أنا والله على رأيكم ، قد واللّهِ قُتل عثمان مظلوماً ، فأرضى كلّ صنف منهم ، وأراهم أنه معهم ، وقال لمن منع الصدقة : شدّوا أيديَكم على صدقاتكم ، وصِلُوا بها أرحامَكم ، وعودوا بها إن شئتم على فقرائكم ، وقد كان فيهم نصارى كثير قد أسلموا ، فلمّا اختلف الناسُ بينهم قالوا : واللّهِ لَدينُنا الذي خرجْنا منه خيرٌ وأهدى من دين هؤلاء الذي هم عليه ؛ ما ينهاهم دينهُم عن سفك الدماء ، وإخافةِ السبيل ، وأخذِ الأموال . فرجعوا إلى دينهم ، فلقيَ الخِرّيت أولئك ، فقال لهم : وَيْحَكم ! أتدرون حُكمَ عليّ فيمن أسلم من النصارى ، ثم رجع إلى نصرانيّته ؟ لا والله ما يسمع لهم قولاً ، ولا يرى لهم عذراً ، ولا يقبل منهم توبة ولا يدعوهم إليها ، وإنّ حكمه فيهم لضربُ العنق ساعةَ يَستمكِن منهم .

فما زال حتى جمعهم وخدَعَهم ، وجاء من كان من بني ناجية ومن كان في تلك الناحية من غيرهم ،

واجتمع إليهم ناسٌ كثير .

فحدّثني عليّ بن الحسن الأزديّ ، قال : حدّثنا عبدالرحمن بن سليمان ، عن عبد الملك بن سعيد بن حاب ، عن الحرّ، عن عمار الدهني ، قال :حدّثني أَبو الطُّفَيل، قال: كنت في الجيش الذين بعثهم علي بن أبي طالب إلى بني نَاجِية ، فقال : فانتهينا إليهم ، فوجدناهم على ثلاثِ فِرَق ، فقال أميرنا لفرقة منهم : ما أنتم؟ قالوا: نحن قومٌ نصارى، لم نر ديناً أفضلَ من ديننا، فثبتْنا عليه ، فقال لهم : اعتزلوا ، وقال للفرقة الأخرى : ما أنتم؟ قالوا: نحن كنّا نصارى فأسلَمْنا، فثبتْنا على إسلامنا ، فقال لهم: اعتزِلوا؛ ثم قال للفرقة الأخرى الثالثة: ما أنتم؟ قالوا: نحن قومٌ كنّا نصارى، فأسلَمْنا، فلم نَرَ ديناً هو أفضلُ من ديننا الأوّل ؛ فقال لهم: أسلِموا ، فأبَوا ؛ فقال لأصحابه : إذا مسحتُ رأسي ثلاثَ مرّات فشدّوا عليهم ، فاقتلوا المُقاتِلة ، واسبُوا الذّرية . فجيء بالذرّية إلى علي، فجاء مَصقَلة بن هُبيرة ، فاشتراهم بمائتي ألف ، فجاء بمائةِ ألف فلم يقبلها علي، فانطلق بالدراهم، وعَمَد إليهم مصقلة فأعتقَهم ولحق بمعاوية ، فقيل لعلي : ألا تأخذ الذرية؟ فقال: لا ، فلم يَعرِض لهم .

رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف . قال أبو مِخْنف : وحدّثني الحارث بن كعب ، قال: لما رجع إلينا معقل بن قيس قرأ علينا كتاباً من علي :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله عليٍّ أميرِ المؤمنين إلى من يُقْرَأ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين ، والنّصارى والمرتدّين . سلامٌ عليكم وعلى مَن اتّبع الهدى وآمَن بالله ورسوله وكتابه والبعثِ بعد الموت وأوفى بعهد الله ولم يكن من الخائنين . أمّا بعد ، فإني أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنّة نبيّه ، والعملِ بالحقّ ، وبما أمر الله في الكتاب ، فمن رجع إلى أهله منكم وكفّ يَده واعتَزَل هذا الهالكَ الحاربَ الذي جاء يحارب الله ورسولَه والمسلمين ، وسعَى في الأرض فساداً ، فله الأمان على مالِه ودمه ، ومَن تابَعَه على حربنا والخروج من طاعتنا ، استعنّا بالله عليه ، وجعلْنا اللّهَ بيننا وبينه ، وكفى بالله نصيراً !

وأخرج معقل رايةَ أمانٍ فنصَبَها ، وقال : مَن أتاها من الناس فهو آمن . إلا الخِرّيت وأصحابه الذين حاربونا وبدؤونا أوّل مرّة . فتفرّق عن الخِرّيت جُلّ مَن كان معه من غير قومه ، وعبّأ معقِل بن قيس أصحابَه ، فجعل على ميمنته يزيد بن المُغْفِل الأزديّ ، وعلى ميسرته المِنْجاب بن راشد الضبيّ ، ثم زحف بهم نحو الخِرّيت ، وحضر معه قومُه مسلموهم ونصاراهم ومانعةُ الصدقة منهم .

قال أبو مخنف : وحدثني الحارث بن كعب ، عن أبي الصّديق النّاجيّ ، أنّ الخِرّيت يومئذ كان يقول لقومه: امنعوا حريمَكم ، وقاتِلوا عن نسائكم وأولادكم ، فوالله لئن ظهروا عليكم ليقتلُنّكم وليسبُنّكم .

فقال له رجل من قومه : هذا والله ما جَنَتْه علينا يَداك ولسانُك . فقال: قاتِلوا لله أنتم! سَبَق السيفُ العَذَل ، إيهاً والله لقد أصابت قومي داهية ! .

قال أبو مخنف : وحدّثني الحارث بن كعب، عن عبدالله بن فُقَيم ، قال : سار فينا معقل فحرّض الناسَ فيما بين الميمنة والميسرة يقول : أيُّها الناس المسلمون ، ما تزيدون أفضلَ مما سِيق لكم في هذا الموقف من الأجر العظيم ؛ إنّ الله ساقكم إلى قوم منعوا الصدقة ، وارتدّوا عن الإسلام، ونَكَثوا البيعة ظُلماً وعدواناً ، فأشهد لمن قُتل منكم بالجنة ، ومَنْ عاش فإنّ الله مُقِرٌّ عينَه بالفتح والغنيمة . ففعل ذلك حتى مرّ بالناس كلِّهم . ثم إنه

جاء حتى وقف في القلْب برايته ، ثم إنه بعث إلى يزيد بن المغفِل وهو في الميمنة : أنِ احمْل عليهم ، فَحَمَل عليهم ، فثبَتوا وقاتلوا قتالاً شديداً . ثمّ إنه انصرف حتى وقف موقفه الذي كان به في الميمنة ، ثم إنه بعث إلى مِنْجاب ابن راشد الضّبي وهو في الميسرة. ثم إنّ مِنجاباً حَمَل عليهم فَثَبَتُوا وقاتَلوا قتالاً شديداً طويلاً ، ثم إنه رجع حتى وقف في الميسرة ، ثم إنّ معقلاً بعث إلى الميمنة والميسرة : إذا حملتُ فاحملوا بأجمعكم . فحرّك رايتَه وهزّها ، ثم إنه حمل وحمل أصحابُه جميعاً ، فصبروا ساعةً لهم . ثم إنّ النعمان بن صُهْبان الراسبيّ من جَرْم بصُرَ بالخرّيت بن راشد فحَمَل عليه ، فطَعَنه فصرعه عن دابّته ، ثم نـزل وقد جَـرَحه فـأثْخنه ، فـاختَلَفا ضربتين ، فقتله النعمان بن صُهْبان ، وقُتِل معه في المعركة سبعون ومائة ، وذهبوا يميناً وشمالاً ، وبعث معقل ابن قيس الخيلَ إلى رحالهم ، فسبَى مَن أدرك منهم ، فسبى رجالاً كثيراً ونساءً وصبياناً . ثم نظر فيهم ؛ فأمّا من كان مسلماً فخلاّه وأخذ بيعته وترك له عيالَه ، وأما من كان ارتدّ فعرض عليهم الإسلام . فرجعوا وخلّى سبيلهم وسبيلَ عيالهم إلاّ شيخاً منهم نصرانيًّا يقال له: الرُّمَاحس بن منصور؛ قال: والله ما زَلَلْتُ منذ عقلتُ إلاّ في خروجي من ديني ، دينِ الصّدق إلى دينكم دينِ السوء ، لا والله لا أدع دِيني ، ولا أقرب دينَكم ما حييت . فقدّمه فضَرَب عنقَه ، وجمع معقل الناس فقال: أدُّوا ما عليكم في هذه السنين من الصدقة. فأخذ من المسلمين عِقالَين ، وعَمَد إلى النصارى وعيالِهم فاحتملهم مقبلاً بهم ، وأقبل المسلمون معهم يشيّعونهم، فأمر معقل بردّهم، فلما انصرفوا تصافحوا فبكوا، وبكى الرجالُ والنساء بعضهم إلى بعض. قال: فأشهد أنّي رحمتُهم رحمةً ما رحمتُها أحداً قبلَهم ولا بعدَهم .

قال: وكتب معقل بن قيس إلى علي: أما بعد، فإنّي أخبر أميرَ المؤمنين عن جُنْده وعدوّه ؛ إنا دفعنا إلى عدونا بالأسياف فوجدنا بها قبائلَ ذات عِدّة وجِدّة وجِدّ ، وقد جُمعت لنا ، وتحزّبتْ علينا ، فدعَوْناهم إلى الطاعة والجماعة ، وإلى حُكم الكتاب والسنة ، وقرأنا عليهم كتابَ أمير المؤمنين ، ورفعنا لهم رايةَ أمان ، فمالَتْ إلينا منهم طائفة ، وبقيتْ طائفةٌ أخرى مُنابِذة ، فقبلنا من التي أقبلت ، وصَمدْنا صَمْداً للتي أدبرتْ ، فضرب الله وجوهَهم ونُصِرنا عليهم ؛ فأمّا من كان مسلماً فإنا مننّا عليه وأخذنا بيعتَه لأمير المؤمنين ، وأخذنا منهم الصدقة التي كانت عليهم ، وأما من ارتدّ فإنا عرضنا عليه الرجوعَ إلى الإسلام وإلّا قتلناه . فرجعوا غير رجل واحد ، فقتلناه ؛ وأما النصارى فإنا سبيْناهم ، وقد أقبلْنا بهم ليكونوا نَكالاً لمن بعدهم من أهل الذمة ، لكيلا يمنعوا الجزية ، ولكيلا يجترئوا على قتال أهلِ القبلة ، وهم أهل الصّغار والذلّ ، رحمك الله يـا أميرَ المؤمنين ، وأوجَبَ لك جنّات النعيم ؛ والسلام عليك !

ثم أقبل بهم حتى مرّ بهم على مصقلة بن هبيرة الشيبانيّ ، وهو عاملُ علي على أردَشِيرخُرّه ، وهم خمسمائة إنسان ، فبكى النساء والصبيانُ ، وصاحَ الرجال : يا أبا الفضل ، يا حاميَ الرجال، وفَكّاك العُناة، أمنن علينا فاشترِنا وأعتِقنا ؛ فقال مصقَلة: أقسم بالله لأتصدّقنّ عليهم ، إنّ الله يَجزِي المتصدّقين . فبُلِّغها عنه معقلٍ ، فقال: والله لو أعلم أنه قاله توجُّعاً لهم، وزراءً عليكم ، لضربتُ عنقَه، ولو كان في ذلك تفاني تميم وبكْر بن وائل . ثم إن مصقلة بعث ذُهل بن الحارث الذهلي إلى معقلِ بن قيس فقال له : بِعني بني ناجية؛ فقال: نعم، أبيعكم بألف ألف ، ودَفَعهم إليه ، وقال له : عجّل بالمالِ إلى أمير المؤمنين ؛ فقال: أنا باعث الآن بصدْر ، ثم أبعثُ بصَدْر آخر كذلك ؛ حتى لا يبقى منه شيء إن شاء الله تعالى. وأقبل معقِل بن قيس إلى أمير المؤمنين ، وأخبره بما كان منه في ذلك ، فقال له: أحسنتَ وأصبتَ ، وانتظَرَ عليٌّ مصقلة أن يبعث إليه

بالمال ، وبلغ عليًّا أن مصقلة خلّى سبيلَ الأسارى ولم يسألهم أن يُعينوه في فَكاك أنفسِهم بشيء ، فقال: ما أظنّ مصقلة إلا قد تحمّل حَمالةً ؛ ألا أراكم سترَوْنَه عن قريب ملبّداً. ثم إنه كتب إليه : أمّا بعد، فإن من أعظم الخيانة خيانة الأمة ، وأعظم الغِشّ على أهل المصر غشّ الإمام ، وعندَك من حق المسلمين خمسمائة ألف ، فابعث بها إليّ ساعةَ يأتيك رسولي ، وإلاّ فأقبِل حين تنظرُ في كتابي ، فإني قد تقدّمت إلى رسولي إليك ألاّ يَدَعَك أن تقيمَ ساعة واحدة بعد قدومه عليك إلاّ أن تبعث بالمال ؛ والسلام عليك .

وكان الرسول أبو جُرّة الحنفيّ ، فقال له أبو جُرّة : إن يبعث بالمال الساعة وإلاّ فاشْخَصْ إلى أمير المؤمنين . فلما قرأ كتابه أقبل حتى نزل البَصرة ، فمكث بها أياماً . ثم إنّ ابنَ عباس سأله المال ، وكان عمّال البصرة يُحمَلون من كُوَر البصرة إلى ابن عباس ، ويكون ابنُ عباس هو الذي يبعث به إلى علي ؛ فقال له : نعم ، أنظِرني أياماً ، ثم أقبل حتى أتى عليٍّ فأقرّه أياماً ، ثم سأله المال، فأدّى إليه مائتي ألف ، ثم إنه عجز فلم يَقدِر عليه .

قال أبو مخنف : وحدّثني أبو الصّلت الأعور ، عن ذُهل بن الحارث ، قال: دعاني مَصْقلة إلى رَحْلِه فقُدّم عشاؤه ، فطَعِمْنا منه ، ثم قال : والله إن أميرَ المؤمنين يسألني هذا المال ، ولا أقدِر عليه ، فقلت : والله لو شئتَ ما مضت عليك جمعة حتى تجمع جميعَ المال ؛ فقال : والله ما كنت لأحمّلَها قومي ، ولا أطلب فيها إلى أحد . ثم قال: أما والله لو أن ابنَ هند هو طالبني بها أو ابن عفان لتركها لي ؛ ألم تر إلى ابن عفان حيث أطعَم الأشعثَ من خراج أذْرَبيجانَ مائة ألف في كلّ سنة ! فقلت له : إنّ هذا لا يرى هذا الرأي ، لا والله ما هو بباذل شيئاً كنتَ أخذته ، فسكت ساعةً ، وسكت عنه ، فلا والله ما مكث إلاّ ليلةً واحدة بعد هذا الكلام حتى لحق بمعاوية . وبلغ ذلك عليًّا فقال: ما له برّحه الله ؛ فعل فِعلَ السيِّد ، وفرّ فِرارَ العبد ، وخان خيانة الفاجر! أما والله لو أنه أقام فعجَز ما زدنا على حبسه ، فإن وجدْنا له شيئاً أخذناه ، وإن لم نقدر على مال تركناه . ثم سار إلى داره فنقضها وهدّمها ، وكان أخوه نعيم بن هبيرة شِيعيًّا ، ولعليٍّ مناصحاً ، فكتب إليه مصقلة من الشأم مع رجل من النصارى من بني تَغلِب يقال له حُلْوان :

أما بعد ، فإني كلّمتُ معاويةَ فيك ، فوعَدَك الإمارة ، ومنّاك الكرامة ، فأقبِل إليّ ساعةَ يلقاك رسولي إن شاء الله ؛ والسلام .

فأخذه مالك بن كعب الأرحبي ، فسرّح به إلى علي ، فأخذ كتابه فقرأه ، فقطع يَد النصراني، فمات، وكتب نُعيم إلى أخيه مَصْقَلة :

لا تَرْمِيَنَّ هَداكَ اللّهُ مُعْتَرِضاً ... بالظَّنّ مِنْك فما بالي وحُلوانا!
ذاك الحَريصُ على ما نالَ مِن طَمَعٍ ... وَهْوَ البَعيدُ فلا يُحْزِنْكَ إذْ خانا
ماذا أردْتَ إلى إرْسالِهِ سَفَهاً ... تَرجو سِقاطَ امْرِئٍ لمْ يُلْفَ وَسْنانا
عَرَّضْتَهُ لِعَليٍّ إنَّهُ أَسَدٌ ... يَمشي العِرَضْنَةَ مِنْ آسادِ خَفّانا
قد كنْتَ في مَنْظَرٍ عن ذا ومُسْتَمَعٍ ... تَحمِي العراقَ وتُدْعى خَيْرَ شَيْبانا
حتّى تَقَحَّمْتَ أَمْراً كنْتَ تَكْرَهُهُ ... لِلرّاكبين لَهُ سِرًّا وإعلانا

لـو كنْتَ أَدَّيْتَ ما للقَـوْم مُصْطَبِـراً ... لِلْحَقِّ أَحْيَيْـتَ أحيـانًـا وَمَـوْتـانـا
لكن لَحِقْتَ بِـأَهْـلِ الشـأمِ مُلْتَمِساً ... فَضـلَ ابنِ هِنْدٍ وذاك الـرأيُ أشجـانا
فـاليَـوْمَ تَقْـرَعُ سِنَّ الغُـرْمِ من نـدَمٍ ... مـاذا تَقـولُ وقَـدْ كـان الـذي كـانـا!
أَصْبَحْتَ تُبْغِضُـكَ الأحياءُ قـاطِبـةً ... لم يَـرْفَـع اللّهُ بـالبَغْضـاءِ إنسـانـا

فلما وَقَع الكتاب إليه عَلِم أنّ رسوله قد هلك ، ولم يلبث التغلَبيّون إلّا قليلاً حتى بلغهم هلاكُ صاحبهم حُلوان ، فأتوا مصقلةَ فقالوا : إنك بعثتَ صاحبنا فأهْلَكتَه ، فإما أن تُحيِيَه وإما أن تَدِيَه ، فقال : أمّا أن أحِييَه فلا أستطيع ، ولكنّي سأدِيه ؛ فوَاداه .

قال أبو مخنف : وحدّثني عبدالرحمن بن جندَب ، قال : حدّثني أبي ، قال : لما بلغ عليًّا مصابُ بني ناجية وقتلُ صاحبهم قال: هوتْ أمّه ! ما كان أنقصَ عقلَه ، وأجرَأه على ربّه ! فإنّ جائياً جاءني مرّة فقال لي : في أصحابك رجالٌ قد خشيتُ أن يفارقوك ، فما ترى فيهم؟ فقلت له : إنّي لا آخذ على التّهمة ، ولا أعاقب على الظنّ ، ولا أقاتل إلّا من خالَفني وناصَبَني وأظهر لي العداوة ، ولست مُقاتِلَه حتى أدعوَه وأعذِرَ إليه ، فإن تاب ورجع إلينا قبلْنا منه ، وهو أخونا ، وإن أبى إلّا الاعتزامَ على حربنا استعنّا عليه اللّهَ ، وناجَزْناه . فكفّ عني ما شاء الله . ثم جاءني مرّة أخرى فقال لي : قد خشيت أن يَفسد عليك عبدُالله بنُ وهب الراسبي وزيدُ بن حصين ، إني سمعتُهما يَذكرانك بأشياء لو سمعتَها لم تُفارِقْهما عليها حتى تقتلهما أو توبِقهما ، فلا تفارقْهما من حبسِك أبداً ، فقلت : إنّي مستشيرك فيهما ، فماذا تأمرني به؟ قال: فإنّي آمرك أن تدعوَ بهما ، فتضربَ رِقابهما ، فعلمت أنه لا ورِعٌ ولا عاقل ، فقلت : واللّهِ ما أظنّك وَرِعاً ولا عاقِلاً نافعاً، واللّهِ لقد كان ينبغي لك لو أردت قتلَهم أن تقول : اتّق اللّهِ، لِم تستحلّ قتلَهم ولم يقتلوا أحداً ، ولم ينابذوك ، ولم يخرجوا من طاعتك !

وحجّ بالناس في هذه السنة قُثَم بن العبّاس من قِبَل عليّ عليه السلام . حدّثني بذلك أحمد بن ثابت ، عن اسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر . وكان قُثَم يومئذ عامِلَ علي على مكة ، وكان على اليمن عبيدالله بن العباس ، وعلى البصرة عبدالله بن العباس .

واختُلف في عامله على خُراسان فقيل : كان خليد بن قرّة اليربوعيّ ، وقيل : كان ابن أبزَى ؛ وأما الشأم ومصرَ فإنه كان بهما معاوية وعمّاله .

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين

فمما كان فيها من الأحداث المذكورة :

تفريق معاوية جيوشه في أطراف علي

فوجّه النعمانَ بن بشير ـ فيما ذكر علي بن محمد بن عوانة ـ في ألفي رجل إلى عين التّمْر ، وبها مالك بن كعب مَسلَحةً لعليّ في ألف رجل ، فأذن لهم ، فأتوا الكوفة ، وأتاه النعمان ، ولم يبق معه إلاّ مائة رجل ، فكتب مالكٌ إلى علي يخبرُه بأمرِ النعمان ومن معه ، فخطب عليٌّ النّـاس ، وأَمَرَهم بـالخُروج ، فتثـاقلُوا ، وواقع مالك النعمان ، والنّعمان في ألفي رجل ومالك في مائة رجل ، وأمر مالك أصحابه أن يجعلوا جَدْرَ القرية في ظهورهم ، واقتتلوا . وكتب إلى مِخْنف بن سُلَيْم يسأله أن يُمدّه وهو قريب منه ، فقاتلهم مالك بن كعب في العِصابة التي معه كأشد القتال ، ووجه إليه مخنف ابنه عبدالرحمن في خمسين رجلاً ، فانتهوا إلى مالك وأصحابه ، وقد كسروا جفونَ سيوفهم ، واستقتَلوا ، فلما رآهم أهل الشام وذلك عند المساء ، ظنّوا أنّ لهم مدداً وانهزموا ، وتبِعهم مالك ، فقتل منهم ثلاثة نفر ، ومضَوْا على وجوههم .

حدّثني عبدُالله بن أحمدَ بن شبّوَيه المروزي ، قال : حدّثنا أبي ، قال : حدّثني سليمان ، عن عبدالله ، قال : حدّثني عبدالله بن أبي معاوية ، عن عمرو بن حسّان ، عن شيخ من بني فَزارة ، قال : بعث معاوية النعمانَ بن بشير في ألفين ، فأتوا عينَ التّمْر ، فأغاروا عليها ، وبها عامل لعليّ يقال له ابن فلان الأرحبي في ثلثمائة ، فكتب إلى علي يستمِدّه ، فأمر الناسَ أن ينهضوا إليه ، فتثاقلوا ، فصعِد المنبر ، فانتهيت إليه وقد سبَقَني بالتشهّد وهو يقول :

يا أهلَ الكُوفة ، كلّما سمعتم بمِنسر من مناسر أهل الشام أظلّكم وأغلقَ بابَه انجَحَر كلّ امرىء منكم في بيته انجحارَ الضبّ في جُحْره والضّبع في وِجارِها ؛ المغـرورُ من غررتمـوه ، ولَمَنْ فازَ بكم فـاز بالسهم الأخيَب . لا أحرارٌ عند النداء ، ولا إخوانٌ ثقة عند النّجاء ، إنا لله وإنا إليه راجعون ! ماذا مُنِيتُ به منكم ! عميٌ لا تُبصِرون ، وبُكْمٌ لا تنطقون ، وصُمٌّ لا تَستَمعون إنا لله وإنا إليه راجعون .

رجع الحديث إلى حديث عوانة . قال : ووجّه معاوية في هذه السّنة سُفيَانَ بن عوف في ستة آلاف رجل ،

وأمره أن يأتيَ هِيت فيقطعها ، وأن يُغيرَ عليها ، ثم يمضي حتى يأتي الأنبار والمدائن فيوقعَ بأهلها ، فسار حتى أتى هِيت فلم يَجِد بها أحداً ، ثم أتى الأنبارَ وبها مَسلَحة لعليّ تكون خمسمائة رجل ، وقد تفرّقوا فلم يبقَ منهم إلّا مائة رجل ، فقاتَلَهم ، فصبر لهم أصحابُ عليّ مع قلّتهم ، ثم حملت عليهم الخيلُ والرَّجالة ، فقتلوا صاحبَ المسلحة ، وهو أشرَس بن حسّان البكريّ في ثلاثين رجلًا ، واحتملوا ما كان في الأنبار من الأموال وأموال أهلها ، ورجعوا إلى معاوية . وبلغ الخبر عليًّا ، فخرج حتى أتى النُّخَيلة ، فقال له الناس : نحن نكفيك ، قال : ما تكفونني ولا أنفسكم ؛ وسرّح سعيد ابن قيس في أثر القوم ، فخرج في طلبهم حتى جاز هِيت ، فلم يلحقهم فرجع .

قال: وفيها وجّه معاوية أيضاً عبدَالله بن مسعدة الفَزَاريّ في ألف وسبعمائة رجل إلى تَيْماء ، وأمره أن يُصَدِّق مَن مرّ به من أهل البوادي ، وأن يقتل مَن امتنع من عطائه صدقة ماله ، ثم يأتي مكة والمدينة والحجاز، يفعل ذلك ، واجتمع إليه بشرٌ كثير من قومه ، فلما بلغ ذلك عليًّا وجه المسيَّب بن نَجبَة الفَزَاري ، فسار حتى لحق ابن مسعدة بتَيْماء ، فاقتتلوا ذلك اليوم حتى زالت الشمس قتالاً شديداً ، وحمل المسيَّب على ابن مسعدة فضربه ثلاثَ ضَرَبات ، كلّ ذلك لا يلتمس قتله ويقول له: النَّجاء النَّجاء ! فدخل ابن مسعدة وعامة مَن معه الحصن ، وهرَب الباقون نحو الشام ، وانتهب الأعراب إبلَ الصّدقة التي كانت مع ابن مسعدة ، وحَصَره ومَن كان معه المسيَّب ثلاثة أيام ، ثم ألقَى الحطَب على الباب ، وألقى النيرانَ فيه ، حتى احترق ، فلما أحسوا بالهلاك أشرَفوا على المسيّب فقالوا : يا مسيّب ، قومك ! فرقّ لهم ، وكرِه هلاكَهم ، فأمر بالنار فأطفئتْ، وقال لأصحابه : قد جاءتني عيون فأخبروني أنَّ جنداً قد أقبل إليكم من الشام ، فانضمّوا في مكان واحد . فخرج ابنُ مسعدة في أصحابه ليلاً حتى لحقوا بالشام ، فقال له عبدالرحمن بن شبيب : سِرْ بنا في طلبِهم ، فأبى ذلك عليه ، فقال له: غششتَ أميرَ المؤمنين وداهنتَ في أمرهم .

وفيها أيضاً وجّه معاويةُ الضحّاكَ بنَ قيس ، وأمره أن يمرّ بأسفل واقِصة ، وأن يُغِير على كلّ مَن مرّ به ممن هو في طاعة علي من الأعراب ، ووَجّه معه ثلاثة آلاف رجل ، فسار فأخذ أموالَ الناس، وقتل من لقيَ من الأعراب ، ومرّ بالثّعلبيّة فأغار على مسالح علي ، وأخذ أمتِعتهم ، ومضى حتى انتهى إلى القُطْقُطانة ، فأتى عَمرو بن عميس بن مسعود ، وكان في خيل لعلي وأمامه أهله ، وهو يريد الحجّ ، فأغار على من كان معه ، وحبسه عن المسير ، فلما بلغ ذلك عليًّا سرّح حُجْر بن عَديّ الكنديّ في أربعة آلاف ، وأعطاهم خمسين خمسين ، فلحق الضحّاك بتَدْمُر فقتل منهم تسعةَ عشرَ رجلاً ، وقتِل من أصحابه رجلان ، وحال بينهم الليل ، فهرب الضحاك وأصحابه ، ورجع حُجْر ومن معه .

وفيها سار معاوية بنفسه إلى دِجْلة حتى شارَفَها ، ثم نكص راجعاً ، ذكر ذلك ابن سعد ، عن محمد بن عمر ، قال : حدّثني ابن جريج ، عن ابن أبي مُلَيكة قال : لما كانت سنة تسع وثلاثين أشرَف عليها معاوية .

وحدّثني أحمد بن ثابت ، عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر مثله .

واختلف فيمن حجّ بالناس في هذه السنة ، فقال بعضهم : حجّ بالناس فيها عبيدالله بن عبّاس من قبل علي . وقال بعضُهم : حجّ بهم عبدالله بن عباس ؛ فحدّثني أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : يقال إنّ عليًّا وجّه ابن عَباس ليشهد الموسم ويصلي بالناس في سنة تسع وثلاثين ، وبعث معاوية يزيد بن شجرة الرّهاوي .

قال : وزعم أبو الحسن أن ذلك باطل ، وأن ابنَ عباس لم يشهد المَوْسِم في عمل حتى قُتِل علي عليه السلام ؛ قال : والذي نازعه يزيد بن شجرة قثم بن العباس ، حتى إنهما اصطلحا على شيبة بن عثمان ، فصلى بالناس سنة تسع وثلاثين .

وكالذي حكيت عن أبي زيد عن أبي الحسن ، قال أبو معشر في ذلك : حدّثني بذلك أحمد بن ثابت الرازي ، عمّن حدثه ، عن إسحاق بن عيسى عنه .

وقال الواقدي : بعث علي على الموسم في سنة تسع وثلاثين عبيد الله بن عباس ، وبعث معاوية يزيدَ بن شجرة الرهاوي ليقيم للناس الحج ، فلما اجتمعا بمكّة تَنَازَعا ، وأبى كلُّ واحد منهما أن يسلّم لصاحبه ، فاصطَلَحا على شيبة بن عثمانَ بن أبي طلحة .

وكانت عمّال عليٍّ في هذه السنة على الأمصار الذين ذكرْنا أنهم كانوا عمّالَه في سنة ثمان وثلاثين غير ابن عباس ، كان شَخَصَ في هذه السنة عن عمله بالبَصرة ، واستخلف زياداً ـ الذي كان يقال له : زياد بنُ أبيه ـ على الخَراج ، وأبا الأسوَد الدُّؤَليّ على القضاء .

وفي هذه السنة وجّه ابنُ عباس زياداً عن أمر علي إلى فارسَ وكِرْمان عند منصرَفه من عند علي من الكُوفة إلى البَصرة .

ذكر سبب توجيهه إياه إلى فارس :

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي ؛ قال : لما قتل ابن الحَضْرميّ واختلف الناسُ على علي ، طَمِع أهلُ فارسَ وأهلُ كَرمانَ في كسْر الخراج ، فغلب أهلُ كل ناحية على ما يليهم ، وأخرجوا عمّالَهم .

حدّثني عمر ، قال : حدثنا أبو القاسم ، عن سَلَمة بن عثمان ، عن علي بن كثير ، أنّ عليًّا استشار الناسَ في رجُل يولّيه فارسَ حين امتنعوا من أداء الخراج ، فقال له جارية بن قدامة : ألا أدلّك يا أميرَ المؤمنين على رجل صليبِ الرأي ، عالمٍ بالسياسة ، كافٍ لِمَا وليَ؟ قال : مَن هو؟ قال : زياد ؛ قال : هو لها ؛ فولّاه فارسَ وكِرْمان ، ووجّهه في أربعة آلاف ، فدوّخ تلك البلادَ حتى استقاموا .

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا أبو الحسن ، عن علي بن مجاهد ، قال : قال الشعبي : لما انتقَض أهلُ الجبال وطمع أهلُ الخراج في كسره ، وأخرَجوا سهلَ بن حنيف من فارس ـ وكان عاملاً عليها لعلي ـ قال ابن عباس لعلي : أكفيكَ فارس ؛ فقدم ابنُ عباس البَصرة ، ووجّه زياداً إلى فارسَ في جمع كثير ، فوطِىء بهم أهلَ فارس ، فأدَّوا الخَراج .

حدّثني عمر ، قال : حدّثني أبو الحسن ، عن أيّوب بن موسى ، قال : حدّثني شيخٌ من أهل إصْطَخْر

قال: سمعتُ أبي يقول: أدركتُ زياداً وهو أميرٌ على فارسَ وهي تَضرَم ناراً ، فلم يزل بالمُداراة حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من الطاعة والاستقامة، لم يقفْ موقفاً للحرب ، وكان أهل فارسَ يقولون : ما رأيْنا سيرةً أشبه بسيرة كِسرَى أنوشِرْوان من سِيرة هذا العربيّ في اللين والمُداراة والعلم بما يأتي .

قال : ولما قدِم زياد فارس بعث إلى رؤسائها ، فوعد مَن نَصَره ومنّاه ، وخوّفَ قوماً وتوعّدهم، وضرب بعضَهم ببعض، ودلّ بعضَهم على عورةِ بعض، وهربتْ طائفة ، وأقامت طائفة ، فقتل بعضُهم بعضاً ، وصفَتْ له فارس، فلم يَلْقَ فيها جمعاً ولا حَرْباً ، وفعل مِثلَ ذلك بكَرْمان ، ثم رجع إلى فارسَ ، فسار في كُوَرها ومنّاهم ، فسَكنَ الناسُ إلى ذلك ، فاستقامت له البلاد ، وأتى إصْطَخْرَ فنزلها وحصّن قلعةً بها ما بين بيضاء إصْطَخْر وإصْطَخْر ،فكانت تسمَّى قلعةَ زياد ، فحمل إليها الأموال ، ثم تحصّن فيها بعد ذلك منصور اليشكري ، فهي اليومَ تُسمَّى قلعةَ منصور .

ثم دخلت سنة أربعين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك توجيه معاويةُ بُسر بن أبي أرطاة في ثلاثة آلاف من المقاتلة إلى الحجاز .

فذُكر عن زياد بن عبدالله البَكّائي ، عن عَوانة ، قال: أرسل معاويةُ بن أبي سفيان بعد تحكيم الحَكَمين بُسرَ بنَ أبي أرطاة ـ وهو رجلٌ من بني عامر بن لؤيّ في جيش ـ فساروا من الشام حتى قدموا المدينة ، وعاملُ علي على المدينة يومئذ أبو أيوبَ الأنصاري ، ففرّ منهم أبو أيوب ، فأتى عليًّا بالكوفة ، ودخل بُسر المدينة ؛ قال : فصَعِد مِنبرَها ولم يقاتلْه بها أحد ، فنادى على المنبر: يا دينار ، ويا نجّار ، ويا زُريق ، شَيْخي شَيْخي! عهدي به بالأمس، فأين هو! يعني عثمانَ ، ثمّ قال: يا أهل المدينة ، واللّهِ لولا ما عهد إليَّ معاويةُ ما تركتُ بها محتلِماً إلّا قتلته . ثم بايَعَ أهل المدينة ، وأرسل إلى بني سلِمة ، فقال: والله ما لكم عندي من أمان ولا مبايَعة حتى تأتوني بجابر بنِ عبدالله ، فانطلق جابر إلى أمّ سَلَمة زوج النبي ﷺ فقال لها: ماذا تَرَيْن؟ إنّي قد خشيتُ أن أقتل ، وهذه بَيْعة ضلالة ، قالت: أرى أن تبايعَ ، فإنّي قد أمرت ابني عمر بن أبي سَلَمة أن يبايع ، وأمرتُ خَتَني عبدالله بن زَمْعة ـ وكانت ابنتها زينب ابنة أبي سَلَمة عند عبدالله بن زمعة ـ فأتاه جابرٌ فبايعه ، وهدّم بُسْر دُوراً بالمدينة ، ثم مضى حتى أتى مكة، فخافه أبو موسى أن يقتلَه ، فقال له بُسر: ما كنتُ لأفعلَ بصاحب رسولِ الله ﷺ ذلك ؛ فخلّى عنه ، وكتب أبو موسى قبل ذلك إلى اليمن: إنّ خيلاً مبعوثةً من عند معاوية تَقتُل الناس، تَقتُل مَن أبى أن يقرّ بالحكومة . ثم مضى بُسر إلى اليَمَن ، وكان عليها عبيدالله بن عباس عاملاً لعلي ، فلما بلغه مسيرُه فرّ إلى الكوفة حتى أتى عليًّا ، واستخلف عبدَالله بن عبدالمَدان الحارثيّ على اليَمَن ، فأتاه بُسر فقتله وقتل ابنَه ، ولقي بُسر ثَقَل عبيدالله بن عباس. وفيه ابنان له صغيران ، فذبحهما. وقد قال بعض الناس: إنه وجد ابني عبيدالله بن عباس عند رجل من بني كنانةَ من أهل البادية ، فلما أراد قتلَهما قال الكنانيّ : علامَ تَقتُل هذين ولا ذنب لهما ! فإن كنتَ قاتِلَهما فاقتلني ، قال: أفعل؛ فبدأ بالكنانيّ فقتله ، ثم قتلَهما ثم رجع بُسْر إلى الشام . وقد قيل: إنّ الكناني قاتل عن الطفلين حتى قُتِل ، وكان اسمُ أحدِ الطفلين اللذَين قتلَهما بُسْر : عبدالرحمن ، والآخر قُثَم . وقَتل بُسر في مسيره ذلك جماعةً كثيرةً من شِيعة عليٍّ باليمن . وبلغ عليًّا خبرُ بُسر ، فوجّه جارية بن قُدامة في ألفين ، ووهْب بن مسعود في ألفين ، فسار جارية حتى أتى نَجْرانَ فحرّق بها ، وأخذ ناساً من شِيعة عثمانَ فقتلهم ، وهَرَب بُسْر وأصحابُه منه ، وأتبعهم حتى بلغ مكة ، فقال لهم جارية : بايعونا ؛ فقالوا : قد هلك أميرُ المؤمنين ، فلِمَن نبايع؟ قال: لمن بايَعَ له أصحابُ علي ، فتثاقلوا ، ثمّ بايعوا . ثمّ سار حتى أتى المدينة وأبو هريرة يصلّي

بهم ، فهرب منه ، فقال جارية : واللّهِ لو أخذتُ أبا سِنَّوْر لضربتُ عنقَه ، ثم قال لأهل المدينة : بايِعوا الحسنَ بن علي ؛ فبايَعوه وأقام يومَه ، ثم خرج منصرِفاً إلى الكوفة ، وعاد أبو هريرة فصلَّى بهم .

وفي هذه السنة ـ فيما ذكر ـ جرتْ بين عليٍّ وبين معاويةَ المهادنة ـ بعد مكاتبات جرتْ بينهما يطول بذكرها الكتاب ـ على وَضْعِ الحرب بينهما ، ويكون لعليٍّ العراق ولمعاويةَ الشام ، فلا يدخل أحدُهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غَزْو .

قال زياد بنُ عبدالله ؛ عن أبي إسحاق : لما لم يعطِ أحدُ الفريقين صاحبَه الطاعةَ كتب معاويةُ إلى عليّ : أما إذا شئتَ فلك العراق وليَ الشام ، وتكفّ السيف عن هذه الأمة، ولا تُهَرِيق دماءَ المسلمين ؛ ففعل ذلك ، وتراضَيا على ذلك، فأقام معاوية بالشام بجنوده يَجْبيها وما حولها ، وعليٌّ بالعراق يَجبيها ويقسمها بين جنوده .

وفيها خرج عبدُالله بن العباس من البَصرة ولحق مكة في قول عامة أهلِ السِّيَر ، وقد أنكر ذلك بعضُهم ، وزعَم أنه لم يَزلْ بالبصرة عاملاً عليها من قِبَل أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام حتى قُتِل ، وبعد مَقتَل عليّ حتى صالح الحسن معاوية ، ثمّ خرج حينئذٍ إلى مكة .

ذكر الخبر عن سبب شخوصه إلى مكة وتركه العراق :

حدّثني عمرُ بنُ شبّة ، قال : حدّثني جماعة عن أبي مخنف ، عن سليمان بن أُبي راشد ، عن عبدالرحمن بن عُبيد أبي الكُنود ، قال : مرّ عبدُالله بنُ عباس على أبي الأسود الدّؤليّ ، فقال : لو كنتَ من البهائم كنتَ جَمَلاً ، ولو كنتَ راعياً ما بلغتَ من المرعى ، ولا أحسنتَ مهنته في المشْي . قال : فكتب أبو الأسود إلى علي :

أما بعد ، فإنّ الله جلّ وعلا جعلك والياً مؤتمناً ، وراعياً مستولياً ، وقد بلوناك فوجدْناك عظيمَ الأمانة ، ناصحاً للرعية ، توفر لهم فَيْئَهُم ، وتَظْلَف نفسَك عن دنياهم، فلا تأكل أموالَهم ، ولا ترتشي في أحكامهم . وإنّ ابنَ عمّك قد أكل ما تحت يديه بغير علمك ، فلَمْ يَسعْني كتمانُك ذلك ، فانظر رحمك الله فيما هناك ، واكتب إليَّ برأيك فيما أحببتَ أنتهِ إليك . والسلام .

فكتب إليه علي : أما بعد ، فمِثلك نصح الإمامَ والأمة ، وأدّى الأمانة ، ودلّ على الحقّ ، وقد كتبتُ إلى صاحبك فيما كتبتَ إليَّ فيه من أمرِه ، ولم أعلِمه أنك كتبتَ، فلا تدَع إعلامي بما يكون بحضرتك مما النظر فيه للأمة صلاحٌ ، فإنك بذلك جدير ، وهو حقٌّ واجب عليك ؛ والسلام .

وكتب إلى ابن عباس في ذلك ، فكتب إليه ابنُ عباس : أما بعد ، فإن الذي بلغك باطل ، وإني لِما تحت يدي ضابط قائم له وله حافظ ، فلا تصدّق الظُّنون ؛ والسلام .

قال: فكتب إليه علي : أما بعد ، فأعلِمني ما أخذتَ من الجزية ، ومن أين أخذت؟ وفيم وضعت؟ .

قال : فكتب إليه ابنُ عباس : أما بعد ، فقد فهمتُ تعظيمَك مَرْزَأة ما بلغك أنّي رَزَأْتُه من مال أهلِ هذا البلد ، فابعث إلى عملك مَنْ أحببت ، فإنّي ظاعِنٌ عنه ، والسلام .

ثم دعا ابن عباس أخوالَه بني هلال بن عامر ، فجاءه الضحّاك بن عبدالله وعبدالله بن رَزِين بن أبي عمرو الهلاليّان ، ثم اجتمعت معه قيس كلُّها فحمل مالاً .

قال أبو زيد : قال أبو عبيدة : كانت أرزاقاً قد اجتمعتْ ، فحمل معه مقدار ما اجتمع له ، فبعثت الأخماس كلها ، فلحقوه بالطَّفّ ، فتواقفوا يريدون أخذَ المال ، فقالت قيس : واللّهِ لا يُوصَل إلى ذلك وفينا عينٌ تَطرف . وقال صبرة بن شيمان الحُدّانيّ : يا معشر الأَزْد ، واللّهِ إنّ قيساً لإخواننا في الإسلام ، وجيرانُنا في الدار ، وأعوانُنا على العدوّ ، وإنّ الذي يصيبكم من هذا المال لو رُدّ عليكم لقليل ، وهم غداً خيرٌ لكم من المال . قالوا : فما ترى؟ قال : انصرِفوا عنهم ودَعُوهم ، فأطاعوه فانصرفوا ؛ فقالت بكر وعبدالقيس : نعم الرأيُ رأيُ صَبِرة لقومه ، فاعتزّلوا أيضاً ، فقالت بنو تميم : والله لا نفارقهم ؛ نقاتلهم عليه . فقال الأحنف : قد ترك قتالَهم من هو أبعدُ منكم رَحِماً ؛ فقالوا : واللّهِ لنقاتلنّهم ؛ فقال : إذاً لا أساعدكم عليهم ، فاعتزلَهم ؛ قال : فرأَسوا عليهم ابن المُجّاعة من بني تميم ، فقاتَلوهم ، وحمل الضحّاك على ابن المُجّاعة فطعنه ، واعتَنَقه عبدالله بن رَزِين ، فسقطا إلى الأرض يعتَرِكان ، وكثرت الجراح فيهم ، ولم يكن بينهم قتيل ؛ فقالت الأخماس : ما صنعْنا شيئاً ، اعتزلْناهم وتركْناهم يتحاربون ، فضربوا وجوهَ بعضِهم عن بعض ، وقالوا لبني تميم : لنحن أسخَى منكم أنفساً حين تركْنا هذا المال لبني عمِّكم ، وأنتم تقاتلونهم عليه ، إن القومَ قد حَمَلَوا وحُموا ، فخَلّوهم ، وإنّ أحببتم فانصرِفوا . ومضى ابنُ عباس ومعه نحو من عشرين رجلاً حتى قدِم مكّة .

وحدّثني أبو زيد ، قال: زعم أبو عبيدة ـ ولم أسمعه منه ـ أنّ ابن عباس لم يبرحْ من البَصرة حتى قُتل علي عليه السلام ، فشخص إلى الحسن ، فشهد الصّلحَ بينه وبين معاوية ، ثم رجع إلى البصرة وثَقَلُه بها ، فَحَمَلَه ومالاً من بيت المال قليلاً ؛ وقال : هي أرزاقي .

قال أبو زيد : ذكرتُ ذلك لأبي الحسن فأنكره ، وزعَم أنّ عليًا قُتل وابن عباس بمكة ، وأنّ الذي شهد الصلح بين الحسن ومعاوية عبيدُ الله بن عباس .

وفي هذه السنة قُتِل علي بن أبي طالب عليه السلام ، واختُلف في وقت قتلِه ، فقال أبو معشر ما حدّثني به أحمد بن ثابت ، قال : حُدّثت عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، قال : قُتل علي في شهر رمضانَ يوم الجمعة لسبع عشرة خلتْ منه سنة أربعين .

وكذلك قال الواقدي ، حدّثني بذلك الحارث ، عن ابن سعد عنه ، وأما أبو زيد فحدّثني عن علي بن محمد أنه قال : قُتِل عليُّ بنُ أبي طالب بالكوفة يومَ الجمعة لإحدى عشرة . قال : ويقال : لثلاث عشرة بقيتْ من شهر رمضان سنة أربعين . قال : وقد قيل في شهر ربيع الآخر سنة أربعين .

ذكر الخبر عن سبب قتله ومقتله :

حدّثني موسى بن عثمان بن عبدالرحمن المسروقي ، قال : حدّثنا عبدالرحمن الحرّانيّ أبو عبدالرحمن ، قال: أخبَرَنا إسماعيل بن راشد ، قال : كان من حديث ابن مُلجَم وأصحابه أنّ ابن ملجم والبُرَك بن عبدالله وعمرو بن بكر التميمي اجتمعوا ، فتذاكَروا أمرَ الناس، وعابوا على وُلاتهم ، ثم ذكروا أهلَ النّهر ،

فترحَّموا عليهم ، وقالوا : ما نصنع بالبقاء بعدَهم شيئاً ! إخوانُنا الذين كانوا دُعاةَ الناس لعبادة ربّهم ، والذين كانوا لا يخافون في الله لومةَ لائم ، فلو شَرَيْنا أنفسنَا فأتينا أئمّة الضلالة فالتمسْنا قتلَهم ، فأرحْنا منهم البلاد ، وثأرْنا بهم إخوانَنا ! فقال ابن مُلجَم : أنا أكفيكم عليّ بنَ أبي طالب ـ وكان من أهل مصرَ ـ وقال البُرَك بن عبدالله : أنا أكفيكم معاويةَ بن أبي سُفْيان ؛ وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عَمرَو بنَ العاص . فتعاهدوا وتواثّقوا بالله لا يَنكُص رجل منّا عن صاحبه الذي توجّه إليه حتى يَقتلَه أو يموت دونَه . فأخذوا أسيافَهم ، فسمُّوها ، واتَّعَدوا لسبع عشرة تخلو من رمضانَ أن يثبَ كلُّ واحد منهم على صاحبه الذي توجّه اليه ، وأقبل كلّ رجل منهم إلى المِصْرِ الذي فيه صاحبُه الذي يَطلب .

فأما ابنُ ملجَم المُراديّ فكان عِداده في كِنْدة ، فخرج فلقيَ أصحابَه بالكوفة ، وكاتَمهم أمرَه كراهة أن يُظْهِروا شيئاً من أمره ، فإنه رأى ذاتَ يوم أصحاباً من تَيْم الرِّباب ـ وكان عليٌّ قَتَلَ منهم يوم النهر عشرةً ـ فذكروا قَتْلاهم ، ولقيَ من يومه ذلك امرأةً من تيم الرِّباب يقال لها : قَطَام ابنة الشِّجْنَة ـ وقد قَتَل أباها وأخاها يوم النهر ، وكانت فائقةَ الجمال ـ فلما رآها التبستْ بعَقله ، ونسي حاجتَه التي جاء لها ؛ ثم خطبها ، فقالت : لا أتزَوّجك حتى تَشفي لي قال : وما يشفيك؟ قالت: ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي بن أبي طالب ، قال : هو مهرٌ لك ، فأمّا قتل عليٍّ فلا أراكِ ذكرتِهِ لي وأنت تريديني! قالت: بَلى ، التمس غرّته ، فإن أصبت شفيتَ نفسك ونفسي ، ويَهنِئك العيشُ معي ، وإن قُتِلت فما عندَ الله خيرٌ من الدنيا وزينتها وزينة أهلها ؛ قال : فوالله ما جاء بي إلى هذا المِصْر إلّا قتلُ علي ، فلكِ ما سألتِ . قالت : إنّي أطلب لك من يُسند ظهرَك ، ويساعدُك على أمرك ، فبعثتْ إلى رجل من قومها من تَيْم الرِّباب يقال له : وَرْدان فكلّمته فأجابها ، وأتى ابن ملجم رجلاً من أشجع يقال له شبيب بن بَجَرَة فقال له : هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ قال: وما ذاك؟ قال: قتلُ علي بن أبي طالب؛ قال : ثكلتْك أمُّك! لقد جئتَ شيئاً إدًّا ، كيف تقدر على عليّ! قال: أكمُن له في المسجد ، فإذا خرج لصلاة الغداة شَدَدْنا عليه فقَتَلْناه ، فإن نجوْنا شفَيْنا أنفسَنا، وأدركْنا ثأرَنا ، وإن قُتِلنا فما عند الله خيرٌ من الدنيا وما فيها . قال: ويحك! لو كان غير عليٍّ لكان أهوَن عليَّ ، قد عرفتَ بلاءَه في الإسلام ، وسابقتَه مع النبي ﷺ وما أجدني أنشرِح لقتله . قال: أما تعلم أنه قتل أهلَ النهر العبّاد الصالحين ! قال : بلى ، قال : فنقتله بمن قَتَل من إخواننا ، فأجابه ـ فجاؤوا قَطام ـ وهي في المسجد الأعظم معتكِفة ـ فقالوا لها: قد أجمع رأينا على قتل علي؛ قالت: فإذا أردتم ذلك فأتوني ، ثم عاد إليها ابن ملجَم في ليلة الجمعة التي قُتل في صبيحتها علي سنة أربعين ـ فقال : هذه الليلة التي واعدتُ فيها صاحبيّ أن يقتل كلّ منا صاحبه ، فدعت لهم بالحرير فعصَبَتْهم به ، وأخذوا أسيافَهم وجلسوا مقابل السدّة التي يَخرج منها علي ، فلما خرج ضربه شبيبٌ بالسيف . فوقع سيفُه بعِضادة الباب أو الطّاق ، وضرَبه ابنُ ملجَم في قَرْنه بالسيف ، وهَرَب وَرْدان حتى دخل منزله ، فدخل عليه رجل من بني أبيه وهو ينزع الحريرَ عن صدره ، فقال: ما هذا الحرير والسيف؟ فأخبره بما كان وانصرف فجاء بسيفه فعلا به وَرْدانَ حتى قَتَله ، وخرج شبيب نحو أبواب كِنْدة في الغَلَس ، وصاح الناس ، فلحقه رجل من حضرموتَ يقال له عُوَيْمر ، وفي يد شبيب السيف ، فأخذه ، وجثَم عليه الحضرمي ، فلما رأى الناسَ قد أقبلوا في طلبه ، وسيفُ شبيب في يده ، خشيَ على نفسه ، فتركه ، ونجا شبيب في غُمار الناس ، فشدّوا على ابن ملجم

فأخذوه ، إلاّ أنّ رجلاً من هَمْدان يُكنىَ أبا أدْماء أخذَ سيفه فضرب رجله ، فصَرَعه ، وتأخّر علي ، ورفع في ظهره جَعْدة بن هبيرة بن أبي وَهْب ، فصلّى بالناس الغَدَاة ، ثم قال علي : عليَّ بالرجل ، فأُدْخِل عليه ، ثم قال : أي عدوّ الله ، ألم أحسِن إليك ! قال : بلى ، قال: فما حملك على هذا ؟ قال: شحذْتُه أربعين صباحاً ، وسألتُ الله أن يقتل به شرّ خلقه ؛ فقال عليه السلام : لا أراك إلاّ مقتولاً به ، ولا أراك إلاّ من شرّ خلقه .

وذكروا أن ابن مُلجمَ قال قبل أن يَضرِب عليًّا ـ وكان جالساً في بني بكْر بن وائل إذ مُرّ عليه بجنازة أبجر بن جابر العجليّ أبي حجّار ، وكان نصرانيًّا، والنصارى حولَه ، وأناس مع حجّار لمنزلته فيهم يمشون في جانب وفيهم شقيق بن ثور ـ فقال ابن ملجم : ما هؤلاء؟ فأُخبِر الخبر ، فأنشأ يقول :

لئن كان حَجّارُ بنُ أَبْجَرَ مُسْلِماً ... لقد بُوعِدَتْ منه جنازةُ أَبْجَرِ
وإن كان حجّارُ بنُ أبجَرَ كافراً ... فما مِثْلُ هذا من كَفُورٍ بمُنْكَرِ
أَتَرْضَوْنَ هذا أنَّ قَيْساً ومُسلِماً ... جميعاً لدى نَعش ، فيا قُبْحَ مَنْظَرِ!
فلولا الّذي أَنوِي تَفَرَّقْتُ جَمْعَهُمْ ... بِأَبْيَضَ مَصْقُولِ الدِّياسِ مُشَهَّرِ
ولكنّني أَنوِي بِذاك وسيلَةً ... إلىٰ الله أو هذا فخُذ ذاك أو ذَرِ

وذكر أنّ محمد بن الحنفيَّة ، قال : كنتُ والله إني لأصلّي تلك الليلةَ التي ضُرب فيها علي في المسجد الأعظم ، في رجال كثير من أهل المِصْر، يصلون قريباً من السدة ، ما هم إلاَّ قيام وركوعٌ وسجود ، وما يسأمون من أوّل الليل إلى آخره ، إذ خرج علي لصلاة الغداة، فجعل ينادي : أيُّها الناس ، الصلاة الصلاة ! فما أدري أخرج من السُّدَّة فتكلّم بهذه الكلمات أم لا! فنظرتُ إلى بريق ، وسمعتُ : الحكْم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك ، فرأيت سيفاً ، ثم رأيت ثانياً ، ثم سمعتُ عليًّا يقول: لا يفوتنَّكم الرجل، وشدّ الناس عليه من كلّ جانب . قال: فلم أبرح حتى أُخذ ابنُ مُلجَم وأدخِل على علي ، فدخلت فيمن دخل من الناس ، فسمعتُ عليًّا يقول : النَّفْس بالنفس ، إن أنا مِتّ فاقتلوه كما قتَلَني، وإن بقيتُ رأيت فيه رأيي .

وذكر أنّ الناس دخلوا على الحسن فَزِعين لِما حدث من أمر علي ، فبينما هم عنده وابن ملجَم مكتوفٌ بين يديه ، إذ نادته أمُّ كُلثوم بنت علي وهي تبكي : أي عدوّ الله ، لا بأسَ على أبي، والله مخزيك! قال: فعلى مَن تبكين؟ والله لقد اشتريتُه بألف ، وسمَمْته بألف ، ولو كانت هذه الضّربة على جميع أهلِ المِصْر ما بقيَ منهم أحد .

وذكر أن جُندَب بن عبدالله دخل على علي فسأله ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنْ فَقَدناك ـ ولا نَفْقِدك ـ فنُبايع الحسن؟ فقال: ما آمركم ولا أنهاكم، أنتمْ أبصر . فردّ عليه مثلها ، فدعا حسناً وحسيناً ، فقال : أوصيكما بتقوى الله ، وألاّ تَبغِيا الدنيا وإن بَغتَكما، ولا تَبكِيا على شيء زُوِي عنكما ، وقُولاَ الحقّ ، وارحما اليتيم ، وأغيثا الملهوف ، واصنَعا للآخرة ، وكونا للظالم خَصْماً ، وللمظلوم ناصراً ، واعْمَلا بما في الكتاب ، ولا تأخذْكما في الله لومةُ لائم . ثم نظر إلى محمد بن الحنفيّة ، فقال : هل حفظتَ ما أوصيتُ به

أخوَيْك؟ قال: نعم ، قال : فإني أوصيك بمثله ، وأوصِيك بتوقير أخوَيْك ، لعظيم حقِّهما عليك ، فاتبع أمرَهما ، ولا تقطع أمراً دونَهما . ثم قال: أوصيكُما به ، فإنه شقيقكما ، وابنُ أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما كان يحبّه . وقال للحسن : أوصيك أي بُنيَّ بتقوى الله ، وإقامِ الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة عند محلّها ، وحسنِ الوضوء ، فإنه لا صلاة إلاَّ بطَهور ، ولا تُقبَل صلاة من مانع زكاة ، وأوصيكَ بغَفْر الذنب ، وكَظْم الغيظ ، وصِلة الرَّحِم ، والحلم عند الجهل ، والتفقّه في الدين ، والتثبّت في الأمر ، والتعاهُد للقرآن ، وحسن الجِوار ، والأمرِ بالمعروف ، والنهيِ عن المنكر ، واجتناب الفواحش .

فلما حضرتْه الوفاة أوصىَ ، فكانت وصيَّته :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصىَ به علي بن أبي طالب ، أوصىَ أنه يَشْهد أن لا إله إلاَّ اللّهُ وحَده لا شريك له ، وأنّ محمداً عبدُه ورسولُه ، أرسلَه بالهدى ودينِ الحق ليظهِرَه على الدّين كله ولو كره المشركون . ثم إنّ صلاتي ونُسُكي ومَحيايَ ومماتي لله رب العالمين ، لا شريكَ له وبذلك أمِرت وأنا من المسلمين ؛ ثمّ أوصيك يا حسن وجميعَ ولدي وأهلي بتقوى الله ربّكم ، ولا تموتُنّ إلاَّ وأنتم مسلمون ، واعتَصِموا بحبل الله جميعاً ولا تَفرَّقوا ، فإنّي سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : «إن صلاحَ ذات البين أفضلُ من عامّة الصلاةِ والصيام »! انظروا إلى ذوِي أرحامِكم فصِلُوهم يهوّن الله عليكم الحساب، الله الله في الأيتام ، فلا تُعنوا أفواهَهم ، ولا يضيعُنّ بحضرتكم . واللّهَ اللّهَ في جيرانكم ، فإنّهم وصية نبيِّكم ﷺ ، ما زال يُوصي به حتى ظننّا أنه سيورِّثه . واللّهَ اللّهَ في القرآن ؛ فلا يسبقَنّكم إلى العملِ به غيركم ، والله الله في الصلاة ، فإنّها عمود دِينكم ، والله الله في بيتِ ربّكم فلا تُخلُّوه ما بقيتم ، فإنه إن تُرِك لم يناظر ، والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، والله الله في الزّكاة ، فإنها تطفىء غضبَ الرب ، والله الله في ذمّة نبيكم ، فلا يُظْلمُنّ بين أظهركم ، والله الله في أصحاب نبيّكم ، فإنّ رسول الله أوصى بهم ، والله الله في الفقراء والمساكين فأشرِكوهم في معايشكم ، والله الله فيما ملكتْ أيمانكم . الصلاةَ الصلاةَ لا تخافُنّ في الله لومة لائم ، يكفيكم من أرادكم وبَغَى عليكم . وقولُوا للنّاس حُسْناً كما أمركم الله ، ولا تَتْركُوا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر فيولّي الأمر شِرَاركم ، ثم تَدْعُون فلا يُستجاب لكم . وعليكم بالتواصل والتباذُل ، وإيّاكم والتدابر والتقاطُع والتفرّق ، وتعاوَنوا على البِرّ والتقوى ، ولا تَعاوَنوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب . حفظكم الله من أهلِ بيت ، وحفظ فيكم نبيَّكم . أستودِعكم الله ، وأقرأ عليكم السلامَ ورحمةَ الله .

ثم لم ينطق إلاَّ «بلا إله إلاَّ الله» حتى قُبِض رضيَ الله عنه، وذلك في شهر رمضانَ سنة أربعين ، وغسّله ابناه الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر، وكُفّن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ، وكَبّر عليه الحسن تسع تكبيرات ، ثم وُلِيَ الحسن ستة أشهر .

وقد كان عليٌّ نهى الحَسَن عن المُثْلة ، وقال: يا بني عبدالمطلب، لا ألفينّكم تخوضون دماءَ المسلمين ، تقولون: قُتِل أمير المؤمنين ، قُتِل أمير المؤمنين! ألا لا يقتلَنّ إلاَّ قاتلي. انظر يا حسن ، إنّ أنا مِتّ من ضربته هذه فاضربه ضربةً بضربة ، ولا تمثل بالرّجل ، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ : يقول : « إياكم والمُثْلة ، ولو

أنها بالكلب العَقور» . فلمّا قُبض عليه السلام بعث الحسن إلى ابن ملجم ، فقال للحسن : هل لـك في خصلة؟ إني والله ما أعطيتُ الله عهداً إلّا وفيتُ به ، إني كنت قد أعطيت الله عهداً عند الحَطيم أن أقتل عليًّا ومعاويةَ أو أموتَ دونهما ، فإن شئتَ خلّيتَ بيني وبينه ، ولك الله عليّ إن لم أقتله ـ أو قتلته ثم بقيت ـ أن آتيَك حتى أضعَ يدي في يدك . فقال له الحسن : أما والله حتى تعاين النارَ فلا . ثم قدّمه فقتَلَه ، ثم أخذه الناسُ فأدرجوه في بواري ، ثم أحرَقوه بالنار .

وأما البُرَك بن عبدالله فإنه في تلك الليلة التي ضرِب فيها عليٌّ قعد لمعاوية ، فلّما خرج ليصلي الغداةَ شدّ عليه بسيفه ، فوقع السيف في أَلْيَته ، فأخِذ ، فقال : إنّ عندي خبراً أسِرُّك به ، فإن أخبرتُك فنافعي ذلك عندك؟ قال: نعم ؛ قال: إنّ أخاً لي قَتَل عليًّا في مثل هذه الليلة ، قال: فلعله لم يقدر على ذلك! قال: بلى ، إنّ عليًّا يخرج ليس معه من يَحْرُسه ؛ فأمر به معاوية فقُتِل . وبعث معاويةُ إلى الساعدي ـ وكان طبيباً ـ فلما نظر إليه قال : اخْتر إحدى خَصلتين : إما أن أحمِيَ حديدةً فأضعَها موضعَ السيف ، وإمّا أن أسقيَك شربةً تَقطَع منك الولَد ، وتبرأ منها ، فإن ضَرْبتك مسمومة ، فقال معاوية : أمّا النار فلا صبرَ لي عليها ، وأما انقطاع الولد فإنّ في يزيد وعبدالله ما تَقرّ به عيني . فسقاه تلك الشربة فبرأ ، ولم يولَد له بعدها ، وأمر معاوية عند ذلك بالمقصورات وحَرَس الليل وقيام الشُّرْطة على رأسه إذا سَجَد .

وأما عمرو بن بكر فجلس لعَمرو بن العاص تلك الليلة ، فلم يَخرج ، وكان اشتكى بطنَه ، فأمر خارجة بن حُذافة ، وكان صاحب شُرطَته ، وكان من بني عامر بن لؤيّ ، فخرج ليصلّي ، فشدّ عليه وهو يرى أنه عمرو ، فضَرَبه فقتله ، فأخذه الناس ، فانطلَقوا به إلى عَمرو يسلّمون عليه بالإمْرة ، فقال: مَن هذا؟ قالوا: عمرو ؛ قال : فمن قتلتُ؟ قالوا: خارجة بن حُذافة ، قال : أمَا والله يا فاسق ما ظننتُه غيرَك ، فقال عَمرو : أردتَني وأراد الله خارجة ، فقدّمه عمرو فقتَلَه ، فبلغ ذلك معاوية ، فكتب إليه :

وَقَتْلٌ وأسبابُ المَنايا كثيرةٌ ... مَنيَّةُ شيخٍ من لؤيِّ بنِ غالبِ
فيا عمرُو مَهلًا إنما أنت عَمُّهُ ... وصاحِبُهُ دون الرجالِ الأقارِبِ
نَجَوْتَ وقد بَلَّ المُراديُّ سَيْفَهُ ... مِنِ ابن أبي شيخِ الأباطِح طالِبِ
ويضرِبُني بالسيفِ آخَرُ مِثْلُهُ ... فكانَتْ علينا تلك ضربَةَ لازِبِ
وأنتَ تُناغي كلَّ يوم وليلةٍ ... بمِصْرِكَ بيضاً كالظِّباءِ السَّوارِبِ

ولما انتهى إلى عائشةَ قتلُ علي ـ رضي الله عنه ـ قالت :

فألقتْ عَصاها واستقرَّتْ بها النَّوَى ... كما قَرَّ عيناً بالإيابِ المُسافِرُ

فمن قتله ؟ قيل : رجل من مُراد ؛ فقالت :

فإن يَكُ نائياً فلقد نَعاهُ ... غُلامٌ ليس في فيهِ التُّرابُ

فقالَت زينب ابنة أبي سَلَمة : ألِعليّ تقولين هذا؟ فقالت: إني أنسَى ، فإذا نسيتُ فذكّروني . وكان الذي ذهب بنعيه سُفيان بنُ عبدِ شمس بن أبي وقّاص الزُّهرِيّ . وقال ابن أبي ميّاس المراديّ في قتل

علي :

ونحن ضربْنا يا لكَ الخيْرُ حَيْدَراً ... أَبا حَسَنٍ مأمومَةً فتَفَطَّرَا
ونحن خلعْنا مُلكَهُ من نِظامِهِ ... بضربةِ سيفٍ إذْ عَلاَ وَتَجبَّرَا
ونحن كِرامٌ في الصَّباح أَعِزَّةٌ ... إذا الموتُ بالموتِ ارْتَدَى وتأَزَّرا

وقال أيضاً :

ولم أرَ مَهْراً ساقَهُ ذو سَماحَةٍ ... كمْهرِ قَطامٍ من فصيحٍ وأَعجَمِ
ثلاثةُ آلافٍ وعبدٌ وقَيْنَةٌ ... وضَرْبُ علي بالحُسامِ المُصَمِّمِ
فلا مَهْرَ أغلَى من عليٍّ وإن غَلاَ ... ولا قَتْلَ إلاَّ دون قَتْلِ ابْنِ مُلْجَمِ

وقال أبو الأسوَد الدّؤليّ :

ألا أبْلِغْ معاويَةَ بنَ حَرْبٍ ... فلا قَرَّتْ عيونُ الشامِتِينا
أفي شهرِ الصِّيامِ فَجَعْتُمُونا ... بخيْرِ الناس طُرًّا أَجْمَعينا!
قَتلتُمْ خيرَ مَن رَكِبَ المَطايا ... ورحَّلَها ومن ركب السَّفينا
ومن لبِسَ النِّعالَ ومن حَذاها ... ومن قرأَ المَثانِيَ والمُبينا
إذا اسْتَقْبَلْتَ وجْهَ أبي حُسيْنٍ ... رأيتَ البدرَ راعَ الناظِرينا
لقد عَلِمَتْ قريشٌ حيثُ كانَتْ ... بأَنَّكَ خيْرُها حَسَباً ودِينا

واختُلِف في سنّه يومَ قُتل ، فقال بعضهم : قُتل وهو ابن تسع وخمسين سنة .

وحدّثت عن مصعب بن عبد الله ، قال : كان الحسن بن علي يقول : قُتل أبي وهو ابن ثمان وخمسين سنة .

وحدّثنا عن بعضهم ، قال : قُتل وهو ابن خمس وستين سنة .

وحدّثني أبو زيد ، قال : حدّثني أبو الحسن ، قال : حدّثني أيوب بن عمر بن أبي عمرو ، عن جعفر بن محمد ، قال : قُتل عليٌّ وهو ابنُ ثلاث وستين سنة . قال : وذلك أصحّ ما قيل فيه .

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا يحيى بن عبد الحميد الحِمّاني ، قال : حدّثنا شريك ، عن أبي إسحاق ، قال : قتل علي عليه السلام وهو ابنُ ثلاث وستين سنة.

وقال هشام : وليَ عليٌّ وهو ابنُ ثمانٍ وخمسين سنة وأشهر ؛ وكانت خلافتُه خمسَ سنين إلَّا ثلاثة أشهر ، ثم قَتَله ابنُ ملجَم ـ واسمُه عبدالرحمن بن عمرو ـ في رمضانَ لسبع عشرة مضتْ منه ، وكانت ولايتُه أربعَ سنين وتسعة أشهر ، وقُتل سنة أربعين وهو ابن ثلاث وستّين سنة .

وحدّثني الحارث ، قال : حدّثني ابن سعد ، عن محمّد بن عمر ، قال : قُتل علي عليه السلام وهو ابن ثلاث وستين سنة صبيحةَ ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلتْ من شهر رمضانَ سنة أربعين ، ودُفن

عند مسجد الجماعة في قصر الإمارة.

حدثني الحارث ، قال : حدثنا ابن سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : ضُرِب علي عليه السلام ليلة الجمعة ، فمكث يومَ الجمعة وليلةَ السبت ، وتوفّي ليلةَ الأحد لإحدَىٰ عشرةَ ليلة بقيتْ من شهر رمضانَ سنة أربعين وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وحدّثني الحارث ، قال : حدّثنا ابن سعد ، قال : أخبرَنا محمد بن عمرَ ، قال : حدّثنا علي بن عمر وأبو بكر السَّبْريّ ، عن عبدالله بن محمد بن عقيل ، قال : سمعتُ محمد بنَ الحنفيّة يقول سنة الجحاف [حين] دخلت سنة إحدى وثمانين هذه ولي خمسٌ وستون سنة ، قد جاوزتُ سنّ أبي ؛ قيل : وكم كانت سنُّه يوم قُتِل؟ قال: قُتِل وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وقال الحارث : قال ابن سعد : قال محمد بن عمر كذلك ، وهو الثَّبَت عندنا .

ذكر الخبر عن قدر مدّة خلافته

حدّثني أحمد بن ثابت ، قال : حُدثت عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي مَعْشَر ، قال: كانت خلافةُ علي خمسَ سنين إلاّ ثلاثة أشهر .

وحدّثني الحارث ، قال : حدّثني ابن سعد قال : قال محمّد بن عمر : كانت خلافة عليّ خمسَ سنين إلاّ ثلاثة أشهر .

حدثني أبو زيد ، قال : قال أبو الحسن : كانت ولايةُ علي أربعَ سنين وتسعة أشهر ، ويوماً أو غيرَ يوم .

ذكر الخبر عن صفته

حدثني الحارث ، قال : حدثنا ابن سعد ، قال : أخبَرَنا محمد بن عمر ، قال : حدّثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سَبْرة ، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي فَرْوة ، قال : سألت أبا جعفر محمد بن عليّ ، قلت : ما كانت صفة علي عليه السلام؟ قال : رجلٌ آدَم شديد الأُدْمة ثقيلُ العَيْنين عظيمُهما ، ذو بطن ، أصلَع ، هو إلى القِصَر أقرَب .

ذكر نسبه عليه السلام

هو عليُّ بنُ أبي طالب، واسم أبي طالب عبدُ مناف بن عبدِ المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبدِ مناف .

ذكر الخبر عن أزواجه وأولاده

فأوّل زوجةٍ تزوّجها فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ولم يتزوّج عليها حتى توفِّيتْ عنده ، وكان لها منه من الولد : الحسنُ والحسين ، ويُذْكر أنه كان لها منه ابنٌ آخر يسمى مُحْسِناً توفي صغيراً ، وزينب الكبرى ، وأم كلثوم الكبرى .

ثم تزوّج بعدُ أمَّ البنين بنت حزام ـ وهو أبو المجْل بن خالد بن ربيعة بن الوحِيد بن كعب بن عامر بن كلاب ـ فولد لها منه العباس ، وجعفر ، وعبدالله ، وعثمان ، قُتِلوا مع الحسين عليه السلام بكَرْبَلاء ، ولا بقيّة لهم غير العباس .

وتزوّج ليلى بنة مسعود بن خالد بن مالك بن رِبعيّ بن سَلْمى بن جَنْدل بن نَهشَل بن دارِم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، فولدتْ له عُبَيد الله وأبا بكر . فزعم هشام بنُ محمد أنهما قُتِلا مع الحسين بالطّف . وأما محمد بن عمرَ فإنه زعم أن عبيد الله بن علي قتله المختار بن أبي عُبيد بالمذار ، وزعم أنه لا بقيّة لعبيد الله ولا لأبي بكر ابني علي عليه السلام .

وتزوّج أسماءَ بنة عُميس الخثعميَّة ، فولدتْ له ـ فيما حُدّثت عن هشام بن محمد ـ يحيى ومحمداً الأصغر ، وقال : لا عَقِب لهما .

وأما الواقدي فإنه قال فيما حدّثني الحارث ، قال : حدّثنا ابن سعد ، قال : أخبَرنا الواقدي أن أسماء ولدت لعليٍّ يحيى وعوناً ابني علي . ويقول بعضهم : محمّد الأصغر لأمّ ولد ، وكذلك قال الواقدي في ذلك ؛ وقال : قتل محمد الأصغر مع الحسين .

وله من الصّهباء ـ وهي أمّ حبيب بنت ربيعة بن بُجَير بن العبد بن علقمة بن الحارث بن عُتْبة بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غَنْم بن تغلب بن وائل ، وهي أمّ ولد من السبي الذين أصابهم خالدُ بن الوليد حين أغار على عين التَّمْر على بني تغلب بها ـ عمر بن علي ، ورقية ابنة علي ، فعُمِّر عمر بن علي حتى بلغ خمساً وثمانين سنة ، فحاز نصفَ ميراث علي عليه السلام ، ومات بيَنْبع .

وتزّوج أمامة بنت أبي العاصي بن الربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأمها زينب بنتُ رسول الله ﷺ ، فولدت له محمداً الأوسط .

وله محمد بن علي الأكبر ، الذي يقال له : محمد بن الحنفيّة ، أمه خَوْلة بنة جعفر بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يَربوع بن ثعلبة بن الدُّول بن حَنِيفة بن لُجيم بن صَعْب بن علي بن بكر بن وائل ، توفِّيَ بالطائف فصلّى عليه ابنُ عبّاس .

وتزّوج أمّ سعيد بنت عروة بن مسعود بن معتّب بن مالك الثّقفيّ ، فولدت له أمّ الحسن ورملة الكبرى .

وكان له بنات من أمهات شتّى لم يسمّ لنا أسماء أمهاتهنّ ؛ منهنّ أم هانىء ، وميمونة ، وزينب الصغرى ، ورملة الصغرى ، وأمّ كلثوم الصغرى وفاطمة ، وأمامة ، وخديجة ، وأمّ الكرام ، وأمّ سلمة ، وأمّ جعفر ، وجُمانة ، ونفيسة بنات علي عليه السلام ؛ أمهاتهنّ أمهات أولادٍ شتى .

وتزوّج محيّاة بنة امرىء القيس بن عديّ بن أوس بن جابر بن كعب بن عُلَيم من كلب ، فولدتْ له جارية ، هلكتْ وهي صغيرة. قال الواقدي: كانت تخرج إلى المسجد وهي جارية فيقال لها : مَن أخوالُكِ؟ فتقول وه ، وه ـ تعني كَلْباً .

فجميع ولدِ علي لصلبه أربعة عشر ذَكَراً ، وسبعَ عشرةَ امرأة .

حدّثني الحارث ، قال : حدّثنا ابن سعد عن الواقدي ، قال: كان النسل من ولد علي لخمسة : الحَسَن ، والحسين، ومحمد ابن الحنفيّة، والعباس ابن الكلابيَّة، وعمرو ابن التغلبيَّة.

ذكر وُلاته

وكان واليه على البَصرة في هذه السنة عبدُالله بن العباس ، وقد ذكرْنا اختلافَ المختلفِين في ذلك ، وإليه كانت الصَّدَقات والجند والمعاون أيّام ولايته كلّها ، وكان يستخلف بها إذا شخص عنها على ما قد بيّنْتُ قبلُ .

وكان على قضائها من قِبَل علي أبو الأسود الدّؤلِيّ ، وقد ذكرت ما كان من توليته زياداً عليها ، ثم إشخاصه إياه إلى فارسَ لحربها وخَراجِها ، فقتل وهو بفارسَ ، وعلى ما كان وجّهه عليه .

وكان عامله على البحرين وما يليها واليَمَن ومخاليفِها عُبيدالله بن العباس ، حتى كان من أمره وأمر بُسر ابن أبي أرطاةَ ما قد مضى ذكرُه .

وكان عامله على الطائف ومكّة وما اتصل بذلك قُثَم بن العباس .

وكان عامله على المدينة أبو أيّوب الأنصاريّ ، وقيل : سهل بن حُنيف ، حتى كان من أمره عند قدوم بُسْر ما قد ذُكِر قبل .

ذكر بعض سيَره عليه السلام

حدّثني يونس بن عبدالأعلى ، قال: أخبَرَنا وَهْب، قال : أخبرني ابن أبي ذِئب ، عن عباس بن الفَضْل مولَى بني هاشم ، عن أبيه ، عن جدّه ابن أبي رافع ، أنه كان خازناً لعلي عليه السلام على بيت المال ، قال : فدخل يوماً وقد زُيّنت ابنته ، فرأى عليها لؤلؤةً من بيت المال قد كان عرفها ، فقال: من أين لها هذه؟ لله عليَّ أن أقطع يَدَها ؛ قال : فلما رأيتُ جِدّه في ذلك قلتُ : أنا واللّهِ يا أميرَ المؤمنين زَيّنتُ بها ابنةَ أخي ، ومن أين كانت تَقدر عليها لو لم أعطها! فَسَكَت .

حدّثني إسماعيل بن موسى الفَزاريّ ، قال : حدّثنا عبدالسلام بن حرب ، عن ناجية القرشي ، عن عمّه يزيد بن عديّ بن عثمان ، قال: رأيت عليًّا عليه السلام خارجاً من هَمْدان ، فرأى فئتين يقتتلان ، ففرّق بينهما ، ثم مضى فسمع صوتاً . ياغوثاً بالله ! فخرج يُحضِر نحوَه حتى سمعتُ خَفْقَ نعلِه وهو يقول : أتاك الغَوْث ؛ فإذا رجل يلازم رجلاً ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، بعتُ هذا ثوباً بتسعةِ دراهم ، وشرطتُ

عليه ألاّ يعطيَني مغموزاً ولا مقطوعاً ـ وكان شرطهم يومئذ ـ فأتيتُه بهذه الدراهم ليبدِّلها لي فأبَى، فلَزِمته فلَطَمني ، فقال: أبدِلْه ؛ فقال : بيِّنتَك على اللّطمة ؛ فأتاه بالبينة ، فأقعده ثم قال: دونَك فاقتصّ ؛ فقال : إنّي قد عفوتُ يا أميرَ المؤمنين ، قال : إنما أردتُ أن أحتاط في حقّك ، ثم ضرب الرجلَ تسعَ دِرّات، وقال : هذا حقّ السلطان .

حدّثني محمد بن عمارة الأسدي ، قال : حدّثنا عثمان بن عبدالرحمن الأصبهاني ، قال: حدّثنا المسعودي ، عن ناجية ، عن أبيه ، قال : كنا قياماً على باب القصر ، إذ خرج عليٌّ علينا ، فلما رأيناه تنحّينا عن وجهه هيبةً له ، فلما جاز صِرْنا خلفَه ، فبينا هو كذلك إذ نادى رجل يا غوثاً بالله ! فإذا رجلان يقتَتِلان ، فلَكَز صدرَ هذا وصدرَ هذا ، ثم قال لهما : تنحّيا ، فقال أحدهما : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ هذا اشترى مني شاةً ، وقد شرطتُ عليه ألاّ يعطيَني مغموزاً ولا محذَّفاً ، فأعطاني دِرْهماً مغموزاً ، فرددتُه عليه فلَطَمني ؛ فقال للآخر : ما تقول ؟ قال : صَدَقَ يا أميرَ المؤمنين ، قال فأعطه شرطَه ، ثم قال لِلاّطِم اجلِس ، وقال لِلمَلْطوم : اقتصّ . قال : أوَ أعفو يا أميرَ المؤمنين ؟ قال: ذاك إليك ؛ قال : فلما جاز الرجل قال علي : يا معشر المسلمين ، خذوه ؛ قال : فأخذوه ، فحُمِل على ظهر رجل كما يُحمَل صبيان الكتّاب، ثم ضربه خمس عشرةَ دِرّة ، ثم قال : هذا نَكالٌ لِما انتهكتَ من حرمتِه .

حدّثني ابن سنان القزّاز ، قال: حدّثنا أبو عاصم ، قال: حدّثنا سُكَين بن عبدالعزيز ، قال: أخبَرَنا حفص بن خالد ، قال: حدّثني أبي خالد بن جابر قال: سمعتُ الحسن يقول: لما قُتِل علي عليه السلام وقد قام خطيباً، فقال : لقد قتلتم الليلةَ رجلاً في ليلة فيها نزل القرآن ، وفيها رُفع عيسى بن مريمَ عليه السلام ، وفيها قُتل يوشع بن نون فتَى موسى عليهما السلام . والله ما سَبَقه أحد كان قبله ، ولا يدركُه أحد يكون بعدَه ، والله إن كان رسولُ الله ﷺ ليبعثه في السرّية وجبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، واللّهِ ما ترك صَفراءَ ولا بَيضاءَ إلاّ ثمانمائة ـ أو سبعمائة ـ أرصَدَها لخادمه .

ذكر بيعة الحسن بن علي

وفي هذه السنة ـ أعني سنة أربعين ـ بويع للحسن بن علي عليه السلام بالخلافة ؛ وقيل : إنّ أوّل مَن بايعه قيس بن سعد ، قال له : ابسُط يَدك أبايعْك على كتاب الله عزّ وجلّ ، وسنّة نبيّه ، وقتالِ المُحِلّين ؛ فقال له الحسن رضي الله عنه : على كتاب الله وسنّة نبيّه ؛ فإنّ ذلك يأتي من وراء كل شرط ؛ فبايَعه وسَكَت ، وبايَعه الناس .

وحدّثني عبدالله بن أحمد بن شبّويه المروزيّ ، قال : حدّثنا أبي قال: حدّثنا سليمان ، قال : حدّثنا عبدالله ، عن يونس ، عن الزُّهري ، قال: جعل علي عليه السلام قيس بن سعد على مقدّمته من أهلِ العراق إلى قِبَل أذْرَبيجان ، وعلى أرضها وشُرْطة الخميس الذي ابتدعه من العرب، وكانوا أربعين ألفاً ، بايعوا عليًّا عليه السلام على الموت ، ولم يزل قيس يدارِىء ذلك البعثَ حتى قُتل علي عليه السلام ؛ واستَخلَف أهل العراق الحسنَ بن علي عليه السلام على الخلافة ، وكان الحسن لا يرى القتال ، ولكنه يريد

أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ، ثم يدخل في الجماعة، وعرف الحسن أنّ قيس بن سعد لا يوافقه على رأيه ، فنزعه وأمّر عبيدالله بنّ عبّاس ، فلما علم عبدالله بن عباس بالذي يريد الحسن عليه السلام أن يأخذه لنفسه كتب إلى معاوية يسأله الأمان ، ويشترط لنفسه على الأموال التي أصابها ، فشرط ذلك له معاوية .

وحدّثني موسى بن عبدالرحمن المسروقي ، قال: حدّثنا عثمان بن عبدالحميد أو ابن عبدالرحمن الحرّاني الخزاعي أبو عبدالرحمن، قال: حدّثنا اسماعيل بن راشد ، قال: بايع الناسُ الحسنَ بن علي عليه السلام بالخلافة ، ثم خرج بالناس حتى نزل المدائن ، وبعث قيسَ بن سعد على مقدّمته في اثني عشر ألفاً ، وأقبل معاويةُ في أهل الشام حتى نزل مَسكِن ، فبينا الحسن في المدائن إذ نادى منادٍ في العسكر: ألا إنّ قيسَ بنَ سعد قد قُتِل ، فانفِرُوا ، فنفروا ونَهَبُوا سُرادِق الحسن عليه السلام حتى نازَعوه بِساطاً كان تحته ، وخرج الحسن حتى نزل المقصورَةَ البيضاء بالمدائن ، وكان عمّ المختار بن أبي عُبيد عاملاً على المدائن ، وكان اسمه سعد بن مسعود ، فقال له المختار وهو غلام شابّ: هل لك في الغِنَى والشرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: تُوثِق الحسن ، وتَستأمِن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنةُ الله ، أثِبُ على ابن بنتِ رسول الله ﷺ فأوثقه ! بئس الرجل أنت ! فلما رأى الحسنُ عليه السلام تفرُّقَ الأمر عنه بَعَث إلى معاوية يطلب الصّلحَ ، وبعث معاويةُ إليه عبدَالله بن عامر وعبدالرحمن بن سمُرة بن حبيب بن عبدشمس، فقَدِما على الحسن بالمدائن ، فأعطيَاه ما أراد، وصالحاه على أن يأخذ من بيت مالِ الكوفة خمسةَ آلاف ألف في أشياءَ اشترطها . ثم قام الحسن في أهل العراق فقال: يا أهل العراق ، إنه سَخَّى بنفسي عنكم ثلاث: قتلُكم أبي ، وطعنُكم إياي ، وانتهابُكم مَتاعي .

ودخل الناس في طاعة معاوية، ودخل معاوية الكوفةَ ، فبايعه الناس .

قال زياد بن عبدالله ، عن عوانة ؛ وذكر نحوَ حديث المسروقي ، عن عثمان بن عبدالرحمن هذا، وزاد فيه: وكتب الحسن إلى معاوية في الصلح ، وطلب الأمان، وقال الحسن للحسين ولعبدالله بن جعفر: إني قد كتبتُ إلى معاوية في الصلح وطلب الأمان؛ فقال له الحسين: نشدْتُك اللّهَ أن تصدِّق أحدوثةَ معاوية، وتكذِّب أحدوثةَ علي! فقال له الحسن: اسكُت، فأنا أعلم بالأمر منك. فلمّا انتهى كتابُ الحسن بن علي عليه السلام إلى معاوية، أرسل معاويةُ عبدَالله بن عامر وعبدالرحمن بن سَمُرة، فقَدِما المدائن ، وأعطيا الحسن ما أرادَ ، فكتب الحسن إلى قيس بن سعد وهو على مقدّمته في اثني عشر ألفاً يأمره بالدخول في طاعة معاوية، فقام قيس بن سعد في الناس فقال: يأيّها الناس، اختاروا الدخول في طاعة إمامِ ضلالة ، أو القتال مع غير إمام؛ قالوا : لا ، بل نختار أن ندخل في طاعة إمام ضلالة . فبايَعوا لمعاوية ، وانصرف عنهم قيس بن سعد، وقد كان صالَح الحسنُ معاوية على أن جعل له ما في بيت ماله وخراج دارا بجرد على ألاَّ يُشتمَ عليٌّ وهو يسمَع. فأخذ ما في بيت مالِه بالكوفة، وكان فيه خمسة آلاف ألف .

وحجّ بالناس في هذه السنة المغيرةُ بن شُعْبة. حدثني موسى بن عبدالرحمن، قال: حدّثنا عثمان بن عبدالرحمن الخُزاعيّ أبو عبدالرحمن ، قال : أخبرنا إسماعيل بن راشد قال: لما حضر الموسم - يعني في العام

الذي قُتِل فيه علي عليه السلام ـ كتب المغيرة بنُ شعبة كتاباً افتعلهُ على لسان معاوية، فأقام للناس الحجّ سنة أربعين ، ويقال: إنّه عرّف يوم التروية ، ونحر يوم عرفة ، خوفاً أن يفطن بمكانه . وقد قيل : إنه إنما فعل ذلك المغيرة لأنه بلغه أن عُتبة بن أبي سُفيان مصبّحه والياً على الموسم، فعجل الحجّ من أجل ذلك .

وفي هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء؛ حدّثني بذلك موسى بن عبدالرحمن، قال: حدّثنا عثمان بن عبدالرحمن، قال: أخبرنا إسماعيل بن راشد ـ وكان قبل يدعَى بالشام أميراً ـ وحُدّثت عن أبي مسهر، عن سعيد بن عبدالعزيز ، قال: كان علي عليه السلام يُدعَى بالعراق أميرَ المؤمنين ، وكان معاوية يدعَى بالشام : الأمير ، فلما قُتل علي عليه السلام دُعِيَ معاوية: أمير المؤمنين .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين
ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك تسليم الحسن بن علي عليه السلام الأمرَ إلى معاوية ودخول معاوية الكوفة ، وبيعة أهل الكوفة معاوية بالخلافة .

ذكر الخبر بذلك :

حدثني عبدالله بن أحمد المروزي، قال: أخبرني أبي ، قال : حدثنا سليمان ، قال: حدثني عبدالله ، عن يونس، عن الزُّهري، قال: بايع أهلُ العراق الحسنَ بنَ علي بالخلافة، فطفق يشترط عليهم الحسن : إنكم سامعون مطيعون ، تُسالِمون مَنْ سالمْت ، وتحارِبون مَن حاربت، فارتاب أهلُ العراق في أمرهم حين اشترط عليهم هذا الشرط، وقالوا: ما هذا لكم بصاحب، وما يريد هذا القتال؛ فلم يلبث الحسنُ عليه السلام بعدَ ما بايعوه إلاَّ قليلاً حتى طُعِن طعنةً أشْوَتْه، فازداد لهم بُغْضاً، وازداد منهم ذُعْراً، فكاتب معاوية، وأرسل إليه بشروط، قال: إن أعطيتَني هذا فأنا سامع مطيع ، وعليك أن تفيَ لي به . ووقَعت صحيفةُ الحسن في يد معاوية ، وقد أرسل معاوية قبل هذا إلى الحسن بصحيفة بيضاء ، مختوم على أسفلها ، وكتب إليه أن اشترِط في هذه الصحيفة التي ختمتُ أسفلَها ما شئت فهو لك .

فلما أتت الحسنَ اشترط أضعافَ الشروط التي سأل معاوية قبل ذلك ، وأمسكها عنده ، وأمسك معاويةُ صحيفةَ الحسن عليه السلام التي كتب إليه يسأله ما فيها ، فلما التقى معاويةُ والحسن عليه السلام ، سأله الحسن أن يعطيَه الشروط التي شَرَط في السجلّ الذي ختم معاوية في أسفله، فأبى معاوية أن يعطيَه ذلك، فقال: لك ما كنتَ كتبت إليَّ أو لا تسألني أن أعطِيَكه ، فإني قد أعطيتُك حين جاءني كتابك . قال الحسن عليه السلام : وأنا قد اشترطتُ حين جاءني كتابُك ، وأعطيتني العهد على الوفاء بما فيه . فاختلَفا في ذلك، فلم يُنفِذ للحسن عليه السلام من الشروط شيئاً ، وكان عَمرو بنُ العاص حين اجتمعوا بالكُوفة قد كلّم معاوية ، وأمره أن يأمر الحسن أن يقوم ويخطب الناس، فكره ذلك معاوية ، وقال: ما تريد إلى أن يَخْطُب الناس! فقال عَمرو: لكني أريد أن يَبدُوَ عِيُّه للناس ؛ فلم يزل عَمرو بمعاوية حتى أطاعه ، فخرج معاوية فخطب الناس ، ثم أمر رجلاً فنادى الحسنَ بن عليٍّ عليه السلام ؛ فقال : قم يا حَسَن فكلّم الناس ، فتَشهّد في بديهةِ أمرٍ لم يروّ فيه ، ثم قال: أما بعد ، يأيّها الناس، فإن الله قد هداكم بأوّلنا ، وحَقَن دماءَكم بآخِرنا ، وإن لهذا الأمر مدّة ، والدنيا دُوَل ، وإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : « ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾[1] ؛ فلمّا قالها

(١) سورة الأنبياء: ١١١ .

قال معاوية : اجلس ، فلم يزل ضَرِماً على عَمرو ، وقال : هذا من رأيك . ولحق الحسن عليه السلام بالمدينة .

حدثني عمر، قال : حدّثنا علي بن محمد ، قال : سلّم الحسن بن علي عليه السلام إلى معاوية الكوفَة ، ودخلها معاوية لخمس بقِين من ربيع الأول ، ويقال من جُمادَى الأولى سنة إحدى وأربعين .

وفي هذه السنة جرى الصّلحُ بين معاويةَ وقيس بن سعد بعد امتناع قيس من بيعته .

ذكر الخبر بذلك :

حدثني عبدالله بن أحمد ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني سليمان بن الفَضْل ، قال : حدثني عبدالله ، عن يونس ، عن الزُّهري ، قال : لما كتب عبيدُ الله بنُ عباس حين علم ما يريد الحسن من معاوية من طلب الأمان لنفسه إلى معاوية يسأله الأمان ، ويشترط لنفسه على الأموال التي قد أصاب ، فشَرَط ذلك له معاوية ، بعث إليه معاوية بن عامر في خيلٍ عظيمة ، فخرج إليهم عبيدالله ليلاً حتى لحِق بهم ، ونزل وترك جندَه الذي هو عليه لا أمير لهم ، فيهم قيسُ بن سعد ، واشترط الحسنُ عليه السلام لنفسه ، ثم بايع معاوية ، وأمّرت شُرْطةُ الخميس قيسَ بنَ سعد على أنفسهم ، وتعاهدوا هو وهم على قتالِ معاوية حتى يشترط لشيعة علي عليه السلام ولمن كان اتّبعه على أموالهم ودمائهم . وما أصابوا في الفتنة ؛ فَخلَص معاوية حين فرغ من عبيدالله بن عباس والحسن عليه السلام إلى مكايدة رجل هو أهمّ الناس عنده مكايدةً ، ومعه أربعون ألفاً ، وقد نزل معاوية بهم وعمرو وأهل الشام ، وأرسل معاوية إلى قيس بن سعد يذكّره اللّهَ ويقول : على طاعةِ مَن تقاتل ، وقد بايَعني الذي أعطيتَه طاعتك؟ فأبى قيس أن يَلينَ له ، حتى أرسل إليه معاوية بسِجِلٍّ قد ختم عليه في أسفله ، فقال : اكتب في هذا السجلّ ما شئتَ ، فهو لك . قال عمرو لمعاوية : لا تُعطِه هذا ، وقاتِلْه ، فقال معاوية : على رِسْلِك ! فإنا لا نَخلُص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعدادَهم من أهل الشام ، فما خيرُ العيش بعد ذلك! وإني والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بدًّا . فلما بعث إليه معاوية بذلك السجلّ اشترط قيس فيه له ولشيعة علي الأمان على ما أصابوا من الدّماء والأموال، ولم يسأل معاوية في سجلّه ذلك مالاً ، وأعطاه معاوية ما سأل ، فدخل قيس ومَن معه في طاعته ، وكانوا يَعُدّون دهاةَ الناس حين ثارت الفتنة خمسةَ رهْط، فقالوا: ذوو رأي العرب ومكيدتهم : معاوية بن أبي سُفْيان ، وعَمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وقيس بن سعد ؛ ومن المهاجرين عبدالله بن بُدَيل الخُزاعيّ ؛ وكان قيس وابن بُدَيل مع علي عليه السلام ، وكان المغيرة بن شعبة وعمرو مع معاوية ، إلاّ أنّ المغيرة كان معتزلاً بالطائف حتى حُكّم الحَكَمان ، فاجتمعوا بأذْرح .

وقيل : إنّ الصلح تمّ بين الحَسَن عليه السلام ومعاوية في هذه السنة في شهر ربيع الآخر ، ودخل معاوية الكوفة في غرّة جمادى الأولى من هذه السنة ، وقيل : دَخَلَها في شهر ربيع الآخر، وهذا قول الواقدي .

وفي هذه السنة دخل الحسنُ والحسين ابنا علي عليه السلام منصرِفَين من الكوفة إلى المدينة .

ذكر الخبر بذلك :

ولما وقع الصلح بين الحسن عليه السلام وبين معاوية بمسكِن ، قام ـ فيما حُدّثت عن زياد البَكّائي ، عن عوانة ـ خطيباً في الناس فقال : يا أهلَ العراق ، إنه سَخَّى بنفسي عنكم ثلاث : قتلُكم أبي ، وطعنُكم إيّاي ،

وانتهابُكم مَتاعي . قال: ثم إن الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر خرجوا بحَشَمهم وأثقالهم حتى أتَوا الكوفة، فلما قَدِمها الحسن وَبَرَأ من جراحته ، خرج إلى مسجد الكوفة فقال: يا أهل الكوفة، اتقوا الله في جيرانكم وضِيفانكم، وفي أهل بيتِ نبيِّكم ﷺ الذين أذهبَ الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً . فجعل الناسُ يَبكون ، ثم تحمَّلوا إلى المدينة . قال : وحال أهلُ البصرة بينه وبين خَراج دارا بجرد ؛ وقالوا : فيئنا ، فلما خرج إلى المدينة تلقّاه ناسٌ بالقادسيّة فقالوا : يا مُذِلّ العَرَب !

وفيها خرجت الخوارجُ التي اعتزلتْ أيام علي عليه السلام بشَهْرَزور على معاوية .

ذكر خبرهم :

حدّثت عن زياد ، عن عَوانة ، قال : قدم معاوية قبل أن يَبرَح الحسن من الكوفة حتى نزل النُّخَيلة ، فقالت الحَرُورية الخمسمائة التي كانت اعتزلتْ بشَهْرَزور مع فَرْوة بن نوفل الأشجعي : قد جاء الآن ما لا شكّ فيه ، فسِيروا إلى معاوية فجاهِدوه . فأقبلوا وعليهم فَروة بن نوفل حتى دخلوا الكُوفة ، فأرسل إليهم معاويةُ خيلاً من خيل أهل الشام ، فكَشَفوا أهلَ الشام ، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمانَ لكم واللّهِ عندي حتى تكفّوا بَوائقَكم ؛ فخرج أهلُ الكوفة إلى الخوارج فقاتَلوهم ، فقالت لهم الخوارج : ويْلَكم ! ما تَبْغُون منّا ! أليس معاوية عدوّنا وعدوّكم! دعُونا حتى نُقاتِله ، وإن أصبْناه كنا قد كَفَيناكم عدوَّكم ، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا ، قالوا : لا والله حتى نقاتِلَكم ؛ فقالوا : رحم اللّهُ إخوانَنا من أهل النّهر ، هم كانوا أعلمَ بكم يا أهلَ الكوفة . وأخذت أشجعُ صاحبَهم فَرْوة بن نوفل ـ وكان سيِّد القوم ـ واستعملوا عليهم عبدَالله بن أبي الحُرّ ـ رجلاً من طيّيء ـ فقاتَلوهم ، فقتِلوا ، واستعمل معاوية عبدَ الله بن عَمرو بن العاص على الكُوفة ، فأتاه المغيرةُ بن شُعبة وقال لمعاوية : استعملتَ عبدالله بن عَمرو على الكوفة وَعمراً على مصر ، فتكون أنت بين لَحيَي الأسَد! فعزلَ عبدالله ، واستعمَلَ المغيرةَ بن شعبة على الكوفة ، وبلغ عمراً ما قال المغيرة لمعاوية، فدخل عمرو على معاوية فقال: استعملتَ المغيرةَ على الكوفة؟ فقال: نعم ؛ فقال: أجَعلتَه على الخراج؟ فقال: نعم ؛ قال : تستعمل المغيرةَ على الخراج فيغتال المالَ ، فيذهب فلا تستطيع أن تأخذ منه شيئاً ؛ استعمِل على الخراج مَن يَخافك ويهابُك ويتّقيك . فعزل المغيرةَ عن الخراج ، واستعمله على الصّلاة ، فلقيَ المغيرةُ عَمراً فقال: أنت المشيرُ على أمير المؤمنين بما أشرتَ به في عبدِ الله؟ قال: نعم؛ قال: هذه بتلك ؛ ولم يكن عبدُالله بنُ عَمرو بن العاص مضى فيما بلغني إلى الكوفة ولا أتاها .

وفي هذه السنة غلب حُمران بن أبان على البَصْرة ، فوجّه إليه معاوية بُسراً ، أمره بقتل بني زياد .

ذكر الخبر عمّا كان من أمره في ذلك :

حدثني عمر بن شبّة ، قـال: حدّثني علي بن محمد ، قال : لما صالح الحسن بن علي عليه السلام معاويةَ أوّل سنة إحدى وأربعين، وثَبَ حُمران بن أبان على البصرة فأخذها، وغلب عليها، فأراد معاوية أن يَبعث رجلاً من بني القَيْن إليها ، فكلّمه عبيدُ الله بن عباس ألّا يَفعل ويبعث غيره ، فبعث بُسر بن أبي أرطاة ، وزعم أنه أمرَه بقتل بني زياد .

فحدّثني مَسلمة بن مُحارب، قال: أخذ بعض بني زياد فحبسه ـ وزياد يومئذٍ بفارس، كان علي عليه السلام بعثه إليها إلى أكراد خرجوا بها، فظَفر بهم زياد، وأقام بإصْطَخْر ـ قال: فركب أبو بكْرة إلى معاوية وهو بالكوفة،

فاستأجَل بُسراً ، فأجّله أسبوعاً ذاهباً وراجعاً ، فسار سبعة أيام ، فقتل تحته دابّتين ، فكلّمه ، فكتب معاوية بالكفّ عنهم .

قال : وحدّثني بعضُ علمائنا ؛ أنّ أبا بكْرة أقبل في اليوم السابع وقد طلعت الشمس، وأخرج بُسْر بني زياد ينتظر بهم غروبَ الشمس ليقتلَهم إذا وجبتْ ، فاجتمع الناس لذلك وأعينُهم طامحة ينتظرون أبا بكْرة ، إذ رُفع علم على نَجيب أو برْذَون يكُدّه ويجهده ، فقام عليه ، فنزل عنه ، وألاح بثوبه ، وكبّر وكبّر الناسُ ، فأقبل يسعى على رجليه حتى أدرك بُسْراً قبل أن يقتلَهم ، فدفع إليه كتابَ معاوية ، فأطلقهم .

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي بن محمد ، قال: خطب بُسْر على مِنبرِ البَصرة ، فَشتَم عليًّا عليه السلام ، ثم قال: نشدْتُ الله رجلاً عَلِيم أني صادق إلاَّ صَدّقني ، أو كاذب إلاَّ كذّبني! قال: فقال أبو بكْرة: اللهمّ إنا لا نعلمك إلاَّ كاذباً؛ قال: فأمَر به فخُنِق ، قال: فقام أبو لؤلؤة الضبيّ فرمى بنفسه عليه ، فمنعه ، فأقطعه أبو بكْرة بعد ذلك مائةَ جَريب . قال : وقيل لأبي بكْرة : ما أردتَ إلى ما صنعت ! قال : أيُناشِدُنا بالله ثم لا نصدّقه ! قال: فأقام بُسْر بالبَصرة ستّة أشهر ، ثم شَخَص لا نَعلَمه ولَّى شرطتَه أحداً .

حدّثني أحمد بن زهير ، قال : حدّثنا علي بن محمد ، قال: أخبرني سليمان بن بلال ، عن الجارود بن أبي سَبْرة ، قال: صالح الحسنُ عليه السلام معاوية ، وشَخَص إلى المدينة ، فبعث معاوية بُسْر بن أبي أرطاةَ إلى البصرة في رجب سنة إحدى وأربعين وزياد متحصّن بفارسَ ، فكتب معاوية إلى زياد : إنّ في يديْك مالاً من مال الله ، وقد ولِّيت ولاية فأدِّ ما عندَك من المال. فكتب إليه زياد: إنه لم يَبقَ عندي شيء من المال، وقد صرفتُ ما كان عندي في وجهه ، واستودعتُ بعضَه قوماً لنازلة إنْ نزلت ، وحملتُ ما فَضَل إلى أمير المؤمنين رحمةُ الله عليه . فكتب إليه معاوية : أن أقبِل إليَّ ننظر فيما ولِّيت ، وجرى على يديْك، فإن استقام بيننا أمرٌ فهو ذاك ، وإلاَّ رجعتَ إلى مأمَنِك ؛ فلم يأته زياد ، فأخذ بُسْر بني زياد الأكابر منهم ، فحبسهم : عبدالرحمن ، وعبيد الله ، وعبّاداً ، وكتب إلى زياد : لتقدمنّ على أمير المؤمنين أو لأقتلنّ بنيك . فكتب إليه زياد: لستُ بارحاً من مكاني الذي أنا به حتى يحكم الله بيني وبين صاحِبك ، فإن قتلتَ مَن في يديك مِن وَلَدي فالمصير إلى الله سبحانه ، ومن ورائنا وورائكم الحساب ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ . فهمّ بقتلهم ، فأتاه أبو بَكْرة فقال: أخذتَ ولدي وولدَ أخي غلماناً بلا ذَنْب، وقد صالح الحسن معاوية على أمان أصحاب علي حيث كانوا، فليس لك على هؤلاء ولا على أبيهم سبيل ؛ قال: إنّ على أخيك أموالاً قد أخذها فامتنع من أدائها ؛ قال: ما عليه شيء، فاكفف عن بني أخي حتى آتِيَك بكتاب من معاويةَ بتخلِيَتهم . فأجّله أياماً، قال له: إن أتيتَني بكتاب معاوية بتخلِيَتهم وإلاَّ قتلتُهم أو يُقبل زيادُ إلى أمير المؤمنين ؛ قال : فأتى أبو بَكرة معاويةَ فكلّمه في زياد وبنيه ، وكتب معاوية إلى بُسر بالكفّ عنه وتَخلية سبيلهم ، فخلاّهم .

حدّثني أحمد بن زهير ، قال : حدّثنا علي ، قال : أخبرني شيخٌ من ثَقيف ، عن بُسر بن عُبيدالله ، قال : خرج أبو بَكْرة إلى معاويةَ بالكوفة فقال له معاوية : يا أبا بَكْرة ، أزائراً جئتَ أم دعتْك إلينا حاجة؟ قال: لا أقول باطلاً ، ما أتيتُ إلاَّ في حاجة ! قال: تُشَفَّع يا أبا بَكْرة ونرى لك بذلك فضلاً ، وأنت لذلك أهل ، فما هو؟ قال: تؤمّن أخي زياداً ، وتكتب إلى بُسر بتَخْلية ولدهِ وبترك التعرّض لهم ؛ فقال : أما بنو زياد فنكتب لك

فيهم ما سألت ؛ وأما زياد ففي يده مالٌ للمسلمين ، فإذا أدّاه فلا سبيل لنا عليه ؛ قال : يا أميرَ المؤمنين ، إن يكن عنده شيء فليس يحبسه عنك إن شاء الله . فكتب معاوية لأبي بكْرة إلى بُسْر ألّا يتعرّض لأحد من ولد زياد ، فقال معاوية لأبي بكْرة : أتعهد إلينا عهداً يا أبا بكرة؟ قال : نعم ، أعهد إليك يا أمير المؤمنين أن تنظرَ لنفسك ورعيّتك ، وتعمل صالحاً فإنك قد تقلدت عظيماً ، خلافةَ الله في خلقه ، فاتّق اللّهَ فإنّ لك غاية لا تعدوها ، ومن ورائك طالب حَثيث ، فأوشك أن تبلغ المدَى ، فيلحق الطالب ، فتصير إلَى من يسألك عمّا كنتَ فيه ، وهو أعلم به منك ، وإنما هي محاسبة وتوقيف ، فلا تؤثرنّ على رضا الله عزّ وجلّ شيئاً .

حدّثني أحمد ، قال : حدّثنا علي ، عن سلَمة بن عثمان ، قال : كتب بُسر إلى زياد : لئن لم تُقـدِم لأصلبنّ بَنيك . فكتب إليه : إن تفعل فأهل ذلك أنتَ ، إنما بعث بك ابنُ آكلة الأكباد . فركب أبو بكْرة إلى معاوية ، فقال : يا معاوية ، إنّ الناس لم يُعطوك بَيعتهم على قتل الأطفال ، قال : وما ذاك يا أبا بَكْرة؟ قال : بُسر يريد قتلَ أولاد زياد ، فكتب معاوية إلى بُسر : أن خلّ مَن بيدك من ولد زياد .

وكان معاوية قد كتب إلى زياد بعد قتل علي عليه السلام بتوعّده . فحدّثني عمر بن شبّة ، قال : حدّثني علي ، عن حبّان بن موسى ، عن المجالد ، عن الشعبيّ ، قال : كَتب معاوية حين قتِل علي عليه السلام إلى زياد يتهدده ، فقام خطيباً فقال : العجبُ من ابن آكِلة الأكباد ، وكهفِ النفاق ، ورئيسِ الأحزاب ؛ كتب إليّ يتهدّدني وبيني وبينه ابنا عمّ رسول الله ﷺ - يعني ابن عبـاس والحسنَ بن علي - في تسعـين ألفاً ، واضعي سيوفَهم على عواتقهم ، لا ينثنون ، لئن خَلَص إليّ الأمرُ ليجدنّي أحمزَ ضَرّاباً بالسيف . فلم يزل زياد بفارس والياً حتى صالح الحسن عليه السلام معاوية ، وقدم معاويةُ الكوفة ، فتحصّن زيادٌ في القلعة التي يقال لها قلعةُ زياد .

وفي هذه السنة ولّى معاويةُ عبدَالله بنَ عامر البَصرة وحربَ سجستان وخُراسان .

ذكر الخبر عن سبب ولاية ذلك وبعض الكائن في أيام عمله لمعاوية بها :

حدّثني أبو زيد ، قال : حدّثنا علي قال : أراد معاوية توجيهَ عتبة بن أبي سُفيان على البَصرة ، فكلمه ابن عامر وقال : إنّ لي بها أموالاً وودائع ، فإنْ لم توجّهني عليها ذهبتْ . فولّاه البصرة ، فقَدِمها في آخر سنة إحدى وأربعين وإليه خُراسان وسجِستان ، فأراد زيدَ بن جَبَلة على ولاية شرطته فأبى ، فولّى حبيبَ بن شهاب الشاميّ شُرْطته - وقـد قيل : قيس بن الهيثم السُّلميّ - واستقضى عميـرة بن يَثربيّ الضّبيّ ، أخـا عمرو بن يثـربيّ الضّبيّ .

حدّثني أبو زيد ، قال : حدّثنا علي بن محمد ، قال : خرج في ولاية ابن عامر لمعاويـة يزيـدُ مالـك الباهلي ، وهو الخَطيم - وإنما سمّي الخَطيم لضربة أصابتْه على وجهه - فخرج هو وسهمُ بن غالب الهجيميّ فأصبحوا عند الجِسر ، فوجدوا عبادة بن قرص الليثيّ أحد بني بُجير - وكانت له صحبة - يصلي عند الجسر ، فأنكروه فقتلوه ، ثم سألوه الأمان بعد ذلك ، فآمنهم ابنُ عامر ، وكتب إلى معاوية : قد جعلت لهم ذمّتك . فكتب إليه معاوية : تلك ذمّةٌ لو أخفرتَها لا سئلتَ عنها ، فلم يزالوا آمنين حتى عُزل ابن عامر .

وفي هذه السنة ولد علي بن عبدالله بن عباس ـ وقيل: ولُد في سنة أربعين قبل أن يُقتل علي عليه السلام، وهذا قول الواقدي .

وحجّ بالناس في هذه السنة عُتبة بن أبي سُفيان في قول أبي معشر ، حدّثني بذلك أحمد بن ثابت عمّن حدّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عنه .

وأما الواقدي فإنه ذكر عنه أنه كان يقول: حجّ بالناس في هذه السنة ـ أعني سنة إحدى وأربعين ـ عَنْبَسة ابن أبي سُفْيان.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين
ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففيها غزا المسلمون اللاّن ، وغزَوْا أيضاً الرّوم ، فهزموهم هزيمةً منكَرة ـ فيما ذكروا ـ وقَتلوا جماعةً من بَطارِقتهم .

وقيل : في هذه السنة وُلد الحجّاج بن يوسف .

وولّى معاوية في هذه السنة مَرْوانَ بن الحكم المدينة ، فاستقضى مَرْوانُ عبدَالله بن الحارث بن نوفل . وعلى مكّة خالد بن العاص بن هشام ، وكان على الكوفة من قبَله المغيرةُ بن شُعبة ، وعلى القضاء شُريح ، وعلى البَصْرة عبدَالله بن عامر، وعلى قضائها عمرو بن يثربي ، وعلى خُراسان قيس بن الهيثم من قِبَل عبدِالله بن عامر .

وذكر علي بن محمد ، عن محمد بن الفضل العبسي، عن أبيه ، قال : بعث عبدالله بن عامر قيس بن الهيثم على خُراسان حين ولاّه معاوية البَصرة وخُراسان ، فأقام قيس بخُراسان سنتين .

وقد قيل في أمر ولاية قيس ما ذكره حمزة بن أبي صالح السُّلَميّ ، عن زياد بن صالح ، قال: بعث معاوية حين استقامت له الأمور قيسَ بن الهيثم إلى خُراسان، ثم ضمَّها إلى ابن عامر، فترك قيساً عليها .

وفي هذه السنة تحرّكت الخوارجُ الذين انحازوا عمّن قُتل منهم بالنَّهرَوان ومن كان ارتُثّ من جَرْحاهم بالنَّهروان ، فبرَؤوا، وعفا عنهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ذكر الخبر عمّا كان منهم في هذه السنة :

ذكر هشام بن محمد، عن أبي مِخْنف ، قال: حدّثني النَّضْر بن صالح بن حبيب ، عن جَرير بن مالك بن زُهير بن جَذيمة العبسي ، عن أبي بن عُمارة العبسيّ، أن حيّان بن ظَبيان السُّلَمي كان يرى رأيَ الخوارج ، وكان ممن ارتُثّ يومَ النّهروان ، فعفا عنه علي عليه السلام في الأربعمائة الذين كان عفا عنهم من المرتثّين يوم النهر ،

فكان في أهله وعشيرته ، فلبث شهراً أو نحوَه . ثم إنه خرج إلى الرّي في رجال كانوا يَروْن ذلك الرأي ، فلم يزالوا مقيمين بالرّي حتى بلغهم قتلُ علي كرم الله وجهه ، فدعا أصحابه أولئك ـ وكانوا بضعةَ عشر رجلاً ، أحدهم سالم بن ربيعة العبسي ـ فأتَوْه ، فحمِدَ الله وأثنَى عليه ثم قال : أيّها الإخوان من المسلمين ، إنه قد بلغني أنّ أخاكم ابن ملجم أخا مُراد قَعد لقتل علي بن أبي طالب عند أغباش الصُّبح مقابل السُّدّة التي في المسجد مسجدِ الجماعة ، فلم يبرح راكداً ينتظر خروجَه حتى خرج عليه حين أقام المقيمُ الصّلاة صلاة الصبح ، فشدّ عليه فضرب رأسَه بالسيف ، فلم يَبق إلاّ ليلتين حتى مات ، فقال سالم بن ربيعة العبسي : لا يقطع الله يميناً علتْ قَذالَة بالسَّيف ؛ قال : فأخذ القومُ يَحمَدون الله على قتله عليه السلام ورضيَ الله عنه ولا رضيَ عنهم ولا رحمهم ! .

قال النّضْر بن صالح : فسألت بعد ذلك سالمَ بن ربيعة في إمارة مُصعب بن الزبير عن قوله ذلك في علي عليه السلام ، فأقرّ لي به ، وقال : كنت أرى رأيهم حيناً ، ولكن قد تركتُه ؛ قال : فكان في أنفسنا أنه قد تركه ؛ قال : فكان إذا ذكروا له ذلك يُرْمضه . قال : ثمّ إنّ حيّان بن ظَبيان قال لأصحابه : إنه والله ما يَبقى على الدهر باقٍ ، وما تَلبث الليالي والأيام والسنُون والشهور على ابن آدم حتى تُذيقَه الموت ، فيفارق الإخوان الصالحين ، ويدَع الدّنيا التي لا يَبكي عليها إلاّ العَجَزة ، ولم تزل ضارّةً لمن كانت له همًّا وشَجَناً ؛ فانصرِفوا بنا رحمكم الله إلى مصرِنا ، فلنأتِ إخوانَنا فلندْعُهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإلى جهاد الأحزاب ، فإنه لا عذرَ لنا في القعود ، ووُلاتُنا ظَلَمة ، وسنّة الهدى متروكة ، وثأرنا الّذين قتلوا إخواننا في المجالس آمنون ، فإن يُظفرنا الله بهمْ نعمِد بعد إلى التي هي أهدَى وأرضَى وأقوَم ، ويَشفى الله بذلك صدورَ قوم مؤمنين ، وإن نُقتل فإنّ في مفارقة الظالمين راحةً لنا ، ولنا بأسلافنا أسوة . فقالوا له : كلّنا قائل ما ذكرتَ ، وحامدٌ رأيَك الذي رأيت ، فرِدْ بنا المِصرَ فإنا معك راضون بهُداك وأمرك ؛ فخرج وخرجوا معه مقبِلين إلى الكوفة ، فذلك حين يقول :

خليلَيَّ ما بي من عَـزاءٍ ولا صَبْـرِ	ولا إرْبَـةٍ بعـد المُصـابِينَ بـالنَّهْـرِ
سِـوَى نَهَضـاتٍ فـي كتائِبَ جَـمَّـةٍ	إلىٰ الله مـا تَدْعُو وفي الله مـا تَفْـرِي
إذا جـاوزَتْ قُسْطانَـةَ الـرَّيِّ بَغلَتي	فلستُ بسـارٍ نحْـوَهـا آخِرَ الـدَّهـرِ
ولـكنَّنِـي سـارٍ وإنْ قـلّ نـاصِـرِي	قـريباً فـلا أُخـزيكما مَـع مَنْ يَسْـرِي

قال : وأقبل حتى نزل الكوفة ، فلم يزل بها حتى قَدِم معاوية ، وبعث المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة ، فأحب العافية ، وأحسن في الناس السيرة ، ولم يفتّش أهلَ الأهواء عن أهوائهم ، وكان يؤتى فيقال له : إنّ فلاناً يَرَى رأيَ الشّيعة ، وإنّ فلاناً يرى رأيَ الخوارج . وكان يقول : قضى الله ألاّ تزالون مختلِفين ، وسيَحْكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون . فأمِنه الناس ، وكانت الخوارج يَلقَى بعضهم بعضاً ، ويتذاكرون مكانَ إخوانهم بالنّهْروان ويَروْن أن في الإقامة الغَبْن والوكَف ، وأنّ في جهادِ أهل القبلة الفضل والأجر .

قال أبو مخنف : فحدّثني النَّضْر بن صالح ، عن أبي بن عُمارة ، أنّ الخوارج في أيام المُغيرة بن شُعبة فَزِعوا إلى ثلاثةِ نفر ؛ منهم المستورِد بن عُلّفة ، فخرج في ثلاثة رجل مقبلاً نحو جَرْجَرايا على شاطىء دِجْلة .

قال أبو مِخْنف : وحدّثني جعفر بن حُذَيفة الطائي من آل عامر بن جُوَين ، عن المحلّ بن خليفة ، أنّ الخوارج في أيام المغيرة بن شعبة فزعوا إلى ثلاثة نفر ؛ منهم المستورِد بن عُلّفة التّيميّ من تَيْم الرِّباب ، وإلى حيّان بن ظَبيان السُّلميّ ، وإلى معاذ بن جُوَين بن حُصين الطائيّ السِّنْبِسيّ - وهو ابن عمّ زيد بن حُصَين ، وكان زيد ممن قتله علي عليه السلام يوم النَّهْروان ، وكان معاذ بن جُوَين هذا في الأربعمائة الذين ارتُثّوا من قتلى الخوارج ، فعفا عنهم علي عليه السلام - فاجتمعوا في منزل حيّان بن ظبيان السُّلمي ، فتشاوروا فيمن يولُّون عليهم . قال: فقال لهم المستورِد : يأيُّها المسلمون والمؤمنون ، أراكم الله ماتحبّون، وعزلَ عنكم ما تكرَهون، ولُّوا عليكم مَنْ أحببتم ، فوالّذي يَعلَم خائنةَ الأعين وما تُخفِي الصّدور ما أبالي مَن كان الوالي عليّ منكم! وما شرفَ الدنيا نريد ، وما إلى البقاء فيها من سبيل ، وما نريد إلاّ الخلود في دار الخلود . فقال حيّان بن ظَبْيان : أمّا أنا فلا حاجة لي فيها وأنا بك وبكلّ امرىءٍ من إخواني راضٍ ، فانظروا مَن شئتم منكم فسمّوه ، فأنا أوّل من يُبايعه . فقال لهم معاذ بن جُوَين بن حصين : إذا قلتما أنتما هذا وأنتما سيِّدا المسلمين وذَوَا أنسابهم في صَلاحِكما ودِينكما وقَدرِكما ، فمن يرئس المسلمين ، وليس كلّكم يصلح لهذا الأمر ! وإنما ينبغي أن يليَ على المسلمين إذا كانوا سواء في الفضل أبصرهم بالحرب ، وأفقَهُهم في الدين ، وأشدُّهم اضطلاعاً بما حُمِّل ، وأنتما بحمد الله ممن يرضى بهذا الأمر ، فليتولّه أحدكما . قالا: فتولّه أنت ، فقد رضيناك ، فأنتَ والحمدُ لله الكامل في دينك ورأيك ، فقال لهما : أنتما أسنّ مني ، فليتولّه أحدكما ، فقال حينئذ جماعة مَن حضرهما من الخوارج : قد رضينا بكم أيّها الثلاثة ، فولوا أيّكم أحببتم ؛ فليس في الثلاثة رجل إلاّ قال لصاحبه : تولّها أنت ، فإني بك راضٍ ، وإني فيها غيرُ ذي رغبة . فلما كثر ذلك بينهم قال حيّان بن ظبيان ، فإنّ معاذ بن جُوَين قال : إنّي لا ألى عليكما وأنتما أسنّ مني ، وأنا أقول لك مِثلَ ما قال لي ولك ، لا ألى عليك وأنت أسنّ مني ، أبسُط يدكَ أبايعْك . فبَسَط يده فبايعه ، ثم بايعه معاذ بن جوين ، ثم بايعه القومُ جميعاً ، وذلك في جُمادى الآخرة . فاتّعد القوم أن يتجّهزوا ويتيسرُوا ويستعدّوا ، ثم يخرجوا في غرّة الهلال هلالِ شعبانَ سنة ثلاث وأربعين ، فكانوا في جهازهم وعدّتهم .

وقيل : في هذه السنة سار بُسر بن أبي أرطاة العامري إلى المدينة ومكة واليَمن ، وقَتل من قَتله في مسيره ذلك من المسلمين .

وذلك قول الواقدي ، وقد ذكرتُ مَن خالفه في وقت مسيره هذا السير .

وزعم الواقدي أن داودَ بن حيّان حدّثه ، عن عطاء بن أبي مروان ، قال : أقام بسر بن أبي أرطاةَ بالمدينة شهراً يَستعرض الناسَ ، ليس أحدٌ ممن يقال هذا أعان على عثمان إلاّ قَتله .

وقال عطاء بن أبي مَرْوان : أخبرني حَنْظلة بن علي الأسلمي ، قال : وجد قوماً من بني كعب وغِلمانهم على بئرٍ لهم فألقاهم في البئر .

وفي هذه السنة قَدِم زيادٌ - فيما حدّثني عمر - قال : حدّثنا أبو الحسن ، عن سليمان بن أرقم ، قدم على معاوية من فارس ، فصالحه على مال يحمِله إليه .

وكان سبب قدومه بعد امتناعه بقلعة من قلاع فارس ، ما حدّثني عمر قال : حدّثنا أبو الحسن ، عن مسلمة بن محارب ، قال : كان عبد الرحمن بن أبي بكْرة يلي ما كان لزياد بالبصْرة ، فبلغ معاوية أنّ لزياد أموالاً

عند عبدالرحمن ، وخاف زيادُ على أشياءَ كانت في يد عبدالرحمن لزياد ، فكتب إليه يأمره بإحرازها ، وبعث معاوية إلى المغيرة بن شُعبة لينظر في أموال زياد ، فقدم المغيرة ، فأخذ عبدالرحمن ، فقال : لئن كان أساء إليّ أبوك لقد أحسن زياد . وكتب إلى معاوية : إني لم أصِب في يد عبدالرحمن شيئاً يَحِلّ لي أخْذُه . فكتب معاوية إلى المغيرة أنْ عَذِّبه . قال : وقال بعض المشيخة : إنه عَذّب عبدالرحمن بن أبي بَكْرة إذْ كتب إليه معاوية ، وأراد أن يُعْذِر ويبلغَ معاوية ذلك ، فقال : احتفِظ بما أمرك به عمُّك ، فألقى على وجهه حريرةً ونَضَحَها بالماء ، فكانت تَلتزق بوجهه ، فغُشي عليه ، ففعل ذلك ثلاث مرّات ، ثم خلّاه ، وكتب إلى معاوية : إني عذّبته ، فلم أصب عنده شيئاً ، فحفظ لزياد يدَه عنده .

حدّثني عمر ، قال حدّثنا أبو الحسن ، عن عبدالملك بن عبدالله الثّقَفيّ ، عن أشياخ من ثَقيف ، قالوا : دخل المغيرة بن شُعبة على معاوية ، فقال معاوية حين نظر إليه .

إنَّمَا مَوضِعُ سر المرءِ إن باحَ بالسِّرّ أخوه لِمُنْتَصِحْ
فإذا بُحْتَ بِسِرٍّ فإلى ناصحٍ يَسْتُرُه أوْ لا تَبُحْ

فقال: يا أمير المؤمنين، إن تستودعْني تستودعْ ناصحاً شفيقاً وَرِعاً وثيقاً ، فما ذاك يا أميرَ المؤمنين؟ قال: ذكرتُ زياداً واعتصامه بأرض فارسَ، وامتناعَه بها، فلم أنم ليلتي ، فأراد المغيرة أن يطأطىء من زياد ، فقال: ما زياد هناك يا أمير المؤمنين ! فقال معاوية : بئس الوطْء العجْزُ ، داهية العرب معه الأموال ، متحصّن بقلاع فارسَ ، يدبِّر ويربّص الحِيَل ، ما يؤمِنني أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت ، فإذا هو قد أعادعليّ الحرب خُدَعة فقال المغيرة : أتأذن لي يا أمير المؤمنين في إتيانه ، قال : نعم ، فأته وتلطفه له ، فأتى المغيرة زياداً ، فقال زياد حين بلغه قدوم المغيرة : ما قَدِم إلا لأمر ، ثم أذن له ، فدخل عليه وهو في بَهْوٍ له مستقبل الشمس ، فقال زياد : أفلح رائد! فقال: إليك ينتهي الخبَر أبا المغيرة ، إنّ معاوية استخفّه الوَجَل حتى بعثني إليك ، ولم يكن يعلم أحداً يمدد يده إلى هذا الأمر غير الحسن ، وقد بايع معاوية ، فخذْ لنفسك قبل التَّوطِين ، فيستغني عنك معاوية ، قال : أشِرْ عليَّ ، وارم الغرضَ الأقصى ، ودعْ عنك الفُضول ، فإنّ المستشارَ مؤتَمن ؛ فقال المغيرة : في مَحْض الرأيِ بَشاعة ، ولا خيرَ في المَذِيق ، أرى أن تصلَ حبلَك بحبله ، وتَشخَص إليه ؛ قال : أَرَى ويقضي الله .

حدّثني عمر ، قال: حدّثنا علي ، عن مَسلمة بن محارب ، قال: أقام زياد في القلعة أكثر من سنة، فكتب إليه معاوية: علام تُهلِك نفسَك؟ إليَّ فأعلِمْني عِلمَ ما صار إليك مما اجتبيت من الأموال، وما خرج من يديك، وما بقي عندك، وأنت آمِن، فإن أحببتَ المُقام عندنا أقمتَ، وإن أحببتَ أن تَرجِع إلى مأمَنك رجعتَ. فخرج زياد من فارسَ، وبلغ المغيرة بن شعبة أن زياداً قد أجمع على إتيان معاوية ، فشَخَص المغيرة إلى معاوية قبل شخوص زياد من فارسَ ، وأخذ زياد من إصْطَخْرَ إلى أرّجان ، فأتى ماه بَهْزاذان ، ثم أخذ طريق حُلْوان حتى قدم المدائن، فخرج عبدالرحمن إلى معاوية يخبره بقدوم زياد ، ثمّ قدِم زياد الشام ، وقدم المغيرة بعد شهر ، فقال له معاوية : يا مغيرة ، زياد أبعدُ منك بمسيرة شهر، وخرجتَ قبلَه وسبَقَك. فقال: يا أميرَ المؤمنين ، إنّ الأريب إذا كلّم الأريب أفحَمَه ؛ قال: خذ حِذْرَك، واطوِ عنّي سِرّك ، فقال: إنّ زياداً قدم يرجو الزّيادة ، وقدمت أتخوّف النقصان ، فكان سيرنا على حسب ذلك ؛ قال: فسأل معاوية زياداً عمّا صار إليه من أموال فارس، فأخبره بما حمل منها إلى علي رضي الله عنه ، وما أنفق منها في الوجوه التي يحتاج فيها إلى النفقة ،

فصدّقه معاوية على ما أنفق ، وما بقيَ عنده ، وقبضَه منه ، وقال : قد كنت أمينَ خلفائنا .

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي ، قال : حدّثنا أبو مِخْنف وأبو عبدالرحمن الأصبهاني وسَلَمة بن عثمان وشيخ من بني تميم وغيرهم ممّن يوثَق بهم ، قال: كتب معاوية إلى زياد وهو بفارسَ يسأله القدومَ عليه ، فخرج زيادٌ من فارسَ مع المِنجاب بن راشد الضبيّ وحارثة بن بدر الغُداني ، وسرَّح عبدَالله بن خازم في جماعة إلى فارس ، فقال : لعلك تَلقَى زياداً في طريقك فتأخذه . فسار ابنُ خازم إلى فارس ، فقال بعضُهم : لقيَه بسوق الأهواز ، وقال بعضهم : لقيَه بأرّجان ، فأخذ ابن خازم بعِنان زياد ، فقال : انزِل يا زياد ، فصاح به المِنجاب ابن راشد: تنحّ يا بن سَوْداء ، وإلاّ علّقتُ يدَك بالعِنان . قال: ويقال: انتهى إليهم ابن خازم وزياد جالس، فأغلظ له ابن خازم ، فشَتَم المنجاب بن خازم ، فقال له زياد : ما تريد يا بن خازم؟ قال: أريد أن تجيء إلى البصرة؛ قال: فإني آتيها ؛ فانصرف ابن خازم استحياءً من زياد .

وقال بعضهم: التقى زياد وابن خازم بأرّجان، فكانت بينهم منازعة، فقال زياد لابن خازم قد أتاني أمان مُعاوية ، فأنا أريده ، وهذا كتابه إليَّ . قال : فإن كنتَ تريد أميرَ المؤمنين فلا سبيل عليك ، فمضى ابن خازم إلى سابورَ ، ومضى زياد إلى ماهبَهْزَاذان ، وقَدِم على معاوية ، فسأله عن أموال فارسَ ، فقال : دفعتُها يا أميرَ المؤمنين في أرزاق وأعطِيات وحَمالات ، وبقيتْ بقيّة أودعتها قوماً ، فمكث بذلك يردّده ، وكتب زياد كتباً إلى قوم منهم شِعبة بن القِلْعم : قد علمتم ما لي عندكم من الأمانة ، فتدبّروا كتابَ الله عزّ وجلّ : ﴿ إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَات وَالأَرْضِ والجِبَالِ . . . ﴾(١) . الآية ، فاحتفِظوا بما قبلكم. وسمى في الكتب بالمبلغ الذي أقربه لمعاوية ، ودسّ الكتب مع رسوله ، وأمره أن يعرض لبعض من يُبْلغ ذلك معاوية ، فتعرّض رسولُه حتى انتشر ذلك ، وأخِذ فأُتِيَ به معاوية ، فقال معاوية لزيـاد : لئن لم تكنْ مكرتَ بي إنّ هـذه الكتب من حاجتي. فقرأها، فإذا هي بمثلِ ما أقرّ به ؛ فقال معاوية: أخاف أن تكون قد مكرتَ بي، فصالحني على ما شئت ، فصالحه على شيء مما ذكره أنه عنده، فحمله، وقال زياد : يا أمِيرَ المؤمنين ، قـد كان لي مـال قبل الولاية ، فوددتُ أنّ ذلك المالَ بقيَ ، وذهب ما أخذت من الولاية . ثم سأل زياد معاوية أن يأذن له في نزول الكوفة فأذن له ، فشَخَصَ إلى الكوفة ، فكان المغيرة يكرمه ويعظمه ، فكتب معاوية إلى المغيرة : خذ زياداً وسليمانَ بن صُرَد وحُجْرَ بنَ عدّي وشَبَث بن رِبْعيّ وابن الكوّاء وعَمرو بن الحَمِق بالصّلاة في الجماعة ؛ فكانوا يَحضُرون معه في الصلاة .

حدّثني عمر بن شبّة ، قال: حدّثنا علي، عن سليمان بن أرقم ، قال: بلغني أنّ زياداً قدم الكوفة ، فحضرتِ الصلاة، فقال له المغيرة: تقدّم فصلّ؛ فقال: لا أفعل، أنت أحقّ مني بالصلاة في سلطانك. قال: ودخل عليه زياد وعند المغيرة أمّ أيوبَ بنت عُمَارة بن عقبة بن أبي مُعيط ، فأجلَسها بين يديه ، وقال : لا تستتري من أبي المغيرة ، فلما مات المغيرة تزوّجها زياد وهي حَدَثة، فكان زياد يأمر بفِيل كان عنده ، فيُوقَف ، فتَنظر إليه أمّ أيّوب ، فسمِّيَ بابَ الفيل .

وحجّ بالناس في هذه السنة عَنْبسة بن أبي سُفْيان ، كذلك حدّثني أحمد بن ثابت ، عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر .

(١) سورة الأحزاب : ٨٢ .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين
ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمن ذلك غَزْوة بُسر بن أبي أرطاةَ الرّوم ومشتاه بأرضهم حتى بلغ القُسْطَنْطِينيّة ـ فيما زعم الواقدي ـ وقد أنكر ذاكَ قومٌ من أهل الأخبار ، فقالوا : لم يكن لبُسْر بأرض الروم مشتًى قطّ .

وفيها مات عَمرو بن العاص بمصرَ يومَ الفِطْر ، وقبْلُ كان عمل عليها لعمرَ بن الخطاب رضيَ الله عنه أربعَ سنينَ ، ولعثمان أربعَ سنين إلاّ شهرين ، ولمعاوية سنتين إلاّ شهراً .

وفيها ولّى معاويةُ عبدَالله بنَ عمرو بن العاص مصرَ بعد موت أبيه ، فوَليها له ـ فيما زعم الواقديّ ـ نحواً من سنتين .

وفيها مات محمد بن مَسلَمة في صفر بالمدينة ، وصلّى عليه مروانُ بن الحَكَم .

وفيها قُتِل المستورِد بن عُلفة الخارجي ، فيما زعم هشام بن محمد . وقد زعم بعضهم أنه قتل في سنة اثنتين وأربعين .

ذكر الخبر عن مقتله :

قد ذكرْنا ما كان من اجتماع بقايا الخوارج الذين كانوا ارتُثّوا يومَ النّهر ، ومن كان منهم انحاز إلى الرّي وغيرهم إلى النفر الثلاثة الذين سمّيت قبلُ ، الذين أحدُهم المستورِد بن عُلّفة ، وذكرْنا بيعتهم المستورد ، واجتماعهم على الخروج في غرّة هلال شعبان من سنة ثلاث وأربعين .

فذكر هشام ، عن أبي مِخْنف ؛ أنّ جعفر بنَ حذيفة الطائيّ حدّثه عن المحلّ بن خليفة ، أنّ قُبيصة بن الدّمّون أتى المغيرة بن شُعبة ـ وكان على شُرطته ـ فقال : إن شمّر بن جَعْوَنة الكِلابيّ جاءني فخبّرني أنّ الخوارج قد اجتمعوا في منزل حيّان بن ظَبيان السُّلَميّ ، وقد اتّعدوا أن يخرجوا إليك في غرة شعبان ، فقال المغيرة بن شعبة لقبصة بن الدمّون ـ وهو حليف لِثَقِيف ، وزعموا أنّ أصلَه كان من حضرمَوْت من الصدف : سِرْ بالشُّرْطة حتى تحيط بدارِ حيّان بن ظَبيان فأْتِني به ، وهم لاَ يَرَوْن إلاّ أنه أمير تلك الخوارج . فسار قَبيصة في الشُّرْطَة وفي كثير من الناس ، فلم يشعر حيّان بن ظَبيان ألاّ والرّجال معه في دارِه نصفَ النهار ، وإذا معه معاذ بن جُوَين ونحوٌ من عشرين رجلاً من أصحابها ، وثارت امرأته ؛ امُّ ولد له ، فأخذتْ سيوفاً كانت لهم ، فألقتْها تحتَ الفِراش ، وفَزِع بعضُ القوم إلى سيوفهم فلم يجدوها ، فاستسلموا ، فانطلق بهم إلى المُغيرة بن

شعبة ، فقال لهم المغيرة : ما حَمَلكم على ما أردتم من شَقّ عصا المسلمين ؟ فقالوا : ما أرَدْنا من ذلك شيئاً ؛ قال : بلى ، قد بلغني ذلك عنكم ، ثم قد صدّق ذلك عندي جماعتكم ؛ قالوا له : أمّا اجتماعنا في هذا المنزل فإنّ حيّان بن ظَبيان أقرأنا القرآن ، فنحن نجتمع عندَه في منزله فنقرأ القرآنَ عليه . فقال : اذهبوا بهمْ إلى السجن ، فلم يزالوا فيه نحواً من سنة ، وسمع إخوانُهم بأخذهم فَحَذِروا ، وخرج صاحبهم المستورِد بن عُلَّفة فنزل داراً بالحيرة إلى جنب قصر العدسيّين من كَلْب ، فبعث إلى إخوانه ، وكانوا يختلفون إليه ويتجهّزون ، فلما كثر اختلاف أصحابه إليه قال لهم صاحبهم المستورِد بن عُلَّفة التيميّ : تحوّلُوا بنا عن هذا المكان ، فإنّي لا آمَن أن يُطّلع عليكم . فإنهم في ذلك يقول بعضهم لبعض : نأتي مكانَ كذا وكذا ، ويقول بعضهم : نأتي مكانَ كذا وكذا ؛ إذْ أشرَف عليهم حجّار بن أبْجَر من دار كان هو فيها وطائفة من أهله ، فإذا هم بفارِسَيْن قد أقبَلا حتى دخلا تلك الدار التي فيها القوم ، ثم لم يكن بأسرعَ من أن جاء آخران فدَخَلا ، ثمّ لم يكن إلاّ قليل حتى جاء آخر فدخل ، ثم آخرُ فدخل ، وكان ذلك يعنيهِ ، وكان خروجُهم قد اقترب ، فقال حجّار لصاحبة الدار التي كان فيها نازلاً وهي تُرضِع صبيًّا لها : وَيْحكِ! ما هذه الخيل التي أراها تَدْخُل هذه الدار؟ قالت : واللّهِ ما أدري ما همْ! إلاّ أنّ الرجال يختلفون إلى هذه الدار رُجّالا وفُرساناً لا ينقطعون ، ولقد أنكرْنا ذلك منذ أيام ، ولا ندري مَن هم! فركب حجّار فرسَه ، وخرج معه غلام له ، فأقبل حتى انتهى إلى باب دارِهم ، فإذا عليه رجلٌ منهم ، فكلّما أتى إنسان منهم إلى الباب دخل إلى صاحبه فأعلمه ، فأذن له ، فإن جاءه رجل من معروفيهم دَخَل ولم يَستأذن ، فلمّا انتهى إليه حجّار لم يعرفه الرجل ، فقال : مَن أنت رحمك الله ؟ وما تريد؟ قال : أردت لقاء صاحبي ، قال له : وما اسمك؟ قال له : حجّار بن أبجر ؛ قال : فكما أنت حتى أوذِنهم بك . ثم أخرج إليك . فقال له حَجّار : ادخُل راشداً ! فدخل الرجل ، واتّبعه حجار مسرعاً ، فانتهى إلى باب صُفّة عظيمة هم فيها ، وقد دخل إليهم الرّجل فقال : هذا رجل يستأذن عليك أنكرتُه فقلت له : من أنت؟ فقال : أنا حجّار بن أبجر ، فسمعهم يتفزّعون ويقولون : حَجّار بنُ أبجر ! واللّهِ ما جاء حجّار بن أبجر بخير . فلما سمع القول منهم أراد أن ينصرف ويكتفيَ بذلك من الاسترابة بأمرهم ، ثم أبت نفسُه أن ينصرف حتى يعاينَهم ، فتقدّم حتى قام بين سِجْفيْ باب الصُّفّة وقال : السلام عليكم ، فنظر فإذا هو بجماعة كثيرة ، وإذا سلاحٌ ظاهر ودروع ، فقال حَجّار : اللهمّ اجمْعهم على خير ، مَن أنتم عافاكم الله؟ فعرفه علي بن أبي شمر بن الحصين ، من تيم الرّباب ـ وكان أحدَ الثمانية الذين انهزَموا من الخوارج يومَ النهر ، وكان من فُرسان العرب ونُسّاكهم وخِيارهم ـ فقال له : يا حجار بن أبجر ، إن كنتَ إنما جاء بك التماس الخبر فقد وجدتَه ، وإن كنتَ إنما جاء بك أمرٌ غير ذلك فادخل ، وأخبِرنا ما أتى بك ؛ فقال : لا حاجة لي في الدخول ، فانصرف ، فقال بعضهم لبعض : أدرِكوا هذا فاحبِسوه ، فإنه مؤذنٌ بكم ، فخرجتْ منهم جماعةٌ في أثره ـ وذلك عند تطفيل الشمس للإياب ـ فانتهَوْا إليه وقد ركب فرسَه ، فقالوا له : أخبِرنا خبَرَك ، وما جاء بك؟ قال : لم آت لشيء يروعُكم ولا يَهُولكم ، فقالوا له : انتظر حتى ندنوَ منك ونكلّمَك ، أو تدنُوَ منا ؛ أخبرنا فنعلمك أمرَنا ، ونذكر حاجتَنا ، فقال لهم : ما أنا بدانٍ منكم ، ولا أريد أن يدنوَ مني منكم أحد ؛ فقال له علي بن أبي شمر بن الحصين : أفمؤمِّننا أنت من الإذن بنا هذه الليلة وأنت مُحسن ؛ فإنّ لنا قَرابةً وحَقًّا؟ قال : نعم ، أنتم آمنون من قِبَلي هذه الليلة وليالي الدهر كلِّها ؛ ثم انطلق حتى دخل الكوفة وأدخل أهلَه معه . وقال الآخرون بعضهم لبعض : إنا لا نأمن أن يؤذِن بنا هذا ، فأخرجوا بنا من هذا الموضع ساعتَنا هذه ؛ قال : فصلّوا المغرب ، ثمّ خرجوا من الحيرة

متفرّقين ، فقال لهم صاحبُهم : الحقوا بي في دار سُلَيْم بن محدوج العبديّ من بني سَلِمة ، فخرج من الحِيرة ، فمضى حتى أتى عبدالقيس ، فأتى بني سلمة ، فبعث إلى سُلَيم بن محدوج ـ وكان له صهراً ـ فأتاه ، فأدخله وأصحاباً له خمسةً أو ستّة ، ورجع حَجّار بن أبجر إلى رَحْله ، فأخذوا ينتظرون منه أن يبلغهم منه ذكرٌ لهم عند السلطان أو الناس ، فما ذكرهم عند أحد منهم ، ولا بلغهم عنه في ذلك شيء يكرهونه .

فبلغ الخبرُ المغيرةَ بن شُعْبة أنّ الخوارج خارجةٌ عليه في أيامه تلك ، وأنهم قد اجتمعوا على رجل منهم ، فقام المغيرة بن شعبة في الناس ، فحمِد الله وأثنَى عليه ثم قال : أمّا بعد ، فقد علمتم أيّها الناس أني لم أزل أحبّ لجماعتكم العافية ، وأكفّ عنكم الأذى ، وأنّي والله لقد خشيتُ أن يكون ذلك أدب سوء لسفهائكم ، فأمّا الحُلَماء الأتْقياء فلا ، وايمُ الله لقد خشيتُ ألّا أجد بدًّا من أن يُعصَب الحليم التقي بذنْب السفيه الجاهل ، فكفُّوا أيُّها الناس سفهاءَكم قبلَ أن يشمَل البلاءُ عوامَّكم . وقد ذُكر لي أنّ رجالاً منكم يريدون أن يَظهَروا في المصر بالشقاق والخلاف ، وايمُ الله لا يخرجون في حيٍّ من أحياء العرب في هذا المصر إلّا أَبَدْتهم وجعلْتُهم نَكالاً لمن بعدهم ، فنظر قومٌ لأنفسهم قبل الندم ، فقد قمت هذا المقامَ إرادةَ الحجّة والإعذار .

فقام إليه مَعقِل بن قيس الرّياحيّ فقال: أيُّها الأمير ، هل سُمّيَ لك أحدٌ من هؤلاء القوم؟ فإن كانوا سُمُّوا لك فأعلِمْنا مَن هم؟ فإن كانوا منا كَفَيْناكَهم ، وإن كانوا من غيرنا أمرتَ أهلَ الطاعة من أهل مصرِنا ، فأتَتْك كلّ قبيلة بسفهائها ، فقال : ما سُمِّيَ لي أحد منهم ، ولكن قد قيل لي: إنّ جماعةً يريدون أن يخرجوا بالمِصر ؛ فقال له معقِل : أصلحك الله ! فإني أسير في قومي ، وأكفيك ما هم فيه ،ـ فليكفك كل امرىء من الرؤساء قومَه . فنزل المغيرةُ بنُ شعبة ، وبعث إلى رؤساء الناس فدعاهم ، ثم قال لهم : إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم ، وقد قلت ما قد سمعْتم ، فليكفني كلّ امرىء من الرؤساء قومَه ، وإلّا فوالذي لا إله غيره لأتحوّلنّ عما كنتم تَعرِفون إلى ما تُنكرون ، وعمّا تحبّون إلى ما تَكرَهون ، فلا يَلُم لائمٌ إلّا نفسَه ، وقد أعذَر من أنذر . فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم ، فناشَدوهم اللّهَ والإسلامَ إلّا دلُّوهم على مَن يروْن أنه يريد أن يهيج فتنةً ، أو يفارِق جماعةً ؛ وجاء صَعْصَعة بن صُوحان فقام في عبد القيس .

قال هشام : قال أبو مخنف : فحدّثني الأسَود بن قيس العبديّ ، عن مرّة بن النعمان ، قال : قام فينا صَعْصَعة بن صُوحان وقد والله جاءه من الخبر بمنزل التّيميّ وأصحابه في دار سليم بن محدوج ، ولكنه كَرِه على فِراقه إيّاهم وبغضِه لرأيهم ، أن يؤخذوا في عشيرته ، وكره مَساءة أهل بيت من قومه ، فقال: قَوْلاً حسناً ، ونحن يومئذ كثيرٌ أشرافنا ، حسنٌ عددُنا ، قال : فقام فينا بعد ما صلَّىٰ العصر ، فقال: يا معشرَ عبادالله ، إنّ الله ـ وله الحمد كثيراً ـ لّما قسم الفضلَ بين المسلمين خصّكم منه بأحسن القِسْم ، فأجبْتم إلى دين الله الذي اختاره الله لنفسه ، وارتضاه لملائكته ورُسله ، ثم أقمتم عليه حتى قبض الله رسولَه ﷺ ، ثم اختلف الناس بعدَه فثبتت طائفة ، وارتدّت طائفة ، وأدهنَتْ طائفة ، وتربّصت طائفة ، فلزمْتم دينَ الله إيماناً به وبرسوله ، وقاتلتم المرتدّين حتى قام الدّين ، وأهلَك الله الظالمين ، فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء ، وعلى كل حال ، حتى اختلفتْ الأمّة بينها ، فقالت طائفة : نريد طلحةَ والزبير وعائشة ، وقالت طائفة : نريد أهلَ المغرب ، وقالت طائفة : نريد عبدالله بن وهب الراسبي ، راسب الأزد ، وقلتم أنتم: لا نريد إلا أهل البيت الذين ابتدأنا الله من قِبَلهم بالكرامة ، تسديداً من الله لكم وتوفيقاً ، فلم تزالوا على الحق لازمين له ، آخِذين به ، حتى أهلك الله بكم وبمن كان على مِثل هداكم ورأيكم الناكِثِين يومَ الجمل ، والمارِقِين يومَ النّهر ـ وسكت

عن ذكر أهل الشأم ، لأن السلطان كان حينئذٍ سلطانهم ـ ولا قومَ أعدَى لله ولكم ولأهل بيت نبيِّكم ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة ، الذين فارَقوا إمامَنا ، واستحلُّوا دماءَنا ، وشهدوا علينا بالكُفْر ؛ فإياكم أن تُؤووهم في دُوركم ، أو تكتموا عليهم ، فإنه ليس ينبغي لحيّ من أحياء العرب أن يكون أعدَى لهذه المارقة منكم ، وقد والله ذُكِر لي أنّ بعضهم في جانب من الحي ، وأنا باحثٌ عن ذلك وسائل ، فإن كان حُكيَ لي ذلك حقًّا تقرّبت إلى الله تعالى بدمائهم ، فإنّ دماءهم حلال . ثم قال : يا معشرَ عبدِ القيس ، إنّ وُلاتنا هؤلاء هم أعرَف شيء بكم وبرأيكم ، فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً ، فإنهم أسرَع شيء إليكم وإلى أمثالكم . ثم تنحّى فجلس ، فكلّ قومه قال : لَعنَهم الله! وقال: برىء الله منهم ، فلا والله فلا نُؤْويهم، ولئن عَلِمنا بمكانهم لنطعنّك عليهم ؛ غير سُليم بن محدوج ، فإنه لم يقل شيئاً ، فرجع إلى قومه كئيباً واجماً ، يكرَه أن يخرجَ أصحابه من منزله فَيلُومُوه ، وقد كانت بينهم مصاهَرة ، وكان لهم ثقة ، ويكره أن يُطلَبوا في داره فَيَهلِكوا وَيَهلِك . وجاء فدخل رحلَه ، وأقبل أصحابُ المستورد يأتونه ، فليس منهم رجلٌ إلاّ يخبره بما قام به المغيرة بن شُعبة في الناس وبما جاءهم رؤساؤهم ، وقاموا فيهم ، وقالوا له : اخرُج بنا ، فوالله ما نأمن أن نؤخذ في عشائرنا . قال: فقال لهم: أما ترَوْن رأسَ عبد القيس قام فيهم كما قامت رؤساءُ العشائر في عشائرهم؟ قالوا: بلى والله نرى. قال: فإنّ صاحب منزلي لم يذكر لي شيئاً ؛ قالوا : نرى والله أنه استحيا منك ، فدعاه فأتاه ، فقال: يابن محدوج ؛ إنه قد بلغني أن رؤساء العشائر قاموا إليهم ، وتقدّموا إليهم فيّ وفي أصحابي، فهل قام فيكم أحدٌ يَذكر لكم شيئاً من ذلك ؟ قال: فقال : نعم ، قد قام فينا صعصعة ابن صُوحان ، فتقدّم إلينا في ألاّ نؤوِيَ أحداً من طِلْبتهم ، وقالوا أقاويلَ كثيرةً كرهتُ أن أذكرَها لكم فتحسَبوا أنه ثَقُل عليَّ شيء من أمركم ؛ فقال له المستورد : قد أكرمْتَ المثْوَى ، وأحسنت الفِعل ، ونحن إن شاء الله مُرتحِلون عنك ؛ ثم قال: أمَا والله لو أرادوك في رَحْلي ما وَصلوا إليك ولا إلى أحد من أصحابك حتى أموتَ دونَكم ، قال : أعاذك الله من ذلك !

وبلغ الذين في محبس المغيرة ما أجمع عليه أهلُ المِصر من الرأي في نفي من كان بينهم من الخوارج وأخذِهم ، فقال معاذ بن جُوَين بن حصين في ذلك :

ألا أيُّها الشارُون قد حان لامرىءٍ ... شَرَى نفسَه لله أن يترَحَّلا
أقمتمْ بدار الخاطِئين جَهالةً ... وكلُّ امرىءٍ منكم يُصادُ لِيُقْتَلا
فشُدُّوا على القومِ العُداةِ فإنَّما ... أقامَتْكُمُ للذبْح رأياً مُضَلَّلا
ألا فاقصِدُوا يا قومِ للغايةِ التي ... إذا ذُكِرَتْ كانت أبَرَّ وَأَعْدَلا
فياليتني فيكم على ظهر سابحٍ ... شديدِ القُصَيْرَى دارِعاً غيرَ أعْزَلا
وياليتني فيكم أعادي عدوَّكمْ ... فَيسقيَني كأْسَ المَنِيَّة أوّلا
يعزّ عليَّ أن تُخافوا وتُطْرَدُوا ... ولما أُجَرِّدْ في المُحِلِّين مُنْصُلا
ولما يُفرِّقْ جَمْعَهم كلُّ ماجِدٍ ... إذا قلتَ قد وَلَّى وَأَدْبَرَ أَقْبَلا
مُشِيحاً بَنَصْلِ السيفِ في حَمَس الوَغَى ... يرى الصبْرَ في بعض المواطِنِ أمثَلا
وعزَّ عليّ أن تُضاموا وتُنْقَصوا ... وأَصْبَحَ ذا بثٍّ أسيراً مُكَبَّلا

ولــو أنني فيكـم وقــد قصــدوا لـكمْ أثَــرْتُ إذاً بين الـفــريقـيْنِ قَسْــطَلا
فيــا رُبَّ جَمْــعٍ قــد فَللتُ وغــارةٍ شَهِــدْتُ وقِـرْنٍ قــد تـركْتُ مُجَــدَّلا

فبعث المستورِد إلى أصحابه فقال لهم : اخرُجوا من هذه القبيلة لا يُصِب امرأ مسلماً في سببنا بغير علم معرّةٌ . وكان فيهم بعضُ من يرى رأيهم ، فاتّعدوا سوراً ، فخرجوا إليها متقطعين من أربعة وخمسة وعشرة ، فتتامّوا بها ثلثمائة رجل ، ثم ساروا إلى الصَّراة ، فباتوا بها ليلةً .

ثم إنّ المغيرة بن شُعبة أخبِر خبرَهم ، فدعا رؤساء الناس ، فقال : إنّ هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الحين وسوءُ الرأي ، فمن تَرَوْن أبعثُ إليهم؟ قال: فقام إليه عديّ بن حاتم ، فقال : كلُّنا لهم عدوّ ، ولرأيهم مسفِّه ، وبطاعتك مستمسِك ، فأيُّنا شئت سار إليهم .

فقام معقل بن قيس ، فقال : إنك لا تبعث إليهم أحداً ممن ترى حولَك من أشراف المصر إلى وجدتَه سامعاً مطيعاً ، ولهم مفارقاً ، ولهلاكهم محبًّا ، ولا أرى أصلَحَك الله أن تَبعَثَ إليهم أحداً من الناس أعدَى لهم ولا أشدّ عليهم منّي ، فابعثْني إليهم فإني أكفيكَهم بإذن الله ؛ فقال : اخرج على اسم الله ؛ فجهّز معه ثلاثة آلاف رجل .

وقال المغيرة لقَبيصة بن الدمُّون : الصق لي بشيعة عليٍّ ، فأخرجهم مع مَعقِل بن قيس ، فإنه كان من رؤوس أصحـابه ، فـإذا بعثت بشيعته الـذين كانـوا يعرَفـون فاجتمعـوا جميعـاً ، استـأنس بعضهُم ببعض وتناصَحوا ، وهم أشدّ استحلالاً لدماءِ هذه المارِقة ، وأجرأ عليهم من غيرهم ، وقد قاتلوا قبلَ هذه المرّة .

قال أبو مخنف : فحدّثني الأسود بن قيس ، عن مرّة بن منقِذ بن النعمان ، قال : كنتُ أنا فيمن نُدِب معه يومئذٍ ؛ قال : لقد كان صعصعة بن صُوحان قامَ بعد معقِل بن قيس وقال: ابعثْني إليهم أيّها الأمير ، فأنا والله لدمائهم مستحلّ ، وبحَملِها مستقِلّ ؛ فقال : اجلس ؛ فإنما أنت خطيب ، فكان أحفَظَه ذلك ، وإنما قال ذلك لأنه بلغه أنّه يعيب عثمانَ بنَ عفّان رضي الله عنه ، ويُكثِر ذكرَ علي ويفضّله ، وقد كان دعاه ، فقال : إيّاك أن يبلغني عنك أنك تعيب عثمانَ عند أحد من الناس، وإيّاك أن يَبلغني عنك أنك تُظهِر شيئاً من فضل عليٍّ علانيةً ، فإنك لست بذاكر من فضل عليٍّ شيئاً أجهَلُه ، بل أنا أعلَم بذلك، ولكن هذا السلطان قد ظهر ، وقد أخذْنا بإظهار عيبه للناس ، فنحن نَدع كثيراً مما أمِرنا به ، ونذكر الشيءَ الذي لا نجد منه بدًّا ، ندفع به هؤلاء القومَ عن أنفسنا تقيّة ، فإن كنتَ ذاكراً فضلَه فاذكره بينَك وبين أصحابك وفي منازِلكم سرًّا ، وأما علانيةً في المسجد فإنّ هذا لا يحتمله الخليفةُ لنا ، ولا يعذرنا به ، فكان يقول له : نعم أفعل ، ثم يَبلُغه أنه قد عاد إلى ما ناه عنه ، فلما قام إليه وقال له : ابعثْني إليهم ، وجد المغيرة قد حَقَد عليه خلافه إياه ، فقال: اجلس فإنما أنت خطيب ، فأحفَظَه ، فقال له : أوَما أنا إلاّ خطيب فقط ! أجل والله ، إنّي للَخطيب الصّليب الرئيس ، أما والله لو شهدتَني تحت راية عبد القَيْس يومَ الجمل حيث اختلفت القنا ، فشؤون تُفْرَى ، وهامةٌ تُختلَى ، لعلمتَ أني أنا الليث الهِزَبْر ؛ فقال : حَسْبك الآن ، لعمري لقد أوتيتَ لساناً فصيحاً ، ولم يَلبَث قبيصة بن الدمُّون أن أخرج الجيشَ مع معقل ، وهم ثلاثة آلاف نُقاوة الشيعة وفُرسانهم .

قال أبو مخنف : فحدّثني النّضر بن صالح ، عن سالم بن ربيعة ، قال : إني جالس عند المغيرة بن شُعْبة حين أتاه معقل بن قيس يسلِّم عليه ويودّعه ، فقال له المغيرة : يا معقِل بن قيس ، إنّي قد بعثت معك فُرسانَ

أهلِ المصْر ، أمرت بهم فانْتخبوا انتخاباً ، فسرْ إلى هذه العصابة المارقة الذين فارَقوا جماعتَنا ، وشهدوا عليها بالكُفْر ، فادعهم إلى التَّوْبة ، وإلى الدّخول في الجَماعة ، فإن فعلوا فاقبل منهم ، واكفُفْ عنهم ، وإن هم لم يفعلوا فناجِزْهم ، واستعِن بالله عليهم .

فقال معقل بن قيس : سندعُوهم ونعذِر، وايمُ الله ما أرَى أن يقبلوا ، ولئن لم يقبلوا الحقّ لا نَقبل منهم الباطل، هل بلغَك - أصلَحك الله - أين منزل القوم؟ قال : نعم ، كتب إليَّ سماك بن عُبَيد العبسي - وكان عاملاً له على المدائن - يُخبِرني أنهم ارتحلوا منَ الصَّراة ، فأقبلوا حتى نزلوا بَهُرَسِير ، وأنهم أرادوا أن يَعْبروا إلى المدينة العتيقة التي بها منازل كسرى وأبيَض المدائن ، فمنعهم سِماك أن يجوزوا ، فنزلوا بمدينة بَهُرَسِير مقيمين ، فاخرج إليهم ، وانكمِش في آثارهم حتى تَلحَقَهم ، ولا تَدَعهم والإقامةَ في بلد ينتهي إليهم فيه أكثر من الساعة التي تدعوهم فيها ، فإن قبلوا وإلاّ فناهِضْهم ، فإنهم لن يقيموا ببلد يومين إلاّ أفسدوا كلّ من خالَطَهم . فخرج من يومه فبات بسوار ، فأمر المغيرة مولاه ورّاداً ، فخرج إلى الناس في مسجد الجماعة ، فقال : أيّها الناس ، إنّ معقل بن قيس قد سار إلى هذه المارقة ، وقد بات الليلةَ بسورا ، فلا يتخلّفنّ عنه أحد من أصحابه . ألا وإنّ الأمير يَخرج على كلّ رجل من المسلمين منهم ، ويَعزِم عليهم أن يبيتوا بالكوفة ، ألا وأيُّما رجل من هذا البعث وَجَدناه بعد يَومِنا بالكوفة فقد أحلّ بنفسه .

قال أبو مخنف : وحدّثني عبدالرحمن بن جندب ، عن عبدالله بن عُقْبة الغَنَويّ ، قال : كنت فيمن خرج مع المستورِد بن عُلّفة ، وكنت أحدثَ رجلٍ فيهم . قال : فخرجنا حتى أتينا الصَّراة ، فأقمنا بها حتى تتامّت جماعتُنا ، ثم خرجْنا حتى انتهينا إلى بَهُرسير ، فدخلناها ونذرِ بنا سماك بن عبيد العبسي، وكان في المدينة العتيقة ، فلما ذهبنا لنعبر الجسرَ إليهم قاتلْنا عليه ، ثم قطعه علينا ، فأقمنا ببَهُرسير . قال : فدعاني المستورِد بن عُلّفة ، فقال : أتكتب يابن أخي ؟ قلت : نعم ، فدعا لي برَقٍّ ودَواة ، وقال : اكتب : مِن عبدالله المستورِد أميرِ المؤمنين إلى سماك بن عبيد ، أمّا بعد ، فقد نقِمْنا على قومنا الجَوْر في الأحكام ، وتعطيلَ الحدود ، والاستئثارَ بالفيء ، وإنا ندعوك إلى كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيّه ﷺ ، وولاية أبي بكر وعمرَ رضوان الله عليهما ، والبراءة من عثمانَ وعلي ، لإحداثهما في الدّين ، وتركهما حكمَ الكتاب ، فإنْ تَقبَل فقد أدركت رُشْدَك ، وإلاّ تَقبَل فقد بالغنا في الإعذار إليك ، وقد آذنّاك بحرب ، فنَبَذْنا إليك على سواء ، إنّ الله لا يحبّ الخائنين . قال : فقال المستورِد : انطلق إلى سِماك بهذا الكتاب فادفعْه إليه ، واحفظ ما يقول لك ، والقَني .

قال : وكنت فتىً حَدَثا حين أدركتَ ، لم أجرّب الأمور ، ولا علمَ لي بكثير منها ، فقلت : أصلحك الله ! لو أمرتني أن أستعرضَ دِجلة فألقِيَ نفسي فيها ما عصيتُك ، ولكن تأمن علي سماكاً أن يتعلق بي ، فيَحبِسني عنك ، فإذا أنا قد فاتني ما أترجّاه من الجهاد! فتبسّم وقال : يابن أخي ، إنما أنت رسولٌ ، والرسول لا يُعرَض له ، ولو خشيتُ ذلك عليك لم أبعثْك ، وما أنت على نفسك بأشفَق مني عليك . قال : فخرجتُ حتى عبرتُ إليهم في مَعْبَر ، فأتيت سِماك بن عبيد ، وإذا الناس حولَه كثير . قال : فلما أقبلتُ نحوَهم أبَدُّوني أبصارَهم ، فلما دنوتُ منهم ابتدرني نحوٌ من عشرة ، وظننتُ والله أنّ القومَ يريدون أخذي ، وأنّ الأمرَ عندهم ليس كما ذكر لي صاحبي ، فانتضَيْت سَيفي ، وقلتُ : كلاّ ، والذي نفسي بيده ، لا تَصِلون إليَّ حتى أعذرِ إلى الله فيكم ، قالوا

لي: يا عبدَ الله ، من أنت ؟ قلت : أنا رسولُ أميرِ المؤمنين المستورد بن عُلّفة ، قالوا : فلِمَ انتضيتَ سيفَك؟ قلت: لابتداركم إليَّ ، فخفت أن توثِقوني وتَغدُروا بي. قالوا: فأنت آمِن ، وإنما أتيناك لنقوم إلى جَنْبك ، ونُمسِكَ بقائم سيفك ، وننظرَ ما جئت له ، وما تسأل ؛ قال: فقلت لهم : ألست آمِناً حتى تردّوني إلى أصحابي؟ قالوا: بلى، فشِمْتُ سيفي ، ثم أتيت حتى قمت على رأس سماك بن عُبَيْد وأصحابُه قد انتشبوا بي، فمنهم مُمسِك بقائم سيفي ، ومنهم ممسكٌ بعَضُدي ، فدفعتُ إليه كتابَ صاحبي ، فلما قرأه رفَع رأسه إليَّ ، فقال : ما كان المستورِد عندي خليقاً لِما كنت أرَى من إخباته وتَواضُعه أن يخرج على المسلمين بسَيْفه ، يَعْرِض على المستورِد البراءة من علي وعثمان، ويدعوني إلى ولايته! فبئسَ واللّهِ الشيخ أنا إذاً! قال: ثم نظر إليّ فقال: يا بُنَيّ ، اذهبْ إلى صاحبك فقل له: اتّق اللّهَ وارجع عن رأيك ، وادخلُ في جماعةِ المسلمين ، فإن أردتَ أن أكتبَ لك في طلب الأمان إلى المغيرة فعلت ، فإنك ستجده سريعاً إلى الإصلاح ، محبًّا للعافية : قال : قلت له ، وإنّ لي فيهم يومئذٍ بصيرة ، هيهات! إنما طلبْنا بهذا الأمر الذي أخافنا فيكم في عاجـل الدنيـا الأمن عند الله يـوم القيامة ؛ فقال لي : بؤساً لك ! كيف أرحمُك ! ثم قال لأصحابه : إنهم خَلَوْا بهذا . ثم جعلوا يقرؤون عليه القرآن ويتخضّعون ويتباكون ، فظنّ بهذا أنهم على شيء من الحقّ ، إن هم إلّا كالأنعام ، بل هم أضلّ سبيلاً ، والله ما رأيت قوماً كانوا أظهرَ ضلالة ، ولا أبينَ شؤماً ، من هؤلاء الذين ترَون!.

قلت : يا هذا إنني لَمْ آتِك لأشاتِمك ولا أسمع حديثك وحديثَ أصحابك ، حدِّثني ، أنت تجيبني إلى ما في هذا الكتاب أم لا تفعل فارجع إلى صاحبي ؟ فنظر إليّ ثم قال لأصحابه : ألا تَعجَبون إلى هذا الصبي ! والله إنّي لأراني أكبر من أبيه ، وهو يقول لي : أتجيبني إلى ما في هذا الكتاب ! انطلق يا بُنيَّ إلى صاحبك ، إنما تَندَم لو قد اكتنفتْكم الخيلُ ، وأشرعت في صدوركم الرِّماح ، هناك تَمنَّى لو كنتَ في بيت أمِّك ! قال: فانصرفتُ من عنده فعبرتُ إلى أصحابي، فلما دنوتُ من صاحبي قال: ما ردّ عليك؟ قلت: ما ردّ خيراً؛ قلت له: كذا وقال لي: كذا، فقصصتُ عليه القصّة؛ قال: فقال المستورِد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

قال: فلبثنا بمكاننا ذاك يومين أو ثلاثة أيام ، ثم استبان لنا مسير معقل بن قيس إلينا . قال: فجمَعَنا المستورِد ، فحَمِد الله وأثنَى عليه ، ثم قال : أمّا بعدُ ، فإن هذا الخَرِق معقل بن قيس قد وجّه إليكم وهو من السَّبَئيَّة المفترين الكاذبين ، وهو لله ولكم عدوّ ، فأشيروا عليَّ برأيكم . قال: فقال له بعضنا : والله ما خرجْنا نريد إلّا الله ، وجهاد مَن عادى الله ، وقد جاءونا فأين نذهب عنهم ! بل نقيم حتى يَحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين . وقالت طائفة أخرى: بل نَعتزِل ونَتنحَّى، ندعو الناسَ ونحتجّ عليهم بالدعاء .

فقال: يا معشر المسلمين ، إني والله ما خرجتُ ألتمس الدنيا ولا ذكرَها ولا فخرَها ولا البقاءَ، وما أحبّ أنها لي بحذافيرها، وأضعاف ما يُتنافَس فيه منها بقبالِ نعلي! وما خرجتُ إلّا التماسَ الشهادة ، وأن يهديَني الله إلى الكرامة بهَوان بعض أهلِ الضّلالة ، وإني قد نظرت فيما استشرتُكم فيه فرأيت ألّا أقيمَ لهم حتى يُقدِموا عَليّ وهم جامّون متوافِرون ، ولكنْ رأيت أن أسيرَ حتى أمعِن ، فإنهم إذا بلغهم ذلك خرجوا في طَلَبنا ، فتقطّعوا

(١) سورة البقرة: ٦.

وتبدّدوا ، فعَلَى تلك الحال ينبغي لنا قِتالهم ، فاخرجوا بنا على اسم الله عزّ وجلّ .

قال : فخرجنا فمضَينا على شاطىء دِجْلَة حتى انتهينا إلى جَرْجَرايا ، فعبَرْنا دِجْلة ، فمضينا كما نحن في أرض جُوخَى حتى بلغنا المَذار ، فأقمنا فيها ، وبلغ عبدالله بن عامر مكاننا الذي كنا فيه ، فسأل عن المغيرة بن شعبة ، كيف صنع في الجيش الذي بعث إلى الخوارج؟ وكم عِدّتهم؟ فأخبر بعدِتّهم ، وقيل له : إنّ المغيرة نظر إلى رجل شريف رئيس قد كان قاتَلَ الخوارجَ مع علي عليه السلام ، وكان من أصحابه ، فبَعَثَه وبعث معه شيعةَ عليٍّ لعداوتهم لهم ، فقال : أصاب الرأيَ ، فبعث إلى شريك بن الأعور الحارثي ـ وكان يَرَى رأيَ عليٍّ عليه السلام ـ فقال له : اخرج إلى هذه المارِقة فانتخِب ثلاثة آلاف رجل من الناس ، ثم أتْبعهم حتى تُخرجَهم من أرض البَصْرة أو تقتلهم . وقال له بينه وبينه : اخرج إلى أعداء الله بمن يستحلّ قتالَهم من أهل البصرة ، فظَنّ شريك به إنما يعني شيعةَ علي عليه السلام ، ولكنه يكره أن يسمِّيَهم ، فانتخب الناس ، وألَحّ على فُرسان ربيعة الذين كان رأيهم في الشيعة ، وكان تجيبه العظماء منهم . ثمّ إنه خرج فيهم مقبلاً إلى المستورِد بن عُلّفة بالمذار .

قال أبو مِخْنف : وحدّثني حُصيرة بن عبدالله بن الحارث ، عن أبيه عبدالله بن الحارث ، قال : كنت في الذين خرجوا مع معقِل بن قيس ، فأقبلتُ معه ، فوالله ما فارقتُه ساعةً من نهار منذ خرجتُ ، فكان أوّل منزل نزلْناه سُوراً .

قال : فمكثْنا يوماً حتى اجتمع إليه حُلُّ أصحابه ، ثمّ خرجنا مسرِعين مبادِرين لعدوّنا أن يفوتَنا ، فبعثنا طليعةً ، فارتحلنا فنزلنا كُوثَى ، فأقمْنا بها يوماً حتى لحق بنا مَنْ تخلَّف ، ثم أدلَج بنا من كُوثَى ، وقد مَضَى من الليل هزيع ، فأقبلْنا حتى دنوْنا من المدائن ، فاستقبَلَنا الناسُ فأخبَرونا أنهم قد ارتحلوا ، فشقّ علينا واللّهِ ذلك ، وأيقَنّا بالعَناء وطول ِ الطَّلَب .

قال : وجاء معقلُ بنُ قيس حتى نزل باب مدينة بَهُرَسير ، ولم يدخلْها ، فخرج إليه سماكُ بن عبيد فسلَّم عليه ، وأمر غلمانَه ومواليه فأتَوْه بالجَزَر والشعير والقَتّ ، فجاؤوه من ذلك بكلّ ما كفاه وكفى الجُنْد الذين كانوا معه .

ثم إن معقل بن قيس بعد أن أقام بالمدائن ثلاثاً جَمَعَ أصحابَه فقال : إن هؤلاء المارقة الضُّلّال إنما خرجوا فذهبوا على وجوههم إرادةَ أن تتعجّلوا في آثارهم ، فتقطّعوا وتبدّدوا ، ولا تلحقوا بهم إلاّ وقد تَعِبتم ونَصِبْتم ، وأنه ليس شيء يدخل عليكم من ذلك إلاّ وقد يدخل عليهم مِثله ، فخرج بنا مِن المدائن ، فقدم بين يديه أبو الروّاغ الشاكريّ في ثلاثمائة فارس ، فأتبع آثارَهم ، فخرج معقل في أثره ، فأخذ أبو الروّاغ يسأل عنهم ، ويَركب الوجه الذي أخذوا فيه ، حتى عَبَروا جَرْجـرايا في آثـارهم ، ثم سلك الوجـه الذي أخـذوا فيه ، فاتّبعهم ، فلم يزل ذلك دأبه حتى لحقهم بالمذار مقيمين ، فلما دنا منهم استشار أصحابه في لقائهم وقِتالهم قبل قدوم ِ معقل عليه ، فقال له بعضهم : أقدم بنا عليهم فلنقاتلْهم ، وقال بعضهم : والله ما نرى أن تَعجَل إلى قتالهم حتى يأتِيَنا أميرُنا ، ونلقاهم بجماعتِنا .

قال أبو مخنف : فحدّثني تليد بن زيد بن راشد الفائشيّ أنّ أباه كان معه يومئذ . قـال : فقال لنـا أبو الروّاغ : إنّ معقل بن قيس حين سرّحني أمامَه أمرني أن أتبع آثارَهم ، فإذا لحقتُهم لم أَعْجَل إلى قتالهم حتى يأتيَني .

قال : فقال له جميع أصحابه : فالرأي الآن بيِّنٌ ، تنحَّ بنا فلنكن قريباً منهم حتى يقدم علينا صاحبُنا ، فتنحّينا ـ وذلك عند المساء ـ قال : فبتنا ليلتَنا كلها متحارسين حتى أصبحنا ، فارتفع الضُّحَى ، وخرجوا علينا ، قال : فخرجنا إليهم وعِدّتهم ثلثمائة ونحن ثلثمائة ، فلما اقتربوا شَدّوا علينا ، فلا والله ما ثبت لهم منا إنسان ؛ قال : فانهزمنا ساعة ، ثم إن أبا الرّواغ صاح بنا وقال : يا فُرسان السوء ، قبّحكم الله سائر اليوم! الكرّة الكرّة! قال : فحَمَل وحملْنا معه ، حتى إذا دنوْنا من القوم كرّبنا ، فانصرفنا وكرّوا علينا ، وكَشَفونا طويلاً ، ونحن على خيل مُعَلمة جيادٍ ، ولم يُصَب منا أحد ، وقد كانت جِراحات يسيرة ، فقال لنا أبو الرّواغ : ثَكِلَتْكُم أمهاتكم! انصرِفوا بنا فلنكرّ قريباً منهم ، لا نزايلهم حتى يقدَم علينا أميرُنا ، فما أقبح بنا أن نرجع إلى الجيش ، وقد انهزمنا من عدوّنا ولم نصبر لهم حتى يشتد القتال وتكرّ القتلى . قال : فقال رجل منا يجيبه : إنّ الله لا يستحيي من الحقّ ، قد والله هزمونا ، قال أبو الروّاغ : لا أكثر الله فينا ضرَبك ! إنّا ما لم ندع المعركةَ فلم نهزَم ، وإنا متى عطفنا عليهم وكنا قريباً منهم فنحن على حال حسنة حتى يقدم علينا الجيش ، ولم نرجع عن وَجْهنا ، إنه والله لو كان يقال : انهزم أبو حمران حُمَيِّر بن بجيْر الهمداني ، ما باليت ، إنما يقال : انهزم أبو الروّاغ ؛ فقفوا قريباً ، فإن أتَوْكم فعجَزْتم عن قِتالِهم فانحازوا ، فإن حملوا عليكم فعجزْتم عن قتالهم فتأخّروا وانحازوا إلى حامِيَة ، فإذا رجعوا عنكم فاعطِفوا عليهم ، وكونوا قريباً منهم ، فإنّ الجيش آتيكم إلى ساعة . قال : فأخذت الخوارجُ كلّما حملتْ عليهم انحازوا وهم كانوا حامية ، وإذا أخذوا في الكرّة عليهم فتفرّق جماعتُهم قرب أبو الرّواغ وأصحابه على خيلهم في آثارهم ، فلما رأوا أنهم لا يفارقونهم ، وقد طاردوهم هكذا من ارتفاع الضحى إلى الأولى . فلما حضَرت صلاةُ الظهر نزل المستورِد للصّلاة ، واعتزل أبو الرّواغ وأصحابه على رأس مِيل منهم أو ميلين ، ونزل أصحابُه فصلَّوْا الظهر ، وأقاموا رجلين رَبيئةً ، وأقاموا مكانَهم حتى صلَّوا العصر . ثم إنّ فتىً جاءهم بكتاب معقِل بن قيس إلى أبي الرّواغ ، وكان أهل القرى وعابرو السبيل يمرّون عليهم ويرونهم يقتتلون ، فمن مَضَى منهم على الطريق نحو الوَجْه الذي يأتي من قِبله مَعقل استقبل معقلاً فأخبَره بالْتِقاء أصحابه والخوارج ، فيقول : كيف رأيتموهم يصنعون؟ فيقولون : رأينا الحَرُوريّة تطرد أصحابَك ، فيقول : أما رأيتم أصحابي يَعطِفون عليهم ويقاتلونهم؟ فيقولون : بلى ، يعطفون عليهم وينهزمون : فقال : إن كان ظني بأبي الروّاغ صادقاً لا يقدم عليكم منهزماً أبداً . ثم وقف عليهم ، فدعا مُحرِز ابن شهاب بن بجير بن سُفْيان بن خالد بن مِنقَر التميمي فقال له : تخلَّف في ضَعَفة الناس ، ثم سِرْ بهم على مَهَل ، حتى تقدم بهم علي ، ثم نادِ في أهل القوّة : ليتعجل كل ذي قوّة معي ، اعجَلوا إلى إخوانكم ، فإنهم قد لاَقَوْا عدوّهم ، وإني لأرجو أن يُهلِكَهم الله قبل أن تصلوا إليهم .

قال : فاستجمَع من أهل القوّة والشجاعة وأهل الخيل الجياد نحو من سبعمائة ، وسار فأسرع ، فلما دنا من أبي الروّاغ قال أبو الروّاغ : هذه غَبَرة الخيل ، تقدَّموا بنا إلى عدوّنا حتى يقدم علينا الجند ، ونحن منهم قريب ، فلا يَرَوْن أننا تنحّينا عنهم ولا هِبْناهم . قال : فاستقدم أبو الرّواغ حتى وقف مقابل المستورِد وأصحابه ، وغشيَهم معقل في أصحابه ، فلما دنا منهم غَرَبت الشمس ، فنزل فصلَّىٰ بأصحابه ، ونزل أبو الرواغ فصلى بأصحابه في جانب آخر ، وصلى الخوارج أيضاً . ثم إن معقل بن قيس أقبل بأصحابه حتى إذا دنا من أبي الرواغ دعاه فأتاه ، فقال له : أحسنت أبا الرواغ ! هكذا الظنّ بك ، الصبر والمحافظة . فقال : أصلحك الله ! إنّ لهم شَدّات منكراتٍ ، فلا تكن أنت تَليها بنفسك ، ولكن قَدّم بين يديك من يقاتلهم ،

وكن أنت مِن وراء الناس رِدءاً لهم ؛ فقال: نِعمَ ما رأيت ! فواللّهِ ما كان إلاّ رَيْثَما قالها حتى شدّوا عليه وعلى أصحابه ، فلما غَشوه انجَفَل عنه عامّةُ أصحابه ، وثَبتَ ونزل ، وقال : الأرضَ الأرضَ يا أهلَ الإسلام ! ونزل معه أبو الروّاغ الشاكري وناسٌ كثيرٌ من الفُرْسان وأهلِ الحفاظ نحو مائتي رجل ، فلما غشيَهم المستورِد وأصحابُه استقبَلوهم بالرّماح والسيوف ، وانجفلتْ خيلُ معقل عنه ساعة ، ثم ناداهم مسكين بن عامر بن أُنَيْف بن شُريح بن عمرو بن عُدُس ـ وكان يومئذٍ من أشجع الناس وأشدِّهم بأساً ـ فقال : يا أهلَ الإسلام ، أين الفِرار ، وقد نَزَل أميركم ! ألا تَستحيُون ! إنّ الفرار مَخزاةٌ وعار ولؤم ، ثمّ كرّ راجعاً ، ورجعتْ معه خيلٌ عظيمة ، فشدّوا عليهم ومِعقل بن قيس يُضارِبهم تحتَ رايته مع ناس نَزَلوا معه من أهلِ الصّبر ، فضَرَبوهم حتى اضطرّوهم إلى البيوت ، ثمّ لم يلبثوا إلاّ قليلاً حتى جاءهم مُحرز بن شهاب فيمن تخلّف من الناس ، فلما أتوهم أنزَلَهم ثمَ صفّ لهم ، وجعل ميمنةً وميسَرة ، فجعل أبا الرّواغ على ميمنته ومحرزَ بن بُجير بن سُفيان على مَيسرته ومسكينَ بن عامر على الخيل ، ثم قال لهم : لا تَبرَحوا مَصافَّكم حتى تصبحوا ، فإذا أصْبَحتم ثُرْنا إليهم فناجَزْناهم ، فوقف الناس مواقفهَم على مَصافِّهم .

قال أبو مخنف : وحدّثني عبدالرحمن بن جندب ، عن عبدالله بن عُقْبة الغَنَويّ ، قال : لما انتهى إلينا معقل بن قيس قال لنا المستورد : لا تَدَعُوا مَعقِلاً حتى يعبِّيَ لكم الخيل والرَّجْل ، شُدّوا عليهم شَدَّةً صادقةً ، لعلّ الله يَصرَعه فيها . قال : فشددنا عليهم شَدّة صادقة ، فانكشفوا فانفضّوا ثم انجفلوا ووثب مَعقل عن فرسِه حين رأى إدبارَ أصحابه عنه ، فرفع رايتَه ، ونزل معه ناس من أصحابه ، فقاتَلوا طويلاً ، فصَبروا لنا ، ثم إنهم تداعَوا علينا ، فعطفوا علينا من كلّ جانب ، فانحَزْنا حتى جعلنا البيوتَ في ظهورنا ، وقد قاتلْناهم طويلاً ، وكانت بيننا جِراحةٌ وقتلٌ يسير .

قال أبو مخنف : حدّثني حصيرة بن عبدالله ، عن أبيه أنّ عُمَير بن أبي أشاءة الأزديّ قُتِل يومئذٍ ، وكان فيمن نزل مع معقِل بن قيس ، وكان رئيساً . قال : وكنتُ أنا فيمن نَزَل معه ، فواللّهِ ما أنسَى قولَ عُمَيْر بن أبي أشاءة ونحن نَقتتِل وهو يضارِبهُم بسيفه قُدْماً :

قـد عَـلِمـتْ أَنّـي إذا مـا أَقْـشَـعُـوا عـنّـيَ والـتـاثَ الـلئـامُ الـوُضَّـعُ
أَحْوَسُ عند الرَّوْعِ نَدْبٌ أَرْوَعُ

وقاتل قتالاً شديداً ما رأيت أحداً قاتَلَ مثلَه ، فَجَرَح رجالاً كثيراً ، وقَتَل وما أدرى أنه قتل ، ما عدا واحداً وقد علمت أنه اعتنقه ، فخرّ على صدره فذبحه ، فما حزّ رأسَه حتى حمل عليه رجلٌ منهم فطَعَنَه بالرمح في ثُغْرة نَحرِه ، فخرّ عن صدره ، وانجَدَل ميّتاً ، وشددنا عليهم ، وحُزْناهم إلى القَرْية ، ثم انصرفْنا إلى معركتِنا ، فأتيتُه وأنا أرجو أن يكون به رَمَق ، فإذا هو قد فَاظ ، فرجعتُ إلى أصحابي فوقفتُ فيهم .

قال أبو مخنف : وحدّثني عبدالرحمن بن جندب ، عن عبدالله بن عقبة الغنوي ، قال : إنا لمتواقِفون أوّلَ الليل إذ أتانا رجل كنا بعثْناه أوّلَ الليل ، وكان بعض من يمرّ الطريق قد أخبَرَنا أنّ جيشاً قد أقبل إلينا من البَصرة ، فلم نَكترِث ، وقُلْنا لرجل من أهل الأرض وجعلْنا له جُعْلاً : اذهب فاعلم هل أتانا من قِبل البصرة جيش؟ فجاء ونحن مواقفو أهلِ الكوفة ، وقال لنا : نعم ، قد جاءكم شريكُ بن الأعور ، وقد استقبلت طائفة على رأس فرسخ عند الأولى ، ولا أرى القومَ إلاّ نازلين بكم الليلة ، أو مُصبِّحيكم غُدْوة . فأسقِط في أيدينا .

وقال المستورد لأصحابه : ماذا ترون؟

قلنا : نرى ما رأيت ، قال : فإني لا أرى أن أقيمَ لهؤلاء جميعاً ، ولكن نرجع إلى الوجه الذي جئنا منه ، فإنّ أهلَ البَصْرة لا يتبعونا إلى أرض الكوفة ، ولا يتبعنا حينئذ إلاّ أهلُ مِصْرنا ، فقلنا له : ولِمَ ذاك؟ فقال : قتال أهل مصرٍ واحد أهوَن علينا من قتال أهلِ المِصْرَين ؛ قالوا : سِرْ بنا حيث أحببتَ ، قال : فانزلوا عن ظهور دوابِّكم فأرِيحوا ساعة ، وأقضِموها ، ثم انظروا ما آمُركم به ؛ قال : فنزلْنا عنها ، فأقضمْنَاها ؛ قال : وبيننا وبينهم حينئذ ساعة قد ارتفعوا عن القرية مخافة أن نبيِّتهم ؛ قال : فلما أرحْناها وأقْضَمناها أمَرَنا فاستوَيْنا على مُتونِها ، ثم قال : ادخُلوا القرية ، ثم اخرجوا من ورائها ، وانطلقوا معكم بعِلْجٍ يأخذ بكم من ورائها ، ثم يعود بكم حتى يَردّكم إلى الطريق الذي منه أقبلْتم ، ودَعُوا هؤلاء مكانَهم ، فإنهم لم يشعُروا بكم عامة الليل ، أو حتى تصبحوا . قال : فدخلْنا القرية وأخذْنا عِلْجاً ، ثمّ خرجْنا به أمامنا ، فقلنا : خذْ بنا من وراء هذا الصَّفّ حتى نعودَ إلى الطريق الذي منه أقبلْنا . ففعل ذلك ، فجاء بنا حتى أقامَنا على الطريق الذي منه أقبَلْنا ، فلزِمناه راجِعين ، ثم أقبلْنا حتى نزلْنا جَرْجَرايا .

قال أبو مخنف : حدّثني حُصَيرة بن عبدالله ، عن أبيه عبدالله بن الحارث ، قال : إنّي أوّل من فَطِن لذَهابهم ؛ قال : فقلت : أصلحك الله ! لقد رابني أمر هذا العدوّ منذ ساعة طويلة ، إنهم كانوا مواقفين نرى سوادَهم ، ثمّ لقد خَفِيَ عليَّ ذلك السوادُ منذ ساعة ، وإني لخائف أن يكونوا زالوا من مكانهم ليَكيدوا الناسَ ؛ فقال : وما تخاف أن يكونَ من كيدهم؟ قلت : أخاف أن يبيّتوا الناسَ ، قال : واللّهِ ما آمَن ذلك ؛ قال : فقلتُ له : فاستعدّ لذلك ، قال : كما أنت حتى أنظر . يا عتّاب ، انطلِق فيمن أحببتَ حتى تدنوَ من القرية فتنظرَ هل ترى منهم أحداً أو تَسمع لهم رِكزا ! وسَلْ أهلَ القرية عنهم .

فخرج في خُمُس الغُزاة يَركض حتى نظر القرية فأخذ لا يرى أحداً يكلّمه ، وصاح بأهل القرية ، فخرج إليه منهم ناسٌ ، فسألهم عنهم ، فقالوا : خرجوا فلا ندري كيف ذَهَبوا ! فرجع إليه عتّاب فأخبره الخبر ، فقال معقِل : لا آمن البَيات ، فأين مُضَر؟ فجاءت مضر فقال : قفوا هاهنا ، وقال : أين ربيعة؟ فجعل ربيعة في وجه وتميماً في وجه وهمدان في وجه ، وبقيّة أهل اليَمَن في وجه آخر ، وكان كلّ ربع من هؤلاء في وجه وظهره مما يلي ظهر الرّبع الآخر ، وجالَ فيهم معقل حتى لم يدَع ربعاً إلاّ وقف عليه ، وقال : أيّها الناس ، لو أتوكم فبَدَوْا بغيركم فقاتلوهم فلا تَبرَحوا أنتم مكانَكم أبداً حتى يأتيَكم أمري ، وليُغْنِ كلّ رجل منكم الوجْه الذي هو فيه ، حتى نُصبحَ فنرى رأيَنا . فمكثوا متحارِسين يخافون بياتَهم حتى أصبحوا ، فلما أصبحوا نزلوا فصلّوا ، وأُتُوا فأخبِروا أنّ القوم قد رجعوا في الطريق الذي أقبلوا منه عودَهم على بدئهم ، وجاء شَريك بن الأعور في جيش من أهل البَصرة حتى نزلوا بمعقل بن قيس فلقيه ، فتساءَلا ساعة ، ثم إنّ معقلا قال لشريك : أنا متّبع آثارَهم حتى ألحقَهم لعلّ الله أن يُهلِكهم ، فإني لا آمن إن قصّرتُ في طلبهم أن يكثروا . فقام شريك فجمع رجالاً من وجوه أصحابه ، فيهم خالد بنُ مَعْدان الطائيّ وَبَيْهَس بن صُهَيب الجَرْمي ، فقال لهم : يا هؤلاء ، هل لكم في خير؟ هل لكم في أن تسيروا مع إخواننا من أهل الكوفة في طلب هذا العدوّ الذي هـو عدوّ لنـا ولهم حتى يستأصلَهم الله ثم نرجع؟ فقال خالد بن مَعْدان وَبَيهس الجَرْمي : لا والله ، لا نفعل ، إنما أقبلْنا نحوهم لننفيَهم عن أرضنا ، ونمنَعَهم من دخولها ، فإنْ كفانا الله مؤونَتهم فإنا منصَرِفون إلى مِصْرنا ، وفي أهل الكُوفة

من يَمنعون بلادَهم من هؤلاء الأكلب ؛ فقال لهم : وَيْحكم! أطِيعوني فيهم ، فإنهم قومُ سُوء ، لكم في قتالِهم أجرٌ وحُظْوة عند السلطان ، فقال له بَيْهس الجَرمي : نحن والله إذاً كما قال أخو بني كنانة :

كَمُـرْضِعَـةٍ أَوْلَادَ أُخْـرَىٰ وضيَّعتْ بَنِيهـا فَلَمْ تَـرْقَـعْ بِـذٰلِـكَ مَـرْقَعَـا

أَما بَلَغَك أنّ الأكراد قد كفروا بجبال فارسَ ! قال: قد بلغني ، قال : فتأمرنا أن ننطلق معك نحمِي بلادَ أهل الكوفة ، ونقاتل عدوّهم ، ونترك بلادَنا ، فقال له :وما الأكراد!إنما يكفيهم طائفة منكم ؛ فقال له : وهذا العدوّ الذي تَندُبنا إليه إنما يكفيه طائفة من أهل الكوفة ، إنهم لَعَمري لو اضطُرّوا إلى نُصْرتنا لكان علينا نُصرَتُهم ، ولكنهم لم يحتاجوا إلينا بعد ، وفي بلادنا فتقٌ مثل الفَتْق الذي في بلادهم ، فليُغنوا ما قِبَلهم ، وعلينا أن نغنيَ ما قِبَلنا ، ولَعَمري لو أنا أطعناك في اتباعهم فاتّبعتَهم كنتَ قد اجترأتَ على أميرك ، وفعلتَ ما كان ينبغي لك أن تطلع فيه رأيه ، ما كان ليحتمِلها لك . فلما رأى ذلك قال لأصحابه : سيروا فارتحِلوا ، وجاء حتى لقي معقلاً ـ وكانا متحابَّيْن على رأيِ الشيعة متوادَّين عليه ـ فقال: أما والله لقد جهَدت بمن معي أن يتبعوني حتى أسير معكم إلى عدوّكم فغلبوني ، فقال له معقل : جزاك الله من أخ خيراً ! إنا لم نحتجْ إلى ذلك ، أما واللّهِ إنّي أرجو أن لو قد جهدوا لا يُفلت منهم مُخبر .

قال أبو مخنف : حدّثني الصَّقْعَب بن زُهير ، عن أبي أمامة عُبيد الله بن جُنادة، عن شريك بن الأعور ، قال: حدّثنا بهذا الحديث شَريك بن الأعور . قال: فلمّا قال : والله إني لأرجو أن لو جَهَدوا لا يُفلت منهم مُخبِر، كرهتُها والله له ، وأشفقتُ عليه ، وحسبت أن يكون شبهَ كلام البَغْي ؛ قال : وايمُ اللّهِ ما كان من أهلِ البَغْي .

قال أبو مخنف : حدّثني حُصَيرة بن عبدالله ، عن أبيه عبدالله بن الحارث الأزديّ ، قال : لما أتانا أنّ المستورِدَ بن عُلّفة وأصحابه قد رجعوا عن طريقهم سُرِرْنا بذلك ، وقلنا : نتبعهم ونستقبلهم بالمدائن ، وإن دنوا من الكُوفة كان أهلَكَ لهم ؛ وَدَعَا معقلُ بن قيس أبا الروَّاغ فقال له : اتّبعه في أصحابك الذين كانوا معك حتى تحبسه عليَّ حتى ألحَقك ؛ فقال له : زدني منهم فإنه أقوى لي عليهم إن هم أرادوا مناجَزتي قبل قدومك، فإنا كنا قد لقِينا منهم بَرْحا، فزاده ثلاثمائة ،فاتّبعهم في ستمائة ، وأقبلوا سِراعاً حتى نزلوا جَرْجَرايا ، وأقبل أبو الرّواغ في اثرهم مسرعاً حتى لحقهم بجَرْجَرايا ، وقد نزلوا ، فنزل بهم عند طلوع الشمس ، فلما نظروا إذا هم بأبي الرّواغ في المقدِّمة ، فقال بعضهم لبعض : إنّ قتالَكم هؤلاء أهونُ من قتال من يأتي بعدَهم .

قال : فخرجوا إلينا ، فأخذوا يُخرُجون لنا العَشَرة فُرسانَ منهم والعشرين فارساً ، فنخرِج لهم مثلهم ، فتطارد الخَيْلان ساعةً يَنتصِف بعضُنا من بعض، فلما رأوا ذلك اجتمعوا فشدّوا علينا شَدّةً واحدة صَدَقوا فيها الحملة .

قال: فصَرَفونا حتى تركْنا لهم العَرْصة . ثم إنّ أبا الروّاغ نادى فيهم ، فقال : يا فُرسان السوء ، يا حُماة السوء، بئس ما قاتلتم القوم! إليَّ إليَّ!

فعالَجَ نحواً من مائةِ فارس، فعطف عليهم ، وهو يقول :

إنَّ الفَتـى كـلّ الفَتى مـن لم يُهَـلْ إذا الجَبَـانُ حـادَ عن وَقْـع الأَسَـلْ

قــد عَـلِمَـتْ أَنِّي إذا الـبــأسُ نــزلْ أَروَعُ يَــومَ الـهَـيْـجِ مِـقــدامٌ بَــطَلْ

ثم عطف عليهم فقاتَلَهم طويلاً ، ثم عطف أصحابُه من كلّ جانب ، فصدَقوهم القتال حتى ردّوهم إلى مكانهم الذي كانوا فيه ، فلما رأى ذلك المستورِد وأصحابه ظنوا أنّ معقلاً إن جاءهم على تفئِة ذلك لم يكن دونَ قتله لهم شيء ؛ فمضى هو وأصحابُه حتى قَطَعوا دجلة ، ووَقَعوا في أرض بَهُرَسير ، وقطع أبو الروّاغ في آثارهم فاتّبعهم ، وجاء معقل بن قيس فاتّبع إِثْرَ أبي الروّاغ ، فقطع في إثـره دِجْلة ، ومضى المستورِد نحوَ المدينة العتيقة ، وبلغ ذلك سِماك بن عُبيد ، فخرج حتى عبر إليها ، ثم خرج بأصحابه وبأهل المَدائن ، فصفّ على بابها ، وأجلس رجالاً رُماةً على السُّور ، فبلغهم ذلك ، فانصرفوا حتى نزلوا سابَاطَ ، وأقبل أبو الرّوّاغ في طلبِ القوم حتى مرّ بسماك بن عبيد بالمدائن، فخبّره بِوَجْههم الذي أخذوا فيه ، فاتبعهم حتى نزل بهم سابَاط .

قال أبو مخنف : حدّثني عبدالرحمن بن جندب، عن عبدالله بن عُقْبة الغَنَويّ ، قال : لّما نزل بنا أبو الرواغ دعا المستورد أصحابه ، فقال: إنّ هؤلاء الذين نزلوا بكم مع أبي الرواغ هم حُرّ أصحاب معقل، ولا والله ما قَدِم إليكم إلا حُماتُه وفُرسانُه ، والله لو أعلم أني إذا بادرت أصحابه هؤلاء إليه أدركته قبل أن يفارِقوه بساعة لبادرتهم إليه ، فليخرج منكم خارج فيسأل عن معقل أين هو؟ وأين بلغ؟ قال: فخرجتُ أنا فاستقبلت عُلُوجاً أقبَلوا من المدائن ، فقلت لهم: ما بلغكم عن معقِل بن قيس؟ قالوا: جاء فَيْج لسماك بن عبيد من قبَله كان سرّحه ليستقبلَ معقلاً فينظر أين انتهى؟ وأين يريد أن ينزل؟ فجاءه فقال: تركته نزل ديلمايا ـ وهي قرية من قرى إسْتان بَهُرَسير إلى جانب دِجْلة، كانت لقُدامة بن العجلان الأزدي ـ قال: له : كم بيننا وبينهم من هذا المكان؟ قالوا: ثلاثة فراسخ ، أو نحو ذلك.

قال: فرجعتُ إلى صاحبي فأخبرتُه الخبر ، فقال لأصحابه : اركبوا ، فَرَكِبوا ، فأقبل حتى انتهى بهم إلى جسر سابَاط ـ وهو جسر نهرِ الملك ، وهو من جانبه الذي يلي الكوفة ـ وأبو الروّاغ وأصحابه مما يلي المدائن ، قال : فجئنا حتى وقفنا على الجسر ، قال: ثم قال لنا: لتنزل طائفةٌ منكم : قال: فنزل منا نحوٌ من خمسين رجلاً ، فقال: اقطَعوا هذا الجسر، فنزَلْنا فقطعناه ، قال : فلما رأوْنا وُقوفاً على الخيل ظنّوا أنا نريد أن نَعبُر إليهم ؛ قال : فصفّوا لنا ، وتعبّوْا ، واشتغلوا بذلك عنا في قَطْعنا الجسر . ثمّ إنا أَخذْنا من أهل ساباط دليلاً فقلنا له: احضُر بين أيدينا حتى ننتهي إلى ديلمايا ، فخرج بين أيدينا يسعى ، وخرجنا تلمع بنا خيلُنا، فكان الخَبَب والوَجيف ، فما كان إلا ساعة حتى أطلَلْنا على معقل وأصحابه وهم يتحمّلون ، فما هو إلاّ أن بَصُر بنا وقد تفرّق أصحابُه عنه ، ومقدّمته ليست عنده ، وأصحابه قد استَقدَم طائفةٌ منهم ، وطائفة تَرَحَل ، وهم غارّون لا يَشعُرون . فلما رآنا نَصَب رايَتَه ، ونزل ونادى : يا عباد الله ، الأرضَ الأرضَ! فنزل معه نحو من مائتي رجل ؛ قال: فأخَذْنا نحمل عليهم فَيَستقبلونا بأطراف الرّماح جُثاةً على الرُّكَب فلا نَقدِر عليهم . فقال لنا المستورد: دَعُوا هؤلاء إذا نزلوا وشُدّوا على خَيْلهم حتى تَحُولوا بينها وبينهم ، فإنكم إن أصبتم خيلَهم فإنهم لكم عن ساعة جُزرٌ ؛ قال : فَشَدَدْنا على خيلهم ، فحُلْنا بينهم وبينها ، وقطعْنا أعنّتها ، وقد كانوا قَرَنوها ، فذهبتْ في كلّ جانب ؛ قال : ثمّ مِلْنا على الناس المترحّلين والمتقـدّمين ، فحَمَلْنـا عليهم حتى فرقنـا بينهم، ثم أقبلْنا إلى معقل بن قيس وأصحابه جُثاة على الرُّكب على حالهم التي كانوا عليها ، فحَمَلْنا عليهم ، فلم يتحَلْحَلُوا ، ثم حَمَلْنا عليهم أخرى ، ففعلوا مِثلَها، فقال لنا المستورد : نازِلوهم ، لِينزِل إليهم نصفُكم ، فنزل نصفُنا ، وبقي نصفُنا معه على الخيل ، وكنتُ في أصحاب الخيل . قال: فلما نزل إليهم رجّالتنا قاتلتْهم ، وأخذنا نَحمِل

عليهم بالخيل ، وطمِعنا واللّهِ فيهم . قال: فوالله إنا لَنقُاتلهم ونحن نُرَى أن قد عَلَوناهم إذْ طلعتْ علينا مقدّمة أصحاب أبي الرّوّاغ ، وهم حُرّ أصحابه وفُرسانُهم ، فلما دَنَوا منّا حملوا علينا ، فعند ذلك نزلنا بأجمعنا فقاتلناهم حتى أصيب صاحبنا وصاحبُهم . قال: فما علمتُه نجا منهم يومئذ أحدٌ غيري . قال : وإني أحدَثُهم رَجُلاً فيما أرَى .

قال أبو مخنف: حدّثني عبدالرحمن بن جندب، عن عبدالله بن عُقْبة الغَنَوي ، قال: وحدّثنا بهذا الحديث مرّتين من الزمن ، مرّة في إمارة مصعب ابن الزبير بباجُمَيْرَا ، ومرّةً ونحن مع عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث بَديْر الجَماجم . قال : فقُتِل والله يومئذٍ بَديْر الجماجم يومَ الهزيمة ، وإنه لمقْبِل عليهم يضاربهم بسيفه وأنا أراه ؛ قال : فقلت له بدير الجماجم : إنك قد حدّثتني بهذا الحديث بباجُمَيرا مع مصعب بن الزبير ، فلم أسألك كيف نجوتَ من بين أصحابك ؟ قال: أحدّثك، والله إنّ صاحبنا لما أصيب قُتِل أصحابُه إلاّ خمسة نفر أو ستة ؛ قال : فشَدَدْنا على جماعة من أصحابه نحو من عشرين رجلاً ، فانكَشَفوا .

قال : وانتهيت إلى فرس واقف عليه سَرْجُه ولجامه ، وما أدري ما قصّة صاحِبه أقُتِل أم نَزل عنه صاحبُه يقاتل وتركه! قال: فأقبلتُ حتى أخذتُ بلجامه ، وأضع رِجلي في الرّكاب وأستوِي عليه . قال : وشدَّ والله أصحابُه عليَّ ، فانتَهوْا إليَّ ، وغمزتُ في جَنْب الفرس، فإذا هو والله أجوَد ما سُخِّر ، ورَكَض منهم ناس في أثَري فلم يعلَقُوا بي، فأقبلتُ أركُض الفرسَ، وذلك عند المساء، فلما علمتُ أني قد فتُّهم وأمنت ، أخذت أسيرُ عليه خَبَباً وتقريباً . ثم إني سرت عليه بذلك من سيره، ولقيت عِلْجاً فقلت له : اسعَ بين يديّ حتى تُخْرِجني الطريق الأعظم ، طريقَ الكوفة ؛ ففعل ، فوالله ما كانت إلاّ ساعـة حتى انتهيت إلى كُوثَى ، فجئت حتى انتهيت إلى مكان من النهر واسع عريض ، فأقحمتُ الفرسَ فيه ، فعبَرْتُه ، ثم أقبلتُ عليه حتى آتى ديرَ كعب ، فنزلتُ فعقلتُ فرسي وأرحتُه وهوَّمت تهويمة ، ثم إني هببت سريعاً، فخُلْت في ظهر الفرس ، ثم سِرتْ في قِطْع من الليل فاتّخذت بقيّة الليل جَمَلاً ، فصلّيت الغداةَ بالمزاحمِيّة على رأس فرسخين من قُبِّين، ثمّ أقبلتُ حتى أدخلَ الكوفة حينَ مَتع الضّحى ، فآتى من ساعتي شريك بن نملة المحاربيّ ، فأخبرته خبري وخبرَ أصحابه ، وسألته أن يَلقى المغيرةَ بن شُعبة فيأخذَ لي منه أماناً ، فقال لي: قد أصبتَ الأمان إن شاء الله ، وقد جئتَ ببشارة ، والله لقد بتّ الليلة وإنّ أمر الناس لَيهمّني .

قال : فخرج شريك بن نملة المحاربي حتى أتى المُغيرة مسرعاً فاستأذَن عليه ، فأذن له ، فقال: إن عندي بُشرَى ، ولي حاجة ، فاقض حاجتي حتّى أبشّرك ببشارتي ، فقال له : قُضِيتْ حاجتُك ، فهاتِ بُشْراك ؛ قال : تؤمِّن عبدَالله بن عُقبة الغَنَوي ، فإنه كان مع القوم ، قال : قد آمنته ، والله لَودِدْت أنك أتيتني بهم كلهم فآمنتهم . قال : فأبشِر ، فإنّ القوم كلهم قد قُتلوا ، كان صاحبي مع القوم ، ولم ينجُ منهم فيما حدّثني غيره . قال : فما فعل معقل بن قيس؟ قال: أصلحك الله! ليس له بأصحابنا عِلم . قال: فما فرغ من منطقة حتى قدم عليه أبو الروّاغ ومسكين بن عامر بن أنيف مبشّرِيْن بالفَتْح ، فأخبروا أن معقل بن قيس والمستورِد بن عُلّفة مَشَى كلّ واحد منهما إلى صاحبه ، بيَدِ المستورِد الرّمح وبيد معقل السيف ، فالتَقَيا ، فأشرَع المستورِد الرّمح في صدرِ معقل حتى خرج السنان من ظهره ، فضربه معقل بالسيف على رأسه حتى خالط السيفُ أمّ الدماغ ، فخرّا مَيّتَيْن .

قال أبو مخنف: حدّثني حُصَيرة بن عبدالله، عن أبيه، قال: لما رأينا المستورد بن عُلّفة وقد نزلنا به ساباط أقبل إلى الجسر فقطعه، كنا نظن أنه يريد أن يَعبُر إلينا. قال: فارتَفَعْنا عن مظلم ساباط إلى الصَّحْراء التي بين المدائن وساباط فتعبّأنا وتهيّأنا، فطال علينا أن نراهم يخرجون إلينا. قال: فقال أبو الروّاغ: إن لهؤلاء لشأناً، ألا رجل يَعلَم لنا عِلمَ هؤلاء؟ فقلت: أنا ووهيب بن أبي أشاءة الأزدي: نحن نَعلَمُ لك عِلمَ ذلك، ونأتيك بخبرهم، فقربنا على فَرَسيْنا إلى الجسر فوجَدْناه مقطوعاً، فظننّا القومَ لم يقطعوه إلّا هيبةً لنا ورُعْباً منا، فرجَعْنا نَركُض سراعاً حتى انتهينا إلى صاحبنا، فأخبرناه بما رأينا، فقال: ما ظنّكم؟ قال: فقلنا: لم يَقطَعوا الجسرَ إلّا لهيبتنا ولِمَا أدخل اللّهُ في قلوبهم من الرّعب منّا. قال: لعمري ما خرج القومُ وهم يريدون الفِرار، ولكنّ القوم قد كادوكم، أتسمعون! والله ما أراهم إلّا قالوا: إنّ معقلاً لم يبعث إليكم أبا الروّاغ إلّا في حرّ أصحابه، فإن استطعتم فاتركوا هؤلاء بمكانهم هذا، وجِدّوا في السير نحو معقل وأصحابه، فإنكم تجدُونهم غارِّين آمِنين إن تأتوهم؛ فقطعوا الجسرَ لكيما يشغلوكم به عن لَحاقكم إياهم حتى يأتوا أميركم على غرّة، النّجاء النّجاء في الطلب! قال: فوقع في أنفسنا أنّ الذي قال لنا كما قال. قال: فصِحْنا بأهل القرية؛ قال: فجاؤوا سراعاً: فقلنا لهم: عجِّلوا عقد الجسر، واستحثَثْناهم فما لَبِثوا أن فرغوا منه، ثم عَبَرْنا عليه، فاتّبعناهم سِراعاً ما نلوِي على شيء، فلزمنا آثارَهم، فوالله ما زلْنا نسأل عنهم، فيقال: هم الآن أمامَكم، لحقتموهم، ما أقربَكم منهم، فوالله ما زلنا في طلبهم حِرْصاً على لَحاقهم حتى كان أوّل من استقبلنا من الناس فلهم وهم منهزمون لا يلوي أحدٌ على أحد. فاستقبلهم أبو الرّواغ، ثم صاح بالناس: إليَّ إليَّ، فأقبَل الناس إليه، فلاذوا به، فقال: ويْلَكم! ما وراءكم؟ فقالوا: لا ندري، لَم يَرُعْنا إلّا والقوم معنا في عسكرنا ونحن متفرّقون، فشدّوا علينا، ففرّقوا بيننا، قال: فما فعل الأمير؟ فقائل يقول: نزل وهو يقاتل؛ وقائل يقول: ما نراه إلّا قُتل؛ فقال لهم: أيّها الناس، ارجِعوا معي، فإنْ نُدرِك أميرَنا حيًّا نقاتل معه، وإنِ نجدْه قد هلك قاتلْناهم، فنحن فُرسانُ أهلِ المصر المنتخَبون لهذا العدوّ، فلا يفسدنّ فيكم رأي أميركم بالمصر، ولا رأي أهل المصْر، وايمُ الله لا ينبغي لكم إن عاينتموه وقد قتلوا معقلاً أن تفارقوهم حتى تُبيروهم أو تباروا، سِيروا على بركة الله. فساروا وسِرْنا، فأخذ لا يستقبل أحداً من الناس إلّا صاح به ورده، ونادى وجوه أصحابه وقال: اضربوا وجوهَ الناس وردّوهم. قال: فأقبلْنا نردّ الناس حتى انتَهيْنا إلى العسكر، فإذا نحن براية معقل بن قيس منصوبة، فإذا معه مائتا رجل أو أكثر فُرسان الناس ووجوههم ليس فيهم إلّا راجل، وإذا هم يقتتلون أشدّ قتال سَمع الناس به، فلما طلعنا عليهم إذا نحن بالخوارج قد كادوا يعلُون أصحابَنا، وإذا أصحابُنا على ذلك صابرون يجالدونهم، فلما رأوْنا كَرّوا ثم شدّوا على الخوارج، فارتفعت الخوارج عنهم غيرَ بعيد، وانتهينا إليهم، فنظر أبو الرواغ إلى معقل فإذا هو مستقدم يذمِّر أصحابه ويحرّضهم، فقال له: أحيٌّ أنت فِداك عميّ وخالي! قال: نعم؛ فنشدّ القوم، فنادى أبو الرّواغ أصحابه: ألا تَرَون أميرَكم حياً، ! شُدّوا على القوم، قال: فَحَمَل وحملْنا على القوم بأجمعنا، قال: فصدَمْنا خيلَهم صدمةً منكَرة، وشدّ عليهم معقل وأصحابه، فنزل المستورِد، وصاح بأصحابه: يا معشر الشُّراة، الأرضَ الأرضَ، فإنها واللّهِ الجنّة! والذي لا إله غيره لمن قتل صادق النيّة في جهاد هؤلاء الظَّلَمة وجِلاجِهم، فتنازَلوا من عند آخرهم، فنزلنا من عند آخرنا، ثم مَضَيْنا إليه منصلتين بالسيوف، فاضطَرَبْنا بها طويلاً من النهار كأشدّ قتال اقتتَله الناس قطّ، غير أن المستورِد نادى معقلاً فقال: يا معقل، ابرُز لي، فخرج إليه معقل، فقلنا له: نَنشُدك أن تَخرُج إلى هذا الكلب الذي قد آيَسه الله من

نفسِه ! قال: لا والله لا يدعوني رجل إلى مبارَزة أبداً فأكونَ أنا النّاكل ؛ فمشى إليه بالسيف ، وخرج الآخَر إليه بالرمح ، فناديناه أنْ الْقه برمح مِثل رمحه ، فأبَى ، وأقبل عليه المستورد فطعنه حتى خرج سنان الرمح من ظهره ، وضربه معقلٌ بالسيف حتى خالط سيفُه أمَّ الدّماغ ، فوقع ميّتاً ، وقتل معقل ، وقال لنا حين برز إليه : إن هلكتُ فأميرُكم عمرو بن محرز بن شهاب السعديّ ثم المِنقَريّ : قال : فلما هلك معقل أخذ الراية عَمرو بن محرز ، وقال عمرو : إن قتِلت فعليكم أبو الرّواغ ، فإن قتِل أبو الرّواغ فأميرُكم مسكين بن عامر بن أنيف ، وإنه يومئذ لفتىً حَدَث ، ثم شَدّ برايته ، وأمر الناس أن يشدّوا عليهم ، فما لبِّثوهم أن قتلوهم .

ومما كان في هذه السنة تولية عبدالله بن عامر عبدَالله بن خازم بن ظَبْيان خُراسان وانصراف قيس بن الهيثم عنه ، وكان السبب في ذلك ـ فيما ذكر أبو مِخْنف عن مقاتل بن حيّان ـ أن ابنَ عامر استبطأ قيس بن الهيثم بالخراج ، فأراد أن يَعزِله ، فقال له ابن خازم : ولّني خُراسانَ فَأكفيكَها وأكفيكَ قيسَ بن الهيثم . فكتب له عهدَه أو همَّ بذلك ، فبلغ قيساً أن ابن عامر وَجَد عليه لاستخفافه به ، وإمساكه عن الهديّة ، وأنه قد ولّى ابن خازم ، فخاف ابن خازم أن يشاغبه ويحاسبه ، فترك خُراسان ، وأقبل فازداد عليه ابن عامر غضباً ، وقال: ضيَّعت الثَّغْر! فضَرَبه وحَبَسَه ، وبعث رجلاً من بني يَشكُرَ على خُراسان .

قال أبو مخنف : بعث ابن عامر أسلم بن زُرْعة الكلابيّ حين عَزَلَ قيسَ بن الهيثم ؛ قال علي بن محمد : أخبَرَنا أبو عبدالرحمن الثُّقَفي ، عن أشياخه ، أنّ ابن عامر استعمل قيسَ بن الهيثم على خُراسان أيام معاوية ، فقال له ابن خازم : إنك وجّهت إلى خُراسانَ رجلاً ضعيفاً ، وإني أخاف إنْ لقيَ حرباً أن ينهزم بالناس ، فتَهْلك خُراسان ، وَتَفْتَضِح أخوالك . قال ابن عامر: فما الرأي؟ قال: تكتب لي عهداً: إن هو انصرف عن عدوّك قمت مقامه . فكتب له ، فجاشت جماعةٌ من طُخَارِستان ، فشاور قيس بن الهيثم فأشارَ عليه ابن خازم أن ينصرفَ حتى يجتمعَ إليه أطرافه ؛ فانصرف ، فلما سار من مكانه مرحلةً أو مرحلتين أخرج ابنُ خازم عهدَه ، وقام بأمر الناس، ولقي العدوّ فهزمهم ، وبلغ الخبر المصرَيْن والشام فغضب القيسيّة وقالوا: خدعَ قيساً وابن عامر؛ فأكثروا في ذلك حتى شكَوْا إلى معاوية، فبعث إليه فقَدِم، فاعتذر مما قيل فيه؛ فقال له معاوية: قم فاعتذر إلى الناس غداً؛ فرجع ابن خازم إلى أصحابه فقال: إني قد أمرت بالخطبة ، ولست بصاحب كلام ، فاجلسوا حولَ المنبر ، فإذا تكلّمت فصدّقوني ، فقام مِن الغد ، فحمِد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: إنما يتكلّف الخُطبة إمامٌ لا يجد منها بدّاً ، أو أحمقُ يهمر من رأسه لا يبالي ما خرج منه ، ولست بواحد منهما ؛ وقد علم من عرفني أني بصير بالفُرَص، وثّاب عليها، وقّاف عند المهالك، أنفذُ بالسريّة، وأقسَم بالسوّية ؛ أنشُدكم بالله مَن كان يعرف ذلك منّي لما صدّقني! قال أصحابه حولَ المنبر: صدقت؛ فقال: يا أمير المؤمنين ، إنك ممّن نشدتُ فقل بما تعلم ؛ قال : صدقت .

قال عليّ : أخبَرَنا شيخٌ من بني تميم يقال له مَعمر ، عن بعض أهل العلم أن قيسَ بنَ الهيثم قَدِم على ابن عامر من خُراسان مراغماً لابن خازم ، قال: فضربه ابن عامر مائةً وحَلَقه وحبسه ، قال : فطلبتْ إليه أمُّه ، فأخرجه .

وحجَّ بالناس في هذه السنة ـ فيما قيل ـ مروانُ بن الحَكَم، وكان على المدينة، وكان على مكّة خالدُ بن العاص بن هشام ، وعلى الكوفة المغيرةُ بن شُعبة ، وعلى قضائها شُريح ، وعلى البَصرة وفارسَ وسِجِسْتان وخُراسانَ عبدالله بن عامر ، وعلى قضائها عُمَير بن يثربي .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين
ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك دخولُ المسلمين مع عبدالرحمن بن خالد بن الوليد بلادَ الرّوم ومَشتاهم بها ، وغزو بُسْر بن أبي أرطاة البحر .

وفي هذه السنة عَزَل معاويةُ عبدَالله بن عامر عن البصرة .

ذكر الخبر عن سبب عزله :

كان سبب ذلك أن ابن عامر كان رجلاً ليّناً كريماً ، لا يأخذ على أيدي السفهاء ، ففَسَدت البصرةُ بسبب ذلك أيّامَ عمله بها لمعاوية فحدّثني عُمر بن شبّة ، قال : أخبرنا يزيد الباهلي ، قال : شكا ابنُ عامر إلى زياد فسادَ الناس وظهور الخُبث ، فقال : جرِّد فيهم السيف ، فقال : إني أكرَه أن أصلِحهم بفسادِ نفسي .

حدّثني عمر ، قال: قال أبو الحسن : كان ابن عامر ليّناً سهلاً ، سهلَ الوِلاية ، لا يعاقِب في سلطانه ، ولا يقطع لصًّا ، فقيل له في ذلك؛ فقال : أنا أتألّف الناس، فكيف أنظر إلى رجل قد قطعتُ أباه وأخاه!

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي ، قال: حدّثنا مَسلمة بن محارب، قال: وفد ابن الكوّاء ، واسم ابن الكوّاء عبدالله بن أبي أوفَى إلى معاوية ، فسأله عن الناس ، فقال ابن الكَوّاء : أمّا أهل البَصرة فقد غلب عليها سفهاؤها، وعاملُها ضعيف ، فبلغ ابن عامر قولُ ابن الكَوّاء ، فاستعمل طُفيل بن عوف اليشكري على خُراسان ، وكان الذي بينه وبين ابن الكوّاء متباعداً ، فقال ابن الكَوّاء : إن ابن دَجاجة لقليلُ العلم فيَّ ، أظَنَّ أنّ ولايةَ طُفَيل خُراسانَ تسوءني ! لَوددت أنه لم يبق في الأرض يشكريٌّ إلاّ عاداني ، وأنه ولاّهم . فعزل معاوية ابن عامر ، وبعث الحارث بن عبدالله الأزدي . قال : وقال القَحذميّ : قال ابن عامر : أيّ الناس أشدّ عداوةً لابن الكوّاء ؟ قالوا : عبدالله بن أبي شيخ ، فولاّه خُراسان ؛ فقال ابن الكوّاء ما قال .

وذكر عن عمر ، عن أبي الحسن ، عن شيخ من ثقيف وأبي عبدالرحمن الإصبهانيّ ، أنّ ابن عامر أوفد إلى معاوية وَفداً ، فوافقوا عنده وفدَ أهل الكوفة ، وفيهم ابن الكوّاء اليشكري ، فسألهم معاوية عن العراق وعن أهل البصرة خاصة ؛ فقال له ابن الكَوّاء : يا أمير المؤمنين ، إنّ أهل البصرة أكَلَهم سفهاؤهم ، وضَعُف عنهم سلطانُهم ، وعَجَّز ابنَ عامر وضعَّفه . فقال له معاوية : تَكَلَّمُ عن أهل البصرة وهم حضور ! فلما انصرف الوفد إلى البَصرة بَلّغوا ابنَ عامر ذلك ، فغضِب ، فقال : أيّ أهلِ العراق أشَدّ عداوةً لابن الكَوّاء ! فقيل له : عبدالله بن أبي شيخ اليشكري ، فولاّه خُراسان ، وبلغ ابنَ الكوّاء ذلك فقال ما قال.

حدّثني عمر، قال : حدّثنا علي ، قال: لما ضعف ابن عامر عن عمله ، وانتشر الأمر بالبصرة عليه ،

كتب إليه معاوية يستزيره ، قال عمر : فحدّثني أبو الحسن أنّ ذلك كان في سنة أربع وأربعين ، وأنه استخلف على البَصرة قيسَ بن الهيثم ، فقَدِم على معاوية ، فردّه على عمله ، فلما ودّعه قال له معاوية : إني سائلك ثلاثاً، فقل : هنّ لك . قال : هُنّ لك وأنا ابن أمّ حكيم ، قال : تردّ علي عملي . ولا تَغضَب ، قال : قد فعلت ؛ قال : وتهب لي مالَك بعَرَفة ؛ قال : قد فعلت . قال : وتهب لي دُورَك بمكة ؛ قال : قد فعلتُ ، قال : وصلَتْك رَحِم ! قال : فقال ابن عامر : يا أميرَ المؤمنين ، إني سائلك ثلاثاً فقل : هنّ لك ؛ قال: هُنّ لك وأنا ابن هند ؛ قال : تردّ عليَّ مالي بعَرَفة ، قال : قد فعلت ، قال : ولا تُحاسِب لي عاملاً ، ولا تتّبع لي أثراً . قال: قد فعلت ، قال : وتُنكحني ابنتك هنداً ؛ قال : قد فعلت .

قال : ويقال : إنّ معاوية قال له : اِختَرْ بين أن أتتبّع أثرك وأحاسبَك بما صار إليك ، وأردّك إلى عَملك ، وبين أن أسوّغك ما أصبت ، وتعتزل ، فاختار أن يسوّغه ذلك ويَعتزل .

وفي هذه السنة استلحق معاويةُ نسبَ زياد بن سميّة بأبيه أبي سُفيان فيما قيل .

حدّثني عمرُ بن شبّة ، قال : زعموا أنّ رجلاً من عبدالقيس كان مع زياد لمّا وفد على معاوية ، فقال لزياد: إنّ لابن عامر عندي يداً ، فإن أذنتَ لي أتيتُه ، قال : على أن تحدّثني ما يجري بينَك وبينَه ؛ قال : نعم ، فأذن له فأتاه ، فقال له ابن عامر : هيه هيه ! وابن سميّة يقبّحُ آثاري ، ويعرّض بعُمّالي! لقد هممتُ أن آتيَ بقَسامة من قريش يَحلِفون أنّ أبا سُفْيان لم يَرَ سُمية ؛ قال : فلما رجع سأله زياد ، فأبى أن يُخبره ، فلم يَدَعَهْ حتى أخبره ، فأخبر ذلك زيادُ معاويةَ ، فقال معاوية لحاجبه : إذا جاء ابن عامر فاضرب وجهَ دابّته عن أقصى الأبواب ، ففعل ذلك به ، فأتى ابن عامر يزيد ، فشكا إليه ذلك ، فقال له : هل ذكرتَ زياداً؟ قال: نعم، فركب معه يزيدُ حتى أدخلَه ، فلما نظر إليه معاوية قام فدخل ، فقال يزيد لابن عامر : اجلس فكم عسى أن تَقعُد في البيت عن مجلسه ! فلما أطالا خرج معاوية وفي يده قَضيبٌ يَضرِب به الأبواب ، ويتمثّل :

لنا سِياقٌ ولكمْ سِياقُ قد عَلِمَت ذلكُم الرِّفاقُ

ثم قعد فقال : يا بن عامر ، أنت القائل في زياد ما قلت! أما واللّهِ لقد علمَتِ العربُ أني كنت أعزَّها في الجاهليّة ، وإنّ الإسلام لم يزدني إلاّ عزًّا ، وأنّي لم أتكثر بزيادٍ من قلّة ، ولم أتعزّز به من ذِلّة ، ولكن عرفتُ حقًّا له فوضعتهُ موضعَه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نرجع إلى ما يحبّ زياد ، قال : إذاً نرجع إلى ما تحبّ ، فخرج ابن عامر إلى زياد فترضّاه .

حدّثني أحمد بن زهير ، قال : حدّثنا عبدالرحمن بن صالح ، قال : حدّثنا عمرو بن هاشم ، عن عُمر بن بشير الهمداني ، عن أبي إسحاق ، أنّ زياداً لما قدم الكُوفة ، قال : قد جئتُكم في أمرٍ ما طلبتُه إلاّ إليكم ، قالوا : ادعنا إلى ما شئتَ ، قال : تُلحِقون نسبي بمعاوية ؛ قالوا : أمّا بشهادة الزُّور فلا ؛ فأتى البَصرة ، فشهد له رجل .

وحجّ بالناس في هذه السنة معاوية .

وفيها عَمِل مروانُ المقصورةَ ، وعَمِلها ـ أيضاً فيما ذكر ـ معاوية بالشام . وكانت العمّالُ في الأمصار فيها العُمّال الذين ذكرْنا قبلُ أنهم كانوا العمّال في سنة ثلاث وأربعين.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين
ذكر الأحداث المذكورة التي كانت فيها

فمن ذلك استعمال معاوية الحارث بن عبدِالله الأزدي فيها على البصرة . فحدّثني عمرُ ، قال : حدّثني عليُّ بن محمد، قال: عزل معاويةُ ابنَ عامر وولّى الحارثَ بنَ عبدالله الأزدي البَصرة في أوّل سنة خمس وأربعين ، فأقام بالبصرة أربعةَ أشهر ، ثم عَزَله . قال : وقد قيل: هو الحارث بن عَمرو وابن عَبْد عَمْرو ، وكان من أهل الشام ، وكان معاوية عزل ابنَ عامر ليوليَ زياداً ، فولّى الحارث كالفرس المحلّل ، فولّى الحارثُ شُرْطَته عبدَالله بن عمرو بن غيلان الثّقفيّ ، ثم عَزَله معاوية وولّاها زياداً .

ذكر الخبر عن ولاية زياد البصرة

حدّثني عمر، قال: حدّثنا عليٌّ، قال: حدّثنا بعضُ أهلِ العلم أنّ زياداً لما قدِم الكوفة ظَنّ المغيرة أنه قدم والياً على الكوفة ، فأقام زياد في دار سَلْمان بن ربيعة الباهلي ، فأرسل إليه المغيرة وائلَ بنَ حُجر الحضرميّ أبا هُنَيدة ، وقال له: اعلم لي عِلمَه. فأتاه فلم يَقدِر منه على شيء ، فخرج من عنده يريد المغيرة، وكان زاجراً، فرأى غُراباً يَنعَق ، فرجع إلى زياد فقال: يا أبا المغيرة، هذا الغراب يرحِّلك عن الكوفة. ثم رجع إلى المغيرة ، وقدم رسولُ معاويةَ على زياد من يومه: أن سِرْ إلى البَصْرة .

وأما عبدالله بن أحمد المَروَزي فحدّثني، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثني سليمان ، قال : حدّثني عبدالله ، عن إسحاق - يعني ابن يحيى - عن معبد بن خالد الجدَليّ، قال : قَدِم علينا زيادٌ - الذي يقال له ابنُ أبي سُفْيان - من عندِ معاويةَ ، فنزل دارَ سلمان بن ربيعة الباهليّ ينتظر أمرَ معاوية . قال : فبلغ المغيرةَ بن شعبة - وهو أميرٌ على الكوفة - أنّ زياداً ينتظر أن تجيء إمارتُه على الكوفة ، فدعا قَطَن بن عبدالله الحارثيّ فقال : هل فيك من خير؟ تكفيني الكُوفة حتى آتيَك من عندِ أمير المؤمنين ؛ قال : ما أنا بصاحِب ذا ، فدعا عتيبة بن النهّاس العِجْليّ ، فعرض عليه فقبل ، فخرج المغيرة إلى معاوية ، فلما قدم عليه سأله أن يَعزِله ، وأن يَقطَع له منازلَ بقَرْقِيسيا بين ظهري قيس ، فلما سمع بذلك معاوية خاف بائقتَه ، وقال : والله لترجعنّ إلى عملكَ يا أبا عبدالله . فأبى عليه ، فلم يزدْه ذلك إلّا تُهمة ، فردّه إلى عمله ، فطرقَنا ليلاً ، وإني لفَوْق القَصْر أحرُسه ، فلما قرع البابَ أنكرْناه ، فلما خاف أن ندَلّيَ عليه حَجَراً تسمّى لنا ، فنزلتُ إليه فرحّبت له وسلّمت ، فتمثّل :

بمثلي فافْزعي يا أُمَّ عَمْرٍو إذا ما هاجَني السَّفَرُ النُّعُورُ

إذهب إلى ابن سُميّة فرحِّله حتى لا يصبح إلّا من وراء الجسر . فخرجنا فأتينا زياداً ، فأخرجْناه حتى طرحناه من وراء الجِسر قبل أن يصبح .

فحدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي ، قال : حدّثنا مسلمةُ والهُذليّ وغيرُهما أنّ معاوية استَعمل زياداً على البصرة وخراسان وسِجِسْتان ، ثم جمع له الهند والبحرَيْن وعُمان ، وقَدِم البصرة في آخر شهر ربيع الآخر - أو غرّة جُمادى الأولى - سنة خمس ، والفِسْق بالبَصرة ظاهر، فاش ، فخطب خُطبةً بَتْراءَ لم يَحمَد الله فيها ، وقيل: بل حَمِد الله فقال: الحمدُ لله على إفضاله وإحسانهِ ، ونسأله المزيدَ من نِعَمه ، اللهمّ كما رزقْتنا نعماً ، فألهِمْنا شكراً على نعمتك علينا .

أمّا بعد، فإنّ الجهالة الجَهْلاء، والضّلالة العَمْياء ، والفَجْر المُوقِد لأهله النارَ ، الباقيَ عليهم سعيرُها ، ما يأتي سفهاؤكم ، ويشتَمِل عليه حُلَماؤكم ، من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى منها الكبير، كأن لم تَسمعوا بآي الله ، ولم تقرأوا كتابَ الله ، ولم تَسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذابِ الأليم لأهلِ معصيتهِ ، في الزمن السَّرمد الذي لا يزول. أتكونون كمن طرفتْ عينه الدنيا ، وسدّت مسامعه الشهوات، واختار الفانيةَ على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدَثتم في الإسلام الحَدَث الذي لم تُسْبَقوا به ؛ من تركِكم هذه المَواخِير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة ، في النهار المبصر ، والعدد غير قليل ! ألم تكن منكم نُهاةٌ تمنع الغُواةَ عن دَلجِ الليل وغارةِ النهار ! قرّبتم القرابة ، وباعدتم الدّين ، تعتذرون بغير العذر ، وتُغَطّون على المختلس ، كلّ امرىءٍ منكم يذبُّ عن سفيهه ، صنيعُ من لا يخاف عقاباً ، ولا يرجو مَعاداً . ما أنتم بالحُلَماء ، ولقد اتّبعتم السفهاء ، ولم يزل بهم ما ترَوْن من قيامكم دونَهم ، حتى انتهكوا حُرَم الإسلام ، ثم أطرَقوا وراءكم كُنوساً في مَكانس الرِّيَب . حُرِّم عليَّ الطعامُ والشرابُ حتى أسوّيَها بالأرض هَدْماً وإحراقاً ، إنّي رأيت آخرَ هذا الأمرِ لا يَصلُح إلّا بما صَلَح به أوّلُه ، لينٌ في غير ضَعْف ، وشدّة في غير جَبريّة وعُنْف . وإنّي أقسم بالله لآخذنّ الوليّ بالوليّ ، والمقيمَ بالظاعن ، والمقْبِل بالمدبِر ، والصحيحَ منكم بالسقيم ،حتى يَلقَى الرجلُ منكم أخاه فيقول : انجُ سَعْد فقد هَلَك سُعيد ، أو تستقيم لي قَناتُكم . إنّ كذبة المِنبر تَبقَى مشهورة ، فإذا تعلّقتم عليَّ بكذبة فقد حلّت لكم معصيتي ، وإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيَّ واعلموا أن عندي أمثالها مَنْ نُبِّت منكم فأنا ضامنٌ لما ذهب له . إيّاي ودَلَج اللّيل ، فإنّي لا أوتَى بمدلِج إلّا سفَكْتُ دَمه ، وقد أجَّلتكم في ذلك بقدْر ما يأتي الخبر الكُوفة ويرجعُ إليّ . وإيّايَ ودعوَى الجاهليّة ، فإنّي لا أجد أحداً دعَا بها إلّا قطعت لسانَه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثْنا لكلّ ذنب عقوبة ، فمن غَرّق قوماً غرّقتُه ، ومن حرّق على قوم حرّقناه ، ومن نَقَب بيتاً نقبتُ عن قلبه ، ومن نَبَش قبراً دفنتُه فيه حيًّا ؛ فكفّوا عنّي أيديَكم وألسنتَكم أكفُفْ يدي وأذايَ ، لا يَظهر من أحد منكم خلافُ ما عليه عامّتكم إلّا ضربتُ عنقه .

وقد كانت بيني وبين أقوام إحَن ، فجعلتُ ذلك دَبْرَ أذُني وتحتَ قدمِي ، فمن كان منكم محسناً فليزدَدْ إحساناً ، ومن كان مسيئاً فلينزِع عن إساءته . إني لو علمت أنّ أحدكم قد قتلَه السُّلّ من بغضي لم أكشِف له قِناعاً ، ولم أهتِك له سِتراً ، حتى يُبديَ لي صفحتَه ، فإذا فعل لم أناظرْه ؛ فاستأنِفوا أموركم، وأعينوا على أنفسِكم ، فرُبّ مبتئسٍ بقدومنا سيُسَرّ ، ومسرورٍ بقدومِنا سَيَبْتئس .

أيّها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسةً ، وعنكم ذادة ، نَسوسُكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم

بفيء الله الذي خوّلنا ، فلنا عليكم السمعُ والطاعة فيما أحببْنا، ولكم علينا العدلُ فيما وُلِّينا ، فاستوجِبوا عدلَنا وفيئنا بمناصَحتكم . واعلَموا أني مهما قصّرت عنه فإني لا أقصّر عن ثلاث : لستُ محتجِباً عن طالبِ حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ؛ ولا حابساً رِزقاً ولا عطاءً عن إبّانه ، ولا مجمِّرا لكم بعْثاً. فادعوا الله بالصّلاح لأئمتكم ، فإنهم ساسَتُكم المؤدِّبون لكم ، وكَهْفُكم الذي إليه تأوون، ومتى تَصلحوا يصلحوا . ولا تُشرِبوا قلوبَكم بغضَهم ، فيشتدَّ لذلك غيظُكم ، ويطولَ له حُزنكم، ولا تُدرِكوا حاجَتكم ، مع أنه لو استجيبَ لكم كان شرًّا لكم .

أسأل الله أن يعين كلاًّ على كلّ ، وإذرأيتموني أنفِذ فيكم الأمرَ فأنفِذوه على أذلاله ، وايمُ الله إنّ لي فيكم لصرعَى كثيرة ، فليحذر كلّ امرىءٍ منكم أن يكون من صَرْعاي .

قال : فقام عبدالله بن الأهتم فقال: أشهد أيّها الأمير أنك قد أُوتيتَ الحكمةَ وفَصْلَ الخِطاب ، فقال : كذبتَ ، ذاك نبيّ الله داود عليه السلام .

قال الأحنف : قد قلتَ فأحسَنت أيّها الأمير ، والثناء بعد البلاء ، والحمدُ بعدَ العطاء ، وإنا لن نُثنيَ حتى نُبتلَى ؛ فقال زياد : صَدقت .

فقام أبو بلال مِرْداس بن أديَّة يَهمِس وهو يقول : أنبأ الله بغير ما قلت ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾(١) ؛ فأوعَدَنا الله خيراً مما واعدت يا زياد، فقال زياد: إنا لا نَجِد إلى ما تريد أنتَ وأصحابُك سبيلاً حتى نخوضَ إليها الدماء .

حدّثني عمرُ، قال: حدّثنا خلّاد بن يزيد ، قال : سمعتُ من يخبر عن الشعبي ، قال : سمعتُ متكلّماً قطّ تكلّم فأحسن إلاّ أحببتُ أن يَسكُت خوفاً أن يسيء إلاّ زياداً ، فإنه كان كلّما أكثر كان أجْود كلاماً .

حدّثني عمر، قال: حدّثنا علي، عن مسلمة، قال: استعمل زيادٌ على شُرْطته عبدَالله بن حصن، فأمهلَ الناس حتى بلغ الخبرُ الكوفةَ، وعاد إليه وصولُ الخبر إلى الكوفة ، وكان يؤخّر العِشاء حتى يكون آخر مَن يصلّي ثم يصلّي؛ يأمر رجلاً فيقرأ سورةَ البقرة ومثلها ، يرتّل القرآن ، فإذا فرغ أمهل بقدر ما يَرى أنّ إنساناً يبلغ الخُرَيْبة ، ثم يأمر صاحبَ شُرطته بالخروج ، فيخرج ولا يرى إنساناً إلاّ قتله . قال: فأخذ ليلةً أعرابيًّا ، فأتى به زياداً فقال: هل سمعتَ النداء؟ قال: لا والله، قدمتُ بحَلوبة لي ، وغشَيني الليلُ ، فاضطررْتها إلى موضع ، فأقمتُ لأصبح ، ولا علمَ لي بما كان من الأمير. قال: أظنك واللّهِ صادقاً ، ولكن في قتلك صلاحُ هذه الأمّة ؛ ثم أمر به فضُربتْ عُنقُه .

وكان زياد أوّلَ من شدّ أمرَ السلطان ، وأكّد الملك لمعاوية ، وألزَم الناسَ الطاعة ، وتقدّم في العقوبة ، وجرّد السيف ، وأخذ بالظِّنّة ، وعاقب على الشبهة ، وخافه الناسُ في سُلطانه خوفاً شديداً ، حتى أمِن الناسُ بعضُهم بعضاً ، حتى كان الشيء يَسقُط من الرجل أو المرأة فلا يَعرِض له أحد حتى يأتيَه صاحبه فيأخذه، وتَبيت المرأة فلا تُغلِق عليها بابها ، وساس الناسَ سياسةً لم يُرَ مِثلُها، وهابه الناس هَيْبةً لم يهابوها أحداً قبلَه ، وأدرَّ العطاءَ ، وبنى مدينَة الرِّزق .

---

(١) سورة النجم : ٣٧ ـ ٣٩.

قال: وسمع زياد جرْساً من دارِ عُمَير ، فقال: ما هذا؟ فقيل: محترس. قال: فليكفّ عن هذا، أنا ضامنٌ لما ذهب له ، ما أصاب من إصْطَخْر .

قال: وجعَل زياد الشُّرَطَ أربعة آلاف ، عليهم عبدالله بن حِصْن ، أحد بني عُبيد بن ثعلبة صاحب مقبرة ابن حصن ، والجَعْد بن قيس النميري صاحب طاقِ الجَعْد ، وكانا جميعاً على شُرَطه ، فبينا زياد يوماً يسير وهما بين يديه يسيران بحرْبتيْن ، تَنازَعا بين يديه ، فقال زياد: يا جَعد ، ألقِ الحربة ، فألقاها ، وثبت ابن حصن على شُرَطه حتى مات زياد .

وقيل: إنه ولّى الجعد أمرَ الفُسّاق، وكان يتتبعهم؛ وقيل لزياد: إن السُّبُل مَخُوفة؛ فقال: لا أعاني شيئاً سوى المصر حتى أغلب على المِصر وأُصلِحه، فإنْ غلبني المِصر فغيره أشدّ غلبة؛ فلما ضبط المِصْر تكلف ما سِوي ذلك فأحكَمَه. وكان يقول: لو ضاع حَبْلٌ بيني وبين خُراسانَ علمتُ مَن أَخذَه .

وكتب خمسمائة من مشيخة أهلِ البَصرة في صحابته ، فرزقهم ما بين الثلثمائة إلى الخمسمائة، فقال فيه حارثةُ بن بدر الغُدَانيّ :

أَلا مَنْ مُبْلغٌ عنّي زِياداً ... فنعْم أَخو الخليفة والأَميرُ!
فأَنتَ إِمامُ مَعْدَلةٍ وقَصْدٍ ... وحَزْمٍ حين تَحضُرك الأُمورُ
أَخُوكَ خليفةُ الله ابْنُ حَرْبٍ ... وأَنْتَ وزيرُهُ ، نِعْم الوزيرُ!
تُصيب على الهَوَى منه وتأْتي ... مُحبَّك ما يُجِنُّ لنا الضَّميرُ
بأَمر الله مَنْصُورٌ مُعانٌ ... إذا جارَ الرعِيةُ لا تَجُورُ
يَدِرُّ على يَدَيْك لما أرادوا ... من الدُّنيا لهم حَلَبٌ غزيرُ
وتقسم بالسّواءِ فلا غَنيٌّ ... لضَيْمٍ يَشْتَكيكَ ولا فقيرُ
وكنتَ حياً وجئتَ على زمانٍ ... خَبيثٍ ، ظاهرٌ فيه شُرُورُ
تَقَاسَمَتِ الرِّجالُ به هواها ... فما تُخْفي ضَغائِنَها الصُّدُورُ
وخافَ الحاضرون وكلّ بادٍ ... يُقِيمُ على المخافة أَو يَسِيرُ
فلمّا قام سيْفُ الله فيهم ... زيادُ قام أَبلَجُ مُسْتَنيرُ
قويٌّ لا مِنَ الحَدَثانِ غِرٌّ ... ولا جزِعٌ ولا فانٍ كبيرُ

حدّثني عمرُ بن شبّة ، قال: حدّثنا علي بن محمد، قال: استعان زيادٌ بعدّةٍ من أصحاب النبي ﷺ ، منهم عمران بن الحصين الخُزاعيّ ولاّه قضاءَ البصرة ، والحَكَم بن عمرو الغِفاريّ ولاّه خُراسان ، وسَمُرة ابن جُندب ، وأنس بن مالك ، وعبدالرحمن بن سَمُرة ؛ فاستعفاه عِمران فأعفاه . واستقضى عبدَالله بن فضالة الليثيّ ، ثم أخاه عاصمَ بن فَضالة ، ثم زُرارة بن أوفَى الحَرَشيّ ، وكانت أختُه لُبابة عند زياد .

وقيل : إنّ زياداً أوّل مَن سِير بين يَديه بالحراب ، ومُشِيَ بين يديه بالعُمُد ، واتّخذ الحرس رابطة خمسمائة ، واستعمل عليهم شَيْبان صاحب مَقْبُرة شيبان ، من بني سعد ، فكانوا لا يَبرَحون المسجد .

حدّثني عمر، قال: حدّثنا علي، قال: جعل زيادٌ خُراسانَ أرباعاً، واستعمل على مَرْوَ أَمَيْر بن أحمر اليشكريّ، وعلى أَبْرَشهر خُليد بن عبدالله الحنفي، وعلى مَرْوَ الرُّوذ والفارِياب والطالَقان قيسَ بن الهيثم، وعلى هَراةَ وباذ غيس وقادس وبوشَنْج نافع بن خالد الطاحِيّ.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا علي، قال: حدّثنا مسلمة بن محارب وابن أبي عمرو؛ شيخ من الأزدْ، أنّ زياداً عَتَب على نافع بن خالد الطاحي، فحبسه، وكتب عليه كتاباً بمائة ألف، وقال بعضهم: ثمانمائة ألف، وكان سبب مَوْجِدته عليه أنه بعث بِخُوان بازهر قوائمه منه، فأخذ نافع قائمة، وجعل مكانها قائمة من ذهب، وبعث بالخُوان إلى زياد مع غلام له يقال له زيد، كان قيّمَه على أمرِه كلّه، فسعى زيدٌ بنافع، وقال لزياد: إنه قد خانك، وأخَذَ قائمةً من قوائم الخِوان، وجعل مكانها قائمة من ذهب، قال: فمشى رِجال من وُجوه الأزدْ إلى زياد، فيهم سَيْف بن وهب المَعْوَليّ، وكان شريفاً، وله يقول الشاعر:

اعْمِدْ بِسَيْفٍ للسماحة والنَّدَى ... واعْمِدْ بِصَبْرَةَ للفعال الأعظمِ

قال: فدخلوا على زياد وهو يَسْتَاك، فتمثّل زيادٌ حين رآهم:

اذكر بنا مَوْقِفَ أَفْرَاسِنا ... بالحِنْوِ إذ أنت إلينا فَقِيرْ

قال: وأمّا الأزد فيقولون: بل تمثّل سيفُ بن وهب أبو طلحة المَعْوَليّ بهذا البيت حين دخل على زياد، فقال: نعم. قال: وإنما ذكّره أيّام أجارَه صَبْرة، فدعا زياد بالكتاب فمحاه بسِواكه وأخرَج نافعاً.

حدّثني عمرُ بن شبّة، قال: حدّثنا علي، عن مَسلَمة، أنّ زياداً عزل نافعَ بن خالدالطاحيّ وخُلَيد بن عبدالله الحنفيّ وأَمَيْر بن أحمر اليشكري، فاستعمل الحَكَم بن عَمرو بن مجدّع بن حِذْيَم بن الحارث بن نُعيلة بن مُليك ـ ونُعيلة أخو غِفار بن مُليك ـ ولكنهم قليل، فصاروا إلى غِفار.

قال مسلمة: أَمَرَ زيادٌ حاجبَه فقال: ادعُ لي الحَكَم ـ وهو يريد الحكم بنَ أبي العاص الثَّقفيّ ـ فخرج الحاجبُ فرأى الحَكَم بن عَمرو الغِفاريّ فأدخلَه، فقال: زيادٌ: رجل له شَرَف وله صحبةٌ مِن رسول الله ﷺ، فعَقَد له على خُراسان، ثم قال له: ما أردْتُك، ولكنّ الله عزّ وجلّ أرادَك.

حدّثني عمر قال: حدّثنا علي قال: أخبَرَنا أبو عبدالرحمن الثَّقفيّ ومحمد بن الفضل، عن أبيه؛ أنّ زياداً لّما ولي العراقَ استعمل الحَكَم بنَ عَمرو الغِفاريَّ على خُراسان، وجعل معه رجالاً على كُوَرٍ، وأمرَهم بطاعته، فكانوا على جِباية الخَراج، وهم أسلم بن زُرعة، وخُلَيد بن عبدالله الحنفي، ونافع بن خالد الطاحي، وربيعةُ بن عَسَل اليربوعي، وأميرُ بن أحمرَ اليشكري، وحاتمُ بن النعمان الباهلي؛ فمات الحَكَم بن عمرو، وكان قد غزا طُخارِسْتان، فغَنم غنائمَ كثيرة، واستَخلف أنسَ بن أبي أناس بن زُنَيم، وكان كَتَب إلى زياد: إني قد رضيتُه لله وللمسلمين ولك، فقال زياد: اللهمّ إنّي لا أرضاه لدِينك ولا للمسلمين ولا لِي. وكتب زيادٌ إلى خُلَيد بنِ عبدِالله الحنفي بولاية خُراسان، ثم بعث الربيعَ بنَ زياد الحارثي إلى خُراسان في خمسين ألفاً؛ من البَصرة خمسة وعشرين ألفاً، ومن الكوفة خمسةً وعشرين ألفاً، على أهلِ البَصرة الربيع، وعلى أهل الكُوفة عبدُالله بن أبي عَقِيل، وعلى الجماعة الرَّبيع بن زِياد.

وقيل : حجّ بالناس في هذه السنة مَرْوانُ بن الحَكَم وهو على المدينة ، وكانت الوُلاة والعُمّال على الأمصار في هذه السنة من تقدم ذكره قبل ؛ المُغيرة بن شُعْبة على الكُوفة ، وشُريح على القضاء بها ، وزياد على البَصرة ، والعُمّال من قد سميَّت قبلُ .

وفي هذه السنة كان مَشتَى عبدالرحمن بن خالد بن الوليد بأرضِ الرُّوم .

ثم دخلت سنة ست وأربعين
ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك مَشتَى مالك بن عبدالله بأرضِ الرّوم ، وقيل: بل كان ذلك عبدالرحمن بن خالد ابن الوليد،وقيل بل كان مالك بن هُبيرة السَّكونيّ .

وفيها انصرف عبدُالرحمن بن خالد بنِ الوليد من بلاد الرُّوم إلى حِمْص ، فدَسّ ابن أثال النَّصرانيّ إليه شَرْبةً مسمومةً ـ فيما قيل ـ فشربهَا فقتَلَتْه.

ذكر الخبر عن سبب هلاكه :

وكان السبب في ذلك ما حدثني عمر، قال: حدثني علي، عن مسلمة بن محارب ؛ أنّ عبدَالرحمن بن خالد بن الوليد كان قد عَظُم شأنُه بالشام ، ومالَ إليه أهلُها ، لما كان عندَهم من آثار أبيه خالد بنِ الوليد ، ولغَنائه عن المسلمين في أرض الرُّوم وبأسِه ، حتى خافه معاويةُ ، وخشيَ على نفسه منه ، لميل الناس إليه ، فأمر ابن أثال أن يحتالَ في قتله ، وضَمِن له إنْ هو فعل ذلك أن يضع عنه خَراجَه ما عاش ، وأن يولِّيَه جِباية خَراج حِمْصَ ، فلمّا قدم عبدالرحمن بن خالد حِمْصَ منصرفاً من بلاد الروم دَسّ إليه ابن أثال شربةً مسمومةً مع بعض مماليكه ، فشَرِبها فمات بحِمْص ، فوفَّى له معاويةُ بما ضَمِن له ، وولاّه خراجَ حِمْص ، ووضع عنه خراجَه .

قال : وقَدِم خالد بنُ عبدالرحمن بن خالد بن الوليد المدينةَ ، فجلس يوماً إلى عُرْوة بن الزُّبير ، فسلّم عليه ، فقال له عُروة : مَن أنت ؟ قال : أنا خالد بن عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ؛ فقال له عُرْوة : ما فعل ابن أثال؟ فقام خالد من عنده، وشخص متوجِّهاً إلى حمصَ ، ثم رَصَد بها ابنَ أثال ، فـرآه يومـاً راكباً ، فاعترض له خالدُ بن عبدالرحمن ، فضَرَبه بالسيف ، فقتَله ، فرفع إلى معاوية ، فحبسه أياماً ، وأغرَمَه دِيتَه ، ولم يقِدْه منه . ورجع خالدُ إلى المدينة ، فلمّا رجع إليها أتى عروةَ فسلم عليه ، فقال له عُرْوة : ما فعل ابن أثال؟ فقال: قد كفيتُكَ ابنَ أثال، ولكن ما فعل ابن جُرْموز؟ فسكت عروةُ . وقال خالدُ بن عبدالرحمن حين ضرب ابن أثال :

أنـا ابنُ سيْـفِ الله فـاعْـرِفُـوني   لم يَـبْـقَ إلاَّ حَـسَـبـي وديـني
وصـارِمٌ صَـلّ بـه يَميني

وفيها خرج الخَطِيم وسهم بن غالب الهُجَيميّ ، فحكّما ، وكان من أمرهما ما حدّثني به عمر ، قال: حدّثنا علي ، قال: لمّا وُلِّيَ زياد خافه سهم بنُ غالب الهُجيمي والخَطِيم ـ وهو يزيد بن مالك الباهلي ـ فأما سهم فخرج إلى الأهواز فأحدَث وحكَّم ، ثم رَجَع فاختفى وطلب الأمانَ ، فلم يؤمّنه زياد ، وطلبه حتى أخذه وقَتَله

وصلَبه على بابه . وأما الخَطِيم فإنّ زياداً سيّره إلى البحرين ، ثم أذِن له فقَدِم ، فقال له : الزَم مِصرَك ؛ وقال لمسلم بن عمرو : اضمَنْه ؛ فأبَى وقال : إن بات عن بيته أعلمتُك . ثم أتاه مسلم فقال : لم يبت الخَطيم الليلةَ في بيته ، فأمر به فقُتل ، وألقِي في باهلة .

وحجّ بالناس في هذه السنة عُتبةُ بن أبي سُفْيان . وكان العمّال والوُلاة فيها العمّالَ والوُلاةَ في السنة التي قبلها .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين
ذكر الأحداث التي كانت فيها

ففيها كان مَشتَى مالك بن هُبيرة بأرض الرّوم ، ومشتى أبي عبدالرحمن القينيّ بأنطاكيَةَ .

وفيها عُزِل عبدُالله بنُ عمرِو بنِ العاص عن مصر، وَوليهَا معاويةُ بن حُـدَيج ، وسار ـ فيما ذكر الواقدي ـ في المغرب ، وكان عثمانيًّا . قال: ومرّ به عبدالرحمن بن أبي بكر وقد جاء من الإسكَندرِيَّة ، فقال له : يا معاوية ، قد لَعَمري أخذتَ من معاوية جزاءَك ، قتلت محمد بن أبي بكر لأنْ تليَ مصرَ ، فقد وليتَها . قال: ما قتلتُ محمد بنَ أبي بكر إلاَّ بما صنع بعُثمان ؛ فقال عبدالرحمن : فلو كنتَ إنما تَطلب بدم عثمان لم تشرك معاوية فيما صنع حيث صَنع عَمرو بن العاص بالأشعري ما صَنع ، فوثبتَ أوّلَ الناس فبايعتَه .

وقال بعضُ أهلِ السيَر : وفي هذه السنة وجّه زياد الحَكَم بن عمرو الغِفاريَّ إلى خُراسان أميراً ، فغزا جبالَ الغَور وفراونده ، فقهرهم بالسيف عَنْوةً ففتحها ، وأصاب فيها مغانمَ كثيرة وسبايا ؛ وسأذكر من خَالَف هذا القولَ بعدُ إنْ شاء الله تعالى .

وذَكَر قائل هذا القول أن الحَكَم بن عمرو قَفَل مِن غَزْوته هذه ، فمات بمَرْوَ .

واختلفوا فيمن حجّ بالناس في هذه السنة ، فقال الواقديّ : أقام الحجَّ في هذه السنـة عُتبةُ بن أبي سُفْيان . وقال غيره : بل الذي حجّ في هذه السنة عَنْبسة بن أبي سُفْيان .

وكانت الوُلاة والعُمّال على الأمصار الذين ذكرت أنهم كانوا العمّال والولاةَ في السنة التي قبلها .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين
ذكر الأحداث التي كانت فيها

وكان فيها مَشْتَى أبي عبدالرحمن القَيْني أنطاكيّة ، وصائفة عبدالله بن قيس الفزاريّ وغزوة مالك بنِ هُبيرة السَّكونيّ البحر ، وغزوة عُقبة بن عامر الجهنيّ بأهلِ مصرَ البحر ، وبأهل المدينة ، وعلى أهل المدينة المنذرُ بنُ الزّهير ، وعلى جميعهم خالد بن عبدالرحمن بن خالد بن الوليد .

وقال بعضهم : فيها وجّه زيادٌ غالبَ بن فَضالة الليثيّ على خُراسان ، وكانت له صحبةٌ مِن رسول الله ﷺ .

وحجّ بالناس في هذه السنة مَرْوانُ بن الحَكَم في قول عامة أهل السِّيَر ، وهو يتوقع العزلَ لِمَوْجِدة كانت من معاويةَ عليه ، وارتجاعِه منه فَدَك ، وقد كان وَهَبَها له .

وكانت وُلاة الأمصار وعمّالُها في هذه السنة الذين كانوا في السنة التي قبلَها .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين

فكان فيها مَشتَى مالك بن هُبيرة السَّكونيّ بأرض الروم .

وفيها كانت غَزوةُ فَضالة بن عبيد جَربّة ، وشتا بجَرّبَة ، وفتِحتْ على يديه ، وأصاب فيها سبْياً كثيراً .

وفيها كانت صائفةُ عبدِالله بن كُرْز البَجَليّ .

وفيها كانت غزوة يزيد بن شَجَرة الرّهاويّ في البحر ، فَشَتَا بأهل الشام .

وفيها كانت غزوةُ عقبةَ بن نافع البحر ، فشتا بأهلِ مصرَ .

وفيها كانت غَزوةُ يزيدَ بن معاوية الرّوم حتى بلغ قُسْطَنطينيّة ، ومعه ابن عباس وابن عمرو ابن الزّبير وأبو أيوبَ الأنصاريّ .

وفيها عَزَل معاويةُ مروانَ بن الحَكَم عن المدينة في شهر ربيع الأوّل .

وأمَّرَ فيها سعيدَ بن العاص على المدينة في شهر ربيع الآخر ؛ وقيل في شهر ربيع الأوّل .

وكانت ولايةُ مروانَ كلّها بالمدينة لمعاويةَ ثمان سنينَ وشهرين .

وكان على قضاء المدينة لمرْوان ـ فيما زعم الواقدي ـ حين عُزِل عبدالله بن الحارث بن نوفل ، فلما ولي سعيد بن العاص عزَلَه عن القضاء ، واستَقضى أبا سَلَمة بن عبدالرحمن بن عوف .

وقيل : في هذه السنة وقع الطاعون بالكُوفة ، فهرب المغيرةُ بن شُعبة من الطاعون ، فلما ارتفع الطاعون قيل له : لو رجعتَ إلى الكُوفة ! فَقَدِمها فطُعِن فمات ؛ وقد قيل : مات المغيرة سنة خمسين ، وضمّ معاويةُ الكوفَة إلى زياد ، فكان أوّل من جمِعَ له الكُوفة والبَصرة .

وحجّ بالناس في هذه السنة سعيدُ بن العاص .

وكانت الوُلاة والعُمّال في هذه السنة الذين كانوا في السنة التي قبلها ، إلاّ عامل الكُوفة فإنّ في تاريخ هلاك المُغيرة اختلافاً ، فقال : بعض أهلِ السِّير : كان هلاكُه في سنة تسع وأربعين ؛ وقال بعضهم : في سنة خمسين .

ثم دخلت سنة خمسين
ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففيها كانت غزوة بُسر بن أبي أرطاةَ وسُفْيان بن عوف الأزديّ أرضَ الرُّوم .

وقيل : كانت فيها غَزْوة فَضالَة بن عبيد الأنصاريّ البحرَ .

وفيها ـ في قول الواقدي والمدائني ـ كانت وفاةُ المُغيرة بن شعْبة . قال محمد بن عمر : حدّثني محمد بن أبي موسى الثقفيّ ، عن أبيه ، قال : كان المغيرة بنُ شُعبةَ رجلًا طُوالًا ، مصابَ العَين ، أصيب باليَرْمُوك ، توفّي في شعبان سنة خمسين وهو ابن سبعين سنة .

وأما عَوانة فإنه قال ـ فيما حدّثت عن هشام بن محمد ، عنه : هَلَك المغيرةُ سنة إحدى وخمسين .

وقال بعضهم : بل هلك سنة تسع وأربعين .

حدّثني عمرُ بن شبّة ، قال: حدّثني علي بن محمد ، قال : كان زيادٌ على البَصرة وأعمالِها إلى سنة خمسين ، فمات المغيرة بنُ شعبةَ بالكُوفة وهو أميرُها ، فكتب معاويةُ إلى زياد بعَهْده على الكُوفة والبَصْرة ، فكان أوّل من جمع له الكُوفة والبَصْرة ، فاستخلف على البصرة سُمرة بن جُنْدَب ، وشَخَصَ إلى الكُوفة ، فكان زياد يقيم ستة أشهر بالكُوفة ، وستة أشهرُ بالبَصْرة .

حدّثني عمر ، قال : حدّثني علي ، عن مسلمة بن محارب، قال : لما مات المغيرة جُمعت العراقُ لزياد ، فأتى الكوفةَ فصَعِد المنبر ، فحمِد الله وأثنَى عليه ، ثم قال : إن هذا الأمرَ أتاني وأنا بالبَصْرة ، فأردت أن أشخص إليكم في ألفين من شُرْطة البَصْرة ، ثمّ ذكرتُ أنكم أهلُ حقّ ، وأنّ حقّكم طالما دَفَع الباطل ، فأتيتُكم في أهل بيتي ، فالحمد لله الذي رَفَع مني ما وَضَعَ الناس ، وحَفِظ مني ما ضَيَّعوا . . . حتى فَرَغ من الخطبة ، فحُصِب على المِنبر ، فجلس حتى أمسكُوا ، ثم دعا قوماً من خاصّته ، وأمرَهم ، فأخذوا أبوابَ المسجد ، ثم قال : ليأخذْ كلّ رجل منكم جليسَه ، ولا يقولنّ : لا أدْرِي مَن جليسي؟ ثم أمر بكرسيّ فوضع له على باب المسجد ، فدعاهم أربعةً أربعةً يحلفون بالله ما مِنّا مَنْ حَصَبَك ، فمن حَلَف خلّاه ، ومن لم يَحلِف حبَسه وعَزَله ، حتى صار إلى ثلاثين ، ويقال : بل كانوا ثمانين ، فقطَّع أيديَهم على المكان .

قال الشعبي : فوالله ما تعلَّقنا عليه بكذْبة ، وما وعدنا خيراً ولا شرًّا إلَّا أنفَذَه .

حدّثني عمر قال : حدّثنا علي ، عن سلمة بن عثمان ، قال : بلغني عن الشعبيّ أنه قال: أوّل رجل قَتلَه زيادٌ بالكوفة أوفَى بن حصن ، بلغه عنه شيء فطلبه فهرب ، فعرض الناسَ زياد ، فمرّ به ، فقال : مَن هذا ؟ قالوا : أوفَى بن حصن الطائيّ ؛ فقال زياد : أتتك بحائن رِجْلاه ، فقال أوْفَى :

إنَّ زياداً أبا المغيرة لا يَعجلُ والناسُ فيهمُ عَجَلهْ
خِفتُكَ والله فاعْلَمَن حَلِفي خوفَ الحَفافيثِ صَولةَ الأَصَلهْ
فجئتُ إذْ ضاقَتِ البلاد فلم يكنْ عليها لِخائفٍ وَأَلَهْ

قال : ما رأيُك في عثمان ؟ قال ختَن رسولِ الله ﷺ على ابنتَيه ، ولم أنكِره ، ولي محصولُ رأي ، قال : فما تقول في معاوية؟ قال: جَواد حليم ؛ قال: فما تقول فيَّ؟ قال: بلغني أنك قلتَ بالبَصرة: والله لآخذنّ البريء بالسقيم ، والمقبلَ بالمدبر ؛ قال: قد قلتُ ذاك، قال: خبطتَها عَشْواء؛ قال زياد: ليس النفاخ بشرِّ الزَّمَرة ، فقتَلَه؛ فقال عبدالله بن همّام السَّلوليّ :

خَيَّبَ اللّهُ سَعْيَ أوفَى بنِ حِصنٍ حين أضْحَى فَرُّوجَةَ الرَّقّاءِ
قادَهُ الحَيْنُ والشقاءُ إلى لَيْـ ـثِ عَرينٍ وَحَيَّةٍ صَمّاءِ

قال: ولما قدم زياد الكوفةَ أتاه عُمَارة بن عُقبة بن أبي مُعَيط ، فقال : إنّ عمرو بن الحَمِق يجتمع إليه من شيعة أبي تُراب ، فقال له عمرو بن حُرَيث : ما يدعوك إلى رفع ما لا تيقَّنُه ولا تدري ما عاقبتُه ! فقال زياد : كلاكما لم يُصِب ، أنت حيث تكلمني في هذا علانيةً وعمرو حِينَ يردُّك عن كلامك ، قُوما إلى عَمرو بنِ الحَمِق فقولا له : ما هذه الزُّرافات التي تجتمع عندك! مَن أرادك أو أردتَ كلامَه ففي المسجد .

قال: ويقال: إنّ الذي رفع على عَمرو بن الحَمِق وقال له: قد أنْغَل المِصرَيْن ، يزيد بن رُوَيْم ، فقال عمرو بن الحريث: ما كان قطّ أقبل على ما يَنفَعه منه اليوم ؛ فقال زياد ليزيدَ بن رُوَيم : أما أنت فقد أشطْت بدَمِه ، وأما عَمرو فقد حَقَن دمه ، ولو علمت أن مخّ ساقه قد سال من بغضي ماهِجْتَه حتى يخرج عليّ .

واتخذ زيادُ المقصورةَ حين حَصَبه أهلُ الكوفة .

وولَّى زياد حين شَخَص من البصرة إلى الكُوفة سَمُرة بن جُنْدب . فحدّثني عمر ، قال : حدّثني إسحاق بن إدريس ، قال : حدّثني محمد بن سليم قال: سألت أنسَ بن سيرينَ : هل كان سَمُرة قَتَل أحداً؟ قال: وهل يُحصىَ من قَتَل سَمُرة بن جندب ! استخلفَه زيادٌ على البصرة ، وأتى الكوفة ، فجاء وقد قتل ثمانيةَ آلافٍ من الناس ، فقال له : هل تخاف أن تكون قد قتلتَ أحداً بريئاً؟ قال: لو قتلتُ إليهم مثلهم ما خشيتُ ـ أو كما قال .

حدّثني عمر ، قال : حدّثني موسى بن إسماعيل ، قال : حدّثنا نوح بن قيس ، عن أشعث الحُدّانيّ ، عن أبي سوّار العدويّ ، قال : قتل سَمُرة من قومي في غَداةٍ سبعة وأربعين رجلاً قد جَمع القرآن .

حدّثني عمر ، قال : حدّثني عليّ بن محمد ، عن جعفر الصّدَفيّ ، عن عوف ، قال : أقبل سَمُرة من المدينة ، فلما كان عند دُور بني أسد خرج رجل من بعض أزقّتهم ، ففجأ أوائلَ الخيل ، فحمل عليه رجلٌ من القوم فأوْجَرَه الحَرْبةَ . قال : ثم مضت الخيل ، فأتى عليه سَمُرة بن جندب ، وهو متشحِّط في دمه ، فقال: ما هذا؟ قيل: أصابتْه أوائلُ خيل الأمير ؛ قال : إذا سمعتم بنا قد ركبْنا فاتّقوا أسنّتنا .

حدثني عمر قال: حدّثني زهير بن حرب ، قال: حدّثنا وهب بن جَرير ، قال : حدّثنا غسّان بن مضرَ ، عن سعيد بن زيد ، قال : خرج قَريب وزحّاف ، وزياد بالكُوفة ، وسَمُرة بالبصرة ، فخرجا ليلاً ، فنزلا بني

يَشكر ، وهم سبعون رجلاً ، وذلك في رمضان ، فأتوا بني ضُبَيعة وهم سبعون رجلاً ، فمرّوا بشيخ منهم يقال له حكّاك ، فقال حين رآهم : مرحباً بأبي الشّعْثاء ! فرآه ابن حُصين فقَتلوه ، وتفرّقوا في مساجد الأزدْ، وأتت فرقةٌ منهم رَحْبةَ بني علي ، وفرقة مسجدَ المعادل ، فخرج عليهم سيفُ بن وهْب في أصحاب له ، فقَتل مَنْ أتاه ، وخرج على قَريب وزحّاف شَبابٌ من بني علي وشبابٌ من بني راسب ، فرمَوْهم بالنَّبل . قال قَريب : هل في القوم عبدُالله بنُ أوس الطِاحيّ ؟ وكان يناضله ؛ قيل : نعم ؛ قال : فهلمّ إلى البراز ؛ فقتله عبدُالله وجاء برأسه ، وأقبل زيادٌ من الكوفة فجعل يؤنّبه ، ثم قال : يا معشر طاحِيَة ، لولا أنكم أصبتم في القوم لنفيتُكم إلى السجن . قال: وكان قَريب من إياد ، وزحّاف من طَيّىء ، وكانا ابنيْ خالة ، وكانا أوّلَ من خرج بعد أهل النَّهر .

قال غسّان : سمعت سعيداً يقول : إنّ أبا بلال قال : قريب لاقرّبه الله ، وايمُ الله لأن أقع من السماء أحبّ إليّ من أن أصنع ما صنع ـ يعني الاستعراض .

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا زهير ، قال : حدّثني وهب ، قال : حدّثني أبي أن زياداً اشتدّ في أمر الحَرورية بعد قَريب وزحّاف ، فقتلهم وأمر سَمُرة بذلك ، وكان يستخلفه على البَصرة إذا خرج إلى الكوفة ، فقتل سَمُرة منهم بَشَراً كثيراً .

حدّثني عمر ، قال: حدّثنا أبو عبيدة ، قال: قال زياد يومئذٍ على المِنبر : يا أهل البصرة ، والله لَتَكفُنّي هؤلاء أو لأبْدأنّ بكم ، والله لئن أفلتَ منهم رجلٌ لا تأخذون العامَ من عطائكم درهماً ، قال : فثار الناسُ بهم فقتلوهم .

قال محمد بن عمر : وفي هذه السنة أمر معاوية بمنبر رسول الله ﷺ ، أن يُحمَل إلى الشام ، فحُرّك ، فكُسِفت الشمس حتى رُئيت النجوم باديةً يومئذ ، فأعظم الناس ذلك ، فقال : لم أرِدْ حملَه ، إنما خفت أن يكون قد أرِضَ ، فنظرت إليه . ثم كساه يومئذ .

وذكر محمد بن عمرَ ، أنه حدّثه بذلك خالد بن القاسم ، عن شعيب بن عمرو الأمويّ .

قال محمد بن عمر : حدّثني يحيى بن سعيد بن دينار ، عن أبيه ، قال : قال معاوية : إني رأيتُ أنّ مِنبرَ رسول الله ﷺ وعصاه لا يُترَكان بالمدينة ، وهم قَتَلة أميرِ المؤمنين عثمان وأعداؤه، فلمّا قدم طلب العصا وهي عند سعدَ القَرَظ ، فجاءه أبو هريرة وجابرُ بن عبدالله ، فقالا : يا أمير المؤمنين ؛ نذكّرك اللّهَ عزّ وجلّ أن تفعلَ هذا، فإنّ هذا لا يصلح ، تُخرِج منبرَ رسول الله ﷺ من موضع وضعه ، وتُخرِج عصاه إلى الشام ؛ فانقل المسجد ؛ فأقصر وزاد فيه ستّ درجات ، فهو اليوم ثماني درجات ، واعتذر إلى الناس مما صنع .

قال محمد بن عمر: وحدّثني سُويد بن عبدالعزيز، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي فَرْوْة ، عن أبان بن صالح ، عن قَبيصة بن ذُؤَيب ، قال : كان عبدالملك قد همّ بالمنبر ، فقال له قَبيصة بن ذؤيب : أذكّرك اللّهَ عزّ وجلّ أن تفعل هذا ، وأن تحوّله ! إنّ أمير المؤمنين معاوية حرّكه فكُسفت الشمس ، وقال رسولُ الله ﷺ : « من حلف على مِنبري آثماً فليتبوّأ مَقعَده من النار » ، فتخرجه من المدينة وهو مقطّع الحقوق بينهم بالمدينة ! فأقصرَ عبدُ الملك عن ذلك ، وكفّ عن أن يذكره . فلما كان الوليد وحجّ همّ بذلك وقال: خبّراني عنه ، وما

أراني إلّا سأفعل : فأرسل سعيد بن المسيِّب إلى عمرَ بن عبدالعزيز ، فقال : كلِّم صاحبَك يتّق الله عزّ وجلّ ولا يتعرّض لله سبحانه ولسُخْطه، فكلّمه عمر بن عبدالعزيز ، فأقصَر وكفّ عن ذِكره ، فلّما حجّ سليمان بن عبدالملك أخبَرَه عمر بن عبدالعزيز بما كان الوليد همّ به وإرسال سعيد بن المسيّب إليه ، فقال سليمان : ما كنت أحبّ أن يذكر هذا عن أمير المؤمنين عبدالملك ولا عن الوليد، هذا مكابَرة ، وما لَنا ولهذا! أخذنا الدنيا فهي في أيدينا ، ونريد أن نَعمد إلى عَلَم من أعلام الإسلام يوفَد إليه، فنحمله إلى ما قِبَلنا! هذا ما لا يَصلُح .

وفيها عُزِلَ معاوية بن حُدَيْج عن مصرَ ووُلِّيَ مسلمة بن مخلّد مصر وإفريقيَة ، وكان معاويةُ بن أبي سُفيان قد بعث قبل أن يولّي مسلمة مصر وإفريقيَة عُقْبَةَ بن نافع الفِهريّ إلى إفريقيَة ، فافتتحها ، واختطّ قَيْروانَها ، وكان موضعُه غَيْضةً ـ فيما زعم محمد بن عمر ـ لا تُرام من السباع والحيّات وغير ذلك من الدّوابّ. فدعا الله عزّ وجلّ عليها فلم يَبقَ منها شيء إلّا خرج هارباً ، حتى إنّ السباع كانت تَحمِل أولادها .

قال محمد بن عمر: حدّثني موسى بن علي ، عن أبيه ، قال : نادى عُقبة بن نافع :

إنّـا نازلونـا فاظْعَنوا عِزينا

فخرجن من جِحَرتهنّ هوارب .

قال: وحدّثني المفضّل بن فَضالة، عن زيد بن أبي حبيب ، عن رجل من جند مصر ، قال : قَدِمنا مع عُقْبة بن نافع ، وهو أوّل الناس اختطّها وأقطعها للناس مساكن ودوراً ، وبنى مسجدها . فأقمْنا معه حتى عُزل ، وهو خير والٍ وخير أمير .

ثم عَزَل معاويةُ في هذه السنة ـ أعني سنة خمسين ـ معاويةَ بن حُدَيج عن مصر ، وعُقْبة بن نافع عن إفريقيَة، وولّى مسلَمة بن مخلّد مصر والمغرب كلّه ، فهو أوّل من جُمِع له المغرب كله ومصر وبَرْقة وإفريقيَة وطرابلُس ، فولّى مسلمة بن مخلّد مولًى له يقال له : أبو المهاجِر إفريقيَة ، وعزل عُقبة بن نافع ، وكشَفَه عن أشياء ، فلم يزل والياً على مصر والمغرب ، وأبو المهاجر على إفريقيَة مِن قِبَله حتى هلك معاوية بنُ أبي سُفْيان .

وفي هذه السنة مات أبو موسى الأشعري ، وقد قيل : كانت وفاة أبي موسى سنة اثنتين وخمسين .

واختُلِف فيمن حجّ بالناس في هذه السنة ، فقال بعضهم : حجّ بهم معاوية ، وقال بعضهم : بل حجّ بهم ابنه يزيد ، وكان الوالـي في هذه السنة على المدينة سعيد بن العاص ، وعلى البَصْرة والكوفـة والمشرق وسِجسْتان وفارس والسِّند والهند زياد .

وفي هذه السنة طَلب زيادُ الفرزدقَ، واستَعْدت عليه بنو نَهْشل وفُقَيم ، فهرب منه إلى سعيد بن العاص ـ وهو يومئذ والي المدينة من قِبَل معاوية ـ مستجيراً به ، فأجاره .

ذكر الخبر عن ذلك :

حدّثني عمرُ بن شبّة، قال: حدّثنا أبو عبيدة وأبو الحسن المدائني وغيرهما ، أنّ الفرزدق لما هجا بني نهشل وبني فُقَيم . لم يزد أبو زيد في إسناد خبره على ماذكرت ؛ وأما محمد بن علي فإنه حدّثني عن محمد بن سعد ، عن أبي عبيـدة ، قال : حـدّثني أعينَ بن لَبَـطَة بن الفرزدق ، قـال : حدّثني أبي عن أبيـه ، قال: لمـا هاجَيْت الأشهبَ بنَ رُمَيلة والبَعيث فسَقَطَا، استعدَتْ عليَّ بنو نَهْشل وبنو فُقَيم زيادَ بن أبي سُفيان . وزعم غيرهُ أنّ

يزيد بن مسعود بن خالد بن مالك بن رِبْعي بن سلمى بن جندل بن نهشل استعدى أيضاً عليه . فقال أعين : فلم يعرفه زياد حتى قيل له : الغلام الأعرابي الذي أنهبَ ورقه وألقى ثيابه ؛ فعرفه .

قال أبو عبيدة : أخبرني أعين بن لَبَطة ، قال : أخبَرَني أبي ، عن أبيه ، قال : بعثني أبي غالبٌ في عِير له وجلَبٍ أبيعُه وأمتار له وأشتري لأهله كُساً ، فقدمتُ البصرة ، فبعْتُ الجَلب ، فأخذتُ ثمنَه فجعلتُه في ثوبي أزاوله ، إذ عَرَض لي رجل أراه كأنه شيطان ، فقال : لَشَدّ ما تستوثق منها ! فقلت : وما يمنعني! قال: أما لو كان مكانَك رجل أعرفه ما صبر عليها ؛ فقلت : ومَن هو؟ قال: غالب بن صَعْصَعة ؛ قال : فدعوتُ أهل المِرْبد فقلت : دُونَكموها ـ ونثرتُها عليهم ـ فقال لي قائل : ألقِ رداءك يابن غالب ، فألقَيتُه . وقال آخر : ألق قميصَك ؛ فألقَيتُه ، وقال آخر : ألقِ عمامَتك فألقيتُها حتى بقيتُ في إزارٍ ، فقالوا : ألْقِ إزارَك ، فقلت : لن ألقيَه وأمشي مجرّداً ، إنّي لست بمجنون . فبلغ الخبرُ زياداً ، فأرسل خيلاً إلى المِرْبد ليأتوه بي ، فجاء رجل من بني الهُجَيم على فَرس ؛ قال : أتيتَ فالنَّجاء ! وأَرْدَفني خلفَه ، وَرَكَض حتى تغيّب ، وجاءت الخيلُ وقد سبقت ، فأخذ زياد عَمّين لي : ذهيلا والزحّاف ابني صعصعة ـ وكانا في الدّيوان على ألفين ألفين ، وكانا معه ـ فحبسهما فأرسلتُ إليهما : إن شئتما أتيتُكما ، فبعثَا إليّ: لا تَقرَبْنا ، إنّه زياد! وما عسى أن يَصنَع بنا ، ولم نُذنِب ذنباً! فمكثا أيّاماً . ثم كُلّم زياد فيهما ، فقالوا : شيخان سامعان مطيعان ، ليس لهما ذنب مما صنع غلام أعرابيّ من أهل البادية ؛ فخلّي عنهما ؛ فقالا لي : اخْبرنا بجميع ما أمَرَك أبوك من مِيرةٍ أو كسوة ؛ فخبّرتهما به أجمع ، فاشترياه وانطلقتُ حتى لحقت بغالب ، وحملتُ ذلك معي أجمع ، فأتيتُه وقد بلغه خبري ، فسألني : كيف صنعتَ؟ فأخبرتُه بما كان؛ قال: وإنك لَتُحسن مِثلَ هذا! وَمَسح رأسي . ولم يكن يومئذٍ يقول الشّعر ، وإنما قال الشعر بعد ذلك ، فكانت في نفس زياد عليه .

ثمّ وَفد الأحنفُ بنُ قيس وجاريةُ بنُ قدامة ، من بني ربيعة بن كعب بن سعد والجَوْن بن قَتادة العَبْشَميّ والحُتات بن يزيد أبو منازل ، أحد بني حُويّ بن سُفيان بن مجاشع إلى معاوية بن أبي سُفْيان ، فأعطى كلّ رجل منهم مائة ألف ، وأعطى الحُتات سبعين ألفاً ، فلما كانوا في الطريق سأل بعضهم بعضاً ، فأخبروه بجوائزهم ، فكان الحُتات أخذ سبعين ألفاً ، فرجع إلى معاوية ، فقال: ما ردّك يا أبا منازل؟ قال: فضَحْتَني في بني تميم ، أما حسبي بصحيح ! أوَلَسْتُ ذا سِنّ! أوَلَسْتُ مطاعاً في عشيرتي ! فقال معاوية : بلى ؛ قال : فما بالك خَسَسْت بي دون القوم! فقال : إني اشتريت من القوم دينَهم ووكَلْتُك إلى دِينك ورأيك في عثمان بن عفان ـ وكان عثمانيًّا ـ فقال: وأنا فاشترِ منّي دِيني ، فأمر له بتمامِ جائزةِ القوم . وطعن في جائزته ، فحبسها معاوية ، فقال الفرزدق في ذلك :

أبوك وعمي يا معاوِيَ أوْرثا ... تُراثاً فيحْتازُ التُّراثَ أقاربُهْ
فما بالُ ميراث الحُتات أخذتَه ... وميراثُ حرْبٍ جامدٌ لك ذائبُهْ!
فلو كَانَ هذا الأمر في جاهليَّةٍ ... عَلِمْتَ مِن المرءُ القليلُ حَلائبُهْ
ولو كان في دينٍ سوى ذا شنِئتُمُ ... لنا حقّنا أو غَصّ بالماء شاربُهْ
ولو كان إذ كنّا وفي الكفّ بسطةٌ ... لَصمّم غَضْبٌ فيك ماضٍ مَضارِبُهْ

ـ وأنشد محمد بن علي «وفي الكفّ مبسط »

وقـد رُمْتَ شيئـاً يـا معـاوِيَ دونَـهُ خيـاطِف عِـلْوَدٌ صعـاب مـراتبُـهْ
وما كنتُ أُعطى النّصفَ من غير قدرةٍ سـواكَ، ولـو مـالتْ عليَّ كتـائبـه
أَلَستُ أعـزَّ النـاس قـومـاً وأسـرةً وأمنعَـهُمْ جـاراً إذا ضِيمَ جـانبُـهْ
ومـا ولـدَتْ بـعـدَ الـنبيِّ وآلِـهِ كمِثْلي حَصانٌ في الـرجـالِ يقارِبـهْ
أبي غـالبٌ والمرءُ نـاجيـةُ الَّـذي إلىٰ صعصعٍ يُنْمي، فمن ذا يناسبه!
وبيْتي إلى جنـب الـثـريّـا فِنـاؤه ومِن دونـه البـدْرُ المضِيءُ كـواكبُـه
أنا ابنُ الجبال الصُّمِّ في عَدَدِ الحَصَى وعرْقُ الثَّرَى عِرقي ، فمن ذا يُحاسبه!
أنـا ابنُ الَّـذي أحيـا الـوئيـدَ وضـامِنٌ على الـدهرِ إذْ عَـزَّتْ لِدهـرٍ مكاسبُهْ
وكم من أبٍ لي يـا معـاوِيَ لم يَـزَل أغَرَّ يبـارِي الـريـح مـا ٱزْوَرَّ جـانبُـهْ
نمْتْـه فـروعُ المـالكيْنِ ولـم يكُـن أبـوكَ الـذي من عبدِ شمسٍ يقـاربُـهْ
تـراهُ كَنَصْـلِ السَّيف يهتَـزُّ للنـدى كَـريماً يُـلاقى المجدَ مـا طَرَّ شـاربـه
طـويل نِجاد السيف مذ كـان لم يكنْ قصيٌّ وعبـدُ الشمس ممَّنْ يخـاطبُـهْ

فردّ ثلاثين ألفاً على أهله ، وكانت أيضاً قد أغضبت زياداً عليه . قال : فلما استعدتْ عليه نهشل وفُقَيم ازدادَ عليه غضباً ، فطلبه فهرب ، فأتى عيسى بنَ خُصَيلة بن معتّب بن نصر بن خالد البَهْزيّ ، ثم أحد بني سُليم ، والحجّاج بن عِلاط بن خالد السُّلَميّ .

قال ابن سعد: قال أبو عبيدةَ : فحدّثني أبو موسى الفضل بن موسى بن خُصَيلة ، قال : لما طرد زياد الفرزدقَ جاء إلى عمِّي عيسى بن خُصَيلة ليلاً فقال : يا أبا خُصَيلة ، إنّ هذا الرجل قد أخافني ، وإنّ صديقي وجميع مَن كنت أرجو قد لفظوني ، وإني قد أتيتك لتغيِّبَني عندك ؛ قال : مَرْحباً بك ! فكان عنده ثلاثَ ليالٍ ، ثم قال : إنه قد بدا لي أن ألحق بالشام ، فقال : ما أحببتَ ؛ إنْ أقمتَ معي ففي الرّحب والسعة ؛ وإن شَخَصتَ فهذه ناقة أرحبيّة أمتِّعُك بها . قال : فركب بعدَ ليل ، وبعث عيسى معه حتى جاوز البيوت ، فأصبح وقد جاوز مسيرة ثلاث ليالٍ ، فقال الفرزدق في ذلك :

حَباني بهـا البَهـزيُّ حُمـلانَ مَنْ أبى من النـاس والجـاني تُخـافُ جـرائمـهْ
ومنْ كـان يـا عيسى يـونِّبُ ضيْفَـهُ فَضَيْفُـكَ محْبُـورٌ هنيٌّ مـطاعِمُـهْ
وقـال تـعـلَّمْ أنَّـهـا أَرْحَـبِـيَّـةٌ وأنَّ لَهَـا الليـلَ الَّـذِي أنتَ جـاشمُـهْ
فـأصبَحْتُ والملقَى ورائـي وَحَنْبَـلٌ ومـا صَدَرَتْ حَتى عـلا النَّجْم عـاتِمُـهْ
تَـزاوَرُ عن أهـلِ الحُفَيـرِ كـأنّـهـا ظَلِيمٌ تبـارَى جنـحَ ليـلٍ نَعـائمـهْ
رأَتْ بين عينيـهـا دُوِيَّـةَ وانـجَـلَى لها الصّبح عن صَعْلٍ أسيلٍ مَخاطِمُهْ
كَـأن شـراعـاً فيـه مَجْـرَى زِمـامهـا بِـدِجْـلَةَ إلاَّ خَـطْمُـهُ ومـلاغـمُـهْ
إذا أنتِ جَـاوَزتِ الغَـرِيَّيْنِ فـاسلَمِي وأعـرَضَ مِن فَلْجٍ ورائِي مخـارِمُـهْ

وقال أيضاً :

تـدارَكني أسبـابُ عيسى من الـرَّدَى ومـن يَـكُ مَـولاهُ فـليْسَ بـواحِـدِ

وهي قصيدة طويلة .

قال : وبلغ زياداً أنه قد شَخَصَ ، فأرسل علي بن زَهْدم ، أحد بني نَولة بن فُقَيم في طلبه .

قال أعيَن : فطلبه في بيت نصرانيّة يقال لها ابنة مرّار ، من بني قيس بن ثعلبة تنزل قَصِيمة كاظمة ؛ قال : فسلَّته مِنْ كِسْرِ بيتها ، فلم يقدر عليه ؛ فقال في ذلك الفرزدق :

أتيت ابنَـةَ المَـرّار أهبلتَ تبتغِي ... ومـا يُبْتَغى تحت السَّـويَّـةِ أمثـالِـي
ولكِنْ بُـغـائـي لـو أردتَ لـقـاءنـا ... فضاءُ الصّحارى لا ابتغاءٌ بأدغـال

وقيل : إنها ربيعة بنت المرّار بن سلامة العِجليّ أمّ أبي النجم الرّاجز .

قال أبو عُبيدة : قال مِسمَع بن عبد الملك : فأتى الرَّوحاء ، فنزل في بكر بن وائل ، فأمِن ، فقال يمدحهم :

وقـد مَـثَلتْ أيـن المسيرُ فـلم تجـدْ ... لـفَـوْرتهـا كـالحَيِّ بكْـر بن وائـل
أعـفَّ وأوفى ذِمـةً يـعْـقِـدونها ... إذا وازَنت شُمَّ الـذُّرا بـالـكـواهِـل

وهي قصيدة طويلة . ومدحهم بقصائدَ أُخَر غيرها .

قال : فكان الفرزدق إذا نزل زياد البَصرة نزل الكوفة ، وإذا نزل زيادُ الكوفة نزل الفرزدق البَصرة، وكان زياد ينزل البصرة ستّة أشهر والكوفة ستّة أشهر ، فبلغ زياداً ما صنع الفرزدق ، فكتب إلى عامله على الكوفة عبدِالرحمن بنُ عبيد : إنّما الفرزدق فحلُ الوحوش يَرعَى القِفار ، فإذا ورد عليه الناس ذُعِر ففارقهم إلى أرض أخرى فرتع ؛ فاطلبه حتى تظفرَ به . قال الفرزدق : فطُلبت أشدّ طلب ، حتى جعل مَن كان يُؤويني يُخرجني من عنده ، فضاقت عليَّ الأرض ، فبينا أنا ملفَّف رأسي في كِسائي على ظهر الطريق ، إذ مرّ بي الذي جاء في طلبي ، فلمّا كان الليل أتيتُ بعضَ أخوالي من بني ضَبّة وعندهم عُرْس ـ ولم أكن طعمتُ قبلَ ذلك طعاماً ، فقلت : آتيهم فأصيبَ من الطعام ـ قال : فبينا أنا قاعد إذ نظرت إلى هادِي فرسٍ وصدرِ رُمح قد جاوَز بابَ الدار داخلاً إلينا ، فقاموا إلى حائط قصب فرفعوه ، فخرجت منه ، وألقوا الحائط فعاد مكانَه ، ثم قالوا : ما رأيناه ، وبحثوا ساعةً ثم خرجوا ، فلمّا أصبحنا جاؤوني فقالوا : اخرُج إلى الحجاز عن جوار زياد لا يظفر بك ، فلو ظفر بك البارحةَ أهلكتَنا ؛ وجمعوا ثمن راحلتين ، وكلّموا لي مقاعِساً أحد بني تَيْم الله ابن ثعلبة ـ وكان دليلاً يسافر للتجار ـ قال: فخرجْنا إلى بانِقْيا حتى انتهينا إلى بعض القصور التي تُنزَل ، فلم يُفتح لنا الباب ، فألقينا رحالَنا إلى جنب الحائط والليلة مُقمِرة ، فقلت : يا مقاعس ، أرأيت إن بعث زياد بعد ما نصبح إلى العتيق رجالاً ، أيقدرون علينا ؟ قال: نعم ، يَرصُدوننا ـ ولم يكونوا جاوزوا العتيق وهو خَندَق كان للعَجَم ـ قال : فقلت : ما تقول العرب؟ قال : يقولون : أمهِلْه يوماً وليلة ثم خذه . فارتحل ؛ فقال إني أخاف السباع ، فقلت : السباعُ أهوَن من زياد ، فارتحلْنا لا نرى شيئاً إلّا خلّفناه ، ولزِمَنا شخصٌ لا يُفارقنا ، فقلت : يا مُقاعس ، أترى هذا الشخص ! لم نمررْ بشيء إلّا جاوزناه غيره ، فإنه يسايرنا منذ الليلة . قال : هذا السَّبعُ ، قال : فكأنه فهِمَ كلامَنا ، فتقدّم حتى رَبَض على مَتْن الطريق ، فلما رأينا ذلك نزلْنا فشددْنا أيدي ناقتَيْنا بثِنايَيْنْ وأخذتُ قوسي . وقال مقاعس : يا ثعلب ، أتدري ممّن فرَرنا إليك؟ من زياد، فأحْصَب بذَنَبه

وحِضْنين من ظلماءِ ليلٍ سَرَيْتُهُ بِأَغْيَدَ قد كان النعاس له سُكْرا
رَماه الكرى في الرأس حتى كأنه أَميمُ جلاميدٍ تركنَ به وَقْرا
من السَّيْر والإدلاج تحسِبُ أنما سقاهُ الكرى في كلّ منزلة خَمْرا
جَرَزنا وفَدَّيناه حتى كأنما يرى بهوادِي الصُّبْح قَنبلةً شُقرا

قال : فمضينا وقَدِمنا المدينة وسعيد بن العاص بن أميّة عليها ، فكان في جنازة ، فتبعتُه فوجدتُه قاعداً والميّت يُدفَن حتى قمت بين يديه ، فقلت : هذا مَقامُ العائذ من رجل لم يُصِب دماً ولا مالاً ! فقال : قد أَجَرْتُ إن لم تكن أصبتَ دماً ولا مالاً ؛ وقال : مَن أنت؟ قلت : أنا همّام بن غالب بن صعصعة ، وقد أثنيتُ على الأمير ، فإنْ رأى أن يأذن لي فأسمِعَه فليفعل ؛ قال : هاتِ ، فأنشدتُه :

وكُومٍ تُنْعِمُ الأضيافَ عَيناً وتصْبِحُ في مَباركها ثِقالاَ

حتى أتيتُ إلى آخرِها ؛ قال : فقال مروان :

قُعُوداً ينظرون إلى سَعيد

قلتُ : والله إنك لقائم يا أبا عبدالملك .

قال : وقال كعب بن جُعَيل : هذه واللّهِ الرّؤيا التي رأيت البارحة ؛ قال سعيد : وما رأيتَ ؟ قال : رأيتُ كأني أمشي في سكّة من سكك المدينة ، فإذا أنا بابن قِتْرة في جُحْر ، فكأنه أراد أن يتناولني ، فاتّقيته ، قال : فقام الحطيئة فشقّ ما بين رجُلين حتى تجاوز إليَّ ، فقال : قل ما شئت فقد أدركتَ من مضى ، ولا يدركك مَن بقى . وقال لسعيد : هذا والله الشِّعر ، لا يعلّل به منذ اليوم . قال : فلم نزل بالمدينة مرّة وبمكة مرّة . وقال الفرزدق في ذلك :

ألا مَن مُبلغٌ عنّي زياداً مُغَلْغلةً يَخُبُّ بها البَريدُ
بِأنّي قد فَررتُ إلى سَعيدٍ ولا يُسْطاعُ ما يَحْمِي سَعيدُ
فَررتُ إليه من لَيْثٍ هِزَبْرٍ تَفادَىٰ عن فَريسَتِهِ الأُسُودُ
فإن شئتَ انتسبتُ إلى النَّصارى وإن شئتَ انتسبتُ إلى اليهودِ
وإن شئت انتسبتُ إلى فُقَيمٍ وناسبني وناسبتُ القُرُودُ

ويُروَى :

وناسبني وناسبت اليهودُ

وأبغَضُهم إليّ بنو فُقيمٍ ولكنْ سوف آتِي ما تريدُ

وقال أيضاً :

أتاني وَعيدٌ من زِيادٍ فلم أنمْ وسَيْلُ اللّوَى دوني فَهضْبُ التّهائمِ
فبتُّ كأني مُشعَرٌ خَيبَريّةً سَرَت في عظامي أو سِمامَ الأراقمِ
زيادَ بن حَربٍ لن أظُنّكَ تاركي وذا الضِّغْنِ قد خشّمْتُهُ غيرَ ظالم

قال: وأنشدنَيه عمرو :

وبالضّغن قد خشّمتَني غير ظالم

وقد كافحت منّي العراقَ قَصيدةٌ رَجُومٌ مع الماضي رؤوسَ المخارِمِ
خَفيفةُ أفواهِ الرُّواةِ ثقيلة على قِرْنها نَزّالةٌ بالمَواسم

وهي طويلة . فلم نزل بين مكة والمدينة حتى هلك زياد .

وفي هذه السنة كانت وفاةُ الحَكَم بن عَمرو الغِفاريّ بمَرْوَ منصرفَه من غزوة أهل جبل الأشلّ .

ذكر الخبر
عن غزوة الحكم بن عمر وجبل الأشل وسبب هلاكه

حدّثني عمرُ بن شبّة ، قال: حدّثني حاتم بن قَبيصة ، قال : حدّثنا غالب بن سليمان ، عن عبدالله الرحمن بن صبح ، قال : كنتُ مع الحَكَم بن عمرو بخُراسان ، فكتب زيادُ إلى عَمرو: إنّ أهلَ جبل الأشلّ سلاحُهم اللُّبود ، وآنِيتهم الذّهب . فغزاهم حتى توسّطوا ، فأخذوا بالشّعاب والطرق ، فأحدقوا به ، فعيّ بالأمر ، فولّى المهلّب الحرب ، فلم يزل المهلب يحتال حتى أخذ عظيماً من عظمائهم ، فقال له : اختَرْ بين أن أقتلَك ، وبين أن تُخرِجَنا من هذا المَضيق ؛ فقال له : أوْقِد النارَ حيالَ الطريق من هذه الطُّرُق ، ومر بالأثقال فلتُوجَّه نحوه ، حتى إذا ظنّ القوم أنكم قد دخلتم الطريق لتسلكوه فإنّهم يستجمعون لكم ، ويُعَرُّون ما سواه من الطرق ، فبادِرْهم إلى غيره فإنهم لا يدركونك حتى تخرج منه . ففعلوا ذلك ، فنجا وغَنِموا غنيمةً عظيمة .

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي بن محمد؛ قال: لما قفل الحَكَم بن عمرو من غَزْوة جبل الأشلّ ولّي المهلّب ساقتَه ، فسلكوا في شِعاب ضيّقة ، فعارَضَه التُّرك فأخذوا عليهم بالطُّرق ، فوجدوا في بعض تلك الشِّعاب رجلاً يتغنّى من وراء حائط ببيتين :

تَعَزَّ بصبرٍ لا وجَدِّكَ لا تَرَى سَنام الحِمَى أُخرى اللّيالي الغوابر
كأَنّ فؤادي من تذكُّرِيَ الحِمَى وأهلَ الحمى يهفُو به ريشُ طائِرِ

فأتى به الحَكَم ، فسأله عن أمره ، فقال : غايرتُ ابنَ عمّ لي ، فخرجتُ ترفَعني أرض وتَخفِضني أخرى ، حتى هَبَطتُ هذه البلاد . فحمله الحكمُ إلى زياد بالعراق .

قال : وتخلّص الحكَم من وجهه حتى أتى هَراةَ ، ثم رجع إلى مَرْو .

حدّثني عمر ، قال : حدّثني حاتم بن قَبيصة ، قال : حدّثنا غالب بنُ سليمانَ ، عن عبدالرحمن بن صُبْح ، قال : كتب إليه زياد : والله لئن بقيتُ لك لأقطعنّ منك طابَقاً سحتا ، وذلك أنّ زياداً كتب إليه لما وَرَد بالخبر عليه بما غنم : إنّ أمير المؤمنين كتب إليّ أن اصطفَي له صفراءَ وبيضاء والروائع فلا تحرّكنّ شيئاً حتى تخرِج ذلك .

فكتب إليه الحكم : أما بعد ، فإنّ كتابَك ورد ،تَذكُر أنّ أمير المؤمنين كتب إليَّ أن أصطفيَ له كلَّ صفراءَ وبيضاء والروائع ، ولا تحرّكَنّ شيئاً ؛ فإن كتاب الله عزّ وجلّ قبل كتابِ أميرِ المؤمنين ، وإنه واللّهِ لو كانت السموات والأرض رَتْقاً على عبدٍ اتّقى اللّهَ عزّ وجلّ جعل الله سبحانه وتعالى له مَخرَجاً .

وقال للناس : اغدوا على غنائمكم ؛ فغدَا الناس ، وقد عزَل الخُمْس ، فقسم بينهم تلك الغنائم ؛ قال : فقال الحكَم : اللهمّ إن كان لي عندَك خير فاقبضني ؛ فمات بخُراسان بمَرْو .

قال عمر: قال علي بن محمد : لما حَضَرت الحكمَ الوفاةُ بمرْو ، استخلَفَ أنس بن أبي أناس ، وذلك في سنة خمسين .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين
ذكر ما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها مَشتَى فضالة بن عُبيد بأرض الروم ، وغزوة بُسْر بن أبي أرطاةَ الصائفة ، ومَقتَل حُجْر بن عَدِيّ وأصحابه .

ذكر سبب مقتله :

قال هشام بن محمد ؛ عن أبي مخنف ، عن المجالد بن سعيد ، والصقْعب بن زهير ، وفضيل بن خَدِيج ، والحسين بن عُقْبة المراديّ ، قال : كلٌّ قد حدّثني بعضَ هذا الحديث ، فاجتمع حديثهم فيما سُقت من حديث حُجْر بن عديّ الكِنْديّ وأصحابه : إنّ معاوية بن أبي سُفْيان لما ولّي المغيرة بن شُعبة الكوفة في جمادى سنة إحدى وأربعين دَعاه ، فحمِد الله وأثنَى عليه ثم قال : أمّا بعد فإن لذي الحِلْم قبل اليوم ما تُقرَع العَصَا ، وقد قال المتلمّس :

لِذِي الحِلْم قبلَ اليوم ما تُقْرَعُ العصا وما عُلِّمَ الإنسانُ إلاّ لِيَعْلَمَا

وقد يجزي عنك الحكيم بغير التعليم ، وقد أردت إيصاءك بأشياءَ كثيرة ، فأنا تاركُها اعتماداً على بَصرك بما يرضيني ويُسعد سلطاني ، ويُصْلَحُ به رعيّتي ، ولست تاركاً إيصاءك بخَصْلة : لا تتحمَّ عن شتمِ علي وذمّه ، والترحّم على عثمانَ والاستغفار له ، والعيب على أصحاب علي ، والإقصاء لهم ، وترك الاستماع منهم ؛ وبإطراء شيعة عثمان رضوان الله عليه ، والإدناء لهم ، والاستماع منهم. فقال المغيرة: قد جَرّبْتُ وجُرّبتُ، وعملتُ قَبْلك لغيرك ، فلم يُذِممْ بي دَفْع ولا رفع ولا وَضْع ، فستبلو فتُحمِد أو تُذِمّ . قال : بل نحمِد إن شاء الله .

قال أبو مخنف : قال الصقعب بن زهير : سمعتُ الشعبيّ يقول : ما ولِيَنا والٍ بعده مِثله ، وإن كان لاحقاً بصالح مَن كان قبله من العمّال .

وأقام المغيرةُ على الكوفة عاملاً لمعاوية سبعَ سنين وأشهراً ، وهو من أحسن شيء سِيرةً ، وأشدّه حبًّا للعافية ، غير أنه لا يدَع ذمّ علي والوقوعَ فيه والعيبَ لقتَلة عثمان ، واللّعن لهم ، والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له ، والتزكيةَ لأصحابه ، فكان حُجْر بن عديّ إذا سمع ذلك قال : بل إيّاكم فذمّم الله ولعن ! ثم قام فقال : إنّ الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾[1] ، وأنا أشهد أن من تذّمون وتعيّرون لأحقّ بالفضل ، وأنّ من تزكّون وتُطْرُون أوْلى بالذمّ فيقول المغيرة: يا حُجْر ، لقد رُمِيَ بسهمك ، إذ

(١) سورة النساء: ١٣٥ .

كنتُ أنا الوالي عليك ، يا حُجْر وَيْحك ! اتّق السلطان ، اتق غضبَه وسطوتَه ، فإنّ غضْبَةَ السلطان أحياناً مما يُهلِك أمثالَك كثيراً . ثم يكفّ عنه ويصفح .

فلم يزل حتى كان في آخر إمارته قام المغيرة فقال في علي وعثمان كما كان يقول ، وكانت مقالته : اللهمّ ارحم عثمانَ بنَ عفان وتجاوَزْ عنه ، وأجزِه بأحسنِ عمله ، فإنه عَمِل بكتابك ، واتّبع سنة نبيّك ﷺ ، وجَمَع كلمتنا ، وحقَن دماءَنا ، وقُتل مظلوماً ؛ اللهم فارحم أنصارَه وأولياءه ومحبّيه والطالبين بدمه ! ويدعو على قتَلته . فقام حُجْر بن عديّ فنعَر نعرةً بالمغيرة سمِعَها كلّ مَن كان في المسجد وخارجاً منه ، وقال : إنك لا تدري بمن تولع من هَرَمك ! أيها الإنسان ، مُرْ لنا بأرزاقنا وأعطِياتنا ، فإنك قد حبستَها عنا ، وليس ذلك لك ، ولم يَكن يطمع في ذلك مَن كان قبلَك ، وقد أصبحت مولَعاً بذمِّ أمير المؤمنين ، وتقريظِ المجرِمين . قال : فقام معه أكثر من ثُلُثي الناس يقولون : صَدَق والله حُجْر وبَرّ ، مُرْ لنا بأرزاقنا وأعطِياتنا ، فإنا لا ننتفع بقولك هذا ، ولا يجدي علينا شيئاً ؛ وأكثروا في مِثل هذا القول ونحوه . فنزل المغيرة ، فدخل واستأذن عليه قومُه ، فأذن لهم ، فقالوا : علامَ تترك هذا الرجلَ يقول هذه المقالة ، ويجترىء عليك في سلطانك هذه الجرأة ! إنّك تجمع على نفسك بهذا خصلتين : أما أوّلهما فتهوين سلطانِك ، وأما الأخرى فإنّ ذلك إن بلغ معاوية كان أسخَطَ له عليه ـ وكان أشدّهم له قولاً في أمر حُجْر والتعظيم عليه عبدالله أبي عقيل الثَّقَفيّ ـ فقال لهم المغيرة : إنّي قد قتلته ؛ إنه سيأتي أميرٌ بعدي فيحسَبه مثلي فيصنع به شبيهاً بما ترونه يصنع بي ، فيأخذه عند أوّل وهلة فيقتله شرّ قتلة ؛ إنه قد اقترب أجلي ، وضَعُف عملي ، ولا أحبّ أنْ أبتدىء أهلَ هذا المِصر بقتل خيارهم ، وسَفْكِ دمائهم ، فيسعدوا بذلك وأشقى ، ويعزّ في الدنيا معاوية ، ويذلّ يوم القيامة المغيرة ؛ ولكني قابلٌ من محسنهم ، وعافٍ عن مسيئهم ، وحامدٌ حليمَهم ، وواعظٌ سفيهَهم ، حتى يفرّق بيني وبينهم الموت ، سيذكرونني لو قد جرّبوا العمّالَ بعدي .

قال أبو مخنف : سمعتُ عثمان بنَ عقبة الكنديّ ، يقول : سمعت شيخاً للحيّ يذكر هذا الحديث يقول : قد واللّهِ جرّبناهم فوجدناه خيرَهم ، أحمَدهم للبريء ، وَأَغْفَرَهم للمسيء ، وأقبَلَهم للعذر .

قال هشام : قال عَوانة : فوليَ المغيرة الكوفة سنة إحدى وأربعين في جُمادى ، وهلك سنة إحدى وخمسين ، فجُمِعت الكوفة والبَصرة لزياد بن أبي سُفْيان ، فأقبل زياد حتى دخل القصر بالكوفة ، ثم صعِد المنبر فحمِد اللّهَ وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعد ، فإنّا قد جَرّبنا وجُرّبنا ، وسُسْنا وساسَنا السائسون ، فوجدْنا هذا الأمر لا يَصلُح آخره إلّا بما صَلَح أوّله ، بالطاعة الليّنة المشبّه سرّها بعلانِيتها ، وغيْب أهلها بشاهدهم ، وقلوبهم بألسنتهم ، ووجدنا الناس لا يصلحهم إلّا لين في غير ضَعْف ، وشدّة في غير عُنْف ، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلّا أمضيته على أذلاله ، وليس من كذبة الشاهد عليها من الله والناس أكبر من كِذْبة إمام على المنبر . ثم ذكر عثمانَ وأصحابَه فقرّظهم ، وَذَكَر قَتَلته ولَعَنهم . فقام حُجر ففعل مِثل الذي كان يفعل بالمغيرة ، وقد كان زيادٌ قد رجع إلى البصرة ووليَ الكوفة عَمرَو بن الحريث ، وَرَجَع إلى البصرة فبَلغَه أنّ حُجْراً يجتمع إليه شيعة علي ، ويُظهرون لعنَ معاوية والبراءة منه ، وأنهم حَصَبوا عمرَو بن الحريث ، فَشَخص إلى الكوفة حتى دخلها ، فأتى القصر فدخله ، ثم خرج فصَعِد المنبر وعليه قَبَاء سُنْدس ومُطرَف خَزّ أخضر ، قد فرق شعره ، وحُجْر جالسٌ في المسجد حولَه أصحابُه أكثر ما كانوا ، فحمِد الله وأثنَى عليه ، ثم قال : أمّا بعد ، فإنّ غِبَّ

البَغْي والغيّ وخيم ، إنّ هؤلاء جمّوا فأشِروا ، وأمنوني فاجترؤوا عليَّ، وايمُ الله لئن لم تستقيموا لأداوينّكم بدوائكم ؛ وقال : ما أنا بشيء إن لم أمنع باحةَ الكوفة من حُجْر وأدَعْه نكالاً لمن بعدَه ! ويلُ امّك يا حُجر ! سَقَط العَشاء بك على سِرْحان ، ثم قال :

أبلغْ نُصَيحَةَ أنّ راعِي إبْلِها ... سَقَط العَشاءُ بِهِ على سِرْحان

وأما غيرُ عوانة ، فإنه قال في سبب أمر حُجر ما حدّثني علي بن حسن قال: حدّثنا مسلم الجَرْمي ، قال: حدّثنا مخلَد بن الحسن ، عن هشام ، عن محمد بن سيرين ، قال: خطب زياد يوماً في الجمعة فأطال الخطبة وأخّر الصلاة ، فقال له حُجْر بن عديّ : الصلاة ! فمضى في خطبته ، ثم قال : الصلاة ! فمضى في خطبته ، فلما خشي حُجر فَوْتَ الصلاة ضرب بيده إلى كفّ من الحصا ، وثارَ إلى الصلاة وثار الناسُ معه ، فلما رأى ذلك زياد نزل فصلّى بالنّاس ، فلما فرغ من صلاته كتب إلى معاوية في أمره ، وكثّر عليه .

فكتب إليه معاوية أن شُدَّه في الحديد ، ثم احمله إليّ . فلما أن جاء كتاب معاوية أراد قومُ حُجر أن يَمنعوه ، فقال : لا ، ولكن سمعٌ وطاعة ، فشدّ في الحديد ، ثم حُمل إلى معاوية ، فلما دخل عليه قال : السّلام عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته ، فقال له معاوية : أميرَ المؤمنين! أما والله لا أقِيلك ولا أَستَقِيلك ، أخرجوه فاضربوا عنقَه ، فأخرج من عنده ، فقال حُجر للذين يَلُون أمرَه : دعوني حتى أصلّي ركعتين ؛ فقالوا : صلِّ ؛ فصلّى ركعتين خفف فيهما ، ثم قال: لولا أن تظنّوا بي غيرَ الذي أنا عليه لأحببتُ أن تكونا أطوَلَ مما كانتا ، ولئن لم يكن فيما مضى من الصلاة خيرٌ فما في هاتين خير ؛ ثم قال لمن حضره مِن أهلِه : لا تُطلِقوا عني حديداً ، ولا تغسلوا عني دماً ، فإني ألاقي معاوية غداً على الجادّة . ثم قُدِّم فضربتْ عنقُه .

قال مخلد : قال هشام : كان محمد إذا سئل عن الشهيد يُغسَّل ، حدَّثهم حديثَ حُجْر .

قال محمد : فلقِيَتْ عائشة أمّ المؤمنين معاوية ـ قال مخلد: أظنّه بمكة ـ فقالت : يا معاوية ، أين كان حِلمُك عن حُجْر ! فقال لها: يا أمّ المؤمنين ، لم يحضرني رشيد !

قال ابن سيرين : فبلغنا أنه لما حضرتْه الوفاة جعل يُغرغِر بالصوت ويقول : يومي منك يا حُجْر يومٌ طويل !

قال هشام ، عن أبي مخنف ، قال: حدّثني إسماعيل بن نُعَيم النَّمَريّ ، عن حسين بن عبدالله الهَمْدانيّ ، قال : كنت في شُرَط زياد ، فقال زياد : لينطلِقْ بعضُكم إلى حُجْر فليدْعُه ؛ قال : فقال لي أمير الشُّرْطة ـ وهو شدّاد بن الهيثم الهلاليّ : اذهب إليه فادْعه ؛ قال : فأتيتُه ، فقلت : أجِب الأميرَ ؛ فقال أصحابه : لا يأتيه ولا كرامة ! قال : فرجعت إليه فأخبرته ، فأمر صاحبَ الشُّرْطة أن يبعث معي رجالاً ، قال: فبعث نفراً ؛ قال : فأتيناه فقلنا : أجب الأمير ، قال : فسبّونا وشَتَمونا ، فرجعنا إليه فأخبرناه الخبر، قال: فوثب زياد بأشراف أهلِ الكوفة، فقال: يا أهل الكوفة، أتشجّون بيدٍ وتَأسُون بأخرى! أبدانكم معي وأهواؤكم مع حُجر! هذا الهَجهاجة الأحمق المذبوب أنتم معي وإخوانُكم وأبناؤكم وعشائركم مع حُجر! هذا والله من دَحْسكم وغِشكم! والله لتظهرَنّ لي براءَتُكم أو لآتينّكم بقوم أقيم بهم أوَدكم وصَعَركم! فوَثبوا إلى زياد ، فقالوا : معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما ها هنا رأي إلّا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين ، وكلّ ما ظننا أنّ فيه رضاك ، وما يَستبين به طاعَتَنا وخلافنا لحُجر فمُرْنا به ، قال : فليقم كلّ امرىء منكم إلى هذه الجماعة

حولَ حُجر فليدْعُ كلّ رجل منكم أخاه وابنه وذا قرابته ومن يطيعه من عشيرته ، حتى تقيموا عنه كلّ مَن استطعتم أن تقيموه . ففعلوا ذلك ، فأقاموا جُلّ من كان مع حُجْر بن عدّي ، فلما رأى زياد أنّ جُلّ مَن كان مع حُجْر أقيم عنه ، قال لشدّاد بن الهيثم الهلالي ـ ويقال : هيثم بن شدّاد أمير شرطته ـ : انْطلِق إلى حُجْر ، فإن تَبعك فأتِني به ، وإلاّ فمرْ مَن معك فلينتزعوا عُمُد السوق ، ثم يشدّوا بها عليهم حتى يأتوني به ويضربوا مَن حال دونَه . فأتاه الهلاليّ فقال : أجب الأميرَ؛ قال : فقال أصحاب حُجْر : لا ولا نُعمةَ عين ! لا نجيبه . فقال لأصحابه : شُدّوا على عُمد السوق ، فاشتدّوا إليها ، فأقبلوا بها قد انتزعوها ، فقال عمير بن يزيدَ الكنديّ من بني هند ـ وهو أبو العَمَرَّطة : إنه ليس معك رجل معه سيفٌ غيري ، وما يغني عنك! قال : فما ترى؟ قال : قُمْ من هذا المكان فالحق بأهلِك يَمنَعْك قومُك . فقام زياد ينظر إليهم وهو على المنبر ، فغشوا بالعُمُد ، فضرب رجل من الحمراء ـ يقال له بكر بن عبيد ـ رأس عَمرو بن الحَمِق بعمود فوقع ، وأتاه أبو سُفْيان بن عُوَيمر والعَجْلان بن ربيعة ـ وهما رجلان من الأزْد ـ فحَمَلاه ، فأتَيَا به دار رَجل من الأزدْ ـ يقال له عبيدالله بن مالك ـ فخبّآه بها ، فلم يزل بها متوارياً حتى خرج منها .

قال أبو مخنف : فحدّثني يوسف بن يزيد ، عن عبدالله بن عوف بن الأحمر ، قال : لما انصرفنا من غزوة باجُميرا قبل مَقتل مُصعب بعام ، فإذا أنا بأحمريّ يسايرني ـ ووالله ما رأيته من ذلك اليوم الذي ضرب فيه عمرو بن الحَمِق ، وما كنت أرى لو رأيتُه أن أعرفَه ـ فلما رأيته ظننتُ أنه هو هو ؛ وذاك حين نظرْنا إلى أبيات الكوفة ، فكرهتُ أن أسألَه : أنت الضارب عمرو بن الحَمِق ؟ فيُكابرني ، فقلت له : ما رأيتُك من اليوم الذي ضربتَ فيه رأسَ عمرو بن الحمق بالعمود في المسجد إلى يومي هذا ، ولقد عرفتُك الآن حين رأيتُك ؛ فقال لي : لا تَعْدم بصرَك ، ما أثبتَ نظرَك ! كان ذلك أمرُ الشيطان ، أما إنه قد بلغني أنه كان امرأ صالحاً ، ولقد ندمتُ على تلك الضربة ، فأستغفر الله . فقلت له : ألا ترى والله لا أفترق أنا وأنت حتى أضربَك على رأسك مِثلَ الضّربة التي ضربتَها عمرَو بن الحمق أو أموت أو تموت ! فناشَدَني الله وسألني الله ، فأبَيْتُ عليه ، ودعوتُ غلاماً لي يُدعَى رشيداً من سَبْي أصبهان معه قَناة له صُلْبة ، فأخذتُها منه ، ثم أحمل عليه بها ، فنزل عن دابّته ، وألحقه حين استوت قَدَماه بالأرض ، فأصفع بها هامّتَه ، فخرّ لوجهه ، ومضيتُ وتركته . فبرَأ بعدُ؛ فلقيتُه مرّتين من الدهر ، كلّ ذلك يقول : الله بيني وبينك! وأقول : الله عزّ وجلّ بينك وبين عَمرو بن الحَمِق !

ثم رجع إلى أوّل الحديث . قال : فلما ضرب عمراً تلك الضربة وحمَلَه ذانك الرّجلان ، انحاز أصحابُ حُجْر إلى أبواب كِنْدة ، ويضرب رجلٌ من جُذام كان في الشُّرْطة رجلاً يقال له عبدُالله بن خليفة الطائي بعمود ، فضَرَبه ضربةً فصرعه ، فقال وهو يرتجز :

قد عَلِمَتْ يَوْمَ الهِياج خُلَّتي ... أني إذا ما فِيَّ تَولّتِ
وكَثُرَتْ عُداتُها أو قَلّتِ ... أنّ قتّالُ غداةَ بَلّتِ

وضُربتْ يد عائذ بن حملة التميمي وكُسرتْ نباه ، فقال :

إنْ تَكسِروا نابي وَعَظْمَ سَاعِدِي ... فإنَّ فيَّي سَوْرَةَ المُناجِدِ
وبعْضَ شَغْبِ البَطَلِ المُبالِدِ

وينتزع عموداً من بعض الشُّرْطة ، فقاتل به وحَمَى حُجْراً وأصحابه ؛ حتى خرجوا من تِلقاء أبواب

كِنْدة ، وبغلة حُجْر موقوفة ، فأتى بها أبو العمرّطة إليه ، ثم قال : اركب لا أبَ لغيرك ! فوالله ما أراك إلّا قد قتلتَ نفسك ، وقتلتَنا معك ؛ فوضع حُجْر رجلَه في الرِّكاب ؛ فلم يستطع أن ينهض ، فحمله أبو العمرّطة على بلغته ، ووثب أبو العمرّطة على فرسه ؛ فما هو إلّا أن استوى عليه حتى انتهى إليه يزيد بن طريف المُسْلِيّ - وكان يَغْمِز - فضرب أبا العمرّطة بالعمود على فخذِه ، ويخترط أبو العمرّطة سيفه ، فضرب به رأس يزيد بن طريف ، فخرّ لوجهه . ثم إنه برأ بعدُ، فله يقول عبدالله بن همّام السّلوليّ :

أَلُؤمَ ابْنَ لُؤمٍ ما عدا بك حاسِراً إلى بَطَلٍ ذي جُرْأةٍ وَشَكِيمِ !
معاوِدِ ضَرْبِ الدَّارِعين بسَيْفِهِ على الهام عند الرَّوْع غَيْرَ لئيم
إلىٰ فارسِ الغارَيْنِ يومَ تلاقيا بصِفِّينَ قَرْمٍ خَيْرِ نَجلِ قُرُوم
حَسِبْتَ ابنَ بَرْصاءَ الحِتار قِتالَهُ قِتالَك زَيْداً يَوْمَ دارِ حَكِيم

وكان ذلك السيف أوّل سيف ضُرب به في الكوفة في الاختلاف بين الناس . ومضى حُجْر وأبو العَمَرّطة حتى انتهيا إلى دار حُجْر ، واجتمع إلى حُجْر ناس كثير من أصحابه ، وخرج قيس بن فهدان الكِنديّ على حمار له يسير في مجالس كِنْدة ، يقول :

يا قَوْمَ حُجْرٍ دافِعُوا وصاوِلُوا وعَنْ أخيكُمْ ساعَةً فقاتِلوا
لا يُلْفَيَاً مِنكُمْ لحُجرٍ خاذِلُ أَلَيْسَ فيكُمْ رامِحٌ ونابِلُ
وفارِسٌ مُسْتَلْئِمٌ وراجِلُ وضارِبٌ بالسَّيْفِ لا يُزايِلُ!

فلم يأته من كِنْدة كثير أحد . وقال زياد وهو على المنبر: ليقم همْدان وتميم وهَوازن وأبناء أعصُر ومذحِج وأسد وغَطفان فليأتوا جبّانةَ كِنْدة ، فليَمْضوا مِنْ ثمّ إلى حُجْر فليأتوني به . ثم إنه كره أن يسيّرَ طائفةً من مضرَ مع طائفة من أهل اليَمَن فيقع بينهم شَغَب واختلاف، وتَفسُد ما بينهم الحميّة ، فقال: لتقُم تميم وهَوازنُ وأبناء أعصُر وأسَد وغَطَفان ، ولتمضِ مَذحِج وهَمْدان إلى جبّانة كِنْدة ، ثم لينهضوا إلى حُجْر فليأتوني به ، وليَسِرِ سائر أهلِ اليمن حتى ينزلوا جبّانة الصائديّين فليمضوا إلى صاحبهم ، فليأتوني به . فخرجَتِ الأزْدُ وبَجيلةُ وخثعم والأنصار وخُزاعة وقضاعة ، فنزلوا جبّانة الصائديّين ، ولم تخرج حضرموت مع أهل اليَمَن لمكانهم من كِنْدة ، وذلك أنّ دعوة حضرموتَ مع كِنْدة، فكرهوا الخروجَ في طلب حجر .

قال أبو مخنف: حدّثني يحيى بن سعيد بن مخنف، عن محمد بن مخنف ، قال: إني لمع أهل اليَمَن في جبّانة الصائديّين إذ اجتمع رؤوس أهلِ اليَمَن يتشاورون في أمر حُجْر ، فقال لهم عبدالرحمن بن مِخنف : أنا مشير عليكم برأيٍ إن قبلتموه رجوتُ أن تسلموا من اللائمة والإثم ، أرى لكم أن تَلبثوا قليلاً فإنّ سُرْعان شباب هَمْدان ومذحِج يَكفُونكم ما تكرهون أن تلُوا من مساءة قومكم في صاحبكم قال: فأجمع رأيهم على ذلك، قال: فوالله ما كان إلّا كلا ولا حتى أتينا، فقيل لنا: إن مذحِج وهَمْدانَ قد دخلوا فأخذوا كلّ مَن وجدوا من بني جَبَلَة . قال: فمرّ أهل اليمن في نواحي دور كِندة معذِّرة ، فبلغ ذلك زياداً ، فأثنَى على مذحِج وهَمْدانَ وذمّ سائرَ أهل اليمن . وإنّ حُجراً لما انتهى إلى داره فنظر إلى قلّة مَنْ معه من قومه ، وبلغه أنّ مذحِج وهَمْدان نزلوا جبّانة كندة وسائر أهل اليمن جبّانة الصائديّين قال لأصحابه : انصرفوا فوالله مالكم طاقةٌ بمن قد اجتمع عليكم من قومكم ، وما أحبّ أن أعرّضكم للهلاك ؛ فذهبوا لينصرفوا ، فلحقتْهم أوائلُ خيل مذحِج وهَمْدان.

فعطف عليهم عمير بن يزيد وقيس بن يزيد وعبيدة بن عمرو البدِيّ وعبدالرحمن بن مُحرِز الطّمحيّ وقيس بن شِمر ، فتقاتلوا معهم ، فقاتلوا عنه ساعة فجرِحوا ، وأسِر قيس بن يزيد ، وأفلت سائر القوم ، فقال لهم حجر : لا أبَا لكم ! تفرّقوا لا تقاتلوا فإني آخُذُ في بعض السِّكك . ثم آخذ طريقاً نحوَ بني حرب ، فسار حتى انتهى إلى دارِ رجل منهم يقال له سليم بن يزيد ، فدخل دارَه ، وجاء القومُ في طلبه حتى انتهوا إلى تلك الدار ، فأخذ سليم بن يزيد سيفَه ، ثم ذهب ليخرج إليهم ، فبكتْ بناتُه ؛ فقال له حُجْر : ما تريد؟ قال : أريد والله أسألهم أن ينصرفوا عنك ، فإن فعلوا وإلاّ ضاربتُهم بسيفي هذا ما ثبتَ قائمُه في يدي دونك ؛ فقال حُجر : لا أبا لغيرك! بئس ما دخلتَ به إذاً على بناتك! قال : إنّي والله ما أُمُونُهنّ ، ولا رزقُهنّ إلا على الحيّ الذي لا يموت ؛ ولا أشتري العارَ بشيء أبداً ، ولا تخرج من داري أسيراً أبداً وأنا حيّ أملك قائمَ سيفي ، فإنْ قتِلتُ دونك فاصنع ما بدا لك . قال حُجر : أما في دارك هذه حائط أقتحمه ، أو خَوْخة أخرج منها ، عسى أن يسلمني الله عزّ وجلّ منهم ويسلّمك ، فإذا القوم لم يَقدِروا عليّ عندك لم يضروك! قال : بلى هذه خَوْخة تخرجك إلى دور بني العنبر وإلى غيرهم من قومك ، فخرج حتى مرّ ببني ذُهْل ، فقالوا له : مَرَّ القومُ آنفاً في طلبك يقفُون أثرَك . فقال : منهم أهرُب ؛ قال : فخرج ومعه فِتْية منهم يتقصّوْن به الطريق ، ويسلُكون به الأزقّة حتى أفضَى إلى النَّخَع ، فقال لهم عند ذلك : إنصرِفوا رحمكم الله! فانصرَفوا عنه ، وأقبل إلى دار عبدالله بن الحارث أخي الأشتر فدخلها ، فإنّه لكذلك قد ألقى له الفُرُشَ عَبدُالله ، وبسط له البُسُط ، وتلقّاه ببَسْط الوجه ، وحُسن البِشْر ، إذ أتى فقيل له : إنّ الشُّرَط تسأل عنك في النَّخَع ـ وذلك أنّ أمةً سوداء يقال لها : أدماء ، لقيتْهم ، فقالت : مَنْ تطلبون؟ قالوا : نطلب حُجْراً ؛ قالت : ها هو ذا قد رأيتُه في النَّخَع ، فانصرفوا نحو النَّخَع ـ فخرج من عند عبدالله متنكِّراً ، ورَكِب معه عبدُالله بنُ الحارث ليلاً حتى أتى دارَ ربيعة بن ناجد الأزديّ في الأزْد ، فنزلها يوماً وليلة ، فلما أعجزَهم أن يقدروا عليه دعا زياد بمحمد بن الأشعث فقال له : يا أبا مَيْثاء ، أما والله لتأتيني بحُجْر أو لا أدَع لك نخلةً إلاّ قطعتُها ، ولا داراً إلاّ هدمتها ثم لا تسلَم مني حتى أقطّعَك إرْباً إرْباً ؛ قال : أمهِلني حتى أطلبه ؛ قال : قد أمهلتك ثلاثاً ، فإن جئتَ به وإلاّ عُدّ نفسك مع الهَلْكَى . وأخرِج محمد نحو السجن منتقع اللون يُتَلّ تلاً عنيفاً ، فقال حُجر بن يزيد الكنديّ لزياد : ضَمّنّيه وخلّ سبيلَه يطلب صاحبه ؛ فإنه مخلًّى سَرْبُه ـ أحْرى أن يقدر عليه منه إذا كان محبوساً . فقال أتضْمنه؟ قال : نعم ؛ قال : أما والله لئن حاصَ عنك لأزيرنّك شَعوب ، وإن كنت الآن عليَّ كريماً . قال : إنه لا يفعل ، فخلّي سبيله .

ثمّ إن حُجر بن يزيد كلمه في قيس بن يزيد ، وقد أُتِيَ به أسيراً ، فقال لهم : ما على قيس بأس ، قد عرفْنا رأيَه في عثمان ، وبلاءَه يومَ صِفّين مع أمير المؤمنين ، ثم أرسل إليه فأتِيَ به ، فقال له : إني قد علمتُ أنك لم تقاتل مع حُجْر؛ أنك ترى رأيَه ، ولكن قاتلتَ معه حميّة قد غفرتُها لك لما أعلَم من حُسن رأيك ، وحُسن بلائك ؛ ولكن لن أدعَك حتى تأتيَني بأخيك عمير ؛ قال أجيئك به إن شاء الله ؛ قال : فهاتِ من يضْمَنُه لي معك ، قال : هذا حُجر بن يزيد يضْمنه لك معي ؛ قال حُجْر بن يزيد : نعم أضمنه لك ، على أن تؤمّنه على ماله ودمِه ، قال : ذلك لك ، فانطلَقا فأتيا به وهو جريح ، فأمَرَ به فأوقِر حديداً ، ثم أخذتْه الرجال ترفعه ، حتى إذا بلغ سُرَرَها ألقَوْه ، فوقع على الأرض ، ثم رفعوه وألقوه ، ففعلوا به ذلك مِراراً ، فقام إليه حُجر بن يزيدَ فقال : ألم تؤمّنه على ماله ودمِه أصلحك الله! قال : بلى ، قد آمنته على ماله ودمه ، ولست أهريق له دماً ، ولا آخذ له مالاً . قال : أصلحك الله! يُشفَى به على الموت ؛ ودنا منه وقامَ من كان عنده من أهل اليمن ، فدنَوا

منه وكلّموه ، فقال : أتضمنونه لي بنفسه ، فمتى ما أحدث حدثاً أتيتموني به؟ قالوا : نعم ؛ قال : وتضمنون لي أرْش ضربة المسليّ ، قالوا : ونضمنها ؛ فخلّي سبيلَه .

ومكث حُجر بن عديّ في منزل ربيعة بن ناجد الأزديّ يوماً وليلة ، ثم بعث حُجر إلى محمد بن الأشعث غلاماً له يدعى رشيداً من أهل إصبهان : إنه قد بلغني ما استقبلك به هذا الجبّار العنيد ، فلا يهولنّك شيء من أمره ، فإنّي خارج إليك ، أجمع نفراً من قومك ثم أدخل عليه فأسأله أن يُؤمّنني حتى يبعث بي إلى معاوية فيرى فيّ رأيه .

فخرج ابن الأشعث إلى حُجْر بن يزيد وإلى جرير بن عبدالله وإلى عبدالله بن الحارث أخي الأشتر ، فأتاهم فدخلوا إلى زياد فكلّموه وطلبوا إليه أن يؤمّنه حتى يبعث به إلى معاوية فيرى فيه رأيه ، ففعل ، فبعثوا إليه رسوله ذلك يعلمونه أن قد أخذْنا الذي تسأل ، وأمروه أن يأتي ؛ فأقبل حتى دخل على زياد فقال زياد : مرحباً بك أبا عبدالرحمن ! حرب في أيام الحرب ، وحربٌ وقد سالم الناس! على أهلها تَجني بَراقِش . قال : ما خالعت طاعة ، ولا فارقت جماعة ، وإني لَعلى بيعتي ؛ فقال : هيهات هيهات يا حُجر ! تَشُجّ بيد وتأسو بأخرى ، وتريد إذ أمكَن الله منك أن نرضى ! كلاّ واللّهِ . قال : ألم تؤمّنّي حتى آتَى معاوية فيرى فيّ رأيه ! قال : بلى قد فعلْنا ، انطلقوا به إلى السجن ، فلما قُفّيَ به من عنده قال زياد : أما والله لولا أمانُه ما برح أو يلفظ مهجة نفسه .

قال هشام بنُ عروة : حدّثني عوانة ، قال : قال زياد : والله لأحرِصنّ على قطع خيط رقبته .

قال هشام بن محمد ؛ عن أبي مخنف ، وحدثني المجالد بن سعيد، عن الشعبي وزكرياء بن أبي زائدة ، عن أبي إسحاق ؛ أنّ حُجراً لما قُفّيَ به من عند زياد نادَى بأعلى صوْته : اللهمّ إنّي على بيْعتي ، لا أقِيلُها ولا أستقيلُها ، سماعَ اللّهِ والناس . وكان عليه بُرنُس في غداة باردة ، فحبس عشرَ ليال ، وزيادُ ليس له عمل إلاّ طلب رؤساء أصحاب حُجر ، فخرج عَمرو بنِ الحَمَق ورفاعة بن شدّاد حتى نزلا المدائن ، ثم ارتحلا حتى أتيا أرضَ الموصل ، فأتيا جبلا فكَمِنا فيه ، وبلغ عاملَ ذلك الرّستاق أنّ رجلين قد كمِنا في جانب الجبل ، فاستنكر شأنهما ـ وهو رجل من هَمْدان يقال له عبدالله بن أبي بَلْتعة ـ فسار إليهما في الخيل نحو الجبل ومعه أهل البلد ، فلما انتهى إليهما خرجا ، فأما عمرو بن الحَمِق فكان مريضاً ، وكان بطنُه قد سَقَى ، فلم يكن عنده امتناع ؛ وأما رفاعة بن شدّاد ـ وكان شابًّا قويًّا ـ فوثب على فرس له جواد ، فقال له : أقاتل عنك؟ قال : وما ينفعني أن تقاتل! انجُ بنفسك إن استطعتَ ، فحمل عليهم ، فأفرجوا له ، فخرج تنفِر به فرسُه ، وخرجت الخيلُ في طلبه ـ وكان رامياً ـ فأخذ لا يلحقه فارسٌ إلاّ رماه فجرحه أو عَقَره ، فانصرفوا عنه ، وأخذ عمرو بن الحَمِق ، فسألوه : مَن أنت؟ فقال : مَن إن تركتموه كان أسَلَم لكم ، وإن قتلتموه كان أضرّ لكم ؛ فسألوه : فأبَى أن يخبرهم ، فبعث به ابن أبي بَلْتعة إلى عامل الموصل ـ وهو عبدالرحمن بن عبدالله بن عثمان الثقفي ـ فلما رأى عَمرو بن الحَمِق عَرفه ، وكتب إلى معاوية بخبره ، فكتب إليه معاوية : إنه زعم أنه طعن عثمانَ بن عفّان تسع طَعَنات بمَشاقص كانت معه ، وإنا لا نريد أن نعتديَ عليه ، فاطعنه تسعَ طَعَنات كما طعن عثمان ، فأُخرِج فطُعِن تسعَ طَعَنات ، فمات في الأولى منهنّ أو الثانية .

قال أبو مخنف : وحدّثني المجالد ، عن الشعبي وزكرياء بن أبي زائدة ، عن أبي إسحاق . قال : وجّه زياد في طلب أصحاب حُجر ، فأخذوا يَهرُبون منه ، ويأخذ من قَدَر عليه منهم ، فبعث إلى قَبيصة بن ضُبَيعة بن

حَرْملة العبسيّ صاحب الشُّرْطة ـ وهو شدّاد بن الهيثم ـ فدعا قَبيصة في قومه ، وأخذ سيفَه ، فأتاه رِبعيّ بن خِراش بن جَحْش العبسيّ ورجال من قومه ليسوا بالكثير ، فأراد أن يقاتل ، فقال له صاحب الشُّرْطة : أنت آمن على دمك ومالك ، فلِمَ تقتل نفسك ؟ فقال له أصحابُه : قد أومِنتَ ، فعَلام تقتل نفسَك وتقتلنا معك! قال: ويحكم! إنّ هذا الدَّعيَّ ابنَ العاهرة ، واللّهِ لئن وقعتُ في يده لا أفلت منه أبداً أو يقتلني ؛ قالوا : كلاّ ، فوضع يَده في أيديهم ، فأقبَلوا به إلى زياد ، فلما دخلوا عليه قال زياد : وحيّ عَبْسٍ تُعزّوني على الدّين ، أما والله لأجعلنّ لك شاغلاً عن تلقيح الفِتَن ، والتوثُّب على الأمراء ؛ قال : إني لم آتك إلاّ على الأمان ؛ قال: اِنطلقوا به إلى السجن ، وجاء قيس به عباد الشيبانيّ إلى زياد فقال له: إنّ امرأً منّا من بني همام يقال له : صيفيّ بن فَسيل من رؤوس أصحاب حُجْر ، وهو أشدّ الناس عليك ، فبعث إليه زياد ، فأتِيَ به ، فقال له زياد : يا عدوّ الله ، ما تقول في أبي تراب؟ قال: ما أعرف أبا تراب ؛ قال : ما أعرَفَك به ! قال : ما أعرفه ، قال : أما تعرف عليّ بنَ أبي طالب؟ قال: بلى ، قال: فذاك أبو تراب ، قال: كلاّ ، ذاك أبو الحسن والحسين ، فقال له صاحب الشُّرْطة : يقول لك الأمير : هو أبو تُراب ، وتقول أنتَ : لا! قال: وإن كذب الأمير أتريد أن أكذب وأشهدَ له على باطل كما شهد! قال له زياد: وهذا أيضاً مع ذنبك! عليَّ بالعصا، فأتِيَ بها ، فقال: ما قولك [في علي ؟] ، قال: أحسن قول أنا قائله في عبد من عباد الله [أقوله في] المؤمنين ، قال: اِضرِبوا عاتِقه بالعصا حتى يلصق بالأرض ، فضرب حتى لزمَ الأرض . ثمّ قال : أقلِعوا عنه ، إيهٍ ، ما قولُك في علي ؟ قال: والله لو شرَّحْتَني بالمَواسي والمُدَى ما قلتُ إلاّ ما سمعتَ منّي ؛ قال لتلعَنَنّه أو لأضربنّ عنقكَ ؛ قال : إذاً تضربها والله قبل ذلك ، فإن أبيتَ إلاّ أن تضرِبَها رضيتُ بالله ، وشقيتَ أنت ؛ قال : اِدفعوا في رقبته ، ثم قال: أوقِروه حديداً ، وألقُوه في السجن .

ثم بعث إلى عبدالله بن خليفة الطائيّ ـ وكان شهد مع حُجْر وقاتَلهم قتالاً شديداً ـ فبعث إليه زيادٌ بُكَيرَ بن حُمران الأحمري ـ وكان تبيعَ العمّال ـ فبعثه في أناس من أصحابه ، فأقبلوا في طلبه فوجدوه في مسجد عديّ بن حاتم ، فأخرجوه ، فلما أرادوا أن يذهبوا به ـ وكان عزيز النفس ـ امتنَعَ منهم فحارَبهَم وقاتلهم ، فشجّوه ورَموْه بالحجارة حتى سقط ، فنادتْ ميْثاء أخته : يا معشرَ طيّىء ، أتسلّمون ابنَ خليفةٍ لِسانَكم وسِنانَكم !

فلما سمع الأحمريّ نداءها خشيَ أن تجتمع طيّىء فيهلك ، فهرب وخرج نسوةٌ من طيّىء فأدخلنَه داراً ، وينطلق الأحمري حتى أتى زياداً، فقال: إنّ طيّئاً اجتمعتْ إليَّ فلم أطِقهم ، فأتيتك ، فبعث زيادٌ إلى عَديّ ـ وكان في المسجد ـ فحبسه وقال: جئني به ـ وقد أخبر عديّ بخبر عبدالله ـ فقال عديّ : كيف آتيك برجل قد قَتلَه القوم؟ قال: جئْني حتى أرى أن قد قتلوه، فاعتلّ له وقال: لا أدري أين هو، ولا ما فعل! فحبسه، فلم يبق رجلٌ من أهل المِصْر من أهل اليَمَن وربيعة ومضرَ إلاّ فزع لعديّ ، فأتَوا زياداً فكلّموه فيه ، وأخرِج عبدالله فتغيَّب في بُحْتر، فأرسل إلى عديّ: إن شئتَ أن أخرج حتى أضع يَدِي في يدِك فعلتُ ؛ فبعث إليه عديّ : والله لو كنت تحتَ قدميّ ما رفعتُها عنك . فدعا زياد عديًّا ، فقال له: إني أخلّي سبيلَك على أن تجعل لي لِتنفِيَه من الكوفة، ولتسيرَ به إلى الجبلين ؛ قال: نعم، فرجع وأرسل إلى عبدالله بن خليفة : اخْرج ، فلو قد سكن غضبه لكلّمته فيك حتى ترجع إن شاء الله ؛ فخرج إلى الجبلين .

وأتيَ زياد بكريم بن عَفيف الخثعميّ فقال: ما اسمك؟ قال: أنا كريم بن عفيف ؛ قال: وَيْحك، أو وَيلك ! ما أحسن اسمَك واسمَ أبيك ، وأسوأ عَمَلَك ورأيَك! قال: أما والله إنّ عهدك برأيي لمنذ قريب ، ثم بعث زيادٌ إلى أصحاب حُجْر حتى جمع اثني عشر رجلاً في السجن . ثم إنه دعا رؤوسَ الأرباع ، فقال: إشهَدوا على حُجْر بما رأيتم منه ـ وكان رؤوس الأرباع يومئذ: عَمرو بن حُرَيث على رُبْع أهل المدينة ، وخالد بن عُرْفطة على رُبْع تميم وهَمْدان ، وقيس بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة على رُبع ربيعة وكِنْدة ، وأبو بُرْدة بن أبي موسى على مَذْحِج وأسد ـ فشهِد هؤلاء الأربعةُ أنّ حُجْراً جمع إليه الجموع ، وأظهر شتمَ الخليفة ، ودعا إلى حرب أمير المؤمنين؛ وزعم أن هذا الأمر لا يَصلح إلاّ في آل أبي طالب ، ووثب بالمصر وأخرج عاملَ أمير المؤمنين ، وأظهر عذرَ أبي تراب والترحُّم عليه ، والبراءة من عدوّه وأهل حربه ، وأنّ هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس أصحابه ، وعلى مِثل رأيه وأمره . ثم أمر بهم ليخرجوا ، فأتاه قيس بن الوليد فقال: إنه قد بلغني أنّ هؤلاء إذا خُرِج بهم عَرَض لهم . فبعث زياد إلى الكُناسة فابتاع إبلاً صِعاباً ، فشدّ عليها المَحامِل ، ثم حملهم عليها في الرّحبَة أوّل النهار،حتى إذا كان العشاء قال زياد: مَن شاء فليعرض، فلم يتحرّك من الناس أحد ، ونظر زياد في شهادة الشهود فقال: ما أظنّ هذه الشهادَة قاطعة ، وإني لأحبّ أن يكون الشهود أكثرَ من أربعة .

قال أبو مخنف : فحدّثني الحارث بن حُصَيرة ، عن أبي الكَنُود ـ وهو عبدالرحمن بن عبيد ـ وأبو مخنف، عن عبدالرحمن بن جندب وسليمان بن أبي راشد، عن أبي الكنود بأسماء هؤلاء الشهود :

بسمِ الله الرّحمن الرّحيم . هذا ما شَهِد عليه أبو بُرْدة بن أبي موسى لله ربّ العالمين ؛ شهد أنّ حُجرَ بنَ عديّ خلعَ الطاعةَ ، وفارَق الجماعة ، ولعن الخليفة ، ودعا إلى الحرب والفتنة ، وجمع إليه الجموعَ يدعوهم إلى نَكْث البيعة وخَلْعِ أمير المؤمنين معاوية، وكفرَ بالله عزّ وجلّ كَفْرةً صَلْعاء .

فقال زياد: على مِثل هذه الشهادة فاشهدوا ، أما والله لأجْهَدنّ على قطع خيط عنق الخائن الأحمق، فشهد رؤوس الأرباع الثلاثة الآخرون على مِثل شهادته ـ وكانوا أربعة ـ ثم إنّ زياداً دعا الناس فقال: إشهَدوا على مثل شهادة رؤوس الأرباع . فقرأ عليهم الكتاب ، فقام أوّل الناس عناق بن شُرَحبيل بن أبي دَهم التيمي تيم الله بن ثعلبة ، فقال : بيّنوا اسمي، فقال زياد: ابدؤوا بأسامي قريش، ثمّ اكتبوا اسمَ عناق في الشهود، ومَنْ نعرفه ويعرفه أمير المؤمنين بالنّصيحة والاستقامة . فشهد إسحاق بن طلحة بن عبيدالله، وموسى بن طلحة ، وإسماعيل بن طلحة بن عبيدالله ، والمنذر بن الزبير ، وعُمارة بن عُقْبة بن أبي مُعَيْط ، وعبدالرحمن بن هنّاد ، وعمر بن سعد بن أبي وقّاص ، وعامر بن مسعود بن أميّة بن خلف ، ومحرز بن جارية بن ربيعة بن عبدالعزّى بن عبدشمس ، وعبيدالله بن مسلم بن شعبة الحضرمي ، وعناق بن شُرحبيل بن أبي دَهْم ، ووائل بن حُجْر الحضرمي ، وكَثِير بن شهاب بن حصين الحارثي ، وقَطَن بن عبدالله بن حُصين ، والسريّ بن وقّاص الحارثي ـ وكتب شهادَته وهو غائب في عمله ـ والسائب بن الأقرع الثقفي ، وشَبث بن رِبْعيّ ، وعبدالله بن أبي عَقِيل الثقفي ، وَمَصقَلة بن هبيرة الشيباني ، والقعقاع بن شور الذهلي ، وشدّاد بن المنذر بن الحارث بن وَعْلة الذّهلي ـ وكان يدعى ابن بُزَيعة ، فقال : ما لهذا أبٌ ينسب إليه ! ألقوا هذا من الشهود ، فقيل له : إنه أخو الحَضَين ، وهو ابن المنذر ؛ قال : فانسبوه إلى أبيه ، فنُسب إلى أبيه ، فبلغتْ شدّاداً ، فقال : وَيْلي على ابن الزانية ! أَوَليست أمُّه أَعرَفَ من أبيه ! واللّهِ ما ينسب إلاّ إلى

أمّه سمّية . وحَجّار بن أبجر العجليّ فغضبتْ ربيعة على هؤلاء الشهود الذين شهدوا من ربيعة وقالوا لهم : شهدتم على أوليائنا وحلفائنا ! فقالوا : ما نحن إلاّ من الناس ، وقد شهد عليهم نـاس من قومهم كثـير ـ وعمرو بن الحجاج الزّبيديّ ولبيد بن عُطارد التميمي ، ومحمد بن عُمَير بن عـطارد التميمي ، وسُوَيـد بن عبدالرحمن التميمي من بني سعد ، وأسماء بن خارجة الفَزاريّ ـ كان يعتذر من أمره ـ وشمِر بن ذي الجَوْشن العامريّ ، وشدّاد ومَرْوان ابنـا الهيثم الهلاليّـان ، ومحفّز بن ثعلبـة من عائـذةِ قريش ، والهيثم بن الأسـود النخعي ـ وكان يعتذر إليهم ـ وعبدالرحمن بن قيس الأسدي ، والحارث وشداد ابنا الأزمع الهَمْدانيّان ، ثم الوادعِيّان ، وكُرَيب بن سلمة بن يزيد الجعفي ، وعبدالرحمن بن أبي سَبْرة الجُعفيّ ، وزَحْر بن قيس الجُعفيّ ، وقُدامة بن العَجْلان الأزْديّ وعَزْرة بن عَزْرة الأحمسيّ ـ ودعا المختار بن أبي عُبيد وعُرْوة بن المغيرة بن شعبة ليَشهَدوا عليه ، فراغَا ـ وعمر بن قيس ذي اللحية وهانىء بن أبي حية الوادعيّان .

فشهد عليه سبعون رجلاً ، فقال زياد : ألقُوهم إلاّ من قد عُرف بحسَب وصَلاح في دِينه ، فألقُوا حتى صُيّرُوا إلى هذه العدّة ، وألقيتْ شهادة عبدالله بن الحجّاج الثعلَبيّ ، وكتِبتْ شهادة هؤلاء الشهود في صحيفة ، ثم دفعها إلى وائل بن حُجْر الحضرمي وكثير بن شهاب الحارثي ، وبعثهما عليهم ، وأمرهما أن يخرجا بهم . وكتب في الشهود شُريح بن الحارث القاضي وشُريح بن هانىء الحارثي ؛ فأما شريح فقال: سـألني عنه ، فأخبرتُه أنه كان صوّاماً قوّاماً ، وأما شريح بن هانىء الحارثي فكان يقول : ما شهدتُ ، ولقد بلغني أن قد كتبتْ شهادتي ، فأكذبته ولُمْتُه ، وجاء وائل بن حُجْر وكَثير بن شهاب فأخرج القوم عشيّة ، وسار معهم صاحبُ الشرطة حتى أخرجهم من الكوفة .

فلما انتهوا إلى جبّانة عَرْزَم نظر قَبيصة بن ضُبَيعة العبسي إلى داره وهي في جبّانة عرْزم ، فـإذا بناتُـه مشرِفات ، فقال لوائل وكَثير: ائْذنَا لي فأوصي أهلي ، فأذِنا له ، فلمّا دنا منهنّ وهنّ يبكين ، سكت عنهنّ ساعة ثم قال: اسكتْنَ؛ فسكَتْن، فقال: اتّقين اللّهَ عزّ وجلّ ، واصبرْن، فإني أرجو من ربّي في وجهي هذا إحدى الحُسْنَيين : إمّا الشهادة، وهي السعادة؛ وإما الانصراف إليكنّ في عافية، وإن الذي كان يرزُقكُنّ ويكفيني مُؤنتكُنّ هو الله تعالى ـ وهو حيّ لا يموت ـ أرجو ألاّ يضيّعَكُنّ وأن يحفَظني فيكنّ ثم انصرف فمرّ بقومه ، فجعل القومُ يدعون اللّهَ له بالعافية ، فقال : إنه لَمِمّا يعدل عندي خطرَ ما أنا فيه هلاكُ قومي . يقول : حيث لا ينصرونني ، وكان رجا أن يتخلّصوه .

قال أبو مخنف : فحدّثني النضر بن صالح العبسي ، عن عبيدالله بن الحرّ الجعفي ، قال: والله إني لواقف عند باب السريّ بن أبي وقّاص حين مرّوا بحُجر وأصحابه ، قال : فقلتُ : ألا عشرة رَهْط أستنقِذ بهم هؤلاء ! ألاَ خمسة ! قال : فجعل يتلهّف ، قال: فلم يجبني أحدٌ من الناس ؛ قال : فمضَوا بهم حتى انتهوا بهم إلى الغَرِيّيْن ، فَلَحِقهم شُريح بن هانىء معه كتاب ، فقال لكثير : بلّغ كتابي هذا إلى أمير المؤمنين ، قال: ما فيه؟ قال: لا تسألْني فيه حاجتي ؛ فأبى كثير وقال: ما أحبّ أن آتيَ أميرَ المؤمنين بكتاب لا أدري ما فيه، وعسى ألا يوافقه! فأتى به وائلَ بن حُجْر فقَبِله منه . ثم مَضَوا بهم حتى انتهَوا بهم إلى مَرْج عَذْراء ، وبينها وبين دمشقَ اثنا عشر مِيلاً .

تسمية الذين بعث بهم إلى معاوية

حُجر بن عديّ بن جَبَلَة الكنديّ ، والأرقم بن عبدالله الكندي من بني الأرقم، وشريك بن شدّاد الحضرمي، وصيفيّ بن فسيل ، وقَبِيصة بن ضبيعة بن حرملة العبسي ، وكريم بن عفيف الخثعمي ، من بني عامر بن شهران ثم من قحافة ، وعاصم بن عوف البَجَليّ ، وورقاء بن سُمَيّ البَجَليّ ، وكدام بن حيّان ، وعبدالرحمن بن حَسّان العَنَزيّان من بني هُمَيم ، ومحرز بن شهاب التميميّ من بني مِنْقَر ، وعبدالله بن حَوِّية السعديّ من بني تميم ؛ فمضَوا بهم حتى نزلوا مرْجَ عذراء ، فحُبسوا بها . ثم إنّ زياداً أتبعهم برجلين آخَرين مع عامر بن الأسوَد العِجْلي ؛ بعتبة بن الأخنس من بني سعد بن بكر بنِ هوازن ، وسعيد بن نمران الهَمْداني ثم الناعطيّ ، فتمّوا أربعة عشر رجلاً ، فبعث معاوية إلى وائل بن حُجر وكَثير بن شهاب فأدخلهما ، وفضّ كتابها ، فقرأه على أهل الشام ، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله معاويةَ أمير المؤمنين من زياد بن أبي سُفْيان . أمّا بعد ، فإنّ الله قد أحسن عند أمير المؤمنين البلاء ، فكاد له عدوّه ، وكفاه مؤنة من بَغَى عليه . إن طواغيتَ من هذه التُّرابيّة السبئية ، رأسهم حُجْر بن عدي خالَفوا أميرَ المؤمنين ، وفارَقوا جماعةَ المسلمين ، ونصبوا لنا الحرب، فأظهرنَا الله عليهم ، وأمكننا منهم ، وقد دعوتُ خيارَ أهل المِصر وأشرافهم وذوي السنّ والدين منهم، فشهدوا عليهم بما رأوا وعملوا، وقد بعثتُ بهم إلى أمير المؤمنين ، وكتبتِ شهادةَ صلحاء أهلِ المِصْر وخيارهم في أسفل كتابي هذا .

فلما قرأ الكتابَ وشهادةَ الشهود عليهم ، قال: ماذا تَرَوْن في هؤلاء النّفر الذين شهد عليهم قومُهم بما تستمعون؟ فقال له يزيد بن أسد البَجَليّ : أَرَى أن تفرّقهم في قُرَى الشام فيكفيكَهم طواغيتُها .

ودفع وائل بن حُجر كتابَ شُريح بن هانىء إلى معاوية، فقرأه فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله معاوية أميرِ المؤمنين من شُريح بن هانىء أما بعد ؛ فإنه بلغني أنّ زياداً كتب إليك بشهادتي على حُجْر بن عدّي ، وأنّ شهادتي على حُجْر أنه ممن يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويديم الحجّ والعمرة، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، حرام الدّم والمال، فإن شئتَ فاقتله ، وإن شئت فدَعْه . فقرأ كتابَه على وائل بن حُجْر وكَثِير ، فقال : ما أرى هذا إلاّ قد أخرج نفسَه من شهادتكم .

فحبس القوم بمَرْج عذراء، وكتب معاوية إلى زياد: أما بعد، فقد فهمتُ ما اقتصصتَ به من أمر حُجر وأصحابه ، وشهادة من قبَلك عليهم ، فنظرتُ في ذلك، فأحياناً أرى قتلهم أفضل من تركهم ، وأحياناً أرى العفو عنهم أفضل من قتلهم . والسلام .

فكتب إليه زيادٌ مع يزيد بن حُجيّة بن ربيعة التيمي : أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت رأيَك في حُجْر وأصحابه ، فعجبت لاشتباه الأمر عليك فيهم ، وقد شهد عليهم بما قد سمعت مَن هو أعلم بهم ، فإن كانت لك حاجةٌ في هذا المِصْر فلا تَرُدنّ حجراً وأصحابه إليّ .

فأقبل يزيد بن حُجَيّة حتى مرّ بهم بعذراء. فقال: يا هؤلاء، أما والله ما أرى براءَتَكم ، ولقد جئتُ

بكتاب فيه الذّبح ، فمرُوني بما أحببتم مما ترون أنه لكم نافع أعمل به لكم وأنطِق به . فقال حُجر: أبلغ معاوية أنّا على بيعتنا ، لا نَستقيلها ولا نُقيلها ، وأنه إنما شهد علينا الأعداء والأظِنّاء . فقدم يزيدُ بالكتاب إلى معاويةَ فقرأه ، وبلّغه يزيد مقالَةَ حُجْر ؛ فقال معاوية: زياد أصدق عندنا من حُجْر ؛ فقال عبدالرحمن بن أمّ الحكم الثقفي ـ ويقال: عثمان بن عمير الثقفي : جُذاذها جُذاذها ؛ فقال له معاوية: لا تَعَنَّ أبْراً. فخرج أهلُ الشام ولا يدرون ما قال معاوية وعبدالرحمن ، فأتَوا النعمانَ بن بشير فقالوا له مقالة ابنِ أمّ الحكم ، فقال النّعمان : قتل القوم ، وأقبل عامر بن الأسوَد العجليّ وهو بعذراء يريد معاويةَ ليُعلِمه عِلمَ الرجلين اللّذَين بَعَث بهما زياد ، فلما ولّى ليمضي قام إليه حُجر بن عديّ يَرْسُف في القيود ، فقال: يا عامر، اسمع مني، أبلغْ معاويةَ أنّ دماءنا عليه حرام ، وأخبره أنا قد أومِنّا وصالَحناه ، فليتق الله ، ولينظر في أمرنا. فقال له نحواً من هذا الكلام ، فأعاد عليه حُجْر مراراً ، فكان الآخر عرّض ، فقال قد فهمت لك ـ أكثرت ، فقال له حُجْر : إنّي ما سمعْت بعيب ، وعلى أيّةٍ تلوم! إنك والله تُحبَى وتُعْطَى ، وإن حُجراً يُقَدَّمُ ويقتل ، فلا ألومك أن تستثقل كلامي ، اذهب عنك ، فكأنه استحيا ، فقال: لا والله ما ذلك بي ، ولأبلغنّ وَلأجهَدنّ ، وكأنه يزعم أنه قد فعل ، وأنّ الآخر أبى .

فدخل عامر على معاويةَ فأخبره بأمر الرّجلين . قال: وقام يزيد بن أسد البجَليّ فقال: يا أمير المؤمنين ، هب لي ابنيْ عمِّي ـ وقد كان جرير بن عبدالله كتب فيهما: إنّ امرَأيْن من قومي من أهل الجماعة والرأي الحسن ، سَعَى بهما ساع ظَنِين إلى زياد ، فبعث بهما في النّفر الكوفيّين الذين وجّه بهم زياد إلى أمير المؤمنين وهما ممن لا يُحدِث حدَثاً في الإسلام ولا بغياً على الخليفة ، فلينفعهما ذلك عند أمير المؤمنين ـ فلما سألهما يزيدُ ذكرَ معاوية كتاب جرير ، فقال : قد كتب إليّ ابنُ عمّك فيهما جرير، محسناً عليهما الثناء، وهو أهلٌ أن يصدَّق قولُه ، وتُقبل نصيحتُه ، وقد سألتَني ابنيْ عمك ، فهُما لك. وطلب وائل بن حُجْر في الأرقم فتركه له ، وطلب أبو الأعور السُّلميّ في عُتْبة بن الأخنس فوهبه له ، وطلب حُمرة بن مالك الهمْدانيّ في سعيد بن نمران الهمْداني فوهبه له ، وكلّمه حبيب بن مسلمة في ابن حَويّة ، فخلّى سبيله .

وقام مالك بن هُبيرة السَّكونيّ ، فقال لمعاوية: يا أمير المؤمنين ، دَعْ لي ابنَ عمِّي حُجْراً ، فقال: إنّ ابن ابن عمّك حُجْراً رأس القوم ، وأخاف إنّ خلّيت سبيلَه أن يُفسد عليّ مِصْرِي ، فيضطرنا غداً إلى أن نُشخِصك وأصحابك إليه بالعراق . فقال له : والله ما أنصفتَني يا معاوية، قاتلتُ معك ابن عمك فتلقاني منهم يومٌ كيوم صِفِّين ، حتى ظفرتْ كفّك ، وعلا كعبُك ولم تُخَف الدوائر ، ثم سألتُك ابنَ عمي فسطوتَ وبسطت من القول بما لا أنتفع به؛ وتخوّفت فيما زعمت عاقبة الدوائر! ثم انصرف فجلس في بيته ، فبعث معاويةُ هُدبةَ بنَ فيّاض القُضاعيّ من بني سَلامان بن سعد والحُصين بن عبدالله الكلابيّ وأبا شريف البدّيّ ، فأتَوْهم عند المساء ، فقال الخثعمي حين رأى الأعور مقبلاً : يُقتَل نصفُنا وينجو نصفُنا . ؛ فقال سعيد بن نمران : اللهمّ اجعلني ممّن ينجو وأنت عني راضٍ ؛ فقال عبدالرحمن بن حسان العَنَزيّ : اللهمّ اجعلني ممّنْ يُكْرَمُ بهوانِهم وأنت عنّي راضٍ ؛ فطالما عرّضتُ نفسي للقتل ، فأبى اللّهُ إلاّ ما أراه !

فجاء رسول معاوية إليهم بتخلية ستّة وبقتل ثمانية، فقال لهم رسول معاوية: إنّا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعنَ له ، فإن فعلتم تركناكم ، وإن أبيتم قتلناكم ، وإنّ أمير المؤمنين يزعم أنّ دماءكم قد حلّت له بشهادة أهلِ مصْركم عليكم ، غير أنه قد عفا عن ذلك ، فابرؤوا من هذا الرجل نُخَلّ سبيلَكم .

قالوا: اللهمّ إنّا لسنا فاعِلي ذلك. فأمر بقبورهم فحفرتْ، وأدنيتْ أكفانُهم، وقاموا الليلَ كلَّه يصلّون، فلما أصبحوا قال أصحاب معاوية: يا هؤلاء، لقد رأيناكم البارحة قد أطلتم الصلاة، وأحسنتم الدعاء، فأخبرونا ما قولكم في عثمان؟ قالوا: هو أوّل مَن جار في الحكم، وعَمِل بغير الحقّ؛ فقال أصحاب معاوية: أميرُ المؤمنين كان أعلمَ بكم؛ ثم قاموا إليهم فقالوا: تبرؤون من هذا الرجل! قالوا: بل نتولّاه ونتبرّأ ممن تبرّأ منه؛ فأخذ كلّ رجل منهم رجلاً ليقتلَه، ووقع قَبيصة بن ضبيعة في يديْ أبي شريف البدّي، فقال له قَبيصة: إنّ الشرّ بين قَومي وقومك أمِنٌ، فليقتلْني سواك؛ فقال له: بـرّتك رَحِم! فـأخذ الحضـرمي فقتله، وقتل القضـاعيّ قَبيصة بن ضُبَيعة.

قال: ثم إنّ حُجراً قال لهم: دعوني أتوضّأ، قالوا له: توضّأ، فلما أن توضأ قال لهم: دعوني أصلّ ركعتين فأيْمُنُ الله ما توضّأت قطّ إلا صلّيت ركعتين؛ قالوا: لتُصلّ؛ فصلَّى، ثم انصرف فقال: والله ما صليت صلاةً قطّ أقصرَ منها، ولولا أن تروْا أن ما بي جَزع من الموت لأحببتُ أن أستكثرَ منها. ثم قال: اللهمّ إنا نستعديك على أمّتنا، فإنّ أهل الكوفة شهدوا علينا، وإن أهل الشام يقتلوننا، أما والله لئن قتلتموني بها إني لأوّل فارس من المسلمين هَلَك في واديها، وأوّل رجل من المسلمين نبحَتْه كلابها. فمشى إليه الأعور هُدْبة بن فيّاض بالسيف، فأرعِدت خَصائله، فقال: كلّا، زعمتَ أنك لا تجزع من الموت؛ فأنا أدَعك فأبرأ من صاحبك، فقال: ما لي لا أجزعُ وأنا أرى قبراً محفوراً، وكفناً منشوراً، وسيفاً مشهوراً؛ وإني والله إنْ جزعتُ من القتل لا أقول ما يُسخط الرّب. فقتَلَه؛ وأقبلوا يقتلونهم واحداً واحداً حتى قَتلوا ستة. فقال عبد الرحمن بن حسّان العَنَزي وكريم بن عَفيف الخثعميّ: إبعَثوا بنَا إلى أمير المؤمنين، فنحن نقول في هذا الرّجل مِثلَ مقالته؛ فبعثوا إلى معاوية يخبرونه بمقالتهما؛ فبعث إليهم أن آئتوني بهما.

فلما دخلا عليه قال الخثعمي: اللّهَ اللّهَ يا معاوية، فإنك منقول من هذه الدار الزائلة إلى الدار الآخرة الدائمة، ثم مسؤول عمّا أردت بقتلنا، وفيمَ سفكت دماءَنا؛ فقال معاوية: ما تقول في علي؟ قال: أقول فيه قولك، قال: أتبرأ من دين علي الذي كان يَدِينُ اللّهَ به؟ فسكَت، وكَرِه معاوية أن يجيبَه.

وقام شَمِر بن عبدالله من بني قحافة، فقال: يا أميرَ المؤمنين، هب لي ابن عمّي؛ قال: هو لك؛ غير أني حابسُه شَهْراً، فكان يرسل إليه بين كلّ يومين فيكلمه، وقال له: إني لأنْفسَ بك على العراق أن يكون فيهم مثلك. ثمّ إنّ شَمِراً عاوده فيه الكلام؛ فقال: نُمِرُّك على هبة ابن عمك، فدعاه فخلّى سبيله على ألّا يدخل إلى الكوفة ما كان له سلطان، فقال: تخيّر أيّ بلاد العرب أحبّ إليك أن أسيّرك إليها؛ فاختار المَوْصلَ، فكان يقول: لو قد مات معاوية قدمتُ المِصْر، فمات قبل معاوية بشهر.

ثم أقبل على عبدالرحمن العَنَزيّ فقال: إيهٍ يا أخا ربيعة! ما قولك في علي؟ قال؛ دَعْني ولا تسألْني فإنه خيرٌ لك؛ قال: والله لا أدَعك حتى تخبرَني عنه؛ قال: أشهد أنه كان من الذّاكرين اللّهَ كثيراً، ومن الآمـرين بالحقّ، والقائمين بالقِسط، والعافين عن الناس؛ قال: فما قولك في عثمان؟ قال: هو أوّل مَن فتح باب الظلم، وأرْتجَ أبواب الحقّ؛ قال: قتلتَ نفسَك؛ قال: بل إيّاك قتلتُ؛ ولا ربيعة بالوادي ـ يقول حين كلّم شَمِر الخثعميّ في كريم بن عَفيف الخثعمي، ولم يكن له أحدٌ من قومه يكلّمه فيه ـ فبعث به معاوية إلى زياد،

وكتب إليه: أما بعد، فإنّ هذا العَنَزيَّ شرّ مَن بَعثْت، فعاقبْه عقُوبته التي هو أهلها، واقتلْه شرّ قِتلة . فلما قُدِم به على زياد بعث به زياد إلى قُسّ الناطف ، فدُفِن به حيًّا .

قال: ولما حُمِل العَنَزيّ والخثعميّ إلى معاوية قال العَنزي لِحُجر : يا حُجْر ، لا يبعدَنْك الله ، فنعم أخو الإسلام كنتَ! وقال الخثعمي : لا تَبْعَدْ ولا تُفْقَد، فقد كنتَ تأمر بالمعروف وتَنهى عن المنكر . ثم ذهب بهما وأتبعَهُما بصرَه ، وقال : كَفَى بالموت قطّاعاً لحبل القرائن ! فذهب بعُتبة بن الأخنس وسعيد بن نِمران بعد حُجْر بأيام ، فخلَّى سبيلهما .

تسمية مَن قتل من أصحاب حُجْر رحمه الله

حُجْر بن عديّ ، وشريك بن شـدّاد الحضرميّ ، وصَيْفيّ بن فسيـل الشيبانيّ ، وقَبيصـة بن ضبيعة العبسيّ ، ومُحرِز بن شهاب السعدي ثم المِنْقَريّ ، وكدام بن حيّان العَنَزيّ ، وعبدالرحمن بن حسّان العَنَزيّ ؛ فبعث به إلى زياد فدُفن حيًّا بقسّ الناطف، فهم سبعة قُتلوا وكُفنوا وصُلى عليهم .

قال: فزعموا أن الحسن لما بلغه قتل حُجُرْ وأصحابه، قال: صلُّوا عليهم ، وكفّنوهم ، واستقبلوا بهم القبلة، قالوا: نعم؛ قال: حَجّوهم وربِّ الكعبة

تسمية من نجا منهم

كريم بن عفيف الخثعمي، وعبدالله بن حويّة التميمي، وعاصم بن عوف البَجَليّ ، وورقاء بن سُميّ البَجَليّ ، والأرقم بن عبدالله الكِنْديّ ، وعتبة بن الأخنس ، من بني سعيد بن بكر ، وسعيد بن نمران الهمداني فهم سبعة .

وقال مالك بن هُبيرة السَّكوني حين أَبَى معاوية أن يهبَ له حُجْراً وقد اجتمع إليه قومُه من كِندةَ والسَّكون وناس من اليَمَن كثير ، فقال: والله لنحن أغنَى عن معاوية من معاوية عنّا ، وإنّا لنجد في قومه مِنه بدلاً ، ولا يجد منّا في الناس خَلَفاً ، سِيروا إلى هذا الرجل فلنُخلّه من أيديهم ؛ فأقبَلوا يسيرون ولم يشكّوا أنهم بَعذْراء لم يُقتلوا ، فاستقبلَتْهم قَتَلَتْهم قد خرجوا منها ، فلما رأوْه في الناس ظنّوا أنما جاء بهم ليخلّص حُجْراً من أيديهم ، فقال لهم : ما وراءكم؟ قال: تاب القوم ، وجئنا لنخبر معاوية . فسكت عنهم ، ومضى نحو عذراء ، فاستقبله بعضُ من جاء منها فأخبره أنّ القوم قد قُتلوا ، فقال : عليَّ بالقوم ! وتبعتْهم الخيلُ وسبَقُوهم حتى دخلوا على معاوية فأخبروه خبرَ ما أَتى له مالكُ بنُ هبيرة ومن معه من الناس ، فقال لهم معاوية: اسكنُوا ، فإنما هي حرارةٌ يجدها في نفسه ، وكأنها قد طفئتْ ، ورجع مالك حتى نزل في منزله ، ولم يأتِ معاوية ، فأرسل إليه معاوية فأبَى أن يأتيه ، فلما كان الليل بعث إليه بمائة ألف درهم ، وقال له : إنّ أمير المؤمنين لم يمنعه أن يشفِّعك في ابن عمّك إلاَّ شَفقة عليك وعلى أصحابك أن يُعيدوا لكم حَرْباً أخرى، وإن حُجْر بنَ عديّ لو قد بقي خشيت أن يكلِّفك وأصحابك الشخوص إليه ، وأن يكون ذلك من البلاء على المسلمين ما هو أعظم من قَتْل حُجْر ؛ فقَبِلها ، وطابت نفسُه ، وأقبل إليه من غده في جموعِ قومه حتى دخل عليه ورضيَ عنه .

قال أبو مخنف : وحدّثني عبدالملك بنى نوفل بن مساحق ، أنّ عائشةَ رضي الله عنها بعثَتْ عبدَالرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية في حُجر وأصحابه ، فقدِم عليه وقد قَتَلهم ، فقال له عبدالرحمن : أين غاب عنك حلمُ أبي سُفْيان؟ قال: غاب عني حين غاب عني مِثْلُك من حُلَماء قومي ، وحَمّلني ابن سُميّة فاحتملت .

قال أبو مخنف : قال عبدالملك بن نوفل : كانت عائشة تقول : لولا أنا لم تغيِّر شيئاً إلاّ آلت بنا الأمور إلى أشدّ مما كنا فيه لغيَّرنا قتل حُجْر ، أما والله إن كان ما علمتُ لَمسلماً حَجّاجاً معتمِراً .

قال أبو مخنف : وحدّثني عبدالملك بن نوفل ، عن سعيد المقبريّ ، أنّ معاوية حين حجّ مرّ على عائشة ـ رِضوانُ الله عليها ـ فاستأذن عليها ، فأذِنَتْ له ، فلما قعد قالت له: يا معاوية ، أأَمِنْتَ أن أخبأ لك من يقتلك؟ قال: بيتَ الأمن دخلت، قالت: يا معاوية، أما خشيتَ الله في قَتْل حُجْر وأصحابه؟ قال: لستُ أنا قتلتُهم، إنما قَتَلَهم مَن شهد عليهم .

قال أبو مخنف: حدّثني زكرياء بن أبي زائدة ، عن أبي إسحاق ، قال: أدركتُ الناسَ وهم يقولون : إن أوّل ذُلّ دخل الكوفة موتُ الحسن بن علي وقتلُ حُجْر بن عديّ ، ودعوةُ زياد .

قال أبو مخنف: وزعموا أنّ معاوية قال عند موته: يومٌ لي من ابن الأدبَرِ طويلٌ! ثلاثَ مرّات ـ يعني حُجراً .

قال أبو مخنف: عن الصقعب بن زهير، عن الحسن، قال: أربع خصال كنّ في معاوية؛ لو لم يكن فيه منهنّ إلاّ واحدة لكانت مُوبِقة : انتزاؤه على هذه الأمّة بالسفهاء حتى ابْتَزَّها أمرَها بغير مَشُورة منهم وفيهم بقايا الصّحابة وذو الفضيلة؛ واستخلافُه ابنه بعده سِكّيراً خِمّيراً ، يلبس الحرير ويَضرِب بالطنابير؛ وادّعاؤه زياداً ؛ وقد قال رسول الله ﷺ: « الولد للفِراش ، وللعاهِر الحَجَرُ » ، وقتلهُ حُجْراً ، ويْلاً له من حُجْرٍ ! مرّتين .

وقالت هند ابنة زيد بن مخرمة الأنصاريّة ، وكانت تَشَيَّع ترثي حُجْراً :

تَرفَّعْ أيُّها القمرُ المنيرُ ... تَبَصَّرْ هل ترى حُجْراً يَسيرُ
يسيرُ إلى معاويةَ بن حرْبٍ ... لِيَقْتُلَهُ كما زعم الأميرُ
تَجَبَّرَتِ الجَبابِرُ بعد حُجْرٍ ... وطابَ لها الخَوَرْنَقُ والسَّدِيرُ
وأَصْبَحَتِ البِلادُ بها مُحولاً ... كأن لم يُحْيِها مُزْنٌ مَطِيرُ
ألا يا حُجْرَ حجْر بني عَدِيٍّ ... تَلَقَّتْكَ السلامةُ والسُّرُور
أخافُ عليك ما أرْدَى عَدِيًّا ... وَشَيخاً في دِمشقَ له زئيرُ
يَرَى قَتلَ الخِيارِ عليه حقًّا ... له من شَرِّ أُمَّتِه وَزِير
ألا يا ليتَ حُجْراً مات مَوْتاً ... ولم يُنحَرْ كما نُحِرَ البعيرُ!
فإن تَهلِكْ فكلُّ زعيمِ قَومٍ ... من الدنيا إلى هُلكٍ يَصِيرُ

وقالت الكنديّة ترثي حُجراً ـ ويقال : بل قائلها هذه الأنصاريّة :

دُموعُ عَيْني دِيمةٌ تَقطُرُ ... تَبكِي على حُجْرٍ وما تَفْتُرُ
لو كانت القوسُ على أسرِه ... ما حُمِّلَ السيفَ له الأعورُ

وقال الشاعر يحرّض بني هند من بني شَيْبَانَ على قيس بن عُباد حين سعى بصَيفيّ بن فَسِيل :

دَعـا آبنُ فسيـل يـالَ مُـرَّةَ دعـوةً ... ولاَقَى ذبـابَ السيف كَفًّـا وَمِعْصَما
فَحَـرِّضْ بني هِنـد إذا مـا لَقِيتَهُمْ ... وقُـلْ لِـغِيـاثٍ وابـنِـهِ يَـتَـكَـلَّما
لِـتَبْـكِ بـني هِنـدٍ قُـتَيْلَةُ مِثْـلَ مـا ... بَكَتْ عِـرْسُ صَيْفِـيٍّ وتبعثُ مـأْتما

غياث بن عمران بن مرّة بن الحارث بن دُبّ بن مرة بن ذهل بن شَيْبان ، وكان شريفاً ، وقُتيلَةُ أخت قيس بن عُباد ، فعاش قيس بن عباد حتى قاتل مع ابن الأشعث في مواطنه ، فقال حَوْشب للحجّاج بن يوسف : إن منّا امرأ صاحب فتن ووثوب على السلطان ، لم تكن فتنةٌ في العراق قطّ إلاّ وثب فيها ، وهو ترابيّ ، يلعن عثمان ، وقد خرج مع ابن الأشعث فشهد معه في مواطنه كلها ، يحرّض الناسَ حتى إذا أهلكهم الله ، جاء فجلس في بيته ، فبعث إليه الحجاجُ فضرب عنقَه ، فقال بنو أبيه لآل حوشب : إنما سعيتمْ بنا سعياً ، فقالوا لهم : وأنتم إنما سعيتم بصاحبنا سعياً .

فقال أبو مخنف : وقد كان عبدالله بن خليفة الطائيّ شهد مع حُجْر بن عديّ ، فطلبه زياد فتوارَى ، فبعث إليه الشُّرَط ، وهم أهل الحمراء يومئذ ، فأخذوه ، فخَرجتْ أخته النّـوار فقالت: يـا معشر طيّىء ، أتسلمون سنانَكم ولسانَكم عبدَالله بن خليفة! فشدّ الطائيّون على الشُّرَط فضربوهم وانتزعوا منهم عبدَالله بن خليفة ، فرجعوا إلى زياد ، فأخبروه ، فوَثَب على عديّ بن حاتم وهو في المسجد ، فقال: ائتني بعبدالله بن خليفة ؛ قال : وما له ! فأخبره ، قال: فهذا شيء كان في الحيّ لا علمَ لي به ؛ قال : والله لتأتيني به ؛ قال : لا ، والله لا آتيك به أبداً ، أجيئك بابن عمّي تقتُله ! والله لو كان تحت قدميّ ما رفعتُها عنه . قال : فأمر به إلى السجن ؛ قال : فلم يَبق بالكوفة يَمانيٌّ ولا رَبَعيٌّ إلاّ أتاه وكلّمه ، وقالوا : تفعل هذا بعديّ بن حاتم صاحب رسولِ الله ﷺ ! قال : فإني أخرجه على شرط ، قالوا : ما هو؟ قال: يخرج ابن عمّه عني فلا يدخل الكوفة ما دام لي بها سلطان . فأتِيَ عديّ فأخبِر بذلك ، فقال : نعم ، فبعث عديّ إلى عبدالله بن خليفة فقال : يابن أخي ، إنّ هذا قد لجّ في أمرك ، وقد أبى إلاّ إخراجَك عن مِصْرِك ما دام له سلطان ، فالحقْ بالجبلين ، فخرج ؛ فجعل عبدالله بن خليفة يكتب إلى عدي ، وجعل عديٌّ يُمَنّيه ، فكتب إليه :

تـذكَّـرتُ ليلى والشَّبِيبـةَ أَعْـصُـرا ... وذكْـرُ الصِّبَا بَـرْحٌ على من تَـذَكَّـرا
ووَلّى الشَّبـابُ فـافتقـدتُ غُضُـونَـهُ ... فيـا لـك من وَجْـد بـه حين أَدْبَـرا!
فـدعْ عنك تـذكـار الشبـاب وَفَقدهُ ... وآثـارُهُ إذ بـانَ مـنـك فـأَقـصَـرا
وبَـكِّ على الخُـلانِ لمّـا تُخُـرِّمُـوا ... ولم يجدُوا عن مَنْهَلِ الموتِ مَصدرا
دَعَتْهُمْ مَنـايـاهمْ ومَنْ حـانَ يَـومُـهُ ... من النـاسِ فـاعلم أنـه لن يؤخَّـرا
أُولئـك كـانـوا شِيعـةً لي وَمَـوْئـلاً ... إذا اليـومَ أُلفِي ذا احتِـدَام مُـذَكَّـرا
ومـا كنتُ أَهَـوى بـعـدهُمْ مُتَعَـلَّلاً ... بـشيءٍ مـن الـدنيـا ولا أن أُعَـمَّـرا
أقـولُ ولا والله أَنَـسـى ادِّكـارَهُـمْ ... سَجِيسَ اللَّيـالي أو أَمـوتَ فَـأُقْبَـرا
على أهـلِ عـذراءَ السلامُ مُضـاعَفـاً ... من الله وَلْيُسْق الـغمـامَ الـكَنـهْـوَرا

وَلَاقى بها حُجْرٌ من الله رحمةً … فقد كان أَرْضى اللّهَ حجرٌ وأعذَرا
ولا زالَ تَهْطال مُلِثٌّ وديمة … على قبرِ حُجْرٍ أو ينادَى فَيُحْشَرا
فيا حُجْرُ مَنْ للخيلِ تُدْمَى نُحُورُها … وللمَلِكِ المُغْزِي إذا ما تَغَشْمَرا
وَمَنْ صادِعٌ بالحقِّ بَعْدكَ ناطِق … بتَقْوى وَمَنْ إن قيلَ بالجَوْرِ غيّرا
فنِعْم أَخو الإسلامِ كنتَ وإنني … لأَطمَعُ أَن تُؤْتى الخلودَ وتُحْبَرا
وقد كنتَ تعطى السيفَ في الحرب حَقَّه … وَتَعرِفُ مَعرُوفاً وتنكِرُ مُنكَرا
فيا أَخَوَيْنا من هُمَيمٍ عُصِمْتُما … ويُسِّرْتُما للصالحاتِ فأَبْشِرا
ويا أَخَوَيَّ الخِندِفِيَّيْن أَبْشِرا … فقد كنتما حُيِّيتُما أَن تُبَشَّرا
ويا إِخْوَتا من حضرموتَ وغالب … وشيبانَ لُقِّيتُمْ حساباً مُيَسَّرا
سَعِدْتُم فلم أسمع بأَصوَبَ مِنكُمْ … حِجاجاً لَدَى الموتِ الجليل وأَصبَرا
سأَبْكِيكمُ ما لاح نجْم وغَرَّدَ الـ … ـحمامُ بِبَطْن الوادِيَيْنِ وَقَرقَرا
فقلتُ ولم أظلم أَغَوْثَ بنَ طيِّىءٍ … متى كنتُ أَخشَى بينكم أَن أُسَيَّرا!
هَبِلتُم أَلا قاتَلتُمُ عن أَخيكُم … وقد ذَبَّ حتى مال ثم تَجَوَّرا
ففَرَّجتُمُ عني فَغُودِرتُ مُسلَماً … كَأَني غريب في إيادٍ وَأَعصُرا
فمن لكمُ مِثلِي لدَى كلِّ غارةٍ … ومن لكُم مثلي إذا البأْسُ أصحرا
ومن لكُم مثلي إذا الحربُ قلَّصَتْ … وأَوضَعَ فيها المُسْتَمِيتُ وَشَمَّرا
فَها أنا ذا دَارِي بأَجبال طَيِّىءٍ … طَريداً ولو شاءَ الإلهُ لَغَيَّرَا
نَفاني عَدُوِّي ظالماً عن مُهاجَري … رضيتُ بما شاء الإلهُ وَقَدَّرا
وأَسلَمَني قومي لغيرِ جِنايةٍ … كأَن لم يكونوا لي قَبيلاً وَمَعشَرا
فإِنْ أُلْفَ في دارٍ بأَجبالِ طيِّىءٍ … وكان مَعاناً من عُصَيْرٍ وَمَحضَرا
فما كنتُ أَخشى أَن أَرَى مُتَغَرِّبا … لحَا آللّهُ من لاحَى عليه وكثَّرا
لحا اللّهُ قتل الحضرميِّين وائلا … ولَاقى الفَنَا من السنان الموفَّرا
ولَاقى الرَّدَى القومُ الذين تَحَزَّبوا … علينا وقالوا قَول زُورٍ ومُنكَرًا
فلا يَدْعُني قومٌ لغَوثِ بن طيِّىء … لأَنْ دَهرُهم أشقَى بهم وتغيَّرا
فلم أَغزُهمْ في المُعلَمِينَ ولم أُثر … عليهمْ عَجاجاً بالكُوَيفةِ أَكدَرا
فبلِّغ خليلي إن رَحَلتَ مُشَرِّقاً … جَديلةَ والحَيَّيْن مَعْناً وبُحتُرا
وَنَبْهانَ والأَفْناءَ من جِذْم طيِّىءٍ … أَلم أَكُ فيكمْ ذا الغناءِ العَشَنزرا!
أَلم تذكروا يومَ العُذَيبِ أَلِيَّتي … أَمامكُمُ أَلَّا أُرَى الدّهرَ مُدبِرا!
وَكرِّي على مِهرانَ والجمعُ حاسر … وقَتلِي الهُمامَ المُستَميتَ المُسَوَّرا
ويومَ جَلولاءِ الوَقيعةِ لم أَلُمْ … ويومَ نِهاوَندِ الفُتُوح وتُستَرا
وتَنسَونني يومَ الشَّريعةِ والقَنا … بصِفّينَ في أكتافهم قد تَكَسَّرا

جَـزَى رَبُّـهُ عني عَـديَّ بن حـاتمٍ بـرَفضي وخِـذلاني جـزاءً مُـوفَّـرا
أتَنسَى بَـلائِي سـادِراً يـا بنَ حـاتِمٍ عشيَّـةَ ما أغنَت عَـدِيُّك جِـزْمَرا!
فـدافَعتُ عنك القـومَ حتى تَخاذَلُـوا وكنتُ أنـا الخَصـمَ الألَـدَّ العَـذَوَّرا
فَـوَلَّـوا ومـا قـامـوا مقامي كـأنما رأونـيَ لَـيـثـاً بـالأبـاءَة مُـخـدرا
نَصَـرتُكمُ إذخـامَ القَـريبُ وَأبعَطَ الـ ـبَعِيـدُ وقـد أُفِـردتُ نَـصـراً مؤزّرا
فكـان جـزائي أن أجَـرَّدَ بـينـكـم سَجينـاً وأن أُولَى الـهـوانَ وأوسَـرا
وكـم عِـدَةٍ مـنـك أنـك راجِـعـي فـلم تُغـنِ بـالميعـادِ عـنِّي حبتَـرا
فـأصبحتُ أرعَى النُّيبَ طَوراً وتـارة أُهَـرْهِرُ إن راعى الشُّـوَيهـات هـرهَـرا
كـأنـيَ لـم أركَـب جَـواداً لـغـارةٍ ولـم أتـرُكِ القِـرن الـكَميَّ مُقَـطَّرا
ولم أعتَـرِض بـالسَّيفِ خَيـلاً مُغِيـرةً إذا النّكسُ مَشَّى القَهقَـرَي ثم جَرجَـرا
ولم أستحِثَّ الـركضَ في إثرِ عُصبـةٍ مُـيَمِّـمـةٍ عُليـا سِجـاسٍ وأبـهَـرا
ولـم أذعـرِ الأبْـلاَم مـنـي بـغـارةٍ كـوِرْدِ القَـطائم انحـدرتُ مُـظَفَّـرا
ولم أرَ في خَيـلٍ تُـطاعِنُ بـالـقَـنـا بقَـزوينَ أو شَـروِينَ أو أغـزُ كُنـدُرا
فـذلـك دهـرٌ زال عـنـي حـمـيـدُهُ وأصبـح لي معـروفُـهُ قـد تَنَـكَّـرا
فـلا يَبعَـدَنْ قـومِي وإن كنت غـائبـاً وكنـتُ الـمُضـاعَ فـيهـمُ والمُـكَفَّـرا
ولا خَيرَ في الدنيـا ولا العيشِ بعدهمْ وإن كنتُ عنهم نـائِيَ الـدار مُحَصَـرا

فمات بالجبَلين قبل موت زياد .

وقال عُبَيدة الكِنديّ ثم البدّيّ، وهو يعيّر محمد بن الأشعث بخِذْلانه حُجْراً :

أسلمتَ عـمَّـك لم تُـقـاتِـلْ دونَـهُ فَـرَقـاً ولـولا أنـتَ كـان مِـنـيـعَـا
وقـتـلتَ وافِـدَ آلِ بَـيـت مـحـمَّـدٍ وسَـلَبـتَ أسـيـافـاً لـه وُدرُوعـا
لـو كنتَ من أسـدٍ عـرفتَ كـرامتي ورأيتَ لي بـيتَ الـحُبـاب شـفيـعـا

وفي هذه السنة وجّه زيادٌ الربيعَ بن زيـاد الحارثيّ أميـراً على خُـراسان بَعـد موت الحكم بن عمـرو الغِفاريّ ، وكان الحكم قد استَخلف على عمله بعد موته أنسَ بن أبي أناس ، وأنس هو الذي صلّى على الحكم حين مات فدُفن في دار خالِد بن عبدالله أخي خُليد بن عبدالله الحنفي ، وكتب بذلك الحَكَم إلى زياد ، فعزَل زيادٌ أنَسا ، وولّى مكانه خُلَيد بن عبدالله الحنفي .

فحدّثني عمر، قال: حدّثني علي بن محمد، قال: لما عزل زيادٌ أنساً وولي مكانَه خُليد بن عبدالله الحنفيّ قال أنسٌ :

ألا مَـن مُـبـلِغٌ عـنـي زِيـاداً مُغَلغَـلةً يَخُـبُّ بهـا الـبَـرِيـدُ
أتَعـزِلني وتـطعِمُـهـا خُليـداً لقـد لاقت حَنيفَـةُ مـا تـريـدُ
عليكمْ بـاليمـامـةِ فـاحـرثُـوهـا فـأوَّلُـكـم وآخـرُكـم عَـبـيـدُ

فولى خُليداً شهراً ثم عزله ، وولى خُراسانَ ربيع بن زياد الحارثي في أول سنة إحدى وخمسين ، فنقل الناسُ عيالاتِهم إلى خُراسان ، ووطنوا بها ، ثم عزل الربيع .

فحدّثني عمر، قال: حدّثني علي ، عن مسلمة بن محارب وعبدالرحمن بن أبان القرشيّ ، قالا : قدم الربيع خُراسانَ ففتح بلخ صُلْحاً ، وكانوا قد أغلقوها بعدما صالحهم الأحنف بن قيس ،وفتح قُهِسْتان عنوةً ، وكانت بناحيتها أتراك ، فقتلهم وهزمهم ، وكان ممّن بقي منهم نيزك طَرخان ، فقتله قُتيبةُ بن مسلم في ولايته .

حدّثني عمر، قال: حدّثنا علي ، قال: غزا الربيع فقطع النهر ومعه غلامه فرّوخ وجاريته شريفةُ ، فغنم وسَلم ، فأعتَقَ فرّوخاً ، وكان قد قطع النّهر قبله الحَكَم بن عمرو في ولايته ولم يفتح .

فحدّثني عمر ، عن علي بن محمد ، قال : كان أوّل المسلمين شرب من النهر مولًى للحَكم ، إغترف بترسه فشرب ، ثم ناوَلَ الحكم فشرب ، وتوضّأ وصلى من وراء النهر ركعتين ، وكان أوّل الناس فعلَ ذلك ، ثم قَفَل .

وحجّ بالناس في هذه السنة يزيدُ بن معاوية ؛ حدّثني بذلك أحمدُ بن ثابت عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، وكذلك قال الواقديّ .

وكان العاملَ في هذه السنة على المدينة سعيدُ بن العاص ، وعلى الكوفة والبصرة والمشرق كله زياد ، وعلى قضاء الكوفة شُريح ، وعلى قضاء البصرة عميرة بن يثربيّ .

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين

فزعم الواقدي أنّ فيها كانت غَزوة سُفْيان بن عوف الأزدي ، ومشتاه بأرض الرّوم ، وأنه توفِّي بها ، واستخلف عبدالله بن مسعدة الفزاريّ .

وقال غيره : بل الذي شتا بأرض الروم في هذه السنة بالناس بُسْر بن أبي أرْطاةَ ، ومعه سُفْيان بن عوف الأزدّي ، وغزا الصائفة في هذه السنة محمد بن عبدالله الثَّقَفي .

وحجّ بالناس في هذه السنة سعيدُ بنُ العاص في قول أبي معشر والواقديّ وغيرِهما .

وكانت عمّال الأمصار في هذه السنة هم العمّال عليها كانوا في سنة إحدى وخمسين .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين
ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك مَشتىَ عبدالرحمن بن أمّ الحَكَم الثقفيّ بأرض الرّوم .

وفيها فتحت رُودُس ، جزيرة في البحر ، ففتحها جُنادة بن أبي أميّة الأزْديّ ، فنزلها المسلمون ـ فيما ذكر محمد بن عمر ـ وَزَرَعوا واتّخذوا بها أموالاً ومواشيَ يَرْعَوْنها حولَها ، فإذا أمسَوْا أدخلوها الحصن ، ولهم ناطور يحذّرهم ما في البحر ممن يريدهم بكَيْد ، فكانوا على حَذرٍ منهم ، وكانوا أشدّ شيء على الرّوم ، فيعترضونهم في البحر فيقطعون سفنَهم ، وكان معاوية يُدِرّ لهم الأرزاق والعطاء ، وكان العدوّ قد خافهم ، فلما مات معاوية أقفلهم يزيدُ بن معاوية .

وفيها كانت وفاةُ زياد بن سُميّة ؛ حدّثني عمر ، قال : حدّثنا زهير ، قال : حدّثنا وهيب ، قال : حدّثني أبي، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن الزّبير ، عن فيل مولَى زياد ، قال : ملك زياد العراقَ خمسَ سنين ، ثم مات سنة ثلاث وخمسين .

حدّثني عمر، قال، حدّثنا علي بن محمد ، قال: لما نزل زياد على العراق بقيَ إلى سنة ثلاث وخمسين ، ثم مات بالكوفة في شهر رمضانَ وخليفته على البصرة سَمُرة بن جندَب .

ذكر سبب مهلك زياد بن سُمَية

حدّثني عبدالله بن أحمدَ المروزيّ ، قال : حدّثنا أبي ، قال حدثني سليمان، قال: حدّثني عبدالله بن المبارك ، قال: أخبرني عبدُالله بن شَوْذب ، عن كثير بن زياد ، أنّ زياداً كتب إلى معاوية : إني ضبطت العراقَ بشِمالي ، ويميني فارغة . فضمّ إليه معاوية العَرُوض ـ وهي اليمامة وما يليها ـ فدعا عليه ابن عمَر ، فطُعِن ومات . فقال ابن عمرَ حين بلغه الخبر : اذهبْ إليك ابنَ سُميّة ، فلا الدّنيا بقيَتْ لك ، ولا الآخرة أدركتَ .

حدثني عمر، قال: حدثني علي ، قال: كتب زيادٌ إلى معاوية : قد ضبطتُ لكَ العِراق بشِمالي ويَميني فارغة ، فاشغلها بالحجاز ، وبعث في ذلك الهيثم بن الأسوَد النخعيّ ، وكتب له عهدَه مع الهَيْثم ، فلما بلغ ذلك أهل الحجاز أتى نفر منهم عبدَالله بن عمرَ بن الخطاب ، فذكروا ذلك لـه ، فقال: ادعوا الله عليه يَكفِيكموه ، فاستقْبَل القبلةَ واستقبلوها فدَعوا ودعا، فخرجت طاعونةٌ على أصبعه، فأرسل إلى شريح ـ وكان قاضيَه ـ فقال: حدَث بي ما تَرَى، وقد أمِرْت بقطعها، فأشِرْ عليَّ ؛ فقال له شُريح : إني أخشى أن يكون الجراح

على يدك ، والألمُ على قلبك ، وأن يكون الأجلُ قد دنا ، فتلقَى اللّهَ عزّ وجلّ أجْذَم ، وقد قطعْتَ يدَكَ كراهيةً للقائه ، أو أن يكون في الأجل تأخير وقد قطعتَ يدكَ فتعيش أجذَمَ وتُعيِّر ولدك . فتركها ؛ وخرج شريح فسألوه ، فأخبَرَهم بما أشار به ، فلامُوه وقالوا : هلاّ أشرتَ عليْه بقطعها! فقال: قال رسولُ الله ﷺ : « المستشار مؤتَمن » .

حدّثني عبدالله بن أحمد المروزيّ ، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثني سليمان ، قال : قال عبدالله : سمعتُ بعضَ مَن يحدّث أنه أرسل إلى شُريح يستشيره في قطع يده ، فقال : لا تفعل ؛ إنك إن عشتَ صرتَ أجذَمَ ، وإن هلكتَ إيّاك جانياً على نفسك ، قال: أنام والطاعون في لحاف! فعزم أن يفعل ، فلما نظر إلى النار والمَكاوي جَزِع وترك ذلك .

حدّثني عمر، قال: حدّثنا عبدالملك بن قُرَيب الأصمعيّ ، قال: حدّثني ابن أبي زياد ، قال: لما حضرتْ زياداً الوفاةُ قال له ابنه: يا أبتِ ، قد هيّأت لك ستين ثوباً أكفّنك فيها ؛ قال : يا بنيّ ، قد دنا من أبيك لباسٌ خيرٌ من لباسِه هذا ، أو سلبٌ سريع ؛ فمات فدُفن بالثُّوَيَّة إلى جانب الكوفة ، وقد توجه يزيد إلى الحجاز والياً عليها ، فقال مسكين بن عامر بن شُريح بن عَمرو بن عُدُس بن زيد بن عبدالله بن دارم :

رَأيتُ زيادَةَ الإسلامِ وَلَّتْ ... جهاراً حينَ ودَّعَنا زيادُ

وقال الفرزدق لمِسكين ـ ولم يكن هجا زياداً حتى مات :

أَمِسْكِينُ أبكى الله عيْنَك إنما ... جَرَى في ضلالٍ دَمعُها فتَحَدَّرَا
بَكَيْتَ امرأً مِن آلِ مَيْسانَ كافِراً ... كَكِسرى على عَدّانه أو كَقَيْصَرا
أقولُ لَهُ لمّا أتاني نَعِيُّهُ ... به لا بِظَبْيٍ بالصَّريمةِ أعْفَرَا

فأجابه مسكين ، فقال :

ألا أَيُّها المرءُ الذي لسْتُ ناطقاً ... ولا قاعِداً في القوم إلاَّ انْبَرى لِيَا
فجِئنِي بِعَمٍ مِثْلِ عَمّيَ أو أَبٍ ... كمثْلِ أَبِي أو خالِ صدْقٍ كخاليا
كعَمْرِو بن عمروٍ أو زُرارة والداً ... أوِ البِشْرِ من كلٍّ فَرَعتُ الرَّوابيا
وما زال بي مِثلُ القَناةِ وسابحٍ ... وَخَطّارةٍ غِبَّ السُّرَى مِن عياليا
فهذا لأيّام الحِفاظِ وهذِهِ ... لِرَحْلِي وهذا عُدَّة لارتحاليا!

وقال الفرزدق :

أَبلغ زِياداً إذا لاَقَيْتَ مَصْرَعَهُ ... أنَّ الحمامة قد طارت من الحَرَمِ
طارَت فما زال يَنْمِيهَا قَوادِمُها ... حتى آستَغاثتْ إلى الأنهار والأَجَمِ

حدّثني عبدُالله بن أحمدَ ، قال: حدّثني أبي ، عن سليمان ، قال : حدّثني عبدالله ، عن جَرير بن حازم ، عن جرير بن يزيد ، قال : رأيت زياداً فيه حُمرةٌ ، في عينه اليمنى انكسار ، أبيض اللحية مخروطها ، عليه قميص مرقوع ، وهو على بغلة عليها لجامُها قد أرسنها .

وفي هذه السنة كانت وفاةُ الرّبيع بن زِياد الحارثي ، وهو عامل زياد على خُراسان .

ذكر الخبر عن سبب وفاته :

حدّثني عمر، قال: حدّثني علي بن محمد، قال: وَلِي الربيعُ بنُ زياد خُراسانَ سنتين وأشهراً ، ومات في العام الذي مات فيه زياد ، واستُخلف ابنُه عبدُالله بن الربيع ، فولِي شهرين ، ثم مات عبدُالله . قال: فقدم عهده من قِبل زياد على خُراسانَ وهو يُدفن ، واستَخلف عبدُالله بن الربيع على خُراسان خُليدَ بن عبدالله الحنفيّ .

قال عليّ : وأخبرني محمد بن الفضل ، عن أبيه ، قال: بلغني أنّ الرّبيع بن زياد ذكر يوماً بخُراسان حُجْرَ بن عديّ ، فقال: لا تزال العَرَب تقتل صبراً بعدَه ، ولو نفرتْ عند قتله لم يُقتل رجل منهم صَبْراً ، ولكنها أقرّت فذلت، فمكث بعد هذا الكلام جمعةً، ثم خرج في ثياب بياض في يوم جمعة، فقال: أيّها الناس، إني قد مَللتُ الحياة، وإني داعٍ بدعوة فأمِّنوا. ثم رفع يده بعد الصلاة، وقال: اللهمّ إنْ كان لي عندك خيرٌ فاقبِضني إليك عاجلاً. وأمَّن الناسُ فخرج، فما توارتْ ثيابُه حتى سقط فحُمل إلى بيته، واستُخلفَ ابنهُ عبدُالله، ومات من يومه، ثم مات ابنه، فاستخلف خليدُ بن عبدالله الحنفيّ، فأقره زياد، فمات زياد وخُلَيد على خُراسان، وهلك زياد وقد استَخلف على عمله على الكوفة عبدَالله بن خالد بن أسيد، وعلى البصرة سَمُرة بن جُندب الفَزاريّ .

فحدثني عمر بن شبّة ، قال : حدّثني علي ، قال : مات زياد وعلى البصرة سَمُرة بن جُندب خليفة له ، وعلى الكُوفة عبدُالله بن خالد بن أسيد ، فأقرّ سَمُرَة على البصرة ثمانية عشر شهراً .

قال عمر : وبلَغني عن جعفر بن سليمان الضبعيّ ، قال : أقرّ معاوية سَمُرة بعد زياد ستة أشهر ، ثم عَزَله ، فقال سَمُرة : لعن الله معاوية ! والله لو أطعتُ اللّهَ كما أطعتُ معاوية ما عذَّبني أبداً .

حدّثني عمر، قال: حدّثني موسى بن إسماعيل ، قال: حدّثني سليمان بن مسلم العِجليّ ، قال: سمعتُ أبي يقول : مررت بالمسجد ، فجاء رجلٌ إلى سَمُرة فأدّى زَكاة ماله ، ثم دخل فجعل يصلي في المسجد ، فجاء رجل فضرب عنقَه ، فإذا رأسُه في المسجد ، وبدنُه ناحيةً ، فمرّ أبو بكْرة ، فقال : يقول الله سبحانه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾[1] ، قال أبي: فشهدتُ ذاك، فما مات سَمُرة حتى أخذه الزَّمْهرير ، فمات شرّ مِيتة ، قال : وشهدته وأُتِيَ بناس كثير وأناس بين يديه فيقول للرجل : ما دينُك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له ، وأنّ محمداً عبدُهُ ورسولُه وأني بريءٌ من الحَروريّة ، فيقدَّم فيُضرَب عنقه حتى مرّ بضعةٌ وعشرون .

وحجّ بالناس في هذه السنة سعيدُ بن العاص في قول أبي معشر الواقدي وغيرِهما .

وكان العامل فيها على المدينة سعيدَ بن العاص ، وعلى الكوفة بعد موت زِياد عبدالله بن خالد بن أسيد ، وعلى البصرة بعد موت زياد سَمُرة بن جندب ، وعلى خُراسانَ خُلَيد بن عبدالله الحنفيّ .

---

(١) سورة الأعلى: ١٤، ١٥.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففيها كان مَشتَى محمد بن مالك أرضَ الرّوم ، وصائفة مَعْن بن يزيد السُّلَميّ .

وفيها - فيما زعم الواقديّ - فَتَح جُنادةُ بن أبي أميّة جزيرةً في البحر قريبةً من قُسْطنطينيّة يقال لها أرواد .

وذكر محمد بن عمرَ أنّ المسلمين أقاموا بها دهْراً ؛ فيما يقال سبع سنين ، وكان فيها مجاهد بن جَبْر . قال : وقال تُبَيع ابنُ امرأةِ كعب : ترَوْن هذه الدرجة؟ إذا انقلعت جاءت قفْلتنا . قال : فهاجَتْ ريحٌ شديدة فقلعت الدرّجة ، وجاء نعيّ معاوية وكتاب يزيد بالقَفْل فَقفَلْنا ، فلم تَعْمُرْ بعد ذلك وَخَرِبت ، وأَمِن الروم .

وفيها عَزَل معاويةُ سعيدَ بن العاص عن المدينة ، واستَعملَ عليها مَرْوانَ بنَ الحكم .

ذكر سبب عزل معاوية سعيداً واستعمال مَرْوان :

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي بن محمد ، عن جُويرة بن أسماء ، عن أشياخه ، أنّ معاوية كان يُغرِي بين مرْوان وسعيد بن العاص ، فكتب إلى سعيد بن العاص وهو على المدينة : اِهدِم دارَ مَرْوان ؛ فلم يَهدِمْها ، فأعاد عليه الكتابَ بهدمها ، فلم يَفعل ، فعزَلَه وولّى مروان .

وأما محمد بن عمر؛ فإنه ذكر أنّ معاوية كتب إلى سعيد بن العاص يأمره بقبض أموالِ مروانَ كلّها فيجعلَها صافيةً ، ويقبضَ فدَكَ منه - وكان وهبها لها - ، فراجَعَه سعيد بن العاص في ذلك ، وقال : قرابتُه قريبة . فكتب إليه ثانية يأمره باصطفاء أموالِ مَرْوان ، فأبى ، وأخذ سعيد بن العاص الكتابَيْن فوضعهما عند جارية ، فلما عُزِل سعيد عن المدينة فوليهَا مروان ، كتب معاويةُ إلى مَرْوانَ بن الحكم يأمره بقبض أموالِ سعيد بن العاص بالحجاز ، وأرسل إليه بالكتاب مع ابنه عبدالملك ، فخبّره أنه لو كان شيئاً غير كتاب أمير المؤمنين لتجافيتُ ، فدعا سعيدُ بن العاص بالكتابيْن اللّذَين كتب بهما معاويةُ إليه في أموال مَرْوانَ يأمره فيهما بقبض أموالِه ، فذهب بهما إلى مَرْوان ، فقال : هوَ كان أوصَلَ لنا مِنّا له ! وكفّ عن قبض أموالِ سعيد .

وكتب سعيدُ بن العاص إلى معاوية : العَجَبُ مما صنع أمير المؤمنين بنا في قَرابتنا ، أن يُضْغِن بعضَنا على بعض! فأمير المؤمنين في حِلمه وصبرِه على ما يكره من الأجنبيْن ، وعفوه وإدخاله القطيعة بيننا والشحناء، وتوارث الأولاد ذلك ، فوالله لو لم نكن بني أب واحد إلاّ بما جمعنا الله عليه من نَصْر الخليفة المظلوم ، واجتماع كلِمتنا ، لكان حقًّا علينا أنْ نَرعَى ذلك ، والذي أدركنا به خير. فكتب إليه يتنصّل من ذلك ، وأنه عائدٌ إلى أحسن ما يَعهَده .

عاد الحديث إلى حديث عمر، عن علي بن محمد، قال: فلما ولّى مَرْوان كتب إليه : اِهدِم دارَ سعيد ، فأرسل الفَعَلة ، ورَكِب ليهدمَها ، فقال له سعيد: يا أبا عبدالملك ، أتهدم داري ! قال: نعم ، كتب إليّ أميرُ المؤمنين ، ولو كتب في هدم داري لفعلتَ ؛ قال: ما كنتُ لأفعلَ ؛ قال: بلى، واللّهِ لو كتب إليك لهدمتَها، قال: كلاّ أبا عبدالملك. وقال لغلامه: انطلِق فجئني بكتاب معاوية؛ فجاء بكتاب معاوية إلى سعيد بن العاص في هدم دار مَروانَ بن الحكم ، قال: مَروانُ كَتبَ إليك يا أبا عثمانَ في هدم داري ، فلم تَهْدم ولم تُعلمني . قال: ما كنتُ لأهدمَ دارَك ، ولا أمُنَّ ، عليك ؛ وإنما أراد معاوية أن يحرّض بيننا ، فقال مَرْوان : فِداكَ أبي وأميّ! وأنت والله أكثرُ منا ريشاً وعَقَباً. ورجع مروانُ ولم يَهدِم دَارَ سعيد .

حدّثني عمر، قال: حدّثنا علي، قال: حدّثنا أبو محمد بن ذَكْوان القرشي، قال: قدم سعيد بن العاص على معاوية، فقال له: يا أبا عثمان ، كيف تركتَ أبا عبدالملك؟ قال: تركتُه ضابطاً لعَمَلِك، منفِذاً لأمرك . قال: إنه كصاحب الخُبْزة كُفِيَ نُضجَها فأكلَها ، قال: كلاّ، واللّهِ يا أمير المؤمنين، إنه لمع قوم لا يُحمَل بهم السوط، ولا يحلّ لهم السيف، يتهادَوْن كوَقْع النّبل، سهمٌ لك وسهمٌ عليك؛ قال: ما باعدَ بينك وبينه؟ قال: خافني على شرَفه، وخِفْتُه على شرفي، قال: فماذا له عندَك؟ قال: أسُرّه غائباً، وأسُرّه شاهداً؛ قال: تركتَنا يا أبا عثمان في هذه الهَنات؛ قال: نعم يا أمير المؤمنين ، فتحمّلتُ الثِّقْل ، وكفيتُ الحزم ، وكنتُ قريباً لو دعوتَ أجبتُ ، ولو ذهبتَ رفعتُ .

وفي هذه السنة كان عزل معاوية سَمُرة بن جُنْدب عن البصرة، واستعمل عليها عبدَالله بن عمرو بن غيلان . فحدثني عمر ، قال: حدّثني علي بن محمد قال: عـزل معاويـةُ سمرةَ وولي عبـدَالله بن عمرو بن غيْلان ، فأقرّه ستة أشهر ، فولى عبدُالله بن عمرو شرطتَه عبدالله بن حِصن .

وفي هذه السنة ولي معاويةُ عبيدَ الله بن زِياد خُراسان .

ذكر سبب ولاية ذلك :

حدّثني عمر؛ قال: حدّثني علي بن محمد، قال: حدّثنا مسلمة بن محارب ومحمد بن أبَان القرشي ، قالا: لما مات زيادٌ وفد عُبيد الله إلى معاوية فقال له: مَن استخلَفَ أخي على عمله بالكُوفة؟ قال: عبدَالله بن خالد بن أسيد ؛ قال: فَمَن استعمل على البَصرة؟ قال: سَمُرَة بن جُندب الفَزاريّ ، فقال له معاوية: لو استعملك أبوك استعملتك ، فقال له عبيدالله : أنشُدك الله أن يقولها إليَّ أحدٌ بعدَك : لو ولاّك أبوك وعمّك لولّيتك!

قالا : وكان معاوية إذا أراد أن يولّي رجلاً من بني حَرْب ولاّه الطائف ، فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولاّه مكة معها، فإن أحسن الولايةَ وقام بما وُلِّيَ قياماً حسناً جمع له معهما المدينةَ ، فكان إذا ولي الطائف رجلاً قيل: هو في أبي جاد، فإذا ولاّه مكة قيل: هو في القرآن ، فإذا ولاّه المدينة قيل: هو قد حَذَقَ .

قالا : فلما قال عبيد الله ما قال ولاّه خُراسان ، ثم قال له حين ولاّه : إني قد عهدتُ إليك مِثل عهدي إلى عمّالي ، ثم أوصيك وصيّة القرابة لخاصّتك عندي : لا تبيعنّ كثيراً بقليل ، وخذْ لنفسك من نفسِك ، واكتفِ فيما بينك وبين عدوّك بالوفاء تخفّ عليك المؤونة وعلينا منك ، وافتح بابَك للناس تكن في العلم منهم أنت وهم سواء ، وإذا عزمتَ على أمر فأخرجه إلى الناس ، ولا يكن لأحد فيه مَطمَع ، ولا يرجعنّ عليك وأنت تستطيع ،

وإذا لقيت عدوّك فغَلَبوك على ظهر الأرض فلا يَغلبوك على بطنها ، وإن احتاج أصحابُك إلى أن تؤاسيهم بنفسِك فآسِهم .

حدّثني عمر، قال: حدثني علي، قال: أخبرنا علي بن مجاهد ، عن ابن إسحاق ، قال : استعمل معاوية عبيدَ الله بن زياد وقال :

استمسك الفَسْفاسَ إن لم يقطع

وقال له : اتقِ الله ولا تؤثرنّ على تقوى الله شيئاً ، فإن في تقواه عِوَضاً ، وقِ عِرْضَك من أن تُدنّسه ، وإذا أعطيتَ عهداً فَفِ به ، ولا تبيعنَّ كثيراً بقليل ، ولا تُخرِجنّ منك أمراً حتى تُبرِمَه ، فإذا خرج فلا يُردنّ عليك ، وإذا لقيت عدوّك فكن أكثرَ من معك ، وقاسمه على كتاب الله ، ولا تطمعنّ أحداً في غير حقه ، ولا تؤيسنّ أحداً من حقّ له . ثم وَدَّعَه .

حدّثني عمر ، قال: حدّثنا عليّ ، قال : حدّثنا مسلمة ، قال: سار عبيدالله إلى خُراسانَ في آخر سنة ثلاث وخمسين وهو ابن خمس وعشرين سنة من الشام وقدم إلى خُراسان أسلمُ بن زُرْعة الكلابيّ، فخرج ، فخرج معه من الشـام الجعْد بن قيس النَّمَريّ يَرجُز بين يديه بمرثية زياد يقول فيها :

وحدّثني عمرُ مرّة أخرى في كتابه الذي سمّاه كتاب «أخبار أهل البصرة» ، فقال: حدّثني أبو الحسن المدائنيّ قال: لما عقد معاويةُ لعبيد الله بن زياد على خُراسان خرج وعليه عِمامةٌ ـ وكان وَضيئاً ـ والجعْد بن قيس يُنشِده مَرْثِيَة زياد :

أَبْـقِ عَـلَيَّ عـاذِلـي مِـن الـلّومْ فـيـمـا أُزِيـلتْ نِعْـمَتِـي قبـلَ اليَـوْمْ
قَـدْ ذَهَبَ الكَـريـمُ والـظِّلُّ الـدّوْمْ والـنّعَـمُ المُـؤَثَّـلُ الـدّثـرُ الْـحَـوْمْ
والـمـاشِيـاتُ مَشْيَـةً بـعـدَ الـنَّـوْمْ لَـيْتَ الـجيـادَ كـلَّهـا مـع الـقـوْمْ
سُـقِيـنَ سُـمَّ سـاعـةٍ قَبْـلَ الـيـوْمْ لأَرْبـع مَـضيْنَ من شـهـرِ الـصّـوْمْ

ومنها :

يَـوْمُ الـثـلاثـاءِ الـذي كـان مَضَـى يَـوْمٌ قَضَى فيـه المَليـك مـا قَضَى
وَفَـاةَ بَـرٍّ مـاجِـدٍ جَـلْدِ الـقـوَى حَـرَّبِـهِ نَـوالُ جَـعْـدٍ والـتّـظَى
كَـان زيـادُ جَبَـلاً صَعْبَ الـذُّرَى شَـهْمـاً إذا شئتُمْ نـقـيـصـاتٍ أَبَـى
لا يُبْعِـدِ اللّهُ زِيـاداً إذْ ثَـوى

وبكى عُبيد الله يومئذ حتى سقطتْ عمامته عن رأسه ؛ قال : وقَدِم عُبيد الله خُراسانَ ثم قطع النهر إلى جبال بُخارَى على الإبل ، فكان هو أوّل مَن قطع إليهم جبالَ بُخارَى في جند ، ففتح رامثين ونصف بَيْكَنْد ـ وهما من بخارى ـ فمِن ثَمّ أصاب البخاريّة .

قال علي : أخبَرَنا الحسن بن رشيد ، عن عمّه ، قال : لقي عُبيد الله بن زياد التُّركَ ببُخارى ومع مَلِكهم امرأته قبج خاتون ، فلما هزمهم الله أعجلوهـا عن لبس خُفَّيْها، فلبست أحـدهما وبقي الآخـر ، فأصـابه المسلمون ، فقُوِّم الجَوْرَبُ بمائتي ألف درهم .

قال : وحدّثني محمد بن حفص ، عن عُبيد الله بن زياد بن معمر ، عن عُبادة بن حصن ، قال: ما رأيت أحداً أشدَّ بأساً من عُبيد الله بن زياد ، لقيَنا زحفٌ من الترك بخُراسان ، فرأيتُه يقاتل فيَحمِل عليهم فيَطعن فيهم ويغيب عنا ، ثمّ يرفع رايته تَقطُر دماً .

قال علي : وأخبَرَنا مَسلمة أن البخارّية الذين قدم بهم عُبيدالله بن زياد البَصرة ألفان ، كلّهم جَيِّدُ الرَّمي بالنُّشّاب .

قال مسلمة : كان زحفُ الترك ببُخارى أيامَ عُبيد الله بن زياد من زُحوف خُراسان التي تُعدُّ ؛ قال: وأخبَرَنا الهُذَليُّ ، قال : كانت زُحوفُ خُراسانَ خمسةً : أربعة لقيَها الأحنف بن قيس ؛ الذي لقيه بين قُهسْتان وأبْرَشهر ، والزّحوف الثلاثة التي لقيَها بالمَرْغاب ، والزّحف الخامس زَحْف قارِن ، فَضَّه عبدالله بنُ خازم .

قال علي : قال مسلمة : أقام عُبيد الله بنُ زياد بخُراسانَ سنتين .

وحجّ بالناس في هذه السنة مَروانُ بن الحَكم ، كذلك حدّثني أحمد بن ثابت ، عمّن حدّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، وكذلك قال الواقديّ وغيرُه .

وكان على المدينة في هذه السنة مَرْوانُ بن الحَكَم ، وعلى الكوفة عبدالله خالد بن أسيد؛ وقال بعضهم : كان عليها الضّحاك بن قيس ، وعلى البصرة عبدُالله بن عَمرو بن غَيْلان .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين

ذكر الخبر عن الكائن فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك مَشتَى سُفْيان بن عوف الأزدي بأرض الرّوم في قول الواقدي .

وقال بعضهم : بل الذي كان شَتَا بأرض الرُّوم في هذه السنة عَمرو بنُ محرز .

وقال بعضهم : بل الذي شَتَا بها عبدُالله بن قيس الفَزاريّ .

وقال بعضهم : بل ذلك مالكُ بن عبدالله .

وفيها عَزَل معاويةُ عبدَالله بن عَمرو بن غَيْلاَنَ عن البَصرة وولاّها عُبيد الله بنَ زياد .

ذكر الخبر عن سبب عزل معاوية عبدالله بن عمرو بن غيلان وتوليته عبيدالله البصرة

حدّثني عمر ، قال: حدّثنا الوليد بن هشام وعلي بن محمد ـ قال: واختلفا في بعض الحديث ـ قالا: خطب عبدُالله بنُ عَمرو بن غيْلاَن على مِنبر البَصرة ، فَحصَبه رجل من بني ضَبّة ـ قال عمر: قال أبو الحسن: يُدعَى جبيرَ بن الضحـاك أحد بني ضِرار ـ فأمَر به فقُطعَتْ يده ، فقال :

السمـعُ والـطاعَـةُ والتسليمْ خـيـرٌ وأعفـى لبـني تـميـمْ

فأتته بنو ضَبّة ، فقالوا : إنّ صاحبنا جَنَى ما جنى على نفسه ، وقد بالغَ الأميرُ في عقوبته ، ونحن لا نأمن أن يَبلُغ خبرُه أميرَ المؤمنين ، فيأتي من قِبله عقوبة تخصّ أو تَعمُّ ، فإنْ رأى الأميرُ أن يكتب لنا كتاباً يخرج به أحدنا إلى أمير المؤمنين يُخبره أنه قطعه على شُبْهة وأمر لم يَضِحْ ، فكتب لهم بعـد ذلك إلى معاوية ، فأمسكوا الكتاب حتى بلغ رأس السنة ـ وقال أبو الحسن : لم يَزد على ستة أشهر ـ فوجّه إلى معاوية، ووافاه الضَّبيّون ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنه قطع صاحبنا ظلماً ، وهذا كتابُه إليـك ، وقرأ الكتاب ، فقال : أما القَوَد من عمّالي فلا يصحّ ، ولا سبيل إليه ، ولكن إن شئتم وَدَيْتُ صاحبَكم ؛ قالوا : فَدِه ؛ فَوَدَاه من بيت المال ، وعَزَل عبدَالله ، وقال لهم : اختاروا مَن تحبون أن أولّيَ بلدَكم ؛ قالوا : يتخيّر لنا أميرُ المؤمنين ، وقد علم رأيَ أهل البَصرة في ابن عامر؛ فقال: هل لكم في ابن عامر؟ فهو مَن قد عرفتم في شرفه وعفافه وطهارته ، قالوا: أميرُ المؤمنين أعلمُ ، فجعل يُردّد ذلك عليهم ليَسْبُرَهم ، ثم قال: قد ولّيت عليكم ابنَ أخي عُبيد الله بن زياد .

قال عمر: حدّثني علي بن محمد، قال: عَزَل معاويةُ عبدَالله بن عَمرو وولى عُبيدَالله بن زياد البصرة في سنة خمسٍ وخمسين وولى عبيدالله أسلم بن زُرْعة خُراسان فلم يغزُ ولم يفتح بها شيئاً ، وولّى شُرَطه عبدَالله بن حصن ، والقَضاءَ زُرارةَ بن أوفى ثم عَزله ، وولي القضاءَ ابن أذينة العبديّ .

وفي هذه السنة عزل معاويةُ عبدَالله بن خالد بن أسيد عن الكُوفة وولّاها الضحّاك بن قيس الفِهْريّ .

وحجّ بالناس في هذه السنة مَروانُ بنُ الحَكَم ؛ حدّثني بذلك أحمدُ بن ثابت ، عمّن حدّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر .

ثم دخلت سنة ست وخمسين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففيها كان مَشتَى جُنادة بن أبي أميّة بأرض الرّوم ؛ وقيل : عبدالرحمن بن مسعود .

وقيل غزا فيها في البحر يزيد بن شَجَرة الرّهاوي ، وفي البرّ عِياض بن الحارث .

وحجّ بالناس ـ فيما حدّثني أحمد بن ثابت عمن حدّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ـ الوليد ابن عُتبة بن أبي سُفْيان .

وفيها اعتَمَرَ معاوية في رجب .

وفيها دعا معاويةُ الناسَ إلى بيعة ابنه يزيدَ من بعده ، وجعله وليّ العهد .

ذكر السبب في ذلك :

حدّثني الحارث ، قال : حدّثنا علي بن محمد ، قال : حدّثنا أبو إسماعيل الهَمْداني وعلي بن مجاهد ، قالا : قال الشعبيّ : قَدِم المغيرةُ على معاويةَ واستعفاه وشكا إليه الضَّعف ، فأعفاه ، وأراد أن يولّيَ سعيدَ بن العاص ، وبلغ كاتب المغيرة ذلك ، فأتى سعيدَ بن العاص فأخبرَه وعنده رجل من أهل الكوفة يقال له ربيعة ـ أو الربيع ـ من خُزاعة ، فأتى المغيرة فقال : يا مغيرة ، ما أرى أميرَ المؤمنين إلّا قد قَلاك ، رأيتُ ابن خُنَيس كاتِبَك عند سعيد بن العاص يخبره أنّ أمير المؤمنين يولّيه الكوفَة ، قال المغيرة : أفلا يقول كما قال الأعشى :

أَمْ غابَ رَبُّكَ فاعْتَرتْكَ خَصاصةٌ ولعلّ ربَّك أن يعودَ مؤيَّدَا

رُوَيْداً! ادخُل على يزيد ؛ فدخل عليه فعرّض له بالبيعة ، فأدّى ذلك يزيد إلى أبيه ، فردَّ معاوية المغيرة إلى الكوفة ، فأمره أن يعمل في بيعة يزيد ، فشَخَص المغيرة إلى الكوفة ، فأتاه كاتبُه ابن خُنَيْس ، فقال : والله ما غششْتك ولا خُنْتُك ، ولا كرهتُ ولايتَك ، ولكنّ سعيداً كانت له عندي يَدٌ وبلاء ، فشكرتُ ذلك له ، فرضيَ عنه وأعاده إلى كتابته ، وعَمِل المغيرةُ في بيعة يزيد ، وأوفد في ذلك وافداً إلى معاوية .

حدّثني الحارث ، قال : حدّثنا علي ، عن مَسلَمة ، قال : لما أراد معاوية أن يبايع ليزيدَ كتب إلى زياد يستشيره ، فبعث زياد إلى عبيد بن كعب النُّميريّ ، فقال : إنّ لكلّ مستشير ثقة ، ولكلّ سرٍّ مستودَع ، وإنّ الناس قد أبدعت بهم خَصْلتان : إذاعة السرّ ، وإخراج النصيحة إلى غير أهلها ، وليس موضع السرّ إلّا أحد رجلين : رجلُ آخرة يرجو ثواباً ، ورجل دُنْيا له شَرَف في نفسه وعَقْل يصون حَسَبه ، وقد عجمْتُهما منك ، فأحمدت الذي قِبَلك ، وقد دعوتُك لأمر اتّهمتُ عليه بطونَ الصّحُف ؛ إنّ أميرَ المؤمنين كتب إليّ يزعم أنه قد

عزم على بيعة يزيد ، وهو يتخوّف نَفْرَةَ الناس ، ويرجو مطابقَتهم ، ويستشيرني ، وعَلاقةُ أمرِ الإسلام وضمانُه عظيم ، ويزيد صاحبُ رَسْلَة وتهاون ، مع ما قد أولِع به من الصيد ، فالقَ أميرَ المؤمنين مؤدّياً عني ؛ فأخبره عن فَعَلات يزيد ؛ فقال له : رُوَيْدَك بالأمر ، فأقْمَنُ أن يتمّ لك ما تريد ، ولا تَعجَل فإنّ دَرَكاً في تأخير خيرٌ من تعجيل عاقبتُه الفَوْت . فقال عُبيد له : أفلا غيرَ هذا ! قال : ما هو؟ قال: لا تُفسِد على معاويةَ رأيَه ، ولا تمقِّت إليه ابنَه ، وألقى أنا يزيدَ سرّاً من معاوية فأخبره عنك أنّ أميرَ المؤمنين كتب إليك يستشيرك في بيعته ، وأنك تخوَّفُ خلاف الناس لهَنَاتٍ ينقِمونها عليه ، وأنّك ترى له ترك ما يُنقَمُ عليه ، فيستحكم لأمير المؤمنين الحجّة على الناس، ويسهل لك ما تريد ، فتكونَ قد نصحت يزيد وأرضيتَ أميرَ المؤمنين ؛ فسلِمت مما تخاف من علاقة أمر الأمّة . فقال زياد : لقد رميت الأمر بحَجَرِهِ ، اِشخَص على بركة الله ، فإن أصبت فما لا ينكر ، وإن يكن خطأ فغير مستغَش وأبْعُد بك إن شاء الله من الخطأ ، قال : تقول بما ترى ، ويقضي الله بغيبِ ما يَعلَم . فقدم على يزيدَ فذاكره ذلك . وكتب زياد إلى معاوية يأمره بالتؤدة ، وألّا يَعجَل ، فقبل ذلك معاوية ، وكفّ يزيد عن كثير مما كان يصنع ، ثم قدم عُبيد على زياد فأقطعه قطيعة .

حدّثني الحارث ، قال : حدّثنا علي ، قال : لما مات زياد دعا معاويةُ بكتابٍ فقرأه على الناس باستخلاف يزيد ، إن حَدَث به حدثُ الموت فيزيد وليّ عهد ، فاستوسق له الناس على البيعة ليزيدَ غير خمسة نفر .

فحدّثني يعقوبُ بن إبراهيم ، قال: حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم ، قال :حدّثنا ابن عون ، قال: حدّثني رجل بنخلةَ ، قال : بايع الناسُ ليزيدَ بن معاوية غير الحسين بن علي وابن عمرَ وابن الزّبير وعبدالرحمن بن أبي بَكر وابن عبّاس ؛ فلما قدم معاوية أرسل إلى الحسين بن علي ، فقال : يابن أخي ، قد استوسق الناسُ لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودُهُمْ ؛ يابنَ أخي ، فما إرْبك إلى الخلاف؟ قال: أنا أقودهم! قال: نعم ، أنت تقودهم ؛ قال: فأرسِلْ إليهم ، فإنْ بايعوا كنتُ رجلاً منهم ، وإلاّ لم تكن عجلتَ عليَّ بأمر ؛ قال: وتفعل؟ قال: نعم ؛ قال: فأخذ عليه ألاّ يُخبر بحديثهم أحداً ، قال: فالْتوى عليه ، ثم أعطاه ذلك ، فخرج وقد أقعَد له ابنُ الزبير رجلاً بالطريق قال: يقول لك أخوك ابن الزبير : ما كان؟ فلم يزل به حتى استخرج منه شيئاً .

ثم أرسل بعدَه إلى ابن الزّبير ، فقال له : قد استوسق الناسُ لهذا الأمر غير خمسةِ نفر من قريش أنت تقودهم ؛ يابنَ أخي ! فما إرْبك إلى الخلاف؟ قال: أنا أقودهم! قال: نعم ، أنت تقودهم ؛ قال: فأرسِل إليهم فإن بايعوا كنتُ رجلاً منهم ، وإلا لم تكن عجلتَ عليَّ بأمر ؛ قال: وتفعل؟ قال: نعم ؛ قال : فأخذ عليه ألاّ يخبر بحديثهم أحداً ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، نحن في حَرَم الله عزّ وجلّ ، وعهدُ الله سبحانه ثقيل ، فأبى عليه ، وخرج .

ثم أرسل بعدَه إلى ابن عمر فكلّمه بكلام هو ألينَ من كلام صاحبه ، فقال: إنّي أرهب أن أدعَ أمة محمد بعدي كالضأن لا راعيَ لها ، وقد استوسَق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم ، فما إرْبك إلى الخلاف! قال: هل لك في أمرٍ يُذهب الذمّ ، ويَحقِن الدم ، وتُدرِك به حاجتك؟ قال: وددتُ! قال : تبرز سريرك ، ثم أجيء فأبايعك ، على أنّي أدخل بعدَك فيما تجتمع عليه الأمة ، فوالله لو أنّ الأمة اجتمعتْ بعدك على عبد حبشيّ لدخلتُ فيما تدخل فيه الأمة؛ قال: وتفعل؟ قال: نعم ، ثم خرج فأتى منزلَه فأطبق بابَه ،

وجعل الناسُ يجيئون فلا يأذن لهم .

فأرسل إلى عبدالرحمن بن أبي بكر ، فقال : يابن أبي بكر ، بأيّة يدٍ أو رِجل تُقدِم على معصيتي ! . قال : أرجو أن يكون ذلك خيراً لي ؛ فقال : والله لقد هممتُ أن أقتلَك ؛ قال : لو فعلتَ لأتبعَك الله به لعنةً في الدنيا ، وأدخلك به في الآخرة النار .

قال : ولم يذكر ابن عباس .

وكان العامل على المدينة في هذه السنة مَرْوان بن الحكم ، وعلى الكوفة الضحّاك بن قيس ، وعلى البَصرة عُبيد الله بن زياد ، وعلى خُراسان سعيد بن عثمان .

وكان سبب ولايته خُراسان ما حدّثني عمر ، قال : حدّثني علي ، قال : أخبرني محمد بن حفص ، قال : سأل سعيد بن عثمانَ معاوية أن يستعمله على خُراسان ، فقال : إنّ بها عبيدالله بن زياد ، فقال : أما لقد اصطنعك أبي ورَفاك حتى بلغتَ باصطناعه المَدَى الذي لا يُجارَى إليه ولا يُسامَى ، فما شكرتَ بلاءه ، ولا جازيته بآلائه ، وقدّمت عليَّ هذا ـ يعني يزيد بن معاوية ـ وبايعتَ له ؛ ووالله لأنا خير منه أباً وأمًّا ونفساً ؛ فقال : فقال معاوية : أمّا بلاء أبيك فقد يحقّ عليَّ الجزاء به ، وقد كان من شكري لذلك أني طلبتُ بدمه حتى تكشفت الأمور ، ولست بلائم لنفسي في التّشمير ؛ وأما فضل أبيك على أبيه فأبوكَ واللّهِ خيرٌ مني وأقربُ برسول الله ﷺ ؛ وأما فضل أمّك على أمه فما يُنكَر ، امرأةٌ من قريش خيرمن امرأة من كلب ، وأما فضلُك عليه فوالله ما أحبّ أن الغُوطة دُحِسَتْ ليزيدَ رجالاً مثلك . فقال له يزيد : يا أميرَ المؤمنين ، ابنُ عمّك ، وأنت أحقّ مَن نَظَر في أمره ، وقد عَتَب عليك فأعتبه ، قال : فولاّه حربَ خُراسان ، وولى إسحاق بنَ طلحة خَراجها ، وكان إسحاق ابن خالة معاوية ، أمّه أمّ أبان ابنة عُتبة بن ربيعة ، فلما صار بالرّيّ مات إسحاق بن طلحة فوليَ سعيد خراجَ خُراسان وحربَها .

حدّثني عمر ، قال : حدّثني علي ، قال : أخبرنا مسلمة ، قال : خرج سعيد إلى خُراسان وخرج معه أوس بن ثعلبة التّيميّ صاحب قصر أوس ؛ وطلحة بن عبدالله بن خَلَف الخُزاعيّ والمهلّب بن أبي صُفْرة وربيعة بن عِسْل أحدُ بني عمرو بن يَربوع ؛ قال : وكان قومٌ من الأعراب يقطعون الطريقَ على الحاجّ ببطن فَلْج ، فقيل لسعيد : إنّ ها هنا قوماً يقطعون الطريق على الحاجّ ويُخيفون السبيل ، فلو أخرجتَهم معك ! قال : فأخرج قوماً من بني تميم ، منهم مالك بن الرَّيْب المازنيّ في فِتْيانٍ كانوا معه ، وفيهم يقول الراجز :

الله أَنجاكَ من القَصيمِ ومن أبي حَرْدَبَةَ الأثيمِ
ومن غُوَيْثٍ فاتحِ العُكُومِ ومالِكٍ وسيفه المَسْمومِ

قال عليّ : قال مَسلَمة : قدم سعيد بنُ عثمانَ ، فقطع النّهر إلى سَمرْقَنْد ، فخرج إليه أهل الصُّغْد ، فتواقفوا يوماً إلى الليل ثم انصرفوا من غير قتال ، فقال مالكُ بن الرَّيْب يذمّ سعيداً :

ما زلتَ يومَ الصُّغْدِ تُرعَدُ واقفاً من الجُبن حتى خِفتُ أن تَتَنصَّرا
وما كان في عثمانَ شيءٌ علِمتُه سوى نَسْلِهِ في رهطِه حين أدبَرا
ولولا بنو حرب لَظلَّتْ دماؤُكُمْ بُطُونَ العَظايا من كسيرٍ وأعورَا

قال : فلما كان الغدُ خرج إليهم سعيدُ بنُ عثمانَ ، وناهَضَه الصُّغد ، فقاتلهم فهزَمهم وحصرَهم في مديْنتهم ، فصالحوه وأعطَوْه رُهُناً منهم خمسين غلاماً يكونون في يدِه من أبناء عظمائهم ، وعَبَر فأقام بالتِّرْمِذ ، ولم يفِ لهم ، وجاء بالغِلْمان الرّهن معه إلى المدينة .

قال : وقدم سعيد بن عثمانَ خُراسان وأسلم بن زُرْعة الكِلابيّ بها من قبَل عُبيد الله بن زياد ، فلم يزل أسلم بن زُرعة بها مقيماً حتى كتب إليه عُبيدالله بن زياد بعهده على خُراسان الثانية ، فلما قَدِم كتابُ عبيدالله على أسلم طرق سعيد بن عثمانَ ليلاً ، فأسقطتْ جاريةٌ له غلاماً ، فكان سعيد يقول : لأقتلنّ به رجلاً من بني حرب ؛ وقدم على معاوية فشكا أسلم إليه ، وغضبت القيسيّة ؛ قال: فدخل همّام بن قَبيصة النَّمَريّ فنظر إليه معاوية محمرَّ العينين ، فقال : يا همام ، إنّ عينيك لمحمرّتان ؛ قال همّام : كانتا يومَ صِفِّين أشد حُمرة ؛ فغمّ معاوية ذلك ، فلما رأى ذلك سعيد كفّ عن أسلم ، فأقام أسلم بن زُرْعة على خُراسانَ والياً لعُبيد الله بن زياد سنتين .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين

وكان فيها مَشتَى عبدِ الله بن قيس بأرض الرّوم .

وفيها صُرف مروانُ عن المدينة في ذي القعدة في قول الواقدي ؛ وقال غيره : كان مروانُ إليه المدينة في هذه السنة .

وقال الواقديّ : استعمل معاويةُ على المدينة حين صَرَف عنها مروانَ الوليدَ بن عُتْبة بن أبي سُفْيان .

وكالذي قال الواقدي قال أبو معشر، حدّثني بذلك أحمدُ بن ثابت الرازيّ ، عمّن حدّثه ، عن إسحاق ابن عيسى، عنه .

وكان العامل على الكوفة في هذه السنة الضحّاك بنُ قيس ، وعلى البصرة عُبيد الله بن زياد ، وعلى خُراسانَ سعيدبن عثمانَ بن عفّان .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فيها نزعَ معاويةُ مروانَ عن المدينة في ذي القعدة في قول أبي معشر، وأمَّر الوليد بن عتبة بن أبي سفيان عليها؛ حدّثني بذلك أحمدُ بن ثابت عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عنه.

وفيها غزا مالكُ بن عبدالله الخثعميّ أرضَ الروم.

وفيها قتِل يزيد بن شجرة في البحر في السفن في قول الواقدي. قال: ويقال عمرو بن يزيد الجُهَنيّ، وكان الذي شتا بأرض الروم، وقد قيل: إنّ الذي غزا في البحر في هذه السنة جُنادة بن أبي أميّة.

وحجّ بالناس في هذه السنة الوليدُ بن عُتبة بن أبي سُفْيان، كذلك حدّثني أحمد بن ثابت عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر، وكذلك قال الواقديّ وغيره.

وفي هذه السنة ولى معاويةُ الكوفةَ عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالله بن عثمان بن ربيعة الثقفي، وهو ابن أمّ الحَكَم أخت معاوية بن أبي سُفْيان، وعزل عنها الضحّاك بن قيس، ففي عمله في هذه السنة خرجتْ الطائفة الذين كان المغيرةُ بن شعبة حبَسَهم في السّجن من الخوارج الذين كانوا بايعوا المستورد بن عُلّفة، فظَفِر بهم فاستودَعَهم السجن، فلما مات المغيرةُ خرجوا من السجن.

فذكر هشام بن محمد أنّ أبا مخنف، حدّثه عن عبدالرحمن بن جُندب، عن عبدالله بن عُقْبة الغَنَويّ أنّ حيّان بن ظَبْيان السُّلَميّ جمع إليه أصحابه، ثم إنه حَمِد الله وأثنى عليه ثم قال لهم: أمّا بعد، فإنّ الله عزّ وجلّ كتب علينا الجهاد، فمنّا من قَضَى نَحْبَه، ومنّا من يَنتظر، وأولئك الأبرار الفائزون بفضلهم، ومَنْ يكن منّا من ينتظر فهو مِن سَلفنا القاصين نَحبَهم، السابقين بإحسان؛ فمن كان منكم يريد اللّهَ وثوابَه فليَسلك سبيلَ أصحابه وإخوانه يؤتِه اللّهُ ثوابَ الدنيا وحُسنَ ثوابِ الآخرة والله مع المحسنين.

قال معاذ بن جُوَين الطائيّ: يا أهل الإسلام، إنا والله لو علمْنا أنا إذا تركنا جهاد الظلمة وإنكار الجوْر، كان لنا به عند الله عذر، لكان تركه أيْسَر علينا، وأخفّ من ركوبه، ولكنّا قد علمنا واستيقنّا أنه لا عذر لنا، وقد جعل لنا القلوب والأسماع حتى ننكر الظلم، ونُغيّر الجوْر، ونجاهِد الظالمين؛ ثم قال: ابسط يَدك نبايعك، فبايعه وبايَعَه القومُ، فضربوا على يد حيّان بن ظَبْيان، فبايعوه، وذلك في إمارة عبدالرحمن بن عبدالله بن عثمان الثقفي، وهو ابن أمّ الحَكَم، وكان على شرطته زائدة بن قُدامة الثقفي.

ثم إن القوم اجتمعوا بعد ذلك بأيام إلى منزل معاذ بن جوين بن حصين الطائيّ. فقال لهم حيّان بن

ظَبْيان : عبادَ الله ، أشيروا برأيكم ، أين تأمروني أن أخرجَ ؟ فقال له معاذ : إني أرى أن تسير بنا إلى حُلوان حتى ننزلها ، فإنها كورةٌ بين السهل والجبل ، وبين المِصر والثَّغر ـ يعني بالثغر الريّ ـ فمن كان يرى رأْيَنا من أهل المِصْر والثَّغر والجبال والسواد لحق بنا. فقال له حيّان : عدوُّك مُعاجلك قبل اجتماع الناس إليك ، لَعَمري لا يتركونكم حتى يجتمعوا إليكم ، ولكن قد رأيت أن أخرجَ معكم في جانب الكوفة والسَّبَخة أو زُرارة والحِيرة ، ثم نقاتلهم حتى نلحق بربّنا ، فإني والله لقد علمتُ أنكم لا تقدرون وأنتم دون المائة رجل أن تَهزموا عدوّكم ، ولا أن تشتدّ نكايتكم فيهم ؛ ولكن متى عَلم الله أنكم قد أجهدتم أنفسَكم في جهادِ عدوّه وعدوّكم كان لكم به العذر ، وخرجتم من الإثم . قالوا : رأينا رأيك ، فقال لهم عِتريس بن عُرقوب أبو سليمان الشيبانيّ : ولكن لا أرى رأيَ جماعتكم ، فانظروا في رأي لكم ، إنّي لا إخالُكم تجهَلون معرفتي بالحرب ، وتجرِبتي بالأمور ، فقالوا له : أجَل ، أنت كما ذكرت ، فما رأيك؟ قال: ما أرى أن تخرجوا على الناس بالمِصر ، إنكم قليل في كثير ، والله ما تزيدون على أن تجزروهم أنفسكم ؛ وتقرّوا أعينهم بقتلكم ، وليس هكذا تكون المكايدة إذْ آثرتم أن تَخرجوا على قومِكم ، فكِيدوا عدوَّكم ما يضرّهم ؛ قالوا : فما الرأي؟ قال : تسيرون إلى الكُورة التي أشار بنزولها مُعاذ بن جُوَين بن حصين ـ يعني حُلوان ـ أو تسيرون بنا إلى عَين التّمر فنقيم بها ، فإذا سمع بنا إخواننا أتَوْنا من كلّ جانبٍ وأوْب ؛ فقال له حيّان بن ظَبْيان : إنك والله لو سرتَ بنا أنت وجميع أصحابك نحو احد هذين الوجهين ما اطمَأنَنْتم به حتى يلحق بكم خيولُ أهل المِصْر ، فأنى تشْفُونَ أنفسَكم ! فوالله ما عِدَّتكم بالكثيرة التي ينبغي أن تَطمَعوا معها بالنصر في الدّنيا على الظالمين المعتدين ، فاخرجوا بجانب من مِصركم هذا فقاتِلوا عن أمر الله من خالفَ طاعة الله ، ولا تربّصوا ولا تنتظِروا فإنكم إنما تبادرون بذلك إلى الجنة ، وتُخرِجون أنفسكم بذلك من الفتنة . قالوا : أما إذا كان لا بدّ لنا فإنا لن نخالفَك، فاخرج حيث أحببت .

فمكث حتى إذا كان آخر سنة من سِنِي ابن أمّ الحَكَم في أول السنة ـ وهو أوّل يوم من شهر ربيع الآخر ـ اجتمع أصحابُ حيّان بن ظَبْيان إليه ، فقال لهم : يا قوم ، إنّ الله قد جمعكم لخيروعلى خير ، والله الذي لا إله غيره ما سررتُ بشيء قطّ في الدنيا بعدما أسلمت سُروري لُمخرَجي هذا على الظَّلمة الأثمَة ، فوالله ما أحبّ أنّ الدنيا بحذافِيرها لي وأن الله حَرَمني في مُخرَجي هذا الشهادة . وإني قد رأيت أن نخرج حتى ننزل جانب دار جرير ، فإذا خرج إليكم الأحزابُ ناجزْتُموهم . فقال عِتْريس بن عُرقوب البَكْريّ : أمّا أن نقاتلَهم في جوف المِصْر فإنه يقاتلنا الرّجال ، وتَصعدَ النساءُ والصّبيان ، والإماء فيرموننا بالحجارة ؛ فقال لهم رجل منهم : إنزلوا بنا إذاً من وراء المِصْر الجسرَ ـ وهو موضع زُرارة ، وإنما بنيت زُرارة بعد ذلك إلاّ أبياتاً يسيرة كانت منها قبل ذلك ـ فقال لهم معاذ بن جوين بن حصين الطائيّ : لا ، بل سيروا بنا فلننزل بانِقْيَا فما أسرع ما يأتيكم عدوّكم ، فإذا كان ذلك استقبلْنا القومَ بوجوهنا ، وجعلْنا البيوت في ظهورنا ، فقاتلْناهم من وجه واحد . فخرجوا ، فبُعث إليهم جيش، فقُتلوا جميعاً .

ثم إنّ عبدالرحمن بن أمّ الحَكَم طرده أهل الكوفة، فحدِّثت عن هشام بن محمد ، قال: استعمل معاويةُ ابن أُمّ الحكم على الكوفة فأساء السيرة فيهم ، فطردوه ، فلحق بمعاوية وهو خاله ، فقال له: أولّيك خيراً منها ؛ مِصرَ ؛ قال : فولاّه،فتوجه إليها،وبلغ معاويةَ بن حُديج السَّكونيّ الخبر ، فخرج فاستقبله على مَرْحلتين من مصر، فقال: إرجع إلى خالك فلَعمرِي لا تسير فينا سيرتك في إخواننا من أهل الكوفة .

قال : فرجع إلى معاوية ، وأقبل معاوية بن حُدَيج وافداً؛ وقال: وكان إذا جاء قُلِّسَتْ له الطريق ـ يعني ضُرِبت له قِباب الرّيحان ـ قال: فدخل على معاوية وعنده أمّ الحكم، فقالت: مَن هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: بخٍ ! هذا معاوية بن حُدَيج ؛ قالت: لا مرحَباً به! تَسمَع بالمُعَيْدِيّ خيرٌ مِن أن تراه ؛ فقال : على رِسْلِكِ يا أمّ الحكم! أما والله لقد تزوّجتِ فما أكرمتِ ، وولدتِ فما أَنْجَبْتِ ، أردتِ أن يلي ابنك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار في إخواننا من أهل الكوفة؛ ما كان الله لِيُرِيَه ذلك ، ولو فعل ذلك لضربْناه ضرباً يطأطىء منه ، وإن كره ذلك الجالس . فالتفت إليها معاوية ، فقال : كُفّي .

وفي هذه السنة اشتدّ عبيدالله بن زياد على الخوارج ، فقتل منهم صبراً جماعةً كثيرة ، وفي الحرب جماعة أخرى ، وممن قتل منهم صبراً عروة بن أديّة ، أخو أبي بلال مرداس بن أَدَيّة .

ذكر سبب قتله إيّاهم :

حدّثني عمر ، قال : حدّثني زهيربن حرب ، قال : حدّثنا وهب بن جرير ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني عيسى بن عاصم الأسديّ ، أنّ ابن زياد خرج في رِهان له ، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناسُ وفيهم عروة بن أديّة أخو أبي بلال ، فأقبل على ابن زياد فقال : خمس كنّ في الأمم قبلنا ، فقد صِرْن فينا: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِين ﴾(١) . وَخَصْلتين أخريين لم يحفظهما جرير : فلما قال ذلك ظنّ ابن زياد أنه لم يجترىء على ذلك إلاّ ومعه جماعة من أصحابه ، فقام ورَكِب وترك رِهانه ، فقيل لعُرْوة : ما صنعتَ! تعلَّمَنْ والله ليقتلنّكَ . قال : فتوارى، فطَلَبه ابنُ زياد ،فأتـى الكُوفة ، فأخِذ بها ، فقدم به على ابن زياد ، فأمر به فقطِعتْ يداه ورِجْلاه ، ثم دعا به فقال : كيف ترى؟ قال: أَرَى أنك أفسدت دنيايَ وأفسدت آخرتَك ؛ فقتَلَه ، وأرسل إلى ابنته فقتلها .

وأما مِرْداس بن أديّة فإنه خرج بالأهواز وقد كان ابن زياد قبل ذلك حَبَسه ـ فيما حدّثني عمر ، قال: حدّثني خلّاد بن يزيدَ الباهليّ ، قال : حبس ابن زياد ـ فيمن حَبَسَ ـ مرداس بن أديّة ، فكان السجّان يرى عبادته واجتهادَه ، وكان يأذن له في الليل ، فيصرف ، فإذا طلع الفجر أتاه حتى يدخل السجن ، وكان صديقٌ لمرداس يسامرُ ابنَ زياد ، فذكر ابن زياد الخوارج ليلةً فعزم على قتلهم إذا أصبح ، فانطلق صديقُ مرداس إلى منزل مِرداس فأخبرهم ، وقال : أرسلوا إلى أبي بلال في السجن فليعهْد فإنه مقتول، فسمع ذلك مرداس ، وبلغ الخبرُ صاحبَ السجن، فبات بليلة سوء إشفاقاً من أن يعلم الخبر مِرداس فلا يرجع ، فلما كان الوقت الذي كان يرجع فيه إذا به قد طلع ، فقال له السجّان : هل بلغك ما عزم عليه الأمير؟ قال: نعم ؛ قال : ثمّ غدوتَ ! قال : نعم ، ولم يكن جزاؤك مع إحسانك أن تعاقَب بسببي ؛ وأصبح عُبيد الله فجعل يَقتل الخوارج ، ثم دعا بمرداس ، فلمّا حضر وَثَب السجّان ـ وكان ظِئراً لعبيد الله ـ فأخذ بقدمه، ثم قال : هب لي هذا؛ وقصّ عليه قصّته، فوهبه له وأطلقه.

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا زُهير بن حرب ، قال : حدّثنا وهب بن جرير ، قال : حدثنا أبي ، قال : حدّثني يونس بن عبيد ، قال : خرج مِرداسُ أبو بلال ـ وهو من بني ربيعة بن حنظلة ـ في أربعين رجلاً إلى

---

(١) سورة الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠ .

الأهواز ، فبعث إليهم ابنُ زياد جيشاً عليهم ابن حِصن التميميّ ، فقتلوا في أصحابه وهزموه ، فقال رجلٌ من بني تَيْم الله بن ثعلبة :

أألفا مُؤْمِنٍ منكم زَعمتمْ ويقتُلُهُمْ بآسَكَ أربعونا
كَذبتُمْ ليس ذاك كما زَعمتمْ ولكِنّ الخوارجَ مؤمِنونا
هي الفِئةُ القليلة قد عَلمتُمْ على الفِئةَ الكثيرة يُنْصَرُونا

قال عمر: البيت الأخير ليس في الحديث ، أنشدنيه خلّاد بن يزيدَ الباهلي .

وقيل : مات في هذه السنة عميرة بن يثربيّ قاضي البَصرة ، واستُقضِيَ مكانَه عليها هشامُ بن هُبيرة .

وكان على الكوفة في هذه السنة عبدالرحمن بن أمّ الحَكَم . وقال بعضهم : كان عليها الضحّاك بن قيس الفِهْريّ ، وعلى البَصْرة عُبيدالله بن زياد ، وعلى قضاء الكوفة شُريح .

وحجّ بالناس الوليدُ بنُ عُتبة في هذه السنة ، كذلك قال أبو معشر والواقدي .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففيها كان مَشتى عمرو بن مرّة الجُهَنيّ أرض الروم في البرّ ؛ قال الواقدي : لم يكن عامَئذٍ غـزوٌ في البحر . وقال غيره: بل غزا في البحر جُنادة بنُ أبي أميّة .

وفيها عُزِل عبدُالرحمن بن أمّ الحكم عن الكوفة ، واستُعمِل عليها النعمانُ بنُ بَشير الأنصاري ؛ وقد ذكرنا قبلُ سببَ عزل ابن أمّ الحَكَم عن الكوفة .

وفي هذه السنة ولّى معاوية عبدَالرحمن بنَ زياد بن سُمَيَّة خُراسان .

ذكر سبب استعمال معاوية إيَّاه على خراسان :

حدثني الحارث بن محمد ، قال : حدّثنا عليّ بن محمد ، قال : حدّثنا أبوعَمرو ، قال : سمعتُ أشياخَنا يقولون : قدم عبدُالرحمن بنُ زياد وافداً على معاوية ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أمَا لنا حقٌّ ؟ قال : بَلَى ؛ قال : فماذا تولّيني؟ قال : بالكوفة النعمان رشيدٌ ، وهو رجل من أصحاب النبي ﷺ ، وعبيدالله بن زياد على البَصرة وخُراسان ، وعبّاد بن زياد على سِجِسْتان ، ولست أرى عملاً يُشبهك إلا أن أشرَكَك في عمل أخيك عبيدالله ؛ قال: أشرِكني ؛ فإنَّ عَمله واسع يحتمل الشركة، فولّاه خُراسان.

قال علي: وذكر أبوحفص الأزدي ، قال: حدّثني عمر، قال: قدم علينا قيسُ بنُ الهيثم السُّلَميّ ، وقد وجّهه عبدالرحمن بن زياد، فأخذ أسلم بن زُرْعة فحبسه ، ثم قَدِم عبدالرحمن، فأغرَمَ أسلم بن زرْعة ثلاثمائة ألف درهم .

قال: وذكر مصعب بن حيّان، عن أخيه مُقاتل بن حيّان، قال: قدمَ عبدُ الرحمن بنُ زياد خُراسانَ ، فقدمَ رجلٌ سخيٌّ حريصٌ ضعيفٌ لم يغزُ غزوةً واحدةً ، وقد أقام بخُراسان سنتين .

قال علي : قال عوانة : قدم عبدُالرحمن بن زياد على يزيدَ بن معاوية من خُراسان بعد قتل الحسين عليه السلام ، واستخلف على خُراسانَ قيسَ بن الهيثم .

قال: وحدّثني مسلمة بن محارب وأبوحفص، قالا : قال يزيدُ لعبدالرحمن بن زياد: كم قدمتَ به معك من المال من خُراسان؟ قال: عشرين ألف ألف درهم؛ قال: إن شئتَ حاسبناك وقبضناها منك ، ورددناك على عملك ، وإن شئتَ سوّغناك وعَزَلْناك، وتعطي عبدَالله بن جعفر خمسمائة ألف درهم ؛ قال: بل تسوّغني ما قلت، ويُستعمل عليها غيري. وبعث عبدالرحمن بن زياد إلى عبدالله بن جعفر بألف ألف درهم ، وقال:

خمسمائة ألف من قِبل أمير المؤمنين ، وخمسمائة ألف من قبلي .

وفي هذه السنة وَفَد عُبيد الله بن زياد على معاوية في أشراف أهل البَصرة ، فعزله عن البصرة ، ثم ردّه عليها وجدّد له الولاية .

ذكر من قال ذلك :

حدّثني عمر ، قال : حدّثني علي ، قال : وفد عُبيدالله بن زياد في أهل العراق إلى معاوية فقال له : ائذنْ لوفدك على منازلهم وشرفهم ، فأذِن لهم ، ودخل الأحنفُ في آخرهم ، وكان سَيّىء المنزلة من عُبيدالله ، فلما نظر إليه معاويةُ رحّب به ، وأجلسه معه على سريره ، ثم تكلم القومُ فأحسنوا الثناءَ على عبيدالله ، والأحنفُ ساكت ، فقال : ما لَكَ يا أبا بَحْر لا تتكلّم! قال : إن تكلّمتُ خالفتُ القومَ . فقال : انهضوا فقد عزلْته عنكم ، واطلبوا والياً ترضَوْنه ، فلم يَبق في القوم أحد إلا أتى رجلاً من بني أميّة أو من أشراف أهل الشام ، كلّهم يطلب ، وقعد الأحنف في منزله ، فلم يأت أحداً ، فلبِثوا أياماً ، ثم بعث إليهم معاوية فجمعهم ، فلما دخلوا عليه قال : مَن اخترتم؟ فاختلفتْ كلمتهم ، وسمّى كلّ فريق منهم رجلاً والأحنف ساكتٌ ، فقال له معاوية : ما لَك يا أبا بحر لا تتكلّم! قال : إن ولّيت علينا أحداًمن أهل بيتك لم نعدل بعُبَيدالله أحداً ، وإنْ ولّيت من غيرهم فانظر في ذلك ، قال معاوية : فإني قد أعدته عليكم ، ثم أوصاه بالأحنف ، وقبّح رأيَه في مباعدته ، فلما هاجت الفتنةُ لم يفِ لعُبيد الله غيرُ الأحنف .

وفي هذه السنة كان ما كان من أمر يزيد بن مفرِّغ الحميريّ وعبّاد بن زياد وهجاء يزيد بني زياد .

ذكر سبب ذلك :

حدّثت عن أبي عُبيدة مَعمر بن المثنّى أن يزيدَ بن ربيعة بن مفرِّغ الحِمْيَريّ كان مع عبّاد بن زياد بِسِجستان ، فاشتغل عنه بحرب التّرك ، فاستبطأه ، فأصاب الجند مع عبّاد ضِيقٌ في أعلاف دوابّهم ، فقال ابن مفرِّغ :

أَلا لَيْتَ اللِّحَى عادتْ حَشيشاً ... فنعْلِفَها خُيُولَ المُسْلِمِينَا !

وكان عبّاد بن زياد عظيمَ اللحية ، فأُنهِيَ شِعْرُه إلى عبّاد ؛ وقيل : ما أراد غيرَك ، فطلبه عبّاد ، فهرب منه ، وهجاه بقصائدَ كثيرة ، فكان مما هجاه به قولُه :

إذا أَوْدَى مُعاوِيةُ بنُ حَرْبٍ ... فَبَشِّرْ شَعْبَ قَعْبِكَ بانصداعِ
فأَشْهَدُ أَنَّ أُمَّكَ لم تُبَاشِرْ ... أَبا سُفيانَ واضعَةَ القِناعِ
ولكِنْ كان أمراً فيه لَبْسٌ ... على وَجَلٍ شَدِيدٍ وارتياعِ

وقوله :

أَلا أَبْلِغْ مُعاوِيَةَ بن حَرْبٍ ... مُغَلْغَلَةً من الرَّجُلِ اليماني
أَتَغْضَبُ أن يُقالَ أَبُوكَ عَفٌّ ... وَتَرضَى أن يُقالَ أَبُوكَ زَانِ!
فَأَشْهَدُ أَنَّ رِحْمَكَ من زِيادٍ ... كرِحْمِ الفِيلِ من وَلَدِ الأتانِ

فحدّثني أبو زيد، قال: لما هجا ابن المفرِّغ عبّاداً فارقه مقبلاً إلى البَصرة، وعبيدالله يومئذ وافد على معاوية، فكتب عبّاد إلى عُبيد الله ببعض ما هجاه به، فلمّا قرأ عُبيدالله الشعرَ دخل على معاوية فأنشده إياه، واستأذنه في قتل ابن مفرِّغ، فأبى عليه أن يقتلَه، وقال: أدِّبْه ولا تبلغ به القتل، وقدم ابن مفرِّغ البَصرة، فاستجار بالأحنف بن قيس، فقال: إنا لا نجير على ابن سميّة، فإن شئتَ كفيتُك شعراءَ بني تميم؛ قال: ذاك ما لا أبالي أنْ أُكْفاه، فأتى خالد بن عبدالله فوعده، وأتى أميّة فوعده، ثم أتى عمر بن عبيدالله بن معمر فوعده، ثم أتى المنذرَ بن الجارود فأجاره، وأدخله دارَه، وكانت بَحْريَّة بنت المنذر عند عُبيد الله، فلما قدم عبيدالله البَصرة أخبِر بمكان ابن مفرِّغ عند المنذر، وأتى المنذرُ عبيدَالله مسلِّماً، فأرسل عبيدالله الشُّرَط إلى دار المنذر، فأخذوا ابن مفرِّغ، فلم يشعر المنذر وهو عند عُبيد الله إلّا بابن مفرِّغ قد أقيم على رأسه، فقام إلى عُبيد الله وقال: أيّها الأمير، إني قد أجرته، قال: والله يا منذر ليمدحنّك وأباك ويهجوني أنا وأبي، ثم تجيره عليَّ! فأمر به فسُقي دواءً، ثم حُمل على حمار عليه إكافٌ فجعل يطاف به وهو يَسلَح في ثيابه، فيُمَرُّ به في الأسواق، فمرّ به فارسيّ فرآه، فسأل عنه، فقال: إين جيست؟ ففهمها ابنُ مفرِّغ، فقال:

آبْ اسْتْ نبيذ است ... عصارات زبيب اسْت
سميّة روسبيد استْ

ثم هجا المنذر ابن الجارود:

تركتُ قُرَيشاً أن أُجاورَ فيهمُ ... وجاوَرْتُ عبدَالقيس أهلَ المُشَقَّرِ
أُناسٌ أجارُونا فكان جوارُهُمْ ... أعاصيرَ من فَسْوِ العِراق المُبَذِّرِ
فَأَصبح جارِي من جُذَيمَةَ نائماً ... ولا يمنَعُ الجِيرانَ غيرُ المُشمِّرِ

وقال لعُبيد الله:

يَغْسِلُ الماءُ ما صَنَعْتَ وقَوْلي ... رَاسِخٌ منكَ في العظامِ البَوالي

ثم حمله عُبيدالله إلى عبّاد بسِجستان، فكلّمت اليمانية فيه بالشام معاوية، فأرسل رسولاً إلى عبّاد، فحمل ابن مفرّغ من عنده حتى قَدِم على معاوية، فقال في طريقه:

عَدَسْ ما لِعبّادٍ عَلَيْكِ إمارةٌ ... نَجَوْتِ وهذا تحملينَ طَليقُ
لَعَمْرِي لقد نجّاكِ من هُوَّةِ الرَّدى ... إمامٌ وحَبْلٌ للأنام وَثِيقُ
سَأَشكُرُ ما أَوْلَيْتَ من حُسْنِ نِعْمَةٍ ... ومثلِي بِشُكْرِ المنعِمِينَ حقيقُ

فلما دخل على معاوية بكى، وقال: رُكِبَ مِني ما لم يُرْكَبْ من مسلم على غير حَدَث ولا جريرة! قال: أوَلست القائل:

ألا أَبلغ معاويةَ بن حَرْبٍ ... مُغلغلةً من الرَّجلِ اليَماني!

القصيدة ـ قال: لا والذي عظَّم حقَّ أميرِ المؤمنين ما قلتُ هذا؛ قال: أفلمْ تقل:

فأَشهَدُ أن أمَّكَ لم تُباشِرْ ... أبا سُفْيانَ واضعةَ القِناعِ

في أشعار كثيرة هجوتَ بها ابن زياد! اذهب فقد عفونا لك عن جُرمك ، أما لو إيانا تعامل لم يكن مما كان شيء ، فانطلق ؛ وفي أيّ أرض شئتَ فانزل . فنزل المَوْصِلَ ، ثمّ إنه ارتاح إلى البَصرة ، فقدمها ، ودخل على عُبيدالله فآمنه .

وأما أبو عُبيدة فإنه قال في نزول ابن مفرّغ الموصل عن الذي أخبرني به أبو زيد ، قال: ذكر أنّ معاويةَ لما قال له : ألست القائل :

أَلَا أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بنَ حَرْبٍ   مُغَلْغَلَةً من الرَّجُلِ اليَمَانِي

الأبيات، حَلف ابن مفرّغ أنه لم يقله ، وأنه إنما قاله عبدُالرحمن بن أُمّ الحَكَم أخو مرْوان ، واتخذني ذريعةً إلى هجاء زياد ، وكان عَتَب عليه قبل ذلك ، فغضب معاويةُ على عبدالرحمن بن أمّ الحكم وحرَمه عطاءَه ، حتى أضرّ به ، فكُلّم فيه ، فقال : لا أرضى عنه حتى يَرضى عُبيدالله ؛ فقدم العراق على عبيدالله ، فقال عبدالرحمن له :

لأَنتَ زِيادةٌ في آلِ حَرْبٍ   أَحَبُّ إليَّ مِن إحدى بَنانِي
أَرَاكَ أخاً وعَمًّا وابنَ عَمٍّ   ولا أدري بِغَيْبٍ ما تَرانِي

فقال: أراك واللّهِ شاعرَ سَوْء! فرضيَ عنه ، فقال معاوية لابن مفرّغ : ألستَ القائل :

فَأَشْهَدُ أنَّ أُمَّكَ لم تُباشِرْ   أبا سُفْيانَ واضِعَةَ القِناعِ

الأبيات ! لا تعودَنّ إلى مثلها ، عَفَوْنا عنك . فأقبل حتى نزل الموصلَ ، فتزوّج امرأة ، فلما كان في ليلة بِنائها خرج حين أصبح إلى الصيد ، فلقيَ ذَهّاناً أو عطّاراً على حمار له ، فقال له ابن مفرّغ : من أين أقبلت؟ قال: من الأهواز ؛ قال : وما فعل ماءُ مسْرُقانَ ؟ قال : على حاله ؛ قال : فخرج ابن مفرّغ فتوجه قِبَل البصرة، ولم يُعلِم أهلَه بمسيره ، ومضى حتى قدم على عُبيد الله بن زياد بالبصرة ، فدخل عليه فآمنه ، ومكث عنده حتى استأذنه في الخروج إلى كَرْمان ، فأذن له في ذلك ، وكتب إلى عامله هنالك بالوَصاة والإكرام له ، فخرج إليها . وكان عامل عُبيد الله يومئذ على كَرْمانَ شريكُ ابنُ الأعور الحارثي .

وحجّ بالناس في هذه السنة عثمان بن محمد بن أبي سُفْيان ، حدّثني بذلك أحمد بن ثابت ، عمّن حدّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، وكذلك قال الواقدي وغيره .

وكان الوالي على المدينة الوليدُ بن عُتبة بن أبي سُفْيان ، وعلى الكوفة النعمان بن بَشير ، وعلى قضائها شُرَيح ، وعلى البَصرة عُبيدالله بن زياد ، وعلى قضائها هشامُ بن هُبيرة ، وعلى خُراسانَ عبدُالرحمن بن زياد ، وعلى سِجِستانَ عبّاد بن زياد ، وعلى كَرْمان شريك بن الأعور من قِبَل عُبيدالله بن زياد .

ثم دخلت سنة ستين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففي هذه السنة كانت غزوةُ مالك بن عبدالله سُورِيَـة ودخولُ جُنـادَةَ بن أبي أميّة رودس ، وهـدمه مدينتها ، في قول الواقدي .

وفيها كان أخذ معاوية على الوفد الذين وفدوا إليه مع عُبيد الله بن زياد البيْعة لابنه يزيد ، وعهد إلى ابنه يزيد حين مرض فيها ما عهد إليه في النّفر الذين امتنعوا من البيعة ليزيد حين دعاهم إلى البَيعة .

وكان عهدهُ الذي عهد ، ما ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، قال : حدّثني عبدالملك بن نوفل بن مساحق بن عبدالله بن مَخرَمة ؛ أنّ معاوية لما مَرِض مرضَتَه التي هلك فيها دعا يزيد ابنَه ، فقال : يا بنيَّ ، إنّي قد كَفَيتك الرِّحلة والتّرحال ، ووطّأت لك الأشياء ، وذلّلت لك الأعداء ، وأخضعتُ لك أعناقَ العرب ، وجمعتُ لك من جمع واحد ، وإني لا أتخوّف أن ينازعك هذا الأمر الـذي استتبّ لك إلاّ أربعـة نفر من قـريش : الحسين بن علي ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزّبير ، وعبدالرحمن بن أبي بكر ؛ فأمّا عبدالله بن عمر فرجلٌ قد وَقَذَته العبادة ، وإذا لم يبق أحدٌ غيره بايعك ، وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يَدَعوه حتى يُخرِجوه ، فإن خرج عليك فظفرتَ به فاصفح عنه فإنّ له رَحِماً ماسّة وحقًّا عظيماً ؛ وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابَه صنعوا شيئاً صنع مثلَهم ، ليس له همّة إلاّ في النساء واللّهو ، وأما الذي يَجثِم لك جثومَ الأسد ، ويراوغك مراوغَة الثعلب ، فإذا أمكنته فرصةٌ وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعَلَها بك فقدَرت عليه فقطّعه إرْباً إرْباً .

قال هشام : قال عوانة : قد سمعْنا في حديث آخر أنّ معاوية لما حضره الموت ـ وذلك في سنة ستين ـ وكان يزيد غائباً ، فدعا بالضحّاك بنِ قيس الفهريّ ـ وكان صاحب شرطته ـ ومسلم بن عقبة المرّيّ ، فأوصى إليهما فقال : بلّغا يزيدَ وصيّتي ، انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك ، فأكرِمْ مَن قدم عليك منهم ، وتعاهد مَن غاب ، وانظر أهلَ العراق ، فإن سألوك أن تَعزِل عنهم كلّ يوم عاملاً فافعل ، فإنّ عَزْلَ عامل أحبّ إليَّ من أن تُشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشأم فليكونوا بطانتك وَعَيْبَتَكَ ، فإن نابك شيء من عدوّك فانتصر بهم ، فإذا أصبتَهم فارددْ أهلَ الشأم إلى بلادهم ، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم ؛ وإني لست اخاف مِن قريش إلاّ ثلاثة : حسينَ بنَ علي ، وعبدَالله بن عمر ، وعَبدالله ابن الزّبير ؛ فأمّا ابن عمرَ فرجل قد وقَذَه الدّين ، فليس ملتمساً شيئاً قبَلك ، وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قَتَل أباه ، وخَذَل أخاه ، وإنّ له رَحِماً ماسَّة ، وحقًّا عظيماً ، وقرابةً من محمد ﷺ ، ولا أظنّ أهلَ العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فإن قدرتَ عليه فاصفح عنه ، فإنّي لو أني صاحبه عفوتُ عنه ، وأما ابن الزبير فإنه خَبٌّ ضَبٌّ ،

فإذا شَخَص لك فالبدْ له، إلَّا أن يلتمس منك صُلحاً ؛ فإن فعل فاقبلْ ، واحْقُنْ دماءَ قومك ما استطعت .

وفي هذه السنة هلك معاويةُ بن أبي سُفْيَان بدمشق ، فاختُلفت في وقت وفاته بعد إجماعِ جميعهم على أنّ هلاكه كان في سنة ستّين من الهجرة ، وفي رجب منها ، فقال هشام بن محمد : مات معاويةُ لهلالِ رجب من سنة ستين .

وقال الواقديّ : مات معاويةُ للنّصف من رجب .

وقال علي بن محمّد : مات معاويةُ بدمشقَ سنة ستّين يوم الخميس لثمانٍ بقِين من رَجَب ؛ حَدّثني بذلك الحارث عنه .

ذكر الخبر عن مدة ملكه

حدّثني أحمد بن ثابت الرازي ، قال : حدّثني مَن سمع إسحاقَ بن عيسى يذكر عن أبي معشر ، قال: بويع لمعاوية بأذْرُحَ ، بايعه الحسنُ بنُ علي في جُمادَى الأولى سنة إحدى وأربعين ، وتوفِّيَ معاوية في رجب سنة ستين ، وكانت خلافتُه تسعَ عشرةَ سنةً وثلاثةَ أشهر .

وحدّثني الحارث، قال: حدّثنا محمد بن سعد، قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : حدّثني يحيى بن سعيد بن دينار السعدي ، عن أبيه ، قالوا : توفيَ معاوية ليلةَ الخميس للنصف من رجب سنة ستين ، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً .

وحدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي، قال: بايع أهل الشأم معاويةَ بالخلافة في سنة سبع وثلاثين في ذي القعدة حين تفرّق الحَكَمان ، وكانوا قبلُ بايَعوه على الطلب بدم عثمان ، ثمّ صالحه الحسنُ بنُ علي ، وسلّم له الأمر سنة إحدى وأربعين ، لخمس بقين من شهر ربيع الأوّل ، فبايع الناسُ جميعاً معاويـة ، فقيل : عـام الجماعة ؛ ومات بدمشق سنة ستين ، يوم الخميس لثمان بقين من رجب . وكانت ولايتُه تسعَ عشرةَ سنةً وثلاثةَ أشهر وسبعةً وعشرين يوماً .

قال : ويقال : كان بين موت علي عليه السلام وموتِ معاويةَ تسعَ عشرةَ سنةً وعشرةُ أشهر وثلاثُ ليال .

وقال هشام بنُ محمد: بويع لمعاوية بالخلافة في جُمادى الأولى سنة إحدى وأربعين ، فولي تسع عشرةَ سنةً وثلاثةَ أشهر إلَّا أياماً ، ثم مات لهلال رجب من سنة ستين .

واختَلَفوا في مدّة عمره ، وكم عاش؟ فقال بعضهم: مات يومَ مات وهو ابن خمسٍ وسبعين سنة .

ذكر من قال ذلك :

حدّثني عمر، قال: حدّثنا محمد بن يحيى ، قال: أخبرني هشام بن الوليـد، قال : قـال ابن شهاب الزّهريّ : سألني الوليدُ عن أعمار الخلفاء ، فأخبرتُه أنّ معاوية مات وهو ابن خمس وسبعين سنة ؛ فقال: بَخٍ بَخٍ ! إن هذا لعُمْر .

وقال آخرون : مات وهو ابن ثلاث وسبعين سنة .

ذكر من قال ذلك :

حدّثني عمر، قال: حدّثني أحمد بن زهير قال: قال علي بن محمد: مات معاويةُ وهو ابن ثلاث وسبعين؛ قال: ويقال ابن ثمانين سنة.

وقال آخرون: توفي وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

ذكر من قال ذلك:

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا محمد بن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني يحيى بن سعيد بن دينار، عن أبيه، قال: توفي معاوية وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

وقال آخرون: توفي وهو ابن خمس وثمانين سنة، حُدِّثتُ بذلك عن هشام بن محمد أنه كان يقوله عن أبيه.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا محمد بن سعد، قال: حدّثنا أبو عُبيدة، عن أبي يعقوب الثقفي، عن عبدالملك بن عمير، قال: لما ثَقُل مُعاوية وحدَّث الناس أنه الموت، قال لأهله: احشُوا عيني إثمِداً، وأوسِعوا رأسي دُهناً، ففعلوا، وبرّقوا وجهَه بالدّهن، ثم مُهِّدَ له، فجلس وقال: أسندوني، ثم قال: ائذنوا للناس فليسلّموا قياماً، ولا يَجلس أحدٌ، فجعل الرجل يدخل فيسلّم قائماً فيراه مكتحلاً مُدّهناً فيقول: يقول الناس: هو لِمَآبِه، وهو أصحّ الناس، فلما خرجوا من عنده قال معاوية:

وتَجَلُّدِي للشامِتينَ أُرِيهِمُ ... أنّي لِرَيبِ الدهرِ لا أَتَضَعْضَعُ
وإذا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفارَها ... ألفَيْتَ كلَّ تَميمةٍ لا تَنفَعُ

قال: وكان به النُّفاثات، فمات من يومِه ذلك.

حدّثني أحمد بن زهير، عن علي بن محمد، عن إسحاق بن أيوب، عن عبدالملك بن ميناس الكلبي، قال: قال معاوية لابنتيه في مرضه الذي مات فيه وهما تقلّبانه: تُقَلِّبان حُوَّلاً قُلَّباً، جمع المال من شُبٍّ إلى دُبٍّ إن لم يدخل النار، ثم تمثّل:

لقد سعيتُ لكم من سَعْيِ ذي نَصَبٍ ... وقد كَفَيتُكُمُ التَّطْوافَ والرِّحَلا

ويقال: «من جمع ذي حسب».

حدّثني أحمد بن زهير، عن علي، عن سليمان بن أيوب، عن الأوزاعي وعلي بن مجاهد، عن عبدالأعلى بن ميمون، عن أبيه؛ أنّ معاوية قال في مرضه الذي مات فيه: إنّ رسولَ الله ﷺ كساني قميصاً فرفعتُه. وقلّم أظفاره يوماً، فأخذتُ قُلامتَه فجعلتُها في قارورة، فإذا متّ فألبسوني ذلك القيمصَ، وقطّعوا تلك القُلامةَ، واسحَقوها وذُرُّوها في عيني، وفي فِيّ، فعسى الله أن يرحَمني ببَرَكتها! ثم قال متمّثلاً بشِعر الأشهب بنِ رُمَيلة النَّهشليّ يمدح به القُباع:

إذا مُتّ ماتَ الجُودُ وانقطعَ النَّدَى ... من الناس إلّا من قليلٍ مصَرَّدِ
ورُدَّتْ أكُفُّ السائلينَ وَأَمْسَكوا ... من الدِّينِ والدنيا بخِلفٍ مُجَدَّدِ

فقالت إحدى بناته ـ أو غيرها: كلّا يا أمير المؤمنين، بل يدفع الله عنك؛ فقال متمثلاً:

وإذا المنيّة أنشبتْ أظفارَها ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

ثم أغمِيَ عليه ، ثم أفاق ، فقال لمن حضره من أهله : اتقوا الله عزّ وجلّ ، فإنّ الله سبحانه يقي من اتّقاه ، ولا واقيَ لمن لا يتقي الله ؛ ثم قضى .

حدّثنا أحمد ، عن علي، عن محمد بن الحكم ، عمّن حدّثه أنّ معاوية لما حُضر أوصى بنصف ماله أن يُردّ إلى بيت المال ، كان أراد أن يَطِيب له الباقي ، لأنّ عمر قاسم عمّاله .

ذكر الخبر عمّن صلّىٰ على معاوية حين مات

حدّثني أحمد بن زهير، عن علي بن محمد، قال: صلّىٰ على معاوية الضحّاك بن قيس الفهري ، وكان يزيد غائباً حين مات معاوية .

وحُدّثت عن هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، قال : حدّثني عبدالملك بن نوفل بن مُساحِق بن عبدالله بن مَخرمة ،قال: لما مات معاوية خرج الضحاك بن قيس حتى صعِد المنبرَ وأكفانُ معاوية على يديه تلوح ، فَحَمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال: إنّ معاوية كان عُود العرب ، وحدّ العرب ، قطع الله عزّ وجلّ به الفتنة ، ومَلّكهُ على العباد ، وفتح به البلاد . ألاّ إنه قد مات ، فهذه أكفانه ، فنحن مُدْرِجُوه فيها ، ومُدْخلوه قبرَه ، ومُخلُّون بينه وبين عمله ، ثمّ هو البرزخ إلى يوم القيامة ، فمن كان منكم يريد أن يَشهَده فليحضُر عند الأولى . وبعث البَريدَ إلى يزيدَ بوجع معاوية ، فقال يزيد في ذلك :

جاء البريدُ بقرطاسٍ يَخُبُّ بِهِ فَأَوْجَسَ القلبُ من قرطاسِهِ فَزَعا
قلنا: لك الويلُ ماذا في كتابِكُمُ؟ قالوا: الخليفةُ أَمْسَى مُثْبَتاً وجِعا
فمادتِ الأرضُ أو كادَتْ تَميدُ بنا كأَنَّ أَغْبَرَ من أركانها انقطعا
من لا تَزَلْ نفسُهُ تُوفِي على شَرَفٍ تُوشِكُ مقاليدُ تلك النفسِ أَن تقعا
لمّا انتَهَيْنا وبابُ الدار مُنْصَفِقٌ وصوتُ رَملَةَ رِيعَ القلبُ فانصَدَعا

حدّثني عمر، قال: حدّثنا علي، عن إسحاقَ بن خُلَيد، عن خليد بن عَجْلان مولى عبّاد، قال: مات معاويةُ ويزيد بحُوّارِين ، وكانوا كتبوا إليه حين مرض، فأقبل وقد دُفِن ، فأتى قبرَه فصلى عليه ، ودعا له ، ثم أتى منزلَه ، فقال : « جاء البريد بقِرْطاس. . . » الأبيات .

ذكر الخبر عن نسبه وكنيته

أما نسبه فإنه ابن أبي سُفْيان ، واسم أبي سُفْيان صَخْر بن حَرْب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب، وأمّه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ ، وكنيته أبو عبدالرحمن .

ذكر نسائه وولده

من نسائه مَيْسون بنت بَحْدل بن أنيف بن وَلْجة بن قُنافة بن عديّ بن زهير بن حارثة بن جناب الكلبي ، ولدت له يزيدَ بن معاوية . قال علي : ولدت ميسونُ لمعاويةَ مع يزيد أمةً ـ ربّ المشارق ـ فماتت صغيرة ، ولم يذكرها هشام في أولاد معاوية .

ومنهنّ فاختة بنة قَرَظة بن عبد عَمرو بن نوفل بن عبد مناف . ولدتْ له عبدَالرحمن وعبدالله بني معاوية ، وكان عبدالله محمَّقاً ضعيفاً ، وكان يُكنى أبا الخير. حدّثني أحمد ، عن علي بن محمد ، قال : مرّ عبدالله بن معاوية يوماً بطحّان قد شدّ بغلَه في الرّحا للطحن ، وجعل في عنقه جَلاَجلَ ، فقال له : لِمَ جعلتَ في عنق بغلِك هذه الجلاجل؟ فقال الطحّان : جعلتُها في عنقه لأعلمَ إنّ قد قام فلم تَدُر الرّحا ، فقال له : أرأيت إن هو قام وحرّك رأسه كيف تعلم أنه لا يدير الرحا؟ فقال له الطحان : إنّ بغلي هذا ـ أصلح الله الأمير ـ ليس له عَقْل مِثل عقل الأمير! وأما عبدالرحمن فإنه مات صغيراً .

ومنهنّ نائلة بنت عُمارة الكلبية ، تزوّجها ؛ فحدثّني أحمد ، عن علي قال : لما تزوج معاوية نائلة قال لمِيْسون : انطلِقي فانظري إلى ابنة عمك ، فنظرت إليها ، فقال : كيف رأيتِها؟ فقالت : جميلة كاملة ، ولكن رأيت تحتَ سرّتها خالاً ليوضعنّ رأس زوجها في حِجْرهـا ، فطلّقهـا معاويـة ، فتزوّجهـا حبيب بن مسلمة الفهري ، ثم خلف عليها بعد حبيب النعمان بن بَشير الأنصاري ، فقتل ، ووضع رأسه في حِجْرها .

ومنهنّ كَتْوة بنت قرظة أخت فاختة ، فغزا قُبْرُسَ وهي معه ، فماتت هنالك .

ذكر بعض ما حضرنا من ذكر أخباره وسيره

حدّثني أحمد بن زهير، عن علي ، قال : لما بويع لمعاوية بالخلافة صيّر على شرطته قيس بن حمزة الهمْداني ، ثم عزله، واستعمل زُميل بن عمرو العُذْريّ ـ ويقال السَّكْسَكيّ . وكان كاتبه وصـاحبَ أمره سـرجون بن منصور الرّومي ، وعلى حَرَسه رجلٌ من الموالي يقال له المختار ؛ وقيل : رجل يقـال له مـالك، ويكنى أبـا المخارق، مولًى لحميَر . وكان أوّل مَن اتّخذ الحرس. وكان على حجّابه سعد مولاه ، وعلى القضاء فَضالة بن عبيدالأنصاري ، فمات فاستقضى أبا إدريس عائذ الله بن عبدالله الخَوْلاني . إلى ها هنا حديث أحمد ، عن علي .

وقال غير علي : وكان على ديوان الخاتَم عبدالله بن مِحصَن الحِمْيَري ، وكان أوّل من اتّخذ ديوان الخاتم . قال : وكان سبب ذلك أن معاوية أمر لعَمرو بن الزُّبير في معونته وقضاء دَينه بمائة ألف درهم ، وكتب بذلك إلى زياد بن سُميّة وهو على العراق ، ففضّ عَمرو الكتاب وصيّر المائة مائتين ، فلما رفـع زياد حسـابَه أنكـرها معاوية ، فأخذ عمراً بردّها وحبسه ، فأدّاها عنه أخوه عبدالله بن الزبير ، فأحدث معاوية عند ذلك ديوانَ الخاتم وخَزْم الكتب ، ولم تكن تُخْزَم .

حدّثني عبدالله بن أحمـد بن شَبّوَيـه ، قال : حـدّثني أبي ، قال : حـدّثني سليمان ، قـال : حدّثني عبدالله بن المُبارك ، عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المَقْبريّ ، قال : قال عمر بن ا لخطاب : تذكرون كسرى

وقيصرَ ودهاءَهما وعندكم معاوية ! .

حدّثني عبدالله بنُ أحمد ، قال: حدّثني أبي ، قال : حدّثني سليمان ، قال : قرأت على عبدالله ، عن فُليح ، قال : أخبِرت أنّ عمرو بنَ العاص وفد إلى معاوية ومعه أهلُ مصر ، فقال لهم عَمرو : انظروا ، إذا دخلتم على ابن هند فلا تُسلّموا عليه بالخلافة ، فإنه أعظم لكم في عينه ، وصغّروه ما استطعتم . فلما قدموا عليه قال معاوية لحجّابه : إني كأني أعرف ابن النابغة وقد صغّر أمري عند القوم ، فانظروا إذا دخل الوفد فتَعتعوهم أشدّ تَعْتَعة تقدرون عليها ، فلا يبلغني رجل منهم إلاّ وقد همّته نفسه بالتّلف. فكان أوّل مَنْ دخل عليه رجل من أهل مصرَ يقال له ابن الخيّاط، فدخل وقد تُعتِع ، فقال: السّلام عليك يا رسولَ الله، فتتابع القومُ على ذلك، فلما خرجوا قال لهم عمرو : لعنكم الله! نهيتكم أن تسلّموا عليه بالإمارة، فسلّمتم عليه بالنبوّة ! .

قال: ولبس معاوية يوماً عمامتَه الحرَقانيّة واكتَحَل ، وكان من أجمل الناس إذا فعل ذلك. شكّ عبدالله فيه سمعه أو لم يسمعْه .

حدّثني أحمد بن زهير، عن علي بن محمد، قال: حدّثنا أبو محمد الأمويّ ، قال: خرج عمر بن الخطاب إلى الشأم ، فرأى معاوية في موكب يتلقّاه ، وراح إليه في موكِب ، فقال له عمر: يا معاوية، تَروحُ في موكب وتغدو في مِثلِه ؛ وبلغني أنك تُصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك! قال: يا أمير المؤمنين، إنّ العدوّ بها قريب منا ، ولهم عيون وجواسيس ، فأردتُ يا أمير المؤمنين أن يَروْا للإسلام عزًّا ؛ فقال له عمر: إنّ هذا لكيدُ رجل لبيب ، أو خُدْعَةُ رجل أريب ؛ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين ، مُرْني بما شئتَ أصِرْ إليه ؛ قال: وَيْحك! ما ناظرتُك في أمر أعِيب عليك فيه إلاّ تركتَني ما أدري آمرك أم أنهاك!

حدّثني عبدالله بن أحمد، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثني سليمان، قال: حدّثني عبدالله، عن مَعمَر، عن جعفر بن بُرْقان ، أنّ المغيرة كتب إلى معاوية : أمّا بعد ، فإني قد كَبِرَتْ سني ، ودَقّ عظمِي ، وشَنِفَتْ لي قريش ، فإنْ رأيتَ أن تعزلَني فاعزِلني .

فكتبَ إليه معاوية : جاءني كتابُك تذكر فيه أنه كبِرتْ سنُّك ، فلعَمري ما أكل عمرَك غيرُك ، وتذكر أنّ قريشاً شنفتْ لك ، ولَعَمري ما أصبتَ خيراً إلاّ منهم . وتسألني أن أعـزِلك ، فقد فعلت ؛ فإنْ تك صادقاً فقد شفَّعتُك ، وإن تك مخادعاً فقد خدعتُك .

حدّثني أحمد، عن علي بن محمد، عن علي بن مجاهد، قال: قال معاوية: إذا لم يكن الأمويّ مصلحاً لمالِهِ ، حليماً ، لم يُشبه مَن هو منه ، وإذا لم يكن الهاشميّ سخيًّا جواداً لم يشبه من هو منه، ولا يقدمْك من الهاشميّ اللسان والسخاء والشجاعة .

حدّثني أحمد، عن علي، عن عوانة وخلاّد بن عيدة ، قال: تغدّى معاوية يوماً وعنده عُبيد الله بن أبي بكْرة ، ومعه ابنُه بشير ـ ويقال : غير بشير ـ فأكثر من الأكل، فلحَظه معاوية، وفَطن عبيدالله بن أبي بَكْرة ، فأراد أن يغمِز ابنه ، فلم يمكنه ، ولم يرفع رأسَه حتى فرغ ، فلما خرج لاَمَه على ما صنع ، ثم عاد إليه وليس معه ابنه ، فقال معاوية: ما فعل ابنُك التِّلقامة؟ قال: اشتكَى ؛ فقال: قد علمتُ أن أكلَه سيورِّثه داءً .

حدّثني أحمد ، عن علي، عن جويرية بن أسماء، قال: قدم أبو موسى على معاوية، فدخل عليه في بُرنُسٍ

أسوَد ، فقال : السّلام عليك يا أمينَ الله ، قال : وعليك السلام ؛ فلما خرج قال معاوية : قدم الشيخ لِأوَلِّيَه ، ولا والله لا أُوَلِّيه .

حدّثني عبدالله بن أحمد، قال: حدّثني أبو صالح سليمان بن صالح قال: حدّثني عبدالله بن المبارك، عن سليمان بن المغيرة ، عن حميد بن هلال، عن أبي بُرْدة ، قال: دخلتُ على معاوية حيث أصابته قَرْحَتُه ، فقال: هلمّ يابن أخي، نحوي فانظر، فنظرتُ فإذا هي قد سُبِرتْ ، فقلت : ليس عليك بأس يا أميرَ المؤمنين ، فدخل يزيدُ فقال معاوية : إن وليتَ من أمر الناس شيئاً فاستوص بهذا ، فإن أباه كان لي خليلاً أو نحو ذلك من القول غير أني رأيت في القتال ما لم يَرَه .

حدّثني أحمد ، عن علي ، عن شهاب بن عبيدالله ، عن يزيدَ بن سويد ، قال: أذن معاوية للأحنف وكان يبدأ بإذنه ، ثم دخل محمد بن الأشعث فجلس بين معاوية والأحنف ، فقال معاوية : إنا لم نأذن له قبلك فتكونَ دونه ، وقد فعلتَ فعالَ من أحسّ من نفسه ذُلّاً ، إنا كما نَملِك أمورَكم نملك إذنكم ، فأريدوا منا ما نريد منكم ، فإنه أبقى لكم .

حدّثني أحمد ، عن علي ، عن سُحَيم بن حفص ، قال: خطب ربيعة بن عِسْل اليربوعيّ إلى معاوية ، فقال معاوية : اسقُوه سَوِيقا ؛ وقال له معاوية : ياربيعة ، كيف الناسُ عندكم؟ قال: مختلفون على كذا وكذا فرقةً ؛ قال: فمِن أيّهم أنت؟ قال: ما أنا على شيء من أمرهم ؛ فقال معاوية : أراهم أكثر ممّا قلت؛ قال: يا أمير المؤمنين، أعنّي في بناء داري باثني عشرَ ألف جِذْع ؛ قال معاوية : أين دارُك؟ قال: بالبَصرة، وهي أكثر من فرسخين في فرسخين ؛ قال : فدارُك في البَصرة، أو البَصرة في دارك! فدخل رجلٌ من ولده على ابن هُبَيْرة فقال: أصلح الله الأمير! أنا ابنُ سيِّد قومه، خطب أبي إلى معاوية، فقال ابن هبيرة لسلْم بن قتيبة : ما يقول هذا؟ قال: هذا ابن أحمق قومِه؛ قال ابن هبيرة: هل زوّج أباك معاوية؟ قال: لا، قال: فلا أرى أباك صنع شيئاً .

حدّثني أحمد ، عن علي، عن أبي محمد بن ذَكوان القرشي ، قال: تنازع عُتبة وعنبسة ابنا أبي سُفْيان ـ وأمّ عتبة هند وأمّ عنبسة ابنة أبي أُزَيْهِر الدَّوْسي ـ فأغلظ معاويةُ لعنبسَةَ ، وقال عنبسة : وأنت أيضاً يا أميرَ المؤمنين! فقال: يا عنبسَة، إنّ عُتبةَ ابنُ هند، فقال عنبسة :

كنّا بخيرٍ صالحاً ذاتُ بيننا ... قديماً فأمست فَرّقَتْ بيننا هندُ
فإنْ تك هندٌ لم تلِدْني فإنّني ... لبيضاءَ يَنميها غطارفةٌ نُجْدُ
أبوها أبو الأضياف في كلِّ شتْوةٍ ... ومأوى ضعافٍ لا تَنُوءُ من الجَهدِ
جُفَيْناتُه ما إنْ تزال مُقيمةً ... لمن خافَ من غَوْرَي تهامةَ أو نجدِ

فقال معاوية : لا أعيدها عليك أبداً .

حدّثني عبدالله بن أحمد، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثني سليمان ، قال: حدّثني عبدالله، عن حرملة بن عمران ، قال: أتى معاوية في ليلة أنّ قيصرَ قصد له في الناس، وأنّ ناتِل بن قيس الجُذاميّ غلب فلسطين وأخذ بيتَ مالها ، وأنّ المصريّين الذين كان سَجَنهم هربوا، وأنّ علي بن أبي طالب قصد له في الناس، فقال لمؤذنه :

أذّن هذه الساعة ـ وذلك نصف الليل ـ فجاءه عمرو بن العاص، فقال: لم أرسلت إليّ؟ قال: أنا ما أرسلت إليك؛ قال: ما أذّن المؤذّن هذه الساعة إلّا من أجلي؛ قال: رُمِيتُ بالقِسيّ الأربع ؛ قال عمرو: أما هؤلاء الذين خرجوا من سجنك ، فإنهم إن خرجوا من سجنك فهم في سجن الله عزّ وجلّ ، وهم قوم شُراةٌ لا رحلة بهم ، فاجعل لمن أتاك برجل منهم أو برأسه دِيَته ، فإنك ستؤتَى بهم ، وانظر قيصرَ فوادعْه ، وأعطِه مالاً وحُللاً من حُلَل مصر ، فإنّه سيرضى منك بذاك، وانظر ناتل بن قيس ، فلَعَمري ما أغضبه الدّين ، ولا أراد إلّا ما أصاب ، فاكتب إليه ، وهب له ذلك ، وهنّئه إياه ، فإن كانت لك قدرةٌ عليه ، وإن لم تكن لك فلا تأسَ عليه ، واجعل حدّك وحديدَك لهذا الذي عنده دمُ ابن عمِّك . قال: وكان القوم كلُّهم خرجوامن سجنه غيرأبرَهة بن الصّبّاح ، قال معاوية: ما منعك من أن تخرج مع أصحابك؟ قال: ما منعني منه بغضٌ لعلي، ولا حبٌّ لك، ولكني لم أقدر عليه؛ فخلَّى سبيلَه .

حدّثني عبدالله ، قال: حدّثني أبي، قال: حدثني سليمان، قال: حدّثني عبدالله بن المبارك ، عن جرير ابن حازم ،قال: سمعت محمد بن الزبير يحدّث ، قال: حدّثني عبدالله بن مسعدة بن حَكَمة الفزاريّ من بني آل بدر، قال: انتقل معاويةُ من بعض كورِ الشأم إلى بعض عمله ، فنزل منزلاً بالشأم ، فَبُسِط له على ظهر إجّار مُشرِف على الطريق ، فأذن لي ، فقعدت معه ، فمرّت القُطُرات والرّحائل والجواري والخيول ، فقال : يابن مسعدة ، رحم الله أبا بكر! لم يُرد الدنيا ولم تُرده الدنيا ، وأما عمر ـ أو قال: ابن حَنْتمة ـ فأرادتْه الدنيا ولم يردْها ، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابتْ منه ؛ وأما نحن فتمرّغنا فيها ؛ ثم كأنه ندم فقال: والله إنّه لَمُلك آتانا الله إيّاه .

حدّثني أحمد ، عن علي بن محمد ، عن علي بن عبيدالله ، قال: كتب عَمرو بن العاص إلى معاوية يسأله لابنه عبدِالله بن عمرو ما كان أعطاه أباه من مصر ، فقال معاوية: أراد أبو عبدالله أن يكتب فهذَر، أشهدكم أني إن بقيتُ بعدَه فقد خلعتُ عهدَه . قال: وقال عمرو بن العاص : ما رأيت معاوية متّكئاً قطّ واضعاً إحدى رجليه على الأخرى كاسراً عينه يقول لرجل : تكلّم ، إلّا رحِمتُه .

قال أحمد: قال عليٌّ بن محمد: قال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين، ألستُ أنصحَ الناس لك؟ قال: بذلك نلتَ ما نلت .

قال أحمد : قال علي : عن جويرية بن أسماء، أنّ بسر بن أبي أرطاة نال من عليٍّ عند معاوية وزيد بن عمر بن الخطاب جالس، فعلاه بعصاً فشجه، فقال معاوية لزيد: عمدت إلى شيخ من قريش سيّد أهل الشأم فضربتَه! وأقبل على بُسر فقال: تشتُمُ عليًّا وهو جدّه وابن الفاروق على رءوس الناس، أوَكنت ترى أنه يَصبر على ذلك! ثم أرضاهما جميعاً. قال: وقال معاوية: إني لأرفع نفسي من أن يكون ذنبٌ أعظم من عفوي، وجهلٌ أكثر من حلمي، أو عورةٌ لا أواريها بستري، أو إساءةٌ أكثر من إحساني. قال: وقال معاوية: زَين الشريف العفَاف؛ قال: وقال معاوية: ما من شيء أحبّ إليّ من عين خرّارة ، في أرض خَوّارة، فقال عمرو بن العاص: ما من شيء أحبّ إليّ من أن أبيت عَروساً بعقيلة من عقائل العرب؛ فقال وَرْدان مولَى عَمرو بن العاص: ما من شيء أحبّ إليّ من الإفضال على الإخوان، فقال معاوية: أنا أحقّ بهذا منك؛ قال: ما تحبّ فافعل.

حدّثني أحمد، عن علي، عن محمد بن إبراهيم، عن أبيه ، قال: كان عامل معاوية على المدينة إذا أراد أن

يُبرِد بريداً إلى معاوية أمر مُنادِيَه فنادَى : مَن له حاجةٌ يَكتب إلى أمير المؤمنين ؛ فكتب زِرّ بن حُبيش ـ أو أيْمَن بن خُرَيم ـ كتاباً لطيفاً وَرَمى به في الكُتُب ، وفيه :

إذا الـرجـالُ وَلَـدَتْ أَولاَدُهـا ... وآضـطرَبَتْ من كِبَـر أَعْضـادُهـا
وَجَعـلَتْ أَسقـامُـهـا تـعْـتـادُهـا ... فـهي زُرُوعٌ قـد دَنـا حَـصـادُهـا

فلمّا وردت الكتب عليه فقرأ هذا الكتاب ؛ قال : نعى إليَّ نفسي .

قال : وقال معاوية : ما من شيء ألذّ عندي من غيظ أتجرّعه .

قال : وقال معاوية لعبدالرحمن بن الحَكَم بن أبي العاص : يابن أخي ، إنك قد لهجْتَ بالشعر ، فإيّاك والتشبيبَ بالنساء فتعُرّ الشريفة ، والهجاء فتعرّ كريماً ، وتستثير لئيماً ، والمدح ، فإنه طُعمة الوَقاح ، ولكن افخرْ بمفاخر قومك ، وقلْ من الأمثال ما تزين به نفسَك ، وتؤدِّب به غيرَك .

حدّثني أحمد ، عن علي ، قال : قال الحسن بن حماد : نظر معاويةُ إلى الثُّما في عباءة ، فازدراه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ العباءة لا تكلّمك ، وإنما يكلّمك مَن فيها .

حدّثني أحمد ، عن علي ، عن سليمان ، قال : قال معاوية : رجلان إن ماتا لم يموتا ، ورجُلٌ إنْ مات مات ، أنا إنْ متّ خَلَفني ابني ، وسعيد إن مات خلفه عَمرو ، وعبدالله بن عامر إن مات مات ؛ فبلغ مرْوان ، فقال : أَما ذكر ابني عبدالملك؟ قالوا : لا ؛ قال : ما أحبّ أن لي بابني ابنَيْهما .

حدّثني أحمد ، عن علي ، قال : حدّثنا عبدالله بن صالح ، قال : قال رجل لمعاوية : أيّ الناس أحبّ إليك؟ قال : أشدّهم لي تحبيباً إلى الناس . قال : وقال معاوية : العقل والحلم أفضل ما أعطِيَ العبد ، فإذا ذُكِّر ذَكَر ، وإذا أعطِيَ شَكَر ، وإذا ابتُلِيَ صَبَر ، وإذا غَضِبَ كَظَم ، وإذا قَدر غَفر ، وإذا أساء استغفَر ، وإذا وَعَدَ أنجَز .

حدّثني أحمد ، عن علي ، عن عبدالله وهشام بن سعد ، عن عبدالملك ابن عُمير ، قال : أغلَظَ رجلٌ لمعاوية فأكثر ، فقيل له : أتَحلَم عن هذا؟ فقال : إني لا أحولُ بين الناس وألسنتهِم ما لم يَحُولوا بيننا وبين مُلكِنا .

حدّثني أحمد ، عن علي ، عن محمد بن عامر ، قال : لامَ معاوية عبدَالله بن جعفر على الغِناء ، فدخل يوماً على معاوية ومعه بُدَيْحٌ ، ومعاوية واضع رِجلاً على رِجل ، فقال عبدالله لبُديح : إيهاً يا بديح ! فتغنّى ، فحرّك معاوية رِجلَه ، فقال عبدُالله : مهْ يا أميرَ المؤمنين ! فقال معاوية : إن الكريمَ طَروب .

قال : وقَدِم عبدُالله بن جعفر على معاوية ومعه سائبُ خاثر ـ وكان مولًى لبني لَيث ، وكان فاجراً فقال له : ارفع حوائجَك ؛ ففعل ، ورفَع فيها حاجة سائبِ خاثر ؛ فقال معاويـة : مَن هذا ؟فخَبَّـره ؛ فقال : أدخِله ، فلمّا قام على باب المجلس غنّى :

لِـمَن الـديـارُ رُسُـومُـهـا قَـفْـرُ ... لَـعِبَـتْ بـهـا الأرواحُ والـقَـطْرُ!
وَخَـلاَلَهـا من بـعـد سـاكِنِـهـا ... حِـجَـجٌ خَلَوْنَ ثَـمـان أو عَـشْـرُ
والـزّعـفـران عـلى تَـرائِـبـهـا ... شَـرِقـاً بـه الـلَّبّـاتُ والـنَّـحـرُ

فقال أحسنتَ ، وقضى حوائجَه .

حدّثني عبدالله بن أحمد ، قال: حدّثني أبي ، قال : حدّثني سليمان ، قال : حدّثني عبـدالله ، عن مَعمَر ، عن همّام بن منبّه ، قال : سمعت ابن عبّاس يقول : ما رأيت أحداً أخلقَ للمُلك من معاوية ، إن كان ليردُ الناس منه على أرجاءِ وادٍ رحْب ، ولم يكن كالضّيّق الحُضْحُض ، الحصير - يعني ابن الزّبير .

حدّثني عبدالله ، قال : حدّثني أبي، قال: حدّثني سليمان ، قال : حدّثني عبدالله، عن سُفيانَ بن عيينة ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن قبيصة بن جابر الأسديّ قال : ألَا أخبركم مَن صحبتُ؟ صحبتُ عمر بنَ الخطاب فما رأيت رجلاً أفقَه فِقْهاً ، ولا أحسنَ مُدارَسَة منه ؛ ثم صحبتُ طلحةَ بنَ عبيدالله ، فما رأيت رجلاً أعطَى للجزيل من غير مسألة منه ؛ ثم صحبتُ معاويةَ فما رأيت رجلاً أحبَّ رفيقاً ، ولا أشبَهَ سريرةً بعلانية منه ، ولو أنّ المغيرة جُعِل في مدينة لا يُخرَج من أبوابها كلّها إلّا بالغدر لخرجَ منها .

خلافة يزيد بن معاوية

وفي هذه السنة بويع ليزيدَ بن معاوية بالخلافة بعد وفاة أبيه ، للنّصف من رجب في قول بعضهم ، وفي قولِ بعضٍ : لثمانٍ بقِيْنَ منه - على ما ذكرنا قبلُ من وفاة والده معاوية - فأقرّ عُبيدَالله بن زياد على البَصرة ، والنُّعمانَ بن بشير على الكوفة .

وقال هشام بن محمد، عن أبي مخنَف ؛ وِليَ يزيد في هلال رجب سنة ستين ، وأمير المدينة الوليدُ بن عُتبة ابن أبي سُفْيان، وأمير الكوفة النّعمان بن بشير الأنصاري ، وأمير البَصـرة عُبيد الله بن زيـاد ، وأمير مكّـة عَمرو بن سعيد بن العاص، ولم يكن ليزيد همّة حين ولي إلّا بيعة النفر الذين أبَوا على معاوية الإجابة إلى بيعة يزيدَ حين دعا الناس إلى بيعته ، وأنه ولي عهده بعدَه ، والفراغ من أمرهم ، فكتب إلى الوليد :

بسم الله الرحمن الرحيم . مِن يزيدَ أميرِ المؤمنين إلى الوليد بن عتبة ، أما بعد ، فإنّ معاوية كان عبداً من عباد الله، أكرمه الله واستخلَفَه، وخوّله ، ومَكّن له ، فعاش بقَدَر ، ومات بأجَل ، فرحمه الله، فقد عاش محموداً ، ومات بَرًّا تقيًّا ، والسلام .

وكتب إليه في صحيفة كأنها أذُنُ فأرة :

أما بعد ، فخذ حُسَيناً وعبدالله بنَ عمر وعبدالله بن الزبير بالبيْعة أخْذاً شديداً ليست فيه رُخصة حتى يبايعوا ؛ والسلام .

فلما أتاه نَعِيّ معاوية فَظِع به ، وكبُر عليه ، فبعث إلى مروانَ بن الحكم فدعاه إليه - وكان الوليد يومَ قدم المدينة قَدِمها مروانُ متكارِهاً - فلما رأى ذلك الوليد منه شتمه عند جلسائه ، فبلغ ذلك مرْوان ، فجلس عنه وصرَمه ، فلم يزل كذلك حتى جاء نعيّ مُعاوية إلى الوليد ، فلما عظُم على الوليد هلاكُ معاوية وما أمر به من أخذ هؤلاء الرّهط بالبيْعة ، فزع عند ذلك إلى مروان ، ودعاه، فلما قرأ عليه كتابَ يزيدَ ، استرجع وترحّم عليه ، واستشاره الوليدُ في الأمر وقال : كيف ترى أن نصنع؟ قال: فإني أرى أن تبعث الساعةَ إلى هؤلاء النفر فتدعوَهم إلى البيعة والدّخول في الطاعة ، فإن فعلوا قَبِلْتَ منهم ، وكَففتَ عنهم ، وإن أبَوا قدّمتَهم فضربتَ

أعناقَهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ، فإنهم إن علموا بموت معاوية وَثَبَ كلّ امرىء منهم في جانب ، واظهر الخلافَ والمنابذَة ، ودعا إلى نفسه لا أدري ؛ أما ابنُ عمرَ فإني لا أراه يرَى القتال ، ولا يحبّ أنه يُوَلَّى على الناس ، إلاّ أن يُدفَع إليه هذا الأمر عَفْواً . فأرسل عبدالله بن عمرو بن عثمان ـ وهو إذ ذاك غلامٌ حَدَث ـ إليهما يدعوهما ، فوجدهما في المسجد وهما جالسان ، فأتاهما في ساعة لم يكن الوليد يجلس فيها للناس ، ولا يأتيانه في مِثلها ، فقال: أجيبَا ، الأميرُ يدعوكما ، فقال له : انصرف ؛ الآن نأتيه . ثم أقبل أحدُهما على الآخر ، فقال عبدالله بن الزبير للحسين : ظُنّ فيما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها! فقال حُسين: قد ظننتُ ، أرى طاغِيَتَهم قد هلك ، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يَفْشُوَ في الناس الخبر؛ فقال: وأنا ما أظنّ غيرَه . قال: فما تريد أن تصنع؟ قال: أجمعَ فِتْيَاني الساعة ، ثم أمشي إليه ، فإذا بلغتُ البابَ احتبستهم عليه ، ثم دخلت عليه . قال : فإني أخافه عليك إذا دخلت ؛ قال: لا آتيه إلاّ وأنا على الامتناع قادر . فقام فجمع إليه مواليَهُ وأهلَ بيته ، ثم أقبل يمشي حتى انتهى إلى باب الوليد وقال لأصحابه : إني داخلٌ ، فإن دعوتُكم أو سمعتم صوتَه قد علا فاقتحموا علي بأجمعكم ، وإلاّ فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم ، فدخل فسلّم عليه بالإمْرة ومرْوانُ جالسٌ عندَه ، فقال حسين ؛ كأنه لا يظنّ ما يظنُّ من موت معاوية: الصّلة خيرٌ من القطيعة ، أصلَح اللّهُ ذاتَ بينكما! فلم يجيباه في هذا بشيء، وجاء حتى جلس، فأقرأه الوليد الكتابَ ، ونَعَى له معاوية، ودعاه إلى البيعة ، فقال حسين : إنا لله وإنا إليه راجعون! ورَحِم الله معاوية، وعَظَّم لك الأجر! أمّا ما سألتني من البَيعة فإنّ مِثلي لا يُعطي بَيعته سِرًّا، ولا أراك تجتزىء بها مني سرًّا دون أن نُظهِرَها على رءوس الناس علانية؛ قال: أجَلْ، قال: فإذا خرجتَ إلى الناس فدعوتَهم إلى البيعة دعوتَنا مع الناس فكان أمراً واحداً ؛ فقال له الوليد ـ وكان يحبّ العافية : فانصرِف على اسم الله حتى تأتِيَنا مع جماعة الناس؛ فقال له مروان : والله لئن فارقك الساعة ولم يُبايع لا قدرتَ منه على مثلها أبداً حتى تَكثُر القتلَى بينكم وبينه ، احبس الرجلَ ، ولا يَخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقَه ؛ فوثب عند ذلك الحسين ، فقال : يابن الزَّرقاء، أنت تقتلني أم هو! كذبت والله وأثمت ، ثم خرج فمرّ بأصحابه ، فخرجوا معه حتى أتى منزله . فقال مروانُ للوليد : عصيتَني ، لا والله لا يُمكِنك مِن مثلها مِن نفسه أبداً ؛ قال الوليد : وَبِّخْ غيرَك يا مروان ، إنك اخترتَ لي التي فيها هلاكُ ديني ، والله ما أحبّ أن لي ما طلعتْ عليه الشمس وغربتْ عنه من مال الدنيا ومُلكِها، وأني قتلتُ حُسيْناً ، سبحان الله! أقتل حسيناً أن قال: لا أبايع! والله إني لا أظنّ امرأً يُحاسَبُ بدمِ حسين لخفيفُ الميزان عندالله يوم القيامة . فقال له مروان : فإذا كان هذا رأيك فقد أصبتَ فيما صنعت ، يقول هذا له وهو غير الحامد له على رأيه .

وأما ابن الزبير ، فقال : الآن آتيكم ، ثمّ أتى دارَه فكمن فيها ، فبعث الوليد إليه فوجده مجتمِعاً في أصحابه متحرّزاً ، فألحّ عليه بكثرة الرُّسُل والرجال في إثر الرجال ؛ فأما حُسين فقال: كُفّ حتى تنظر وننظر، وتَرى ونَرى ؛ وأما ابنُ الزّبير فقال: لا تعجلوني فإني آتيكم ، أمهِلوني، فألحوا عليهما عشيتهما تلك كلها وأوّل ليلِها ، وكانوا على حسين أشدّ إبقاءً ، وبعث الوليد إلى ابن الزبير موالي له فشتموه وصاحوا به : يابن الكاهليّة ، والله لتأتينّ الأميرَ أو ليقتلنّك ، فلبث بذلك نهارَه كلَّه وأوّل ليلة يقول : الآن أجيء ، فإذا استحثّوه قال: والله لقد استربت بكثرة الإرسال ، وتتابع هذه الرجال ، فلا تُعجلوني حتّى أبعث إلى الأمير مَنْ يأتيني برأيه وأمرِه ، فبعث إليه أخاه جعفر بن الزبير فقال: رحمك الله! كفّ عن عبدالله فإنك قد أفزعْته وذعَرْته بكثرة

رُسلك ، وهو آتيك غداً إن شاء الله ، فمُرْ رُسلك فلْينصرفوا عنّا . فبعث إليهم فانصرفوا ، وخرج ابن الزبير من تحت الليل فأخذ طريق الفُرْع هو وأخوه جعفر ، ليس معهما ثالث ، وتجنّب الطريق الأعظم مخافَة الطلب ، وتوجّه نحو مكة ، فلما أصبح بعث إليه الوليد فوجده قد خرج ، فقال مروان : واللّهِ إن أخطأ مكة فَسرِّحْ في أثره الرجال ، فبعث راكباً من موالي بني أمية في ثمانين راكباً ، فطلبوه فلَم يَقدِروا عليه ، فرجعوا ، فتشاغلوا عن حُسين بطلب عبدِالله يومهم ذلك حتى أمسَوْا ، ثم بعث الرجال إلى حسين عند المساء فقال : أصبِحوا ثم تَرون ونَرى ، فكفّوا عنه تلك الليلة ، ولم يُلِحّوا عليه ، فخرج حسين من تحت ليلته ، وهي ليلة الأحد ليومَين بقِيَا من رجب سنة ستّين .

وكان مخرج ابن الزبير قبلَه بليلة ، خرج ليلةَ السبت فأخذ طريقَ الفُرْع ، فبينا عبدالله بن الزبير يُساير أخاه جعفراً إذ تمثّل جعفرٌ بقول صَبِرة الحنظليّ :

وكــلّ بـنـي أُمٍّ سَـيُـمْـسُــون لـيــلةً ... ولم يَبْق من أَعْـقــابِهِـمْ غَيْــرُ واحِــد

فقال عبدالله ! سبحان الله ، ما أردتَ إلى ما أسمعُ يا أخي ! قال: والله يا أخي ما أردتُ به شيئاً مما تكره ؛ فقال : فذاك والله أكرهُ إليّ أن يكون جاء على لسانك من غير تعمّد ـ قال : وكأنه تَطَيّر منه ـ وأما الحُسين فإنه خرج ببنيه وإخوَته وبني أخيه وجلّ أهلِ بيته ، إلاّ محمد بن الحنفيّة فإنه قال له : يا أخي ، أنتَ أحبّ الناسِ إليّ ، وأعزّهم عليّ ، ولست أدّخر النصيحة لأحد من الخلق أحقّ بها منك، تَنَحّ بِتَبعَتِكَ عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، ثم ابعث رُسُلَك إلى الناس فادعهم إلى نفسك فإنْ بايَعوا لك حمدتُ الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم يَنقُص الله بذلك دِينَك ولا عقلَك ، ولا يُذهب به مروءتَك ولا فضلَك ، إني أخاف أن تدخل مِصْراً من هذه الأمصار وتأتيَ جماعةً من النـاس ، فيختلفون بينهم ، فمنهم طـائفة معـك ، وأخرى عليك ، فيقتتلون فتكون لأوّل الأسنّة ، فإذا خير هذه الأمة كلّها نفساً وأباً، وأمًّا أضْيَعُها دماً وأذلّها أهلاً ؛ قال له الحسين: فإني ذاهب يا أخي ؛ قال: فانزل مكة فإن اطمأنّتْ بك الدارُ فسبيلٌ ذلك، وإن نَبَتْ بك لحقتَ بالرمال ، وشَعَف الجبال ، وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير أمر الناس ، وتعرف عند ذلك الرأي ، فإنك أصْوَب ما تكون رأياً وأحْزَمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً ، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكَل منها حين تستدبرها استدباراً ؛ قال : يا أخي ، قد نصحتَ فأشفقتَ ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً موفّقاً .

قال أبو مخنف: وحدّثني عبدالملك بن نوفل بن مُساحـقٍ، عن أبي سعد المَقْبُريّ، قال: نظرت إلى الحسين داخلاً مسجدَ المدينة وإنه ليمشي وهو معتمد على رَجُلين، يعتمد على هذا مرّةً وعلى هذا مرّة، وهو يتمثّل بقول ابن مفرِّغ :

لا ذَعَــرْتُ الـسَّــوامَ في فَـلَق الصَّبْـ ... ـحِ مُـغِـيــراً ولا دُعِـيــتُ يَـزِيــدا
يَــومَ أُعْــطَى من المهــابــةِ ضَيـمــاً ... والمَنَــايَـا يَــرْصُــدْنَـنِي أن أَحـيــدا

قال: فقلت في نفسي: والله ما تمثّل بهذين البيتين إلاّ لشيء يريد ، قال: فما مكث إلاّ يومين حتى بلغني أنه سار إلى مكة .

ثم إن الوليد بعث إلى عبدالله بنِ عمرَ فقال: بايعْ ليزيد، فقال: إذا بايع الناسُ بايعت؛ فقال رجل: ما يمنعك أن تبايع؟ إنما تريد أن يختلف الناسُ فيقتتلوا ويَتفانَوْا، فإذا جَهَدهم ذلك قالوا: عليكم بعبدالله بن عمرَ، لم يَبقَ غيرُه، بايِعوه! قال عبدالله: ما أحبّ أن يقتتلوا ولا يختلفوا ولا يتفانَوْا، ولكن إذا بايع الناس ولم يَبق غيري بايعتُ؛ قال: فتركوه وكانوا لا يتخوّفونه.

قال: ومضى ابن الزّبير حتى أتى مكة وعليها عمرو بن سعيد، فلما دخل مكّة قال: إنما أنا عائذ، ولم يكن يصلّي بصلاتهم، ولا يُفيض بإفاضتهم، كان يقف هو وأصحابُه ناحيةً، ثم يُفيض بهم وحدَه، ويصلّي بهم وحدَه، قال: فلما سار الحسين نحو مكة، قال: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(١). فلما دخل مكة قال: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾(٢).

وفي هذه السنة عَزل يزيدُ الوليد بن عُتبة عن المدينة، عزله في شهر رمضان، فأقرّ عليها عمرو بن سعيد الأشدق.

وفيها قَدِم عمرو بن سعيد بن العاص المدينة في رمضان، فزعم الواقدي أن ابن عمرَ لم يكن بالمدينة حين ورد نعيّ معاوية وبيعة يزيدَ على الوليد، وأنّ ابنَ الزّبير والحسين لما دُعِيا إلى البيعة ليزيد أَبَيَا وخرجَا من ليلتهما إلى مكة، فلقيهما ابنُ عباس وابن عمر جائيَيْن من مكة، فسألاهما، ما وراءكما؟ قالا: موتُ معاوية والبَيعة ليزيد؛ فقال لهما ابن عمر: اتَّقيا الله ولا تفرّقا جماعة المسلمين؛ وأما ابنُ عمرَ فقَدِم فأقام أيّاماً، فانتظر حتى جاءت البيعة من البُلْدان، فتقدّم إلى الوليد بن عتبة فبايَعه، وبايَعه ابن عباس.

وفي هذه السنة وجّه عَمرو بن سعيد عَمرَو بن الزبير إلى أخيه عبدِالله بنِ الزبير لحربِهِ.

ذكر الخبر عن ذلك:

ذكر محمد بن عمر أنّ عَمرو بن سعيد بن العاص الأشدق قَدِم المدينةَ في رمضان سنة ستين فدخل عليه أهلُ المدينة، فدخلوا على رجل عظيم الكِبْر مفوّه.

قال محمّد بن عمر: حدّثنا هشام بن سعيد، عن شيبة بن نصاح، قال: كانت الرسل تجري بين يزيدَ بن معاوية وابن الزبير في البَيعة، فحلف يزيد ألّا يقبل منه حتى يؤتَى به في جامعة، وكان الحارث بن خالد المخزومي على الصلاة، فمنعه ابن الزبير، فلما منعه كتب يزيد إلى عمرو بن سعيد؛ أن ابعث جيشاً إلى ابن الزبير، وكان عَمرو بن سعيد لما قدم المدينة ولّى شُرطته عَمرو بن الزبير، لِما كان يعلم ما بينه وبين عبدِالله بن الزبير من البغْضاء، فأرسل إلى نفر من أهل المدينة فضربهم ضَرْباً شديداً.

قال محمد بن عمر: حدّثني شُرَحبيل بن أبي عون، عن أبيه، قال: نظر إلى كل من كان يهوى هَوَى ابن الزّبير فضَرَبه، وكان ممن ضرب المنذر بن الزبير، وابنه محمد بن المنذر، وعبدالرحمن بن الأسود بن عبد

(١) سورة القصص: ٢١.
(٢) سورة القصص: ٢٢.

يغوث ، وعثمان بن عبدالله بن حكيم بن حزام ، وخُبيب بن عبدالله بن الزبير ، ومحمد بن عمّار بن ياسر ، فضرَبَهم الأربعين إلى الخمسين إلى الستين ، وفرّ منه عبدالرحمن بن عثمان وعبدالرحمن بن عَمرو بن سهل في أناس إلى مكّة ، فقال عمرو بن سعيد لعمرو بن الزبير: مَن رجلٌ نوجّه إلى أخيك؟ قال: لا توجّه إليه رجلاً أبداً أنكأ له منّي ، فأخرج لأهل الديوان عشرات ، وخرج من موالي أهل المدينة ناسٌ كثير ، وتوجّه معه أنيس بن عَمرو الأسلميّ في سبعمائة ، فوجّهه في مقدّمته ، فعسكر بالجرف ، فجاء مروان بنُ الحَكَم إلى عَمرو بن سعيد فقال: لا تَغزُ مكة ، واتّق الله ، ولا تُحِلّ حرمةَ البيت ، وخلّوا ابن الزبير فقد كَبِر ، هذا له بِضعٌ وستون سنةً ، وهو رجلٌ لَجوج ، والله لئن لم تقتلوه ليموتَنّ ، فقال عمرو بن الزبير . والله لنقاتلنه ولنغزونّه في جوف الكعبة على رغم أنف من رَغِم ؛ فقال مروان : والله إنّ ذلك ليسوءني ؛ فسار أنيس بن عَمرو الأسلميّ حتى نزل بذي طُوًى ، وسار عَمرو بن الزبير حتى نزل بالأبطح ، فأرسل عَمرو بن الزبير إلى أخيه : بَرّ يَمينَ الخليفة ، واجعل في عنقك جامعة من فضّة لا ترى، لا يضرب الناس بعضهم بعضاً ، واتّقِ الله فإنك في بلد حرام .

قال ابن الزبير: موعدك المسجد؛ فأرسل ابن الزبير عبدَالله بنَ صفوان الجمحيّ إلى أنيس بن عمرو من قبل ذي طُوًى ، وكان قد ضوى إلى عبدالله بن صَفْوان قومٌ ممن نزل حول مكة ، فقاتلوا أنيس بن عمرو ، فهزم أنيس بن عمرو أقبَحَ هزيمة ، وتفرّق عن عمرو جماعةُ أصحابه ، فدخل دارَ علقمة ، فأتاه عبيدة بن الزبير فأجارَه ، ثم جاء إلى عبدالله بن الزبير فقال : إني قد أجَرْته ؛ فقال : أتجير من حقوق الناس! هذا ما لا يصلح .

قال محمد بن عمر: فحدّثت هذا الحديثَ محمد بنَ عُبيد بن عمير فقال: أخبَرَني عمرو بن دينار ، قال: كتب يزيدُ بن معاويةَ إلى عمرو بن سعيد: أن استعمل عَمرو بن الزبير على جيش ، وابعثه إلى ابن الزبير ، وابعث معه أنيس بن عمرو؛ قال: فسار عَمرو بن الزبير حتى نزل في داره عند الصّفا ، ونزل أنيس بن عمرو بذي طُوًى ، فكان عمرو بن الزبير يصلي بالناس ، ويصلي خلفه عبدالله بن الزبير ، فإذا انصرف شبّك أصابعه في أصابعه ، ولم يبق أحدٌ من قريش إلّا أتى عَمرو بن الزبير ، وقعد عبدالله بنُ صفوان فقال : مالي لا أرى عبدَالله بنَ صفوان ! أما والله لئن سرت إليه ليعلمنّ أن بني جُمَح ومَنْ ضَوى إليه من غيرهم قليل ، فبلغ عبدَالله بن صفوان كلمتُه هذه ، فحرّكته ، فقال لعبدالله بن الزبير: إني أراك كأنك تريد البُقْيا على أخيك ، فقال عبدالله: أنا أبقي عليه يا أبا صفوان! والله لو قدرت على عون الذّرّ عليه لاستعنت بها عليه؛ فقال ابن صفوان: فأنا أكفيك أنيس بن عمرو، فاكفني أخاك؛ قال ابن الزبير: نعم؛ فسار عبدالله بن صفوان إلى أنيس بن عمرو وهو بذي طُوًى، فلاقاه في جمع كثير من أهل مكّة وغيرهم من الأعوان، فهزم أنيس بن عمرو ومن معه ، وقتلوا مدبِرَهم ، وأجهزوا على جريحهم، وسار معصب بنُ عبدالرحمن إلى عَمرو ، وتفرّق عنه أصحابه حتى تخلّص إلى عمرو بن الزبير ، فقال عبيدة بن الزبير لعمرو : تعالَ أنا أجيرك . فجاء عبدالله بن الزبير ، فقال : قد أجرت عمراً ، فأجره لي ، فأبى أن يجيرَه ، وضرَبَه بكلِّ من كان ضَرَب بالمدينة ، وحبَسه بسجن عارم .

قال الواقديّ : قد اختلفوا علينا في حديثِ عمرِو بنِ الزّبير ، وكتبت كلّ ذلك .

حدّثني خالد بن إلياس ، عن أبي بكر بن عبدالله بن أبي الجهم ، قال : لمّا قدم عَمرو بن سعيد المدينة والياً ، قدم في ذي القعدة سنة ستّين ، فولّى عمرَو بن الزبير شُرطتَه ، وقال : قد أقسَم أميرُ المؤمنين ألّا يقبل بيعةَ ابن الزبير إلّا أن يؤتَى به في جامعة ، فَلْيُبِرَّ يمين أمير المؤمنين ، فإني أجعل جامعة خفيفةً من ورِق أو ذهب ، ويلبس عليها بُرْنُساً ، ولا تُرَى إلّا أن يُسمع صوتُها ، وقال :

خُـذْهـا فلَيستْ لِلعـزيـز بخُـطَّةٍ ... وفـيهـا مقـالٌ لامـرىءٍ مُتـذَلِّـلِ
أعـامِرُ إنَّ القـوْمَ سـامـوكَ خُـطَّةً ... ومـالـكَ في الجيـران عـذلُ مُعَـذِّلِ

قال محمد: وحدّثني رِياح بن مسلم، عن أبيه ، قال: بُعِث إلى عبدالله بن الزّبير عَمرو بن سعيد ، فقال له أبو شُريح : لا تَغْزُ مكة فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « إنما أذن الله لي في القتال بمكة ساعةً من نهار ، ثم عادت كحُرْمتها » ؛ فأبى عَمرو أن يسمع قوله ، وقال : نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ ؛ فبعث عمرو جيشاً مع عمرو ومعه أُنَيْس بن عمرو الأسلميّ ، وزيد غلام محمد بن عبدالله بن الحارث بن هشام ، ـ وكانوا نحو ألفين ـ فقاتلهم أهلُ مكة ، فقُتل أنيْس بن عمرو والمهاجر مولى القَلَمَّس في ناس كثير، وهُزم جيشُ عمرو، فجاء عبيدة بن الزبير، فقال لأخيه عمرو: أنت في ذمتي ، وأنا لك جار، فانطَلَق به إلى عبدالله ، فدخل على ابن الزبير فقال: ما هذا الدّم الذي في وجهك يا خبيث! فقال عمرو:

لَسْنـا على الأعقـاب تَـدْمَى كُلومُنـا ... ولكنْ على أقـدامنـا تَقْـطُرُ الـدِّمَـا

فحبسه وأخفر عُبيدة ، وقال : أمرْتُك أن تجير هذا الفاسقَ المستحِلّ لحرمات الله ؛ ثم أقاد عَمراً من كلّ من ضربه إلّا المنذر وابنه ، فإنهما أَبَيَا أن يستقيدا ، ومات تحت السِّياط . قال: وإنما سمّي سجن عارِم لعبد كان يقال له: زيد عارِم ، فسمّيَ السِّجنُ به ، وحَبَس ابنُ الزبير أخاه عَمراً فيه .

قال الواقدي : حدّثنا عبدالله بن أبي يحيى ، عن أبيه ، قال : كان مع أُنَيس بن عمرو ألفان .

وفي هذه السنة وجّه أهلُ الكوفة الرسل إلى الحسين عليه السلام وهو بمكّة يدعونه إلى القدوم عليهم ، فوجه إليهم ابن عمّه مُسلم بن عَقِيل بن أبي طالب رضيَ الله عنه .

ذكر الخبر عن مراسلة الكوفيِّين الحُسين عليه السلام للمصير إلى ما قِبَلهم وأمْر مسلم بن عقيل رضيَ الله عنه

حدّثني زكريّاء بن يحيى الضرير ، قال : حدّثنا أحمد بن جناب المَصيصيّ ـ ويكنَى أبا الوليد ـ قال : حدّثنا خالد بن يزيد بن أسد بن عبدالله القَسْري ، قال: حدّثنا عمار الدُّهنيّ ، قال : قلت لأبي جعفر : حدِّثْني بمقتَل الحسين حتّى كأنّي حضرتُه ؛ قال : مات معاويةُ والوليدُ بن عُتبة بن أبي سُفْيان على المدينة ، فأرسل إلى الحسين بن علي ليأخذ بيعته ، فقال له : أخِّرني وارفُق ، فأخّره ، فخرج إلى مكة ، فأتاه أهلُ الكوفة ورُسُلهم : إنا قد حبسنا أنفسَنا عليك ، ولسنا نحضر الجُمُعة مع الوالي ، فاقدم علينا ـ وكان النعمان بن بَشير الأنصاريّ على الكوفة ؛ قال : فبعث الحسين إلى مسلم بن عَقِيل بن أبي طالب ابن عمّه فقال له : سِرْ إلى

الكوفة فانظر ما كَتبوا به إليّ ، فإنْ كان حقًّا خرجْنا إليهم . فخرج مسلم حتى أتى المدينة ، فأخذ منها دليلين ، فمرّا به في البرّيّة ، فأصابهم عطَشٌ ، فمات أحدُ الدَّليلين ، وكتب مسلم إلى الحسين يستعفيه ، فكتب إليه الحسين : أن امضِ إلى الكوفة .

فخرج حتى قَدِمها ، ونزل على رجل من أهلها يقال له ابن عَوْسجة ؛ قال : فلمّا تحدّث أهل الكوفة بمَقدَمه دبّوا إليه فبايعوه ، فبايعه منهم اثنا عشرَ ألفاً . قال : فقام رجل ممن يَهْوَى يزيد بن معاوية إلى النّعمان بن بَشير ، فقال له : إنك ضعيف أو متضعِّف ؛ قد فسَد البلاد! فقال له النعمان : أن أكونَ ضعيفاً وأنا في طاعة الله أحبّ إليّ من أن أكون قويًّا في معصية الله ، وما كنتُ لأهتكَ ستراً سَتَرَهُ الله .

فكتب بقول النعمان إلى يزيد ، فدعا مولًى له يقال له : سَرْجون ؛ ـ وكان يستشيره ـ فأخْبرَه الخبر ، فقال له : أكنتَ قابلاً من معاوية لو كان حيًّا؟ قال : نعم ؛ قال : فاقبل منّي ؛ فإنه ليس للكوفة إلاّ عُبيد الله بن زياد ، فولِّها إيّاه ـ وكان يزيد عليه ساخطاً ، وكان همّ بعزله عن البَصْرة ـ فكتب إليه برضائه ، وأنه قد ولاّه الكوفة مع البصرة ، وكتب إليه أن يطلب مسلم بن عَقِيل فيقتلَه إنْ وجده .

قال : فأقبل عُبيد الله في وجوه أهل البَصْرة حتى قدم الكوفة متلثّماً ، ولا يمرّ على مجلس من مجالسهم فيسلِّم إلاّ قالوا : عليك السلام يابن بنت رسول الله ـ وهم يظنون أنه الحسين بن علي عليه السلام ـ حتى نزل القصر ، فدعا مولًى له فأعطاه ثلاثةَ آلاف ، وقال له : اذهبْ حتى تسأل عن الرجل الذي يبايع له أهلُ الكوفة فأعلِمه أنك رجل من أهل حِمْصَ جئتَ لهذا الأمر ، وهذا مالٌ تدفعه إليه ليتقوّى . فلم يزل يتلطّف ويَرفُق به حتى دُلّ على شيخ من أهل الكوفة يلي البيعة ، فلقيَه فأخبره ، فقال له الشيخ : لقد سَرّني لقاؤك إيّاي ، وقد ساءني ؛ فأما ما سرّني من ذلك فما هداك الله له ، وأما ما ساءني فإنّ أمرَنا لم يستحكم بعدُ . فأدخَلَه إليه ، فأخذ منه المال وبايعه ، ورجع إلى عبيدالله فأخبَرَه .

فتحوّل مسلم حين قدم عُبيدالله بن زياد من الدّار التي كان فيها إلى منزل هانىء بن عُروة المُراديّ ، وكتب مسلم بن عَقِيل إلى الحسين بن عليّ عليه السلام يخبره ببيعة اثني عشر ألفاً من أهل الكُوفة ، ويأمره بالقدوم . وقال عبيدالله لوجوه أهل الكوفة : ما لي أرى هانىءَ بنَ عروةَ لم يأتني فيمن أتاني! قال : فخرج إليه محمّد بن الأشعث في ناس من قومه وهو على باب داره ، فقالوا : إنّ الأمير قد ذكَرَك واستبطأك ، فانطلق إليه ، فلم يزالوا به حتى ركب معهم وسار حتّى دخل على عُبيدالله وعنده شُريح القاضي ، فلما نظر إليه قال لشريح : « أتتْك بحائنٍ رِجْلاه » ؛ فلمّا سلّم عليه قال : يا هانىء ، أين مسلم؟ قال : ما أدري ؛ فأمر عبيدالله مولاه صاحب الدراهم فخرج إليه ، فلما رآه قُطع به ، فقال : أصلح الله الأمير! والله ما دعوتُه إلى منزلي ولكنه جاء فطرح نفسه عليّ ؛ قال : ائتني به ؛ قال : والله لو كان تحت قدمَيّ ما رفعتهما عنه ؛ قال : أدنُوه إليّ ، فأدنِيَ فضربه على حاجبه فشجّه ، قال : وأهَوى هانىءٌ إلى سيفِ شُرَطيّ ليسلّه ، فدُفع عن ذلك ، وقال : قد أحلّ الله دمك ، فأمر به فحُبِس في جانب القصر .

وقال غير أبي جعفر : الذي جاء بهانىء بنِ عُروة إلى عُبيد الله بن زياد عَمرو بن الحجّاج الزُّبيديّ :

ذكر من قال ذلك :

حدّثنا عَمرو بن علي ، قال : حدثنا أبو قُتيبة ، قال : حدّثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن العَيْزار بن

حُرَيث ، قال : حدّثنا عُمارة بن عُقْبة بن أبي مُعَيط ، فجلس في مجلس ابن زياد فحدّث ، قال: طردتُ اليوم حُمُراً فأصبتُ منها حماراً فعقرتُه، فقال له عَمرو بن الحجاج الزُّبيدي : إنّ حماراً تَعْقِرُهُ أنتَ لَحِمارٌ حائن ؛ فقال : ألا أخبرك بأحْيَنَ من هذا كلّه ! رجل جيء بأبيه كافراً إلى رسول الله ﷺ ، فأمَر به أن يضرب عنقه ، فقال : يا محمد فمن لِلصِّبْية؟ قال: النارُ، فأنت من الصبْية ، وأنت في النار؛ قال: فضحك ابن زياد .

رجع الحديث إلى حديث عمّار الدُّهنيّ ؛ عن أبي جعفر. قال: فبينا هو كذلك إذ خرج الخبر إلى مذْحِج ، فإذا على باب القصر جَلَبَة سمعها عبيدالله ، فقال: ما هذا؟ فقالوا: مَذحِج ، فقال لشُريح : اخرج إليهم فأعلِمهم أني إنما حبسته لأسائله ، وبعث عَيناً عليه من مواليه يسمع ما يقول ، فمرّ بهانيء بن عروة ، فقال له هانيء : اتّق الله يا شُريح ، فإنه قاتلي ، فخرج شريح حتى قام على باب القصر ، فقال : لا بأس عليه ، إنما حبسه الأمير ليسائله ، فقالوا : صدق ، ليس على صاحبكم بأس ، فتفرّقوا ، فأتى مُسلِماً الخبرُ ، فنادى بشعاره ، فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل الكوفة ، فقدّم مقدّمته ، وعَبَّى مَيمَنته ومَيْسَرته ، وسار في القلب إلى عُبيد الله ، وبعث عُبيد الله إلى وجوه أهل الكوفة فجمعهم عنده في القصر ، فلما سار إليه مسلم فانتهى إلى باب القصر أشرَفوا على عشائرهم فجعلوا يكلمونهم ويردّونهم ، فجعل أصحاب مسلم يتسلّلون حتى أمسى في خمسمائة ، فلما اختلط الظلام ذهب أولئك أيضاً .

فلما رأى مسلم أنه قد بقي وحده يتردّد في الطُّرق أتى باباً فنزل عليه ، فخرجت إليه امرأة ، فقال لها: إسقيني ، فسقّته ، ثمّ دخلتْ فمكثتْ ما شاء الله ، ثم خرجت فإذا هو على الباب؛ قالت: يا عبدَالله ، إنّ مجلسك مجلسُ رِيبة ، فقمْ ؛ قال: إني أنا مسلم بن عَقِيل ، فهل عندكِ مأوًى ؟ قالت : نعم ، ادخل ، وكان ابنها مولًى لمحمد بن الأشعث ، فلما علم به الغلام انطلق إلى محمد فأخبره ، فانطلق محمد إلى عبيدالله فأخبره ، فبعث عُبيدالله عَمرو بن حريث المخزومي ـ وكان صاحبَ شُرَطة ـ إليه ، ومعه عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث ، فلم يَعلم مُسلم حتى أحيط بالدار ، فلما رأى ذلك مسلّم خرج إليهم بسيفه فقاتَلَهم ، فأعطاه عبدالرحمن الأمان ، فأمكن من يده ، فجاء به إلى عبيدالله ، فأمر به فأصعِد إلى أعلى القصر فضُربت عنقُه ، وألقَى جُثَّته إلى الناس ، وأمر بهانيء فسُحب إلى الكُناسة ، فصُلب هنالك ، وقال شاعرُهم في ذلك :

فإنْ كنتِ لا تدرينَ ما الموتُ فانظري ... إلى هانيء في السُّوقِ وآبن عقِيلِ
أصابَهُمَا أمْرُ الإمام فأصبحا ... أحاديثَ منْ يَسْعى بكلِّ سبيلِ
أيَرْكبُ أسماءُ الهَمَالِيج آمِناً ... وقد طَلَبَتْهُ مَذْحِجٌ بِذُحولِ!

وأما أبو مِخْنف فإنه ذكر من قصّة مسلم بن عَقِيل وشخوصِه إلى الكُوفة ومقتله قصّةً هي أشبع وأتمّ من خبر عمّار الدّهني عن أبي جعفر الذي ذكرناه ؛ ما حُدِّثت عن هشام بن محمد ، عنه ، قال : حدّثني عبدالرحمن بن جُندَب ، قال : حدّثني عُقبة بن سِمْعان مولى الرَّباب ابنة امرىء القيس الكلبيَّة امرأة حسين ـ وكانت مع سُكَينة ابنة حسين ، وهو مولًى لأبيها ، وهي إذ ذاك صغيرة ـ قال: خرجْنا فلزمنا الطريقَ الأعظم ، فقال للحسين أهلُ بيته : لو تنكَّبتَ الطريقَ الأعظمَ كما فعل ابن الزبير لا يلحقك الطلب ؛ قال : لا ، والله لا أفارقه حتى يقضيَ الله ما هو أحبّ إليه ، قال : فاستقبَلَنا عبْدُالله بن مُطيع فقال للحسين : جُعلت فِداك! أين تريد؟ قال: أما الآن فإني أريد مكة، وأما بعدها فإني أستخير الله ، قال: خار الله لك ، وجَعَلَنا فداك ؛ فإذا أنت

أتيت مكّة فإياك أن تقرُب الكوفة ، فإنها بلدةٌ مشؤومة ، بها قُتِل أبوك ، وخُذِل أخوك ، واغتيل بطعنة كادت تأتي على نفسه ؛ الزَم الحَرَمَ ؛ فإنّك سيِّد العرب ، لا يَعدِل بك والله أهلُ الحجاز أحداً ، ويتداعى إليك الناسُ من كلّ جانب ؛ لا تفارق الحَرَم فِدَاك عمّي وخالي ، فوالله لئن هلكتَ لَنُسترقَّنّ بعدك .

فأقبل حتى نزل مكة ، فأقبل أهلُها يختلفون إليه ويأتونه ومَن كان بها من المعتمرين وأهل الآفاق ، وابن الزبير بها قد لزم الكَعبة ، فهو قائم يصلِّي عندها عامّة النهار ويطوف ، ويأتي حُسَيناً فيمن يأتيه ، فيأتيه اليومين المتواليَيْن ، ويأتيه بين كلّ يومين مرّة ، ولا يزال يشير عليه بالرّأي وهو أثقل خلْق الله على ابن الزُّبير ، قد عرف أنّ أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه أبداً ما دام حسين بالبلد ، وأنّ حسيناً أعظم في أعينهم وأنفسهم منه ، وأطوَعُ في الناس منه .

فلما بلغ أهلَ الكوفة هلاكُ معاوية أرجف أهلُ العراق بيزيد ، وقالوا : قد امتنع حسين وابن الزبير، ولَحِقا بمكة ، فكتب أهل الكوفة إلى حسين ، وعليهم النعمان بن بَشير .

قال أبو مخنف : فحدّثني الحجّاج بن علي ، عن محمد بن بشر الهَمْدانيّ ، قال : اجتمعت الشيعة في منزل سليمانَ بن صُرَد ، فذكرْنا هلاكَ معاوية ، فحمِدْنا الله عليه ، فقال لنا سليمان بن صُرَد : إنّ معاوية قد هلك ، وإنّ حسيناً قد تقبّضَ على القوم ببيعته ، وقد خرج إلى مكة ، وأنتم شيعته وشيعة أبيه ، فإنْ كنتم تَعلَمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوّه فاكتبوا إليه ، وإن خفتم الوهَلَ والفَشَل فلا تغرُّوا الرَّجلَ من نفسه ، قالوا : لا ، بل نقاتل عدوَّه ونَقتل أنفسنا دونه ؛ قال : فاكتبوا إليه ، فكَتَبوا إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم . لحسين بن علي من سُليمان بن صُرَد والمسيَّب بن نَجَبَة ورفاعة بن شدّاد وحبيب بن مُظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة . سلامٌ عليك ، فإنا نحمَد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو ، أما بعد ، فالحمد لله الذي قَصَم عدوَّك الجبَّار العنيد الذي انتزى على هذه الأمة فابتزّها أمرَها ، وغصَبهَا فَيْئهَا ، وتأمّر عَلَيْها بغير رضاً منها ، ثم قتل خيارَها ، واستبقَى شِرَارَها ، وجعل مالَ الله دُولةً بين جبابرتها وأغنيائها ، فبُعْداً له كما بَعِدتْ ثمود! إنه ليس علينا إمام ، فأقبِلْ لعلّ الله أن يجمعنا بك على الحقّ . والنعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جُمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغَنا أنك قد أقبلتَ إلينا أخرجْناه حتى نلحقه بالشأم إن شاء الله ؛ والسلام ورحمةُ الله عليك .

قال : ثمّ سرّحنا بالكتاب مع عبدالله بن سَبُع الهَمْدانيّ وعبدالله بن وال ، وأمرناهما بالنَّجاء ؛ فخرج الرجلان مسرِعَيْن حتى قَدِما على حسين لعشر مضين من شهر رمضانَ بمكة ، ثم لبثْنا يومين ، ثم سرّحنا إليه قيسَ بن مُسْهر الصَّيداويّ وعبدالرحمن بن عبدالله بن الكدن الأرحبيّ وعُمارة بن عبيد السَّلوليّ ، فحملوا معهم نحواً من ثلاثة وخمسين صحيفةً ؛ الصحيفة من الرجل والاثنين والأربعة .

قال : ثمّ لبثنا يومين آخَرين ، ثم سرّحنا إليه هانىءَ بن هانىء السَّبيعي وسعيد بن عبدالله الحنفي ، وكتبْنا معهما :

بسم الله الرحمن الرحيم . لحسين بن علي من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، أمّا بعد ، فحيَّهلا ، فإنّ الناس ينتظرونك ، ولا رأيَ لهم في غيرك ، فالعجَل العجَل ؛ والسلام عليك .

وكتب شبَث بن رِبْعيّ وحجّار بن أبْجَر ويزيد بن الحارث بن يزيد بن رُوَيم وعَزْرة بن قيس وعَمرو بن الحجّاجِ الزُّبيديّ ومحمد بن عُمير التميميّ :

أما بعد ، فقد اخضرّ الجَنَاب ، وأينعَت الثمار ، وطَمّت الجِمام ، فإذا شئت فاقدَم على جندٍ لك مجنَّد ؛ والسلام عليك .

وتلاقت الرسُل كلها عنده ، فقرأ الكتب ، وسأل الرسل عن أمر الناس ، ثم كتب مع هانىء بن هانىء السَّبيعيّ وسعيد بن عبدالله الحنفي ، وكانا آخر الرسل :

بسم الله الرحمن الرحيم . من حسين بن علي إلى الملإ من المؤمنين والمسلمين ؛ أما بعد، فإن هـانئاً وسعيداً قدِمَا عليَّ بكتبكم ، وكانا آخر مَن قدم عليَّ من رسلكم ، وقد فهمت كلّ الذي اقتصصتم وذكرتم ، ومقالة جُلّكم : إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعلّ الله أن يجمَعَنا بك على الهدى والحقّ . وقد بعثتُ إليكم أخي وابن عمّي وثقتي من أهل بيتي ، وأمرتُه أن يكتب إليَّ بحالكم وأمرِكم ورأيكم ، فإن كتب إليّ أنه قد أجمع رأي مَلئِكم وذوي الفضل والحِجَى منكم على مثل ما قدمتْ عليَّ به رُسُلكم ، وقرأتُ في كُتُبكم ، أقدم عليكم وَشيكاً إن شاء الله ؛ فلَعَمري ما الإمام إلّا العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط ، والدائن بالحق ، والحابس نفسَه على ذات الله . والسلام .

قال أبو مخنف : وذكر أبو المخارق الراسبيّ ، قال : اجتمع ناس من الشِّيعة بالبَصْرة في منزل امرأة من عبدالقيس يقال لها مارية ابنة سعْد ـ أو منقذ ـ أياماً، وكانت تَشيَّع ، وكان منزلُها لهم مَألَفاً يتحدّثون فيه ، وقد بلغ ابنَ زياد إقبالُ الحسين ، فكتب إلى عامله بالبَصرة أن يضع المناظر ويأخذ بالطريق .

قال: فأجمع يزيد بن نُبَيط الخروج ـ وهو من عبد القيس ـ إلى الحسين ، وكان له بَنونَ عشرة، فقال: أيُّكم يخرج معي؟ فانتدب معه ابنان له: عبدالله وعبيدالله ، فقال لأصحابه في بيت تلك المرأة: إني قد أزمعتُ على الخروج ، وأنا خارج، فقالوا له: إنا نخاف عليك أصحابَ ابن زياد ، فقال: إنّي والله لو قد استوت أخفافها بالجَدَد لَهَانَ عليَّ طلب من طلبني .

قال: ثم خرج فتَقدَّى في الطريق حتّى انْتَهى إلى الحسين عليه السلام، فدخل في رحله بالأبطح ، وبلغ الحسينَ مجيئُه ، فجعل يطلبه ، وجاء الرجل إلى رَحْل الحسين ، فقيل له : قد خرج إلى منزلك ، فأقبل في أثره ، ولما لم يجده الحسين جلس في رحله ينتظره ، وجاء البصرّي فوجَدَه في رَحْله جالساً ، فقال : ﴿ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ قال : فسلَّم عليه ، وجلس إليه ، فخبّره بالذي جاء له ، فدعا له بخير ، ثم أقبل معه حتى أتى فقاتل معه ، فقتِل معه هو وابناه . ثم دعا مسلم بن عَقِيل فسرّحه مع قيس بن مُسهر الصيداويّ وعمارة بن عبيد السَّلوليّ وعبدالرحمن بن عبدالله بن الكدن الأرحبي ، فأمره بتقْوَى الله وكتمانِ أ رِه ، واللطفِ ، فإنْ رأى الناسَ مجتمعين مستوسِقين عجّل إليه بذلك .

فأقبل مسلم حتى أتى المدينة فصلّى في مسجد رسولِ الله ﷺ ، وودّع من أحبّ من أهله ، ثم استأجر دليلين من قيس ، فأقبلَا به ، فضلاّ الطريق وجارا ، وأصابهم عطش شديد ، وقال الدّليلان : هذا الطريقَ حتى تنتهي إلى الماء ، وقد كادوا أن يموتوا عطشاً . فكتب مسلم بن عَقِيل مع قيس بن مسهر الصيداويّ إلى حسين ، وذلك بالمَضيق من بطن الخُبيت :

أما بعد ، فإني أقبلتُ من المدينة معي دليلان لي ، فجارا عن الطريق وضلاّ ، واشتدّ علينا العطش ، فلم يلبثا أن ماتا ، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء ، فلم ننجُ إلاّ بُحشاشة أنفسنا ، وذلك الماء بمكان يُدعَى المَضيق من بطن الخُبيت ؛ وقد تطيّرت من وجهي هذا ، فإن رأيتَ أعفيتَني منه ، وبعثتَ غيري ، والسلام .

فكتب إليه حسين :

أمّا بعد ، فقد خشيت ألاّ يكون حَمَلك على الكتاب إليّ في الاستعفاء من الوجه الذي وجهتك له إلاّ الجُبْن ، فامض لوجهك الذي وجهتُك له ؛ والسلام عليك .

فقال مسلم لمن قرأ الكتاب : هذا مالستُ أتخوّفه على نفسي ؛ فأقبَل كما هو حتى مرّ بماء لطيِّىء ، فنزل بهم ، ثمّ ارتحل منه ، فإذا رجل يرمي الصَّيْد ، فنظر إليه قد رَمَى ظَبْياً حين أشرف له ، فصرعه ، فقال مُسلم : يُقتل عدوُّنا إن شاء الله ؛ ثم أقبل مسلم حتى دخل الكوفة ، فنزل دارَ المختار بن أبي عبيد ـ وهي التي تدعى اليوم دار مسلم بن المسيّب ـ وأقبلت الشيعة تختلف إليه ، فلما اجتمعت إليه جماعةٌ منهم قرأ عليهم كتابَ حسين ، فأخذوا يبكون .

فقام عابس بن أبي شَبيب الشاكري ، فحَمِد الله وأثنَى عليه ثم قال : أما بعد ، فإني لا أخبرك عن الناس ، ولا أعلم ما في أنفسهم ، وما أغرُّك منهم ، والله لأحدّثنّك عمّا أنا موطِّن نفسي عليه ، واللّهِ لأجيبنّكم إذا دعوتم ، ولأقاتلنّ معكم عدوّكم ، ولأضربنّ بسيفي دونَكم حتى ألقَى الله ، لا أريد بذلك إلاّ ما عند الله .

فقام حبيب بن مظاهر الفَقْعسيّ ؛ فقال : رحمك الله ! قد قضيتَ ما في نفسك ، بواجز مِنْ قولك ؛ ثم قال : وأنا والله الذي لا إله إلاّ هو على مثل ما هذا عليه .

ثم قال الحنفيّ مِثلَ ذلك . فقال الحجاج بن عليّ : فقلت لمحمد بن بِشر : فهل كان منك أنت قولٌ؟ فقال : إن كنتُ لأحبّ أن يعزّ الله أصحابي بالظَّفَر ، وما كنتُ لأحبّ أن أقتل ، وكرهتُ أن أكذب .

واختلفت الشيعة إليه حتى عُلِم مكانه ، فبلغ ذلك النعمان بن بَشير .

قال أبو مِخْنف : حدّثني نُمير بن وَعلة ، عن أبي الودّاك ، قال : خرج إلينا النعمان بن بَشير فصعِد المنبر ، فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فاتقوا الله عبادَ الله ولا تُسارِعوا إلى الفتنة والفُرْقة ، فإنّ فيهما يَهلِك الرجال ، وتُسفَك الدماء ، وتُغصَب الأموال ـ وكان حليماً ناسكاً يحبّ العافية ـ قال : إنّي لم أقاتل من لم يقاتلني ، ولا أثب على مَن لا يَثب عليَّ ، ولا أشاتمكم ، ولا أتحرَّش بكم ، ولا آخذ بالقَرْف ولا الظِّنة ولا التُّهَمَة ، ولكنكم إن أبْديتُم صفحتَكم لي ، ونكثْتم بَيْعتكم ، وخالفتم إمامكم ، فوالله الذي لا إلـه غيره لأضربنّكم بسيفي ما ثبت قائمهُ في يدي ، ولو لم يكن لي منكم ناصر . أمَا إنّي أرجو أن يكون من يعرف الحقّ منكم أكثر ممن يُرْديه الباطل .

قال : فقام إليه عبدالله بن مسلم بن سعيد الحضرميّ حليف بني أميّة فقال : إنه لا يصلح ما ترى إلاّ الغَشْم ، إنّ هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوّك رأيُ المستضعَفين ؛ فقال : أنْ أكون من المستضعَفين في طاعة الله أحبُّ إليّ من أن أكون من الأعزّين في معصية الله ؛ ثم نزل .

وخرج عبدالله بن مسلم ، وكتب إلى يزيد بن معاوية : أما بعد ، فإن مسلم بن عَقيل قد قدم الكُوفة

فبايعتْه الشيعةُ للحُسَين بن علي ، فإن كان لك بالكوفة حاجةٌ فابعث إليها رجلاً قويًّا ينفّذ أمرَك ، ويعمَل مِثلَ عملك في عدّوك ، فإنّ النعمان بنَ بشير رجل ضعيف ؛ أو هو يتضعّف . فكان أوّل من كتب إليه .

ثم كتب إليه عمارة بن عقبة بنحو من كتابه ، ثم كتب إليه عمر بنُ سعد بن أبي وقّاص بمثل ذلك .

قال هشام : قال عَوانة : فلما اجتمعت الكتب عند يزيدَ ليس بين كتبهم إلاّ يومان ، دعا يزيد بن معاوية سَرْجون مولى معاوية فقال : ما رأيك؟ فإنّ حسيناً قد توجّه نحو الكوفة ، ومسلم بن عقِيل بالكوفة يبايع للحسين ، وقد بلغني عن النعمان ضعْفٌ وقَولٌ سَيىء ـ وأقرأه كتبهم ـ فما ترى مَن استعمل على الكوفة؟ وكان يزيد عاتباً على عُبيد الله بن زياد ؛ فقال سرجون : أرأيتَ معاويةَ لو نُشِر لك ، أكنتَ آخذاً برأيه؟ قال : نعم ؛ فأخرج عهدَ عبيدالله على الكوفة فقال : هذا رأيُ معاوية ، ومات وقد أمر بهذا الكتاب . فأخذ برأيه وضمّ المصرَيْن إلى عبيدالله ، وبعث إليه بعهده على الكوفة .

ثم دعا مسلم بن عمرو الباهليّ ـ وكان عنده ـ فبعثه إلى عبيدالله بعهده إلى البصرة ، وكتب إليه معه : أما بعد ، فإنه كتب إليَّ شِيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أنّ ابن عَقِيل بالكوفة يجمع الجموعَ لشقّ عصا المسلمين ؛ فسِرْ حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتيَ أهلَ الكوفة فتطلبَ ابنَ عَقيل كطلب الخرزَة حتى تَثْقَفَه فتُوثِقه أو تَقتلَه أو تنفيه ؛ والسلام .

فأقبل مسلم بن عمرو حتى قدم على عُبيد الله بالبصرة ، فأمر عُبيدالله بالجهاز والتّهيّؤ والمسير إلى الكوفة من الغد .

وقد كان حسين كتبَ إلى أهل البصرة كتاباً ؛ قال هشام : قال أبو مخنف : حدّثني الصقعب بن زهير ، عن أبي عثمان النَّهديّ ، قال : كتب حسين مع مولًى لهم يقال له : سليمان ، وكتب بنُسخة إلى رؤوس الأخماس بالبصرة وإلى الأشراف ؛ فكتب إلى مالك بن مِسمَع البكريّ ، وإلى الأحنف بن قيس ، وإلى المنذر بن الجارود ، وإلى مسعود بن عمرو ، وإلى قيس بن الهيثم ، وإلى عَمرو بن عبيدالله بن مَعمَر ، فجاءت منه نسخة واحدة إلى جميع أشرافها : أمّا بعد ، فإنّ الله اصطفى محمداً ﷺ على خلقه ، وأكرَمه بنبوّته ، واختاره لرسالته ، ثم قبضه الله إليه وقد نصح لعباده ، وبلّغ ما أرسِل به ﷺ ، وكنا أهلَه وأولياءَه وأوصياءَه وورثَته وأحقَّ الناس بمقامه في الناس ، فاستأثر علينا قومنا بذلك ، فرَضِينا وكرهْنا الفرقة ، وأحببنا العافية ، ونحن نعلم أنا أحقّ بذلك الحقّ المستحَقّ علينا ممن تولاّه ، وقد أحسنوا وأصلحوا ، وتحرَّوْا الحقّ ، فرحمهم الله ، وغفر لنا ولهم . وقد بعثتُ رسولي إليكم بهذا الكتاب ، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ ، فإنّ السنّة قد أميتت ، وإن البدعة قد أحيِيت ، وإن تَسمَعوا قولي وتطيعوا أمري أهدِكُمْ سبيلَ الرشاد ، والسلام عليكم ورحمة الله .

فكلُّ من قرأ ذلك الكتاب من أشراف الناس كَتمَه ، غيرُ المنذر بن الجارود ، فإنه خشيَ بزعمه أن يكون دَسيساً من قبَل عبيد الله ، فجاءه بالرسول من العشيَّة التي يريد صبيحتَها أن يسبق إلى الكوفة ، وأقرأه كتابَه ، فقدَّم الرسولَ فضرب عنقه . وصَعد عبيدالله منبرَ البصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد ، فوالله ما تُقْرَن بي الصّعْبة ، ولا يُقعقَع لي بالشِّنان ، وإنّي لَنِكْلٌ لمن عاداني ، وسَمٌّ لمن حاربني ، أنصف القارَةَ مَنْ راماها . يا أهلَ البصرة ، إنّ أمير المؤمنين ولاّني الكوفة وأنا غادٍ إليها الغداة ، وقد

استخلفتُ عليكمُ عثمانَ بن زياد بن أبي سُفْيان ، وإيّاكم والخلاف والإرجاف ، فوالذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلافٌ لأقتلنّه وعريفه ووليّه ، ولآخذنّ الأدنى بالأقصى حتى تستمعوا لي ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاقّ ، أنا ابن زياد ، أشبهته من بين من وطىء الحصى ولم ينتزعني شبَه خال ولا ابن عمّ .

ثم خرج من البَصرة واستخلف أخاه عثمانَ بن زياد ، وأقبل إلى الكوفة ومعه مسلم بن عمرو الباهلي ، وشريك بن الأعور الحارثيّ وحشمه وأهل بيته ، حتى دخل الكوفة وعليه عمامة سوداء ، وهو متلثّم والناس قد بلغهم إقبال حسين إليهم ، فهم ينتظرون قدومَه ، فظنّوا حين قدم عبيدالله أنه الحسين ، فأخذ لا يمرّ على جماعة من الناس إلاّ سلّموا عليه ، وقالوا : مرحباً بك يابنَ رسول الله ! قدمتَ خيرَ مَقْدَم ، فرأى من تباشيرهم بالحسين عليه السلام ما ساءه ، فقال مسلم بن عمرو لما أكثروا : تأخّروا ، هذا الأميرُ عُبيدالله بن زياد ، فأخذ حين أقبل على الظهر ؛ وإنما معه بضعة عشر رجلاً ، فلما دخل القصرَ وعلم الناسُ أنه عبيدالله بن زياد دَخَلَهم من ذلك كآبة وحُزن شديد ، وغاظ عبيدَ الله ما سمع منهم ، وقال : ألا أرى هؤلاء كما أرى .

قال هشام : قال أبو مخنف : فحدّثني المعلَّى بن كليب ، عن أبي ودَّاك ، قال : لما نزل القصر نودي : الصلاة جامعة ؛ قال : فاجتمع الناس ، فخرج إلينا فحمِد الله وأثنَى عليه ، ثم قال: أما بعد، فإنّ أمير المؤمنين أصلحه الله ولاّني مصرَكم وثغرَكم ، وأمرني بإنصاف مظلومكم، وإعطاءِ محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدّة على مريبكم وعاصيكم ، وأنا متّبع فيكم أمرَه ، ومنفّذ فيكم عهدَه ، فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البرّ ، وسوطي وسيفي على مَنْ ترك أمري ، وخالفَ عهدي ، فليُبقِ امرؤٌ على نفسه . الصدق ينبىء عنكَ لا الوعيد ؛ ثم نزل .

فأخذ العُرفاء والناس أخذاً شديداً ، فقال : اكتبوا إليَّ الغرباءَ ، ومن فيكم من طلْبة أمير المؤمنين ، ومَن فيكم من الحروريّة وأهلِ الرِّيَب الذين رأيُهم الخلاف والشقاق ، فمَن كَتبهم لنا فبرىء ، ومن لم يكتب لنا أحداً ، فيضمن لنا ما في عرافته ألاّ يخالفنا منهم مخالِف ، ولا يبغي علينا منهم باغٍ ، فمن لم يفعل برئتْ منه الذّمة ، وحلال لنا مالُه وسفكُ دمه ، وأيما عريفٍ وجِد في عرافته من بُغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صُلب على باب داره، وألقيت تلك العرافة من العطاء ، وسُيِّر إلى موضع بعُمانَ الزّارة .

وأما عيسى بن يزيدَ الكنانيّ فإنه قال ـ فيما ذكر عمر بن شبّة ، عن هارون بن مسلم ، عن عليّ بن صالح ، عنه ـ قال : لمّا جاء كتاب يزيد إلى عبيدالله بن زياد ، انتخب من أهل البَصرة خمسمائة ، فيهم عبدالله بن الحارث بن نوفل ، وشريك بن الأعور ـ وكان شيعةً لعلي ، فكان أوّل من سقط بالناس شريك ، فيقال : إنه تساقط غَمْرَةً ومعه ناس ـ ثم سقط عبدالله بن الحارث وسقط معه ناس ، ورجَوْا أن يلويَ عليهم عُبيد الله ويسبقه الحسين إلى الكوفة ، فجعل لا يلتفت إلى مَن سقط ، ويمضي حتى وردَ القادسيّة ، وسقط مِهْران مولاه ، فقال : أيا مِهران ، على هذه الحال ، إن أمسكت عنك حتى تنظر إلى القصر فلك مائة ألف، قال: لا ، والله ما أستطيع . فنزل عُبيدالله فأخرج ثياباً مقطّعة من مقطّعات اليَمَن ، ثم اعتجر بمعجَرة يمانية ، فركب بغلته ، ثم انحدر راجلاً وحدَه ، فجعل يمرّ بالمحَارس فكلّما نظروا إليه لم يشكّوا أنه الحسين ، فيقولون : مرحباً بك يابن رسولِ الله! وجَعَل لا يكلّمهم ، وخرج إليه الناس من دُورهم وبُيوتهم ، وسمع بهم النعمان بن بشير فغلّق عليه وعلى خاصّته ، وانتَهى إليه عبيدالله وهو لا يشكّ أنه الحسين ، ومعه الخلق

يضجّون ، فكلّمه النعمان ، فقال : أنشدُك اللّهَ إلاّ تنحَّيتَ عني! ما أنا بمسلم إليك أمَانتي ، وما لي في قَتْلك من أرب ؛ فجعل لا يكلمه . ثم إنه دنا وتدلّى الآخر بين شُرْفتين ، فجعل يكلّمه فقال : افتح لأفتحتَ ، فقد طال ليْلُك ، فسمعها إنسانٌ خلفَه ، فتكفّى إلى القوم ، فقال: أيْ قومُ، ابن مَرجانة ، والذي لا إله غيره! فقالوا : وَيْحك ! إنما هو الحسين ، ففتح له النعمان ، فدخل ، وضربوا الباب في وجوه الناس ، فانفَضّوا ، وأصبح فجلس على المنبر فقال : أيُّها الناس ، إني لأعلم أنه قد سار معي ، وأظهر الطاعةَ لي من هو عدوّ للحسين حين ظنّ أنّ الحسين قد دخل البلد وغلب عليه ، واللّهِ ما عرفتُ منكم أحداً ؛ ثم نزل .

وأخبِر أن مسلم بن عَقيل قدم قبلهَ بِليلة ، وأنه بناحية الكوفة ، فدعا مولًى لبني تميم فأعطاه مالاً ، وقال : انتحلْ هذا الأمر ، وأعنْهم بالمال ، واقصد لهانىء ومسلم وانزل عليه ؛ فجاء هانئاً فأخبره أنه شيعة ، وأنّ معه مالاً . وقدم شريك بن الأعور شاكياً ، فقال لهانىء : مُرْ مسلماً يكن عندي ، فإنّ عبيدالله يعودني ؛ وقال شريك لمسلم : أرأيتَك إن أمكنتُك من عُبيدالله أضارِبه أنت بالسيف ؟ قال : نعم والله . وجاء عبيدُالله شريكاً يعوده في منزل هانىء ـ وقد قال شريك لمسلم : إذا سمعتَني أقول : اسقُوني ماءً فاخرجْ عليه فاضرْبه ـ وجلس عبيدالله على فراشِ شريك ، وقام على رأسه مِهْران، فقال : اسقوني ماء ، فخرجتْ جاريةٌ بقدح ، فرأت مسلماً ، فزالت ، فقال شريك : اسقوني ماءً ؛ ثم قال الثالثة : وَيلَكم تحموني الماء ! اسقُونيه ولو كانت فيه نفسي ؛ ففَطن مِهران فغمز عبيدَالله ، فوثب ، فقال شريك : أيّها الأمير ، إني أريد أن أوصيَ إليك ؛ قال : أعود إليك ، فجعل مِهران يطَّرد به ؛ وقال : أراد والله قتلك ؛ قال : وكيف مع إكرامي شريكاً وفي بيت هانىء ويد أبي عنده يد ! فرجع فأرسل إلى أسماءَ بن خارجة ومحمَّد بن الأشعث فقال : ائتياني بهانىء ، فقالا له : إنه لا يأتي إلاّ بالأمان ؛ قال: وما لَه وللأمان ! وهل أحدثَ حدَثاً ! انطلقا فإن لم يأتِ إلاّ بأمان فآمناه ، فأتياه فدعَواه ، فقال : إنه إن أخذني قَتَلني ، فلم يزالا به حتى جاءا به وعبيدالله يخطب يومَ الجمعة ، فجلس في المسجد ، وقد رجَّل هانىء غَدِيرَتَيْه، فلمَّا صلَّى عُبيدالله ، قال: يـا هانىء ، فتَبِعَـه ، ودخل فسلَّم ، فقـال عبيدالله : يا هانىء ، أما تعلم أنّ أبي قَدِم هذا البلد فلم يترك أحداً من هذه الشِّيعة إلاَّ قتله غير أبيك وغير حُجر ، وكان من حُجْر ما قد علمتَ ، ثمّ لم يزل يُحسنُ صُحْبَتَك ، ثم كتب إلى أمير الكوفة : إن حاجتي قبلَك هانىء ؟ قال: نعم ، قال : فكان جزائي أن خبأتَ في بيتك رجلاً ليقتلني! قال : ما فعلت ، فأخرج التميميّ الذي كان عيناً عليهم ، فلمَّا رآه هانىء علم أن قد أخبره الخبر ، فقال : أيّها الأمير ، قد كان الذي بلغك ، ولن أضيّع يدك عنّي ، فأنت آمنٌ وأهلك ، فسرْ حيثُ شئت .

فكَبَا عبيدالله عندها ، ومهْران قائم على رأسه في يده معْكَزة ، فقال: واذلاّه ! هذا العبد الحائك يؤمِّنك في سلطانك ! فقال : خذه ؛ فطرح المعكزة ، وأخذ بضفيرتيْ هانىء ، ثم أقنع بوجهه ، ثم أخذ عبيـدالله المعكزة فضرب بها وجهَ هانىء ، وندَر الزُّجّ ، فارتزّ في الجدار ، ثم ضرب وجهَه حتى كسر أنفَه وجبينَه ، وسمع الناسُ الهيْعة ، وبلغ الخبر مَذْحج ، فأقبلوا ، فأطافوا بالدار ، وأمر عبيدالله بهانىء فألقي في بيت ، وصيَّح المذحِجيّون ، وأمر عبيدالله مِهران أن يُدخل عليه شُرَيْحاً ، فخرج ، فأدخله عليه ، ودخلت الشُّرَط معه ، فقال: يا شريح ، قد ترى ما يصنع بي! قال : أراك حيًّا ؛ قال : وحيٌّ أنا مع ما ترى! أخبرْ قومي أنهم إن انصرفوا قتلني ؛ فخرج إلى عبيدالله فقال: قد رأيتُه حيًّا ، ورأيت أثراً سيّئاً ؛ قال : وتُنْكر أن يعاقب الوالي رعيَّته ! اخرج إلى هؤلاء فأخبرهم ، فخرج ، وأمر عبيد الله الرجلَ فخرج معه ، فقال لهم شريح : ما هذه الرِّعة

السيّئة! الرجل حيٌّ ، وقد عاتبه سلطانهُ بضرب لم يبلغ نفسه ، فانصرفوا ولا تُحِلُّوا بأنفسكم ولا بصاحبكم . فانصرفوا .

وذكر هشام ، عن أبي مخنف ، عن المعلّى بن كليب ، عن أبي الودّاك ، قال : نزل شريك بن الأعور على هانىء بن عُرْوة المراديّ ، وكان شريك شيعيًّا ، وقد شهد صِفّين مع عمّار .

وسمع مسلم بن عَقيل بمجيء عبيدالله ومقالته التي قالها ، وما أخذ به العُرَفاء والناس ، فخرج من دار المختار - وقد عُلِم به - حتى انتهى إلى دار هانىء بن عُروة المراديّ ، فدخل بابه ، وأرسل إليه أن أخرج ، فخرج إليه هانىء ، فكره هانىء مكانه حين رآه ، فقال له مسلم : أتيتك لتجيرَني وتُضِيفني ؛ فقال : رحمك الله! لقد كلفْتَني شطَطا ، ولولا دخولُك داري وثقَتُك لأحببتُ ولسألتُك أن تخرج عني ، غير أنه يأخذني من ذلك ذِمامٌ ، وليس مردود مثلي على مثلك عن جَهل ؛ ادخُل .

فآواه ، وأخذتِ الشيعةُ تختلف إليه في دار هانىء بن عروة ، ودعا ابن زياد مولًى له يقال له معقل ، فقال له : خذ ثلاثةَ آلاف درهم ، ثم اطلب مسلم بن عَقِيل ، واطلب لنا أصحابه ، ثم أعطهم هذه الثلاثة آلاف ؛ فقل لهم : استعينوا بها على حرب عدوكم ، وأعلِمهم أنك منهم ، فإنّك لو قد أعطيتَها إياهم اطمأنوا إليك ، ووثقوا بك ، ولم يكتموك شيئاً من أخبارهم ؛ ثم اغدُ عليهم ورُحْ . ففعل ذلك ، فجاء حتى أتى إلى مسلم بن عَوْسجة الأسديّ من بني سعد بن ثعلبة في المسجد الأعظم وهو يصلّي ، وسمع الناسَ يقولون : إنّ هذا يبايع للحسين ، فجاء فجلس حتى فرغ من صلاته ثم قال : يا عبدَالله ، إني امرؤ من أهل الشأم ، مولًى لذي الكَلاع ، أنعَم الله عليَّ بحُبِّ أهل هذا البيت وحبِّ مَن أحبَّهم ، فهذه ثلاثة آلاف دِرهم أردتُ بها لقاءَ رجلٍ منهم بلغني أنه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله ﷺ ، وكنت أريد لقاءه فلم أجد أحداً يدلّني عليه ولا يعرف مكانه ، فإنّي لجالسٌ آنفاً في المسجد إذ سمعتُ نفراً من المسلمين يقولون : هذا رجلٌ له علْم بأهل هذا البيت؛ وإنّي أتيتك لتقبض هذا المال وتدخلَني على صاحبك فأبايعه ، وإن شئت أخذت بيعتي له قبل لقائه ، فقال : إحمد الله على لقائك إيّاي ، فقد سرّني ذلك لتنال ما تحبّ ، ولينصر الله بك أهلَ بيت نبيِّه ﷺ ، ولقد ساءَني معرفتك إيّاي بهذا الأمر من قبل أن يَنْمى مَخافة هذا الطاغية وسَطوته .

فأخذ بيعته قبل أن يبرح ، وأخذ عليه المواثيقَ المغلَّظة لَيناصحه وليكتُمنّ ، فأعطاه من ذلك ما رَضِيَ به ، ثم قال له : اختلِف إليَّ أيّاماً في منزلي ، فأنا طالبٌ لك الإذنَ على صاحبك . فأخذ يختلف مع الناس ، فطلب له الإذن . فمرض هانىء بن عروة ، فجاء عبيدالله عائداً له ، فقال له عُمارة بن عُبيد السَّلوليّ : إنّما جماعتنا وكيدُنا قتل هذا الطاغية ، فقد أمكَنَك الله منه فاقتله ؛ قال هانىء : ما أحبّ أن يُقتَلَ في داري ، فخرج فما مكث إلاّ جمعةً حتى مرض شريك بن الأعْور - وكان كريماً على ابن زياد وعلى غيره من الأمراء ، وكان شديدَ التشيُّع - فأرسل إليه عُبيدالله : إني رائحٌ إليك العشيّة ؛ فقال لمسلم : إن هذا الفاجر عائدِي العشيّة ، فإذا جلس فاخرج إليه فاقتله ، ثم اقعد في القصر ، ليس أحدٌ يحُول بينك وبينه ، فإن برئتُ من وَجَعي هذا أيامي هذه سرْتُ إلى البصرة وكفَيتُك أمرَها .

فلما كان من العشيِّ أقبل عُبيد الله لعيادة شريك ، فقام مسلم بن عَقِيل ليَدخل ، وقال له شريك : لا يفوتنّك إذا جلس ؛ فقام هانىء بنُ عروة إليه فقال : إني لا أحبّ أن يُقتَل في داري - كأنه استَقبح ذلك - فجاء

عبيدالله بن زِياد فدخل فجلس، فسأل شريكاً عن وجعه ، وقال : ما الذي تجدُ؟ ومتى أشكَيت؟ فلمّا طال سؤالُه إياه ، ورأى أن الآخَر لا يَخرج ، خشيَ أن يفوته ، فأخذ يقول :

ما تنتظرون بسَلْمى أن تُحيُّوها

إِسقينها وإن كانت فيها نفسي، فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً ؛ فقال عبيدالله ، ولا يَفطن ما شأنُه : أترَوْنه يهجُر؟ فقال له هانىء: نعم أصلحك الله! ما زال هذا دَيدَنه قبيل عَماية الصبح حتى ساعته هذه . ثم إنه قام فانصرف ، فخرج مسلم ، فقال له شريك : ما منعك من قتله؟ فقال: خَصْلتان : أما إحداهما فكراهة هانىء أن يُقتَل في داره ، وأما الأخرى فحديثٌ حدّثه الناسُ عن النبيّ ﷺ : « إنّ الإيمان قَيّد الفَتْك ، ولا يفتك مؤمن » ؛ فقال هانىء : أما والله لو قتلتَه لقتلتَ فاسقاً فاجراً كافراً غادراً ، ولكن كرهتُ أن يُقتَل في داري . فلبث شريك بن الأعور بعد ذلك ثلاثاً ثم مات ، فخرج ابن زياد فصلَّى عليه ، وبلغ عُبيد الله بَعد ما قَتَل مسلماً وهانئاً أن ذلك الذي كنتَ سمعت من شريك في مرضه إنما كان يُحرِّضُ مسلماً ، ويأمره بالخروج إليك ليقتلَك ؛ فقال عبيدالله : والله لا أصلّي على جنازةِ رجل من أهلِ العراق أبداً ، ووالله لولا أنّ قبر زياد فيهم لنَبَشْتُ شريكاً .

ثم إن مَعقلاً مولى ابن زياد الذي دسّه بالمال إلى ابن عَقِيل وأصحابه ، اختلف إلى مسلم بن عَوْسجة أياماً ليدخله على ابن عَقِيل ، فأقبل به حتى أدخله عليه بعد موت شريك بن الأعور ، فأخبَره خبره كلَّه ، فأخذ ابن عَقِيل بيعته ، وأَمَرَ أبا ثُمامة الصائديّ ، فقبض مالَه الَّذِي جاء به ـ وهو الذي كان يقبض أموالهم ، وما يعين به بعضهم بعضاً ، يشتري لهم السلاح ، وكان به بصيراً ، وكان من فُرسان العرب ووجوهِ الشيعة ـ وأقبل ذلك الرجل يختلف إليهم ، فهو أول داخل وآخر خارج ، يَسمَع أخبارهم ، ويَعلم أسرارَهم ، ثم ينطلِق بها حتّى يُقرّها في أذن ابن زياد . قال : وكان هانىء يغدو وَيَروح إلى عُبيد الله ، فلما نزل به مسلم انقطع من الاختلاف وتمارَض ، فجعل لا يَخرُج ، فقال ابن زياد لجلسائه : ما لي لا أرى هانئاً! فقالوا : هو شاكٍ ، فقال : لو علمتُ بمرضه لعدْتُه ! .

قال أبو مخنف · فحدثني المجالد بن سعيد، قال : دعا عبيد الله محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة .

قال أبو مخنف: حدثني الحسن بن عُقبة المراديّ أنه بعث معهما عَمرو بن الحجّاج الزّبيديّ .

قال أبو مخنف: وحدّثني نُمَير بن وعلة ، عن أبي الودّاك ، قال : كانت رَوْعة أخت عمرو بن الحجاج تحت هانىء بن عروة ، وهي أمّ يحيى بن هانىء . فقال لهم : ما يمنع هانىء بن عروة من إتياننا؟ قالوا: ما ندري أصلحك الله! وإنه ليَتشكّى ؛ قال : قد بلغني أنه قد برأ ، وهو يجلس على باب دارِه ، فالقوْه ، فمُروه ألّا يدَعَ ما عليه في ذلك من الحقّ ، فإنّي لا أحبّ أن يَفسُد عندي مِثلُه من أشراف العَرب . فأَتَوه حتى وقفوا عليه عشيّةً وهو جالسٌ على بابه ، فقالوا : ما يمنعك من لقاء الأمير ؛ فإنه قد ذكرك ، وقد قال : لو أعلمُ أنه شاكٍ لعُدتُه؟ فقال لهم: الشكوَى تَمنعُني ، فقالوا له : يبلُغه أنك تجلس كلَّ عشيَّة على باب دارك ، وقد استبطأك ،والإبطاء والجفاء لا يحتملُه السلطان ، أقسَمْنا عليك لَمّا ركبتَ معنا! فدعا بثيابه فلبسها ، ثم دعا ببغلة فركبها حتى إذا دنا من القصر؛ كأنّ نفسه أحسَّت ببعض الذي كان ، فقال لحسَّان بن أسماء بن خارجة : يابنَ أخي ، إنّي والله لِهذا الرجل لخائف ، فما ترى؟ قال : أيْ عمّ ، والله ما اتخوّف عليك شيئاً ، ولِمَ تجعل على نفسك سبيلاً وأنت

بريءٌ ؟ وزعموا أن أسماءَ لم يَعلَم في أيّ شيء بَعث إليه عُبيدالله ؛ فأما محمد فقد عَلِم به ؛ فدخل القوم على ابن زياد ، ودخل معهم ، فلما طلع قال عُبيد الله : أتتْك بخائنٍ رِجْلاه ! وقد عرَّس عُبيد الله إذ ذاك بأمّ نافع ابنة عُمارة بن عُقبة ؛ فلما دنا من ابن زياد وعنده شُريح القاضيّ التَفت نحوَه ، فقال :

أريدُ حِباءَهُ ويريدُ قَتْلي عذيرَكَ من خليلِك من مُرادِ

وقد كان له أوّل ما قدم مُكْرِماً مُلْطِفاً، فقال له هانىء: وما ذاك أيها الأمير؟ قال: إيهٍ يا هانىء بن عروة! ما هذه الأمور التي تَرَبَّصُ في دُورك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين ! جئتَ بمسلم بن عَقِيل فأدخلته دارك ، وجمعت له السلاح والرجال في الدّور حولَك ، وظننتَ أنّ ذلك يَخفَى عليَّ لك! قال : ما فعلت ، وما مسلم عندي ، قال : بلى قد فعلت ؛ قال : ما فعلت ؛ قال : بلى ، فلما كثُر ذلك بينهما ، وأبى هانىءٌ إلاّ مجاحَدَته ومناكَرَته ، دعا ابنُ زياد معقلاً ذلك العين ، فجاء حتى وقف بين يديه فقال: أتعرف هذا؟ قال: نعم ، وعَلِم هانىءٌ عند ذلك أنه كان عيناً عليهم ، وأنه قد أتاه بأخبارهم ، فسُقط في خَلَده ساعةً . ثم إنّ نفسَه راجعْته ، فقال له: اسمع منّي، وصدّق مقالتي ، فوالله لا أكذبك ، واللّهِ الذي لا إله غيرُه ما دعوتُه إلى منزلي ، ولا علمتُ بشيء من أمره ، حتى رأيته جالساً على بابي ، فسألني النزولَ عليَّ ، فاستحييتُ من ردّه ، ودَخَلني من ذلك ذِمام ، فأدخلتُه داري وضفته وآويته، وقد كان من أمره الذي بلغك، فإن شئتَ أعطيتُ الآن موثقاً مغلَّظاً وما تطمئنّ إليه ألاّ أبغيك سوءاً، وإن شئت أعطيتُك رهينةً تكون في يدك حتى آتيَك، وأنطلق إليه فآمره أن يخرج من داري إلى حيث شاء من الأرض، فأخرج من ذمامه وجواره؛ فقال: لا والله لا تفارقني أبداً حتى تأتيَني به؛ فقال: لا، والله لا أجيئك أبداً، أنا أجيئك بضيفي تَقتلُه! قال: والله لتأتيَنّي به، قال: والله لا آتيك به.

فلما كثُر الكلام بينهما قام مسلم بن عَمرو الباهليّ ـ وليس بالكوفة شاميّ ولا بَصْريّ غيره ـ فقال: أصلح الله الأمير! خلّني وإياه حتى أكلّمه ، لمّا رأى لجَاجته وتأبِّيه على ابن زياد أن يدفع إليه مسلماً ، فقال لهانىء : قم إليَّ ها هنا حتى أكلمك ؛ فقام فخلا به ناحيةً من ابن زياد ، وهما منه على ذلك قريب حيث يراهما ؛ إذا رَفَعا أصواتهما سمع ما يقولان ، وإذا خَفَضا خفيَ عليه ما يقولان ؛ فقال له مسلم: يا هانىء ، إني أنشدُك اللّهَ أن تقتلَ نفسَك ، وتُدخل البلاءَ على قومك وعشيرتك! فوالله إني لأنفَس بك عن القتل ، وهو يرى أنّ عشيرته ستحرّك في شأنه أنّ هذا الرجل ابن عمّ القوم ، وليسوا قاتليه ولا ضائريه ، فادفعه إليه فإنه ليس عليك بذلك مُخزاة ولا مَنقَصة، إنما تدفعه إلى السلطان، قال: بلى، والله إنّ عليَّ في ذلك لَلخِزْيُ والعارُ، أنا أدفع جاري وضيفي وأنا حَيٌّ صحيح أسمَعُ وأرى ، شديد الساعد ، كثير الأعوان! والله لو لم أكن إلاّ واحداً ليس لي ناصرٌ لم أدفعْه حتى أموت دونَه . فأخذ يناشده وهو يقول : والله لا أدفَعه إليه أبداً ؛ فسمع ابن زياد ذلك ، فقال : أدنُوه منّي ، فأدنَوْه منه ، فقال : والله لتأتيَنّي به أو لأضربنّ عنقك ؛ قال: إذاً تكثر البارقة حولَ دارك ، فقال: والهفا عليك! أبالبارقة تخوّفني! وهو يظنّ أنّ عشيرته سيمنعونه؛ فقال ابن زياد : أدنُوه مني ، فأدنيَ ، فاستَعرض وجهَه بالقضيب فلم يزل يضرب أنفَه وجبينَه وخدَّه حتى كسر أنفَه، وسيّل الدماءَ على ثيابه، ونثر لَحم خدّيه وجبينه على لحيته حتى كسر القضيب ، وضرب هانىء بيده إلى قائم سيف شُرطيّ من تلك الرّجال ، وجابَذه الرجلُ ومنِع ، فقال عبيدالله : أحَروريّ سائر اليوم ! أحللْتَ بنفسك ، قد حلّ لنا قتلُك ، خذوه فألقُوه في بيت من بيوت الذار ، وأغلقوا عليه بابه ، واجعلوا عليه حَرساً ، ففُعِلَ ذلك به ، فقام إليه

أسماء بن خارجة فقال : أَرُسُل غَدْر سائر اليوم ! أمرْتَنا أن نجيئك بالرّجل حتى إذا جئناك به وأدخلناه عليك هشمْتَ وجهَه ، وسيّلت دمهَ على لحيته ، وزعمَت أنك تقتله ! فقال له عبيدالله : وإنك لها هنا ! فأمر به فَلُهِزَ ونُعْتِعَ به ، ثم تُرِك فحبِس .

وأما محمد بن الأشعث فقال : قد رضِينا بما رأى الأمير ؛ لنا كان أم علينا ، إنما الأمير مؤدّب . وبلغ عمرو بن الحجاج أن هانئاً قد قُتل ، فأقبَل في مذحج حتى أحاط بالقصر ومعه جمعٌ عظيم ، ثمّ نادى : أنا عَمرو بن الحجّاج ، هذه فُرْسان مَذحِج ووُجوهُها ، لم تخلع طاعةً ، ولم تفارق جماعة ، وقد بلغهم أنّ صاحبهم يُقتل ، فأعظَموا ذلك ؛ فقيل لعبيد الله : هذه مذحِج بالباب ، فقال لشُريح القاضي : ادخُل على صاحبهم فانظر إليه ، ثم اخرج فأعلمْهم أنه حيّ لم يُقتل ، وأنك قد رأيتَه ، فدخل إليه شريح فنَظَر إليه .

فقال أبو مخنف : فحدّثني الصَّقْعب بن زهير ، عن عبدالرحمن بن شُرَيح ، قال : سمعته يحدّث إسماعيل بن طلحة ، قال : دخلت على هانىء ، فلما رآني قال : يا لله يا للْمسلمين ! أهَلكتْ عشيرتي؟ فأين أهل الدين ! وأين أهل المِصْر! تفاقدوا! يُخلُّوني ، وعدوّهم وابنَ عدوّهم! والدماء تسيل على لحيته ، إذ سمع الرَّجة على باب القصر ، وخرجت واتّبعني ، فقال : يا شريح ، إني لأظنُّها أصواتُ مذحِج وشيعتي من المسلمين ، إن دخل عليَّ عشرة نفر أنقذوني ؛ قال : فخرجتُ إليهم ومعي حُميد بن بكير الأحمري ـ أرسله معي ابن زياد ، وكان من شُرَطه ممّن يقوم على رأسه ـ وايمُ الله لولا مكانُه معي لكنتُ أبلغتُ أصحابَه ما أمَرني به ؛ فلما خرجتُ إليهم قلت : إنّ الأمير لما بلغه مكانُكم ومقالتُكم في صاحبكم أمرَني بالدخول إليه ، فأتيتُه فنظرتُ إليه ، فأمرني أن ألقاكم ، وأن أعلِمكم أنه حيّ ، وأن الذي بلغكم من قتله كان باطلاً . فقال عمرو وأصحابه : فأمّا إذْ لم يُقتَل فالحمدُ لله ؛ ثم انصرفوا .

قال أبو مخنف : حدّثني الحجّاج بن علي ، عن محمد بن بِشْر الهمداني ، قال : لما ضرب عُبيد الله هانئاً وحبسه خشيَ أن يَثبَ الناسُ به ، فخرج فصَعِد المنبرَ ومعه أشراف الناس وشُرَطُه وحشمه ، فحَمِد الله وأثنىَ عليه ثم قال : أمّا بعد ، أيها الناس ، فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم ، ولا تختلفوا ولا تفرّقوا فتَهلكوا وتَذِلّوا وتقتلوا وتُجْفَوا وتحرموا ، إنّ أخاك مَن صَدَقَك ، وقد أعْذَرَ مَنْ أنذر .

قال : ثم ذهب لينزل ، فما نزل عن المنبر حتى دخلت النّظارة المسجد من قبل التّمّارين يشتدّون ويقولون : قد جاء ابن عَقيل ! قد جاء ابن عَقيل ! فدخل عُبيد الله القصرَ مسرعاً ، وأغلق أبوابه .

قال أبو مخنف : حدّثني يوسف بن يزيد ، عن عبدالله بن خازم ، قال : أنا والله رسول ابن عَقيل إلى القصر لأنظر إلى ما صار أمرُ هانىء ؛ قال : فلما ضُرِب وحُبس ركبتُ فرسي وكنت أوَّل أهل الدار دخل على مسلم بن عَقيل بالخبر ، وإذا نسوةٌ لمراد مجتمعات ينادين : يا عَثْرتاه ! يا ثُكلاه! فدخلت على مسلم بن عَقِيل بالخبر ، فأمرني أن أناديَ في أصحابه وقد ملأمنهم الدُّورَ حوله ، وقد بايعه ثمانية عشر ألفاً ، وفي الدور أربعة آلاف رجل ، فقال لي : نادِ : يا منصور أمتْ ؛ فناديتُ : يا منصورُ أمتْ ؛ وتنادَى أهلُ الكوفة فاجتمعوا إليه ، فعقد مسلم لعبيد الله بن عَمرو بن عزيز الكنديّ على رُبْع كندة وربيعة ، وقال : سرْ أمامي في الخيل ، ثم عقد لمسلم بن عَوْسجة الأسديّ على رُبْع مَذْحَج وأَسَد ، وقال : انزل في الرّجال فأنت عليهم ؛ وعقد لأبي ثُمامة الصائديّ على رُبع تميم وهَمْدان ، وعقد لعباس بن جَعْدة الجدليّ على رُبْع المدينة ، ثم أقبل نحو القصر ،

فلما بلغ ابنَ زياد إقبالُه تحرّز في القصر، وغَلّقَ الأبواب .

قال أبو مخنف : وحدّثني يونس بن أبي إسحاق ، عن عبّاس الجَدلي قال : خرجنا مع ابن عَقيل أربعة آلاف ، فما بلغنا القصرَ إلاّ ونحن ثلثمائة . قال : وأقبل مسلم يسيرُ في الناس من مراد حتى أحاط بالقصر ، ثم إنّ الناس تداعَوْا إلينا واجتَمعوا ، فوالله ما لبثْنا إلاّ قليلاً حتى امتلأ المسجد من الناس والسوق ، وما زالوا يثوّبون حتى المساء ، فضاق بعبيد الله ذَرْعه ، وكان كُبْر أمرِه أن يتمسّك بباب القصر ، وليس معه إلاّ ثلاثون رجلاً من الشُرَط وعشرون رجلاً من أشراف الناس وأهل بيته ومواليه ، وأقبل أشراف الناس يأتون ابنَ زياد من قبَل الباب الذي يلي دارَ الروميّين ، وجعل من بالقصر مع ابن زياد يُشرِفون عليهم ، فينظرون إليهم فيتّقون أن يرمُوهم بالحجارة ، وأن يشتموهم وهم لا يَفترون على عبيدالله وعلى أبيه . ودعا عبيدُالله كثيرَ بن شهاب بن الحصين الحارثيّ فأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحِج ، فيسير بالكوفة ، ويخذّل الناس عن ابن عَقِيل ويخوّفهم الحرب ، ويحذّرهم عقوبةَ السلطان ، وأمر محمّد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كنْدة وحَضرَمْوْت ، فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس، وقال مثلَ ذلك للقعقاع بن شَوْر الذهليّ وشَبَث بن رِبْعيّ التميميّ وحَجّار بن أبجر العجْليّ وشَمر بن ذي الجَوْشن العامريّ ، وحبس سائرَ وجوه الناس عنده استيحاشاً إليهم لقلّة عدد مَن معه من الناس ، وخرج كَثير بن شهاب يُخذِّل الناس عن ابن عَقِيل .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو جَناب الكلبيّ أن كثيراً ألفَى رجلاً من كلب يقال له عبدالأعلى بن يزيد ، قد لبس سلاحه يريد ابنَ عقيل في بني فِتْيان ، فأخَذَه حتى أدخله على ابن زياد ، فأخبره خبرَه ، فقال لابن زياد : إنما أردتك ؛ قال : وكنتَ وعدْتني ذلك من نفسك ؛ فأمر به فحبِس ، وخرج محمد بن الأشعث حتى وقف عند دور بني عمارة ، وجاءه عمارة بن صَلْخب الأزْديّ وهو يريد ابن عَقِيل ، عليه سلاحه ، فأخذه فبعث به إلى ابن زياد فحبسه ، فبعث ابن عَقيل إلى محمد بن الأشعث من المسجد عبدالرحمن بن شُريح الشِّباميّ ، فلما رأى محمد بن الأشعث كثرةَ من أتاه ، أخذ يتنحّى ويتأخر ، وأرسل القعقاع بن شوْر الذّهليّ إلى محمد بن الأشعث : قد جُلْتُ على ابن عقيل من العرارِ ، فتأخّرْ عن موقفه ، فأقبل حتى دخل على ابن زياد من قبَل دار الرُوميين ، فلما اجتمع عند عبيدالله كثير بن شهاب ومحمد والقعقاع فيمن أطاعهم من قومهم ، قال له كثير - وكانوا مناصحين لابن زياد : أصلَحَ اللّهُ الأمير ! معك في القصر ناسٌ كثير من أشراف الناس ومن شُرَطك وأهلِ بيتك ومَواليك ، فاخرج بنا إليهم ، فأبى عُبيد الله ، وعقد لشَبَث بن رِبْعيّ لواءً ، فأخرجه ، وأقام الناسُ مع ابن عقيل يكبّرون ويثوّبون حتى المساء ، وأمْرُهم شديد ، فبعث عبيدالله إلى الأشراف فجمعهم إليه ، ثم قال: أشرِفوا على الناس فمنُّوا أهلَ الطاعة الزّيادةَ والكرامة ، وخوّفوا أهلَ المعصية الحرمانَ والعقوبة ، وأعلموهم فُصولَ الجنود من الشأم إليهم .

قال أبو مخنف : حدّثني سُليمانُ بن أبي راشد ، عن عبدالله بن خازم الكثيري من الأزْد ، من بني كثير ، قال: أشرف علينا الأشراف، فتكلم كثير بن شهاب أول الناس حتى كادت الشمس أن تجب، فقال: أيّها الناس ، الحقوا بأهاليكم ، ولا تعجّلوا الشرّ ، ولا تعرّضوا أنفسَكم للقتل ، فإنّ هذه جنود أمير المؤمنين يزيدُ قد اقبلتْ ، وقد أعطى اللّهَ الأميرُ عهداً : لئن أتممتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيّتكم أن يُحرِم ذرّيتكم لعطاء ، ويفرّق مُقاتلَتكم في مَغازِي أهل الشأم على غير طمع ، وأن يأخذ البريء بالسقيم ، والشاهد الغائب ، حتى لا يبقى له فيكم بقيّة من أهل المعصية إلاّ أذاقها وبالَ ما جرّت أيديها ؛ وتكلّم الأشراف بنحو

من كلامٍ هذا ؛ فلما سمع مقالَتهم الناسُ أخذوا يتفرّقون ، وأخذوا ينصرفون .

قال أبو مخنف : فحدّثني المجالد بن سعيد ؛ أنّ المرأة كانت تأتي ابنَها أو أخاها فتقول: انصرِف ؛ الناسُ يكفُونك ؛ ويجيء الرّجُل إلى ابنه أو أخيه فيقول : غداً يأتيك أهلُ الشأم ، فما تصنع بالحرب والشرّ! انصرف . فيذهب به؛ فما زالوا يتفرّقون ويتصدّعون حتى أمسى ابن عَقيل وما معه ثلاثون نفساً في المسجد ، حتى صُلِّيَتِ المغرب ، فما صلّى مع ابن عَقيل إلاّ ثلاثون نفساً . فلما رأى أنه قد أمسى وليس معه إلا أولئك النَّفر خرج متوجّهاً نحو أبواب كِنْدة ، وبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة، ثم خرج من الباب وإذا ليس معه إنسانٌ ، والتفت فإذا هو لا يحسّ أحداً يدلّه على الطريق ، ولا يدُلّه على منزل ولا يواسيه بنفسه إنْ عرض له عدوٌّ، فمضى على وجهه يتلدّد في أزقّة الكُوفة لا يَدرِي أين يَذهَب! حتى خرج إلى دُور بني جَبَلة من كِنْدة ، فمشى حتى انتهى إلى باب امرأة يقال لها طَوْعة - أم ولد كانت للأشعث بن قيس ، فأعتَقَها ، فتزوّجها الحضرميّ فولدتْ له بلالاً ، وكان بلالٌ قد خرج مع الناس وأمه قائمة تنتظره - فسلَّم عليها ابن عَقِيل، فردّت عليه ، فقال لها : يا أمة الله ، اسقيني ماءً ، فدخلت فسقته ، فجلس وأدخلت الإناء ، ثم خرجت فقالت : يا عبدالله ألم تشرب! قال: بلَى، قالت: فاذهب إلى أهلك؛ فسكت؛ ثم عادت فقالت مثلَ ذلك، فسكت؛ ثم قالت له: فيَّ الله ، سبحان الله يا عبدالله! فمرّ إلى أهلك عافاك الله؛ فإنه لايصلح لك الجلوسُ على بابي ، ولا أحلّه لك ؛ فقام فقال: يا أَمَة الله، ما لي في هذا المصر منزلٌ ولا عشيرة؛ فهل لكِ إلى أجر ومعروف ، ولعلّي مكافئك به بعد اليوم! فقالت: يا عبدالله ، وما ذاك؟ قال: أنا مسلم بن عَقيل ، كَذَبني هؤلاء القوم وَغرّوني ؛ قالت : أنت مسلم! قال: نعم. قالت: ادخُل، فأدخلتْه بيتاً في دارها غير البيت الذي تكون فيه، وفرشتْ له ، وعرضتْ عليه العَشاء فلم يتعشَّ ، ولم يكن بأسرعَ من أن جاء ابنها فرآها تُكثر الدخولَ في البيت والخروجَ منه ، فقال : والله إنه ليَريبني كثرةُ دخولكِ هذا البيتَ منذ الليلة وخروجك منه! إن لكِ لشأناً ؛ قالت : يا بنيّ ، الْهُ عن هذا ؛ قال لها : والله لتخبرنّي : قالت : أقبلْ عَلَى شأنك ولا تسألني عن شيء ، فألحّ عليها ، فقالت : يا بنيّ ، لا تحدّثنّ أحداً من الناس بما أخبرك به؛ أخذتْ عليه الأيمان ، فحلف لها ، فأخبرتْه ، فاضطجع وسكت - وزَعَموا أنه قد كان شريداً من الناس. وقال بعضهم: كان يشرب مع أصحاب له - ولما طال على ابن زياد، وأخذ لا يسمع لأصحاب ابن عَقيل صوتاً كما كان يسمعه قبل ذلك قال لأصحابه: أشرفوا فانظروا هَلْ تَرَوْن منهم أحداً! فأشرفوا فلم يَرَوْا أحداً ؛ قال: فانظروا لعلَّهم تحت الظلال قد كَمَنوا لكم ؛ فَفَرَعوا بَحابحَ المسجد ، وجعلوا يخفضون شُعَلَ النار في أيديهم ، ثم ينظرون: هل في الظلال أحدٌ؟ وكانت أحياناً تُضيء لهم ، وأحياناً لا تُضيء لهم كما يريدون ، فدلّوا القناديل وأنصاف الطِّنان تشدّ بالحبال، ثم تُجعل فيها النيران ، ثم تُدَلّى ، حتى تنتهي إلى الأرض ، ففعلوا ذلك في أقصى الظلال وأدناها وأوسطها حتى فعلوا ذلك بالظُّلّة التي فيها المنبر ، فلما لم يروْا شيئاً أعلموا ابنَ زياد، ففتح باب السُّدّة التي في المسجد . ثم خرج فصعد المنبرَ ، وخرج أصحابُه معه ، فأمرهم فجلسوا حوله قبيْل العَتَمة ، وأمر عَمرو بن نافع فنادى : ألا بَرِئتْ الذّمة من رجل من الشّرْطة والعُرفاء أو المناكب أو المقاتلة صلّى العَتَمة إلاّ في المسجد ؛ فلم يكن له إلاّ ساعة حتى امتلأ المسجد من الناس؛ ثم أمر مناديَه فأقام الصلاةَ، فقال الحُصَين بن تميم : إن شئتَ صليتَ بالناس، أو يصلّي بهم غيرُك، ودخلتَ أنت فصلَّيتَ في القصر، فإني لا آمن أن يغتالك بعضُ أعدائك! فقال: مُرْ حَرَسي فلْيقوموا ورائي كما كانوا يقفون، ودُرْ فيهم فإني لست بداخل إذاً. فصلّى بالناس، ثم قام فحمد اللّهَ وأثنَى عليه ثم قال: أما بعد، فإنّ

ابن عَقيل السفيه الجاهل، قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق، فبرئت ذمّة الله من رجل وجدْناه في داره، ومَنْ جاء به فله دِيَتُه. اتقوا الله عباد الله، والزَموا طاعتكم وبَيعتَكم، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً. يا حُصين بن تميم، ثَكلتْك أمّك إنْ صاح بابُ سكّةٍ من سكك الكُوفة، أو خرج هذا الرجل ولم تأتني به؛ وقد سلَّطتُك على دُور أهل الكوفة، فابعث مُراصِدةً على أفواه السكَك، وأصبِحْ غداً واستَبْرِ الدُّور وجُسْ خلالَها حتى تأتيَني بهذا الرجل ـ وكان الحصين على شُرَطه، وهو من بني تميم ـ ثم نزل ابن زياد فدخل وقد عقد لعَمرو بن حُرَيْث رايةً وأمَّره على الناس، فلما أصبح جلس مجلسه وأذن للناس فدخلوا عليه، وأقبل محمد بن الأشعث فقال: مَرحَباً بمن لا يُسْتَغَشّ ولا يُتَّهَم! ثم أقعده إلى جنبه، وأصبح ابن تلك العجوز وهو بلال بن أسِيد الذي آوت أمه ابنَ عقيل، فغدا إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فأخبَرَه بمكان ابن عَقِيل عند أمه؛ قال: فأقبل عبد الرحمن حتى أتى أباه وهو عند ابن زياد، فسارّه، فقال له ابن زياد: ما قال لك؟ قال: أخبرني أنّ ابن عَقِيل في دار من دورنا، فَنَخَس بالقضيب في جَنْبه ثم قال: قم فأتني به الساعة.

قال أبو مخنف: فحدّثني قُدامة بن سعيد بن زائدة بن قدامة الثقفي، أنّ ابن الأشعث حين قام ليأتيَه بابن عَقيل بعث إلى عمرو بن حُرَيْث وهو في المسجد خليفته على الناس؛ أنِ ابعَثْ مع ابن الأشعث ستين أو سبعين رجلاً كلهم من قَيْس ـ وإنما كره أن يبعث معه قومه لأنه قد علم أنّ كلّ قوم يَكرَهون أن يُصادَفَ فيهم مثل ابن عَقيل ـ فبعث معه عمرو بن عبيدالله بن عبّاس السُلَميّ في ستين أو سبعين من قَيْس، حتى أتوا الدارَ التي فيها ابن عَقِيل، فلما سمع وقعَ حَوافر الخيل وأصواتَ الرجال عَرَف أنه قد أُتِيَ، فخرج إليهم بسيفه، واقتحموا عليه الدار، فشدّ عليهم يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من الدار، ثم عادوا إليه، فشدّ عليهم كذلك، فاختلف هو وبُكَيْر بن حُمْران الأحْمَريّ ضربتين، فضرب بُكَيْر فَمَ مسلم فقطع شَفَتَه العُلْيا، وأَشْرَعَ السيفَ في السّفْلى، ونصلتْ لها ثنيَّتاه، فضربه مسلم ضربةً في رأسه مُنكَرة، وثَنى بأخرى على حبل العاتق كادت تَطلُع على جَوْفه. فلما رأوا ذلك أشرفوا عليه من فوق ظهر البيت، فأخذوا يرمُونه بالحجارة، ويُلْهبون النارَ في أطنان القصب، ثمّ يَقْلبونها عليه من فوق البيت، فلما رأى ذلك خرج عليهم مصْلتاً بسيفه في السكة فقاتلهم، فأقبل عليه محمد بن الأشعث فقال: يا فتى، لك الأمان، لا تَقْتُلْ نفسَك؛ فأقبَل يقاتلُهم، وهو يقول:

أَقْسَمْتُ لا أُقْتَلُ إلاَّ حُرَّا ... وإن رأيتُ المَوت شيئاً نُكْرَا
كُلُّ امرِىءٍ يوماً مُلاقٍ شرَّا ... ويُخلط البارد سُخْناً مُرَّا
رُد شُعاعَ الشمس فاستقرا ... أخافُ أن أُكْذَبَ أو أُغَرا

فقال له محمد بن الأشعث: إنك لا تُكْذَب ولا تُخْدَع ولا تُغرّ، إنّ القوم بنو عمِّك، وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك، وقد أُثْخِن بالحجارة، وعجز عن القتال وانْبَهَر، فأسند ظهره إلى جنب تلك الدار؛ فدنا محمد بن الأشعث فقال: لك الأمان، فقال: آمنٌ أنا؟ قال: نعم؛ وقال القوم: أنت آمنٌ؛ غير عمرو بن عبيدالله بن العباس السلَميّ فإنه قال: لا ناقةَ لي في هذا ولا جَمَل، وتنحّى.

وقال ابن عَقِيل: أما لو لم تؤمِّنوني ما وضعتُ يدي في أيديكم. وأُتِيَ ببغلة فحُمل عليها، واجتمعوا حولَه، وانتزعوا سيفَه من عنقه، فكأنه عند ذلك آيسٌ من نفسه، فدمَعَت عيناه، ثم قال: هذا أوّل الغدر؛

قال محمد بن الأشعث : أرجو ألّا يكون عليك بأس ؛ قال : ما هو إلّا الرّجاء ؛ أين أمانُكم ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! وبكى ؛ فقال له عَمرو بن عُبيد الله بن عباس : إنّ من يطلب مثلَ الذي تطلب إذا نزل به مثْلُ الذي نزل بك لم يَبكِ ، قال : إنّي واللّهِ ما لنفسي أبكي ، ولا لها منَ القتل أرْثِي ، وإن كنت لم أحبَّ لها طُرْفة عين تلفاً ، ولكن أبكي لأهلي المُقْبلين إليَّ ، أبكي لحسين وآلِ حسين! ثم أقبل على محمد بن الأشعث فقال: يا عبدَالله ، إني أراك والله ستعجز عن أماني، فهل عندك خير! تستطيع أن تبعث من عندِك رجلاً على لساني يبلغ حسيناً ، فإني لا أراه إلّا قد خرج إليكم اليوم مقبلاً ، أو هو خرج غداً هو وأهلُ بيته ، وإنّ ما ترى من جزعي لذلك، فيقول: إنّ ابن عَقِيل بعثني إليك، وهو في أيدي القوم أسير لا يَرَى أن تمشيَ حتى تُقتل، وهو يقول: ارجعْ بأهل بيتك، ولا يغرّك أهلُ الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنّى فراقَهم بالموت أو القتل؛ إنّ أهلَ الكوفة قد كذَبوك وكذَبوني، وليس لمكذَّب رأي ؛ فقال ابن الأشعث : والله لأفعلنّ، ولأعلمنّ ابنَ زياد أني قد أمّنتُك.

قال أبو مخنف : فحدّثني جعفر بن حُذيفة الطائي ـ وقد عرف سعيد بن شيبان الحديث ـ قال: دعا محمد بن الأشعث إياس بن العثل الطائي من بني مالك بن عَمرو بن ثمامة ، وكان شاعراً ، وكان لمحمد زَوّاراً، فقال له : اِلْقَ حسيناً فأبلغه هذا الكتاب، وكتب فيه الذي أمره ابن عَقِيل، وقال له: هذا زادُك وجَهازُك ، ومُتْعة لعيالك ؛ فقال: من أين لي براحلة ، فإنّ راحلتي قد أنضيْتُها؟ قال: هذه راحلة فاركَبها برَحلها . ثم خرج فاستقبله بزُبالةَ لأربع ليال ، فأخبره الخبر ، وبلّغه الرسالة ، فقال له حسين : كلُّ ما حُمّ نازل ، وعند الله نحتسب أنفسَنا وفساد أمّتنا .

وقد كان مسلم بن عَقِيل حيث تحوَّل إلى دار هانىء بن عروة وبايَعه ثمانية عشر ألفاً، قدّم كتاباً إلى حسين مع عابس بن أبي شبيب الشاكري : أما بعد ، فإن الرائد لا يَكْذِب أهلَه ، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فعجّلِ الإقبالَ حين يأتيك كتابي ، فإنّ الناس كلهم معك ، ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هَوًى ؛ والسلام .

وأقبل محمد بن الأشعث بابن عَقِيل إلى باب القصر، فاستأذن فأذِن له ، فأخبر عبيدالله خبرَ ابن عَقِيل وضرب بُكَيْر إياه ، فقال: بُعْداً له! فأخبره محمد بن الأشعث بما كان منه وما كان من أمانه إيّاه ، فقال عبيدالله : ما أنت والأمان ! كأنا أرسلْناك تؤمِّنُه ! إنما أرسلنا لتأتيَنا به ؛ فسكت . وانتهى ابن عَقِيل إلى باب القصر وهو عطشان ، وعلى باب القصر ناسٌ جلوس ينتظرون الإذنَ، منهم عمارة بن عُقبة بن أبي مُعَيْط ، وعمرو بن حُريث ، ومسلم بن عمرو ، وكثير بن شهاب .

قال أبو مخنف : فحدّثني قُدامة بن سعد أنّ مسلم بن عَقيل حين انتهى إلى باب القصر فإذا قُلّة باردة موضوعة على الباب ، فقال ابن عَقِيل : اسقُوني من هذا الماء، فقال له مسلم بن عَمرو : أتراها ما أبردها! لا والله لا تذوق منها قطرةً أبداً حتى تذوقَ الحميم في نار جهنّم ! قال له ابن عَقِيل : وَيْحك ! مَنْ أنت ؟ قال : أنا ابن مَن عرفَ الحقّ إذ أنكرتَه، ونصحَ لإمامه إذْ غششتَه ، وسمع وأطاع إذ عصيتَه وخالفتَ ، أنا مسلم بن عَمرو الباهليّ ؛ فقال ابن عَقِيل : لأمّك الثكْلُ! ما أجفاك ، وما أفظَّك ؛ وأقسَى قلبَك وأغلَظك! أنت يابن باهلة أوْلى بالحميم والخلود في نار جهنم مني ؛ ثم جلس متسانداً إلى حائط .

قال أبو مخنف: فحدّثني قُدامة بن سعد أنّ عمرو بن حُريث بعث غلاماً يُدعَى سليمان ، فجاءَه بماء في قُلّة فسقاه .

قال أبو مخنف : وحدّثني سعيد بن مدرك بن عُمارة ، أن عُمارة بن عُقبة بعث غلاماً له يُدعى قيْساً ، فجاءه بقُلّة عليها منديل ومعه قَدَح فصبّ فيه ماءً ، ثم سقاه ، فأخذ كلّما شرب امتلأ القدح دماً ، فلما ملأ القدحَ المرّة الثالثة ذهب ليشرب فسقطتْ ثنيّتاه فيه ، فقال : الحمد لله ! لو كان لي من الرزق المقسوم شربتُه . وأدخِل مسلمٌ على ابن زياد فلم يسلّم عليه بالإمْرة ، فقال له الحَرَسيّ : ألا تسلّم على الأمير ! فقال له : إن كان يريد قتلي فما سَلامي عليه ! وإن كان لا يريد قتلي فلَعَمري ليَكثُرنّ سلامي عليه ؛ فقال له ابن زياد : لَعَمري لتُقْتَلنّ ؛ قال : كذلك؟ قال: نعم؛ قال: فدَعني أوصِ إلى بعض قومي ، فنظر إلى جلساءِ عبيد الله وفيهم عمر بن سعد ، فقال : يا عمر ، إنّ بيني وبينك قرابةً ، ولي إليك حاجة ، وقد يجب لي عليك نُجْحُ حاجتي ، وهو سرّ ، فأبى أن يمكّنه من ذكرها ، فقال له عبيد الله : لا تمتنع أنْ تنظر في حاجة ابن عمّك، فقام معه فجلس حيث ينظر إليه ابن زياد ، فقال له : إنّ عليَّ بالكوفة دَيْناً استدنتُه منذ قدمتُ الكوفةَ ، سبعمائة درهم ، فاقضها عني ، وانظر جُثّتي فاستوهبْها من ابن زياد ، فوارِها ، وابعثْ إلى حسين مَنْ يردّه ، فإني قد كتبتُ إليه أعلمه أن الناس معه ، ولا أراه إلاّ مقبلاً؛ فقال عمر لابن زياد: أتدري ما قال لي؟ إنه ذَكر كذا وكذا ؛ قال له ابن زياد : إنه لا يخونُك الأمينُ ، ولكن قد يُؤتَمن الخائن ، أمّا مالُكَ فهو لك ، ولسنا نمنعك أن تصنع فيه ما أحببتَ ؛ وأما حسين فإنه إن لم يُرِدْنا لم نُرِدْه ، وإن أرادنا لم نكفّ عنه ، وأما جُثّته فإنا لن نشفّعك فيها ، إنه ليس بأهل منّا لذلك ، قد جاهَدَنا وخالَفنا ، وجَهَد على هلاكنا . وزعموا أنه قال : أما جُثّته فإنّا لا نبالي إذ قتلناه ما صُنع بها .
ثم إنّ ابن زياد قال: إيهٍ يابنَ عَقيل! أتيتَ الناس وأمرُهم جميع ، وكَلِمتُهم واحدة ، لتُشتّتَهم ، وتُفرّق كلمتَهم ، وتَحمل بعضَهم على بعض! قال : كلاّ ، لستُ أتيتُ ، ولكنّ أهل المِصْر زعموا أنّ أباك قتَلَ خيارَهم ، وسفك دماءَهم ، وعَمل فيهم أعمالَ كسرَى وقيصرَ ، فأتيناهم لنأمُر بالعدل ونَدعَو إلى حكم الكتاب ، قال : وما أنت وذاك يا فاسقُ! أوَلم نكن نعمل بذاك فيهم إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر ! قال : أنا أشرب الخمر! واللّهِ إنّ الله ليعلم أنك غيرُ صادق، وأنك قلتَ بغير علم، وأني لستُ كما ذكرتَ. وإنّ أحقّ بشرب الخمر مني وأوْلى بها مَن يَلَغُ في دماء المسلمين ولْغاً، فيقتل النفس التي حرّم الله قتلَها، ويَقتُل النفسَ بغير النفس، ويَسفك الدَم الحرام، ويَقتل على الغضَب والعداوة وسوء الظنّ، وهو يلهو ويلعب كأنْ لم يصنع شيئاً.
فقال له ابن زياد: يا فاسق، إنّ نفسك تمنّيك ما حالَ اللّهُ دونه، ولم يَرَك أهلَ ؛ قال: فمن أهلُه يابن زياد؟ قال: أمير المؤمنين يزيد فقال: الحمد لله على كلّ حال، رضِينا بالله حَكَماً بيننا وبينكم؛ قال كأنك تظنّ أنّ لكم في الأمر شيئاً! قال: والله ما هو بالظنّ، ولكنه اليقين؛ قال: قتلني اللّهُ إن لم أقتلك قِتلةً لم يُقْتَلها أحدٌ في الإسلام! قال: أما إنك أحقّ مَنْ أحدث في الإسلام ما لم يكن فيه، أما إنك لا تَدَعُ سوءَ القِتْلة، وقبح المُثْلة، وخُبثَ السيرة، ولؤم الغلبة، ولا أَحَد من الناس أحقّ بها منك. وأقبل ابن سُمية يَشتمه ويَشتم حسيناً وعليًّا وعَقيلاً، وأخذ مسلم لا يكلّمه. وزعم أهلُ العلم أنّ عبيدالله أمر له بماء فسُقِيَ بخَزفةٍ، ثم قال له: إنه لم يمنعْنا أن نسقيَك فيها إلاّ كراهة أن تحرَّم بالشرب فيها، ثم نقتلك، ولذلك سقيناك في هذا، ثم قال: اصْعَدوا به فوق القصر فاضربوا عنقَه، ثم أتبعوا جسدَه رأسَه، فقال: يابن الأشعث، أما والله لولا أنك آمنتَني ما استسلمت؛ قمْ بسيفك دوني فقد أخفِرَتْ ذمّتُك، ثم قال: يابن زياد، أما والله لو كانت بيني وبينك قرابة ما قتلتَني؛ ثم قال

ابن زياد: أين هذا الذي ضرب ابنُ عَقيل رأسَه بالسيف وعاتقَه؟ فدُعِيَ، فقال: اصْعَدْ فكن أنت الذي تضرب عنقَه، فصُعِد به وهو يكبّر ويستغفر ويصلّي على ملائكة الله ورسله وهو يقول: اللهم احكم بيننا وبين قوم غرّونا وكَذَّبونا وأذَلّونا. وأشرف به على موضع الجَزّارين اليوم، فضُربت عُنُقُه، وأتبع جسده رأسه.

قال أبو مخنف: حدّثني الصقعب بن زهير، عن عون بن أبي جُحَيْفة قال: نزل الأحمَريّ بُكَيْر بن حُمران الذي قتل مسلماً، فقال له ابن زياد: قتلتَه؟ قال: نعمْ، قال: فما كان يقول وأنتم تصعدون به؟ قال: كان يكبِّر ويسبّح ويستغفر، فلمّا أدنيتُه لأقتلَه قال: اللهمّ احكم بيننا وبين قوم كذَبونا وغرُّونا وخَذَلونا وقتلونا؛ فقلت له: ادنُ منّي، الحمد لله الذي أقادني منك، فضربته ضربة لم تغن شيئاً؛ فقال أما ترى في خدش تَخدِشُنيه وفاءً من دمك أيها العبد! فقال ابن زياد: أَوَفخراً عند الموت! قال: ثمّ ضربتُه الثانية فقتلتُه.

قال: وقام محمَّد بن الأشعث إلى عبيدالله بن زياد فكلّمه في هانىء بن عُروة، وقال: إنك قد عرفتَ منزلةَ هانىء بن عروة في المصْر، وبيْتَه في العشيرة، وقد علم قومُه أني وصاحبي سُقناه إليك، فأنشدك اللّهَ لَمّا وهبتَه لي، فإنّي أكره عداوةَ قومه، هم أعزّ أهل المِصْر، وعُدَدُ أهل اليَمَن!

قال: فوعده أن يفعل، فلما كان من أمر مسلم بن عَقيل ما كان، بدا له فيه، وأبَى أن يفيَ له بما قال.

قال: فأمر بهانىء بن عُروة حين قُتِل مسلم بن عَقِيل فقال: أخرجوا إلى السوق فاضربوا عنقَه، قال: فأخرِج بهانىء حتى انتهى إلى مكان من السوق كان يُباع فيه الغَنَم وهو مكتوف، فجعل يقول: وامَذْحِجاه! ولا مَذحجَ لي اليوم! وامَذْحجاه؛ وأين مني مَذحج! فلما رأى أنّ أحداً لا ينصره جذَبَ يدَه فنزعها من الكتاف، ثم قال: أما من عصاً أو سكّين أو حجر أو عظم يُجاحش به رجلٌ عن نفسه!

قال: ووثبوا إليه فشدُّوه وَثاقاً، ثم قيل له: امْدُد عنقَك، فقال: ما أنا بها مُجْدٍ سَخيّ، وما أنا بمعينِكم على نفسي.

قال: فضربه مولًى لعُبيد الله بن زياد ـ تركيّ يقال له رشيد ـ بالسيف، فلَم يصنع سيفُه شيئاً، فقال هانىء: إلى الله المَعاد! اللهمّ إلى رحمتك ورضوانِك! ثم ضربه أخرى فقتلَه.

قال: فبَصُر به عبدالرحمن بن الحصين المراديّ بخازِرَ، وهو مع عُبيد الله بن زياد؛ فقال الناس: هذا قاتلُ هانىء بن عُروة؛ فقال ابن الحصين: قتلني الله إنْ لم أقتلْه أو أقتلَ دونَه! فحَمَل عليه بالرُّمح فطعنه فقَتلَه. ثم إن عُبيد الله بن زياد لما قتل مسلم بن عَقِيل وهانىء بن عُروة دعا بعبدالأعلى الكلبيّ الذي كان أخذه كَثِير بن شهاب في بني فِتْيان، فأُتِيَ به، فقال له: أخبرني بأمرك؛ فقال: أصلَحَك الله! خرجتُ لأنظرَ ما يصنع الناس، فأخذني كثير بن شهاب؛ فقال له: فعليك وعليك، من الأيمان المغلّظة، إن كان أخرجك إلا ما زعمت! فأبَى أن يَحلِف، فقال عُبيد الله: اِنطلِقوا بهذا إلى جبّانة السَّبِيع فاضربوا عنقه بها؛ قال: فانطلقَ به فضُربت عنقه؛ قال: وأخرج عمارة بن صِلخب الأزدي ـ وكان ممن يريد أن يأتي مسلم بن عَقِيل بالنصرة لينصرَه ـ فأتِيَ به أيضاً عبيدالله فقال له: ممّن أنت؟ قال: من الأزد. قال: انطلقوا به إلى قومه، فضُربتْ عنقُه فيهم، فقال عَبدالله بن الزَّبير الأسديّ في قِتلةِ مُسلم بن عَقيل وهانىء بن عُروة المرادي ـ ويقال: قاله

الفرزدق :

إن كنت لا تدرينَ ما الموتُ فانظري ... إلى هانىء في السُّوقِ وآبن عقيل
إلى بطَل قد هشَّمَ السيفُ وجْهَهُ ... وآخر يهْوي من طَمار قَتيل
أصابَهما أمْرُ الأمير فأصبحا ... أحاديثَ من يَسْري بكلِّ سبيل
ترىْ جسداً قد غيَّرَ الموتُ لونَهُ ... ونَضْحَ دمٍ قد سال كلَّ مسيل
فتىً هو أحْيا من فتاةٍ حَيِيَّة ... وأقطعُ من ذي شَفرتَين صقيل
أيَرْكَبُ أسماءُ الهماليجَ آمِناً ... وقد طلبتْه مَذْحِجٌ بِذُحول !
تُطِيفُ حواليْه مُرادٌ وكلُّهم ... على رِقْبة من سائل وَمَسُول
فإنْ أنتُم لم تَثأَروا بأخيكُمُ ... فكونوا بغايَا أُرْضِيَتْ بقليل

قال أبو مخنف: عن أبي جَناب يحيى بن أبي حيّة الكلبي ، قال : ثم إن عبيدالله بن زياد لما قتل مسلماً وهانئاً بعث برؤوسهما مع هانىء بن أبي حيّة الوادعي والزبير بن الأروح التميميّ إلى يزيدَ بن معاوية ، وأمرَ كاتبَه عمرو بن نافع أن يكتب إلى يزيدَ بن معاوية بما كان من مسلم وهانىء ، فكتب إليه كتاباً أطال فيه ـ وكان أولَ مَن أطال في الكتب ـ فلما نظر فيه عُبيد الله بن زياد كرهه وقال : ما هذا التطويل وهذه الفضول؟ اكتُب :

أمّا بعد ، فالحمد لله الذي أخذ لأمير المؤمنين بحقه ، وكفاه مؤنة عدوّه . أخبر أميرَ المؤمنين أكرَمه الله أن مسلم بن عَقِيل لجأ إلى دار هانىء بن عروة المُراديّ ، وأنّي جعلت عليهما العيون ، ودسستُ إليهما الرجال ، وكِدْتُهما حتى استخرجتُهما ، وأمكن الله منهما ، فقدّمتهما فضربتُ أعناقهما ، وقد بعثتُ إليك برؤوسهما مع هانىء بن أبي حيّة الهَمْدانيّ والزبير بن الأرْوَح التيميمي ـ وهما من أهل السمع والطاعة والنصيحة ـ فليسألهما أميرُ المؤمنين عما أحبّ من أمر، فإن عندهما عِلماً وصدقاً، وفَهْماً وورَعاً ؛ والسلام .

فكتب إليه يزيد : أما بعد ، فإنك لم تَعْدُ أن كنتَ كما أحبّ ، عملتَ عملَ الحازم ، وصُلتَ صَوْلة الشجاع الرابِط الجأش ، فقد أغنيتَ وكفيتَ ، وصدّقتَ ظنّي بك ، ورأيي فيك ، وقد دعوتُ رسولَيْك فسألتُهما ، وناجيتُهما فوجدتهما في رأيهما وفضلهما كما ذكرت ؛ فاستَوصِ بهما خيراً ، وإنه قد بلغني أن الحسين بن عليٍّ قد توجّه نحو العراق ؛ فضَعِ المَناظر والمَسالح ، واحترس على الظنّ، وخُذ على التهمة ، غير ألَّا تقتل إلَّا من قاتلك ، واكتب إليَّ في كل ما يَحدُث من الخبر ؛ والسلام عليك ورحمة الله .

قال أبو مخنف : حدّثني الصقعب بن زهير ، عن عون بن أبي جُحَيفة ، قال : كان مُخرَج مسلم بن عَقِيل بالكوفة يوم الثلاثاء لثمانِ ليال مضينَ من ذي الحجّة سنة ستين ـ ويقال يوم الأربعاء لسبع مضَيْن سنة ستين من يوم عرفة بعد مُخرَج الحسين من مكة مقبلاً إلى الكوفة بيوم ـ قال: وكان مُخرَج الحسين من المدينة إلى مكة يومَ الأحد لليْلتين بقيَتَا من رجب سنة ستّين ، ودخل مكة ليلَة الجمعة لثلاث مضَين من شعبان ، فأقام بمكة شعبان وشهر رمضان وشوّالاً وذا القعدة، ثم خرج منها لثمانٍ مضَين من ذي الحجة يوم الثلاثاء يوم التَرْوِية في اليوم الذي خرج فيه مسلم بن عَقِيل .

وذكر هارون بن مسلم ، عن علي بن صالح ، عن عيسى بن يزيد ، أن المختار بن أبي عُبيد وعبدالله بن الحارث بن نوفل كانا خرجا مع مسلم، خرج المختار براية خضراء ، وخرج عبدُالله براية حمراء، وعليه ثياب

حُمْر ، وجاء المختار برايته فركزها على باب عَمرو بن حُريث ، وقال : إنما خرجتُ لأمنع عمراً ، وإن ابن الأشعث والقعقاع بن شَوْر وشَبَث بن رِبعيّ قاتلوا مسلماً وأصحابَه عشيّة سار مسلم إلى قصر ابن زياد قِتالاً شديداً ، وأن شَبَثاً جعل يقول : انتظروا بهم الليل يتفرقوا ؛ فقال له القعقاع : إنك قد سددتَ على الناس وجهَ مصيرِهم ، فافرُج لهم يَنسرِبوا ؛ وإن عُبيدالله أمر أن يطلب المختار وعبدالله بن الحارث ، وجعل فيهما جُعْلا ، فأتيَ بهما فحُبِسا .

وفي هذه السنة كان خروج الحسين عليه السلام من مكّة متوجِّهاً إلى الكوفة .

ذكر الخبر عن مسيره إليها وما كان من أمره في مسيره ذلك :

قال هشام عن أبي مخنف : حدثني الصقعب بن زهير ، عن عمر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ، قال : لما قدمتْ كتُب أهلِ العراق إلى الحسين وتهيّأ للمسير إلى العراق ، أتيتُه فدخلتُ عليه وهو بمكة ، فحمِدت الله وأثنيتُ عليه ، ثم قلت : أما بعد ، فإني أتيتك يابن عم لحاجة أريد ذكرَها لك نصيحة ، فإن كنتَ ترى أنك تستنصحني وإلاّ كففتُ عما أريد أن أقول ؛ فقال : قل ، فوالله ما أظنك بسيّىء الرأي ، ولا هوٍ للقبيح ، الأمر والفِعل ؛ قال : قلت له : إنه قد بلغني أنك تريد المسير إلى العراق ، وإني مشفقٌ عليك من مسيرك ؛ إنك تأتي بلداً فيه عماله وأمراؤه ، ومعهم بيوتُ الأموال ، وإنما الناسُ عَبيدٌ لهذا الدرهم والدينار ، ولا آمَنُ عليك أن يقاتلك مَن وعدك نصرَه ، ومَن أنت أحبّ إليه ممن يقاتلك معه ؛ فقال الحسين : جزاك الله خيراً يابن عمّ ؛ فقد واللّهِ علمتُ أنك مشيتَ بنُصح ، وتكلّمت بعقل ، ومهما يُقضَ من أمر يكن ، أخذتُ برأيك أو تركتُه ، فأنت عندي أحمدُ مُشيرٍ ، وأنصَح ناصح .

قال : فانصرفتُ من عنده فدخلت على الحارث بن خالد بن العاص بن هشام ، فسألني : هل لقيتَ حسيناً؟ فقلت له : نعم ؛ فقال : فما قال لك ، وما قلت له؟ قال : فقلت له : قلت كذا وكذا ، وقال كذا وكذا ؛ فقال : نصحتَه وربِّ المَرْوَة الشَّهباء ، أما وربِّ البنيَّة إنّ الرأي لَمَا رأيتَه ، قَبِلهُ أو تركه ، ثم قال :

رُبَّ مستنصَحٍ يَغُشُّ ويُرْدِي ... وظَنِينٍ بالغَيْبِ يُلْفَى نَصِيحَا

قال أبو مخنف : وحدثني الحارث بن كعب الوالبيّ ، عن عقبة بن سِمْعان ، أن حسيناً لما أجمع المسير إلى الكوفة أتاه عبدالله بن عباس فقال : يابن عمّ ، إنك قد أرجف الناسُ أنك سائر إلى العراق ، فبيِّن لي ما أنت صانع؟ قال : إني قد أجمعتُ المسير في أحد يومَيّ هذين إن شاء الله تعالى ؛ فقال له ابن عبّاس : فإني أعيذك بالله من ذلك ، أخبِرْني رحمك الله ! أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرَهم ، وضبطوا بلادهم ، ونَفَوْا عَدُوَّهم؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسِرْ إليهم ، وإن كانوا إنما دَعَوْك إليهم وأميرُهم عليهم قاهر لهم ، وعمّاله تَجبِي بلادَهم ، فإنهم إنما دعَوك إلى الحرب والقتال ، ولا آمَن عليك أن يغرُّوك ويكذبوك ، ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشدّ الناس عليك ؛ فقال له حسين : وإني أستخير الله وأنظر ما يكون .

قال : فخرج ابن عباس من عنده ، فأتاه ابن الزبير فحدّثه ساعةً ، ثم قال : ما أدري ما تَرْكُنا هؤلاء القوم وكفُّنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين ، ووُلاة هذا الأمر دونهم ! خبِّرْني ما تريد أن تصنع ؟ فقال الحسين : واللّهِ لقد حدّثتُ نفسي بإتيان الكوفة ، ولقد كَتب إلي شِيعتي بها وأشرافُ أهلِها ، وأستخير الله ، فقال له ابن

الزبير : أما لو كان لي بها مثلُ شيعتك ما عدلتُ بها ؛ قال : ثم إنه خَشيَ أن يتّهمه فقال: أما إنك لو أقمتَ بالحجاز ثم أردتَ هذا الأمر ها هنا ما خُولفَ عليك إن شاء الله ؛ ثم قام فخرج من عنده ، فقال الحسين: ها إنّ هذا ليس شيء يُؤتاه من الدنيا أحبّ إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق ، وقد علم أنه ليس له من الأمر معي شيء ، وأن الناس لم يَعدِلوه بي، فودّ أني خرجت منها لتخلو له .

قال : فلما كان من العشيّ أو من الغدِ ، أتى الحسينُ عبدَالله بن العباس فقال : يابن عمّ إني أتصبّر ولا أصبر ، إني أتخوّف عليك في هذا الوجه الهلاكَ والاستئصال ؛ إن أهلَ العراق قوم غُدُر ، فلا تقربنّهم ، أقم بهذا البلد فإنك سيّد أهل الحجاز ؛ فإنْ كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفُوا عدوهم ، ثم أقدم عليهم ، فإن أبيْتَ إلاّ أنه تخرج فسر إلى اليَمَن فإن بها حصوناً وشِعاباً ، وهي أرضٌ عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس في عُزْلة ، فتكتب إلى الناس وترسل ، وتبثّ دُعاتك ، فإني أرجو أن يأتيَك عند ذلك الذي تحبُّ في عافية ؛ فقال له الحسين : يابن عمّ ، إني والله لأعلم أنك ناصحٌ مشْفِق ، ولكنّي قد أزمعتُ وأجمعتُ على المسير ؛ فقال له ابن عباس : فإن كنتَ سائراً فلا تَسِرْ بنسائك وصبْيَتك ، فوالله إني لخائف أن تُقْتَلَ كما قُتِل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه . ثم قال ابن عباس : لقد أقررتَ عينَ ابنِ الزبير بتخليَتك إياه والحجازَ والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحدٌ معك ، والله الذي لا إله إلاّ هو لو أعلم أنك إذا أخذتُ بشعرِك وناصيتِك حتى يجتمعَ عليٌّ وعليك الناسُ أطعتَني لفعلتُ ذلك. قال: ثم خرج ابن عباس من عنده ، فمرَّ بعبدالله بن الزبير ، فقال : قرَّت عينُك يابن الزبير ! ثم قال :

يا لكِ من قُبَّرة بمعْمَرِ خَلا لَكِ الجوُّ فبيضِي واصْفِرِي
ونَقِّري ما شِئتِ أنْ تُنَقِّري

هذا حسينٌ يخرج إلى العراق ، وعليك بالحجاز .

قال أبو مخنف: قال أبو جناب يحيى بن أبي حيّة ، عن عديّ بن حرملة الأسديّ ، عن عبدالله بن سُليم والمذرّي بن المشمعلّ الأسَديّين قالا : خرجنا حاجَّيْن من الكوفة حتى قدمنا مكة ، فدخلنا يوم التروِيَة ، فإذا نحن بالحسين وعبدِالله بن الزبير قائمين عند ارتفاع الضحى فيما بين الحُجْر والباب ، قالا : فتقرّبنا منهما ، فسمعنا ابن الزبير وهو يقول للحسين : إن شئتَ أن تقيم أقمت فولِّيتَ هذا الأمر ، فآزرناك وساعدناك ، ونصحْنا لك وبايعناك ؛ فقال له الحسين : إنّ أبي حدثني أن بها كبشاً يستحلّ حرمتها ، فما أحبّ أن أكون أنا ذلك الكبش ؛ فقال له ابن الزبير: فأقم إن شئتَ وتولّيني أنا الأمر فتطاع ولا تُعصَى ؛ فقال : وما أريد هذا أيضاً ؛ قالا : ثم إنّهما أخفَيَا كلامهما دوننا ، فما زالا يتناجَيان حتى سمعنا دعاء الناس رائحين متوجِّهين إلى منًى عند الظهر؛ قالا : فطاف الحسين بالبيت وبين الصَّفا والمروَة ، وقصَّ من شعره ، وحلّ من عُمرته ، ثم توجّه نحو الكوفة ، وتوجّهنا نحوَ الناس إلى مِنًى .

قال أبو مخنف: عن أبي سعيد عَقيصَى ، عن بعض أصحابه ، قال : سمعتُ الحسينَ بنَ عليّ وهو بمكة وهو واقف مع عبدالله بنِ الزُّبير ، فقال له ابن الزبير إليَّ يابن فاطمة ، فأصغَى إليه ، فسارّه ، قال: ثم التفت إلينا الحسين فقال : أتدرون ما يقول ابنُ الزبير؟ فقلنا : لا ندري ، جعلَنا الله فداك! فقال: قال : أقمْ في هذا المسجد أجمع لك الناس ؛ ثم قال الحسين : والله لأن أقتَلَ خارجاً منها بشِبْر أحبّ إليَّ من أن أقتَل

داخلاً منها بشبْر ، وايمُ الله لو كنت في جُحْر هامّة من هذه الهوامّ لاستخرجوني حتى يقضوا فيَّ حاجتهم ، ووالله ليَعتدُن عليَّ كما اعتدت اليهود في السَّبت .

قال أبو مخنف : حدّثني الحارث بن كعب الوالبيّ ، عن عُقبة بن سِمعان قال : لما خرج الحسين من مكة اعترضه رُسلُ عَمرو بن سعيد بن العاص ، عليهم يحيى بن سعيد ، فقالوا له : انصرِف ؛ أين تذهب! فأبى عليهم ومضى ، وتَدافَع الفريقان ، فاضطربوا بالسّياط . ثم إن الحسين وأصحابه امتنعوا امتناعاً قويًّا ، ومضى الحسين عليه السلام على وجهه ، فنادوه : يا حسين ، ألا تتقي الله! تَخرُج من الجماعة ، وتفرِّق بين هذه الأمة! فتأوَّل حسينٌ قولَ الله عزّ وجلّ : ﴿ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(١) .

قال : ثم إن الحسين أقبل حتى مرّ بالتَّنعيم ، فلقيَ بها عِيراً قد أقبِل بها من اليمن ، بعث بها بَحِير بن رَيْسان الحِميريّ إلى يزيدَ بن معاوية ، ـ وكان عامله على اليمن ـ وعلى العِير الوَرْس والحُلَل يُنطَلَق بها إلى يزيد فأخذها الحسين ، فانطلق بها ؛ ثم قال لأصحاب الإبل : لا أكرهكم ، مَن أحبَّ أن يمضيَ معنا إلى العراق أوْفينَا كِراءه وأحسنا صحبته ، ومَن أحبّ أن يفارقَنا من مكاننا هذا أعطيناه من الكِراء على قدر ما قطع من الأرض ؛ قال : فمن فارقه منهم حوسب فأوفِيَ حقّه ، ومَن مضى منهم معه أعطاه كِراءَه وكَساه .

قال أبو مخنف ؛ عن أبي جَناب ، عن عديّ بن حَرْملَه ، عن عبدالله بن سليم والمذري قالا : أقبلنا حتى انتهينا إلى الصِّفاح ، فلقينَا الفرزدق بن غـالب الشاعر ، فواقف حسيناً فقال له : أعطاك الله سُؤلَك وأملك فيما تحبّ ، فقال له الحسين : بَيّنْ لنا نبأ الناس خلفك ، فقال له الفرزدق : مِن الخبير سألتَ ، قلوبُ الناس معك ، وسيوفُهم مع بني أميّة ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء ؛ فقال له الحسين : صدقتَ ، لله الأمر ، والله يفعل ما يشاء ، وكلّ يوم ربُّنا في شأن ، إن نزل القضاء بما نحبّ فنحمَد الله على نَعمائه ، وهو المستعان على أداء الشكر ، وإن حال القضاء دون الرّجاء فلم يَعتدِ مَن كان الحقُّ نيّته ، والتقوى سريرته ، ثم حرّك الحسينُ راحلتَه فقال : السلام عليك ؛ ثم افترقا .

قال هشام ، عن عَوانة بن الحكم ، عن لَبَطة بن الفرزدق بن غالب ، عن أبيه ، قال :حججتُ بأمّي ، فأنا أسوق بعيرَها حين دخلت الحَرم في أيام الحجّ ، وذلك في سنة ستين ، إذ لقيت الحسينَ بن علي خارجاً من مكة معه أسيافه وتِراسُه ، فقلت : لمن هذا القطار؟ فقيل : للحُسين بن علي ، فأتيته فقلت : بأبي وأمي يا بن رسول الله! ما أعجَلك عن الحجّ؟ فقال : لو لم أعجل لأخِذتُ ،قال : ثم سألني : ممّن أنت؟ فقلت له : امْرؤٌ من العراق ؛ قال : فوالله ما فتّشني عن أكثرَ من ذلك ، واكتفى بها منّي ، فقال : أخبِرني عن الناس خلفك؟ قال : فقلت له : القلوب معك ، والسيوف مع بني أميّة ، والقضاء بيَد الله ؛ قال : فقال لي : صدقتَ ؛ قال : فسألته عن أشياءَ ، فأخبرني بها من نذور ومناسِك ؛ قَال : وإذا هو ثقيل اللسان من بِرسام أصابَه بالعراق ؛ قال : ثم مضيتُ فإذا بفُسطاط مضروب في الحَرم ، وهيئته حَسَنَة ، فأتيته فإذا هو لعبـدالله بن عَمرو بن العـاص ، فسألني ، فأخبرتُه بلقاء الحسين بن علي ، فقال لي : ويلك! فهلاّ اتّبعتَه ، فوالله ليملكنّ ، ولا يجوز السلاح فيه ولا في

(١) سورة يونس : ٤١ .

أصحابه ، قال: فهممت والله أن ألحق به ، ووقع في قلبي مقالته ، ثمّ ذكرت الأنبياءَ وقَتْلَهم ، فصدَّني ذلك عن اللَّحاق بهم ، فقدمتُ على أهلي بعُسْفانَ ، قال : فوالله إني لعندهم إذ أقبلتْ عِيرٌ قد امتارت من الكوفة ، فلما سمعتُ بهم خرجتُ في آثارهم حتى إذا أسمعتُهم الصوت وعجِلْتُ عن إتيانهم صرختُ بهم : ألا ما فعل الحسينُ بنُ علي ؟ قال: فردّوا عليَّ : ألا قد قُتل ؛ قال: فانصرفتُ وأنا ألعنُ عبدَالله بنَ عَمرو بن العاص؛ قال: وكان أهلُ ذلك الزمان يقولون ذلك الأمر، وينتظرونه في كلّ يوم وليلة . قال. وكان عبدُالله بنُ عمرو يقول : لا تبلغ الشجرة ولا النخلة ولا الصغير حتى يظهر هذا الأمر؛ قال: فقلت له : فما يمنعك أن تبيع الوَهْط؟ قال: فقال لي : لعنَةُ الله على فلان ـ يعني معاوية ـ وعليك؛ قال: فقلت: لا ، بل عليك لعنة الله ؛ قال: فزادني من اللعن ولم يكن عنده من حشمِهِ أحدٌ فألقى منهم شرًّا ؛ قال: فخرجتُ وهو لا يعرفني ـ والوَهْط حائطٌ لعبدالله بن عَمرو بالطائف ؛ قال : وكان معاوية قد ساوَمَ به عبدَالله بنَ عَمرو ، وأعطاه به مالاً كثيراً، فأبى أن يبيعه بشيء ـ قال: وأقبل الحسين مُغِذًّا لا يَلوِي على شيء حتى نزل ذاتَ عِرْق .

قال أبو مخنف: حدثني الحارث بن كعب الوالبي ، عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: لما خرجنا من مكة كتب عبدُالله بن جعفر بن أبي طالب إلى الحسين بن علي مع ابنيه : عَون ومحمد : أما بعد، فإني أسألك بالله لَمَّا انصرفت حين تنظر في كتابي، فإني مُشفِقٌ عليك من الوجه الذي توّجه له أن يكون فيه هلاكُك واستئصالُ أهلِ بيتك ، إن هلكتَ اليومَ طَفىء نورُ الأرض، فإنك عَلَمُ المهتدين ؛ ورجاء المؤمنين ؛ فلا تعجَل بالسير فإني في أثر الكتاب؛ والسلام .

قال : وقام عبدالله بنُ جعفر إلى عمرو بن سعيد بن العاص فكلّمه . وقال : اكتبْ إلى الحسين كتاباً تجعَل له فيه الأمان، وتمنّيه فيه البِرّ والصّلة ، وتوثق له في كتابك، وتسأله الرجوع لعله يطمئنّ إلى ذلك فيرجع ؛ فقال عَمرو بن سعيد : اكتب ما شئتَ وأتِني به حتى أختمَه ، فكتب عبدالله بن جعفر الكتاب، ثمّ أتى به عَمرو بن سعيد فقال له: اِختِمه ، وابعثْ به مع أخيك يحيى بن سعيد ، فإنه أحْرَى أن تطمئنّ نفسُه إليه ، ويعلم أنه الجِدّ منك ، ففعل ؛ وكان عَمرو بن سعيد عاملَ يزيدَ بن معاوية على مكة ؛ قال : فلحقه يحيى وعبدالله بن جعفر، ثم انصرفا بعد أن أقرأه يحيى الكتاب، فقالا : أقرأناه الكتاب، وجهدْنا به ، وكان مما اعتَذَر به إلينا أن قال: إني رأيتُ رؤيا فيها رسولُ الله ﷺ ، وأمِرت فيها بأمر أنا ماضٍ له ، عليَّ كان أوْ لي؛ فقالا له : فما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدّثت أحداً بها، وما أنا محدّث بها حتى ألقَى ربِّي .

قال : وكان كتاب عَمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عَمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي، أما بعد، فإني أسأل الله أن يصرفك عمّا يوبقُك ،وأن يهديك لما يرشدُك؛ بلغني أنك قد توجّهت إلى العراق ، وإني أعيذك بالله من الشقاق ، فإنّي أخاف عليك فيه الهلاك ، وقد بعثتُ إليكَ عبدَالله بنَ جعفر ويحيى بن سعيد ، فأقبِلْ إليَّ معهما ، فإنّ لك عندي الأمان والصّلة والبِرّ وحُسن الجِوار لك ، الله عليَّ بذلك شهيدٌ وكفيلٌ ، ومُراعٍ ووكيلٌ ؛ والسلام عليك .

قال: وكتب إليه الحسين: أما بعد؛ فإنه لم يشاقِقِ الله ورسوله مَنْ دعا إلى الله عزّ وجلّ وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ؛ وقد دعوتَ إلى الأمان والبرّ والصّلة ، فخير الأمان أمانُ الله ، ولن يؤمِنَ الله يومَ القيامة مَن لم يخفْه في الدّنيا ، فنسأل الله مخافةً في الدنيا تُوجب لنا أمانة يومَ القيامة ، فإن كنتَ نويّت بالكتاب صلتي وبرّي ، فجُزيتَ خيراً في الدنيا والآخرة ، والسلام .

رجع الحديث إلى حديث عمار الدهني عن أبي جعفر. فحدثني زكرياء بن يحيى الضرير، قال: حدّثنا أحمد بن جناب المَصّيصي قال: حدّثنا خالد بن يزيدَ بن عبدالله القسري قال: حدّثنا عمار الدُّهني قال: قلت لأبي جعفر: حَدّثني عن مَقتلِ الحسين حتى كأني حضرته ؛ قال: فأقبَل حسينُ بن علي بكتاب مسلم بن عَقيل كان إليه ، حتى إذا كان بينه وبين القادسية ثلاثة أميال ، لقيَه الحُرّ بن يزيدَ التميمي ، فقال له : أين تريد؟ قال: أريد هذا المِصْر ؛ قال له : ارجع فإني لم أدعْ لك خلفي خيراً أرجوه ، فهمّ أن يرجع ، وكان معه إخوةُ مسلم بن عَقِيل ، فقالوا : واللّهِ لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نُقتَل ؛ فقال : لا خيرَ في الحياة بعدَكم ! فسار فَلَقِيَتْه اوائلُ خيلِ عُبيد الله ، فلما رأى ذلك عَدَل إلى كرْبَلاء فأسند ظهرَه إلى قصباء وخَلاً كيْلا يقاتل إلاَّ من وجه واحد، فنزل وضرب أبنيَتَه ، وكان أصحابُه خمسةً وأربعين فارساً ومائة راجل ، وكان عُمر بن سعد بن أبي وقاص قد ولّاه عُبيدالله بن زياد الري وعهد إليه عهدةَ فقال : اكفني هذا الرجل ؛ قال: أعفِني، فأبَى أن يُعفيَه ؛ قال : فانظرْني الليلة ؛ فأخّره ، فنظر في أمره فلما أصبح غدَا عليه راضياً بما أمر به ، فتوجّه إليه عُمر بن سعد، فلما أتاه قال له الحسين: اخترْ واحدةً من ثلاث : إما أن تدعوَني فأنصرِف من حيث جئتُ ، وإما أن تدعوَني فأذهبَ إلى يزيد ، وإما أن تدعوَني فألحق بالثغور ؛ فقبل ذلك عمر ، فكتب إليه عُبيدالله : لا ولا كرامةَ حتى يضع يده في يدي! فقال له الحسين: لا والله لا يكون ذلك أبداً، فقاتله فقُتل أصحابُ الحسين كلُّهم ، وفيهم بضعة عَشَرَ شابًّا من أهل بيته ، وجاء سهمٌ فأصاب ابناً له معه في حِجره ، فجعل يمسح الدم عنه ويقول: اللهمّ احكم بيننا وبين قوم دَعَوْنا ليَنصرونا فقتلونا ؛ ثم أمر بِحبَرَة فشقّقها ، ثم لبسها وخرج بسيفه ، فقاتل حتى قُتِل صلوات الله عليه ؛ قتله رجلٌ من مَذْحِج وحَزّ رأسه ، وانطلق به إلى عبيدالله وقال :

أَوْقِـرْ رِكـابـي فِـضَّـةً وَذَهَـبَـا فـقـد قَـتَـلْتُ الـمَـلِكَ الـمُـحَـجَّـبـا
قَـتَـلتُ خَـيْـرَ الـنـاسِ أُمًّـا وَأَبـا وَخَـيْـرَهُـمْ إذ يَـنْـسِـبُـونَ نَـسـبـا

وأوفده إلى يزيدَ بن معاوية ومعه الرأس، فوضع رأسَه بين يديه وعنده أبو برْزة الأسلمي ، فجعل يَنكُتُ بالقَضيب على فيه ويقول :

يُـفَـلِّقْنَ هـامـاً مِـن رجـالٍ أَعِـزَّة عَـلـيـنـا وَهُـمْ كـانـوا أعـقَّ وَأَظْـلَمَا

فقال له أبو برْزة : اِرفع قضيبَك ، فوالله لربما رأيتُ فَا رَسولِ الله ﷺ على فيه يَلثِمه ! وسرّح عمر بن سعد بحرَمه وعياله إلى عبيد الله ، ولم يكن بقيَ من أهل بيت الحسين بن علي عليه السلام إلاَّ غلام كان مريضاً مع النساء ، فأمر به عُبيد الله ليُقتل ، فطرحتْ زَينب نفسَها عليه وقالت : والله لا يُقتَل حتى تقتلوني! فرقّ لها ، فتَرَكه وكفّ عنه.

قال : فجهَّزهم وحملهم إلى يزيدَ ، فلما قـدموا عليـه جمع مَن كـان بحضرتـه من أهل الشـأم ، ثم ـخلوهم ، فهنؤوه بالفتح ، قال رجل منهم أزرق أحمر ونظر إلى وصيفةٍ من بناتهم فقال: يا أمير المؤمنين ، هبْ لي هذه ، فقالت زَينب : لا والله ولا كرامةَ لك ولا له إلاَّ أن يَخرُج من دِين الله ،قال : فأعادها الأزرق ، فقال له يزيد : كُفَّ عن هذا؛ ثم أدخلهم على عياله ، فجهّزهم وحَمَلهم إلى المدينة ، فلما دخلوها خرجتْ امرأةٌ من بني عبدالمطلب ناشرةً شعرَها ، واضعةً كمَّها على رأسها تَلقاهم وهي تبكِي وتقول :

مـاذا تقـولـون إنْ قـال النَّبيُّ لـكمْ مـاذا فَـعَـلْتُـمْ وَأَنْـتُـمْ آخِـرُ الأُمَـمِ !

بعتْـرتـي وبـأَهْلِي بَعْـدَ مُفْـتَقَـدِي منهم أُسـارَى وَقَتلَى ضُـرِّجـوا بِـدَمِ
مـا كان هـذا جـزائي إذ نَصحْتُ لَكُم أن تُخْلـفُـوني بسـوءٍ في ذوي رحِمِي!

حدّثني الحسين بن نصر قال: حدّثنا أبو ربيعة ، قال: حدّثنا أبو عَوانة ، عن حصين بن عبدالرحمن قال: بَلَغنا أنّ الحسين عليه السلام . . . وحدّثنا محمد بن عمار الرازي، قال: حدّثناسعيد بن سليمان، قال: حدّثنا عباد بن العوّام قال: حدّثنا حصين ، أنّ الحسين بن علي عليه السلام كتب إليه أهلُ الكوفة: إنه معك مائة ألف ، فبعث إليهم مسلم بن عَقِيل ، فقدم الكوفة ، فنزل دارَ هانىء بن عُروة ، فاجتمع إليه الناس ، فأخبر ابن زياد بذلك . زاد الحسين بن نَصْر في حديثه : فأرسل إلى هانىء فأتاه ، فقال : ألم أوَقّرْكَ! ألم أكرِمْك! ألم أفْعَلْ بك! قال: بلى، قال: فما جزاءُ ذلك؟ قال: جزاؤه أن أمنعك ؛ قال: تمنعني! قال: فأخذ قضيباً مكانه فضربه به، وأمَرَ فكُتِف ثم ضرب عنقه ، فبلغ ذلك مسلم بن عَقِيل ، فخرج ومعه ناس كثير، فبلغ ابنَ زياد ذلك، فأمر بباب القصر فأغلِق، وأمر منادياً فنادى: يا خيلَ اللّهِ اركبي، فلا أحد يجيبه ، فظنّ أنه في ملإ من الناس .

قال حصين : فحدّثني هلال بن يَساف قال : لقيتُهم تلك اللّيلة في الطريق عند مسجد الأنصار ؛ فلم يكونوا يمدّون في طريق يميناً ولا شِمالاً إلّا وذهبت منهم طائفة ؛ الثلاثون والأربعون ، ونحو ذلك . قال : فلمّا بلغ السوق ، وهي ليلة مظلمة ، ودخلوا المسجد ، قيل لابن زياد : والله ما نرى كثيرَ أحَد ، ولا نسمع أصواتَ كثيرِ أحد، فأمر بسقف المسجد فقُلع ، ثم أمر بحراديّ فيها النيران ، فجعلوا ينظرون ، فإذا قريب خمسين رجلاً . قال : فنزل فصعد المِنبر وقال للناس : تميّزوا أرباعاً أرباعاً ؛ فانطلق كلّ قوم إلى رأس رُبْعهم ، فنهض إليهم قومٌ يقاتلونهم ، فجُرح مسلم جِراحةً ثقيلة ، وقتل ناس من أصحابه ، وانهزموا ؛ فخرج مسلم فدخل داراً من دُور كِندة ، فجاء رجل إلى محمد بن الأشعث وهو جالس إلى ابن زياد ، فسارّه ، فقال له : إنّ مسلماً في دار فلان ، فقال ابن زياد : ما قال لك؟ قـال: إنّ مسلماً في دار فلان ، قال ابن زياد لرجلين : انطلِقا فأتياني به، فدخلا عليه وهو عند امرأة قد أوقدتْ له النار ، فهو يغسل عنه الدّماء ، فقالا له: انطلقْ، الأميرُ يدعوك ، فقال: اعقدا لي عقداً؛ فقالا : ما نملك ذاك؛ فانطلق معهما حتى أتاه فأمر به فكُتِف ثمّ قال: هِيهْ هِيهْ يابن خلية - قال الحسين في حديثه : يابن كذا - جئتَ لتنزعَ سلطاني! ثم أمر به فضربتْ عنقُه . قال حصين : فحدّثني هلال بن يساف أنّ ابن زياد أمر بأخذ ما بين واقصةَ إلى طريق الشأم إلى طريق البصرة ، فلا يَدعون أحداً يلج ولا أحداً يخرج ، فأقبل الحسين ولا يشعر بشيء حتى لقيَ الأعراب ، فسألهم ، فقالوا : لا والله ما ندري، غير أنا لا نستطيع أن نلِج ولا نخرج ؛ قال : فانطلق يسير نحوَ طريق الشأم نحو يزيد ، فلقيتْه الخيول بكَرْبَلاء ، فنـزل ينـاشـدهم الله والإسلام ، قـال: وكان بعث إليـه عمر بن سعـد وشَمر بن ذي الجَـوْشن وحُصين بن نميم ، فناشَدهم الحسين اللّهَ والإسلامَ أن يسيّروه إلى أمير المؤمنين ، فيضع يده في يده ، فقالوا : لا ، إلّا على حكم ابن زياد؛ وكان فيمن بعث إليه الحُرّ بن يزيد الحَنْظَليّ ثم النَّهْشَليّ على خيل ، فلما سمع ما يقول الحسين قال لهم : ألا تقبلوا من هؤلاء ما يَعرِضون عليكم! والله لو سألكم هذا التُّرك والدَّيْلم ما حلّ لكم أن تردّوه! فأبَوْا إلّا على حكم ابن زياد ، فصرف الحرُّ وجهَ فرسه ، وانطلق إلى الحسين وأصحابه، فظنوا أنه إنما جاء ليقاتلَهم ، فلما دنا منهم قلب تُرسَه وسلّم عليهم ، ثمّ كرّ على أصحاب ابن زياد فقاتلهم، فقتل منهم رجلين ، ثم قتِل رحمة الله عليه .

وذكر أن زُهير بن القيْن البَجليّ لقي الحسينَ وكان حاجًّا ، فأقبل معه ، وخرج إليه ابن أبي بحريّة المراديّ ورجلان آخران وعمرو بن الحجّاج ومعن السُّلميّ ؛ قال الحصين : وقد رأيتهما .

قال الحصين : وحدّثني سعد بن عبيدة ، قال : إنّ أشياخاً من أهل الكوفة لَوُقوف على التلّ يبكون يقولون : اللهم أنزِل نصرك ، قال : قلت : يا أعداء الله ، ألا تنزلون فتنصرونه ! قال : فأقبل الحسين يكلّم من بعث إليه ابن زياد ، قال : وإني لأنظر إليه وعليه جبّة من بُرُود ، فلما كلّمهم انصرف ، فرماه رجلٌ من بني تميم يقال له : عمر الطُّهَويّ بسهم ، فإني لأنظر إلى السهم بين كتفيه متعلِّقاً في جبّته ، فلما أبَوْا عليه رجع إلى مصافّه ، وإني لأنظر إليهم ، وإنهم لقريب من مائة رجل ، فيهم لصُلب علي بن أبي طالب عليه السلام خمسة ، ومن بني هاشم ستة عشر ، ورجل من بني سُلَيم حليفٌ لهم ، ورجلٌ من بني كنانة حليفٌ لهم ، وابن عمر بن زياد .

قال : وحدّثني سعد بن عبيدة ، قال : إنا لمستنقعون في الماء مع عمر بن سعد ، إذ أتاه رجل فسارّه وقال له : قد بعث إليك ابن زياد جُوَيْريةَ بن بدر التميميّ ، وأمَرَه إن لم تقاتل القومَ أن يضربَ عُنقَك ؛ قال : فوثب إلى فرسه فركبه ، ثم دعا سلاحه فلبسه ، وإنه على فرسه ، فنهض بالناس إليهم فقاتَلوهم ، فجيء برأس الحسين إلى ابن زياد ، فوُضع بين يديه ، فجعل يَنكُت بقضيبه ، ويقول : إنّ أبا عبدالله قد كان شمِط ؛ قال : وجيء بنسائه وبناته وأهله ، وكان أحسن شيء صنعَه أن أمر لهنّ بمنزل في مكان معتزل ، وأجرَى عليهنّ رزقاً ، وأمر لهنّ بنفقة وكسوة . قال : فانطلق غلامان منهم لعبدالله بن جعفر ـ أو ابن ابن جعفر ـ فأتيَا رجلاً من طيِّىء فلجآ إليه ، فضرب أعناقهما ، وجاء برؤوسهما حتى وضعهما بين يدي ابن زياد؛ قال : فهمّ بضرب عنقه ، وأمر بداره فهدمت .

قال : وحدّثني مولًى لمعاوية بن أبي سُفْيان قال : لما أُتِيَ يزيد برأس الحسين فوضع بين يديه ، قال : رأيته يبكي ، وقال : لو كان بينه وبينه رحِم ما فعل هذا .

قال حصين : فلما قتِل الحسين لبثوا شهرين أو ثلاثةً ، كأنما تلطّخ الحوائط بالدماء ساعة تَطلُع الشمس حتى ترتفع .

قال : وحدّثني العلاء بن أبي عاثة قال : حدّثني رأس الجالوت ، عن أبيه قال : ما مررت بكربَلاء إلاَّ وأنا أركُض دابتي حتى أخلّف المكان ، قال : قلت : لِمَ؟ قال : كنا نتحدّث أنّ وَلَدَ نَبيّ مقتول في ذلك المكان ؛ قال : وكنت أخاف أن أكون أنا ، فلمّا قتِل الحسين قلنا : هذا الذي كنا نتحدّث . قال : وكنت بعد ذلك إذا مررت بذلك المكان أسير ولا أركض .

حدّثني الحارث ، قال : حدّثنا ابن سعد ، قال : حدّثني علي بن محمد ، عن جعفر بن سليمان الضّبَعيّ قال : قال الحسين : والله لا يَدعوني حتى يستخرجوا هذه العَلَقة من جَوْفي ، فإذا فعلوا سلّط الله عليهم مَن يذلّهم حتى يكونوا أذلّ من فَرَم الأمَة ؛ فقَدِم للعراق فقُتِل بنِينوَى يومَ عاشوراء سنة إحدى وستين .

قال الحارث : قال ابن سعد : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : قُتل الحسينُ بنُ علي عليه السلام في صفر سنة إحدى وستين وهو يومئذ ابن خمس وخمسين .

حدّثني بذلك أفلح بن سعيد، عن ابن كعب القُرَظيّ ، قال الحارث : حدّثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر ، عن أبي معشر ، قال : قُتِل الحسين لعشر خلوْن من المحرّم . قال الواقديّ : هذا أثبت .

قال الحارث : قال ابن سعد : أخبَرَنا محمد بن عمر ، قال : أخبرنا عطاء بن مسلم ، عمّن أخبره ، عن عاصم بن أبي النَّجود ، عن زِرّ بن حُبَيْش ، قال : أول رأس رُفع على خشبة ، رأس الحسين رضي الله عنه وصلَّى الله على رُوحه .

قال أبو مخنف: عن هشام بن الوليد، عمّن شهد ذلك، قال: أقبل الحسين بن علي بأهله من مكّة ومحمد بن الحنفيّة بالمدينة ؛ قال: فبلغه خبرُه وهو يتوضّأ في طَسْت ؛ قال: فبكى حتى سمعتُ وكْفَ دموعه في الطَّست .

قال أبو مخنف: حدّثني يونس بن أبي إسحاق السَّبيعي ، قال : ولما بلغ عبيدَالله إقبال الحسين من مكة إلى الكوفة ، بعث الحصين بن تميم صاحب شُرَطه حتى نزل القادسيّة ونظم الخيلَ ما بين القادسيّة إلى خَفّان وما بين القادسيّة إلى القُطْقُطانة وإلى لَعْلَع ، وقال الناس: هذا الحسين يريدُ العراق .

قال أبو مخنف : وحدّثني محمد بن قيس أنّ الحسين أقبل حتى إذا بلغ الحاجر من بطن الرُّمَّة بعث قيسَ بن مُسهِر الصّيداويّ إلى أهل الكوفة ، وكتب معه إليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين ، سلامٌ عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو ، أما بعد ، فإنّ كتابَ مسلم بن عَقِيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم ، واجتماع مَلئكم على نصرنا ، والطلبِ بحقّنا ، فسألتُ الله أن يُحسن لنا الصُّنع ، وأن يثيبَكم على ذلك أعظم الأجر ، وقد شخصتُ إليكم من مكّة يومَ الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التَرْويَة ، فإذا قدم عليكم رسولي فاكمشوا أمرَكم وجدّوا ، فإني قادم عليكم في أيّامي هـذه إن شاء الله؛ والسـلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكان مسلم بن عَقيل قد كان كتب إلى الحسين قبل أن يُقتل لسبع وعشرين ليلة : أما بعد، فإنّ الرائد لا يَكذِب أهلَه ، إنّ جَمْع أهل الكوفة معك ، فأقبل حين تقرأ كتابي ؛ والسلام عليك .

قال : فأقبل الحسين بالصّبيان والنساء معه لا يَلوي على شيء ، وأقبل قيس بن مُسهر الصّيداوي إلى الكُوفة بكتاب الحسين ، حتى إذا انتهى إلى القادسيّة أخذه الحصين بن تميم فبعث به إلى عبيدالله بن زياد، فقال له عبيدالله : اصعَد إلى القصر فَسُبّ الكذّاب ابن الكذّاب ؛ فصعد ثم قال: أيها الناس، إنّ هذا الحسين بن علي خير خَلق الله؛ ابن فاطمة بنتِ رسول الله، وأنا رسولُه إليكم ، وقد فارقتُه بالحاجر، فأجيبوه؛ ثمّ لعن عُبيدالله بن زياد وأباه ، واستغفر لعلي بن أبي طالب. قال: فأمر به عُبيدالله ابن زياد أن يُرمَى به من فوق القصر ، فرُمي به ، فتقطّع فمات . ثم أقبل الحسين سيراً إلى الكوفة ، فانتهى إلى ماء من مياه العرب ، فإذا عليه عبدُالله بن مطيع العَدَويّ ، وهو نازل ها هنا ، فلما رأى الحسينَ قام إليه ، فقال : بأبي أنت وأمّي يابن رسولِ الله! ما أقْدَمَك! واحتَمله فأنزله ، فقال له الحسين : كان من موت معاوية ما قد بلغك؛ فكتب إليَّ أهلُ العراق يدعونني إلى أنفسهم ، فقال له عبدالله بن مُطيع : أذكِّرك الله يابن رسـول الله وحرمـةَ الإسلام أن

تُنتهَك ! أنشدكَ اللّهَ في حُرمة رسول الله ﷺ ! أنشدك الله في حُرمة العرب! فوالله لئن طلبت ما في أَيدي بني أميّة ليقتُلنَّك ، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً. والله إنها لحُرْمة الإسلام تُنتهَك ، وحُرْمةُ قريش وحُرْمة العرب ، فلا تَفعل ، ولا تأتِ الكوفة ، ولا تَعَرَّضْ لبني أميّة ؛ قال : فأبَى إلَّا أن يمضي ، قال : فأقبل الحسينَ حتى كان بالماء فوق زَرُود.

قال أبو مخنف: فحدّثني السدّيّ ، عن رجل من بني فَزارة قال : لما كان زمن الحجّاج بن يوسف كنا في دار الحارث بن أبي ربيعة التي في التّمّارين ، التي أقطعت بعدُ زهيرَ بن القَيْن ، من بني عمرو بن يَشكرَ من بَجيلة ، وكان أهل الشأم لا يدخلونها ، فكنا مُختَبِئين فيها ، قال : فقلت للفزاريّ : حدّثني عنكم حين أقبلتم مع الحسين بن علي ؛ قال : كنا مع زهير بن القيْن البَجَليّ حين أقبلنا من مكة نساير الحسينَ ، فلم يكن شيء أبغضَ إلينا من أن نسايره في منزل ، فإذا سار الحسين تخلف زهير بن القَيْن ، وإذا نزل الحسينُ تقدّم زهير ، حتى نزلنا يومئذ في منزل لم نجد بُدًّا من أن ننازله فيه ، فنزل الحسين في جانب، ونزلنا في جانب ، فبينا نحن جلوس نتغدّى من طعام لنا ، إذ أقبل رسولُ الحسين حتى سلّم ، ثم دخل فقال : يا زهير بن القَيْن ، إنّ أبا عبدالله الحسين بن علي بعثني إليك لتأتيَه ؛ قال : فطرح كلّ إنسان ما في يده حتى كأننا على رؤوسنا الطير .

قال أبو مخنف: فحدّثتني دَلهم بنت عَمرو امرأة زهير بن القَيْن، قالت: فقلت له: أيَبعث إليك ابن رسول الله ثمّ لا تأتيه! سبحان الله! لو أتيتَه فسمعتَ من كلامه! ثم انصرفت؛ قالت: فأتاه زهير بن القَيْن ، فما لبث أن جاء مستبشراً قد أسفر وجهُه ؛ قالت: فأمر بفُسطاطه وثَقَله ومتاعه فقُدّم، وحُمل إلى الحسين ، ثم قال لامرأته : أنتِ طالقٌ ، اِلْحَقي بأهلك ، فإني لا أحبّ أن يصيبك من سببي إلَّا خير ، ثمّ قال لأصحابه : مَنْ أحبّ منكم أن يتبعني وإلَّا فإنه آخر العهد ، إني سأحدّثكم حديثاً ، غَزَوْنا بَلَنْجَر ، ففتح الله علينا ، وأصبْنا غنائم ، فقال لنا سَلْمان الباهليّ : أفرِحْتم بما فتح الله عليكم ، وأصبتم من الغنائم ! فقلنا: نعم ، فقال لنا : إذا أدركتم شبابَ آل محمد فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معهم منكم بما أصبتم من الغنائم ، فأمّا أنا فإنّي أستودعكم الله؛ قال: ثمّ والله ما زال في أوّل القوم حتى قُتل .

قال أبو مخنف : حدّثني أبو جَناب الكلبي ، عن عديّ بن حرملة الأَسَديّ ، عن عبدالله بن سُليم والمذري بن المشمعلّ الأسديين قالا : لما قضينا حجّنا لم يكن لنا همّة إلَّا اللّحاق بالحسين في الطريق لننظر ما يكون من أمره وشأنه ، فأقبلنا تُرْقل بنا ناقتانا مسرعين حتى لحقناه بزَرودَ ، فلما دنوْنا منه إذا نحن برجل من أهل الكوفة قد عدل عن الطريق حين رأى الحسين؛ قالا : فوقف الحسين كأنه يريده ، ثم تركه ، ومضى ومضينا نحوَه ، فقال أحدنا لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا فلنسأله ، فإن كان عنده خبر الكوفة علمناه ، فمضينا حتى انتهينا إليه ، فقلنا : السلام عليك ، قال : وعليكم السلام ورحمة الله ، ثم قلنا : فَمَن الرجل؟ قال: أسديّ : فقلنا : فنحن أسديّان فمَن أنت؟ قال: أنا بكير بن المثعبة ، فانتسبنا له ، ثم قلنا: أخبرنا عن الناس وراءك؛ قال: نعم ، لم أخرج من الكوفة حتى قُتل مسلم بن عَقيل وهانىء بن عروة ، فرأيتهما يُجرّان بأرجلهما في السوق؛ قالا: فأقبلنا حتى لحقْنَا بالحسين، فسايرناه حتى نزل الثعلبيّة ممسياً ، فجئناه حين نزل ، فسلّمنا عليه فردّ علينا ، فقلنا له : يرحمك الله؛ إنّ عندنا خبراً ، فإن شئت حدّثنا علانيةً ، وإن شئتَ سرًّا؛ قال : فنظر إلى أصحابه وقال: ما دون هؤلاء سرّ ؛ فقلنا له : أرأيت الراكبَ الذي استقبلك عشاءَ أمس؟ قال: نعم، وقد

أردتُ مسألته؛ فقلنا: قد استبرأنا لك خبَره ، وكفيناك مسألته ، وهو امرؤ من أسد منا ، ذو رأي وصدق ، وفضل وعقل، وإنه حدّثنا أنه لم يخرج من الكوفة حتى قُتل مسلم بن عَقِيل وهانىء بن عروة ، وحتى رآهما يُجَرّان في السوق بأرجلهما ، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! رحمة الله عليهما ، فردّد ذلك مراراً ، فقلنا : نَنشدُك اللّهَ في نفسك وأهلِ بيتك إلّا انصرفتَ من مكانك هذا ، فإنه ليس لك بالكوفة ناصرٌ ولا شيعة ، بل نتخوّف أن تكون عليك! قال: فوثب عند ذلك بنو عَقيل بن أبي طالب .

قال أبو مخنف: حدّثني عمر بن خالد، عن زيد بن علي بن حسين ، وعن داود بن علي بن عبدالله بن عباس، أنّ بني عقيل قالوا : لا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرَنا ، أو نذوقَ ما ذاق أخونا .

قال أبو مخنف : عن أبي جَناب الكلبي ، عن عدي بن حرملة ، عن عبدالله بن سُلَيم والمذري بن المشمعلّ الأسديّين، قالا : فنظر إلينا الحسين فقال: لا خيرَ في العيش بعد هؤلاء ؛ قالا : فعلمنا أنه قد عزم له رأيه على المسير؛ قالا: فقلنا: خارَ الله لك! قالا : فقال : رحمكما الله! قالا : فقال له بعض أصحابه : إنك والله ما أنت مثل مسلم بن عَقيل ، ولو قدمتَ الكوفة لكان الناسُ إليك أسرع ؛ قال الأسديّان : ثم انتظر حتى إذا كان السَّحَر قال لفتيانه وغلمانه : أكثروا من الماء فاستَقُوا وأكْثروا ، ثمّ ارتحلوا وساروا حتى انتهوا إلى زُبالة .

قال أبو مخنف : حدّثني أبو علي الأنصاري ، عن بكر بن مصعب المُزَنيّ ، قال: كان الحسين لا يمرّ بأهل ماء إلّا اتبعوه حتى إذا انتهى إلى زُبَالة سقط إليه مَقْتل أخيه من الرّضاعة ، مقتلُ عبدالله بن بُقْطُر ، وكان سرّحه إلى مسلم بن عَقيل من الطريق وهو لا يدري أنه قد أصيب ، فتلقاه خيلُ الحصين بن تميم بالقادسيّة ، فسرّح به إلى عُبيد الله بن زياد ، فقال: إصعد فوق القصر فالعَنِ الكذّاب ابنَ الكذّاب ، ثم انزل حتى أرى فيك رأيي ! قال: فصعد ، فلما أشرَف على الناس قال: أيّها الناس، إني رسول الحسين بن فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ لتنصروه وتوازِروه على ابن مَرْجانة ابن سميَّة الدعيّ . فأمر به عُبيد الله فألقِيَ من فوق القصر إلى الأرض ، فكُسرت عظامُه ، وبقي به رَمَق ، فأتاه رجل يقال له عبدالملك بن عُمَير اللَّخْميّ فذبحه ، فلمّا عيب ذلك عليه قال : إنما أردت أن أريحَه .

قال هشام : حدّثنا أبو بكر بن عياش عمّن أخبره ، قال: والله ما هو عبدالملك بن عمير الذي قام إليه فذبحه ، ولكنه قام إليه رجل جعْد طُوال يشبه عبدَالملك بن عمير. قال: فأتى ذلك الخبرُ حسيناً وهو بُزبالة، فأخرج للناس كتاباً ، فقرأ عليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإنه قد أتانا خبر فظيع ، قتل مُسلم بن عقيل وهانىء بن عروة وعبدالله بن بُقْطُر ، وقد خذلتْنا شيعتُنا ، فمن أحبّ منكم الانصراف فلينصرفْ ، ليس عليه منا ذِمام .

قال : فتفرّق الناس عنه تفرّقاً ، فأخذوا يميناً وشِمالاً حتى بقيَ في أصحابه الذين جاؤوا معه إلى المدينة ، وإنما فعل ذلك لأنه ظنّ أنما اتّبعه الأعراب ، لأنهم ظنّوا أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعةُ أهله ، فكره أن يسيروا معه إلّا وهم يعلمون عَـلام يقدمون ،وقد علم أنّهم إذا بَيّنَ لهم لم يصحبه إلّا من يريد مواساته والموتَ معه . قال: فلما كان من السَّحَر أمر فتيانَه فاستقوْا الماء وأكثَروا ، ثم سار حتى مرَّ ببطْنِ العَقَبة ، فنَزل بها .

قال أبو مخنف: فحدّثني لـوْذان أحدُ بني عكْرمة أنّ أحدَ عمومته سأل الحسين عليه السلام أين تريد ؟

فحدَّثه ، فقال له : إنّي أنشدُك الله لمّا انصرفت ، فوالله لا تقدم إلّا على الأسنَّة وحدّ السيوف ، فإنّ هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفَوْك مؤنة القتال، ووطؤوا لك الأشياء فقدمتَ عليهم كان ذلك رأياً ، فأمّا على هذه الحال التي تذكرها فإنّي لا أرى لك أن تفعل . قال: فقال له : يا عبدَالله ، إنه ليس يخفى عليّ ، الرأيُ ما رأيتَ ، ولكنّ الله لا يُغلَب على أمره؛ ثم ارتحل منها.

ونَزَع يزيدُ بن معاوية في هذه السنة الوليدَ بن عتبة عن مكة ، وولّاها عَمرو بن سعيد بن العاص، وذلك في شهر رمضانَ منها ، فحجّ بالناس عَمرو بن سعيد في هذه السنة؛ حدّثني بذلك أحمد بن ثابت ، عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر.

وكان عامله على مكة والمدينة في هذه السنة بعدما عزل الوليد بن عُتبة عَمرو بن سعيد، وعلى الكوفة والبَصرة وأعمالها عبيدالله بن زياد، وعلى قضاء الكوفة شُرَيح بن الحارث، وعلى قضاء البصرة هشام بن هُبَيرة .

ثم دخلت سنة إحدى وستين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك مَقتَل الحسين رضوان الله عليه ، قُتل فيها في المحرّم لعشر خلوْن منه ، كذلك حدّثني أحمد بن ثابت ، قال : حدّثني مُحَدّث ، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وكذلك قال الواقدي وهشام بن الكلبي ؛ وقد ذكرْنا ابتداءَ أمر الحسين في مسيره نحوَ العراق وما كان منه في سنة ستين ، ونذكر الآن ما كان من أمره في سنة إحدى وستين وكيف كان مَقتلُه .

حُدّثت عن هشام، عن أبي مخنف ، قال : حدّثني أبو جناب ، عن عدي بن حرملة ، عن عبدالله بن سليم والمذري بن المشمعلّ الأسديَّين قالا : أقبل الحسين عليه السلام حتى نزل شَراف ، فلما كان في السَّحَر أمر فتيانَه فاستقَوْا من الماء فأكثَروا ، ثم ساروا منها ، فرسموا صدرَ يومهم حتى انتصف النهار. ثم إنَّ رجلاً قال: الله أكبر! فقال الحسين: الله أكبر ما كبَّرتَ؟ قال: رأيتُ النخل ، فقال له الأسديان : إنّ هذا المكان ما رأينا به نخلةً قطّ ؛ قالا : فقال لنا الحسين : فما تَرَيانه رأى؟ قلنا: نراه رَأي هَوادِيَ الخيل؛ فقال: وأنا والله أرى ذلك؛ فقال الحسين: أمَا لنا ملجأ نلجأ إليه ، نجعله في ظهورنا ، ونستقبل القومَ من وجه واحد؟ فقلنا له: بلى، هذا ذو حُسُم إلى جنبك ، تَميل إليه عن يسارك ، فإن سبقتَ القوم إليه فهو كما تريد ؛ قالا : فأخذ إليه ذاتَ اليسار؛ قالا : وملنا معه فما كان بأسرع من أن طلعتْ علينا هوادي الخيل، فتبيّناها ، وعدنا ، فلما رأونا وقد عدلنا عن الطريق عدلوا إلينا كأنّ أسنّتهم اليعاسيب ، وكأنّ راياتهم أجنحة الطير ، قال : فاستبقنا إلى ذي حُسُم ، فسبقناهم إليه ، فنزل الحسين ، فأمر بأبنتيه فضُربتْ ، وجاء القوم وهم ألف فارس مع الحُرِّ بن يزيد التميمي اليربوعي حتى وقف هو وخيله مقابلَ الحسين في حَرِّ الظَّهيرة ، والحسين وأصحابه معتمّون متقلدو أسيافهم ، فقال الحسين لفتيانه : اسقوا القوم وأرووهم من الماء ورشّفوا الخيل ترشيفاً ، فقام فتيانه فرشّفوا الخيل ترشيفاً ، فقام فتية وسقَوا القوم من الماء حتى أرْووهم ، وأقبلوا يملؤون القصاع والأتْوار والطِّساس من الماء ثم يُدنونَها من الفَرَس ، فإذا عبَّ فيه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عُزلتْ عنه ، وسقَوا آخَرَ حتى سقَوا الخيلَ كلَّها .

قال هشام : حدّثني لَقيط ، عن علي بن الطّعان المحاربي : كنت مع الحُرّ بن يزيد ، فجئت في آخر مَن جاء من أصحابه ، فلما رأى الحسينُ ما بي وبفرسي من العطش قال: أنخ الرّاوية - والراوية عندي السقاء - ثم قال : يابن أخ ، أنخ الجمل ، فأنختُه ، فقال: اشربْ ، فجعلت كلما شربتُ سال الماء من السقاء ، فقال الحسين : اِخنث السقاء - أي اعطفه - قال : فجعلتُ لا أدري كيف أفعل! قال: فقام الحسين فخَنَثه ، فشربتُ وسَقَيتُ فَرسي . قال : وكان مجيء الحُرّ بن يزيد ومسيره إلى الحسين من القادسيّة ، وذلك أنّ

عبيدالله بن زياد لما بلغه إقبالُ الحسين بعث الحصين بن تميم التميمي ـ وكان على شُرَطه ـ فأَمَره أن ينزل القادسيّة ، وأن يضع المَسالحَ فينظم ما بين القُطْقطانة إلى خَفّان ، وقدّم الحُرّ بن يزيد بين يديه في هذه الألف من القادسيّة ، فيستقبل حسيناً . قال : فلم يزل موافقاً حسيناً حتى حضرت الصّلاة صلاة الظهر ، فأمر الحسين الحجّاج بن مسروق الجعفي أن يؤذّن ، فأذّن ، فلمّا حضرت الإقامة خرج الحسين في إزار ورداء ونعلين ، فحَمِد اللّهَ وأثنى عليه ثمّ قال: أيّها النـاس، إنها معذرة إلى الله عزّ وجلّ وإليكم ؛ إنّي لم آتكُمْ حتى أتتْني كُتُبكم ، وقدمتْ عليَّ رُسُلكم : أن أقدمْ علينا ، فإنه ليس لنا إمام ، لعلّ الله يجمعنا بك على الهدى ؛ فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم ، فإن تُعطوني ما أطمئنُّ إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصرَكم ، وإن لم تفعلوا وكنتم لمَقْدمي كارهين انصرفتُ عنكم إلى المكان الذي أقبلتُ منه إليكم . قال : فسكتوا عنه وقالوا للمؤذّن : أقم ، فأقام الصلاة ، فقال الحسين عليه السلام للحُرّ : أتريدُ أن تصلّيَ بأصحابك؟ قال: لا ، بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك ؛ قال : فصلّى بهم الحسين ، ثم إنه دخل واجتمع إليه أصحابه ، وانصرف الحُرّ إلى مكانه الذي كان به ، فدخل خَيْمةً قد ضُربت له ، فاجتمع إليه جماعةٌ من أصحابه ، وعاد أصحابُه إلى صَفِّهم الذي كانوا فيه ، فأعادوه ، ثم أخذ كلّ رجل منهم بعنان دابّته وجلس في ظلها ، فلما كان وقت العصر أمر الحسين أن يتهيؤوا للرّحيل . ثم إنه خرج فأمر مناديَه فنادى بالعصر ، وأقام فاستقدم الحسين فصلى بالقوم ثم سلم ، وانصرف إلى القوم بوجهه فحَمِد اللّهَ وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحقَّ لأهله يكن أرضىَ لله ، ونحن أهل البيت أولَى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدَّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجوْر والعدوان ، وإن أنتم كرهتمونا ، وجهلتم حقنا ، وكان رأيُكم غيرَ ما أتتْني كتبكم ، وقدمتْ به عليَّ رُسُلكم ، انصرفتُ عنكم ، فقال له الحُرّ بن يزيد : إنّا والله ما ندري ما هذه الكُتُب التي تذكر! فقال الحسين : يا عقبة بن سِمْعان ، أخرج الخرجَيْن اللّذَين فيهما كتبهم إليَّ ، فأخرج خرْجين مملوءين صُحُفاً ، فنشرها بين أيديهم ؛ فقال الحُرّ : فإنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك ، وقد أمِرنا إذا نحن لقيناك ألاّ نفارقَك حتى نُقدمك على عبيدالله بن زياد ؛ فقال له الحسين : الموتُ أدنَى إليك من ذلك ، ثم قال لأصحابه : قوموا فاركبوا ، فركبوا وانتظروا حتى ركبتْ نساؤهم ، فقال لأصحابه : انصرفوا بنا ، فلما ذهبوا لينصرفوا حالَ القومُ بينهم وبين الانصراف ، فقال الحُسين للحر : ثكلتْك أمُّك! ما تريد ؟ قال: أما والله لو غيرُك من العرب يقولها لي وهو على مثل الحال التي أنت عليها ما تركتُ ذكْر أمّه بالثُّكْل أن أقولَه كائناً مَن كان ، ولكنْ والله ما لي إلى ذكْر أمِّك من سبيل إلاّ بأحسن ما يقدَر عليه ؛ فقال له الحسين : فما تريد؟ قال الحُرّ: أريد والله أن أنطلق بك إلى عُبيدالله بن زياد ، قال له الحسين : إذن والله لا أتْبعك ؛ فقال له الحُرُّ : إذن والله لا أدَعك ؛ فترادّا القولَ ثلاثَ مرّات ، ولما كثر الكلامُ بينهما قال له الحرّ: إنّي لم أومَر بقتالك ، وإنما أمِرت ألاّ أفارقَك حتى أقدمَك الكُوفة ، فإذا أبيتَ فخذ طريقاً لا تُدخلك الكوفة ، ولا تردّك إلى المدينة ، تكون بيني وبينك نصفاً حتى أكتب إلى ابن زياد ، وتكتب أنتَ إلى يزيدَ بن معاوية إن أردتَ أن تكتب إليه ، أو إلى عبيدالله بن زياد إن شئتَ ، فلعلّ الله إلى ذاك أن يأتيَ بأمر يرزقني فيه العافية من أن ابتلَى بشيء من أمرك ؛ قال : فخذ ها هنا فتياسرْ عن طريق العُذَيْب والقادسيّة ، وبينه وبين العُذَيب ثمانية وثلاثون ميلاً . ثمّ إنّ الحسين سار في أصحابه والحُرّ يسايره .

قال أبو مخنف : عن عقبة بن أبي العَيزار ، إنّ الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحُرّ بالبِيضَة ، فحمِد

الله وأثنَى عليه ثمّ قال : أيها الناس ، إنّ رسول الله ﷺ قال: « من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لِحُرَم الله ، ناكثاً لعَهْد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله ، يَعملُ في عباد الله بالإثم والعُدوان ، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول ، كان حقًّا على الله أن يُدخله مُدخَله » . ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرّحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، وأحلّوا حَرام الله ، وحرّموا حلالَه ، وأنا أحقّ من غَيَّر ، قد أتتْني كتبكم ، وقدمتْ عليَّ رُسُلكم ببيعتكم ؛ أنكم لا تُسلموني ولا تخذُلوني ، فإنْ تممتم على بيعتكم تصيبُوا رشدَكم ، فأنا الحسين بنُ علي، وابن فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ ، نفسي مع أنفسكم ، وأهلي مع أهليكم ، فلكم فيَّ أسْوة ، وإن لم تفعلوا ونقضْتم عهدكم ، وخلعتُم بيعَتي من أعناقكم ، فلَعَمْري ما هي لكم بنُكْر ، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم ، والمغرور من اغترّ بكم ،فحظَّكم أخطأتم ، ونصيبَكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما يَنكُث على نفسه ، وسيُغني الله عنكم ، والسلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته .

وقال عقبة بن أبي العَيزار : قام حسينٌ عليه السلام بذي حُسُم ، فَحَمِد اللّهَ وأثنَى عليه ثمّ قال : إنه قد نزل من الأمر ما قد ترَوْن ، وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكرت ، وأدبر معروفُها واستمرّت جدًّا ، فلم يَبقَ منها إلاَّ صُبابة كصُبابة الإناء ، وخسيسُ عيش كالمَرعَى الوَبيل . ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به ، وأنّ الباطل لا يُتناهَى عنه! ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحقًّا ، فإني لا أرى الموت إلا شهادة ، ولا الحياة مع الظالمين إلا بَرَماً .

قال : فقام زهير بن القَيْن البَجَليّ فقال لأصحابه : تَكلَّمون أم أتكلم؟ قالوا: لا ، بل تكلم ؛ فَحَمِد اللّهَ فأثنَى عليه ثم قال: قد سمْعنا هَداك الله يابنَ رسول الله مقالَتَك ، والله لو كانت الدنيا لنا باقية ، وكنا فيها مخلَّدين ، إلاَّ أنّ فراقها في نصرك ومواساتك ، لآثرْنا الخروجَ معك على الإقامة فيها .

قال : فدعا له الحسين ثم قال له خيراً ؛ وأقبل الحُرّ يسايره وهو يقول له : يا حسين ، إني أذكّرك اللّهَ في نفسك ، فإنِّي أشهد لئن قاتلتَ لَتُقتلنّ ، ولئن قوتلتَ لتهلكنّ فيما أرى؛ فقال له الحسين: أفبالموت تخوّفني! وهل يعدو بكم الخَطْب أن تقتلوني! ما أدري ما أقول لك! ولكن أقول كما قال أخو الأوْس لابن عمه ، ولقيَه وهو يريد نُصرةَ رسولِ الله ﷺ ، فقال له : أين تذهب؟ فإنك مقتول ؛ فقال :

سأمضِي وما بـالموتِ عـارٌ على الفتَى ... إذا مـا نَـوَى حقًّـا وجـاهـدَ مسلمَـا
وآسى الـرجـالَ الصـالِحينَ بنفسِـه ... وفـارق مـثبـوراً يَـغُشُّ ويُـرْغـمـا

قال : فلما سمع ذلك منه الحُرّ تنحّى عنه ، وكان يسير بأصحابه في ناحية وحسين في ناحية أخرى ، حتى انتهَوا إلى عُذيب الهِجانات ، وكان بها هَجائن النعمان تَرعَى هنالك ، فإذا هم بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم ، يجنبُون فرساً لنافع بن هلال يقال له الكامل ، ومعهم دليلُهم الطِّرِمّاح بن عديّ على فرسه ، وهو يقول :

يـا نـاقتِي لا تُـذعَـرِي من زَجْـرِي ... وشـمّـري قبـلَ طـلوعِ الـفَـجْـرِ
بـخـيرِ رُكْـبـانٍ وخـيرِ سَـفْـرِ ... حـتّىٰ تَحِـلِّي بـكـريـم الـنَّـجْـرِ
المـاجـدِ الحـرِّ رَحيـبِ الـصـدرِ ... أتَى بـه الـلّهُ لخـيرِ أمْـرِ
ثُمّتَ أبقاه بقاءَ الدَّهرِ

قال : فلما انتهَوا إلى الحسين أنشَدوه هذه الأبيات ، فقال : أما والله إني لأرجو أن يكون خيراً ما أراد الله بنا ، قُتلنا أم ظَفرنا ؛ قال : وأقبل إليهم الحرّ بن يزيدَ فقال: إن هؤلاء النفرَ الذين من أهل الكوفة ليسوا ممن أقبل معك ، وأنا حابسهم أو رادّهم ، فقال له الحسين : لأمنعنّهم مما أمنع منه نفسي ، إنما هؤلاء أنصاري وأعواني ، وقد كنتَ أعطيتَني ألّا تَعرض لي بشيء حتى يأتيَك كتاب من ابن زياد ، فقال : أجلْ ، لكن لم يأتوا معك ؛ قال : هم أصحابي ، وهم بمنزلة مَن جاءَ معي ، فإن تممتَ على ما كان بيني وبينك وإلا ناجزتُك ؛ قال : فكفَّ عنهم الحرّ ؛ قال : ثمّ قال لهم الحسين : أخبِروني خبرَ الناس وراءكم ، فقال له مجمِّع بن عبدالله العائذيّ ، وهو أحد النَّفَر الأربعة الذين جاؤوه: أما أشراف الناس فقد أعظِمتْ رِشوَتُهم ، ومُلئت غَرائرُهم ، يُستمال ودّهم ، ويستخلص به نصيحتهم ، فهم ألْبٌ واحدٌ عليك ، وأما سائر الناس بعد ، فإنّ أفئدتهم تَهوِي إليك ، وسيوفَهم غداً مشهورةٌ عليك ؛ قال : أخبرُوني ، فهل لكم برسولي إليكم ؟ قالوا : من هو؟ قال: قيس بن مُسْهر الصيْداويّ ؛ فقالوا : نعم ، أخذه الحصين بن تميم فبعث به إلى ابن زياد ، فأمره ابنُ زياد أن يلعنك ويلعنَ أباك ، فصلى عليك وعلى أبيك ، ولَعَن ابنَ زياد وأباه ، ودعا إلى نُصْرتك ، وأخبرهم بقدومك ، فأمر به ابن زياد فأُلقيَ من طَمارِ القصر ؛ فترقرقتْ عينا حُسين عليه السلام ولم يملك دمعَه ، ثم قال : ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾. اللهمّ اجعلْ لنا ولهم الجنة نُزُلا ، واجمع بيننا وبينهم في مستقرّ من رحمتك ، ورغائب مذخور ثوابك !

قال أبو مخنف: حدّثني جميل بن مَرْثد من بني مَعْن ، عن الطرمّاح بن عديّ ، أنه دنا من الحسين فقال له : والله إني لأنظر فما أرى معك أحداً ، ولو لم يقاتلْك إلا هؤلاء الذين أراهم ملازمتك لكان كفى بهم ؛ وقد رأيتُ قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم ظهرَ الكوفة وفيه من الناس ما لم تَر عيناي في صعيد واحد جَمْعا أكثر منه ، فسألت عنهم ، فقيل : اجتمعوا ليُعرَضوا ، ثم يسرَّحون إلى الحسين ، فأنشِدُك اللّهَ إن قدرتَ على ألاّ تقدم عليهم شبراً إلاّ فعلت ! فإن أردتَ أن تنزل بلداً يمنعك الله به حتى ترى من رأيك ، ويستبين لك ما أنت صانع ، فسرْ حتى أنزلك مَناع جبلنا الذي يُدعَى أجَـأ ، امتنعْنا واللّهِ به من ملوك غسّانَ وحميَر ومن النعمان بن المنذر ، ومن الأسود والأحمر ، والله إن دخل علينا ذلّ قطُّ ؛ فأسير معك حتى أنزلك القُرَيَّة ، ثم نبعث إلى الرجال ممن بأجَأ وسَلمَى من طيّيء ، فوالله لا يأتي عليك عشرة أيام حتى تأتيَك طيّيء رجالاً ورُكباناً ، ثم أقم فينا ما بدا لك ، فإن هاجك هَيْج فأنا زعيم لك بعشرين ألف طائيّ يَضربون بين يديك بأسيافهم ، والله لا يُوصَل إليك أبداً ومنهم عين تَطرف ؛ فقال له : جزاك الله وقومَك خيراً ! إنه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسنا نقدر معه على الانصراف ، ولا ندري علامَ تَنصرف بنا وبهم الأمورُ في عاقِبه !

قال أبو مخنف : فحدّثني جميل بن مَرْثَد ، قال : حدّثني الطِّرماح بن عَديّ ، قال : فودّعتُه وقلتُ له : دفع الله عنك شرّ الجن والإنس ، إنّي قد امترتُ لأهلي من الكوفة ميرةً ، ومعي نفقة لهم ، فآتيهم فأضع ذلك فيهم ، ثمّ أُقبل إليك إن شاء الله ، فإن ألحقك فوالله لأكوننَّ من أنصارك ؛ قال : فإن كنتَ فاعلاً فعجِّلْ رحمك الله ؛ قال : فعلمتُ أنه مستوحشٌ إلى الرجال حتى يسألني التعجيل ؛ قال: فلما بلغتُ أهلي وضعتُ عندهم ما يصلحهم ، وأوصيت ، فأخذ أهلي يقولون : إنك لتصنع مَرّتَك هذه شيئاً ما كنتَ تصنعه قبل اليوم ، فأخبرتُهم بما أريد ، وأقبلتُ في طريق بني ثُعَل حتى إذا دنوتُ من عُذَيب الهجانات ، استقبلَني سَماعة بن بدر ، فنعاه إليَّ ، فرجعت ؛ قال : ومضى الحسين عليه السلام حتى انتهى إلى قصر بني مقاتل ، فنزل به ، فإذا هو

بفسطاط مضروب .

قال أبو مخنف : حدّثني المجالد بن سعيد، عن عامر الشَّعبيّ ، أنّ الحسين بن علي رضي الله عنه قال: لَمن هذا الفسطاط؟ فقيل : لعبيدالله بن الحُرّ الجعفي ؛ قال : ادعوه لي ، وبَعَثَ إليه ، فلما أتاه الرسول ، قال : هذا الحسين بن علي يدعوك ؛ فقال عبيدالله بن الحُرّ : إنّا لله وإنا إليه راجعون ! والله ما خرجتُ من الكوفة إلّا كراهة أن يدخلها الحسين وأنا بها ، والله ما أريد أن أراه ولا يراني ، فأتاه الرسولُ فأخبَرَه ، فأخذ الحسين نعليْه فانتعل ، ثم قام فجاءه حتى دخل عليه ، فسَلّم وجلس ، ثمّ دعاه إلى الخروج معه ، فأعاد إليه ابن الحُرّ تلك المقالة ، فقال : فإلّا تنصرْنا فاتّق الله أن تكونَ ممّن يقاتلنا ، فوالله لا يسمع واعيتَنا أحد ثم لا ينصرنا إلّا هلك ؛ قال : أمّا هذا فلا يكون أبداً إن شاء الله . ثم قام الحسين عليه السلام مِن عنده حتى دخل رَحلَه .

قال أبو مخنف : حدّثني عبدالرحمن بن جُنْدُب ، عن عقبة بن سِمْعان قال: لما كان في آخر الليل أمر الحسين بالاستقاء من الماء، ثم أَمَرَنا بالرحيل ، ففعلْنا ؛ قال: فلما ارتحلنا من قصر بني مقاتل وسرْنا ساعةً خفق الحسين برأسه خَفْقة ، ثم انتبه وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله ربِّ العالمين ؛ قال : ففعل ذلك مرّتين أو ثلاثاً ، قال : فأقبل إليه ابنُه علي بن الحسين على فرس له فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله ربّ العالمين ، يا أبتِ ، جُعِلْت فداك! مِمَّ حمِدتَ اللّهَ واسترجعتَ؟ قال: يا بنيّ ، إني خفَقتُ برأسي خَفْقةً فعنّ لي فارس على فرس فقال : القوم يسيرون والمنايا تَسري إليهم ، فعلمتُ أنها أنفسُنا نُعيَتْ إلينا ، قال له : يا أبتِ ، لا أراك الله سوءاً ، ألسْنا على الحقّ ! قال : بلى والذي إليه مرجع العباد ؛ قال : يا أبت ، إذاً لا نبالي ؛ نموت محقّين ؛ فقال له : جزاك الله من وَلَدٍ خيرَ ما جَزَى وَلَداً عن والده ؛ قال فلما أصبح نزل فصلى الغداة ، ثمّ عَجّل الركوب ، فأخذ يتياسر بأصحابه يريد أن يفرّقهم ، فيأتيه الحُرّ بن يزيدَ فيردّهم فيردّه ، فجعل إذا ردّهم إلى الكوفة ردًّا شديداً امتنعوا عليه فارتفعوا ، فلم يزالوا يتسايرون حتى انتَهوا إلى نِينَوَى ؛ المكان الذي نزل به الحسين ؛ قال : فإذا راكبٌ على نجيب له وعليه السلاح متنكّب قوساً مُقبلٌ من الكوفة، فوقفوا جميعاً ينتظرونه ، فلما انتهى إليهم سلّم على الحُرّ بن يزيد وأصحابه ، ولم يسلّم على الحسين عليه السلام وأصحابه ، فدفع إلى الحُرّ كتاباً من عبيدالله بن زياد فإذا فيه : أما بعد ، فجَعْجِعْ بالحسين حين يبلغُك كتابي ، ويَقدُم عليك رسولي ، فلا تُنزله إلّا بالعَراء في غير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرتُ رسولي أن يَلزمَك ولا يفارقك حتى يأتيَني بإنفاذك أمري ؛ والسلام .

قال : فلما قرأ الكتاب قال لهم الحرُّ : هذا كتاب الأمير عُبيد الله بن زياد يأمرني فيه أن أجعجع بكم في المكان الذي يأتيني فيه كتابُه ، وهذا رسوله ، وقد أمره ألّا يفارقني حتى أنفِذ رأيَه وأمْرَه ، فنظر إلى رسول عُبيد الله يزيدُ بن زياد بن المهاصِر أبو الشعثاء الكِنْديّ ثم البهدليّ فعنّ له ، فقال : أمالك بن النُّسير البَدّيّ ؟ قال : نعم ـ وكان أحد كِنْدة ـ فقال له يزيد بنُ زياد: ثكلتْك أمك ! ماذا جئتَ فيه؟ قال: وما جئتُ فيه! أطعتُ إمامي، ووفيتُ ببَيْعتي، فقال له أبو الشعثاء: عصيتَ ربَّك ، وأطعتَ إمامك في هلاك نفسك ، كسبت العار والنار ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴾[1] ، فهو إمامك .

---

(١) سورة القصص: ٣٢ .

قال : وأخذ الحرُّ بن يزيدَ القوم بالنزول في ذلك المكان على غير ماء ولا في قرية ، فقالوا : دَعْنا نَنزِلْ في هذه القرية ، يعنون نِينَوَى ـ أو هذه القرية ـ يعنون الغاضريّة ـ أو هذه الأخرى ـ يعنون شُفَيّة . فقال : لا والله ما أستطيع ذلك ، هذا رجل قد بُعث إليّ عيناً ، فقال له زهير بن القيْن : يابن رسول الله ، إنّ قتال هؤلاء أهوَن من قتال من يأتينا من بعدِهم ، فلَعَمري ليأتينا من بَعدُ مَن ترى ما لا قبل لنا به ، فقال له الحسين : ما كنتُ لأبدأهم بالقتال ؛ فقال له زهير بن القين : سرْ بنا إلى هذه القرية حتى تَنزلها فإنها حصينة ، وهي على شاطىء الفرات ، فإنْ منعونا قاتلْناهم ، فقتالُهم أهوَنُ علينا من قتال من يجيء من بعدهم ؛ فقال له الحسين : وأية قرية هي؟ قال: هي العَقْر ، فقال الحسين : اللهم إني أعوذ بك من العَقْر ، ثم نزل ، وذلك يوم الخميس ، وهو اليوم الثاني من المحرّم سنة إحدى وستين . فلما كان من الغد قدم عليهم عمرُ بن سعد بن أبي وقّاص من الكوفة في أربعة آلاف . قال : وكان سبب خروج ابن سعد إلى الحسين عليه السلام أن عبيدالله بن زياد بعثه على أربعة آلاف من أهل الكُوفة يسير بهم إلى دَسْتَبَى ، وكانت الديلَم قد خرجوا إليها وغلبوا عليها ، فكتب إليه ابنُ زياد عهدَه على الرَّي ، وأمَرَه بالخروج .

فخرج معسكِراً بالناس بحمّام أعينَ ، فلمّا كان من أمر الحسين ما كان وأقبل إلى الكوفة دعا ابنُ زياد عمرَ بن سعد ، فقال : سرْ إلى الحسين، فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرتَ إلى عملك ؛ فقال له عمر بن سعد : إنْ رأيتَ رحمك الله أن تُعفِيَني فافعل ؛ فقال له عبيدالله : نعم ، على أن تردّ لنا عهدَنا ؛ قال : فلما قال له ذلك قال عمر بن سعد : أمهلْني اليومَ حتى أنظرَ ؛ قال فانصرف عمر يستشير نُصَحاءه ، فلم يكن يستشير أحداً إلاّ نهاه ؛ قال : وجاء حمزة بن المغيرة بن شعبة ـ وهو ابن أخته ـ فقال : أنشُدكَ الله يا خال أن تسيرَ إلى الحسين فتأثم بربِّك ، وتقطَعَ رحِمَك! فوالله لأن تخرج من دنياك وما لك وسلطان الأرض كلِّها لو كان لك ، خيرٌ لك من أن تلقَى اللّهَ بدم الحسين ! فقال له عمر بن سعد : فإني أفعل إن شاء الله .

قال هشام : حدّثني عَوانة بن الحَكَم ، عن عمّار بن عبدالله بن يسار الجُهَنيّ ، عن أبيه ، قال : دخلتُ على عمَر بن سعد ، وقد أُمِر بالمسير إلى الحسين ، فقال لي : إن الأمير أمرني بالمسير إلى الحسين ، فأبيتُ ذلك عليه ، فقلتُ له : أصاب الله بك ، أرشَدَك الله ، أحِلْ فلا تفعل ولا تَسِرْ إليه . قال : فخرجتُ من عنده ، فأتاني آتٍ وقال : هذا عُمر بن سعد يَندُب الناسَ إلى الحسين ؛ قال : فأتيتُه فإذا هو جالس ، فلما رآني أعرَض بوجهه فعرفتُ أنه قد عزم على المسير إليه ، فخرجتُ من عنده ؛ قال : فأقبل عمر بن سعد إلى ابن زياد فقال: أصلحك الله! إنك ولَّيتَني هذا العمل ، وكتبت ليَ العهد ، وسَمع به الناسُ ، فإن رأيتَ أن تنفذ لي ذلك فافعلْ وابعثْ إلى الحسين في هذا الجيش مِن أشراف الكوفة مَن لستُ بأغنى ولا أجزأ عنك في الحرب منه ؛ فسمّى له أناساً ، فقال له ابن زياد : لا تُعلِمني بأشراف أهل الكُوفة ، ولست أستأمرك فيمن أريد أن أبعث . إن سرتَ بجندنا ، وإلاّ فابعث إلينا بعهدنا ، فلما رآه قد لجّ قال : فإني سائر ؛ قال : فأقبل في أربعة آلاف حتى نزل بالحسين من الغد من يوم نزل الحسين نِينوَى .

قال : فبعث عُمر بن سعد إلى الحسين عليه السلام عَزْرة بن قيس الأحسميّ ،فقال : ائته فسَلْه ما الّذي جاء به؟ وماذا يريد؟ وكان عزرة ممن كتب إلى الحسين فاستحيا منه أن يأتيَه . قال : فعرض ذلك على الرؤساء الذين كاتبوه ، فكلُّهم أبى وكرهه . قال: وقام إليه كثير بن عبدالله الشعبيّ ـ وكان فارساً شجاعاً ليسَ يرُدّ وجهَه

شيءٌ ـ فقال : أنا أذهب إليه ، والله لئن شئتَ لأفتكنَّ به ، فقال له عمر بن سعد : ما أريد أن يُفتك به ، ولكن ائته فسَلْه ما الذي جاء به؟ قال: فأقبل إليه ، فلما رآه أبو ثمامة الصائدي قال للحسين : أصلحك الله أبا عبدالله ! قد جاءك شرُّ أهل الأرض وأجرؤه على دم وأفتكه ، فقام إليه ، فقال : ضَعْ سيفَك ؛ قال : لا والله ولا كرامة ، إنما أنا رسول ، فإن سمعتم مني أبلغتُكم ما أرسِلتُ به إليكم ، وإن أبَيتم انصرفتُ عنكم ؛ فقال له : فإني آخذٌ بقائِم سيفك ، ثم تكلمْ بحاجتك ، قال : لا والله ، لاتمسّه فقال له : أخبرني ما جئتَ به وأنا أبلِغه عنك ، ولا أدعُك تدنو منه ، فإنك فاجر ؛ قال : فاستبّا ، ثم انصرف إلى عمر بن سعد فأخبره الخبر ؛ قال : فدعا عمر قرّة بن قيس الحنظليّ فقال له : وَيْحك يا قرّة ! القَ حسيناً فسَلْه ما جاء به؟ وماذا يريد؟ قال : فأتاه قرّة بن قيس ، فلما رآه الحسين مقبلاً قال : أتعرفون هذا؟ فقال حبيب بن مُظاهر : نعم ، هذا رجل من حنظلة تميمي ، وهو ابن أختنا ، ولقد كنتُ أعرفه بحسُن الرأي ، وما كنتُ أراه يشهد هذا المشهد ؛ قال : فجاءَ حتى سلَّم على الحسين ، وأبلغه رسالةَ عمر بن سعد إليه له ، فقال الحسين : كتب إليَّ أهلُ مصركم هذا أنْ اقدم ، فأما إذا كَرهوني فأنا أنصرف عنهم ؛ قال : ثم قال له حبيب بن مظاهر : وَيْحك يا قرة بن قيس ! أنّى ترجع إلى القوم الظالمين ! انصرْ هذا الرجل الذي بآبائه أيّدك الله بالكرامة وإيَّانا معك ؛ فقال له قرّة : أرجع إلى صاحبي بجواب رسالته ، وأَرَى رأيي ؛ قال : فانصرف إلى عمر بن سعد فأخبره الخبر ، فقال له عمر بن سعد : إني لأرجو أن يعافيَني الله من حربه وقتالِه .

قال هشام ، عن أبي مخنف ، قال : حدّثني النضر بن صالح بن حبيب بن زهير العبسي، عن حسان بن فائد بن بكير العبسي، قال: أشهد أن كتاب عمر بن سعد جاء إلى عبيدالله بن زياد وأنا عنده فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد، فإني حيث نزلتُ بالحسين بعثتُ إليه رسولي ، فسألتُه عما أقدَمَه ، وماذا يطلب ويسأل ، فقال : كتب إليَّ أهلُ هذه البلاد وأتتْني رسُلهم ، فسألوني القدومَ ففعلت ؛ فأما إذ كرهوني فبدًا لهم غير ما أتتْني به رُسُلهم فأنا منصرفٌ عنهم ، فلما قُرىء الكتاب على ابن زياد قال :

الآنَ إذ عَـلِقَـتْ مَـخـالِـبُـنـا بـه ... يـرجـو النجـاةَ ولاتَ حِينَ مناصِ !

قال : وكتب إلى عمرَ بن سعد :

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد، فقد بلغني كتابُك ، وفهمتُ ما ذكرتَ ، فاعرِض على الحسين أن يبايع ليزيدَ بن معاوية هو وجميع أصحابه ، فإذا فعل ذلك رأينا رأينا ، والسلام .

قال : فلما أتى عمَر بن سعد الكتابُ ، قال : قد حسبتُ ألّا يقبل ابن زياد العافية .

قال أبو مخنف: حدّثني سليمان بن أبي راشد، عن حميد بن مسلم الأزدي ، قال: جاء من عُبيدالله بنِ زياد كتاب إلى عمَر بن سعد: أما بعد، فُحلْ بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا يذوقوا منه قطرة، كما صُنع بالتقيّ الزّكيّ المظلوم أميرِ المؤمنين عثمان بن عفان . قال : فبعث عمر بن سعد عمرو بن الحجَّاج على خمسمائة فارس ، فنزلوا على الشريعة ، وحالوا بين حسين وأصحابه وبين الماء أن يُسقَوا منه قطرة ، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث . قال : ونازَلَه عبدالله بن أبي حُصين الأزدي ـ وعِداده في بَجيلة ـ فقال : يا حسين ، ألا تنظر إلى الماء كأنه كَبد السماء ! والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عَطَشاً ؛ فقال حسين : اللهمّ اقتُله عَطَشاً ، ولا تَغفِرْ له أبداً . قال حميد بن مسلم : والله لعُدتُه بعد ذلك في مرضه ، فوالله

الذي لا إله إلاّ هو لقد رأيتُه يَشرَب حتى بَغَر ، ثم يقيء ، ثم يعود فيَشرَب حتى يبغر فما يَروَى ، فما زال ذلك دأبه حتى لَفَظَ عصبه . يعني نفسه ـ قال : ولما اشتدَّ على الحسين وأصحابه العطش دعا العباس بن علي بن أبي طالب أخاه ، فبعثه في ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً ، وبعث معهم بعشرين قِربةً ، فجاؤوا حتى دنَوا من الماء ليلاً واستقدم أمامهم باللواء نافع بن هلال الجملي ، فقال عمرو بن الحجاج الزبيدي : من الرجل؟ فجيء فقال : ما جاء بك؟ قال: جئنا نشرب من هذا الماء الذي حلأتمونا عنه؛ قال: فاشربْ هنيئاً، قال: لا والله ، لا أشرب منه قطرةً وحسينٌ عطشان ومن ترى من أصحابه ، فطَلَعوا عليه ، فقال : لا سبيلَ إلى سقي هؤلاء ، إنما وُضِعنا بهذا المكان لنمنعهم الماء، فلما دنا منه أصحابه قال لرجاله : املئوا قِرَبكم ، فشدّ الرّجّالة فملؤوا قِرَبهم ، وثار إليهم عمرو بن الحجاج وأصحابه ، فحمل عليهم العباس بن علي ونافع بن هلال فكفّوهم ، ثم انصرفوا إلى رحالهم ، فقالوا : امضوا ، وَوَقَفوا دونهم ، فعطف عليهم عمرو بن الحجّاج وأصحابه واطّردوا قليلاً . ثم إن رجلاً من صُداء طُعِن من أصحاب عَمرو بن الحجاج ، طعنه نافع بن هلال ، فظنّ أنها ليست بشيء ، ثم إنها انتقضت بعد ذلك ، فمات منها ، وجاءَ أصحابُ حسين بالقِرَب فأدخلوها عليه .

قال أبو مخنف : حدّثني أبو جَنَاب ، عن هانيء بن ثُبَيْت الحضرميّ ـ وكان قد شهد قتلَ الحسين ، قال : بعث الحسينُ عليه السلام إلى عمر بن سعد عَمرو بن قرظَة بن كعب الأنصاري : أن الْقَني الليل بَين عسكري وعسكرك . قال : فخرج عمر بن سعد في نحو من عشرين فارساً ، وأقبل حسين في مِثلِ ذلك ، فلما التقوْا أمر حسين أصحابَه أن يتنحّوا عنه ، وأمر عمر بن سعد أصحابَه بمِثل ذلك ؛ قال : فانكشفنا عنهما بحيث لا نَسمعَ أصواتَهما ولا كلامَهما ؛ فتكلّما فأطالا حتى ذهب من الليل هَزِيعٌ ، ثم انصرف كلُّ واحد منهما إلى عسكره بأصحابه ، وتحدّث الناس فيما بينهما ؛ ظنًّا يظنّونه أنّ حسيناً قال لعمر بن سعد : اخرُج معي إلى يزيدَ بن معاوية وندع العسكرَيْن ؛ قال عمر : إذنْ تُهدَم داري ؛ قال : أنا أبنيها لك ، قال: إذنْ تؤخذ ضِياعي ؛ قال : إذن أعطيك خيراً منها من مالي بالحِجاز . قال : فتكرّه ذلك عمر ؛ قال : فتحدَّث الناس بذلك ، وشاع فيهم من غير أن يكونوا سمعوا من ذلك شيئاً ولا علموه .

قال أبو مخنف: وأمّا ما حدّثنا به المجالد بن سعيد والصَّقْعَب بن زهير الأزدي وغيرهما من المحدّثين ، فهو ما عليه جماعة المحدّثين ، قالوا : إنه قال : اختاروا منّي خصالاً ثلاثاً : إمّا أن أرجع إلى المكان الذي أقبلتُ منه ، وإمّا أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرَى فيما بيني وبينه رأيَه ، وإما أن تسيّروني إلى أيّ ثغر من ثغور المسلمين شئتم ، فأكونَ رجلاً من أهلِه ، لي ما لَهم وعليَّ ما عليهم .

قال أبو مخنف : فأما عبدالرحمن بن جندَب فحدّثني عن عقبة بن سِمْعانَ قال: صحبتُ حسيناً فخرجتُ معه من المدينة إلى مكة ، ومن مكّة إلى العراق، ولم أفارقْه حتى قتل ، وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة ولا بمكة ولا في الطريق ولا بالعراق ولا في عسكر إلى يومِ مقتله إلا وقد سمعتُها . ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون ؛ من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية ، ولا أن يسيّروه إلى ثغر من ثغور المسلمين ، ولكنه قال : دعوني فلأذْهَبْ في هذه الأرض العريضة حتى ننظرَ ما يصير أمرُ الناس .

قال أبو مخنف: حدّثني المجالد بن سعيد الهمْدانيّ والصّقعب بن زهير ، أنهما كانا التقَيَا مراراً ثلاثاً

أو أربعاً ؛ حسين وعمر بن سعد ؛ قال : فكتب عمر بن سعد إلى عُبيدالله بن زياد : أما بعد ، فإن الله قد أطفأ النائرة، وجَمَع الكلمة ، وأصلَحَ أمر الأمة ، هذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتَى ، أو أن نسيّره إلى أيّ ثغر من ثغور المسلمين شئنا، فيكونَ رجلاً من المسلمين له ما لَهم ، وعليه ما عليهم ، أو أن يأتيَ يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده ، فيرى فيما بينه وبينه رأيه ، وفي هذا لكم رضاً، وللأمة صلاحٌ. قال: فلما قرأ عبيدالله الكتاب قال: هذا كتاب رجل ناصح لأميره ، مشفِق على قومِه ، نعمْ قد قبلتُ. قال : فقام إليه شمر بن ذي الجوشن ، فقال : أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك إلى جنبك ! والله لئن رحل من بلدك، ولم يضع يده في يدك ، ليكوننّ أولى بالقوّة والعزّة ولتكوننّ أولى بالضّعف والعجز ، فلا تُعطِه هذه المنزلةَ فإنها من الوَهَن ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فإن عاقبتَ فأنت وليّ العقوبة ، وإن غفرتَ كان ذلك لك ، واللّهِ لقد بلغني أنّ حسيناً وعمر بن سعد يجلسان بين العسكرين فيتحدّثان عامّة الليل ، فقال له ابن زياد : نِعْمَ ما رأيتَ ! الرأيُ رأيُك .

قال أبو مخنف: فحدّثني سليمان بن أبي راشد، عن حميد بن مسلم، قال: ثمّ إنّ عبيدالله بن زيادٍ دعا شَمِر بنَ ذي الجَوْشن فقال له: اخرجْ بهذا الكتاب إلى عُمَر بن سعد فلْيعرض على الحسين وأصحابه النزول على حُكمِي، فإن فعلوا فليبعث بهم إليّ سلماً، وإن هم أبَوا فليقاتلْهم، فإن فعل فاسمع له وأطع، وإن هو أبى فقاتِلهم، فأنت أمير الناس، وثِبْ عليه فاضرب عنقه، وابعث إليّ برأسه.

قال أبو مخنف : حدّثني أبو جَناب الكلبي ، قال : ثم كتب عبيدالله بن زياد إلى عمر بن سعد: أما بعد، فإني لم أبعثك إلى حسين لتكفّ عنه ولا لتطاوِلَه ، ولا لتمنِّيَه السلامةَ والبقاء ، ولا لتقعدَ له عندي شافعاً . انظر ، فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا ، فابعث بهم إليَّ سلماً ، وإن أبـوْا فازحف إليهم حتى تقتُلَهم وتمثِّل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتِل حسين فأَوْطِىء الخيلَ صدرَه وظهرَه ، فإنه عاقّ مشاقّ ، قاطع ظلوم ، وليس دهري في هذا أن يُضَرّ بعد الموت شيئاً ، ولكن عليّ قول لو قد قتلتُه فعلتُ هذا به. إن أنتَ مضيتَ لأمرِنا فيه جَزَيناك جزاءَ السامع المطيع ، وإن أبيتَ فاعتَزِلْ عَمَلَنا وجندَنا ، وخلّ بين شمِر بن ذي الجوْشن وبين العسكر ، فإنا قد أمرناه بأمرنا ؛ والسلام .

قال أبو مخنف : عن الحارث بن حَصِيرة ، عن عبدالله بن شريك العامريّ ، قال : لمّا قبض شمر بن ذي الجوشَن الكتاب قام هو وعبدالله بن أبي المحلّ ـ وكانت عمته أمّ البنين ابنة حزام عند علي بن أبي طالب عليه السلام ، فولدتْ له العبّاسَ وعبدَالله وجعفراً وعثمانَ ـ فقال عبدالله بن أبي المحلّ بن حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب : أصلح الله الأمير! إن بني أختنا مع الحسين ، فإن رأيتَ أن تكتب لهم أماناً فعلت ؛ قال : نعم ونَعمةَ عَيْن . فأمر كاتبه ، فكتب لهم أماناً ، فبعث به عبدالله بن أبي المحلّ مع مولًى له يقال له : كُزمان ، فلما قدم عليهم دعاهم ، فقال : هذا أمانٌ بعثَ به خالُكم ؛ فقال له الفتية : أقرِىءْ خالَنا السلام ، وقل له: أن لا حاجةَ لنا في أمانكم ، أمانُ الله خيرٌ من أمان ابن سميّة.
قال: فأقبل شمِر بن ذي الجَوْشن بكتاب عُبيدالله بن زياد إلى عمر بن سعد ، فلما قدم به عليه فقرأه قال له عمر: ما لَكَ وَيْلَكَ! لا قرّب الله دارَك ، وقبّح الله ما قدمت به عليَّ! والله إني لأظنُّك أنت ثَنَيتَه أن يَقبَل ما كتبتُ به إليه ، أفسدت علينا أمراً كنا رجونا أن يصلح ، لا يستسلم والله حسين ، إنّ نفساً أبيّةً لبَيْن جنبَيْه ،

فقال له شَمِر : أخبِرني ما أنت صانع؟ أتمضي لأمر أميـرك وتقتل عـدوّه ، وإلا فخلّ بيني وبين الجنـد والعسكر؛ قال: لا ولا كرامةَ لك، وأنا أتولّى ذلك؛ قال: فدونك، وكن أنت على الرّجال ؛ قال : فنهض إليه عشيّة الخميس لتسعٍ مضَين من المحرّم ؛ قال: وجاء شمِر حتى وقف على أصحاب الحسين، فقال: أين بنو أختنا؟ فخرج إليه العباس وجعفر وعثمان بنو علي ، فقالوا له : ما لَكَ وما تريد؟ قال: أنتم يا بني أختي آمنون ؛ قال له الفتية: لعنك الله ولعن أمانك! لئن كنت خالنا أتؤمِّننا وابن رسول الله لا أمانَ له! قال: ثمّ إنّ عمر بن سعد نادى : يا خيلَ اللّهِ اركبي وأبشري . فركِب في الناس ، ثم زحف نحوَهم بعد صلاة العصر ، وحسين جالس أمامَ بيته محتبياً بسيفه ، إذ خفق برأسه على ركبتَيْه ، وسمعتْ أختُه زينب الصيحة فدنتْ من أخيها ، فقالت : يا أخي ، أما تسمع الأصوات قد اقتربت ! قال : فرفع الحسينُ رأسه فقال : إنّي رأيت رسولَ الله ﷺ في المنام فقال لي : إنك تروح إلينا ؛ قال : فلطمتْ أختُه وجهَها وقالت : يا ويلتا ! فقال : ليس لكِ الويل يا أخيّة ، اسكُني رحمكِ الرّحمن ! وقال العباس بن علي : يا أخي ، أتاك القومُ ؛ قال : فنهض ؛ ثم قال : يا عباس ، اِركَب بنَفْسي أنت يا أخي حتى تلقاهم فتقول لهم : ما لَكم؟ وما بَدَا لكم؟ وتسألهم عما جاء بهم؟ فأتاهم العباس؛ فاستقبلهم في نحو من عشرين فارساً فيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر ، فقال لهم العباس : ما بدا لكم؟ وما تريدون؟ قالوا : جاء أمر الأمير بأن نَعرِض عليكم أن تنزلوا على حُكمه أو ننازِلَكم ؛ قال : فلا تعجلوا . حتى أرجع إلى أبي عبدالله فأعرِض عليه ما ذكرتم ؛ قال : فوقفوا ثم قالوا : اِلقَه فأعلِمه ذلك ، ثمّ القَنا بما يقول ؛ قال : فانصرف العبّاس راجعاً يركض إلى الحسين يُخبره بالخبر، ووقف أصحابُه يخاطبون القومَ ، فقال حبيب بن مظاهـر لزهيـر بن القين : كلِّم القومَ إن شئتَ . وإن شئتَ كلمتُهم ، فقال له زهير: أنت بدأت بهذا ، فكن أنت تكلّمهم ، فقال لـه حبيب بن مظاهر : أما والله لبئسَ القومُ عند الله غداً قومٌ يَقدَمون عليه قد قتلوا ذرّية نبيّه عليه السلام وعترتَه وأهلَ بيته ﷺ وعبّاد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار ، والذّاكِرين اللّهَ كثيراً ؛ فقال له عَزْرة بن قيس: إنك لتُزكّي نفسك ما استطعتَ ؛ فقال له زهير : يا عَزْرة ، إنّ الله قد زكّاها وهداها ، فاتّق الله يا عزرة فإني لك من الناصحين ، أنشدُك اللّهَ يا عَزْرة أن تكون ممن يعين الضلال على قتل النفوس الزكيّة! قال: يا زهير ، ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت ، إنما كنتَ عثمانيًّا ؛ قال : أفَلَستَ تستدلّ بموقفي هذا أنّي منهم! أما والله ما كتبتُ إليه كتاباً قطّ ، ولا أرسلتُ إليه رسولاً قطّ، ولا وعدتُه نُصرتي قطّ، ولكن الطريق جمع بيني وبينه، فلما رأيته ذكرتُ به رسولَ الله ﷺ ومكانَه منه ، وعرفت ما يقدم عليه من عدوّه وحزبكم ، فرأيت أن أنصرَه ، وأن أكون في حزبه ، وأن أجعل نفسي دونَ نفسه ، حِفظاً لما ضيّعتم من حقّ الله وحقّ رسوله عليه السلام . قال : وأقبل العبّاس بن علي يركض حتى انتهى إليهم ، فقال : يا هؤلاء ، إنّ أبا عبدالله يسألكم أن تَنصرِفوا هذه العشيّة حتى ينظر في هذا الأمر ، فإنّ هذا أمرٌ لم يجْرِ بينكم وبينه فيه مَنطقٌ ، فإذا أصبحنا التقينا إن شاء الله ، فإمّا رضيناه فأتينا بالأمر الذي تسألونه وتسومونه ، أو كرهْنا فردَدْناه ، وإنما أراد بذلك أن يردّهم عنه تلك العشيّة حتى يأمر بأمره ، ويوصِي أهله ، فلما أتاهم العباس بن علي بذلك قال عمر بن سعد : ما ترى يا شمِر؟ قال : ما ترى أنت ، أنت الأمير والرأي رأيك ؛ قال : قد أردت ألّا أكون ؛ ثم أقبل على الناس فقال : ماذا ترون؟ فقال عَمرو بن الحجّاج بن سلمة الزُّبيدي : سبحان الله! والله لو كانوا من الدّيلم ثم سألوك هذه المنزلةَ لكان ينبغي لك أن تجيبهم إليها ، وقال قيس بن الأشعث : أجِبْهم إلى ما

سألوك ، فلَعَمري ليصبُحنّك بالقتال غُدْوة ؛ فقال : والله لو أعلم أن يفعلوا ما أخرجتُهم العشيّة ؛ قال : وكان العباس بن علي حين أتى حسيناً بما عرض عليه عمر بن سعد قال: اِرجِع إليهم ، فإن استطعتَ أن تؤخِّرَهم إلى غُدْوة وتدفَعَهم عند العشيّة لعلنا نصلّي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره ، فهو يَعلم أني قد كنتُ أحبّ الصلاةَ له وتلاوَة كتابه وكثرةَ الدعاء والاستغفار! .

قال أبو مخنف : حدّثني الحارث بن حَصِيرة، عن عبدالله بن شريك العامريّ ، عن علي بن الحسين قال: أتانا رسولٌ مِن قِبَل عمر بن سعد فقام مثل حيث يُسمَع الصوت فقال : إنا قد أجّلناكم إلى غد ، فإن استسلمتم سرّحنا بكم إلى أميرنا عُبيدالله بن زياد، وإن أبَيتم فلسنا تارِكِيكُمْ .

قال أبو مخنف : وحدّثني عبدالله بن عاصم الفائشي ، عن الضحاك بن عبدالله المشرقي . ـ بَطْن من هَمْدان ـ أنّ الحسين بنَ علي عليه السلام جمع أصحابه .

قال أبو مِخْنف : وحدّثني أيضاً الحارث بن حَصِيرة ، عن عبدالله بن شريك العامريّ ، عن علي بن الحسين ، قالا : جمع الحسين أصحابَه بعد ما رجع عمر بن سعد ، وذلك عند قرب المساء ، قال علي بن الحسين : فدنوتُ منه لأسمع وأنا مريض ، فسمعتُ أبي وهو يقول لأصحابه : أُثني على الله تبارك وتعالى أحسنَ الثناء ، وأحمده على السرّاء والضرّاء ؛ اللهمّ إنّي أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوّة ، وعلّمتنا القرآن ، وفقّهتنا في الدين ، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ، ولم تجعلنا من المشركين ؛ أما بعد ، فإني لا أعلم أصحاباً أولَى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصلَ من أهل بيتي ، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً ؛ ألا وإني أظنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ، ألا وإني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعاً في حلّ، ليس عليكم مِنّي ذِمام ، هذا ليلٌ قد غَشيَكم ، فاتّخِذوه جَمَلاً .

قال أبو مخنف : حدّثنا عبدالله بن عاصم الفائشي ـ بطن من هَمْدان ـ عن الضّحاك بن عبدالله المِشرقي ، قال : قدمت ومالك بن النضر الأرحبي على الحسين ، فسلّمنا عليه ، ثم جلسنا إليه ، فردّ علينا ، ورحّب بنا ، وسألنا عما جئنا له ، فقلنا : جئنا لنسلّم عليك ، وندعوَ الله لك بالعافية ، ونحدِثَ بك عهداً ، ونخبرك خبر الناس ، وإنا نحدّثك أنهم قد جمعوا على حربك فرَ رأيك . فقال الحسين عليه السلام : حسبي الله ونعم الوكيل! قال: فتذممنا وسلمنا عليه ، ودَعَوْنا اللّهَ له ، قال : فما يمنعكما من نُصرتي ؟ فقال مالك بن النّضر : عليَّ دَين ، ولي عيال ، فقلتُ له : إنّ عليَّ دَيناً ، وإنّ لي لعيالاً ، ولكنك إن جعلتني في حِلٍّ من الانصراف إذا لم أجد مقاتلاً قاتلت عنك ما كان لك نافعاً ، وعنك دافعاً! قال: قال: فأنت في حلّ ؛ فأقمتُ معه ، فلما كان الليل قال : هذا الليل قد غشِيَكم ، فاتَّخِذُوه جَمَلا ، ثم ليأخذ كلّ رجل منكم بيدِ رجل من أهل بيتي ، تفرّقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرّج الله ، فإنّ القوم إنما يطلبوني ، ولو قد أصابوني لهَوْا عن طَلب غيري ؛ فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه وابنا عبدالله بن جعفر : لِمَ نفعل لنبقى بعدك ، لا أرانا الله ذلك أبداً ؛ بدأهم بهذا القول العباس بن علي. ثم إنهم تكلّموا بهذا ونحوه، فقال الحسين عليه السلام : يا بني عقيل ، حسبكم من القتل بمسلم ، اذهبوا قد أذنتُ لكم ؛ قالوا : فما يقول الناس! يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ، ولم نرْم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برُمح ، ولم نضربْ معهم بسيف ، ولا ندري ما صنعوا! لا والله لا نفعل ، ولكن تَفدِيك أنفسنا وأموالُنا وأهلُونا ، ونقاتل معك حتى نَرِدَ

مَورِدَك ، فقبح الله العيشَ بعدَك !

قال أبو مخنف : حدّثني عبدالله بن عاصم ، عن الضحّاك بن عبدالله المِشرقيّ ، قال : فقام إليه مسلم بن عَوْسجة الأسديّ فقال : أنحنُ نخلّي عنك ولمّا نُعذِر إلى الله في أداء حقك ! أما والله حتى أكسرَ في صدورهم رُمْحي ، وأضربَهم بسيفي ما ثبت قائمهُ في يدي ، ولا أفارقك ؛ ولو لم يكن معي سلاح أقاتلُهم به لقذفتُهم بالحجارة دونَك حتى أموت معك . قال : وقال سعيد بن عبدالله الحنفي : والله لا نخلّيك حتى يعلم الله أنا حفظنا غيبةَ رسول الله ﷺ فيك ، والله لو علمتُ أني أقتل ثم أحيَا ثمّ أُحرَق حيًّا ثم أذرّ ، يُفعَلُ ذلك بي سبعين مرة ما فارقتُك حتى ألقَى حِمامي دونَك ، فكيف لا أفعل ذلك ! وإنما هي قَتْلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً .

قال : وقال زهير بن القَيْن : والله لوددتُ أنّي قُتِلت ثم نشِرت ثم قتلت حتى أقتلَ كذا ألْف قتلة ، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك . قال : وتكلم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد ، فقالوا : واللّهِ لا نفارِقُك ، ولكنّ أنفسنا لك الفداء ، نَقِيك بنحورنا وجِباهنا وأيدينا ، فإذا نحن قُتِلنا كنّا وَفّينا ، وَقَضَينا ما علينا .

قال أبو مخنف : حدّثني الحارث بن كعب وأبو الضّحاك ، عن علي بن الحسين بن علي قال : إني جالس في تلك العشيّة التي قُتِل أبي صبيحتَها، وعمتي زينب عندي تمرّضني ، إذ اعتزل أبي بأصحابه في خِباء له ، وعنده حُوَيّ ، مولَى أبي ذَرّ الغِفاريّ ، وهو يعالج سيفَه ويصلِحُه وأبي يقول :

يا دهرُ أُفٍّ لك من خليلِ ... كم لك بالإشراقِ والأصيلِ
مِن صاحبٍ أو طالبٍ قَتيلِ ... والدَّهرُ لا يقنعُ بالبَديلِ
وإنما الأمرُ إلى الجليلِ ... وكلُّ حيٍّ سالكُ السّبيلِ

قال : فأعادها مرّتين أو ثلاثاً حتى فهمتُها ، فعرفتُ ما أراد، فخنقتْني عَبرتي ، فرددتُ دمعي ولزمت السكون ، فعلمتُ أنّ البلاء قد نزل؛ فأما عمتي فإنها سمعتْ ما سمعتُ ، وهي امرأة ، وفي النساء الرِّقّة والجزَع ، فلم تملكْ نفسها أن وثبتْ تجرّ ثوبَها ، وإنها لحاسرة حتى انتهت إليه ؛ فقالت : واثكْلاه ! ليت الموتَ أعدَمَني الحياةَ ! اليوم ماتت فاطمة أمي وعلي أبي وحسن أخي ، يا خليفة الماضي ، وثِمال الباقي ؛ قال : فنظر إليها الحسين عليه السلام فقال : يا أُخَيّة ، لا يُذهِبَنَّ حِنمك الشيطان؛ قالت : بأبي أنت وأمي يا أبا عبدالله ! استقتلَت نفسي فِداك ؛ فردّ غُصّته ، وترقرقتْ عيناه ، وقال : لو ترِك القَطَا لَيْلاً لنام ؛ قالت : يا ويلَتي ، أفتغصب نفسك اغتصاباً ، فذلك أقْرَح لقلبي ، وأشدُّ على نفسي ! ولطمتْ وجهَها ، وأهوَتْ إلى جَيْبها وشقّته ، وخرّت مغشيًّا عليها ، فقام إليها الحسين فصبّ على وجهها الماء ، وقال لها : يا أُختيّة ، اتّقي الله وتعزَّيْ بعزاء الله ، واعلمي أنّ أهلَ الأرض يموتون ، وأنّ أهل السماء لا يَبقَوْن ، وأنّ كلّ شيء هالكٌ إلاّ وجه الله الذي خلق الأرض بقدرته ، ويبعث الخلق فيعودون ، وهو فرد وحدَه، أبي خيرٌ مني، وأمي خيرٌ مني، وأخي خيرٌ مني ، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة ؛ قال : فعزّاها بهذا ونحوه، وقال لها : يا أخيّة، إني أقسم عليك فأبرّي قَسمي ، لا تشقّي عليَّ جيباً ، ولا تَخمِشي عليَّ وجهاً ، ولا تَدْعي عليَّ بالوَيْل والثّبُور إذا أنا

هلكتُ ؛ قال : ثم جاء بها حتى أجلسها عندي ، وخرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقرّبوا بعضَ بيوتهم من بعض ، وأن يُدخلوا الأطناب بعضها في بعض ، وأن يكونوا هم بين البيوت إلا الوجه الذي يأتيهم منه عدوّهم .

قال أبو مخنف : عن عبدالله بن عاصم ، عن الضحّاك بن عبدالله المِشْرَقيّ ، قال : فلما أمسى حسين وأصحابه قاموا الليلَ كلَّه يصلّون ويستغفرون ، ويَدْعون ويتضرّعون ؛ قال : فتمرّ بنا خيلٌ لهم تحرسنا ، وإنّ حسيناً ليقرأ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾[1] . فسمِعَها رجل من تلك الخيل التي كانت تحرسنا ، فقال : نحن وربِّ الكعبة الطيِّبون ، مُيِّزنا منكم . قال : فعرفتَه فقلتُ لبُرَير بن حُضَير : تدري مَن هذا؟ قال : لا ؛ قلت هذا أبو حَرْب السَّبِيعيّ عبدالله بن شهر ـ وكان مِضْحاكاً بَطّالاً ، وكان شريفاً شُجاعاً فاتكاً ، وكان سعيد بن قيس ربما حبسه في جناية ـ فقال له بُرَير بن حُضَير : يا فاسق ، أنتَ يجعلك الله في الطيِّبين ! فقال له : مَن أنت؟ قال : أنا بُرَيْر بن حُضَير ؛ قال : إنا لله ! عزّ عليَّ ! هلكت والله ، هلكت والله يا بُرَيرا قال : يا أبا حرب ، هل لَك أن تتوب إلى الله من ذنوبك العظام ! فوالله إنا لنحن الطيِّبون ، ولكنكم لأنتم الخَبيثون ؛ قال : وأنا على ذلك من الشاهدينَ ، قلتُ : ويحك ! أفلا ينفعك معرفتُك ! قال : جُعلت فداك ! فمن ينادم يزيدَ بن عذرة العَنَزيّ من عَنَز بن وائل! قال : ها هو ذا معي ؛ قال : قبح الله رأيَك على كلّ حال! أنت سفيه . قال : ثم انصرف عنّا ، وكان الذي يحرُسنا بالليل في الخيل عَزْرة بن قيس الأحْمسيّ ، وكان على الخيل ؛ قال : فلما صلَّىٰ عمر بن سعد الغداةَ يوم السبت ـ وقد بلغَنا أيضاً أنه كان يوم الجمعة ، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء ـ خرج فيمن معه من الناس .

قال : وعبّأ الحسين أصحابَه ، وصلّى بهم صلاةَ الغَداة ، وكان معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً ، فجعل زهيرَ بنَ القين في ميمنة أصحابه ، وحبيبَ بن مُظاهر في ميسرة أصحابه ، وأعطى رايتَه العباس بن علي أخاه ، وجعلوا البيوت في ظهورهم ، وأمر بحطب وقصب كان من وراء البيُوت يُحرق بالنار مخافة أن يأتوهم من ورائهم . قال : وكان الحسين عليه السلام أتى بقصب وحطب إلى مكان من ورائهم منخفِض كأنه ساقية ، فحفروه في ساعة من الليل ، فجعلوه كالخندق ، ثمّ ألقَوْا فيه ذلك الحَطب والقصب ، وقالوا : إذا عَدَوْا علينا فقاتَلُونا ألقَيْنا فيه النار كيلا نُؤتَى من ورائنا ، وقاتلنا القوم من وجه واحد . ففعلوا ، وكان لهم نافعاً .

قال أبو مخنف : حدّثني فُضيل بن خَدِيج الكندي ، عن محمد بن بشر ، عن عَمرو الحضرمي ، قال : لما خرج عمر بن سعد بالناس كان على رُبْع أهل المدينة يومئذ عبدُالله بن زهير بن سُليم الأزديّ ، وعلى رُبْع مَذْحِج وأَسَد عبدالرحمن بن أبي سَبْرة الجعفي ، وعلى رُبْع ربيعة وكِنْدة قيس بن الأشعث بن قيس ، وعلى ربع تميم وهَمْدان الحرّ بن يزيد الرّياحيّ ؛ فشهد هؤلاء كلُّهم مَقتَلَ الحسين إلاّ الحُرّ بن يزيد فإنه عدل إلى الحسين ، وقُتل معه . وجعل عمرُ على ميمنته عَمْرو بن الحجّاج الزُّبيديّ ، وعلى ميسرته شَمر بن ذي الجوْشن بن شُرَحبيل بن الأعور بن عمر بن معاوية ـ وهو الضِّباب بن كلاب ـ وعلى الخيل عَزْرة بن قيس الأحمسيّ ، وعلى الرّجال شَبَث بن رِبْعيّ الرياحيّ ، وأعطى الراية ذُوَيداً مولاه .

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٨ ، ١٧٩ .

قال أبو مخنف: حدّثني عَمرو بن مرَّة الجمَليّ ، عن أبي صالح الحنفيّ ، عن غلام لعبدالرّحمن بن عبد ربّه الأنصاري ، قال : كنت مع مولاي ، فلما حضر الناس وأقبلوا إلى الحسين ، أمر الحسينُ بفُسطاط فضُرب ، ثم أمر بمسك فميثَ في جَفْنة عظيمة أو صَحْفة ؛ قال : ثم دخل الحسين ذلك الفُسْطاطَ فتطلّى بالنُّورة . قال : ومولاي عبدُالرحمن بنُ عبدِ ربّه وبُرَير بن حُضَير الهمْدانيّ على باب الفُسْطاط تحتكّ مناكبهما ، فازدحما أيهما يَطّلي على أثره ، فجعل بُرَيَر يهازل عبدَالرحمن ، فقال له عبدالرحمن: دعنا، فوالله ما هذه بساعة باطل، فقال له بُرَير: والله لقد علم قومي أني ما أحببتُ الباطلَ شابًّا ولا كَهْلاً ، ولكنْ والله إنّي لمستبشرٌ بما نحن لاقُون ، والله إنْ بيننا وبين الحُور العين إلا أن يميل هؤلاء علينا بأسيافهم ، ولَوددتُ أنهم قد مالوا علينا بأسيافهم . قال: فلما فرغ الحسين دخلنا فاطّلينا ؛ قال : ثمّ إنّ الحسين ركب دابّته ودعا بمصحف فوضعه أمامَه ؛ قال : فاقتتل أصحابُه بين يديه قتالاً شديداً ، فلما رأيتُ القوم قد صُرِعوا أفلَتّ وتركتُهم .

قال أبو مخنف، عن بعض أصحابه ، عن أبي خالد الكاهليّ ، قال : لما صبّحت الخيل الحسينَ رفع الحسين يديه ، فقال : اللهمّ أنت ثِقتي في كلّ كرب ، ورجائي في كلّ شدّة ، وأنت لي في كلّ أمر نزَل بي ثقة وعُدّة ، كم من همّ يَضعُف فيه الفؤاد ، وتقلّ فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ، ويَشمَت فيه العدوّ ، أنزلتُه بك ، وشكوته إليك ، رغبةً مني إليك عمّن سواك ، ففرَّجتَه وكشفتَه ، فأنت وليّ كلّ نعمة ، وصاحب كلّ حسنة ، ومُنتَهى كلّ رغبة .

قال أبو مخنف: فحدّثني عبدالله بن عاصم ، قال : حدّثني الضحّاك المِشرقي ، قال : لما أقبلوا نحونا فنظروا إلى النار تضطرم في الحطب والقصب الذي كنا ألهبنا فيه النار من ورائنا لئلا يأتونا مِن خَلفنا ، إذْ أقبل إلينا منهم رجل يَركُض على فرس كامل الأداة ، فلم يكلّمنا حتى مرّ على أبياتنا ، فنظر إلى أبياتنا فإذا هو لا يرى إلّا حطباً تلتهب النار فيه ، فرجع راجعاً ، فنادى بأعلى صوته : يا حسين ، استعجلتَ النارَ في الدنيا قبل يوم القيامة! فقال الحسين : مَن هذا؟ كأن شَمِر بن ذي الجَوْشن ! فقالوا : نعم ، أصلحك الله! هو هو، فقال: يابن راعية المِعْزَى، أنت أوْلى بها صليًّا ؛ فقال له مسلم بن عَوْسَجَة : يابن رسول الله ، جُعِلتُ فِداك! ألا أرميه بسهم! فإنه قد أمكنني ، وليس يَسقُط [منّي] سهم ، فالفاسق من أعظم الجَبّارين ؛ فقال له الحسين : لا ترمِه ، فإني أكره أن أبدأهم ، وكان مع الحسين فرس له يُدْعى لاحقاً حمل عليه ابنَه علي بن الحسين ؛ قال : فلما دنا منه القوم عاد براحلتِه فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته دُعاءً يُسمِع جُلَّ الناس : أيها الناس ؛ اِسمَعوا قولي ، ولا تُعجِلوني حتى أعِظَكم بما لحقٌّ لكم عليَّ ، وحتى أعتـذرَ إليكم من مَقدَمي عليكم ، فـإن قبلتم عذري ، وصدَّقتم قولي ، وأعطيتموني النَّصف ، كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم عليَّ سبيل ، وإن لم تقبلوا منّي العذر ، ولم تُعطُوا النَّصَف من أنفسكم : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون ﴾[1] ؛ ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾[2] . قال : فلما سمع أخواته كلامه هذا صِحْن وبكيْن ، وبكى بناته فارتفعت أصواتُهنّ ، فأرسل إليهنّ أخاه العباس بنَ علي وعليًّا ابنه ، وقال لهما: أسْكِتاهنّ ، فلَعَمري ليكثرنّ بكاؤهنّ ؛ قال : فلما ذهبا لُيسكتاهنّ قال: لا يَبْعد ابن

---

(١) سورة يونس: ٨١.
(٢) سورة الأعراف: ١٩٦.

عباس ؛ قال : فظننا أنه إنما قالها حين سُمِع بكاؤهنّ ، لأنه قد كان نهاه أن يخرج بهنّ ، فلما سكتن حَمِد الله وأثنَى عليه ، وذَكَر اللّهَ بما هو أهلُه ، وصلى على محمّد صلى الله عليه وعلى ملائكته وأنبيائه ، فذكر من ذلك ما الله أعلم وما لا يُحصى ذكرُه . قال : فوالله ما سمعتُ متكلّماً قطّ قبْلَه ولا بعدَه أبلغَ في منطق منه ؛ ثم قال : أمّا بعد ، فانسبوني فانظروا مَن أنا ، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتِبوها ، فانظروا ؛ هل يحلّ لكم قتلي وانتهاكُ حرمتي؟ ألستُ ابنَ بنت نبيِّكم ﷺ وابنَ وصيِّه وابن عمّه ، وأوّل المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله بما جاء به من عند ربّه ! أوَليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي! أوَليس جعفر الشهيد الطيّار ذو الجناحين عمِّي! أوَلم يبلغْكم قول مستفيض فيكم : إنّ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآلِه وسلم قال لي ولأخي : « هذان سيّدَا شبابِ أهل الجنة » ! فإن صدَّقتموني بما أقول ـ وهو الحقّ ـ فوالله ما تعمَّد كذباً مذ علمتُ أنّ الله يمقت عليه أهله ، ويضرّ به من اختلقه ، وإن كذَّبتموني فإنّ فيكم مَن إن سألتموه عن ذلك أخبَرَكم ؛ سَلُوا جابرَ بنَ عبدالله الأنصاري ، أو أبا سعيد الخُدْريّ ، أو سهل بن سعد الساعديّ ، أو زيد بن أرقم ، أو أنس بن مالك ؛ يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لي ولأخي . أفَما في هذا حاجز لكم عن سَفْك دمي! فقال له شَمِر بن ذي الجوشن : هو يَعبد الله على حَرْفٍ إن كان يدري ما يقول! فقال له حبيب بن مُظاهر : والله إني لأراك تَعبُد الله على سبعين حرفاً ، وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول ؛ قد طبع اللّهُ على قلبك ؛ ثم قال لهم الحسين : فإنْ كنتم في شكّ من هذا القول أفتشكّون أثراً ما أنّي ابنُ بنت نبيّكم! فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري منكم ولا من غيركم ، أنا ابن بنتِ نبيّكم خاصّة . أخبروني ، أتطلبوني بقتيل منكم قتلتُه ، أو بمالٍ لكم استهلكته ، أو بقِصاص من جراحة؟ قال : فأخذوا لا يكلمونه ؛ قال : فنادى : يا شَبَث بن رِبْعيّ ، ويا حجّار بن أبجر ، ويا قيس بن الأشعث ، ويا يزيد بن الحارث ، ألم تكتبوا إليَّ أن قد أيْنَعت الثمار ، واخضرّ الجَناب ، وطمَّت الجمام ، وإنما تقدُم على جند لك مُجنَّد ، فأقبِلْ! قالوا له : لم نفعل؛ فقال : سبحان الله! بلى والله ، لقد فعلتم؛ ثم قال : أيها الناس ، إذْ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمَني من الأرض ؛ قال : فقال له قيس بن الأشعث : أوَلا تنزل على حكم بني عمّك ، فإنهم لن يُرُوك إلّا ما تحبّ ، ولن يصل إليك منهم مكروه؟ فقال الحسين : أنت أخو أخيك ، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثرَ من دم مسلم بن عَقِيل ؛ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقرُّ إقرارَ العبيد . عباد الله ، إني عُذْتُ بربِّي وربّكم أن تَرجُمون أعوذ بربي وربّكم مِن كلّ متكبِّر لا يؤمن بيوم الحساب ؛ قال : ثمّ إنه أناخ راحلته ، وأمر عقبة بن سِمْعان فعَقَلها ، وأقبلوا يزحفون نحوه .

قال أبو مخنف : فحدّثني علي بن حنظلة بن أسعد الشامي ، عن رجل من قومه شهد مقتلَ الحسين حين قُتِل يقال له كثير بن عبدالله الشعبي ؛ قال : لما زحفنا قِبَل الحسين خرج إلينا زُهير بن قَيْن على فرس له ذَنوب ، شاكٍ في السلاح ، فقال : يا أهْلَ الكوفة ، نَذارِ لكم من عذاب الله نَذار! إنّ حقًّا على المسلم نصيحةَ أخيه المسلم ، ونحن حتى الآن إخوة ، وعلى دين واحد ومِلّة واحدة ، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، وأنتم للنصيحة منا أهلٌ ، فإذا وقع السيف انقطعت العِصمة ، وكنا أمّة وأنتم أمة ، إنَّ الله قد ابتلانا وإياكم بذرّية نبيه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنا ندعوكم إلى نصرهم وخِذلان الطاغية عُبيدِ الله بن زياد ، فإنكم لا تدركون منهما إلّا بسوء عُمْرَ سلطانهما كلّه ، لَيسملانّ أعينَكم ، ويقطّعانِّ أيديَكم وأرجلَكم ، ويمثّلانِّ بكم ، ويرفعانّكم على جُذُوع النخل ، ويقتّلان أماثلَكم وقُرّاءَكم ، أمثال حُجر بن عَديّ وأصحابه ، وهانىء بن عروة

وأشباهه ؛ قال : فسبُّوه ، وأثنَوا على عُبيد الله بن زياد ، ودَعَوا له ، وقالوا : والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومَنْ معه ، أو نبعثَ به وبأصحابه إلى الأمير عُبيدالله سِلْماً ؛ فقال لهم : عبادَ الله ، إنَّ ولد فاطمة رضوان الله عليها أحقّ بالودّ والنصر من ابن سُمَيّة ، فإنْ لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم ؛ فخلّوا بين الرجل وبين ابن عمه يزيدَ بن معاوية ، فلَعَمري إنَّ يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين؛ قال: فرَماه شَمِر بن ذي الجوْشن بسهم وقال : اسكتْ أسكتَ الله نأمَتك ، أبرمْتَنا بكثرة كلامك! فقال له زهير: يابنَ البَوّال على عَقِبيْه ، ما إيّاك أخاطب ، إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تُحكِم من كتاب الله آيتَين ، فأبشِرْ بالخزي يومَ القيامة والعذاب الأليم ؛ فقال له شمِر : إنّ الله قاتلك وصاحبك عن ساعة ؛ قال: أفبالموت تُخوِّفني ! فوالله للموت معه أحبّ إليَّ من الخُلد معكم ؛ قال : ثمّ أقبل على الناس رافعاً صوته ، فقال : عبادَ الله ، لا يغرّنّكم من دينكم هذا الجِلْف الجافي وأشباهه ، فوالله لا تنال شفاعةُ محمد ﷺ قوماً هَراقوا دماء ذُرّيته وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم وذَبَّ عن حريمهم ؛ قال : فناداه رجل فقال له : إنّ أبا عبدالله يقول لك : أقبل ، فلَعمري لئن كان مؤمنُ آل فرعون نصح لقومه وأبلَغ في الدعاء ، لقد نصحتَ لهؤلاء وأبلغتَ لو نفع النصح والإبلاغ !

قال أبو مخنف : عن أبي جَناب الكَلْبيّ ، عن عديٍّ بن حرمَلة ، قال : ثمّ إنّ الحُرّ بن يزيد لما زحف عمر ابن سعد قال له: أصلحك الله! مُقاتِلٌ أنت هذا الرجل؟ قال: إي والله قتالاً أيسرُه أن تسقط الرؤوسُ وتطيح الأيدي ؛ قال : أفما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضاً؟ قال عمر بن سعد: أما والله لو كان الأمر إليَّ لفعلت ، ولكنّ أميرَك قد أبى ذلك ؛ قال : فأقبل حتى وقف من الناس موقفاً ، ومعه رجل من قومه يقال له قرّة بن قيس ، فقال : يا قرّة ، هل سقيتَ فرسَكَ اليوم؟ قال: لا ؛ قال : إنما تريد أن تسقيَه؟ قال : فظننت والله أنه يريد أن يتنحّى فلا يشهد القتالَ ، وكره أن أراه حين يصنع ذلك ، فيخاف أن أرفعه عليه ؛ فقلت له : لم أسقه ، وأنا منطلِق فساقيه ؛ قال : فاعتزلت ذلك المكانَ الذي كان فيه ؛ قال : فوالله لو أنه أطلعني على الذي يريد لخرجت معه إلى الحسين؛ قال : فأخذ يدنو من حُسَين قليلاً قليلاً ، فقال له رجل من قومه يقال له المهاجر بن أوس : ما تريد يابن يزيدَ؟ أتريد أن تحمل؟ فسكت وأخذه مثل العُرَوَاء، فقال له يابن يزيد، والله إنّ أمرك لمريب، والله ما رأيتُ منك في موقف قطّ مثلَ شيء أراه الآن ، ولو قيل لي: مَن أشجع أهلِ الكوفة رجلاً ما عدوْتُك ، فما هذا الذي أرى منك! قال: إني والله أخيِّر نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئاً ولو قُطِّعتُ وحُرِّقت ؛ ثم ضرب فرسَه فلحِق بحسين عليه السلام ، فقال له : جعلني الله فِداك يابن رسول الله! أنا صاحبك الذي حبستُك عن الرجوع، وسايرتُكَ في الطريق، وجَعجعتَ بك في هذا المكان، واللّهِ الذي لا إله إلاّ هو ما ظننت أنّ القوم يردّون عليك ما عرضتَ عليهم أبداً ، ولا يبلغون منك هذه المنزلة. فقلت في نفسي: لا أبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم، ولا يرون أني خرجتُ من طاعتهم. وأمّا هم فسيقبلون من حسين هذه الخصالَ التي يعرض عليهم ، ووالله لو ظننت أنهم لا يقبلونها منك ما ركبتُها منك ؛ وإنّي قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربي ، ومواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك ، أفترى ذلك لي توبة؟ قال : نعم ، يتوب الله عليك ، ويغفر لك ، ما اسمك؟ قال: أنا الحُرّ بن يزيد ؛ قال : أنت الحُرّ كما سمّتك أمك ، أنت الحرّ إن شاء الله في الدنيا والآخرة؛ إنزلْ ؛ قال : أنا لك فارساً خيرٌ منِّي راجلاً، أقاتلهم على فرسي ساعة، وإلى النزول ما يصير آخر أمري . قال الحسين: فاصنع يَرحمك الله ما بدا لك. فاستقدم أمامَ أصحابه ثم قال: أيّها القوم ، ألا تقبلون من حسين خَصلةً من هذه الخصال التي عرض عليكم فيعافيَكم الله من حربه

وقتاله؟ قالوا: هذا الأمير عمر بن سعد فكلّمْه ، فكلّمَه بمثل ما كلمه به قبل ، وبمثل ما كلّمه به أصحابه ؛ قال عمر : قد حرصتُ ، لو وجدتُ إلى ذلك سبيلاً فعلت، فقال: يا أهل الكوفة، لأمِّكم الهَبَل والعُبْر إذْ دعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتُموه ، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، أمسكتم بنفسه ، وأخذتم بكَظْمه ، وأحطتم به من كل جانب ، فمنعتموه التوجّهَ في بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهلُ بيته ، وأصبح في أيديكم كالأسير لا يَملك لنفسه نفعاً، ولا يَدفع ضرّاً ، وحَلأتموه ونساءه وأُصَيْبِيَتَه وأصحابه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهوديّ والمجوسيّ والنصرانيّ ، وتمرَّغُ فيه خنازير السواد وكلابه ، وها هم أولاء قد صرعهم العطش ، بئسما خَلَفتم محمّداً في ذريته ! لا سقاكم الله يومَ الظمإ إن لم تتوبوا وتَنْزِعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه. فحملتْ عليه رَجَّالة لهم ترميه بالنَّبل ؛ فأقبل حتى وقف أمام الحسين .

قال أبو مخنف ، عن الصَّقعب بن زهير وسليمان بن أبي راشد، عن حميد بن مسلم ، قال: وزحف عمر ابن سعد نحوَهم، ثمّ نادى: يا ذوَيْد، أدْنِ رايتَك ؛ قال : فأدناها ثم وضع سهمَه في كَبد قوسه ، ثمّ رمى فقال : اشهَدوا أني أوّل مَنْ رمى .

قال أبو مخنف: حدَّثني أبو جناب ، قال : كان منّا رجل يُدعَى عَبدَالله بن عُمير ، من بني عُليم ، كان قد نزل الكوفة ، واتّخذ عند بئر الجَعْد من هَمْدان داراً، وكانت معه امرأةٌ له من النَّمِر بن قاسط يقال لها أمّ وهب بنت عبد، فرأى القوم بالنُّخيلة يُعرَضون ليُسرَّحوا إلى الحسين ، قال : فسأل عنهم ، فقيل له : يسرّحون إلى حسينِ بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ؛ فقال : والله لقد كنتُ على جهاد أهل الشرك حريصاً ، وإني لأرجو ألّا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيّهم أيسرَ ثواباً عند الله من ثوابه إيَّاي في جهاد المشركين ؛ فدخل إلى امرأته فأخبرها بما سَمع ، وأعلَمها بما يريد ، فقالت : أصبتَ أصاب الله بك أرشدَ أمورك ، افعلْ وأخرجْني معك ؛ قال : فخرج بها لَيْلاً حتى أتى حسيناً ، فأقام معه ، فلما دنا منه عمر بن سعد ورمى بسهم ارتمى الناس ، فلما ارتمَوْا خرج يسار مولَى زياد بن أبي سفْيان وسالم مولى عُبيدالله بن زياد ، فقالا : مَنْ يبارز؟ ليخرجْ إلينا بعضُكم ، قال : فوثب حبيب بن مُظاهر وبُرَيْرُ بن حُضَيْر ، فقال لهما حسين : اجلسا ؛ فقام عبدالله بن عمير الكلبيّ فقال : أبا عبدالله ، رحمك الله ! ائذن لي فلأخرج إليهما ؛ فرأى حسين رجُلا آدم طويلا شديدَ الساعدين بعيدَ ما بين المنكبين ، فقال حسين : إنّي لأحسبه للأقران قتّالا ، اخرجْ إن شئتَ ؛ قال : فخرج إليهما، فقالا له : مَنْ أنت؟ فانتَسَب لهما ، فقالا : لا نعرفك ، ليخرجْ إلينا زهير بن القَيْن أو حبيب بن مُظاهر أو بُرَير بن حُضَير ، ويسار مُستنتِلٌ أمامَ سالم ، فقال له الكلبي : يابن الزانية ، وبك رغبةٌ عن مُبارَزة أحد من الناس، وما يخرج إليك أحد من الناس إلا وهو خير منك ؛ ثمّ شدَّ عليه فضربه بسيفه حتى برد ، فإنه لمشتغل بـه يضربه بسيفه إذ شدّ عليه سالم ، فصاح به : قد رَهَقك العبد ؛ قال : فلم يأبهْ له حتى غشيَه فبدَره الضّربة ، فأتقـاه الكلبي بيده اليسرى ، فأطار أصابع كفِّه اليسرى ، ثم مال عليه الكلبي فضربه حتى قتله ، وأقبل الكلبي مرتجزا وهو يقول ، وقد قتلهما جميعاً :

إنْ تُنكِـرونِـي فـأنـا ابـن كـلبِ ... حَسْبيَ بَيْتِي في عُلَيمٍ حَسْبي
إنـي امـرُؤٌ ذو مِـرّة وَعَـصْـبِ ... ولستُ بـالـخَـوَّارِ عنـدَ الـنَّكْـبِ
إنِّـي زعـيـمٌ لـكِ أُمَّ وهـبِ ... بـالـطعنِ فيهمْ مُقـدِماً والضـربِ
ضَـرْبِ غُلام مؤمِنٍ بالـرَّبِّ

فأخذتْ أمّ وهب امرأته عموداً ، ثم أقبلتْ نحو زوجها تقول له : فداك أبي وأمي! قاتِلْ دون الطيِّبين ذريّة محمد ، فأقبل إليها يردّها نحو النّساء فأخذتْ تجاذب ثوبَه ، ثمّ قالت : إني لن أدَعَك دون أن أموت معك ، فناداها حسين ، فقال : جُزيتم من أهلِ بيت خيراً ، ارجعي رحمكِ الله إلى النساء فاجلسي معهنّ ؛ فإنه ليس على النساء قتال ؛ فانصرفت إليهنّ . قال : وحَمَلَ عمرو بن الحجّاج وهو على ميمنة الناس في الميمنة ، فلما أن دنا من حسين جَثَوْا له على الرُّكَب ، وأشرَعوا الرماح نحوهم ، فلم تقدم خيلهم على الرماح ، فذهبت الخيل لترجع ، فرَشَقُوهم بالنَّبل ، فصرعوا منهم رجالاً ، وَجَرَحوا منهم آخرين .

قال أبو مخنف : فحدّثني حسين أبو جعفر ، قال : ثمّ إنّ رجلاً من بني تميم ـ يقال له عبدالله بن حَوْزة ـ جاء حتى وقف أمام الحسين ، فقال : يا حسين ، يا حسين ! فقال حسين : ما تشاء؟ قال : أبشرْ بالنار ؛ قال : كلاّ ، إني أقدِم على ربّ رحيم ، وشفيع مطاع ، مَن هذا؟ قال له أصحابه : هذا ابن حَوْزة ؛ قال : ربِّ حُزْه إلى النار ؛ قال : فاضطرب به فرسُه في جدْوَل فوقع فيه ، وتعلّقتْ رجلُه بالركاب ، ووقع رأسُه في الأرض ، ونَفَر الفرس ، فأخذ يمرُّ به فيضرب برأسه كلّ حجرٍ وكلّ شجرة حتى مات .

قال أبو مخنف : وأمّا سُوَيد بن حَيَّة ؛ فزعم لي أنّ عبدالله بن حَوْزة حين وقع فرسه بقيتْ رجلُه اليسرى في الرّكاب ، وارتفعت اليُمنى فطارت ، وعَدَا به فرسُه يضرب رأسه كلَّ حَجَر وأصل شجرة حتى مات .

قال أبو مخنف : عن عطاء بن السائب ، عن عبدالجبّار بن وائل الحضرميّ ، عن أخيه مسروق بن وائل ، قال : كنتُ في أوائل الخيل ممن سار إلى الحسين ، فقلت : أكون في أوائلها لعلِّي أصيب رأسَ الحسين ، فأصيب به منزلةً عند عُبيدالله بن زياد ؛ قال : فلما انتهينا إلى حسين تقدّم رجلٌ من القوم يقال له ابن حَوْزة ، فقال : أفيكم حسين؟ قال : فسكَت حسينٌ ؛ فقالها ثانية ، فأسكت حتى إذا كانت الثالثة قال : قولوا له : نَعَم ، هذا حسين ، فما حاجتُك؟ قال : يا حسين ، أبشرْ بالنار ؛ قال : كذبتَ ، بل أقدم على ربٍّ غفورٌ وشفيع مطاع ، فمَن أنت؟ قال : ابن حَوْزة ؛ قال ؛ فرفع الحسين يدَيه حتى رأينا بياض إبطَيْه من فوق الثياب ثم قال : اللهمّ حُزْه إلى النار ؛ قال : فغضب ابن حَوْزة ، فذهب ليُقحم إليه الفرس وبينه وبينه نهر ؛ قال : فعَلَقتْ قدمُه بالرّكاب ، وجالت به الفرس فسقط عنها ؛ قال : فانقطعت قدمه وساقُه وفخذُه ، وبقيَ جانبه الآخر متعلقاً بالرّكاب . قال : فرجع مسروق وترك الخيلَ من ورائه ؛ قال : فسألتُه ، فقال : لقد رأيتُ من أهل هذا البيت شيئاً لا أقاتلهم أبداً ؛ قال : ونشب القتال .

قال أبو مخنف : وحدّثني يوسف بن يزيد ، عن عَفيف بن زهير بن أبي الأخنس ـ وكان قد شهد مَقتلَ الحسين ـ قال : وخرج يزيد بن معقل من بني عَميرة بن ربيعة وهو حليف لبني سَليمة من عبدالقيس ، فقال : يا بُرَير بن حُضَير ، كيف ترى الله صَنعَ بك! قال : صنع اللّهُ واللّهِ بي خيراً ، وصنع الله بك شرًّا ؛ قال : كذبتَ ، وقبل اليوم ما كنت كذَّاباً ، هل تذكر وأنا أماشيك في بني لوذان وأنت تقول : إنّ عثمان بن عفان كان على نفسه مسرفاً ، وإنّ معاوية بن أبي سُفْيان ضالّ مُضلّ ، وإن إمام الهدى والحقّ علي بن أبي طالب؟ فقال له برير : أشهد أنّ هذا رأيي وقولي ؛ فقال له يزيد بن معقل : فإنّي أشهد أنك من الضالين ؛ فقال له بُرَير بن حُضَير : هل لك فلأُ باهِلْكَ ، ولندْعُ اللّهَ أن يلعن الكاذب وأن يقتل المبطل ، ثمّ اخرجْ فلأبارزك ؛ قال : فخرجا فرفعا أيديَهما إلى الله يدعوانه أن يلعن الكاذب ، وأن يقتل المُحقُّ المبطلَ ؛ ثم برز كلّ واحد منهما

لصاحبه ، فاختلفا ضربتين ، فضَرب يزيدُ بن معقل بُرَيْر بنَ حُضير ضربةً خفيفة لم تضـرّه شيئاً ، وضـربه برير بن حُضير ضربةً قدّت المِغفَر ، وبلغت الدّماغ ، فخرَّ كأنما هَوَى من حالق ، وإن سيف بنَ حُضَير لثابت في رأسه ، فكأني أنظر إليه يُنضْنضه من رأسه ، وحمل عليه رضيّ بن مُنقذ العبديّ فاعتنق بُرَيراً ، فاعتركا ساعةً . ثمّ إنّ بُريراً قعد على صدره فقال رضيّ : أين أهل المِصاع والدفاع؟ قال: فذهب كعب بن جابر بن عمرو الأزديّ ليحمل عليه ، فقلت : إنَّ هذا بُرَير بن حُضير القارىء الذي كان يقرئنا القرآن في المسجد ؛ فحمل عليه بالرّمح حتى وضعه في ظهره ، فلمّا وجد مسّ الرّمح برك عليه فعضّ بوجهه ، وقطع طرف أنفه ، فطعنه كعب بن جابر حتى ألقاه عنه ، وقد غيَّب السنانَ في ظهره ، ثمّ أقبل عليه يضربه بسيفه حتى قتله ؛ قال عفيف : كأني أنظر إلى العبديِّ الصريع قام ينفُض الترابَ عن قَبائه ، ويقول : أنعمت عليَّ يا أخا الأزد نعمةً لن أنساها أبداً ؛ قال : فقلت : أنت رأيت هذا؟ قال: نعم ، رأيَ عيني وسمْعَ أذني .

فلمّا رجع كعب بن جابر قالت له امرأته ، أو أخته النَّوار بنت جابر : أعنتَ على ابن فاطمةَ ، وقتلتَ سيِّد القرَّاء ؛ لقد أتيتَ عظيماً من الأمر ، والله لا أكلِّمك من رأسي كلمةً أبداً .

وقال كعب بن جابر :

سَلِي تُخبَـري عنّي وأَنتِ ذميمـةٌ ... غَـداةَ حُسيـنٍ والـرِّمـاحُ شـوارِعُ
أَلَم آتِ أقصى مـا كـرهتِ ولَم يُخِـلْ ... عليَّ غـداةَ الرَّوْع مـا أنـا صـانـعُ
مـعِي يَـزَنـيٌّ لـم تَـخُنْـه كـعـوبُـهُ ... وأَبيضُ مخشـوبُ الغِـرارين قـاطـع
فجَـرَّدْتُـه في عُـصبـةٍ ليس دينُـهُمْ ... بـديني وإنّي بـابنِ حـربٍ لقـانـعُ
ولم تَـر عيني مِثلهـم في زمـانِـهِمْ ... ولا قبلَهم في النـاس إذ أنـا يـافـعُ
أَشـدَّ قِـراعـاً بـالسيـوفِ لـدى الـوَغَى ... ألا كـلُّ مَنْ يحمِي الـذِّمـارَ مُقـارِعُ
وقـدصبرُوا للطعنِ والضـربِ حُسَّراً ... وقـد نـازلـوا لـو أنَّ ذلـك نـافـعُ
فـأَبلغْ عـبيـد اللّهِ إمّـا لقِيـتَـه ... بـأنّي مُـطيـعٌ للخليفـةِ سـامِـعُ
قَـتلتُ بُـريـراً ثـم حَـمَّـلتُ نِـعـمـةً ... أبـا مُنقـذٍ لمَّـا دعـا: مَن يُمـاصـعُ؟

قال أبو مخنف : حدّثني عبدالرحمن بن جُندَب ، قال : سمعتُه في إمارة مُصْعَب بن الزُّبير ؛ وهو يقول : يا ربِّ إنا قد وَفَيْنا ، فلا تجعلنا يا ربِّ كمن قد غدر ؛ فقال له أبي : صدق ، ولقد وَفَى وكَرُم ، وكَسبتَ لنفسك شرًّا ؛ قال : كلا ، إنّي لم أكسب لنفسي شرًّا، ولكنّي كسبتُ لها خيراً.

قال: وزعموا أن رضيّ بن منقذ العبديّ ردَّ بعدُ على كعب بن جابر جوابَ قوله، فقال:

لـو شاءَ ربّي مـا شهـدتُ قِتَـالَهُمْ ... ولا جَعَـل النَّعْمـاءَ عنـدي ابْنُ جابـرِ
لقـد كـانَ ذاكَ اليـومُ عـاراً وسُبَّـةً ... يُـعيِّـرُهُ الأَبـنـاءُ بعـد الـمعـاشـرِ
فيـاليـتَ أني كـنتُ مِـن قبـلِ قـتلِهِ ... ويـوم حُسينٍ كنت في رَمسٍ قـابِـرِ

قال : وخرج عَمرو بن قَرَظَة الأنصاريُّ يقاتل دون حسين وهو يقول :

قـد عـلمَتْ كَـتِيـبَـةُ الأنـصـار ... أنّي سَـأَحْمِـي حَـوْزَةَ الـذِّمـارِ

ضَـرْبَ غُـلَامٍ غـيرِ نِكْسٍ شـارِي　　　دون حـسـينٍ مُـهـجـتي ودارِي

قال أبو مخنف: عن ثابت بن هبيرة ، فقتل عَمرو بن قَرظة بن كعب ، وكان مع الحسين ، وكان علي أخوه مع عمر بن سعد ، فنادى عليُّ بنُ قريظة : يا حسينُ ، يا كذّاب ابن الكذّاب ، أضللتَ أخي وغررتَه حتى قتلتَه . قال: إنّ الله لم يضلّ أخاك ، ولكنه هَدَى أخاك وأضلّك؛ قال: قَتلني اللّهُ إن لم أقتلك أو أموتَ دونك ؛ فحمَل عـليه ، فاعترضه نافع بن هلال المراديّ ، فطعنه فصرعه ، فحمله أصحابُه فاستنقذوه ، فدُوِيَ بعدُ فبَرأ .

قال أبو مخنف : حدّثني النّضر بن صالح أبو زهير العبسيّ أنّ الحرّ بن يزيدَ لما لحق بحسين قال رجل من بني تميم من بني شَقرة وهم بنو الحارث بن تميم ، يقال له يزيد بن سُفيان : أما والله لو أني رأيتُ الحُرّ بنَ يزيدَ حين خرج لأتبعته السِّنان ؛ قال : فبينا الناس يتجاولون ويقتتلون والحرّ بن يزيدَ يَحمل على القوم مقدماً ويتمثّل قولَ عَنْترة :

مـا زِلـتُ أَرْمِيـهِـمْ بـثُـغْـرَةِ نَـحْـرِهِ　　　وَلَـبـانِـهِ حتّىٰ تَـسَـربَـلَ بـالـدَّمِ

قال : وإنّ فرسه لمضروب على أذنيه وحاجبه ، وإن دماءه لَتسيل ، فقال الحصين بن تميم ـ وكان على شُرطة عبيدالله، فبعثه إلى الحسين ، وكان مع عمر بن سعد ، فولّاه عمر مع الشرطة المجفّفة ـ ليزيد بن سُفْيان : هذا الحرّ بن يزيد الذي كنت تتمنّى ؛ قال : نعم فخرج إليه فقال له : هل لك يا حرّ بن يزيد في المبارزة؟ قال: نعم قد شئتُ ، فبرز له؛ قال : فأنا سمعتُ الحصين بن تميم يقول : واللّهِ لأبرز له ؛ فكأنما كانت نفسُه في يده، فما لبّثه الحُرّ حين خرج إليه أن قتَله .

قال هشام بن محمّد ، عن أبي مخنف ، قال : حدّثني يحيى بن هانىء بن عروة، أنّ نافع بنَ هلال كان يقاتل يوَمئذ وهو يقول : « أنا الجَمَلِي ، أنا عَلى دينِ عَلي » .

قال : فخرج إليه رجل يقال له مُزاحم بن حُرَيث ، فقال : أنا على دين عثمان ، فقال له : أنت على دين شيطان ، ثمّ حمل عليه فقتله ، فصاح عمرو بن الحجّاج بالناس : يا حَمْقى ، أتدرون مَنْ تقاتلون! فرسانَ المِصْر ؛ قوماً مستميتين ، لا يبرزنّ لهم منكم أحد ، فإنهم قليل ، وقلّما يبقون ، والله لو لم ترموهم إلّا بالحجارة لقتلتموهم ؛ فقال عمر بن سعد : صدقت ، الرأيُ ما رأيتَ ، وأرسل إلى الناس يعزم عليهم ألّا يبارز رجلٌ منكم رجلاً منهم .

قال أبو مخنف : حدّثني الحسين بن عقبة المرادي ، قال : الزبيدي : إنه سمع عمرو بن الحجّاج حين دنا من أصحاب الحسين يقول : يا أهلَ الكوفة ، الزَموا طاعتكم وجماعتَكم ، ولا ترتابوا في قتل من مَرَق من الدّين ، وخالَفَ الإمام ، فقال له الحسين : يَا عَمرو بن الحجّاج ، أعليَّ تحرّض الناس؟ أنحن مَرَقنا وأنتم ثبتُّم عليه؟ أما والله لتعلمنّ لو قد قبضتْ أرواحكم ، ومِتُّم على أعمالكم ، أيّنا مَرَق من الدّين ، ومَن هو أولى بصِلِيّ النار! قال: ثمّ إنّ عَمرو بن الحجاج حمل على الحسين في ميمنة عمر بن سعد من نحو الفُرات ، فاضطربوا ساعةً ؛ فصرِع مسلم بن عَوْسجة الأسديّ أولّ أصحاب الحسين ، ثم انصرف عمرو بن الحجاج وأصحابه ، وارتفعت الغَبَرَة ، فإذا هم به صريع ، فمشى إليه الحسين فإذا به رَمَقٌ ، فقال : رحمك ربُّـك يا مسلم بن

عوسجة ، ﴿ فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾[١]. ودنا منه حبيب بن مظاهر فقال : عزَّ عليَّ مصرعُك يا مسلم ، أبشر بالجنة ، فقال له مسلم قولاً ضعيفاً : بشَّرك الله بخير! فقال له حبيب : لولا أني أعلم أنّي في أثرك لاحقٌ بك من ساعتي هذه لأحببتُ أن توصيني بكلّ ما أهمَّك حتى أحفَظَك في كلّ ذلك بما أنت أهلٌ له في القرابة والدّين ؛ قال : بل أنا أوصيك بهذا رحمك الله - وأهوَى بيَدِه إلى الحسين - أن تموت دونه ؛ قال : أفعل وربِّ الكعبة ؛ قال : فما كان بأسرع من أن مات في أيديهم ، وصاحت جاريةٌ له فقالت: يابن عوسجتاهْ! يا سيّداهْ! فتنادَى أصحاب عمرو بن الحجاج : قتلْنا مسلمَ بنَ عوسجة الأسديّ ؛ فقال شَبَث لبعض مَن حوله من أصحابه : ثَكَلتْكم أمهاتكم! إنما تقتلون أنفسكم بأيديكم ، وتذللون أنفسكم لغيركم ، تفرحون أن يُقتَل مثل مسلم بن عوسجة! أما والذي أسلمت له لرُبَّ موقف له قد رأيته في المسلمين كريم! لقد رأيته يوم سَلَقِ آذربيجان قَتَل ستّةً من المشركين قبل تتامِّ خيول المسلمين ، أفيُقتل منكم مثله وتفرحون! .

قال: وكان الذي قتل مسلمَ بن عَوْسجة مسلمُ بن عبدالله الضِّبَابيّ وعبدالرحمن بن أبي خُشْكارة البَجَليّ .

قال : وحمل شَمِر بن ذي الجَوْشن في الميسرة على أهل الميسرة فثبتوا له ، فطاعَنوه وأصحابه ، وحَمَل على حسين وأصحابه من كلّ جانب ، فقُتل الكلبيّ وقد قَتَل رجلين بعد الرّجلين الأوّلَين ، وقاتل قتالاً شديداً ، فحمل عليه هانىء بن ثُبَيْت الحضرميّ وبُكير بن حَيّ التّيميّ . من تيم الله بن ثعلبة ، فقَتَلاه ، وكان القتيلَ الثاني من أصحاب الحسين ، وقاتلهم أصحابُ الحسين قتالاً شديداً ، وأخذتْ خيلُهم تحمل وإنما هم اثنان وثلاثون فارساً ، وأخذتْ لا تحمل على جانب من خيل أهل الكوفة إلاّ كشفتْه ، فلما رأى ذلك عَزْرَة بن قيس - وهو على خيل أهل الكوفة - أنّ خيله تنكشف من كلّ جانب ، بعث إلى عمر بن سعد عبدَالرحمن بن حصن ، فقال : أما ترى ما تلقى خيلي مذ اليوم من هذه العِدّة اليسيرة ! ابعث إليهم الرّجال والرّماةَ ؛ فقال لشَبَث بن رِبْعيّ : ألا تقدم إليهم ! فقال : سبحان الله! أتعمِد إلى شيخ مُضَر وأهلِ المصر عامة تبعثه في الرّماة ! لم تجد مَنْ تندب لهذا ويجزىء عنك غيري! قال: وما زالوا يرون من شَبَث الكراهةَ لقتاله. قال: وقال أبو زهير العبسيّ: فأنا سمعتُه في إمارة مصعب يقول: لا يعطي الله أهلَ هذا المِصر خيراً أبداً، ولا يسدّدهم لرُشْد، ألا تَعجَبون أنّا قاتلْنا مع علي بن أبي طالب ومع ابنه من بعده آلَ أبي سُفْيان خمسَ سنين، ثم عَدَوْنا على ابنه وهو خير أهل الأرض نقاتلُه مع آل معاوية وابن سميّة الزانية! ضلال يا لك من ضلال!

قال : ودعا عمر بن سعد الحصينَ بن تميم فبعث معه المجفّفة وخمسمائة من المرامية ، فأقبلوا حتى إذا دَنَوْا من الحسين وأصحابه رشَقُوهم بالنَّبل ، فلم يَلبَثوا أن عقروا خيولهم ، وصاروا رَجَّالةً كلَّهم .

قال أبو مخنف : حدّثني نُمير بن وَعلة أن أيّوب بن مِشْرَح الخَيْوانيّ كان يقول: أنا والله عقرتُ بالحُرّ بن يزيدَ فرسَه ، حشأتُه سهماً ، فما لبث أن أرعِد الفرس واضطرب وكبا ، فوَثب عنه الحرّ كأنه ليث والسيف في يده وهو يقول :

إن تَعْقِـرُوا بـي فـأَنـا ابـنُ الـحُـرّ   أَشْـجَـعُ مِـن ذي لِـبَـدٍ هِـزَبْـرِ

قال : فما رأيت أحداً قطّ يفري فرْيَه ؛ قال : فقال له أشياخٌ من الحيّ : أنت قتلتَه ؟ قال : لا والله ما أنا قتلتُه ، ولكنْ قتلَه غيري ، وما أحبّ أني قتلتُه ، فقال له أبو الودَّاك : ولِمَ؟ قال: إنه كان زعموا من الصّالحين ،

---

(١) سورة الأحزاب: ٢٣ .

فوالله لئن كان ذلك إثماً لأنْ ألقى الله بإثم الجراحة والموقف أحبّ إليَّ من أن ألقاه بإثم قتل أحد منهم ؛ فقال له أبو الودّاك : ما أراك إلّا ستلقى الله بإثم قتلِهم أجمعين ؛ أرأيتَ لو أنك رميتَ ذا فعقرت ذا، ورميتَ آخرَ، ووقفتَ موقفاً ، وكررتَ عليهم ، وحرّضتَ أصحابك ، وكثّرت أصحابك ، وحُمل عليك فكرهت أن تفرّ ، وفعل آخر من أصحابك كفعلك ، وآخر وآخر ، كان هذا وأصحابه يقتلون ! أنتم شركاءُ كلكم في دمائهم ؛ فقال له : يا أبا الودّاك ، إنك لتقنِّطنا من رحمة الله ، إن كنتَ وليّ حسابنا يوم القيامة فلا غَفَر الله لكَ إنْ غفرتَ لنا ! قال : هو ما أقول لك ؛ قال : وقاتلوهم حتى انتصف النهار أشدَّ قتال خَلَقَه الله ، وأخذوا لا يقدرون على أن يأتوهم إلّا من وجهٍ واحد لاجتماع أبنيتهم وتقارُبِ بعضِها من بعض .

قال : فلما رأى ذلك عمر بن سعد أرسل رجالاً يقوِّضونها عن أيمانهم وعن شمائلهم ليحيطوا بهم ؛ قال : فأخذ الثلاثة والأربعة من أصحاب الحسين يتخلّلون البيوت فيشدّون على الرجل وهو يقوّض وينتهب فيقتلونه ويرمُونه من قريب ويعقرونه ، فأمر بها عمر بن سعد عند ذلك فقال: أحرقوها بالنار ، ولا تَدخُلوا بيتاً ولا تقوّضوه ، فجاؤوا بالنار ، فأخذوا يحرّقون ، فقال حسين : دَعُوهم فليحرقوها ، فإنهم لو قد حرَّقوها لم يستطيعوا أن يجوزوا إليكم منها ، وكان ذلك كذلك، وأخذوا لا يقاتلونهم إلّا من وجه واحد . قال : وخرجت امرأة الكلبي تمشي إلى زوجها حتى جلستْ عند رأسه تمسح عنه التراب وتقول : هنيئاً لك الجنّة ! فقال شمِر بن ذي الجوْشَن لغلام يسمَّى رُستَم : إضرب رأسَها بالعمود ؛ فضرب رأسَها فشَدَخه ، فماتت مكانَها ؛ قال : وحَمَل شَمِر بن ذي الجوشن حتى طعن فسطاط الحسين برمحه ، ونادى: عليَّ بالنار حتى أحرِّقَ هذا البيت على أهله ؛ قال : فصاح النساء وخرجن من الفسطاط ؛ قال: وصاح به الحسين : يابن ذي الجوشَن ، أنت تدعو بالنار لتحرّق بيتي على أهلي ، حرّقك الله بالنار!

قال أبو مخنف: حدّثني سليمان بن أبي راشد ، عن حُميد بن مسلم، قال: قلت لشَمر بن ذي الجوشن: سبحان الله! إنّ هٰذا لا يصلح لك، أتريد أن تجمع على نفسك خصلتين : تعذّب بعذاب الله، وتقتل الولدان والنساء! والله إنّ في قتلك الرجال لما ترضى به أميرك ؛ قال: فقال: من أنت؟ قال: قلت: لا أخبرك من أنا، قال: وخشيتُ والله أن لو عرفني أن يضرّني عند السلطان؛ قال: فجاءه رجل كان أطوَعَ له مني؛ شَبَث بن رِبْعيّ . قال : ما رأيتُ مقالاً أسوأ من قولك ، ولا موقفاً أقبحَ من موقفك ، أمُرعِباً للنساء صرتَ ! قال: فأشهد أنه استحيا ، فذهب لينصرف . وحَمَل عليه زهيرُ بن القَيْن في رجال من أصحابه عشرة ، فشدّ على شمِر بن ذي الجوْشن وأصحابه ، فكَشَفهم عن البيوت حتى ارتفعوا عنها ، فصَرَعوا أبا عزّة الضِّبَابيّ فقتلوه ، فكان من أصحاب شَمِر ،ـ وتعطّف الناس عليهم فكثروهم ، فلا يزال الرجل من أصحاب الحسين قد قتل، فإذا قتِل منهم الرّجل والرّجلان تبيّن فيهم، وأولئك كثير لا يتبينَّ فيهم ما يقتَل منهم؛ قال: فلما رأى ذلك أبو ثمامة عمرو بن عبدالله الصائدي قال للحسين: يا أبا عبد الله ، نفسي لك الفِداء! إني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا والله لا تُقتَل حتى أُقتلَ دونك إن شاء الله، وأحبّ أن ألقى ربي وقد صلّيتُ هذه الصلاة التي دنا وقتُها ؛ قال: فرفع الحسينُ رأسَه ثم قال: ذكرتَ الصلاة، جعلك الله من المصلّين الذاكرين! نعم، هذا أوّل وقتها ؛ ثم قال: سلوهم أن يكفُّوا عنا حتى نصلّي ؛ فقال لهم الحصين بن تميم: إنها لا تُقبَل ؛ فقال له حبيب بن مظاهر : لا تُقبَل زعمتَ ! الصلاة من آل رسولِ الله ﷺ لا تُقبلَ وتُقبَل منك يا حمار! قال: فحمل عليهم حصين بن تميم ، وخرج إليه حبيب بن مظاهر ، فضرب وجه فرسه بالسيف ، فشبّ ووقع عنه ، وحمله

أصحابُه فاستنقذوه ، وأخذ حبيب يقول :

أُقسِمُ لو كُنَّا لكم أَعْدادَا ... أو شَطْرَكُمْ ولَّيتُم أكتادَا
يا شَرَّ قوم حَسباً وَآدا

قال : وجعل يقول يومئذ :

أنا حبيب وأبي مُظاهِرُ ... فارسُ هيجاءَ وحربٍ تُسعَرُ
أنتُمْ أعَدُّ عُدَّةً وأكثرُ ... ونحن أوفى منكُمُ وأصْبَرُ
ونحن أعْلىٰ حُجَّةً وأظهرُ ... حقًّا وأتقى منكُمُ وأعْذَرُ

وقاتل قتالاً شديداً، فحَمَل عليه رجلٌ من بني تميم فضربه بالسيف على رأسه فقتله ـ وكان يقال له: بديل بن صُرَيْم من بني عُقْفان ـ وحَمَل عليه آخرُ من بني تميم فطعنه فوقع ، فذهب ليقوم ، فضربه الحصين بن تميم على رأسه بالسيف ، فوقع ، ونزل إليه التميمي فاحتزّ رأسه ، فقال له الحصين : إنّي لشريكك في قتله ، فقال الآخر: والله ما قتَلَه غيري ؛ فقال الحصين : أعطِنيه أعلِّقْه في عُنق فرسي كيْما يرى الناسُ ويَعلَموا أني شرَكتُ في قتله ؛ ثم خذه أنت بعدُ فامضِ به إلى عبيدالله بن زياد ، فلا حاجةَ لي فيما تعطاه على قتلك إياه . قال: فأبى عليه ، فأصلح قومه فيما بينهما على هذا ، فدفع إليه رأسَ حبيب بن مظاهر ، فجال به في العسكر قد علّقه في عنق فرسه ، ثمّ دفعه بعد ذلك إليه ، فلما رجعوا إلى الكوفة أخذ الآخرُ رأسَ حبيب فعلقه في لَبان فرسه ، ثمّ أقبل به إلى ابن زياد في القصر فبَصُرَ به ابنُه القاسم بن حبيب ، وهو يومئذ قد راهق ، فأقبل مع الفارس لا يفارقه ، كلّما دخل القصر دخل معه ، وإذا خرج خرج معه ، فارتاب به ، فقال : ما لك يا بنيّ تتبعني! قال: لا شيء ، قال : بلى، يا بنيّ أخبرني ، قال له : إنّ هذا الرأس الذي معك رأس أبي ، أفتعطينيه حتى أدفنَه؟ قال: يا بنيّ ، لا يرضى الأميرُ أن يُدفَن، وأنا أريد أن يثيبَني الأميرُ على قتله ثواباً حسناً ؛ قال له الغلام : لكنّ الله لا يثيبك على ذلك إلّا أسوأ الثواب ؛ أما والله لقد قتلتَ خيراً منك ، وبكى . فمكث الغلامُ حتى إذا أدرك لم يكن له همّةٌ إلّا اتّباعُ أثر قاتل أبيه ليجد منه غِرّةً فيقتلَه بأبيه ، فلما كان زمان مُصعَب بن الزبير وغزا مصعب باجُمَيْرا دخل عسكَر مصعب فإذا قاتِلُ أبيه في فسطاطه ، فأقبل يختلف في طلبه والتماس غِرَّته ، فدخل عليه وهو قائلٌ نصفَ النهار فضربه بسيفه حتى برد .

قال أبو مخنف: حدّثني محمد بن قيس، قال: لما قُتِل حبيب بن مظاهر هدّ ذلك حسيناً وقال عند ذلك: أحتَسِب نفسي وحُماةَ أصحابي ، قال : فأخذ الحُرّ يرتجز ويقول :

آليتُ لا أُقتلُ حتّىٰ أَقتُلا ... ولنْ أُصابَ اليومَ إلّا مُقبِلا
أضْرِبُهُمْ بالسيفِ ضَرْباً مِقْصَلا ... لا ناكِلاً عَنْهُمْ ولَا مُهَلِّلا

وأخذ يقول أيضاً :

أضرِبُ في أعراضِهِمْ بالسيفْ ... عن خيرِ مَنْ حَلّ مِنًى والخَيْفْ

فقاتل هو وزهير بن القَيْن قتالاً شديداً ، فكان إذا شدَّ أحدُهما ؛ فإن استُلحِمَ شدّ الآخر حتى يخلّصه ، ففعلا ذلك ساعة . ثمّ إنّ رجّالة شدّت على الحرّ بن يزيد فقتل ، وقتَل أبو ثمامة الصائدي ابنَ عمّ له كان عدوًّا

له ، ثم صلّوا الظهر ، صلى بهم الحسين صلاةَ الخوف ، ثمّ اقتتلوا بعد الظهر فاشتدّ قتالهم ، ووُصِل إلى الحسين ، فاستقدم الحنفيّ أمامَه ، فاستهدف لهم يرمونه بالنبل يميناً وشمالاً قائماً بين يديه ، فما زال يُرمى حتى سقط . وقاتل زهير بن القَيْن قتالاً شديداً ، وأخذ يقول :

أنــا زُهــيــرٌ وأنــا ابْــنُ الــقَــيْــنِ ... أَذُودُهُــمْ بــالــسيــفِ عــن حــســيــن

قال : وأخذ يَضرِب على مَنكِب حسين ويقول :

أَقــدِمْ هُــدِيــتَ هــادِيــاً مَــهــدِيّــا ... فــالــيــومَ تَــلقَــى جَــدَّكَ الــنَّــبِــيَّــا
وَحَــســنــاً والــمــرتــضَــى عــلــيَّــا ... وذَا الــجَــنَــاحَــيْنِ الــفَــتَــى الــكَــمِــيَّــا
وَأَســدَ اللّهِ الشهيــدَ الحيَّــا

قال : فشدّ عليه كثيرُ بن عبدالله الشعبي ومهاجرُ بن أوْس فقَتَلاه ، قال : وكان نافع بن هلال الجملي قد كتب اسمَه على أفواق نَبْله ، فجعل يرمي بها مسوّمةً وهو يقول : « أنا الجَمَلي ، أنا على دِينِ عَلِي » .

فقَتل اثني عشر من أصحاب عمر بن سعد سوى مَنْ جرح ؛ قال : فضرِب حتى كُسرت عضداه وأخذ أسيراً ؛ قال : فأخذه شَمِر بن ذي الجوشن ومعه أصحاب له يسوقون نافعاً حتى أُتِيَ به عمر بن سعد ، فقال له عمر بن سعد: وَيْحك يا نافع! ما حَمَلك على ما صنعتَ بنفسك! قال: إنّ ربي يعلم ما أردتُ ؛ قال: والدماء تسيل على لحيته وهو يقول: والله لقد قتلتُ منكم اثني عشر سِوَى مَن جرحتُ، وما ألوم نفسي على الجهد، ولو بقِيَتْ لي عضد وساعدٌ ما أسرتموني؛ فقال له شمِر: أُقتُله أصلحك الله! قال: أنت جئتَ به، فإن شئتَ فاقتله، قال: فانتضى شمر سيفَه، فقال له نافع: أما والله أنْ لو كنت من المسلمين لَعظُم عليك أن تلقى اللّهَ بدمائنا، فالحمد لله الذي جعل منايانا على يديْ شِرارِ خلقه ؛ فقتله .

قال : ثمّ أقبل شمِر يحمل عليهم وهو يقول :

خَــلُّوا عُــداةَ الــلّهِ خــلّوا عــن شَــمِــرْ ... يَــضــرِبُــهُــمْ بــســيــفــه وَلَا يَــفِــرّ
وهو لــكم صــابٌ وسَــمّ ومَقِــرْ

قال : فلما رأى أصحابُ الحسين أنهم قد كُثِروا ، وأنهم لا يقدرون على أن يمنعوا حسيناً ولا أنفسَهم ، تنافسوا في أن يُقتَلوا بين يديه ، فجاءه عبدالله وعبدالرحمن ابنا عَزْرة الغِفاريّان، فقالا: يا أبا عبدالله، عليك السلام، حازَنَا العدوّ إليك، فأحبَبْنا أن نُقتَل بين يديْك ، نمنعك وندفع عنك ؛ قال : مرحباً بكما ! ادنُوَا منّي ، فدنَوَا منه ، فجعلا يقاتلان قريباً منه ، وأحدهما يقول :

قــد عــلِمــتْ حــقّــا بــنــو غِــفَــارِ ... وَخِــنْــدِفٌ بــعــد بــنــي نــزارِ
لَــنَضــرِبَــنَّ مَــعْــشَــرَ الــفُــجّــارِ ... بــكــلّ عَــضْــب صــارم بَــتّــارِ
يــا قــوم ذُودُوا عــن بــنــي الأحــرارِ ... بــالــمَــشْــرَفِيّ والْــقَــنَــا الْــخــطّــارِ

قال: وجاء الفَتَيان الجابريان : سيف بن الحارث بن سُرَيْع ، ومالك بن عبد بن سريع ، وهما ابنا عمّ ، وأخَوان لأمّ، فأتيا حسيناً فدَنَوَا منه وهما يبكيان ، فقال : أيْ ابنيْ أخي ، ما يُبكيكما؟ فوالله إنّي لأرجو أن تكونا عن ساعة قريريْ عين ، قالا : جعلنا الله فِداك! لا والله ما على أنفسنا نبكي ، ولكنّا نبكي عليك ، نراك قد

أحِيط بك ، ولا نقدر على أن نمنعك ؛ فقال: جزاكما الله يا بنيّ أخي بوَحْدكما من ذلك ومـواساتكـما إيّاي بأنفسكما أحسنَ جزاءِ المتقين ؛ قال : وجاء حنظلة بن أسعد الشّباميّ فقام بين يديْ حسين ، فأخذ ينادي : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمَاً لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[1] يا قوم تقتلوا حسيناً فيُسْحِتَكُمْ الله بعذاب﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾[2] فقال له حسين : يابن أسعد ، رحمك الله ، إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردّوا عليك ما دعوتَهم إليه من الحقّ ، ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابَك ، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانَك الصالحين ! قـال : صدقت ، جعلت فداك ! أنت أفقه منّي وأحقّ بذلك ، أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا؟ فقال : رُحْ إلى خيرٍ من الدنيا وما فيها ، وإلى مُلكٍ لا يَبْلى ، فقال: السلام عليك أبا عبدالله ، صلى الله عليك وعلى أهل بيتك ، وعرّف بيننا وبينك في جنّته ، فقال : آمين آمين ؛ فاستقدم فقاتل حتى قُتل .

قال : ثمّ استقدم الفَتَيان الجابريّان يلتفتان إلى حسين ويقولان: السَّـلام عليك يـابنَ رسول الله ، فقال : وعليكما السلام ورحمة الله ؛ فقاتَلا حتى قُتلا ؛ قال وجاء عابس بن أبي شَبيب الشاكري ومعه شوْذَب مولَى شاكر ، فقال : يا شَوْذب ، ما في نفسك أن تصنع؟ قال: ما أصنع! أقاتل معك دون ابن بنت رسول الله ﷺ حتى أقتل ؛ قال : ذلك الظنّ بك ، أمّا لاَ فتقدّمْ بين يديْ أبي عبدالله حتى يحتسبك كما احتَسب غيرَك من أصحابه ، وحتى أحتسِبك أنا ، فإنه لو كان معي الساعة أحدٌ أنا أوْلَىٰ به منّي بك لسرّني أن يتقدّم بين يديّ حتى أحتسبه ، فإنّ هذا يوم ينبغي لنا أن نطلب الأجرَ فيه بكلّ ما قدَرْنا عليه ، فإنه لا عملَ بعد اليوم ، وإنما هو الحساب ؛ قال : فتقدّم فسلّم على الحسين ، ثم مضى فقاتل حتى قُتل . ثم قال عابس بن أبي شبيب : يا أبا عبدالله ، أما والله ما أمسىَ على ظهر الأرض قريبٌ ولا بعيدٌ أعزَّ عليَّ ولا أحبَّ إليَّ منك ؛ ولو قدرتُ على أن أدفع عنك الضَّيمَ والقتلَ بشيء أعزّ عليَّ من نفسي ودمي لفعلتُه ؛ السلام عليك يا أبا عبدالله ، أشهدُ اللّهَ أني على هَدْيك وهدْيِ أبيك ؛ ثم مشى بالسيف مصلتاً نحوَهم وبه ضربة على جبينه .

قال أبو مخنف : حدّثني نُمير بن وَعْلة ، عن رجل من بني عبد من هَمْدان يقال له ربيع بن تميم شهد ذلك اليوم، قال: لما رأيتُه مُقبلاً عرفتُه وقد شاهدتُه في المَغازي ، وكان أشجعَ الناس ، فقلت : أيُّها الناس ، هذا الأسد الأسوَد ، هذا ابن أبي شبِيب ؛ لا يخرجنّ إليه أحد منكم ، فأخذ ينادي : ألا رجلٌ لرجل ! فقـال عمر بن سعد : إرْضَخُوه بالحجارة ؛ قال : فَـرُمِيَ بالحجـارة من كلّ جـانب ، فلما رأى ذلك ألقَى دِرْعـه ومِغفَره ، ثمّ شَدّ على الناس ، فوالله لرأيتُه يكرُد أكثرَ مِن مائتين من الناس ؛ ثم إنهم تعطّفوا عليه من كلّ جانب، فقتِل ؛ قال : فرأيت رأسَه في أيدي رجال ذوي عُدّة ؛ هذا يقول : أنا قتلته ، وهذا يقول: أنا قتلته ، فأتَوا عمرَ بن سعد فقال : لا تختصموا ، هذا لم يقتلْه سِنان واحد ، ففرّق بينهم بهذا القول .

قال أبو مخنف : حدّثني عبدالله بن عاصم ، عن الضحّاك بن عبدالله المِشرقي ، قال: لما رأيتُ أصحاب الحسين قد أصيبوا ، وقد خُلِص إليه وإلى أهل بيته ، ولم يبق معه غيرُ سُوَيد بن عمرو بن أبي المطاع الخَثْعَميّ

---

(١) سورة غافر: ٣٠ ـ ٣٣.
(٢) سورة طه : ٦١ .

وبُشَير بن عمرو الحضرميّ ، قلت له : يابن رسولِ الله ، قد علمتَ ما كان بيني وبينك ؛ قلتُ لك : أقاتل عنك ما رأيتُ مقاتلاً ، فإذا لم أر مقاتلاً فأنا في حِلّ من الانصراف ، فقلتَ لي : نعم ؛ قال: فقال: صدقتَ ، وكيف لك بالنَّجاء ! إنْ قدَرتَ على ذلك فأنتَ في حلّ؛ قال: فأقبلتُ إلى فرسي وقد كنت حيث رأيت خيلَ أصحابنا تُعقَر ، أقبلتُ بها حتى أدخلتها فسطاطاً لأصحابنا بين البيوت ، وأقبلت أقاتل معهم راجلاً ، فقَتلت يومئذ بين يَدِي الحسين رجليْن ، وقطعت يدَ آخر ، وقال لي الحسين يومئذ مراراً : لا تُشلل ، لا يقطع الله يَدَك ، جزاك الله خيراً عن أهلِ بيتِ نبيِّك ﷺ ! فلما أذن لي استخرجتُ الفرس من الفسطاط ، ثم استويْتُ على متْنها ، ثم ضربتُها حتى إذا قامت على السنابك رميتُ بها عُرْض القوم ، فأفرجوا لي ، واتبعني منهم خمسة عشر رجلاً حتى انتهيتُ إلى شُفَيَّة ؛ قرية قريبة من شاطىء الفُرات ، فلما لحقوني عطفتُ عليهم ، فعَرَفَني كثير بن عبدالله الشعبيّ وأيوب بن مِشْرَح الخَيْوانيّ وقيس بن عبدالله الصائدي ، فقالوا : هذا الضحّاك بن عبدالله المِشرقي ، هذا ابنُ عمِّنا ، نَنشُدكم اللّهَ لما كففتم عنه ! فقال ثلاثة نفر من بني تَميم كانوا معهم : بلى والله لنجيبنّ إخوانَنا وأهلَ دعوتنا إلى ما أحبُّوا من الكفّ عن صاحبهم ؛ قال : فلما تابع التميميُّون أصحابي كفّ الآخَرون ؛ قال : فنجّاني الله .

قال أبو مخنف : حدّثني فُضَيل بن خُديج الكندي أنّ يزيد بن زياد ؛ وهو أبو الشعثاء الكنديّ من بني بَهْدَلة جَثَا على ركبتيه بين يدي الحسين ، فرَمَى بمائة سهم ما سقط منها خمسة أسهم ، وكان رامياً ، فكان كلّما رَمَى قال : أنا ابن بهدلهْ ، فُرْسانِ العَرْجلهْ ؛ ويقول حسين : اللهمّ سدّدْ رميتَه ، واجعلْ ثوابَه الجنَّةَ ؛ فلما رمى بها قام فقال : ما سقط منها إلاّ خمسة أسهم ، ولقد تبيَّنَ لي أني قدَ قتلتُ خمسة نفر ، وكان في أوّل من قُتل ، وكان رجزُه يومئذ :

أنا يزيدُ وأَبي مُهاصِرْ ... أَشجعُ من ليثٍ بِغيلٍ خادرْ
يا ربّ إنِّي للحسيْن ناصِرْ ... ولابن سعدٍ تاركٌ وهاجِرْ

وكان يزيد بن زياد بن المهاصر ممّن خرج مع عُمر بن سعد إلى الحسين ، فلما ردّوا الشُّروط على الحسين مال إليه فقاتل معه حتى قُتل ، فأمّا الصيداويّ عمر بن خالد ، وجابر بن الحارث السلمانيّ ، وسعد مولى عمر بن خالد ، ومجمّع بن عبدالله العائذيّ ، فإنهم قاتلوا في أوّل القتال ؛ فشدّوا مُقْدِمين بأسيافهم على الناس ، فلما وغلوا عطف عليهم الناس فأخذوا يحوزونهم ، وقطعوهم من أصحابهم غير بعيد ، فحمل عليهم العباس بن علي فاستنقذهم ، فجاؤوا قد جُرِّحوا ، فلما دنا منهم عدوّهم شدّوا بأسيافهم فقاتلوا في أوّل الأمر حتى قُتِلوا في مكان واحد .

قال أبو مخنف : حدّثني زهير بن عبدالرحمن بن زهير الخثعميّ ، قال: كان آخر مَن بقي مع الحسين من أصحابه سُويد بن عَمرو بن أبي المطاع الخثعمي ، قال: وكان أوّل قتيل من بني أبي طالب يومئذ عليٌّ الأكبر بن الحسين بن علي ، وأمه ليلى ابنة أبي مُرّة بن عُروة بن مسعود الثقفيّ ، وذلك أنه أخذ يشدّ على الناس وهو يقول :

أنا عَليُّ بنُ حسينِ بن عَلِي ... نَحن وربِّ البيت أوْلَى بالنَّبِي
تالله لا يَحْكُمُ فينا ابنُ الدَّعِي

قال : ففعل ذلك مراراً ، فبَصر به مُرّة بن منقذ بن النعمان العبديّ ثمّ الليثيّ ، فقال: عليَّ أثَامُ العرب إنْ مرّ بي يفعل مِثلَ ما كان يفعل إنْ لم أثكِله أباه ؛ فمرَّ يشدّ على الناس بسيفه ، فاعترضه مرّة بن منقذ ، فطعنه فصُرِعَ ، واحتَوَله الناس فقطّعوه بأسيافهم .

قال أبو مخنف : حدّثني سليمان بن أبي راشد ، عن حميد بن مسلم الأزديّ ، قال : سماعُ أذني يومئذ من الحسين يقول : قتل الله قوماً قتلوك يا بنيّ ! ما أجرأهم على الرحمن ، وعلى انتهاك حرمة الرسول! على الدنيا بعدَكَ العَفَاء. قال: وكأني أنظر إلى امرأة خرجتْ مسرعةً كأنها الشمس الطالعة تنادي : يا أخيّاهْ! ويا بن أخيّاهْ! قال: فسألتُ عليها، فقيل: هذه زينب ابنة فاطمةَ ابنة رسول الله ﷺ ، فجاءت حتى أكبّت عليه ، فجاءها الحسين فأخذ بيَدها فردّها إلى الفسطاط، وأقبل الحسين إلى ابنه ، وأقبل فتيانه إليه ، فقال : احملوا أخاكم ، فحملوه مِنْ مَصرَعه حتى وضعوه بين يدَي الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه . قال: ثمّ إن عمرو بن صُبيح الصّدائيّ رَمَى عبدالله بن مسلم بن عَقيل بسهم فوضع كفَّه على جبهته، فأخذ لا يستطيع أن يحرّك كفَّيه ، ثم انتحَى له بسهم آخَرَ ففلق قلبَه ، فاعتَوَرهم الناس من كلّ جانب، فحمل عبدالله بن قُطْبَة الطائيُّ ثمّ النبهانيّ على عون بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب فَقَتله ، وحمل عامر بن نَهْشَلْ التيميُّ على محمد بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب فقَتَلَه ؛ قال : وشدّ عثمان بن خالد بن أسيْر الجُهنيّ ، وبشر بن سوط الهَمْدانيّ ثمّ القابضيّ على عبدالرحمنِ بن عقيل بن أبي طالب فقَتَلاه ، ورمى عبدالله بن عزرة الخثعميّ جعفرَ بن عَقِيل بن أبي طالب فقَتَله .

قال أبو مخنف : حدّثني سليمان بن أبي راشد ، عن حُميد بن مسلم ، قال : خرج إلينا غلام كأنَّ وجهه شقّة قمر ، في يده السيف ، عليه قميص وإزار ونعلان قد انقطع شِسْع أحدهما ، ما أنسَى أنها اليسرى ، فقال لي عمرو بن سعد بن نُفَيل الأزديّ : والله لأشدّنّ عليه ؛ فقلت له: سبحان الله! وما تريد إلى ذلك! يكفيك قتل هؤلاء الذين تراهم قد احتولوهم ؛ قال : فقال : والله لأشدّنّ عليه؛ فشدّ عليه فما ولى حتى ضرب رأسَه بالسيف، فوقع الغلامُ لوجهه، فقال: يا عمّاه! قال: فجلَّى الحسين كما يجلّي الصقر، ثم شدّ شدّةَ ليث غُضُبٍّ ، فضرب عمراً بالسيف ، فاتقاه بالساعد ، فأطنّها من لَدُن المرفق ، فصاح ، ثمّ تنحّى عنه ، وحملتْ خيلٌ لأهل الكوفة ليستنقذوا عمراً من حسين ، فاستقبلت عمراً بصدورها ، فحرّكت حوافرَها وجالت الخيل بفُرسانها عليه ، فوطئتْه حتى مات ، وانجلت الغبرة ، فإذا أنا بالحسين قائمٌ على رأس الغلام ، والغلام يَفحصُ برجليه ؛ وحسين يقولُ: بُعداً لِقوم قتلوك ؛ ومن خَصمهم يوم القيامة فيك جَدُّك ! ثم قال : عزَّ واللّهِ على عمِّك أن تدعوَه فلا يُجيبُك ، أو يجيبُك ثم لا ينفعك ! صوتٌ واللّهِ كَثر واتِرُه ، وقلّ ناصِرُه . ثم احتمله فكأني أنظر إلى رِجلَي الغلام يخطّان في الأرض، وقد وضع حسين صدرَه على صدره ؛ قال : فقلتُ في نفسي : ما يصنع به! فجاء به حتى ألقاه مع ابنه علي بن الحسين وقَتلَى قد قُتلتْ حوْلَه من أهل بيته ، فسألتُ عن الغلام ، فقيل : هو القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب . قال : ومكث الحسين طويلاً من النهار كلّما انتهى إليه رجل من الناس انصرف عنه ، وكره أن يتولّى قتلَه وعظيم إثمه عليه ؛ قال : وإنّ رجلاً من كِنْدة يقال له مالك بن النُّسير من بني بَدّاء ، أتاه فضرَبَه على رأسه بالسيف ، وعليه بُرنُس له ، فقطع البرنس ، وأصاب السيف رأسَه ، فأدمى رأسَه ، فامتلأ البرنس دماً ، فقال له الحسين : لا أكلت بها ولا شربتَ ، وحشرك الله مع الظالمين ! قال: فألقى ذلك البرنس، ثمّ دعا بقَلَنْسُوَة فلبسها ، واعتمّ ، وقد أعيا وَبَلّد ، وجاء

الكنديّ حتى أخذ البرنس ـ وكان من خزّ ـ فلما قدم به بعد ذلك على امرأته أمّ عبدالله ابنة الحرّ أخت حسين بن الحرّ البَدّيّ ، أقبل يَغسِل البرنسَ من الدم ، فقالت له امرأته : أَسَلبَ ابن بنت رسول الله ﷺ تدخِلُ بيتي ! أخرِجْه عنّي ؛ فذكر أصحابُه أنه لم يزل فقيراً بشرّ حتى مات . قال : ولما قعد الحسين أتي بصبيّ له فأجلَسه في حجره زعموا أنه عبدالله بن الحسين .

قال أبو مخنف : قال عُقْبة بن بشير الأسديّ : قال لي أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين : إنَّ لنا فيكم يا بني أسد دماً ؛ قال : قلت : فما ذنبي أنا في ذلك رحمك الله يا أبا جعفر! وما ذلك؟ قال : أتِيَ الحسين بصبيّ له ، فهو في حِجْره ، إذ رماه أحدُكم يا بني أسد بسهم فذَبَحه ، فتلقى الحسينُ دمه ، فلما ملأ كفّيه صبّه في الأرض ثم قال : ربِّ إنْ تك حبستَ عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير ، وانتقمْ لنا من هؤلاء الظالمين ؛ قال . ورمى عبدُالله بن عقبة الغنويّ أبا بكر بن الحسين بن علي بسهم فقتله ، فلذلك يقول الشاعر ؛ وهو ابن أبي عقِب :

وعِنْدَ غَنِيٍّ قَطرةٌ مِن دِمائِنا وفي أَسدٍ أخرى تَعَدُّ وتُذْكَرُ

قال : وزعموا أنّ العبّاس بن علي قال لإخوته من أمّه : عبدالله ، وجعفر وعثمان : يا بني أمّي ، تقدّموا حتى أرِثكم ، فإنه لا ولدَ لكم ، ففعلوا ، فقتِلوا . وشدّ هانىء بن ثُبَيت الحضرميّ على عبدالله بن علي بن أبي طالب فقتله ، ثمّ شدّ على جعفر بن علي فقتله وجاء برأسه ، ورمى خَوَليُّ بن يزيد الأصبحي عثمانَ بن علي بن أبي طالب بسهم ، ثم شدَّ عليه رجل من بني أبان بن دارم فقَتَله ، وجاءَ برأسه ، ورمى رجلٌ من بني أبان بن دارم محمد بن علي بن أبي طالب فقتله وجاء برأسه

قال هشام : حدّثني أبو الهُذَيل ـ رجلٌ من السَّكون ـ عن هانىء بن ثبيت الحضرميّ ، قال : رأيتُه جالساً في مجلس الحضرميّين في زمان خالد بن عبدالله وهو شيخ كبير ؛ قال : فسمعتُه وهو يقول : كنت ممن شهد قتلَ الحسين ، قال : فوالله إني لواقف عاشرَ عشرة ليس منّا رجل إلاّ على فرس ، وقد جالت الخيلُ وتصعصعتْ ، إذ خرج غلامٌ من آل الحسين وهو مُمسِك بعُود من تلك الأبنية ، عليه إزار وقميص ، وهو مذعور ، يتلفّت يميناً وشمالاً ، فكأني أنظر إلى دُرَّتين في أذنيه تذبذبان كلما التَفَتَ ، إذْ أقبل رجل يركض ، حتى إذا دنا منه مالَ عن فرسه ، ثم اقتصد الغلام فقطعه بالسيف .

قال هشام : قال السَّكونيّ : هانىء بن ثُبَيت هو صاحب الغلام ، فلما عُتب عليه كَنى عن نفسه .

قال هشام : حدّثني عمرو بن شمر ، عن جابر الجُعْفيّ ، قال : عطش الحسين حتى اشتدَّ عليه العطش ، فدنا ليشرب من الماء ، فرماه حصين بن تميم بسهم ، فوقع في فمه ، فجعل يتلقى الدمَ من فمه ، ويَرمِي به إلى السماء ، ثم حَمِد الله وأثنى عليه ، ثمّ جمع يديه فقال : اللهم أحصِهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تَذَرْ على الأرض منهم أحداً .

قال هشام ، عن أبيه محمد بن السائب ، عن القاسم بن الأصبغ بن نُباتة ، قال : حدّثني من شهد الحسينَ في عسكره أنّ حسيناً حين غُلِب على عسكره ركب المسنّاة يريد الفرات ، قال : فقال رجل من بني أبان بن دارم : وَيْلكم ! حُولوا بينه وبين الماء لا تتامّ إليه شيعته ؛ قال : وضرب فرسه ، وأتبعه الناس حتى حالوا بينه

وبين الفرات ، فقال الحسين : اللهم أظْمِهِ ، قال : وينتزع الأبانيّ بسهم ، فأثبَتَه في حنك الحسين ، قال : فانتزع الحسين السهمَ ، ثمّ بسط كفَّيه فامتلأتْ دماً ، ثم قال الحسين : اللهمّ إني أشكو إليك ما يُفْعل بابن بنتِ نبيِّك ؛ قال : فوالله إنْ مكث الرجل إلَّا يسيراً حتى صبّ الله عليه الظمأ ، فجعل لا يَرْوَى .

قال القاسم بن الأصبغ : لقد رأيتُني فيمن يرَوِّح عنه والماء يبرَّد له فيه السُّكَر وعِساس فيها اللبن ، وقِلال فيها الماء ، وإنه ليقول : وَيْلَكم! اسقُوني قتلني الظمأ ، فيُعطَى القُلّة أو العُسَّ كان مروياً أهل البيت فيشربه ، فإذا نزعه من فيه اضطجع الهُنَيْهةَ ثم يقول : وَيْلكم! اسقوني قتلني الظمأ ؛ قال : فوالله ما لبث إلَّا يسيراً حتى انقدَّ بطنُه انقداد بطن البعير .

قال أبو مخنف في حديثه : ثم إنّ شَمِر بن ذي الجوشن أقبلَ في نفرٍ نحو من عشرة من رجّالة أهل الكوفة قبل منزل الحسين الذي فيه ثَقَله وعيالُه ، فمشى نحوَه ، فحالوا بينه وبينَ رَحْلِه ، فقال الحسين : ويلكم! إن لم يكن لكم دين ، وكنتم لا تخافون يومَ المعاد ، فكونوا في أمر دنياكم أحراراً ذوي أحساب ، امنعوا رَحْلي وأهلي من طَغَامكم وجُهّالكم ؛ فقال ابن ذي الجوْشن : ذلك لك يابن فاطمة ؛ قال : وأقدَم عليه بالرجّالة ، منهم أبو الجَنوب ـ واسمه عبدالرحمن الجُعفيّ ـ والقَشْعَم بن عمرو بن يزيد الجعفي ، وصالح بن وهب اليزَني ، وسنان بن أنس النخَعيّ ، وخَوَليّ بن يزيد الأصبحي ، فجعل شمر بن ذي الجوشن يحرّضهم ، فمرّ بأبي الجَنوب وهو شاكٍ في السلاح فقال له : أقدِم عليه ؛ قال : وما يمنعك أن تقدم عليه أنت! فقال له شمِر : أَلِي تقول ذا! قال : وأنت لي تقول ذا! فاستبَّا ، فقال له أبو الجَنُوب ـ وكان شجاعاً : والله لهممتُ أن أخضخضَ السنان في عينك ؛ قال : فانصرف عنه شمر وقال : والله لئن قدرتُ على أن أضرّك لأضرّنّك قال : ثمّ إنّ شمر بن ذي الجوشن أقبل في الرجّالة نحو الحسين ؛ فأخذ الحسين يشدّ عليهم فينكشفون عنه . ثم إنهم أحاطوا به إحاطةً ، وأقبل إلى الحسين غلام من أهله ، فأخذتْه أخته زينب ابنة علي لتحبسه ، فقال لها الحسين : احبسيه ، فأبى الغلام ، وجاء يشتدّ إلى الحسين ، فقام إلى جنبه ؛ قال : وقد أهوى بحر بن كعب بن عبيدالله ـ من بني تَيْم الله بن ثعلبة بن عكابة ـ إلى الحسين بالسيف ، فقال الغلام : يابن الخبيثة ، أتقتل عمِّي! فضربه بالسيف ، فاتقاه الغلام بيده فأطنّها إلَّا الجلدة ، فإذا يده معلَّقة ، فنادى الغلام : يا أمَّتاه! فأخذه الحسين فضمَّه إلى صدره ، وقال : يابن أخي ؛ اصبر على ما نزل بك ، واحتسِب في ذلك الخير ، فإنّ الله يُلحقك بآبائك الصالحين ؛ برسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب وحمزة وجعفر والحسن بن علي ؛ صلى الله عليهم أجمعين .

قال أبو مخنف : حدّثني سليمان بن أبي راشد ، عن حميد بن مسلم ، قال : سمعت الحسينَ يومئذ وهو يقول : اللهمّ أمسك عنهم قَطْرَ السماء ، وامنعهم بركاتِ الأرض ، اللهمّ فإنْ متّعتهم إلى حينٍ ففرّقهم فِرَقا ، واجعلهم طرائقَ قِدَداً ، ولا تُرْضِ عنهم الوُلاة أبداً ، فإنهم دَعَوْنا لينصرونا ، فعَدَوْا علينا فقتلونا . قال : وضارب الرّجالة حتى انكشفوا عنه ؛ قال : ولما بقي الحسين في ثلاثة رهط أو أربعة ، دعا بسراويلَ محقَّقة يلمع فيها البَصَر ، يَمَانيّ محقَّق ، ففزره ونكثه لكيلا يسلبَه ، فقال له بعض أصحابه : لو لبست تحته تُبَّاناً! قال : ذلك ثوب مذلّة ، ولا ينبغي لي أن ألبسه ؛ قال : فلما قتِل أقبل بحر بن كعب فسلبه إياه فتركه مجرَّداً .

قال أبو مخنف : فحدّثني عمرو بن شعيب ، عن محمد بن عبدالرحمن أنّ يدَي بحر بن كعب كانتا في الشتاء تَنضَحان الماء ، وفي الصيف تَيْبسان كأنهما عود .

قال أبو مخنف: عن الحجّاج، عن عبدالله بن عمّار بن عبد يغوث البارقي، وعُتِب على عبدالله بن عمّار بعد ذلك مشهده قتل الحسين، فقال عبدالله بن عمار: إنّ لي عند بني هاشم لَيَداً، قلنا له: وما يَدُك عندهم؟ قال: حملتُ على حسين بالرُّمح فانتهيت إليه، فوالله لو شئت لطعنتُه، ثم انصرفتُ عنه غيرَ بعيد، وقلت: ما أصنع بأن أتولّى قتلَه! يقتله غيري. قال: فشدّ عليه رَجّالة ممّن عن يمينه وشِماله، فحمل على مَن عن يمينه حتى ابذعرُّوا، وعلى مَن عن شماله حتى ابذعرُّوا، وعليه قميص له من خَزّ وهو معتمٌّ؛ قال: فوالله ما رأيت مكسوراً قطّ قد قتِل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً، ولا أمضى جَناناً ولا أجرأ مقدماً منه، والله ما رأيتُ قبلَه ولا بعدَه مِثلَه؛ أن كانت الرّجالة لتنكشف من عن يمينه وشماله انكشافَ المِعزَى إذا شدّ فيها الذئب؛ قال: فوالله إنه لكذلك إذ خرجتْ زينبُ ابنة فاطمة أخته، وكأني أنظر إلى قُرْطها يجول بين أذنيها وعاتقها وهي تقول: ليت السماء تطابقتْ على الأرض! وقد دنا عمر بن سعد من حسين؛ فقالت: يا عمر بن سعد، أيُقتَل أبو عبدالله وأنت تنظر إليه! قال: فكأني أنظر إلى دموع عمر وهي تسيل على خدّيه ولحيته؛ قال: وصرف بوجهه عنها.

قال أبو مخنف: حدّثني الصَّقْعب بن زهير، عن حُميد بن مسلم، قال: كانت عليه جُبَّة من خزّ، وكان معتمًّا، وكان مخضوباً بالوَسِمة، قال: وسمعتُه يقول قبل أن يُقتَل، وهو يقاتل على رجليه قتالَ الفارس الشجاع يتّقي الرمية، ويفترصُ العورة، ويشدّ على الخيل، وهو يقول: أَعَلى قتلي تَحاثُّون! أَمَا والله لا تَقتُلون بعدي عَبْداً من عباد الله اللّهُ أسخطَ عليكم لقَتْلهِ منّي؛ وايم الله إني لأرجُو أن يكرِمني الله بهوانكم، ثمّ ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون، أمَا والله أن لو قد قتلتموني لقد ألقَى الله بأسَكُم بينكم، وسفك دماءَكم، ثم لا يَرضَى لكم حتى يضاعفَ لكم العذاب الأليم. قال: ولقد مكث طويلاً من النهار ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا، ولكنهم كان يتقي بعضهم ببعض، ويحبّ هؤلاء أن يكفيَهمْ هؤلاء؛ قال: فنادى شِمر في الناس: ويْحكم؛ ماذا تنظرون بالرجل! اقتلوه ثَكِلتْكم أمّهاتكم! قال: فحُمل عليه من كلّ جانب، فضُربت كفُّه اليُسرَى ضربةً، ضربها زُرْعَة بن شريك التميمي، وضرِب على عاتقه، ثم انصرفوا وهو ينُوء ويَكْبو؛ قال: وحَمَل عليه في تلك الحال سنان بن أنس بن عمرو النَّخَعيّ فطَعَنه بالرّمح فوقع، ثم قال لخَوَليّ بن يزيد الأصبحيّ: احتزّ رأسه، فأراد أن يفعل، فضَعف فأرعِد، فقال له سنان بن أنس: فتّ الله عَضُديك، وأبان يَدَيْك! فنزل إليه فذَبَحه واحتزّ رأسه، ثم دُفِع إلى خَوَليّ بن يزيد، وقد ضرِب قبل ذلك بالسيوف.

قال أبو مخنف، عن جعفر بن محمد بن علي، قال: وُجد بالحسين عليه السلام حين قُتل ثلاثٌ وثلاثون طعنة وأربعٌ وثلاثون ضربة؛ قال: وجعل سِنان بن أنس لا يدنُو أحدٌ من الحسين إلاّ شدّ عليه مخافة أن يُغلب على رأسه، حتى أَخَذ رأسَ الحسين فدَفَعه إلى خولي؛ قال: وسُلِب الحسينُ ما كان عليه، فأخذ سراويله بحر بن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته ـ وكانت من خزّ، وكان يسمّى بعدُ قيس قطيفة ـ وأخذَ نعليه رجل من بني أوْد يقال له الأسود، وأخذ سيفَه رجل من بني نَهشَل بن دارم، فوقع بعد ذلك إلى أهل حبيب بن بُدَيل، قال: ومال الناس على الوَرْس والحُلَل والإبل وانتهبوها؛ قال: ومال الناسُ على نساء الحسين وثَقَله ومتاعِه، فأنْ كانت المرأة لَتنازِع ثوبَها عن ظهرها حتى تُغلَب عليه فيُذهَب به منها.

قال أبو مخنف: حدّثني زهير بن عبدالرحمن الخثعمي، أن سويد بن عمرو بن أبي المطاع كان صُرِع

فأثخِن ، فوقع بين القتلى مُثْخَناً ، فسمعهم يقولون : قُتل الحسين ، فوجد إفاقةً ، فإذا معه سكِّين وقد أخذ سيفه ، فقاتَلَهم بسكِّينه ساعةً ، ثم إنه قُتل ، قَتَله عروة بن بطار التغلَبيّ ، وزيد بن رُقاد الجنبي ، وكان آخر قتيل .

قال أبو مخنف : حدّثني سليمان بن أبي راشد ، عن حُميد بن مسلم ، قال ، انتهيتُ إلى علي بن الحسين بن علي الأصغر وهو منبسِط على فراش له ، وهو مريض ، وإذا شَمِر بن ذي الجوشن في رَجّالة معه يقولون : ألا نقتل هذا؟ قال : فقلتُ : سبحان الله! أنقتل الصبيانَ! إنما هذا صبيّ ، قال : فما زال ذلك دأبي أدفع عنه كلَّ مَن جاء حتى جاء عمر بن سعد ، فقال : ألا لا يدخلنّ بيتَ هؤلاء النسوة أحد ، ولا يَعرِضنّ لهذا الغلام المريض ، ومَنْ أخذ من متاعهم شيئاً فليردّه عليهم . قال : فوالله ما ردّ أحد شيئاً ؛ قال : فقال علي بن الحسين : جُزيت من رجل خيراً! فوالله لقد دفع الله عني بمقالتك شرًّا ؛ قال : فقال الناس لسنان بن أنس : قتلتَ حسين بن علي وابن فاطمة ابنةَ رسول الله ﷺ ، قتلتَ أعظمَ العرب خطراً ؛ جاء إلى هؤلاء يريد أن يزيلهم عن ملكهم ، فأتِ أمراءَك فاطلب ثوابك منهم ، لو أعطَوْك بيوتَ أموالِهم في قتل الحسين كان قليلاً ؛ فأقبل على فرسه ، وكان شجاعاً شاعراً ، وكانت به لُوثة ، فأقبل حتى وقف على باب فسطاط عمر بن سعد ، ثمّ نادى بأعلى صوته :

أَوقِرْ ركابي فضّةً وَذَهَبا ... أنا قتلتُ المَلِك المحجَّبَا
قتلتُ خيرَ الناس أُمًّا وَأَبا ... وخيرَهم إذْ يُنسبون نَسَبا

فقال عمر بن سعد : أشهد إنك لمجنون ما صححتَ قطّ ، أدخِلوه عليَّ ، فلما أدخِل حَذَفَه بالقضيب ثم قال : يا مجنون ، أتتكلّم بهذا الكلام! أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقَك ؛ قال : وأخذ عمر بن سعد عُقْبة بن سِمْعان ـ وكان مولًى للرَّباب بنت امرىء القيس الكلبيَّة ، وهي أمّ سُكينة بنت الحسين ـ فقال له : ما أنت؟ قال : أنا عبدٌ مملوك ، فخلّي سبيله ، فلم ينجُ منهم أحد غيره ، إلاّ أن المرقَّع بن ثمامة الأسديّ كان قد نثر نبلَه وجثا على ركبتيه ، فقاتل ، فجاءه نفر من قومه ، فقالوا له : أنت آمِن ، أُخرُج إلينا ، فخرج إليهم ، فلما قدم بهم عمر بن سعد على ابن زياد وأخبره خبرَه سيَّره إلى الزارة . قال : ثمّ إن عمر بن سعد نادى في أصحابه : مَن ينْتدب للحسين ويوطئه فرسَه؟ فانتدب عشرة : منهم إسحاق بن حَيْوَةَ الحضرميّ ، وهو الذي سلب قميصَ الحسين ـ فبرص بعدُ ـ وأحبَش بن مرثد بن علقمة بن سلامة الحضرمي ، فأتَوْا فداسوا الحسين بخيُولهم حتى رَضّوا ظهرَه وصدرَه ، فبلغني أنّ أحبش بن مرثّد بعد ذلك بزمان أتاه سهمُ غَرْب ؛ وهو واقف في قتال ففَلَق قلبَه ، فمات ؛ قال : فقُتِل من أصحاب الحسين عليه السلام اثنان وسبعون رجلاً ، ودَفَن الحسينَ وأصحابَه أهلُ الغاضريَّة من بني أسد بعدما قُتلوا بيوم ، وقتل من أصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانون رجلاً سوى الجَرحَى ، فصلّى عليهم عمر بن سعد ودَفنهم ؛ قال : وما هو إلاّ أن قُتِل الحسين ، فسرِّح برأسه من يومه ذلك مع خَوَلي بن يزيد وحميد بن مسلم الأزدي إلى عُبيدالله بن زياد ، فأقبل به خَوَلي فأراد القصر ، فوجد بابَ القصر مُغلقاً ، فأتى منزله فوضعه تحت إجّانة في منزله ، وله امرأتان : امرأة من بني أسد ، والأخرى من الحضرميين يقال لها النَّوار ابنة مالك بن عقرب ، وكانت تلك الليلة ليلة الحضرمية .

قال هشام : فحدّثني أبي ، عن النّوار بنت مالك ، قالت : أقبل خَوَلي برأس الحسين فوضَعه تحت إجّانة في

الدار ، ثم دخل البيت ، فأوى إلى فراشه ، فقلت له : ما الخبر؟ ما عندك؟ قال: جئتكِ بغنَى الدهر ، هذا رأس الحسين معك في الدار؛ قالت: فقلت: ويلك ـ جاء الناس بالذهب والفضة وجئتَ برأس ابن رسول الله ﷺ ! لا والله لا يجمع رأسي ورأسك بيتٌ أبداً ؛ قالت : فقمت من فراشي ، فخرجتُ إلى الدار ، فدعا الأسديّة فأدخلها إليه ، وجلستُ أنظر ، قالت : فوالله ما زلت أنظر إلى نور يَسْطع مِثْلَ العمود من السماء إلى الإجّانة ، ورأيت طيراً بيضاً تُرفرِف حولها . قال: فلما أصبح غدا بالرأس إلى عبيدالله بن زياد ، وأقام عمر بن سعد يومَه ذلك والغد ، ثمّ أمر حميد بن بكير الأحمري فأذّن في الناس بالرحيل إلى الكوفة ، وحمل معه بنات الحسين وأخواته ومنْ كان معه من الصبيان ، وعلي بن الحسين مريضٌ .

قال أبو مخنف: فحدثني أبو زهير العبسيّ، عن قرة بن قيس التميمي قال: نظرت إلى تلك النسوة لما مررن بحسين وأهله وولده صِحْن ولطمْنَ وجوههنّ . قال : فاعترضتُهنَّ على فَرَس ، فما رأيت مَنظَراً من نسوة قطّ كان أحسنَ من منظر رأيتُه منهنّ ذلك [اليوم] ، والله لهنّ أحسَنُ من مَهَايَبْرِين . قال : فما نسيتُ من الأشياء لا أنْس قولَ زينب ابنة فاطمة حين مرّت بأخيها الحسين صريعاً وهي تقول: يا محمّداه، يا محمّداه! صلى عليك ملائكةُ السماء، هذا الحسينُ بالعَراء، مرمَّل بالدماء، مقطع الأعضاء، يا محمداه! وبناتـك سبايـا ، وذريتك مقتَّلة، تَسفِي عليها الصَّبا . قال : فأبكت والله كلّ عدوّ وصديق ؛ قـال: وقُطف رؤوس الباقين ، فسُرّح باثنين وسبعين رأساً مع شَمِر بن ذي الجوشن وقيس بن الأشعث وعمرو بن الحجاج وعزْرة بن قيس ، فأقبلوا حتى قدموا بها على عُبيد الله بن زياد .

قال أبو مخنف: حدّثني سليمان بن أبي راشد ، عن حُميد بن مسلم ، قال : دعاني عمر بن سعد فسرَّحني إلى أهله لأبشّرهم بفتح الله عليه وبعافيته ، فأقبلتُ حتى أتيتُ أهله ، فأعلمتُهم ذلك ، ثمّ أقبلت حتى أدخل فأجد ابن زياد قد جلس للناس ، وأجد الوفد قد قدموا عليه ؛ فأدخلهم ، وأذن للناس ، فـدخلتُ فيمن دخل ، فإذا رأس الحسين موضوع بين يديه ، وإذا هو يَنكُت بقضيب بين ثنيّتيه ساعةً ، فلما رآه زيد بن أرقم لا يُنجِم عن نَكْته بالقضيب ، قال له : أَعْلُ بهذا القضيب عن هاتين الثنيَّتين ، فوالذي لا إله غيرُه لقد رأيت شَفَتَيْ رسولِ الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبّلهما ، ثم انفضخ الشيخُ يبكي ؛ فقال له ابن زياد : أبكَى الله عينيك! فوالله لولا أنك شيخ قد خَرِفتَ وذهب عقلُك لضربتُ عنقَك ؛ قال: فنهض فخـرج ، فلما خرج سمعتُ الناس يقولون : واللّهِ لقد قال زيد بن أرقم قولاً لو سمعه ابن زياد لقَتَله ؛ قال : فقلت : ما قال؟ قالوا : مرّ بنا وهو يقول : ملَّك عبدٌ عبداً ، فاتّخذهم تُلداً ؛ أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم ، قتلتم ابن فاطمة ، وأمَّرتم ابن مُرْجانة، فهو يقتل خيـارَكم، ويستعبد شِـرارَكم ، فرضيتم بـالذلّ، فبعـداً لمن رضي بالذّل ! .

قال: فلما دُخل برأس حسين وصبيانه وأخواته ونسائه على عبيدالله بن زياد لبستْ زينب ابنة فاطمة أرذل ثيابها، وتنكّرت، وحفّتْ بها إماؤها، فلما دخلتْ جلست ، فقال عبيدالله بن زياد: مَن هذه الجالسة؟ فلم تكلّمه؛ فقال ذلك ثلاثاً ، كلّ ذلك لا تكلّمه، فقال بعض إمائها: هذه زينب ابنة فاطمة؛ قال: فقال لها عبيدالله: الحمد لله الذي فَضَحكم وقتّلكم وأكذَبَ أحدُوثتَكم! فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ وطهَّرنا تطهيراً، لا كما تقول أنت، إنما يَفتضح الفاسق، ويكذِّب الفاجر؛ قال: فكيف رأيتِ صنعَ الله بأهل

بيتك! قالت: كُتِب عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينَك وبينَهم ، فتحاجّون إليه ، وتخاصمون عنده ؛ قال: فغضب ابن زياد واستشاط؛ قال: فقال له عمرو بن حريث : أصلح الله الأمير! إنما هي امرأة ، وهل تؤاخذ المرأة بشيء من منطقها! إنها لا تؤاخذ بقول، ولا تُلام على خَطَل، فقال لها ابن زياد: قد أشفى الله نفسي من طاغيتك، والعُصاة المَردة من أهل بيتك ؛ قال: فبكتْ ثم قالت: لَعَمري لقد قتلتَ كَهْلي، وأبرْت أهلي، وقطّعت فَرْعِي، واجتثثتَ أصلي، فإن يَشْفِك هذا فقد اشتفيت ، فقال لها عبيدالله: هذه شجاعة، قد لَعمري كان أبوكِ شاعراً شجاعاً؛ قالت: ما للمرأة والشجاعة! إنّ لي عن الشجاعة لشُغْلاً ، ولكنّ نَفْثي ما أقول .

قال أبو مخنف ، عن المجالد بن سعيد : إنّ عُبيد الله بن زياد لما نظر إلى علي بن الحسين قال لشرطيّ : انظر هل أدرك ما يدرِك الرّجال؟ فكَشَط إزاره عنه ، فقال : نعم ، قال انطلقوا به فاضربوا عنقه ، فقال له علي : إن كان بينك وبين هؤلاء النسوة قرابة فابعث معهنّ رجلاً يحافظ عليهنّ ، فقال له ابن زياد: تعالَ أنتَ، فبعثَه معهنّ .

قال أبو مخنف : وأما سليمان بن أبي راشد ، فحدّثني عن حُميد بن مسلم قال : إنّي لقائم عند ابن زياد حين عُرض عليه علي بن الحسين فقال له : ما اسمك؟ قال: أنا علي بن الحسين ، قال : أولم يَقتُل الله علي بن الحسين ! فسكت ، فقال له ابن زياد : ما لَكَ لا تتكلم! قال: قد كان لي أخ يقال له أيضاً علي ، فقتله الناس، قال: إن الله قد قتله ، قال : فسكت علي ، فقال له : ما لَكَ لا تتكلم! قال : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[1] ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[2] ، قال : أنت والله منهم ، وَيْحك! انظروا هل أدرك؟ والله إنّي لأحسبه رجلاً؛ قال: فكشف عنه مُريّ بن معاذ الأحمري ، فقال : نعم قد أدرَك ؛ فقال : اقتله ؛ فقال علي بن الحسين : من تُوَكِّل بهؤلاء النسوة؟ وتعلقتْ به زينب عمته فقالت : يابن زياد ، حسبُك منّا ، أما رَوِيتَ من دمائنا ! وهل أبقيت منا أحداً ! قال: فاعتنقتْه فقالت : أسألك بالله إن كنت مؤمناً إنْ قتلتَه لَمّا قتلتَني معه ! قال : وناداه علي فقال : يابن زياد ، إن كانت بينك وبينهن قرابة فابعث معهنّ رجلاً تقيًّا يصحبهنّ بصحبة الإسلام ؛ قال : فنظر إليها ساعة ، ثم نظر إلى القوم فقال : عجباً للرّحِم! والله إنّي لأظنها ودَّت لو أنّي قتلتُه أنّي قتلتُها معه ؛ دعوا الغلام ، اِنطلق مع نسائك .

قال حميد بن مسلم : لما دخل عبيدالله القصرَ ودخل الناسُ ، نوديَ : الصلاة جامعة ! فاجتمع الناس في المسجد الأعظم ، فصَعِد المنبرَ ابن زياد فقال : الحمد لله الذي أظهر الحقّ وأهلَه ، ونصر أميرَ المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبَه ، وقَتَل الكذّاب ابن الكذّاب، الحسينَ بن علي وشيعته ؛ فلم يفرغ ابن زياد من مقالته حتى وثب إليه عبدالله بن عَفيف الأزدي ثم الغامدي ، ثم أحد بني والبة ـ وكان من شيعة علي كرّم الله وجهه ، وكانت عينُه اليسرى ذهبتْ يومَ الجمل مع علي، فلما كان يومَ صِفّين ضُرِب على رأسه ضربةً ، وأخرى على حاجبه ، فذهبتْ عينُه الأخرى ، فكان لا يكاد يفارق المسجدَ الأعظم يصلي فيه إلى الليل ثم ينصرف ـ قال: فلما سمع مقالةَ ابن زياد، قال: يابن مَرْجانة، إنّ الكذّاب ابنَ الكذّاب أنت وأبوك والذي ولاّك وأبوه ؛ يابن

---

(١) سورة الزمر: ٤٢ .

(٢) سورة آل عمران: ٤٥ .

مرجانة، أتقتلون أبناء النبيّين، وتكلّمون بكلام الصدّيقين! فقال ابن زياد: عليَّ بـه ؛ قال : فـوثبتْ عليه الجَلاوزة فأخذوه ؛ قال : فنادى بشعار الأزد: يا مبرور ـ قال: وعبدالرحمن بن مخنف الأزدي جالس ـ فقال: ويحَ غيرك! أهلكت نفسك ، وأهلكتَ قومك ، قال : وحاضر الكوفة يومئذ من الأزْد سبعمائة مقاتل ؛ قال : فوثب إليه فتيةٌ من الأزد فانتزعوه فأتَوْا به أهلَه ، فأرسل إليه من أتاه به ، فقَتَله وأَمَرَ بصَلْبه في السَّبَخة، فصُلب هنالك .

قال أبو مخنف : ثمّ إنّ عبيدالله بن زياد نصب رأس الحسين بالكوفة، فجعل يُدار به في الكوفة، ثم دعا زَحْر بن قيس فسرّح معه برأس الحسين ورؤوس أصحابه إلى يزيدَ بن معاوية ، وكان مع زَحْر أبو بُردة بن عوف الأزديّ وطارق بن أبي ظَبيان الأزدي ، فخرجوا حتى قدموا بها الشأم على يزيدَ بن معاوية .

قال هشام : فحدّثني عبدالله بن يزيد بن رَوْح بن زِنْباع الجُذاميّ ، عن أبيـه ، عن الغاز بن ربيعـة الجُرَشيّ ؛ من حمير ، قال : والله إنا لعند يزيدَ بن معاوية بدمشق إذ أقبل زَحْر بن قيس حتى دخل على يزيد بن معاوية ، فقال له يزيد : ويلك! ما وراءك؟ وما عندك؟ فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره ، وَرَدَ علينا الحسينُ بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته وستّين من شيعته ، فسرنا إليهم ، فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حُكم الأمير عُبيدِ الله بن زياد أو القتال ؛ فاختاروا القتال على الاستسلام ، فعدوْنا عليهم مـع شروق الشمس ، فأحطْنا بهم من كلّ ناحية، حتى إذا أخذتِ السيوفُ مأخذَها من هام القوم ، يَهربون إلى غير وَزَرٍ ، ويلوذون منا بالآكام والحُفَر ، لواذاً كما لاذ الحَمائم من صقر، فوالله يا أمير المؤمنين ما كان إلّا جَزْرَ جَزور أو نومةَ قائل حتى أتينا على آخـرهم ، فهاتيك أجسادُهم مجـرَّدة ، وثيابُهم مـرمَّلة، وخدودهم معفَّـرة ، تَصهرُهم الشمس ، وتَسفي عليهم الريح ، زُوَّارهم العِقْبان والرَّخَم بقيّ سَبْسَب . قال : فدمعتْ عينُ يزيد ، وقال : قد كنت أرضَى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن سُميّة ! أما والله لو أنّي صاحبه لعفوتُ عنه ، فرحم الله الحسينَ ! ولم يصله بشيء .

قال : ثمّ إنّ عبيدالله أمر بنساء الحسين وصبيانه فجُهِّزن ، وأمر بعلي بن الحسين فَغُلَّ بغلّ إلى عنقه ، ثم سرّح بهم مع مُحَفِّز بن ثعلبة العائذي ، عائذة قريش ومع شمر بن ذي الجوشن ، فانطلقا بهم حتى قدموا على يزيد ، فلم يكن علي بن الحسين يكلم أحداً منهما في الطريق كلمة حتى بلغوا ، فلمّا انتهَوا إلى باب يزيدَ رفع مُحَفِّز بن ثعلبة صوتَه ، فقال : هذا محفِّز بن ثعلبة أتى أميرَ المؤمنين باللئام الفَجَرة ، قال : فأجابه يزيـد بن معاوية : ما ولدتْ أم مَحفِّز شرٌّ وألأم .

قال أبو مخنف : حدّثني الصقعب بن زهير ، عن القاسم بن عبدالرحمن مولَى يزيد بن معاوية ، قال : لما وُضعت الرؤوس بين يديْ يزيدَ ـ رأسُ الحسين وأهل بيته وأصحابه ـ قال يزيد :

يُفَلِّقْنَ هاماً من رجال أَعِزَّةٍ   عَلَيْنا وَهُمْ كانوا أَعَقَّ وَأَظْلَما

أما والله يا حسينُ ، لو أنا صاحبُك ما قتلتُك .

قال أبو مخنف: حدّثني أبو جعفر العبسي ، عن أبي عمارة العبسي ، قال : فقال يحيى بن الحكم أخو مروان بن الحكم :

لهـامٌ بجَـنْبِ الـطُّفِّ أدْنـى قَـرابـةً ... من آبن زيادِ العبْدِ ذي الحَسَب الوَغْل
سُمَيَّـةُ أمسى نَسْلها عـدد الحصى ... وبنتُ رسُـول الـلّهِ لَيْسَ لـهـا نَسْـل

قال : فضرب يزيدُ بن معاوية في صدر يحيى بن الحَكَم وقال : اسكت .

قال : ولمّا جلس يزيد بن معاوية دعا أشراف أهل الشأم فأجلسهم حولَه ، ثم دعا بعلي بن الحسين وصبيان الحسين ونسائه ، فأدخِلوا عليه والناس ينظرون ، فقال يزيد لعلي : يا علي ، أبوكَ الذي قطع رَحِمي ، وجَهل حَقي ، ونازعني سلطاني ، فصنع الله به ما قد رأيتَ ! قال : فقال علي : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾(١) ، فقال يزيد لابنه خالد : اردُد عليه ؛ قال : فما دَرَى خالد ما يردّ عليه ؛ فقال له يزيد : قل : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصيبةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْـدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾(٢) ، ثم سَكَت عنه ؛ قال : ثمّ دعا بالنساء والصبيان فأجلِسوا بين يديه ، فرأى هيئةً قبيحة ، فقال : قبحَ الله ابنَ مَرْجانة ! لو كانت بينه وبينَكم رَحِم أو قرابةٌ ما فعل هذا بكم ، ولا بَعث بكم هكذا .

قال أبو مخنف ، عن الحارث بن كعب ، عن فاطمة بنت علي ، قالت : لما أجلِسْنا بين يديْ يزيدَ بنِ معاوية رقّ لنا ، وأمَرَ لنا بشيء ، وألطَفَنا ؛ قالت : ثمّ إنّ رجلاً من أهلِ الشأم أحمرَ قام إلى يزيدَ فقال : يا أمير المؤمنين ، هبْ لي هذه ـ يعنيني ، وكنتُ جاريةً وَضيئةً ـ فأرعِدْتُ وَفَرِقْتُ ، وظَننتُ أنّ ذلك جائز لهم ، وأخذتُ بثياب أختي زينب ؛ قالت : وكانت أختي زينب أكبرَ منّي وأعقلَ ، وكانت تعلم أنّ ذلك لا يكون ، فقالت : كذبتَ واللّهِ ولؤمتَ ! ما ذلك لك وله ، فغضب يزيد ، فقال : كذبتِ واللّهِ ، إنّ ذلك لي ، ولو شئتُ أن أفعلَه لفعلتُ ؛ قالت : كلاّ والله ، ما جعل الله ذلك لك إلاّ أن تخرج من ملّتنا ، وتـدينَ بغير ديننـا ؛ قالت : فغضب يـزيد واستطار ، ثم قال : إيّاي تستقبلين بهذا ! إنما خرج من الدّين أبوكِ وأخوكِ ؛ فقالت زينب : بدين الله ودين أبي ودين أخي وجدّي اهتديتَ أنتَ وأبوك وجدّك ، قال : كذبتِ يا عدوّة الله ؛ قالت : أنت أميرٌ مسلَّط ، تشتم ظالماً ، وتقهر بسلطانك ؛ قالت : فوالله لكأنه استحيا ؛ فسكتَ ، ثم عاد الشاميّ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، هبْ لي هذه الجارية ؛ قال : اعزُبْ . وهَب الله لك حَتْفاً قاضياً ! قالت : ثمّ قال يزيدُ بنُ معاوية : يا نعمان بن بشير ، جهِّزْهم بما يُصلِحهم ، وابعث معهم رجلاً من أهل الشأم أميناً صالحاً ، وابعث معه خيلاً وأعواناً فيسير بهم إلى المدينة ، ثمّ أمر بالنسوة أن يُنْزلن في دارٍ على حِدَة ، معهنّ ما يصلحهنّ ، وأخوهنّ معهنّ علي بن الحسين ، في الدار التي هنّ فيها . قال : فخرجن حتى دخلن دار يزيدَ فلم تبق من آل معاوية امرأةٌ إلاّ استقبلتْهنّ تبكي وتنوح على الحسين ، فأقاموا عليه المناحة ثلاثاً ، وكان يزيد لا يتغدّى ولا يتعشى إلاّ دعا علي بن الحسين إليه ؛ قال : فدعاه ذاتَ يوم ، ودعا عمر بن الحسن بن علي وهو غلام صغير ، فقال لعمر بن الحسن : أتقاتل هذا الفتى؟ يعني خالداً ابنه ، قال : لا ، ولكنْ أعطِني سكيناً وأعطِه سكيناً ، ثم أقاتله ، فقال له يزيد ؛ وأخذه فضمه إليه ثمّ قال : « شِنْشِنةٌ أعْرِفُها مِن أخْزَمٍ » ؛ هل تَلِد الحيّة إلاّ حيّة ! قال : ولما أرادوا أن يخرجوا دعا يزيدُ عليَ بنَ الحسين ثمّ قال : لعن الله ابنَ مرجانة ، أما والله لو أني صاحِبُه ما سألني خَصلةً أبداً إلاّ أعطيتُها إياه ، ولدفعتُ الحَتْف عنه بكلّ ما استطعتُ ولو بهلاك بعض وَلَدي ، ولكنّ الله قضى ما رأيت ، كاتِبْني وأنْهِ كلّ

---

(١) سورة الحديد: ٢٢ .

(٢) سورة الشورى: ٣٠ .

حاجة تكون لك ؛ قال : وكساهم وأوْصىَ بهم ذلك الرسول ؛ قال : فخرج بهم وكان يسايرهم بالليل فيكونون أمامه حيث لا يفوتون طرفه ، فإذا نزلوا تنحّى عنهم وتفرّق هو وأصحابُه حولَهم كهيئة الحَرَس لهم ، وينزل منهم بحيث إذا أراد إنسان منهم وضوءاً أو قضاءَ حاجة لم يحتشم ، فلم يزل يُنازلهم في الطريق هكذا، ويسألهم عن حوائجهم ، ويُلطِفهم حتى دخلوا المدينة .

وقال الحارث بن كعب: فقالت لي فاطمة بنت علي: قلت لأختي زينب : يا أُخَيَّة ، لقد أحسنَ هذا الرجل الشاميّ إلينا في صحبتنا ، فهل لكِ أن نصِلَه؟ فقالت: واللّهِ ما معنا شيء نصِلُه به إلاَّ حُلّينا ؛ قالت لها : فنعطيه حُليَّنا ؛ قالت : فأخذتُ سِواري ودُمْلُجي وأخذتْ أختي سِوارَها ودُملجَها، فبعثنا بذلك إليه ، واعتذرْنا إليه ، وقلنا له : هذا جزاؤك بصحبتك إيّانا بالحَسَن من الفعل؛ قال: فقال: لو كان الذي صنعتُ إنما هو للدنيا كان في حليِّكنّ ما يرضيني ودونَه ، ولكنْ والله ما فعلتُه إلاَّ لله ، ولقرابتكم من رسول الله ﷺ .

قال هشام : وأما عَوانة بن الحَكَم الكلبي فإنه قال: لما قُتل الحسين وجيء بالأثقال والأسارى حتى وردوا بهم الكوفة إلى عُبيد الله ، فبينا القومُ محتبسون إذ وقع حجَر في السجن ، معه كتاب مربوط ، وفي الكتاب خرج البريد بأمركم في يوم كذا وكذا إلى يزيدَ بن معاوية ، وهو سائر كذا وكذا يوماً ، وراجع في كذا وكذا، فإن سمعتم التكبيرَ فأيقِنوا بالقتل ، وإن لم تَسمعوا تكبيراً فهو الأمان إن شاء الله؛ قال: فلما كان قبل قدوم البريد بيومين أو ثلاثة إذا حجر قد أُلقيَ في السجن ، ومعه كتاب مربوط ومُوسَى ، وفي الكتاب : أوصُوا واعهَدُوا فإنما يُنتظر البريد يوم كذا وكذا . فجاء البريد ولم يُسمع التكبير ، وجاء كتاب بأن سرّح الأسارى إليّ . قال : فدعا عبيدالله بن زياد مُحفّز بن ثعلبة وشمر بن ذي الجَوْشن ، فقال : انطلقوا بالثقَل والرأس إلى أمير المؤمنين يزيد بن معاوية ؛ قال : فخرجوا حتى قدموا على يزيدَ ، فقام مُحفِّز بن ثعلبة فنادى بأعلى صوته : جئنا برأس أحمَقِ الناس وألأمِهم ؛ فقال يزيد : ما ولدتْ أمّ مُحفِّز ألأمُ وأحمقُ ، ولكنه قاطعٌ ظالم ؛ قال : فلما نظر يزيد إلى رأس الحسين، قال :

يفلِّقن هاماً من رجالٍ أعِزَّةٍ ... علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلَما

ثم قال: أتدرون من أين أُتِي هذا؟ قال: أبي عليٌّ خيرٌ من أبيه ، وأمّي فاطمة خيرٌ من أمه ، وجدّي رسولُ الله خيرٌ من جدّه ، وأنا خيرٌ منه وأحقّ بهذا الأمر منه ؛ فأما قوله: «أبوه خيرٌ من أبي» ، فقد حاجّ أبي أباه ، وعلم الناسُ أيُّهما حكم له ؛ وأما قولُه: « أمّي خير من أمّه » ، فلَعْمري فاطمةُ ابنة رسولِ الله ﷺ خيرٌ من أمّي ؛ وأما قوله : « جدّي خيرٌ من جدّه » ، فلعمري ما أحدٌ يؤمن بالله واليوم الآخر يَرَى لرسول الله فينا عِدْلا ولا نِدًّا ، ولكنه إنما أُتيَ من قبَل فقهه ، ولم يقرأ: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] . ثم أدخِل نساء الحسين على يزيد، فصاح نساء آل يزيد وبنات معاوية وأهله ووَلْوَلن. ثم إنهنّ أدخِلن على يزيد، فقالت فاطمة بنت الحسين ـ وكانت أكبرَ منْ سُكينةَ : أبنات رسول الله سبايا يا يزيد! فقال يزيد: يا ابنة أخي، أنا لهذا كنت أكره ؛ قالت : والله ما ترِك لنا خُرْص ، قال: يا ابنة أخي ما آتٍ إليكِ أعظَم مما أخِذَ منكِ ، ثم أخرجن فأُدخلن دارَ يزيد بن معاوية ، فلم تبق امرأةٌ من آل يزيدَ إلاَّ أتتهنّ ، وأقمن المأتَم ، وأرسل يزيد إلى كلّ امرأة : ماذا أخذ

(١) سورة آل عمران : ٢٦ .

لك؟ وليس منْهنّ امرأة تدَّعي شيئاً بالغاً ما بلغ إلاّ قد أضعفه لها، فكانت سكينة تقول: ما رأيتُ رجلاً كافراً بالله خيراً من يزيد بن معاوية. ثم أدخل الأسارى إليه وفيهم عليُّ بنُ الحسين، فقال له يزيد: إيهٍ يا علي! فقال علي: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(١) فقال يزيد: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾(٢) ثم جهزه وأعطاه مالاً، وسرّحه إلى المدينة.

قال هشام، عن أبي مخنف، قال: حدّثني أبو حمزة الثُّماليُّ، عن عبدالله الثُّمالي، عن القاسم بن بُخَيْت، قال: لما أقبل وفدُ أهلِ الكوفة برأس الحسين دخلوا مسجد دمشق، فقال لهم مروان بن الحكم: كيف صنعتم؟ قالوا: ورد علينا منهم ثمانية عشر رجلاً، فأتينا والله على آخرهم، وهذه الرؤوس والسَّبايا، فوثب مروان فانصرف، وأتاهم أخوه يحيى بن الحكم، فقال: ما صنعتم؟ فأعادوا عليه الكلام، فقال: حُجِبتم عن محمد يومَ القيامة؛ لن أجامعَكم على أمر أبداً ثم قام فانصرف، ودخلوا على يزيدَ فوضعوا الرأسَ بين يديه، وحدّثوه الحديث. قال: فسمعتْ دَوْرَ الحديثِ هند بنت عبدالله بن عامر بن كُرَيز ـ وكانت تحت يزيد بن معاوية ـ فتقنّعت بثوبها، وخرجت فقالت: يا أمير المؤمنين، أرأس الحسين بن فاطمةَ بنت رسول الله! قال: نعم فأعْوِلي عليه، وحُدّي على ابن بنت رسول الله ﷺ وصريحة قريش؛ عجّلَ عليه ابن زياد فقتله قَتَله الله! ثم أذن للناس فدخلوا والرأس بين يديه، ومع يزيد قضيبٌ فهو يَنكُت به في ثغره، ثم قال: إنّ هذا وإيّانا كما قال الحُصَين بنُ الحُمَام المُرّيّ:

يفلِّقن هاماً من رجالٍ أحبةٍ ... إلينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له أبو برزة الأسلميّ: أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين! أما لقد أخَذ قضيبُك مِن ثغره مأخذاً، لربّما رأيتُ رسولَ الله ﷺ يَرشِفه، أما إنك يا يزيد تجيء يومَ القيامة وابن زياد شفيعك، ويجيء هذا يومَ القيامة ومحمد ﷺ شفيعه؛ ثم قام فولّى.

قال هشام: حدّثني عَوَانة بن الحكم، قال: لما قَتل عبيدُ الله بن زياد الحسينَ بن علي وجيء برأسه إليه، دعا عبدالملك بن أبي الحارث السُّلَميّ فقال: انطلقْ حتى تقدم المدينة على عمرو بن سعيد بن العاص فبشِّره بقَتْل الحسين ـ وكان عمرو بن سعيد بن العاص أميرَ المدينة يومئذ ـ قال: فذهب ليعتلّ له، فزجره ـ وكان عبيدالله لا يُصطلَى بناره ـ فقال: انطلق حتى تأتيَ المدينة، ولا يسبقك الخبر؛ وأعطاه دنانير، وقال: لا تعتلّ، وإن قامت بك راحلتُك فاشتر راحلة؛ قال عبدالملك: فقدمتُ المدينة، فلقيَني رجل من قريش، فقال: ما الخبر، فقلت: الخبر عند الأمير، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! قُتِل الحسين بن علي؛ فدخلتُ على عمرو بن سعيد فقال: ما وراءك؟ فقلت: ما سرَّ الأمير، قُتِل الحسين بن علي؛ فقال: نادِ بقَتْله، فناديْت بقتله، فلم أسمع والله واعيةً قطّ مثل واعية نساء بني هاشم في دُورهنّ على الحسين، فقال عمرو بن سعيد وضحك:

عجّت نساءُ بني زياد عجّةً ... كعجيجِ نِسْوتنا غداةَ الأرْنب

---

(١) سورة الحديد: ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة الشورى: ٣٠.

والأرنب : وقعةٌ كانت لبني زُبيد على بني زياد من بني الحارث بن كعب ، من رهط عبدالمدان ، وهذا البيتُ لعَمرو بن معد يكرَب ، ثم قال عمرو : هذه واعية بواعية عثمانَ بن عفّان ، ثم صعد المنبَر فأعْلَمَ الناسَ قتلَه .

قال هشام ، عن أبي مخنف ، عن سليمان بن أبي راشد ، عن عبدالرحمن بن عبيد أبي الكَنود ، قال : لما بلغ عبدَالله بن جعفر بن أبي طالب مقتل ابنيه مع الحسين ، دخل عليه بعضُ مواليه والناس يعزّونه ـ قال : ولا أظنّ مولاه ذلك إلاّ أبا اللِّسلاس ـ فقال : هذا ما لقِينا ودخل علينا من الحسين! قال : فَحذَفه عبدُ الله بن جعفر بنعله ، ثم قال : يابن اللَّخناء ، أللحسين تقول هذا! والله لو شهدتُه لأحببتُ ألاّ أفارقَهُ حتى أقتلَ معه ، والله إنه لما يسخّي بنفسي عنهما ، ويهوّن عليَّ المصابَ بهما ، أنهما أصيبا مع أخي وابن عمّي مواسيَيْن له ، صابرَيْن معه . ثم أقبل على جلسائه فقال : الحمد لله عزّ وجلّ على مَصرَع الحسين ، إلاّ تكن آستْ حسيناً يدي ، فقد آساه وَلَدي . قال : ولّما أتى أهلَ المدينة مقتلُ الحسين خرجتْ ابنة عَقيل بن أبي طالب ومعها نساؤها وهي حاسرة تلوي بثوبها وهي تقول :

مـاذَا تقـولـونَ إنْ قـال النبيُّ لـكمْ ... مـاذا فـعـلتـم وأنـتـمْ آخِـرُ الأُمَـمِ
بعِتْــرتـي وبــأَهلي بـعــدَ مُفْـتَقَــدِي ... منهمْ أُسارَى ومنهمْ ضُـرّجـوا بـدم!

قال هشام : عن عوانة ، قال : قال عُبيد الله بن زياد لعمَر بن سعد بعد قتله الحسين : يا عمر ، أين الكتاب الذي كتبتُ به إليك في قتل الحسين؟ قال : مضيتُ لأمرك وضاع الكتاب ؛ قال : لتجيئنّ به ؛ قال : ضاع ؛ قال : والله لتجيئنّي به ؛ قال : تُرِك والله يُقرأ على عجائزِ قريش اعتذاراً إليهنّ بالمدينة ، أمَا والله لقد نصحتُك في حسين نصيحةً لو نصحتُها أبي سعد بن أبي وقّاص كنت قد أدّيت حقه ، قال عثمان بن زياد أخو عبيدالله : صدق والله ، لَوددتُ أنه ليس من بني زياد رجلٌ إلاّ وفى أنفه خِزامةٌ إلى يوم القيامة وأنّ حسيناً لم يُقتل ؛ قال : فوالله ما أنكر ذلك عليه عبيدالله .

قال هشام : حدّثني بعض أصحابنا ، عن عمرو بن أبي المقدام ، قال : حدّثني عمرو بن عكرمة ، قال : أصبحنا صبيحةَ قتل الحسين بالمدينة ، فإذا مولًى لنا يحدّثنا ، قال : سمعتُ البارحة منادياً ينادي وهو يقول :

أيّـها الـقـاتـلون جَـهْــلاً حُـسـيـنــاً ... أَبـشِــروا بــالـعــذابِ والـتَّـنْـكِـيــلِ
كُـلُّ أهـلِ السمــاءِ يــدعــو عليكمْ ... مــن نــبــيٍّ وَمَــلأَكٍ وَقَــبــيــلِ
قــد لُـعِـنـتُـمْ عـلى لـســان ابـن داو ... دَ ومــوســى وحــامِـلِ الإنـجــيــلِ

قال هشام : حدّثني عمر بن حيزوم الكلبي ، عن أبيه ، قال : سمعتُ هذا الصوت .

ذكر أسماء من قُتل من بني هاشم مع الحسين عليه السلام
وعدد من قُتل من كلّ قبيلة من القبائل التي قاتلته

قال هشام : قال أبو مخنف : ولما قتِل الحسين بن علي عليه السلام جيء برؤوس مَن قتل معه من أهل بيته وشيعته وأنصاره إلى عُبيد الله بن زياد ، فجاءت كِنْدة بثلاثة عشر رأساً ، وصاحبهم قيس بن الأشعث ، وجاءت هَوازنُ بعشرين رأساً وصاحبهم شَمر بن ذي الجوْشن ، وجاءت تميم بسبعة عشر رأساً ، وجاءت بنو

أسد بستة أرؤس ، وجاءت مَذْحِج بسبعة أرؤس ، وجاء سائرُ الجيش بسبعةِ أرؤس ، فذلك سبعون رأساً .

قال : وقُتل الحسين ـ وأمّه فاطمة بنت رسول الله ﷺ ـ قَتَله سنان بن أنس النَّخعيّ ثم الأصبحيّ وجاء برأسه . خَوْلي بن يزيد ، وقُتل العباس بن علي بن أبي طالب ـ وأمّه أمّ البنين ابنة حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد ، قتله زيد بن رُقاد الجَنبي ـ وحكيم بن الطفيل السِّنْبِسي ، وقتل جعفر بن علي بن أبي طالب ـ وأمه أمّ البنين أيضاً ـ وقُتل عبدالله بن علي بن أبي طالب ـ وأمه أمّ البنين أيضاً ـ وقتل عُثمان بن علي بن أبي طالب ـ وأمه أمّ البنين أيضاً ـ رماه خوليّ بن يزيدَ بسهم فقتله ، وقتل محمد بن علي بن أبي طالب ـ وأمه أم ولد ـ قتله رجل من بني أبان بن دارم ، وقتل أبو بكر بن علي بن أبي طالب ـ وأمه ليلى ابنة مسعود بن خالد بن مالك بن رِبْعيّ بن سُلْمَى بن جندل بن نَهْشَل بن دارم ، وقد شُكّ في قتله ـ وقُتل علي بن الحسين بن علي ـ وأمه ليلى ابنة أبي مرّة بن عروة بن مسعود بن معتِّب الثقفي ، وأمها ميمونة ابنة أبي سفيان بن حرب ـ قتله مرّة بن مُنقذ بن النعمان العبديّ ، وقتل عبدالله بن الحسين بن علي ـ وأمه الرّباب ابنة امرىء القيس بن عدي بن أوس بن جابر بن كعب بن عُليم من كلْب ـ قتله هانىء بن ثُبيت الحضرمي ، واستصغِر علي بن الحسين بن علي فلم يُقتل ، وقُتل أبو بكر بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ وأمه أمّ ولد ـ قتله عبدُالله بن عقبة الغَنَويّ ، وقُتل عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ وأمه أمّ ولد ـ قتله حرملة بن الكاهن ، رماه بسهم ؛ وقتل القاسم بن الحسن بن علي ـ وأمّه أمّ ولد ـ قتله سعد بن عمرو بن نُفَيل الأزدي ، وقتل عون بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب وأمه جمانة ابنة المسيِّب بن نَجبَة بن ربيعة بن رياح من بني فَزارة ـ قتله عبدالله بن قُطْبَة الطائيّ ثم النَّبهاني ، وقتِل محمد بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب ـ وأمّه الخوصاء ابنة خَصَفة بن ثقيف بن ربيعة بن عائذ بن الحارث بن تيم الله بن ثعلبة من بكر بن وائل ـ قَتلَه عامر بن نَهْشل التيميّ ، وقُتل جعفر بن عقيل بن أبي طالب ـ وأمه أمّ البنين ابنة الشقر بن الهضاب ـ قتله بشر بن حَوْط الهَمْداني ، وقُتِل عبدالرحمن بن عَقِيل ـ وأمه أمّ ولد ـ قتله عثمان بن خالد بن أسير الجُهنيّ ، وقتل عبدالله بن عقيل بن أبي طالب ـ وأمه أمّ ولد ـ رماه عمرو بن صُبَيح الصدائي فقتله ؛ وقتل مسلم بن عَقِيل بن أبي طالب ـ وأمه أمّ ولد ، وُلد بالكوفة ـ وقتِل عبدالله بن مسلم بن عَقِيل بن أبي طالب ـ وأمّه رُقيّة ابنة عليّ بن أبي طالب وأمها أمّ ولد ـ قتله عمرو بن صبيح الصدائي ؛ وقيل : قتله أسيد بن مالك الحضرمي ، وقتل محمد بن أبي سعيد بن عقيل ـ وأمه أمّ ولد ـ قتله لقيط بن ياسر الجهني ، واستُصغر الحسن بن الحسن بن علي ، وأمه خولة ابنة منظور بن زبّان بن سيار الفَزاريّ ، واستصغر عمر بن الحسن بن علي فتُرِك فلم يُقتل ـ وأمه أمّ ولد ـ وقُتِل من الموالي سليمان مولى الحسين بن علي ، قتله سليمان بن عوف الحضرمي ، وقتل مُنْجِح مولى الحسين بن علي ، وقتل عبدالله بن بُقْطُر رضيع الحسين بن علي .

قال أبو مخنف : حدّثني عبدالرحمن بن جندب الأزدي ، أنّ عبيد الله بن زياد بعد قتل الحسين تفقّد أشراف أهل الكوفة ، فلم ير عبيدالله بن الحُرّ ، ثم جاءه بعد أيام حتى دخل عليه ، فقال : أين كنت يابن الحرّ؟ قال : كنت مريضاً ؛ قال : مريض القلب ، أو مريض البدن! قال : أما قلبي فلم يمرض ، وأما بدني فقد منَّ الله عليَّ بالعافية ، فقال له ابن زياد : كذبتَ ؛ ولكنك كنت مع عدوّنا ؛ قال : لو كنت مع عدوّك لُرئيَ مكاني ، وما كان مثل مكاني يخفَى ؛ قال : وغفل عنه ابن زياد غفلةً ، فخرج ابن الحرّ فقعد على فرسه ، فقال ابن زياد : أين ابن الحرّ؟ قالوا : خرج الساعة ؛ قال : عليَّ به ؛ فأحضِرَت الشُّرَط فقالوا له : أجب الأميرَ ؛ فدفع فرسه ثم

قال : أبلغوه أنّي لا آتيه والله طائعاً أبداً ؛ ثم خرج حتى أتى منزل أحمر بن زياد الطائيّ فاجتمع إليه في منزله أصحابه ، ثم خرج حتى أتى كربَلاء فنظر إلى مصارع القوم ، فاستغفر لهم هو وأصحابه ، ثم مضى حتى نزل المدائن ، وقال في ذلك :

يقولُ أميرٌ غادرٌ حقّ غادرٍ: ألا كنتَ قاتَلْتَ الشهيد آبنَ فاطمَةْ!
فيا نَدمي ألّا أكونَ نصرتُهُ ألا كلُّ نفس لا تُسدّد نادِمَةْ
وَإنّي لِأنّي لم أكُن من حُماتِهِ لذُو حسرةٍ ما إن تفارقُ لازمَه
سَقَى الله أرواحَ الذين تَآزّروا على نصرهِ سُقْيَا من الغيْثِ دائمةْ
وقفتُ على أجْداثِهِمْ ومجالِهِمْ فكاد الحَشَا ينفَضُّ والعينُ ساجمَه
لَعَمْري لقد كانوا مَصالِيتَ في الوَغى سِراعاً إلى الهَيجا حُماةً خَضارمَةْ
تآسَوْا على نَصْرِ ابن بنتِ نبيِّهِمْ بأسيافهمْ آسادَ غِيلٍ ضَراغِمَةْ
فإن يُقتلوا فكلُّ نفسٍ تقيَّةٍ على الأرض قد أضْحَت لذلك واجمَةْ
وما إن رأى الرَّاءُونَ أفضلَ منهُمُ لدى الموتِ ساداتٍ وزُهْراً قماقِمةْ
أتقتلهمْ ظُلماً وترجو ودادَنا فَدَعْ خُطّةً ليست لنا بملائمةْ!
لعمري لقد راغمتُمونا بقتلهمْ فكم ناقِمٍ مِنّا عليكم وناقِمَةْ
أهُمّ مِراراً أن أسِيرَ بِجَحْفَلٍ إلى فئةٍ زاغَتْ عن الحقّ ظالِمةْ
فَكُفُّوا وإلّا ذُدْتُكُمْ في كَتائِبٍ أشَدَّ عليكمْ من زُحُوفِ الديالِمَةْ

وفي هذه السنة قتِل أبو بلال مرداس بن عمرو بن حُدَير ، من ربيعة بن حنظلة .

ذكر سبب مقتله :

قال أبو جعفر الطبريّ ، قد تقدم ذكر سبب خروجه ، وما كان من توجيه عبيدالله بن زياد إليه أسلم بن زُرعة الكلابيّ في ألفَيْ رجل ، والتقائهم بآسَك وهزيمة أسلم وجيشه منه ومن أصحابه فيما مضى من كتابنا هذا .

ولما هزم مرداس أبو بلال أسلمَ بن زرعة ، وبلغ عبيدَالله بن زياد، سرَّح إليه ـ فيما حُدِّثتُ عن هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، قال : حدّثني أبو المخارق الراسبيّ ـ ثلاثة آلاف، عليهم عبّاد بن الأخضر التميمي ، فأتبعه عبّاد يطلبه حتى لحقه بتَوَّج ، فصفّ له ، فحمل عليهم أبو بلال وأصحابه ، فثبتوا ، وتعطّف الناس عليهم فلم يكونوا شيئاً . وقال أبو بلال لأصحابه : مَنْ كان منكم إنما خرج للدنيا فليذهب، ومن كان منكم إنما أراد الآخرة ولقاءَ ربّه فقد سبق ذلك إليه ، وقرأ : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾(١) ، فنزل ونزل أصحابه معه لم يفارقه منهم إنسان ، فقُتلوا من عند آخرهم ، ورجع عبّاد بن الأخضر ، وذلك الجيش الذي كان معه إلى البصرة ، وأقبل عَبيدة بن هلال معه ثلاثة نفر هو رابعهم ، فرصد عبّاد بن الأخضر ، فأقبل يريد قصر الإمارة وهو مردف ابناً له غلاماً ، صغيراً ، فقالوا : يا عبدالله ، قف حتى نستفتيك ؛ فوقف ، فقالوا : نحن إخوةٌ أربعة ، قُتل أخونا ، فما تَرَى؟ قال: استَعْدُوا الأميرَ ، قالوا: قد استعدَيناه فلم يُعْدِنا ؛ قال: فاقتلوه، قتله الله! فوَثَبوا عليه فحكّموا ،

---

(١) سورة الشورى: ٢٠.

وألقى ابنَه فقتلوه .

وفي هذه السنة وَلّىٰ يزيد بن معاوية سَلْمَ بن زياد سِجستانَ وخُراسان .

ذكر سبب توليته إياه :

حدّثني عمر، قال: حدّثني علي بن محمد، قال: حدّثنا مسلَمة بن مُحارِب بن سلم بن زياد، قال: وفد سَلْمُ بن زياد على يزيدَ بن معاوية وهو ابن أربع وعشرين سنة، فقال له يزيد: يا أبا حرْب، أولّيك عمل أخوَيك: عبدالرحمن وعبّاد؟ فقال: ما أَحَبَّ أميرُ المؤمنين؛ فولّاه خُراسان وسِجستان، فوجّه سَلْم الحارثَ بن معاوية الحارثي جدّ عيسى بن شبيب من الشأم إلى خُراسان، وقَدِم سلم البصرة، فتجهز وسار إلى خُراسان، فأخذ الحارثَ بن قيس بن الهيثم السُّلمِيّ فحبسه، وضرب ابنه شبيباً، وأقامه في سراويلَ، ووجه أخاه يزيد بن زياد إلى سجستان. فكتب عبيدالله بن زياد إلى عبّاد أخيه ـ وكان له صديقاً ـ يخبره بولاية سَلْم، فقسم عبّاد ما في بيت المال في عبيده، وفَضَلَ فضلٌ فنادَى مناديه: من أراد سلفاً فليأخذ، فأسلف كلّ من أتاه، وخرج عبّاد عن سِجِسْتان. فلمّا كان بِجِيرَفْت بلغه مكانُ سَلْم ـ وكان بينهما جبل ـ فعدل عنه، فذهب لعبّاد تلك الليلة ألف مملوك، أقلُّ ما مع أحدهم عشرة آلاف. قال: فأخذ عبّاد على فارس، ثمّ قدم على يزيد، فقال له يزيد: أين المال؟ قال كنتُ صاحبَ ثغر، فقسمتُ ما أصبتُ بين الناس. قال: ولما شَخَص سَلْم إلى خُراسَانَ شخص معه عمران بن الفَصِيل البُرْجمي، وعبدالله بن خازم السلَميّ، وطلحة بن عبدالله بن خَلَف الخُزاعيّ، والمهلَّب بن أبي صُفْرَةَ، وحنظلة بن عَرَادة، وأبو حُزّابة الوليد بن نَهيك أحد بني ربيعة بن حنظلة، ويحيى بن يَعْمَر العَدْوانيّ حليف هُذَيل، وخلْق كثير من فُرسان البصرة وأشرافِهم، فَقَدِمَ سَلْم بن زياد بكتاب يزيدَ بن معاوية إلى عبيدالله بن زياد بُنُخْبَةِ ألفَيْ رجل ينتخبهم ـ وقال غيره: بل نُخبةِ ستة آلاف ـ قال: فكان سلْم ينتخب الوجوهَ والفُرسان. ورغب قوم في الجهاد فطلبوا إليه أن يُخرجهم، فكان أوّل من أخرجه سلم حنظلة بن عَرَادة، فقال له عُبيدالله بن زياد: دعه لي؛ قال: هو بيني وبينك، فإن اختارك فهو لك، وإن اختارني فهو لي، قال: فاختار سَلْماً؛ وكان الناس يكلّمون سلماً ويطلبون إليه أن يكتبهم معه، وكان صلة بن أشْيَم العَدَوِيّ يأتي الديوان فيقول له الكاتب: يا أبا الصّهباء، ألاَ أثبتُ اسمك، فإنه وجهٌ فيه جهادٌ وفَضْل؟ فيقول له: أستخير الله وأنظرُ؛ فلم يزل يدافع حتى فرغ من أمرِ الناس، فقالت له امرأته مُعاذة ابنة عبدالله العَدَويّة: ألاَ تكتب نفسك؟ قال: حتى أنظر، ثم صلى واستخار الله؛ قال: فرأى في منامه آتياً أتاه، فقال له: اخرج فإنك تَرْبَح وتُفلِح وتُنجح؛ فأتى الكاتب فقال له: أثبتني؛ قال: قد فرغْنا ولن أدَعَك، فأثبته وابنه، فخرج سلْم فصيَّره سلم مع يزيد بن زياد فسار إلى سِجِستان.

قال: وخرج سلم وأخرج معه أمّ محمد ابنة عبدالله بن عثمان بن أبي العاص الثقفيّ، وهي أوّل امرأة من العرب قُطِع بها النهر.

قال: وذكر مَسلَمة بن محارب وأبو حفص الأزدي عن عثمان بن حفص الكرمانيّ أن عُمّال خُراسان كانوا يَغزُون، فإذا دخل الشتاءُ قفلوا من مغازيهم إلى مَرْو الشاهِجان، فإذا انصرف المسلمون اجتمع ملوك خُراسان في مدينة من مدائن خُراسان ممّا يلي خارَزْم، فيتعاقدون ألاّ يغزُوَ بعضهم بعضاً، ولا يهيجَ أحد أحداً، ويتشاورون في أمورهم، فكان المسلمون يطلبون إلى أمرائهم في غزو تلك المدينة فيأبون عليهم، فلما قَدِم

خُراسان غزا فشتا في بعض مغازيه ؛ قال : فألحّ عليه المهلب ، وسأله أن يوجّهه إلى تلك المدينة ، فوجّهه في ستة آلاف ـ ويقال أربعةِ آلاف ـ فحاصرهم ، فسألهم أن يُذعِنوا له بالطاعة ، فطلبوا إليه أن يصالحهم على أن يفدوا أنفسهم ، فأجابهم إلى ذلك ، فصالحوه على نيِّف وعشرين ألف ألف ؛ قال : وكان في صلحهم أن يأخذ منهم عروضاً ، فكان يأخذ الرأسَ بنصف ثمنه ، والدابة بنصف ثمنها ، والكَيْمُخت بنصف ثمنه ، فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف ، فحظي بها المهلب عند سلم ، واصطفى سلم من ذلك ما أعجبه ، وبعث به إلى يزيدَ مع مَرزُبان مرْو ، وأوفد في ذلك وفداً .

قال مسلمة وإسحاق بن أيّوب : غزا سلْم سمرقند بامرأته أمّ محمد ابنة عبدالله ، فولدتْ لسلم ابناً ، فسمّاه صُغْدي .

قال علي بن محمد : ذكر الحسن بن رشيد الجَوزَجانيُّ ، عن شيخ من خُزاعة ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : غزوت مع سَلم بن زياد خُوارَزْم ، فصالحوه على مال كثير ، ثم عبر إلى سمرقند فصالحه أهلُها ، وكانت معه امرأته أمّ محمد ، فولدتْ له في غزاته تلك ابناً ، وأرسلتْ إلى امرأة صاحبِ الصُّغْد تستعير منها حليًّا ، فبعثتْ إليها بتاجها ؛ وقَفَلوا ، فذهبتْ بالتاج .

وفي هذه السنة عَزلَ يزيدُ عمرَو بن سعيد عن المدينة وولّاها الوليدَ بن عتبة ، حدّثني بذلك أحمد بن ثابت ، عمّن حدّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، قال : نزع يزيد بن معاوية عمرَو بن سعيد ، لهلال ذي الحجة ، وأمّر الوليدَ بنَ عتبة على المدينة ، فحجّ بالناس حجّتين سنة إحدى وستين وسنة اثنتين وستين .

وكان عامل يزيد بن معاوية في هذه السنة على البصرة والكوفة عبيدالله بن زياد ، وعلى المدينة في آخرها الوليد بن عتبة ، وعلى خُراسان وسِجِستان سَلْم بن زياد ، وعلى قضاء البَصْرة هشام بن هُبَيرة ، وعلى قضاء الكُوفة شُريح .

وفيها أظهر ابن الزبير الخلافَ على يزيدَ وخلْعَه . وفيها بويع له .

ذكر سبب عزل يزيد عمرَو بن سعيد عن المدينة وتوليته عليها الوليد بن عتبة

وكان السبب في ذلك وسبب إظهار عبدِ الله بن الزّبير الدعاءَ إلى نفسه ـ فيما ذكر هشام ، عن أبي مخنف ، عن عبدالملك بن نَوْفل ـ قال : حدّثني أبي ، قال : لما قُتل الحسين عليه السّلام قام ابن الزُّبير في أهل مكة وعظَّم مَقتلَه ، وعاب على أهل الكوفة خاصّة ، ولامَ أهلَ العراق عامة ، فقال بعد أن حَمِد الله وأثْنَى عليه وصَلَّى على محمد ﷺ : إنّ أهل العراق غُدُرٌ فُجُرٌ إلّا قليلاً ، وإنّ أهل الكوفة شِرارُ أهل العراق ؛ وإنهم دَعَوا حُسيناً لينصروه ويولّوه عليهم ، فلما قدِم عليهم ثاروا إليه ، فقالوا له : إمّا أن تضع يدَك في أيدِينا فنبعثَ بك إلى ابن زياد بن سميَّة سِلْماً فيُمضِيَ فيك حكمَه ، وإما أن تحارب ؛ فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير ، وإن كان الله عزّ وجلّ لم يُطلع على الغيب أحداً أنه مقتول ، ولكنّه اختار الميتة الكريمةَ على الحياة الذميمة ، فرحم الله حسيناً ، وأخزَى قاتلَ حسين ! لَعَمري لقد كان من خلافهم إيّاه وعصيانهم ما كان في مثله واعظ وناهٍ عنهم ،

ولكنه ما حُمَّ نازل ، وإذا أراد الله أمراً لن يُدْفَع . أفبعد الحسين نطمئنّ إلى هؤلاء القوم ونصدّق قولهم ونقبل لهم عهداً! لا ، ولا نراهم لذلك أهلاً ؛ أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه ، كثيراً في النهار صيامه ، أحقّ بما هم فيه منهم وأوْلى به في الدّين والفضل ، أما والله ما كان يبدّل بالقرآن الغناءَ ، ولا بالبكاء من خشية الله الحُداء ، ولا بالصّيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس في حَلَق الذكر الرّكض في تَطْلاب الصيد ـ يعرّض بيزيد ـ فسوف يلقون غَيًّا .

فثارَ إليه أصحابه فقالوا له : أيّها الرجل أظهِر بيعتك ، فإنه لم يَبقَ أحد إذْ هَلَك حسين ينازعك هذا الأمر. وقد كان يبايع الناس سرّاً ، ويُظهر أنه عائذ بالبيت ، فقال لهم : لا تعجلوا ـ وَعَمرو بن سعيد بن العاص يومئذ عامل مكة ، وقد كان أشدّ شيء عليه وعلى أصحابه ، وكان مع شدّته عليهم يداري ويرفق ـ فلما استقرّ عند يزيدَ بن معاوية ما قد جمع ابن الزبير من الجُموع بمكة ، أعطى الله عهداً لَيُوثِقَنّه في سلسلة ، فبعث بسلسلة من فضة ، فمر بها البريد على مروان بن الحَكَم بالمدينة ، فأخبِر خبر ما قدم له وبالسلسلة التي معه ، فقال مروان :

خُــذْهــا فليسـتْ للعـزيــز بـخُـطَّةٍ　　　وفـيهـا مـقــالٌ لِامـرىءٍ مُتَضَـعِّـفِ

ثمّ مضى من عندهِ حتى قدم على ابن الزبير، فأتى ابنَ الزبير فأخبَرَه فمرّ البريد على مروان ، وتمثُّل مروانَ بهذا البيت ، فقال ابن الزبير : لا والله لا أكون أنا ذلك المتضعِّف؛ وردّ ذلك البريد ردًّا رقيقاً .

وعلا أمر ابن الزبير بمكة ، وكاتَبه أهلُ المدينة ، وقال الناس :أمّا إذْ هَلَكَ الحسين عليه السلام فليس أحدٌ ينازع ابن الزبير .

حدّثنا نوح بن حبيب القومِسيّ ، قال : حدّثنا هشام بن يوسف . وحدّثنا عبيدالله بن عبدالكريم ، قال : حدّثنا عبدالله بن جعفر المَدينيّ قال : حدّثنا هشام بن يوسف ـ واللفظ لحديث عبيدالله ـ قال : أخبرني عبدالله بن مصعب ، قال : أخبَرَني موسى بن عُقْبة ، عن ابن شهاب ، قال : أخبَرَني عبدالعزيز بن مروان ، قال : لما بعث يزيد بن معاوية ابن عِضاه الأشعري ومسْعَدةَ وأصحابها إلى عبدالله بن الزبير بمكة ليُؤْتَى به في جامعة لتبَرّ يمين يزيد ، بعث معهم بجامعة من ورق وبُرنُس خَزّ ، فأرسلني أبي وأخي معهم وقال: إذا بَلَّغتْه رُسلُ يزيد الرسالة فتعرَّضا له ، ثم ليتمثّلْ أحدُكما :

فخُــذهــا فليست لـلعــزيــز بخُـطَّةٍ　　　وفـيهــا مـقــالٌ لامــرىءٍ مـتــذلِّــلِ
أعــامِـرَ إنّ القــومَ ســامُــوك خُـطَّةً　　　وذلــك في الجيــران غَــزْل بمِغــزل
أراكَ إذا مــا كنتَ للقــوم نــاصِحــاً　　　يُـقــالُ لــه بــالــدَّلــو أدْبــرْ وأقبــل

قال : فلما بلغته الرسلُ الرسالةَ تعرّضنا، فقال لي أخي : إكفِنيها ، فَسمِعَني ، فقال : أي ابنيْ مروان ، قد سمعتُ ما قلتما ، وعلمتُ ما ستقولانه ، فأخبرا أباكما :

إنّي لَمِـنْ نَبْـعــةٍ صُمٌّ مـكــاسِــرُهــا　　　إذا تَـنــاوَحَتِ الـقَصْبــاءُ والـعُـشَــرُ
فــلا ألــيـنُ لـغـيــر الـحـقّ أَســأَلُــهُ　　　حتى يلين لِضِـرس المـاضِـغ الحَجَـرُ

قال : فما أدري أيّهما كان أعجبَ !

زاد عبدالله في حديثه ، عن أبي علي ، قال: فذاكرت بهذا الحديث مُصعَبَ بن عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزّبير، فقال: قد سمعتُه من أبي عليّ نحوَ الذي ذكرت له، ولم أحفظ إسنادَه .

قال هشام ، عن خالد بن سعيد ، عن أبيه سعيد بن عمرو بن سعيد : إنّ عمرو بن سعيد لما رأى الناس قد اشرأبُّوا إلى ابن الزُّبير ومَدُّوا إليه أعناقَهم ، ظَنّ أنّ تلك الأمور تامّةٌ له ، فبعث إلى عبدالله بن عمرو بن العاص ـ وكانت له صُحبة ، وكان مع أبيه بمِصْر ، وكان قد قرأ كتب دنيال هنالك ، وكانت قريش في ذاك تَعُدّه عالماً ـ فقال له عمرو بن سعيد : أخبِرْني عن هذا الرجل ، أَتَرَى ما يطلب تامًّا له؟ وأخبِرْني عن صاحبي إلى ما ترى أمرَه صائراً إليه؟ فقال: لا أرى صاحبَك إلا أحد الملوك الذين تتمُّ لهم أمورهم حتى يموتوا وهم ملوك . فلم يزدد عند ذاك إلّا شدّةً على ابن الزبير وأصحابه ، مع الرفق بهم ، والمداراة لهم .

ثمّ إنّ الوليد بن عتبة وناساً معه من بني أمية قالوا ليزيد بن معاوية : لو شاء عَمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير وبعث به إليك ، فسرّح الوليد بن عُتْبة على الحجاز أميراً ، وعزل عَمراً .

وكان عزلُ يزيد عَمراً عن الحجاز وتأميرُه عليها الوليد بن عُتبة في هذه السنة ـ أعني سنة إحدى وستين ؛ قال أبو جعفر : حدّثت عن محمد بن عمر قال : نزع يزيدُ عَمرو بن سعيد بن العاص لهلال ذي الحجة سنة إحدى وستين وولّى الوليد بن عُتبة ، فأقام الحجّة سنة إحدى وستين بالناس ، وأعاد ابن ربيعة العامريّ على قضائه .

وحدّثني أحمد بن ثابت ، قال: حدِّثت عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، قال: حجّ بالناس في سنة إحدى وستين الوليدُ بن عُتبة ، وهذا مما لا اختلاف فيه بين أهل السير .

وكان الوالي في هذه السنة على الكوفة والبَصرة عُبيدالله بن زياد ، وعلى قضاء الكوفة شُريح ، وعلى قضاء البَصرة هشام بن هُبيرة ، وعلى خُراسانَ سَلْم بن زياد .

ثم دخلت سنة اثنتين وستين
ذكر الخبر عمّا كان في هذه السنة من الأحداث

فمن ذلك مَقدَم وفد أهلِ المدينة على يزيدَ بن معاوية .

ذكر الخبر عن سبب مقدمهم عليه :

وكان السبب في ذلك ـ فيما ذكر لوط بن يحيى ، عن عبدالملك بن نوفل بن مُساحق ، عن عبدالله بن عروة ـ أنّ يزيد بن معاوية لما سرّح الوليد بن عُتْبة على الحجاز أميراً ، وعَزَل عَمرو بن سعيد ، قدم الوليدُ المدينة فأخذ غلماناً كثيراً لعمرو ومواليَ له ، فحبَسَهم ، فكلّمه فيهم عَمرو ، فأبى أن يخلّيَهم ، وقال له : لا تجزع يا عَمرو ؛ فقال أخوه أبان بن سعيد بن العاص : أعمرٌو يجزع ! والله لو قبضتم على الجَمْرِ وقبض عليه ما تَرَكه حتى تتركوه ؛ وخرج عمرو سائراً حتى نزل من المدينة على ليلتين ، وكتب إلى غلمانه ومواليه وهم نحوٌ من ثلثمائة رجل : إني باعث إلى كلّ رجل منكم جَمَلاً وحقيبةً وأداته ، وتُناخ لكم الإبل في السوق ، فإذا أتاكم رسولي فاكسروا بابَ السجن ، ثم ليقمْ كلُّ رجل منكم إلى جَمَله فليركبْه ، ثمّ أقبلوا عليَّ حتى تأتوني ؛ فجاء رسولُه حتى اشترى الإبل ، ثمّ جهّزها بما ينبغي لها ، ثم أناخها في السوق ، ثم أتاهم حتى أعلمهم ذلك ، فكسروا بابَ السجن ، ثم خرجوا إلى الإبل فاستوَوْا عليها ، ثم أقبلوا حتى انتهوا إلى عَمرو بن سعيد فوجدوه حين قدم على يزيدَ بن معاويـة فلما دخل عليه رحّب به وأدنى مجلسَه . ثم إنه عاتبه في تقصيره في أشياء كان يأمره بها في ابن الزّبير ، فلا ينفّذ منها إلا ما أراد ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، الشاهدُ يَرَى ما لا يَرى الغائبُ ، وإنّ جُلَّ أهلِ مكة وأهل المدينة قد كانوا مالُوا إليه وهوَوه وأعطوه الرِّضا ، ودعا بعضهم بعضاً سِرًّا وعلانية ، ولم يكن معي جند أقوى بهم عليه لو ناهضتُه ، وقد كان يحذَرُني ويتحرَّز مني ، وكنت أرفُق به وأداريه لأستمكر منه فأثبَ عليه ، مع أني قد ضَيَّقتُ عليه ، ومنعتُه من أشياءَ كثيرة لو تركته وإياها ما كانت له إلاّ معونةً ، وجعلتُ على مكة وطُرُقها وشعابها رجالاً لا يَدَعون أحداً يدخلها حتى يكتبوا إليَّ باسمه واسم أبيه ، ومن أي بلاد الله هو ، وما جاء به وما يريد ؛ فإن كان من أصحابه أو ممن أرى أنه يريده رددتُه صاغراً ، وإن كان ممّن لا أتّهم ، خلّيتُ سبيلَه . وقد بعثتَ الوليد ، وسيأتيك من عمله وأثره ما لعلك تعرف به فضلَ مبالغتي في أمرك ، ومناصَحتي لك إن شاء الله ؛ واللّهُ يصنع لك ، ويَكبت عدوّك يا أمير المؤمنين .

فقال له يزيد : أنت أصدق ممن رقَّى هذه الأشياء عنك ، وحَمَلَني بها عليك ، وأنت ممن أثق به ، وأرجو معونته ، وأدّخره لرأبِ الصَّدْع ، وكفايةِ المُهمّ ، وكشفِ نوازل الأمور العظام ؛ فقال له عمرو : وما أرى يا أمير المؤمنين أن أحداً أولَى بالقيام بتشديدِ سلطانك ، وتوهين عدوّك ، والشدّة على مَن نابَذَك منّي . وأقام الوليد بن

عتبة يريد ابن الزبير فلا يجده إلا متحذّراً متمنّعاً ، وثار نَجْدة بن عامر الحنفي باليمامة حين قُتل الحسين ، وثار ابن الزبير ، فكان الوليد يُفيض من المُعَرَّف ، وتُفيض معه عامة الناس ، وابن الزبير واقف وأصحابه ونجدة واقفٌ في أصحابه ، ثم يفيض ابن الزبير بأصحابه ونجدة بأصحابه ، لا يُفيض واحد منهم بإفاضة صاحبه . وكان نجدة يَلقَى ابنَ الزّبير فيكثِّر حتى ظنّ الناس أنه سيبايعه . ثم إنّ ابن الزبير عمل بالمكر في أمر الوليد بن عُتبة ، فكتب إلى يزيدَ بن معاوية : إنك بعثتَ إلينا رجلاً أخرَق ، لا يتّجه لأمر رَشَد ، ولا يَرعوِي لعظَة الحكيم ، ولو بعثتَ إلينا رجلاً سهلَ الخُلُق ، ليِّن الكتف ، رجوتُ أن يَسْهُل من الأمور ما استَوْعَر منها ، وأنَ يجتمع ما تفرّق ، فانظر في ذلك ، فإنّ فيه صلاح خواصّنا وعوامّنا إن شاء الله ؛ والسلام .

فبعث يزيدُ بن معاوية إلى الوليد فعَزَله وبعث عثمان بن محمد بن أبي سُفْيان ـ فيما ذكر أبو مخنف ، عن عبدالملك بن نوفل بن مساحق ، عن حميد بن حمزة ؛ مولًى لبني أمية ـ قال : فقَدِم فتًى غرٌّ حَدَثٌ غَمْرٌ لم يُجرِّب الأمور ، ولم يحنِّكه السنّ ، ولم تُضرّسه التجارب ؛ وكان لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله ، وبعث إلى يزيدَ وفداً من أهل المدينة فيهم عبدُالله بنُ حنظلة الغَسيل الأنصاريّ وعبدالله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزوميّ ، والمنذر بن الزبير ، ورجالاً كثيراً من أشراف أهل المدينة ، فقدموا على يزيدَ بن معاوية ، فأكرمهم ، وأحسنَ إليهم ، وأعظم جوائزَهم . ثمّ انصرفوا من عنده ، وقَدِموا المدينة كلهم إلاّ المنذر بن الزبير فإنه قدم على عبيدالله بن زياد بالبصرة ـ وكان يزيد قد أجازه بمائة ألف درهم ـ فلما قدم أولئك النفر الوفد المدينةَ قاموا فيهم فأظهروا شَتْمَ يزيدَ وعُتبة ، وقالوا : إنا قدمْنا من عندِ رجل ليس له دِين ، يشرب الخمر ، ويَعزِف بالطنابير ، ويَضرِب عنده القيان ، ويَلعَب بالكلاب ، ويسامر الخُرَّاب والفتيان ، وإنا نُشهدكم أنا قد خلعناه ؛ فتابَعَهم الناس .

قال لوط بن يحيى : فحدّثني عبدالملك بن نوفر بن مساحق ، أنّ الناس أتَوا عبدَالله بن حنظلة الغسيل فبايعوه وولوه عليهم .

قال لوط : وحدثني أيضاً محمد بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن عوف : ورجع المنذر من عند يزيدَ بن معاوية ، فَقَدِم على عُبيد الله بن زياد البصرةَ ، فأكرمه وأحسن ضيافتَه ، وكان لزياد صديقاً ، إذ سقط إليه كتابٌ من يزيدَ بن معاوية حيث بلغه أمرُ أصحابه بالمدينة . أن أوثِقْ المنذرَ بنَ الزبير واحبِسه عندَك حتى يأتيَك فيه أمري ؛ فكره ذلك عبيدالله بن زياد لأنه ضيْفه ، فدعاه فأخبره بالكتاب وأقرأه إياه ، وقال له : إنك كنت لزياد وُدًّا وقد أصبحتَ لي ضيفاً ، وقد آتيتُ إليك معروفاً ، فأنا أحبُّ أن أسدِيَ ذلك كله بإحسان ، فإذا اجتمع الناس عندي فقُمْ فقُلْ : ائذنْ لي فلأنصرفْ إلى بلادي ، فإذا قلتُ : لا بَلْ أقِمْ عندي فإنّ لك الكرامةَ والمواساةَ والأثَرةَ ، فقُل : لي ضيعةٌ وشُغْلٌ ، لا أجد من الانصراف بُدًّا فأذنْ لي ، فإني آذنُ لك عند ذلك ؛ فالحقْ بأهلك .

فلما اجتمع الناس عند عُبيد الله قام إليه فاستأذنه فقال : لا بل أقِمْ عندي فإني مُكرمُك ومُواسيك ومؤثرُك ؛ فقال له : إنّ لي ضيعةً وشُغلاً ، ولا أجدُ من الانصراف بدًّا فأذن لي ؛ فأذِن له . فانطلق حتى لحِق بالحجاز ؛ فأتى أهلَ المدينة ، فكان فيمن يحرِّض الناسَ على يزيد ، وكان من قوله يومئذ : إنّ يزيدَ واللّهِ لقد أجازني بمائة ألف درهم ، وإنه لا يمنعني ما صنع إليَّ أن أخبركم خبرَه ، وأصدُقكم عنه ، واللّهِ إنه ليَشرب

الخمر ، وإنه ليَسكَر حتى يدعَ الصلاة ؛ وعابَه بمثل ما عابه به أصحابُه الذين كانوا معه وأشدَّ ، فكان سعيد بن عمرو يُحدِّث بالكوفة أنّ يزيدَ بنَ معاوية بلغه قولُه فيه فقال: اللهمَّ إني آثرتُه وأكرمتُه ، ففعل ما قد رأيتَ ، فاذكُره بالكذب والقطيعة .

قال أبو مخنف: فحدّثني سعيد بن زيد أبو المثلم أنّ يزيدَ بن معاوية بعث النعمانَ بنَ بشير الأنصاري فقال له : ائتِ الناس وقومك فافثأهم عمّا يريدون ، فإنهم إنْ لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترىء الناسُ على خلافي ، وبها من عشيرتي من لا أحبّ أن ينهض في هذه الفتنة فيَهلك .

فأقبل النعمان بن بشير فأتى قومَه ، ودعا الناس إليه عامّة ، وأمَرَهم بالطاعة ولزوم الجماعة ، وخَوَّفهم الفتنةَ ، وقال لهم : إنه لا طاقة لكم بأهل الشأم ؛ فقال عبدالله بن مطيع العدوي : ما يحملك يا نُعمانُ على تفريق جماعتنا ، وفسادِ ما أصلَح الله من أمرنا! فقال النعمان : أمَا والله لكأني بك لو قد نزلتْ تلك التي تدعو إليها ، وقامت الرجال على الرُّكب تَضرب مفَارقَ القوم وجباهَهم بالسيوف، ودارت رحا الموت بين الفريقين قد هربتَ على بغلتك تضرب جنبَيْها إلى مكة ، وقد خلّفت هؤلاء المساكينَ - يعني الأنصار - يُقتلون في سِكَكِهم ومساجدهم ، وعلى أبواب دُورهم! فعصاه الناس، فانصرف. وكان والله كما قال .

وحجّ بالناس في هذه السنة الوليدُ بن عتبة . وكانت العمال في هذه السنة على العراق وخُراسان العُمَّالَ الذين ذكرتُ في سنة إحدى وستين .

وفي هذه السنة وُلدَ - فيما ذُكِر - محمد بن عبدالله بن العبّاس .

ثم دخلت سنة ثلاث وستين
ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك ما كان من إخراج أهل المدينة عامل يزيدَ بن معاوية عثمانَ بنَ محمد بن أبي سفيان من المدينة ، وإظهارِهم خلعَ يزيد بن معاوية ، وحصارِهم مَن كان بها من بني أميّة ؛ ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف، عن عبدالملك بن نوفل بن مساحق ، عن حبيب بن كُرّة ، أنّ أهل المدينة لمّا بايعوا عبدالله بن حنظلة الغَسيل على خلع يزيد بن معاوية ، وثبوا على عثمانَ بن محمد بن أبي سفيان ومَن بالمدينة من بني أميّة ومواليهم ومن رأى رأيَهم من قريش ، فكانوا نحواً من ألف رجل ، فخرجوا بجماعتهم حتى نزلوا دارَ مروانَ بن الحكم ، فحاصَرَهم الناسُ فيها حصاراً ضعيفاً. قال : فدعت بنو أميّة حبيب بن كرّة ، وكان الذي بَعَث إليه منهم مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان بن عفان ، وكان مروان هو يدبِّر أمرهم . فأما عثمان بن محمد بن أبي سفيان فإنما كان غلاماً حدَثاً لم يكن له رأي . قال عبدالملك بن نوفل : فحدثني حبيب بن كرة ، قال : كنت مع مروان ، فكتب معي هو وجماعة من بني أميّة كتاباً إلى يزيدَ بن معاوية ، فأخذ الكتابَ عبدُالملك بن مروان حتى خرج معي إلى ثنيّة الوَدَاع ، فدفع إليَّ الكتاب وقال : قد أجّلتك اثنتي عشرةَ ليلةً ذاهباً واثنتي عشرةَ ليلةً مُقبلاً ، فوافِني لأربع وعشرين ليلة في هذا المكان تجدني إن شاءَ الله في هذه الساعة جالساً أنتظرك . وكان الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم : أمّا بعد، فإنه قد حُصِرنا في دار مروان بن الحَكَم، ومُنِعنا العذْب ، ورُمِينا بالجَبوب ، فياغَوْثاه يا غَوْثاه!

قال : فأخذتُ الكتاب ومضيت به حتى قدمتُ على يزيد وهو جالس على كُرسيّ ، واضع قدمَيْه في ماءِ طست من وَجَع كان يجده فيهما ـ ويقال : كان به النِّقرِس ـ فقرأه ثمّ قال فيما بلغَنا متمثّلًا :

لقد بدّلوا الحِلم الّذِي مِن سَجيَّتي ... فَبدّلتُ قومي غِلظةً بلِيانِ

ثم قال : أمَا يكون بنو أميَّة ومواليهم ألفَ رجل بالمدينة؟ قال : قلت : بلى ، والله وأكثر ؛ قال : فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعةً من نهار ! قال : فقلتُ: يا أمير المؤمنين ، أجمع الناس كلهم عليهم ، فلم يكن لهم بجمع الناس طاقةٌ ؛ قال: فبعث إلى عَمرو بن سعيد فأقرأه الكتابَ ، وأخبَرَه الخبر، وأَمَرَه أن يسير إليهم في الناس ، فقال له : قد كنتُ ضبطتُ لك البلاد، وأحكمتُ لك الأمور، فأمّا الآن إذ صارت إنما هي دِماء قريش تُهراق بالصّعيد ، فلا أُحبّ أن أكون أنا أتولى ذلك ، يتولّاها منهم مَن هو أبعد منهم منّي . قال : فبعثني بذلك الكتاب إلى مسلم بن عُقْبة المرّيّ ـ وهو شيخ كبير ضعيف مريض ـ فدفعتُ إليه الكتاب ، فقرأه ، وسألني عن الخبر فأخبرتُه ، فقال لي مِثلَ مقالة يزيدَ : أمَا يكون بنو أمية ومواليهم وأنصارهم بالمدينة ألفَ رجل ! قال:

قلت: بلى يكونون ؛ قال : فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعةً من نهار ! ليس هؤلاء بأهل أن يُنصَروا حتى يَجهَدوا أنفسهم في جهاد عدوّهم ، وعزّ سلطانهم ؛ ثم جاء حتى دخل على يزيدَ فقال: يا أمير المؤمنين ، لا تنصرْ هؤلاء فإنهم الأذلّاء ؛ أما استطاعوا أن يقاتلوا يوماً واحداً أو شَطْرَه أو ساعةً منه! دَعهم يا أميرَ المؤمنين حتى يجهَدوا أنفسهَم في جهاد عدوّهم ، وعزّ سلطانهم ، ويستبينَ لك من يقاتل منهم على طاعتك ، ويصبر عليها أو يستسلم ؛ قال : وَيْحك ! إنه لا خيرَ في العيش بعدهم ، فاخرج فأنبئني نَبَأك ، وسِرْ بالناس ؛ فخرج منادِيه فنادَى : أن سيروا إلى الحِجاز على أخذِ أعطياتكم كَمَلاً ومعونةِ مائة دينار توضَعُ في يد الرجل من ساعته ، فانتدب لذلك اثنا عشر ألف رجل .

حدّثنا ابن حميد قال : حدّثنا جرير، عن مغيرة ، قال : كتب يزيد إلى ابن مَرْجانة : أن اغزُ ابنَ الزبير ؛ فقال : لا أجمعهما للفاسق أبداً، أقتل ابنَ بنت رسولِ الله ﷺ ، وأغزو البيتَ !

قال : وكانت مَرْجانة امرأةَ صدق ، فقالت لعبيدالله حين قتِل الحسين عليه السلام : وَيْلَك ! ماذا صنعتَ ! وماذا ركبت !

رجع الحديث إلى حديث حبيب بن كُرّة . قال : فأقبلت حتى أوافيَ عبدالملك بن مروان في ذلك المكان في تلك الساعة أو بُعَيدَها شيئاً . قال: فوجدتُه جالساً متقنِّعاً تحت شجرة ، فأخبرته بالذي كان ، فُسرّ به ، فانطلقنا حتى دخلنا دارَ مروانَ على جماعة بني أمية ، فنبّأتهم بالذي قَدِمتُ به ، فحمِدوا اللّهَ عزّ وجلّ .

قال عبدالملك بن نوفل : حدّثني حبيب، أنه بلغه في عشرة . قال : فلم أبرحْ حتى رأيت يزيد بن معاوية خرج إلى الخيل يتصفّحها ويَنظر إليها ؛ قال : فسمعتُه وهو يقول وهو متقلّد سيفاً ، متنكبٌ قوساً عربيّة :

أَبلغْ أَبا بَكرٍ إِذَا الليلُ سَرَى ... وَهَبَطَ القومُ على وادِي القُرَى
عشرون أَلفاً بين كهلٍ وَفَتى ... أَجْمع سَكرانَ مِنَ القومِ تَرَى!
أَم جَمْع يَقظانَ نُفِي عنه الكَرَى! ... يا عجباً مِن مُلْحِدٍ يَا عجبا!
مُخادع في الدين يقْفُو بالعُرى

قال عبدالملك بن نوفل : وفَصَل ذلك الجيش من عند يزيدَ وعليهم مُسلم بن عُقْبة ، وقال له : إن حَدث بك حَدَثٌ فاستخلفْ على الجيش حُصين بن نُمَير السَّكوني؛ وقال له: ادعُ القومَ ثلاثاً، فإن هم أجابوك وإلا فقاتلْهم، فإذا أظْهِرت عليهم فأبِحْها ثلاثاً، فما فيها من مالٍ أو رِقةٍ أو سِلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاثُ فاكفُف عن الناس؛ وانظر علي بن الحسين، فاكففْ عنه، واستَوْصِ به خيراً، وأدنِ مجلسَه، فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه، وقد أتاني كتابُه. وعلي لا يعلم بشيء مما أوصيَ به يزيد بن معاوية مسلمَ بن عقبة، وقد كان علي بن الحسين لما خرج بنو أمية نحو الشأم أوى إليه ثَقَل مروان بن الحكم، وامرأته عائشة بنت عثمان بن عفّان، وهي أمّ أبان بن مروان.

وقد حدّثت عن محمد بن سعد، عن محمد بن عمر ، قال : لما أخرج أهلُ المدينة عثمانَ بن محمد من المدينة ، كلّم مروان بنَ الحكَم بن عمر أن يغيِّب أهلَه عنده ، فأبى ابن عمر أن يفعل ، وكلم علي بن الحسين ، وقال : يا أبا الحسن ، إنَّ لي رَحِماً ، وحُرَمي تكون مع حُرَمك ، فقال : أفعل ؛ فبعث بحُرَمه إلى علي بن الحسين ، فخرج بحُرمه وحُرَم مروان حتى وضعهم بيَنْبُعَ ، وكان مروانُ شاكراً لعلي بن الحسين، مع

صداقة كانت بينهما قديمة .

رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف عن عبدالملك بن نَوْفل ، قال: وأقبل مسلم بن عُقبة بالجيش حتى إذا بلغ أهلَ المدينة إقبالُه وَثبوا على مَنْ معهم من بني أميّة ، فحصروهم في دار مرْوان ، وقالوا : واللّهِ لا نكفّ عنكم حتى نستنزلَكم ونضربَ أعناقكم ، أو تُعطونا عهدَ الله وميثاقَه لا تَبْغونا غائلةً ، ولا تدلّوا لنا على عَوْرة ، ولا تُظَاهِروا علينا عدوًّا ، فنكفّ عنكم ونُخرجَكم عنّا ، فأعطَوْهم عهدَ الله وميثاقَه لا نبغيكم غائلةً ، ولا ندلّ لكم على عورة ؛ فأخرَجوهم من المدينة ، فخرجتْ بنو أمية بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادي القُرى ، وخرجتْ عائشة بنت عثمان بن عفان إلى الطائف ، فتمرّ بعلي بنِ حسينٍ وهو بمالٍ له إلى جنب المدينة قد اعتزلها كراهية أن يَشهَد شيئاً من أمرهم ، فقال لها : اِحملي ابني عبدالله معكِ إلى الطائف ، فحملتْه إلى الطائف حتى نُقِضتْ أمورُ أهل المدينة .

ولما قدمت بنو أميّة على مسلم بن عُقبة بوادي القرى دعا بعَمرو بن عثمانَ بن عفان أوّل الناس فقال له : أخبرني خبرَ ما وراءك ، وأشِرْ عليَّ ؛ قال : لا أستطيع أن أخبرَك ، أخذ علينا العهودَ والمواثيق ألَّا ندلَّ على عوره ، ولا نظاهرَ عدوًّا ، فانتهره ثم قال: والله لولا أنّك ابنُ عثمانَ لضربتُ عنقك ، وَايمُ الله لا أقيلها قُرَشيًّا بعدك . فخرج بما لقى من عنده إلى أصحابه ، فقال مَرْوان بن الحَكَم لابنه عبدالملك : ادخُلْ قبلي لعلّه يجتزىء بك عني ، فدخل عليه عبدالملك ، فقال : هاتِ ما عندَك، أخبِرني خبرَ الناس، وكيف ترى؟ فقال له: نعم أرى أن تسير بمن معك ؛ فتنكّبَ هذا الطريقَ إلى المدينة ، حتى إذا انتهيتَ إلى أدنى نَخل بها نزلتَ ، فاستظلَّ الناس في ظلّه ، وأكلوا من صَقْره ؛ حتى إذا كان الليلُ أذكيتَ الحرس الليل كلّه عقباً بين أهل العسكر ، حتى إذا أصبحتَ صلّيتَ بالناس الغَداةَ ، ثمّ مضيتَ بهم وتركت المدينة ذات اليسار، ثم أَدَرْت بالمدينة حتى تأتيهم من قبل الحَرّة مُشرّقاً ، ثم تستقبل القومَ ، فإذا استقبلتَهم وقد أشرقَتْ عليهم وطلعت الشمسُ طلعت بين أكتاف أصحابك ، فلا تؤذيهم، وتقع في وجوههم فيؤذيهم حَرُّها ، ويصيبهم أذاها ، ويرون ما دمتُم مُشَرقين من ائتلاق بيَضكم وحِرابِكم ، وأسنّة رماحِكم وسيوفِكم ودروعِكم وسَواعدكم ما لا ترونه أنتم لشيء من سلاحهم ما داموا مغرِّبين ، ثم قاتِلْهم واستَعِنْ بالله عليهم ، فإن الله ناصِرُك ؛ إذ خالفوا الإمام ، وخرجوا من الجماعة . فقال له مسلم : لله أبوك ! أيَّ امرىء ولد إذ ولدك ! لقد رأى بك خَلَفاً . ثمّ إنّ مروان دخلَ عليه فقال له : إيهٍ! قال: أليس قد دخل عليك عبدالملك! قال : بلى ، وأي رجل عبدالملك ! قلّما كلمت من رجال قريش رجلاً به شبيهاً ؛ فقال له مروان : إذا لقيتَ عبدالملك فقد لقيتَني ؛ قال : أجَل ، ثم ارتحل من مكانه ذلك ، وارتحل الناسُ معه حتى نزل المنزل الذي أمره به عبدالملك ، فصنع فيه ما أمره به ، ثم مضى في الحَرّة حتى نزلها ، فأتاهم من قِبَل المشرق . ثم دعاهم مسلم بن عقبة ، فقال : يا أهلَ المدينة ، إنّ أمير المؤمنين يزيدَ بن معاوية يزعم أنكم الأصل ، وإني أكره هِراقةَ دمائكم ، وإنّي أؤجلّكم ثلاثاً ، فمن ارعوَى وراجَع الحقّ قبلنا منه ، وانصرفت عنكم ، وسرت إلى هذا المُلْحد الذي بمكة ، وإن أَبيتم كنا قد أعذرنا إليكم ـ وذلك في ذي الحِجّة من سنة أربع وستّين ؛ هكذا وجدتُه في كتابي، وهو خطأ ، لأنَّ يزيدَ هلك في شهر ربيع الأوّل سنة أربع وستين ، وكانت وقعة الحَرّة في ذي الحجة من سنة ثلاث وستين يوم الأربعاء لليلتَيْن بقيتا منه .

ولما مضت الأيام الثلاثة قال: يا أهل المدينة، قد مضت الأيام الثلاثة ، فما تصنعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟ فقالوا: بل نحارب؛ فقال لهم: لا تفعلوا، بل ادخلوا في الطاعة، ونجعل حدّنا وشوكتنا على هذا

الملحد الذي قد جمع إليه المُرّاقَ والفُسّاق من كلّ أوْب . فقالوا لهم : يا أعداءَ الله ، والله لو أردتم أن تجوزوا إليهم ما تركناكم حتى نقاتلَكم ، نحن نَـدعكم أن تأتـوا بيت الله الحرام ، وتخيفـوا أهلَه ، وتلحدوا فيه ، وتستحلّوا حرمتَه ! لا والله لا نفعل .

وقد كان أهل المدينة اتّخذوا خندقاً في جانب المدينة ، ونزله جمع منهم عظيمٌ ، وكان عليهم عبدالرحمن بن زهير بن عبد عوف ابن عمّ عبدالرحمن بن عوف الزهري ، وكان عبدالله بن مـطيع على ربع آخر في جانب المدينة ، وكان مَعْقِل بن سنان الأشْجَعيّ على ربع آخر في جانب المدينة ، وكان أمير جماعتهم عبدالله بن حنظلة الغسيل الأنصاري ، في أعظم تلك الأرباع وأكثرها عدداً .

قال هشام : وأما عوانة بن الحكم الكلبي ، فذكر أنّ عبدالله بن مطيع كان على قريش من أهل المدينة ، وعبدالله بن حنظلة الغسيل على الأنصار ، ومعقِل بن سنان على المهاجرين .

قال هشام ، عن أبي مخنف : قال عبدالملك بن نوفل : وصمد مسلم بن عُقْبة بجميع من معه ، فأقبل من قِبل الحَرّة حتى ضرب فسطاطه على طريق الكوفة ، ثم وجّه الخيل نحو ابن الغسيل ، فحمل ابن الغسيل على الخيل في الرجال الذين معه حتى كشف الخيل ، حتى انتهوا إلى مسلم بن عقبة ، فنهض في وجوههم بالرّجال ، وصاح بهم ، فانصرفوا فقاتلوا قتالاً شديداً ثم إن الفضلَ بنَ عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب جاء إلى عبدالله بن حنظلة الغسيل فقاتل في نحو من عشرين فارساً قتالاً شديداً حَسَناً ، ثم قال لعبدالله : مُر من معك فارساً فليأتني فليقفْ معي ، فإذا حملتُ فلْيحملوا ، فوالله لا أنتهي حتى أبلغ مسلماً، فإمّا ان أقتلَه ، وإما أن أقتَل دونه . فقال عبدالله بن حنظلة لعبدالله بن الضحاك من بني عبدالأشهل من الأنصار : نادِ في الخيل فلْتَقف مع الفضل بن العباس ، فنادى فيهم فجمعهم إلى الفضل ، فلما اجتمعت الخيل إليه حمل على أهل الشأم فانكشفوا ، فقال لأصحابه : ألا ترونهم كُشْفاً لئاماً! احملوا أخرى جُعِلتُ فداكم! فوالله لئن عاينتُ أميرهم ، لأقتلنه أو لأقتَلَنّ دونه ، إنّ صبر ساعة مُعقِبٌ سرور أبد ، إنه ليس بعدُ لصبرنا إلاّ النصرُ. ثم حمل وحمل أصحابُه معه ، فانفرجت خيلُ أهل الشأم عن مسلم بن عقبة في نحو من خمسمائـة راجل جُثـاة على الرُّكَب ، مشرعي الأسنة نحو القوم ، ومضى كما هو نحوَ رايته حتى يضربَ رأس صاحب الراية ، وإنّ عليه لِمغفراً ، فقطّ المغفر ، وفلق هامته فخرّ ميتاً ، فقال : خذها منّي وأنا ابن عبد المطلب ! فـظن أنه قَتَـل مسلماً ، فقال : قتلتُ طاغيةَ القوم وربِّ الكعبة ، فقال مسلم : أخطَأَتِ استُك الحُفرةَ ! وإنما كان ذلك غلاماً له ، يقال له : رومي ، وكان شجاعاً ، فأخذ مسلم رايتَه ونادى : يا أهلَ الشأم ، أهذا القتال قتالُ قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم ، وأن يُعزّوا به نصر إمامهم ! قبّح الله قتالَكم منذُ اليوم ! ما أوجعه لقلبي ، وأغيظه لنفسي ، أمَا والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تُحرَموا العطاءَ ، وأن تجمّروا في أقاصي الثّغور . شدّوا مع هذه الراية ، ترّح الله وجوهكم إن لم تُعتِبوا ! فمشى برايته ، وشدّت تلك الرّجال أمام الراية ، فصُرع الفضل بن عباس ، فقُتل وما بينه وبين أطناب مسلم بن عقبة إلاّ نحو من عشر أذرع ، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف ، وقُتل معه إبراهيم بن نُعيم العدويّ ، في رجال من أهل المدينة كثير .

قال هشام ، عن عوانة : وقد بلغنا في حديث آخر أنّ مسلم بن عقبة كان مريضاً يومَ القتال ، وأنه أمر بسرير وكرسيٍّ فوُضع بين الصفّين ، ثم قال : يا أهل الشأم ، قاتِلوا عن أميركم أو دَعُوا . ثم زحفوا نحوهم

فأخذوا لا يصمِدون لرُبعٍ من تلك الأرباع إلاَّ هزموه ، ولا يقاتلون إلاَّ قليلاً حتى تولَّوا . ثم إنه أقبل إلى عبدالله بن حنظلة فقاتله أشدَّ القتال ، واجتمع من أراد القتال من تلك الأرباع إلى عبدالله بن حنظلة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فحمل الفضل بن العباس بن ربيعة في جماعة من وجوه الناس وفُرسانهم يريد مسلمَ بن عقبة ، ومسلم على سريره مريض ، فقال : احمِلوني فضعوني في الصفّ ، فوضعوه بعد ما حملوه أمام فسطاطه في الصفّ ، وحمل الفضل بن العباس هو وأصحابه أولئك حتى انتهى إلى السرير ، وكان الفضل أحمَر ، فلما رفع السيفَ ليضربَه صاح بأصحابه : إن العبد الأحمر قاتلي ، فأين أنتم يا بَنِي الحرائر ! اشْجروه بالرّماح ، فوثبوا إليه فطعنوه حتّى سقط .

قال هشام : قال أبو مخنف : ثمّ إنّ خيل مسلم ورجالَه أقبلتْ نحو عبدالله بن حنظة الغسيل ورجاله بعده ـ كما حدّثني عبدالله بن مُنْقذ ـ حتى دنَوا منه ، وركب مُسلم بن عُقْبة فرساً له ، فأخذ يسير في أهل الشأم ويحرّضهم ويقول: يا أهل الشأم، إنكم لستُم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها ، ولا أكثرها عدداً ، ولا أوسعها بلداً ، ولم يخصُصْكم الله بالذي خصّكم به من النصر على عدوّكم، وحسن المنزلة عند أئمتكم، إلاّ بطاعتكم واستقامتكم ؛ وإنّ هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيَّروا فغيَّر الله بهم ، فتِمّوا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتمم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر والفُلْج . ثم جاء حتى انتهى إلى مكانه الذي كان فيه ، وأمر الخيل أن تقدم على ابن الغسيل وأصحابه ، فأخذتِ الخيلُ إذا أقدمتْ على الرجال فثاروا في وجوهها بالرّماح والسيوف نفرتْ وابذعرّتْ وأحجمتْ ، فنادى فيهم مسلم بن عقبة : يا أهلَ الشأم ، ما جعلهم الله أولَى بالأرض منكم ، يا حُصَينْ بن نُمَير ، اِنزِل في جندك ؛ فنزل في أهل حِمْصَ ، فمشى إليهم ، فلما رآهم قد أقبلوا يمشون تحت راياتهم نحو ابن الغسيل قام في أصحابه فقال: يا هؤلاء؛ إنَّ عدوّكم قد أصابوا وَجْه القتال الذي كان ينبغي أن تقاتلوهم به، وإني قد ظننت ألاّ تلبثوا إلاَّ ساعةً حتى يفصل الله بينكم وبينهم إمّا لكم وإمّا عليكم . أمَا إنكم أهل البصيرة ودار الهجرة ، والله ما أظنّ ربَّكم أصبح عن أهل بلد من بلدان المسلمين بأرضَى منه عنكم ، ولا على أهل بلد من بُلدان العرب بأسخطَ منه على هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم . إنّ لكم امرىء منكم مِيتةً هو ميِّت بها ، والله ما من ميتة بأفضلَ من ميتة الشهادة، وقد ساقها الله إليكم فاغتنموها ، فوالله ما كلّ ما أردتموها وجدْتموها . ثم مشى برايته غيرَ بعيد ، ثم وقف ، وجاء ابن نمير برايته حتى أدناها ، وأمر مسلم بن عُقْبة عبدَالله بن عضاه الأشعري فمشى في خمسمائة مُرامٍ حتى دَنَوا من ابن الغسيل وأصحابه، فأخذوا ينضحونهم بالنّبل، فقال ابن الغسيل: علامَ تستهدفون لهم! من أراد التعجّل إلى الجنة فليلزم هذه الراية ؛ فقام إليه كلّ مستميت ، فقال: الغُدُوّ إلى ربّكم ، فوالله إني لأرجو أن تكونوا عن ساعة قريري عَينْ ؛ فنهض القوم بعضُهم إلى بعض فاقتتلوا أشدّ قتال رُئيَ في ذلك الزمان ساعةً من نهار ، وأخذ يقدّم بنيه أمامه واحداً واحداً حتى قتِلوا بين يديه ، وابن الغسيل يضرب بسيفه ، ويقول :

بُعْداً لمن رامَ الفَسادَ وطَغَى ... وجانَبَ الحقَّ وآياتِ الهدى
لا يُبْعِدِ الرحْمَنُ إلاَّ مَنْ عَصَى

فقُتِل ، وقُتل معه أخوه لأمه محمد بن ثابت بن قيس بن شمّاس، استقدم فقاتل حتى قتِل، وقال: ما أحبّ أنّ الديلم قتلوني مكانَ هؤلاء القوم ؛ ثم قاتل حتى قُتل وقُتل معه محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ،

فمرّ عليه مروان بن الحَكَم وكأنه بِرْطِيل من فِضّة، فقال: رحمك الله! فرُبَّ سارية قد رأيتك تطيل القيامَ في الصلاة إلى جنبها .

قال هشام : فحدّثني عوانة، قال: فبلغنا أن مسلم بن عقبة كان يجلس على كرسي ويحمله الرجال وهو يقاتل ابن الغسيل يوم الحَرّة وهو يقول :

أَحْيا أَباه هاشِمُ بن حَرْمَلَهْ يوم الهَباتَيْن ويومَ اليَعْمُلَهْ
كلُّ المُلوك عِنْدَهُ مُغَرْبَلَهْ ورُمْحُهُ للوالدات مثْكَلَهْ
لا يُلبِثُ القتيلَ حتى يَجْدِلَهْ يَقْتُل ذا الذَّنبِ ومن لا ذَنْبَ لَهْ

قال هشام ، عن أبي مخنف : وخرج محمد بن سعد بن أبي وقّاص يومئذ يقاتل ، فلما انهزم الناسُ مال عليهم يضربهم بسيفه حتى غلبته الهزيمةُ ، فذهب فيمن ذهب من الناس، وأباح مسلم المدينة ثلاثاً يقتلون الناسَ ويأخذون الأموالَ؛ فأفزع ذلك من كان بها من الصحابة، فخرج أبو سعيد الخُدْريّ حتى دخل في كَهْف في الجبل ، فبَصُر به رجل من أهل الشأم ، فجاء حتى اقتحم عليه الغار .

قال أبو مخنف: فحدّثني الحسن بن عطية العَوْفي ، عن أبي سعيد الخُدْرّي ، قال : دخل إليَّ الشاميّ يمشي بسيفه ، قال : فانتضيتُ سيفي فمشيت إليه لأرعِبَهُ لعله ينصرف عنّي ، فأبى إلّا الإقدامَ عليَّ ، فلما رأيت أن قد جدّ شمْتُ سيفي ، ثم قلتُ له : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[1] ، فقال لي: من أنت لله أبوك! فقلت: أنا أبو سعيد الخُدْريّ ؛ قال : صاحب رسولِ الله ﷺ ؟ قلت : نَعم ؛ فانصرف عنّي .

قال هشام : حدّثني عَوانة ، قال : دعا الناسَ مُسلم بن عُقْبة بقُبَاء إلى البيعة ، وطلب الأمان لرجلين من قريش: ليزيدَ بن عبدالله بن زَمْعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد بن عبدالعزّى ومحمد بن أبي الجَهْم بن حذيفة العدويّ ولمعقل بن سنان الأشجعيّ ، فأتي بهما بعد الوقعة بيوم فقال : بايعا ، فقال القرشيّان : نبايعك على كتاب الله وسنّة نبيِّه ؛ فقال : لا والله لا أقيلكم هذا أبداً ، فقدّمهما فضرب أعناقهما ، فقال له مروان : سبحان الله! أتَقْتل رجلينْ من قريش أَتَيَا ليؤمِنا فضَربتَ أعناقهما! فنَخسَ بالقضيب في خاصِرَته ثم قال : وأنتَ والله لو قلتَ بمقالتهما ما رأيتَ السماءَ إلّا بَرْقَةً .

قال هشام : قال أبو مِخنف: وجاء مَعقل بن سنان، فجلس مع القوم، فدعا بشراب ليُسقىَ، فقال له مسلم: أي الشراب أحبّ إليك؟ قال: العسل، قال: اسقوه ، فشَرِب حتى ارتَوى، فقال له: أقضيت رِيَّك مِن شرابِك؟ قال: نعم، قال: لا والله لا تشرب بعده شراباً أبداً إلّا الحَميمَ في نار جهنم ، أتذكر مقالتكَ لأمير المؤمنين : سرتُ شهراً ، ورجعتُ شهراً ، وأصبحتُ صِفراً ، اللهمّ غَيِّر ـ تعني يزيدَ! فقدّمه فَضَرَبَ عنقَه .

قال هشام : وأمّا عوانة بن الحَكم فذكر أن مسلم بنَ عقبة بعث عمرو بن مُحْرِز الأشجعي فأتاه بمَعقل بن سنان فقال له مسلم : مرحباً بأبي محمد! أراك عطشان! قال: أَجَل، قال: شُوبوا له عسلاً بالثلج الذي حملتموه معنا ـ وكان له صديقاً قبل ذلك ـ فشابوه له ، فلما شرب معقل قال له : سقاك الله من شراب الجنة ؛ فقال له

(١) سورة المائدة: ٢٨ .

مسلم: أمَا والله لا تشربُ بعدها شراباً أبداً حتى تشربَ من شراب الحَميم ؛ قال: أنشُدُكَ اللّهَ والرَّحِمَ! فقال له مسلم: أنت الذي لقيتني بطبريّة ليلةَ خرجت من عند يزيد، فقلت: سرْنا شهراً ورجعْنا من عند يـزيد صفراً، نرجع إلى المدينة فنخلع هذا الفاسق، ونبايع لرجل من أبناء المهاجرين! فيمَ غطفان وأشجع من الخلع والخلافة! إنّي آليت بيمين لا ألقاك في حرب أقدر فيه على ضرب عنقك إلا فعلت ثم أمر به فقُتِل.

قال هشام: قال عوانة: وأُتِيَ بزيد بن وهب بن زَمْعة؛ فقال: بايعْ، قال: أبايعك على سنّة عمر؛ قال: أقتُلوه؛ قال: أنا أبايع، قال: لا والله لا أقيلك عثرتَك، فكلّمه مروان بن الحكم ـ لصهر كان بينهما ـ فأمر بمروان فُوجِئتْ عنقُه، ثم قال: بايعوا على أنكم خوَل ليزيدَ بن معاوية، ثم أمر به فقُتل.

قال هشام: قال عوانة، عن أبي مخنف. قال: قال عبدالملك بن نوفل بن مساحق: ثم إنّ مروانَ أُتِيَ بعلي بن الحسين، وقد كان علي بن الحسين حين أخرِجت بنو أميّة منع ثَقَل مروان وامرأته وآواها، ثم خرجتْ إلى الطائف، فهي أمّ أبان ابنة عثمان بن عفان، فبعث ابنه عبدالله معها، فشكر ذلك له مروان ـ وأقبل علي بن الحسين يمشي بين مروان وعبدالملك يلتمس بهما عند مسلم الأمان، فجاء حتى جلس عنده بينهما، فدعا مروان بشراب ليتحرّم بذلك من مسلم، فأتي له بشراب، فشرب منه مروان شيئاً يسيراً، ثم ناوله عليًّا، فلما وقع في يده قال له مسلم: لا تشرب من شرابنا، فأرعِدت كفّه، ولم يأمنْه على نفسه، وأمسك القَدَح بكفّه لا يشربه ولا يضعه، فقال: إنك إنما جئت تمشي بين هؤلاء لتأمن عندي؛ والله لو كان هذا الأمر إليهما لقتلتك، ولكنّ أمير المؤمنين أوصاني بك، وأخبَرَني أنك كاتبته، فذلك نافِعُك عندي، فإن شئت فاشرب شرابك الذي في يدك، وإن شئت دعونا بغيره، فقال: هذه التي في كفّي أريد؛ قال: إشرَبها، ثم قال: إليَّ ها هنا، فأجلَسه معه.

قال هشام: وقال عوانة بن الحكم: لما أتي بعلي بن الحسين إلى مسلم، قال: مَن هذا؟ قالوا: هذا علي بن الحسين؛ قال: مرحباً وأهلاً، ثم أجلَسَه معه على السرير والطّنفِسة، ثم قال: إنّ أمير المؤمنين أوصاني بك قبلاً، وهو يقول: إنّ هؤلاء الخبثاء شغلوني عنك وعن وُصْلتك؛ ثم قال لعلي: لعلّ أهلك فزِعوا! قال: إي والله، فأمر بدابّته فأسرجتْ، ثم حمله فردّه عليها.

قال هشام: وذكر عوانة أنّ عَمرو بن عثمان لم يكن فيمن خرج من بني أميّة، وأنه أتى به يومئذ إلى مسلم بن عُقْبة فقال: يا أهل الشام، تعرفون هذا؟ قالوا: لا؛ قال: هذا الخبيث ابن الطيّب، هذا عَمرو بن عثمانَ بن عفّان أمير المؤمنين، هيه يا عمرو! إذا ظهر أهل المدينة قلتَ: أنا رجل منكم، وإن ظهر أهلُ الشام قلتَ: أنا ابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، فأمر به فنُتِفت لحيتُه، ثم قال: يا أهل الشام، إنّ أمّ هذا كانت تدخِل الجُعَل في فيها ثم تقول: يا أمير المؤمنين حاجيْتك، ما في فمي؟ وفي فمها ما ساءَها وناءَها، فخلّى سبيله، وكانت أمُّه من دَوْس.

قال أبو جعفر الطبري: فحدثني أحمد بن ثابت، عمّن حدّثه، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وحدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، عن محمد بن عمر، قالا: كانت وقعة الحرّة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي الحجّة سنة ثلاث وستين. وقال بعضهم: لثلاثٍ ليالٍ بقِين منه.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبدالله بن الزّبير. حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، أخبرنا

محمد بن عمر ، قال : حدّثني عبدالله بن جعفر ، عن ابن عوف ، قال : حجّ ابن الزبير بالناس سنة ثلاث وستين ، وكان يسمّى يومئذٍ العائذ ، ويرون الأمرَ شُورَى . قال : فلما كانت ليلة هلال المحرّم ونحن في منزلنا إذ قدم علينا سعيدٌ مولى المِسْور بن مخرَمَة ، فخبّرنا بما أوقع مسلم بأهل المدينة وما نيل منهم ، فجاءهم أمرٌ عظيم ، فرأيت القوم شهروا وجدّوا وأعدّوا وعرفوا أنه نازل بهم .

وقد ذُكر من أمر وقعة الحَرّة ومقتل ابن الغسيل أمرٌ غيْرُ الذي رُوي عن أبي مخنف ، عن الذين رَوَى ذلك عنهم ، وذلك ما حدّثني أحمد بن زهير قال : حدّثنا أبي ، قال : حدّثنا وهب بن جرير ، قال : حدّثنا جويرية بن أسماء ، قال : سمعتُ أشياخَ أهل المدينة يحدّثون أنّ معاوية لمّا حضرته الوفاة دعا يزيدَ فقال له : إنّ لك من أهل المدينة يوماً ، فإنْ فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة ، فإنه رجل قد عرفتُ نصيحَته . فلما هلك معاوية وفد إليه وفدٌ من أهل المدينة ، وكان ممن وفد عليه عبدُالله بن حنظلة بنُ أبي عامر ، وكان شريفاً فاضلاً سيّداً عابداً ، معه ثمانية بنينَ له ، فأعطاه مائةَ ألف درهم ، وأعطَى بنيه لكلّ واحد منهم عشرة آلاف سوى كُسوتهم وحُملانهم ، فلما قدم المدينة عبدالله بن حنظلة أتاه الناس فقالوا : ما وراءك؟ قال : جئتكم من عند رجل والله لو لم أجد إلاّ بنيَّ هؤلاء لجاهدتُه بهم ؛ قالوا : قد بلغَنا أنه أجداك وأعطاك وأكرمك؛ قال : قد فعل ، وما قبلت منه إلاّ لأتقوّى به ؛ وحضّض الناسَ فبايعوه ، فبلغ ذلك يزيد ، فبعث مسلم بن عُقْبة إليهم ، وقد بعث أهل المدينة إلى كلّ ماء بينهم وبين الشام ، فصبّوا فيه زقًّا من قَطِران ، وعُوِّر ، فأرسل الله السماء عليهم ، فلم يستقوا بدَلْو حتى ورَدُوا المدينة ، فخرج إليهم أهلُ المدينة بجموع كثيرة ، وهيئة لم يُرَ مِثلُها . فلما رآهم أهل الشام هابُوهم وكرهوا قتالَهم ، ومسلم شديدُ الوجع ، فبينما الناس في قتالهم إذ سمعوا التكبيرَ من خلْفهم في جوف المدينة ، وأقحم عليهم بنو حارثة أهلَ الشام ، وهم على الجَدّ ، فانهزم الناسُ ، فكان من أصيب في الخندق أكثرَ ممن قُتل من الناس ، فدخلوا المدينة ، وهُزم الناس وعبدالله بن حنظلة مستندٌ إلى أحد بنيه يغطّ نوماً ، فنبّهه ابنه ، فلما فتح عينيه فرأى ما صنع الناسُ أمرَ أكبرَ بنيه ، فتقدّم حتى قتل ، فدخل مسلم بن عقبة المدينة ، فدعا الناسَ للبيعة على أنهم خَوَلٌ ليزيدَ بن معاوية ، يحْكم في دمائهم وأموالهم وأهلِيهم ما شاء .

ثم دخلت سنة أربع وستين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

قال أبو جعفر: فمن ذلك مسيرُ أهل الشام إلى مكة لحرب عبدالله بن الزّبير ومَنْ كان على مثل رأيه في الامتناع على يزيدَ بن معاوية .

ولما فرغ مسلم بن عُقْبة من قتال أهل المدينة وإنهاب جندِه أموالهم ثلاثاً ، شَخَص بمن معه من الجند متوجّهاً إلى مكة، كالذي ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، قال: حدّثني عبدالملك بن نوفل، أنّ مسلماً خرج بالناس إلى مكة يريد ابن الزبير ، وخلف على المدينة رَوْح بن زِنباع الجُذامي .

وأما الواقدي فإنه قال : خلف عليها عمرو بن محرز الأشجعي ، قال ويقال : خلف عليها رَوْح بن زِنْباع الجُذامي .

ذكر موت مسلم بن عقبة ورمي الكعبة وإحراقه

رجع الحديث إلى أبي مخنف. قال: حتى إذا انتهى إلى المُشلَّل ـ ويقال : إلى قفا المشلل ـ نزل به الموت ، وذلك في آخر المحرَّم من سنة أربع وستين ، فدعا حصين بن نمير السَّكونيّ فقال له : يابن برذعة الحمار، أما والله لو كان هذا الأمر إليَّ ما ولَّيتُك هذا الجندَ، ولكنّ أمير المؤمنين ولّاك بعدي ، وليس لأمرِ أمير المؤمنين مَرَدٌّ ؛ خُذ عني أربعاً: أسرع السيرَ ، وعجّل الوِقاع ، وعمّ الأخبار ، ولا تُمكِنْ قُرَشيًّا من أذنك . ثم إنه مات ، فدُفن بقَفا المشلّل .

قال هشام بن محمد الكلبي : وذكر عَوَانة أنّ مسلم بن عُقْبة شخص يريد ابن الزبير ، حتى إذا بلغ ثنيَّة هَرْشَا نزل به الموت ، فبعث إلى رؤوس الأجناد ، فقال : إنّ أمير المؤمنين عهد إليَّ إنْ حدَثَ بي حَدَثُ الموت أن أستخلف عليكم حصينَ بنَ نمير السَّكونيّ ، والله لو كان الأمر إليَّ ما فعلت ، ولكن أكره معصيةَ أمرِ أمير المؤمنين عند الموت ؛ ثم دعا به فقال: انظر يا برذعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به؛ عمِّ الأخبار، ولا تُرْعِ سمعَك قريشاً أبداً، ولا تردّنّ أهل الشام عن عدوّهم ، ولا تقيمنّ إلا ثلاثاً حتى تناجزَ ابن الزبير الفاسق ؛ ثم قال: اللهمّ إني لم أعمل عملاً قطّ بعد شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً عبده ورسوله أحبَّ إليَّ من قتلي أهل المدينة ، ولا أرجي عندي في الآخرة . ثم قال لبني مُرَّة : زرَّاعتي التي بَحوْرانَ صدقةٌ على مرَّة ، وما أغلقتْ عليه فلانة بابَها فهو لها ـ يعني أمَّ ولدِه ـ ثم مات .

وما مات خرج حصين بن نمير بالناس ، فقَدِم على ابن الزبير مكة وقد بايعه أهلُها وأهلُ الحجاز .

قال هشام : قال عوانة : قال مسلم قبل الوصيّة : إنَّ ابني يزعم أنّ أمّ ولدي هذه سقتْني السمّ ؛ وهو كاذب ، هذا داءٌ يُصيبُنا في بطوننا أهلَ البيت . قال : وقدم عليه ـ يعني ابن الزبير ـ كلُّ أهل المدينة ، وقد قدم عليه نَجْدة بن عامر الحنفي في أناس من الخوارج يمنعون البيت ، فقال لأخيه المنذر : ما لهذا الأمر ولدفع هؤلاء القوم غيري وغيرُك ـ وأخوه المنذر ممن شهد الحرّة ، ثم لحق به ـ فجرّد إليهم أخاه في الناس ، فقاتلهم ساعةً قتالاً شديداً ثم إن رجلا من أهل الشام دعا المنذر إلى المبارزة ـ قال : والشاميُّ على بغلة له ـ فخرج إليه المنذر ، فضرب كلُّ واحد منهما صاحبَه ضربةً خرّ صاحبُه لها ميّتاً ، فجثا عبدُالله بنُ الزّبير على ركبتيه وهو يقول : يا ربّ أبرْها من أصلها ولا تَشدَّها ، وهو يدعو على الذي بارز أخاه . ثم إنّ أهل الشام شدُّوا عليه شَدّةً منكرةً ، وانكشف أصحابُه انكشافةً ، وعثرتْ بغلته فقال : تَعْساً! ثم نزل وصاح بأصحابه : إليَّ ؛ فأقبَلَ إليه المِسْوَر بن مَخْرمة بن نوفل بن أهْيَب بن عبد مناف بن زُهرة ، ومصعب بن عبدالرحمن بن عوف الزّهرّي ، فقاتلوا حتى قُتلوا جميعاً . وصابرَهم ابنُ الزبير يجالدهم حتى الليل، ثمّ انصرفوا عنه ؛ وهذا في الحصار الأول . ثم إنهم أقاموا عليه يقاتلونه بقيّة المحرّم وصفر كله ، حتى إذا مضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأوّل يوم السبت سنة أربع وستين قَذَفوا البيتَ بالمَجانيق ، وحرّقوه بالنار ، وأخذوا يرتجزون ويقولون :

خطّارةٌ مِثْلُ الفنِيق المزبِدِ ... نَرْمِي بها أعْوادَ هذا المسْجِدِ

قال هشام : قال أبو عَوانة : جعل عَمرو بنُ حَوْط السدوسي يقول :

كَيفَ تَرى صنيعَ أُم فَرْوَهْ ... تأْخُذُهُمْ بين الصَّفَا والمَرْوَهْ

يعني بأمّ فروةَ المنجنيق .

وقال الواقدي : سار الحُصين بن نمير حين دُفن مسلم بن عُقبة بالمشلَّل لسبعٍ بقِين من المحرّم ، وقدم مكة لأربع بقين من المحرّم ، فحاصر ابنَ الزبير أربعاً وستين يوماً حتّى جاءهم نعْيُ يزيد بن معاوية لهلال ربيع الآخر .

وفي هذه السنة حُرقت الكعبة .

ذكر السبب في إحراقها :

قال محمد بن عمر : احترقت الكعبة يومَ السبت لثلاثِ ليال خلوْن من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين قبل أن يأتيَ نعيُ يزيدَ بن معاوية بتسعة وعشرين يوماً ، وجاء نعيه لهلال ربيع الآخر ليلة الثلاثاء.

قال محمد بن عمر : حدّثنا رياح بن مسلم ، عن أبيه ، قال : كانوا يوقدون حولَ الكعبة ، فأقبلتْ شَرَرة هبّت بها الريح ، فاحترقتْ ثياب الكعبة ، واحترق خشبُ البيت يومَ السبت لثلاثِ ليال خلَوْن من ربيع الأوّل .

قال محمد بن عمر : وحدّثني عبدالله بن زيد ، قال : حدّثني عروة بن أذَيْنَة ، قال : قدمتُ مكة مع أمّي يومَ احترقت الكعبة قد خَلَصتْ إليها النار ، ورأيتُها مجرّدة مِن الحرير ، ورأيت الرّكن قد اسودّ وانصدع في ثلاثة أمكنة ، فقلت : ما أصاب الكعبةَ؟ فأشاروا إلى رجل من أصحاب عبدِالله بن الزبير ، قالوا : هذا احترقتْ

بسببه ، أخذ قبَساً في رأس رمح له فطيّرت الريحُ به ، فضرَبْت أستارَ الكعبة ما بين الركن اليمانيّ والأسوَد .

وفيها هلك يزيدُ بنُ معاوية ، وكانت وفاته بقرية من قُرى حمصَ يقال لها حُوّارين من أرض الشام ، لأربع عشرةَ ليلةً خلتْ من ربيع الأوّل سنةَ أربع وستين وهو ابن ثمان وثلاثين سنةً في قول بعضهم .

حدّثني عمر بن شبّة ، قال : حدّثنا محمد بن يحيى ، عن هشام بن الوليد المخزومي ، أنّ الزّهري كتب لجدّه أسنانَ الخلفاء ، فكان فيما كَتَب من ذلك : ومات يزيدُ بن معاوية وهو ابن تسع وثلاثين ؛ وكانت ولايتُه ثلاثَ سنين وستة أشهر في قول بعضهم ، ويقال : ثمانية أشهر .

وحدّثني أحمد بن ثابت عمّن حدّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، أنه قال : توفّي يزيد بنُ معاوية يومَ الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلتْ من شهر ربيع الأول ، وكانت خلافتُه ثلاثَ سنين وثمانيةَ أشهر إلاّ ثمان ليالٍ ، وصلّى على يزيدَ ابنُه معاوية بن يزيد .

وأما هشام بن محمد الكلبي فإنه قال في سنّ يزيدَ خلافَ الذي ذكره الزهريّ ؛ والذي قال هشام في ذلك - فيما حُدِّثنا عنه - : استُخلف أبو خالد يزيد بن معاوية بن أبي سُفْيان وهو ابن اثنتين وثلاثين سنةً وأشهر في هلالِ رجب سنة ستين ، وولى سنتين وثمانية أشهر ، وتوفى لأربع عشرةَ ليلةً خلت من ربيع الأوّل سنة ثلاثٍ وستين وهو ابن خمس وثلاثين ، وأمّه مَيْسون بنت بَحْدل بن أنيف بن وَلْجة بن قُنافةَ بن عديّ بن زهير بن حارثة الكلبي .

ذكر عدد ولده

فمنهم معاوية بن يزيدَ بن معاوية ، يُكنَى أبا ليلى ، وهو الذي يقول فيه الشاعر :

إني أرَى فتنةً قدْ حانَ أوّلُها ... والمُلكُ بعد أبي لَيْلى لِمَنْ غلَبا

وخالد بن يزيدَ - وكان يُكنَى أبا هاشم ، وكان يقال : إنه أصاب عَمل الكِيمياء - وأبو سُفْيان ، وأُمُّها أمّ هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، تزوّجها بعدَ يزيد مروان ، وهي التي يقول لها الشاعر :

انْعمِي أُمَّ خالدِ ... رُبَّ ساعٍ لقاعِدِ

وعبد الله بن يزيدَ ، قيل : إنه مِن أرْمى العرب في زمانه ، وأمُّه أمّ كلثوم بنت عبدالله بن عامر ، وهو الأسوار ، وله يقول الشاعر :

زَعَم الناسُ أنَّ خيرَ قريش ... كلُّهمْ حِينَ يُذْكَرُ الأُسوَارُ

وعبدالله الأصغر ، وعُمر ، وأبو بكر ، وعُتْبة ؛ وحَرب ، وعبدالرحمن ، والربيع ، ومحمد ؛ لأمّهاتِ أولادٍ شتّى .

خلافة معاوية بن يزيد

وفي هذه السنة بويع لمعاوية بن يزيدَ بن معاوية بن أبي سُفْيان بالشام بالخلافة ، ولعبد الله بن الزُّبير

بالحِجاز .

ولما هلك يزيدُ بنُ معاوية مكث الحُصَيْنُ بن نُمير وأهل الشام يقاتلون ابنَ الزّبير وأصحابه بمكة - فيما ذكر هشام عَن عوانة - أربعين يوماً ، قد حصروهم حصاراً شديداً ، وضيَّقوا عليهم . ثم بلغ موتُه ابن الزبير وأصحابه ، ولم يبلغ الحصينَ بن نمير وأصحابه ؛ فحدّثنا إسحاق بن أبي إسرائيل ، قال : حدّثنا عبدالعزيز بن خالد بن رُسْتم الصنعانيّ أبو محمد قال : حدّثنا زياد بن جيل ، قال : بينا حُصينَ بن نمير يقاتل ابنَ الزبير ، إذْ جاء موت يزيد ؛ فصاح بهم ابن الزبير ، فقال : إنّ طاغِيَتَكم قد هلك ، فمن شاء منكم أن يدخلَ فيما دخل فيه الناس فلْيفعلْ ، فمن كَرِه فليَلْحقْ بشأمه فغَدَوْا عليه يقاتلونه . قال : فقال ابنُ الزبير للحصين بن نُمَير : أُدنُ مني أحدّثْك ، فدنا منه فحدّثه ، فجعل فرسُ أحدهما يجْفِل - والجَفْل : الرَّوْث - فجاء حَمام الحَرَم يلتقط من الجَفْل ، فكفّ الحصين فرسَه عنهنّ ، فقال له ابن الزبير: ما لَكَ؟ قال : أخاف أن يَقتُل فرسي حَمامَ الحرَم ؛ فقال له ابن الزبير : أتتحَرَّجُ من هذا وتريد أن تَقتُلَ المسلمين ! فقال له : لا أقاتلك ؛ فأذنْ لنا نَطفْ بالبيت ، وننصرف عنك ، ففعل فانصرفوا .

وأما عوانة بن الحكَم فإنه قال - فيما ذكر هشام ، عنه - قال : لما بلغ ابنَ الزبير موتُ يزيد - وأهل الشام لا يعلمون بذلك ، قد حصروه حصاراً شديداً وضيّقوا عليه - أخذ يناديهم هو وأهل مكّة : علامَ تقاتلون؟ قد هلك طاغِيتُكم ؛ وأخذوا لا يصدّقونه حتى قدم ثابت بن قيس بن المُنْقَع النخَعيّ من أهل الكوفة في رؤوس أهل العراق ، فمرّ بالحصين بن نمير - وكان له صديقاً ، وكان بينهما صِهْر ، وكان يراه عند معاوية ، فكان يعرف فضلَه وإسلامَه وشرفَه - فسأل عن الخبر ، فأخبره بهلاك يزيدَ ، فبعث الحصين بن نُمَير إلى عبدالله بن الزبير ، فقال : موعدُ ما بيننا وبينك الليلةَ الأبطحُ ، فالتقيا ، فقال له الحصين : إن يَكُ هذا الرجل قد هلك فأنت أحقّ الناس بهذا الأمر؛ هلمَّ فلنبايعْك ، ثم اخرج معي إلى الشام ، فإنّ هذا الجند الذين معي هم وجوهُ أهل الشام وفُرسانُهم ، فوالله لا يختلف عليك اثنان ، وتؤمّن الناس وتُهدِر هذه الدّماء التي كانت بيننا وبينك ، والتي كانت بيننا وبين أهل الحَرَّة ؛ فكان سعيد بن عمرو يقول : ما مَنَعه أن يبايعَهم ويخرج إلى الشام إلَّا تَطَيّرٌ ، لأن مكة التي منعه الله بها ؛ وكان ذلك من جند مروان ، وإن عبدالله والله لو سار معهم حتى يدخل الشام ما اختلف عليه منهم اثنان . فزعم بعضُ قريش أنه قال : أنا أهدِر تلك الدماء! أما والله لا أرضى أن أقتُل بكلّ رجل منهم عَشَرة ، وأخذ الحصينُ يكلّمه سرًّا ، وهو يجهر جهراً ، وأخذ يقول : لا والله لا أفعل ، فقال له الحصين بن نمير : قبح اللّهُ من يعدّك بعد هذه داهياً قطّ أو أديباً ! قد كنتُ أظنّ أنّ لك رأياً . ألا أراني أكلمك سرًّا وتكلمني جهراً ، وأدعوك إلى الخلافة ، وتعِدُني القتلَ والهَلَكة!

ثم قام فخرج وصاح في الناس ، فأقبل فيهم نحوَ المدينة ، وندم ابن الزبير على الذي صنع ، فأرسل إليه : أمّا أن أسيرَ إلى الشام فلستُ فاعلاً ، وأكره الخروج من مكة ، ولكن بايعوا لي هنالك فإنّي مؤمّنكم وعادلٌ فيكم . فقال له الحصين : أرأيتَ إن لم تقدم بنفسك ، ووجدتُ هنالك أناساً كثيراً من أهل هذا البيت يطلبونها يجيبهم الناس ، فما أنا صانعٌ؟ فأقبَل بأصحابه ومَنْ معه نحوَ المدينة ؛ فاستقبله علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومعه قَتٌّ وشعيرٌ ، وهو على راحلة له ، فسلّم على الحصين ، فلم يكد يلتفت إليه ، ومع الحصين بن نمير فرسٌ له عتيق ، وقد فَنِيَ قَتُّهُ وشعيرُه ، فهو غَرِضٌ ، وهو يسبّ غلامَه ويقول : من أين نجد هنا لدابّتنا عَلفاً! فقال له علي بن الحسين : هذا علفٌ عندنا ، فاعلف منه دابّتك ، فأقبل على عليٍّ عند ذلك بوَجهه ، فأمر له بما

كان عنده من عَلَف، واجترأ أهل المدينة وأهلُ الحجاز على أهل الشام فذلّوا حتى كان لا ينفرد منهم رجل إلاّ أخِذَ بلجام دابته ثم نُكِس عنها ، فكانوا يجتمعون في معسكرهم فلا يفترقون . وقالت لهم بنو أميّة : لا تبرحوا حتى تحملونا معكم إلى الشام ، ففعلوا ، ومضى ذلك الجيش حتى دخل الشام ، وقد أوصى يزيد بن معاوية البيعة لابنه معاوية بن يزيد ، فلَم يلبث إلاّ ثلاثة أشهر حتى مات .

وقال عَوانة : استخلف يزيد بن معاوية ابنَه معاوية بن يزيد ، فلم يمكث إلا أربعين يوماً حتى مات .

وحدّثني عمر ، عن علي بن محمد ، قال : لما استُخلف معاوية بن يزيدَ وجمع عُمَّالَ أبيه ، وبويع له بدمشق ، هلك بها بعد أربعين يوماً من ولايته .

ويُكنى أبا عبدالرحمن ، وهو أبو ليلى ، وأمه أم هاشم بنت أبي هاشم بن عُتبة بن ربيعة ، وتوفّي وهو ابن ثلاث عشرة سنةً وثمانية عشر يوماً .

وفي هذه السنة بايع أهلُ البصرة عبيدالله بن زياد ، على أن يقوم لهم بأمرهم حتى يصطلح الناسُ على إمام يرتضُونه لأنفسهم ، ثم أرسل عبيدالله رسولاً الى الكُوفة يدعوهم إلى مِثل الـذي فعل من ذلـك أهل البصرة ، فأبَوْا عليه ، وحصبوا الواليَ الذي كان عليهم ، ثمّ خالفه أهلُ البصرة أيضاً ، فهاجت بـالبصرة فتنة ، ولحق عبيدالله بن زياد بالشام .

ذكر الخبر عما كان من أمر عبيدالله بن زياد

وأمر أهل البصرة معه بها بعد موت يزيد

وحدّثني عمر بن شبّة ، قال : حدّثني موسى بن إسماعيل ، قال : حدّثنا حَماد بن سلَمة ، عن علي بن زيد ، عن الحسن ، قال : كتب الضحاك بن قيس إلى قيس بن الهيثم حين مات يزيد بن معاويـة : سلامٌ عليك ، أمّا بعد، فإنّ يزيد بن معاوية قد مات ، وأنتم إخواننا ، فلا تسبقونا بشيء حتى نختار لأنفسنا .

حدّثني عمر، قال: حدّثنا زهير بن حرب، قال: حدّثنا وهب بن حمّاد ، قال: حـدّثنا محمـد بن أبي عُيَيْنة ؛ قال: حدّثني شهرك ، قال: شهدتُ عُبيدَالله بن زياد حين مات يزيد بن معاوية قام خطيباً ، فَحَمِد اللّهَ وأثنى عليه ثم قال :

يا أهلَ البصرة ، انسبوني ، فوالله لتجدُنّ مُهاجَر وَالدي ومولدي فيكم ، وداري ، ولقد وليتُكُم وما أحصىَ ديوان مقاتلتكم إلاّ سبعين ألف مقاتل ولقد أحصىَ اليومَ ديوانُ مقاتلتكم ثمانين ألفاً ، وما أحصىَ ديوان عُمالكم إلاّ تسعين ألفاً ، ولقد أحصيَ اليوم مائة وأربعين ألفاً ، وما تركتُ لكم ذا ظِنّةٍ أخافه عليكم إلاّ وهو في سجنكم هذا. وإن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد توفي ، وقد اختلف أهلُ الشام، وأنتم اليومَ أكثرُ الناس عدداً، وأعرَضُ فِناءً ، وأغناه عن النـاس ، وأوسَعُهُ بـلاداً ، فاختـاروا لأنفسكم رجلاً تـرْتضونـه لدينكم وجماعتكم ، فأنا أوّلُ راض مَن رضيتموه وتابع ، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترتَضُونه ، دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كنتم على جَدِيلتكم حتى تُعطوا حاجتَكم ، فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجةٌ ، وما يستغني الناس عنكم .

فقامت خُطباءُ أهل البصرة فقالوا : قد سمعنا مقالتَك أيُّها الأمير ، وإنا والله ما نعلم أحداً أقوى عليها منك ، فهلمَّ فلنبايعْك؛ فقال : لا حاجة لي في ذلك ، فاختاروا لأنفسكم ؛ فأبَوْا عليه ، وأبَى عليهم ، حتى كرّروا ذلك عليه ثلاث مرّات ، فلما أبَوْا بَسَط يَدَه فبايعوه ، ثمّ انصرفوا بعد البيعة وهم يقولون: لا يظنّ ابن مرجانة أنَّا نستقاد له في الجماعة والفُرقة ، كَذَبَ والله! ثمّ وثبوا عليه .

حدّثني عمر، قال زهير: قال: حدّثنا وهب، قال. وحدّثنا الأسود بن شيبان ، عن خالد بن سُمَير ، أنّ شقيق بن ثور ومالك بن مِسْمع وحضين بن المنذر أتـوا عبيدالله ليلاً وهو في دار الإمارة، فبلغ ذلك رجلاً من الحيّ من بني سَدُوس ؛ قال: فانطلقتُ فلزمتُ دار الإمارة ، فلبثوا معه حتى مضى عليه الليل، ثمّ خرجوا ومعهم بغلٌ موقَرٌ مالاً ؛ قال فأتيت حضيناً فقلت: مُرْ لي من هذا المال بشيء ، فقال: عليك ببني عمّك ، فأتيت شقيقاً فقلت: مُرْ لي من هذا المال بشيء ـ قال: وعلى المال مولًى له يقال له: أيّوب ـ فقال: يا أيوب، أعطِه مائة درهم؛ قلت: أما مائة درهم والله لا أقبلها، فسكت عني ساعةً، وسارَ هنَيْهة، فأقبلتُ عليه فقلتُ : مُرْ لي من هذا المال بشيء ، فقال: يا أيّوب، أعطه مائتيْ درهم ، قلت : لا أقبل والله مائتين ، ثم أمر بثلثمائة ثم أربعمائة ، فلما انتهينا إلى الطُّفاوة قلت : مُرْ لي بشيء ؛ قال : أرأيتَ إن لم أفعل ما أنت صانع؟ قلتُ: أنطلق والله حتى إذا توسَّطتُ دُورَ الحيّ وضعتُ إصبعيّ في أذنيَّ ، ثمّ صرختُ بأعلى صوتي : يا معشر بكر بن وائل ، هذا شقيق بن ثور وحضَين بن المنذر ومالك بن المسمع ، قد انطلقوا إلى ابن زياد ، فاختلفوا في دمائكم ؛ قال : ما له فعَل الله به وفعل ! ويلك أعطِه خمسمائة درهم؛ قال : فأخذتها ثم صبَّحت غادياً على مالك ـ قال وهب : فلم أحفظ ما أمر له به مالك ـ قال : ثم رأيت حضَيناً فدخلت عليه ، فقال : ما صنع ابن عمّك ؟ فأخبرتُه وقلت : أعطني من هذا المال ، فقال : إنَّا قد أخذْنا هذا المال ونجوْنا به ، فلن نَخشى من الناس شيئاً ، فلم يعطِني شيئاً .

قال أبو جعفر: وحدّثني أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنّى أنّ يونس بن حبيب الجَرْميّ حدّثه ، قال : لما قَتل عُبيدُالله بنُ زياد الحسينَ بن علي عليه السلام وبني أبيه ، بعث برؤوسهم إلى يزيدَ بن معاوية ، فسُرَّ بقَتْلهم أوّلاً ، وحسُنَتْ بذلك منزلةُ عُبيدالله عنده ، ثمّ لم يلبث إلّا قليلاً حتى ندم على قتل الحسين ، فكان يقول : وما كان علي لو احتملتُ الأذى وأنزلتُه معي في داري ، وحكَّمته فيما يريد ؛ وإن كان علي في ذلك وكَفٌ ووَهنٌ في سلطاني ، حِفْظاً لرسولِ الله ﷺ ورعايةً لحقه وقرابته! لعن الله ابنَ مَرْجانة ، فإنه أخرجه واضطّره ، وقد كان سأله أن يُخَلِّيَ سبيلَه ويرجع فلم يفعل ، أو يضع يَده في يدي ، أو يلحق بثَغْر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله عزّ وجلّ فلم يفعل ، فأبى ذلك وردّه عليه وقتله ، فبغّضني بقتله إلى المسلمين ، وزرع لي في قلوبهم العداوةَ ، فَبَغَضَني البَرُّ والفاجرُ ، بما استعظم الناس من قتلي حُسيناً ؛ ما لي ولابن مرجانة لعنه الله وغضِب عليه !

ثمّ إنّ عبيدالله بعث مولًى يقال له أيوب بن حُمْران إلى الشام ليأتيَه بخبر يزيدَ ، فركب عبيدالله ذاتَ يوم حتى إذا كان في رَحْبة القصّابين ، إذا هو بأيوب بن حُمران قد قَدِم ، فلحقه فأسرّ إليه موتَ يزيدَ بن معاوية ، فرجع عبيدالله من مسيره ذلك فأتى منزلَه ، وأمر عبدالله بن حِصْن أحد بني ثعلبة بن يربوع فنادى: الصلاة جامعة .

قال أبو عبيدة : وأما عمير بن معن الكاتب، فحدّثني قال: الذي بعثه عُبيدالله حُمران مولاه ، فعاد عُبيد

الله عبدالله بن نافع أخي زياد لأمه ، ثم خرج عبيدالله ماشياً من خَوْخة كانت في دار نافع إلى المسجد ، فلما كان في صحنه إذا هو بمولاه حُمران أدنى ظلمة عند المساء ـ وكان حُمران رسولَ عبيدالله بن زياد إلى معاوية حياتَه وإلى يزيد ـ فلما رآه لوم يكن آن له أن يقدم ـ قال: مَهْيم! قال: خيرٌ، قال: وما وراءك؟ قال: أدنو منك؟ قال: نعم ـ وأسرّ إليه موتَ يزيد واختلاف أمر الناس بالشام ، وكان يزيدُ ماتَ يوم الخميس للنصف من شهر ربيع الأوّل سنة أربع وستين ـ فأقبل عبيدالله مِن فَوْرِهِ ، فأمر منادياً فنادى : الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس صَعِد المنبرَ فنعَى يزيدَ ، وعرّض بثلبه لِقَصْد يزيد إياه قبل موته حتى يخافه عبيدالله ، فقال الأحنف لعبيدالله : إنه قد كانت ليزيدَ في أعناقنا بَيْعة، وكان يقال: اعْرِض عن ذي فَنَن ، فأعرَض عنه ، ثم قام عبيد الله يـذكر اختلاف أهل الشام ، وقال : إنّي قد وليتكم . . . ثم ذكر نحو حديث عمر بن شبّة ، عن زهير بن حرب إلى: فبايعوه عن رِضاً منهم ومشورةٍ . ثم قال: فلما خرجوا من عنده جعلوا يمسحون أكفّهم بباب الدار وحيطانه ، ويقولون: ظَنَّ ابن مرجانة أنا نوليه أمرَنا في الفرقة! قال: فأقام عبيدالله أميراً غيرَ كثير حتى جعل سلطانه يضعف، ويأمرنا بالأمر فلا يقضَى، ويرى الرأي فيردّ عليه، ويأمر بحبس المخطىء فيُحال بين أعوانه وبينه .

قال أبو عبيدة : فسمعتُ غيلانَ بن محمـد يحدّث عن عثمـان البَتيّ ، قال: حـدّثني عبدالـرحمن بن جَوْشن ، قال: تبعتُ جنازةً فلما كان في سوق الإبل إذا رجلٌ على فرس شهباء متقنّعٌ بسلاح وفي يده لواء ، وهو يقول : أيها الناس ، هلموا إليَّ أدعُكم إلى ما لم يدعُكم إليه أحد ، أدعوكم إلى العائذ بالحَرَم ـ يعني عبدَالله بنَ الزبير . قال : فتجمّع إليه نُوَيْس، فجعلوا يصفّقون على يديْه ، ومضينا حتى صلينا على الجنازة ، فلمّا رجعنا إذا هو قد انضمّ إليه أكثرُ من الأوّلين، ثم أخذ بين دار قيس بن الهَيْثم بن أسماء بن الصّلت السلمي ودار الحارثيّين قِبَلَ بني تميم في الطريق الذي يأخـذ عليهم ، فقال : ألا مَن أرادني فـأنا سَلمَـة بن ذُؤيب ـ وهو سلمَة بن ذُؤيب بن عبدالله بن محكم بن زيد بن رياح بن يربوع بن حنظلة ـ قال : فلقيَني عبدالرحمن بن بكر عند الرّحبة، فأخبرته بخبر سلَمة بعد رجوعي ، فأتى عبدالرحمن عبيدَالله فحدّثه بالحديث عنّي، فبعث إليَّ ، فأتيتُه، فقال: ما هذا الذي خبّر به عنك أبو بَحْر؟ قال: فاقتصصت عليه القِصّة حتى أتيتُ على آخرها ، فأمر فنودي على المكان: الصلاة جامعة، فتجمّع الناس، فأنشأ عبيدالله يقصّ أمره وأمرهم ، وما قد كان دعاهم إلى مَنْ يرتضونه ، فيبايعه معهم ، وإنكم أبيتم غيري ، وإنه بلغني أنكم مسحتم أكفّكم بالحيطان وباب الدار، وقلتم ما قلتم ، وإني آمرُ بالأمر فلا يُنفَّذ ، ويُردّ عليَّ رأيي ، وتحُول القبائل بين أعواني وطِلبتي ، ثم هذا سَلَمة ابن ذُؤيب يدعو إلى الخلاف عليكم ، إرادة أن يفرّق جماعتَكم ، ويضرب بعضكم جباهَ بعض بالسيف . فقال الأحنف صَخْر بن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة بن النَّزَّال بن مُرَّة بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، والناس جميعاً : نحن نأتيك بسلَمة ؛ فأتوا سلَمة ، فإذا جمعُهُ قد كثُف ، وإذا الفَتْق قد اتّسع على الرّاتق ، وامتنع عليهم ، فلما رأوا ذلك قَعَدُوا عن عبيدالله بن زياد فلم يأتوه .

قال أبو عبيدة : فحدّثني غيرُ واحد ، عن مُسَبْرة بن الجارود الهُذليّ ، عن أبيه الجارُود ، قال : وقـال عبيدُالله في خطبته : يا أهلَ البصرة ، والله لقد لبسْنَا الخزّ واليُمنة واللينَ من الثياب حتى لقد أجَمنا ذلك وأجْمته جلودُنا ، فما بنَا إلى أن نُعقِبها الحديدَ! يا أهلَ البصرة ، والله لو اجتمعتمْ على ذُنَب عَيْر لِتكسروه ما كَسرتُموه . قال الجارود : فوالله ما رُمي بجُمّاح حتى هَرب ، فتَوارَى عند مسعود فلما قُتل مسعود لحق بالشام .

قال يونس : وكان في بيت مال عبيدالله يومَ خطب الناس قبل خروج سلمة ثمانية آلاف ألف أو أقلُّ ـ وقال علي بن محمد : تسعة عشر ألف ألف ـ فقال للناس : إنّ هذا فيئكم ، فخذوا أعطياتِكم وأرزاق ذراريّكم منه ، وأمر الكَتَبَةَ بتحصيل الناس وتخريج الأسماء ، واستعجل الكتّاب في ذلك حتى وَكّل بهم من يحبسهم بالليل في الديوان ، وأسرجوا بالشمع . قال : فلما صنعوا ما صنعوا وقعدوا عنه ، وكان من خلاف سلمة عليه ما كان ، كفّ عن ذلك ، ونقلها حين هرب ، فهي إلى اليوم تَرَدّدُ في آل زياد ، فيكون فيهم العُرس أو المأتم فلا يُرى في قريش مثلهم ، ولا في قريش أحسن منهم في الغَضارة والكسوة . فدعا عبيدالله رؤساء خاصّة السلطان ، فأرادهم أن يقاتلوا معه ، فقالوا : إنْ أمَرَنا قُوّادُنا قاتلْنا معك ، فقال إخوةُ عبيدالله لعبيدالله : والله ما من خليفة فتقاتلَ عنه فإن هُزِمتَ فئتَ إليه وإن استمددتَه أمدّك ، وقد علمتَ أنّ الحرب دُوَل ، فلا ندري لعلها تدول عليك ، وقد اتّخذنا بين أظهر هؤلاء القوم أموالاً ، فإن ظفروا أهلَكونا وأهلَكوها ، فلم تَبقَ لك باقية . وقال له أخوه عبدالله لأبيه وأمّه مرجانة : والله لئن قاتلتَ القوم لأعْتمِدنَّ على ظُبَة السيف حتى يخرج من صُلبي . فلما رأى ذلك عبيدالله أرسل إلى حارث بن قيس بن صُهْبان بن عون بن علاج بن مازن بن أسود بن جَهْضَم بن جَذِيمة بن مالك بن فَهْم ، فقال له : يا حار ، إنّ أبي كان أوصاني إن احتجتُ إلى الهرب يوماً أن أختاركم ، وإنّ نفسي تأبى غيركم ، فقال الحارث : قد أبلَوْك في أبيك ما قد علمت ، وأبلَوْه فلم يجدوا عنده ولا عندَك مُكافأةً ، وما لك مَردٌّ إذا اخترتَنا ، وما أدري كيف أتأتّى لك إن أخرَجتك نهاراً! إني أخاف ألاّ أصِلَ بك إلى قومي حتى تُقْتَلَ وأقتَلَ ، ولكنّي أقيم معك حتى إذا وارى دَمْسٌ دَمْساً وهَدَأت القدَمُ ، ردفتَ خلفي لئلا تُعرف ، ثم أخذتك على أخوالي بني ناجية ، قال عبيدالله : نِعْمَ ما رأيت ، فأقام حتى إذا قيل : أخوك أم الذئب؛ حمله خَلْفَه ، وقد نَقل تلك الأموال فأحرزها ، ثمّ انطلق به يمرّ به على الناس ، وكانوا يتحارسون مخافة الحروريّة فيسأل عبيدالله أين نحن؟ فيخبره؛ فلما كانوا في بني سُليم قال عبيدالله : أين نحن؟ قال : في بني سُلَيم؛ قال : سلِمنا إن شاء الله ، فلما أتى بني ناجية قال : أين نحن؟ قال : في بني ناجية؛ قال : نجوْنا إن شاء الله؛ وقال بنو ناجية : مَن أنتَ؟ قال : الحارث بن قيس؛ قالوا : ابن أختِكم؛ وعرف رجل منهم عبيدَ الله فقال : ابن مرجانة! فأرسل سهماً فوقع في عمامته ، ومضى به الحارث حتى ينزله دارَ نفسه في الجهاضم ، ثم مضى إلى مسعود بن عمرو بن عديّ بن محارب بن صُنَيم بن مُليح بن شَرْطان بن مَعْن بن مالك بن فهم ، فقالت الأزْد ومحمد بن أبي عيينة ، فلما رآه مسعود قال : يا حارِ ، قد كان يُتعوّذ من سوء طوارق الليل ، فنعوذ بالله من شرّ ما طرقتَنا به ؛ قال الحارث : لم أطرقك إلاّ بخير ، وقد علمتَ أنّ قومك قد أنجَوْا زياداً فوفَوْا له ، فصارت لهم مكرُمة في العرب يفتخرون بها عليهم ، وقد بايَعْتم عبيدالله بيعةَ الرضا ، رِضاً عن مَشوَرة ، وبيعةٌ أخرى قد كانت في أعناقكم قبل البيعة ـ يعني بيعةَ الجماعة ـ فقال له مسعود : يا حارِ ، أترى لنا أن نعاديَ أهلَ مِصْرِنا في عبيدالله ، وقد أبليْنا في أبيه ما أبلينا ، ثم لم نُكافأ عليه ، ولم نُشكَر ! ما كنتُ أحسب أن هذا من رأيك ؛ قال الحارث : إنه لا يُعاديك أحد على الوَفاء ببيْعتك حتى تبلغَه مأمنَه .

قال أبو جعفر : وأمّا عمر فحدّثني قال : حدّثني زهير بن حرب ، قال : حدّثنا وهب بن جرير ، قال : حدّثنا أبي ، عن الزّبير بن الخِرّيت ، عن أبي لبيد الجَهْضَميّ ، عن الحارث بن قيس ، قال : عَرَض نفسه ـ يعني عُبيدالله بن زياد ـ عليّ ، فقال : أمَا والله إني لأعرف سوءَ رأي كان في قومك؛ قال : فوقفتُ له ، فأردفتُه على بغلتي ـ وذلك ليلاً ـ فأخذتُ على بني سُلَيم ، فقال : مَن هؤلاء؟ قلت : بنو سُلَيم ؛ قال : سَلِمنا إن شاء الله ؛ ثم

مَرَرْنا ببني ناجية وهم جُلوسٌ ومعهم السلاح ـ وكان الناس يتحارَسون إذ ذاك في مجالسهم ـ فقالوا: مَن هذا؟ قلت: الحارث بن قيس، قالوا: امضِ راشِداً، فلما مضينا قال رجل منهم: هذا والله ابن مرْجانة خلفه، فرماه بسهم، فوضعه في كُورِ عِمامته، فقال: يا أبا محمد، مَن هؤلاء؟ قال: الـذين كنت تزعم أنهم من قريش، هؤلاء بنو ناجية؛ قال: نَجوْنا إن شاء الله، ثم قال: يا حارث، إنك قد أحسنت وأجملت، فهل أنت صانع ما أشير عليك؟ قد علمتَ منزلةَ مسعود بن عمرو في قومه وشَرَفَه وسنَّه وطاعةَ قومِه له، فهل لك أن تذهب بي إليه فأكونَ في داره، فهي وسط الأزد، فإنك إن لم تفعل صدع عليك أمر قومِك؛ قلت: نعم؛ فانطلقتُ به، فما شعر مسعودٌ بشيء حتى دخلنا عليه وهو جالسٌ ليلتئذ يوقِد بقضيب على لبِنةٍ، وهو يعالج خُفَّيه قد خلع أحدَهما وبقي الآخر، فلما نظر في وجوهِنا عرفَنا وقال: إنه كان يَتَعَوَّذُ من طوارق السوء، فقلتُ له: أفتُخْرِجه بعدما دخل عليك بيتَك! قال: فأمره فدخل بيت عبدالغافر بن مسعود ـ وامرأة عبدالغافر يومئذ خَيْرةُ بنت خُفاف بن عمرو ـ قال: ثمّ رَكِبَ مسعود من ليلته ومعه الحارث وجماعة مِن قومه، فطافوا في الأزد ومجالسِهم، فقالوا: إنّ ابن زياد قد فُقِدَ، وإنا لا نأمن أن تلطَّخوا به، فأصبحوا في السلاح، وفقد الناس ابن زياد فقالوا: أين توجّه؟ فقالوا: ما هو إلاّ في الأزد.

قال وهب: فحدّثنا أبو بكر بن الفضل، عن قبيصة بن مروان أنهم جعلوا يقولون: أين ترونه توجّه؟ فقالت عجوز من بني عقيل: أين ترونه توجّه! اندَحَسَ والله في أجَمَةِ أبيه.

وكانت وفاةُ يزيدَ حين جاءت ابن زياد وفي بيوت مال البصرة ستة عشر ألف ألف، ففرّق ابن زياد طائفةً منها في بني أبيه، وحمل الباقي معه، وقد كان دعا البخارية إلى القتال معه، ودعا بني زياد إلى ذلك فأبَوا عليه.

حدّثني عمر، قال: حدّثني زهير بن حرب، قال: حدّثنا الأسوَد بن شيبان، عن عبدالله بن جَرير المازنيّ، قال: بعث إليَّ شقيق بن ثور فقال لي: إنه قد بلغني أنّ ابن منجوف هذا وابن مسمع يُدلجان بالليل إلى دار مسعود ليردّا ابن زياد إلى الدار ليصلوا بين هذَيْن الغاريْن، فيهرقوا دماءكم، ويُعِزّوا أنفسهم، ولقد هممتُ أن أبعثَ إلى ابن منجوف فأشدَّه وثاقاً، وأخرجَه عني؛ فاذهب إلى مسعود فاقرأ عليه السلام منّي، وقال له: إنّ ابن منجوف وابن مسمع يفعلان كذا وكذا، فأخرِجْ هذين الرجلين عنك. قال: وكان معه عُبيدالله وعبدالله ابنا زياد. قال: فدخلتُ على مسعود وابنا زياد عنده: أحدُهما عن يمينه والآخر عن شماله، فقلت: السلام عليك أبا قَيْس، قال: وعليك السلام؛ قلتُ: بعثني إليك شقيق بن ثور يقرأ عليك السلام ويقول لك: إنه بلغني، فردّ الكلام بعينه إليّ «فأخرجهما عنك»؛ قال مسعود: والله فعلت ذاك؛ فقال عبيدالله: كيف أبا ثور ـ ونَسي كُنْيَته، إنما كان يُكنَى أبا الفصل ـ فقال أخوه عبدالله: إنا والله لا نخرج عنكم، قد أجَرْتمونا، وعقدتم لنا ذِمَّتَكم، فلا نخرج حتى نُقتَلَ بين أظهُرِكم، فيكون عاراً عليكم إلى يوم القيامة.

قال وهب: حدّثنا الزبير بن الخِرِّيت، عن أبي لبيد، أنّ أهل البصرة اجتمعوا فقلدوا أمرَهم النعمان بن صُهْبان الراسبي ورجلاً من مضرَ ليختارا لهم رجلاً فَيُولّوه عليهم، وقالوا: مَن رضيتما لنا فقد رَضيناه. وقال غير أبي لبيد: الرجل المضري قيسُ بن الهَيثم السُّلَميّ. قال أبو لبيد: ورأيُ المضريّ في بني أمية، ورأيُ النعمان في بني هاشم، فقال النعمان: ما أرى أحداً أحقَّ بهذا الأمر من فلان ـ لرجل من بني أميَّة ـ قال: وذلك رأيُك؟ قال: نعم؛ قال: قد قلّدتُك أمري، ورضيتُ مَن رضيتَ. ثم خرجا إلى الناس، فقال

المضريّ : قد رضيتُ مَن رَضِيَ النعمان ، فمن سمّى لكم فأنا به راضٍ ؛ فقالوا للنعمان : ما تقول! فقال : ما أرى أحداً غيرَ عبدالله بن الحارث ـ وهو ببّة ـ فقال المضري : ما هذا الذي سمّيتَ لي؟ قال : بلى ، لَعمري إنه لهوَ ، فرضيَ الناس بعبدالله وبايعوه .

قال أصحابنا : دعت مُضرُ إلى العبّاس بن الأسود بن عوف الزهري ، ابن أخي عبدالرحمن بن عوف ، ودَعَتِ اليَمن إلى عبدالله بن الحارث بن نوفل ، فتراضى الناسُ أن حكّموا قيس بَن الهيثم والنعمان بن صُهْبان الراسبيّ لينظرا في أمر الرجلين ، فاتفق رأيُهما على أن يوليا المضري الهاشمي إلى أن يجتمع أمرُ الناس على إمام ؛ فقيل في ذلك :

نَــزَعْـنَــا وَوَلَّيْنــا وبَكْــرُ بـنُ وائــلٍ تَجُــرُّ خُصــاهَــا تَبتغِي من تحــالِفُ

فلما أمّروا ببّة على البصرة ولّى شرطتَه هِمْيان بن عديّ السَّدُوسيّ .

قال أبو جعفر : وأمّا أبو عُبيدة فإنّه ـ فيما حدّثني محمد بن علي ، عن أبي سعدان ، عنه ـ قصّ من خبر مسعود وعبيدالله بن زياد وأخيه غيرَ القصّةِ التي قصّها وهب بن جرير ، عمّن روى عنهم خبرَهم ، قال : حدّثني مسلمة بن محارب بن سلم بن زياد وغيره من آل زياد ، عمّن أدرك ذلك منهم ومِنْ مواليهم والقوم أعلم بحديثهم ، أنّ الحارث بن قيس لم يكلّم مسعوداً ، ولكنه آمن عبيدَالله ، فحمل معه مائةَ ألف درهم ، ثمّ أتى بها إلى أمّ بسطام امرأةِ مسعود ، وهي بنت عمّه ، ومعه عُبيدالله وعبدالله ابنا زياد ، فاستأذن عليها ، فأذِنت له ، فقال لها الحارث : قد أتيتُكِ بأمرٍ تَسُودِين به نساءَكِ وتتمّين به شرفَ قومك ، وتعجّلين غنًى ودنيا لكِ خاصّة ، هذه مائة ألف درهم فاقبضيها ، فهي لك ، وضُمّي عبيدالله . قالت ، إني أخاف ألّا يرضى مسعود بذلك ولا يقبله ؛ فقال الحارث : ألبسيه ثوباً من أثوابي ، وأدخليه بيتك ، وخلّي بيننا وبين مسعود؛ فقبضت المال ، وفعلت ، فلمّا جاءَ مسعود أخبرتْه ، فأخذ برأسها ، فخرج عبيدالله والحارث من حَجَلتها عليه ، فقال عبيدالله : قد أجارتْني ابنة عمّك عليك ، وهذا ثوبك عليَّ ، وطعامُك في بطني ، وقد التفّ عليَّ بيتُك ، وشهد له على ذلك الحارث ، وتلطّفا له حتى رضي .

قال أبو عبيدة : وأعطى عبيدالله الحارث نحواً من خمسين ألفاً ، فلم يزل عبيدالله في بيت مسعود حتى قُتِل مسعود ؛ قال أبو عبيدة : فحدّثني يزيد بن سُمَير الجَرْميّ ، عن سَوّار بن عبدالله بن سعيد الجرميّ ؛ قال : فلما هرب عبيدالله غبَر أهلُ البَصْرِة بغير أمير ، فاختلفوا فيمن يؤمّرون عليهم ، ثم تراضَوْا برجلين يختاران لهم خِيرَة ، فيرضون بها إذا اجتمعا عليها ، فتراضوا بقيس بن الهيثم السُّلَميّ ، وبنعمان بن سُفْيان الـراسبيّ ـ راسب بن جَرْم بن رَبَّان بن حُلْوان بنِ عمران بن الحافِ بن قُضاعة ـ أن يختارا مَن يرضيـان لهم ، فذَكَـرا عبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب ـ وأمه هند بنت أبي سُفْيان بن حرب بن أميّة ـ وكان يلقب بَبّة ، وهو جدّ سليمان بن عبدالله بن الحارث ، وذكرا عبدالله بن الأسود الزّهريّ . فلما أطبقا عليهما اتّعدا المِرْبَد ، وواعدا الناسَ أن تجتمع آراؤهم على أحد هذَيْن .

قال : فحضر الناسُ ، وحضرتُ معهم قارعةَ المِربـد ؛ أي أعلاه ، فجـاء قيس بن الهيثم ، ثمّ جاء النعمان بعد ، فتجاوَلَ قيس والنعمان ، فأرى النعمان قيساً أنّ هواه في ابن الأسود ، ثمّ قال : إنّا لا نستطيع أن نتكلم معاً ، وأراده أن يجعل الكلام إليه ، ففعل قيس وقد اعتقد أحدهما على الآخر ، فأخذ النعمان على الناس

عهداً لَيرضَوُنَّ بما يختار. قال: ثمّ أتى النعمانُ عبدَالله بن الأسود فأخذ بيده، وجعل يشترط عليه شرائطَ حتى ظنّ الناس أنه مبايعه، ثمّ تركه، وأخذ بيد عبدالله بن الحارث، فاشترط عليه مِثلَ ذلك، ثمّ حمِد الله تعالى وأثنى عليه، وذكر النبي ﷺ وحقّ أهل بيته وقرابته، ثم قال: يأيّها الناس، ما تَنقِمون من رجل من بني عمّ نبيّكم ﷺ، وأمّه هند بنت أبي سُفْيان! فإن كان فيهم فهو ابن أختكم؛ ثم صفق على يده وقال: ألا إني قد رضيتُ لكم به، فنادَوْا: قد رَضِينا؛ فأقبَلوا بعبدالله بن الحارث إلى دار الإمارة حتى نزلها، وذلك في أوّل جُمادى الآخرة سنة أربع وستين، واستعمل على شُرطته هميان بن عديّ السدوسيّ، ونادى في الناس: أن احضروا البيعة، فحضروا فبايعوه، فقال الفرزدق حين بايعه:

وبـايعتُ أقـوامـاً وفَيت بـعهـدِهـم　　وَبَبَّـةُ قـد بـايعـتُـهُ غَيـرَ نـادِم

قال أبو عبيدة: فحدّثني زهير بن هُنَيد، عن عمرو بن عيسى، قال: كان منزل مالك بن مَسْمَع الجَحْدَريّ في الباطنة عند باب عبدالله الإصبهاني في خُطّ بني جَحدر، الذي عند مسجد الجامع، فكان مالك يحضر المسجد، فبينا هو قاعد فيه ـ وذلك بعد يسيرٍ من أمر ببّة ـ وافى الحلْقةَ رجلٌ من ولد عبدالله عامر بن كُرَيْز القرشي يريد ببّة، ومعه رسالة من عبدالله بن خازم، وبيعته بهَراة، فتنازعوا، فأغلظ القرشيُّ لمالك، فلطم رجلٌ من بكر بن وائل القرشيَّ، فتهايج مَنْ ثمَّ مِنْ مضر وربيعة، وكثرتهم ربيعة الذين في الحلقة، فنادى رجل: يالَ تميم! فسمعت الدّعوةَ عصبةٌ من ضَبّة ابن أدّ ـ كانوا عند القاضي ـ فأخذوا رماح حَرَس من المسجد وترَسَتَهم، ثم شدّوا على الرّبَعيّين فهزموهم، وبلغ ذلك شقيق بن ثور السدوسي ـ وهو يومئذ رئيس بكر بن وائل ـ فأقبل إلى المسجد فقال: لا تجدُنّ مضريًّا إلّا قتلتموه، فبلغ ذلك مالك بن مسمع، فأقبل متفضّلاً يُسكّن الناس، فكفّ بعضُهم عن بعض، فمكث الناس شهراً أو أقلّ، وكان رجل من بني يشكر يجالس رجلاً من بني ضبّة في المسجد، فتذاكرا لطمة البَكْريّ القرشيَّ، ففخر اليشكريّ. قال: ثمّ قال: ذهبت ظَلْفاً. فأحفظ الضّبيّ بذلك، فوجأ عنقَه، فوقَذه الناس في الجمعة، فحُمِل إلى أهله ميتاً ـ أعني اليشكري ـ فثارت بكر إلى رأسهم أشيمَ بن شقيق، فقالوا: سِرْ بنا؛ فقال: بل أبعث إليهم رسولاً، فإن سيّبوا لنا حقّنا وإلّا سرنا إليهم، فأبتْ ذلك بكر، فأتَوْا مالك بن مسمع ـ وقد كان قبل ذلك مملَّكا عليهم قبل أشيم، فغلب أشيمَ على الرّياسة حين شخص أشيم إلى يزيدَ بن معاوية؛ فكتب له إلى عبيدالله بن زياد أن ردّوا الرّياسة إلى أشيم، فأبت اللّهازم، وهم بنو قيس بن ثعلبة وحلفاؤهم عَنَزة وشَيْع اللات وحلفاؤها عِجْـل حتى توافَوْا هم وآل ذُهل بن شيبان وحلفاؤها يَشكُر، وذهل بن ثعلبة وحلفاؤها ضُبيْعة بن ربيعة بن نزار؛ أربع قبائـلُ وأربع قبائل، وكان هذا الحلف في أهل الوَبَر في الجاهلية، فكانت حنيفة بقيتْ من قبائل بكر لم تكن دخلتْ في الجاهلية في هذا الحلف، لأنهم أهـل مَدَر، فدخلوا في الإسلام مع أخيهم عجل، فصاروا لِهْزِمةً، ثم تراضَوْا بحكم عمران بن عِصام العَنَزيّ أحد بني هُمَيْم، وردّها إلى أشيَم، فلما كانت هذه الفتنة استخفّت بكـر مالك بن مسمع، فخفّ وجمع وأعدّ، فطلب إلى الأزد أن يجدّدوا الحِلْف الذي كان بينهم قبل ذلك في الجماعة على يزيد بن معاوية، فقال حارثة بن بدر في ذلك:

نَـزعْنـا وأَمّـرنـا وبكـرُ بـن وائـلٍ　　تجـر خُصـاهـا تبتغي من تحـالِفُ
ومـا بـاتَ بَكـريٌّ من الـدهـرِ ليلةً　　فَيُصْـبِـحَ إلاّ وهـو لِـلذُّلّ عـارِفُ

قال : فبلغ عبيدالله الخبر ـ وهو في رحْل مسعود ـ من تباعد ما بين بكر وتميم ، فقال لمسعود : إلقَ مالكاً فَجدّدِ الحِلف الأوّل ؛ فلقِيَه ، فترادّا ذلك ، وتأبَّى عليهما نفر من هؤلاء وأولئك ، فبعث عبيدالله أخاه عبدالله مع مسعود ، فأعطاه جزيلاً من المال ، حتى أنفق في ذلك أكثر من مائتي ألف درهم على أن يبايعوهما ، وقال عبيدالله لأخيه : استوثق من القوم لأهل اليمن ، فجددوا الحِلْف ، وكتبوا بينهم كتاباً سوى الكتابين اللذَين كانا كُتِبا بينهما في الجماعة ، فوضعوا كتاباً عند مسعود بن عمرو .

قال أبو عبيدة : فحدّثني بعض ولد مسعود ، أنّ أوّل تسمية مَن فيه ، الصّلت بن حُريْث بن جابر الحنفيّ ، ووضعوا كتاباً عند الصّلت بن حريث أوّل تسميته ابن رجاء العَوْذيّ ، ـ من عَوْذ بن سُود ، وقد كان بينهم قبل هذا حِلف .

قال أبو عبيدة : وزعم محمد بن حفص ويونس بن حبيب وهبيرة بن حُدَير وزهير بن هنيد ، أنّ مضرَ كانت تَكثُر ربيعةَ بالبصرة ، وكانت جماعة الأزد آخرَ مَن نزل بالبَصرة ، كانوا حيث مُصِّرت البصرة ، فحول عمر بن الخطاب رحمه الله من تَنُوخَ من المسلمين إلى البَصرة ، وأقامت جماعة الأزد لم يتحوّلوا ، ثم لحقوا بالبَصرة بعد ذلك في آخر خلافة معاوية ، وأوّل خلافة يزيدَ بن معاوية ، فلمّا قدموا قالت بنو تميم للأحنف : بادِر إلى هؤلاء قبل أن تسبقَنا إليهم ربيعة ، وقال الأحنف : إن أتَوكم فاقبلوهم ، وإلاّ لا تأتوهم فإنكم إن أتيتموهم صرتم لهم أتباعاً . فأتاهم مالكُ بنُ مِسمَع ورئيس الأزْد يومئذ مسعود بن عمرو المعنيّ ، فقال مالك : جدّدوا حِلفَنا وحلف كندة في الجاهليّة ، وحلْف بني ذُهْل بن ثعلبة في طيّىء بن أَدَد من ثُعَل ؛ فقال الأحنف : أما إذا أتوهم فلن يزالوا لهم أتباعاً أذناباً .

قال أبو عبيدة : فحدّثني هبيرة بن حُدَير ، عن إسحاق بن سويد ، قال : فلما أن جرت بكر إلى نصر الأزد على مضرَ ، وجدّدوا الحِلف الأوَّل ، وأرادوا أن يسيروا ، قالت الأزد : لا نسير معكم إلاَّ أن يكون الرئيس منّا ، فرأسوا مسعوداً عليهم .

قال أبو عبيدة : فحدثني مسلمة بن محارب ، قال : قال مسعود لعبيدالله : سرْ معنا حتى نعيدَك في الدار ؛ فقال : ما أقدر على ذلك ، إمضِ أنتَ ، وأمر برواحله فشدّوا عليها أدواتها وسوادها ، وتزمّل في أهبة السفر ، وألقوا له كرسيًّا على باب مسعود ، فقعد عليه ؛ وسار مسعود ، وبعث عبيدالله غلماناً له على الخيل مع مسعود ، وقال لهم : إني لا أدري ما يَحْدُث فأقول : إذا كان كذا ؛ فليأتني بعضُكم بالخبر ، ولكن لا يحدثَنّ خير ولا شرّ إلاَّ أتاني بعضكم به ، فجعل مسعود لا يأتي على سكّة ، ولا يتجاوز قبيلةً إلاَّ أتى بعض أولئك الغلمان بخبر ذلك ، وقدم مسعود ربيعةَ ، وعليهم مالك بن مسمع ، فأخذوا جميعاً سكّة المربد ، فجاء مسعود حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، وعبدالله بن الحارث في دار الإمارة ، فقيل له : إنّ مسعوداً وأهل اليمن وربيعة قد ساروا ، وسيُهيج بين الناس شرّ ، فلو أصلحتَ بينهم أو ركبت في بني تميم عليهم! فقال : أبعدهم الله! لا والله لا أفسدت نفسي في إصلاحهم ، وجعل رجل من أصحاب مسعود يقول :

لأُنْـكِحَـنَّ بَـبَّـهْ جارِيَةً في قبَّـهْ
تَمْشُطُ رأسَ لَعْبَهْ

فهذا قول الأزْد وربيعة ، فأما مضرُ فيقولون : إنَّ أمه هند بنت أبي سُفْيان كانت ترقّصه وتقول هذا ؛ فلما

لم يحلْ أحد بين مسعود وبين صعود المِنبر ، خرج مالك بن مسمع في كتيبته حتى علا الجبَّان من سكة المِرْبد ، ثم جعل يمرّ بعِداد دورِ بني تميم حتى دخل سكة بني العدويَّة من قِبل الجبَّان ، فجعل يحرّق دورَهم للشَّحناء التي في صدورهم ، لقتل الضبيّ اليشكريّ ، ولاستعراض ابن خازم ربيعة بهَراة ؛ قال فبينا هو في ذلك إذ أتَوْه فقالوا : قتلوا مسعوداً ، وقالوا : سارت بنو تميم إلى مسعود ، فأقبل حتى إذا كان عند مسجد بني قيس في سكّة المِربد ، وبلغه قتلُ مسعود ، وقف .

قال أبو عبيدة : فحدّثني زهير بن هُنيد ، قال : حدّثنا الضحاك ـ أو الوضّاح بن خيثمة أحد بني عبدالله بن دارِم ـ قال : حدّثني مالك بن دينار ، قال : ذهبت في الشباب الذين ذهبوا إلى الأحنف ينظرون ؛ قال : فأتيته وأتتْه بنو تميم ، فقالوا : إنّ مسعوداً قد دخل الدار وأنت سيّدنا ، فقال : لستُ بسيّدكم ، إنما سيّدكم الشيطان .

وأما هبيرة بن حدير ، فحدّثني عن إسحاق بن سويد العدويّ ، قال : أتيت منزل الأحنف في النظّارة ، فأتوا الأحنف فقالوا : يا أبا بحر ، إنّ ربيعة والأزد قد دخلوا الرَّحَبة ، فقال : لستم بأحقَّ بالمسجد منهم ؛ ثم أتوه فقالوا : قد دخلوا الدار ؛ فقال : لستم بأحقَّ بالدار منهم ؛ فتسرّع سلمة بن ذؤيب الرّياحيّ ، فقال : إليَّ يا معشر الفتيان ، فإنما هذا جِبْسٌ لا خير لكم عنده ، فبدرت ذؤبان بني تميم فانتدب معه خمسمائة ، وهم مع ماه أفريذون ، فقال لهم سلمة : أين تريدون؟ قالوا : إيّاكم أردنا ؛ قال : فتقدّموا .

قال أبو عبيدة : فحدّثني زهير بن هنيد ، عن أبي نعامة ، عن ناشب بن الحسحاس وحميد بن هلال ، قالا : أتينا منزلَ الأحنف بحضرة المسجد ، قالا : فكنّا فيمن ينظر ، فأتته امرأة بمِجْمَر فقالت : ما لَكَ وللرياسة ! تجمَّرْ فإنما أنت امرأة ؛ فقال : است المرأة أحقُّ بالمِجْمر ، فأتَوْه فقالوا : إنّ عُلَيّة بنت ناجية الرياحيّ ـ وهي أخت مَطَر ، وقال آخرون : عزّة بنت الحرّ الرياحيةِ ـ قد سُلِبتْ خَلاخيلها من ساقَيْها ، وكان منزلُها شارعاً في رحبة بني تميم على المِيضأة ، وقالوا : قَتلوا الصّباغ الذي على طريقك ، وقتلوا المُقعَد الذي كان على باب المسجد ، وقالوا : إنّ مالك بن مسمع قد دخل سكّة بني العدويّة من قِبل الجبّان ، فحرّق دوراً ، فقال الأحنف : أقيموا البيّنة على هذا ، ففي دون هذا ما يُحِلّ قتالَهم ؛ فشهدوا عندَه على ذلك ، فقال الأحنف : أجاء عبّاد؟ وهو عبّاد بن حصين بن يزيدَ بن عمرو بن أوس بن سيف بن عزم بن حِلِّزة بن بيَان بن سعد بن الحارث الحبطة بن عمرو بن تميم ؛ قالوا : لا ، ثمّ مكث غيرَ طويل ، فقال : أجاء عبّاد ؟ قالوا : لا ؛ قال : فهل ها هنا عَبْس بن طلْق بن ربيعة بن عامر بن بسْطام بن الحَكَم بن ظالم بن صَرِيم بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد؟ فقالوا : نعم ؛ فدعاه ، فانتزع مِعجَراً في رأسه ، ثم جَثَا على ركبتيه ، فعقده في رُمح ثم دفعه إليه ، فقال : سر . قالا : فلما ولّى قال : اللهمّ لا تُخزِها اليوم ، فإنك لم تخزها فيما مضى . وصاح الناس : هاجت زبراء ـ وزبراء أمَة الأحنف ، وإنما كنوا بها عنه ـ قالا : فلما سار عَبْس جاء عبّاد في ستين فارساً فسأل ، ما صنع الناس؟ فقالوا : ساروا ؛ قال : ومَنْ عليهم ؟ قالوا : عبس بن طلق الصّريميّ ؛ فقال عبّاد : أنا أسير تحت لواء عبس! فرجع والفرسان إلى أهله .

فحدّثني زهير : قال : حدّثنا أبو ريحانة العُرَيْنيّ ، قال : كنتُ يومَ قتل مسعود تحت بطن فرس الزرد بن عبدالله السعديّ أعْدُو حتى بلغنا شريعة القديم .

قال إسحاق بن سويد فأقبلوا : فلما بلغوا أفواهَ السِّكَك وقفوا ، فقال لهم ماه أفريذون بالفارسيّة : ما لكم يا معشر الفِتْيان؟ قالوا : تلقّونا بأسنّة الرّماح ؛ فقال لهم بالفارسية : صكوهم بالفنجقان ـ أي بخمس نُشّابات في رَمْيَة ، بالفارسيّة ـ والأساورة أربعمائة ، فصكّوهم بألفي نشّابة في دفعة ، فأجلوا عن أبواب السكَك ، وقاموا على باب المسجد ، وَدَلَفَت التميمية إليهم ، فلما بلغوا الأبواب وقفوا ، فسألهم ماه أفريذون : ما لَكم؟ قالوا. أسندوا إلينا أطرافَ رماحِهم ؛ قال : ارموهم أيضاً ؛ فرَمَوْهم بألفيْ نشّابة ، فأجلوهم عن الأبواب ، فدخلوا المسجدَ ، فأقبلوا ومسعود يخطب على المنبر ويحضّض ، فجعل غَطَفان بن أنيف بن يزيد بن فهدة ، أحد بني كعب بن عمرو بن تميم ، وكان يزيد بن فهدة فارساً في الجاهلية يقاتل ويحضّ قومَه ويرتجز :

يــال تــمــيــمٍ إنَّــهــا مــذكــورهْ ... إنْ فــات مــسعــودٌ بــهــا مَـشْـهُــورَهْ
فاستمسِكوا بجانِبِ المقْصورَهْ

قال إسحاق بن يزيد : فأتَوْا مسعوداً وهو على المِنبَر يحضّ ، فاستنزلوه فقتلوه ، وذلك في أوّل شوّال سنة أربع وستين ، فلم يكن القوم شيئاً ، فانهزموا . وبادر أشْيَمُ بن شَقِيق القوم بباب المقصورة هارباً ، فطعنه أحدُهم ، فنجا بها ، ففي ذلك يقول الفرزدق :

لــو أنَّ أَشْـيَمَ لـم يَـسْـبِـقْ أَسِـنَّـتَـنـا ... وأخـطأَ الـبـابَ إذْ نِيـرانُـنـا تَقِـدُ
إذاً لصـاحَبَ مسْعـوْداً وصـاحِـبـه ... وقد تهافَتَتِ الأعفاجُ والكَبِدُ

قال أبو عبيدة : فحدّثني سلاّم بن أبي خَيْرة ، وسمعتُه أيضاً من أبي الخَنْساء كُسَيْب العنبريّ يحدّث في حَلْقة يونسَ ، قالا : سمعنا الحسنَ بن أبي الحسن يقول في مجلسه في مسجد الأمير : فأقبل مسعود من ها هنا ـ وأشار بيده إلى منازل الأزْد في أمثال الطير ـ مُعْلِماً بقباء دِيباج أصفر مغيّر بسواد ، يأمر الناسَ بالسنّة ، وينهى عن الفتنة : ألا إنّ من السّنة أن تأخذ فوق يديك ، وهم يقولون : القَمر القمَرَ ، فوالله ما لبثوا إلاّ ساعةً حتى صار قمرهم قُميْراً ، فأتوه فاستنزلوه عن المِنبر وهو عليه ـ قد علم الله ـ فقتلوه .

قال سلاّم في حديثه : قال الحسن : وجاء الناس من هاهنا ـ وأشار بيده إلى دُور بني تميم .

قال أبو عُبيدة : فحدّثني مَسْلَمة بن محارب ، قال فأتَوا عُبيدَالله فقالوا : قد صعد مسعود المنبر ، ولم يُرمَ دون الدار بكُتّاب ، فبيناه في ذلك يتهيَّأ ليجيء إلى الدار ، إذ جاؤوا فقالوا : قد قتل مسعود ، فاغترز في ركابه فلحق بالشام ، وذلك في شوّال سنة أربع وستين .

قال أبو عبيدة : فحدثني رَوَّاد الكعبيّ ، قال : فأتى مالكَ بنَ مسمع أناسٌ من مضرَ ، فحصروه في داره ، وحرّقوا ، ففي ذلك يقول غَطَفان بن أنيف الكعبي في أرجوزة :

وَأَصْبَـح ابـنُ مِـسْـمَـع مَحْـصـورَا ... يَـبْـغِـي قُـصـوراً دونَـهُ وَدُورَا
حَتَّـى شَبَبْنا حَوْلَـهُ السَّعِيـرَا

ولما هرب عُبيد الله بن زياد اتّبعوه ، فأعجز الطلبة ، فانتهبوا ما وجدوا له ، ففي ذلك يقول وافد بنُ خليفة بن أسماء ، أحد بني صخر بن مِنقَر بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد :

يــا رُبَّ جَـبَّــار شَـدِيـد كَـلَبُـهْ ... قـد صَـارَ فيـنـا تـاجُـهُ وسَـلَبـهْ

مِنْهُم عُبَيْدُ اللّهِ حينَ نَسْلُبُهْ جيادَهُ وبزَّه ونَنْهَبُهْ
يوْم التَقَى مِقْنَبُنا ومِقْنَبُهْ لَوْ لَمْ يُنَج ابنَ زِيادٍ هَرَبُهْ

وقال جرهم بن عبدالله بن قيس ، أحد بني العدويّة في قتل مسعود في كلمة طويلة :

ومسْعودَ بن عَمْرو إذْ أتانا صَبَحْنَا حَدَّ مَطْرُور سَنِينَا
رجا التَّأْمِيرَ مسعودٌ فأصحى صَريعاً قد أزَرْناهُ المَنونَا

قال أبو جعفر محمد بن جرير : وأمّا عُمر ؛ فإنه حدّثني في أمر خروج عبيدالله إلى الشام ، قال حدّثني زهير ، قال: حدّثنا وهب بن جرير بن حازم ،قال :حدّثنا الزبير بن الخِرّيت ، قال : بعث مسعود مع ابن زياد مائةً من الأزْد ، عليهم قرّة بن عمرو بن قيس ، حتى قدموا به الشام .

وحدّثني عمر ، قال : حدّثنا أبو عاصم النبيل ، عن عمرو بن الزبير وخلّاد بن يزيد الباهلي والوليد بن هشام، عن عمّه، عن أبيه، عن عمرو بن هُبيرة، عن يَسَاف بن شُرَيح اليشكري ، قال ؛ وحدّثنيه علي بن محمد، قال ـ قد اختلفوا فزاد بعضُهم على بعض ـ إنّ ابن زياد خرج من البَصْرة، فقال ذات ليلة: إنه قد ثَقُل عليَّ ركوبُ الإبل ، فوطِّئوا لي على ذي حافر؛ قال: فألقِيتْ له قطيفةٌ على حمار، فركبه وإنّ رجليه لتكادان تخُدّان في الأرض . قال اليشكريُّ : فإنه ليَسير أمامي إذ سكتَ سكْتَةً فأطالها ، فقلت في نفسي : هذا عُبيدالله أميرُ العراق أمس نائمُ الساعةَ على حمار ، لو قد سقط منه أعْنَتَه ؛ ثمّ قلت: والله لئن كان نائماً لأنغّصنّ عليه نومَه فدنوتُ منه ، فقلت : أنائم أنت؟ قال: لا ؛ قلت: فما أسكتك؟، قال: كنتُ أحدّث نفسي ؛ قلتُ: أفلا أحدّثك ما كنت تحدّث به نفسَك؟ قال: هاتِ، فوالله ما أراكَ تكيس ولا تصيب، قال: قلتُ: كنت تقول : ليتني لم أقتل الحسين ، قال : وماذا ؟ قلتُ : تقول ليتني لم أكن قتلتُ من قتلت ؛ قال : وماذا ؟ قلتُ : كنتَ تقول : ليتني لم أكن بَنيتُ البَيضاء ؛ قال : وماذا ؟ قلت : تقول : ليتني لم أكن استعملت الدّهاقين ، قال : وماذا ؟ قلتُ : تقول : ليتني كنت أسخي مما كنتُ ؛ قال : فقال : والله ما نطقتَ بصواب ، ولا سكتَّ عن خطإٍ ، أما الحسين فإنه سار إليَّ يريد قتلي ، فاخترت قتلَه على أن يقتلني ؛ وأما البيضاء فإني اشتريتُها من عبدالله بن عثمان الثَقفيّ ، وأرسل يزيد بألف ألف فأنفقتها عليها ، فإن بقيتُ فلأهلي ، وإن هلكتُ لم آسَ عليها مما لم أعنّف فيه ؛ وأما استعمال الدّهاقين فإنّ عبد الرحمن بن أبي بَكرة وزاذان فرُّوخ وقَعا فيَّ عند معاوية حتى ذكرا قشورَ الأرز ، فبَلّغا بخراج العراق مائة ألف ألف ، فخيَّرني معاوية بن الضمّان والعزْل ؛ فكرهتُ العزل ، فكنت إذا استعملت الرجل من العرب فكسر الخراج ، فتقدّمت إليه أو أغرمت صدور قومه ، أو أغرمت عشيرته أضررت بهم ، وإن تركتُه تركتُ مال الله وأنا أعرف مكانَه ، فوجدُت الدّهاقين أبصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة ،وأهوَن في المطالبة منكم ، مع أني قد جعلتك أمناءَ عليهم لئلا يظلموا أحداً . وأما قولك في السخاء ، فوالله ما كان لي مال فأجودَ به عليكم ، ولو شئتُ لأخذتُ بعضَ مالكم فخصَصتُ به بعضَكم دون بعض ، فيقولون : ما أسخاه ! ولكني عممتكم ، وكان عندي أنفع لكم . وأما قولك : ليتني لم أكن قتلتُ من قتلتُ ؛ فما عملت بعد كلمة الإخلاص عملاًهو أقربُ إلى الله عندي من قتلي من قتلتُ من الخوارج ، ولكني سأخبرك بما حدّثت به نفسي ؛ قلت : ليتني كنتُ قاتلت أهلَ البَصرة ، فإنهم بايعوني طائعين غيرَمكرهين ، وآيمُ الله لقد حَرصتُ

على ذلك ؛ ولكن بني زياد أتَوْني فقالوا : إنك إذا قاتلتهم فَظَهروا عليك لم يبقوا منا أحداً ، وإن تركتهم تغيَّب الرجل منّا عند أخواله وأصخاره ، فرفقت لهم فلم أقاتل : وكنتُ أقول : ليتني كنت اخرجتُ أهلَ السجن فضربتُ أعناقَهُم ، فأما إذا فاتت هاتان فليتني كنت أقدم الشام ولم يُبرموا أمراً .

قال بعضهم : فقدم الشام ولم يُبرموا أمراً ، فكأنما كانوا معه صبياناً ؛ وقال بعضهم : قدم الشام وقد أبرموا ، فنقض ما أبرموا إلى رأيه .

وفي هذه السنة طرد أهلُ الكوفة عَمرَو بن حُرَيث وعَزَلوه عنهم ، واجتمعوا على عامر بن مسعود .

ذكر الخبر عن عزلهم عمرو بن حُريث وتأميرهم عامراً

قال أبو جعفر : ذكر الهيثم بن عدي ، قال : حدّثنا ابن عيّاش ، قال : كان أوّل من جُمع له المِصران : الكوفة والبَصرة زياداً وابنه ، فقتلا من الخوارج ثلاثة عشر ألفاً ، وحبس عبيدالله منهم أربعة آلاف ، فلما هلك يزيد قام خطيباً ، فقال : إنّ الذي كنا نقاتل عن طاعته قد مات ، فإن أمّرتموني جبَيْت فَيْئَكم ، وقاتلتُ عدوّكم . وبعث بذلك إلى أهل الكوفة مُقاتِل بن مِسمَع وسعيد بن قرحا ، أحد بني مازن ، وخليفته على الكوفة عَمرو بن حُرَيث ، فقاما بِذلك ، فقام يزيد بن الحارث بن رُوَيم الشيبانيّ فقال : الحمد لله الذي أراحنا من ابن سُمَيَّة ، لا ولا كرامة! فأمر به عمرو فلبِّب ومُضِيَ به إلى السجن ، فحالت بكْر بينهم وبينه ، فانطلق يزيد إلى أهله خائفاً ، فأرسل إليه محمد بن الأشعث : إنّك على رأيك ، وتتابعت عليه الرُّسُل بذلك ، وصعد عَمرو المنبر فحَصبُوه ، فدخل دارَه ، واجتمع الناسُ في المسجد فقالوا : نؤمِّر رجلاً إلى أن يجتمعَ الناسُ على خليفة ، فأجمَعوا على عمر بن سعد ، فجاءت نساء هَمْدان يبكين حُسيْناً ، ورجالُهم متقلدوا السيوف ، فأطافوا بالمِنبر ، فقال محمد بن الأشعث : جاء أمرٌ غيرَ ما كنا فيه ، وكانت كِنْدة تقوم بأمرِ عُمر بن سَعْد لأنهم أخوالُه ، فاجتمعوا على عامر بن مسعود ، وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير ، فأقرّه .

وأما عوَانة بن الحَكَم ؛ فإنه قال فيما ذكر هشام بن محمد عنه : لما بايع أهلُ البَصرة عُبيدالله بن زياد بعث وافدين من قِبله إلى الكوفة : عَمرو بن مِسمَع ، وسعد بن القرحا التميمي ، ليعلم أهل الكوفة ما صنع أهل البصرة ، ويسألانهم البيعةَ لعُبيد الله بن زياد ، حتى يصطلح الناس ، فجمع الناسَ عَمرو بن حريث ، فحَمِد الله وأثنَى عليه ثمّ قال : إنّ هذين الرجلين قد أتيَاكم من قِبَل أميركم يدعُوانكم إلى أمر يَجمَع الله به كلمَتكم ، ويُصلِح به ذاتَ بينكم ، فاسمعوا منهما ، واقبلوا عنهما ، فإنهما برشُدٍ ما أَتيَاكم .

فقام عمرو بن مسمع ، فحَمِدَ الله وأثنَى عليه ، وذَكَر أهل البصرة واجتماعَ رأيهم على تأمير عُبيدالله بن زياد حتى يرى الناسُ رأيهم فيمن يولّون عليهم ؛ وقد جئناكم لنجمع أمرنا وأمرَكم فيكونَ أميرُنا وأميركم واحداً ، فإنما الكوفة من البَصْرة والبَصْرة من الكوفة ، وقام ابن القرحا فتكلم نحواً من كلام صاحبه . قال : فقام يزيد بن الحارث بن يزيد الشيباني ـ وهو ابن اويم ـ فحَصَبهما أوّل الناس ، ثمّ حصبهما الناسُ بعد ، ثم قال : أنحن نبايع لابن مَرْجانة! لا ولا كرامة ؛ فشرفت تلك الفَعلة يزيدَ في المِصْر ورفعتْه ، ورجع الوفد إلى البصرة فأعلم الناس الخبر فقالوا : أهلُ الكوفة يخلعونه ، وأنتم تولّونه وتبايعونه! فوثب به الناس ، وقال : ما كان في ابن زياد وصمةٌ إلّا استجارتَه بالأزد .

قال : فلمّا نابذَه الناسُ استجار بمسعود بن عمرو الأزديّ ، فأجاره ومنعه ، فمكث تسعين يوماً بعد موت

يزيدَ ، ثمّ خرج إلى الشام ، وبعثت الأزد وبكر بن وائل رجالاً منهم معه حتى أوردوه الشام ، فاستخلف حين توجّه إلى الشام مسعود بن عمرو على البَصْرة ، فقالت بنو تميم وقيس : لا نرضىَ ولا نجيز ولا نولّي إلّا رجلاً ترضاه جماعتُنا ، فقال مسعود: فقد استخلفني فلا أدَعُ ذلك أبداً ؛ فخرج في قومه حتى انتهى إلى القصر فدخله ، واجتمعتْ تميم إلى الأحنف بن قيس فقالوا له : إنّ الأزد قد دخلوا المسجد ؛ قال ودخل المسجد فمَهْ! إنما هو لكم ولهم، وأنتم تدخلونه ؛ قالوا : فإنه قد دخل القصر ، فصَعِد المنبرَ . وكانت خوارجُ قد خرجوا ، فنزلوا بنهر الأساورة حين خرج عُبيدالله بن زياد إلى الشام ، فزعم الناس أنّ الأحنف بعث إليهم أنّ هذا الرجل الذي قد دخل القصر لنا ولكم عدوّ ، فما يَمنَعكم من أن تبدؤوابه! فجاءت عصابةٌ منهم حتى دخلوا المسجد ، ومسعود بن عمرو على المنبر يبايع مَن أتاه ، فيرميه عِلْج يقال له : مُسلم من أهل فارسَ ، دخل البصرة فأسلم ثمّ دخل في الخوارج ، فأصاب قلبَه فقتله وخرج ، وجَال الناسُ بعضُهم في بعض فقالوا : قُتِل مسعود بن عمرو ، قتلته الخوارج ، فخرجَت الأزْد إلى تلك الخوارج فقتلوا منهم وَجَرّحوا ، وطردوهم عن البَصرة ، ودفنوا مسعوداً، فجاءهم الناس فقالوا لهم : تعلمون أنّ بني تميم يزعمون أنهم قتلوا مسعود بن عمرو ، فبعثت الأزدُ تسأل عن ذلك ؛ فإذا أناسٌ منهم يقولونه ، فاجتمعت الأزد عند ذلك فرأّسوا عليهم زيادَ بنَ عمرو العتكيّ ، ثم ازدَلفوا إلى بني تميم وخرجتْ مع بني تميم قيس ، وخرج مع الأزد مالكُ بن مسمع وبكر بن وائل فأقبلوا نحو بني تميم . وأقبلتْ تميم إلى الأحنف يقولون : قد جاء القوم ، اخرجْ . وهو متمكّث ، إذ جاءته امرأةٌ من قومه بمجمر فقالت : يا أحنف اجلس على هذا ،أي إنما أنت امرأة ؛ فقال : اسْتك أحقّ بها، فما سُمِع منه بعد كلمةٌ كانت أرفثَ منها ، وكان يُعرَف بالحلم . ثمّ إنه دعا برايته فقال: اللهمّ انصُرْها ولا تسللها ، وإنّ نُصرتها ألا يُظهَر بها ولا يُظهَر عليها ؛ اللهمّ احقنْ دماءَنا ، وأصلح ذتَ بيننا . ثم سار وسار ابن أخيه إياس بن معاوية بين يديه ، فالتقى القوم فاقتتلوا أشدَّ القتال ، فقُتل من الفريقين قَتلىٰ كثيرة ، فقالت لهم بنو تميم : الله الله يا معشر الأزد في دمائنا ودمائكم! بيننا وبينكم القرآن ومَنْ شئتم من أهلِ الإسلام ـ فإن كانت لكم علينا بيّنةٌ أنّا قتلنا صاحبَكم ، فاختاروا أفضلَ رجل فينا فاقتلوه بصاحبكم ، وإن لم تكن لكم بيّنة فإنا نحلف بالله ما قتلنا ولا أمرنا ، ولا نعلم لصاحبكم قاتلاً، وإن لم تريدوا ذلك فنحن نَدِي صاحبَكم بمائة ألف درهم . فاصطلحوا ، فأتاهم الأحنفبن قيس في وجوه مضرَ إلى زياد بن عمرو العَتَكيّ ، فقال :يا معشر الأزد ، أنتم جيرتُنا في الدار، وإخوتُنا عند القتال ، وقد أتيناكم في رحالكم لإطفاء حشيشتكم ، وسلِّ سخيمتكم، ولكم الحكمُ مرسلاً ، فقولواعلى أحلامنا وأموالنا ، فإنه لا يتعاظمُنا ذهاب شيء من أموالنا كان فيه صلاح بيننا ، فقالوا : أتدُون صاحبَنا عشرَ ديات؟ قال: هي لكم؛ فانصرف الناس واصطلحوا؛ فقال الهيثم بن الأسود :

أَعْلَى بمسعودٍ النّاعِي فقلتُ له ... نِعْمَ اليماني تجرُّؤا على الناعي
أَوْفَى ثمانين ما يستطِيعُهُ أحدٌ ... فتًى دعاهُ لرأس العدَّةِ الداعِي
آوَى ابن حرب وقد سُدّتْ مذاهبُه ... فأوسعَ السِّرْبَ منه أيَّ إيساع
حَتّىٰ توارت به أَرضٌ وعامِرها ... وكانَ ذَا ناصرٍ فيها وأشياعِ

وقال عُبيد الله بن الحُرّ :

ما زِلتُ أرجو لأزدَ حتّى رأيتُها ... تقصّرُ عن بنْيانِها المتطاوِلِ

أَيُقتَلُ مسعودٌ ولَمْ يثأروا به ... وصارَتْ سيوفُ الأزدِ مِثلَ المناجِلِ
ومَا خيرُ عقلٍ أوْرَثَ الأَزْدَذِلَّةً ... تَسَبُّ به أحياؤهم في المحافِلِ
عَلى أنَّهمْ شُمْطٌ كأنَّ لِحاهُمُ ... ثعالِبُ في أعناقِها كالجَلاجِلِ

واجتمع أهلُ البصرة على أن يجعلوا عليهم منهم أميراً يصلي بهم حتى يجتمع الناس على إمام ، فجعلوا عبد الملك بن عبدالله بن عامر شهراً، ثم جعلوا ببَّة ـ وهو عبدالله بن الحارث بن عبدالمطلب ـ فصلى بهم شهرَين ، ثمّ قدم عليهم عمر بن عبيدالله بن مَعْمَر من قبَلِ ابن الزبير ، فمكث شهراً ، ثمّ قدم الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي بعزله ، فوليها الحارث وهو القُباع .

قال أبو جعفر : وأما عمر بن شبَّة ؛ فإنه حدّثني في أمر عبدالملك بن عبدالله بن عامر بن كُرَيز وأمر ببَّة ومسعود وقتله ، وأمر عمر بن عبيدالله غيرَ ما قال هشام عن عوانة .والذي حدّثني عمر بن شبّة في ذلك أنه قال: حدّثني علي بن محمد ، عن أبي مُقرِّن عبيدالله الدّهني ، قال : لما بايع الناسُ ببَّة ولَّىٰ ببّة شُرطتَه همْيَان بن عديّ ، وقدم على ببَّة بعضُ أهل المدينة ، وأمر هميان بن عديّ بإنزاله قريباً منه ، فأتى هميان داراً للفيل مولى زياد التي في بني سُليم وهمّ بتفريغها لِيُنزلَها إيَّاه ، وقد كان هرب وأقفل أبوابَه ، فمنعت بنو سُليم هميان حتى قاتلوه ، واستصرخوا عبدَالملك بن عبدالله بن عامر بن كُرَيز ، فأرسل بُخاريَّته ومواليه في السلاح حتى طردوا هميان ومنعوه الدار ، وغدا عبدالملك من الغد إلى دار الإمارة ليسلِّم على بَبَّة ، فلقيَه على الباب رجلٌ من بني قيس بن ثعلبة، فقال : أنت المعينّ علينا بالأمس ! فرفع يدَه فلطمه ، فضرب قوم من البخاريَّة يدَ القيسيّ فأطارها ؛ ويقال : بل سلِم القيسيّ ، وغضب ابن عامر فرجع ، وغضبتْ له مضر فاجتمعتْ وأتت بكر بن وائل أشيمَ بن شقيق بن ثور فاستصرخوه ، فأقبل ومعه مالك بن مسمع حتى صعد المنبر فقال : أيّ مضريّ وجدتموه فاسلبوه . وزعم بنو مسمع أنّ مالكاً جاء يومئذ متفضّلاً في غير سلاح ليردّ أشيم عن رأيه . ثمّ انصرفت بكر وقد تحاجزوا هم والمضريّة ، واغتنمتِ الأزد ذلك ، فحالفوا بكراً ، وأقبلوا مع مسعود إلى المسجد الجامع ، وفزعَتْ تميم إلى الأحنف ، فعقد عمامَتَه على قناة ، ودفَعها إلى سلمة بن ذُؤَيب مرّاحيّ ، فأقبل بين يديه الأساورة حتى دخل المسجد ومسعود يخطب، فاستنزَلوه فقتلوه، وزعمَت الأزْد أن الأزارقَة قتلوه، فكانت الفتْنة، وسفر بينهم عمر بن عبدالله بن معمر وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام حتى رَضِيت الأزدُ من مسعود بعشر ديَات، ولزم عبدالله بن الحارث بيته، وكان يتديّن، وقال: ما كنتُ لأصلح الناس بفساد نفسي.

قال عمر: قال أبو الحسن : فكتب أهلُ البصرة إلى ابن الزبير ، فكتب إلى أنس بن مالك يأمره بالصّلاة بالناس ، فصلىّٰ بهم أربعين يوماً .

حدّثني عمر، قال: حدّثنا علي بن محمد ، قال كتب ابن الزبير إلى عمر بن عبيدالله بن مَعْمَر التيمي بعهده على البَصرة، ووجّه به إليه ، فوافقه وهو متوجّه يريد العُمْرة ، فكتب إلى عُبيد الله يأمره أن يصليَ بالناس ، فصلى بهم حتى قدم عمر .

حدّثني عمر، قال: حدّثني زهير بن حرب، قال: حدّثنا وهب بن جرير ، قال: حدّثني أبي، قال: سمعتُ محمد بن الزبير، قال: كان الناس اصطلحوا على عبدالله بن الحارث الهاشمي ، فولى أمرهم أربعة أشهر، وخرج نافع بن الأزرق إلى الأهواز، فقال الناس لعبدالله : إن الناس قد أكل بعضُهم بعضاً؛

تؤخذ المرأة من الطريق فلا يَمنعُها أحد حتى تُفضَح ؛ قال: فتريدون ماذا؟ قالوا: تَضَع سيفَك، وتَشدُّ على الناس؛ قال: ما كنت لأصلحهم بفساد نفسي، يا غلام، ناولني نعلي، فانتعل ثمّ لحق بأهله ؛ وأمَّر الناسُ عليهم عُمَر بن عبيدالله بن مَعمَر التيمي ؛ قال أبي، عن الصَّعب بن زيد : إنّ الجارف وقع وعبدالله على البصرة، فماتت أمُّه في الجارف، فما وجدوا لها من يَحملها حتى استأجروا لها أربعة أعلاج فحملوها إلى حُفرتها، وهو الأمير يومئذ .

حدّثني عمر، قال: حدّثني علي بن محمد، قال :كان ببّةقد تناول في عمله على البَصرة أربعين ألفاً من بيت المال ، فاستودَعها رجلاً ، فلما قدم عمر بن عبيد الله أميراً أخذ عبدالله بن الحارث فحبسه ، وعذّب مولًى له في ذلك المال حتى أغرمه إياه .

حدّثني عمر قال:حدّثني عليُّ بن محمَّد، عن القافْلانيّ ، عن يزيد بن عبدالله بن الشِّخِّير ، قال:قلت لعبدالله بن الحارث بن نوفل: رأيتك زمان استعمِلت علينا أصبْتَ من المال، واتَّقيت الدم، فقال: إنّ تَبِعة المال أهوَن من تَبِعة الدم .

وفي هذه السنة ولّىٰ أهلُ الكوفة عامرَ بن مسعود أمرَهم ، فذكر هشام بن محمد الكلبي، عن عوانة بن الحكم ، أنهم لما ردّوا وافدَيْ أهل البصرة اجتمع اشراف أهل الكوفة ، فاصطلحوا على أن يصلّيَ بهم عامر بن مسعود - وهو عامر بن مسعود بن خلف القرشي ، وهو دحروجةُ الجُعَل الذي يقول فيه عبدالله بن هَمَّام السَّلولي :

اشْدُدْ يديْك بزيْد إن ظَفِرْتَ بهِ واشفِ الأَرامِلَ من دُحرُوجَةِ الجعلِ

وكان قصيراً - حتى يرى الناس رأيهم، فمكث ثلاثةَ أشهر من مَهلك يزيدَ بن معاوية، ثم قدم عليهم عبدُالله بن يزيدَ الأنصاري ثم الخَطْميّ على الصلاة، وإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيدالله على الخراج ، فاجتمع لابن الزبير أهلُ الكوفة وأهل البصرة ومَن بالقبلة من العرب وأهل الشام ، وأهل الجزيرة إلاَّ أهلَ الأردُنّ .

وفي هذه السنة بُويع لمروانَ بن الحكم بالخلافة بالشام .

ذكر السبب في البيعة له :

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: حدّثنا محمد بن عمرَ، قال: لما بويع عبدُالله بن الزبيرولّى المدينةَ عُبيدةَ بن الزبير، وعبدالرحمن بن جَحْدَم الفِهْريّ مصرَ، وأخرَج بني أميَّة ومروان بن الحكم إلى الشام - وعبدالملك يومئذ ابن ثمان وعشرين - فلما قدم حصين بن نمير ومَن معه إلى الشام أخبر مَرْوانَ بما خلَّف عليه ابن الزبير ، وأنه دعاه إلى البيعة ، فأبى فقال له ولبني أمية : نراكم في اختلاط شديد، فأقيموا أمرَكم قبل أن يدخل عليكم شأمَكم، فتكون فتنة عمياءَ صمَّاء ؛ فكان من رأيِ مروانَ أن يرحل فينطلق إلى ابن الزبير فيبايعه ، فقَدِم عبيدالله بن زياد واجتمعت عنده بنو أميّة، وكان قد بلغ عبيدالله ما يريد مروان، فقال له: استحييتُ لك مما تريد! أنت كبيرُ قريش وسيِّدها، تصنع ما تصنعه! فقال: ما فات شيءٌ بعدُ؛ فقام معه بنو أميَّة ومواليهم، وتجمّع إليه أهلُ اليمن، فسار وهو يقول: ما فات شيءٌ بعدُ؛ فقدم دمشقَ ومن معه، والضَّحاك بن قيس الفهريّ قد بايعه أهلُ دمشق على أن يصلّيَ بهم ؛ ويقيمَ لهم أمرهم حتى يجتمع أمرُ أمَّة محمد .

وأما عوانة فإنه قال ـ فيما ذكر هشام عنه ـ إن يزيد بن معاوية لما مات وابنه معاوية من بعده، وكان معاوية بن يزيدَ بن معاوية ـ فيما بلغني ـ أمَرَ بعد ولايته فنوديَ بالشام : الصلاة جامعة! فحَمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإني قد نظرت في أمركم فضعفتُ عنه، فابتغيت لكم رجلاً مثلَ عمرَ بن الخطّاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجدْه ، فابتغيت لكم ستّةً في الشورى مثل ستّة عمر، فلم أجدها، فأنتم أولى بأمركم ، فاختاروا له من أحببتم . ثم دخل منزلَه ولم يَخرج إلى الناس، وتغيَّب حتى مات. فقال بعض الناس: دُسّ إليه فسُقي سمًّا ، وقال بعضهم: طُعن .

رجع الحديث إلى حديث عوانة . ثمّ قدم عبيدالله بن زياد دمشق وعليها الضحاك بن قيس الفهري فثار زُفَر بن الحارث الكلابيّ بقِنّسرين يبايع لعبدالله بن الزبير ، وبايع النعمان بن بشير الأنصاري بحمصَ لابن الزبير ، وكان حسان بن مالك بن بَحْدَل الكلبيّ بفلَسْطين عاملاً لمعاوية بن أبي سُفْيان ، ثمّ ليزيد بن معاوية بعده ، وكانَ يهوَى هَوَى بني أميَّة ، وكان سيِّدَ أهل فلَسطين ، فدعا حسَّان بن مالك بن بحدل الكلبي رَوْحَ بن زنْباع الجُذاميّ ، فقال : إني مستخلفُك على فلسطين ، وأدخل هذا الحيّ من لَخْم وجُذام ، ولست بدون رجلٍ إذ كنت عينهم قاتلت بمن معك من قومك . وخرج حسَّان بن مالك إلى الأردُنّ واستخلف رَوْح بن زنْباع على فلسطين ، فثار ناتل بن قيس بروح بن زنباع فأخرجه ، فاستولى على فلَسطين ، وبايع لابن الزبير، وقد كان عبدالله بن الزبير كتب إلى عامله بالمدينة أن ينفيَ بني أميَّةَ من المدينة، فنُفُوا بعيالاتهم ونسائهم إلى الشام ، فقدِمتْ بنو أميّة دمشقَ وفيها مروان بن الحكم ، فكان الناس فريقين : حسّان بن مالك بالأردنّ يَهوَى هَوَى بني أمية، ويدعو إليهم ؛ والضحّاك بن قيس الفهري بدمشقَ يَهوَى هَوَى عبدالله بنِ الزبير، ويدعو إليه . قال : فقام حسان بن مالك بالأردن ، فقال: يا أهلَ الأردن ـ ما شهادتُكم على ابن الزبير وعلى قَتْلَى أهلِ الحرّة ؟ قالوا: نشهد أنّ ابن الزبير منافق وأنّ قَتلَى أهلِ الحرّة في النار؛ قال: فما شهادتُكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحرّة ؟ قالوا: نشهد أنّ يزيد على الحقّ ، وأنّ قتلانا في الجنة ؛ قال: وأنا أشهد لئن كان دينُ يزيدَ بن معاوية وهو حيّ حقًّا يومئذ إنه اليومَ وشيعتُه على حقّ ؛ وإن كان ابن الزبير يومئذ وشيعته على باطل إنه اليومَ على باطل وشيعته ؛ قالوا له : قد صدقتَ ، نحن نبايعك على أن نقاتل مَن خالفك من الناس ، وأطاعَ ابنَ الزبير، على أن تجنِّبنا هذين الغلامين ، فإنا نكره ذلك ـ يَعنُون ابنَي يزيد بن معاوية عبدالله وخالداً ـ فإنهما حديثةٌ أسنانهما ، ونحن نكره أن يأتِيَنا الناس بشيخ ونأتيهم بصبيّ . وقد كان الضحاك بن قيس بدمشقَ يَهوَى هَوَى ابن الزبير؛ وكان يمنعه من إظهار ذلك أنّ بني أميَّة كانوا بحضرته ، وكان يعمل في ذلك سرًّا، فبلغ ذلك حسان بن مالك بن بحدل ، فكتب إلى الضحاك كتاباً يعظّم فيه حقّ بني أمية ، ويذكر لطاعة والجماعة وحُسْنَ بلاءِ بني أميَّة عندَه وصنيعهم إليه ، ويدعوه إلى طاعتهم ، ويذكر ابن الزبير ويقع فيه ويشتمه ، ويذكر أنه منافق ، قد خلع خليفتَين ، وأمره أن يقرأ كتابه على الناس . ودعا رجلاً من كَلْب يُدعى ناغضة فسرَّح بالكتاب معه إلى الضحّاك بن قيس ، وكتب حسان بن مالك نسخةَ ذلك الكتاب ، ودَفعه إلى ناغضة ، وقال : إنْ قرأ الضحاك كتابي على الناس وإلّا فقم فاقرأ هذا الكتاب على الناس ؛ وكتب حسَّان إلى بني أمية يأمرهم أن يحضروا ذلك ، فقَدِم ناغضةُ بالكتاب على الضحّاك فدفعه إليه ودفع كتابَ بني أميَّة إليهم ، فلما كان يومَ الجمعة صعِد الضحَّاك المنبر فقام إليه ناغضة ، فقال : أصلح الله الأمير! ادعُ بكتاب حسَّان فاقرأه على الناس ، فقال له الضحاك : اجلس ، فجلس ؛ ثمّ قام إليه الثانية فقال له : اجلس؛ ثمّ قام إليه الثالثة فقال له : اجلس ؛

فلما رآه ناغضة لا يفعل أخرج الكتابَ الذي معه فقرأه على الناس، فقام الوليد بن عُتبة بن أبي سُفْيانَ فصدّق حسّاناً وكذّب ابنَ الزبير وشتمه ، وقام يزيد بن أبي النِّمس الغسّاني ، فصدّق مقالة حسّان وكتابَه ، وشتم ابن الزبير، وقامَ سُفْيان بن الأبرد الكلبيّ فصدّق مقالة حسان وكتابه ، وشتم ابن الزبير .

وقام عَمرو بن يزيد الحكميّ فشتم حسّان وأثنَى على ابن الزبير، واضطرب الناس تبعاً لهم ، ثمّ أمر الضحاك بالوليدَ بن عُتبة ويزيد بن أبي النِّمس وسُفْيان بن الأبرد الذين كانوا صدّقوا مقالةَ حسان وشتَموا ابن الزبير فحبُسوا ، وجال الناسُ بعضُهم في بعض ، ووثبت كَلْب على عَمرو بن يزيد الحَكَميّ فضربوه وحرّقوه بالنار ، وخرّقوا ثيابه .

وقام خالد بن يزيد بن معاوية فصعد مرْقاتين من المنبر وهو يومئذٍ غلام ، والضحَّاك بن قيس على المنبر ، فتكلم خالد بن يزيد بكلام أوْجَزَ فيه لم يُسمع مثلُه ، وسكَّن الناس ونزل الضحاك فصلّى بالناس الجمعة ، ثمّ دخل فجاءت كلب فأخرجوا سفيانَ بن الأبرد ، وجاءت غسّان فأخرجوا يزيد بن أبي النِّمس ، فقال الوليد بن عتبة : لو كنتُ من كلب أو غسان أخرجت .

قال : فجاء ابنا يزيد بن معاوية : خالد وعبدالله معهما أخوالُهما من كلب فأخرجوه من السِّجن ، فكان ذلك اليوم يسمِّيه أهلُ الشام يومَ جَيْرون الأوّل . وأقام الناس بدمشقَ ، وخرج الضحَّاك إلى مسجد دمشقَ ، فجلس فيه فذكر يزيدَ بنَ معاوية ، فوقع فيه ، فقام إليه شابٌّ من كلب بعصاً معه فضربه بها ، والناس جلوس في الحلق متقلّدي السُّيوف ، فقام بعضُهم إلى بعض في المسجد ، فاقتتلوا ؛ قيس تدعو إلى ابن الزبير ونُصْرة الضحّاك ، وكلْب تدعو إلى بني أمية ثم إلى خالد بن يزيد ، ويتعصّبون ليزيد ، ودخل الضحاك دارَ الإمارة ، وأصبح الناس فلم يخرج إلى صلاة الفجر ، وكان من الأجناد ناس يهوَوْن هَوَى بني أمية ، وناس يهوَوْن هَوَى ابن الزبير، فبعث الضحاك إلى بني أميَّة فدخلوا عليه من الغد ، فاعتذر إليهم ، وذكر حُسنَ بلائهم عند مواليه وعنده ، وأنه ليس يريد شيئاً يكرهونه .

قال : فتكتبون إلى حسّان ونكتب ، فيسير من الأردنّ حتى ينزل الجابية ، ونسير نحن وأنتم حتى نوافيَه بها ، فنبايع لرجل منكم ، فرضِيَتْ بذلك بنو أميّة ، وكتبوا إلى حسّان ، وكتب إليه الضحَّاك ، وخرج الناس وخرجت بنو أميّة واستقبلت الرايات ، وتوجَّهوا يريدون الجابية ، فجاء ثور بن معن بن يزيد بن الأخنس السُلَميّ إلى الضحاك ، فقال: دعوْتَنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعْناك على ذلك، وأنت تسير إلى هذا الأعرابي من كَلْب تستخلف ابنَ أخيه خالد بن يزيد ! فقال له الضحّاك : فما الرأيُ ؟ قال: الرأي أن نُظهر ما كنا نسرّ وندعو إلى طاعة ابن الزبير ، ونقاتل عليها ، فمالَ الضحّاك بمن معه من الناس فعَطفهم ، ثمّ أقبل يسير حتى نزل بِمَرْج راهطَ .

واختُلف في الوقعة التي كانت بمرج راهط بين الضحّاك بن قيس ومروانَ بن الحَكَم ، فقال محمد بن عمرَ الواقديّ : بُويع مروانُ بنُ الحكم في المحرّم سنة خمس وستين ، وكان مروانُ بالشام لا يُحدّث نفسه بهذا الأمر حتى أطْمَعَه فيه عُبيد الله بن زياد حين قَدِمَ عليه من العراق ، فقال له : أنت كبيرُ قريش ورئيسها ، يلي عليك الضحاك بن قيس ! فذلك حين كان ما كان ، فخرج إلى الضحاك في جيش ، فقَتَلهم مروان والضحاك يومئذٍ في طاعة ابن الزبير ، وقُتلت قيس بمرج راهط مقتلةً لَمْ يُقتل مِثلُها في موطن قطّ .

قال محمد بن عمر: حدّثني ابن أبي الزناد، عن هشام بن عُروة قال: قُتِل الضحاك يومَ مَرْج راهط على أنه يدعو إلى عبدالله بن الزبير، وكُتِبَ به إلى عبدالله لما ذُكِر عنه من طاعته وحسن رأيه.

وقال غيرُ واحد: كانت الوقعة بمرج راهط بين الضحاك ومروان في سنة أربع وستّين.

وقد حُدِّثت عن ابن سعد، عن محمد بن عمر، قال حدّثني موسى بن يعقوب، عن أبي الحُوَيْرث، قال: قال أهل الأردنّ وغيرهم لمروان: أنت شيخٌ كبير، وابن يزيد غلام وابن الزبير كَهْل، وإنما يُقرع الحديدُ بعضُه ببعض، فلا تبارِه بهذا الغلام، وارمِ بنحرك في نحره، ونحن نبايعك، ابسُط يدَك، فَبسَطها، فبايعوه بالجابِيَة يومَ الأربعاء لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين.

قال محمد بن عمر: وحدّثني، مصعب بن ثابت، عن عامر بن عبدالله أن الضَّحاك لما بلغه أنّ مروان قد بايعه من بايعه على الخلافة، بايع من معه لابن الزبير، ثم سار كلّ واحد منهما إلى صاحبه، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقُتل الضحاك وأصحابه.

قال محمد بن عمر: وحدّثني ابن أبي الزّناد، عن أبيه؛ قال: لما ولى المدينة عبدالرحمن بن الضحاك كان فتىً شابّاً، فقال: إنّ الضحاك بن قيس قد كان دعا قيساً وغيرَها إلى البيعة لنفسه، فبايعهم يومئذ على الخلافة، فقال له زُفَر بن عقيل الفِهريّ: هذا الذي كنا نعرف ونسمع، وإنّ بني الزبير يقولون: إنما كان بايع لعبدالله بن الزبير، وخرج في طاعته حتى قتل، الباطلَ والله يقولون؛ كان أوّل ذاك أنّ قريشاً دعتْه إليها، فأبى عليها حتى دخل فيها كارهاً.

ذكر الخبر عن الوقعة بمرج راهط بين الضحّاك بن قيس ومروان بن الحكم وتمام الخبر عن الكائن من جليل الأخبار والأحداث في سنة أربع وستين.

قال أبوجعفر: حدّثنا نوح بن حبيب، قال: حدّثنا هشام بن محمد، عن عوانة بن الحَكَم الكلبي، قال: مال الضحاك بن قيس بمن معه من الناس حين سار يريد الجابية للقاء حسّان بن مالك، فعَطَفهم، ثمّ أقبل يسير حتى نزل بمرْج راهط، وأظهر البيعة لابن الزبير وخلع بني أميّة، وبايعه على ذلك جُلّ أهل دمشق من أهل اليمن وغيرهم.

قال: وسارت بنو أميّة ومَن تبعهم حتى وافَوا حسّانَ بالجابية، فصلّىَ بهم حسّان أربعين يوماً، والناس يتشاورون، وكتب الضحاك إلى النعمان بن بشير وهو على حِمْص، وإلى زُفر بن الحارث وهو على قِنَّسرين، وإلى ناتل بن قيس وهو على فِلسطين يستمدّهم، وكانوا على طاعة ابن الزبير، فأمدّه النعمان بشُرَحْبيل بن ذي الكَلاع، وأمدّه زُفَر بأهل قِنَّسْرين، وأمدّه ناتل بأهل فلَسطين، فاجتمعت الأجناد إلى الضّحاك بالمرْج.

وكان الناس بالجابية لهم أهواء مختلفة، فأمّا مالك بن هبيرة السَّكُونيّ فكان يَهْوَى هَوَى بني يزيد بن معاوية، ويحب أن تكون الخلافة فيهم، وأما الحصين بن نمير السَّكونيّ فكان يَهْوَى أن تكون الخلافة لمروانَ بن الحكم، فقال مالك بن هبيرة لحصين بن نمير: هلمّ فلنبايع لهذا الغلام الذي نحن ولَدْنا أباه، وهو ابن أختنا، فقد عرفت منزلتنا كانت من أبيه، فإنه يحملنا على رقاب العرب غداً ـ يعني خالدَ بن يزيد ـ فقال الحصين: لا، لَعَمر الله، لا تأتينا العرب بشيخ ونأتيهم بصبي؛ فقال مالك: هذا ولم تَردي تهامة ولما يَبلُغ الحزامُ الطُّبيَيْن؛ فقالوا: مهلاً يا أبا سليمان! فقال له مالك: والله لئن استخلفت مروانَ وآل مروان ليحسُدنَّك على

سوطك، وشِراك نعلك وظلّ شجرة تستظلّ بها ؛ إنّ مروان أبو عشيرة ، وأخو عَشيرة ، وعمّ عشيـرة ، فإن بايعتموه كنتم عبيداً لهم ، ولكن عليكم بابن أختكم خالد. فقال حصين : إنّي رأيت في المنام قِنْديلاً معلّقاً من السماء، وإنّ من يَمدّ عنقه إلى الخلافة تناوَلَه فلم ينلْه ، وتناوله مروان فنَالَه ، والله لنستخلفنَّه ؛ فقال له مالك : ويْحك يا حصين! أتبايع لمروان وآل مـروان وأنت تعلَم أنهم أهل بيت من قيس! فلما اجتمـع رأيُهم للبيعة لمروان بن الحكم قام رَوْح بن زنباع الجذاميّ ، فحَمِد اللّهَ وأثنَى عليه ثم قال : أيُّها الناس، إنكم تذكرون عبدالله بن عمر بن الخطاب وصُحبَتَه من رسول الله ﷺ ، وقدَمه في الإسلام ، وهوكما تذكرون ولكن ابن عمر رجلٌ ضعيفٌ ، وليس بصاحب أمة محمد الضعيفُ ، وأمَّا ما يذكر الناس من عبدالله بـنَ الزبير ويدْعون إليه من أمره فهو والله كما يذكرون بأنه لابن الزبير حواريّ رسول الله ﷺ وابن أسماء ابنة أبي بكر الصدّيق ذاتِ النطاقين ، وهو بعدُ كما تذكرون في قَدَمه وفَضْله ؛ ولكنّ ابن الزبير منافق ، قد خلع خليفتين : يزيد وابنه معاوية ابن يزيد ، وسَفَك الدماء، وشقّ عصا المسلمين ، وليس صاحبَ أمر أمة محمد ﷺ المنافقُ ؛ وأمَّـا مروان بن الحكم ؛ فوالله ما كان في الإسلام صَدْعٌ قطُّ إلاّ كان مروان ممَّن يَشعَب ذلك الصّدع ، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفّان يومَ الدار ، والذي قاتل علي بن أبي طالب يومَ الجَمَل ، وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ويستشبُّوا الصغير ـ يعني بالكبير مروانَ بنَ الحكم ، وبالصغير خالدَ بن يزيد بن معاوية . قال: فأجمع رأي الناس على البيعة لمروان ، ثمّ لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص من بعد خالد ، على أنّ إمارة دِمشقَ لعمرو بن سعيد بن العاص، وإمـارة حِمصَ لخالد بن يزيدَ بن معاوية وقال : فدعا حسان بن مالك بن بحدل خالد بن يزيد فقال: أبُنيَّ أخْتِي ، إنّ الناس قد أبَوْك لحداثة سنِّك ، وإني والله ما أريد هذا الأمر إلاّ لك ولأهل بيتك ، وما أبايع مروان إلاّ نظراً لكم ؛ قال له خالد بن يزيد : بل عُجِّزْت عنا ، قال : لا والله ما عُجِّزْتُ عنك ، ولكنّ الرأي لك ما رأيتُ . ثمّ دعا حسان بمروانَ فقال: يا مروان، إن الناس والله ما كلُّهم يَرضَى بك ، فقال له مروان : إنْ يُرِد الله أن يعطنيها لا يمنعني إياها أحدٌ من خلقه ، وإن يُرِدْ أن يمنعنيها لا يُعطِنيها أحدٌ من خلقه . قال: فقال له حسان : صدقت ، وصَعِد حسان المنبر يومَ الاثنين ، فقال: يأيّها الناس، إنا نستخلف يومَ الخميس إن شاء الله ؛ فلما كان يوم الخميس بايع لمروانَ ، وبايع الناسُ له . وسار مروان إلى الجابية في الناس حتى نزل مَرْجَ راهط على الضحاك في أهل الأردنّ من كَلْب ، وأتته السَّكاسِك والسَّكون وغسان ، وربع حسان بن مالك بن بحدل إلى الأردنّ . قال : وعلى ميمنته ـ أعني مروان ـ عمرو بن سعيد بن العاص وعلى ميسرته عبيدالله بن زياد ، وعلى ميمنته الضحاك زياد بن عمرو بن معاوية العُقَيْليّ وعلى ميسرته رجل آخر لم أحفظ اسمَه ، وكان يزيد بن أبي النِّمس الغسانيّ لم يشهد الجابية ؛ وكان مختبئاً بدمشق ، فلما نزل مروانُ مرجَ راهط ثار يزيد بن أبي نمس بأهل دمشق في عبيدها ، فغلب عليها ، وأخرج عامل الضحاك منها ، وغلب على الخزائن وبيت المال ، وبايع لمروان وأمدَّه بالأموال والرجال والسلاح ، فكان أَوّلَ فتح فتحَ على بني أميّة . قال وقاتل مروان الضحاك عشرين ليلةً كان ، ثم هُزِم أهلُ المرج ، وقُتِلوا وقُتل الضحاك ، وقُتل يومئذٍ من أشراف الناس من أهل الشام ممن كان مع الضحاك ثمانون رجلاً كلهم كان يأخذ القطيفة ، الذي كان يأخذ القطيفة يأخذ ألفين في العطاء ، وقتل أهل الشأم يومئذٍ مقتلةً عظيمةً لم يقتَلوا مثلها قطّ من القبائل كلها ، وقتل مع الضحاك يومئذ رجل من كلب من بني عُلَيم يقال له مالك بن يزيـد بن مالـك بن كعب ، وقُتل يومئذ صاحب لواء قُضاعةَ حيث دخلتْ قضاعة الشام ، وهو جدّ مُدلِّج بن المقدام بن زَمْل بن

عمرو بن ربيعة بن عمرو الجُرَشيّ ، وقُتِل ثور بن معن بن يزيد السُّلمي ، وهو الذي كان ردّ الضحاكَ عن رأيه . قال : وجاء برأس الضحاك رجلٌ من كلب ؛ وذكروا أنّ مروان حين أُتِيَ برأسه ساءه ذلك وقال : الآن حين كبِرتْ سنّي وَدقّ عَظمي وصرتُ في مثل ظِمءِ الحمار، أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض!

قال : وذكروا أنه مرّ يومئذ برجل قتيل فقال :

وَمَا ضرَّهُمْ غيرَ حَيْنِ النُّفُو ... سِ أيُّ أميرَيْ قُرَيش غَلَبْ

وقال مروان حين بُويع له ودعا إلى نفسه :

لما رأيتُ الأمرَ أمراً نَهْبَا ... سيّرت غَسّانَ لهمْ وكَلبا
والسَّكْسكِيّينَ رجالاً غُلْبَا ... وَطَيّئاً تأباه إلّا ضَرْبا
والقَيْن تَمْشي في الحديد نُكبا ... ومِن تَنوخَ مشْمَخِرًّا صعْبا
لا تأْخذونَ المُلْك إلّا غَصْبَا ... وإنْ دَنَتْ قيسٌ فقل لا قربَا

قال هشام بن محمد: حدّثني أبو مخنف لوط بن يحيى ؛ قال : حدّثني رجل من بني عبد ودّ من أهل الشام ، قال :حدّثني مَن شهد مقتلَ الضحاك بن قيس ، قال : مرّ بنا رجلٌ من كلب يقال له زُحنة بن عبدالله ، كأنما يرمي بالرجال الجَدَّاءَ ، ما يطعن رجلاً إلّا صَرَعَهُ ، ولا يَضرب رجلاً إلّا قتله، فجعلتُ أنظر إليه أتعجب من فعله ومن قتله الرّجال ، إذ حمل عليه رجل فصَرَعه زُحْنة وتركه ، فأتيتُه فنظرت إلى المقتول فإذا هو الضحاك بن قيس ، فأخذت رأسَه فأتيتُ به إلى مروان ، فقال : أنت قتلته؟ فقلت : لا ، ولكن قتله زُحْنة بن عبدالله الكلبيّ ، فأعجبه صِدْقِي إيّاه ، وتركي ادعاءه ، فأمَرَ لي بمعروف ، وأحسَنَ إلى زحنة .

قال أبو مخنف: وحدّثني عبدالملك بن نوفل بن مساحق، عن حبيب بن كرّة، قال: والله إنّ راية مروانَ يومئذ لمعِي ، وإنه ليدفع بنعل سيفه في ظهري ، وقال : ادْنُ برايتك لا أبا لك! إنّ هؤلاء لو قد وجدوا لهم حدّ السيوف انفرجوا انفراجَ الرأس ، وانفراجَ الغَنمِ عن راعيها . قال: وكان مروان في ستة آلاف ، وكان على خيله عبيدالله بن زياد، وكان على الرجال مالك بن هُبيرة؛ قال عبدالملك بن نوفل: وذكروا أن بِشر بن مروان كانت معه يومئذ رايةٌ يقاتل بها وهو يقول :

إنَّ على الرئيسِ حقًّا حقّا ... أن يَخضِبَ الصَّعْدَةَ أو تَنْدَقّا

قال: وصُرع يومئذ عبدالعزيز بن مروان ؛ قال: ومرَّ مروان يومئذ برجل من محارب وهو في نفر يَسيرٍ تحت راية يقاتل عن مرْوان، فقال مروان : يرحمك الله! لو أنك انضممت بأصحابك ، فإني أراك في قلة! فقالَ: إنّ معنا يا أمير المؤمنين من الملائكة مدداً أضعاف مَن تأمرنا ننضمّ إليه ، قال: فسُرَّ بذلك مروان وضحك ، وضمّ أناساً إليه ممّن كان حوله ؛ قال وخرج الناس منهزمين من المرْج إلى أجنادهم ، فانتهى أهل حِمْص إلى حمصَ والنعمان بن بشير عليها ، فلمّا بلغ النعمان الخبرَ خرج هارباً ليلاً ومعه امرأته نائلة بنت عُمارة الكلبيّة ، ومعه ثَقَله وولدُه ، فتحيَّر ليلته كلّها ، وأصبح أهل حِمْص فطلبوه؛ وكان الذي طلبه رجل من الكلاعيِّين يقال له عمرو بن الخَليّ فقتَله ، وأقبل برأس النعمان بن بَشير وبنائلة امرأته وولدها ، فألقى الرأسَ في حِجْر أمّ أبان ابنة النعمان التي كانت تحتَ الحجّاج بن يوسف بعد . قال: فقالت نائلة : ألقُوا الرأس إليَّ فأنا أحقّ به منها ،

فألقِي الرأسُ في حِجْرها ، ثم أقبلوا بهم وبالرأس حتى انتهَوْا بهم إلى حِمْص ، فجاءت كلب من أهل حمص فأخذوا نائلة وولدها ؛ قال : وخرج زُفَر بن الحارث من قِنّسرين هارباً فلحق بقَرْقِيسِيَا ، فلما انتهى إليها وعليها عِياضٌ الجُرَشيّ وهو ابن أسلم بن كعب بن مالك بن لغز بن أسوَد بن كعب بن حدس بن أسلم - وكان يزيد بن معاوية ولّاه قَرقِيسيا ، فحال عِياض بين زُفر وبين دخول قرقيسيا ، فقال له زفر: أوثق لك بالطلاق والعِتاق إذا أنا دخلت حمّامها أن أخرج منها؛ فلما انتهى إليها ودخلها لم يدخل حمّامها وأقام بها، وأخرج عياضاً منها، وتحصّن زُفَر بها وثابَتْ إليه قيس .قال: وخرج ناتل بن قيس الجُذاميّ صاحب فِلَسْطِين هارباً ، فلحق بابنِ الزبير بمكة، وأطبق أهل الشام على مروان، واستوثقوا له ، واستعمل عليها عمّاله .

قال أبو مخنف: حدّثني رجل من بني عبد وُدّ من أهل الشام - يعني الشرقي - قال : وخرج مَرْوان حتى أتى مصرَ بعدما اجتمع له أمرُ الشام ، فقَدِم مصرَ وعليها عبدالرحمن بن جَحْدَم القرشيّ يدعو إلى ابن الزبير، فخرج إليه فيمن معه من بني فِهْر ، وبعث مروانُ عمرَو بن سعيد الأشدق من ورائه حتى دخل مصرَ ، وقام على منبرها يخطب الناس، وقيل لهم: قد دخل عمرو مصر، فرجعوا، وأمّر الناسُ مروانَ وبايعوه ، ثمّ أقبل راجعاً نحو دمشق ، حتى إذا دنا منها بلغه أنّ ابن الزبير قد بعث أخاه مصعب بن الزُّبير نحو فلسطين ، فسرّح إليه مرَوانُ عَمرو بن سعيد بن العاص في جيش ، واستقبله قبل أن يدخل الشام ، فقاتله فهزم أصحاب مصعب ، وكان معه رجلٌ من بني عُذْرة يقال له محمد بن حُرَيث بن سليم، وهو خال بني الأشدق، فقال: والله ما رأيت مِثلَ مصعب بن الزبير رجلًا قطّ أشدّ قتالاً فارساً وراجلًا، ولقد رأيته في الطريق يترجّل فيطّرد بأصحابه ، ويشدّ على رجليه ، حتى رأيتها قد دَميتا . قال: وانصرف مروانُ حتى استقرّتْ به دمشق ، ورجع إليه عمرو بن سعيد .

قال: ويقال: إنه لما قدم عبيدالله بن زياد من العراق، فنزل الشام أصاب بني أميَّة بتدمُر، قد نفاهم ابن الزبير من المدينة ومكة، ومن الحجاز كله ، فنزلوا بتَدْمُر ، وأصابوا الضّحاك بن قيس أميراً على الشام لعبدالله بن الزبير، فقدِم ابن زياد حين قدم ومروان يريد أن يركب إلى ابن الزبير فيبايعه بالخلافة ، فيأخذ منه الأمان لبني أميَّة؛ فقال له ابن زياد: أنشُدُك الله تفعل، ليس هذا برأي أن تَنطلِق وأنت شيخُ قريش إلى أبي خُبَيب بالخلافة ، ولكن ادع أهلَ تدمر فبايِعهم ، ثم سرْ بهم وبمن معك من بني أميّة إلى الضحّاك بن قيس حتى تخرجَه من الشام ؛ فقال عمرو بن سعيد بن العاص: صدق والله عبيدالله بن زياد، ثمّ أنت سيّد قريش وفرعها، وأنت أحقّ الناس بالقيام بهذا الأمر، إنما ينظر الناس إلى هذا الغلام - يعني خالدَ بن يزيد بن معاوية - فتزوجْ أمّه فيكون في حِجْرك ؛ قال: ففعل مروان ذلك، فتزوّج أمّ خالد بن يزيد، وهي فاختة ابنة أبي هاشم بن عُتبة بن ربيعة بن عبدشمس . ثمّ جمع بني أميّة فبايعوه بالإمارة عليهم ، وبايعه أهلُ تدمر ثمّ سار في جمع عظيم إلى الضحاك بن قيس، وهو يومئذ بدمشق، فلما بلغ الضحّاك ما صنع بنو أميّة ومسيرتُهم إليه، خرج بمَن تبعه من أهل دمشق وغيرهم، فيهم زفر بن الحارث، فالتقوا بمَرْج راهِط ، فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتِل الضحاك بن قيس الفِهريّ وعامّة أصحابه ، وانهزم بقيّتُهم، فتفرّقوا، وأخذ زفر بن الحارث وجهاً من تلك الوجوه، هو وشابّان من بني سُليم فجاءت خيل مروانَ تطلبهم، فلما خاف السُّلميّان أن تلحقهم خيل مروان قالا لزفر : يا هذا ، انجُ بنفسك ، فأما نحن فمقتولان ، فمضى زفر وتركهما حتى أتى قَرْقيسيا ، فاجتمعتْ إليه قيس، فرأسوه عليهم، فذلك حيث يقول زُفَر بن الحارث :

أَرِينِي سِلاَحِي لا أَبا لكِ إِنَّني ... أَرَى الحَرْبَ لا تَزْدَادُ إِلَّا تمادِيَا
أَتانيَ عَنْ مروان بالغَيْبِ أَنَّهُ ... مقِيدُ دَمي أو قاطعٌ من لسانِيا
فَفِي العيسِ مَنْجَاةٌ وَفِي الأَرْض مَهْرَب ... إِذا نحْنُ رفَّعْنا لَهُنَّ المَثَانِيَا
فلا تحْسِبُوني إِنْ تغيَّبْتُ غافِلاً ... ولا تفْرَحوا إِنْ جئتُكُمْ بلِقائيا
فقَدْ يَنْبُتُ المَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى ... وَتَبْقَى حزازاتُ النُّفُوسِ كما هِيَا
أَتذْهَبُ كَلْبٌ لم تَنَلْهَا رِماحُنا ... وَتُتْرَك قَتلَى رَاهِط هِيَ ما هِيَا!
لَعمري لقد أَبْقتْ وَقيعَةُ رَاهِطٍ ... لِحَسَّان صَدْعاً بَيِّناً متنائيا
أَبَعْدَ ابن عمرٍو وابنِ مَعْنٍ تتابعا ... ومقْتَلِ هَمّامٍ أُمَنّى الأَمانِيَا!
فلم تُرَ مِنِّي نَبْوَةٌ قبل هذه ... فِرَارِي وَتَرْكي صاحبيَّ وَرَائِيَا
عشيَّةَ أَعْدو بالقِرانِ فلا أَرَى ... مِن الناسِ إِلَّا مَنْ عَلَيَّ ولا لِيَا
أَيَذْهَبُ يومٌ واحدٌ إِنْ أَسأْتُهُ ... بصالحِ أَيّامي وحُسْنِ بَلائيا!
فلا صُلْحَ حَتَّى تَنْحِطَ الخَيْلُ بالقَنا ... وَتَثْأَرَ مِنْ نِسْوَانِ كلْب نِسَائِيَا
أَلا لَيْتَ شِعْرِي هلْ تُصيبَنَّ غارتي ... تَنوخاً وَحيَّيْ طَيِّىءٍ من شِفائِيا

فأجابه جَوّاس بن قَعْطل :

لَعَمْري لَقدْ أَبقَتْ وقيعَةُ راهِطٍ ... على زُفَرٍ دَاءً مِنَ الدَّاءِ باقِيَا
مقِيماً ثَوَى بَيْنَ الضُّلوعِ مَحَلُّه ... وَبَيْنَ الحَشا أَعْيا الطَّبِيبَ المُداوِيا
تُبَكِّي عَلَى قَتلَى سُلَيْم وعَامِرٍ ... وَذُبْيانَ مَعْذوراً وتُبْكِي البواكِيَا
دَعا بِسِلاَحٍ ثمَّ أَحْجَمَ إِذْ رأَى ... سُيُوفَ جَنابٍ والطوَالَ المَذَاكِيا
عليْها كأُسْدِ الغابِ فِتْيانُ نجْدَةٍ ... إِذَا شَرعُوا نحْوَ الطِّعانِ العوالِيَا

فأجابه عمر بن المِخْلاة الكلبيّ من تيم اللّات بن رُفَيْدة ، فقال :

بكى زُفَرُ القيسِيُّ من هُلكِ قَوْمِهِ ... بعَبْرَةِ عَيْنٍ ما يَجِفُّ سُجُومُهَا
يُبكِّي عَلى قَتْلى أُصِيبَتْ بِرَاهِطٍ ... تجَاوِبُهُ هامُ القِفارِ وَبُومُهَا
أَبحْنَا حِمًى للحيِّ قَيْسٍ بِراهِطٍ ... وولّتْ شِلالاً واسْتُبِيحَ حَرِيمُها
يُبَكِّيهمُ حَرانَ تجْرِي دُموعُهُ ... يُرَجِّي نِزاراً أن تؤوبَ حُلومُها
فَمُتْ كمداً أَوْ عِشْ ذَليلاً مُهَضَّماً ... بِحَسْرَةِ نَفْسٍ لا تَنامُ هُمُومُهَا
إِذا خَطَرَتْ حَوْلي قُضَاعَةُ بالقَنا ... تَخبطُ فِعْلَ المُصعَبَاتِ قُرُومُهَا
خَبطْتُ بِهِمْ من كادَني مِنْ قبيلة ... فمن ذا إِذا عَزَّ الخُطوبُ يَرُومُهَا

وقال زُفَر بن الحارث أيضاً :

أَفي الله أَمَّا بَحْدَلٌ وَابنُ بَحْدَل ... فيحيا وأَمَّا ابنِ الزُّبَيرِ فيُقتَلُ!

كَـذَبْتُـمْ وَبَيْـتِ الـلّهِ لا تَـقْـتُـلونَـهُ ... وَلَـمّـا يَـكُـنْ يـومٌ أَغـرُّ مُـحَـجَّـلُ
وَلَـمّـا يكُـن للمـشْـرَفِيَّـة فَـوْقكـم ... شُعـاعٌ كَقَـرْنِ الشَّمسِ حِينَ تـرجَّـلُ

فأجابه عبدالرحمن بن الحكم ، أخو مروان بن الحكم ، فقال :

أَتــذهب كلب قـد حمتْهـا رمـاحُهـا ... وتـتـرُكُ قَـتْـلى راهطٍ مـا أُجِنَّـتِ!
لَحـا الله قَيْسـاً قَيْسَ عـيْـلاَنَ إنهـا ... أَضَـاعَـتْ ثُغُـورَ الـمسلميـن وَولَّتِ
فبـاهِ بقـيْسٍ في الـرَّخـاءِ ولا تـكنْ ... أَخـاهـا إذا مـا المَشْـرفِـيَّـةُ سُلَّتِ

قال أبو جعفر: ولما بايع حصين بن نمير مروان بن الحكم وعصى مالك بن هبيرة فيما أشار به عليه من بيعة خالد بن يزيد بن معاوية ، واستقرّ لمروانَ بن الحكم المُلك ، وقد كان الحصين بن نمير اشترط على مروان أن يُنزل البَلْقاءَ من كان بالشأم من كندة ، وأن يَجعلَها لهم مأكلةً ، فأعطاه ذلك ؛ وإنّ بني الحكم لما استوثق الأمرُ لمروان ، وقد كانوا اشترطوا لخالد بن يزيد بن معاوية شروطاً ؛ قال مرْوان ذات يوم وهو جالسٌ في مجلسه ومالك بن هبيرة جالس عنده : إن قوماً يدّعون شروطاً منهم عطّارة مكحلة ـ يعني مالك بن هبيرة وكان رجلاً يتطيّب ويكتحل ـ فقال مالك بن هبيرة : هذا ولمّا تَرِدي تهامة ، ولما يبلغ الحزام الطُّبْيَيْنْ ؛ فقال مروان : مهلاً يا أبا سليمان ، إنما داعبناك ؛ فقال مالك : هو ذاك . وقال عويج الطائيّ يمتدح كَلْباً وحُميد بن بَحْدَل :

لقـد علِمَ الأَقـوامُ وقْـع ابنِ بَحْـدَلٍ ... وأُخْـرَى عليهم إن بقَى سَيُعيـدُهـا
يـقُـودُونَ أَولادَ الـوجِيـه ولاحـقٍ ... من الـرِّيفِ شهراً مـا يَني من يَقُـودُهـا
فـهـذا لـهـذا ثـم إنـي لـنـافِضٌ ... على الناسِ أَقـوامـاً كثيـراً حُـدودُهـا
فـلولا أَميـر الـمؤمنيـن لأَصْبـحَـت ... قُضـاعَـةُ أَرْبـابـاً وقَيْس عبيـدُهـا

وفي هذه السنة بايع جُنْد خُراسان لسلم بن زياد بعد موت يزيد بن معاوية ، على أن يقوم بأمرهم حتى يجتمع الناس على خليفة .

وفيها كانت فتنة عبدالله بن خازم بخُراسان .

ذكر الخبر عن ذلك :

حدّثني عمرُ بنُ شبّة ، قال : حدّثنا عليّ بن محمد ، قال : أخبرنا مسلمة بن محارب ، قال : بعث سلم بن زياد بما أصاب من هدايا سمرقند وخُوارَزم إلى يزيدَ بن معاوية مع عبدالله بن خازم ، وأقام سلم والياً على خُراسانَ حتى مات يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد ، فبلغ سلماً موته ، وأتاه مقتل يزيد بن زياد في سجستان وأسرُ أبي عبيدة بن زياد ، وكتم الخبر سلم ، فقال ابن عَرَادة :

يـا أَيُّهـا الـمِلِكُ الـمُـغـلِّقُ بـابَـهُ ... حَـدَثَـتْ أُمـورٌ شـأْنُـهُـنَّ عـظيـمُ
قَتْلى بِجُـنْـزَةَ والـذيـنَ بكـابُـلٍ ... ويـزيـدُ أعـلِنَ شـأْنُـهُ الـمكـتُـومُ
أَبَـني أُمَـيَّـةَ إنّ آخِـرَ مَـلِكِـكُـمْ ... جـسـدٌ بِحـوَّارِيـنَ ثَـم مُـقِـيـمُ
طَـرَقَـتْ مَـنِـيَّـتُـهُ وعِـنْـدَ وِسـادِهِ ... كُـوبٌ وَزِقٌّ رَاعِـفٌ مَـرثـومُ
ومـرِنَّـةٌ تـبْـكـي عـلى نَـشْـوانِـهِ ... بـالـصَّـنْـجِ تَـقْـعُـدُ تـارةً وتـقـومُ

قال مسلمة: فلما ظهر شعر ابن عرَادة أظهر سلمٌ موتَ يزيدَ بن معاوية ومعاوية بن يزيد، ودعا الناسَ إلى البيعة على الرِّضا حتى يستقيم أمرُ الناس على خليفة، فبايعوه، ثم مكثوا بذلك شهرين، ثم نكثوا به.

قال عليّ بن محمد: وحدّثنا شيخٌ من أهل خُراسان، قال: لم يحبَّ أهلُ خُراسان أميراً قط حُبّهم سلمَ بن زياد، فسُمّي في تلك السنين التي كان بها سلْم أكثر من عشرين ألف مولود بسلْم، مِن حُبِّهم سَلْما.

قال: وأخبَرنا أبو حفص الأزديّ، عن عمه قال: لما اختلف الناس بخُراسان ونكثـوا بيعة سَلْم عن خُراسان وخلّف عليها المهلب بن أبي صُفْرة، فلما كان بسَرَخْسَ لقيه سليمان بن مَرْثَد أحد بني قيس بن ثعلبة، فقال له: مَنْ خلّفت على خراسان؟ قال: المهلب؛ فقال: ضاقت عليك نِزارُ حتى ولَّيتَ رجلا من أهل اليَمَن! فولّاه مَرْوَ الرُّوذ والفارياب والطالَقان والجُوزَجان، وولى أوس بن ثعلبة بن زفر ـ وهو صـاحب قصر أوس بالبَصرة ـ هراةَ، ومَضَى فلما صار بنَيْسابور لقيَه عبدالله بن خازم فقال: مَن ولَّيت خُراسان؟ فأخبره، فقال: أمَا وجدت في مُضَر رجلا تستعمله حتى فرَّقت خُراسان بين بكر بن وائل وزُون عمَانَ! وقال له: اكتبْ لي عَهْداً على خُراسان؛ قال: أوالِي خراسان أنا! قال: اكتب لي عهداً وخَلاَك ذمّ. قال: فكتب له عهداً على خُراسان؛ قال: فأعنّي الآن بمائة ألف درهم فأمَرَ له بها، وأقبل إلَى مَرْو، وبلغ الخبرُ المهلبَ بن أبي صُفْرة، فأقبل واستخلف رجلا من بني جُشَم بن سعد بن زيد مناة بن تميم.

قال: وأخبَرنا المفضَّل بن محمد الضَّبّيُّ، عن أبيه، قال: لما صار عبدالله بن خازم إلى مروَ بعهد سَلْم بن زياد، منعه الجُشميّ، فكانت بينهما مناوشَة، فأصابت الجشميّ رميةٌ بحَجَر في جبهته، وتحاجزوا وَخَلّى الجشميّ بين مرْو الرُّوذ وبينَه، فدخلها ابن خازم، ومات الجشميّ بعد ذلك بيومين.

قال عليّ بن محمد المدائنيّ: حدّثنا الحسن بن رشيد الجُوزَجانيّ، عن أبيه، قال: لما مات يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيدَ وثب أهلُ خُراسان بعُمّالهم فأخرجوهم، وغلب كلُّ قوم على ناحية، ووقعت الفتنة، وغلب ابن خازم على خُراسان، ووقعت الحرب.

قال أبوجعفر: وأخبرنا أبو الذيّال زهير بن هُنيد، عن أبي نعامة، قال: أقبل عبدالله بن خازم فغلب عل مرْوَ، ثم سار إلى سليمان بن مرثَد فلقيَه بمروَ الرُّوذ، فقاتَلَه أياماً، فقتل سليمان بن مرثد، ثم سار عبدالله بن خازم إلى عمرو بن مرثد وهو بالطالقان في سبعمائة، وبلغ عمراً إقبالُ عبدالله إليه وقتله أخاه، فأقبل إليه، فالتقَوْا على نهر أن يتوافَى إلى ابن حازم أصحابُه، فأمَرَ عبدالله من كان معه فنزلوا، فنزل وسأل عن زهير بن ذؤيب العدريّ، فقالوا: لم يجىء حتى أقبل وهو على حاله، فلما أقبل قيل له: هذا زهير قد جاء؛ فقال له عبدالله: تقدّم، فالتَقَوْا فاقتتلوا طويلاً، فقتِل عمرو بن مرثد، وانهزم أصحابه، فلحقوا بهراة بأوس بن ثعلبة، ورجع عبدالله بن خازم إلى مَرْو.

قال: وكان الذي وليَ قتلَ عَمرو بن مرثد زهير بن حيّان العدويّ فيما يروون فقال الشاعر:

أتـذْهـبُ أيّـامُ الحـروبِ ولـم تُبِىءْ زهيـرَ بنَ حيّـانٍ بعَمْـرو بنِ مَـرْثَـدِ!

قال: وحدّثنا أبو السَّريّ الخُراسانيّ ـ وكان من أهل هَراة ـ قال: قتل عبدالله بن خازم سليمان وعمراً ابنْي مرثد المرثديِّين من بني قيس بن ثعلبة ثم رجع إلى مَرْو، وهرب مَن كان بمروَ الرّوذ من بكر بن وائل إلى

هَراة، وانضم إليها من كان بكُوَر خُراسان من بكر بن وائل، فكان لهم بها جمعٌ كثير عليهم أوْس بن ثعلبة؛ قال: فقالوا له: نبايعك على أن تسير إلى ابن خازم، وتُخرِجَ مُضَرَ من خُراسان كلِّها؛ فقال لهم: هذا بَغْيٌ، وأهلُ البغي مخذولون، أقيموا مكانَكم هذا، فإنْ ترَكَكُم ابن خازم ـ وما أراه يفعل ـ فارضوا بهذه الناحية، وخلّوه وما هو فيه؛ فقال بنو صُهيب ـ وهم موالي بني جحْدَر: لا والله لا نَرضَى أن نكون نحن ومُضَر في بلد، وقد قتلوا ابني مَرْثَد، فإن أجبتَنا إلى هذا وإلا أمّرْنا علينا غيرَك؛ قال: إنما أنا رجلٌ منكم، فاصنعوا ما بدا لكم؛ فبايَعوه، وسار إليهم ابن خازم، واستخلف ابنَه موسى، وأقبل حتى نزل على واد بين عسكره وبين هَراة؛ قال: فقال البكريّون لأوس: اخرجْ فخندِقْ خندقاً دون المدينة فقاتِلْهم فيه، وتكون المدينة من ورائنا، فقال لهم أوس: الزموا المدينة فإنها حصينة، وخلّوا ابنَ خازم ومنزلَه الذي هو فيه؛ فإنه إن طال مُقامُه ضجِر فأعطاكم ما ترضَون به، فإن اضطررتم إلى القتال قاتلتم، فأبَوْا وخرجوا دونها، فقاتلهم ابن خازم نحواً من سنة.

قال وزعم الأحنف بن الأشهب الضبيّ، وأخبرنا أبو الذيال زهير بن الهُنَيد؛ سار ابن خازم إلى هراةَ وفيها جمعٌ كثير لبكر بن وائل قد خندقوا عليهم، وتعاقدوا على إخراج مضرَ إن ظفروا بخُراسان، فنزل بهم ابن خازم، فقال له هلال الضّبيّ أحد بني ذُهْل، ثم أحد بني أوس: إنما تقاتل إخوَتَك مِن بني أبيك، والله إن نِلتَ منهم فما تريد ما في العيش بعدهم من خير، وقد قتلت بمروَ الرّوذ منهم من قتلت، فلو أعطيتهم شيئاً يرضَوْن به، أو أصلحتَ هذا الأمر! قال: والله لو خرجتُ لهم عن خُراسانَ ما رَضُوا به، ولو استطاعوا أن يُخرجوكم من الدنيا لأخرجوكم؛ قال: لا، والله لا أرمي معك بسهم، ولا رجلٌ يطيعني من خِندف حتى تُعْذِر إليهم؛ قال: فأنت رسولي إليهم فأرضِهم، فأتى هلال إلى أوس بن ثعلبة فناشَدَه اللَّهَ والقرابة، وقال: أذكّرك الله في نزار أن تسفك دماءها، وتضربَ بعضَها ببعض! قال: لقيتَ بني صهيب؟ قال: لا والله؛ قال: فالقهم؛ فخرج فلقي أرقم بن مطرِّف الحنفيّ، وضَمْضَم بن يزيد ـ أو عبدالله بن ضمضم بن يزيد ـ وعاصم بن الصّلت بن الحريث الحنفيّين، وجماعة من بكر بن وائل وكلمهم بمثل ما كلّم به أوساً، فقالوا: هل لقيت بني صُهيب؟ فقال: لقد عظّم الله أمر بني صُهَيب عندكم، لا لم ألقهم، قالوا: القهم، فأتى بني صهيب فكلّمهم، فقالوا: لولا أنك رسولٌ لقتلناك؛ قال: أفما يرضيكم شيء؟ قالوا: واحدةٌ من اثنتين، إما أن تخرجوا عن خُراسان ولا يَدْعو فيها لُمضَر داعٍ، وإما أن تقيموا وتنزلوا لنا عن كل كُراعٍ وسلاح وذهب وفضّة؛ قال: أفما شيء غير هاتين؟ قالوا: لا، قال: حسبُنا الله ونعم الوكيل! فرجع إلى ابن خازم، فقال: ما عندك؟ قال: وجدتُ إخوتَنا قُطّعاً للرَّحِم، قال: قد أخبرتُك أنّ ربيعة لم تزل غِضاباً على ربّها منذ بَعث اللَّهُ النبيَّ ﷺ من مضرَ.

قال أبو جعفر: وأخبرنا سليمان بن مجالد الضّبيّ، قال: أغارت الترك على قصر إسفاد وابن خازم بَهراةَ، فحصروا أهله، وفيه ناس من الأزْد هم أكثر مَن فيه، فهزمتْهم، فبعثوا إلى من حولهم من الأزْد فجاؤوا لينصروهم فهزمتْهم الترك، فأرسلوا إلى ابن خازم، فوجّه إليهم زهيرَ بن حيان في بني تميم وقال له: إياك و[illegible]اوَلة الترك، إذا رأيتموهم فاحملوا عليهم، فأقبَل فوافاهم في يوم بارد، قال: فلما التقَوا شدُّوا عليهم فلم ينبتوا لهم، وانهزمت الترك واتّبعوهم حتى مضى عامّةُ الليل حتى انتهوا إلى قصر في المفازة، فأقامت الجماعة ومضى زهير في فوارسَ يتبعهم، وكان عالماً بالطريق، ثمّ رجع في نصف من الليل؛ وقد يَبِسَتْ يدُه على رُمحِه من البَرد، فدعا غلامَه كعباً، فخرج إليه، فأدخله، وجعل يُسخن له الشّحم فيضعه على يده، ودهنوه وأوقدوا له ناراً حتى لاَنَ وَدفِىء؛ ثم رجع إلى هَراة، فقال في ذلك كعبُ بنُ معدانَ الأشْقَريّ:

أتـاكَ أتـاكَ الغـوثُ في بَـرْقِ عارضٍ	دُرُوعٌ وبَـيْض حشْـوهُـنَّ تـمـيـمُ
أبَوْا أن يضُمُّوا حَشْو ما تجمَعُ القُرَى	فـضَـمَّـهُـمُ يـوم الـلقـاءِ صَـمـيـمُ
ورِزْقُـهُـمُ مـن رائـحـاتٍ تَـزيـنُـهـا	ضُـروعٌ عَـريضـات الخَـوَاصِـر كـومُ

وقال ثابت قُطْنَة:

فَـدَتْ نـفسي فَـوارِس من تـميـمٍ	على مـا كـان من ضَنْـكِ المُـقـامِ
بِـقَـصْـرِ الـبـاهـليِّ وقـد أرانـي	أحـامِـي حيـن قَـلَّ بـه المُـحـامِي
بسيفي بعـد كسـرِ الـرُّمْـحِ فيهـم	أذودُهُـمُ بِـذِي شَـطَبٍ حُـسـامِ
أكُـرُّ عـليهـمُ اليَـحْـمُـومَ كَـرًّا	كَـكَـرِ الـشَّـرْبِ آنِـيَـةَ الـمُـدامِ
فـلولا الـلّهُ لـيسَ لـه شـريـكٌ	وضـرْبِـي قَـوْنَسَ المَـلِكِ الهُـمَـامِ
إذاً فـاظـتْ نـسـاءُ بَـنـي دِثـارٍ	أمـام الـتُّـرْك بـادِيـة الـخِـدامِ

قال أبو جعفر: وحدّثني أبو الحسن الخُراسانيّ، عن أبي حمّاد السُّلَميّ قال: أقام ابن خازم بهَراةَ يقاتل أوسَ بنَ ثعلبة أكثرَ من سنة، فقال يوماً لأصحابه: قد طال مُقامُنا على هؤلاء، فنادُوهم: يا معشرَ ربيعة، إنكم قد اعتصمتم بخندقكم، أفرضيتم من خُراسانَ بهذا الخندق! فأحفَظَهم ذلك، فتنادى الناسُ للقتال، فقال لهم أوس بن ثعلبة: الزموا خندقكم وقاتلوهم كما كنتم تقاتلونهم، ولا تخرجوا إليهم بجماعتكم؛ قال: فعصَوْه وخرجوا إليهم، فالتقى النّاس، فقال ابن خازم لأصحابه: اجعلوه يومَكم فيكونَ المُلْك لِمَنْ غلب، فإن قُتلتُ فأميركم شمّاس بن دِثار العُطارِديّ، فإن قُتل فأميركم بكيْر بن وِشاح الثقفيّ.

قال عليّ: وحدّثنا أبو الذيّال زهير بن هُنَيد، عن أبي نَعامة العَدَويّ عن عبيد بن نقيد، عن إياس بن زهير بن حيّان: لما كان اليوم الذي هرب فيه أوس بن ثعلبة وظفر ابن خازم ببكر بن وائل، قال ابن خازم لأصحابه حين التقوَا: إني قِلْع، فشدّوني على السرج، واعلموا أن علَيّ من السلاح ما لا أقتُل قدرَ جَزْر جَزورَين، فإن قيل لكم: إنّي قد قُتلت فلا تصدّقوا. قال: وكانت راية بني عديّ مع أبي وأنا على فرس مُحزَّم، وقد قال لنا ابن خازم: إذا لقيتم الخيلَ فاطعنوها في مناخِرها، فإنه لن يطعن فرسٌ في نخْرته إلا أدبر أو رَمى بصاحبه، فلما سمع فرسي قَعقَعَة السلاح وثب بي وادياً كان بيني وبينهم؛ قال: فتلقاني رجل من بكر بن وائل فطعنت فرسَه في نُخرته، فصرعه، وحمل أبي ببني عدّي، واتبعتْه بنو تميم من كلّ وجه، فاقتتلوا ساعةً، فانهزمتْ بكر بن وائل حتى انتهَوا إلى خندقهم وأخذوا يميناً وشمالاً، وسقط ناسٌ في الخندق فقُتلوا قتلاً ذريعاً، وهرب أوسُ بن ثعلبة وبه جراحات، وحلف ابن خازم لا يؤتَى بأسيرٍ إلا قتَله حتى تغيب الشمس، فكان آخرَ مَن أتِي به رجلٌ من بني حنيفة يقال له مُحْمِيَة فقالوا لابن خازم: قد غابت الشمس، قال: وفُّوا به القتلَى؛ فقُتِل.

قال: فأخبَرَني شيخٌ من بني سعد بن زيد مَنَاة أنّ أوس بن ثعلبة هرب وبه جراحاتٌ إلى سِجستانَ، فلما صار بها أو قريباً منها مات.

وفي مقتل ابن مرثد وأمْر أوس بن ثعلبة يقول المغيرةُ بن حَبْناء، أحد بني ربيعة بن حنظلة:

وفي الحـرب كنتمْ في خُراسـان كلِّهـا	قـتيـلاً ومَـسجـونـاً بـهـا ومُسيَّـراً
ويـومَ احْتَوَاكمْ في الحفِيرِ ابنُ خازمٍ	فـلـم تَجـدوا إلّا الـخنـادِق مَـقْـبَـرا

ويـومَ تَـركتمْ في الغبـارِ ابن مـرثـدٍ وأوسـاً تـركتمْ حيثُ سـار وعَسكـرا

قال: وأخبَرَني أبو الذيّال زهير بن هنيد، عن جدِّه أبي أمّه، قال: قُتل من بكر بن وائل يومئذ ثمانيةُ آلاف.

قال: وحدّثنا التميميّ، رجل من أهل خُراسان، عن مولىً لابن خازم، قال: قاتل ابن خازم أوس بن ثعلبة وبكر بن وائل، فظَفِر بهرَاةَ، وهرب أوس وغلبه ابن خازم على هَراةَ، واستعمل عليها ابنَه محمداً، وضمّ إليه شّماس بن دثار العُطارديّ، وجعل بُكَير بن وِشَاح على شُرطتِهِ، وقال لهما: ربِّياه فإنه ابن أختكما، فكانت أمه من بني سعد يقال لها صفيّة، وقال له: لا تخالفْهما، ورجع ابن خازم إلى مَرْوَ.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة تحرّكتِ الشيعة بالكوفة، واتّعدوا الاجتماع بالنُّخَيلة في سنة خمس وستين للمسير إلى أهل الشأم للطلب بدم الحسين بن عليّ، وتَكاتَبوا في ذلك.

ذكر الخبر عن مبدإ أمرهم في ذلك:

قال هشام بن محمد: حدّثنا أبو مخنف، قال: حدّثني يوسف بن يزيد عن عبدالله بن عوف بن الأحمر الأزدي، قال: لما قتل الحسين بن علي ورجع ابن زياد من مُعسكَره بالنُّخَيْلةِ، فدخل الكوفة، تلاقتِ الشيعة بالتلاوُم والتندُّم، ورأت أنها قد أخطأتْ خطأ كبيراً بدعائهم الحسينَ إلى النصرة وتركهم إجابتَه، ومقتلِه إلى جانبهم لم يَنصروه، ورأوا أنه لا يُغسل عارُهم والإثم عنهم في مقتله إلاّ بقتل مَن قَتَله، أو القتل فيه، ففزعوا بالكُوفة إلى خمسةِ نفر من رؤوس الشيعة إلى سليمان بن صُرَد الخُزاعي، وكانت له صُحبة مع النبي ﷺ، وإلى المُسَيّب بن نجَبَة الفَزَاريّ، وكان من أصحاب علي وخيارهم، وإلى عبدالله بن سعد بن نفيل الأزدي، وإلى عبدالله بن والٍ التَّيمي، وإلى رِفاعة بن شَدَّاد البَجَليّ.

ثم إن هؤلاء النفر الخمسة اجتمعوا في منزل سليمان بن صُرَد، وكانوا من خيار أصحاب علي، ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم.

قال: فلما اجتمعوا إلى منزل سليمانَ بن صُرَد بدأ المسيَّب بن نَجبَة القوم بالكلام، فتكلَّم فحمدَ اللّهَ وأثنَى عليه وصلى على نبيه ﷺ ثم قال:

أما بعد، فإنا قد ابتُلينا بطول العمر، والتعرّض لأنواع الفِتَن فنرغب إلى ربنا ألاّ يَجعلنا ممن يقول له غداً: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُم النَّذِيرُ ﴾[1]؛ فإنّ أمير المؤمنين قال: العُمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة، وليس فينا رجل إلاّ وقد بلغه، وقد كنا مُغرَمين بتزكِيَةِ أنفُسنا، وتقريظِ شيعتِنا، حتى بَلا الله أخيارَنا فوجدَنا كاذبين في موطنَيْن من مواطن ابنِ ابنةِ نبيِّنا ﷺ، وقد بلغتْنا قبل ذلك كُتُبُه، وقدمَت علينا رُسُله، وأعذر إلينا يسألنا نَصرَه عَوْداً وبدءاً، وعلانيةً وسرًّا، فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قتِل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا؛ ولا جادلْنا عنه بألسِنتنا؛ ولا قوّيناه بأموالنا، ولا طلبنا له النُّصرة إلى عشائرنا، فما عُذرنا إلى ربّنا وعند لقاء نبيِّنا ﷺ وقد قُتل فينا ولدُه وحبيبه، وذرّيتُه وَنَسلُه! لا والله، لا عُذرَ دون أن تَقتلُوا قاتلَه والمُوالين عليه، أو تُقتلوا في طلب ذلك، فعسى ربّنا أن يَرضَى عَنّا عند ذلك، وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمِن. أيها

(١) سورة فاطر: ٣٧.

القوم ، ولّوا عليكم رجلاً منكم فإنه لا بدّ لكم من أمير تَفزَعون إليه ، وراية تحفّون بها ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

قال: فبدر القومَ رِفَاعة بن شدّاد بعد المسيّب الكلام ، فحَمِد اللّهَ وأثنى عليه وصلّىٰ على النبي ﷺ ثم قال: أما بعد ، فإنّ الله قد هداك لأصوَب القول ، ودعوت إلى أرشَد الأمور ، بدأتَ بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة على نبيّه ﷺ ، ودعوتَ إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم ، فمسموعٌ منك ، مستجابٌ لك ، مقبول قولُك ؛ قلتَ: ولُّوا أمرَكم رجلاً منكم تَفزَعون إليه ، وتحفّون برايته ، وذلك رأيٌ قد رأينا مِثلَ الذي رأيتَ ، فإن تكن أنت ذلك الرجل تكن عندنا مرضيًّا ، وفينا مُتنصّحاً ، وفي جماعتنا محبًّا ، وإن رأيتَ رأي أصحابنا ذلك ولّينا هذا الأمْر شيخَ الشيعة صاحبَ رسول الله ﷺ ، وذا السابقة والقَدَم سليمان بن صُرَد المحمود في بأسه ودينه ، والموثوق بحزمه . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

قال: ثمّ تكلم عبدالله بن والٍ وعبدالله بن سعد ، فَحَمِدَا ربَّهما وأثنَيا عليه ، وتكلما بنحو من كلام رفاعةَ ابن شدّاد ، فذكرا المسيَّب بن نجَبَة بفضله ، وذكرا سليمان بن صُرَد بسابقته ، ورضاهما بتوليَتِه ، فقال المسيّب ابن نجَبَة: أصبتم ووفقتم ، وأنا أرَى مِثلَ الذي رأيتم ، فولّوا أمرَكم سليمانَ بن صُرَد.

قال أبو مخنف: فحدّثت سليمانَ بن أبي راشد بهذا الحديث ، فقال: حدّثني حميد بن مسلم ، قال: والله إنّي لَشاهدٌ بهذا اليوم ، يوم ولّوا سليمان بن صُرَد ، وإنّا يومئذ لأكثر من مائة رجل من فُرسان الشيعة ووجوهِهم في داره .

قال: فتكلّم سليمان بن صرد فشدّد ، وما زال يردّد ذلك القولَ في كل جمعة حتى حفظتُه ، بدأ فقال: أثني على الله خيراً ، وأحمد آلاءه وبلاءه ، وأشهَد أن لا إلٰه إلاّ الله ، وأنّ محمداً رسوله ، أمّا بعد ، فإني والله لخائف ألاّ يكون آخرنا إلى هذا الدهر الذي نكدتْ فيه المعيشة ، وعظُمت فيه الرّزية وشمل فيه الجورُ أولي الفضل من هذه الشيعة لما هو خير ؛ إنا كنا نمدّ أعناقنا إلى قدوم آل نبيّنا ، ونمنّيهم النصرَ ، ونحثّهم على القدوم ، فلما قدِموا ونَيْنا وعَجْزنا ، وادّهنّا ، وتربّصنا ، وانتظرنا ما يكون حتى قُتل فينا وَلَدُ نبيّنا وسُلاَلَته وعُصارَتُه وبَضعةٌ من لحمه ودمه ، إذ جعل يَستصرِخ فلا يُصرَخ ، ويسأل النّصف فلا يُعطاه ، اتّخذه الفاسقون غَرَضاً للنَّبل ، ودرّية للرّماح حتى أقصدوه ، وعدَوْا عليه فسلبوه . ألاَ انهضوا فقد سخِط ربُّكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا مَن قتله ، أو تُبيروا . ألاَ لا تهابوا الموت فوالله ما هابه امرؤٌ قطّ إلا ذلّ ، كونوا كالأولى من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيُّهم : ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ ﴾[1] ، فما فعل القومُ ؟ جَثَوا على الرُّكب واللّهِ ، ومدّوا الأعناق ورضُوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذّنب إلاّ الصبر على القتل ، فكيف بكم لو قد دُعيتم إلى مِثل ما دُعِي القوم إليه ! اشحَذوا السيوف ، وركّبوا الأسنّة ، ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾[2] ، حتى تدعوا حين تُدْعَون تُستنفرون .

---

(١) سورة البقرة: ٥٤ .

(٢) سورة الأنفال: ٦٠ .

قال : فقام خالد بن سعد بن نُفيل، فقال: أما أنا فوالله لو أعلم أنّ قتلي نفسي يُخرِجني من ذنبي ويُرضي ربّي لقتلتُها؛ ولكن هذا أمِر به قومٌ كانوا قبلنا ونُهينا عنه ، فأشهد اللّهَ ومَن حضر من المسلمين أنّ كلَّ ما أصبحت أملكه سوى سلاحي الذي أقاتل به عدوّي صدقةً على المسلمين ، أقوّيهم به على قتال القاسطين .

وقام أبو المعتمر حَنَش بن ربيعة الكِنانيّ فقال: وأنا أشهدكم على مثل ذلك.

فقال سليمان بن صُرَد: حَسْبُكم ؛مَنْ أراد من هذا شيئاً فليأت بماله عبدَالله بن وال التيميّ تيم بكر بن وائل، فإذا اجتمع عنده كلّ ما تريدون إخراجَه من أموالكم جهّزْنا به ذوي الخَلَّة والمَسكَنة من أشياعكم .

قال أبو مخنف لوط بن يحيى، عن سليمان بن أبي راشد، قال: حدّثنا حُمَيد بن مسلم الأزدي أنّ سليمان بن صُرَد قال لخالد بن سعد بن نفيل حين قال له: والله لو علمت أن قتلي نفسي يُخرِجني من ذنبي ويَرضَى عني ربي لقتلْتها ، ولكنّ هذ أُمِر به قوم غيرُنا كانوا من قبلنا ونُهينا عنه، قال: أخوكم هذا غداً فَريسُ أوّلِ الأسنَّة ؛ قال : فلما تصدّق بماله على المسلمين قال له: أبشر بجزيل ثواب الله للّذِين لأنفُسِهم يَمهَدون .

قال أبو مخنف: حدّثني الحصين بن يزيد بن عبدالله بن سعد بن نُفيل قال: أخذت كتاباً كان سليمان بن صُرَد كتب به إلى سعد بن حذيفة بن اليَمانِ بالمدائن ، فقرأتُه زمانَ وليَ سليمان ـ قال: فلما قرأتُه أعجبني ، فتعلمته فما نسيته ، كتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم. من سليمانَ بن صُرَد إلى سعد بن حذيفة ومَن قِبَله من المؤمنين . سلام عليكم، أما بعد؛ فإنّ الدنيا دارٌ قد أدبر منها ما كان معروفاً، وأقبل منها ما كان مُنكَراً، وأصبحتْ قد تشنّأتْ إلى ذوِي الألباب، وأزمَع بالتَّرحال منها عبادُ الله الأخيار ، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقَى بجزيلِ مثوبة عند الله لا تَفنى . إنّ أولياءَ من إخوانكم ، وشيعة آل نبيِّكم نظروا لأنفسهم فيما ابتُلوا به من أمر ابن بنت نبيِّهم الذي دُعِيَ فأجاب، ودعا فلم يَجب ، وأراد الرجعة فحُبِس، وسأل الأمان فمُنع ، وترك الناسَ فلم يتركوه ، وعَدْوا عليه فقتلوه، ثم سلبوه وجرّدوه ظلماً وعُدواناً وغِرَّةً بالله وجهلاً، وبعين اللّهِ ما يعلمون ، وإلى الله ما يرجعون ، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[١]، فلما نظروا إخوانكم وتدبّروا عواقبَ مااستقبلوا رأوا أن قد خطئوا بخذلانِ الزّكيّ الطيّب وإسلامه وتركِ مواساته ، والنصر له خطأ كبيراً ليس لهم منه مخرجٌ ولا توبة، دون قتل قاتِليه أو قتلهم حتى تَفنىَ على ذلك أرواحهم ؛ فقد جَدّ إخوانكم فجدّوا، وأعِدّوا واستعدّوا، وقد ضربْنا لإخواننا أجلاً يوافوننا إليه، وموطناً يَلقَونا فيه؛ فأما الأجل فغُرّةُ شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين ، وأمّا الموطن الذي يَلقَوننا فيه فالنُّخَيلة . أنتم الذين لم تزالوا لنا شيعة وإخواناً، وإلاّ وقد رأينا أن ندعوَكم إلى هذا الأمر الذي أراد الله به إخوانكم فيما يزعمون ، ويُظهرون لنا أنهم يتوبون ، وإنكم جُدَرَاءُ بتَطْلاب الفضل ، والتماس الأجر، والتوبة إلى ربّكم من الذنب، لو كان في ذلك حزُّ الرقاب، وقتلُ الأولاد، واستيفاء الأموال، وهلاك العَشائر؛ ما ضرّ أهلَ عذراء الذين قُتِلوا ألاّ يكونوا اليوم أحياءً عند ربهّم يُرزَقون ، شهداء قد لَقُوا الله صابرين محتسبين ، فأثابهَم ثوابَ الصابرين ـ يعني حُجراً وأصحابه ـ وما ضرّ إخوانكم

(١) سورة الشعراء: ٢٢٧ .

المُقتَّلين صَبْراً، المُصلَّبين ظُلماً، والممثَّل بهم ، المعتدَى عليهم ، ألّا يكونوا أحياء مبتلين بخطاياكم ، قد خيرَ لهم فلقوا ربهم ، ووفّاهم الله إن شاء الله أجرهم ، فاصبروا رحمكم الله على البأساء والضرّاء وحينَ البأس ، وتوبوا إلى الله عن قريب؛ فوالله إنكم لأحرياء ألّا يكون أحدٌ من إخوانكم صبر على شيء من البلاء إرادة ثوابه إلّا صبرتم التماسَ الأجر فيه على مِثلِه ، ولا يطلب رضاء الله طالبٌ بشيء من الأشياء ولو أنه القتلُ إلّا طلبتم رضا الله به . إنّ التقوى أفضلُ الزّاد في الدنيا ، وما سوى ذلك يبور ويَفنَى ، فلتعزف عنها أنفسُكم ، ولتكن رغبتُكم في دارِ عافيتِكم ، وجهادِ عدوّ الله وعدوّكم ، وعدو أهل بيت نبيِّكم حتى تقدموا على الله تائبين زاغبين ، أحياناً الله وإياكم حياة طيّبةً ، وأجارنا وإيّاكم من النار ، وجعل منايانا قتلاً في سبيله على يدي أبغض خلقه إليه وأشدهم عداوةً له ؛ إنه القدير على ما يشاء ، والصانع لأوليائه في الأشياء؛ والسلام عليكم .

قال : وكتب ابن صرد الكتاب وبعث به إلى سعد بن حذيفة بن اليَمان مع عبدالله بن مالك الطائي ، فبعث به سعد حين قرأ كتابه إلى مَن كان بالمدائن من الشيعة ، وكان بها أقوامٌ من أهل الكوفة قد أعجبتهم فأوطَنوها وهم يقدمون الكوفة في كلّ حين عطاءٍ ورِزْق ، فيأخذون حقوقهم ، وينصرفون إلى أوطانهم ، فقرأ عليهم سعد كتاب سليمان بن صرد . ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإنكم قد كنتم مجتمعين مُزْمِعِين على نصر الحسين وقتال عدوِّه ، فلم يَفْجأكم أوّلُ من قتله ، والله مثيبُكم على حُسن النيّة وما أجمعتم عليه من النصر أحسنَ المثوبة ، وقد بَعثَ إليكم إخوانُكم يستنجدونكم ويستمدّونكم ، ويدعونكم إلى الحقّ وإلى ما ترجون لكم به عندالله أفضلَ الأجر والحظّ ، فماذا ترون؟ وماذا تقولون؟ فقال القوم بأجمعهم : نجيبُهم ونقاتلُ معهم ، ورأينا في ذلك مِثل رأيهم .؟

فقام عبدالله بن الحنظل الطائيّ ثم الحِزْمِريّ ، فحَمِد اللّهَ وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإنا قد أجبنا إخواننَا إلى ما دعونا إليه ، وقد رأيْنا مثلَ الذي قد رأَوْا ، فسرّحني إليهم في الخيل ، فقال له : رويداً ، لا تعجل ، استعدوا للعدو ، وأعدوا له الحربَ ، ثم نسير وتسيرون .

وكتب سعد بن حذيفة بن اليمّانِ إلى سليمانَ بن صُرَد مع عبدالله بن مالك الطائي :

بسم الله الرحمن الرحيم . إلى سليمان بن صرد ، من سعد بن حذيفة ومن قبَله من المؤمنين ، سلام عليكم ، أما بعد ، فقد قرأنا كتابك ، وفهمنا الذي دعْوتَنا إليه من الأمر الذي عليه رأيُ الملإِ من إخوانك ، فقد هُدِيتَ لحظك ، ويُسرتَ لرُشدك ، ونحن جادّون مجدُّون ، معدُّون مُسرِجون مُلْجِمون ننتظر الأمر ، ونستمع الداعي ؛ فإذا جاء الصَّريخ أقبلْنا ولم نُعَرّج إن شاء الله ؛ والسلام .

فلما قرأ كتابه سليمان بن صُرَد قرأه على أصحابه ، فسُرّوا بذلك .

قالوا : وكتب إلى المثنّى بن مخرِّبة العبدي نسخة الكتاب الذي كان كتب به إلى سعد بن حذيفة بن اليمان وبعث به مع ظَبْيان بن عُمارة التميمي من بني سعد ، فكتب إليه المثنّى : أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وأقرأته إخوانك ، فحمدوا رأيك ، واستجابوا لك ، فنحن مُوافُوك إن شاء الله للأجل الذي ضربت وفي الموطن الذي ذكرت ؛ والسلام عليك . وكتب في أسفل كتابه :

تبَصَّرْ كأنّي قد أتيتُك مُعْلِماً ... على أَتْلِع الهادي أَجَشَّ هَزِيمِ
طويلِ القَرَا نَهْدِ الشَّوَاةِ مقلَّصٍ ... مُلِحٍّ على فأسِ اللجام أَزُومِ

بكـلِّ فتى لا يمـلأُ الـرَّوْعُ نَحـرَه ... مُحِسٍّ لِعَضِّ الحـربِ غيرِ سؤوم
أخـي ثقـةٍ يَنـوي الإلـه بِسَعْيِـهِ ... ضَروبٍ بنَصـلِ السيفِ غيـرِ أثيمِ

قال أبو مخنف لوط بن يحيى ، عن الحارث بن حَصِيرة ، عن عبدالله بن سعد بن نفيل ، قال : كان أوّل ما ابتدعوا به من أمرهم سنة إحدى وستين ، وهي السنة التي قُتِلَ فيها الحسين رضي الله عنه ، فلم يزل القومُ في جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال ، ودعاء الناس في السرّ من الشيعة وغيرها إلى الطلب بدم الحسين ، فكان يجيبهم القوم بعد القوم ، والنّفَر بعد النّفر .

فلم يزالوا كذلك وفي ذلك حتى مات يزيدُ بنُ معاوية يوم الخميس لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأوّل سنة أربع وستين ، وكان بين قتل الحسين وهلاك يزيدَ بن معاوية ثلاث سنين وشهران وأربعة أيام ، وهلك يزيدُ وأمير العراق عبيدُالله بن زياد ، وهو بالبصرة ، وخليفته بالكوفة عمرو بن حُريث المخزومي ، فجاء إلى سليمان أصحابه من الشيعة ، فقالوا : قد مات هذا الطاغية ، والأمر الآن ضعيف، فإن شئت وثَبنا على عمرو بن حريث فأخرجْناه من القصر ، ثمّ أظهرنا الطلبَ بدم الحسين ، وتتّبعنا قتلته، ودعونا الناس إلى أهل هذا البيت المستأثر عليهم، المدفوعين عن حقهم ، فقالوا في ذلك فأكثروا؛ فقال لهم سليمان بن صُرَد : رُويداً، لا تعجلوا ، إني قد نظرت فيما تذكرون ، فرأيت أنّ قتَلَة الحسين هم أشراف أهل الكوفة ، وفُرسان العرب وهم المطالِبون بدمه ، ومتى علموا ما تريدون ، وعلموا أنهم المطلوبون، كانوا أشد عليكم. ونظرت فيمن تبعني منكم فعلمت أنهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرَهم ، ولم يَشفوا أنفسهم ، ولم ينكوا في عدوهم ، وكانوا لهم جَزَراً ، ولكن بُثّوا دُعاتكم في المصر، فادعوا إلى أمركم هذا، شيعتَكم وغيرَ شيعتكم ، فإني أرجو أن يكون الناس اليومَ حيث هلك هذا الطاغية أسرعَ إلى أمركم استجابةً منهم قبل هلاكه . ففعلوا ؛ وخرجتْ طائفة منهم دُعاةً يدعون الناسَ ، فاستجاب لهم ناسٌ كثير بعد هلاك يزيد بن معاوية أضعافُ من كان استجاب لهم قبل ذلك .

قال هشام : قال أبو مخنف : وحدّثنا الحصين بن يزيد ، عن رجل من مُزَينة قال : ما رأيت من هذه الأمة أحداً كان أبلغ من عبيدالله بن عبدالله المري في مَنطِق ولا عظة ، وكان من دعاة أهل المصر زمان سليمان بن صرد ، وكان إذا اجتمعت إليه جماعةٌ من الناس فوعظهم بدأ بحَمْد الله والثناءِ عليه والصلاة على رسول الله ﷺ ، ثم يقول : أما بعد ، فإنّ الله اصطفى محمداً ﷺ على خلقه بنبوَّته ، وخصّه بالفضل كلّه ، وأعزكم باتباعه وأكرمكم بالإيمان به ، فحَقَن به دماءكم المسفوكة ، وأمّن به سُبُلكم المَخُوفة ، ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون ﴾(١) . فهل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقًّا على هذه الأمة من نبيها؟ وهل ذرّية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظمُ حقًّا على هذه الأمة من ذرية رسولها؟ لا والله ، ما كان ولا يكون . لله أنتم! ألمْ تَرَوْا ويبلغكم ما اجتُرِم إلى ابن بنت نبيِّكم! أما رأيتم إلى انتهاك القوم حُرمتَه ، واستضعافِهم وَحدَته ، وترميلِهم إيَّاه بالدّم ، وتجرارِهِموه على الأرض! لم يرقُبوا فيه ربّهم ولا قرابتَه من الرسول ﷺ ؛ اتّخذوه للنبل غرضاً ، وغادروه للضّباع جزراً ، فلِلّه عينَا من رأى مِثلَه! ولله حسين بن علي ، ماذا غادروا به ذا صِدْق وصَبْر ، وذا أمانة ونجدة وحزم ! ابنُ أوّل المسلمين إسلاماً ، وابن

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٣ .

بنت رسول ربِّ العالمين، قلَّت حُماته ، وكثرت عُداتُه حولَه ، فقتَله عدوُّه ، وخذَلَه وليُّه . فويل للقاتل، وملامة للخاذِل! إنّ الله لم يجعل لقاتله حُجّة، ولا لخاذله مَعْذِرةً ، إلَّا أن يناصِح لله في التوبة ، فيجاهد القاتلين ، وينابذَ القاسطين ؛ فعسى الله عند ذلك أن يقبلَ التوبة ، ويُقيل العثرة؛ إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نَبيّه ، والطلب بدماءِ أهل بيته ، وإلى جهاد المُحِلِّين والمارقين ، فإن قُتِلنا فما عند الله خيرٌ للأبرار ، وإن ظَهَرنا ردَدْنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبيِّنا .

قال: وكان يعيد هذا الكلامَ علينا في كل يوم حتى حفظه عامّتنا . قال: ووثب الناس على عمرو بن حُرَيث عند هلاك يزيدَ بن معاوية، فأخرجوه من القصر، واصطلحوا على عامر بن مسعود بن أميّة بن خلف الجُمَحيّ . وهو دُحْرُوجة الجُعَل الذي قال له ابنُ همّام السّلُوليّ :

اشددْ يديْك بزيدٍ إنْ ظفِرْتَ بهِ ... واشفِ الأَرامِلَ من دُحْرُوجَةِ الجُعَلِ

وكان كأنه إبهامٌ قِصَراً ، وزيد مولاه وخازنُهُ ، فكان يصلي بالناس . وبايع لابن الزبير ، ولم يزل أصحاب سليمانَ بن صُرَد يدعون شيعتهم وغيرهم من أهل مصرهم حتى كثر تبعهم ، وكان الناس إلى اتباعهم بعد هلاك يزيدَ بن معاوية أسرعَ منهم قبل ذلك، فلما مضت ستّة أشهر من هلاك يزيدَ بن معاوية، قدم المختارُ بن أبي عُبَيد الكوفة، فقدم في النصف من شهر رمضان يومَ الجمعة . قال :وقَدِم عبدالله بن يزيد الأنصاري ثمّ الخطميّ مِن قِبَل عبدالله بن الزبير أميراً على الكوفة على حربها وثَغرِها ، وقدم معه من قِبَل ابن الزبير إبراهيمُ بن محمد بن طلحة بن عبيدالله الأعرج أميراً على خَراج الكوفة، كان قدوم عبدالله بن يزيدَ الأنصاري ثمّ الخطمي يومَ الجمعة لثمانٍ بقين من شهر رمضان سنة أربع وستّين .

قال : وقدم المختار قبل عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بثمانية أيام ، ودخل المختار الكوفة ، وقد اجتمعت رؤوس الشيعة ووجوهُها مع سليمان بن صُرَد فليس يَعدِلونه به ، فكان المختار إذا دعاهم إلى نفسه وإلى الطلب بدم الحسين قالت له الشيعة : هذا سليمان بن صُرَد شيخ الشيعة ، قد انقادوا له واجتمعوا عليه ، فأخذ يقول للشيعة : إني قد جئتكم من قِبلِ المهديّ محمد بن علي بن الحنفيَّة مؤتَمَناً مأموناً، منتجباً ووزيراً، فوالله ما زال بالشيعة حتى انشعبت إليه طائفةٌ تُعَظِّمُه وتجيبه، وتنتظر أمره، وعُظْمُ الشِّيعةِ مع سليمانَ بن صُرَد، فسليمان أثقل خلق الله على المختار.

وكان المختار يقول لأصحابه : أتدرون ما يريد هذا؟ يعني سليمان بن صُرَد ـ إنما يريد أن يخرج فيقتل نفسه ويقتلكم ، ليس له بصرٌ بالحزوب ، ولا له علمٌ بها .

قال : وأتى يزيد بن الحارث بن يزيدَ بن رُوَيْم الشيبانيّ عبدَ الله بن يزيد الأنصاريّ فقال: إنّ الناس يتحدّثون أن هذه الشيعة خارجةٌ عليك مع ابن صُرَد، ومنهم طائفة أخرى مع المختار، وهي أقلّ الطائفتين عدداً ، والمختار فيما يذكر الناس لا يريد أن يخرج حتى ينظر إلى ما يصير إليه أمرُ سليمانَ بن صُرَد، وقد اجتمع له أمره، وهو خارج من أيّامه هذه، فإن رأيت أن تَجمَعَ الشُّرَط والمقاتِلَة ووجوه الناس، ثمّ تنهض إليهم ، وننهض معك، فإذا دفعت إلى منزله دعوتَه ـ فإن أجابك فحَسْبُه، وإنْ قاتلك قاتلتَه ، وقد جمعتُ له وعبَّات وهو مغترّ، فإني أخاف عليك إن هو بدأك وأقررته حتى يخرج عليك أن تشتدّ شوكتُه ، وأن يتفاقم أمرُه .

فقال عبدالله بن يزيد : اللّهُ بيننا وبينهم ، إنْ هم قاتلَونا قاتلناهم، وإن تركونا لم نطلبهم ، حَدِّثني ما يريد الناس؟ قال: يذكر الناس أنهم يطلبون بدم الحسين بن علي؛ قال: فأنا قتلتُ الحسين! لعن اللّهُ قاتِلَ الحسين! قال: وكان سليمان بن صُرَد وأصحابه يريدون أن يثبوا بالكُوفة، فخرج عبدالله بن يزيد حتى صَعِد المنبر، ثم قام في الناس فحَمِد الله وأثنَى عليه ، ثم قال : أمَّا بعد ، فقد بلغني أنّ طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألتُ عن الذي دعاهم إلى ذلك ما هـو؟ فقيل لي: زعمـوا أنهم يطلبـون بدم الحسين بن علي، فرحم الله هؤلاء القوم، قد والله دُلِلتُ على أماكنهم ، وأمِرت بأخذهم ، وقيل: ابدأهم قبل أن يبدؤوك ، فأبيت ذلك ، فقلت : إنْ قاتلوني قاتلتُهم ، وإن تركوني لم أطلبهم ؛ وعلامَ يقاتلونني! فوالله ما أنا قتلتُ حسيناً، ولا أنا ممن قاتَلَه، ولقد أصِبْت بمقتله رحمة الله عليه! فإن هؤلاء القومَ آمنون ، فليخرجوا ولْينتشِروا ظاهرين ليسيروا إلى مَنْ قاتل الحسين، فقد أقبل إليهم ، وأنا لَهم على قاتِلِه ظـهير؛ هذا ابن زياد قاتل الحسين ، وقاتل خياركم وأماثِلكم، قد توجّه إليكم ؛ عَهْدُ العاهد به على مسيرة ليلة من جسر مَنبج ، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشَد من أن تجعلوا بأسَكم بينَكم، فيقتل بَعْضُكم بعضاً، ويسفك بعضُكم ماءَ بعض، فيلقاكم ذلك العدوّ غداً وقد رققتم ، وتلك والله أمنية عدوّكم ، وإنه قد أقبل إليكم أعدى خلق الله لكم، مَن وُلِّي عليكم هو وأبوه سبع سنين، لا يُقلِعان عن قتل أهل العَفاف والدين ، هو الذي قتلكم ، ومِن قِبَله أُتيتم ، والذي قتل مَنْ تثأرون بدمه، قد جاءكم فاستقبلوه بحدكم وشوكتكم، واجعلوها به ، ولا تجعلوها بأنفسكم ؛ إني لم آلُكُم نصحاً ، جمع الله لنا كلمتَنا ، وأصلح لنا أئمّتنا!

قال: فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة: أيُّها الناس، لا يغرّنّكم من السيف والغشم مقالةُ هذا المُداهِن الموادِع، والله لئن خرج علينا خارج لنقتلنّه، ولئن استقينا أن قوماً يريدون الخروجَ علينا لنأخذنّ الوالد بولده والمولود بوالده، ولنأخذنّ الحميم بالحميم، والعِريف بما في عرافته حتى يَدِينوا للحقّ، ويذلُّوا للطاعة. فوثب إليه المسيَّب بن نَجبَة فقطع عليه مَنطقه ثم قال: يابن الناكثين ، أنت تهدّدنا بسيفك وغشمك! أنت والله أذل من ذلك؛ إنا لا نلومك على بغضنا، وقد قتلنا أباك وجدّك، والله إني لأرجو ألا يخرجك الله من بين ظهراني أهل هذا المصر حتى يثلّثوا بك جدّك وأبـاك، وأمّا أنت أيها الأمير فقد قلتَ قولاً سديداً، وإني والله لأظن من يريد هذا الأمر مستنصِحاً لك ، وقابلاً قولكَ .

فـقـال إبـراهـيـم بـن محـمـد بـن طـلحـة: إي والله، لـيـقـتـلـن وقـد أدهـن ثـم أعـلن. فقـام إليه عبـدالله بن وال التيمي، فقال: مـا اعتراضُـك يا أخـا بني تيم بن مُرّة فيـما بيننا وبـين أميرنـا! فوالله ما أنت علينا بأمير، ولا لَكَ علينا سلطان ، إنما أنت أميرُ الجزْية ، فأقبِل على خراجِك ، فلعَمر الله لئن كنت مفسداً ما أفسد أمر هذه الأمة إلاّ والدك وجدّك الناكثان ، فكانت بهما اليدان ، وكانت عليهـما دائرة السَّوْء.

قال: ثم أقبل مسيَّب بن نَجبَة وعبدالله بن وال على عبدالله بن يزيد فقالا : أمّا رأيك أيها الأمير فوالله إنا لنرجو أن تكون به عند العامَّة محموداً وأن تكون عند الذي عَنَيْتَ واعتريت مقبولاً . فغضب أناسٌ من عمال إبراهيمَ بن محمد بن طلحة وجماعة ممن كان معه ، فتشاتموا دونه ، فشتَمهم الناس وخَصَموهم .

فلما سمع ذلك عبدالله بن يزيد نزل ودخل، وانطلق إبراهيم بن محمد وهو يقول : قد داهن عبدالله بن

يزيد أهلَ الكوفة ، والله لأكتبنّ بذلك إلى عبدالله بن الزبير، فأتى شَبَث بن ربعيّ التميميّ عبدَالله بن يزيد فأخبره بذلك ، فركب به وبيزيد بن الحارث بن رُوَيم حتى دخل على إبراهيم بن محمد بن طلحة ، فحلف له بالله ما أردت بالقول الذي سمعتَ إلاَّ العافية وصلاحَ ذات البين ، إنما أتاني يزيد بن الحارث بكذا وكذا ، فرأيتُ أن أقوم فيهم بما سمعتَ إرادةَ ألاّ تختلف الكلمة ، ولا تتفرّق الألفة ، وألاّ يقع بأس هؤلاء القوم بينهم . فعَذَره وقَبِل منه .

قال: ثمّ إنّ أصحاب سليمان بن صرد خرجوا ينشرون السلاح ظاهرين، ويتجهّزون يجاهرون بجهازهم وما يُصلِحهم .

وفي هذه السنة فارق عبدالله بن الزبير الخوارجُ الذين كانوا قَدِموا عليه مكة ، فقاتلوا معه حصين بن نمير السَّكوني ، فصاروا إلى البصرة ، ثمّ افترقت كلمتُهم فصاروا أحزاباً.

ذكر الخبر عن فراقهم ابن الزبير والسبب الذي من أجله فارقوه والذي من أجله افترقتْ كلمتهم :

حدثت عن هشام بن محمد الكلبي ،عن أبي مخنف لوط بن يحيى قال: حدّثني أبو المخارق الراسبي ، قال: لما ركب ابن زياد من الخوارج بعد قتل أبي بلال ما ركِب، وقد كان قبل ذلك لا يكفّ عنهم ولا يستبقيهم غير أنه بعد قتل أبي بلال تجرّد لاستئصالهم وهلاكِهم ، واجتمعت الخوارجُ حين ثار ابن الزبير بمكّة، وسار إليه أهلُ الشام ، فتذاكروا ما أتى إليهم ، فقال لهم نافع بن الأزرق : إنّ الله قد أنزل عليكم الكتاب، وفَرَض عليكم فيه الجهاد، واحتج عليكم بالبيان، وقد جرّد فيكم السيوفَ أهلُ الظلم وأولو العِدَا والغَشْم، وهذا من قد ثار بمكة، فاخرجوا بنا نأتِ البيت ونلق هذا الرجل فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدوّ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا. فخرجوا حتى قدموا على عبدالله ابن الزبير، فسرَّ بمَقدَمهم، ونبّأهم أنه على رأيهم ، وأعطاهم الرّضا من غير توثّق ولا تفتيش ؛ فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية، وانصرف أهل الشام عن مكة . ثم إن القوم لقيَ بعضهم بعضاً، فقالوا : إنّ هذا الذي صنعتم أمسِ بغير رأي ولا صواب من الأمر، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعلّه ليس على رأيكم ، إنما كان أمسِ يقاتلكم هو وأبوه ينادي : يالَ ثارات عثمان! فأتوه وسَلُوه عن عثمان ، فإنْ برىء منه كان وليَّكم ، وإن أبى كان عدوَّكم . فمشَوا نحوَه فقالوا له: أيها الإنسان، إنا قد قاتلنا معك، ولم نُفتّشك عن رأيك حتى نعلم أمِنّا أنت أم من عدوّنا ! خبّرنا ما مقالُتك في عثمان؟ فنظر فإذا مَن حوله من أصحابه قليلٌ ، فقال لهم : إنكم أتيتموني فصادفتموني حين أردتُ القيام، ولكن روحوا إليَّ العشيّة حتى أعلمكم من ذلك الذي تريدون . فانصرفوا ، وبعث إلى أصحابه فقال: البسوا السلاح ، واحضُروني بأجمعكم العشيّة، ففعلوا ، وجاءت الخوارج، وقد أقام أصحابه حولَه سِمَاطَيْن عليهم السلاحُ ، وقامت جماعةٌ منهم عظيمة على رأسه بأيديهم الأعمدة ، فقال ابن الأزرق لأصحابه : خشيَ الرجل غائلتَكم ، وقد أزمع بخلافكم واستعدّ لكم ؛ ما تَرَوْن؟ .

فدنا منه ابن الأزرق، فقال له: يابن الزبير، اتّق الله ربّك ، وأبْغِض الخائن المستأثر ، وعادِ أوّل من سنّ الضلالة ، وأحدث الأحداث ، وخالفَ حُكمَ الكتاب، فإنك إن تفعل ذلك تُرضِ ربَّك ، وتَنْج من العذاب الأليم نفسُك ، وإن تركتَ ذلك فأنت من الذين استمتَعوا بخَلاقِهم ، وأذهبوا في الحياة الدنيا طيِّباتِهم .

يا عبيدة بن هلال، صِف لهذا الإنسان ومن معه أمْرَنا الذي نحن عليه ، والذي ندعو الناس إليه ، فتقدّم عبيدة بن هلال .

قال هشام : قال أبو مخنف: وحدّثني أبو علقمة الخثعمي ، عن قبيصة بن عبدالرحمن القحافي، من خثعم ، قال: أنا والله شاهدٌ عبيدة بن هلال، إذ تقدم فتكلّم ، فما سمعت ناطقاً قطّ ينطق كان أبلغَ ولا أصوَبَ قولاً منه، وكان يرى رأيَ الخوارج .

قال: وإن كان لَيَجمع القولَ الكثير، في المعنى الخطير، في اللفظ اليسير.

قال: فحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن الله بعث محمداً ﷺ يدعُو إلى عبادة الله ، وإخلاص الدين ، فدعا إلى ذلك ، فأجابه المسلمون ،فعمِل فيهم بكِتاب الله وأمرِه، حتى قبضه الله إليه ﷺ، واستخلف الناس أبا بكر، واستخلف أبو بكر عمَر، فكلاهما عمل بالكتاب وسنّة رسول الله، فالحمد لله ربّ العالمين . ثم إنّ الناس استخلفوا عثمانَ بنَ عفان ، فحمى الأحماءَ ، وآثر القُربَى، واستعمل الفتى ورفع الدِّرّة ، ووضع السَّوط ، ومزّق الكتاب ، وحقّر المسلم وضرب مُنكِري الجوْر، وآوى طريد الرسول ﷺ ، وضرب السابقين بالفضل ، وسيَّرهم وحَرَمهم ، ثم أخذ فيءَ الله الذي أفاءه عليهم فقسّمه بين فُسّاقِ قريش ، ومُجّان العرب، فسارت إليه طائفةٌ من المسلمين أخذ الله ميثاقَهم على طاعته ، لا يُبالون في الله لومةَ لائم ، فقتلوه ، فنحن لهم أولياء، ومن ابن عفان وأوليائه بُرَآء، فما تقول أنت يابن الزبير؟ قال: فَحَمِد الله ابنُ الزبيروأثنى عليه ثمّ قال: أما بعد، فقد فهمتُ الذي ذكرتم، وذكرتُ به النبي ﷺ، فهو كما قلت ﷺ وفوق ما وصفته، وفهمت ما ذكرت به أبا بكر وعمر ، وقد وُفِّقتَ وأصبت ، وقد فهمتُ الذي ذكرتَ به عثمان بن عفان رحمة الله عليه ، وإني لا أعلم مكانَ أحد من خلق الله اليومَ أعلمَ بابن عفان وأمره منّي ، كنتُ معه حيث نقم القوم عليه ، واستعتبوه فلم يَدعْ شيئاً استعتَبَهُ القوم فيه إلّا أعتبهم منه . ثم إنهم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنه كتبه فيهم ، يأمر فيه بقتلهم فقال لهم: ما كتبتُه ، فإن شئتم فهاتوا بيّنتَكم ؛ فإن لم تكن حلفتُ لكم؛ فوالله ما جاؤوه ببيّنةٍ ، ولا استحلفوه. ووثبوا عليه فقتلوه ، وقد سمعت ما عبتَه به، فليس كذلك، بل هو لكل خيرٍ أهل، وأنا أشهدكم ومن حضر أني وليٌّ لابن عفّان في الدنيا والآخرة ، وولي أوليائه ، وعدوّ أعدائه، قالوا : فبرىء اللّهُ منك يا عدوّ الله ؛ قال: فبرىء الله منكم يا أعداءَ الله .

وتفرّق القوم ، فأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي ، وعبدالله بن صَفّار السعديّ من بني صَريم بن مقاعس ، وعبدالله بن إباض أيضاً من بني صريم ، وحنظلة بن بَيْهس، وبنو الماحوز : عبدالله ، وعبيدالله ، والزبير، من بني سَليط بن يربوع ، حتى أتوا البصرة ، وانطلق أبو طالوتَ من بني زِمّان بن مالك بن صعب بن علي بن مالك بن بكر بن وائل وعبدالله بن ثور أبو فُدَيْك من بني قيس بن ثعلبة وعطيّة بن الأسود اليشكري إلى اليمامة ، فوثبوا باليمامة مع أبي طالوت ، ثم أجمعوا بعد ذلك على نجدة ابن عامر الحنفي ، فأما البَصريّون منهم فإنهم قَدِموا البصرة وهم مُجمِعون على رأي أبي بلال .

قال هشام : قالوا أبو مخنف لوط بن يحيى : فحدثني أبو المثنّى، عن رجل من إخوانه من أهل البصرة، أنهم اجتمعوا فقالت العامّة منهم : لو خرج منّا خارجون في سبيل الله، فقد كانت منّا فَترة منذ خرج أصحابُنا ، فيقوم علماؤنا في الأرض فيكونون مصابيحَ الناس يدعونهم إلى الدّين ، ويخرج أهلُ الوَرَع والاجتهاد فيلحقون

بالربّ، فيكونون شُهَدَاء مرزوقين عند الله أحياء.

فانتدب لها نافع بن الأزرق، فاعتقد على ثلثمائة رجل، فخرج، وذلك عند وثوب الناس بعبيدالله بن زياد، وكَسْر الخوارج أبوابَ السجون وخروجهم منها، واشتغل الناس بقتال الأزْد وربيعة وبني تميم وقيس في دم مسعود بن عمرو، فاغتنمت الخوارج اشتغالَ الناس بعضهم ببعض، فتهيؤوا واجتمعوا، فلما خرج نافع بن الأزرق تبعوه، واصطلح أهلُ البصرة على عبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب يصلّي بهم، وخرج ابن زياد إلى الشام، واصطلحت الأزْد وبنو تميم، فتجرّد الناس للخوارج، فاتبعوهم وأخافوهم حتى خرج من بقي منهم بالبصرة، فَلَحِق بابن الأزرق، إلاّ قليلاً منهم ممن لم يكن أراد الخروج يومه ذلك، منهم عبدُالله بن صَفّار، وعبدُالله بن إباض، ورجالٌ معهما على رأيهما. ونظر نافع بن الأزرق ورأى أن ولاية من تخلّف عنه لا تنبغي، وأنّ من تخلّف عنه لا نجاةَ له، فقال لأصحابه: إنّ الله قد أكرمكم بمُخرَجكم، وبصّركم ما عَمِيَ عنه غيرُكم؛ ألستم تعلمون أنكم إنما خرجتم تطلبون شريعته وأمرَه! فأمرُه لكم قائد، والكتاب لكم إمام، وإنما تتبعون سُنَنه وأثره، فقالوا: بلى؛ فقال: أليس حكمُكم في وليّكم حكم النبي ﷺ في وليّه، وحكمُكم في عدوّكم حكم النبي ﷺ في عدوّه، وعدوّكم اليوم عدو الله وعدو النبي ﷺ، كما أنّ عدو النبي ﷺ يومئذ هو عدوّ الله وعدوّكم اليوم! فقالوا: نعم؛ قال: فقد أنزَل الله تبارك وتعالى: ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(١).

وقال: ﴿ وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ ﴾(٢)، فقد حرّم الله ولايتَهم، والمُقامَ بين أظهُرهم، وإجازةَ شهادتهم، وأكلَ ذبائحهم وقبول علم الدّين عنهم، ومناكحتهم، ومواريثهم، وقد احتجّ الله علينا بمعرفة هذا، وحق علينا أن نُعلِّم هذا الدّينَ الذين خرجْنا من عندهم، ولا نكتم ما أنزل الله، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُون ﴾(٣)، فاستجاب له إلى هذا الرأي جميعُ أصحابه.

فكتب: من عُبيدالله نافِع بن الأزرق إلى عبدالله بن صفّار وعبدالله بن إباض ومن قِبلهما من الناس. سلامٌ على أهل طاعة الله من عبادالله، فإنّ من الأمر كيتَ وكيتَ؛ فقصّ هذه القصّة، ووصف هذه الصفة، ثم بعث بالكتاب إليهما، فأتيَا به، فقرأه عبدالله بن صفّار، فأخذه فوضعه خلفه، فلم يقرأه على الناس خشية أن يتفرّقوا ويختلفوا، فقال له عبدُالله بن إباض: ما لَكَ للّهِ أبوك! أيَّ شيء أصبْت! أأن قد أصيب إخواننا، أو أسِر بعضهم! فدفَع الكتابَ إليه، فقرأه ـ فقال: قاتله الله! أيَّ رأيٍ رَأَى! صدَق نافع بن الأزرق، لو كان القوم مشركين كان أصوبَ الناس رأياً وحُكماً فيما يشير به، وكانت سيرتُه كسِيرة النبي ﷺ في المشركين، ولكنه قد كذَب وكذَّبَنا فيما يقول، إنّ القوم كفار بالنعم والأحكام، وهم بُرآء من الشِّرْك، ولا تحلّ لنا إلاّ دماؤهم، وما سِوَى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام؛ فقال ابن صفّار: برىء اللّهُ منك، فقد قصّرت، وبرىء الله من ابن الأزرق فقد غلا، برىء الله منكما جميعاً؛ وقال الآخر: فبرىء الله منك ومنه.

(١) سورة التوبة: ١.
(٢) سورة البقرة: ٢٢١.
(٣) سورة البقرة: ١٥٩.

وتفرّق القوم، واشتدّت شوكة ابن الأزرق، وكثرت جُمُوعه، وأقبل نحوَ البصرة حتى دنا من الجسر، فبعث إليه عبدالله بن الحارث مسلم بن عُبيس بن كُرَيز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف في أهل البصرة .

قال أبو جعفر: وفي النصف من شهر رمضان من هذه السنة كان مَقدَم المختار بن أبي عُبَيد الكوفة .

ذكر الخبر عن سبب مقدمه إليها :

قال هشام بن محمد الكلبي : قال أبو مخنف : قال النضر بن صالح : كانت الشيعة تَشتُم المختار وتُعتبه لما كان منه في أمر الحسن بن علي يوم طُعن في مُظلِم ساباط ، فحُمل إلى أبيَض المدائن ، حتى إذا كان زمنَ الحسين، وبعث الحسينُ مسلمَ بن عقيل إلى الكوفة ، نزل دارَ المختار ، وهي اليوم دارُ سَلْم بن المسيّب ، فبايعه المختار بن أبي عُبيد فيمن بايعه من أهل الكوفة ، وناصَحه ودعا إليه من أطاعه ، حتى خرج ابن عقيل يوم خرج والمختار في قرية له بخُطَرْنِيَة تُدعَى لقفا ، فجاءَه خبرُ ابن عقيل عند الظهر أنه قد ظهر بالكوفة ، فلم يكن خروجُه يومَ خرج على ميعاد من أصحابه ، إنما خرج حين قيل له : إنّ هانىء بن عروة المراديّ قد ضُرِبَ وحُبِس، فأقبل المختار في موالٍ له حتى انتهى إلى باب الفيل بعد الغروب، وقد عَقَد عبيدالله بن زياد لعمرو بن حُريث راية على جميع الناس ، وأمره أن يقعد لهم في المسجد، فلما كان المختار وقف على باب الفيل مرّ به هانىء بن أبي حيّة الوادعيّ، فقال للمختار: ما وقوفُك ها هنا! لا أنت مع الناس، ولا أنت في رَحْلك ؛ قال: أصبح رأيي مرتجاً لعُظْم خطيئتكم ؛ فقال له : أظنك والله قاتلاً نفسَك ، ثم دخل على عمرو بن حُريث فأخبَره بما قال للمختار وما ردّ عليه المختار .

قال أبو مخنف: فأخبَرني النضر بن صالح ، عن عبدالرحمن بن أبي عمير الثّقفي ؛ قال: كنت جالساً عند عمرو بن حريث حين بلّغه هانىء بن أبي حيّة عن المختار هذه المقالة، فقال لي: قم إلى ابن عمك فأخبره أن صاحبه لا يدري أين هو! فلا يجعلنَّ على نفسه سبيلاً ، فقمت لآتيه ، ووثب إليه زائدة بن قدامة بن مسعود ، فقال له : يأتيك على أنه آمِن؟ فقال له عمرو بن حُرَيث: أمّا منّي فهو آمن ، وإن رُقّي إلى الأمير عبيدالله بن زياد شيء من أمره أقمتُ له بمحضره الشهادة ، وشَفَعت له أحسنَ الشفاعة ، فقال له زائدة بن قدامة : لا يكوننّ مع هذا إن شاء الله إلاّ خيرٌ .

قال عبدالرحمن : فخرجتُ ، وخرج معي زائدة إلى المختار ، فأخبرناه بمقالة ابن أبي حيّة وبمقالة عمرو بن حُرَيث ، وناشدناه بالله ألا يجعل على نفسه سبيلاً ، فنزل إلى ابن حريث ، فسلّم عليه ، وجلس تحت رايته حتى أصبح ، وتذاكرَ الناسُ أمرَ المختار وفعلَه ، فمشى عُمارة بن عقبة بن أبي مُعيط بذلك إلى عبيدالله بن زياد، فذكر له ، فلما ارتفع النهار فُتِح بابُ عبيدالله بن زياد وأذِن للناس، فدخل المختار فيمن دخل، فدعاه عبيدالله، فقال له: أنت المقبلُ في الجموع لتنصرُ ابن عَقِيل! فقال له: لم أفعل، ولكني أقبلت ونزلت تحتَ راية عمرو بن حُرَيث ، وبِتّ معه وأصبحت ، فقال لـه عمرو: صـدق أصلَحَك الله! قـال: فرفـع القضيبَ، فاعترض به وجهَ المختار فخبط به عينَه فشَتَرها وقال: أَوْلَى لك! أمَا والله لولا شهادةُ عمرو لك لضربتُ عنقك؛ انطلِقوا به إلى السجن فانطلقوا به إلى السجن فحُبس فيه فلم يزل في السجن حتى قُتِل الحسين. ثمّ أنّ المختار بعث إلى زائدة بن قدامة، فسأله أن يسير إلى عبدالله بن عمرَ بالمدينة فيسأله أن يكتب له إلى يزيد بن معاوية،

فيكتب إلى عبيدالله بن زياد بتخلية سبيله، فركب زائدةُ إلى عبدالله بن عمر فقدِم عليه، فبلّغه رسالةَ المختار، وعلمتْ صفيَّة أختُ المختار بمَحبِس أخيها وهي تحت عبدالله بن عمر، فبكت وجزعت، فلما رأى ذلك عبدالله بن عمرَ كتب مع زائدة إلى يزيدَ بن معاوية: أمّا بعد، فإنّ عبيدالله بن زياد حبس المختار، وهو صهري، وأنا أحبّ أن يعافَى ويُصلَح من حاله، فإن رأيتَ رحمنا الله، وإيّاك أن تكتب إلى ابن زياد فتأمرَه بتخليته فعلتَ. والسلام عليك.

فمضى زائدة على رواحله بالكتاب حتى قدم به على يزيدَ بالشام، فلما قرأه ضحك ثم قال: يشفّع أبو عبدالرحمن، وأهلُ ذلك هو. فكتب له إلى ابن زياد: أما بعد، فخلّ سبيلَ المختار بن أبي عُبيد حين تنظرُ في كتابي، والسلام عليك.

فأقبَل به زائدة حتى دفعه، فدعا ابن زياد بالمختار، فأخرجه، ثم قال له قد أجّلتُك ثلاثاً، فإن أدركتُك بالكوفة بعدَها قد برئت منك الذِّمّةُ. فخرج إلى رحله. وقال ابن زياد: والله لقد اجترأ عليَّ زائدة حين يرحل إلى أمير المؤمنين حتى يأتيني بالكتاب في تخلية رجل قد كان من شأني أن أطيل حبسَه، عليَّ به. فمرّ به عَمرو بن نافع أبو عثمان ـ كاتبٌ لابن زياد ـ وهو يُطلَب، وقال له: النَّجاءَ بنفسك، واذكرها يداً لي عِندَك.

قال: فخرج زائدة، فتوارى يومَه ذلك. ثمّ إنه خرج في أناس من قومه حتى أتى القعقاعَ بن شَوْر الذّهلي، ومسلم بن عمرو الباهلي، فأخذا له من ابن زياد الأمان.

قال هشام: قال أبو مخنف: ولما كان اليوم الثالث خرج المختار إلى الحجاز، قال: فحدّثني الصقعب بن زهير، عن ابن العِرْق، مولًى لثقيف. قال: أقبلتُ من الحجاز حتى إذا كنت بالبَسِيطَة مِنْ وراء واقِصَة استقبلتُ المختارَ بن أبي عُبيد خارجاً يريد الحجاز حين خَلّى سبيلَه ابنُ زياد، فلما استقبلتُه رحَّبت به، وعطفتُ إليه، فلما رأيت شَتَرَ عينه استرجعتُ له، وقلتُ له بعدما توجّعت له: ما بالُ عينِك، صرف الله عنك السوءَ! فقال: خبَط عيني ابن الزانية بالقَضيب خبطةً صارت إلى ما ترى. فقلتُ له: ما لَه شَلّت أناملُهُ! فقال المختار: قتلني الله إن لم أقطع أناملَه وأباجلَه وأعضاءَه إرْباً إرْباً؛ قال: فعجبتُ لمقالته، فقلت له: ما علمُك بذلك رحمك الله؟ فقال لي: ما أقول لك فاحفظْه عنّي حتى ترى مصداقَه.

قال: ثم طَفِق يسألني عن عبدالله بن الزبير، فقلت له: لجأ إلى البيت، فقال: إنما أنا عائذٌ بربّ هذه البنيّة، والناس يتحدّثون أنه يبايع سرًّا، ولا أراه إلّا لو قد اشتدّت شوكته واستكثف من الرجال إلّا سيُظهر الخلافَ؛ قال: أجَل، لا شكّ في ذلك، أمَا إنه رجلُ العرب اليومَ، أمَا إنه إنْ يخُطُطْ في أثري، ويسمعْ قولي أكفِه أمرَ الناس، وإلا يفعلْ فوالله ما أنا بدونِ أحد من العرب، يابنَ العِرْق، إنّ الفتنة قد أرعدتْ وأبرقتْ وكأنْ قد انبعثتْ فوطئت في خطامها، فإذا رأيتَ ذلك وسمعتَ به بمكان قد ظَهَرتُ فيه فقل: إنّ المختار في عصائبه من المسلمين، يطلب بدم المظلوم الشهيد المقتول بالطَّفّ، سيِّد المسلمين، وابن سيّدها، الحسين بن علي، فوربِّك لأقتلنّ بقتله عِدّةَ القتلى التي قتِلت على دم يَحيَى بن زكرياء عليه السلام؛ قال: فقلت له: سبحان الله! وهذه أعجوبة مع الأحدوثة الأولى؛ فقال: هو ما أقول لك فاحفظه عنّي حتى ترى مصداقَه. ثم حرّك راحلته، فمضَى ومضيت معه ساعةً أدعو الله له بالسلام، وحُسنِ الصحابة. قال: ثمّ إنّه وقف فأقسم عليَّ لما انصرفتُ، فأخذتُ بيده! فودّعته، وسلمت عليه، وانصرفت عنه، فقلت في نفسي: هذا الذي يذكر لي

هذا الإنسان ، ـ يعني المختار ـ مما يزعم أنه كائن ، أشيءُ حدّث به نفسه! والله ما أطلَع الله على الغيب أحداً ، وإنما هو شيءُ يتمنَّاه فيرى أنه كائن ، فهو يوجب رأيَه ، فهذا والله الرأيُ الشعاع ، فوالله ما كلّ ما يرى الإنسان أنه كائن يكون؛ قال: فوالله ما مُتّ حتى رأيتُ كلّ ما قاله. قال: فوالله لئن كان ذلك من علمٍ أُلقي إليه لقد أثبِتَ له ، ولئن كان ذلك رأياً رآه ، وشيئاً تمنّاه ، لقد كان .

قال أبو مخنف: فحدّثني الصقعب بن زهير. عن ابن العِرْق، قال: فحدّثت بهذا الحديث الحجّاج بن يوسف ، فضحك ثم قال لي: إنه كان يقول أيضاً :

ورافِعـةٍ ذَيلَـهَـــا وَدَاعِيَـــة وَيْلَهــا
بِدِجْلَة أوْ حَوْلَها

فقلت له: أترى هذا شيئاً كان يخترعه، وتخرُّصاً يتخرّصهُ، أم هو من علم كان أوتِيَه؟ فقال: والله ما أدري ما هذا الذي تسألني عَنه، ولكن لله درُّهُ! أيّ رجل ديناً، ومِسْعَرَ حرب، ومقارعَ أعداء كان!

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو سيف الأنصاري من بني الخزرج ، عن عباس بن سهل بن سعد ، قال : قدم المختار علينا مكة ، فجاء إلى عبدالله بن الزبير وأنا جالسٌ عنده، فسلّم عليه، فردّ عليه ابن الزبير ، ورحّب به ، وأوسع له، ثم قال: حدِّثني عن حال الناس بالكوفة يا أبا إسحاق؛ قال: هم لسلطانهم في العلانية أولياء، وفي السرّ أعداء؛ فقال له ابن الزبير: هذه صفة عَبيد السوء، إذا رأوا أربابَهم خدموهم وأطاعوهم ، فإذا غابوا عنهم شَتَموهم ولعنوهم ؛ قال : فجلس معنا ساعةً، ثم إنه مال إلى ابن الزبير كأنه يُسارّه ، فقال له : ما تنتظر! ابسُطْ يدكَ أبايعْك ، وأعطنا ما يُرضينا ، وثب على الحجاز فإنّ أهل الحجاز كلهم معك . وقام المختار فخرج ، فلم يُرَ حولاً ؛ ثم إنّي بينا أنا جالسٌ مع ابن الزبير إذ قال لي ابن الزبير: متى عهدُك بالمختار بن أبي عُبيد ؟ فقلت له: ما لي به عهد منذ رأيتُه عندَك عاماً أوّل ؛ فقال: أين تراه ذهب! لو كان بمكة، لقد رئيَ بها بعدُ، فقلت له: إني انصرفت إلى المدينة بعد إذ رأيتُه عندَك بشهر أو شهرين ، فلبثتُ بالمدينة أشهراً، ثم إني قدمتُ عليك، فسمعت نفراً من أهل الطائف جاؤوا معتمرين يزعمون أنه قدم عليهم الطائف، وهو يزعم أنه صاحب الغضب، ومُبِير الجبّارين، قال: قاتله الله! لقد انبعث كذاباً متكهِّناً، إن الله إنْ يُهلِك الجبَّارين يكن المختار أحدهم . فوالله ما كان إلاّ ريث فراغنا من منطقنا حتى عنّ لنا في جانب المسجد، فقال ابن الزبير: اذكرْ غائباً تَرَهُ؛ أين تظُنُّه يهوِي؟ فقلت: أظنه يريد البيت ، فأتى البيت فاستقبل الحجر، ثم طاف بالبيت أسبوعاً، ثمّ صلى ركعتين عند الحِجْر، ثمّ جلس، فما لبث أن مرّ به رجال من معارفه من أهل الطائف وغيرهم من أهل الحجاز، فجلسوا إليه ، واستبطأ ابن الزبير قيامَه إليه ، فقال : ما ترى شأنه لا يأتينا! قلت: لا أدري ، وسأعلم لك علمه ، فقال: ما شئتَ، وكأن ذلك أعجبه .

قال : فقمتُ فمررتُ به كأنّي أريد الخروجَ من المسجد ، ثمّ التفتُّ إليه ، فأقبلت نحوَه ثمّ سلّمت عليه ، ثمّ جلست إليه ، وأخذت بيده ، فقلتُ له: أين كنت؟ وأين بلغت بعدي؟ أبالطائف كنت؟ فقال لي : كنتُ بـالطائف وغير الطائف، وَعَمَس عليَّ أمرَه ، فملتُ إليه ، فناجَيْته ، فقلت له: مِثلُك يغيب عن مِثلِ ما قد اجتمع عليه أهلُ الشرف وبيوتاتِ العرب من قريش والأنصار وثقيف! لم يبق أهلُ بيت ولا قبيلة إلاّ وقد جاء زعيمُهم وعميدُهم فبايع هذا الرجل، فعجباً لك ولرأيك ألا تكون أتيتَه فبايعته، وأخذتَ بحظِّك من هذا

الأمر! فقال لي: وما رأيتَني؟ أتيتُه العامَ الماضي، فأشرت عليه بالرأي، فطوى أمرَه دوني، وإني لما رأيته استغنى عنِّي أحببت أن أرِيَه أنِّي مستغن عنه، إنه والله لهو أحوجُ إليَّ مني إليه؛ فقلت له: إنك كلمتَه بالذي كلمته وهو ظاهر في المسجد، وهذا الكلام لا ينبغي أن يكون إلاَّ والستور دونه مُرخاة والأبواب دونه مُغلَّقة، الِقَه الليلة إن شئتَ وأنا معك؛ فقال لي: فإنِّي فاعل إذا صلَّينا العَتَمة أتيناه، واتّعدْنا الحِجْر.

قال: فنهضتُ من عنده، فخرجت ثم رجعتُ إلى ابن الزبير، فأخبرتُه بما كان من قولي وقوله، فسرّ بذلك، فلما صلينا العَتَمة، التقَيْنا بالحِجر، ثمّ خرجنا حتى أتينا منزلَ ابن الزبير، فاستأذَنّا عليه، فأذن لنا، فقلت: أخلِّيكما؟ فقالا جميعاً: لا سِرَّ دونك، فجلستُ، فإذا ابن الزبير قد أخذ بيَدِهِ، فصافَحه ورحّب به، فسأله عن حاله وأهل بيته، وسكَتَا جميعاً غيرَ طويل.

فقال له المختار وأنا أسمع بعد أن تبدأ في أوّل منطقه، فَحَمِد اللّهَ وأثنى عليه ثم قال: إنه لا خير في الإكثار من المنطق، ولا في التقصير عن الحاجة، إني قد جئتك لأبايعَك على ألاّ تقضيَ الأمورَ دوني، وعلى أن أكونَ في أوّل مَنْ تأذَن له، وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك. فقال له ابن الزبير: أبايعك على كتاب الله وسنّة نبيِّه ﷺ؛ فقال: وشرّ غلماني أنت مبايعه على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ما لي في هذا الأمر من الحظّ ما ليس لأقصى الخلق منك؛ لا والله لا أبايعك أبداً إلاَّ على هذه الخصال.

قال عباس بن سهل: فالتقمتُ أذنَ ابن الزبير، فقلت له: اشترِ منه دينَه حتى ترى من رأيك؛ فقال له ابن الزبير: فإنّ لك ما سألتَه، فبسط يدَه فبايعه، ومَكث معه حتى شاهد الحِصارَ الأول حين قدم الحصين بن نمير السَّكوني مكة؛ فقاتل في ذلك اليوم، فكان من أحسن الناس يومئذ بلاءً، وأعظمهم غَناءً. فلما قُتل المنذر بن الزبير والمسور بن مَخْرَمَة ومصعب بن عبدالرحمن بن عوف الزهري، نادى المختار: يا أهل الإسلام، إليَّ إليَّ! أنا ابن أبي عُبيد بن مسعود، وأنا ابن الكُرّار لا الفُرّار، أنا ابن المُقدِمين غير المُحجمين؛ إليَّ يا أهلَ الحِفاظ وحُماةَ الأوتار، فحمِيَ الناسُ يومئذ، وأبلى وقاتل قتالاً حَسَناً.

ثم أقام مع ابن الزبير في ذلك الحِصار حتى كان يوم أحرِق البيت، فإنه أحرق يوم السبت لثلاث مضَين من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين، فقاتل المختار يومئذ في عصابة معه نحو من ثلاثمائة أحسنَ قتال قاتَله أحدٌ من الناس، إنْ كان ليقاتل حتى يتبلّد، ثم يجلس ويحيط به أصحابه، فإذا استراح نهض فقاتل، فما كان يتوجَّه نحو طائفة من أهل الشام إلاَّ ضارَبَهم حتى يكشفَهم.

قال أبو مخنف: فحدثني أبو يوسف محمد بن ثابط، عن عباس بن سهل بن سعد، قال: تولَّى قتالَ أهل الشام يوم تحريق الكعبة عبدُالله بن مطيع وأنا والمختار، قال: فما كان فينا يومئذ رجلٌ أحسن بلاءً من المختار.

قال: وقاتل قبل أن يطَّلع أهلُ الشام على موت يزيدَ بن معاوية بيوم قتالاً شديداً، وذلك يوم الأحد لخمس عشرةَ ليلة مضتْ من ربيع الآخر سنة أربع وستين، وكان أهلُ الشام قد رَجَوْا أن يَظفروا بنا، وأخذوا علينا سِكك مكّة.

قال: وخرج ابن الزبير، فبايَعه رجالٌ كثير على الموت؛ قال: فخرجتُ في عصابة معي أقاتل في جانب، والمختار في عصابة أخرى يقاتل في جُمَيعةٍ من أهل اليمامة في جانب، وهم خوارج، وإنما قاتلوا ليدافعوا عن البيت، فهم في جانب، وعبدالله بن المطيع في جانب.

قال: فشدَّ أهل الشام عليَّ، فحازوني في أصحابي حتى اجتمعتُ أنا والمختار وأصحابه في مكان واحد، فلم أكن أصنع شيئاً إلَّا صنع مثله، ولا يصنعَ شيئاً إلَّا تكلفتُ أن أصنع مِثلَه، فما رأيتُ أشد منه قطّ؛ قال: فإنا لنقاتل إذ شدّت علينا رجال وخيل من خيل أهل الشام، فاضطّروني وإياه في نحو من سبعين رجلاً من أهل الصبر إلى جانب دار من دُور أهل مكة، فقاتلهم المختارُ يومئذ، وأخذ يقول رجل لرجل:

لا وألتْ نفسُ امرىءٍ يفرُّ

قال: فخرج المختار، وخرجتُ معه، فقلت: ليخرج منكم إليَّ رجل فخرج إليَّ رجل وإليه رجل آخر، فمشيت إلى صاحبي فأقتُله، ومشى المختار إلى صاحبه فقتله، ثم صِحْنا بأصحابنا، وشدّدْنا عليهم، فوالله لضربناهم حتى أخرجناهم من السِّكك كلها، ثم رجعنا إلى صاحبيْنا اللَّذَين قتلْنا. قال: فإذا الذي قتلتُ رجلٌ أحمرُ شديدُ الحمرة كأنه رومي، وإذا الذي قتل المختار رجل أسودُ شديدُ السواد، فقال لي المختار: تعلّم والله إنّي لأظن قتيلَينا هَذَيْن عبدَين؛ ولو أنّ هذين قَتَلَانا لفُجع بنا عشائرنا ومَن يرجونا، وما هذان وكلبان مِن الكلاب عندي إلَّا سواء، ولا أخرج بعد يومي هذا لرجل أبداً إلَّا لرجل أعرفه؛ فقلت له: وأنا والله لا أخرج إلَّا لرجل أعرِفه.

وأقام المختار مع ابن الزبير حتى هلك يزيد بن معاوية، وانقضى الحصار، ورجع أهلُ الشام إلى الشام، واصطَلَح أهل الكوفة على عامر بن مسعود، بعد ما هلك يزيد يصلي بهم حتى يجتمع الناس على إمام يرضَوْنه، فَلَمْ يلبثْ عامرٌ إلَّا شهراً حتى بعث بِبيعَتهِ وَبَيْعة أهل الكوفة إلى ابنَ الزُبير، وأقامَ المختار مع ابنَ الزبير خمسةَ أشهر بعد مَهلِك يزيدَ وأيّاماً.

قال أبو مخنف: فحدّثني عبدالملك بن نوفل بن مساحق، عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص، قال: والله إني لمع عبدالله بن الزبير ومعه عبدالله بن صَفْوان بن أميّة بن خلف، ونحن نطوف بالبيت، إذ نظر ابن الزبير فإذا هو بالمختار، فقال لابن صفوان: انظر إليه؛ فوالله لَهو أحذَرُ من ذئب قد أطافت به السباع؛ قال: فمضى ومضينا معه، فلما قضينا طوافَنا وصلّينا الركعتين بعد الطواف لحقنا المختار، فقال لابن صفوان: ما الذي ذكرني به ابن الزبير؟ قال: فكَتمَه، وقال: لم يَذكُرك إلَّا بخير؛ قال: بلى وربِّ هذه البنيّة إن كنتُ لمن شأنكما، أما والله ليخطّن في أثَري أو لأقدنّها عليه سَعْراً. فأقام معه خمسةَ أشهر، فلما رآه لا يستعمله جعل لا يقدم عليه أحدٌ من الكوفة إلَّا سأله عن حال الناس وهيئتهم.

قال أبو مخنف: فحدّثني عطية بن الحارث أبو رَوْق الهمداني، أن هانىء بن أبي حيَّة الوادعي قدم مكة يريد عُمرةَ رمضان، فسأله المختار عن حاله وحال الناس بالكوفة وهيئتهم؛ فأخبره عنهم بصلاح واتّساق على طاعة ابن الزبير، إلَّا أن طائفة من الناس إليهم عدد أهل المصر لو كان لهم رجل يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض إلى يومٍ ما؛ فقال له المختار: أنا أبو إسحاق أنا والله لهم! أنا أجمعهم على مَرّ الحقّ، وأنفي بهم ركبان الباطل، وأقتل بهم كلّ جبَّار عنيد؛ فقال له هانىء بن أبي حيّة: وَيْحك يابن أبي عبيد! إن استطعتَ ألّا تُوضِع في الضلال ليكن صاحبهم غيرُك، فإنّ صاحب الفتنة أقربُ شيء أجلا، وأسوأ الناس عملاً؛ فقال له المختار: إني لا أدعو إلى الفتنة إنما أدعو إلى الهدى والجماعة، ثم وثب فخرج وركب رَواحلَه، فأقبل نحو الكوفة حتى إذا كان بالقَرْعاء لقيه سلمة بن مرثَد أخو بنت مرثد القابضي من هَمْدان ـ وكان من أشجع العرب، وكان ناسكاً ـ فلما

التقيا تصافحا وتساءَلا ، فخبره المختار؛ ثم قال لسلمة بن مرثد: حدّثني عن الناس بالكوفة؛ قال: هم كغنمٍ ضلّ راعِيها؛ فقال المختار بن أبي عبيد: أنا الذي أحسِن رِعايتها، وأبلُغ نهايتَها، فقال له سلمة: اتق اللّهَ واعلم أنك ميت ومبعوث، ومحاسب ومجزيٌّ بعَملك إنْ خيراً فخيرٌ وإنْ شرًّا فشرّ، ثمّ افترقا. وأقبل المختار حتى انتهى إلى بحر الحِيرة يومَ الجمعة، فنزل فاغتسل فيه، وادّهن دُهناً يسيراً، ولبس ثيابه واعتمّ، وتقلّد سيفه، ثم ركب راحلتَه فمرّ بمسجد السَّكون وجبَّانة كِنْدة؛ لا يمرّ بمجلس إلاَّ سلم على أهله، وقال: أبشروا بالنّصر والفلج، أتاكم ما تحبّون، وأقبل حتى مرّ بمسجد بني ذُهل وبني حُجْر، فلم يجد ثمَّ أحداً، ووجد الناس قد راحوا إلى الجمعة، فأقبل حتى مرّ ببني بدّاء، فوجد عبيدة بنَ عمرو البَدّي من كِنْدة، فسلم عليهم، ثم قال: أبشر بالنصر واليُسر والفلج، إنـك أبا عمرو على رأي حَسَن، لن يَدَعَ اللّهُ لك معه مأثما إلاّ غفره، ولا ذَنباً إلاَّ سَتَره ـ قال: وكان عبيدة من أشجع الناس وأشعرِهم، وأشدِّهم حبًّا لعليٍّ رضي الله عنه، وكان لا يصبر عن الشراب ـ فلما قال له المختار هذا القول قال له عبيدة: بشّرك الله بخير إنك قد بشّرتنا، فهل أنت مفسرٌ لنا؟ قال: نعم، فالقِني في الرّحل الليلةَ ثم مضى.

قال أبو مخنف: فحدّثني فُضَيل بن خَدِيج، عن عبيدة بن عمرو قال: قال لي المختار هذه المقالة، ثم قال لي: القني في الرّحل، وبلّغ أهلَ مسجدكم هذا عنّي أنهم قومٌ أخذ الله ميثاقَهم على طاعته، يقتلون المُحِلّين، ويطلبون بدماء أولاد النبيّين، ويهديهم للنور المبين، ثم مضى فقال لي: كيف الطريق إلى بني هند؟ فقلت له: أنظرني أدلّك، فدعوتُ بفَرَسي وقد أسرِج لي فركبتُه؛ قال: ومضيت معه إلى بني هند، فقال: دُلّني على منزل اسماعيل بن كَثِير. قال: فمضيتُ به إلى منزله، فاستخرجته، فحيّاه ورحّب به، وصافحه وبشّره، وقال له: القَنِي أنتَ وأخـوك الليلةَ وأبو عمرو فإني قد أتيتكم بكل ما تحبّون؛ قال: ثم مضى ومضينا معه حتى مرّ بمسجد جُهَينة الباطنة، ثم مضى إلى باب الفيل، فأناخ راحلتَه، ثم دخل المسجد واستشرف لـه الناس، وقالوا: هذا المختار قد قَدِم، فقام المختار إلى جنب سارية من سواري المسجد، فصلّى عندها حتى أقيمت الصلاة، فصلّى مع الناس ثم ركد إلى سارية أخرى فصلى ما بين الجمعة والعصر، فلما صلى العصر مع الناس انصرف.

قال أبو مخنف: فحدّثني المجالد بن سعيد، عن عامر الشعبي، أنّ المختار مرّ على حلْقة همدانَ وعليه ثياب السَّفَر، فقال: أبشِروا، فإني قد قدمت عليكم بما يسرّكم، ومضى حتى نزل داره، وهي الدار التي تُدعَى دارَ سلْم بن المسيّب، وكانت الشّيعة تختلف إليها وإليه فيها.

قال أبو مخنف: فحدّثني فُضَيل بن خَدِيج، عن عبيد بن عمرو، وإسماعيل بن كثير من بني هند، قالا: أتيناه من الليل كما وعَدَنا، فلما دخلنا عليه وجلسنا ساءَلَنا عن أمر الناس وعن حال الشيعة، فقلنا له: إنّ الشيعة قد اجتمعت لسليمان بن صُرَد الخُزاعيّ، وإنه لن يلبثَ إلاّ يسيراً حتى يخرج؛ قال: فحمِد الله وأثنَى عليه وصلّى على النبي ﷺ ثم قال: أما بعد، فإنّ المهدي ابن الوصي، محمد بن علي، بعثني إليكم أميناً ووزيراً ومنتخباً وأميراً، وأمرني بقتال الملحِدين، والطلب بدماء أهلِ بيته والدفع عن الضّعفاء.

قال أبو مخنف: قال فضيل بن خَدِيج: فحدّثني عبيدة بن عمرو وإسماعيل بن كثير، أنهما كانا أول خلق الله إجابةً وضرباً على يده، وبايعاه. قال: وأقبل المختار يبعث إلى الشيعة وقد اجتمعت عند سليمان بن

صُرد، فيقول لهم: إني قد جئتكم من قِبل وليّ الأمر، ومَعدن الفضل، ووصيِّ الوصيِّ والإمام المهدي، بأمر فيه الشفاء، وكشفُ الغطاء، وقتل الأعداء، وتمام النَّعماء؛ إنّ سليمان بن صُردَ يرحمنا الله وإيّاه إنما هو عَشَمة من العَشم وحِفشٌ بالٍ، ليس بذي تجربة للأمور، ولا له علمٌ بالحروب؛ إنما يريد أن يُخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم. إني إنما أعمل على مثال قد مُثّل لي، وأمرٍ قد بُيِّنَ لي، فيه عزّ وليّكم، وقتل عدوّكم، وشفاء صدوركم، فاسمعوا مني قولي، وأطيعوا أمري، ثم أبشِروا وتباشَروا؛ فإنّي لكم بكل ما تأملون خيرُ زعيم.

قال: فوالله ما زال بهذا القول ونحوه حتى استمالَ طائفةً من الشيعة، وكانوا يختلفون إليه ويعظّمونه، وينظرون أمرَه، وعُظمُ الشيعة يومئذ ورؤساؤهم مع سليمان بن صُرد، وهو شيخ الشيعة وأسنُّهم، فليس يَعدِلون به أحداً؛ إلاّ أن المختار قد استمال منهم طائفةً ليسوا بالكثير، فسليمان بن صُرَد أثقل خلق الله على المختار، وقد اجتمع لابن صُرَد يومئذ أمرُه، وهو يريد الخروج والمختار لا يريد أن يتحرّك، ولا أن يهيّج أمراً حتّى ينظر إلى ما يصير إليه أمرُ سليمان، رجاءَ أن يستجمع له أمرُ الشيعة، فيكون أقوى له على دركِ ما يطلب، فلما خرج سليمان بن صرَد ومضى نحو الجَزيرة قال عمر بن سعد بن أبي وقّاص وشَبَث بن رِبْعِيّ ويزيد بن الحارث بن رُوَيْم لعبدالله بن يزيد الخطميّ وإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيدالله: إنّ المختار أشدّ عليكم من سليمان ابن صُرَد، إن سليمان إنما خرج يقاتل عدوّكم، ويذللهم لكم، وقد خرج عن بلادكم، وإنّ المختار إنما يريد أن يثبَ عليكم في مصركم، فسيروا إليه فأوثِقوه في الحديد، وخلّدوه في السجن حتى يستقيمَ أمرُ الناس، فخرجوا إليه في الناس، فما شعر بشيء حتى أحاطوا به وبداره فاستخرجوه، فلما رأى جماعتهم قال: ما بالُكم! فوالله بُعدَ ما ظفِرت أكفّكم! قال: فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيدالله لعبدالله بن يزيد: شُدّه كتافاً، ومشّه حافياً؛ فقال له عبدالله بن يزيد: سبحان الله! ما كنت لأمشّيه ولا لأحفيه ولا كنت لأفعلَ هذا برجل لم يُظهر لنا عداوةً ولا حرباً، وإنما أخذناه على الظنّ. فقال له إبراهيم بن محمد: ليس بعُشِّك فادْرُجي، ما أنت وما يبلغنا عنك يابن أبي عبيد! فقال له: ما الذي بلغك عني إلاّ باطلٌ، وأعوذ بالله من غشٍّ كغِشّ أبيك وجدّك!.

قال: فُضَيل: فوالله إني لأنظرُ إليه حين أخرج وأسمع هذا القول حين قال له، غير أنّي لا أدري أسمعه منه إبراهيم أم لم يسمعه؛ فسكت حين تكلم به؛ قال: وأتى المختار ببغلة دهماءَ يركبها، فقال إبراهيم لعبدالله بن يزيد: ألا تشدّ عليه القيود؟ فقال: كفى له بالسجن قيداً.

قال أبو مخنف: وأما يحيى بن أبي عيسى فحدّثني أنه قال: دخلت إليه مع حميد بن مسلم الأزدي نزوره ونتعاهده، فرأيته مقيّداً؛ قال: فسمعتُه يقول: أما وربِّ البحار، والنخيل والأشجار، والمَهامِه والقفار، والملائكة الأبرار، والمصطَفين الأخيار، لأقتلنّ كلَّ جبّار، بكلِّ لَدْن خطّار، ومهنَّدٍ بتّار، في جُموع من الأنصار، ليسوا بمِيل أغمار، ولا بُعْزلٍ أشرار، حتى إذا أقمتُ عَمودَ الدين، ورأبْتُ شَعْب صَدْع المسلمين، وشفيتُ غليلَ صدور المؤمنين، وأدركتُ بثأر النبيِّين، ولم يكبُر عليَّ زوال الدنيا ولم أحفل بالموت إذا أتى.

قال: فكان إذا أتيناه وهو في السجن ردّد علينا هذا القول حتى خرج منه؛ قال: وكان يتشجّع لأصحابه بعدما خرج ابن صُرَد.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة هدم ابن الزبير الكعبةَ، وكانت قد مال حيطانُها مما رُميَت به من حجارة

المَجانيق ، فذكر محمد بن عمر الواقدي أنّ إبراهيم بن موسى حدّثه عن عكرمة بن خالد، قال: هدم ابن الزبير البيتَ حتى سوّاه بالأرض ، وحفر أساسه . وأدخل الحِجْر فيه ، وكان الناس يطوفون من وراء الأساس، ويصلُّون إلى موضعه ، وجعل الرّكن الأسوَد عنده في تابوت في سَرَقةٍ من حرير، وجعل ما كان من حُليّ البيت وما وجد فيه من ثياب أو طيب عند الحَجَبة في خِزانة البيت، حتى أعادها لّما أعاد بناءه .

قال محمد بن عمر: وحدّثني معقل بن عبدالله ، عن عطاء ، قال: رأيت ابنَ الزّبير هدم البيت كله حتى وضعه بالأرض .

وحجّ بالناس في هذه السنة عبدالله بن الزبير .

وكان عامله على المدينة فيها أخوه عبيدة بن الزبير، وعلى الكوفة عبدالله بن يزيد الخطميّ ، وعلى قضائها سعيد بن نِمْران .

وأبَى شُرَيح أن يقضي فيها ، وقال فيما ذكِر عنه : أنا لا أقضي في الفتنة . وعلى البصرة عمر بن عبيدالله بن مَعمَر التيمي ، وعلى قضائها هشامُ بن هُبيرة ، وعلى خُراسان عبدالله بن خازم .

ثم دخلت سنة خمس وستين

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث الجليلة

فمن ذلك ما كان من أمر التوّابين وشخوصِهم للطلب بدم الحسين بن علي إلى عبيدالله بن زياد .

قال هشام : قال أبو مخنف : حدّثني أبو يوسف ، عن عبدالله بن عوف الأحمري ، قال : بعث سليمان بن صُرَد إلى وجوه أصحابه حين أراد الشخوص وذلك في سنة خمس وستين ، فأتوه ، فلما استهل الهلال هلالُ شهر ربيعٍ الآخر ، خرج في وجوه أصحابه ، وقد كان واعَدَ أصحابه عامّة للخروج في تلك الليلة للمعسكر بالنُّخَيلَة فخرج حتى أتى عسكرَه ، فدار في الناس ووجوه أصحابِه ، فلم يعجبه عدّة الناس ، فبعث حكيم بن مُنقِذ الكندي في خيل ، وبعث الوليد بن غُصَيْن الكنانيّ في خيل ، وقال : اذهبا حتى تدخلا الكوفة فناديا : يا لَثاراتِ الحسين ! وابلُغا المسجد الأعظم فنادِيا بذلك ، فخرجا ، وكانا أوّل خلق الله دَعَوا : يا لَثاراتِ الحسين! قال : فأقبل حكيم بن منقذ الكندي في خيل والوليد بن غُصَين في خيل ، حتى مرّا ببني كثير ، وإنّ رجلاً من بني كثير من الأزْد يقال له عبدالله بن خازم مع امرأته سَهْلة بنت سبرة بن عمرو من بني كثير ، وكانتْ من أجمل الناس وأحبِّهم إليه ، سمع الصوت : يا لثارات الحسين! وما هو ممن كان يأتِيهم ، ولا استجابَ لهم . فوثب إلى ثيابه فلبِسها ، ودعا بسلاحه ، وأمر بإسراج فَرَسِه ، فقالت له امرأته : ويحك! أَجُنِنت! قال : لا والله ، ولكنّي سمعتُ داعيَ الله ، فأنا مُجيبه ، أنا طالبٌ بدم هذا الرجل حتّى أموت ، أو يقضي الله من أمري ما هو أحبّ إليه ، فقالت له : إلى مَن تدعُ بُنَيَّك هذا؟ قال : إلى الله وحدَه لا شريك له ؛ اللهمّ إني أستودِعُك أهلي وولَدي ، اللهمَّ احفظني فيهم ؛ وكان ابنه ذلك يُدعى عَزْرة ، فبقي حتى قتل بعدُ مع مصعب بن الزبير؛ وخرج حتى لحق بهم ، فقعدت امرأته تبكيه واجتمع إليها نساؤها ، ومضى مع القوم ، وطافت تلك الليلة الخيل بالكوفة ، حتى جاؤوا المسجدَ بعد العتَمة ، وفيه ناسٌ كثير يصلُّون ، فنادوا : يا لثارات الحسين! وفيهم أبو عزّة القابضي وكرب بن نِمْران يصلّي ، فقال : يا لثارات الحسين! أين جماعة القوم؟ قيل : بالنُّخَيلة ، فخرج حتى أتى أهله ، فأخذ سلاحه ، ودعا بفرسه ليركبه ، فجاءته ابنتُه الرُّواع ـ وكانت تحت ثُبَيت بن مرثد القابضي . فقالت : يا أبتِ ، ما لي أراك قد تقلدت سيفَك ، ولبستَ سلاحك! فقال لها : يا بنيّة ، إن أباكِ يفرّ من ذنبه إلى ربّه ، فأخذتْ تَنتحِب وتبكي ، وجاءه أصهاره وبنو عمه ، فودّعهم ، ثم خرج فلحق بالقوم ؛ قال : فلم يصبح سليمان بن صرَد حتى أتاه نحوٌ ممّن كان في عسكره حين دخله ؛ قال : ثم دعا بديوانه لينظر فيه إلى عدّة من بايعه حين أصبح ، فوجدهم ستة عشر ألفاً ، فقال : سبحان الله! ما وافانا إلّا أربعة آلاف من ستة عشر ألفاً .

قال أبو مخنف: عن عطية بن الحارث، عن حميد بن مسلم، قال: قلت لسليمان بن صُرَد: إنّ المختار والله يثبّط الناسَ عنك، إنّي كنت عنده أوّل ثلاث، فسمعتُ نفراً من أصحابه يقولون: قد كمُلنا ألفَي رجل؛ فقال: وهَبْ أنّ ذلك كان؛ فأقام عنّا عشرة آلاف، أمَا هؤلاء بمؤمنين! أمَا يخافون الله! أمَا يذكرون الله، وما أعطَوْنا من أنفسهم من العهود والمواثيق ليُجاهدُنّ ولَيُنصرُنّ! فأقام بالنُّخَيْلة ثلاثاً يبعث ثِقاتِهِ من أصحابه إلى مَنْ تخلّف عنه يذكّرهم اللّهَ وما أعطَوْه من أنفسهم، فخرج إليه نحوٌ من ألف رجل، فقام المسيّب بن نَجَبَة إلى سليمان بن صُرَد، فقال: رحمك الله، إنه لا ينفعك الكارهُ، ولا يقاتل معك إلاّ مَن أخرجَتْهُ النيّة، فلا تنتظرنّ أحداً، واكمُشْ في أمرك. قال: فإنك والله لنِعمّا رأيت! فقام سليمان بن صرد في الناس متوكِّئاً على قوس له عربيّة. فقال: أيها الناس، مَنْ كان إنما أخرجتْه إرادةُ وجهِ الله وثوابِ الآخرة فذلك منّا ونحن منه، فحرمة الله عليه حيًّا وميتاً، ومَنْ كان إنما يريد الدنيا وحَرْثَها فوالله ما نأتي فيئاً نستفيئه، ولا غنيمةً نغنَمُها، ما خلا رضوان الله رَبّ العالمين، وما معنا من ذهب ولا فضّة، ولا خَزّ ولا حرير، وما هي إلاّ سيوفنا في عواتقنا، ورماحنا في أكفّنا، وزادٌ قدر البُلْغة إلى لقاء عدوّنا، فمن كان غيرَ هذا ينوي فلا يصحبْنا.

فقام صُخير بن حذيفة بن هلال بن مالك المُزَنيّ، فقال: آتاك الله رشدكَ، ولقّاك حُجَّتك؛ والله الذي لا إله غيره ما لنا خيرٌ في صحبةِ مَنِ الدنيا همَّتُهُ ونيّته. أيّها الناس، إنما أخرجتْنا التوبةُ من ذنبنا، والطلَب بدم من نبيِّنا، ﷺ ليس معنا دينارٌ ولا درهم، إنما نقدم على حدّ السيوف وأطراف الرّماح؛ فتنادَى الناسُ من كلّ جانب: إنَّا لا نطلب الدنيا، وليس لها خرجْنا.

قال أبو مخنف: عن إسماعيل بن يزيد الأزديّ، عن السّريّ بن كعب الأزديّ، قال: أتينا صاحبَنا عبدالله بن سعد بن نفيل نودّعه، قال: فقام فقمنا معه، فدخل على سليمان ودخلنا معه، وقد أجمع سليمان بالمسير، فأشار عليه عبدالله بن سعد بن نُفَيل أن يسيرَ إلى عبيدالله بن زياد، فقال هو ورؤوس أصحابه: الرأي ما أشار به عبدالله بن سعد بن نُفَيل أن نسير إلى عبيدالله بن زياد قاتِل صاحبِنا، ومِن قِبَله أُتينا، فقال له عبدالله بن سعد وعنده رؤوس أصحابه جلوس حوله: إنّي قد رأيت رأياً إن يكُن صواباً فالله وفّق، وإن يكن ليس بصواب فمِن قِبَلي، فإني ما آلوكم ونفسي نصحاً؛ خطأ كان أم صواباً، إنما خرجنا نطلب بدم الحسين، وقَتَلَة الحسين كلهم بالكوفة، منهم عمر بن سعد بن أبي وقّاص، ورؤوس الأرباع وأشراف القبائل، فأنّى نذهب ها هنا وندع الأقتال والأوتار! فقال سليمان بن صُرَد: فماذا ترون؟ فقالوا: والله لقد جاء برأيٍ، وإنّ ما ذكر لكما ذكر، والله ما نلقى من قَتَلةِ الحسين إن نحن مضينا نحو الشام غيرَ ابن زياد، وما طِلبَتُنا إلا هـا هنا بالمِصْر؛ فقال سليمان بن صُرَد: لكن أنا ما أرى ذلك لكم، إنّ الذي قتل صاحبكم، وعَبّأ الجنودَ إليه، وقال: لا أمانَ له عندي دون أن يستسلم فامضِي فيه حُكمي هذا الفاسق ابن الفاسق ابن مَرْجانة، عبيدالله بن زياد؛ فسيروا إلى عدوّكم على اسم الله؛ فإن يُظهركم الله عليه رجَوْنا أن يكون مَن بعده أهونَ شوكةً منه، ورجونا أن يدين لكم مَن وراءكم من أهل مصْركم في عافية، فتنظرون إلى كل مَن شرك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تغشموا، وإن تُستشهدُوا فإنما قاتلتم المحلِّين، وما عندَ اللّهِ خيرٌ للأبْرارِ والصدّيقين؛ إني لأحبّ أن تجعلوا حدَّكم وشوكتَكم بأوّل المحلِّين القاسطين. والله لو قاتلتم غداً أهلَ مصركم ما عدم رجلٌ أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمَه، أو رجلاً لم يكن يريد قتله؛ فاستخيروا الله وسيروا. فتهيَّأ الناس للشخوص. قال: وبلغ عبدالله بْنَ يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروجُ ابن صُرَد وأصحابه، فنظرا في أمرهما، فرأيا أن يأتياهم

فيَعرِضا عليهم الإقامة ، وأن تكون أيديهم واحدةً، فإن أبوْا إلَّا الشخوص سألوهم النَّظِرةَ حتى يعبّوا معهم جيشاً فيقاتلوا عدوّهم بكثفٍ وحدٍّ؛ فبعث عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة سويدَ بن عبدالرحمن إلى سليمان بن صُرَد ، فقال له: إنّ عبدالله وإبراهيم يقولان : إنَّا نريد أن نجيئك الآن لأمرٍ عسى الله أن يجعل لنا ولك فيه صلاحاً؛ فقال : قل لهما فليأتيانا ، وقال سليمان لرِفَاعة بن شدّاد البَجَليّ : قمْ أنت فأحسِن تَعبئةَ الناس ؛ فإنّ هذين الرجلين قد بعثا بكَيتَ وكَيتَ ، فدعا رؤوس أصحابه فجلسوا حولَه فلم يمكثوا إلَّا ساعةً حتى جاء عبدالله بن يزيدَ في أشراف أهل الكوفة والشُّـرَط وكثيرمن المقاتِلة ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة في جماعة من أصحابه ، فقال عبدالله بن يزيد لكلّ رجل معروف قد علم أنه قد شَرِك في دم الحسين : لا تصحبني إليهم مخافة أن ينظروا إليه فيَعدُوا عليه ؛ وكان عمر بن سعد تلك الأيام التي كان سليمان معسكِراً فيها بالنُّخيلة لا يبيت إلَّا في قصر الإمارة مع عبدالله بن يزيد مخافة أن يأتيَه القوم في داره ، ويذمُروا عليه في بيته وهو فاعل لا يعلم فيقتَل . وقال عبدالله بن يزيد : يا عمرو بن حريث ، إن أنا أبطأتُ عنك فصلِّ بالناس الظهر .

فلما انتهى عبدالله بن يزيدَ وإبراهيم بن محمد إلى سليمان بن صُرَد دخلا عليه ، فحَمِد الله عبدالله بن يزيد وأثنَى عليه ثم قال: إن المسلم أخو المسلم لا يخونه ، ولا يغشّهُ، وأنتم إخوانُنا ، وأهلُ بلدنا، وأحبّ أهلِ مصرْ خلَقَهُ الله إلينا ، فلا تفجعونا بأنفسكم ـ ولا تستَبِدّوا علينا برأيكم ، ولا تنقصوا عَدَدَنا بخروجكم من جماعتِنا ؛ أقيموا معنا حتى نتيسّر ونتهيأ، فإذا علمنا أن عدونا قد شارف بلدنا خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتَلْناهم .

وتكلم إبراهيم بن محمد بنحوٍ من هذا الكلام . قال: فحمِد الله سليمانُ بن صُرَد وأثنى عليه ثم قال لهما : إنّي قد علمت أنكما قد مَحَضْتما في النصيحة واجتهدتما في المشورة، فنحن بالله وله، وقد خرجنا لأمر، ونحن نسأل الله العزيمة على الرشد والتسديد لأصوبه، ولا نرانا إلا شاخصين إن شاء الله ذلك . قال عبدالله بن يزيد : فأقيموا حتى نُعبِّىءَ معكم جيشاً كثيفاً ، فتلقوا عدوكم بكثفٍ وجمع وحدٍّ . فقال سليمان : تنصرفون ، ونرى فيما بيننا ، وسيأتيكم إن شاء الله رأيّ .

قال أبو مخنف : عن عبد الجبّار ـ يعني ابن عباس الهمداني ـ عن عَوْن بن أبي جُحَيفة السُّوَائي ، قال : ثم إن عبدالله بن يزيدَ وإبراهيم بن محمد بن طلحة عَرَضا على سليمان أن يقيم معهما حَتى يلقوا جموعَ أهل الشام على أن يخصّاه وأصحابه بخراج جُوخَى خاصّة لهم دون الناس، فقال لهما سليمان : إنَّا ليس للدّنيا خرجنا ؛ وإنما فعلا ذلك لما قد كان بلغهما من إقبال عُبيدالله بن زياد نحوَ العراق . وانصرف إبراهيم بن محمد وعبدالله بن يـزيـدَ إلى الكـوفـة، وأجمـع القـوم عـلى الشخـوص واستقبـال ابن زيـاد، ونـظروا فـإذا شيعتُهم من أهـل البَصرة لم يـوافوهم لميعـادهم ولا أهـل المـدائن، فـأقبـل نـاس من أصحـابـه يلزمـونهم، فقـال سليمان : لا تلزموهم فإني لا أراهم إلَّا سيُسرعون إليكم ، لو قد انتهى إليهم خبركم وحينُ مسيركم ، ولا أراهم خلّفهم ولا أقعدَهم إلَّا قلّةُ النفقة وسوءُ العُدّة، فأقيموا ليتيسّروا ويتجهّزوا ويلحقوا بكم وبهم قوّة، وما أسرعَ القومَ في آثاركم . قال: ثم إن سليمان بن صُرَد قام في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد أيّها الناس، فإن الله قد علم ما تنوُون ، وما خرجتم تَطلُبون ، وإن للدّنيا تجّاراً، وللآخرة تجّاراً، فأمّا تاجر الآخرة فساعٍ إليها ، متنصّب بتَطْلابها، لا يشتري بها ثمناً، لا يُـرى إلَّا قائـماً وقاعـداً، وراكعاً وساجداً، لا يطلب ذهباً ولا فضّة، ولا دنيا ولا لذّة، وأمّا تاجر الدّنيا فمُكبٌّ عليها ، راتعٌ فيها ، لا يبتغي بها بدلاً ؛ فعليكم يرحمكم الله في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل ، وبذكر الله كثيراً على كل حال ،

وتقرّبوا إلى الله جل ذكره بكل خير قدرتم عليه، حتى تلقَوا هذا العدوّ والمُحلّ القاسط فتجاهدوه ، فإنّ تتوسّلوا إلى ربّكم بشيء هو أعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة؛ فإنّ الجهاد سَنامُ العمل . جعلَنا الله وإيّاكم من العباد الصالحين، المجاهدين الصابرين على اللأواء؛ وإنا مُدّلجون الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله فادّلجوا

فادّلج عشيّة الجمعة لخمسٍ مضَينْ من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين للهجرة .

قال: فلما خرج سليمان وأصحابُه من النُّخَيْلة دعا سليمان بن صُرَد حكيم بن منقذ فنادى في الناس: ألا لا يبيتَنّ رجل منكم دون دَيْر الأعوَر . فبات الناس بدير الأعور، وتخلّف عنه ناسٌ كثير، ثمّ سار حتى نزل الأقساس؛ أقساس مالك على شاطىء الفرات ، فعرض الناس ، فسقط منهم نحوٌ من ألف رجل ، فقال ابن صُرد : ما أحبّ أن مَن تخلّف عنكم معكم ، ولو خرجوا معكم ما زادوكم إلاّ خبالاً ؛ إنّ الله عزّ وجلّ كره انبعاثهم فثبّطهم ، وخصّكم بفضلِ ذلك ، فاحمدوا ربّكم . ثم خرج من منزله ذلك دُلْجَةً ، فصبّحوا قبر الحسين ، فأقاموا به ليلةً ويوماً يصلّون عليه ، ويستغفرون له؛ قال: فلما انتهى الناسُ إلى قبر الحسين صاحوا صيحةً واحدة ، وبكَوا ؛ فما رُئي يومٌ كان أكثرَ باكياً منه .

قال أبو مخنف: وقد حدّث عبدالرحمن بن جندب، عن عبدالرحمن بن غزّية ، قال: لما انتهينا إلى قبر الحسين عليه السلام بكَى الناس بأجمعهم ،وسمعتُ جُلّ الناس يتمنّون أنهم كانوا أصيبوا معه ؛ فقال سليمان: اللهمّ ارحم حسيناً الشهيدَ ابنَ الشهيد، المهديّ ابنَ المهديّ، الصدّيقَ ابن الصدّيق ، اللهمّ إنا نُشهدك أنا على دينهم وسبيلهم، وأعداء قاتليهم، وأولياء محبّيهم. ثمّ انصرف ونزل، ونزل أصحابُه .

قال أبو مخنف: حدّثنا الأعمش، قال: حدّثنا سلمة بن كُهَيْل، عن أبي صادق، قال: لما انتهى سليمان بن صُرَد وأصحابه إلى قبر الحسين نادَوْا صيحةً واحدةً : يا ربّ إنا قد خَذَلْنا ابْنَ بنت نبيّنا ، فاغفر لنا ما مضى منّا، وتب علينا إنك أنت التوّاب الرّحيم ، وارْحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصدّيقين ، وإنا نُشهدك يا ربّ أنا على مثل ما قُتلوا عليه ، فإن لم تَغفِر لنا وترحَمْنا لنكوننّ من الخاسرين ؛ قال: فأقاموا عنده يوماً وليلة يصلّون عليه ويبكون ويتضرّعون؛ فما انفكّ الناسُ من يومهم ذلك يترحّمون عليه وعلى أصحابه ، حتى صلّوا الغداةَ من الغدِ عند قبره ، وزادهم ذلك حَنَقا . ثمّ ركبوا ، فأمر سليمانُ الناسَ بالمسير ، فجعل الرجل لا يمضي حتى يأتيَ قبر الحسين فيقوم عليه ، فيترحّم عليه ، ويستغفر له ، قال: فوالله لرَأيتهم ازدحموا على قبره أكثر من ازدحام الناس على الحَجَر الأسوَد .

قال : ووقف سليمان عند قبره ، فكلّما دعا له قوم وترحّموا عليه قال لهم المسيّب بن نَجَبة وسليمان بن صُرَد : الحقوا بإخوانِكم رحمكم الله! فما زال كذلك حتى بقيَ نحو من ثلاثين من أصحابه ، فأحاط سليمانُ بالقبر هو وأصحابُه ، فقال سليمان : الحمد لله الذي لو شاء أكرمَنا بالشّهادة مع الحسين ، اللهمّ إذ حرمتَناها معه فلا تحرِمْناها فيه بعدَه .

وقال عبدالله بن وال: أما والله إني لأظنّ حسيناً وأباه وأخاه أفضلَ أمة محمد ﷺ وسيلةً عند الله يوم القيامة، أفما عجبتم لما ابتليتْ به هذه الأمة منهم! إنهم قتلوا اثنين، وأشفَوْا بالثالث على القتل؛ قال: يقول المسيب بن نَجَبة: فأنا مِن قَتَلتِهم ومَن كان على رأيهم بريءٌ ، إيّاهم أعادي وأقاتل . قال فأحسن الرؤوس كلُّهم المنطق ، وكان المثنّى بن مخرّبة صاحب أحد الرؤوس والأشراف، فساءني حيث لم أسمعه تكلّم مع القوم

بنحو ما تكلموا به ؛ قال : فوالله ما لبث أن تكلّم بكلماتٍ ماكنٍّ بدون كلام أحدٍ من القوم ، فقال: إنّ الله جعل هؤلاء الذين ذكرتهم بمكانهم من نبيِّهم ﷺ أفضل ممن هو دون نبيِّهم، وقد قتلهم قوم نحن لهم أعداء، ومنهم براء، وقد خرجْنا من الديار والأهلين والأموال إرادةَ استئصال مَن قتلهم ؛ فوالله لو أنّ القتال فيهم بمَغرِب الشمس أو بمنقَطع التراب يَحقّ علينا طلبُه حتى نناله، فإنّ ذلك هو الغُنْم، وهي الشهادة التي ثوابها الجنّة ، فقلنا له: صدقتَ وأصبتَ ووُفِّقت.

قال: ثم إن سليمان بن صُرَد سار من موضع قبر الحسين وسرْنا معه ، فأخذنا على الحَصّاصة ، ثم على الأنبار ، ثمّ على الصدود ، ثمّ على القيَّارة .

قال أبو مخنف : عن الحارث بن حَصِيرة وغيره : إنّ سلمان بعث على مقدّمته كُريْبَ بن يزيد الحِميري

قال أبو مخنف: حدّثني الحصين بن يزيد، عن السريّ بن كعب، قال: خرجْنا مع رجال الحيّ نشيِّعهم، فلما انتهينا إلى قبر الحسين وانصرف سليمان بن صُرد وأصحابه عن القبر، ولزموا الطريقَ، استقدَمَهم عبدُالله بن عوف بن الأحمر على فرس له مهلوب كُمَيْت مربوع ، يتأكّل تأكّلاً ، وهو يرتجز ويقول .

خَرجْنَ يَلْمَعْنَ بنا أَرْسَالا ... عَوابِساً يَحْمِلنَنا أَبْطالاَ
نُرِيدُ أَنْ نَلقى بهِ الأَقْتَالاَ ... القَاسِطِينَ الغُدُرَ الضُّلاَّلاَ
وقد رَفَضْنا الأَهْلَ والأَمْوَالاَ ... والخَفِرَاتِ البِيضَ والحِجَالاَ
نُرْضِي به إذا النِّعَم المِفْضَالاَ

قال أبو مخنف: عن سعد بن مجاهد الطائيّ ، عن المُحلّ بن خليفة الطائيّ ، أنّ عبدالله بن يزيد كتب إلى سليمان بن صُرَد ، أحسبه قال: بعثني به، فلحقتُه بالقيّارة، واستقدم أصحابه حتى ظنّ أنْ قد سبقهم ؛ قال : فوقف وأشار إلى الناس، فوقفوا عليه ، ثم أقرأهم كتابه ، فإذا فيه :

بسم الله الرّحمن الرّحيم . من عبدالله بن يزيدَ إلى سليمان بن صُرَدٍ ومَنْ معه من المسلمين . سلامٌ عليكم ، أما بعد فإنّ كتابي هذا إليكم كتابُ ناصح ذي إرعاء ، وكم من ناصح مستغَشّ ، وكم من غاشّ مستَنصَح مُحَبّ ، إنه بلغني أنكم تريدونَ المسير بالعَدَد اليسير إلى الجمع الكثير ، وإنه مَن يُرد أن ينقل الجبال عن مراتبها تكلّ مَعاوِلُه ، وينزع وهو مذمومُ العقل والفعل . يا قومنا لا تُطمِعوا عدوّكم في أهل بلادكم ، فإنكم خيارٌ كلكم ، ومتى ما يُصِبْكم عدوّكم يعلموا أنكم أعلامُ مصركم ، فيُطمعهم ذلك فيمن وراءكم يا قومنا، ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴾[1] ، يا قوم، إن أيدينا وأيديكم اليوم واحدة ، وإن عدوّنا وعدوّكم واحد، ومتى تجتمع كلمتُنا نظهَر على عدوّنا ، ومتى تختلف تهُنْ شوكتُنا على من خالفنا ؛ يا قومَنا لا تستغشّوا نصحي ، ولا تخالِفوا أمري ، وأقبِلوا حين يُقرأ عليكم كتابي ، أقبلَ الله بكم إلى طاعته ، وأدبرَ بكم عن معصيته ، والسلام .

قال : فلما قرىء الكتاب على ابن صرد وأصحابه قال للناس: ما ترون؟ قالوا : ماذا ترى؟ قد أبيْنا هذا عليكم وعليهم ، ونحن في مصرنا وأهلنا ، فالآن خرجنا ووطَّنّا أنفسَنا على الجهاد ، ودنوْنا من أرض عدوّنا ! ما هذا برأي . ثمّ نادوه أن أخبرْنا برأيك ، قال : رأيي واللّهِ أنكم لم تكونوا قطّ أقربَ من إحدى الحسنَيَيْنِ منكم

---

(١) سورة الكهف: ٢٠

يومَكم هذا ؛ الشهادة والفتح ، ولا أرى أن تنصرفوا عما جَمَعكم الله عليه من الحقّ ، وأردتم به من الفضل ؛ إنا وهؤلاء مختلفون ؛ إنّ هؤلاء لو ظهروا دعَونا إلى الجهاد مع ابن الزبير، ولا أرى الجهاد مع ابن الزبير إلاّ ضلالاً ، وإنا إن نحن ظهَرنا ردَدْنا هذا الأمرَ إلى أهله ، وإن أصِبْنا فعلى نيّاتنا ، تائبين من ذنوبنا ، إنّ لنا شكلاً ، وإن لابن الزبير شكلاً ؛ إنا وإيّاهم كما قال أخو بني كنانة :

أرى لكِ شَكْلا غيرَ شَكلي فَأَقْصِري عَنِ اللَّوْمِ إذ بُـدّلتِ وآختلف الشكـلُ

قال : فانصرف الناس معه حتى نزل هِيتَ، فكتب سليمان :

بسم الله الرحمن الرحيم . للأمير عبدالله بن يزيد، من سليمان بن صُرَد ومن معه من المؤمنين ، سلامٌ عليك ، أما بعد ، فقد قرأنا كتابك ، وفهمنا ما نويتَ ، فنِعْمَ والله الوالي، ونِعْم الأمير ، ونِعْمَ أخو العشيرة ، أنت واللّهِ من نأمنه بالغيب، ونستنصحه في المشورة، ونحمده على كلّ حال ؛ إنا سمعنا الله عزّ وجلّ يقول في كتابه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾- إلى قوله : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) . إن القوم قد استبشروا ببيعتهم التي بايعوا، إنهم قد تابوا من عظيم جُرْمهم ، وقد توجّهوا إلى الله ، وتوكّلوا عليه ورَضُوا بما قضى الله ، ﴿ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾(٢) ، والسلام عليك .

فلما أتاه هذا الكتاب قال: استمات القومُ، أوّل خبر يأتيكم عنهم قتْلُهم ، وايم الله ليُقتلُنّ كراماً مسلمين ، ولا والذي هو ربّهم لا يقتلهم عدوّهم حتى تشتدّ شوكتُهم ، وتكثرَ القتلى فيما بينهم .

قال أبو مخنف: فحدّثني يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر ، وعبدالرحمن بن جندب ، عن عبدالرحمن بن غزّية ، قالا : خرجْنا من هيتَ حتى انتهينا إلى قَرقِيسياً ، فلما دنونا منها وقف سليمان بن صرد فعبّأنا تعبيةً حسنة حتى مررنا بجانب قرقيسيا ، فنزلْنا قريباً منها ، وبها زُفَر بن الحارث الكلابيّ قد تحصّن بها من القوم ، ولم يخرج إليهم ، فبعث سليمان المسيّب بن نَجبَة ، فقال: ائت ابنَ عمك هذا فقل له : فليخرج إلينا سَوْقاً ، فإنا لسنا إياه نريد ، إنما صَمْدُنا لهؤلاء المُحِلّين . فخرج المسيّب بن نَجبَة حتى انتهى إلى باب قرقيسيا ، فقال : افتحوا ، ممن تحصّنون؟ فقالوا: مَن أنت؟ قال: أنا المسيّب بن نَجبة ، فأتى الهذيلُ بن زفر أباه فقال: هذا رجلٌ حسنُ الهيئة ، يستأذن عليك ، وسألناه من هو؟ فقال: المسيّب بن نجبة ـ قال: وأنا إذ ذاك لا علمَ لي بالناس، ولا أعلم أيّ الناس هو ـ فقال لي أبي: أَمَا تدري أي بُنيّ مَن هذا؟ هذا فارسُ مُضَر الحمراء كلها ، وإذا عُدّ من أشرافها عشرة كان أحدَهم ، وهو بعدُ رجلٌ ناسكٌ له دين ، ائذَن له . فأذنتُ له ، فأجلَسَه أبي إلى جانبه ، وساءلَه وألطفه في المسألة ، فقال المسيّب بن نَجَبة : ممن تتحصّن ؟ إنا والله ما إياكم نريد، وما اعترينا إلى شيء إلاّ أن تُعينَنا على هؤلاء القوم الظَّلَمَة المُحِلين ، فاخرج لنا سوقاً فإنا لا نقيم بساحتكم إلاّ يوماً أو بعض يوم ؛ فقال له زُفَر بن الحارث: إنا لم نُغلق أبوابَ هذه المدينة إلاّ لنعلم إيانا اعتريتم أم غيرَنا! إنّا واللّهِ ما بنا عجزٌ عن الناس ما لم تدهَمْنا حِيلة ، وما نحبّ أنا بُلينا بقتالكم ؛ وقد بلَغَنا عنكم

(١) سورة التوبة: ١١١، ١١٢ .

(٢) سورة الممتحنة: ٤ .

صلاح، وسيرةٌ حسنة جميلة .

ثم دعا ابنه فأمره أن يضع لهم سوقاً، وأمر للمسيّب بألف درهم وفرس، فقال له المسيّب : أما المال فلا حاجةَ لي فيه ، والله ما له خرجْنا ، ولا إيّاه طلبْنا ، وأما الفرس فإني أقبله لعلي أحتاج إليه إنْ ظَلَع فرسي ، أو غَمَز تحتي . فخرج به حتى أتى أصحابَه وأخرجتْ لهم السوقُ ، فتسوّقوا ، وبعث زُفَر بن الحارث إلى المسيّب بن نَجَبة بعد إخراج الأسواق والأعلاف والطعام الكثير بعشرين جَزوراً ، وبعث إلى سليمان بن صُرَد مِثلَ ذلك ، وقد كان زُفَر أمر ابنه أن يسأل عن وجوه أهلِ العسكر ، فسُمِّيَ له عبدالله بن سعد بن نُفَيل وعبدالله بن والٍ ورِفاعة بن شدّاد ، وسُمّي له أمراء الأرباع . فبعث إلى هؤلاء الرؤوس الثلاثة بعشر جزائر عشر جزائـر ، وعلف كثير وطعام ، وأخرج للعسكر عِيراً عظيمةً وشعيراً كثيراً ، فقال غلمان زُفَر : هذه عِير فاجتَزِروا منها ما أحببتم ، وهذا شعير فاحتملوا منه ما أردتم ، وهذا دقيق فتزوّدوا منه ما أطقْتم ، فظلّ القومُ يومَهم ذلـك مخصبين لم يحتاجوا إلى شراء شيء من هذه الأواق التي وضعت ، وقد كُفُوا اللحم والدقيق والشعيرَ إلاّ أن يشتريَ الرجل ثوباً أو سـوطاً. ثم ارتحلوا من الغد، وبعث إليهم زُفَر : إني خارج إليكم فمشيِّعكم ؛ فأتاهم وقد خرجوا على تعبيَةٍ حسنة ، فسايَرَهم ، فقال زفر لسليمان : إنه قد بعِث خمسة أمراء قد فصلوا من الرّقة فيهم الحصين بن نمير السَّكُونيّ ، وشُرَحْبيل بن ذي كَلاع ، وأدهم بن محرز الباهليّ وأبو مالك بن أدهم ، وربيعة بن المخارق الغَنَويّ ، وجَبَلة بن عبـدالله الخثعميّ ؛ وقد جـاؤوكم في مثـل الشـوك والشجـر ، أتـاكم عـدد كثـير ، وحـدٌّ حـديـد ، وايم الله لـقـلّ مـا رأيتُ رجـالاً هـم أحسـن هـيئـةً ولا عُـدّةً ، ولا أخلق لكلّ خير من رجـال أراهم معك ؛ ولكنـه قـد بلغني أنـه قـد أقبلتْ إليكم عـدةٌ لا تحصى ؛ فقـال ابن صُرَد: عـلى الله توكّلنـا، وعليه فليتـوكّل المتـوكلون، ثم قال زفـر: فهل لكم في أمـر أعـرضـه عليكم؛ لعلّ الله أن يجعَل لنا ولكم فيه خيراً؟ إن شئتم فتحْنا لكم مدينتنا فدخلتموها فكان أمـرُنا واحـداً وأيدينا واحدةً، وإن شئتم نزلتم على باب مدينتنا، وخرجنا فعسكرْنا إلى جانبكم؛ فإذا جـاءنا هـذا العدوّ قاتلْناهم جميعاً. فقال سليمان لزفَر : قد أرادنا أهلُ مصرنا على مثل ما أردتنا عليه ، وذكروا مثل الذي ذكرت، وكتبوا إلينا به بعدما فَصَلْنا ، فلم يوافقنا ذلك ، فلسنا فاعلين ؛ فقال زفر : فانظروا ما أشير به عليكم فاقبَلوه ، وخذوا به ، فإنّي للقوم عدوّ ، وأحبُّ أن يجعل الله عليهم الدائرةَ ، وأنا لكم وادٌّ ، أُحِبّ أن يحوطكم الله بالعافية ؛ إنّ القوم قد فصلوا من الرّقّة ، فبادِروهم إلى عين الوَرْدَة ، فاجعلوا المدينةَ في ظهوركم ويكون الرّستاق والماء والمادّ في أيديكم ، وما بين مدينتنا ومدينتكم فـأنتم له آمنـون ، والله لو أن خيـولي كرجـالي لأمددتُكم ، اطوُوا المنازلَ الساعة إلى عين الوردة فـإنّ القوم يسيرون سيرَ العساكر ، وأنتم على خيول ، والله لَقلّما رأيتُ جماعةَ خيل قطّ أكرمَ منها ؛ تأهّبوا لها من يومكم هذا فإني أرجو أن تسبقوهم إليها ، وإن بدرتموهم إلى عين الوردة فلا تقاتلوهم في فضاء ترامونهم وتُطاعنُونهم ، فإنه ليس لكم مثل عددهم ، فإن استهدفتم لهم لم يلبثوكم أن يَصرَعوكم ، ولا تصفّوا لهم حين تلقونهم ، فـإني لا أرى معكم رجّالـةً ، ولا أراكم كلكم إلاّ فرساناً ، والقومُ لاقُوكم بالرجال والفُرسان ؛ فالفُرسان تحمي رجالها ، والرجال تحمي فرسانها ، وأنتم ليس لكم رجال تحمي فرسانكم ، فالقوهم في الكتائب والمقانب ،ثم بثّوها ما بين ميمنتهم وميسرتهم ، واجعلوا مع كلّ كتيبة كتيبةً إلى جانبها فإن حُمل على إحدى الكتيبتَيْن ترجّلَتِ الأخرى فنفّستْ عنها الخيلُ والرجال ، ومتى ما شاءت كتيبة ارتفعت ، ومتى ما شاءت كتيبة انحطّت ، ولو كنتم في صفّ واحد فزحفتْ إليكم الرجال فدفعتم

عن الصفّ انتقض وكانت الهزيمة ؛ ثم وقف فودَّعهم ، وسأل الله أن يصحبهم وينصرَهم . فـأثنَى النـاسُ عليه ، ودَعَوا له، فقال له سليمان بن صرد : نِعْمِ المَنْزول به أنت ! أكرمت النزول ، وأحسنتَ الضيافةَ ، ونصحتَ في المَشورة . ثمّ إنّ القوم جدّوا فـي المسير ، فجعلوا يجعلون كلّ مرحلتين مرحلة؛ قال: فمررنا بالمدن حتى بلغنا ساعاً . ثمّ إنّ سليمان بن صُرَد عبّى الكتائبَ كما أمره زُفَر ، ثمّ أقبل حتى انتهى إلى عين الوردة فنزل في غربيِّها ، وسبق القومَ إليها، فعسكروا ، وأقام بها خمساً لا يبرح ، واستراحوا واطمأنّوا ، وأراحوا خيلَهم .

قال هشام : قال أبو مخنف ، عن عطيَّة بن الحارث ، عن عبدالله بن غَزيَّة ، قال : أقبل أهل الشأم في عساكرهم حتى كانوا من عَيْنِ الوَرْدة على مسيرة يوم وليلة ، قال عبدالله بن غزّية : فقام فينا سليمان فحَمِد الله فأطالَ ، وأثنى عليه فأطنَب ، ثم ذكر السماء والأرض ، والجبالَ والبحارَ وما فيهنَّ من الآيات ، وذكر آلاءَ الله ونعمَه ، وذكر الدنيا فزهّد فيها ، وذكر الآخرة فرغّب فيها ، فذكر من هذا ما لم أحصه ، ولم أقدر على حفظه ، ثم قال : أما بعد، فقد أتاكم اللّهُ بعدوّكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء الليل والنهار ، تريدون فيما تظهرون التوبة النَّصُوح ، ولقاءَ الله مُعذِرين ، فقد جاؤوكم بل جئتموهم أنتم في دارهم وحيِّزهم ، فإذا لقيتموهم فاصدُقوهم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ، ولا يولِّينّهم امرؤُ دُبره إلّا متحرّفاً لقتال أو متحيِّزاً إلى فئة : لا تقتلوا مدبراً، ولا تُجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم، إلّا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه ، أو يكون من قَتَلةِ إخواننا بالطفّ رحمة الله عليهم ؛ فإنّ هذه كانت سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أهل هذه الدعوة . ثم قال سليمان : إن أنـا قُتلتُ فأمـيرُ الناس المسيَّب بن نَجبَة فإن أصيبَ المسيَّب فـأميرُ النـاس عبدُالله بن سعد بن نفيل ، فإن قُتل عبدالله بن سعد فأميرُ الناس عبدُالله بن والٍ ، فإن قُتل عبدالله بن والٍ فأميرُ الناس رِفاعة بن شدّاد ، رحم الله امرأً صَدقَ ما عاهَدَ الله عليه! ثم بعث المُسيَّب بن نَجَبة في أربعمائة فارس ، ثم قال : سرْ حتى تلقى أوّل عسكر من عساكرهم فشُنّ فيهم الغارة ، فإذا رأيت ما تحبُّه وإلّا انصرفتَ إليَّ في أصحابك ؛ وإيّاك أن تنزل أو تَدَع أحداً من أصحابك أن ينزِل ، أويستقبل آخر ذلك ، حتى لا تجدَ منه بدًّا .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبي عن حُمَيْد بن مسلم أنه قال: أشهد أني في حيل المسيَّب بن نَجبَة تلك ، إذ أقبلْنا نسير آخرَ يومنا كلّه وليلتنا ، حتى إذا كان في آخر السَّحر نزلْنا فعلّقنا على دوابنا مَخالِيَها ، ثمّ هـوّمْنا تهـويمةً بمقـدار تكـون مقـدار قَضْمِها ثم ركبنـاها، حتى إذا انبلج لنـا الصبح نـزلْنـا فصلّينـا ، ثمّ رَكب فركبنا. فبعث أبا الجُوَيْرية العبديّ بن الأحمر في مائة من أصحابه، وعبدالله بن عوف بن الأحمر في مائـة وعشرين ، وحنش بن ربيعة أبا المعتمر الكنـانيّ في مثلها ، وبقيَ هـو في مائـة؛ ثم قال: انـظُروا أوّل من تلقَون فأْتُوني به ، فكان أوَّلَ من لقينا أعرابيّ يطرد أحمِرةً وهو يقول :

يـا مـالِ لا تَـعجـلْ إلى صَحْبِـي وآسـرحْ فـإنّـك آمِـنُ الـسِّـرْبِ

قال : يقول عبدالله بن عوف بن الأحمر : يا حمَيْد بن مُسلم ، أبشر بُشرَى وربِّ الكعبة ، فقـال له ابن عوف بن الأحمر : ممّن أنت يا أعرابيّ؟ قال: أنا من بني تغْلِب ؛ قال : غلبتم وربِّ الكعبة إن شاء الله. فانتهى إلينا المسيّب بن نجبة ، فأخبرناه بالذي سمعْنا من الأعرابي وأتيناه بـه ، فقال المسيّب

ابن نجبة . أما لقد سُررتُ بقولك : أبشِر ، وبقولك : يا حُميد بن مسلم ، وإني لأرجو أن تبشّروا بما يسرّكم ، وإنّما سرّكم أن تحمدوا أمرَكم ، وأن تَسلَموا من عدوّكم، وإنّ هذا الفأل لهو الفأل الحَسَن ، وقد كان رسولُ الله ﷺ يعجبُه الفأل. ثم قال المسيّب بن نجبَة للأعرابيّ : كم بيننا وبين أدنى هؤلاء القوم منّا ؟ قال: أدنى عسكر من عساكرهم منك عسكرُ ابن ذي الكَلاع ، وكان بينه وبين الحصين اختلاف ، ادَّعى الحصين أنه على جماعة الناس، وقال ابن ذي الكلاع : ما كنتَ لتولّى عليَّ ، وقد تكاتبا إلى عبيدالله بن زياد ، فهما ينتظران أمره ، فهذا عسكر ابن ذي الكلاع منكم على رأس ميل؛ قال: فتركْنا الرجل، فخرجنا نحوَهم مُسرِعين ، فوالله ما شعروا حتى أشرفْنا عليهم وهم غارّون ، فحملْنا في جانب عسكرهم فوالله ما قاتلوا كثيرَ قتال حتى انهزموا ، فأصبنا منهم رجالاً ، وجَرحْنا فيهم فأكثَرْنا الجراح ، وأصبنا لهم دوابّ، وخرجوا عن عسكرهم وخلّوه لنا ، فأخذنا منه ما خفّ علينا ، فصاح المسيّب فينا: الرجعة، إنكم قد نُصِرتم ، وغَنِمتم وسَلِمتم ، فانصرِفوا ، فانصرَفْنا حتى أتينا سليمان .

قال: فأتى الخبرُ عبيدَالله بن زياد، فسرّح إلينا الحُصَين بن نمير مسرعاً حتى نزل في اثني عشر ألفاً، فخرجْنا إليهم يومَ الأربعاء لثمانٍ بقِين من جُمادَى الأولى؛ فجعل سليمانُ بن صُرَد عبدالله بن سعد بن نفيل على ميمنته ، وعلى ميسرته المسيّب بن نَجَبة ، ووقف هو في القلب ، وجاء حصين بن نمير وقد عبّأ لنا جُندَه ، فجعل على ميمنته جبلة بن عبدالله ، وعلى ميسرته رَبيعَة بن المخارق الغَنَويّ ، ثم زحفوا إلينا، فلما دَنَوْا دَعونا إلى الجماعة على عبدالملك بن مروان وإلى الدخول في طاعته ، وَدَعوْناهم إلى أن يدفعوا إلينا عُبيدَالله بنَ زياد فنقتلَه ببعض من قتِل من إخواننا ، وأن يَخلَعوا عبدَالملك بن مروان، وإلى أن يُخْرَجَ مَن ببلادنا من آل ابن الزبير ، ثم نردّ هذا الأمر إلى أهل بيت نبيِّنا الذين آتانا الله من قِبَلهم بالنعمة والكرامة ؛ فأبى القومُ وأبينا .

قال حميد بن مسلم : فحملتْ ميمنتُنا على ميسرتهم وهزمتهم ، وحملتْ ميسرتنا على ميمنتهم - وحمل سليمان في القلب على جماعتهم ، فهزَمْناهم حتى اضطررناهم إلى عسكرهم ، فما زال الظفر لنا عليهم حتى حجز الليلُ بيننا وبينهم ، ثم انصرفْنا عنهم وقد حجزناهم في عسكرهم ، فلما كان الغد صبَّحهم ابن ذي الكَلاع في ثمانية آلاف، أمدّهم بهم عبيدالله بن زياد ، وبعث إليه يشتمه ، ويقع فيه ، ويقول : إنما عملتَ عَمَل الأغمار ، تُضيع عسكرك ومسالحكَ! سر إلى الحصين بن نمير حتى توافيَه وهو على الناس ، فجاءَه ، فغدَوا علينا وغادَيناهم ، فقاتلناهم قتالاً لم يَرَ الشِّيبُ والمُرْدُ مِثلَه قطّ يومَنا كلَّه ، لا يحجز بيننا وبين القتال إلاّ الصلاة حتى أمسَيْنا فتحاجزنا ، وقد والله أكثروا فينا الجراحَ ، وأفشيناها فيهم ؛ قال : وكان فينا قُصّاصٌ ثلاثة : رفاعة بن شدّاد البَجَليّ ، وصُحَير بن حذيفة بن هلال بن مالك المزّيّ ، وأبو الجُوَيْرية العبديّ ، فكان رفاعة يقصّ ويُحَضّض الناس في الميمنة ، لا يبرَحُها ، وجُرح أبو الجويرية اليوم الثاني في أوّل النهار، فلزم الرّحال، وكان صُحَير ليلتَه كلها يدور فينا ويقول: أبشروا عبادَ الله بكرامة الله ورضوانه، فحقّ والله لمنْ ليس بينه وبين لقاء الأحبّة ودخول الجنة والراحة من إبرام الدنيا وأذاها إلاّ فراقُ هذه النفس الأمّارة بالسوء أن يكون بفراقها سَخِيًّا ، وبلقاءِ

ربه مسروراً . فمكثْنا كذلك حتى أصبحنا ، وأصبح ابن نمير وأدهم بن محرز الباهليّ في نحو من عشرة آلاف ، فخرجوا إلينا ، فاقتتلنا اليومَ الثالثَ يومَ الجمعة قتالاً شديداً إلى ارتفاع الضّحى . ثمّ إنّ أهل الشام كَثرونا وتعطّفوا علينا من كلّ جانب، ورأى سليمانُ بنُ صُرَد ما لقي أصحابُه ، فنزل فنادى : عبادَ الله ، منْ أراد البُكورَ إلى ربّه ، والتوبة من ذنبه ، والوفاء بعهده ، إليَّ ؛ ثم كسر جفنَ سيفِه ، ونزل معه ناسٌ كثير ، فكسروا جفونَ سيوفهم ، ومشَوْا معه ، وانزوت خيلُهم حتى اختلطت مع الرّجال ، فقاتلوهم حتى نزلت الرجال تشتدّ مُصلتةً بالسيوف ، وقد كسروا الجفون ، فحمل الفرسانُ على الخيل ولا يثبتون ، فقاتلوهم وقتلوا من أهل الشام مقتلةً عظيمة ، وجرحوا فيهم فأكثروا الجراح. فلما رأى الحصين بن نمير صَبْرَ القوم وبأسَهم ـ بعث الرجالَ ترميهم بالنّبل ، واكتنفتْهم الخيل والرجال ، فقُتِل سليمان بن صُرَد رحمه الله ، رماه يزيد بن الحصين بسهم فوقع ، ثمّ وثب ثم وقع ؛ قال : فلما قتل سليمان بن صُرَد أخذ الراية المسيّب بن نَجَبَة ، وقال لسليمان بن صُرَد : رحمك الله يا أخي! فقد صدقت ووفَيت بما عليك ، وبقي ما علينا، ثمّ أخذ الراية فشدَّ بها ، فقاتل ساعةً ثمّ رجع ، ثم شدَّ بها فقاتل ثم رجع ، ففعل ذلك مراراً يشدّ ثم يرجع ، ثم قُتل رحمه الله .

قال أبو مخنف : وحدَّثنا فروة بن لقيط ، عن مولًى للمسيّب بن نجَبَة الفزاريّ ، قال: لقيته بالمدائن وهو مع شبيب بن يزيد الخارجيّ فجرى الحديثُ حتى ذكرْنا أهلَ عين الوردة .

قال هشام عن أبي مخنف؛ قال: حدّثنا هذا الشيخ ، عن المسيّب بن نَجَبَة ، قال : واللّهِ ما رأيت أشجعَ منه إنساناً قطّ ، ولا من العصابة التي كان فيهم ، ولقد رأيتُه يومَ عين الوردة يقاتل قتالاً شديداً ما ظننتُ أنّ رجلاً واحداً يقدر أن يُبلَى مِثلَ ما أبلَى ، ولا ينكأ في عدوِّه مثلَ ما نَكَأ ، لقد قتل رجالاً ؛ قال : وسمعتُه يقول قبل أن يُقتَل وهو يقاتلهم :

قد علمتْ مَيالةُ الذّوائبِ واضِحة اللَّبّاتِ والتَّرائِبِ
أَنِّي غَدَاةَ الرَّوْعِ والتَّغَالُبِ أَشْجَعُ مِنْ ذِي لَبِدٍ مُوَاثِبِ
قَطّاعُ أقرانٍ مَخُوفُ الجانِبِ

قال أبو محنف : حدّثني أبي وخالي ، عن حُميد بن مسلم وعبدالله بن غزّيّة . قال أبو مخنف : وحدثني يوسف بنُ يزيدَ ، عن عبدالله بن عوف ،قال : لما قتل المسيّب بن نَجَبَة أخذ الراية عبدُالله بن سعد بن نُفيْل ، ثم قال رحمه الله : أَخَويَّ منهمْ منْ قَضى نحبه ، ومنهم من يَنتظر وما بَدَّلوا تبديلاً . وأقبل بمن كان معه من الأزْد، فحَفّوا برايته ، فوالله إنا لكذلك إذ جاءنا فرسان ثلاثة : عبدالله بن الخضِل الطائيّ ، وكثير بن عمرو المُزَنيّ ، وسعر بن أبي سعر الحنَفي ، كانوا خرجوا مع سعد بن حذيفة بن اليَمانِ في سبعين ومائة من أهل المدائن ، فسرّحهم يومَ خرج في آثارنا على خيول مقلّمة مقدّحة ، فقال لهم : اطوُوا المنازلَ حتى تلحقوا بإخواننا فتبشّروهم بخروجنا إليهم لتشتدّ بذلك ظهورُهم ، وتخبروهم بمجيء أهلِ البصرة أيضاً ، كان المثنى بن مخرّبة العبديّ أقبل في ثلثمائة من أهل البصرة ، فجاء حتى نزل مدينة بَهرُسير بعد خروج سعد بن حُذَيفة من المدائن لخمس ليال ، وكان خروجُه من البصرة قبل ذلك قد بلغ سعدَ بنَ حذيفة قبل أن يخرج من المدائن ، فلما انتَهوا إلينا

قالوا: أبشروا فقد جاءكم إخوانكم من أهل المدائن وأهل البصرة؛ فقال عبدالله بن سعد بن نُفَيل: ذلك لو جاؤونا ونحن أحياء؛ قال: فنظروا إلينا، فلما رأوا مصارعَ إخوانهم وما بنا من الجراح، بكى القومُ وقالوا: وقد بلغ منكم ما نَرَى! إنّا لله وإنا إليه راجعون! قال: فنظروا والله إلى ما ساء أعينَهم؛ فقال لهم عبدالله بن نُفَيل: إنا لهذا خرجْنا، ثمّ اقتتلنا فما اضطربنا إلاّ ساعةً حتى قتل المزنيّ، وطعِن الحنفيّ فوقع بين القتلى، ثم ارتُثّ بعد ذلك فنجا، وطعن الطائي فجزِم أنفُه، فقاتل قتالاً شديداً، وكان فارساً شاعراً. فأخذ يقول:

قد علِمتْ ذاتُ القَوام الرُّودِ أَنْ لَسْتُ بالواني ولا الرِّعديدِ
يوماً ولا بالفَرِقِ الحَيُودِ

قال: فحمل علينا ربيعةُ بن المخارق حملةً منكرة، فاقتتلنا قتالاً شديداً. ثمّ إنه اختلف هو وعبدالله بن سعد بن نفيل ضربتين، فلم يصنع سيفاهما شيئاً، واعتنق كلّ واحد منهما صاحبه، فوقعا إلى الأرض، ثمّ قاما فاضطربا، ويحمل ابن أخي ربيعة بن المخارق على عبدالله بن سعد، فطعنه في ثُغْرة نحره، فقتله، ويحمل عبدالله بن عوف بن الأحمر على ربيعة بن المخارق، فطعنه فصرَعه. فلم يُصِب مَقتلاً؛ فقام فكرّ عليه الثانية، فطعنه أصحابُ ربيعة فصرَعوه ثمّ إنّ أصحابَه استنقذوه. وقال خالد بن سعد بن نفيل: أرُوني قاتلَ أخي، فأرَيناه ابن أخي ربيعةَ بن المخارق؛ فحمل عليه فقنّعه بالسيف واعتنقه الآخَر فخرّ إلى الأرض، فحمل أصحابه وحملْنا، وكانوا أكثر منّا فاستنقذوا صاحبَهم، وقتلوا صاحبَنا، وبقيت الرّاية ليس عندها أحدٌ. قال: فنادينا عبدالله بن والٍ بعد قتلهم فرسانَنا، فإذا هو قد استلحم في عصابة معه إلى جانبنا، فحمل عليه رفاعة بن شدّاد، فكشَفَهم عنه، ثمّ أقبل إلى رايته وقد أمسكها عبدالله بن خازم الكثيريّ، فقال لابن وال: أمسك عني رايتك؛ قال: امسكْها عنّي رحمك الله، فإنّي بي مثلُ حالك فقال له: أمسك عني رايتك، فإنّي أريد أن أجاهد؛ قال: فإنّ هذا الذي أنت فيه جهاد وأجر؛ قال: فصِحْنا: يا أبا عزّة، أطع أميرَك يرحَمُك الله! قال: فأمسكها قليلاً، ثم إنّ ابن والٍ أخذها منه.

قال أبو مخنف: قال أبو الصلت التيميّ الأعور: حدّثني شيخ للحيّ كان معه يومئذ، قال: قال لنا ابن وال: مَنْ أراد الحياة التي ليس بعدها موتٌ، والراحة التي ليس بعدها نَصَبٌ، والسرورَ الذي ليس بعده حزَنٌ، فليتقرّب إلى ربّه بجهاد هؤلاء المحلِّين، والرواحِ إلى الجنة رحمكم الله! وذلك عند العصر؛ فشدّ عليهم، وشددنا معه، فأصبنا والله منهم رجالاً، وكشفناهم طويلاً، ثمّ إنهم بعد ذلك تعطّفوا علينا من كلّ جانب، فحازونا حتى بلغوا بنا المكان الذي كنا فيه، وكنا بمكان لا يقدرون أن يأتونا فيه إلاّ من وجه واحد، ووليَ قتالَنا عند المساء أدهم بن مُحرِز الباهليّ، فشدّ علينا في خيله ورجاله، فقتل عبدالله بن وال التيميّ.

قال أبو مخنف، عن فروة بن لقيط، قال سمعت أدهمَ بن مُحرز الباهليّ في إمارة الحجّاج بن يوسفَ وهو يحدّث ناساً من أهل الشأم، قال دفعت إلى أحد أمراءِ العراق؛ رجل منهم يقولون له عبدالله بن وال وهو يقول: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ

يُرْزَقُون * فَرِحِين. . . ﴾(١)، الآيات الثلاث، قال: فغـاظني، فقلت في نفسي: هؤلاء يَعدّوننا بمنزلة أهل الشرك، يَرَون أنّ من قتلْنا منهم كان شهيداً. فحملتُ عليه أضرب يده اليسرى فأطنَنْتها، وتنحّيت قريباً، فقتل له: أما إني أراكَ وَدِدْتَ أنك في أهلك، فقال: بئسما رأيت! أما والله ما أحبّ أنها يدك الآن إلاّ أن يكون لي فيها من الأجر مثل ما في يدي؛ قال: فقلت له: لمَ؟ قال: لكيما يجعل الله عليك وِزْرَها، ويُعظم لي أجرها؛ قال: فغاظني فجمعتُ خيلي ورجالي؛ ثمّ حملنا عليه وعلى أصحابه، فدفعتُ إليه فطعنته فقتلتُه، وإنه لمقبل إليَّ ما يزول؛ فزعموا بعـدُ أنه كان من فقهاء أهل العراق الذين كانوا يُكثرون الصوم والصلاة ويُفتُون الناس.

قال أبو مخنف: وحدّثني الثقة، عن حميد بن مسلم وعبدالله بن غزيّة قال: لما هلك عبدالله بن والٍ نظرنا، فإذا عبدالله بن خازم قتيل إلى جنبه، ونحن نرى أنه رفاعة بن شدّاد البَجَليّ، فقال له رجل من بني كنانة يقال له الوليد بن غضين: أمسك رايتَك؛ قال: لا أريدها؛ فقلت له: إنا لله! ما لَكَ! فقال: ارجعوا بنا لعلّ الله يَجمَعنا ليوم شرّ لهم، فوثب عبدالله بن عوف بن الأحمر إليه، فقال: أهلكْتَنَا، والله لئن انصرفت ليركبُنّ أكتافنا فلا نبلغ فرسخاً حتى نَهلِك من عند آخِرنا، فإن نجا منا ناج أخذه الأعراب وأهلُ القرى، فتقرّبوا إليهم به فيُقتَل صبراً، أنشدك الله أن تفعل، هذه الشمس قد طفلتْ للمغيب، وهذا الليل قد غَشيَنـا، فنقاتلهم على خيلنا هذه فإنا الآن ممتنعون، فإذا غَسَق الليل ركبنا خيولَنا أوّل الليل فرمينا بها، فكان ذلك الشأن حتى نُصبح ونسير ونحن على مَهَل، فيحمل الرجل منا جريحَه وينتظر صاحبَه، وتسير العَشَرة والعشرون معاً، ويعرف الناس الوجَه الذي يأخذون، فيتبع فيه بعضهم بعضاً؛ ولو كان الذي ذكرت لم تقف أمٌّ على ولدها، ولم يعرف رجل وجهةَ، ولا أين يَسقُط؛ ولا أين يَذهَب! ولم نصبح إلاّ ونحن بين مقتول ومأسور. فقال له رفاعة بن شدّاد: فإنك نعمَ ما رأيت؛ قال ثم أقبل رفاعة على الكناني فقال له: أتمسكها أم آخذُها منك؟ فقال له الكناني: إني لا أريد ما تريد، إني أريد لقاء ربِّي، واللّحاق بإخواني، والخروجَ من الدنيا إلى الآخرة، وأنت تريد ورقَ الدنيا، وتَهوَى البقاء، وتكره فراقَ الدنيا؛ أما والله إني لأحبُّ لك أن ترشد، ثم دفع إليه الراية، وذهب ليستقدم. فقال له ابن أحمر: قاتلْ معنا ساعةً رحمك الله ولا تُلقِ بيدك إلى التَّهلُكة، فما زال به يناشده حتى احتبس عليه، وأخذ أهلُ الشام يتنادَوْن: إنّ الله قد أهلكهم؛ فأقدموا عليهم فافرُغوا منهم قبل الليل. فأخذوا يقدمون عليهم، فيقدمون على شوكة شديدة؛ ويقاتلون فُرساناً شجعاناً ليس فيهم سَقَط رجل، وليسوا لهم بمضجرين فيتمكنوا منهم؛ فقاتلوهم حتى العشاء قتالاً شديداً، وقتِل الكناني قبل المساء، وخرج عبدالله بن عزيز الكنديّ ومعه ابنه محمد غلام صغير، فقال: يا أهل الشام، هل فيكم أحدٌ من كندة؟ فخرج إليه منهم رجال، فقالوا: نَعَم، نحن هؤلاء، فقال لهم: دونكم أخوكم فابعثوا به إلى قومكم بالكُوفة، فأنا عبدالله بن عزيز الكندي، فقالوا له: أنت ابنُ عمّنا، فإنك آمن؛ فقال لهم: والله لا أرغب عن مَصارِع إخواني الذين كانوا للبلاد نوراً، وللأرض أوتاداً، وبمثلهم كان الله يُذكَر؛ قال: فأخذ ابنُه يبكي في أثَر أبيه، فقال: يا بنيّ، لو أن شيئاً كان آثَرَ عندي من طاعة ربِّي إذاً لكنتَ أنتَ، وناشدَه قومه الشاميون لما رأوا من جزع ابنه وبكائه في أثره، وأرُوا الشاميون له ولابنه رِقَّة شديدة حتى جزعوا وبكَوا، ثم اعتزل الجانب الذي خرج إليه منه قومه، فشدّ على صفّهم عند المساء، فقاتَلَ حتى قُتل.

(١) سورة آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠.

قال أبو مخنف : حدّثني فضيل بن خَـدِيج ، قال : حدّثني مسلم بن زَحْر الخَوْلَاني ، أنّ كريب بن زيد الحميريّ مشى إليهم عند المساء ومعه راية بَلْقاء في جماعة ، قلّما تَنقُص من مائة رجل إنْ نقصَت ، وقد كانوا تحدّثوا بما يريد رفاعة أن يصنع إذا أمسى ، فقام لهم الحميريّ وجمع إليه رجالاً من حمْيَر وهَمْدانَ ، فقال : عباد الله! رُوحوا إلى ربّكم، والله ما في شيء من الدنيا خَلَف من رضاء الله والتوبة إليه ، إنه قد بلغني أنّ طائفةً منكم يريدون أن يرجعوا إلى ما خرجوا منه إلى دنياهم ، وإن هم رَكنوا إلى دنياهم رجعوا إلى خطاياهم ، فأمّا أنا فوالله لا أولي هذا العدوّ ظهري حتى أرِدَ مَوارِد إخواني ؛ فأجابوه وقالوا : رأينا مثل رأيك . ومضى برايته حتى دنا من القوم ، فقال ابن ذي الكَلاع : والله إني لأرى هذه الرايةَ حِمْيَريّة أو هَمْدانيّة ، فدنا منهم فسألهم ، فأخبروه ، فقال لهم : إنكم آمنون ، فقال له صاحبهم : إنا قد كنا آمنين في الدنيا ، وإنما خرجنا نطلب أمانَ الآخرة؛ فقاتلوا القوم حتى قُتلوا ، ومشى صُخير بن حذيفة بن هلال بن مالك المُزَنيّ في ثلاثين من مُزَينة ، فقال لهم : لا تهابوا الموت في الله ، فإنه لاقيكم ، ولا ترجعوا إلى الدّنيا التي خرجتم منها إلى الله فإنها لا تَبقَى لكم ، ولا تَزهَدوا فيما رغبتم فيه من ثواب الله فإنّ ما عند الله خيرٌ لكم ؛ ثمّ مضَوا فقاتَلوا حتى قُتلوا ، فلما أمسى الناسُ ورجع أهلُ الشام إلى معسكرهم ، نظر رفاعة إلى كلّ رجل قد عُقر به ، وإلى كل جريح لا يُعينُ على نفسه؛ فدَفَعَه إلى قومه، ثمّ سار بالناس ليلَته كلّها حتى أصبح بالتُّنينير فعَبَر الخابُور، وقطع المعابر، ثمّ مضى لا يمرّ بمعبر إلا قطعه، وأصبح الحصين بن نمير فبعث فوجدهم قد ذَهَبوا، فلم يبعث في آثارهم أحداً، وسار بالناس فأسرَعَ، وخلَّف رفاعة وراءهم أبا الجُوَيْرِية العبديّ في سبعين فارساً يَستُرون الناس؛ فإذا مرّوا برجل قد سقط حمله، أو بمتاع قد سقط قَبَضَه حتى يعرفه، فإن طُلب أو ابتُغِيَ بعث إليه فأعلمه، فلم يزالوا كذلك حتى مرّوا بقَرْقِيسيا من جانب البرّ، فبعث إليهم زُفَر من الطعام والعلَف مثل ما كان بعث إليهم في المرة الأولى، وأرسل إليهم الأطباء وقال: أقيموا عندنا ما أحببتم، فإنّ لكم الكرامة والمواساة، فأقاموا ثلاثاً، ثمّ زوّد كلَّ امرىء منهم ما أحبَّ من الطعام والعَلَف؛ قال: وجاء سعد بن حُذَيفة بن اليمان حتى انتهى إلى هِيتَ، فاستقبله الأعراب فأخبَروه بما لقيَ الناس، فانصرف، فتلقّى المثنى بن مخرّبة العبدي بصندوْداء، فأخبره، فأقاموا حتى جاءهم الخبر: إنّ رفاعة قد أظلّكم، فخرجوا حين دنا من القرية، فاستقبلوه فسلم الناس بعضُهم على بعض، وبكى بعضُهم إلى بعض ،وتناعَوْا إخوانَهم فأقاموا بها يوماً وليلة؛ فانصرف أهل المدائن إلى المدائن، وأهل البصرة إلى البصرة، وأقبل أهلُ الكوفة إلى الكوفة، فإذا المختار محبوس.

قال هشام: قال أبو مخْنف ، عن عبد الرّحمن بن يزيد بن جابر، عن أدهم بن مُحرز الباهلي ، أنه أتى عبدَالملك بن مروان ببشارة الفتح ، قال : فصَعد المنبر، فحَمِد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : أما بعد، فإنّ الله قد أهلك من رؤوس أهل العراق مُلقح فتنة ، ورأسَ ضلالة ، سليمان بن صُرَد، ألا وإنّ السيوف تركتْ رأس المسيّب بن نجبَة خَذاريف ، ألا وقد قتل اللّهُ من رؤوسهم رأسَين عظيمين ضالَّين مضلَّين : عبدالله بن سعد أخا الأزد ، وعبدالله بن وال أخا بكر بن وائل ، فلم يَبق بعد هؤلاء أحدٌ عندَه دفاع ولا امتناع .

قال هشام ، عن أبي مخنف : وحُدِّثت أن المختار مكث نحواً من خمس عشرة ليلةً ، ثمّ قال لأصحابه : عدّوا لغازيكم هذا أكثرَ من عشر، ودون الشهر، ثمّ يجيئكم نبأ هِتْر ، من طعن نَتر ، وضرب

هبر ، وقتل جمّ ، وأمر رَجم . فمَنْ لها؟ أنا لَها ، لا تُكْذَبُنَّ ، أنا لَها .

قال أبو مخنف : حدّثنا الحصين بن يزيد، عن أبان بن الوليد ، قال: كتب المختار وهو في السجن إلى رفاعةَ بن شدّاد حين قَدِمَ من عين الوردة: أما بعد، فمرحباً بالعَصَب الذين أعظَم الله لهم الأجر حينَ انصرفوا ، ورضيَ انصرافهم حين قَفَلوا . أمَا وربّ البنيّة التي بَنَى ما خطا خاطٍ منكم خُطوةً ، ولا رَتَا رتْوة ، إلّا كان ثوابُ الله له أعظم من مُلْك الدنيا . إنّ سليمان قد قضى ما عليه ، وتوفّاه الله فجعل روحَه مع أرواح الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين ، ولم يكن بصاحبكم الذي به تُنْصَرون ، إني أنا الأمير المأمور ، والأمين المأمون ، وأمير الجيش ، وقاتل الجبّارين ، والمنتقم من أعداء الدّين ، والمقيد من الأوتار ، فأعدّوا واستعدّوا ، وأبشِروا واستبشروا ؛ أدعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيّه ﷺ ، وإلى الطلب بدماء أهل البيت والدفع عن الضُّعَفاء ، وجهاد المُحلِّين ؛ والسلام .

قال أبو مخنف : وحدّثني أبو زهير العبسي ، أنّ الناس تحدّثوا بهذا مِنْ أمْر المختار، فبلغ ذلك عبدَالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد ، فخرجا في الناس حتى أتَيَا المختار، فأخذاه .

قال أبو مخنف : فحدّثني سليمان بن أبي راشد ، عن حميد بن مسلم قال: لمّا تهيَّأنا للانصراف قام عبدالله بن غزيّة ووقف على القتلى فقال: يرحمكم الله، فقد صدقْتم وصَبَرْتم ، وكذبنا وفَرَرْنا ؛ قال : فلما سرنا وأصبحنا إذا عبدالله بن غزيّة في نحو من عشرين قد أرادوا الرجوع إلى العدوّ والاستقتال ، فجاء رفاعة وعبدالله بن عوف بن الأحمر وجماعة الناس فقالوا لهم : نَنْشدكم الله ألّا تزيدونا فُلولا ونقصاناً، فإنا لا نزال بخير ما كان فينا مثلكم من ذوي النيّات، فلم يزالوا بهم كذلك يناشدونهم حتى ردّوهم غيرَ رجل من مزينة يقال له عُبيدة بن سُفيان ، رحل مع الناس، حتى إذا غُفِل عنه انصرف حتى لقي أهل الشأم ، فشدّ بسيفه يضاربهم حتى قُتل .

قال أبو مخنف : فحدّثني الحصين بن يزيد الأزديّ ، عن حُميد بن مسلم الأزديّ، قال كان ذلك المزنيّ صَدِيقاً لي، فلما ذهب لينصرفَ ناشدتُه الله ، فقال : أما إنك لم تكن لتسألَني شيئاً من الدّنيا إلا رأيتُ لك من الحقّ عليَّ إيتاءَكَهُ ، وهذا الذي تسألني أريد اللّه به ؛ قال : ففارقني حتى لقي القومَ فقُتل ؛ قال : فوالله ما كان شيء بأحبَّ إليَّ من أن ألقَى إنساناً يحدّثني عنه كيف صَنَع حين لقيَ القوم! قال: فلقيتُ عبدَالملك بن جزء بن الحِدْرِجان الأزديّ بمكة ، فجرى حديثُ بيننا، جرى ذكرُ ذلك اليوم، فقال: أعَجب ما رأيتُ يومَ عَين الوردة بعد هلاك القوم أنّ رجلاً أقبلَ حتى شدّ عليَّ بسيفه، فخرجنا نحوه، قال: فانتهى إليه وقد عقربه وهو يقول:

إنِّي مِنَ اللّهِ إلى اللّهِ أفِرّ رِضْوَانَكَ اللّهُمّ أُبْدِي وأُسِرّ

قال: فقلنا له: ممن أنت؟ قال: من بني آدم؛ قال: فقلنا: ممن؟ قال: لا أحبّ أن أعرِفَكم ولا أن تعرفوني يا مُخربي البيتَ الحرام؛ قال: فنزل إليه سليمانُ بن عمرو بن محصن الأزديّ من بني الخيار؛ قال وهو يومئذ من أشدّ الناس ؛ قال : فكلاهما أثخَنَ صاحبَه ؛ قال : وشدّ الناسُ عليه من كلّ جانب ، فقتلوه ؛ قال : فوالله ما رأيتُ واحداً قطّ هو أشدّ منه ؛ ، فلمّا ذكر لي ، وكنتُ أحبّ أن أعلم علمه ، دمعتْ عيناي ، فقال : أبَينك وبينه قرابة ؟ فقلت له : لا ، ذلك رجل من مضَر كان لي وُدًّا وأخاً ، فقال لي : لا أرَقأ الله دمعَك ،

أتبكي على رجل من مضرَ قُتل على ضلالة ! ! قال : قلتُ : لا ، ما قُتل على ضلالة ، ولكنه قتل على بيّنة من ربّه وهُدىً ، فقال لي : أدَخَلك الله مدخلَه ؛ قلتُ : آمين ، وأدخَلَك الله مَدخَل حصين بن نمير ، ثمّ لا أرقأ لكَ عليه دمعاً ؛ ثمّ قمت وقام .

وكان مما قيل من الشعر في ذلك قولُ أعشى هَمْدان ، وهي إحدى المكتَّمان ، كنّ يُكتَّمن في ذلك الزمان :

أَلَمَّ خَيَالٌ مِنكِ يا أُمَّ غالِبِ فَحُيِّيتِ عنّا من حَبِيبٍ مُجانِبِ
وما زِلتِ لي شَجْواً وما زلتُ مُقصَداً لِهَمٍّ عَرَاني من فِراقِكِ ناصِبِ
فما أَنسَ لَا أَنْسَ انْفِتَالَكِ في الضُّحَى إلينا مع البيضِ الوِسام الخَراعِبِ
تَرَاءَتْ لنا هَيْفاءَ مَهْضُومَةَ الحَشا لطيفَةَ طيِّ الكَشْحِ رَيَّا الحَقائِبِ
مُبتَّلَةً غَرَّاءَ ، رُؤْدٌ شَبابُها كشمسِ الضُّحَى تَنْكَلُّ بين السحائِبِ
فلمّا تغَشَّاها السَّحابُ وحولَهُ بَدَا حاجبٌ منها وضنَّتْ بحاجِبِ
فتلك الهوى وَهْي الجَوَى ليَ والمُنَى فأَحْبِبْ بها من خُلَّةٍ لم تُصاقِبِ
ولا يُبْعِدِ اللَّهُ الشَّبابَ وذِكرَهُ وحُبَّ تَصافِي المُعْصِرَاتِ الكَواعِبِ
ويزدادُ ما أَحببتُه من عِتابِنا لُعَاباً وسُقياً للخَدِينِ المُقارِبِ
فإنّي وإنْ لم أَنسَهُنَّ لَذاكرٌ رَزِيئةَ مُخْباتٍ كريمِ المَناصِبِ
تَوَسَّلَ بالتَّقْوَى إلى اللّهِ صادقاً وَتَقْوى الإلهِ خيرُ تَكْسَابِ كاسِبِ
وَخَلَّى عن الدنيا فلم يلتبِسْ بها وتابَ إلى اللّهِ الرَّفيعِ المَرَاتِبِ
تخلَّى عن الدنيا وقال اطَّرَحتُها فلَستُ إليها ما حَييتُ بآيِبِ
وما أنا فيما يُكبِرُ الناسُ فَقْدَهُ ويسعى له الساعُونَ فيها بِرَاغِبِ
فَوَجَّهَهُ نحوَ الثَّوِيَّةِ سائراً إلى ابنِ زيادٍ في الجموعِ الكباكِبِ
بقومٍ همُ أهلُ التَّقِيَّةِ والنُّهَى مَصَالِيتُ أنجادٌ سُرَاةٌ مَنَاجِبِ
مَضَوا تارِكي رأيِ ابنِ طلحة حَسْبُهُ ولم يستجيبوا للأمير المُخاطِبِ
فساروا وهمْ من بينِ مُلتَمِسِ التُّقَى وآخرَ مما جرّ بالأمسِ تائِبِ
فلاقوا بعينِ الوردَةِ الجَيْشَ فاصِلاً إليهمْ فَحَسُّوهم ببِيضٍ قواضِبِ
يَمانِيَةٍ تَذْرِي الأَكُفَّ وتارةً بخيلٍ عِتاقٍ مُقْرَباتٍ سَلاَهِبِ
فَجاءَهُم جمعٌ من الشامِ بعدَه جُمُوعٌ كموجِ البحرِ من كلّ جانِبِ
فما بَرِحوا حتى أُبِيدَتْ سُرَاتُهُم فلم ينجُ منهم ثَمَّ غيرُ عصائِبِ
وغُودِرَ أهلُ الصبرِ صَرْعى فأَصبحوا تُعاوِرُهم ريحُ الصَّبَا والجنائِبِ
فأَضحَى الخُزاعيُّ الرئيسُ مُجَدَّلاً كأن لم يقاتِلْ مَرَّةً ويُحارِبِ
ورأسُ بني شَمْخٍ وفارسُ قومِهِ شَنُوءَةَ والتّيميُّ هادِي الكتائِبِ
وعمرو بنُ بِشرٍ والوليدُ وخالدٌ وزيدُ بنُ بكرٍ والحُلَيسُ بن غالبِ
وضارِبُ من هَمْدانَ كلّ مُشَيَّعٍ إذا شدّ لم يَنْكُلْ كريمُ المكاسِبِ

ومن كـل قـوم قـد أُصِيبَ زعيمُهمْ وذو حَسَبٍ في ذِروَةِ المجد ثـاقِبِ
أَبَـوْا غيـرَ ضـربٍ يَفلِقُ الهـامَ وقعُهُ وطَعْنٍ بـأَطـرافِ الأَسِنَّـةِ صـائب
وإنَّ سعيـداً يـومَ يَـدْمُـرُ عـامِـراً لأَشجَـعُ من لَيثٍ بِـدُرنَى مُـواثِـبِ
فيـا خـيرَ جيشٍ لـلعـراقِ وأهلِهِ سُقِيتم رَوايـا كـلِّ أَسحَمَ سـاكِبِ
فـلا يَبْعَـدْنَ فُـرسـانـنـا وحُمـاتنـا إذا البيض أبدتْ عن خِدَامِ الكواعِبِ
فـإن يُقتَلوا فـالقتـلُ أكـرَمُ مِيتـةٍ وكـل فتىً يـومـاً لإحـدى الشَّـواعِبِ
ومـا قُـتِلُوا حتى أثـاروا عِصـابـةً مُحِلِّين ثَـوراً كـاللُّيُـوثِ الـضَّـوارِبِ

وقُتل سليمانُ بنُ صُرَد ومن قُتل معه بعَين الوردة من التوّابين في شهر ربيع الآخر . ؟

وفي هذه السنة أمر مروان بن الحَكَم أهلَ الشأم بـالبيعة من بعـده لابنيْه عبـدالملك وعبدالعـزيز ، وجَعَلَهما وليَّ العهد .

ذكر الخبر عن سبب عقد مروان ذلك لها :

قال هشام ، عن عوانة قال: لما هَزم عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق مصعبَ بن الزبير حين وجَّهه أخوه عبدُالله إلى فلسطين وانصرف راجعاً إلى مروان ، ومروانُ يومئذٍ بدِمَشق ، قد غلب على الشـام كلِّها ومصر ، وبلغ مروان أنّ عمراً يقول : إنّ هذا الأمر لي من بعد مروان ، ويدّعي أنه قد كان وعَدَه وعداً ، فدعا مروانُ حسّان بن مالك بن بحدل فأخبَرَه أنه يريد أن يبايع لعبـدالملك وعبدالعـزيز ابنيـه من بعده ، وأخبره ما بلغه عن عمرو بن سعيد ، فقال : أنا أكفيك عَمراً ، فلما اجتمع الناس عند مروان عشيًّا قام ابن بحدل فقال: إنه قد بلغنا أنّ رجالاً يتمنون أمانيّ ، قُوموا فبايعوا لعبدالملك ولعبد العـزيز من بعـده؛ فقام الناس، فبايعوا من عند آخرهم .

وفي هذه السنة مات مروانُ بنُ الحَكَم بدمشق مستهلّ شهر رمضان .

ذكر الخبر عن سبب هلاكه :

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: أخبَرَنا محمد بن عمر قال: حدّثني موسى بن يعقوب، عن أبي الحويرث ، قـال لما حضـرت معاويـةَ بن يزيـد أبا ليـلى الوفـاة، أبى أن يَستخلف أحداً ، وكـان حسان بن مالك بن بَحْدل يريد أن يجعل الأمر بعد معاوية بن يزيد لأخيه خالد بن يزيد بن معاوية ، وكـان صغيراً ، وهو خال أبيه يزيد بن معاوية ، فبايع لمروان ، وهو يريد أن يجعل الأمر بعده لخالد بن يزيد، فلما بايع لمروان وبايعه معه أهل الشام قيل لمروان: تزوّج أمّ خالد- وأمه أمّ خالد ابنة أبي هشام بن عتبة - حتى تُصغِّر شأنه، فلا يطلب الخلافَة؛ فتزوّجَها، فدخل خالد يوماً على مروانَ وعنده جماعةٌ كثيرة، وهو يمشي بين الصفّين ، فقال: إنه والله ما علمتُ لأحمق ، تعالَ يابن الرَّطبة الاست - يقصّر بـه ليُسقطَه من أعـين أهل الشأم - فرجع إلى أمه فأخبَرَها ، فقالت له أمُّه : لا يُعرَفَنّ ذلك منك ، واسكت فإني أكفيكه ؛ فدخل عليها مروانفقـالـلهـا: هل قال لكِ خالد فيَّ شيئاً؟ فقالت: وخالد يقول فيك شيئاً! خالد أشدّ لك إعظاماً من أن يقول فيك شيئاً ؛ فصدّقها ، ثم مكثت أياماً ، ثمّ إنّ مروانَ نَام عندها ، فغطّته بالوِسادة حتى قتلتْه .

قال أبو جعفر: وكان هلاكُ مروانَ في شهر رمضانَ بدمشق ، وهو ابن ثلاث وستين سنة في قول الواقديّ ؛ وأمّا هشام بن محمد الكلبي فإنه قال : كان يومَ هَلك ابنَ إحدى وستين سنة ؛ وقيل : تُوفِّي وهو ابن إحدى وسبعين سنة ؛ وقيل : ابن إحدى وثمانين سنة ؛ وكان يُكنَى أبا عبدالملك ، وهو مروان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أميّة بن عبدشمس ، وأمُّه آمنة بنت علقمة بن صَفْوان بن أميّة الكنانيّ ، وعاش بعد أن بويع له بالخلافة تسعة أشهر ؛ وقيل : عاش بعد أن بويع له بالخلافة عشرة أشهر إلاّ ثلاث ليال ، وكان قبل هلاكه قد بعث بعثَيْن : أحدهما إلى المدينة ، عليهم حُبَيش بن دُلْجَة القَينيّ ، والآخر منهما إلى العراق عُبيدالله بنُ زياد ، فأما عبيدالله بن زِياد فسار حتى نزل الجزيرة ، فأتاه الخبر بها بمَوْت مروان ، وخرج إليه التوّابون من أهل الكوفة طالبين بدَم الحسين ، فكان من أمرهم ما قد مضى ذكرُه ، وسنذكر إن شاء الله باقيَ خبرِه إلى أن قُتل ؟

وفي هذه السنة قتل حُبيش بن دُلْجة . وأما حبيش بن دُلْجة ؛ فإنه سار حتى انتهى ـ فيما ذُكِر عن هشام ، عن عوانة بن الحَكَم إلى المدينة ، وعليهم جابر بن الأسود بن عوف، ابن أخي عبدالرّحمن بن عوف ؛ مِن قِبَل عبدالله بن الزبير ، فهرب جابر من حُبيش . ثمّ إنّ الحارث بن أبي ربيعة ـ وهو أخو عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة ـ وجّه جيشاً من البصرة ، وكان عبدالله بن الزبير قد ولاّه البصرة ، عليهم الحُنيف بن السجْف التميميّ لحرب حبيش بن دُلْجة ، فلما سمع حبيش بن دُلْجة سار إليهم من المدينة ، وسرَّح عبدالله بن الزبير عبّاس بن سهل بن سعد الأنصاريّ على المدينة ، وأمره أن يسيرَ في طلب حبيش بن دُلْجة حتى يوافيَ الجند من أهل البصرة الذين جاءوا يَنصرُون ابنَ الزبير، عليهم الحنيف ، وأقبل عبّاس في آثارهم مُسرعاً حتى لحقهم بالرَّبَذَة ، وقد قال أصحاب ابن دلجة له : دَعْهم ، لا تعجلْ إلى قتالهم ؛ فقال : لا أنزل حتى آكلَ من مُقَنَّدهم ، ـ يعني السَّويق الذي فيه القَنْد ـ فجاءه سهمُ غَرْب فقَتَله ، وقتل معه المنذر بن قيس الجذاميّ ، وأبو عتّاب مولَى أبي سُفْيان ، وكان معه يومئذ يوسفُ بن الحَكم ، والحجاج بن يوسف ، وما نَجَوا يومئذ إلاّ على جَمل واحد ، وتحرّز منهم نحوٌ من خمسمائة في عمود المدينة ، فقال لهم عباس : انزِلوا على حُكْمي ، فنزلوا على حُكْمِه فضرب أعناقهم ، ورجع فلُّ حُبَيش إلى الشأم.

حدّثني أحمد بن زهير ، عن علي بن محمد أنه قال : الذي قتل حبيش بن دُلْجة يوم الرَّبَذَة يزيد بن سِيَاه الأسواري ، رماه بنُشّابة فقتله ، فلما دخلوا المدينة وقف يزيد بن سياه على بِرْذَون أشهبَ وعليه ثيابٌ بياض ، فما لبث أن اسودّت ثيابُه ، ورأيتُه ممّا مسح الناسُ به ومما صبّوا عليه من الطِّيب.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة وقع بالبصرة الطاعونُ الذي يقال له الطاعون الجارف، فهلك به خلقٌ كثير من أهل البَصْرة .

حدّثني عمرُ بنُ شبّة ، قال: حدّثني زهير بن حرب ، قال حدّثنا وهب بنُ جرير ، قال حدّثني أبي ، عن المصعب بن زيد أن الجارفَ وقع وعبيدالله بن عبيدالله بن مَعمَر على البصرة ، فماتت أمه في الجارف ، فما وجدوا لها من يَحمِلها حتى استأجروا لها أربعة عُلُوج فحملوها إلى حُفْرتها وهو الأمير يومئذٍ .

وفي هذه السنة اشتدّت شوكة الخَوارج بالبصرة ، وقتل فيها نافعُ بنُ الأزرق .

ذكر الخبر عن مقتله:

حدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا زهير بن حرب، قال حدّثنا وهب بن جرير، قال حدّثنا أبي، عن محمد بن الزبير، أنّ عبيدالله بن عبيدالله بن مَعمَر بعث أخاه عثمان بن عبيدالله إلى نافع بن الأزرق في جيش، فلقيهم بدولاب، فقُتِل عثمان وهُزِمَ جيشُه.

قال عمر: قال زهير: قال وهب: وحدّثنا محمد بن أبي عيينة، عن سبْرة بن نخْف، أنّ ابن معمر عبيدالله بعث أخاه عثمان إلى ابن الأزرق، فهُزِم جندُهُ وقُتِل؛ قال وهب: فحدّثنا أبي أنّ أهل البَصْرة بعثوا جيشاً عليهم حارثةُ بن بدر، فلقيهم، فقال لأصحابه:

كَــرْنِبُــوا وَدَوْلِـبُــوا وحيثُ شئتمْ فاْذهَبُوا

حدّثنا عمر، قال: حدّثنا زهير، قال: حدّثنا وهب، قال: حدّثنا أبي ومحمد بن أبي عيينة، قالا: حدثنا معاوية بن قرّة، قال: خرجنا مع ابن عُبيس فلقيناهم، فقتل ابن الأزرق وابنان أو ثلاثة للماحُوز، وقُتِل ابن عُبيس.

قال أبو جعفر: وأمّا هشام بن محمد فإنه ذكر عن أبي مخنف، عن أبي المخارق الراسبيّ من قصّة ابن الأزرق، وبني الماحوزُ قصّةً هي غيرُ ما ذكره عمر، عن زهير بن حرب، عن وهب بن جرير؛ والذي ذكر من خبرهم أنّ نافع بن الأزرق اشتدّت شوكته باشتغال أهلِ البصرة بالاختلاف الذي كان بين الأزْد وربيعة وتميم بسبب مسعود بن عمرو، وكثرت جموعُه، فأقبلِ نحوَ البصرة حتى دنا من الجسْر، فبعث إليه عبدُالله بن الحارث مُسْلمَ بن عبيس بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبدمناف في أهل البصرة، فخرج إليه، فأخذ يَحُوزه عن البصرة، ويدفعه عن أرضها، حتى بلغ مكاناً من أرض الأهواز يقال له: دُولاب، فتهيّأ الناس بعضُهم لبعض وتزاحفوا، فجعل مسلم بن عبيس على ميمنته الحجّاج بن باب الحِمَيريّ، وعلى ميسرته حارثة بن بدر التميمي، ثم الغُدَانيّ، وجعل ابنُ الأزرق على ميمنته عُبيدة بن هلال اليَشْكريّ، وعلى ميسرته الزبير بن الماحوز التميمي؛ ثم التقوا فاضطربوا، فاقتتل الناس قتالاً لم يُر قتال قطّ أشدّ منه، فقتل مسلم بن عُبيس أمير أهل البصرة، وقتل نافع بن الأزرق رأس الخوارج، وأمَّر أهل البصرة عليهم الحجّاج بن باب الحميري، وأمَّرت الأزارقةُ عليهم عبدَالله بن الماحوز، ثمّ عادوا فاقتتلوا أشدّ قتال، فقتل الحجّاج بن باب الحميري أمير أهل البصرة، وقتل عبدالله بن الماحوز أمير الأزارقة. ثمّ إنّ أهل البصرة أمَّروا عليهم ربيعة الأجذم التميميّ، وأمَّرت الخوارجُ عليهم عُبيدَالله بن الماحوز، ثمّ عادوا فاقتتلوا حتى أمسَوا، وقد كَرِه بعضُهم بعضاً، وملُّوا القتال، فإنهم لُمتواقفون متحاجزون حتى جاءت الخوارج سريّة لهم جامّة لم تكن شهدت القتالَ، فحملتْ على الناس من قبَل عبد القيس، فانهزم الناس، وقاتل أمير البصرة ربيعةُ الأجذم، فقتل، وأخذ راية أهل البصرة حارثةُ بن بدر، فقاتل ساعةً وقد ذهب الناس عنه، فقاتل من وراء الناس في حماتهم، وأهل الصبر منهم، ثمّ أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلاً بالأهواز ففي ذلك يقول الشاعر من الخوارج:

يـا كَبَـدا من غيـرِ جُـوعٍ ولا ظَمَـأٍ ويـا كَبِـدي من حُـبِّ أُمِّ حَـكيـمِ

ولــو شَهـدَتني يــوم دُولابَ أَبْصرتْ طِعَـانَ آمـرىءٍ في الحـرب غيـر لئيمِ
غَـدَاةَ طَفَتْ في المـاءِ بكْـر بنُ وائـل وعُجْنَـا صُـدُورَ الخيـل نحـوَ تميمِ
وكـان لـعبـدِ الـقـيْس أوَّلُ حَـدّنـا وذَلَّـتْ شُيُـوخُ الأَزْدِ وَهْـيَ تَـعُـومُ

وبلغ ذلـك أهل البصـرة ، فهالَهم وأفـزَعَهم ، وبعث ابنُ الزبـير الحارثَ بن عبـدالله بن أبي ربيعة القرشيّ على تلك الحَـرّة ، فقَدم ، وعـزل عبدالله بن الحـارث، فأقبلت الخـوارجُ نحـوَ البصـرة ، وقَـدِم المهلّب بن أبي صُفْرة على تلك من حال الناس من قبَل عبدالله بن الزّبير ، معه عهدهُ على خراسان ، فقال الأحنف للحارث بن أبي ربيعة وللناس عامّة : لا والله ، ما لهذا الأمر إلاَّ المهلَّبُ بن أبي صُفْرة ، فخرج أشرافُ الناس ، فكلَّموه أن يتولّى قتـالَ الخوارج ؛ فقـال : لا أفعل ، هـذا عهدُ أمـيرِ المؤمنين معي عـلى خُراسان ، فلم أكن لأدَعَ عهدَه وأمره ، فدعاه ابن أبي ربيعة فكلّمه في ذلك ، فقال له مثل ذلك ، فاتفق رأي ابن أبي ربيعة ورأيُ أهل البصرة على أن كتبوا على لسان ابن الزبير:

بسم الله الرّحمن الرحيم . من عبدالله بن الزُّبير إلى المهلب بن أبي صُفرة ، سلامٌ عليك ، فإني أحمد إليك اللّهَ الذي لا إله إلاّ هو ، أما بعد ، فإنّ الحارث بن عبدالله كتب إليَّ أنّ الأزارقة المارِقَة أصابوا جُنْداً للمسلمين كان عددُهم كثيراً ، وأشرافهم كثيراً ، وذكر أنهم قد أقبلوا نحو البَصرة ، وقد كنتُ وجّهتُك إلى خُراسانَ ، وكتبت لك عليها عهداً ، وقد رأيتُ حيث ذكر هذه الخوارج أن تكون أنتَ تـلي قتالَهم ، فقـد رجوتُ أن يكون ميموناً طائرُك ، مباركاً على أهل مِصرِك والأجر في ذلك أفضل من المسير إلى خُراسان ، فسرْ إليهم راشداً ،فقاتلْ عدوّ الله وعدوك ، ودافع عن حقك وحقوقِ أهل مصرك ، فـإنه لن يفـوتَك من سلطاننا خُراسان ولا غيرُ خراسانَ إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله .

فأُتِيَ بذلك الكتاب، فلما قرأه قال: فإني والله لا أسير إليهم إلاَّ أن تجعلوا لي ما غلبتُ عليه، وتُعْطوني من بيت المال ما أقوّي به مَن معي ، وأنتخب من فُرسان الناس ووجوههم وذَوِي الشرف مَن أحببت ؛ فقال جميعُ أهل البصرة: ذلك لك ؛ قال : فاكتبوا لي على الأخماس بذلك كتَاباً ففعلوا ، إلاَّ ما كان من مالك بن مسْمَع وطائفة من بكر بن وائل ، فاضـطغَنَها عليهم المهلَّب ، وقـال الأحنف وعبيدالله بن زيـاد بن ظَبيان وأشراف أهل البصرة للمهلَّب : وما عليك ألاّ يَكْتب لك مالك بن مسمع ولا من تابعه من أصحابه ، إذا أعطاك الذي أردتَ من ذلك جميع أهل البصرة! ويستطيع مالك خلاف جماعة الناس أوله ذلك! انكمشْ أيها الرجل، واعزمْ على أمرِك ، وسرْ إلى عدوّك؛ ففعل ذلك المهلب، وأمَّر على الأخماس، فأمَّر عبيدالله بن زياد بن ظَبيانَ على خمس بكر بن وائل، وأمَّر الحَريش بن هلال السعدي على خمس بني تميم، وجاءت الخوارج حتى انتهت إلى الجسْر الأصغر، عليهم عبيدالله بن الماحوز، فخرج إليهم في أشراف الناس وفُرسانهم ووجوههم، فحازهم عن الجسر، ودفعهم عنه، فكان أوّل شيء دفعهم عنه أهل البصرة، ولم يكن بقي لهم إلاّ أن يدخلوا؛ فارتفعوا إلى الجسر الأكبر. ثمّ إنه عبّأ لهم، فسار إليهم في الخيل والرّجال، فلما أن رأوا أن قد أظلّ عليهم، وانتهى إليهم، ارتفعوا فوق ذلك مَرحلة أخرى، فلم يزل يحوزهم ويرفعهم مَرحلةً بعد مرحلة، ومنزلة بعد منزلة، حتى انتَهْوا إلى منزل من منازل الأهواز يقال له سَلَّى وسَلّبْرَى، فأقاموا به؛ ولما بلغ حارثة بن بدر الغُدَاني أن المهلب قد أُمِّر على قتال الأزارقة، قال لمن معه من الناس:

كَرْنِبـــوا وَدْوِلــبـــوا وحيثُ شئتمْ فاْذهبُـــوا
قــد أُمِّـرَ المهلَّــبُ

فأقبل من كان معه نحو البصرة ، فصرفهم الحارثُ بن عبدالله بن أبي ربيعة إلى المهلب ؛ ولما نزل المهلب بالقوم خَندَقَ عليه ، ووضع المسالحَ ، وأذكى العيون ، وأقامَ الأحراس ، ولم يزل الجندُ على مصافِّهم ، والناس على راياتهم وأخماسهم ، وأقواب الخنادق عليها رجال موكَّلون بها ، فكانت الخوارج إذا أرادوا بَياتَ المهلَّب وجدوا أمراً مُحْكماً ، فرجعوا ، فلم يقاتلْهم إنسانٌ قطّ كان أشدّ عليهم ولا أغيَظَ لقلوبهم منه .

قال أبو مخنف : فحدّثني يوسف بن يزيد ، عن عبدالله بن عوف بن الأحمر ، أن رجلاً كان في تلك الخوارج حدّثه أنّ الخوارج بعثتْ عَبيدة بن هلال والزبير بن الماحوز في خيلين عظيمين ليلاً إلى عسكر المهلب ، فجاء الزبير من جانبه الأيمن ، وجاء عبيدَة من جانبه الأيسر ، ثمّ كبّروا وصاحوا بالناس ، فَوَجدوهم على تعبيتهم ومصافِّهم حَذِرين مُغِذِّين ، فلم يصيبوا للقوم غِرّةً ، ولم يَظفَروا منهم بشيء ، فلما ذهبوا ليرجعوا ناداهم عبيدُالله بن زياد بن ظَبْيانَ فقال :

وَجَـدتُمـونـا وقُـراً أَنْجَادَا لا كُـشُـفـاً خُـوراً ولا أَوْغَـادَا

هيهات! إنّا إذا صِيحَ بنا أَتَيْنا ، يا أهل النار ، ألَا ابكروا إليها غداً ، فإنها مأواكم ومثواكم ؛ قالوا : يا فاسق ، وهل تُدَّخر النار إلّا لك ولأشباهك! إنّها أعدَّتْ للكافرينَ وأنت منهم؛ قال: أتسمعون! كلُّ مملوك لي حرّ إنْ دخلتم أنتم الجنة إن بقيَ فيما بين سَفَوان إلى أقصى حجر من أرض خُراسانَ مجوسيٌّ ينكح أمّه وابنته وأختَه إلّا دخلها ؛ قال له عَبيدة : اسكت يا فاسق فإنما أنت عبد للجبّار العنيد، ووزيرٌ للظالم الكفور؛ قال: يا فاسق، وأنت عدوّ المؤمن التقيّ ، ووزير الشيطان الرّجيم ؛ فقال الناس لابن ظَبيان : وفّقك الله يابن ظبيان ؛ فقد والله أجبتَ الفاسق بجوابه ، وصَدَقته . فلما أصبح الناس أخرجَهُم المهلَّب على تعبيتهم وأخماسهم ، ومواقفهم الأزدُ ، وتميم ميمنة الناس ، وبكر بن وائل وعبدالقيس ميسرة الناس ، وأهل العالية في القَلْب وسط الناس .

وخرجت الخوارجُ على ميمنتهم عَبيدة بن هلال اليشكريّ، وعلى ميسرتهم الزّبير بن الماحوز، وجاؤوا وهم أحسن عُدَّة، وأكرم خيولاً ، وأكثر سلاحاً من أهل البصرة ؛ وذلك لأنهم مَخَروا الأرض وجرّدوها ، وأكلوا ما بين كَرْمان إلى الأهواز فجاؤوا عليهم مَغافرُ تضرب إلى صدورهم ، وعليهم دُروعٌ يَسحَبونها ، وسوق من زَرَد يشدّونها بكلاليب الحديد إلى مناطقهم ، فالتقى الناسُ فاقتتلوا كأشدّ القتال ، فصبر بعضُهم عامّة النهار. ثمّ إنّ الخوارج شدّت على الناس بأجمعها شدّةً منكرة فأجفل الناسُ وانصاعوا منهزمين لا تلوى أمٌّ على ولد حتى بلغ البصرة هزيمةُ الناس ، وخافوا السِّباءَ ، وأسرع المهلَّب حتى سبقهم إلى مكان يَفاع في جانب عن سنن المنهزمين .

ثمّ إنه نادى الناسَ: إليَّ إليَّ عبادَ الله، فثاب إليه جماعةٌ من قومه ، وثابت إليه سَرِيّة عُمَان فاجتمع إليه منهم نحوٌ من ثلاثة آلاف ، فلما نظر إلى مَنْ قد اجتمع رضي جماعتهم ، فحَمد الله وأثنَى عليه ثمّ

في الطريق والآخاذ والقـريّ ، والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله .

فلمـا أتى هذا الكتـابُ الحارثَ بن عبدالله بن أبي ربيعة بعثَ بـه إلى الزُّبيـر فقرىء على الناس بمكّة .

وكتب الحارث بن أبي ربيعة إلى المهلَّب :

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، تذكر فيه نصر الله إيّاك ، وظفر المسلمين فهنيئاً لـك يا أخـا الأزد بشرف الدنيا وعزّها، وثـوابِ الآخرة وفضلها، والسلام عليك ورحمة الله .

فلمـا قرأ المهلَّب كتـابه ضحـك ثم قال: أمـا تظنّـونه يعـرفني إلاّ بأخي الأزد! مـا أهـل مكـة إلاّ أعرابٌ .

قال أبو مخنف: فحدّثني أبو المُخَارِق الراسبيّ أن أبا علقمة اليَحْمَـديّ قاتَـلَ يوم سِلَّى وسِلَّبـرَى قتالاً لم يقاتله أحدٌ من النـاس ؛ وأنه أخـذ ينادي في شَبـاب الأزْد وفتيان اليَحْمَـد: أعيرونـا جَماجِمَكم ساعةً من نهـار ؛ فأخـذ فتيانٌ منهم يكـرّون ، فيقاتلون ثم يـرجعون إليـه ؛ يضحكون ويقـولون : يا أبا علقمة ، القدورُ تُستعار! فلما ظهر المهلَّب ورأى من بلائه ما رأى وفّاه مائة ألف .

وقد قيل: إنّ أهلَ البصرة قد كانوا سألوا الأحنف قَبْل المهلب أن يقـاتل الأزارقـة ، وأشار عليهم بـالمهلّب، وقال: هـو أقوى على حـربهم مني ، وإن المهلب إذ أجابهم إلى قتـالهم شَـرَط على أهـل البصرة أنّ ما غلب عليه من الأرض فهو لـه ولمن خفّ معه من قـومه وغيـرهم ثلاثَ سنين ، وأنـه ليس لمن تخلّف عنه منه شيء . فأجابوه إلى ذلك ، وكتب بذلك عليهم كتاباً ، وأوفدوا بذلك وفداً إلى ابن الزبير .

وإنّ ابن الزبير أمضى تلك الشـروط كلَّها للمهلَّب وأجـازها لـه ، وإنّ المهلب لما أجيب إلى مـا سأل وجّه ابنه حبيباً في ستمائة فارس إلى عمرو القَنَا، وهو معسكر خلْف الجسر الأصغر في ستمائة فارس، فأمر المهلب بعقد الجسر الأصغر، فقطع حبيب الجسر إلى عمرو ومَن معه؛ فقاتلهم حتى نفاهم عما بين الجسر، وانهزموا حتى صاروا من ناحية الفُرات، وتجهّز المهلب فيمن خفّ من قومه معه، وهم اثنا عشر ألف رجل، ومن سائر الناس سبعون رجلاً، وسار المهلب حتى نـزل الجسر الأكبر، وعمـرو القنا بـإزائه في ستمـائة. فبعث المغيرة بن المهلب في الخيل والرّجالة، فهزمتهم الرّجالة بالنّبل - واتبعتهم الخيل، وأمر المهلب بالجسر فعُقد، فعَبر هو وأصحابه، فلحق عمرو القنا حينئذٍ بابن الماحوز وأصحابه؛ وهو بالمُفْتَح ، فأخبروهـم الخبر، فساروا فعسكروا دون الأهواز بثمانية فراسخ ، وأقام المهلَّب بقية سنته ، فجَبى كُوَر دِجْلة ، ورَزَق أصحابَه ؛ وأتاه المدّد من أهل البصرة لما بلغهم ذلك ؛ فأثبتهم في الديوان وأعطاهم حتى صاروا ثلاثين ألفاً .

قال أبو جعفـر : فعَلَى قول هؤلاء كـانت الوقعـة التي كانت فيهـا هزيمـة الأزارقة وارتحـالهم عن نـواحي البصرة والأهـواز إلى ناحيـة أصبِهَان وكـرمان في سنـة ست وستين . وقيـل : إنهم ارتحلوا عن الأهواز وهم ثلاثة آلاف ، وإنه قتل منهم في الوقعة التي كانت بينهم وبين المهلَّب بسلّى وسلّبرى سبعة آلاف .

في الطريق والآخاذ والقــريّ ، والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله .

فلمـا أتى هذا الكتـابُ الحارثَ بن عبـدالله بن أبي ربيعة بعثَ بـه إلى الزُّبيـر فقرىء على الناس بمكّة .

وكتب الحارث بن أبي ربيعة إلى المهلَّب :

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، تذكر فيه نصر الله إيّاك ، وظفر المسلمين فهنيئاً لـك يا أخـا الأزد بشرف الدنيا وعزّها ، وثـوابِ الآخرة وفضلها ، والسلام عليك ورحمة الله .

فلمـا قرأ المهلَّب كتـابه ضحـك ثم قال : أمـا تظنّـونه يعـرفني إلاّ بأخي الأزد! مـا أهـل مكـة إلاّ أعرابٌ .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو المُخَارِق الراسبيّ أن أبا علقمة اليَحْمَـديّ قاتَـلَ يوم سِلَّى وسِلَّبـرَى قتالاً لم يقاتله أحدٌ من النـاس ؛ وأنه أخـذ ينادي في شَبـاب الأزْد وفتيان اليَحْمَـد : أعيرونـا جَماجِمَكم ساعةً من نهـار ؛ فأخـذ فتيانٌ منهم يكـرّون ، فيقاتلون ثم يـرجعون إليـه ؛ يضحكون ويقـولون : يا أبا علقمة ، القدورُ تُستعار! فلما ظهر المهلَّب ورأى من بلائه ما رأى وفّاه مائة ألف .

وقد قيل : إنّ أهلَ البصرة قد كانوا سألوا الأحنف قَبْل المهلب أن يقـاتل الأزارقـة ، وأشار عليهم بـالمهلّب ، وقال : هـو أقوى على حـربهم مني ، وإن المهلب إذ أجابهم إلى قتـالهم شَـرَط على أهـل البصرة أنّ ما غلب عليه من الأرض فهو لـه ولمن خفّ معه من قـومه وغيـرهم ثلاثَ سنين ، وأنـه ليس لمن تخلّف عنه منه شيء . فأجابوه إلى ذلك ، وكتب بذلك عليهم كتاباً ، وأوفدوا بذلك وفداً إلى ابن الزبير .

وإنّ ابن الزبير أمضى تلك الشـروط كلَّها للمهلَّب وأجـازها لـه ، وإنّ المهلب لما أجيب إلى مـا سأل وجّه ابنه حبيباً في ستمائة فارس إلى عمرو القَنَا ، وهو معسكر خلْف الجسر الأصغر في ستمائة فارس ، فأمر المهلب بعقد الجسر الأصغر ، فقطع حبيب الجسر إلى عمرو ومَن معه ؛ فقاتلهم حتى نفاهم عما بين الجسر ، وانهزموا حتى صاروا من ناحية الفُرات ، وتجهّز المهلب فيمن خفّ من قومه معه ، وهم اثنا عشر ألف رجل ، ومن سائر الناس سبعون رجلاً ، وسار المهلب حتى نـزل الجسر الأكبر ، وعمـرو القنا بـإزائه في ستمـائة . فبعث المغيرة بن المهلب في الخيل والرّجالة ، فهزمتهم الرّجالة بالنّبل ـ واتبعتهم الخيل ، وأمر المهلب بالجسر فعُقد ، فعَبر هو وأصحابه ، فلحق عمرو القنا حينئذٍ بابن الماحوز وأصحابه ؛ وهو بالمُفْتَح ، فأخبروهم الخبر ، فساروا فعسكروا دون الأهواز بثمانية فراسخ ، وأقام المهلَّب بقية سنته ، فجَبى كُوَر دِجْلة ، وَرَزَق أصحابَه ؛ وأتاه المدَد من أهل البصرة لما بلغهم ذلك ؛ فأثبتهم في الديوان وأعطاهم حتى صاروا ثلاثين ألفاً .

قال أبو جعفـر : فعَلَى قول هؤلاء كـانت الوقعـة التي كانت فيهـا هزيمـة الأزارقة وارتحـالهم عن نـواحي البصرة والأهـواز إلى ناحيـة أصبِهَان وكـرمان في سنـة ست وستين . وقيـل : إنهم ارتحلوا عن الأهواز وهم ثلاثة آلاف ، وإنه قتل منهم في الوقعة التي كانت بينهم وبين المهلَّب بسلّى وسلّبرى سبعة آلاف .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة وجّه مروان بن الحكم قبل مهلكه ابنه محمّداً إلى الجزيرة ، وذلك قبل مسيره إلى مصر .

وفي هذه السنة عزل عبدالله بن الزّبير عبدَالله بن يزيد عن الكوفة ، وولّاها عبدالله بن مطيع ، ونزع عن المدينة أخاه عبيدة بن الزبير ، وولّاها أخاه مُصعب بن الزبير، وكان سبب عزله أخاه عبيدة عنها أنه ـ فيما ذكر الواقدي ـ خَطَبَ الناس فقال لهم: قد رأيتم ما صُنِع بقوم في ناقة قيمتها خمسمائة درهم ، فسُمِّيَ مقوِّمَ الناقة؛ وبلغ ذلك ابن الزبير فقال: إنّ هذا لهو التكلُّف .

وفي هذه السنة بَنَى عبدالله بن الزبير البيتَ الحرام ، فأدخل الحِجْر فيه .

أخبرنا إسحاق بن أبي إسرائيل ، قال : حدّثني عبدالعزيز بن خالد بن رستم الصنعانيّ أبو محمد ، قال : حدّثني زياد بن جيل أنه كان بمكّة يومَ غلب ابن الزبير، فسمعه يقول: إنّ أمي أسماء بنت أبي بكر حدّثتني أنّ رسولَ الله ﷺ قال لعائشة: لولا حداثةُ عهد قومك بالكفر رددت الكعبة على أساس إبراهيم ؛ فأزيد في الكعبة من الحِجْر . فأمر به ابن الزبير فحفر ، فوجدوا قِلاعاً أمثال الإبل ، فحرّكوا منها صخرة ، فبرقتْ بارقة فقال: أقرّوها على أساسها ، فبناها ابن الزبير، وجعل لها بابين : يُدخل من أحدهما ويُخرَج من الآخر .

قال أبو جعفر: وحجّ بالناس في هذه السنة عبدالله بن الزبير، وكان على المدينة أخوه مصعب بن الزبير، وعلى الكوفة في آخر السنة عبدالله بن مطيع ، وعلى البصرة الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي ؛ وهو الذي يقال له القُباع . وعلى قضائها هشام بن هُبَيرة ، وعلى خراسان عبدالله بن خازم .

وفي هذه السنة خالف مَنْ كان بخُراسان من بني تميم عبدَالله بن خازم حتى وقعتْ بينهم حروب .

ذكر الخبر عن سبب ذلك :

وكان السبب في ذلك ـ فيما ذكر ـ أن مَنْ كان بخُراسان من بني تميم أعانوا عبدَالله بن خازم على مَنْ كان بها من ربيعة ، وعلى حَرْب أوْس بن ثعلبة حتى قَتَل من قَتَل منهم ، وظَفِر به ؛ وصفا له خراسان، فلما صفا له ولم ينازعه به أحد جَفاهم . وكان قد ضمّ هَرَاةَ إلى ابنه محمد واستعمله عليها ؛ وجعل بكير بن وِشَاح على شُرْطته ، وضمّ إليه شَمّاس بن دِثَار العُطَارديّ ؛ وكانت أمّ ابنه محمد امرأةً من تميم تدعى صَفيَّة ، فلما جفا ابن خازم بني تميم أتَوْا ابنه محمَّداً بهرَاة فكتب ابن حازم إلى بكير وشمّاس يأمرهما بمنع بني تميم من دخول هَرَاة؛ فأما شماس بن دثار فأبَى ذلك، وخرج من هَراة ، فصار من بني تميم ، وأما بُكير فمنعهم من الدخول .

فذكر عليّ بن محمد أن زهير بن الهُنَيْد حدّثه أنّ بُكير بن وِشَاح لمّا منع بني تميم من دخول هرَاة أقاموا ببلاد هَرَاة ، وخرج إليهم شمّاس بن دثار فأرسل بكير إلى شماس : إني أعطيك ثلاثين ألفاً ، وأعطي كلّ رجل من بني تميم ألفاً على أن ينصرفوا ، فأبَوْا ، فدخلوا المدينة ، وقتلوا محمد بن عبدالله بن خازم. قال علي: فأخبرنا الحسن بن رُشيد، عن محمد بن عزيز الكنديّ قال: خرج

محمد بن عبدالله بن خازم يتصيَّد بهَراة ، وقد منع بني تميم من دخولها ، فرصدوه ، فأخذوه فشدّوه وَثاقاً ، وشربوا ليلتهم ، وجعل كلّما أراد رجل منهم البَوْل بال عليه ، فقال لهم شمّاس بن دثار : أما إذْ بلغتم هذا منه فاقتلوه بصاحبَيْكما اللَّذَيْن قتلهما بالسياط . قال: وقد كان أخذ قُبَيل ذلك رجلين من بني تميم ، فضربهما بالسياط حتى ماتا. قال: فقتلوه، قال: فزعم لنا عمّن شهد قتله من شيوخهم أن جَيْهان بن مَشْجَعَة الضبّيّ نهاهم عن قتله، وألقى نفسه عليه ، فشكر له ابن خازم ذلك ، فلم يقتلْه فيمن قتل يوم فَرْتَنا . قال: فزعم عامر بن أبي عمر أنه سمع أشياخهم من بني تميم يزعمون أن الذي وَلى قتلَ محمد بن عبدالله بن خازم رجلان من بني مالك بن سعد، يقال لأحدهما: عَجَد ، وللآخر كُسيب . فقال ابن خازم: بئس ما اكتسب كُسيبٌ لقومه ، ولقد عجّل عَجَلة لقومه شرًّا .

قال عليّ : حدّثنا أبو الذّيال زهير بن هُنيد العدويّ ، قال : لما قَتل بنو تميم محمد بنَ عبدالله بن خازم انصرفوا إلى مَرْو ، فطلبهم بُكَير بن وِشَاح فأدرك رجلاً من بني عُطارد يقال له شُمَيْخ ؛ فقتله ، وأقبل شمّاس وأصحابه إلى مَرْو ، فقالوا لبني سعد : قد أدركنا لكم بثأركم ؛ قتلنا محمد بن عبدالله بن خازم بالجشميّ الذي أصيب بمَرْو ، فأجمعوا على قتال ابن خازم ، وولَّوا عليهم الحَرِيشَ بنَ هلال القُرَيْعيّ .

قال : فأخبرني أبو القَوارس عن طُفيل بن مرداس ، قال أجمع أكثر بني تميم على قتال عبدالله بن خازم، قال: وكان مع الحريش فرسان لم يدرك مثلهم؛ إنما الرجل منهم كتيبة ؛ منهم شمّاس بن دِثار ، وبَجير بن ورقاء الصُّريميّ ؛ وشعبة بن ظَهير النَّهشَليّ ، ووَرْد بن الفلق العنْبري ، والحجّاج بن ناشب العدويّ ـ وكان من أرْمى الناس ـ وعاصم بن حبيب العدويّ ، فقاتل الحريشُ بنُ هلال عبدَالله بن خازم سنتين .

قال : فلمّا طالت الحرب والشرّ بينهم ضَجِروا ، قال فخرج الحريش فنادى ابنَ خازم ، فخرج إليه فقال : قد طالت الحرب بيننا ؛ فعلامَ تقتل قومي وقومك ! ابرز لي ، فأيُّنا قتل صاحبَه صارت الأرض له ؛ فقال ابن خازم: وأبيك لقد أنصفتني ؛ فبرز له ، فتصاولا تصاوُلَ الفَحلَين ، لا يقدر أحدٌ منهما على ما يريد. وتغفَّل بن خازم غفلة ، وضربه الحُرَيش على رأسه ، فرمى بفَرْوة رأسه على وجهه ، وانقطع رِكابَا الحريش ، وانتزع السيف . قال : فلزم ابن خازم عُنُق فرسه راجعاً إلى أصحابه وبه ضربة قد أخذتْ من رأسه ، ثم غاداهم القتال ، فمكثوا بذلك بعد الضربة أيّاماً؛ ثم ملّ الفريقان فتفرّقوا ثلاث فِرَق ؛ فمضى بحير بن ورقاء إلى أَبْرَشَهْر في جماعة ، وتوجَّه شمّاس بن دثار العُطارديّ ناحيةً أخرى ، وقيل : أتى سِجِسْتان، وأخذ عثمان بن بشر بن المحتفز إلى فَرْتَنا ، فنزل قصراً بها ، ومضى الحريش إلى ناحية مَرْوَ الرُّوذ ـ فاتبعه ابن خازم ؛ فلحقه بقرية من قُراها يقال لها قرية الملحمة ـ أو قصر الملحمة ـ والحريش بن هلال في اثنَيْ عشر رجلاً ؛ وقد تفرّق عنه أصحابه ؛ فهم في خَرِبة ؛ وقد نصب رماحاً كانت معه وترَسةً .

قال : وانتهى إليه ابنُ خازم ؛ فخرج إليه في أصحابه ، ومع ابن خازم مولًى له شديد البأس ،

فحمل على الحريش فضربه فلم يصنع شيئاً ، فقال رجل من بني ضبّة للحريش : أما ترى ما يصنع العبد! فقال له الحريش: عليه سلاح كثير ، وسيفي لا يعمل في سلاحه ، ولكن انظر لي خشبةً ثقيلة ؛ فقطع له عوداً ثقيلاً من عُنّاب ـ ويقال : أصابه في القصر ـ فأعطاه إيّاه ؛ فحمل به على مولى ابن خازم ؛ فضربه فسقط وَقِيذاً . ثم أقبل على ابن خازم ؛ فقال : ما تريد إليَّ وقد خلّيتك والبلاد! قال: إنك تعود إليها، قال: فإني لا أعود ، فصالحه على أن يخرج له من خُراسان ولا يعود إلى قتاله ، فوصله ابن خازم بأربعين ألفاً . قال : وفتح له الحريش باب القصر ، فدخل ابن خازم ، فوصلَه وضمن له قضاء دَينه ، وتحدّثا طويلاً . قال : وطارت قُطْنة كانت على رأس ابن خازم مُلصَقة على الضربة التي كان الحريش ضربه ، فقام الحريش فتناولها ، فوضعها على رأسه ، فقال له ابن خازم : مَسُّك اليوم يا أبا قُدامة ألين من مَسِّك أمس ، قال: معذرة إلى الله وإليك ؛ أما والله لولا أن رِكابيّ انقطعا لخالط السيف أضراسَك ، فضحك ابن خازم ، وانصرف عنه ، وتفرّق جمع بني تميم ، فقال بعض شعراء بني تميم :

فلو كُنتُم مِثلَ الحَريشِ صَبَرْتُم ... وكنتُمْ بقصرِ المِلح خَيرَ فوارِسِ
إذًا لَسقَيتمْ بالعَوالي ابنَ خازِمٍ ... سجالَ دَمٍ يُورِثْنَ طُولَ وَسَاوِسِ

قال : وكان الأشعث بن ذؤيب أخو زهير بن ذؤيب العَدَويّ قتل في تلك الحرب ، فقال له أخوه زهير وبه رَمَق : مَنْ قَتَلك؟ قال: لا أدري ؛ طعنني رجل على بِرْذَون أصفر، قال: فكان زهير لا يرى أحداً على برذون أصفر إلاّ حمل عليه ؛ فمنهم مَن يقتله ، ومنهم من يهرب ؛ فتحامى أهل العسكر البَراذين الصُّفْر ؛ فكانت مخلاّةً في العسكر لا يركبها أحد . وقال الحريش في قتاله ابن خازم :

أزَالَ عظمَ يَميني عَنْ مُرَكَّبِهِ ... حَمْلُ الرُّدَيْنيّ في الإدْلاَجِ والسَّحَرِ
حَوْلَيْنِ ما اغْتَمَضَتْ عيني بمنزلةٍ ... إلاّ وَكَفِّي وسادٌ لي على حَجَرِ
بَزِّى الحديدُ وسِرْبالي إذا هَجَعَتْ ... عَنّي العيونُ مِحالُ القارحِ الذَّكَرِ

ثم دخلت سنة ست وستين

ذكر الخبر عن الكائن الذي كان فيها من الأُمور الجليلة

فممّا كان فيها من ذلك وثوب المختار بن أبي عُبَيد بالكوفة طالباً بدم الحُسين بن عليّ بن أبي طالب وإخراجه منها عاملَ ابن الزُّبير عبدالله بن مُطيع العدَويّ .

ذكر الخبر عمّا كان من أمرهما في ذلك وظهور المختار للدعوة إلى ما دعا إليه الشيعة بالكوفة :

ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، أن فُضَيل بن خَدِيج ، حدّثه عن عُبيدة بن عمرو وإسماعيل بن كثير من بني هند؛ أنّ أصحاب سليمان بن صُرَد لمّا قدموا كتب إليهم المختار :

أمَّا بعد ؛ فإنّ الله أعظم لكم الأجر ، وحطّ عنكم الوِزْر ، بمفارقة القاسطين ، وجهاد المُحلين ؛ إنّكم لم تنفقوا نفقة ، ولم تقطعوا عقبة ، ولم تخطوا خَطْوة إلّا رفع الله لكم بها درجة ، وكتب لكم بها حسنة ، إلى ما لا يحصيه إلّا الله من التضعيف ؛ فأبشروا فإنّي لو قد خرجت إليكم قد جرّدت فيما بين المشرق والمغرب في عدوكم السيف بإذن الله ، فجعلتُهم بإذن الله رُكاماً ؛ وقتلتُهم فذًّا وتؤاماً ؛ فرحب الله بمن قارب منكم واهتدى؛ ولا يبعد الله إلّا مَنْ عصى وأبى؛ والسلام يا أهل الهدى.

فجاءهم بهذا الكتاب سَيحان بن عمرو ، من بني ليث من عبدالقيس قد أدخله في قلنسوته فيما بين الظّهارة والبِطانة ؛ فأتى بالكتاب رفاعة بن شدّاد والمُثنّى بن مُخَرّبة العبديّ وسعد بن حُذيفة بن اليَمان ويزيد بن أنس وأحمرَ بن شُمَيْط الأحمسي وعبدالله بن شداد البَجليّ وعبدالله بن كامل ؛ فقرأ عليهم الكتاب ؛ فبعثوا إليه ابن كَامل ؛ فقالوا : قل له : قد قرأنا الكتاب ؛ ونحن حيث يسرّك ؛ فإن شئت أن نأتيَك حتى نخرجك فعلنا. فأتاه ، فدخل عليه السجن؛ فأخبره بما أرسِل إليه به ؛ فسُرّ باجتماع الشيعة له ؛ وقال لهم : لا تريدوا هذا ؛ فإني أخرج في أيّامي هذه .

قال : وكان المختار قد بعث غلاماً يُدْعى زِربيّا إلى عبدالله بن عمر بن الخطّاب ، وكتب إليه :

أمَّا بعد : فإني قد حُبست مظلوماً ، وظنّ بي الولاةُ ظنوناً كاذبة ؛ فاكتب فيَّ يرحمك الله إلى هذين الظّالميْن كتاباً لطيفاً ؛ عسى الله أن يخلّصني من أيديهما بلطفك وبركتك ويُمنك ؛ والسلام عليك .

فكتب إليهما عبدالله بن عمر :

أمَّا بعد ؛ فقد علمتُما الَّذِي بيني وبين المختار بن أبي عبيد من الصِّهر ، والَّذِي بيني وبينكما من الودّ ؛ فأقسمت عليكما بحقّ ما بيني وبينكما لَمّاخلّيتما سبيله حين تنظران في كتابي هذا ، والسلام عليكما ورحمة الله .

فلمّا أتى عبدَ الله بن يزيد وإبراهيمَ بن محمد بن طلحة كتابُ عبدالله بن عمر دعوَا للمختار بكُفَلاء يضمنونه بنفسه، فأتاه أناس من أصحابه كثير، فقال يزيد بن الحارث بن يزيد بن رُؤيم لعبدالله بن يزيد : ما تصنع بضمان هؤلاء كلّهم ! ضمّنه عشرة منهم أشرافاً معروفين ، ودعْ سائرهم . ففعل ذلك ، فلما ضمِنوه ، دعا به عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة فحلَّفاه بالله الذي لا إله إلاَّ هو عالِم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم ؛ لا يبغيهما غائلة ، ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان ؛ فإن هو فعل فعليه ألف بدَنة ينحرها لدى رِتاج الكعبة ؛ ومماليكُه كلّهم ذَكَرُهم وأنثاهم أحرارٌ . فحلف لهما بذلك ، ثم خرج فجاء داره فنزلها .

قال أبو مخنف : فحدّثني يحيى بن أبي عيسى ، عن حُميد بن مسلم ، قال : سمعت المختار بعد ذلك يقول : قاتلهم الله ! ما أحمقهم حين يَرَوْن أنّي أفِـي لهم بأيمانهم هذه ! أمّا حلفي لهم بالله ؛ فإنه ينبغي لي إذا حلفت على يمين فرأيت ما هو خير منها أن أدَع ما حلفت عليه وآتي الذي هو خير ؛ وأكفّر يميني ، وخروجي عليهم خير من كفّي عنهم ؛ وأكفّر يميني ؛ وأمّا هَدْي ألف بَدَنة فهو أهْوَن عليَّ من بصقة ؛ وما ثمنُ ألف بدنة فيهولني ! وأمّا عتق مماليكي فوالله لوددت أنه قد استتبّ لي أمري ، ثمّ لم أملك مملوكاً أبداً .

قال : ولمّا نزل المختار دارَه عند خروجه من السِّجن ، اختلف إليه الشيعة واجتمعت عليه ؛ واتّفق رأيها على الرضا به ، وكان الذي يبايع له الناس وهو في السِّجن خمسة نفر : السّائب بن مالك الأشعري ، ويزيد بن أنس ، وأحمر بن شُمَيط ، ورفاعة بن شدّاد الفِتْيانيّ ، وعبدالله بن شداد الجُشَميّ . قال : فلم تزل أصحابه يكثرون ، وأمره يقوَى ويشتدُّ حتّى عزل ابن الزبير عبدَالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وبعث عبدالله بن مُطيع على عملهما إلى الكوفة .

قال أبو مخنف : فحدّثني الصّقْعب بن زهير ، عن عمر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، قال : دَعا ابن الزبير عبدَالله بن مطيع أخا بني عديّ بن كعب والحارث بن عبـدالله بن أبي ربيعة المخـزومي ؛ فبعث عبدالله بن مطيع على الكوفة ، وبعث الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة على البصرة . قال فبلغ ذلك بَحِيرَ بن رَيْسان الحميري ؛ فلقيهما ، فقال لهما : يا هذان ؛ إن القمر الليلة بالناطح ، فـلا تسيرا . فأمّا ابنُ أبي ربيعة ؛ فأطاعه ؛ فأقام يسيرا ثم شخص إلى عمله فسلم ؛ وأمّا عبدالله بن مطيع فقال له : وهل نطلب إلاّ النّطح ! قال : فلقي والله نطحاً وبَطْحاً ، قال : يقول عمر : والبلاء موكَّل بالقول .

قال عمر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام : بلغ عبدالملك بن مروان أنّ ابن الزبير بعث عمالاً على البلاد ؛ فقال : مَنْ بعث على البصرة؟ فقيل : بعث عليها الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة ؛ قال : لا حُرَّ بوادي عوف ، بعث عوفاً وجلس ! ثم قال : مَن بعث على الكوفة؟ قالوا : عبدالله بن مطيع ، قال : حازم وكثيراً ما يسقط ، وشجاع ومايكره أن يفرّ ، قالَ : مَن بعث على المدينة؟ قالوا : بعث أخاه مُصعب بن الزبير ، قال : ذاك الليث النَّهْد ، وهو رجل أهل بيته .

قال هشام : قال أبو مخنف : وقدِم عبدالله بن مُطيع الكوفة في رمضان سنة خمس وستين يوم الخميس لخمس بقِين من شهر رمضان ، فقال لعبدالله بن يزيد : إنْ أحببت أن تقيم معي أحسنتُ صحبتَك ، وأكرمت مثواك ؛ وإن لحقتَ بأمير المؤمنين عبدِالله بن الزبير فبك عليه كرامـة ، وعلى مَن قبله من المسلمين . وقال لإبراهيم بن محمد بن طلحة : الحق بأمير المؤمنين ؛ فخرج إبراهيم حتى قدم المدينة ، وكسر على ابن الزبير

الخراج ؛ وقال: إنَّما كانت فتنة ؛ فكفّ عنه ابن الزبير .

قال: وأقام ابن مطيع على الكوفة على الصلاة والخراج ؛ وبعث على شُرطته إياس بن مضارب العجلي ، وأمره أن يُحسن السيرة والشدّة على المريب .

قال أبو مخنف : فحدّثني حَصِيرة بن عبدالله بن الحارث بن دريد الأزدي ـ وكان قد أدرك ذلك الزمان ، وشهد قتل مُصْعب بن الزبير ـ قال: إني لشاهد المسجد حيث قدم عبدالله بن مطيع ، فصعد المنبر، فحمِد الله وأثنى عليه ، قال : أمّا بعد ؛ فإنّ أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير بعثني على مصركم وثغوركم ، وأمرني بجباية فيئكم ؛ وألّا أحمل فضل فيئكم عنكم إلا برضاً منكم ، ووصيَّةِ عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته ، وبسيرة عثمان بن عفان التي سار بها في المسلمين ؛ فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا ، وخذوا على أيدي سفهائكم ؛ وإلّا تفعلوا فلوموا أنفسكم ولا تلوموني؛ فوالله لأوقعنّ بالسقيم العاصي؛ ولأقيمن دَرْء الأصعر المرتاب . فقام إليه السائب بن مالك الأشعري ، فقال: أمّا أمر ابن الزبير إيّاك ألّا تُحمل فضل فيئنا عنّا إلّا برضانا فإنا نشهدك أنّا لا نرضى أن تحمل فضل فيئنا عنّا ؛ وألّا يقسم إلّا فينا ، وألّا يُسار فينا إلّا بسيرة علي بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا هذه حتى هلك رحمة الله عليه ، ولا حاجةَ لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا ؛ فإنها إنما كانت أثَرةً وهوًى ، ولا في سيرة عمر بن الخطاب في فيئنا ؛ وإن كانت أهون السيرتين علينا ضرًّا ؛ وقد كان لا يألو النّاس خيراً. فقال يزيد بن أنس: صدق السائب بن مالك وبَرَّ ، رأيُنا مثل رأيه ، وقولنا مثل قوله . فقال ابن مطيع : نسير فيكم بكلّ سيرة أحببتموها وهويتموها ثم نزل . فقال : يزيد بن أنس الأسدي : ذهبتَ بفضلها يا سائب؛ لا يعدمْك المسلمون! أما والله لقد قمتُ وإني لأريد أن أقوم فأقول له نحواً من مقالتك ، وما أحبّ أن الله ولّى الردّ عليه رجلاً من أهل المِصْر ليس من شيعتنا .

وجاء إياس بن مضارب إلى ابن مُطيع ، فقال له: إنّ السائب بن مالك من رؤوس أصحاب المختار ، ولست آمنُ المختار ؛ فابعث إليه فليأتك ؛ فإذا جاءك فاحبْسه في سجنك حتى يستقيم أمر الناس؛ فإن عيوني قد أتتني فخبَّرتْني أنّ أمره قد استجمع له ؛ وكأنه قد وثب بالمِصْر . قال : فبعث إليه ابن مُطيع زائدةَ بن قُدامة وحُسين بن عبدالله البُرْسُميّ من همْدان، فخدلا عليه، فقالا: أجب الأمير، فدعا بثيابه وأمر بإسراج دابّته. وتخشخش للذهاب معهما؛ فلما رأى زائدةُ بن قدامة ذلك قرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللهُ وَٱللهُ خَيْرُ الماكِرِين ﴾[1] ، ففهمها المختار ، فجلس ثم ألقى ثيابه عنه، ثمّ قال: ألقوا عليَّ القطيفة؛ ما أراني إلّا قد وُعِكت ؛ إني لأجد قفقفةً شديدة، ثم تمثّل قول عبد العُزّى بن صُهَل الأزدي :

إذا مَا مَعْشَرٌ تَرَكُوا نَدَاهُمْ ولم يأتوا الكريهَةَ لم يُهَابُوا

ارجعا إلى ابن مطيع، فأعلماه حالي التي أنا عليها . فقال له زائدة بن قدامة: أمّا أنا ففاعل؛ فقال : وأنت يا أخا همدان فاعذرني عنده فإنه خير لك .

قال أبو مخنف : فحدثني إسماعيل بن نُعيم الهمداني ، عن حسين بن عبدالله، قال: قلت في نفسي : والله إن أنا لم أبلغ عن هذا ما يُرضيه ما أنا بآمن مِن أن يظهر غداً فيهلكني . قال : فقلت له ، نعم ،

(١) سورة الأنفال : ٣٠ .

أنا أضع عند ابن مطيع عذرك ، وأبلغه كلّ ما تحبّ ؛ فخرجنا من عنده ؛ فإذا أصحابه على بابه ، وفي داره منهم جماعة كثيرة . قال : فأقبلنا نحو ابن مطيع ، فقلت لزائدة بن قدامة : أما إني قد فهمت قولك حين قرأتَ تلك الآية؛ وعلمت ما أردتَ بها، وقد علمت أنها هي ثَبّطته عن الخروج معنا بعد ما كان قد لبس ثيابه ، وأسرج دابّته ؛ وعلمتُ حين تمثّل البيت الذي تمثّل إنما أراد يخبرك أنه قد فهم عنك ما أردت أن تُفهمه ، وأنه لن يأتيه . قال : فجاحدني أن يكون أراد شيئاً من ذلك ؛ فقلت له : لا تحلف ؛ فوالله ما كنت لأبلّغ عنك ولا عنه شيئاً تكرهانه ؛ ولقد علمت أنّك مشفق عليه، تجد له ما يجد المرء لابن عمه . فأقبلنا إلى ابن مطيع ؛ فأخبرناه بعلّته وشكواه ؛ فصدَّقنا ولها عنه .

قال : وبعث المختار إلى أصحابه؛ فأخذ يجمعهم في الدُّور حوله ، وأراد أن يثِب بالكوفة في المحرّم ؛ فجاء رجل من أصحابه من شِبَام ـ وكان عظيمَ الشرف يقال له عبدالرحمن بن شريح ـ فلقي سعيد ابن‌منقذ الثّوريّ وسِعر بن أبي سِعر الحنفيّ والأسود بن جَرَاد الكندي وقدامة بن مالك الجشمي ؛ فاجتمعوا في منزل سِعْر الحنفي ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أمّا بعد؛ فإنّ المختار يريد أن يخرج بنا ، وقد بايعناه ولا ندري أرسله إلينا ابن الحنفية أم لا ؛ فانهضوا بنا إلى ابن الحنفيّة فلنخبره بما قدم علينا به وبما دَعانا إليه ؛ فإنْ رخّص لنا في اتّباعه اتّبعناه ؛ وإن نهانا عنه اجتنبناه ؛ فوالله ما ينبغي أن يكون شيءٌ من أمر الدنيا آثرَ عندنا من سلامة ديننا . فقالوا له : أرشدك الله! فقد أصبت ووفّقت ؛ اخرج بنا إذا شئت. فأجمع رأيهم على أن يخرجوا من أيّامهم ، فخرجوا ، فلحقوا بابن الحنفيّة ؛ وكان إمامَهم عبدُالرحمن بن شريح ، فلمّا قدموا عليه سألهم عن حال النّاس فخبّروه عن حالهم وما هم عليه .

قال أبو مخنف : فحدّثني خليفة بن ورقاء ، عن الأسود بن جراد الكندي قال: قلنا لابن الحنفيّة ؛ إنّ لنا إليك حاجةً ؛ قال : فسرٌ هي أم علانية؟ قال: قلنا : لا ؛ بل سرّ ، قال : فرويداً إذاً ؛ قال : فمكث قليلاً ، ثم تنحّى جانباً فدعانا فقمنا إليه ، فبدأ عبدالرحمن بن شُريح ، فتكلّم ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال: أمّا بعد ؛ فإنكم أهل بيت خصّكم الله بالفضيلة ، وشرّفكم بالنبوّة ، وعظّم حقكم على هذه الأمة ؛ فلا يجهل حقكم إلاّ مغبون الرأي ، مخسوس النصيب ؛ قد أصِبتم بحسين رحمة الله عليه . عظُمت مصيبة اختُصصتم بها ، بعد ما عم بها المسلمون ، وقد قدم علينا المختار بن أبي عبيد يزعم لنا أنه قد جاءنا من تِلقائكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيِّه ﷺ ؛ والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء ؛ فبايعناه على ذلك . ثم إنّا رأينا أن نأتِيَك فنذكر لك ما دعانا إليه ، وندبنا له ؛ فإن أمرتَنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه .

ثم تكلمنا واحداً واحداً بنحو مما تكلم به صاحبنا ؛ وهو يسمع ، حتى إذا فرغنا حمِد الله وأثنى عليه ، وصلّى على النبي ﷺ ، ثم قال :

أمّا بعد ؛ فأما ما ذكرتم مما خصّصنا الله به من فضل ؛ فإن الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ؛ فللّه الحمد ! وأمّا ما ذكرتم من مصيبتنا بحُسين ؛ فإنّ ذلك كان في الذكر الحكيم وهي ملحمة كُتبت عليه ، وكرامة أهداها الله له، رفع بما كان منها درجات قوم عنده ، ووضع بها آخرين ، وكان أمر الله مفعولاً ، وكان

أمر الله قدراً مقدوراً. وأمّا ما ذكرتم من دعاء مَن دعاكم إلى الطَّلب بدمائنا ؛ فوالله لوددت أنّ الله انتصر لنا من عدوّنا بمن شاء من خلقه ؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

قال: فخرجنا من عنده ، ونحن نقول : قد أذن لنا ؛ قد قال : لوددت أنّ الله انتصر لنا من عدوِّنا بمن شاء من خلْقه ، ولو كره لقال : لا تفعلوا . قال : فجئنا وأناس من الشيعة ينتظرون مقدمنا ممَّن كنّا قد أعلمناه بمخرَجنا وأطلعناه على ذات أنفسنا ؛ ممن كان على رأينا من إخواننا ؛ وقد كان بلغ المختارَ مخرجنا ، فشقّ ذلك عليه ، وخشي أن نأتيَه بأمر يُخذِّل الشيعة عنه ؛ فكان قد أرادهم على أن ينهض بهم قبل قدومنا ؛ فلم يتهيَّأ ذلك له ؛ فكان المختار يقول : إن نُفيراً منكم ارتابوا وتحَيَّروا وخابوا ؛ فإن هم أصابوا أقبلوا وأنابوا؛ وإن هم كبُوا وهابوا ، واعترضوا وانجابوا ، فقد ثَبروا وخابوا ؛ فلم يكن إلّا شهراً وزيادة شيء؛ حتى أقبل القوم على رواحلهم ؛ حتى دخلوا على المختار قبل دخولهم إلى رحالهم ، فقال لهم : ما وراءكم؟ فقد فُتِنْتُم وارتبتم ، فقالوا له : قد أمِرنا بنصرتك فقال: الله أكبر! أنا أبو إسحاق ، اجمعوا إليَّ الشيعة، فجمع له منهم مَن كان منه قريباً فقال: يا معشرَ الشيعة ؛ إنَّ نفراً منكم أحبوا أن يعلموا مصداق ما جئت به، فرحلوا إلى إمام الهدى، والنجيب المرتضى ابن خير من طشى ومشى ؛ حاشا النبي المجتبى ؛ فسألوه عمَّا قدمت به عليكم ؛ فنبَّأهم أني وزيره وظهيره ، ورسوله وخليله ؛ وأمركم باتباعي وطاعتي فيما دعوتكم إليه من قتال المحلِّين ، والطلب بدماء أهل بيت نبيّكم المصطفين .

فقام عبدالرحمن بن شريح ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: أمّا بعد يا معشر الشيعة ؛ فإنا قد كنا أحببنا أن نستثبت لأنفسنا خاصة ولجميع إخواننا عامة؛ فقدمنا على المهديّ بن علي ، فسألناه عن حربنا هذه ، وعمَّا دعانا إليه المختار منها ، فأمرنا بمظاهرته ومؤازرته وإجابته إلى ما دعانا إليه ، فأقبلنا طيّبة أنفُسنا ، منشرحة صدورنا ، قد أذهب الله منها الشكّ والغِلّ والرِّيب ، واستقامت لنا بصيرتنا في قتال عدوّنا ؛ فليبلِّغ ذلك شاهدُكم ، غائبَكم ، واستعدوا وتأهَّبوا . ثمّ جلس وقمنا رجلاً فرجلاً ؛ فتكلَّمنا بنحو من كلامه ؛ فاستجمعت له الشيعة وحدَبت عليه .

قال أبو مخنف: فحدَّثني نُمَير بن وَعْلة والمَشرقيّ ، عن عامر الشَّعْبيّ ، قال : كنت أنا وأبي أوّلَ من أجاب المختار . قال : فلما تهيَّأ أمرُه ودنا خروجه ؛ قال له أحمر بن شُميط ريزيد بن أنس وعبدالله بن كامل وعبدالله بن شدّاد : إنّ أشرافَ أهل الكوفة مجتمعون على قتالك مع ابن مطيع ؛ فإن جامَعَنا على أمرنا إبراهيمُ بن الأشتر رجوْنا بإذن الله القُوّة على عدوّنا ، وألّا يضرّنا خلافُ من خالفنا ، فإنه فتى بئيس ، وابن رجل شريف بعيد الصّيت ؛ وله عشيرة ذات عزّ وعدد . قال لهم المختار : فالقَوْه فادعوه، وأعلموه الذي أمِرنا به من الطَّلَب بدم الحسين وأهل بيته .

قال الشعبي : فخرجوا إليه وأنا فيهم ، وأبي ، فتكلَّم يزيد بن أنس، فقال له: إنّا قد أتيناك في أمر نعرضه عليك ، وندعوك إليه ؛ فإن قبلته كان خيراً لك ، وإن تركته فقد أدّينا إليك فيه النصيحة ؛ ونحن نحبّ أن يكون عندك مستوراً . فقال لهم إبراهيم بن الأشتر : وإنّ مثلي لا تُخاف غائلته ولا سعايتُه ؛ ولا التقرّب إلى سلطانه باغتياب الناس ، إنما أولئك الصغارُ الأخطارِ الدّقاق همما . فقال له : إنَّما ندعوك إلى أمر قد أجمع عليه رأي الملإ من الشيعة ؛ إلى كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ ، والطَّلب بدماء أهل البيت ، وقتال المحِلّين ،

والدفع عن الضعفاء . قال : ثم تكلم أحمر بن شميط ، فقال له : إني لك ناصح ، ولحظّك محبّ وإنّ أباك قد هلك وهو سيّد الناس وفيك منه إن رعيتَ حقّ الله خَلَفٌ ؛ قد دعوناك إلى أمر إن أَجبْتَنا إليه عادت لك منزلة أبيك في النَّاس ، وأحييت من ذلك أمراً قد مات ؛ إنما يكفي مثلكَ اليسيرُ حتى تبلغ الغاية التي لا مذهب وراءها ، إنه قد بنى لك أولك مفتَخراً. وأقبل القوم كلّهم عليه يدعونه ألى أمرهم ويرغّبونه فيه . فقال لهم إبراهيم بن الأشتر : فإني قد أجبتكم إلى ما دعوتموني إليه من الطلب بدم الحسين وأهل بيته ، على أن تولّوني الأمر ، فقالوا : أنت لذلك أهل ؛ ولكن ليس إلى ذلك سبيل ؛ هذا المختار قد جاءنا من قِبَل المهديّ ؛ وهو الرسول والمأمور بالقتال؛ وقد أمِرنا بطاعته . فسكت عنهم ابن الأشتر ولم يجبْهم . فانصرفنا من عنده إلى المختار فأخبرناه بما ردّ علينا ؛ قال : فغَبَر ثلاثاً ؛ ثم إنّ المختار دعا بضعةَ عشر رجلاً من وجوه أصحابه ـ قال الشعبي : أنا وأبي فيهم ـ قال : فسار بنا ومضى أمامنا يقُدّ بنا بيوت الكوفة قدًّا لا ندري أين يريد ؛ حتى وقف على باب إبراهيم بن الأشتر ؛ فاستأذنّا عليه فأذن لنا ، وألقيت لنا وسائدُ ؛ فجلسنا عليها وجلس المختار معه على فراشه ؛ فقال المختار :

الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله ، وصلَّىٰ الله على محمّد ، والسَّلام عليه ، أمَّا بعد ، فإنّ هذا كتاب إليك من المهدي محمد بن أمير المؤمنين الوصيّ ؛ وهو خير أهل الأرض اليوم ، وابن خير أهل الأرض كلّها قبل اليوم بعد أنبياء الله ورسله ؛ وهو يسألك أن تنصرنا وتؤازرنا ، فإن فعلت اغتبطت ، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجَّة عليك ، وسيغني الله المهدي محمداً وأولياءه عنك .

قال الشعبي : وكان المختار قد دفع الكتاب إليَّ حين خرج من منزله ؛ فلما قضى كلامه قال لي : ادفع الكتاب إليه ، فدفعته إليه، فدعا بالمصباح وفضّ خاتمه ، وقرأه فإذا هو :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر، سلامٌ عليك؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاَّ هو ؛ أما بعد فإني قد بعثت إليكم بوزيري وأميني ونجِيِّي الذي ارتضيته لنفسي ، وقد أمرته بقتال عدوّي والطلب بدماء أهل بيتي ؛ فانهضْ معه بنفسك وعشيرتك ومَنْ أطاعك ؛ فإنك إن نصرتَني وأجبت دعوتي وساعدت وزيري كانت لك عندي بذلك فضيلة ؛ ولك بذلك أعنَّة الخيل وكلّ جيش غازٍ ، وكلّ مصر ومنبر وثغر ظهْرتَ عليه فيما بين الكوفة أقصى بلاد أهل الشام ، عليَّ الوفاء بذلك على عهد الله ؛ فإن فعلت ذلك نلتَ به عند الله أفضلَ الكرامة ، وإن أبيت هلكت هلاكاً لا تستقيله أبداً ، والسلام عليك .

فلما قضى إبراهيمُ قراءة الكتاب، قال: لقد كتب إليَّ ابنُ الحنفيَّة ؛ وقد كتبتُ إليه قبل اليوم ؛ فما كان يكتب إليَّ إلاَّ باسمه واسم أبيه ، قال له المختار: إنّ ذلك زمان وهذا زمان ، قال إبراهيم : فَمَنْ يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفيَّة إليَّ؟ فقال له: يزيد بن أنس وأحمر بن شميط وعبدالله بن كامل وجماعتهم ـ قال الشعبي : إلاَّ أنا وأبي ـ فقالوا : نشهد أنّ هذا كتاب محمد بن علي إليك ، فتأخر إبراهيم عند ذلك عن صدر الفراش فأجلس المختار عليه، فقال: ابسط يدك أبايعْك؛ فبسط يده فبايعه إبراهيم، ودعا لنا بفاكهة، فأصبنا منها ؛ ودعا لنا بشراب من عسل فشربنا ثم نهضنا ؛ وخرج معنا ابنُ الأشتر ؛ فركب مع المختار حتى دخل رحله ؛ فلما رجع إبراهيم منصرفاً أخذ بيدي ، فقال : انصرف بنا يا شعبي ، قال: فانصرفت معه

ومضى بي حتى دخل بي رحله ، فقال: يا شعبي إني قد حفظت أنّك لم تشهد أنت ولا أبوك ؛ أفترَى هؤلاء شهدوا على حقّ؟ قال: قلت له: قد شهدوا على ما رأيت وهم سادة القرّاء ومشيخة المصر وفرسان العرب ، ولا أرى مثل هؤلاء يقولون إلاّ حقًّا . قال: فقلت له هذه المقالة؛ وأنا والله لهم على شهادتهم متّهَمٌ ؛ غيرَ أني يعجبني الخروج وأنا أرى رأي القوم ؛ وأحبّ تمام ذلك الأمر ؛ فلم أطلعه على ما في نفسي من ذلك؛ فقال لي ابن الأشتر: اكتبْ لي أسماءهم فإني ليس كلَّهم أعرف . ودعا بصحيفة ودواة ، وكتب فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ هذا ما شهد عليه السائب بن مالك الأشعري ، ويزيد بن أنس الأسدي وأحمر بن شميط الأحمسي ومالك بن عمرو النهدي ؛ حتى أتى على أسماء القوم ؛ ثم كتب : شهدوا أن محمد بن علي كتب إلى إبراهيم بن الأشتر يأمره بموازرة المختار ومظاهرته على قتال المحِلّين ، والطلب بدماء أهل البيت ، وشهد على هؤلاء النَّفر الذين شهدوا على هذه الشهادة شَراحيل بن عبد ـ وهو أبو عامر الشعبي الفقيه وعبدالرحمن بن عبدالله النَّخعي ، وعامر بن شَراحِيل الشعبي . فقلت له: ما تصنع بهذا رحمك الله؟ فقال: دعْه يكون . قال : ودعا إبراهيم عشيرته وإخوانه ومَنْ أطاعه ، وأقبل يختلف إلى المختار .

قال هشام بن محمد: قال أبو مخنف : حدثني يحيى بن أبي عيسى الأزدي ، قال: كان حُميد بن مسلم الأسدي صديقاً لإبراهيم بن الأشتر ؛ وكان يختلف إليه ؛ ويذهب به معه؛ وكان إبراهيم يروح في كلّ عشية عند المساء ، فيأتي المختار ، فيمكث عنده حتى تصوّب النجوم ، ثم ينصرف ؛ فمكثوا بذلك يدبّرون أمورهم ؛ حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ست وستين ، ووطّن على ذلك شيعتهم ومن أجابهم . فلما كان عند غروب الشمس، قام إبراهيم بن الأشتر ؛ فأذّن ؛ ثمّ إنه استقدم ، فصلّىٰ بنا المغرب ، ثم خرج بنا بعد المغرب حين قُلت : أخوك أو الذئبُ ـ وهو يريد المختار ، ـ فأقبلنا علينا السلاحُ ، وقد أتى إياسُ بن مضارب عبدَالله بن مطيع فقال : إنّ المختار خارج عليك إحدى الليلتين ؛ قال : فخرج إياس في الشُّرَط ، فبعث ابنه راشداً إلى الكُناسة ، وأقبل يسير حولَ السوق في الشُّرَط .

ثم إن إياس بن مضارب دخل على ابن مطيع ، فقال له : إني قد بعثت ابني إلى الكناسة ، فلو بعثتَ في كل جبَّانة بالكوفة عظيمةٍ رجلاً من أصحابك في جماعة من أهل الطاعة ؛ هاب المريبُ الخروج عليك . قال : فبعث ابن مطيع عبدَالرحمن بن سعيد بن قيس إلى جَبَّانة السَّبيع ، وقال : اكفني قومك ، لا أوتينّ من قِبلك ، وأحكِم أمر الجبَّانة التي وجّهتك إليها ، لا يحدُثنّ بها حَدَث ؛ فأولئك العجز والوهن . وبعث كعب بن أبي كعب الخثعميّ إلى جَبَّانة بشر ، وبعث زَحْر بن قيس إلى جبَّانة كِنْدة ، وبعث شمِر بن ذي الجوشن إلى جبّانة سالم ، وبعثَ عبدالرحمن بن مخنف بن سُليم إلى جبَّانة الصائديّين ، وبعث يزيد بن الحارث بن رُوَيم أبا حَوْشب إلى جبّانة مراد ، وأوصى كلَّ رجل أن يكفيَه قومه ، وألاّ يؤتَى من قبَله ، وأن يحكم الوجه الذي وجّهه فيه ؛ وبعث شَبَث بن رِبْعيّ إلى السَّبَخَة ، وقال : إذا سمعت صوت القوم فوجّه نحوهم ؛ فكان هؤلاء قد خرجوا يوم الاثنين ؛ فنزلوا هذه الجبابين ، وخرج إبراهيم بن الأشتر من رَحله بعد المغرب يريد إتيان المختار ؛ وقد بلغه أن الجبابين قد حُشيتْ رجالاً ، وأن الشُّرَط قد أحاطت بالسوق والقصر .

قال أبو مخنف : فحدّثني يحيى بن أبي عيسى ، عن حُميد بن مسلم ، قال: خرجت مع إبراهيم من منزله بعد المغرب ليلةَ الثلاثاء حتى مررنا بدار عمرو بن حُريث ، ونحن مع ابن الاشتر كتيبةٌ نحوٌ من مائة ، علينا الدروع ، قد كفرنا عليها بالأقبية ، ونحن متقلّدو السيوف ؛ ليس معنا سلاحٌ إلاّ السيوف في عواتقنا ، والدّروع قد سترناها بأقبيتنا ؛ فلمّا مررنا بدار سعيد بن قيس فجُزْناها إلى دار أسامة ، قلنا : مُرَّ بنا على دار خالد بن عُرْفُطة ، ثم امض بنا إلى بَجِيلة ، فلنمرّ في دورهم حتى نخرج إلى دار المختار ـ وكان إبراهيم فتىً حَدَثاً شجاعاً ؛ فكان لا يكره أن يلقاهم ـ فقال: والله لأمرّنّ على دار عمرو بن حريث إلى جانب القصر وسط السوق ، ولأرعبنّ به عدوّنا ولأرينّهم هوانهم علينا . قال : فأخذنا على باب الفيل على دار ابن هبّار ؛ ثم أخذ ذات اليمين على دار عمرو بن حريث ؛ حتى إذا جاوزها ألفينا إياس بن مضارب في الشُّرَط مظهرين السلاح ، فقال لنا : مَنْ أنتم؟ ما أنتم؟ فقال له إبراهيم : أنا إبراهيم بن الأشتر ، فقال له ابن مضارب: ما هذا الجمع معك؟ وما تريد؟ والله إنّ أمرك لمريب ! وقد بلغني أنك تمرّ كلّ عشية ها هنا ، وما أنا بتاركك حتى آتي بك الأمير فيرى فيك رأيه . فقال إبراهيم : لا أبا لغيرك! خلّ سبيلَنا ، فقال : كلاّ والله لا أفعل ـ ومع إياس بن مضارب رجل من هَمْدان ، يقال له أبو قطن ، كان يكون مع إمرة الشّرْطة فهم يكرمونه ويؤثرونه ، وكان لابن الأشتر صديقاً ـ فقال له ابن الأشتر : يا أبا قَطن ، ادنُ مني ـ ومع أبي قَطَن رمح له طويل ـ ؛ فدنا منه أبو قَطَن ؛ ومعه الرمح ؛ وهو يرى أن ابن الأشتر يطلب إليه أن يشفع له إلى ابن مضارب ليخلّيَ سبيله ؛ فقال إبراهيم ـ وتناول الرّمح من يده ـ : إنّ رمحَك هذا لطويل ؛ فحمل به إبراهيم على ابن مضارب ، فطعنه في ثُغْرة نحره فصرعه ، وقال لرجل من قومه: انزل عليه ، فاحتزّ رأسه ، فنزل إليه فاحتزّ رأسه ، وتفرّق أصحابه ورجعوا إلى ابن مطيع . فبعث ابن مطيع ابنَه راشدَ بن إياس مكان أبيه على الشّرْطة ، وبعث مكان راشد بن إياس إلى الكُنَاسة تلك الليلة سُوَيد بن عبدالرحمن المِنقري أبا القعقاع بن سُويد . وأقبل إبراهيم بن الأشتر إلى المختار ليلةَ الأربعاء ، فدخل عليه فقال له إبراهيم : إنّا اتّعدنا للخروج للقابلة ليلة الخميس ، وقد حدث أمرٌ لا بدّ من الخروج الليلة ، قال المختار : ما هو؟ قال : عرض لي إياس بن مضارب في الطريق ليحبسني بزعمه ، فقتلته ؛ وهذا رأسه مع أصحابي على الباب . فقال المختار : فبشّرك الله بخير ! فهذا طير صالح ، وهذا أوّل الفتح إن شاء الله . ثم قال المختار : قم يا سعيد بن منقذ ، فأشعل في الهرادي النيران ثم ارفعها للمسلمين ، وقم أنت يا عبدالله بن شدّاد ؛ فناد : « يا منصور أمتْ » ؛ وقم أنت يا سفيان بن ليل ، وأنت يا قدامة بن مالك ، فناد : يا لثأرات الحسين ! ثم قال المختار : عليَّ بدرعي وسلاحي ، فأُتيَ به ؛ فأخذ يلبس سلاحه وَيقول :

قَدْ عَلِمَتْ بَيْضاءُ حَسناءُ الطَّلَلْ ... واضِحَة الخَدَّين عَجْزاءُالكَفَلْ

أنى غَدَاة الرَّوْع مِقْدامٌ بَطَلْ

ثم إن إبراهيم قال للمختار: إنّ هؤلاء الرؤوس الَّذِين وضعهم ابن مطيع في الجبابين يمنعون إخواننا أن يأتونا ، ويضيّقون عليهم ؛ فلو أني خرجت بمن معي من أصحابي حتى آتيَ قومي ؛ فيأتيني كلّ مَن قد بايعني من قومي ،ثم سرت بهم في نواحي الكوفة ، ودعوت بشعارنا ؛ فخرج إليَّ مَن أراد

الخروج إلينا ، ومَن قدر على إتيانك من الناس ؛ فمن أتاك حبستَه عندك إلى مَنْ معك ولم تفرّقهم ؛ فإن عوجلت فأتيت كان معكَ من تمتنع به ؛ وأنا لو قد فرغت من هذا الأمر عجلت إليك في الخيل والرجال. قال له: إمّالا فاعجل وإيّاك ان تسير إلى أميرهم تقاتله، ولا تقاتل أحداً وأنت تستطيع ألّا تقاتل، واحفظ ما أوصيتك به إلاّ أن يبدأك أحد بقتال. فخرج إبراهيم بن الأشتر من عنده في الكتيبة التي أقبل فيها ؛ حتى أتى قومه ، واجتمع إليه جلّ مَن كان بايعه وأجابه . ثم إنّه سار بهم في سِكك الكوفة طويلاً من الليل؛ وهو في ذلك يتجنّب السكك التي فيها الأمراء ، فجاء إلى الذين معهم الجماعاتالّذين وضع ابن مطيع في الجبابين وأفواه الطّرق العظام . حتى انتهى إلى مسجد السَّكون ، وعجلت إليه خيلٌ من خيل زَحْر بن قيس الجُعفيّ ليس لهم قائد ولا عليهم أمير . فشدّ عليهم إبراهيمُ بن الأشتر وأصحابه ، فكشفوهم حتى دخلوا جبّانة كِندة ، فقال إبراهيم ؛ مَن صاحب الخيل في جبّانة كندة؟ فشدّ إبراهيم وأصحابُه عليهم ، وهو يقول : اللهمّ إنك تعلم أنا غضبنا لأهل بيت نبيّك ، وثُرْنا لهم ، فانصرنا عليهم ، وتمّم لنا دعوتَنا ؛ حتى انتهى إليهم هو وأصحابُه ، فخالطوهم وكَشفُوهم فقيل له : زَحْرُ بن قيس ؛ فقال : انصرفوا بنا عنهم ، فركب بعضُهم بعضاً كلَّما لقيَهم زقاق دخلَ منهم طائفةٌ ، فانصرَفُوا يسيرون .

ثم خرج إبراهيم يسير حتَّى انتهى إلى جبّانة أثَيْر ، فوقف فيها طويلاً ، ونادى أصحابه بشعارهم ، فبلغ سُوَيد بن عبدالرحمن المنقري مكانهم في جبّانة أثَير ، فرجا أن يصيبهم فيحظى بذلك عند ابن مطيع ، فلم يشعر ابن الأشتر إلا وهم معه في الجبّانة ، فلّما رأى ذلك ابن الأشتر قال لأصحابه : يا شُرطةَ الله ،انزلوا فإنكم أولَى بالنُّصر من الله مِن هؤلاء الفسّاق الّذِين خاضوا دماءَ أهلِ بيت رسول الله ﷺ فنزلوا . ثم شدّ عليهم إبراهيم ، فضربهم حتّى أخرجهم من الصَّحراء ، وولّوا منهزمين يَركَب بعضهم بعضاً ، وهم يتلاوَمون ، فقال قائل منهم : إنّ هذا الأمر يراد ؛ ما يلقوْن لنا جماعة إلّا هزموهم ! فلم يزل يَهزمهم حتَّى أدخَلَهم الكُناسَةَ . وقال أصحاب إبراهيم لإبراهيم ؛ إتّبعهم واغتنِم ما قد دَخَلهم من الرّعب ، فقد علم الله إلى من ندعو وما نطلب، وإلى مَن يدعون وما يطلبون ! قال : لا ، ولكن سِيروا بنا إلى صاحبنا حتى يؤمن الله بنا وحشتَه ، ونكون من أمره على عِلم ، ويعلم هو أيضاً ما كان من عَنائنا ، فيزداد هو وأصحابه قوّة وبصيرةً إلى قواهم وبصيرتهم ، مع أني لا آمن أن يكون قد أُتِيَ .

فأقبل إبراهيمُ في أصحابه حتّى مرّ بمسجد الأشعث ، فوقفَ به ساعة ، ثمّ مضى حتّى أتى دار المختار ، فوجد الأصواتَ عالية ، والقومَ يقتتلون ، وقد جاء شَبَث بن رِبعي من قِبَل السبَخة ، فعبىّ له المختار يزيد بن أنس ، وجاء حجّار بن أبجر العجلي ، فجعل المختار في وجهه أحمر بن شميط ، فالناس يقتتلون ، وجاء إبراهيم من قِبل القصر ، فبلغ حجّاراً وأصحابه أنّ إبراهيم قد جاءهم من ورائهم ، فتفرّقوا قبل أن يأتيَهم إبراهيم ، وذهبوا في الأزقّة والسكَك ، وجاء قيس بن طَهْفة في قريب من مائة رجل من بني نَهْد من أصحاب المختار ، فحمل على شَبث بن رِبعيّ وهو يقاتل يزيد بنَ أنس ، فخلّى لهم الطريق حتّى اجتمعوا جميعاً. ثمّ إن شَبَث بن رِبعي ترك لهم السكّة ، وأقبل حتّى

لقي ابن مطيع ، فقال : ابعث إلى أمراء الجَبَابِين فمرهم فليأتوك ، فاجمعْ إليك جميعَ الناس ، ثمّ انهد إلى هؤلاء القوم فقاتِلهم وابعث إليهم من تثق به فليكفك قتالهم ، فإنّ أمرَ القوم قد قَوِي ، وقد خرج المختار وظهر ، واجتمع له أمرُه . فلمَّا بلغ ذلك المختار من مشورة شَبَث بن رِبْعِي على ابن مطيع خرج المختار في جماعة من أصحابه حتى نزل في ظهر دَيْر هند ممَّا يلي بُسْتان زائدة في السَّبَخة .

قال : وخرج أبو عثمان النّهدي فنادى في شاكر وهم مجتمعون في دورهم ، يخافون أن يظهروا في الميدان لقُرْب كعب بن أبي كعب الخثعمي منهم ، وكان كعب في جبَّانة بشر، فلمَّا بلغه أن شاكراً تخرج جاء يسير حتى نزل بالمَيْدان ، وأخذ عليهم بأفواه سِكَكهم وطُرُقِهم . قال : فلمَّا أتاهم أبو عثمان النَّهدي في عصابة من أصحابه ، نادى: يا لَثأرات الحسين! يا منصورُ أمِت! يا أيّها الحَي المهتدون ، ألا إن أمير آل محمَّد ووزيرَهم ، قد خرج فنزل ديرَ هند ، وبعثني إليكم داعياً ومبشراً ، فاخرجوا إليه يرحمكم الله! قال: فخرجوا من الدّور يتداعَوْن : ؛ يا لَثأرات الحسين ! ثم ضاربوا كعب بن أبي كعب حتَّى خلَّى لهم الطريق ، فأقبلوا إلى المختار حتى نزلوا معه في عسكره ، وخرج عبدالله بن قراد الخثعمي في جماعة من خثعم نحو المائتين حتى لحق بالمختار . فنزلوا معه في عسكره ، وقد كان عرض له كعب بن أبي كعب فصافَّه ، فلمَّا عرفهم ورأى أنَّهم قومُه خلَّى عنهم . ولم يقاتلْهم .

وخرجتْ شِبَام من آخر ليلتهم فاجتمعوا إلى جبَّانة مراد . فلمَّا بلغ ذلك عبدالرحمن بن سعيد بن قيس بعث إليهم : إن كنتم تريدون اللّحاق بالمختار فلا تمرُّوا على جبَّانة السَّبيع ، فلَحِقوا بالمختار . فتوافَى إلى المختار ثلاثة آلاف وثمانمائة من اثني عشر ألفاً كانوا بايعوه ، فاستجمعوا له قبل انفجار الفجر، فأصبح قد فرغ من تعبيته

قال أبو مخنف: فحدّثني الوالبيّ قال: خرجتُ أنا وحميد بن مسلم، والنعمان بن أبي الجَعْد إلى المختار ليلةَ خرج، فأتيناه في داره، وخرجْنا معه إلى معسكره؛ قال: فوالله ما انفجَرَ الفجر حتى فرغ من تعبيته؛ فلمَّا أصبح استقدم، فصلَّى بنا الغداةَ بغلَس، ثم قرأ «والنازعات» و «عبس وتولَّى»، قال: فما سمعنا إماماً أمَّ قوماً أفصحَ لهجةً منه.

قال أبو مخنف: حدّثني حَصِيرة بن عبدالله، أنّ ابنَ مطيع بعث إلى أهل الجبابين، فأمرهم أن ينضمُّوا إلى المسجد، وقال لراشد بن إياس بن مضارب: نادِ في الناس فليأتوا المسجد، فنادى المنادي: ألا برئت الذّمّة من رجل لم يحضر المسجد الليلة! فتوافَى النَّاس في المسجد، فلمَّا اجتمعوا بعث ابن مطيع شَبَث بن رِبْعِيّ في نحو من ثلاثة آلاف إلى المختار، وبعث راشد بن إياس في أربعة آلاف من الشُّرَط.

قال أبو مخنف: فحدّثني أبُو الصَّلْت التيميّ عن أبي سعيد الصَّيْقل، قال: لما صلَّى المختار الغداةَ ثم انصرف سَمِعْنَا أصواتاً مرتفعة فيما بين بني سُلَيم وسكَّة البريد، فقال المختار: مَنْ يعلم لنا علم هؤلاء ما هم؟ فقلت له: أنا أصلحك الله! فقال المختار: إمَّا لا فألق سلاحك وانطلق حتى تدخل فيهم كأنك نظّار، ثم تأتيني بخبرهم، قال: ففعلتُ، فلمَّا دنوت منهم إذَا مؤذنهم يقيم، فجئت حتَّى دنوتُ منهم فإذا شَبث بن رِبعيّ معه

خيل عظيمة، وعلى خيله شَيْبان بن حُرَيث الضبيّ، وهو في الرجّالة معه منهم كثرة، فلما أقام مؤذنهم تقدّم فصلّى بأصحابه، فقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَها﴾، فقلت في نفسي: أما والله إني لأرجو أن يزلزل الله بكم، وقرأ: ﴿والْعَادِياتِ ضَبْحاً﴾، فقال أناس من أصحابه: لو كنت قرأت سورتين هما أطول من هَاتين شيئاً! فقال شبث. ترون الدّيْلم قد نزلت بساحتكم، وأنتم تقولون: لو قرأت سورة «البقرة» و«آل عمران»! قال: وكانوا ثلاثة آلاف، قال: فأقبلت سريعاً حتى أتيت المختارَ فأخبرته بخبر شَبَث وأصحابه، وأتاه معي ساعة أتيته سِعْر بن أبي سعر الحنفيّ يركض من قِبَل مراد، وكان ممّن بايع المختار فلم يقدر على الخروج معه ليلة خرج مخافة الحرس، فلمّا أصبح أقبل على فرسه، فمرّ بجبَّانة مراد؛ وفيها راشد بن إياس، فقالوا: كما أنت! ومن أَنْت؟ فراكضهم حتى جاء المختار، فأخبره خبر راشد، وأخبرته أنا خبر شَبث، قال: فَسرّحَ إبراهيم بن الأشتر قبلَ رَاشد بن إياس في تسعمائةٍ - ويقال ستمائة فارس وستمائة راجل - وبعث نعيم بن هبيرة أخا مَصْقلة بن هبيرة في ثلاثمائة فارس وستمائة راجل، وقال لهما: امضيا حتى تلقيّا عدوّكما، فإذا لقيتماهم فانزلا في الرجال وعجلا الفَرَاغ وابدآهم بالإقدام، ولا تستهدفا لهم؛ فإنهم أكثر منكم، ولا ترجعا إليّ حتى تظهرا أو تُقتلا. فتوجّه إبراهيم إلى راشد، وقدّم المختارُ يزيد بن أنس في موضع مسجد شَبَث في تسعمائة أمامه. وتوجّه نعيم بن هبيرة قِبَل شَبَث.

قال أبو مخنف: قال أبو سعيد الصيقل: كنت أنا فيمن توجَّه مع نُعيم بن هبيره إلى شَبث ومعي سِعْر بن أبي سعر الحنفيّ، فلما انتهينا إليه قاتلناه قتالاً شديداً، فجعل نعيم بن هبيرة سعر بن أبي سعر الحنفيّ على الخيل، ومشى هو في الرجال فقاتلهم حتى أشرقت الشمس وانبسطت، فضربناهم حتى أدخلناهم البيوت؛ ثم إنّ شَبَث بن رِبعيّ ناداهم: يا حماة السوء! بئس فرسان الحقائق أنتم! أمِنْ عبيدكم تهربون! قال: فثابت إليه منهم جماعة فشدّ علينا وقد تفرّقنا فهزمَنا، وصبر نعيم بن هبيرة فقتِل، ونزل سعر فأسِر وأسِرت أنا وخليد مولى حسان بن محدوج، فقال شبث لخليد - وكان وسيماً جسيماً: مَن أنت؟ فقال: خليد مولى حسان بن محدوج الذهلي، فقال له شَبث: يابن المُتْكاء، تركت بيع الصِّحناة بالكُناسة وكان جزاء من أعتقك أن تعدوَ عليه بسيفك تضرب رقابه! اضربوا عنقه، فقُتِل، ورأى سعراً الحنفيّ فعَرَفه، فقال: أخو بني حنيفة؟ فقال له: نعم؛ فقال: وَيْحَك! ما أردتَ إلى اتّباع هذه السَّبئيَّة! قبح الله رأيك، دعوا ذَا. فقلتُ في نفسي: قَتَل المولَى وتَرَك العربيّ؛ إن علم والله إني مولى قتلني. فلمّا عُرِضت عليه قال: من أنت؟ فقلت: من بني تيم الله؛ قال: أعربيّ أنت أو مولى؟ فقلت: لا بل عربيّ، أنا من آل زياد بن خَصَفة، فقال: بخ بخ! ذكرتَ الشريفَ المعروف، الحقْ بأهلك. قال: فأقبلتُ حتَّى انتهيت إلى الحمراء، وكانت لي في قتال القوم بصيرة، فجئت حتى انتهيت إلى المختار؛ وقلت في نفسي: والله لآتينّ أصحابي فلأواسينَّهم بنفسي، فقبح الله العيشَ بعدَهم! قال: فأتيتُهم وقد سبقني إليهم سِعْر الحنفيّ، وأقبلتْ إليه خيلُ شَبَث، وجاءه قتْل نُعَيم بن هُبَيرة، فدخل من ذلك أصحاب المختار أمرٌ كبير؛ قال: فدنوتُ من المختار، فأخبرتُه بالذي كان من أمري، فقال لي: اسكتْ، فليس هذا بمكان الحديث. وجاء شَبَث حتَّى أحاط بالمختار وبيزيد بن أنس وبعث ابن مطيع يَزيد بن الحارث بن رؤيم في ألفين من قبَل سكّة لحّام جرير، فَوَقَفوا في أفواه تلك السكك، ووَلَّى المختارُ يزيد بن أنس خيلَه، وخرج هو في الرَّجالة.

قال أبو مخنف: فحدّثني الحارث بن كعب الوالبي؛ والبة الأزد، قال: حملت علينا خيل شَبَث بن رِبْعي حملتين، فما يزول منا رجل من مكانه، فقال يزيد بن أنس لنا: يا معشر الشيعة، قد كنتم تُقتَلون

وتُقطَّع أيديكم وأرجلكم ، وتسمَل أعينكم ، وتُرفَعون على جُذوع النخل في حُبّ أهل بيت نبيّكم ؛ وأنتم مقيمون في بيوتكم، وطاعة عدوّكم، فما ظنّكم بهؤلاء القوم إن ظهروا عليكم اليوم! إذاً والله لا يَدَعون منكم عينا تَطرف ، وليقتُلُنّكم صَبْرا ، ولترَوُنّ منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموتُ خيرٌ منه ، والله لا يُنجيكم منهم إلّا الصدق والصبر والطعن الصائب في أعينهم ، والضرب الدّارك على هامِهم . فتيسَّروا للشِّدّةِ ، وتهيئوا للحَمْلة ، فإذا حرّكت رايتي مرتين فاحملوا . قال الحارث : فتهيّأنا وتيسّرنا، وجثَوْنا على الرُّكب ، وانتظرنا أمره .

قال أبو مخنف : وحدّثني فضيل بن خديج الكندي أن إبراهيم بن الأشتر كان حين توجّه إلى راشد بن إياس، مضى حتى لقيه في مراد ، فإذا معه أربعةُ آلاف ، فقال إبراهيم لأصحابه : لا يهولنّكم كثرةُ هؤلاء ، فوالله لرُبّ رجل خيرٌ من عشرة ، ولرُبّ فِئة قَليلة قَدْ غَلَبَتْ فِئةً كثيرةً بإذْن الله واللّهُ مع الصّابرين ، ثم قال: يا خُزيمة بن نصر، سِرْ إليهم في الخيل . ونزل هو يمشي في الرجال ، ورايتُه مع مُزاحم بن طُفيل ، فأخذ إبراهيم يقول له: ازدَلِف برايتك ، اِمض بها قُدُما قُدُما . واقتتل الناسُ، فاشتد قتالهم ، وبصُر خزيمة بن نصر العبسي براشد بن إياس ، فحمل عليه فطعنه ، فَقَتَله ، ثم نادى: قتلتُ راشداً وربِّ الكعبة . وانهزم أصحابُ راشد ، وأقبل إبراهيمُ بن الأشتر وخزيمة بن نصر ومَن كان معهم بعد قتل راشد نحو المختار ، وبعث النعمانُ بن أبي الجعد يبشّر المختار بالفتح عليه وبقتل راشد ، فلمّا أن جاءهم البشير بذلك كبّروا ، واشتدت أنفسُهم ، ودخل أصحاب ابن مطيع الفَشَل ، وسرّح ابن مطيع حسّان بن فائد بن بكير العبسي في جيش كثيف نحو من ألفين . فاعترض إبراهيمَ بن الأشتر فُوَيقَ الحمراء ليردّه عمّن في السبخة من أصحاب ابن مطيع ، فقدّم إبراهيمُ خزيمة بن نصر إلى حسّان بن فائد في الخيل ، ومشى إبراهيم نحوه في الرجال . فقال :

والله ما اطّعَنّا برمح ، ولا اضطرَبْنا بسيف . حتى انهزموا . وتخلّف حسان بن فائد في أخرَيات الناس يَحميهم ، وحمل عليه خزيمة بن نصر ، فلمّا رآه عرفه ، فقال له : يا حسّان بن فائد ، أما والله لولا القرابة لعرفت أني سألتمس قتلَك بجهدي ، ولكن النّجاءَ ، فعَثَر بحسّان فرسُه فوقَع ، فقال : تعساً لك ، أبا عبدالله! وابتدره الناس فأحاطوا به ، فضارَبَهم ساعةً بسيفه ، فناداه خزيمة بن نصر ، قال : إنّك آمن يا أبا عبدالله ، لا تقتل نفسَك . وجاء حتى وقف عليه ونَهْنَه الناسَ عنه ، ومرّ به إبراهيم ، فقال له خزيمة : هذا ابن عمّي وقد آمنته ؛ فقال له إبراهيم : أحسنتَ ، فأمر خزيمة بطلب فرسه حتى أُتِيَ به ، فَحَمَلَه عليه ، وقال : الحق بأهلِك .

قال : وأقبل إبراهيم نحوَ المختار، وشبَث محيط بالمختار ويزيد بن أنس، فلمّا رآه يزيد بن الحارث وهو على أفواه سِكَك الكوفة الّتي تلي السَّبَخة ، وإبراهيم مقبل نحو شبَث ، أقبل نحوَه ليصدّه عن شبَث وأصحابه ، فبعث إبراهيم طائفةً من أصحابه مع خزيمة بن نصر، فقال : أَغْنِ عنا يزيدَ بن الحارث . وَصَمَد هو في بقيّة أصحابه نحو شَبَث بن رِبْعي .

قال أبو مخنف : فحدّثني الحارث بن كعب أن إبراهيم لما أقبل نحونا رأينا شبَثاً وأصحابه ينكُصون

وراءهم رُوَيداً رويداً ، فلمّا دنا إبراهيمُ من شبث وأصحابه ، حمل عليهم ، وأمرنا يزيد بن أنس بالْحملة عليهم ، فحملنا عليهم ، فانكشفوا حتى انتهوا إلى أبياتِ الكوفة ، وحمل خزيمةُ بن نصر على يزيد بن الحارث بن رؤيم فهزمه ، وازدحموا على أفواه السِّكك ، وقد كان يزيد بن الحارث وضع راميةً على أفواه السكك فوق البيوت ، وأقبل المختارُ في جماعة الناس إلى يزيد بن الحارث ، فلمّا انتهى أصحابُ المختار إلى أفواه السكك رَمته تلك الرامية بالنّبل ، فصدّوهم عن دخول الكوفة من ذلك الوجه ، ورجع الناسُ من السَّبَخة منهزمين إلى ابن مطيع ، وجاءه قتلُ راشد بن إياس ، فأسقِط في يده .

قال أبو مخنف : فحدثني يحيى بن هانىء ، قال: قال عمرو بن الحجاج الزُّبيدي لابن مطيع: أيُّها الرجل لا يُسْقَط في خَلَدك ، ولا تُلْقِ بِيَدِكَ، أُخرج إلى الناس فاندبهم إلى عدوّك فاغزهم ، فإنّ الناس كثير عددُهم ، وكلهم معك إلا هذه الطَّاغية التي خرجت على الناس، والله مخزيها ومُهلِكُها، وأنا أول مُنتدَب ، فاندب معي طائفة، ومع غيري طائفة. قال: فخرج ابن مطيع، فقام في الناس، فحمِد اللّهَ وأثنَى عليه ثم قال: أيُّها الناس ، إنّ من أعجب العَجَب عجزكم عن عُصْبة منكم قليل عَددُها ، خبيث دينها ، ضالّة مُضِلّة . اخرجوا إليهم فامنعوا منهم حريمَكم وقاتِلوهم عن مِصركم ، وامنعوا منهم فَيْئَكم ، وإلاّ والله ليشاركنَّكم في فَيْئكم من لا حقّ له فيه . والله لقد بلَغني أنّ فيهم خمسمائة رجل من محرَّريكم عليهم أميرٌ منهم ، وإنما ذهاب عزّكم وسلطانكم وتغير دينكم حين يكثرون . ثم نزل .

قال: ومنعهم يزيدُ بن الحارث أن يدخلوا الكوفة . قال : ومضى المختار من السَّبَخة حتّى ظهر على الجبَّانة ، ثم ارتفع إلى البيوت؛ بيوت مُزينة وأحمس وبارق ، فنزل عند مسجدهم وبيوتهم ، وبيوتُهم شاذّةٌ منفردة من بيوت أهل الكوفة ، فاستقبلوه بالماء ، فسقى أصحابَه ، وأبى المختار أن يشرَب . قال : فظنّ أصحابُه أنَّه صائم ، وقال أحمر بن هديج من هَمْدان لابن كامل : أترى الأمير الأمير صائماً؟ فقال له : نعم ، هو صائم ، فقال له : فلو أنه كان في هذا اليوم مفطراً كان أقوى له؛ فقال له: إنه معصوم، وهو أعلم بما يصنع؛ فقال له: صدقت، أستغفر الله. وقال المختار: نعم مكان المقاتل هذا، فقال له: إبراهيم بن الأشتر: قد هزمهم الله وَفَلَّهم ، وأدخل الرعبَ قلوبهَم ، وتنزل ها هنا! سِرْ بنا ؛ فوالله ما دون القصر أحدٌ يمنع ، ولا يمتنع كبيرَ امتناع ؛ فقال المختار: لِيُقم ها هنا كل شيخ ضعيف وذي علّة ، وضعوا ما كان لكم من ثَقَل ومَتاع بهذا الموضع حتى تسيروا إلى عدوّنا . ففعلوا ، فاستخلف المختار عليهم أبا عثمان النهدي، وقدم إبراهيم بن الأشتر أمامه ، وعبّى أصحابه على الحال التي كانوا عليها في السَّبَخة .

قال : وبعث عبدالله بن مطيع عَمرو بن الحجَّاج في ألفيْ رجُل ، فخرج عليهم من سكَّة الثوريِّين ، فبعث المختار إلى إبراهيم أن اطوه ولا تقم عليه . فطواه إبراهيم ، ودعا المختار يزيدَ بن أنس ، فأمره أن يصمد لعمرو بن الحجاج ، فمضى نحوه ، وذهب المختار في أثر إبراهيم ، فمضَوا جميعاً حتى إذا انتهى المختار إلى موضع مصلَّى خالد بن عبدالله وَقَف، وأمرَ إبراهيم أن يمضيَ على وجهه حتى يدخل الكوفة من قِبَل الكناسة ، فمضى، فخرج إليه من سكَّة ابن محرز ، وأقبل شمر بن ذي الجَوْشن في ألفين ، فسرّح المختارُ إليه سعيدَ بن منقذ الهمْذانيّ فواقعه ، وبعث إلى إبراهيم أن اطوه ، وامض على

وجهك . فمضى حتّى انتهى إلى سكّة شبث ، وإذا نوفل بن مساحق بن عبدالله بن مخرمة في نحو من ألفين - أو قال : خمسة آلاف ، وهو الصحيح - وقد أمر ابن مطيع سويدَ بن عبدالرحمن فنادى في الناس : أن الحقوا بابن مساحق . قال : واستخلف شَبَث بن رِبْعي على القَصْر ، وخرج ابن مطيع حتى وقف بالكناسة .

قال أبو مخنف: حدّثني حَصِيرة بن عبدالله ، قال: إني لأنظر إلى ابن الأشتر حين أقبل في أصحابه ، حتى إذا دنا منهم قال لهم: انزلوا ، فنزلوا ، فقال : قرّبوا خيولَكم بعضَها إلى بعض ، ثم امشوا إليهم مصلتين بالسيوف ، ولا يهولنّكم أن يقال: جاءكم شبَث بن ربعي وآل عتيبة بن النهاس وآل الأشعث وآل فلان وآل يزيد بن الحارث . . . قال : فسمّى بيُوتاتٍ من بيوتات أهل الكوفة ، ثم قال : إنّ هؤلاء لو قد وجدوا لهم حرّ السيوف قد انصفقوا عن ابن مطيع انصفاق المِعزى عن الذئب. قال حصيرة: فإني لأنظر إليه وإلى أصحابه حين قرّبوا خيولهم وحين أخذ ابن الأشتر أسفل قبائِهِ فرفعه فأدخَلَه في مِنطَقة له حمراء من حواشي البُرود ، وقد شدّ بها على القباء ، وقد كفَّر بالقباء على الدرع ، ثم قال لأصحابه : شدّوا عليهم هدًى لكم عمي وخالي! قال: فوالله ما لبَّثهم أنْ هَزمهم ، فركب بعضهم بعضاً على فم السّكة وازدحموا ، وانتهى ابنُ الأشتر إلى ابن مساحق ، فأخذ بلجام دابّته ، ورفع السيفَ عليه ، فقال له ابن الأشتر : يابن الأشتر ، أنشدك الله ، أتطلُبُني بثأر ! هل بيني وبينك من إحنة! فخلّى ابن الأشتر سبيله ، وقال له : اذكُرْها ؛ فكان بعد ذلك ابن مساحق يذكرها لابن الأشتر ، وأقبلوا يسيرون حتى دخلوا الكناسة في آثار القوم حتى دخلوا السوق والمسجد ، وحصروا ابن مطيع ثلاثاً .

قال أبو مخنف : وحدّثني النضر بن صالح أن ابن مطيع مكث ثلاثاً ، يرْزُق أصحابه في القَصْر حين حُصر الدقيق ، ومعه أشراف الناس، إلّا ما كان من عمرو بن حريث ، فإنه أتى دارَه ولم يُلزم نفسه الحصار ، ثم خرج حتى نزل البرّ، وجاء المختار حتى نزل جانب السوق، وولّى حصار القصر إبراهيم بن الأشتر ، ويزيد بن أنس ، وأحمر بن شُميط ، فكان ابن الأشتر ممّا يلي المسجد وباب القصر ، ويزيدُ بن أنس ممّا يلي بني حذيفة وسكّة دار الرّوميّين ، وأحمر بن شُميط ممّا يلي دار عمارة ودار أبي موسى . فلمّا اشتدّ الحصار على ابن مطيع وأصحابه كلّمه الأشراف ، فقام إليه شَبَث فقال: أصلح الله الأمير ! انْظُر لنفسك ولمن معك ، فوالله ما عندَهم غَناء عنك ولا عن أنفسهم . قال ابن مطيع : هاتوا ، أشيروا عليَّ برأيكم؛ قال شبث : الرّأي أن تأخذ لنفسك من هذا الرجل أماناً ولنا ، وتخرج ولا تُهلِك نفسَك ومن معك . قال ابن مطيع : والله إني لأكره أن آخذ منه أماناً والأمور مستقيمة لأمير المؤمنين بالحجاز كله وبأرض البصرة ؛ قال : فتخرج لا يشعر بك أحد حتى تنزل منزلاً بالكوفة عند من تَستنصِحه وتَثِق به ، ولا يعلم بمكانك حتى تخرج فتلحق بصاحبك ؛ فقال لأسماء بن خارجة وعبدالرحمن بن مخنف وعبدالرحمن بن سعيد بن قيس وأشراف أهل الكوفة : ما ترَوْن في هذا الرأي الذي أشار به عليَّ شَبَث؟ فقالوا : ما نرى الرأيَ إلّا ما أشار به عليك ، قال : فرويداً حتى أمسي .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو المغلّس الليثي ، أنّ عبدالله بن عبدالله الليثيّ أشرف على أصحاب المختار من القصر من العشيّ يشتمهم ، وينتحي له مالك بن عمرو أبو نمران النهديّ بسهم ، فيمرّ

بحلقه ، فقطع جلدةً من حلقه فمال فوقع ؛ قال : ثمّ إنَّه قام وبرأ بعدُ ؛ وقال النَّهديّ حين أصابه : خذها مِن مالك ، من فاعل كذا .

قال أبو مخنف: وحدّثني النّضر بن صالح ، عن حسَّان بن فائد بن بكير ، قال : لَّما أمْسَينا في القصر في اليوم الثالث ، دعانا ابن مطيع ، فذكر الله بما هو أهله ، وصلَّى على نبيّه ﷺ وقال: أما بعد ، فقد علمت الَّذِين صنعوا هذا منكم مَن هم ؛ وقد علمت أنَّما هم أراذِلكم وسفهاؤكم وطَغامُكم وأخسَّاؤكُم ، ما عدا الرجل أو الرجلين ، وأنّ أشرافكم وأهل الفضل منكم لم يزالوا سامعين مطيعين مناصحين ، وأنا مبلغ ذلك صاحبي ، ومُعْلمه طاعتكم وجهادكم عدوَّه ، حتى كان الله الغالب على أمره ، وقد كان من رأيكم وما أشرتم به عليَّ ما قد علمتم ، وقد رأيت أن أخرج الساعةَ . فقال له شبَث : جزاك الله من أمير خيراً! فقد والله عففت عن أموالنا ، وأكرمت أشرافنا ، ونصحت لصاحبك ، وقضيت الذي عليك ، والله ما كنَّا لنفارقَك أبداً إلاّ ونحن منك في إذن ، فقال: جزاكم الله خيراً، أخذ امرؤٌ حيث أحبّ، ثم خرج من نحو دروب الروميّين حتى أتى دار أبي موسى ، وخلّى القصر، وفتح أصحابُه البابَ، فقالوا : يابن الأشتر، آمنون نحن؟ قال: أنتم آمنون؛ فخرجوا فبايعوا المختار .

قال أبو مخنف: فحدّثني موسى بن عامر العدوي ؛ من عديّ جهينة ـ وهو أبو الأشعر ـ أنّ المختار جاء حتى دخل القصر، فبات به ، وأصبح أشرافُ الناس في المسجد وعلى باب القصر، وخرج المختار فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ، فقال: الحمد لله الذي وعد وليَّهُ النصرَ، وعدوَّه الخُسْرَ، وجعله فيه إلى آخر الدهر، وَعْداً مفعولاً، وقضاءً مقضيًّا ، وقد خاب من افترى. أيها الناس، إنَّه رُفعت لنا راية ، ومُدّت لنا غاية ، فقيل لنا في الراية: أن ارفعوها ولا تَضَعوها ، وفي الغاية : أن اجْروا إليها ولا تَعدوها ، فسمعْنا دعوَة الداعي ، ومقالةَ الوَاعي ؛ فكم من ناع وناعية، لقتلى في الواعية! وبُعداً لمن طغى وأدبر ، وعَصَى وكذّب وتولَّى ، ألا فادخلوا أيها الناس فبايعوا بيعة هدى، فلا والَّذِي جعل السماءَ سَقْفاً مكفوفاً ، والأرضَ فجَاجا سُبُلا ، ما بايعتم بعد بيعة علي بن أبي طالب وآل علي أهدَى منها .

ثم نزل فدَخلَ ، ودخلنا عليه وأشراف الناس، فبَسَط يدَه ، وابتدره الناس فبايعوه ، وجعل يقول: تبايعوني على كتاب الله وسنة نبيّه ، والطلب بدماء أهل البيت، وجهاد المُحِلّين ، والدفع عن الضّعفاء ، وقتال مَن قاتلنا ، وسلم مَن سالمنا ، والوفاء ببيعتنا ، لا نقيلكم ولا نستقيلكم ؛ فإذا قال الرجل : نعم ، بايَعَه . قال: فكأني والله أنظر إلى المنذر بن حسَّان بن ضِرار الضبي إذ أتاه حتى سلَّم عليه بالإمْرة ، ثم بايعه وانصرف عنه ، فلمَّا خرج من القصر استقبل سعيد بن منقذ الثوري في عصابة من الشِّيعة واقفاً عند المصطبة ، فلمَّا رأوه ومعه ابنه حيَّان بن المنذر، قال رجل من سفهائهم : هذا والله من رؤوس الجبَّارين ، فشَدُّوا عليه وعلى ابنه ، فقتلوهما، فصاح بهم سعيدُ بن منقذ: لا تَعجَلوا ، لا تَعجَلوا حتى ننظر ما رأيُ أميرِكم فيه. قال: وبلغ المختارَ ذلك، فكرهه حتى رُئي ذلك في وجهه ، وأقبل المختار يمنّي الناسَ ، ويستجرّ موّدتهم وموّدة الأشراف ، ويُحسن السيرة جُهدَه .

قال: وجاءه ابن كامل فقال للمختار، أعلمتَ أن ابن مطيع في دار أبي موسى؟ فلم يُجبه بشيء ،

فأعادها عليه ثلاثَ مرّات فلم يُجبه ، ثم أعادها فلم يُجبه ، فظنّ ابن كامل أن ذلك لا يوافقه، وكـان ابن مـطيع قبـلُ للمختار صَـدِيقاً ، فلمّا أمسى بعث إلى ابن مـطيع بمـائة ألف درهـم ، فقـال له : تجهَّـزْ بهـذه واخرج ؛ فإني قد شعرت بمكانك ، وقد ظننتُ أنّه لم يمنعْك من الخروج إلاّ أنّه ليس في يديـك ما يقـوّيك على الخروج . وأصاب المختار تسعةَ آلاف ألف في بيت مال الكوفة ، فـأعطى أصحـابه الـذين قاتـل بهم حين حصر ابن مطيع في القصر ـ وهم ثلاثة آلاف وثمانمـائة رجـل ـ كلّ رجـل خمسمائـة درهم خمسمائـة درهم ، وأعطى ستّة آلاف من أصحابه أتَوْه بعدما أحاط بالقصر ، فأقاموا معـه تلك الليلة وتلك الثلاثـة الأيام حتى دخل القصر مـائتين مـائتين ، واستقبـل الناس بخـير ، ومَنّاهم العـدلِ وحسنَ السيرة، وأدنى الأشرافَ ، فكانوا جلساءَه وحُدّاثَه ، واستعمل على شُـرْطتِه عبـدالله بن كامـل الشّاكـري ، وعلى حَـرَسه كيسان أبا عَمْرَةَ مولى عُرَينة ؛ فقام ذات يوم على رأسه ، فرأى الأشراف يحدّثونه ، ورآه قد أقبـل بوجهـه وحديثه عليهم ، فقال لأبي عَمْرة بعضُ أصحابه من الموالي: أما ترى أبا إسحاق قد أقبـل على العـرب ما ينظر إلينا! فدعاه المختار فقال له : ما يقول لك أولئـك الذين رأيتهم يكلّمـونك؟ فقـال له ـ وأسرّ إليـه : شقّ عليهم أصلحك الله صَرْفُـك وجهَك عنهم إلى العـرب، فقال لـه: قُل لهم: لا يشقّنّ ذلـك عليكم، فأنتم مني وأنا منكم. ثم سكت طويلاً، ثم قـرأ: ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُون ﴾[1] . قـال : فحدّثني أبو الأشعر موسى بن عامر قال : مـا هو إلاّ أن سمعهـا الموالي منـه ، فقال بعضهم لبعض : أبشـروا ، كأنكم والله به قد قَتَلهم .

قال أبو مخنف: حـدّثني حَصِيرة بن عبـدالله الأزدي وفُضِيل بن خَـدِيج الكنـدي والنضر بن صالـح العبسي ، قالوا : أوّل رجل عقد له المختار رايةَ عبدَالله بن الحارث أخو الأشـتر ، عَقَد لـه على أرمينيّـة ، وبعث محمَّـد بن عمير بن عُـطارد على آذربيجـان ، وبعث عبدالـرحمن بن سعيد بن قيس عـلى المَوْصـل ، وبعث إسحاق بن مسعود على المدائن وأرض جُـوخَى ، وبعث قُدامـة بن أبي عيسى بن ربيعة النصـري ، وهـو حليف لثقيف عـلى بِهْقُبـاذ الأعـلى ، وبعث محمَّـد بن كعب بن قَـرَظَـة عـلى بهقُبـاذ الأوسط، وبعث حبيب بن منقذ الثوري على بهقباذ الأسفـل ، وبعث سعد بن حـذيفة بن اليَمّـان على حُلوان ، وكـان مع سعـد بن حذيفـة ألفَا فـارس بحُلوان . قال : ورزقـه ألف درهم في كل شهـر ، وأمره بقتـال الأكـراد ، وبـإقامـة الطرق ، وكتب إلى عمّـاله عـلى الجبال يـأمرهم أن يحملوا أمـوال كُوَرهم إلى سعـد بن حـذيفـة بحُلوان ، وكان عبدالله بن الزبير قـد بعث محمَّد بن الأشعث بن قيس عـلى الموصـل ، وأمره بمكـاتبة ابن مطيع وبالسمع له والطاعة ، غير أن ابن مطيع لا يقدر على عزله إلاّ بأمر ابن الزبير ، وكان قبل ذلـك في إمارة عبدالله بن يزيدَ ، وإبراهيم بن محمد منقطعاً بإمارة الموصِل ، لا يكاتِب أحداً دون ابنِ الزُّبير .

فلما قدم عليه عبدالرحمن بن سعيد بن قيس من قِبَل المختار أميراً تنحَّى له عن الموصل، وأقبل حتى نزل تَكْريت ، وأقام بها مع أناس من أشراف قومه وغيرهم ، وهو معتزل ينظر ما يصنع الناس، وإلى مـا يصير أمرُهم ، ثم شخص إلى المختار فبايع له ، ودخل فيما دَخل فيه أهلُ بلدِه .

قال أبو مخنف : وحدّثني صلة بن زهير النَّهـدي ، عن مسلم بن عبدالله الضبـابي ، قال : لَمّـا ظهر

---

(١) سورة السجدة : ٢٢ .

المختار واستمكن ، ونفى ابن مطيع وبعثَ عمَّاله ، أقبل يجلس للناس غُدوةً وعشيَّة ، فيقضي بين الخصمين ، ثم قال : والله إنّ لي فيما أزاول وأحاول لشُغْلاً عن القضاء بين الناس ، قال: فأجلس للناس شُريحاً ، وقضَى بين الناس، ثمّ إنَّه خافهم فَتَمارَض ، وكانوا يقولون : إنَّه عُثمانيّ ، وإنَّه ممَّن شهد على حُجْر بن عديّ ، وإنه لم يُبلِّغ عن هانىء بن عروة ما أرسلَه به ـ وقد كان علي بن أبي طالب عَزَلَه عن القضاء ـ فلمّا أن سمع بذلك ورآهم يذمّونه ويُسنِدون إليه مِثل هذا القول تَمارَض ، وجعل المختارُ مكانه عبدَالله بن عتبة بن مسعود. ثم إنَّ عبدالله مرض، فجعل مكانَه عبدالله بن مالك الطائي قاضياً.

قال مسلم بن عبدالله : وكان عبدالله بن همّام سمع أبا عمرةَ يذكر الشّيعة وينال من عثمان بن عفّان ، فقنّعه بالسوط ، فلما ظهر المختار كان معتزلاً حتى استأمَنَ له عبدُالله بن شدّاد ، فجاء إلى المختار ذاتَ يوم فقال :

أَلَا انْتَسأَتْ بالوُدِّ عنك وَأَدْبَرَتْ ... مُعَالِنَةً بالهَجْر أُمُّ سَريعِ
وَحَمَّلَها وَاشٍ سَعَى غيرِ مُؤتَلٍ ... فأَبْتَ بِهمٍّ في الفؤاد جميع
فَخفِّضْ عليك الشأنَ لا يُرْكِ الهوى ... فليس انتقالُ خَلَّة بِبديع
وفي ليلة المختار ما يُذْهِلُ الفتى ... ويُلهِيهِ عن رؤد الشَّباب شَمُوع
دعا يالَثأراتِ الحسين فأقبلتْ ... كتائبُ مِنْ هَمْدَانَ بعد هَزيع
ومِن مذْحِج جاءَ الرئيسُ ابنُ مالك ... يقُودُ جُمُوعاً عُبِّيت بِجُمُوع
ومَنْ أسدٍ وافَى يزيدُ لِنَصْرِهِ ... بكلِّ فتًى حامِي الذِّمارِ منيع
وجاءَ نُعَيْمٌ خيرُ شَيْبانَ كلّها ... بأمرٍ لدى الهَيجا أَحَدَّ جميع
وما ابن شميط إذ يُحَرِّضُ قومَهُ ... هناك بِمَخذولٍ ولا بمُضِيع
ولا قيس نَهدٍ لا ولا ابنُ هَوازنٍ ... وكلٌّ أخو إخْبَاتةٍ وخُشُوع
وسار أبو النُّعمانِ لِلّهِ سَعيَهُ ... إلى ابن إياسٍ مُصْحِراً لوقوعِ
بِخَيْلٍ عليها يومَ هَيْجَا دُرُوعُها ... وأُخرى حُسُوراً غيرَ ذاتِ دُرُوع
فكَرَّ الخُيولُ كرةً ثَقِفَتْهُمُ ... وَشَدَّ بأُولاها على ابن مُطيع
فَوَلَّى بضربٍ يَشْدَخُ الهام وَقْعُهُ ... وطعنٍ غداةَ السِّكتينِ وجيع
فحُوصِرَ في دار الإمَارة بائياً ... بذُلٍّ وإرغامٍ له وخُضوع
فَمَنَّ وزيرُ ابن الوصيّ عليهمُ ... وكان لهمْ في الناس خيرَ شفيع
وآبَ الهدى حقًّا إلى مُسْتقَرِّه ... بخيرِ إيابٍ آبَهُ وَرُجُوع
إلى الهاشميّ المهتدِي المهتدَى به ... فنحنُ له من سامعٍ ومطيع

قال : فلمَّا أنشدها المختارَ قال المختار لأصحابه : قد أثنَى عليكم كما تسمعون ، وقد أحسن الثَّناءَ عليكم ، فأحسِنوا له الجزاء . ثمّ قام المختار ، فدخل وقال لأصحابه : لا تبرحوا حتى أخرج إليكم ؛ قال : وقال عبدالله بن شدّاد الجُشَمي : يابن همّام : إنّ لك عندي فرساً ومُطْرَفا ، وقال قيس بن طَهْفة

النَّهدي ـ وكانت عنده الرَّباب بنت الأشعث: فإنّ لك عندي فرساً ومُطْرَفا ، واستحيا أن يعطيَه صَاحبُه شيئاً لا يعطِي مثله ، فقال ليزيد بن أنس : فما تعطيه ؟ فقال يزيد : إن كان ثوابَ الله أراد بقوله فما عند الله خيرٌ له ، وإن كان إنما اعترَى بهذا القول أموالَنا ، فوالله ما في أموالنا ما يسعُه ؛ قد كانت بقيتْ من عطائي بقيَّة فقوّيت بها إخواني ؛ فقال أحمر بن شُمَيط مبادراً لهم قبل أن يكلّموه : يابن همّام ، إن كنتَ أردت بهذا القول وجهَ الله فاطلب ثوابَك من الله ، وإن كنتَ إنّما اعتريت به رِضَا الناسِ وطلبَ أموالهم ، فاكْدِم الجَنْدل ؛ فوالله ما مَنْ قال قولاً لغير الله وفي غير ذات الله بأهلٍ أن يُنْحَل ، ولا يوصَل ؛ فقال له : عضضتَ بأير أبيك ! فرفع يزيد بن أنس السوط وقال لابن همام : تقول هذا القولَ يا فاسق ! وقال لابن شُمَيط : اضربه بالسيف ، فرفع ابن شميط عليه السيف ووثب ووثب أصحابهما يتفلَّتون على ابن همّام . وأخذ بيده إبراهيم بن الأشتر فألقاه وراءه ، وقال : أنا له جارٍ ، لِمَ تأتون إليه ما أرى! فوالله إنَّه لواصل الولاية ، راضٍ بما نحن عليه ، حَسَن الثناء ، فإن أنتم لم تكافئوه بحسن ثنائه ، فلا تشتموا عرضَه ، ولا تَسفِكوا دَمَه . ووثبتْ مَذْحِج فحالت دونه ، وقالوا : أجارَهُ ابن الأشتر ، لا واللّهِ لا يُوصَل إليه . قال: وسمع لَغَطهم المختار ، فخرج إليهم ، وأومأ بيده إليهم ، أن اجلسوا ، فجلسوا ، فقال لهم : إذا قيل لكم خير فاقْبَلوه ، وإن قدرتم على مكافأة فافعلوا ، وإن لم تقدروا على مكافأة فتنصَّلوا ، واتقوا لسانَ الشاعر ، فإنّ شرَّه حاضر ، وقولَه فاجر ، وسعيَه بائر ، وهو بكم غداً غادر. فقالوا : أفلا نقتله؟ قال: إنّا قد آمَنَّاه وأَجَرْناه ، وقد أجاره أخوكم إبراهيم بن الأشتر ، فجلس مع الناس .

قال: ثم إن إبراهيم قام فانصرف إلى منزله فأعطاه ألفاً وفرساً ومُطرَفا فرجع بها وقال : لا والله ، لا جاورت هؤلاء أبداً . وأقبلتْ هوازنُ وغضبتْ واجتمعتْ في المسجد غضباً لابن همّام ، فبعث إليهم المختار فسألهم أن يصفحوا عمّا اجتمعوا له ، ففعلوا ، وقال ابن همّام لابن الأشتر يمدحه :

أَطْفأَ عَنّي نارَ كَلْبَين أَلَّبا ... عليٌّ الكلاب ذو الفِعال ابنُ مالكِ
فتًى حينَ يَلقى الخيلَ يَفْرقُ بينها ... بطعن دِرَاكٍ أو بضرب مُوَاشِكِ
وقد غَضِبَتْ لي مِنْ هوازنَ عُصبةٌ ... طوالُ الذُّرا فيها عراض المَبَارِك
إذا ابنُ شُمَيط أو يزيد تعرّضا ... لها وَقَعا في مُسْتَحار المهالك
وَثَبْتُمْ علينا يا مَوالِيَ طَيّىءٍ ... مع ابن شميط شَرٌّ مَاشٍ ورَاتِكِ
وأعظم ديَّارٍ على اللَه فِرْيَةً ... وما مُفْتَرٍ طاغٍ كآخَرَ نَاسِكِ
فيا عجباً مِنْ أَحمسَ ابنةِ أحمسٍ ... تَوَثّبُ حوْلي بالقنا والنَّيَازِكِ
كَأنَّكُمُ في العِزِّ قيسٌ وخثعمٌ ... وهل أنتمُ إلَّا لئَامُ عَوَارِكِ

وأقبل عبدالله بن شدّاد من الغد فجلس في المسجد يقول : علينا توثَّبُ بنو أسد وأحمس! واللّهِ لا نرضى بهذا أبداً. فبلغ ذلك المختار ، فبعث إليه فدعاه ، ودعا بيزيد بن أنس وبابن شميط ، فحَمِد الله وأثنى عليه وقال: يابن شدّاد، إنّ الذِي فعلتَ نَزْغة من نَزَغات الشيطان ، فتُب إلى الله؛ قال: قد تُبت ، وقال : إن هذين أخواك ، فأقبِل إليهما ، واقبل منهما ، وهب لي هذا الأمر ؛ قال : فهو لك ،

وكان ابن همّام قد قال قصيدةً أخرى في أمر المختار ، فقال :

أَضحت سُلَيْمَى بعـدَ طولِ عِتـابِ ... وتَـجَـرُّمٍ وَنَـفـادِ غَـرْبِ شَـبـابِ
قـد أزْمَـعَت بِـصَـرِيمـتي وتَـجنّبي ... وتـهـوُّكٍ مُـذْ ذاك فـي إعـتـابِ
لـمّـا رأيتُ الـقـصـر أُغـلقَ بـابُـهُ ... وتـوكّـلت هَـمْـدانُ بـالأسـبـاب
ورأيـتُ أصحـابَ الـدَّقيق كَـأَنَّـهُمْ ... حـولَ البُيُـوت ثـعـالبُ الأسـراب
ورأيــتُ أبــوابَ الأَزِقّـة حـولَـنـا ... دربَـت بـكـلِّ هِـرَاوة وذُبـاب
أيْـقَـنـتُ أنَّ خـيـولَ شـيـعـةِ رَاشِـدٍ ... لـم يـبْـق مـنـهـا فَـيْشُ أَيْـرِ ذُبـاب

ذكر الخبر عن أمر المختار مع قَتَلة الحسين بالكوفة

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة وَثب المختارُ بمن كان بالكوفة من قَتَلة الحسين والمشايعين على قتله ، فقَتَل من قدر عليه منهم ، وهرب من الكوفة بعضهم ، فلم يقدر عليه .

ذكر الخبر عن سبب وثوبه بهم وتسمية مَنْ قتل منهم ومَن هرب فلم يقدر عليه منهم :

وكان سبب ذلك ـ فيما ذكره هشام بن محمَّد ، عن عوانة بن الحكم ـ أنّ مَرْوان بن الحكم لمَّا استوسقت له الشامُ بالطّاعة ، بعث جيشَين أحدهما إلى الحجاز عليه حُبَيْش بن دُلجة القيني ـ وقد ذكرنا أمرَه وخبرَ مهلَكه قبلُ ـ والآخر منهما إلى العراق عليهم عبيدالله بن زياد ـ وقد ذكرنا ما كان من أمره وأمر التوّابين من الشيعة بعَين الوَردة ـ وكان مرْوان جعل لعبيدالله بن زياد إذ وجَّهه إلى العراق ما غلب عليه ، وأمَرَه أن يَنهَب الكوفة إذا هو ظفر بأهلِها ثلاثاً .

قال عوانة : فمرّ بأرض الجزيرة فاحتبس بها وبها قيسُ عَيْلان على طاعة ابن الزبير، وقد كان مروانُ أصاب قيساً يوم مَرْجِ راهط وهم مع الضحَّاك بن قيس مخالفين على مروان ، وعلى ابنه عبدالملك من بعده ، فلم يزل عبيدالله مشتغلاً بهم عن العراق نحواً من سنة . ثم إنه أقبل إلى الموصل ، فكتب عبدالرحمن بن سعيد بن قيس عاملُ المختار على الموصل إلى المختار : أما بعد ، فإني أخبرك أيها الأمير أنّ عبيدالله بن زياد قد دخل أرضَ الموصل ، وقد وجَّه قِبَلي خيلَه ورجالَه ، وإني انحزْت إلى تَكْريتَ حتّى يأتيَني رأيُك وأمرُك ، والسلام عليك .

فكتب إليه المختار: أما بعد، فقد بلغني كتابُك ، وفهمتُ كلَّ ما ذكرتَ فيه ، فقد أصبتَ بانحيازك إلى تكريت ، فلا تبرحَنّ مكانك الّذي أنت به حتّى يأتيَك أمري إن شاء الله ، والسلام عليك .

قال هشام ، عن أبي مخنف : حدّثني موسى بن عامر ، أنّ كتاب عبدالرحمن بن سعيد لمَّا ورد على المختار بعث إلى يزيد بن أنس فدعاه ، فقال له : يا يزيدَ بن أنس ، إن العالِم ليس كالجاهل ، وإن الحق ليس كالباطل، وإني أخبرك خبر من لم يَكذِب ولم يكذَّب ، ولم يُخالِف ولم يرتب ، وإنّا

المؤمنون الميامين ، الغالبون المساليم ، وإنَّك صاحب الخيل التي تجرّ جِعابها ، وتضفر أذنابها ، حتى تُوردها منابتَ الزيتون ، غائرةً عيونُها ، لاحقةً بطونُها . اخرُج إلى المَوصل حتّى تنزلَ أدانيها ، فإني ممدّك بالرّجال بعد الرّجال . فقال له يزيد بن أنس : سرّحْ معي ثلاثة آلاف فارس أنتخبُهم ، وخلّني والفرج الذي توجَّهنا إليه ، فإن احتجتُ إلى الرجال فسأكتب إليك ؛ قال له المختار : فاخرج فانتخب على اسم الله مَنْ أحببت . فخرج فانتخب ثلاثةَ آلافِ فارس ، فجعل على رُبْع المدينة النعمانَ بنَ عوف بن أبي جابر الأزدي ، وعلى ربع تميم وهمدان عاصم بن قيس بن حبيب الهمْداني ، وعلى مَذْحج وأسَد ورقاء بن عازب الأسدي ، وعلى رُبْع ربيعة وكندة سِعْر بن أبي سِعْر الحنفي .

ثم إنه فصل من الكوفة ، فخرج وخرج معه المختار والناس يشيعونه ، فلما بلغ ديرَ أبي موسى ودّعه المختار وانصرف ، ثم قال له : إذا لقيتَ عدوّك فلا تُناظرهم ، وإذا أمكنتْك الفرصةُ لا تؤخرها ، وليكن خبرُك في كلّ يوم عندي ، وإن احتجت إلى مَدد فاكتب إليَّ ؛ مع أني مُمِدك ولو لم تَستمدِد ، فإنه أشد لعَضُدك ، وأعزّ لجُنْدك ، وأرْعَب لعدوّك . فقال له يزيد بن أنس : لا تمدّني إلّا بدعائك ، فكفى به مَدداً . وقال له الناس : صَحِبَكَ اللّهُ وأدّاك وأيّدك. وودّعوه . فقال لهم يزيد : سلوا الله لِيَ الشهادة ، وايمُ الله لئن لقيتُهم ففاتني النصرُ لا تُفتْني الشهادة إن شاء الله . فكتب المختار إلى عبدالرحمن بن سعيد بن قيس : أما بعد ، فخلّ بين يزيدَ وبين البلاد إن شاء الله ، والسلام عليك . فخرج يزيد بن أنس بالناس حتى بات بسُورا ، ثم غدا بهم سائراً حتى بات بهم بالمدائن ؛ فشكا الناسُ إليه ما دخلهم من شدّة السير عليهم ، فأقام بها يوماً وليلة . ثم إنَّه اعترض بهم أرض جُوخَى حتّى خرج بهم في الراذانات ، حتّى قطع بهم إلى أرض الموصل ، فنزلت ببنات تلى ، وبلغ مكانُه ومنزلُه الّذي نزل به عبيدَالله بن زياد ، فسأل عن عدّتهم، فأخبرتْه عيونُه أنَّه خرج معه من الكوفة ثلاثةُ آلاف فارس، فقال عبيدالله : فأنا أبعث إلى كلّ ألف ألفين . ودعا ربيعة بن المخارق الغنويّ وعبدالله بن حمْلة الخثعميّ ، فبعثهما في ثلاثة آلاف ثلاثة الاف ، وبعث ربيعة بن المخارق أوّلاً ، ثم مكث يوماً ، ثمّ بعث خلفه عبدالله بن حمْلة ، ثم كتب إليهما : أيّكما سَبَق فهو أمير على صاحبه، وإن انتهيتما جميعاً فأكبركما سِنّاً أميرٌ على صاحبه والجماعة . قال : فسبق ربيعة بن المخارق فنزل بيزيد بن أنس وهو ببنات تلى ، فخرج إليه يزيد بن أنس وهو مريض مضنًى .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو الصلت ، عن أبي سعيد الصَّيْقل ، قال : خرج علينا يزيد بن أنس وهو مريض على حمار يمشي معه الرجال يُمسِكونه عن يمينه وعن شماله ، بفخذيه وعضديه وجنبيه ، فجعل يقف على الأرباع : رُبْع ربع ويقول : يا شرطة الله ،اصبروا تُؤجَرُوا وصابروا عدوّكم تظفَروا ، وقاتِلوا أولياءَ الشيطان، إنّ كَيْدَ الشيطان كان ضَعيفاً، إنْ هلكتُ فأميركم ورقاء بن عازب الأسديّ ، فإن هَلَك فأميرُكم عبدالله بن ضَمْرة العذريّ ، فإن هلك فأميرُكم سعْر بن أبي سعر الحنفي . قال : وأنا والله فيمن يمشي معه ويُمْسِك بعضده ويده ، وإني لأعرف في وجهه أنّ الموت قد نزل به . قال : فجعل يزيدُ بن أنس عبدَالله بن ضَمْرة العذريّ على ميمنته ، وسِعْر بن أبي سعر على ميسرته ، وجعل ورقاءَ بن عازب الأسدي على الخيل، ونزل هو فوُضع بين الرجال على السرير،

ثم قال لهم : ابرزوا لهم بالعرَاء ، وقدّموني في الـرجال ، ثم إن شئتم فقـاتلوا عن أميركم ، وإن شئتم ففرّوا عنه . قال : فأخرجناه في ذي الحجّة يومَ عرفة سنة ست وستين ، فأخـذْنا نُمسك أحياناً بظَهْـره فيقـول : إصنعوا كـذا ، اصنعوا كـذا ، وافعلوا كذا ، فيـأمر بـأمره ، ثم لا يكـون بأسـرعَ من أن يغلبه الوجعُ فيُـوضع هُنَيْهـة ويقتتل النـاسُ ، وذلك عنـد شفق الصبح قبـل شروق الشمس . قـال : فحملتْ ميسرتهم على مَيمنتِنا ، فاشتد قتالُهم ، وتَحمِل ميسرتُنا على ميمنتهم فتهزمها ، ويَحمِل ورقـاء بن عازب الأسدي في الخيل فَهَزَمهم ، فلم يرتفع الضّحى حتّى هزمناهم ، وحَويْنا عسكرهم .

قـال أبو مخنف : وحـدّثني موسى بن عـامـر العـذَويّ ، قـال : انتهينـا إلى ربيعـة بن المخـارق صاحبهم ، وقد انهزم عنه أصحابه وهو نازل ينادي : يا أولياء الحقِّ ، ويا أهلَ السمع والطاعة ، إليَّ أنا ابن المخارق؛ قال موسى : فأمّا أنا فكنتُ غلاماً حَدَثاً ، فَهِبْته ووقفتُ ، ويَحمِل عليه عبدُالله بن ورقـاءَ الأسديّ وعبدالله بن ضَمْرة العذرّي ، فَقَتلاه .

قال أبو مخنف : وحدّثني عَمرو بن مالك أبو كبشة القيني ؛ قـال : كنت غلامـاً حين راهقت مع أحد عمومتي في ذلك العسكر ، فلمّا نزلنا بعسكر الكوفيّين عبَّأنـا ربيعة بن المخـارق فأحسنَ التعبئـة ، وجعل على ميمنته ابنَ أخيه ، وعلى ميسرته عبدَ ربّه السلمي ، وخرج هو في الخيل والرجال وقال : يا أهلَ الشام ، إنَّكم إنّما تقاتلون العبيد الأبّاقَ ، وقوماً قد تركوا الإسلام وخرجوا منه ، ليست لهم تقيّة ، ولا ينطقون بالعربيَّة ؛ قال : فوالله إن كنت لأحْسِب أنّ ذلك كذلك حتّى قاتلناهم ؛ قال : فوالله مـا هو إلاّ أن اقتتل الناس إذا رجلٌ من أهل العراق يعترض الناسَ بسيفه وهويقول :

بَـرئـتُ مِنْ دِيـنِ المحـكِّـمـينـا وذَاك فـيـنـا شَـرُّ ديـنٍ دِينَـا

ثم إن قتالنا وقتالَهم اشتدَّ ساعةً من النهار ، ثم إنَّهم هزمونا حين ارتفـع الضّحى فقتلوا صاحبَنـا ، وحَووا عسكَرَنا ؛ فخرجنا منهزمين حتى تلقّانا عبدُالله بن حمْلة على مسيـرة ساعـة من تلك القريـة التي يقال لها بنات تلى ، فردَّنا ، فأقبلْنا معه حتى نزل بيزيد بن أنس ، فبتْنا متحارِسين حتى أصبحنا فصلَّينـا الغداة ، ثم خرجْنا على تعبئة حَسَنة ، فجعل على ميمنته الزبيرَ بن خُزَيمة ؛ من خثعم ، وعلى ميسرتـه ابن أقيصـر القحافي من خثعم ، وتقـدّم في الخيل والـرجـال ، وذلـك يـوم الأضحى ، فـاقتتلنـا قتـالاً شديداً ، ثم إنَّهم هزمونا هزيمةً قبيحة ، وقتلونا قتالاً ذريعاً ، وحووْا عسكـرنا ، وأقبلنـا حتى انتهينا إلى عبيدالله بن زياد فحدثناه بما لَقِينا .

قال أبو مخنف : وحدثني موسى بن عامر ، قال: أقبل إلينا عبدالله بن حَمْلة الخثعمي ؛ فاستقبل فَلَّ ربيعة بن المخارق الغنويّ فردَّهم ، ثم جاءَ حتى نزل ببنات تلى ، فلمّا أصبح غادوا وغـادينا ، فتـطاردت الخيلان من أوّل النهار ، ثم انصرفوا وانصرفْنا ؛ حتى إذا صلّينا الظهـر خرجنـا فاقتتلنـا ، ثم هزمنـاهم . قال : ونزل عبدالله بن حَمْلة فأخذ ينادي أصحابه : الكَرّة بعد الفرّة ، يا أهـل السمع والـطاعة ؛ فحمـل عليه عبدُالله بن قراد الخثعميّ فقَتَله ، وحوّيْنا عسكرهم وما فيه ، وأتِيَ يزيد بن أنس بثلاثمائة أسير وهو في السوق ، فأخذ يومىءُ بيده أن اضربوا أعناقَهم ، فقُتِلوا من عند آخرهم .

وقال يزيد بن أنس: إنْ هلكتُ فأميركم ورقاء بن عـازب الأسدي، فـما أمسَى حتى مات ، فصـلّى

عليه ورقاءُ بن عـازب ودَفَنَه ، فلمَّا رأى ذلـك أصحابُـه أسقِط في أيديهم ، وكَسَر مـوتُه قلوبَ أصحـابه ، وأخذوا في دفنه، فقال لهم ورقاء: يا قوم ، ماذا ترون؟ إنَّه قد بلغني أن عبيدالله بن زياد قد أقبل إلينـا في ثمـانين ألفاً من أهل الشـام ، فأخـذوا يتسلَّلون ويرجعـون . ثم إن ورقاء دعـا رؤوسَ الأرباع وفُـرسـانَ أصحابه فقال لهم : يا هؤلاء، مـاذا ترون فيـما أخبرتُكم؟ إنَّمـا أنا رجـل منكم ، ولست بأفضلكم رأياً ، فأشيروا عليَّ ، فإن ابن زياد قد جاءكم في جُنْد أهل الشام الأعظم ، وبجلَّتهم وفُرسانهم وأشرافِهم ، ولا أرى لنا ولكم بهم طاقةً على هذه الحال ، وقد هلك يزيدُ بنَ أنس أميرنـا ، وتفرّقت عنَّـا طائفـة مِنَّا ، فلو انصـرفنا اليـومَ من تلقاء أنفسنـا قبل أن نلقـاهم ، وقبل أن نَبلُغهم ، فَيعلَمـوا أنَّا إنَّمـا ردَّنـا عنهم هـلاكُ صاحِبنا ، فلا يزالوا لنا هائبين لقَتْلنـا منهم أميرهم! ولأنَّـا إنَّما نعتـلّ لانصرافنـا بموت صـاحبنا ، وإنـا إن لقيناهم اليومَ كنَّا مخاطرين ، فإن هُـزمنا اليـوم لم تنفعنا هـزيمتُنا إيَّـاهم من قبل اليـوم . قالـوا: فإنَّـك نعمَّا رأيت ، انصرِفْ رحمك الله. فانصرف ، فبلغ مُنصرَفُهُم ذلك المختارَ وأهلَ الكوفة ، فأرْجف النـاسُ ، ولم يعلموا كيف كان الأمر أن يزيد بن أنس هَلَك، وأنّ الناس هُزموا، فبعث إلى المختار عامله على المدائن عيناً له من أنباط السواد فأخبره الخبر فدعا المختار إبراهيمَ بن الأشتر فعَقَد على سبعة آلاف رجل، ثم قال له: سِرْ حتّى إذا أنت لقيتَ جيشَ ابن أنس فارددْهم معك، ثم سرْ حتى تلقى عدوّك فتُناجِزَهُم. فخرج إبراهيم فوَضَع عسكَره بحمَّام أعْيَن.

قال أبو مخنف: فحدّثني أبو زهير النضر بن صالح ، قال: لمَّا مات يزيد بن أنس التقى أشرافُ الناس بالكوفة فأرْجفوا بالمختار وقالوا: قتِل يزيد بن أنس، ولم يصـدّقوا أنَّـه مات، وأخـذوا يقولـون: واللّهِ لقد تأمَّر علينا هذا الرجل بغير رضاً منَّـا ، ولقد أدنى مـوالينا ، فحمَلَهم عـلى الدوابّ ، وأعـطاهم وأطعَمَهم فيئنا ، ولقد عصتْنا عبيدُنا ، فحرِب بذلك أيتامنا وأراملنا . فاتَّعدوا منزلَ شَبَث بن ربعيّ وقالوا : نجتمع في منزل شيخنا ـ وكان شبث جاهليًّا إسلاميًّا ـ فاجتمعوا فأتَوا منزله ، فصلَّى بأصحابـه ، ثم تذاكـروا هذا النحو من الحديث قـال: ولم يكن فيما أحـدث المختارُ عليهم شيء هـو أعظمُ من أن جعـل للموالي الفَيْء نصيباً ـ فقال لهم شَبَث: دعـوني حتى ألقاه ؛ فـذهب فلقيه ، فلم يـدعْ شيئاً مّمـا أنكره أصحـابُه إلاَّ وقـد ذاكَرَه إيَّاه ، فأخذ لا يذكر خَصلةً إلاَّ قال له المختار : أُرضِيهم في هذه الخَصلة ، وآتي كـلَّ شيء أحبّوا ؛ قال : فذكر المماليك ؛ قال : فأنا أردّ عليهم عبيدَهم ، فذكر له الموالي، فقال: عمدتَ إلى موالينـا، وهم فيءٌ أفاءَه الله علينا وهذه البلاد جميعاً فأعتقْنا رقابَهم ، نأمُلُ الأجـرَ في ذلك والثـواب والشكر، فلم تَـرْض لهم بذلك حتى جعلتَهم شركاءَنا في فيئنا ، فقال لهم المختار: إنْ أنا تركتُ لكم مواليكم، وجعلتُ فَيْئَكم فيكم، أتقاتلون معي بني أميَّة وابنَ الزبير، وتعطُون على الوفاء بذلك عهدَ الله وميثاقَـه ، وما أطمئنّ إليـه من الأيمـان؟ فقال شبَث : مـا أدري حتى أخرج إلى أصحـابي فأذاكـرَهم ذلك ، فخـرج فلم يـرجـع إلى المختار .

قال : وأجمَعَ رأي أشرافِ أهل الكوفة على قتال المختار .

قال أبو مخنف : فحدّثني قدامـةُ بن حوْشب ، قـال : جاءَ شَبَث بن رِبْعيّ وشَمِر بن ذي الجَوْشن ومحمَّد بن الأشعث وعبدالـرحمن بن سعيد بن قيس حتى دخلوا عـلى كعب بن أبي كعب الخثعمي، فتكلَّم

شَبَث ، فحَمِد الله وأثنى عليه ، ثم أخبره باجتماع رأيهم على قتال المختار ، وسأله أن يجيبهم إلى ذلك ، وقال فيما يَعيب به المختار : إنَّه تأمَّر علينا بغير رِضاً منَّا ، وزعم أن ابنَ الحنفيَّة بعثه إلينا ، وقد علمْنا أن ابن الحنفيَّة لم يفعل ، وأطعم موالينَا فيئنا ، وأخذ عبيدَنا ، فحرِب بهم يتامانا وأراملنا ، .وأظهر هو وَسَبئيَّته البراءةَ من أسلافنا الصالحين . قال : فرحّب بهم كعب بن أبي كعب ، وأجابهم إلى ما دَعَوْه إليه .

قال أبو مخنف : حدّثني أبي يحيى بن سعيد أنَّ أشراف أهل الكوفة قد كانوا دخلوا على عبدالرحمن بن مخنف ، فدعَوه إلى أن يجيبهم إلى قتال المختار ، فقال لهم : يا هؤلاء ، إنَّكم إن أبيتم إلاَّ أن تخرجوا لم أخذُلْكم ، وإن أنتم أطعتموني لم تخرجوا . فقالوا : لِمَ؟ قال: لأني أخاف أن تتفرّقوا وتختلفوا وتتخاذَلوا ؛ ومع الرجل والله شجعاؤكم وفرسانكم من أنفسكم؛ أليس معه فلان وفلان! ثم معه عبيدُكم ومواليكم، وكلمةُ هؤلاء واحدةٌ ، وعبيدكم ومواليكم أشد حَنَقاً عليكم من عدوّكم ، فهو مقاتلكم بشجاعة العرب ، وعداوةِ العَجَم ، وإن انتظرتموه قليلاً كُفيتموه بقدوم أهلِ الشام أو بمجيء أهلِ البصرة، فتكونوا قد كُفيتموه بغيركم ، ولم تَجعَلوا بأسَكم بينَكم ؛ قالوا : نَنْشدُك الله أنْ تخالفنا ، وأن تُفسد علينا رأينَا وما قد اجتمعتْ عليه جماعتُنا . قال : فأنا رجلٌ منكم ، فإذا شئتم فاخرجوا . فسار بعضُهم إلى بعض وقالوا : انتظروا حتى يذهب عنه إبراهيم بن الأشتر ؛ قال : فأمهلوا حتى إذا بلغ ابن الأشتر سَابَاطَ ، وثَبوا بالمختار . قال : فخرج عبدُالرحمن بنُ سعيد بن قيس الهمداني في همدان في جبَّانة السَّبيع ، وخرج زَحْر بن قيس الجُعْفي وإسحاق بن محمَّد بن الأشعث في جبَّانة كِندة .

قال هشام : فحدّثني سليمان بن محمد الحضرمي ، قال : خرج إليهما جبير الحضرمي فقال لهما : أُخرُجا عن جَبّانتنا ، فإنَّا نكره أن نُعْرَى بشرّ ؛ فقال له إسحاق بن محمد : وجبَّانتكم هيَ؟ قال: نعم ، فانصرفوا عنه ؛ وخرج كعب بن أبي كعب الخثعمي في جبَّانة بِشْر ، وسار بشير بن جرير بن عبدالله إليهم في بَجِيلة ، وخرج عبدالرحمن بن مخنف في جبَّانة مخنف ، وسار إسحاق بن محمد وزَحْر بن قيس إلى عبدالرحمن بن سعيد بن قيس بجبَّانة السَّبيع ، وسارت بجيلةُ وخَثْعم إلى عبدالرحمن بن مخنف وهو بالأزْد . وبلغ الَّذين في جبَّانة السَّبيع أنَّ المختار قد عبّأ لهم خيلاً ليسير إليهم . فبعثوا الرسل يتلو بعضُها بعضاً إلى الأزْد وبَجِيلة وخثعم ، يسألونَهم بالله والرّحم لَمّا عَجِلوا إليهم . فساروا إليهم واجتمعوا جميعاً في جبَّانة السبيع ، ولَمَّا أن بلغ ذلك المختار سرَّه اجتماعهم في مكان واحد ، وخرج شمر بن ذي الجوشن حتى نزل بجبَّانة بني سَلول في قيس ، ونزل شَبَث بن ربعيّ وحَسان بن فائد العبسي وربيعة بن ثروانَ الضبي في مُضَر بالكُناسة ، ونزل حجَّار بن أَبْجر ويزيد بن الحارث بن رؤيم في ربيعة فيما بين التَّمَّارين والسَّبَخة ، ونزل عمرو بن الحجَّاج الزّبيدي في جبَّانة مُراد بمَنْ تبعه من مَذْحج ، فبعث إليه أهلُ اليمن : أن ائتنا ، فأبى أن يأتيَهم وقال لهم : جدّوا ، فكأني قد أتيتُكم . قال : وبعث المختار رسولاً من يومه يقال له عمرو بن تَوْبة بالرَّكض إلى إبراهيم بن الأشْتر وهو بسَابَاط ألاّ تضع كتابي من يدك حتى تُقبِل بجميع منْ مَعَك إليَّ . قال : وبعث إليهم المختار في ذلك اليوم : أخبروني ما تريدون؟ فإني صانع كلَّ ما أحببتم ، فقالوا : فإنا نريد أن تعتزِلَنا ، فإنَّك زعمتَ أنّ ابنَ الحنفيَة بعثك ولم يَبْعَثك . فأرسل إليهم المختارُ أن ابعثوا إليهِ مِن قِبَلكم وفداً ، وابعثُ إليه من قِبَلي وفداً ، ثم انظروا في ذلك حتى تَتَبيَّنُوه ؛ وهو

يريد أن يريثهم بهذه المقالة ليَقدم عليه إبراهيمُ بن الأشتر ، وقد أمر أصحابه فكفّوا أيديهم ، وقد أخذ أهلُ الكوفة عليهم بأفواهِ السكك ، فليس شيء يصل إلى المختار ولا إلى أصحابه من الماء إلّا القليل الوتْح ، يجيئهم إذا غفلوا عنه . قال : وخرج عبدُالله بن سَبيع في الميدان ، فقاتله شاكر قتالاً شديداً ، فجاءه عُقْبَة بن طارق الجُشَمّي فقاتل معه ساعةً حتى ردَّ عاديَتَهم عنه ، ثم أقبلا على حاميتهما يسيران حتى نزل عُقْبة بن طارق مع قيس في جبّانة بني سَلول ، وجاء عبدالله بن سَبيع حتى نزل مع أهل اليمن في جبّانة السَّبيع .

قال أبو مخنف : حدّثني يونس بن أبي إسحاق ، أنّ شمر بن ذي الجوشن أتى أهل اليمن فقال لهم : إن اجتمعتم في مكان نجعل فيه مجنّبتين ونقاتل من وجه واحد فأنا صاحبكم ، وإلّا فلا ، والله لا أقاتل في مِثْل هذا المكان في سِكك ضيّقة ، ونقاتَل من غير وجه . فانصرف إلى جماعةِ قومه في جبانة بني سَلول . قال : ولّما خرج رسولُ المختار إلى ابن الأشترَ بلغه من يومه عشيَّةً ، فنادى في الناس : أن ارجعوا إلى الكُوفة ، فسار بقيَّة عشيَّته تلك ، ثم نزل حين أمسى ، فتعشّى أصحابُه ، وأراحوا الدوابَّ شيئاً كلا شيء ، ثم نادى في الناس ، فسار ليلتَه كلَّها ، ثمّ صلَّى الغداة بسُورا ، ثم سار من يومه فصلَّى العصر على باب الجسر من الغد ، ثم إنه جاء حتى بات ليلَتَه في المسجد ومعه من أصحابه أهل القوّة والجَلَد ، حتى إذا كان صبيحة اليوم الثالث من مُخرَجهم على المختار، خرج المختارُ إلى المِنبر فصعِدَه .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو جناب الكلبي أنّ شَبَث بن رِبْعي بعث إليه ابنه عبدالمؤمن فقال : إنّما نحن عشيرتُك ، وكفّ يمينك ، لا والله لا نقاتلك ، فثقْ بذلك منّا ؛ وكان رأيه قتاله ، ولكنّه كاده . ولّما أن اجتمع أهلُ اليَمَن بجبّانة السَّبيع حضرت الصلاة ، فكَرِه كل رأس من رؤوس أهل اليمن أن يتقدّمه صاحبُه ، فقال لهم عبدالرحمن بن مخنف : هذا أوّل الاختلاف ، قدّموا الرضا فيكم ، فإنّ في عشيرتكم سيِّدَ قرّاء أهل المصر ، فليصلّ بكم رفاعةُ بن شدّاد الفتياني من بجِيلة ، ففعلوا ، فلم يزل يصلي بهم حتى كانت الوقعة .

قال أبو مخنف : وحدّثني وازع بن السري أنّ أنس بن عمرو الأزدي انطلق فدخل في أهل اليمن ، وسمعهم وهم يقولون: إنْ سار المختار إلى إخواننا من مضرَ سرْنا إليهم ، وإن سار إلينا ساروا إلينا ، فسمِعَها منهم رجل ، وأقبل جواداً حتى صعد إلى المختار على المنبر ، فأخبَره بمقالتهم ، فقال : أمّا هم فخُلَقاء لو سرتُ إلى مضرَ أن يسيروا إليهم ، وأمّا أهل اليَمن فأشهد لئن سرتُ إليهم لا تسير إليهم مضر ، فكان بعد ذلك يدعو ذلك الرجلَ ويكرمه . ثم إنّ المختار نزل فعبّأ أصحابَه في السوق ـ والسوق إذ ذاك ليس فيها هذا البناء ـ فقال لإبراهيم بن الأشتر: إلى أيّ الفريقين أحبّ إليك أن تسير؟ فقال: إلى أيّ الفريقين أحببت ، فنظر المختار ـ وكان ذا رأي ، فكره أن يسير إلى قومه فلا يبالغ في قتالهم ـ فقال: سرْ إلى مضرَ بالكُناسة وعليهم شَبَث بن ربعيّ ومحمَّد بن عمير بن عطارد ، وأنا أسير إلى أهل اليَمَن .

قال : ولم يزل المختار يُعرف بشدّة النفس، وقلَّة البُقْيَا على أهل اليمن وغيرهم إذا ظفر ، فسار إبراهيمُ بن الأشتر إلى الكُناسة ، وسار المختار إلى جبَّانة السَّبيع ، فوقف المختار عند دار عُمَر بن سعد بن أبي وقّاص ، وسرّح بين أيديه أحْمَر بن شُميط البجَليّ ثم الأحمسي ، وسرّح عبدالله بن كامل الشاكري ،

وقال لابن شميط : اِلزَم هذه السّكّة حتى تخرج إلى أهل جبّانة السَّبيع من بين دُور قومك . وقال لعبد الله بن كامل: اِلزَم هذه السكّة حتى تخرج على جبانة السبيع من دار آل الأخنس بن شَريق ، ودعاهما فأسرّ إليهما أنّ شِباما قد بعثتْ تُخبرني أنهم قد أتوا القوم من ورائهم ، فمَضَيا فَسَلكا الطريقين اللذين أمرهما بهما ، وبلغ أهلَ اليمن مسيرُ هذين الرجلين إليهم ، فاقتسموا تَيْنِك السكّتين ، فأما السكّة التي في دبر مسجد أحْمس فإنّه وقف فيها عبدُالرحمن بنُ سعيد بن قيس الهمْداني وإسحاق بن الأشعث وزَحْر بن قيس،وأما السكة التي تلي الفُراتَ فإنّه وقف فيها عبدُالرحمن بن مخنف، وبشير بن جرير بن عبدالله ، وكعب بن أبي كعب . ثم إن القوم اقتتلوا كأشدّ قتال اقْتَتَلَه قوم . ثم إن أصحاب أحْمر بن شُمَيط انكشفوا وأصحاب عبدالله بن كامل أيضاً ، فلم يُرَع المختارُ إلاّ وقد جاءه الفَلُّ قد أقبل ؛ فقال : ما وراءكم؟ قالوا: هُزِمنا ؛ قال : فما فعل أحمر بن شُمَيط؟ قالوا: تركناه قد نزل عند مسجد القصّاص ـ يَعنُون مسجدَ أبي داود في وادعة ، وكان يعتاده رجالُ أهل ذلك الزمان يقصّون فيه ، وقد نزل معه أناس من أصحابه ـ وقال أصحاب عبدالله: ما ندري ما فعل ابن كامل! فصاح بهم : أن انصرفوا . ثم أقبل بهم حتى انتهى إلى دار أبي عبدالله الجُدَليّ ، وبعث عبدالله بن قُراد الخثعمي ـ وكان على أربعمائة رجل من أصحابه ـ فقال : سرْ في أصحابك إلى ابن كامل ، فإنْ يك هلك فأنت مكانه ، فقاتِل القومَ بأصحابك وأصحابه ، وإن تجده حيًّا صالحاً فسرْ في مائة من أصحابك كلُّهم فارس ، وادفع إليه بقيّة أصحابك ، ومرْ بالجدّ معه والمناصحة له ، فإنّهم إنّما يناصحونني ، ومَن ناصحني فليبشر ، ثم امضِ في المائة حتى تأتي أهل جبانة السبيع مما يلي حمّام قَطَن بن عبدالله . فمضى فوجد ابن كامل واقفاً عند حمّام عمرو بن حُريث معه أناس من أصحابه قد صبروا ، وهو يقاتل القومَ ، فدفع إليه ثلاثمائة من أصحابه ثم مضى حتى نزل إلى جبّانة السَّبيع .

ثم أخذ في تلك السكك حتى انتهى إلى مسجد عبد القيس، فوقف عنده، وقال لأصحابه : ما ترون؟ قالوا: أمْرنا لأمرِكَ تَبع وكل من كان معه من حاشد من قومه وهم مائة؛ فقال لهم: والله إني لأحبّ أن يَظهَر المختار ، ووالله إني لكارهٌ أن يَهلِك أشرافَ عشيرتي اليوم ، ووالله لأن أموتَ أحبّ إليَّ من أن يَحلّ بهم الهلاك على يدي ، ولكن قِفوا قليلاً فإني قد سمعتُ شِباما يزعمون أنّهم سيأتونهم من ورائهم ، فلعلّ شِباما تكون هي تفعل ذلك ، ونُعافَى نحن منه . قال له أصحابه : فرأيَك . فثبت كما هو عند مسجد عبد القيس، وبعث المختارُ مالكَ بن عمرو النهدي في مائتي رجل ـ وكان من أشدّ الناس بأساً ـ وبعث عبدالله بن شريك النهدي في مائتي فارس إلى أحمَر بن شميط ، وثبت مكانَه ، فانتهوا إليه وقد علاه القوم وَكَثَروه ، فاقتتلوا عند ذلك كأشدّ القتال ، ومضى ابن الأشتر حتى لقي شَبَث بن رِبْعيّ ، وأناس معه من مضرَ كثيراً ، وفيهم حسّان بن فائد العبسي ، فقال لهم إبراهيم : وَيْحَكُم! انصرفوا ، فوالله ما أحبّ أن يصاب أحد من مُضرَ على يدي ، فلا تُهْلكوا أنفسكم ، فأبَوْا ، فقاتلوه فهزمهم ، واحتُمل حسّان بن فائد إلى أهله ، فمات حين أدخِل إليهم ، وقد كان وهو على فراشه قبل موته أفاقَ إفاقةً فقال : أما والله ما كنت أحبّ أن أعيشَ من جراحتي هذه ، وما كنت أحبّ أن تكون منيّتي إلاّ بطعنةِ رمح ، أو بضربةٍ بالسيف ؛ فلم يتكلّم بعدها كلمةً حتى مات . وجاءت البشرى إلى المختار من

قَبَل إبراهيم بهزيمة مضرَ ، فبعث المختار البشرى مِن قِبَله إلى أحمر بن شُميط وإلى ابن كامل ، فالنَّاس على أحوالهم كل أهل سكة منهم قد أغْنتْ ما يليها .

قال : فاجتمعت شِبَام وقد رأسوا عليهم أبا القلوص ، وقد أجمعوا واجتمعوا بأن يـأتوا أهـلَ اليمن من ورائهم ، فقال بعضهم لبعض : أما والله لـو جعلتم جِدَّكُم هـذا على من خـالفكم من غيركم لكـان أصْوَب، فسِيروا إلى مضر أو إلى ربيعة فقاتلوهم ـ وشيخُهم أبو القلوص ساكت لا يتكلَّم ـ فقالوا : يا أبا القلوص ، مـا رأيك؟ فقـال: قال الله جـلّ ثنـاؤه : ﴿ قَـاتِلُوا الَّـذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّـارِ وَلْيَجِـدُوا فِيكُمْ غِلْظَة ﴾[١] قوموا ؛ فقاموا ؛ فمشى بهم قيس رمحين أو ثلاثة ثم قال لهم: اِجلسوا فجلسـوا ، ثمَّ مشى بهم أنفس من ذلك شيئاً ، ثم قعد بهم ،ـ ثم قال لهم : قـوموا ، ثم مشى بهم الثـالثة أنفس من ذلـك شيئاً ، ثم قعد بهم ، فقالوا له : يا أبا القَلوص ، والله إنك عنـدنا لأشجـع العرب ، فمـا يَحمِلك على الَّـذي تصنع ! قـال : إنَّ المجرِّب ليس كمن لم يجـرِّب ، إني أردت أن ترجـع إليكم أفئدتُكم ، وأن تـوطِّنوا على القتـال أنفسَكم ، وكرهتُ أن أقْحِمكم على القتـال وأنتم على حالِ دَهَش ؛ قـالوا : أنت أبصَر بما صنعت .

فلمـا خرجـوا إلى جبَّانـة السَّبيـعِ استقبلهم على فم السكَّـة الأعسـر الشـاكـري ، فحمـل عليـه الجُندعيّ وأبو الزبير بن كريب فصرعاه ، ودخـلا الجبَّانة ، ودخـل النـاسُ الجبَّـانة في آثـارهم ، وهم ينـادُون : يا لثَـارات الحسين ! فأجـابهم أصحابُ ابن شميط يَـا لَثـارات الحسين ! فسمعهـا يـزيـدُ بن عمير بن ذي مُرَّان من هَمْدَانَ فقال : يا لَثارات عثمان ! فقال لهم رفاعة بن شدّاد : ما لنـا ولعثمان! لا أقاتِل مع قوم يبغـون دمَ عثمان ، فقـال له أنـاسٌ من قومـه : جئتَ بنا وأطعنـاك ، حتى إذا رأينا قـومَنا تأخذهم السيوف قلت : انصرِفوا ودَعُوهم! فَعَطَف عليهم وهو يقول :

أَنـا ابـنُ شَـدَّادٍ عَـلَى دِيـنِ عَـلي لـسـتُ لـعـثـمـانَ بـنِ أَرْوَى بِـوَلِـي
لأَصـلِيـنَّ الـيـومَ فِـيـمَـن يـصْـطَلِي بِـحـرِّ نـارِ الحَـرب غـيـر مُـؤتَـلِ

فقـاتلَ حتى قُتـل ، وقتل يـزيد بن عُميـر بن ذي مُـرَّان، وقُتـل النعمـان بن صُهْبـان الجـرميّ ثم الراسبي ـ وكان ناسكاً ـ ورفاعةُ بن شدّاد بن عَوْسجة الفِتيانيّ عند حمَّام المَهْبذانِ الَّذي بالسَّبَخة ـ وكان ناسكاً ـ وقتِل الفرات بن زَحْر بن قيس الجُعفي ، وارتثّ زَحْر بن قيس ، وقتِل عبدالـرحمن بن سعيد بن قيس، وقتل عمر بن مخنف ، وقاتل عبدُالرحمن بن مخنف حتى ارتُثّ ، وحملتْه الرجال على أيديها وما يَشعر ، وقاتل حولَه رجالٌ من الأزْد، فقال حُمَيد بن مسلم :

لأَضْـرِبَـنَّ عـن أَبـي حَـكـيـمِ مَفَـارِق الأَعْبُـدِ والصَّمِـيـمِ

وقال سُراقة بن مِرْداسٍ البارقي :

يـا نَفْسُ إلاَّ تَصْبـري تُلِيمِي لَا تَـتـوَلَّى عـن أَبـي حـكـيـمِ

واستُخرج من دور الوادعيِّين خمسَمـائة أسيـر، فأُتِي بهم المختـار مكتَّفين ، فأخـذ رجل من بني

[١] سورة التوبة : ١٢٣ .

نَهْد وهو من رؤساء أصحاب المختار يقال له: عبدالله بن شريك ، لا يخلو بعربيّ إلّا خلّى سبيله ، فَرَفَع ذلك إلى المختار دِرْهم مولًى لبني نَهد ، فقال له المختار: اعرضوهم عليّ ، وانظروا كل من شهد منهم قتل الحسين فأعلموني به ، فأخذوا لا يُمَرّ عليه برجل قد شهد قتل الحسين إلّا قيل له : هذا ممّن شهد قتله ، فيقدّمه فيضرب عنقه ، حتى قتل منهم قبل أن يخرج مائتين وثمانيةً وأربعين قتيلاً ، وأخذ أصحابه كلّما رأوا رجلاً قد كان يؤذيهم أو يماريهم أو يضرّ بهم خَلْوا به فقتلُوه حتّى قُتل ناس كثير منهم وما يشعر بهم المختار ، فأُخبر بذلك المختار بعدُ ، فدعَا بمَنْ بقي من الأسارى فأعتَقهم ، وأخذ عليهم المواثيقَ ألّا يجامِعوا عليه عدوًّا ، ولا يبغوه ولا أصحابه غائلة ، إلّا سُرَاقَة بن مرداس البارقي ، فإنّه أمر به أن يُساقَ معه إلى المسجد . قال : ونادى منادِي المختار : إنّه من أغلق بابه فهو آمن ، إلّا رجلاً شَرَك في دم آل محمّد ﷺ .

قال أبو مخنف: حدّثني المجالد بن سعيد، عن عامر الشعبي ، أن يزيد بن الحارث بن يزيد بن رؤيم وحجّار بن أبجر بعثا رسلاً لهما ، فقالا لهم : كونوا من أهل اليمن قريباً ، فإنْ رأيتموهم قد ظهروا فأيّكم سبق إلينا فليقل صَرَفان ، وإن كانوا هُزِموا فليقل جُمْزان ، فلما هُزِم أهل اليمن أتتْهم رسلهم ، فقال لهم أوّلُ من انتهى إليهم : جُمْزان ، فقام الرجلان فقالا لقومهما : انصرفوا إلى بيوتكم ، فانصرَفوا ، وخرج عمرو بن الحجّاج الزُّبيدي ـ وكان ممّن شهد قتل الحسين ـ فركب راحلتَه ، ثمّ ذهب عليها ، فأخذ طريق شَرافِ وواقصة ، فلم يُرَ حتى الساعة ، ولا يُدرَى أرضٌ بخَسَتْه ، أم سماءٌ حَصَبَتْهُ! وأمّا فُرات بن زَحْر بن قيس فإنّه لمّا قُتل بعثتْ عائشةُ بنت خليفة بن عبدالله الجُعفيّة ـ وكانت امرأةَ الحسين بن علي ـ إلى المختار تسأله أن يأذن لها أن تواريَ جسده ؛ ففعل ؛ فدفنتْه .

وبعث المختار غلاماً له يدعى زِرْبيًّا في طلب شَمِر بن ذي الجَوْشَن . قال أبو مخنف : فحدّثني يونس بن أبي إسحاق ، عن مسلم بن عبدالله الضبابي ، قال : تَبعنا زِرْبيٌّ غلامُ المختار، فَلَحِقْنَا وقد خرجْنا من الكوفة على خيول لنا ضُمَّر ، فأقبل يتمطّر به فرسُه ، فلما دنا منّا قال لنا شمِر : اركضوا وتباعدوا عنّي لعلّ العبد يطمع فيَّ ؛ قال : فركَضْنا ، فأمعنّا ، وطمع العبد في شمِر ، وأخذ شمر ما يستطرد له ، حتى إذا انقطع من أصحابه حمل عليه شمِر فدقّ ظهره ، وأتى المختار فأخبر بذلك ، فقال : بؤساً لزربيّ ، أما لو يستشيرُني ما أمرْته أن يَخرُج لأبي السابغة .

قال أبو مخنف: حدّثني أبو محمّد الهَمْداني ، عن مسلم بن عبدالله الضّبابيّ ، قال: لمّا خرج شمر بن ذي الجَوْشن وأنا معه حين هزمنا المختار ، وقتل أهل اليمن بجبّانة السَّبيع ، ووجّه غلامَه زربيًّا في طلبِ شمر، وكان مَن قتل شمر إيَّاه ما كان ، مضى شمر حتّى ينزل ساتيدَمَا ، ثم مضى حتى ينزل إلى جانب قرية يقال لها الكلتانيّة على شاطىء نهر ، إلى جانب تل ، ثم أرسل إلى تلك القرية فأخذ منها عِلْجاً فضربه ، ثم قال: النّجاء بكتابي هذا إلى المصعب بن الزبير وكتب عنوانه : للأمير المصعب بن الزبير من شمِر بن ذي الجوشن . قال : فَمَضَى العِلْج حتّى يدخل قريةً فيها بيوت ، وفيها أبو عَمْرة ، وقد كان المختار بعثَه في تلك الأيّام إلى تلك القرية لتكون مَسْلحة فيما بينه وبين أهل البصرة ، فلقي ذلك العِلْج عِلْجاً من تلك القرية ، فأقبل يشكو إليه ما لقي من شمر، فإنّه لقائم معه يكلّمه إذ مرّ به رجل من

أصحاب أبي عمرة، فرأى الكتابَ مع العِلج، وعنوانه: لمصعب من شمر، فسألوا العلجَ عن مكانه الَّذي هو به، فأخبَرَهم، فإذا ليس بينهم وبينه إلَّا ثلاثة فراسخ. قال: فأقبلوا يسيرون إليه.

قال أبو مخنف: فحدّثني مسلم بن عبدالله، قال: وأنا والله مع شَمِر تِلك الليلة، فقلنا: لو أنَّك ارتحلتَ بنا من هذا المكان فإنَّا نتخوّف به! فقال: أو كلّ هذا فَرَقا من الكذَّاب! والله لا أتحوّل منه ثلاثة أيَّام، ملأ الله قلوبَكم رُعْباً! قال: وكان بذلك المكان الذي كنَّا فيه دبًى كثير، فوالله إني لَبينْ اليَقْظانِ والنائم، إذْ سمعتُ وَقْعَ حوافر الخيل، فقلت في نفسي: هذا صوتُ الدَّبى، ثم إني سمعته أشد من ذلك، فانتبهتُ ومسحتُ عينيّ، وقلت: لا والله، ما هذا بالدَّبَى. قال: وذهبتُ لأقومَ، فإذا أنا بهم قد أشرفوا علينا من التَّلّ، فكبَّروا، ثم أحاطوا بأبياتنا، وخرجْنا نشتدّ على أرجُلنا، وتركنا خيلنا. قال: فأمُرّ على شمِر، وإنَّه لمتزر ببُرد محقق ـ وكان أبرَصَ ـ فكأني أنظر إلى بياض كشحيه من فوق البُرْد، فإنَّه لَيطاعنهم بالرمح، قد أعجَلوه أن يلبس سلاحَه وثيابَه، فمضينا وتركناه. قال: فما هو إلَّا أن أمعنتُ ساعةً، إذ سمعتُ: الله أكبر، قتلَ اللَّهُ الخبيث!

قال أبو مخنف: حدّثني المشرقي، عن عبدالرحمن بن عبيد أبي الكنود، قال: أنا والله صاحب الكتاب الَّذي رأيته مع العِلْج، وأتيتُ به أبا عَمرة وأنا قتلت شَمِراً؛ قال: قلت: هل سمعتَه يقول شيئاً ليلتئذ؟ قال: نعم، خرج علينا فطاعنَنا برمحه ساعةً، ثم ألقَى رمْحَه، ثم دخل بيته فأخذ سيفَه، ثم خرج علينا وهو يقول:

نَبَّهْتُمُ لَيثَ عَرِينٍ بَاسِلاَ ... جَهْماً مُحيَّاهُ يَدُقُّ الكاهِلاَ
لم يُرَ يَوْماً عَنْ عَدُوٍّ ناكِلاَ ... إلَّا كذَا مُقَاتِلاً أو قاتِلاَ
يُبْرِحُهُمْ ضَرْباً ويُرْوِي العامِلاَ

قال أبو مخنف، عن يونس بن أبي إسحاق: ولمَّا خرج المختار من جَبّانة السّبيع، وأقبل إلى القصر، أخذ سُراقةُ بن مِرْداس يناديه بأعلى صوته:

امننْ عليَّ اليَوْمَ يا خَيْرَ مَعَدْ ... وَخَيْرَ مَن حَلَّ بِشِحْرٍ والجَنَدْ
وَخَيْرَ من حَيَّا وَلَبَّى وَسَجَدْ

فبعث به المختار إلى السجن، فحبسه ليلةً، ثم أرسل إليه من الغد فأخرَجه، فدعا سراقة، فأقبَل إلى المختار وهو يقول:

ألا أبلغْ أبا إسْحاقَ أنّا ... نَزوْنا نَزوةً كانت علينا
خَرَجْنا لاَ نَرى الضعَفاءَ شيئاً ... وكانَ خُرُوجُنا بَطراً وَحَيْنا
نراهُمْ في مصافِّهِم قليلاً ... وهم مثلُ الدَّبى حين التَقينا
بَرْزنا إذ رَأيْنَاهُمْ فلما ... رَأينا القومَ قد برزُوا إلينا
لقِينَا منْهُمُ ضَرْباً طِلَحْفاً ... وَطَعْناً صائباً حتى انثَنَيْنَا

نصِـرْتَ على عَـدُوِّك كُـلَّ يـومٍ بـكـلِّ كتِيبَـةٍ تَنْعَى حُسَيْنَـا
كنصْـرِ مُحَمّـدٍ في يـوم بَـدْرٍ ويـومِ الشِّعْبِ إذ لاقَى حُنَيْنَـا
فَـأَسْجِـحْ إذْ مَلَكْتَ فلو مَلَكنـا لجُرْنـا في الحكـومة وآعتَـدَينا
تَـقَبَّـلْ تـوبَـةً مـنّـي فـإنّـي سـأشكرُ إنْ جعلتَ النَّقْـدَ دَينـا

قال : فلّما انتهى إلى المختار ، قال له : أصلَحك الله أيها الأمير! سُراقةُ بن مِرداس يَحلف بالله الّذي لا إله إلّا هو لقد رأى الملائكةَ تُقاتِل على الخيول البُلْق بين السماء والأرض ؛ فقال له المختار : فاصعد المِنبَر فأعلِم ذلك المسلمين ؛ فصَعِد فأخبَرهم بذلك ثم نزل ، فخلا به المختار ، فقـال : إني قد علمت أنّك لم تر الملائكة ، وإنّما أردتَ مـا قد عـرفتُ ألّا أقتلك ، فاذهب عني حيث أحببت ، لا تُفسِد عليّ أصحابي .

قـال أبو مخنف : فحـدّثني الحجّاج بن علي البـارقي عن سراقـة بن مرداس، قـال: ما كنت في أيمانٍ حلفت بها قطّ أشدّ اجتهاداً ولا مبـالغةً في الكـذب منّي في أيماني هـذه التي حلفتُ لهم بها أني قـد رأيت المـلائكـة معهم تُقـاتِـل . فخلّوا سبيله . فهـرب ، فلحق بعبـدالـرحمن بن مخنف عنـد المصعب بن الـزبير بـالبصرة ، وخـرج أشرافُ أهـل الكـوفـة والـوجـوه . فلَحِقـوا بمصعب بن الـزبيـر بالبصرة ، وخرج سُراقة بن ميرداس من الكوفة وهو يقول :

ألَا أبـلِغْ أبـا إسـحـاقَ أنّـي رأيتُ البُلْقَ دُهْمـاً مُصْمَتَـاتِ
كفَـرْتُ بَـوحْيِكُمْ وجعلت نَـذْراً علىّ قِتـالَكمْ حتّى المَمـاتِ
أُرِي عَيْنَـيَّ مـا لَـم تُـبصـراهُ كـلانـا عـالـمٌ بـالـتُّـرَّهـاتِ
إذا قـالـوا أقـول لـهم كَـذَبتُمْ وإن خـرجـوا لبِسْتُ لهم أداتي

حدّثني أبو السائب سَلم بن جُنادة ، قال : حدّثنا محمَّد بن برّاد، من ولد أبي موسى الأشعري ، عن شيخ ، قال : لمَّا أسِر سراقة البارقي ، قال : وأنتم أسرتموني! ما أسَرَني إلّا قـوم على دوابّ بُلق، عليهم ثيابٌ بيض . قال : فقال المختار : أولئك الملائكة ، فأطْلَقه ، فقال :

ألا أبـلغ أبـا إسـحـاقَ أنّـي رأيتُ البُلْقَ دُهْمـاً مصمَتـاتِ
أُرِي عـيـنـيَّ مـا لـمْ تَـرْأيـاه كـلانَـا عـالـمٌ بـالـتُّـرَّهـاتِ

قال أبو مخنف : حدّثني عمير بن زياد أنّ عبدالرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني قال يومَ جبَّانة السبيع : ويحكم! من هؤلاء الّذينَ أتَوْنا من ورائنا؟ قيل له: شِبَام ؛ فقـال : يا عجبـا ! يقاتلني بقَـوْمي من لَا قومَ له .

قال أبو مخنف : وحدّثني أبو روق أنّ شُرحبيل بن ذي بُقلان من الناعطيِّين قُتِل يومئذ ، وكان من بيوتات هَمْدان ، فقال يومئذ قبل أن يُقتَل : يا لها قتلةً ، ما أضلّ مقتولها ! قِتـال مع غيـر إمام ، وقتـالٌ عـلى غير نيَّة ، وتعجيلُ فراقِ الأحبَّة ، ولو قتلنـاهم إذاً لم نسلم منهم ، إنَّا لله وإنَّـا إليه راجعـون ! أما والله ما خرجْتُ إلّا مواسياً لقومي بنفسي مَخافَة أن يُضطهَدوا ؛ وايم الله ما نجوْتُ من ذلك ولا أُنجُـوا،

ولا أغنَيْت عنهم ولا أُغنُوا . قال : ويرميه رجل من الفائشيِّين من هَمْدانَ يقال له أحمر بن هـديج بسهم فيقتله .

قـال: واختصَم في عبدالـرحمن بن سعيـد بن قيس الهمـداني نفـرٌ ثـلاثـة : سِعْـر بن أبي سعـر الحنفي ، وأبو الزبير الشِّبامي : ورجل آخر ؛ فقال سِعْر : طعنته طعنة ، وقال أبو الزبير : لكن ضـربتُه أنا عشرَ ضَرَبات أو أكثـر ، وقال لي ابنـه : يا أبـا الزبيـر ، أتقتل عبـدالرحمن بن سعيـد سيّد قـومك ! فقلت : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمـاً يُؤْمِنُونَ بِـاللّهِ والْيَوْمِ الآخَـرِ يُوادُّون مَن حـادَّ الله وَرَسُولَـه وَلَوْ كَـانُوا آبـاءَهُمْ أَوْ أبنـاءهم أو إخوانَهم أو عَشِيـرَتَهم ﴾[١]. فقال المختـار: كلّكم محسن . وانجلَت الوَقعـة عن سبعمائـة وثمانين قتيلاً من قومه .

قال أبو مخنف: حدّثني النَّضْر بن صالح أنَّ القتل إذ ذاك كان استَحرّ في أهل اليمن ، وأن مُضَر أصيب منهم بـالكُناسـة بضعة عشـر رجلاً ، ثمّ مضـوا حتّى مرّوا بـربيعـة ، فـرجـع حجّـار بن أبجَـر ، ويزيد بن الحارث بن رؤيم وشدّاد بن المنذر ـ أخو حضين ـ وعكرمة بن ربعي ، فانصرف جميـع هؤلاء إلى رحالهم ، وعطف عليهم عكرمة فقاتلـهم قتالاً شـديد ، ثمّ انصـرف عنهم وقد خـرج ، فجاء حتّى دخل منزلَه ، فقيل له : قد مـرّت خيلٌ في نـاحية الحي ؛ فخـرج فأراد أن يثب من حـائط داره إلى دار أخرى إلى جانبه فلم يستطع حتى حمَلَه غلام له . وكـانت وقعة جبّـانة السَّبيـع يومَ الأربعـاء لستّ ليال بقِين من ذي الحجّة سنة ستّ وستّين .

قال : وخرج أشرافُ الناس فلَحِقوا بالبَصـرة ، وتجرد المختـارُ لقتَلة الحسين فقال : مـا من ديننا تركُ قوم قتلوا الحسينَ يمشون أحياء في الدنيا آمنين ؛ بئس نـاصرُ آل محمـد أنا إذاً في الـدنيا! أنـا إذاً الكذّاب كما سمَّوْني ، فإني بـالله أستعين عليهم ، الحمد للّه الّـذي جعلني سيفاً ضـربهم به، ورمحـاً طعَنَهم به ، وطالب وترهم ، والقائم بحقّهم ؛ إنّه كان حَقًّا على الله أن يَقتُل من قَتَلهم ، وأن يـذلّ من جهل حقَّهم ، فسمّوهم لي ثم اتّبِعوهم حتى تُفنوهُم .

قال أبو مخنف: فحدّثني موسى بن عامر أن المختار قال لهم : اطلُبوا لي قَتَلَةَ الحسين ، فإنَّه لا يَسُوغ ليَ الطعامُ والشرابُ حتَّى أطهِّر الأرضَ منهم، وأنفي المُصِرّ منهم.

قال أبو مخنف: وحدّثني مالك بن أعيَن الجُهَنيّ أنّ عبدالله بن دبّاس، وهو الّذِي قَتَل محمَّد بن عَمَّار بن ياسر الّذِي قال الشاعر:

قَتِيـل ٱبنِ دَبَّـاسٍ أَصـابَ قَـذَالَـهُ

هو الّذِي دلّ المختار على نفر ممَّن قَتَل الحسينَ، منهم عبدالله بن أسيد بن النَّزّال الجُهَنيّ من حُـرَقة، ومالك بن النُّسير البدّيّ ، وحَمَل بن مالك المحاربيّ؛ فبعث إليهم المختار أبا نِمْران مالك بن عمرو النَّهديّ ـ وكان من رُؤساء أصحاب المختار ـ فأتاهم وهمْ بالقادسيَّة، فأخذهم فأقبل بهم حتَّى أدخلهم عليه عِشاء، فقال لهم المختار: يا أعداء الله وأعداءَ كتابه وأعداءَ رسولِهِ وآلِ رسولِهِ، أين الحسينُ بنُ عليّ؟ أدّوا إليّ الحسينَ، قتلتم من

(١) سورة المجادلة : ٢٢ .

أُمِرتُم بالصّلاة عليه في الصلاة، فقالوا: رحمك الله! بُعثنا ونحن كارهون، فامننْ علينا واستبقنا، قال المختار: فهلّا مننتم على الحسين ابن بنت نبيِّكم واستبقيتموه وسَقّيْتموه! ثم قال المختار للبدِّيّ: أنت صاحبُ بُرنُسه؟ فقال له عبدالله بن كامل: نعم، هو هو؛ فقال المختار، اقطعوا يدَيْ هذا ورِجْلَيه، ودَعُوه فليضطرب حتّى يموت، ففُعل ذلك به وتُرك، فلم يزل يَنزف الدمَ حتّى مات، وأمر بالآخرين فقُدّما، فقتل عبدُالله بن كامل عبدَالله الجهنيّ، وقتل سعرُ بن أبي سعر حَمَل بن مالك المحاربي.

قال أبو مخنف: وحدّثني أبو الصّلت التّيميّ، قال: حدّثني أبو سعيد الصَّيْقل أنّ المختار دُلّ على رجال من قَتَلة الحسين، دَلّه عليهم سِعْر الحنفيّ؛ قال: فبعث المختارُ عبدَالله بنَ كامل، فخرجنا معه حتّى مرّ ببني ضُبيعة، فأخذ منهم رجلاً يقا له زياد بن مالك؛ قال: ثمّ مضى إلى عَنَزة فأخذ منهم رجلاً يقال له عِمْران بن خالد. قال: ثمّ بعثني في رجال معه يقال لهم الدّبابة إلى دار في الحمراء، فيها عبد الرحمن بن أبي خُشْكارة البَجَليّ وعبدالله بن قيس الخَوْلانيّ، فجئنا بهم حتى أدخلناهم عليه، فقال لهم: يا قتلة الصالحين، وقَتَلة سيّد شباب أهل الجنَّة، ألا تَروْن الله قد أقاد منكم اليومَ! لقد جاءكم الوَرْس، بيوم نَحْس - وكانوا قد أصابوا من الوَرْس الّذي كان مع الحسين - أخرجوهم إلى السوق فضرّبوا رقابَهم، ففُعل ذلك بهم، فهؤلاء أربعة نفر.

قال أبو مخنف: وحدّثني سليمان بن أبي راشد، عن حميد بن مسلم، قال: جاءنا السّائب بنُ مالك الأشعريّ في خيل المختار، فخرجتْ نحوَ عبد القيس، وخرج عبدالله وعبدُ الرحمن ابنا صَلْخب في أثَري، وشُغلوا بالاحتباس عليهما عنّي، فنجوت وأخذوهما، ثمّ مضوا بهما حتّى مرّوا على منزل رجل يقال له عبدالله بنُ وهب بن عمرو بن عمّ أعشى هَمْدانَ من بني عبد، فأخذوه، فانتهوْا بهم إلى المختار، فأمر بهم فقُتِلوا في السوق، فهؤلاء ثلاثة. فقال حُمَيد بن مسلم في ذلك حيث نجا منهم:

أَلَمْ تَـرَنِي عَـلى دهشٍ نَـجـوْتُ ولم أَكـدْ أنـجُـو
رجـاءُ الـلهِ أَنْـقـذَني ولم أَكُ غَـيْـرَهُ أَرْجـو

قال أبو مخنف: حدّثني موسى بن عامر العدويّ من جُهينة - وقد عرف ذلك الحديث شهمُ بن عبدالرّحمن الجُهَنيّ - قال: بعث المختارُ عبدَالله بن كامل إلى عثمانَ بن خالد بن أَسَير الدُّهمانيّ من جُهَينة، وإلى أبي أسماءَ بِشْر بن سَوْط القابضيّ - وكانا ممَّن شَهِدا قتلَ الحسين، وكانا اشتركا في دم عبد الرَّحمن بن عَقِيل بن أبي طالب وفي سلبه - فأحاط عبدُ الله بنُ كامل عند العصر بمسجد بني دُهمان، ثم قال: عليّ مثل خطايا بني دُهمان منذ يوم خُلقوا إلى يوم يُبعَثون إن لم أوتَ بعثمانَ بنَ خالد بن أسير، إن لم أضرب أعناقكم من عند آخركم. فقلنا له: أمهلْنا نطلبه، فخرجوا مع الخيل في طلبه، فوجدوهما جالسَين في الجبَّانة - وكانا يريدان أن يخرجا إلى الجزيرة - فأُتِيَ بهما عبدُالله بنُ كامل، فقال: الحمد لله الّذي كفى المؤمنين القتالَ، لو لم يجدوا هذا مع هذا عنَّانا إلى منزله في طلبه، فالحمد لله الّذي حيّنك حتّى أمكَن منك. فخرج بهما حتّى إذا كان في موضع بئر الجعد ضربَ أعناقَهما، ثمّ رجع فأخبر المختارَ خبرَهما، فأمره أن يرجع إليهما فيحرقَهما بالنار، وقال: لا يُدفنان حتّى يُحرَقا. فهذان رجلان، فقال أعشى هَمْدانَ يرثي عثمانَ الجُهَنيّ:

يـا عَيْن بكّي فَتى الفِتيـانِ عُثمـانَـا لا يَبْعـدَنَّ الـفَتـى من آلِ دُهْـمـانَـا
واذْكُـرْ فتًى مـاجِـداً حُلواً شَمـائـلُهُ مـا مِثْلُهُ فـارسٌ فـي آلِ هَمْـدَانَـا

قال موسى بنُ عامر: وبعث معاذ بن هانىء بن عديّ الكنديّ، ابن أخي حُجْر، وبعث أبا عمرة صاحب حَرَسه، فساروا حتّى أحاطوا بدار خَوْليّ بن يزيد الأصبحيّ وهو صاحبُ رأس الحسين الَّذِي جاء به، فاختبأ في مخرجه، فأمر معاذُ أبا عَمْرةَ أن يطلبَه في الدار، فخرجت امرأتهُ إليهم، فقالوا لها: أين زوجُكِ؟ فقالت: لا أدري أين هو ـ وأشارت بيدها إلى المخرج، فدخلوا فوجدوه قد وضع على رأسه قَوْصَرَّةً، فأخرجوه، وكان المختار يسير بالكوفة. ثمّ إنَّه أقبل في أثر أصحابهِ وقد بعث ابو عَمرةَ إليه رسولاً، فاستقبل المختار الرسولُ عند دار بلال، ومعه ابنُ كامل، فأخبَرَه الخبر، فأقبل المختار نحوَهم، فاستقبل به، فردّده حتّى قتله إلى جانب أهله، ثمّ دعا بنا فحرّقه بها ، ثم لم يبرح حتّى عاد رماداً، ثمّ انصرف عنه. وكانت امرأته من حَضْرَمَوْت يقال لها العَيُوف بنت مالك بن نَهار بن عَقْرَب، وكانت نصبتْ له العداوة حين جاءَ برأس الحسين.

قال أبو مخنف: وحدّثني موسى بن عامر أبو الأشعر أنّ المختار قال ذات يوم وهو يحدّث جلساءَه: لاقتلنّ غداً رجلاً عظيم القَدَمين، غائرَ العينين، مشرفَ الحاجبين، يسرّ مَقتلُه المؤمنين والملائكةَ المقرّبين. قال: وكان الهيثم بن الأسوَد النَّخعيّ عند المختار حين سمع هذه المقالة، فوقع في نفسه أنّ الَّذِي يريد عمر بن سعد بن أبي وقّاص، فلمّا رجع إلى منزله دعا ابنه العُريان فقال: القَ ابنَ سعد الليلَة فخَبّره بكذا وكذا، وقل لـه: خذ حِذْرَك، فإنّه لا يريد غيرَك. قال: فأتاه فاستخلاه، ثمّ حدّثه الحديث، فقال له عمر بن سعد: جزى الله أباك والإخاءَ خيراً! كيف يريد هذا بي بعد الَّذِي أعطاني من العهود والمواثيق! وكان المختار أوّل ما ظهر أحسنَ شيء سيرةً وتألّفاً للناس، وكان عبدالله بن جَعْدة بنِ هبيرة أكرمَ خَلْق الله على المختار لقرابته بعليّ، فكلّم عمرُ بنُ سعد عبدالله بن جعدة، وقال له: إني لا آمَن هذا الرجل ـ يعني المختار ـ فخُذْ لي منه أماناً، ففعل؛ قال: فأنا رأيتُ أمانَه وقرَأتُهُ وهو:

بسمِ الله الرحمن الرحيم. هذا أمانٌ من المختار بن أبي عبيد لعمرَ بـن سعد بن أبي وقّاص، إنّك آمن بأمان الله على نفسك ومالِك وأهلِك وأهل بيتك وولدِك، لا تؤاخَذُ بحَدَث كانَ منك قديماً ما سمعتَ وأطعتَ ولزمتَ رَحْلك وأهلَك ومِصرَك، فمن لقيَ عمرَ بنَ سعد من شُرْطة الله وشيعةِ آل محمّد ومن غيرهم من الناس، فلا يعرض له إلاّ بخير. شهد السائبُ بنُ مالك وأحمرُ بنُ شميط وعبدُالله بنُ شدّاد وعبدُالله بنُ كامل. وجعلَ المختارُ على نفسه عهدَ الله وميثاقَه ليَفِينَّ لعمرَ بن سعد بما أعطاه من الأمان، إلاّ أن يُحدث حَدَثا، وأشهَدَ اللَّهَ على نفسه، وكَفَى بالله شهيداً.

قال: فكان أبو جعفر محمّد بن عليّ يقول: أمّا أمانُ المختار لعمر بن سعد: إلاّ أن يُحدِث حَدَثا، فإنه كان يريد به إذا دخل الخلاء فأحْدث.

قال: فلمّا جاءه العُريان بهذا خرج من تحت ليلته حتّى أتى حمّامه، ثم قال في نفسه: انزل دارِي، فرجع فعبر الرَّوْحاءَ، ثمّ أتى دارَه غُدوَةً، وقد أتى حمّامَه، فأخبر مولًى له بما كان من أمانه وبما أريد به، فقال له مولاه: وأيّ حَدَث أعظمُ ممّا صنعتَ! إنّك تركت رَحلك وأهْلَك وأقبلتَ إلى ها هنا، ارجع إلى رحلك، لا تجعلنّ للرجل عليك سبيلاً. فرجع إلى منزله، وأتى المختارَ بانطلاقه، فقال: كلاّ إنّ في عنقه سلسلةً ستردّه، لو جَهَد أن ينطلق ما استطاع. قال: وأصبح المختارُ فبعث إليه أبا عمرةَ، وأمَرَه أن يأتيه به، فجاءه حتّى دخل عليه فقال: أجِب الأميرَ، فقام عمر: فعثر في جُبَّة له، ويضربه أبو عَمْرة بسيفه، فقتله، وجاء برأسه في أسفل قَبائه حتّى

وضعَه بين يدَي المختار، فقال المختار لابنه حفص بن عمرَ بن سعد وهو جالس عنده: أتعرف هذا الرّأس؟ فاسترجع وقال: نعم، ولا خير في العيش بعدَه، قال له المختار: صدقت، فإنّك لا تعيش بعده، فأمر به فقُتِل، وإذا رأسُه مع رأس أبيه. ثمّ إنّ المختار قال: هذا بحُسَين وهذا بعليّ بن حسين، ولا سَواء، واللّهِ لو قتلتُ به ثلاثة أرباع قريش ما وَفَوا أنمُلةً من أنامله؛ فقالت حُميدةَ بنت عمَر بنِ سعد تَبكِي أباها:

لـو كـان غيـرُ أخـي قَـسِـيٍّ غـرَّهُ   أو غيـرُ ذي يَمَـنٍ وغـيـرُ الأَعْـجـمِ
سَخَّى بنفسي ذاكَ شيْئاً فـاعلمُـوا   عنـه ومـا البَـطْـرِيـق مِثـلُ الأَلأمِ
أعْـطَى آبن سعدٍ في الصَّحيفـة وابنَـه   عـهــداً يـلـينُ لـه جَـنَـاحُ الأرقـمِ

فلمّا قَتل المختارُ عمرَ بن سعد وابنه بعث برأسَيْهما مع مسافر بن سعيد بن نِمْران الناعطيّ وظَبْيان بن عمارة التميميّ، حتّى قَدِما بهما على محمّد ابن الحنفيّة، وكتب إلى ابن الحنفيّة في ذلك بكتاب.

قال أبو مخنف: وحدثني موسى بن عامر، قال: إنّما كان هيَّج المختار على قتل عمرَ بن سعد أنّ يزيدَ بن شراحيلَ الأنصاريّ أتى محمَّد ابن الحنفيَّة، فسلَّم عليه؛ فجرى الحديثُ إلى أن تذاكروا المختارَ وخروجَه وما يدعو إليه من الطلب بدماء أهلِ البيت، فقال محمَّد ابنُ الحنفيَّة: على أهون رسله يزعم أنَّه لنا شيعة، وقَتَلة الحسين جلساؤه على الكراسيّ يحدّثونه! قال: فوعاها الآخر منه، فلما قدم الكوفة أتـاه فسلَّم عليه، فسـأله المختار: هل لقيتَ المهديّ؟ فقال له: نعم، فقال: ما قال لك وما ذا كَرَك؟ قال: فخبّره الخبر. قال: فما لبِّث المختارُ عمرَ بنَ سعد وابنه أن قَتَلهما، ثمّ بعث برأسيهما إلى ابن الحنفيّة مع الرسولين اللّذَين سمَّينا، وكتب معهما إلى ابن الحنفيَّة:

بسم الله الرّحمن الرّحيم، للمهديّ محمَّد بن عليّ من المختار بن أبي عُبَيد. سلام عليك يا أيُّها المهديّ، فإني أحمَد إليك الله الّذِي لا إله إلا هو، أمَّا بعد: فإنّ الله بَعثَني نِقمَةً على أعدائكم، فهم بين قتيل وأسير، وطريد وشريد، فالحمد لله الّذِي قتل قاتليكم، ونصر مؤازِرِيكم. وقد بعثتُ إليك برأس عمرَ بن سعد وابنه، وقد قتلنا مـن شَرَك في دم الحسين وأهل بيته ـ رحمةُ الله عليهم ـ كلّ من قَدَرْنا عليه، ولن يُعجز الله من بقي، ولست بمُنْجم عنهم حتّى لا يبلغني أنّ على أديم الأرضِ منهم أرميًّا. فاكتب إليّ أيها المهديّ برأيك أتّبعه وأكون عليه، والسلام عليك أيها المهديّ ورحمة الله وبركاته.

ثمّ إنّ المختار بعث عبدَالله بنَ كامل إلى حكيم بن طُفَيل الطائيّ السنْبِسيّ ـ وقد كـان أصاب صلب العبَّاس بن عليّ، ورَمَى حسينا بسَهْم، فكان يقول: تعلَّق سهمي بسِرْباله وما ضرّه ـ فأتاه عبدُالله بنُ كامل، فأخَذهُ ثمّ أقبل به، وذهب أهلُه فاستغاثُوا بعديّ بن حاتم، فَلحِقهم في الطَّريق، فكلَّم عبدالله بن كامل فيه، فقال: ما إليّ من أمره شيء، إنّما ذلك إلى الأمير المختار. قال: فإني آتيه؛ قال: فأْتِهِ راشداً. فمضى عديّ نحو المختار، وكان المختار قد شفَّعه في نفر من قومه أصابهم يومَ جَبَّانة السَّبيع، لم يكونوا نَطَقوا بشيء من أمر الحسين ولا أهل بيته، فقالت الشيعة لابن كامل: إنّا نخاف أن يشفَّع الأمير عديّ بن حاتم في هذا الخبيث، وله من الذنب ما قد علمت، فدعْنا نَقتُله. قال: شأنكم به، فلما انتهَوْا به إلى دار العَنَزيِّين وهو مكتوف نَصَبوه غَرَضا، ثم قالوا له: سلبتَ ابن عليّ ثيابَه، والله لنَسلبنّ ثيابَك وأنتَ حيّ تنظُر! فنزعوا ثيابَه، ثمّ قالوا له: رَمَيْتَ حسينا، واتّخذته غَرَضا لنَبْلك، وقلت: تعلّق سهمِي بسِرْبالِه ولم يضرّه، وايمُ الله لنرمينَّك كما رميته بنبال ما

تعلق بك منها أجزاك. قال: فرَمَوْه رِشْقاً واحداً، فوقعتْ به منهم نبالٌ كثيرة فخرّ ميّتا.

قال أبو مخنف: فحدّثني أبو الجارود، عمّن رآه قتيلاً كأنّه قُنفُذ لِمَا فيه من كثرة النَّبل: ودخل عديّ بن حاتم على المختار فأجلَسَه معه على مجلسه، فأخبره عديّ عمّا جاء له، فقال له المختار: أتستحلّ يا أبا طَريف أن تَطلُب فيّ قَتَلة الحسين! قال: إنه مكذوب عليه أصلحك الله! قال: إذاً ندَعه لك قال: فلم يكن بأسرع من أن دخل ابن كامل فقال له المختار: ما فَعَل الرجل؟ قال: قتلتْه الشيعة: قال: وما أعجَلَك إلى قتله قبل أن تأتيَني به وهو لا يسرّه أنّه لم يقتله ـ وهذا عديّ قد جاء فيه، وهو أهلٌ أن يُشفَّع ويؤتى ما سرّه! قال: غلبتْني واللّهِ الشيعة، قال له عديّ: كذبتَ يا عدوَّ الله، ولكنْ ظننتَ أنّ من هو خيرٌ منك سيشفّعني فِيه، فبادرتَني فقتلتَه، ولم يكن خطر يدفعك عمّا صنعت. قال: فاسحْنفر إليه ابن كامل بالشّتيمة، فوضع المختار إصبَعَه على فيه، يأمر ابن كامل بالسكوت والكفّ عن عديّ، فقام عديّ راضياً عن المختار ساخطاً على ابن كامل، يشكوه عند من لقي من قومه. وبعث المختار إلى قاتل عليّ بن الحسين عبدَالله بن كامل، وهو رجلٌ من عبد القيس يقال له مُرّة بن مُنْقذ بن النعمان العبديّ وكان شجاعاً، فأتاه ابنُ كامل فأحاط بداره، فخرج إليهم وبيَدِه الرّمح، وهو على فرس جواد، فطعن عبيدالله بن ناجية الشِّباميّ، فصرَعَه ولم يضرّه. قال: ويضربه ابن كامل بالسيف فيتّقيه بيده اليسرى، فأسرع فيها السيف، وتمطّرت به الفرس، فأفلت ولحق بمصعب، وشُلّت يده بعد ذلك. قال: وبعث المختارُ أيضاً عبدَالله الشاكريّ إلى رجل من جَنْب يقال له زيدُ بن رُقاد، كان يقول: لقد رميتُ فتًى منهم بسهم وإنّه لواضِع كفَّه على جبهته يتّقي النبلَ فأثبتُّ كفَّه في جبهته، فما استطاع أن يزيل كفَّه عن جَبهته.

قال أبو مخنف: فحدّثني أبو عبدالأعلى الزُّبيدي أنّ ذلك الفتى عبدالله بن مسلم بن عَقيل، وأنّه قال حيث أثبت كفّه في جبهته: اللّهمّ إنّهم استقلّونا واستذلّونا، اللّهم فاقتلهم كما قَتلونا، وأذلّهم كما استذلّونا. ثم إنّه رمى الغلامَ بسَهم آخَرَ فقتَلَه، فكان يقول: جئتُه ميّتاً فنزعتُ سهمي الّذي قتلتُه به من جَوْفه، فلم أزَل أُنضْنِض السَّهم من جبهته حتى نَزْعته، وبقيَ النَّصل في جبهته مُثبَتا ما قدرتُ على نزعه.

قال: فلمّا أتى ابن كامل دارَه أحاط بها، واقتحم الرجالُ عليه، فخرج مصلتاً بسيفه ـ وكان شجاعاً ـ فقال ابن كامل: لا تضربوه بسيف، ولا تَطعَنوه برمح، ولكن ارموه بالنبل، وارجموه بالحجارة، ففعلوا ذلك به، فسقط، فقال ابن كامل: إن كان به رَمَق فأخرِجوه؛ فأخرَجوه وبه رَمَق، فدعا بنار فحرّقه بها وهو حيّ لم تخرج رُوحُه، وطلب المختار سنان بن أنس الّذي كان يدّعي قَتْلَ الحسين، فوَجده قد هَرَب إلى البَصرة، فهدّم داره. وطلب المختارُ عبدَالله بن عُقْبة الغَنَويّ فوجده قد هَرَب، ولحق بالجزيرة، فهدم داره، وكان ذلك الغَنَويّ قد قتل منهم غلاماً، وقتل رجل آخرُ من بني أسد يقال له حَرْملة بن كاهل رجلاً من آل الحسين، ففيهما يقول ابن أبي عَقِب اللَّيثيّ:

وعِنـدَ غَنِيٍّ قـطرَةٌ من دِمـائنـا وفي أَسَـدٍ أُخـرَى تُـعَـدُّ وتُـذكَـرُ

وطلب رجلاً من خَثْعَم يقال له عبدالله بن عروة الخثعمي ـ كان يقول: رميت فيهم باثنَيْ عشر سهماً ضَيْعَةً ـ ففاته ولَحِقَ بمصعب، فَهَدّم دارَه، وطلب رجلاً من صُداء يقال له عَمْرو بن صُبَيح، وكان يقول: لقد طعنتُ بعضَهم وجرحتُ فيهم وما قتلت منهمْ أحداً، فأتِيَ ليلاً وهو على سَطْحه وهو لا يشعر بعدما هدأت العيون، وسيفُه تحت رأسه، فأخذوه أَخْذاً، وأخذوا سيفَه، فقال: قبحك الله سيفاً، ما

أقرَبك وأبعدَك ! فجيء به إلى المختار ، فحَبَسه معه في القصر. فلمَّا أن أصبح أذِنَ لأصحابه ، وقيل : لِيدخلْ من شاء أن يَدخل ، ودخل الناس ، وجيء به مقيَّداً ، فقال : أما واللّهِ يا معشر الكَفَرة الفَجَرة أن لو بيَدِي سيفي لَعلمتم أني بنصل السيف غير رَعِش ولا رِعْديد . ما يسرّني إذ كانت منيّتي قَتْلاً أنَّه قتلني من الخلق أحد غيركم . لقد علمتُ أنّكم شرار خلقِ الله ، غيرَ أني وددتُ أنّ بيدي سيفاً أضرب بـه فيكم ساعة ، ثمّ رفع يدَه فلطم عينَ ابن كامل وهو إلى جنبه ، فضحك ابن كامل ، ثمّ أخذ بيده وأمسكها ، ثم قال : إنَّه يزعم أنَّه قد جرح في آل محمد وطعن ، فَمُرْنا بأمرك فيه ، فقال المختار : عليَّ بالرماح ، فأتِيَ بها ، فقال : اطعنوه حتَّى يموت ، فطُعِن بالرماح حتى مات .

قال أبو مخنف: حدّثني هشام بنُ عبدالرّحمن وابنه الحَكَم بنُ هشام أنّ أصحاب المختار مرّوا بدار بني أبي زُرعة بن مسعود ، فرَموهم من فوقها ، فأقبلوا حتَّى دخلوا الدارَ ، فقتلوا الهبياط بن عثمان بن أبي زُرعة الثقفي وعبدالرحمن بن عثمان بن أبي زرعة الثَّقَفيّ ، وأفلَتَهم عبدُالمالك بن أبي زرعة بضربة في رأسه ، فجاء يشتدّ حتى دخل على المختار، فأمر امرأتَه أمَّ ثابت ابنة سَمُرة بن جُندَب ، فداوتْ شجَّته ، ثمّ دعاه ، فقال : لا ذنب لي ، إنّكم رميتم القوم فأغضَبْتموهم . وكان محمَّـد بنُ الأشعث بن قيس في قرية الأشعث إلى جنب القادسيَّة ، فبعث المختار إليه حَوْشبا سادِنَ الكرسي في مائة ، فقال : انطلِق إليه فإنَّك تجده لاهياً متصيّداً . أو قائماً متلبّداً ، أو خائفاً متلدّداً ، أو كامناً متغمّداً ، فإن قدرت عليه فأتِني برأسه . فخرج حتَّى أتى قصرَه فأحاط به ، وخرج منه محمَّد بن الأشعث فلحق بمصعب ، وأقاموا على القصر وهم يَرْون أنَّـه فيه ، ثم دخلوا فَعَلِمـوا أنَّه قـد فاتَهم ، فـانصرفـوا إلى المختار ، فبعث إلى داره فهدمها ، وبنى بلَبِنِها وطِينِها دارَ حُجْر بن عديّ الكِنْدي ، وكان زيادُ بن سُمَيَّة قد هَدَمها .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة دَعَا المثنَّى بن مخرِّبة العبديّ إلى البيعة للمختار بالبصرة أهلها ؛ فحـدّثني أحمد بن زهيـر ، عن علي بن محمَّد ، عن عبـدالله بن عطيَّـة اللَّيْثي وعامـر بن الأسـود ، أنّ المثنّى بن مخرّبة العبدي كان مِمَّن شهد عينَ الوَرْدة مع سليمانَ بن صُرَد ، ثم رجع مع مَن رجع مِمَّن بقي من التَّوّابين إلى الكوفة ، والمختار محبوس، فأقام حتى خرج المختار من السجن ، فبايعه المثنَّى سرًّا، وقال له المختار: إلحقْ بِبَلَدك بالبصرة فارْعَ الناسَ ، وأسِرّ أمْرَكَ ؛ فقدم البصرة فدعا ، فأجابه رجالٌ من قومه وغيرهم فلمَّا أخرج المختارُ ابنَ مطيع من الكوفة وَمَنَعَ عمرَ بنَ عبدالرحمن بن الحارث بن هشام من الكوفة خرج المثنَّى بن مخرّبة فاتَّخذ مسجداً ، واجتمع إليه قومه ، ودعـا إلى المختار ، ثمّ أتى مـدينة الرِّزق فعسكر عندَها ، وجمعوا الطعامَ في المدينة ، وَنَحَروا الجُزُر ، فوجَّه إليهم القُباعُ عبَّادَ بن حصين وهو على شُرْطته ، وقيس بن الهيثم في الشّرَط والمقاتِلة ، فأخـذوا في سكَّة المـوالي حتَّى خرجـوا إلى السَّبخة ، فوقفوا ، ولزِم الناسُ دورَهم ، فلم يخرج أحد ، فجعل عبَّاد ينظر هل يرى أحداً يسأله ! فلم ير أحداً؛ فقال: أما ها هنا رجلٌ من بني تميم؟ فقال خليفة الأعور مولى بني عدي ، عدي الرِّباب : هذه دار ورَّاد مولَى بني عبد شَمْس؛ قال: دُقّ الباب ، فدقَّه ، فخرج إليه ورّاد ، فشتَمه عبَّاد وقال: وَيْحك! أنا وَاقفُ ها هنا ، لِمَ لَمْ تخرج إليَّ ! قال : لم أدر ما يوافقك ، قال : شُدَّ عليك سلاحَك واركب ، ففعل ، ووَقَفوا ، وأقبل أصحابُ المثنَّى فواقفوهم ، فقال عبَّاد لورّاد : قف مكـانَك مـع قيس ، فوقف قيس بن

الهيثم وورّاد ، ورجع عبَّاد فأخذ في طريق الذّبَّاحين ، والنَّاس وقوفٌ في السَّبَخة، حتَّى أتى الكلأ ، ولمدينة الرّزق أربعة أبواب : باب مِمَّا يلي البصرة ، وباب إلى الخلاّلين ، وبابٌ إلى المسجد ، وبابٌ إلى مهبّ الشمال ؛ فأتى الباب الَّذي يلي النهر مِمَّا يلي أصحاب السقَط ، وهو بابٌ صغير ، فوقف ودعا بسلَّم فوضعه مع حائط المدينة، فصعد ثلاثون رجلاً ، وقال لهم : إلزموا السطح، فإذا سمعتم التكبيرَ فكبّروا على السطوح ، ورجع عبَّاد إلى قيس بن الهيثم وقال لورّاد : حَرّشِ القومَ ؛ فطارَدَهم ورّاد ، ثم التبس القتال فقُتِل أربعون رجلاً من أصحاب المثنَّى ، وقُتِل رجل من أصحاب عبَّاد ، وسمع الَّذين على السطوح في دار الرزق الضجَّة والتكبير ، فكبَّروا ، فهرب مَن كان في المدينة ، وسمع المثنَّى وأصحابه التكبير من ورائهم ، فانهزموا ، وأمر عبَّاد وقيس بن الهيثم الناسَ بالكفّ عن اتباعهم وأخذوا مدينة الرّزق وما كان فيها ، وأتى المثنَّى وأصحابُه عبدَالقيس ورجع عبَّاد وقيس ومَنْ معهما إلى القُباع فوجّههما إلى عبد القيس ، فأخذ قيس بن الهيثم من ناحية الجسر ، وأتاهم عبَّاد من طريق المِرْبد ، فالتَقَوْا فأقبل زياد بن عَمْرو العَتَكيّ إلى القُباع وهو في المسجد جالس على المنبر ، فدخل زياد المسجدَ على فرسه ؛ فقال : أيُّها الرجل ، لتردّنّ خيلَك عن إخواننا أو لنقاتلنَّها . فأرسل القُباع الأحنفَ بنَ قيس وعمرَ بن عبدالرحمن المخزوميّ ليُصلحا أمرَ الناس ، فأتَيَا عبدالقيس ، فقال الأحنف لبكْر والأزْد وللعامَّة : ألستم على بيعة ابن الزبير ! قالوا : بلى ، ولكنَّا لا نُسلِم إخوانَنا . قال : فمروهم فليخرجوا إلى أيّ بلاد أحبّوا ، ولا يُفسدوا هذا المِصرَ على أهله ، وهم آمنون فليخرجوا حيث شاؤوا، فمشى مالكُ بنُ مِسْمَع وزيادُ بن عمرو ووجوهُ أصحابهم إلى المثنَّى ، فقالوا له ولأصحابه : إنَّا والله ما نحن على رأيكم ، ولكنَّا كرهْنا أن تُضامُوا ، فالحقوا بصاحبكم ، فإنّ مَن أجابكم إلى رأيكم قليل ، وأنتم آمنون . فقَبِل المثنَّى قولَهما وما أشارا به ، وانصرف . ورجع الأحنف وقال : ما غَبِنت رأيي إلَّا يومي هذا ، إني أتيت هؤلاء القومَ وخلَّفت بكراً والأزد ورائي ، ورجع عبّاد وقيس إلى القُباع ، وشخص المثنَّى إلى المختار بالكوفة في نفرٍ يسير من أصحابه ، وأصيب في تلك الحرب سُويد بنُ رئاب الشَّنّي ، وعقبة بن عشيرة الشني ، قَتَلَه رجل من بني تميم وقُتل التميمي فولَغ أخوه عقبة بن عشيرة في دَم التميمي ، وقال : ثأري . وأخبر المثنى المختار حين قَدم عليه بما كان من أمر مالك بن مِسمَع وزياد بن عمرو ومسيرهما إليه ، وذبّهما عنه حتَّى شخص عن البصرة ، فطَمع المختار فيهما ، فكتب إليهما : أمَّا بعد ، فاسمعا وأطيعا أوتِكما من الدنيا ما شئتما ، وأضمن لكما الجنَّة . فقال: مالكٌ لزياد : يا أبا المغيرة ، قد أكثر لنا أبو إسحاقَ إعطاءَنا الدنيا والآخرة ! فقال زياد لمالك مازحاً : يا أبا غسَّان ، أمَّا أنا فلا أقاتل نسيئةً ، مَن أعطانا الدّراهم قاتَلْنا معه . وكتب المختارُ إلى الأحنف بن قيس :

من المختار إلى الأحنف ومَن قبل فسَلْم أنتم ، أمَّا بعد ، فويلُ أمّ ربيعةَ من مضر ، فإن الأحنفَ مُورد قومَه سَقَر ، حيث لا يستطيع لهم الصَّدَر ، وإني لا أملك ما خُطّ في القَدَر ، وقد بلغني أنَّكم سمُّونني كذّاباً ، وقد كُذّب الأنبياء مِنْ قَبْلي ، ولستُ بخير من كثير منهم .

وكتب إلى الأحنف :

إذا اشتريتَ فرساً من مالِكا ... ثمّ أخذتَ الجَوْبَ في شِمالِكا
فاجعلْ مِصاعاً حذما مِن بالِكا

حدّثني أبو السائب سَلْم بن جُنادة ؛ قال : حدّثنا الحسن بن حمّاد ، عن حِبّان بن علي ، عن المجالد ، عن الشَّعبي ، قال : دخلتُ البَصْرة فقعدتُ إلى حَلْقة فيها الأحنف بن قيس ، فقال لي بعض القوم : مَن أنتَ؟ قلت: رجلٌ من أهل الكوفة ؛ قال : أنتم موالٍ لنا ؛ قلت : وكيف؟ قال: قد أنقذناكم من أيدي عبيدكم مِن أصحاب المختار ، قلتُ : تدري ما قال شيخُ هَمْدان فينا وفيكم ؟ فقال الأحنف بن قيس : وما قال؟ قلت : قال :

أَفَخَرْتُمْ إن قَتَلتُمْ أَعبُداً ... وهزمتمْ مَرَّةً آلَ عَزَلْ
وإذَا فاخَرْتُمُونا فاذْكُروا ... ما فعلْنا بكُم يومَ الجمَلْ
بينَ شيخٍ خاضبٍ عُثْنونَهُ ... وفتًى أَبيضَ وضَّاحٍ رِفَلْ
جاءَنا يَهْدِجُ في سابغةٍ ... فَذَبَحْناه ضُحىً ذَبْحَ الحَمَلْ
وعفَونا فَنَسِيتُمْ عفوَنا ... وكَفَرْتُمْ نِعْمَةَ اللّهِ الأجَلْ
وقَتلتُمْ خَشَبِيِّين بهمْ ... بَدَلاً من قومِكم شرَّ بَدَلْ

فغضب الأحنف ، فقال : يا غلام ، هات تلك الصحيفة ، فأُتِيَ بصحيفة فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم . من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس ، أمّا بعد ، فويلٌ أم ربيعةَ ومضرَ ، فإنّ الأحنف مُوردٌ قومَه سَقَر ، حيثُ لا يَقدرون على الصَّدَر، وقد بلغني أنّكم تُكذّبوني ، وإن كُذّبتُ فقد كُذّب رسلٌ مِن قَبلي ، ولست أنا خيراً منهم . فقال : هذا منّا أو منكم!

وقال هشام بن محمد عن أبي مخنف ، قال : حدّثني مَنيع بن العلاء السعدي أنّ مسكين بنَ عامر بن أُنَيْف بن شُرَيح بن عَمرو بن عدس كان فيمن قَاتَل المختار ، فلمّا هزم الناس لحق بآذرْبيجان بمحمّد بن عمير بن عطارد ، وقال :

عَجِبَتْ دَخْتنُوس لمّا رأَتْني ... قد عَلاني مِنَ المَشِيبِ خِمارُ
فأَهلَّتْ بصوتِها وأَرَنَّتْ ... لا تهالي قد شاب مِنّي العِذَارُ
إن تَرَيْني قد بانَ غَربُ شبابي ... وأَتى دونَ مولدي أعصَارُ
فابنُ عامَيْن وابن خمسين عاماً ... أيّ دهرٍ إلّا له أدهارُ!
ليت سيْفي لها وَجَوْبتَها لي ... يومَ قالت ألا كريم يَغارُ!
لَيْتنا قبلَ ذلك اليوم مِتْنَا ... أو فعلْنا ما تفعلُ الأحرارُ
فعلَ قوم تَقاذف الخيرُ عنهمْ ... لم نُقاتلْ وقاتَلَ العَيْزَار
وتولّيتُ عنهُمُ وأُصيبوا ... وَنَفاني عنهمْ شَنَارٌ وعارُ
لَهْفَ نَفسي على شِهَابِ قُرَيشٍ ... يومَ يُؤْتَى برأسه المختارُ!

وقال المتوكِّلُ :

قتلوا حُسَيناً ثم هم يَنْعُونهُ ... إنَّ الزمانَ بأهله أطْوارُ
لا تَبْعَدنْ بالطَّفِّ قَتْلَى ضُيِّعَتْ ... وسقَى مَساكِن هامِهَا الأمطار
ما شُرْطَة الدّجّالِ تحتَ لوائِه ... بأضَلَّ مِمَّنْ غرَّهُ المختارُ
أبني قَسِي أو ثِقُوا دجَّالَكم ... يَجْلَ الغُبارُ وأنتمُ أحرارُ
لو كان علمُ الغيب عند أخيكُم ... لتَوطَّأتْ لكُمُ به الأحبارُ
وليكان أمراً بيِّنا فيما مَضَى ... تأتي به الأنباءُ والأخبارُ
إنّي لأرجو أن يُكَذِّبَ وحْيَكم ... طعنٌ يَشُقُّ عصاكُمُ وحِصَارُ
ويجيئكم قومٌ كأنَّ سُيُوفَهُمْ ... بأكفِّهِمْ تحتَ العَجاجة نارُ
لا يَنْثَنونَ إذا هُمُ لاقَوْكُمُ ... إلَّا وَهَامُ كُمَاتِكم أعْشارُ

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة بعث المختارُ جيشاً إلى المدينة للمكْر بابن الزبير ، وهو مُظهِر له أنّه وجَّههم مَعُونَةً له لحرب الجيش الَّذي كان عبدالملك بن مروانَ وجَّهه إليه لحروبه ، فنزلوا واديَ القُرى .

ذكر الخبر عن السبب الداعي كان للمختار إلى توجيه ذلك الجيش وإلى ما صار أمرهم :

قال هشام بن محمَّد : قال أبو مخنف : حدّثني موسى بن عامر ، قال : لَّما أخرج المختارُ ابنَ مطيع من الكوفة لحقَ بالبَصرة . وكره أن يقدم ابن الزبير بمكّة وهو مهزوم مفلول ، فكان بالبَصْرة مقيماً حتّى قدم عليه عمرُ بنُ عبدالرحمن بن هشام ، فصارا جميعاً بالبصرة . وكان سبب قدوم عمرَ البصرة أنّ المختار حين ظهر بالكوفة واستجمع له الأمر وهو عند الشّيعة إنّما يدعو إلى ابن الحنفية والطلب بدماء أهل البيت ، أخذ يخادع ابنَ الزبير ويكتب إليه ، فكتب إليه : أمّا بعد ، فقد عرفتَ مُناصَحتي إيَّاك وجَهدي على أهل عَداوَتِك ، وما كنتَ أعطيتَني إذا أنا فعلتُ ذلك من نفسك فلمّا وَفَيتُ لك ، وقضيتُ الَّذي كان لكَ عليَّ ، خِسْتَ بي ، ولم تَفِ بما عاهَدْتني عليه ، ورأيت منّي ما قد رأيت ، فإن تُرد مراجعتي أراجعك ، وإن تُرد مُناصَحتي أنصح لك . وهو يريد بذلك كفَّه عنه ، حتّى يَستجْمِع له الأمر ، وهو لا يُطْلع الشّيعة على شيء من هذا الأمر ، وإذا بلغهم شيء منه أراهم أنّه أبعد الناس عن ذلك . قال: فأراد ابن الزبير أن يَعلم أسِلْم هو أم حرب ! فدعا عمر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزوميّ فقال له : تجهَّزْ إلى الكوفة فقد ولَّيناكَها ، فقال : كيف وبها المختار! قال: إنّه يزعم أنّه سامع مطيع . قال : فتجهَّزَ بما بين الثلاثين الألف درهم إلى الأربعين ألفاً ، ثم خرج مقبلاً إلى الكوفة . قال : ويجيء عينُ المختار من مكّة حتى أخبره الخبر ، فقال له : بكم تجهّز ؟ قال : بما بين الثلاثين ألفاً إلى الأربعين ألفاً . قال : فدعا المختارُ زائدةَ بنَ قدامة وقال له : احمِل معك سبعين ألفَ درهم ضِعفَ ما أنفَق هذا في مسيره إلينا وتلقّه في المَفاوِز ، واخرج معك مسافر بن سعيد بنِ نِمْران الناعطيّ في خمسمائة فارس دارع رامح ، عليهم البَيْض ، ثمَّ قل له : خذ هذه النَّفقة فإنّها ضِعف نَفقَتك ، فإنَّه قد بلغنا أنّك تجهَّزْتَ وتكلَّفت قدرَ ذلك ، فَكَرِهنا أن تغرم ، فخذها وانصرف ، فإن فعل وإلاّ فأره الخيل وقل له : إنّ وراء هؤلاء مثلهم مائة كتيبة . قال : فأخذ زائدة المال ، وأخرج معه الخيل ، وتلقَّاه بالمَفاوز ، وعرض عليه المال ، وأمَرَه بالانصراف ، فقال له : إنّ أمير المؤمنين قد ولّاني الكوفة ولا بدّ من إنفاذ أمره . فدعا زائدةُ بالخيل وقد أكمنها

في جانب ، فلّما رآها قد أقبلتْ قال : هذا الآن أعذَرُ لي وأجْمَلُ بي ، هاتِ المالَ ، فقال له زائدة : أمّا إنّه لم يبعث به إليك إلاّ لما بينك وبينه ، فدفعه إليه فأخذه ، ثم مضى راجعاً نحوَ البصرة ، فاجتمع بها هو وابنُ مطيع في إمارة الحارث بنِ عبدِالله بنِ أبي ربيعة ، وذلك قبلَ وثوب المثنَّى بن مخرِّبة العبديّ بالبَصرة .

قال أبو مخنف : فحدّثني إسماعيل بن نُعيم أنّ المختار أخبِر أنّ أهل الشام قد أقبَلوا نحو العراق ، فعرَف أنه به يُبْدَأ ، فخشي أن يأتيَه أهلُ الشام من قِبل المغرب ، ويأتيَه مصعب بن الزبير من قِبَل البَصرة ، فوادَعَ ابنَ الزبير وداراه وكايده ؛ وكان عبدُالملك بنُ مروانَ قد بعث عبدالملك بن الحارث بن الحكَم بن أبي العاص إلى وادي القرى ، والمختار لابن الزبير مكايدٌ موادع ، فكتب المختار إلى ابن الزبير :

أمّا بعد ، فقد بلغني أنّ عبدالملك بن مروانَ قد بعث إليك جيشاً ، فإن أحببتَ أن أمدّك بَمدَدَ أمددتُك .

فكتب إليه عبدُالله بنُ الزبير :

أما بعد ، فإن كنتَ على طاعتي فلستُ أكره أن تبعث الجيشَ إلى بلادي وتبايعَ لي الناس قِبلك ، فإذا أتتني بيعتُك صدّقتُ مقالتَك ، وكففتُ جنودي عن بلادك ، وعَجِّل عليَّ بتسريح الجيش الّذي أنت باعثه ، ومُرهم فليسيروا إلى مَنْ بوادي القرى من جُنْد ابن مروانَ فليقاتلوهم . والسلام .

فدعا المختارُ شُرحبيلَ بن وَرْس من هَمدانَ ، فسرّحه في ثلاثةِ آلافٍ أكثرهم الموالي ، ليس فيهم من العرب إلاّ سبعمائة رجل ، فقال له : سرْ حتّى تدخلَ المدينة ، فإذا دخلتَها فاكتب إليَّ بذلك حتّى يأتيَك أمري ؛ وهو يريد إذا دخلوا المدينة أن يبعث عليهم أميراً من قبَله ، ويأمر ابنَ ورس أن يمضيَ إلى مكّة حتّى يحاصِرَ ابنَ الزبير ويقاتلَه بمكّة ، فخرج الآخر يسير قِبَل المدينة ، وخشي ابن الزبير أن يكون المختار إنما يكيده ؛ فبعث من مكّة إلى المدينة عباس بن سَهْل بن سعد في ألفين ، وأمَرَه أن يستنفرَ الأعراب ، وقال له ابنُ الزبير : إنْ رأيتَ القومَ في طاعتي فاقبل منهم ، وإلاّ فكايِدْهم حتّى تُهلِكهم . ففعلوا ، وأقبَل عبّاس بن سهل حتّى لقي ابن ورس بالرقيم ، وقد عبّى ابن ورس أصحابَه ، فجعل على ميمنته سَلمانَ بن حِمْيَر الثَّوري من هَمْدان ، وعلى مَيْسرته عيّاش بن جَعْدة الجُدَليّ ، وكانت خيلُه كلها في الميمنة والميسرة ، فدنا فسلّم عليه ، ونزل هو يمشي في الرّجّالة ، وجاء عباس في أصحابه وهم منقطعون على غير تعبية ، فيجد ابن ورس على الماء قد عبّى أصحابه تعبية القتال ، فدنا منهم فسلّم عليهم ، ثم قال : اخلُ معي ها هنا ، فَخلا به ، فقال له : رحمك الله ! ألستَ في طاعة ابن الزبير! فقال له ابن ورس : بلى ، قال : فسرْ بنا إلى عدوّه هذا الّذي بوادي القرى ، فإنّ ابن الزبير حدّثني أنّه إنّما أشخصكم صاحبكم إليهم ، قال ابن ورس : ما أمِرت بطاعتك ، إنما أمِرت أن أسير حتى آتي المدينة ، فإذا نزلتها رأيت رأيي . قال له عبّاس بن سهل : فإن كنت في طاعة ابن الزبير فقد أمرني أن أسيرَ بك وبأصحابك إلى عدوّنا الّذين بوادي القرى ، فقال له ابن ورْس : ما أُمِرتُ بطاعتك ، وما أنا بمتّبعك دون أن أدخل المدينة ، ثم أكتب إلى صاحبي فيأمرني بأمره . فلمّا رأى عبّاس بن سهل لَجاجتَه عرف خلافَه ، فَكَرِه أن يُعلمه أنّه قد فطن له ، فقال : فرأيك أفضل ، اِعملْ بما بدا لك ؛ فأمّا أنا فإني سائر إلى وادي القرى . ثم جاء عبّاس بن سهل فنزل بالماء ، وبعث إلى ابن ورْس بجزائرَ كانت معه ، فأهداها له ، وبعث إليه بدقيق وغنم مسلَّخة ـ وكان ابن ورس وأصحابه قد هلكوا جوعاً ـ فبعث عبّاس بن سهل إلى كلّ عشرة منهم شاة ، فذبحوها ، واشتغلوا بها ، واختلطوا على الماء ، وترك القومُ تعبيتهم ، وأمِن بعضُهم بعضاً ؛ فلمّا رأى

عبَّاس بن سهل ما هم فيه من الشغل جَمَع من أصحابه نحواً من ألفِ رجل من ذوي البأس والنَّجدة ثم أقبل نحو فسطاط شُرَحبيل بن وَرْس ، فلمّا رآهم ابنُ وَرْس مُقْبلين إليه نادى في أصحابه ، فلم يَتوافَ إليه مائةُ رجل حتّى انتهى إليه عبَّاس بن سهل وهو يقول : يا شُرْطةَ الله ، إليَّ إليَّ ! قاتلوا المُحِلِّين ، أولياءَ الشيطان الرجيم ، فإنّكم على الحقّ والهدى ؛ وقد غَدَروا وفجروا .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو يوسف أنّ عبَّاساً انتهى إليهم ، وهو يقول :

أَنَـا ابن سهـل فـارسٌ غيـرُ وَكَـلْ ... ارْوَعُ مِـقْـدَام إذا الـكـبشُ نَـكَـلْ
وأَعْـتَـلِي رَأْسَ الـطِّرِمَّـاح الـبـطَلْ ... بـالسّيف يـومَ الـرَّوْع حتَّى يُنْخَـزَلْ

قال : فوالله ما اقتتلنا إلَّا شيئاً ليس بشيء حتَّى قُتل ابن ورس في سبعين من أهل الحِفاظ ، ورَفَع عبَّاسُ بن سهل رايةَ أمان لأصحاب ابن ورس ، فأتَوْها إلَّا نحواً من ثلاثمائة رجل انصرفوا مع سَلمانَ بنِ حِمير الهمداني وعياش بن جَعْدة الجدلي ، فلمّا وقعوا في يد عبَّاس بن سهل أمر بهم فقُتِلوا إلَّا نحواً من مائتي رجل ، كره ناس من النَّاس ممَّن دُفِعُوا إليهم قتلَهم ، فخلَّوا سبيلهم ، فرجعوا ، فمات أكثرُهم في الطريق ، فلمَّا بلغ المختار أمرُهُم ، ورجع مَن رجع منهم ، قام خطيباً فقال : ألا إنَّ الفُجَّار الأشرار ، قَتَلوا الأبرار الأخيار . ألا إنَّه كان أمراً مأتِيًّا ، وقضاءً مقضيًّا . وكتب المختار إلى ابن الحنفيَّة مع صالح بن مسعود الخَثْعَمِيّ :

بسم الله الرحمن الرحيم . أمَّا بعد ، فإني كنت بعثتُ إليك جنداً ليُذلّوا لك الأعداء، وليحوزُوا لك البلاد، فساروا إليك حتَّى إذا أظلُّوا على طَيْبَة ، لقيهم جندُ المُلحِد ، فخدعوهم بالله ، وغرّوهم بعهد الله ، فلمَّا اطمأنّوا إليهم ، ووَثِقوا بذلك منهم ، وثبوا عليهم فقتلوهم ، فإن رأيتَ أن أبعثَ إلى أهل المدينة مِنْ قبَلي جيشاً كثيفاً ، وتَبعثَ إليهم مِن قِبَلك رُسُلاً ؛ حتَّى يعلم أهلُ المدينة أني في طاعتك ، وإنما بعثت الجند إليهم عن أمرك ، فافعل ، فإنَّك ستجد عظمهم بحقّكم أعرَف ، وبكم أهل البيت أرأف منهم بآل الزبير الظَّلمة الملحدين ، والسلام عليك .

فكتب إليه ابنُ الحنفيَّة : أمَّا بعد ، فإنّ كتابك لَمَّا بلغني قرأتُه ، وفهمتُ تعظيمَك لحقّي ، وما تنوي به من سروري . وإنّ أحبّ الأمور كلِّها إليَّ ما أطيع الله فيه ، فأطع الله ما استطعتَ فيها أعلنتَ وأسررت ، واعلم أني لو أردت لوجدتُ الناس إليَّ سراعاً . والأعوانَ لي كثيراً ، ولكني أعتزلهم ، وأصبر حتَّى يَحكم الله لي وهو خير الحاكمين .

فأقبل صالح بنُ مسعود إلى ابن الحنفيَّة فودّعه وسلَّم عليه ، وأعطاه الكتاب وقال له : قل للمختار فليتَّق الله ، وليكفُفْ عن الدّماء ، قال : فقلت له : أصلَحَك الله ! أولم تكتبْ بهذا إليه ! قال له ابن الحنفيَّة : قد أمرتُهُ بطاعة الله ، وطاعةُ الله تَجمَع الخيرَ كلَّه ، وتَنهَى عن الشرّ كلّه . فلمَّا قَدِم كتابُه على المختار أظهر للناس أني قد أمِرتُ بأمر يجمع البرّ واليسر ، ويَضْرَح الكُفْر والغَدْر .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة قدمت الخشبية مكة ، ووافوا الحج وأميرهم أبو عبدالله الجدلي .

ذكر الخبر عن سبب قدومهم مكة :

وكان السبب في ذلك ـ فيما ذكر هشام ، عن أبي مخنف وعلي بن محمَّد ، عن مَسْلمة بن محارب ـ أنّ

عبدالله بن الزبير حبس محمد بن الحنفيَّة ومَن معه من أهل بيته وسبعة عشرَ رجلاً من وجوه أهل الكوفة بزَمْزَم ، وكرهوا البَيْعة لمن لم تجتمع عليه الأمّة ، وهربوا إلى الحَرم ، وتوعَّدهم بالقَتْل والإحراق ، وأعطى اللّهَ عهداً إن لم يبايعوا أن يُنفذ فيهم ما توعَّدهم به ، وضرب لهم في ذلك أجَلاً ، فأشار بعضُ من كان مع ابن الحنفيَّة عليه أن يبعث إلى المختار وإلى مَنْ بالكوفة رسولاً يعْلمهم حالَهم وحال من معهم ، وما توعَّدهم به ابن الزبيرُ . فوجَّه ثلاثة نفر من أهل الكوفة حين نام الحرس على باب زمزم ، وكتب معهم إلى المختار وأهل الكوفة يُعلِمهم حالَه وحالَ من معه ، وما توعدهم به ابن الزبير من القتل والتحريق بالنار ، ويسألهم ألاّ يخذلوه كما خذلوا الحسين وأهل بَيْته . فقَدِموا على المختار ، فدَفَعوا إليه الكتَاب فنادى في الناس وقرأ عليهم الكتاب وقال: هذا كتاب مهديّكم وصريحُ أهلِ بيت نبيِّكم ، وقد تُركوا محظوراً عليهم كما يُحظر على الغنم ينتظرون القتلَ والتحريق بالنار في آناء اللّيل وتارات النهار، ولستُ أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مؤزَّراً ، وإن لم أسرِّب إليهم الخيل في أثر الخيل ، كالسَّيل يتلُوه السيل ، حتَّى يَحُلّ بابن الكاهليَّة الوَيْل .

ووجَّه أبا عبدالله الجدليّ في سبعين راكباً من أهل القوّة ، ووجَّه ظَبْيان بن عمارة أخا بني تميم ومعه أربعمائة ، وأبا المعتمر في مائة ، وهانىء بن قيس في مائة ، وعُمَير بن طارق في أربعين ، ويونسَ بن عمران في أربعين ، وكتب إلى محمد بن علي مع الطُّفَيل بن عامر ومحمَّد بن قيس بتوجيه الجنود إليه ، فخرج الناسُ بعضُهم في أثر بعض ، وجاء أبو عبدالله حتَّى نزل ذاتَ عِرْق في سبعين راكباً ، ثم لحقه عمير بن طارق في أربعين راكباً ، ويونس بن عمران في أربعين راكباً ، فتموا خمسين ومائة ، فسار بهم حتى دخلوا المسجدَ الحرام ، ومعهم الكافركوبات ، وهم ينادُون : يا لَثارات الحسين ! حتَّى انتهوا إلى زمزم ، وقد أعدّ ابنُ الزبير الحَطَبَ ليحْرِقهم ، وكان قد بقي من الأجل يومان ، فطردوا الحَرَس ، وكسروا أعوادَ زمزم ، ودخلوا على ابن الحنفيَّة ، فقالوا له : خَلِّ بيننا وبين عدوّ الله ابن الزبير ، فقال لهم : إني لا أستحلّ القتال في حرم الله فقال ابن الزبير : أتحسبون أني مُخَلٍّ سبيلَهم دون أن يبايع ويبايعوا! فقال أبو عبدالله الجدَليّ : إي وَرَبِّ الرُّكْن والمقام ، وربِّ الحِلِّ والحرام ، لتخلّينّ سبيلَه أو لنجالدنَّك بأسيافنا جِلاداً يرتاب منه المُبطِلون . فقال ابن الزبير : والله ما هؤلاء إلَّا أكَلة رأس ، والله لو أذنت لأصحابي ما مضتْ ساعة حتَّى تُقطَف رؤوسهم ؛ فقال له قيس بن مالك : أما والله إني لأرجو إن رمت ذلك أن يُوصَل إليك قبل أن ترى فينا ما تحبّ . فكفَّ ابن الحنفيَّة أصحابَه وحذَّرهم الفتنة ، ثم قدم أبو المعتمر في مائة ، وهانىء بن قيس في مائة ، وظَبيان بن عُمارة في مائتين ، ومعه المال حتَّى دخلوا المسجد ، فكبَّروا : يا لَثارات الحسين ! فلمّا رآهم ابن الزبير خافَهم ، فخرج محمَّد بن الحنفيَّة ومَن معه إلى شِعب علي وهم يسبّون ابن الزبير ، ويستأذِنون ابنَ الحنفيَّة فيه ، فيأبى عليهم ، فاجتمع مع محمَّد بن علي في الشعب أربعة آلاف رجل ، فقسم بينهم ذلك المال .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة كان حصار عبدالله بن خازم مَنْ كان بخراسان من رجال بني تميم بسبب قتل من قتل منهم ابنه محمَّداً .

قال علي بن محمد : حدَّثنا الحسن بن رُشيد الجُوزَجانيّ عن الطّفَيْل بن مرداس العمّي ، قال : لمّا تفرّقتْ بنو تميم بخرَاسان أيامَ ابن خازم ، أتى قصر فَرتَنا عدّةٌ من فُرْسانهم ما بين السبعين إلى الثمانين ؛ فولَّوا أمرهم عثمان بن بشر بن المحتفز المُزَنيّ ، ومعه شُعْبة بن ظَهِير النهشلي ، وورد بن الفلق العَنبري ، وزُهَير بن ذؤيب

العدوي ، وجَيْهان بن مَشْجَعَة الضبّي ، والحجّاج بن ناشب العدَويّ ، ورقبة بن الحرّ في فُرسان بني تميم ؛ قال : فأتاهم ابن خازم ، فحصرهم وخَنْدَق خَندَقاً حصيناً . قال : وكانوا يخرجون إليه فيقاتلونه ، ثم يرجعون إلى القصر . قال : فخرج ابن خازم يوماً على تعبية من خندقه في ستّة آلاف ، وخرج أهلُ القصر إليه ، فقال لهم عثمانُ بن بشر بن المحتفز : انصرفوا اليومَ عن ابن خازم ، فلا أظنّ لكم به طاقة ، فقال زهيربنُ ذؤيب العدويّ : امرأته طالقٌ إنْ رجع حتّى ينقض صفوفهم ـ وإلى جنبهم نَهْرٌ يدخله الماء في الشتاء ، ولم يكن يومئذ فيه ماء ، فاستبطنه زهير ، فسار فيه ، فلم يشعر به أصحابُ ابن خازم حتّى حمل عليهم ، فحطّم أوّلهم على آخرهم ، واستداروا وكرّ راجعاً ، واتّبعوه على جنبتي النّهر يصيحون به : لا ينزل إليه أحد ، حتى انتهى إلى الموضع الّذي انحدر فيه ، فخرَج فحمل عليهم ، فأفرَجوا له حتّى رجع ؛ قال : فقال ابنُ خازم لأصحابه : إذا طاعنتم زهيراً فاجعلوا في رماحكم كلاليب فأعلِقوها في أداته إن قدَرتم عليه ، فخرج إليهم يوماً وفي رماحهم كلاليب قد هيؤوها له ، فطاعَنوه ، فأعلقوا في درعه أربعةَ أرماح ، فالتفَت إليهم ليَحمِل عليهم ، فاضطربت أيديهم ، فخلّوا رماحَهم ، فجاء يجرّ أربعة أرماح حتّى دخل القصر ؛ قال : فأرسل ابن خازم غَزْوان بن جَزْء العديّ إلى زهير فقال : قل له : أرأيتك إن آمنتك وأعطيتك مائةَ ألف ، وجعلتُ لك باسار طعمة تناصحني ؛ فقال زهير لغَزْوان : ويحك ! كيف أناصح قوماً قتلوا الأشعث بنَ ذؤيب ! فأسقط بها غزوان عند موسى بن عبدالله بن خازم .

قال : فلمّا طال عليهم الحصار أرسلوا إلى ابن خازم أن خَلّنا نخرج فنتفرّق ، فقال : لا إلاّ أن تنزلوا على حُكْمي ؛ قالوا : فإنا ننزل على حُكْمك ، فقال لهم زهير : ثكِلَتْكم أمّهاتكم ! والله ليقتلنّكم عن آخركم ، فإن طبتم بالموت أنفساً فموتوا كِراماً ، اخرجوا بنا جميعاً فإمّا أن تموتوا جميعاً وإمّا أن ينجوَ بعضكم ويهلكَ بعضكم ، وايمِ الله لئن شددتم عليهم شدّةً صادقة ليُفرجُنّ لكم عن مثل طريق المربَد ، فإن شئتم كنت أمامَكم ، وإن شئتم كنت خلفَكم . قال : فأبَوا عليه ، فقال : أما إني سأريكم ، ثمّ خرج هو ورقبة بن الحرّ ومع رَقبة غلام له تركيّ وشعبة بن ظَهير . قال : فحَملوا على القوم حملةً منكرة ، فأفرجُوا لهم ، فَمَضوا ؛ فأمّا زهير فرجع إلى أصحابه حتى دخل القصر فقال لأصحابه : قد رأيتم فأطيعوني ، ومضى رقبة وغلامه وشعبة ، قالوا : إن فينا من يَضعُف عن هذا ويطمع في الحياة ؛ قال : أبعدكم الله ! أتَخلَّوْن عن أصحابكم ! والله لا أكون أجزَعَكم عند الموت . قال : ففتحوا القصر ونزلوا ، فأرسل فقيّدهم ، ثم حملوا إليه رجلاً رجلاً ، فأراد أن يمنّ عليهم ، فأبى ابنُه موسى ، وقال : والله لئن عفوْت عنهم لأتّكِئنّ على سيفي حتى يخرج من ظهري ؛ فقال له عبدالله : أما والله إني لأعلم أنّ الغيّ فيما تأمرني به ، ثم قتلهم جميعاً إلاّ ثلاثة ؛ قال : أحدهم الحجّاج بن ناشب العدوي ـ وكان رمى ابن خازم وهو محاصرهُم فكسر ضرسَه ، فحلف لئن ظفر به ليقتلنّه أو ليقطعنّ يده ، وكان حَدَثاً ، فكلّمه فيه رجال من بني تميم كانوا معتزلين ؛ من عَمرو بن حنظلة ، فقال رجل منهم : ابن عمّي وهو غلام حدث جاهل ؛ هَبْه لي ، قال : فوهبه له ، وقال : النّجاء ! لا أرينّك . قال : وجيهان بن مشجعة الضّبيّ الّذي ألقى نفسَه على ابنه محمّد يوم قُتِل ، فقال ابن خازم : خلُّوا عن هذا البَغْل الدارج ، ورجل من بني سعد ، وهو الّذي قال يومَ لَحِقوا ابنَ خازم : انصرفوا عن فارس مضر . قال : وجاؤوا بزهير بن ذؤيب فأرادوا حملَه وهو مقيّد ، فأبَى وأقبلَ يحجُل حتّى جلس بين يديه ، فقال له ابن خازم : كيف شُكرك إنْ أطلقتُك وجعلتُ لكَ باسار طعمة؟ قال: لو لم تصنعْ بي إلاّ حقنَ دمي لشكرتُك ، فقام ابنه

موسى فقال : تقتل الضبع وتترك الذِّيخ ! تقتل اللبُؤة وتترك اللَّيث ! قال : وَيْحَك ! نقتل مِثلَ زهير ! مَن لقتال عدوّ المسلمين ! مَن لنساء العرب ! قال : والله لو شركتَ في دم أخي أنت لقتلتك ؛ فقام رجل من بني سُلَيم إلى ابن خازم ، فقال : أذكِّرك الله في زهير ! فقال له موسى : اتَّخذه فَحْلاً لبناتك ، فغضب ابن خازم ، فأمر بقتله، فقال له زهير : إنّ لي حاجة ، قال : وما هي؟ قال: تقتلني على حِدَة ، ولا تخلط دمي بدماء هؤلاء اللئام ، فقد نهيتُهم عمّا صنعوا وأمرتهم أن يموتوا كراماً ، وأن يخرجوا عليكم مصلتين ، وايم الله أن لو فعلوا لذَعَروا بُنَيَّك هذا ! ، وشغلوه بنفسه عن طلب الثار بأخيه فأبَوْا ، ولو فعلوا ما قتِل منهم رجل حتّى يقتل رجالاً . فأمر به فنُحِّي ناحية فقُتل .

قال مَسلمة بن محارب : فكان الأحنفُ بنُ قيس إذا ذكرهم قال : قبّح الله ابن خازم ! قتل رجالاً من بني تميم بابنه ، صبيّ وغد أحمقَ لا يُساوِي علَقاً ، ولو قتل منهم رجلاً به لكان وفّى .

قال : وزعمت بنو عديّ أنهم لما أرادوا حمل زهير بن ذؤيب أبَى واعتمد على رُمْحه وجمع رجليه فوَثب الخندق ، فلمّا بلغ الحَريشَ بن هلال قتلهم قال :

أعَاذِلَ إنّي لم أُلِمْ في قِتَالِهِمْ ... وقد عضَّ سيفي كَبْشَهُمْ ثم صمّما
أعاذلِ ما ولَّيْتُ حتى تَبَدَّدَتْ ... رجالٌ وحتّى لم أجد مُتَقَدَّمَا
أعاذلَ أَفْنَاني السلاحُ ومن يُطِلْ ... مُقَارَعَةَ الأبطالِ يرجعْ مكلّمَا
أَعَيْنيَّ إن أَنْزَفْتما الدمعَ فاسكُبَا ... دماً لازماً لي دون أن تسكُبا الدّمَا
أَبَعْدَ زهيرٍ وابنِ بشرٍ تَتَابعا ... وورد أُرَجّى في خُراسانَ مَغْنَما
أعاذلَ كم من يومِ حربٍ شهدتُه ... أَكُرُّ إذا ما فارسُ السُّوءِ أَحْجَمَا

يعني بقوله : « أبعْدَ زهير » ، زهيرَ بن ذؤيب ، وابن بشر ، عثمان بن بشر المحتفز المازني ، وورد بن الفلق العنبري ، قُتلوا يومئذ ، وقتل سليمان بن المحتفز أخو بشر .

قال أبو جعفر : وحجّ بالناس في هذه السنة عبدُ الله بنُ الزبير ، وكان على المدينة مصعب بن الزبير من قبَل أخيه عبدالله ، وعلى البصرة الحارثُ بنُ عبدالله بن أبي ربيعة ، وعلى قضائها هشامُ بن هُبيرة ، وكانت الكوفة بها المختار غالباً عليها ، وبخُراسان عبدالله بن خازم .

وفي هذه السنة شَخَص إبراهيمُ بن الأشتَر متوجِّهاً إلى عبيد الله بن زياد لحربه ، وذلك لثمانٍ بقين من ذي الحِجّة .

قال هشام بن محمّد : حدَّثني أبو مخنف ، قال : حدَّثني النَّضرُ بن صالح ـ وكان قد أدرك ذلك ـ قال : حدَّثني فُضَيل بن خَدِيج ـ وكان قد شهد ذلك ـ وغيرهما ، قالوا : ما هو إلاّ أن فرغ المختار من أهل السَّبيع وأهل الكُناسة ، فما نزل إبراهيم بن الأشتر إلاّ يومين حتّى أشخصه إلى الوجه الذي كان وجّهه له لقتال أهل الشأم ، فخرج يوم السبت لثمان بقين من ذي الحجّة سنة ستٍّ وستين، وأخرج المختارُ معه من وجوه أصحابه وفرسانهم وذوي البصائر منهم : ممّن قد شهد الحرب وجرّبها ، وخرج معه قيس بن طَهْفة النَّهديّ على ربع أهل المدينة ، وأمّر عبدالله بن حيَّة الأسديّ على ربع مَذْحِج وأسَد، وبعث الأسوَد بن جراد الكِنْديّ على رُبْع كندة

وربيعة، وبعث حبيب بن منقذ الثّوريّ من هَمْدانَ على ربع تميم وهَمْدان، وخرج معه المختار يشيّعه حتّى إذا بلغ ديرَ عبد الرحمن بن أمّ الحَكَم، إذا أصحاب المختار قد استقبلوه، قد حملوا الكرسيّ على بغل أشهب كانوا يَحمِلونه عليه، فوقفوا به على القنطرة، وصاحب أمر الكرسيّ حَوْشب البرسميّ، وهو يقول: يا ربّ عمِّرنا في طاعتك، وانصرنا على الأعداء، واذكرنا ولا تَنْسَنا واسترنا، قال: وأصحابه يقولون: آمين آمين؛ قال فُضَيل: فأنا سمعتُ ابن نَوف الهَمْداني يقول: قال المختار:

أمَا وَرَبِّ المُرْسَلاتِ عُرْفَا لَنَقْتُلَنَّ بعدَ صَفٍّ صَفَّا
وبعدَ ألفٍ قاسِطِين ألفَا

قال: فلمّا انتهى إليهم المختار وابنُ الأشتر ازدَحموا ازدحاماً شديداً على القنطرة، ومضى المختار مع إبراهيم إلى قناطر رأس الجالوت ـ وهي إلى جنب دَيْر عبدالرحمن ـ فإذا أصحاب الكرسي قد وقفوا على قناطر رأس الجالوت يَستنصِرون، فلمّا صار المختار بين قنطرة دَيْرِ عبدالرحمن وقناطر رأس الجالوت وقف، وذلك حين أراد أن ينصرف، فقال لابن الأشتر: خذ عنّي ثلاثاً: خَفِ الله في سرّ أمرِك وعلانيتِهِ، وعجّل السير، وإذا لقيتَ عدوّك فناجزهم ساعةَ تلقاهم، وإن لقيتَهم ليلاً فاستطعت ألّا تُصبح حتّى تناجِزَهم، وإن لقيتَهم نهاراً فلا تنتظر بهم الليل حتّى تحاكمَهم إلى الله. ثم قال: هل حفِظتَ ما أوصيتك بِهِ؟ قال: نعم، قال: صحبك الله؛ ثم انصرف. وكان موضع عسكر إبراهيم بموضع حمّام أعيَنَ، ومنه شخص بعسكره.

قال أبو مخنف: فحدّثني فَضيل بن خَدِيج قال: لما انصرف المختار مضى إبراهيم ومعه أصحابه حتى انتهى إلى أصحاب الكُرْسي وقد عَكَفوا حوله وهم رافعوا أيديهم إلى السماء يستنصِرون، فقال إبراهيم: اللّهم لا تؤاخذنا بما فعل السُّفهاء ـ سنّةَ بني إسرائيل، والّذي نفسي بِيَده إذ عكفوا على عِجْلهم ـ فلمّا جاز القنطرة إبراهيمُ وأصحابهُ انصرف أصحاب الكرسي.

ذكر الخبر عن سبب كرسي المختار الذي يستنصر به هو وأصحابه:

قال أبو جعفر: وكان بدءُ سببه ما حدّثني به عبدالله بن أحمد بن شبّوَيْه، قال: حدّثني أبي، قال: حدَّثني سليمان، قال: حدّثني عبدالله بن المبارك، عن إسحاقَ بن يحيى بن طلحة، قال: حدّثني معبد بن خالد، قال: حدّثني طُفَيل بن جَعْدة بن هُبيرة، قال: أعدمتُ مرّةً من الورق، فإني لكذلك إذْ خرجتُ يوماً فإذا زَيَّات جارٌ لي، له كرسيّ قد ركبه وسخٌ شديد، فخطر على بالي أن لو قلب للمختار في هذا! فرجعتُ فأرسلتُ إلى الزيّات: أرسل إليَّ بالكرسي، فأرسل إليَّ به، فأتيت المختار، فقلت: إني كنت أكتُمُك شيئاً لم أستحلّ ذلك، فقد بدا لي أن أذكره لك، قال: وما هو؟ قلت: كرسي كان جعدة بن هُبيرة يجلس عليه كأنّه يرى أن فيه أثَرة من عِلم، قال: سبحان الله! فأخّرتَ هذا إلى اليوم! ابعث إليه، ابعث إليه، قال: وقد غُسل وخرج عُود نُضَارٍ، وقد تشرّب الزيت، فخرج يَبِصّ، فجيء به وقد غُشي، فأمر لي باثني عشر ألفاً، ثم دعا: الصّلاة جامعة.

فحدّثني معبد بن خالد الجُدَلِيّ قال: انطلق بي وبإسماعيلَ بن طلحة بن عُبيد الله وشَبَث بن ربعي والناس يجرون إلى المسجد، فقال المختار: إنّه لم يكن في الأمم الخالية أمرٌ إلّا وهو كائن في هذه الأمّة مثله، وإنّه كان في بني إسرائيل التابوت فيه بقيّة ممّا ترك آلُ موسى وآلُ هارون، وإنّ هذا فينا مثل التابوت، اكشفوا

عنه ؛ فكشفوا عنه أثوابَه ، وقامت السبئيَّة فرفعوا أيديهم ، وكبَّروا ثلاثاً ، فقام شَبَث بن ربعي وقال : يا معشر مُضَر ، لا تكفُرُنّ ، فنحّوه فذبّوه وصدّوه وأخْرجوه ، قال إسحاق : فوالله إني لأرجو أنّها لشبث ، ثم لم يلبث أن قيل : هذا عبيدالله بن زياد قد نَزَل بأهل الشام باجُمَيْرا ، فخرج بالكرسي على بغل وقد غُشي ، يُمسِكه عن يمينه سبعة وعن يساره سبعة ، فقتِل أهل الشام مقتلة لم يقتلوا مثلها ، فزادهم ذلك فتنة ، فارتفعوا فيه حتى تعاطَوا الكفر ، فقلت : إنّا لله ! وندمتُ على ما صنعت ، فتكلّم الناس في ذلك ، فغُيِّب ، فلم أرَهُ بعدُ .

حدّثني عبدالله ، قال : حدّثني أبي قال : قال أبو صالح : فقال في ذلك أعْشى هَمْدان كما حدّثني غيرُ عبدالله :

شَهِدتُ عليكمْ أنّكمْ سَبئِيَّةٌ ... وإنِّي بكم يا شُرْطَةَ الشِّرْكِ عارف
وأُقْسِمُ ما كُرْسِيُّكم بسَكينةٍ ... وإن كان قد لُفَّتْ عليه اللّفائف
وأن ليس كالتابوتِ فينا وإن سَعَتْ ... شِبَامٌ حواليْهِ ونَهْدٌ وخارفُ
وإني امرؤٌ أحبَبْتُ آلَ محمدٍ ... وتابَعْتُ وحْياً ضُمِّنَتْهُ المَصاحَفُ
وتابَعْتُ عبدَ الله لمّا تتابعَتْ ... عليه قريشٌ : شُمْطها والغطَارِفُ

وقال المتوكِّل اللَّيثيّ :

أبْلِغْ أبا إسحاقَ إنْ جِئتَه ... أنِّي بِكُرْسِيِّكمْ كافِرُ
تَنزُو شِبَامٌ حولَ أعوادِهِ ... وتحمِلُ الوحْيَ له شاكرُ
محمَّرةً أعيُنُهمْ حولَهُ ... كأنّهنّ الحِمّص الحادرُ

فأمّا أبو مخنف : فإنّه ذكر عن بعض شيوخه قصّةَ هذا الكرسي غير الّذي ذكره عبدالله بن أحمد بالإسناد الّذي حدّثنا به ، عن طفيل بن جعدة . والّذي ذكر من ذلك ما حُدّثنا به ، عن هشام بن محمّد ، عنه ، قال : حدّثنا هشام بن عبدالرحمن وابنه الحَكَم بن هشام ، أنّ المختار قال لآل جعدة بن هُبَيرة بن أبي وهب المخزومي ـ وكانت أمّ جعدة أمّ هانىء بنت أبي طالب أخت علي بن أبي طالب عليه السلام لأبيه وأمّه : ائتوني بكرسيّ علي بن أبي طالب ؛ فقالوا : لا والله ما هو عندنا ، وما ندري مِنْ أين نجيء به ! قال : لا تكونُنّ حَمقى ، اذهبوا فأتوني به ، قال : فظنّ القوم عند ذلك أنّهم لا يأتون بكرسيّ ، فيقولون : هو هذا إلّا قَبِله منهم ، فجاؤوا بكرسي فقالوا : هو هذا فقبِله ، قال : فخرجتْ شبامٌ وشاكر ورؤوس أصحاب المختار وقد عَصّبُوه بالحرير والدِّيباج .

قال أبو مخنف ، عن موسى بن عامر أبي الأشعر الجُهَنيّ : إنّ الكرسيّ لمّا بلغ ابن الزبير أمْرُه قال : أين بعضُ جَنادِبة الأزْد عنه !

قال أبو الأشعر : لمّا جيء بالكرسي كان أوّل من سَدَنَه موسى بن أبي موسى الأشعري ، وكان يأتي المختار أوّل ما جاء ويحفّ به ، لأنّ أمّه أمّ كلثوم بنت الفضل بن العبّاس بن عبدالمطّلب . ثمّ إنّه بعد ذلك عُتب عليه فاستحيا منه ، فدَفَعه إلى حَوْشب البُرْسُميّ ، فكان صاحبه حتى هلك المختار . قال : وكان أحد عمومة الأعشى رجلاً يُكْنى أبا أمامة يأتي مجلس أصحابه فيقول : قد وُضع لنا اليوم وحيٌ ما سَمع الناسُ بمثله ، فيه نبأ ما يكونُ من شيء .

قال أبو مخنف : حدّثنا موسى بن عامر أنّه إنّما كان يصنع ذلك لهم عبـدالله بن نوف ، ويقـول : المختار أمرَني به ، ويتبرّأ المختار منه .

ثم دخلت سنة سبع وستين

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك مقتل عُبيد الله بنِ زياد ومن كان معه من أهل الشام .

ذكر الخبر عن صفة مقتله :

ذكر هشام بنُ محمَّد ، عن أبي مخنف ، قال : حدّثني أبو الصّلت ، عن أبي سعيد الصَّيْقَل ، قال : مضينا مع إبراهيم بن الأشتر ونحن نريد عُبيدَالله بن زياد ومَنْ معه من أهل الشام ، فخرجنا مُسْرعين لا نَنْثني ، نريد أن نلقاه قبل أن يدخل أرضَ العراق . قال : فسبقناه إلى تُخوم ِ أرض العراق سَبْقاً بعيداً ، ووغلنا في أرض المَوْصل ، فتعجَّلنا إليه ، وأسرَعْنا السير ، فنلقاه بخَازَر إلى جنب قرية يقال لها باربيثا ، بينها وبين مدينة المَوْصِل خمسة فراسخ ، وقد كان ابن الأشتر جعل على مقدّمته الطفيلَ بن لَقيط ؛ من وهْبيل من النَّخع (رجلاً من قومه) ، وكان شجاعاً بئيساً ، فلمّا أن دنا من ابن زياد ضمّ حميد بن حُريث إليه ، وأخذ ابن الأشتر لا يسير إلاّ على تعبية ، وضمّ أصحابه كلّهم إليه بخيله ورجاله ، فأخذ يسير بهم جميعاً لا يفرّقهم ، إلاّ أنّه يبعث الطُّفيل بن لقيط في الطَّلائع حتّى نزل تلك القرية .

قال : وجاء عبيدالله بن زياد حتّى نزل قريباً منهم على شاطىء خازَر . وأرسل عميرُ بن الحُباب السلميّ إلى ابن الأشتر : إني معك ، وأنا أريد الليلة لقاءك ، فأرسل إليه ابن الأشتر : أن القِني إذا شئت ؛ وكانت قيس كلُّها بالجزيرة ، فهم أهلُ خلاف لمروان وآل ِ مروان ، وجندِ مروان يومئذ كلبٌ وصاحبهم ابن بَحْدل . فأتاه عُمَير ليلاً فبايعه ، وأخبره أنه على ميسرة صاحبه ، وواعده أن ينهزم بالنّاس ، وقال ابن الأشتر : ما رأيُك؟ أخندِق عليّ وأتلوّم يومين أو ثلاثة؟ قال عمير بن الحُباب : لا تفعل ، إنّا لله! هل يريد القومُ إلاّ هذه ! إنْ طاولوك وماطلوك فهو خير لهم ، هم كثيرٌ أضعافكم ، وليس يطيق القليلُ الكثير في المطاولة ؛ ولكن ناجز القوم فإنّهم قد مُلِئوا منكم رُعْباً ، فأتِهم فإنّهم إن شاموا أصحابك وقاتلوهم يوماً بعد يوم ، ومرَّة بعد مرّة أنِسوا بهم ، واجترؤوا عليهم؛ قال إبراهيم : الآن علمتُ أنّك لي مناصح ، صدقتَ ، الرأي ما رأيت ، أما إنّ صاحبي بهذا أوصاني ، وبهذا الرأي أمرَني . قال عمير : فلا تعدون رأيه ، فإن الشيخ قد ضرّسته الحروب ، وقاسى منها ما لم نُقاس ، أصبح فناهِض الرجل .

ثم إن عميراً انصرف ، وأذكَى ابن الأشتر حَرَسه تلك اللّيلة اللّيل كلَّه ، ولم يدخل عينه غمْض ، حتّى إذا كان في السحر الأوّل عَبّى أصحابه ، وكتّب كتائبه ، وأمّر أمراءَه . فبعث سُفْيان بن يزيد بن المُغَفَّل الأزديّ

على ميمنته ، وعلي بن مالك الجُشمي على ميسرته ، وهو أخو أبي الأحوص . وبعث عبدالرحمن بن عبدالله ـ وهو أخو إبراهيم بن الأشتر لأمّه ـ على الخيل ، وكانت خيلُه قليلةً ، فضمَّها إليه ، وكانت في الميمنة والقلب ، وجعل على رجّالته الطُّفَيل بن لقيط ، وكانت رايتُهُ مع مزاحم بن مالك . قال : فلمّا انفجر الفجر صلّى بهم الغداة بغَلَس ، ثم خرج بهم فصفَّهم ، ووضع أمراء الأرباع في مواضعهم ، وألحق أميرَ الميمنة بالميمنة ، وأميرَ الميسرة بالميسرة ، وأمير الرّجالة بالرّجّالة ، وضمّ الخيل إليه ، وعليها أخوه لأمّه عبدالرحمن بن عبدالله ، فكانت وَسَطاً من الناس ، ونزل إبراهيمُ يمشي ، وقال للناس : اِزحَفوا ، فَزَحَف الناسُ معه على رِسْلِهم رُوَيداً رويداً حتّى أشرف على تلّ عظيم مُشرِف على القوم ، فجلس عليه ، وإذا أولئك لم يتحرّكْ منهم أحد بعدُ ـ فسرّح عبدُالله بن زهير السَّلولي وهو على فرس له يتأكّل تأكُّلًا ، فقال : قرِّبْ عليَّ فرسك حتّى تأتيني بخبر هؤلاء ، فانطلق ، فلم يلبث إلّا يسيراً حتّى جاء ، فقال : قد خرج القومُ على دَهَش وفَشَل ، لقيَني رجل منهم فما كان له هِجّيرَى إلّا يا شيعةَ أبي تُرَاب ، يا شيعةَ المختار الكذّاب! فقلت : ما بيننا وبينكم أجلُّ من الشّتم ، فقال لي : يا عدوَّ الله ، إلامَ تدعوننا! أنتم تقاتلون مع غير إمام ، فقلت له : بل يا لثارات الحسين ، ابن رسول الله! ادفعوا إلينا عُبيدَالله بن زياد ؛ فإنّه قتَل ابنَ رسول ِ الله وسيِّد شباب أهل الجنَّة حتّى نقتله ببعض موالينا الّذِين قَتلَهم مع الحسين ، فإنّا لا نراه لحسين نِدًّا فَنَرْضى أن يكون منه قَوَداً ، وإذا دفعتُموه إلينا فقتلناه ببعض ِ موالينا الَّذِين قتلهم جعلْنا بيننا وبينكم كتاب الله ، أو أيَّ صالح من المسلمين شئتم حَكَماً ، فقال لي : قد جرّبناكم مرّة أخرى في مِثل هذا ـ يعني الحَكَمَين ـ فَغدرتم ، فقلت له : وما هو؟ فقال : قد جعلنا بيننا وبينكم حَكَمين فلم ترضَوْا بحُكْمهما ؛ فقلت له : ما جئت بِحجَّة ، إنّما كان صلحنا على أنّهما إذا اجتمعا على رجل تبعنا حكمهما ، ورضينا به وبايعناه ، فلم يجتمعا على واحد ، وتفرّقا ، فكِلاهما لم يوفِّقْه الله لخيرولم يسدّده ، فقال : مَنْ أنت ؟ فأخبرته ؛ فقلت له : من أنت؟ فقال : عَدَسْ ـ لبَغْلته يزجرها ـ فقلت له : ما أنصفْتني ، هذا أوّل غَدْرِك !

قال : ودعا ابن الأشتر بفرس له فركبه ، ثمّ مرّ بأصحاب الرّايات كلّها ، فكلّما مرّ على راية وقف عليها ، ثم قال : يا أنصار الدِّين ، وشيعةَ الحق ، وشرْطة الله ، هذا عُبيدالله بن مَرْجانَة قاتل الحسين بن علي ، ابن فاطمة بنت رسول الله ، حالَ بينه وبين بناته ونسائه وشيعته وبين ماء الفرات أن يَشرَبوا منه ، وهم ينظرون إليه ، ومَنَعه أن يأتيَ ابن عمِّه فيصالحَه ، ومَنَعه أن ينصرف إلى رَحْله وأهلِه ، ومنعه الذّهَابَ في الأرض العريضة حتّى قتله وقتَلَ أهْلَ بيته ؛ فوالله ما عَمِل فرعون بُنَجباء بني إسرائيل ما عَمِل ابن مَرْجانة بأهل ِ بيتِ رسول ِ الله ﷺ الّذِين أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيراً . قد جاءكم الله به ، وجاءه بكم ، فوالله إني لأرجو ألّا يكون الله جمع بينكم في هذا الموطن وبينه إلّا ليشفي صدوركم بسفك دمه على أيديكم ، فقد علم الله أنّكم خرجتم غَضَباً لأهل بيت نبيِّكم . فسار فيما بين الميمنة والميسرة ، وسار في الناس كلّهم فرغّبهم في الجهاد ، وحرّضهم على القتال ، ثم رجع حتى نزل تحت رايته ، وزحف القوم إليه ، وقد جعل ابنُ زياد على ميمنته الحُصَين بن نمير السَّكُوني ، وعلى ميسرته عُمَير بن الحُباب السُّلَميّ ، وشُرَحبيل بن ذي الكَلَاع على الخيل وهو يمشي في الرجال ، فلمّا تدانَى الصفّان حمل الحُصَين بن نُمير في ميمنة أهل الشام على ميسرة أهل الكوفة ، وعليها علي بن مالك الجُشَميّ ؛ فثبت له هو بنفسه فقتِل ، ثم أخذ رايته قُرَّةُ بن علي ، فَقَال أيضاً في رجال ٍ من أهل الحفاظ قتِلُوا وانهزمت الميسرة ، فأخذ رايَة علي بن مالك الجُشَميّ عبدُالله بن ورقاء بن جُنادة السَّلوليّ ابن أخي حُبْشي بن جُنادة صاحب رسول الله ﷺ ، فاستقبل أهل الميسرة حين انهزموا ، فقال : إليَّ يا

شُرطة الله ؛ فأقبلَ إليه جُلُّهم ، فقال : هذا أميركم يقاتل ، سِيرُوا بنا إليه ، فأقبل حتّى أتاه وإذا هو كاشفٌ عن رأسه يُنادِي : يا شُرطة الله ، إليَّ أنا ابن الأشتر ! إنّ خيرَ فُرّارِكم كُرّاركم ، ليس مُسيئاً من أعتَبَ . فثابَ إليه أصحابه ، وأرسل إلى صاحب الميمنة : احمل على ميسرتهم ـ وهو يرجُو حينئذٍ أن ينهزم لهم عُمَير بن الحُباب كما زعم ، فحمل عليهم صاحبُ الميمنة ، وهو سُفْيان بن يزيد بن المغفَّل ، فثبت له عُمَير بن الحباب وقاتَلَه قتالاً شديداً ، فلما رأى إبراهيم ذلك قال لأصحابه : أمُّوا هذا السواد الأعظم ، فوالله لو قد فَضَضناه لا نجفل مَن ترون منهم يمنةً ويَسْرة انجفالَ طير ذعرتها فطارت .

قال أبو مخنف : فحدّثني إبراهيمُ بنُ عبدالرحمن الأنصاري ، عن ورقاءَ بن عازب ، قال : مشيْنا إليهم حتَّى إذا دَنَوْنا منهم اطّعَنَّا بالرماح قليلاً ، ثم صرنا إلى السيوف والعَمَد ، فاضطربنا بها مليًّا من النهار ، فوالله ما شبَّهْتُ ما سمعتُ بيننا وبينهم من وقْع الحديد على الحديد إلاَّ مَيَاجِنَ قَصَّارِي دار الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيط قال : فكان ذلك كذلك ، ثم إن الله هزَمَهم ، ومَنَحَنا أكتافَهمْ .

قال أبو مخنف : وحدّثني الحارث بن حَصِيرة ، عن أبي صادق أنّ إبراهيم بن الأشتر كان يقول لصاحب رايته : انغمس بِرَايَتك فيهم ، فيقول له : إنَّه ـ جُعلت فِداك ـ ليس لي مُتقدَّم ، فيقول : بلى ، فإنّ أصحابك يقاتلون ؛ وإنّ هؤلاء لا يَهْربون إن شاء الله ؛ فإذا تقدّم صاحبُ رايته برايته شدَّ إبراهيمُ بسيفه فلا يضرب به رجلاً إلاَّ صرعه . وكَرَد إبراهيم الرجال من بين يديه كأنَّهم الحُمْلان ، وإذا حمل برايته شدّ أصحابُه شدّةَ رجل واحد .

قال أبو مخنف : حدّثني المشرقيّ أنَّه كان مع عبيدالله بن زياد يومئذ حديدةٌ لا تُليق شيئاً مرّت به ، وأنه لمَّا هُزِم أصحابه حمل عُيَيْنَةُ بن أسماء أختَه هند بنت أسماءَ ـ وكانت امرأة عُبيدِ الله بن زياد ـ فذهب بها وأخذ يرتجز ويقول :

إنْ تَـصْـرِمـي حِبَـالَـنَـا فَـرُبـمـا أَرْدَيْتُ في الهَيْجَـا الكَمِيَّ المُعلمـا

قال أبو مخنف : وحدّثني فُضَيل بن خَدِيج أنّ إبراهيم لمَّا شدّ على ابن زياد وأصحابه انهزموا بعد قتال شديد وقتلَى كثيرة بين الفَريقين ، وأنّ عُمير بن الحُباب لمَّا رأى أصحابَ إبراهيم قد هَزموا أصحابَ عبيدالله بعث إليه : أجيئك الآن؟ فقال : لا تأتيني حتّى تسكن فورةُ شُرطة الله ، فإني أخاف عليك عادِيَتَهم .

وقال ابن الأشتر : قتلت رجلاً وجدتُ منه رائحة المسك ، شَرّقتْ يداه وغرّبت رجلاه ، تحتَ راية منفردة ، على شاطىء نهر خازَرَ . فالتمسوه فإذا هو عُبيدالله بن زياد قتيلاً ، ضربه فقدَّهُ بنصفين ، فذهبت رجلاه في المشرق ، ويداه في المغرب . وحمل شريك بن جدير التَّغلبيّ على الحصين بن نُمَير السَّكونيّ وهو يَحسبه عُبيدالله بن زياد ، فاعتنق كلّ واحد منهما صاحبه ، ونادى التغلبي : اقتلوني وابن الزانية ؛ فقتِل ابن نُمَير .

وحدّثني عبدالله بن أحمد ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني سليمان ، قال : حدّثني عبدالله بن المبارك ، قال : حدّثني الحسن بن كثير ، قال : كان شريك بن جدير التغلبي مع علي عليه السلام ، أُصيبتْ عينه معه ، فلمَّا انقضت حربُ علي لحِق ببيتِ المقدس ، فكان به ، فلمَّا جاءه قتلُ الحسين ،

قال : أعاهِدُ الله إن قدرت على كذا وكذا ـ يَطلُب بدم الحسين ـ لأقتلنّ ابنَ مرجانة أو لأموتنّ دونَه . فلمَّا بلغه أنَّ المختار خرج يَطلُب بدم الحسين أقبل إليه . قال : فكان وجَّهه مع إبراهيم بن الأشتر ، وجُعِل على خيل ربيعة ، فقال لأصحابه : إنِّي عاهدتُ الله على كذا وكذا ، فبايعه ثلاثمائة على الموت ، فلمَّا التقَوا حَمَل فجعل يَهتِكها صفًّا صفًّا مع أصحابه حتَّى وصلوا إليه ، وثار الرَّهَج فلا يُسمعَ إلا وقع الحديد والسيوف ، فانفرجت عن الناس وهما قتيلان ليس بينهما أحد ؛ التَّغلَبيّ وعبيدُالله بن زياد ؛ قال : وهو الَّذِي يقول :

كـلُّ عـيش قـد أرَاهُ قـذِراً غيْر رَكز الـرمح ِ في ظـلّ الفَـرَسْ

قال هشام : قال أبو مخنف : حدّثني فُضَيل بن خديج ، قال : قتِل شرحبيل بن ذِي الكَلاع ، فادّعى قتلَه ثلاثة : سُفْيان بن يزيد بن المغفَّل الأزْديّ ، وورقاء بن عازب الأسَديّ ، وعُبيد الله بن زُهَير السُّلميُّ . قال : ولمَّا هُزم أصحاب عبيدالله تبعهم أصحابُ إبراهيمَ بن الأشتر ، فكـانَ مَنْ غرق أكثـر مِمَّن قتل ، وأصابوا عسكرهم فيه من كلّ شيء ، وبلغ المختار وهو يقول لأصحابه : يأتيكم الفتح أحدَ اليومين إنْ شاء الله من قِبَل إبراهيم بن الأشتر وأصحابِهِ ، قد هزموا أصحابَ عُبيد الله بن مَرْجانة . قال : فخرج المختار من الكوفة ، واستخلف عليها السائبَ بنَ مالك الأشعري ، وخرج بالناس ، ونزل ساباطَ .

قال أبو مخنف : حدّثني المشرقيّ ، عن الشعبي ، قال : كنت أنا وأبي مِمَّن خرج معه ، قال : فلمَّا جُزْنا ساباطَ قال للنَّاس : أبشروا فإنّ شرْطة الله قد حسُّوهم بالسيوف يوماً إلى اللَّيل بنَصيبينَ أو قريباً من نصيبين ودُوَينَ منازلهم ، إلاَّ أنّ جلَّهم محصور بنصيبين . قال : ودخلْنا المدائن ، واجتمعْنا إليه ، فصعِد المنبَر ، فوالله إنَّه ليخطبنا ويأمرنا بالجدّ وحسْن الرأي والاجتهاد والثبات على الطاعة ، والطلب بدماء أهلِ البيت عليهم السلام ، إذ جاءتْه البشرى تَتْرَى يَتْبع بعضُها بعضاً بِقَتْل عبيدالله بن زياد وهزيمة أصحابه ، وأخذ عسكره ، وقتل أشراف أهل الشام ، فقال المختار : يا شُرطة الله ، ألم أبشِّركم بهذا قبل أن يكون ! قالوا : بلى والله لقد قلت ذلك ؛ قال : فيقول لي رجل من بعض جيراننا من الهَمْدانيين : أتؤمن الآن يا شعبي؟ قال: قلت بأيّ شيء أومن؟ أومن بأنّ المختار يعلَم الغيْب! لا أومن بذلك أبداً . قال : أولم يقل لنا : إنَّهم قد هُزِموا! فقلتُ له : إنَّما زعم لنا أنَّهم هُزِموا بنصيبينَ من أرض الجزيرة ، وإنَّما هو بخازَرَ من أرض الموصل ، فقال : والله لا تؤمن يا شعبي حتى ترى العذاب الأليم ؛ فقلت له : مَن هذا الهَمْداني الَّذِي يقول لك هذا؟ فقال: رجل لعمري كان شجاعاً ـ قتل مع المختار بعد ذلك يوم حَرُورَاء ـ يقال له : سَلْمان بن حمير من الثوريِّين من هَمْدان ؛ قال : وانصرف المختار إلى الكوفة ، ومضى ابن الأشتر من عسكره إلى الموصل ، وبعث عمَّالَه عليها ، فبعث أخاه عبدالرحمن بن عبدالله على نصيبين ، وغلب على سِنْجار ودَارَا ، وما والاها من أرض الجزيرة ، وخرج أهلُ الكوفة الَّذِين كـان المختار قـاتَلَهم فهزمهم ، فَلحقوا بِمُصعَب بن الزبير بالبَصرة . وكان فيمن قدم على مصعب شبَث بن رِبْعيّ ، فقال سُراقةُ بن مِرْداس البارقيّ يمدح إبراهيمَ بن الأشتر وأصحابَه في قتل عُبيد الله بن زياد :

أتَـاكمْ غُـلامٌ من عَـرَانينِ مـذْحِـجٍ جـريٌّ على الأعـداءِ غَيـرُ نكُـولِ
فَيَـابن زِيـادٍ بـؤْ بـأعْـظم مَـالـكٍ وذُقْ حَـدّ مـاضي الشَّفْـرَتَيْن صَقِيـلِ

ضَـرَبْنـاك بـالعَضْب الحُسَام بجِـدَّةٍ إِذَا مـا أَبـأْنَـا قـاتِـلاً بِـقَـتِـيـل
جـزى الله خيـراً شُـرْطَـة الله إِنَّهُمْ شَـفَـوْا مِنْ عُـبَيْـد الله أَمْسِ غَـلِيلي

وفي هذه السنة عمل عبدُالله بنُ الزبير القُباعَ عن البصرة ، وبعث عليها أخاه مصعبَ بن الـزبير ؛ فحَدّثني عمرُ بنُ شَبَّة ، قال : حدّثني علي بن محمد ، قال : حدّثنا الشَّعبي ، قال : حدّثني وافد بن أبي ياسر ، قال : كان عمرو بن سرح مولَى الزبير يأتينا فيحدّثنا ، قال : كنتُ والله في الرّهط الّذِين قَدِموا مع المصعب بن الزّبير من مكّة إلى البَصْرة ؛ قال : فقدم متلثّماً حتّى أناخ على باب المسجد ، ثمّ دخل فصَعِد المنبر ، فقال الناسُ : أمير أمير . قال : وجاء الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة ـ وهو أميرها قبله ـ فسفَر المصعب فعرفوه ، وقالوا : مصعب بن الزبير ! فقال : للحارث : اظهر اظهَرْ ، فصعدَ حتّى جلس تحته من المنبر درجة ؛ قال : ثم قام المصعب فحَمِد الله وأثنَى عليه . قال : فوالله ما أكثر الكلام ، ثم قال : بِسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ طسٓمٓ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[1] ـ وأشار بيده نحو الشام ـ ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾[1] ـ وأشار بيده نحو الحجاز ـ ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[1] ـ وأشار بيده نحو الشام .

حدثني عمر بن شَبَّة ، قال : حدّثني علي بن محمد ، عن عوانة ، قال : لما قدم مصعب البَصرة خَطَبَهم فقال : يا أهل البصرة ، بلغني أنّكم تلقّبون أمراءكم ، وقد سمَّيْتُ نفسي الجَزّار .

وفي هذه السنة سارَ مصعبُ بنُ الزبير إلى المختار فقَتَله .

ذكر الخبر عن سبب مسير مصعب إليه والخبر عن مقتل المختار :

قال هشام بن محمَّـد ، عن أبي مخنف ، حدّثني حبيب بن بـديل ، قـال : لمَّا قـدم شَبَث على مُصعب بن الزّبير البصرة وتحته بَغْلة له قد قطع ذَنَبها ، وقَطَع طرف أُذُنها وشقّ قَباءه ، وهو ينادي : يا غوثاه يا غوثاه! فأتِيَ مصعب ، فقيل له : إنّ بالباب رجلاً ينادي : يا غَوْثَاه يا غَوْثاه ! مشقوق القَباء ، مِنْ صفته كذا وكذا ، فقال لهم : نعم ، هذا شَبَث بن رِبْعيّ لم يكن ليفعَل هذا غيره ، فأدخلوه ، فأدخل عليه ، وجاءه أشراف الناس من أهل الكوفة فدخلوا عليه ، فأخبروه بما اجتمعوا له ، وبما أصيبوا به ووثوب عبيـدهم ومواليهم عليهم ، وشَكَوْا إليه ، وسألوه النُّصْر لهم ، والمسيرَ إلى المختار معهم . وقَدِم عليهم محمَّد بن الأشعث بن قيس ـ ولم يكن شَهِد وقعةَ الكوفة ، كان في قَصْر له مِمَّا يلي القادسيَّة بطِيزَنَابَاذَ ـ فلمَّا بلغه هزيمةُ الناس تهيَّأ للشخوص ، وسأل عنه المختار ، فأخبر بمكانه ، فسرّح إليه عبدالله بن قراد الخثعمي في مائة ، فلمّا ساروا إليه ، وبلغه أن قد دَنوا منه ، خرج في البرّيّة نحو المصعب حتّى لحق به ، فلمّـا قدم على المصعب استحثّه بالخروج ، وأدناه مصعب وأكـرَمه لشَـرَفه . قـال : وبعث المختار إلى دار محمَّـد بن الأشعث فَهَدَمها .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو يوسف بن يزيد أنّ المصعب لما أراد المسيرَ إلى الكوفة حين أكثرَ الناسُ

(١) سورة القصص : ١ ـ ٦ .

عليه ، قال لمحمد بن الأشعث : إني لا أسير حتّى يأتيني المهلب بن أبي صُفْرة . فكتب المصعب إلى المهلب ـ وهو عاملُه على فارس : أن أقبِلْ إلينا لتشهدَ أمْرنا ، فإنا نريد المسيرَ إلى الكوفة . فأبطأ عليه المهلّب وأصحابه ، واعتلّ بشيء من الخراج ، لكراهة الخروج ، فأمر مصعب محمد بن الأشعث في بعض ما يستحثه أن يأتيَ المهلب فيقبِلَ به ، وأعلَمَه أنه لا يشخص دون أن يأتي المهلب ؛ فذهب محمد بن الأشعث بكتاب المصعب إلى المهلب ، فلما قرأه قال له : مثلك يا محمد يأتي بَريداً! أما وَجَدَ المصعبُ بريداً غيرَك ! قال محمد : إني والله ما أنا ببريد أحد ، غير أنَّ نساءنا وأبناءنا وحَرَمَنا غَلَبَنا عليهم عِبدانُنا وموالينا . فخرج المهلب ، وأقبل بجموع كثيرة وأموال عظيمة معه في جموع وهيئة ليس بها أحد من أهل البصرة . ولمّا دخل المهلّب البصرة أتى باب المصعب ليدخل عليه وقد أذن للناس ، فحجَبَه الحاجب وهو لا يعرفه ، فرفع المهلّب يده فكسر أنفَه ، فدخل إلى المُصعب وأنفُه يسيل دماً ، فقال له : مالك؟ فقال : ضَرَبَني رجل ما أعرفه ، ودخل المهلب فلما رآه الحاجب قال : هو ذا ، قال له المصعب : عُدْ إلى مكانك ، وأمر المصعب الناسَ بالمعسكر عند الجسر الأكبر ، ودعا عبدالرحمن بن مخنف فقال له : إئتِ الكوفةَ فأخرج إليَّ جميعَ من قدرتَ عليه أن تُخرجه ، وادعهم إلى بيعتي سرًّا ، وخَذِّل أصحَاب المختار ، فانسلّ من عنده حتى جلس في بيته مستتراً لا يَظهَر ، وخرج المصعب فقدّم أمامَه عَبّاد بن الحصين الحَبَطيّ من بني تميم على مقدّمته ، وبعث عمر بن عُبيدِالله بن مَعمر على ميمنته ، وبعث المهلب بن أبي صفرة على ميسرَته ، وجعل مالك بن مِسمع على خمس بكر بن وائل ، ومالك بن المنذر على خمس عبدالقيس ، والأحنف بن قيس على خمس تميم وزياد بن عمرو الأزديّ على خمس الأزْد ، وقيس بن الهيثم على خمس أهل العالية ؛ وبلغ ذلك المختار ، فقام في أصحابه فحَمِد الله وأثْنى عليه ثم قال :

يا أهل الكوفة ، يا أهلَ الدّين ، وأعوانَ الحقّ ، وأنصارَ الضّعيف ، وشيعةَ الرّسول ، وآل الرسول ، إنّ فُرَّارَكم الذين بَغَوا عليكم أتوا أشباهَهم من الفاسقين فاستغوُوهم عليكم ليمصَح الحق ، وينتعش الباطل ، ويقتل أولياء الله ، والله لو تهلكون ما عُبِدالله في الأرض إلّا بالفرْي على الله واللعن لأهل بيت نبيّه انتدبوا مع أحمر بن شُمَيط فإنكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم إن شاء الله قَتلَ عاد وإرَمٍ .

فخرج أحمرُ بن شُمَيط ، فعسكر بحَمّام أعين ، ودعا المختار رؤوسَ الأرباع الذين كانوا مع ابن الأشتر ، فبعثهم مع أحمر بن شُميط ، كما كانوا مع ابن الأشترِ ، فإنهم إنما فارقوا ابنَ الأشتر ؛ لأنهم رأوه كالمتهاون بأمرِ المختار ، فانصرفوا عنه ، وبَعَثهم المختار مع ابن شُميط ، وبعث معه جيشاً كثيفاً ، فخرج ابن شميط ، فبعث على مقدّمته ابن كامل الشاكري ، وسار أحمر بن شميط حتى ورد المَذار ، وجاء المصعب حتى عسكر منه قريباً .

ثم إنّ كلّ واحد منهما عبّى جنده . ثم تَزاحَفا فجعل أحمر بن شُمَيط على ميمنته عبدَالله بن كامل الشاكرِيّ ، وعلى ميسرته عبدَالله بن وهب بن نَضْلة الجشمي ، وعلى الخيل رزين عبدالسلولي ، وعلى الرجّالة كثير بن إسماعيل الكِنْديّ ـ وكان يوم خازَرَ مع ابن الأشتر ـ وجعل كيسان أبا عَمرةَ ـ وكان مولًى لعُرَينة ـ على الموالي ، فجاء عبدُالله بنُ وهب بن أنس الجُشَميّ إلى ابن شُمَيط وقد جعله على ميسرته ، فقال له : إنَّ المواليَ والعَبيدَ آلُ خَوَر عند المصدوقة ، وإنَّ معهم رجالًا كثيراً على الخيل ، وأنت تمشي ،

فمُرْهم فلينزلوا معك ، فإنَّ لهم بك أسوةً ، فإني أتخوَّف إن طُورِدوا ساعةً ، وطُوعِنوا وضُوربوا أن يطيروا على متونها ويُسلِموك ، وإنك إن أرجلتهم لم يجدُوا من الصبر بُدًّا ، وإنما كان هذا منه غِشًّا للموالي والعبيد ، لما كانوا لقوا منهم بالكوفة ، فأحبَّ إن كانت عليهم الدَّبْرَة أن يكونوا رجالاً لا ينجو منهم أحد ، ولم يتهمه ابنُ شميط ، وظنّ أنه إنما أراد بذلك نُصحَه ليصبروا ويُقاتِلوا ، فقال : يا معشر الموالي ، اِنزلوا معي فقاتِلوا ، فنَزَلوا معه ، ثم مَشَوْا بين يديه وبين يدَيْ رايته ، وجاء مصعب بن الزبير وقد جعل عَبّاد بن الحصين على الخيل ، فجاء عبّاد حتى دنا من ابن شميط وأصحابه فقال: إنّما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وإلى بَيعة أمير المؤمنين عبدِالله بن الزبير ؛ وقال الآخرون : إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وإلى بيعة الأمير المختار وإلى أن نجعل هذا الأمرَ شورَى في آل الرسول ، فَمن زعم من الناس أنّ أحداً ينبغي له أن يتولّى عليهم برئنا منه وجاهدناه . فانصرف عبّاد إلى المُصعب فأخبره ، فقال له : ارجع فاحمل عليهم ، فرجع فحمَلَ على ابن شميط وأصحابه فلم يزُل منهم أحدٌ ، ثم انصرف إلى موقفه وحمل المهلّب على ابن كامل ، فجال أصحابه بعضُهم في بعض ، فنزل ابنُ كامل ، ثمّ انصرف عنه المهلّب ، فقام مكانَه ، فوقفوا ساعةً ثم قال المهلب لأصحابه : كرُّوا كَرَّةً صادقة ، فإنّ القَوم قد أطمَعوكم ، وذلك بجَوْلَتِهم التي جالوا ، فحمل عليهمْ حَمْلةً منكَرةً فولّوا ، وصبر ابنُ كامل في رجال مِن هَمْدانَ ، فأخذ المهلَّب يَسْمَع شِعارَ القوم : أنا الغلامُ الشاكِريّ ، أنا الغلام الشِّبامي ، أنا الغلام الثَّوريّ ، فما كان إلاّ ساعةً حتَّى هُزموا ، وحمل عمرُ بن عبيدِالله بنِ مَعمر على عبدِالله بن أنس ، فقاتل ساعةً ثمّ انصرف ، وحملَ الناسُ جميعاً على ابن شُمَيط ، فقاتل حتَّى قُتِل ، وتنادوا : يا مَعشَر بَجِيلة وخَثْعَم ، الصَّبرَ الصبرَ ! فناداهم المهلَّب : الفِرَار الفِرارَ ! اليوم أنجى لكم ، عَلاَمَ تَقتُلون أنفسَكم مع هذه العِبْدان ، أَضَلّ الله سَعْيَكم . ثم نظر إلى أصحابه فقال : والله ما أرى استحرار القَتْل اليومَ إلاّ في قومي . ومالَت الخيلُ عَلى رَجَّالةِ ابنِ شُمَيط ، فافترقتْ فانهزمتْ وأخذت الصَّحْراء ، فَبعث المصعبُ عبَّاد بن الحُصَين على الخيل ، فقال : أيّما أسيرٍ أخذتَه فاضرب عُنُقَه . وسرّحَ محمَّد بنَ الأشعث في خيل عظيمة أهلِ الكوفة مِمَّن كان المختار طَرَدَهُم ، فقال : دُونَكم ثأركم ! فكانوا حيث انهزموا أشدَّ عليهم مِن أهل البَصْرة ، لا يُدرِكون منهزماً إلاّ قَتلوه ، ولا يأخذون أسيراً فيَعفُون عنه . قال: فلم يَنْج من ذلك الجيشِ إلاّ طائفةٌ من أصحاب الخيل ؛ وأما رَجَّالتُهم فأبيدوا إلاّ قليلاً .

قال أبو مخنف : حدّثني ابنُ عيَّاشٍ المُنْتوف ، عن معاوية بن قُرّة المُزَنيّ ، قال : انتهيتُ إلى رجل منهم ، فأدخلتُ سنان الرمح في عينه ، فأخذتُ أخضخِض عينَه بسنان رُمحي ، فقلتُ له: وفعلتَ به هذا؟ قال: نعم ، إنَّهم كانوا أحَلَّ عندنا دِماءً من الترْك والدَّيلم ؛ وكان معاويةُ بنُ قرّة قاضياً لأهلِ البصْرة ، ففي ذلك يقول الأعشَى :

أَلا هـل أَتَـاكَ والأَنـبـاءُ تُـنْـمَـى ... بـمـا لاقـتْ بَـجِـيـلـةُ بـالـمَـذَارِ
أُتِـيـحَ لهـم بـهـا ضَـرْبٌ طِـلَـحْـفٌ ... وطَـعْـنٌ صـائـبٌ وَجـهَ الـنـهـارِ
كـأَنَّ سَـحَـابـةً صَـعَـقَـتْ عـلـيـهـمْ ... فَـعَـمَّـتـهُـمْ هُـنـالِـكَ بـالـدَّمَـار
فَـبـشِّـرْ شِـيـعَـةَ الـمـخـتـارِ إمـا ... مَـرَرْتَ على الكُـويـفَـةِ بِـالصَّغَـارِ

أَقَــرَّ الــعــيــنَ صَــرْعــاهــمْ وفَــلٌّ ... لــهــمْ جَــمٌّ يُــقــتَّــل بــالــصَّــحَــارِي
ومــا إنْ سَــرَّنــي إهــلاكُ قــومِــي ... وإن كــانــوا وَجَــدِّكَ فــي خــيــارِ
ولــكــنِّــي سُــررْتُ بــمــا يُــلاقِــي ... أَبــو إســحــاقَ مِــنْ خِــزيٍ وعــارِ

وأقبل المصعبُ حتَّى قطع من تلقاءِ واسطَ القَصَب ، ولم تكُ واسط هذه بُنِيتْ حينئذ بعد ، فأخذ في كَسْكَر ، ثم حَمَل الرجالَ وأثقالَهم وضُعفاءَ الناسِ في السفن ، فأخَذوا في نَهر يقال له : نهر خُرْشاذ ، ثم خرجوا من ذلك النَّهر إلى نهر يقال له قُوسان ؛ ثم أخرَجهم من ذلك النَّهرِ إلى الفُرات .

قال أبو مخنف : وحدّثني فُضَيل بن خدِيج الكندي ، أن أهل البصرة كانوا يخرجون فيجُرون سفنهم ويقولون :

عَــوَّدَنَــا الــمــصــعــبُ جَــرَّ الــقَــلْــسِ ... والــزَّنْــبَــرِيَّــاتِ الــطِّوَالِ الــقُــعْــسِ

قال : فلمَّا بلغ مَن مع المختارِ من تلك الأعاجم ما لقي إخوانُهم مع ابن شُمَيط قالوا بالفارسيَّة : « اينْ بَارْ دُرُوغ كُفْت » ؛ يقولون : هذه المرّة كذب .

قال أبو مخنف : وحدّثني هشام بن عبدالرحمن الثقفي ، عن عبدالرحمن بن أبي عُمَير الثَّقفي ، قال : والله إني لجالسٌ عند المختار حين أتاه هزيمةُ القومِ وما لَقوا ، قال : فأصغَى إليَّ ، فقال : قتِلتْ والله العبيدَ قتلةً ما سمعتُ بمثلها قط . ثم قال: وقُتِلَ ابْنُ شُمَيط وابنُ كامل وفلان وفلان ، فسمّى رجالا من العرب أصيبوا ، كان الرجل منهم في الحرب خيراً من فئام من الناس . قال : فقلت له : فهذه والله مصيبةٌ ، فقال لي : ما مِنَ الموتِ بُدّ ، وما من ميتة أموتها أحب إليَّ مِن مثل مِيتةِ ابن شُمَيط ، حبَّذا مَصارعُ الكرام ! قال : فعلمتُ أنّ الرجل قد حدّث نفسَه إن لم يُصِبْ حاجتَه أن يُقاتِل حتَّى يموتَ .

ولما بلغ المختارَ أنَّهم قد أقبَلوا إليه في البَحْر ، وعلى الظهْر ، سار حتَّى نَزَل بهم السَّيْلَحِين ، ونظر إلى مُجْتَمَع الأنهار نهرِ الحِيرةَ ونهرِ السَّيلحِين ونهر القادسيَّة ، ونهر يوسُف ، فسكر الفُرات على مُجتمع الأنهار ، فذهب ماءُ الفرات كلّه في هذه الأنهار، وبقيت سفنُ أهلِ البصرة في الطّين، فلمَّا رأوْا ذلك خرجوا من السفن يَمْشون ، وأقبلت خيلُهم تَركض حتَّى أتَوْا ذلك السِّكْر، فكَسَروهُ وصَمَدوا صمد الكُوفة ، فلمَّا رأى ذلك المختارُ أقبلَ إليهم حتى نزل حَرُوراءَ ، وحالَ بينهم وبين الكوفة ، وقد كان حصّن قصرَه والمسجد ، وأدخلَ في قصرِه عُدّة الحِصار ، وجاء المصعبُ يسير إليه وهو بحرُوراءَ وقد استعمل على الكوفة عبدالله بن شدّاد ، وخرج إليه المختارُ وقد جعل على مَيْمنتِهِ سُليم بن يزيد الكِنْدي ، وجعل على مَيْسرَتِهِ سعيدَ بن مُنْقذ الهَمْدانيّ ثم الثَّورِيّ ، وكان على شُرطتِه يومئذ عبدالله بنُ قُراد الخَثْعَمي ، وبَعَث على الخيل عمرَ بنَ عبدالله النَّهْدِيّ ، وعلى الرّجال مالكَ بنَ عمرو النَّهدي ، وجعل مصعبُ على ميمنتِهِ المهلبَ بن أبي صُفْرة ، وعلى ميسرته عمرَ بنَ عُبَيد الله بن مَعْمَر التَّيْمي ، وعلى الخيل عبَّاد بن الحُصَين الحَبَطي ، وعلى الرجال مقاتِل بن مِسمَع البَكْري ، ونزل هو يَمْشي مُتنكِّباً قَوْساً له .

قال : وجعل على أهلِ الكُوفة محمَّد بن الأشعث ، فجاء محمَّد حتَّى نَزل بين المصعب والمختار مغرّباً مُيامِنا . قال : فلمَّا رأى المختارُ ذلك بعث إلى كلِّ خُمس من أخماس أهلِ البَصْرة رجلاً من أصحابه ، فبعث إلى بكرِ بن وائل سعيدَ بن مُنقذ صاحبَ مَيسرته ، وعليهمْ مالِك بنُ مِسمَعِ البَكْري ،

وبعث إلى عبدالقَيْس وعليهم مالكُ بنُ المنذر عبدَالرحمن بنَ شُرَيح الشِّبامي ، وكان على بيتِ مالهِ ، وبعث إلى أهل العالِيَة وعليهم قيسُ بنُ الهَيْثم السُّلَمي عبدالله بن جَعْدة القرشي ، ثم المخزومي ، وبعث إلى الأزْد وعليهم زيادُ بن عمرو العَتَكي مسافر بن سَعيد بن نمْران الناعطي ، وبعث إلى بني تميم وعليهم الأحنَف بنُ قيس سُليمَ بن يزيد الكِنْدي ، وكان صاحب ميمنته ، وبعث إلى محمد بن الأشعث السائبَ بن مالك الأشعري ، ووقف في بقيَّة أصحابه ، وتزاحف الناسُ ودَنَا بعضُهم من بعض ، ويَحمِل سعيدُ بن منقذ وعبدالرحمن بن شُرَيح على بكرِ بن وائل ، وعبدالقيس، وهم في الميسرَة وعليهم عمرُ بنُ عُبيدِالله بنِ مَعمَر ؛ فقاتلتهم ربيعةُ قِتالاً شديداً ، وصبروا لهم ، وأخذ سعيدُ بنُ مُنقذ وعبدُالرحمن بنُ شُرَيح لا يُقلعان ، إذا حمل واحدٌ فانصرف حمل الآخَر ، وربَّما حَمَلا جميعاً ؛ قال : فَبَعث المُصعَب إلى المهلَّب : ما تنتظر أن تَحمِل على من بإزائك! ألا ترى ما يلقى هذان الخُمْسان منذ اليوم! احمل بأصحابك ، فقال : إي لعَمْري ما كنت لأجْزُر الأزْد وتميماً خَشية أهلِ الكوفة حتى أرى فُرْصتي . قال : وبعث المختارُ إلى عبدِالله بن جَعْدَة أن احمِلْ على مَنْ بإزائك ، فحَمَل على أهل العالية فكَشفهم حتى انْتَهوْا إلى المُصْعَب ، فجَثا المُصْعب على رُكْبَتيه ـ ولم يكن فراراً ـ فرَمَى بأسهمه . ونزل الناسُ عنده فقاتَلُوا ساعةً ، ثم تَحاجَزوا . قال : وبَعث المصعبُ إلى المهلَّب وهو في خُمْسَين جامِّين كثيرَي العَدَد والفُرْسان : لا أبا لك! مَا تنتظر أن تحمِل على القوم! فمَكَث غيرَ بعيد ، ثمّ إنَّه قال لأصحابه : قد قاتل الناسُ منذ اليوم وأنتم وقوفٌ ، وقد أحسنوا ، وقد بقِيَ ما عليكم ، احملوا واستَعِينوا بالله واصبروا ، فحمل على مَن يَليهِ حملةً منكَرة ، فحطموا أصحابَ المُختار حَطْمَةً منكَرة ، فكشَفوهم . وقال عبدُالله بنُ عَمر والنَّهدي ـ وكان من أصحاب صِفِّينَ : اللهمَّ إني على ما كنتُ عليه ليلةَ الخَمِيس بصِفِّين ، اللَّهمّ إني أبرأ إليكَ مِن فِعل هؤلاءِ لأصحابه حين انهزموا ، وأبرأ إليك من أنفُس هؤلاءـ يَعني أصحابَ المُصْعَب ـ ثم جالَد بِسَيْفه حتى قُتِل ، وأتى مالك بن عمرو أبو نِمْران النَّهْدي وهو على الرَّجالة بفَرَسه فرَكِبه ، وانقصَفَ أصحابُ المختار انقصافةً شديدة كأنَّهم أَجَمةٌ فيها حريقٌ ، فقال مالك حين ركب : ما أصنعُ بالرُّكوب! واللهِ لأنْ أقتَل ها هنا أحبّ إليَّ مِنْ أن أُقتل في بيتي ؛ أين أهلُ البصائر ؟ أين أهلُ الصَّبر ؟ فثابَ إليه نحوٌ من خمسين رجلاً ، وذلك عند المساء، فكَرّ على أصحاب محمَّد بن الأشْعَث ، فقُتل محمَّد بنُ الأشعث إلى جانبه هو وعامَّة أصحابه ، فبعضُ الناس يقول : هوَ قتل محمد بن الأشعث ، ووجد أبو نِمْرَان قتيلاً إلى جانبه ـ وكِندةُ تَزعم أن عبدالملك بن أشاءَة الكِنْدي هو الَّذِي قَتَله ـ فلمَّا مرّ المختار في أصحابه على محمَّد بن الأشعث قَتِيلاً قال : يا معشرَ الأنصار ، كُرّوا على الثَّعالب الرَّوّاغة ، فحملوا عليهم ، فَقُتِل ؛ فَخَثْعمُ تَزعم أن عبدَالله بنَ قُراد هو الَّذي قَتَلَه .

قال أبو مخنف : وسمعتُ عوف بن عمرو الجشمي يزعُم أن مولًى لهم قتله ، فادّعى قتلَه أربعةَ نَفر ، كلّهم يَزعم أنه قتله ، وانكَشَف أصحابُ سعيد بنُ مُنقِذ ، فقاتل في عِصابة من قومه نحو من سبعين رجلاً فَقتِلوا ، وقاتل سليم بن يزيد الكندي في تسعين رجلاً من قومه ، وغيرهم ضارَبَ حتَّى قُتِل ، وقاتَلَ المختارُ على فَمِ سِكة شَبَث ، ونَزَل وهو يريد ألاّ يَبرَح ، فقاتَلَ عامَّةَ ليلتِه حتَّى انصرف عنه القوم ، وقُتِل معه ليلتئذ رجالٌ من أصحابه مِن أهل الحِفاظ ، منهم عاصمُ بن عبدالله الأزدي ، وعيّاش بنُ خازم الهَمْداني ، ثم الثَّوري ، وأحمر بن هديج الهَمْداني ثم الفايشي .

قال أبو مخنف : حدَّثنا أبو الزّبير أنّ هَمْدَانَ تَنادَوا ليلتئذ : يا معشر هَمْدان ، سِيفُوهم فقاتِلوهُم أشدَّ القِتال ؛ فلمَّا أن تفرّقوا عن المختار قال له أصحابُه : أيها الأمير، قد ذهب القومُ فانصرف إلى مَنزِلك إلى القَصْرِ ، فقال المختار: أما والله ما نزلتُ وأنا أريدُ أن آتي القَصْر ، فأما إذ انصَرَفوا فاركبوا بنا على اسمِ الله ؛ فجاء حتَّى دخل القَصْر فقال الأعشى في قَتْل محمَّد بن الأشعث :

تأوَّبَ عَيْنَكَ عُوَّارُهَا ... وعَادَ لِنفسكَ تَذْكَارُهَا
وإحدى لَياليكَ راجَعْتَها ... أرِقْتَ ولوَّمَ سُمَّارُها
وما ذاقَتِ العينُ طَعْمَ الرُّقَا ... دِ حتَّى تَبلَّجَ إسفارُها
وقامَ نُعَاةُ أَبي قاسمٍ ... فأسبل بالدمع تَحْدارُها
فحقُّ العيون على ابن الأشَـ ... ـجِّ ألّا يُفتَّرَ تَقطَارُها
وَألّا تَزالَ تُبكِّي له ... وتَبتَلُّ بالدّمع أشفارُها
عليك محمَّدُ لمّا ثَوَيْـ ... ـتَ تَبكِي البلادُ وأشجارُها
وما يَذْكُرونك إلَّا بَكَوا ... إذا ذِمَّةٌ خانَها جارُها
وعاريةٍ من لَيالي الشِّتا ... ءِ لا يتمنَّحُ أَيْسَارُها
ولا يُنبِحُ الكلب فيها العَقُو ... رَ إلَّا الهريرُ وتَخْتَارُها
ولا ينفعُ الثوبُ فيها الفتى ... ولا رَبَّةَ الخِدْر تَخدَارُها
فأنتَ مُحَمَّدُ في مِثْلها ... مُهينُ الجزائِر نَحَّارها
تَظَلّ جِفانُكَ مَوْضوعةً ... تَسِيلُ من الشَّحم أضْبَارُها
وما في سقائك مُسْتنطَفٌ ... إذا الشَّوْلُ رَوح أغبارُها
فيا وَاهِبَ الوُصَفاءِ الصِّبَا ... ح إن شُبِرَتْ تَمّ إشبارُها
ويا واهبَ الجُرْد مِثْلَ القِدا ... ح قَدْ يُعجِبُ الصّفَّ شُوَّارها
ويا واهبَ البَكَرات الهجا ... نِ عُوذاً تَجَاوَبُ أبكارُها
وكنتَ كدِجْلَة إذْ تَرْتَمي ... فيُقذَفُ في البحر تَيَّارُها
وكنتَ جليداً وذا مِرَّةٍ ... إذا يُبتَغى منكَ إمرارُها
وكنتَ إذا بَلدةٌ أصْفَقَتْ ... وآذَنَ بالحَرْب جَبَّارُها
بَعثْتَ عليها ذَواكِي العُيو ... نِ حتَّى تَواصلُ أخبارُها
بإذنٍ مِن اللّهِ والخيلُ قد ... أُعِدَّ لذلك مِضْمَارُها
وقد تُطعَمُ الخيلُ منك الوَجِيـ ... ـفَ حتَّى تُنَبِّذ أمهارُها
وقد تَعلَمُ البازلُ العَيْسَجُو ... رُ أنَّك بالخَبْتِ حَسَّارُها
فيا أسفَي يومَ لاقيتَهُمْ ... وخانتْ رجَالَك فُرَّارُها
وأقبلتِ الخيلُ مَهزُومَةً ... عِثَاراً تُضَرَّبُ أدبارُها
بشطِّ حَرُوراءَ واسْتَجْمَعَتْ ... عليكَ المَوالي وسَحَّارُها

فـأخـطَرتَ نـفسَـك مـن دُونهـم ... فـحـاز الـرَّزيئَـةَ أخـطارُهـا
فـلا تَـبـعَـدَنَّ أبـا قـاسـمٍ ... فـقـد يَـبلغُ الـنفسَ مِـقـدارُهـا
وأفـنـى الـحـوادثُ سَـادَاتِـنـا ... ومَـرُّ الـليـالـي وَتَـكْـرَارُهـا

قال هشام : قال أبي : كان السائب أتى مع مُصعِب بن الزُّبير ، فقتله وَرْقاء النَّخَعيّ مِنْ وَهْبيل ، فقال وَرْقاء :

مَـن مُـبلغٌ عـنّـي عُـبَـيْـداً بـأنَّـنـي ... عَـلوتُ أخـاه بـالحُسـام المُـهَـنَّـد
فـإنْ كنتَ تبغِي العـلمَ عنـه فـإنَّـه ... صـريـعٌ لَـدَى الـدَّيـرين غَيـرُ مُـوَسَّـدِ
وعَمْـداً علوتُ الـرأسَ منـه بصـارمٍ ... فـأثـكلتُـهُ سُـفْيـانَ بـعـدَ محـمّـد

قال هشام عن أبي مخنف ، قال : حدَّثني حَصِيرة بن عبدالله ، أنَّ هِنداً بنت المتكلّفة الناعِطِيّة كان يَجْتَمع إليها كلّ غالٍ من الشيعة فيتحدّث في بَيْتها وفي بيتِ لَيْلى بنت قُمامَة المُزَنيَّة ، وكان أخوها رِفاعة بن قمامةَ من شِيعة علي ، وكان مقتصداً ، فكانت لا تُحبُّه ، فكان أبو عبدالله الجُدَليّ ويَزيد بن شَراحِيل قد أخبرَا ابنَ الحنفيَّة خبرَ هاتَين المرأتين وغلوَّهما وخبر أبي الأحراس المرادي والبُطَيْن الليثي وأبي الحارِث الكِنْدي .

قال هشام عن أبي مخنف ، قال : حدَّثني يحيى بن أبي عيسى ، قال : فكان ابنَ الحنفيَّة قد كتب مع يزيدَ بنِ شراحِيل إلى الشيعة بالكوفة يُحذِّرهم هؤلاء ، فكتب إليهم :

من محمَّد بن علي إلى مَن بالكوفة مِن شِيعتِنا . أمَّا بعد ، فاخرُجوا إلى المجالس والمَساجد فاذكروا الله علانيةً وسِراً ولا تتّخذوا مِن دُون المؤمنين بِطَانَةَ ، فإنْ خَشيتم على أنفسكم فاحذروا على دينكم الكذّابين ، وأكثِروا الصلاة والصيام والدعاء فإنَّه ليس أحدٌ من الخَلْق يَمْلِك لأحد ضَرًّا ولا نَفْعاً إلاَّ ما شاء الله ، وكلّ نفس بما كَسَبَتْ رَهِينَة ، وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرىٰ ، والله قائمٌ على كلِّ نفس بما كسبَتْ ، فاعمَلوا صالحاً ، وقدّموا لأنفسكم حَسَناً ، ولا تكونوا من الغافلين ، والسلام عليكم .

قال أبو مِخْنَف : فحدّثني حَصيرة بنُ عبدِ الله ، أنّ عبدالله بنِ نَوْف خرج من بيت هند بنتِ المتكلّفة حين خرج الناسُ إلى حَرُوراءَ وهو يقول : يومُ الأربعاء ، ترفَّعت السماء ، ونَزَلَ القضاء ، بهزيمة الأعداء ، فاخرجوا على اسم الله إلى حَروراء . فخرج ، فلمَّا التقى الناس للقتال ضُرِب على وجهه ضربةً ، ورجع الناسُ منهزِمين ، ولقيَه عبدُالله بنُ شريك النَّهْدي ، وقد سمع مقالتَه ، فقال له : ألم تزعمْ لنا يابن نَوْف أنّا سنهزمهم ! قال : أوَ ما قرأت في كتابِ الله : ﴿ يَمْحُو اللّٰهُ ما يَشاءُ ويُثْبِتُ وعِندَهُ أمُّ الكتاب ﴾ !(١) قال : فلمَّا أصبح المصعب أقبلَ يسير بمَن مَعَه من أهل البصرة ومَنْ خرج إليه من أهلِ الكوفة ، فأخذ بهم نحو السَّبَخة ، فمرّ بالمهلَّب ، فقال له المهلّب : يا لَه فتحاً ما أهنأهُ لو لم يكن محمَّدبنُ الأشعثِ قُتِل ! قال : صدقتَ ، فرَحِم الله محمَّداً . ثم سار غير بعيد ، ثم قال : يا مهلَّب ، قال : لبَّيك أيها الأمير ؛ قال : هل علمتَ أنّ عُبيدَالله بنَ علي بن أبي طالب قد قُتِل ! قال : ﴿ إنَّا لِلّٰهِ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُون ﴾ قال المُصْعَب : أمَا إنّه كان ممَّن أحبَّ أن يرى هذا الفَتْح ، ثم لا نَجْعَل أنفسَنا أحقّ بشيء ممَّا نحن فيه منه ، أتدري مَن قتَله؟ قال : لا ؛ قال : إنَّما

---

(١) الرعد ٣٩.

قَتَله مَن يزعم أنَّه لأبيه شِيعة ، أما إنَّهم قد قَتَلوه وهم يَعرِفونه .

قال : ثم مضى حتى نزل السَّبَخة فقطع عنهم الماء والمادة ، وبعث عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث فنزَل الكُناسة ، وبعث عبدالرحمن بن مخنف بن سليم إلى جبَّانة السَّبيع ، وقد كان قال لعبد الرحمن بن مخنف : ما كنت صنعتَ فيما كنتُ وكَّلتُك به؟ قال: أصلَحَك الله! وجَدْت الناسَ صِنفَين ؛ أمَّا مَن كان له فيك هَوًى فخرج إليك ، وأمَّا مَن كان يرى رأيَ المُختار ، فلم يكن لِيدَعه ، ولا ليُؤثِر أحداً عليه ، فلم أبرح بَيْتي حتى قدمتَ ؛ قال : صدقت ؛ وبعث عبَّاد بن الحُصَين إلى جَبَّانة كِنْدة ، فكلّ هؤلاء كان يَقطَع عن المختارِ وأصحابِهِ الماءَ والمادّة ، وهم في قصر المُخْتار ، وبعث زَحْر بنُ قَيْس إلى جَبَّانة مُراد ، وبعث عُبيدَالله بن الحرّ إلى جَبَّانة الصائديّين .

قال أبو مِخنَف : وحدّثني فُضَيل بن خَدِيج ، قال : لقد رأيتُ عبيدَالله بن الحُرّ ؛ وإنَّه ليطارِد أصحابَ خَيْل المختار ، يُقاتِلهم في جَبَّانة الصائديّين ولربما رأيتُ خيلَهُم تَطْرُدُ خيلَه ، وإنَّهُ لوراءَ خَيله يَحْمِيها حتَّى يَنْتهي إلى دار عِكرِمة ، ثم يَكُرّ راجعاً هو وخيلُه ، فيَطرُدهم حتَّى يُلحقَهم بجبَّانة الصائديين ، ولربَّما رأيت خيلَ عُبيدالله قد أخذتْ السقَّاء والسقائين فيُضرَبون ، وإنَّما كانوا يأتونهم بالماء أنَّهم كانوا يُعطونهم بالرّاوية الدينارَ والدينارَين لِما أصابَهم من الجَهْد . وكان المختار ربَّما خرج هو وأصحابُه فقاتلوا قِتالاً ضعيفاً ، ولا نكاية لهم ، وكانت لا تَخرج له خيلٌ إلاّ رُميتْ بالحِجارَةَ من فوقِ البُيوت ، ويُصَبّ عليهم الماءُ القَذِر . واجترأ عليهم الناس ، فكانت معايشهُم أفضلها من نسائهم ، فكانت المرأة تخرج من منزلها معها الطَّعام واللُّطَف والماء ، قد التحفتْ عليه ، فتخرُج كأنَّما تريد المسجدَ الأعظَم للصّلاة ، وكأنَّها تأتي أهلها وتزورُ ذاتَ قَرابة لها ، فإذا دَنت من القَصر فُتِح لها ، فدخلتْ على زوجِها وحَميمِها بطعامِه وشرابِه ولَطَفه . وإن ذلك بلغ المصعب وأصحابَه ، فقال له المهلَّب ـ وكان مجرّبا : اجعلْ عليهمُ دُرُوباً حتَّى تمنَع من يأتيهم مِن أهلِيهم وأبنائهم ، وتَدَعهم في حِصْنهم حتى يموتوا فيه . وكان القومُ إذا اشتدّ عليهم العَطَش في قصرهم استقَوْا من ماء البئر . ثم أمر لهم المختارُ بعَسَل فصُبّ فيه ليُغيّرَ طعمَه فيَشربوا منه ، فكان ذلك أيضاً ممَّا يُروِي أكثرهم . ثم إن مصعباً أمر أصحابَه فاقتربوا من القَصْر ، فجاء عبَّاد بنُ الحُصَين الحَبَطيّ حتَّى نزل عند مسجد جُهَيْنة ، وكان ربَّما تقدّم حتَّى ينتهي إلى مسجد بني مخزوم ، وحتى يرمي أصحابه من أشرف عليهم من أصحاب المختار من القَصْر ، وكان لا يلقى امرأةً قريباً من القصر إلاّ قال لها : مَن أنتِ؟ ومن أين جئتِ؟ وما تريدين؟ فأخذَ في يوم ثلاثَ نسوة للشّباميِّين وشاكر أتَيْن أزواجهنّ في القَصْر ، فبعث بهنّ إلى مصعب ، وإنّ الطَّعام لمعهنّ ، فردّهنّ مصعب ولم يَعرِض لهنّ ، وبعث زَحْر بن قيس ، فنزَل عند الحدّادين حيث تُكْرَى الدّوابّ ، وبعث عُبيدالله بن الحُرّ فكان موقِفهُ عند دارِ بلال ، وبعث محمَّد بن عبدِ الرّحمن بن سعيد بن قيس فكان مَوقِفه عند دارِ أبيه ، وبعث حَوْشَب بن يزيد فَوَقَف عند زُقاقَ البَصْريّين عند فم سكة بني جَذِيمة بن مالك من بني أَسَد بنِ خُزَيمة، وجاء المهلَّب يسير حتَّى نزل جِهار سوج خُنيس ، وجاء عبدُالرحمن بنُ مخنَف من قِبَل دار السِّقاية ، وابتدر السوقَ أناسٌ من شَبابِ أهل الكُوفة وأهل البصرة ، أغمار ليس لهم عِلمٌ بالحرب ، فأخذوا يَصِيحون ـ وليس لهم أميرٌ يابن دَومة ، يابن دَومَة! فأشرَف عليهم المختارُ فقال : أما والله لو أن الذي يعيّرني بدَوْمة كان من القَريتين عظيماً ما عَيَّرني بها . وبصُر بهم وبتفرُّقهم وهيئتهم وانتشارهم ، فطمع فيهم ، فقال لطائفة من أصحابه : اخرُجوا معي ، فخرج معه منهم نحوٌ من مائتي رجل ، فكرّ عليهم ، فشدخ نحواً من مائة ، وهزمهم ، فركب بعضُهم

بعضاً ، وأخذوا على دارِ فراتِ بنِ حيَّان العِجْلي . ثم إن رجلاً من بني ضَبَّة من أهل البَصْرة يقال له يحيى بن ضَمضَم ، كانت رِجلاه تكادان تَخُطَّان الأرضَ إذا رَكِب من طُوله وكان أقتَل شيء للرجال وأهيَبَهُ عندهم إذا رأوه ، فأخذَ يَحمِل على أصحاب المختار فلا يَثبتُ له رجل صَمَد صَمدَه، وبَصُرَ به المختار فحمَل عليه فضَرَبه ضربةً على جَبهَته فأطار جَبهته وقحفَ رأسِه وخرَّ ميّتاً . ثم إن تلك الأمراء وتلك الرؤوس أقبلوا من كلّ جانب ، فلم تكن لأصحابه بهِمْ طاقة ، فدخلوا القصر ، فكانوا فيهم ، فاشتدّ عليهم الحصار فقال لهم المختار: ويْحكم! إنّ الحصارَ لا يَزيدكم إلاّ ضَعْفاً ، انزلوا بنا فلنقاتل حتّى نُقتل كِراماً إن نحن قُتِلنا، والله ما أنا بآيس إن صدقتموه أن ينصركم اللّهُ، فضَعُفوا وعجِزوا، فقال لهم المختار: أمَّا أنا فوالله لا أعطِيَ بيَدِي ولا أحكّمهم في نفسي . ولمَّا رأى عبدُالله بنُ جعدةَ بنُ هُبَيرة بن أبي وَهْب ما يريد المختار تَدلَّى من القصر بحبْل ، فَلَحِق بأناس من إخوانه ، فاختبأ عندهم . ثم إن المختار أزمَع بالخروج إلى القوم حين رأى من أصحابه الضعف ، ورأى ما بأصحابه من الفشل ، فأرسل إلى امرأته أمّ ثابت بنت سَمُرة بن جُندب الفَزاري ، فأرسلتْ إليه بطيب كثير ، فاغتسل وتحنّط ، ثم وضع ذلك الطيب على رأسهِ ولِحيته ، ثم خرج في تسعة عشرَ رجلاً ؛ فيهم السائب بنُ مالك الأشعري ـ وكان خليفَته على الكوفة إذا خرج إلى المَدائن ـ وكانتْ تحتَه عَمْرةُ بنتُ أبي موسى الأشعري ، فولدت له غلاماً ، فسمّاه محمَّداً ، فكان مع أبيه في القصر ، فلمَّا قُتل أبوه وأخِذَ مَن في القصر وُجِد صبيًّا فتُرك ، ولمَّا خرج المُختار من القصر قال للسَّائب : ماذا ترى؟ قال : الرّأيُ لك ، فماذا ترى؟ قال : أنا أرَى أم الله يَرى! قال: اللّهُ يرَى ، قال : وَيْحَك! أحمق أنت! إنَّما أنا رجل من العَرَب رأيتُ ابن الزّبير انتزَى على الحِجاز ، ورأيتُ نَجْدَةَ انتزَى على اليمامة ، ومروانَ على الشام ، فلم أكن دونَ أحد من رِجالِ العرب ، فأخذتُ هذه البلادَ ، فكنتُ كأحدهم ؛ إلاّ أني قد طلبتُ بثأر أهلِ بيتِ النبي ﷺ إذ نامتْ عنه العرب ، فقتلتُ مَن شَرَك في دِمائِهم ، وبالغتُ في ذلك إلى يومِي هذا ، فقاتِلْ على حَسبك إن لم تكن لك نيَّة ؛ فقال : ﴿ إنَّا لِلّهِ وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ، وما كنت أصنع أن أقاتل على حَسَبي ! فقال المختار عند ذلك يتمثّل بقولِ غَيْلان بن سَلَمة بن مُعتّب الثَّقَفي :

ولو يَرَاني أبو غَيْلان إذْ حَسَرَتْ ... عنّي الهمومُ بأمرٍ ما له طَبَقُ
لقالَ رُهْباً ورُغْباً يُجْمَعان معاً ... غُنْمُ الحياةِ وهَولُ النفسِ والشَّفَقُ
إمَّا تُسِيف على مَجْدٍ ومَكرمَةٍ ... أو إسوة لك فِيمَن تُهلِكُ الوَرَقُ

فخرج في تسعةَ عشرَ رجلاً فقال لهم : أتؤمّنوني وأخرُج إليكم؟ فقالوا : لا ، إلاّ على الحكم ، فقال : لا أحكّمكم في نفسي أبداً ، فضارب بسيفه حتى قُتِل ، وقد كان قال لأصحابه حين أبَوْا أن يُتابِعوه على الخرُوجِ معه : إذا أنا خرجتُ إليهم فقُتِلتُ لم تَزْدادوا إلاّ ضَعْفاً وذُلًّا ، فإنْ نزلتم على حكمهم وثب أعداؤكم الذين قد وَتَرْتموهم ، فقال كل رجل منهم لبعضكم : هذا عندَه ثأري فيُقتل ، وبعضُكم يَنظُر إلى مَصارعِ بعض فيقولون : يا لَيْتنا أطَعْنا المختار وَعَمِلنا برأيه! ولو أنكم خرجتم معي كنتمْ إن أخطأتُم الظفَر متم كراماً ، وإن هرب منكم هاربٌ فدخل في عشيرته اشتملتْ عليه عشيرتهُ ؛ أنتم غداً هذه الساعةَ أذلّ مَن على ظَهْر الأرض ، فكان كما قال .

قال : وَزَعَمَ الناسُ أن المختار قُتِل عند موضع الزيّاتِين اليومَ ، قتله رجلان من بني حَنِيفة أخَوان يُدعَى أحدُهما طَرَفَةَ والآخر طرّافاً ؛ ابنا عبدالله بن دَجاجة من بني حَنِيفة . ولَمّا كان من الغَد من قتل المختار قال بُجَير بنُ عبدالله المُسْليّ : يا قوم ، قد كان صاحبُكم أمسِ أشار عليكم بالرّأي لو أطعتموه . يا قوم ، إنكم إن نزلتم على حُكم القوم ذُبِحتم كما تُذبَح الغَنَم ، اخرُجوا بأسيافكم فقاتلوا حتى تموتوا كِراماً . فعصَوْه وقالوا : لقد أمَرَنا بهذا مَن كان أطوعَ عندنا وأنصح لنا منك ، فعصَيناه ، أفنحن نُطِيعك! فأمكن القومِ من أنفسهم ، ونزلوا على الحُكْم . فبعث إليهم مصعبٌ عبّاد بنَ الحُصَين الحَبَطي فكان هو يُخرِجهم مكتَّفين ، وأوصَى عبدالله بن شدّاد الجُشَميّ إلى عبّاد بن الحُصَين ، وطلب عبدالله بنَ قُراد عصا أو حديدة أو شيئاً يقاتل به فلم يجده ، وذلك أنّ الندامة أدركتْه بعدما دخلوا عليه ، فأخذُوا سيفَه ، وأخرَجوه مكتوفاً ، فمرّ به عبدُالرحمن وهو يقول :

مــا كـنـتُ أخـشَـى أن أُرَى أسِــيــرَا إنَّ الــذيــن خــالَــفُــوا الأمِــيــرَا

قـد رُغِّمــوا وتُبِّرُوا تَتْبِــيــرَا

فقال عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث : عليَّ بذا ، قدّموه إليَّ أضرِب عنقَه ، فقال له : أما إني على دين جَدّك الذي آمَنَ ثم كفر ؛ إنْ لم أكن ضربت أباك بسَيْفي حتى فاظَ . فنزل ثم قال : أدنُوه مني ، فأدنوه منه ، فقتله ، فغضِب عبّاد ، فقال : قتلتَه ولم تُؤمَر بقَتله !

ومرّ بعبدالله بنِ شدّادِ الجُشَميّ وكان شريفاً ، فطلب عبدُالرحمن إلى عبّاد أن يَحبِسه حتى يُكلّم فيه الأمير ، فأتى مُصعَباً ، فقال: إني أحبّ أن تَدفَع إليَّ عبدَالله بنَ شدّاد فأقتلَه ، فإنه من الثأر ، فأمر له به ، فلما جاءه أخذه فضرب عنقَه ، فكان عبّاد يقول : أما واللّهِ لو علمتُ أنك إنما تريد قتلَه لدفعتُه إلى غَيرك فقتله ، ولكني حسبتُ أنك تكلمه فيه فتخلّي سبيلَه . وأُتِيَ بابن عبدالله بنِ شدّاد ، وإذا اسمهُ شدّاد ، وهو رجلٌ محتلِم . وقد اطّلَى بنُورة ، فقال : اكشفوا عنه هل أدرَك ! فقالوا : لا ، إنّما هو غلام ، فخلوا سبيلَه ، وكان الأسوَد بنُ سعيد قد طلب إلى مُصعَب أن يعرِض على أخيه الأمان ، فإنْ نَزَل ترَكه له ، فأتاه فعرض عليه الأمان ، فأبى أن ينزل ، وقال : أموتُ مع أصحابي أحبّ إليَّ من حياة معكم ، وكان يقال له قيس، فأخرِج فقتِل فيمن قُتِل ؛ وقال بُجير بن عبدِالله المُسْلِيّ ـ ويقال : كان مولًى لهم حين أُتِيَ به مصعب ومعه منهم ناسٌ كثير ـ فقال له المسليّ : الحمد لله الذِي ابتلانا بالإسار ، وابتلاك بأن تعفو عنّا ، وهما مَنزلتان إحداهما رِضَا الله ، والأخرَى سخطه ، من عَفَا عَفَا اللّهُ عنه ، وزادَه عزًّا ، ومن عاقَبَ لم يأمَن القِصاص . يابنَ الزُّبير ، نحن أهلُ قِبْلَتكم ، وعلى مِلّتكم ، ولسنا تُرْكا ولاَ ديلَما ، فإن خالفْنا إخوانَنا من أهلِ مِصرِنا فإما أن نكون أصبْنا وأخطأوا ، وإما أن نكون أخطأنا وأصابوا ، فاقتتلْنا كما اقتتل أهل الشام بينهم ، فقد اختلفوا واقتتلوا ثم اجتمعوا ، وكما اقتتل أهلُ البَصْرة بينهم فقد اختلفوا واقْتَتلوا ثمّ اصطَلَحوا واجتمعوا ، وقد ملكتم فأسجِحوا ، وقد قَدَرْتم فاعْفُوا . فما زال بهذا القَوْل ونحوه حتى رَقَّ لهم الناسُ ، ورَقَّ لهم مصعب ، وأراد أن يخلّيَ سبيلَهم ، فقام عبدُالرحمن بنُ محمد بنِ الأشعث فقال : تُخلّي سبيلهم ! إختَرنا يابن الزبير أو اخترهم . ووثب محمد بنُ عبدالرحمن بن سعيد بن قَيْس الهَمْداني فقال : قُتِل أبي وخَمسمائة من هَمْدان وأشراف العشيرة وأهل المصر ثم تُخلّي سبيلَهم ، ودماؤنا تَرقرَق في أجوافهم ! اختَرْنا أو اخترْهم . ووَثَب كلّ قوم وأهل بيت كان أصيبَ منهم رجل فقالوا نحواً من هذا القول . فلما رأى

مُصعبُ بنُ الزبير ذلك أَمَرَ بقَتْلهم ، فنادَوه بأجمَعِهم : يابن الزّبير ، لا تقتُلْنا ، اجعَلْنا مقدّمَتَك إلى أهل الشام غداً ، فوالله ما بك ولا بأصحابك عنّا غداً غِنًى ، إذا لقيتم عدوَّكم فإن قتِلنا لم نُقتل حتّى نرقّهم لكم ، وإن ظَفِرْنا بهم كان ذلك لك ولمن معك . فأَبَى عليهم وتبع رضا العامة ، فقال بجير المسلي : إن حاجتي إليك ألا أقتَل مع هؤلاء القوم إني أمرتُهم أن يخرجوا بأسيافهم فيقاتلوا حتى يموتوا كِراماً فعصوْني ، فقُدّم فقُتِل .

قال أبو مِخنف : وحدّثني أبي ، قال : حدّثني أبو رَوْق أنّ مسافرَ بنَ سعيد بنِ نِمران قال لمُصعب بنِ الزبير : يابن الزّبير ، ما تقولُ لِلّه إذا قَدمت عليه وقد قتلتَ أمة من المُسلِمين صَبْراً ! حَكّموك في دمائهم ، فكان الحقّ في دمائهم ألاّ تقتل نفساً مُسلِمة بغير نفس مُسلِمة ، فإن كنا قتلْنا عِدّة رجال منكم فاقتلوا عِدَّةَ مَن قتلنا منكم ، وخلّوا سبيل بقيّتنا ، وفينا الآن رجالٌ كثير لم يشهدوا موطناً من حربنا وحَربِكم يوماً واحداً ، كانوا في الجبال والسواد يَجْبون الخَراج ، ويؤمِّنون السبيل . فلم يستمع له ، فقال : قبّح الله قوماً أمرتُهم أن يَخرُجوا ليلاً على حَرَس سكةٍ من هذه السكك فنطردهم ، ثم نَلحق بعشائرنا ، فعَصوْني حتى حَمَلوني على أن أعطيت التي هي أنقص وأدنى وأوضع ، وأبَوا أن يموتوا إلاّ ميتة العبيد ، فأنا أسألُـك ألاّ تَخلِط دمي بدِمائهم . فقُدّم فقُتل ناحية .

ثم إنَّ المُصعَب أمر بكَفّ المختار فقُطعت ثم سُمّرت بمِسمار حديد إلى جنب المسجد ، فلم يزل على ذلك حتى قدم الحجّاج بن يوسفَ ، فنظر إليها فقال : ما هذه؟ قالوا : كَفّ المختار ، فأمر بنَزْعها . وبعث مُصعَب عُمّاله على الجِبال والسواد ، ثم إنه كتب إلى ابن الأشتر يدعوه إلى طاعته ، ويقول له : إن أنتَ أجبتَني ودخلتَ في طاعتي فلك الشام وأعِنّة الخيل ، وما غلبت عليه من أرضِ المغرب ما دام لآلِ الزّبير سُلطان . وكتب عبدالملك بن مروان من الشام إليه يدعوه إلى طـاعته ، ويقـول : إن أنت أَجَبْتَني ودخلتَ في طاعتي فلك العراق . فدعا إبراهيمُ أصحابه فقال : ما تَرَون؟ فقال بعضُهم : تدخل في طاعة عبدِالملك ، وقال بعضهم : تدخل مع ابن الزّبير في طاعته ، فقال ابن الأشتر : ذاك لو لم أكن أصبتُ عبيدالله بن زياد ولا رؤساء أهلِ الشام تَبعتُ عبدَالملك ؛ مع أني لا أحبّ أن أختار على أهلِ مِصري مِصْراً ، ولا على عشيرتي عشيرة . فكتب إلى مصعب ، فكتب إليه مصعبٌ أن أقبِل ، فأقبل إليه بالطاعة .

قال أبو مخنف : حدّثني أبو جَنَاب الكلبيّ أنّ كتاب مُصعب قدم على ابن الأشتر وفيه :

أما بعد ، فإنّ الله قد قتل المختار الكذّاب وشِيعتَه الذين دانُوا بالكفر ، وكادُوا بالسّحر ، وإنا ندعوك إلى كتاب الله وسنة نبيِّه ، وإلى بَيْعة أمير المؤمنين ، فإنْ أجبتَ إلى ذلك فأقبِل إليَّ ، فإنّ لك أرض الجزيرة وأرض المغرب كلّها ما بقيت وبقِيَ سلطانُ آلِ الزبير ، لك بذلك عهدُ الله وميثاقُه وأشدّ ما أخذ الله على النبيِّين من عهد أو عقد ؛ والسلام .

وكتب إليه عبدُ الملك بن مَرْوان :

أما بعد ، فإنّ آل الزبير انتزَوْا على أئمة الهدى ، ونازعُوا الأمرَ أهلَه ، وألحَدُوا في بيت الله الحَرام والله مُمكِن منهم ، وجاعل دائرةَ السوْء عليهم ، وإني أدعوك إلى الله وإلى سُنّة نبيّه ، فإن قَبلتَ وأجبتَ فلك سلطانُ العراقِ ما بقيتَ وبقِيتُ ، عليَّ بالوفاء بذلك عهدُ الله وميثاقُه .

قال : فدعا أصحابَه فأقرأهم الكتاب ، واستشارهم في الرأي ، فقائلٌ يقول : عبدالملك ؛ وقائل يقول : ابن الزبير ؛ فقال لهم : ورأيي اتّباع أهلِ الشام ، ولكن كيف لي بذلك ، وليس قبيلة تسكُن الشام إلّا وقد وَتَرْتُها ، ولستُ بتارك عشيرتي وأهل مصري ! فأقبل إلى مُصعَب ، فلما بلغ مصعباً إقباله بعث المهلب إلى عمله ، وهي السنة التي نزل فيها المهلب على الفُرات .

قال أبو مخنف : حدّثني أبو عَلْقمة الخَثعمي أنّ المُصعَب بَعثَ إلى أمّ ثابت بنتِ سَمُرة بنِ جُندَب امرأةِ المختار وإلى عَمْرة بنت النعمان بن بَشير الأنصاري ـ وهي امرأةُ المختار ـ فقال لهما : ما تقولان في المختار؟ فقالت أمّ ثابت : ما عسينا أن نقول ! ما نقول فيه إلّا ما تقولون فيه أنتم ، فقالوا لها : إذهبي ، وأما عَمرة فقالت : رحمة الله عليه ، إنه كان عبداً من عِبادِ الله الصالحين ، فرَفعها مصعب إلى السجن ، وكتب فيها إلى عبدالله بن الزّبير إنها تزعم أنه نبيّ ، فكَتَب إليه أن أخْرِجْها فاقتُلها . فأخْرَجها بين الحِيرة والكُوفة بعد العَتَمة ، فضَرَبها مَطَرٌ ثلاثَ ضَرَبات بالسيف ـ ومطَرٌ تابعٌ لآل قَفَل من بني تَيْم الله بنِ ثَعْلبة ، كان يكون مع الشُّرَط ـ فقالت : يا أبتاه ، يا أهلاه ، يا عَشِيرتاه ! فسمِع بها بعضُ الأنصار ، وهو أبان بنُ النعمان بن بشير ، فأتاه فلطمه وقال له : يابن الزّانية ، قطعتَ نفسَها قطع اللّهُ يمينَك ! فَلزِمه حتى رفعه إلى مصعب ، فقال : إنّ أمي مسلمة ، وادّعى شهادة بني قَفَل ، فلم يَشهَد له أحد ؛ فقال مصعب : خلّوا سبيلَ الفتى فإنه رأى أمراً فظيعاً ، فقال عمرُ بنُ أبي ربيعة القُرَشي في قتل مصعب عَمْرَةَ بنتَ النعمان بن بشير :

إنَّ مِن أَعْجَبِ العجائبِ عِندِي ... قَتْلَ بَيْضاءَ حُرَّةٍ عُطْبولِ
قُتِلَتْ هكذا على غيرِ جُرْمٍ ... إنَّ للّهِ دَرَّها من قَتيلِ
كُتِبَ القَتلُ والقِتالُ علينا ... وعلى المحْصناتِ جَرُّ الذُّيولِ

قال أبو مخنف : حدثني محمد بنُ يوسفَ ، أنّ مصعباً لقِي عبدَالله بن عمر فسلّم عليه ، وقال له : أنا ابنُ أخيك مصعب ، فقال له ابنُ عمر : نعم ، أنتَ القاتلُ سبعةَ آلاف من أهل القبلة في غَداة واحدة ! عِشْ ما استطعتَ! فقال مصعب : إنهم كانوا كفرة سَحَرة ؛ فقال ابنُ عمر : واللّهِ لو قتلت عدَّتهم غَنَماً من تُراثِ أبيك لكان ذلك سَرَفاً ؛ فقال سعيد بن عبدِ الرحمن بن حسّان بن ثابت في ذلك :

أتى راكبٌ بالأمر ذي النَّبإِ العجبْ ... بقتل ٱبنَة النعمان ذِي الدِّين والحَسب
بقتلِ فَتاةٍ ذاتِ دلٍّ سَتِيرَةٍ ... مُهَذَّبة الأَخلاقِ والخِيم والنسبْ
مطهَّرةٍ من نَسْلِ قومٍ أكارمٍ ... من المُؤْثِرين الخير في سالِفِ الحِقَب
خليلُ النبيِّ المصطفَى ونَصِيرُهُ ... وصاحبُه في الحَرْب والنَّكْبِ والكُرَب
أتانِي بأَنَّ المُلحِدين تَوافَقوا ... على قَتلِها لا جُنِّبُوا القتلَ والسَّلَبْ
فلا هَنَأَتْ آلَ الزبيرِ معيشةٌ ... وذاقُوا لباسَ الذُّلِّ والخوفِ والحَرَبْ
كَأَنَّهمُ إذ أَبرَزُوها وقُطِّعَتْ ... بأَسيافِهِمْ فازُوا بِمَملكة العَرَبْ
ألم تَعجَبِ الأَقوامُ من قَتلِ حُرَّةٍ ... من المُحْصَنات الدِّين محمودةِ الأَدبْ!
من الغافلاتِ المؤمناتِ، بَريئةٍ ... من الذَّمِّ والبُهْتان والشَّكِّ والكذِبْ
علينا كتابُ القَتلِ والبأسِ واجبٌ ... وهُنَّ العَفَافُ في الحِجَال وفي الحُجُب

عـلى دِيـنِ أجـدادٍ لـهـا وأُبـوَّةٍ كِـرام مَضَت لم تُخْـزِ أهـلاً ولم تُـرِبْ
مـن الـخـفِـرات لا خَـرُوجٌ بَـذِيّـةٌ مُـلائِمَـة تَبغِي على جَـارِهَـا الجُنبْ
ولا الجارِ ذي القُرْبَىٰ ولم تَدْرِ ما الخنا ولم تـزدَلِف يـومـاً بسُـوءٍ ولم تجِبْ
عَـجِبْتُ لهـا إذ كُـفِّنَتْ وَهيَ حَـيَّـةٌ أَلَا إنَّ هذا الخَطْبَ من أعجَبِ العَجَب

حدّثت عن علي بن حَرْب المَوْصلي ، قال : حدّثني إبراهيمُ بنُ سليمانَ الحنفيّ ، ابن أخي أبي الأحْوص ، قال : حدّثنا محمد بن أبان ، عن علقمة بن مَرْثد ، عن سُوَيد بن غَفْلة ، قال : بَيْنا أنا أسيرُ بظَهْر النَّجف إذ لَحقني رجل فَطعنني بمِخْصَرة مِن خَلفي ، فالتفتّ إليه ، فقال : ما قولُك في الشيخ؟ قلتُ : أيّ الشيوخ؟ قال: علي بن أبي طالب ؛ قلتُ : إني أشهد أني أحبّه بسَمعي وبصري وقلبي ولساني ؛ قال : وأنا أشهدك أني أبغِضه بسَمْعي وبصري وقلبي ولساني . فسِرْنا حتى دخلْنا الكوفة ، فافترقْنا ، فمكَث بعد ذلك سنينَ ـ أو قال : زَماناً ـ قال : ثمّ إني لفي المسجد الأعظم إذ دخل رجلٌ معتمٌ يتصفّح وجوهَ الخلق ، فلم يزل ينظُر فلم يرَ لُحًى أحمق من لُحَى همْدان ، فجلس إليهم ، فتحوّلتُ فجلستُ معهم ، فقالوا : من أين أقبلتَ ؟ قال : من عند أهلِ بيتِ نبيّكم ، قالوا : فماذا جئتَنا به ؟ قال : ليس هذا موضع ذلك ، فوعدهم من الغد موعداً ، فَغَدَا وغدوت ، فإذا قد أخرج كتاباً معه في أسفله طابع من رصاص ، فدفعه إلى غلام ، فقال له : يا غلام ، اِقرأه ـ وكان أميًّا لا يكتب ـ فقال الغلام : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتابٌ للمختار بنِ أبي عُبيد كتبه له وصيّ آلِ محمد ؛ أمّا بعد فكذا وكذا .

فاستفرَغ القوم البُكاء ، فقال : يا غلام ، اِرفَع كتابَك حتى يُفيق القوم ؛ قلتُ : معاشر هَمْدان ، أنا أشهَد بالله لقد أدركني هذا بظَهر النّجف ، فقَصَصتُ عليهم قصّتَه ، فقالوا : أبَيْتَ واللّهِ إلّا تَثْبيطاً عن آلِ محمد ، وتَزْيينا لنَعْثَلٍ شَقّاقِ المَصاحِف . قال : قلتُ : معاشرَ هَمْدان ، لا أحدّثكم إلّا ما سمِعته أذُناي ، ووعاه قلبي من علي بنِ أبي طالب عليه السلام ،سمعتُه يقول : لا تُسمّوا عثمانَ شَقاقَ المَصاحف ، فوالله ما شقّقها إلّا عن ملإٍ منّا أصحاب محمد ، ولو وليتُها لعَمِلتُ فيها مثلَ الذِي عمل ؛ قالوا : آللّهَ أنتَ سمعتَ هذا من علي ؟ قلت : والله لأنا سمعتُه منه ، قال : فتفرّقوا عنه ، فعند ذلك مالَ إلى العبيد ، واستعان بهم ، وصنع ما صنع .

قال أبو جعفر: واقتصّ الواقديّ من خبر المختارِ بنِ أبي عُبَيد بعض ما ذكرْنا ، فخالف فيه مَنْ ذكرنا خبره ، فزعم أنّ المختار إنما أظهر الخلاف لابن الزُّبير عند قُدوم مُصعَب البَصْرة ، وأنّ مُصعبا لما سار إليه فبلغه مسيرُه إليه بعث إليه أحمرُ بنُ شُميط البَجَليّ ، وأمَرَه أن يواقِعَه بالمَذار ، وقال : إنّ الفتح بالمَذار ؛ قال : وإنما قال ذلك المختار لأنه قيل : إن رجلاً من ثَقيفَ يُفْتَح عليه بالمَذار فتحٌ عظيمٌ ، فظنّ أنه هو ، وإنما كان ذلك للحجّاج بنِ يوسفَ في قتالِه عبدَالرّحمن بنَ الأشعث . وأمر مصعبٌ صاحبَ مقدّمته عبّاد الحَبَطيّ أن يسيرَ إلى جَمْع المُختار فتقدّم وتقدّم معه عُبيدُ الله بنُ علي بن أبي طالب ، ونزل مصعبٌ ، نهرَ البصريِّين على شطّ الفرات ، وحَفَرَ هُنالك نهراً فسُمِّيَ نهر البصريِّين من أجلِ ذلك . قال : وخرج المختارُ في عشرين ألفاً حتى وقف بإزائهم وزحف مصعبٌ ومَن معه ، فوافَوْه مع الليل على تعبية ، فأرسل إلى أصحابه حين أمسَى : لا يَبرحنّ أحدٌ منكم موقفَه حتى يسمع منادياً ينادي : يا محمد ، فإذا سمعتموه فاحمِلوا . فقال رجل من القوم من

أصحاب المختار : هذا والله كذّاب على الله ، وانحازَ ومَنْ معه إلى المصعب ، فأمهل المُختار حتى إذا طلع القمرُ أمَر منادَياً ، فنادى : يا محمد ؛ ثمّ حَملوا على مُصعَب وأصحابِه فَهَزَموهم ، فأدخلوه عسكرَه ، فلم يزالـوا يقاتلونهم حتى أصبحوا وأصبحَ المختارُ وليس عنده أحد ، وإذا أصحـابُه قـد وَغلوا في أصحاب مصعب ، فانصرف المختارُ منهزماً حتى دخل قصر الكوفة ، فجاء أصحابُ المُختار حين أصبحوا ، فَوقَفوا مَليًّا ، فلم يروا المختار ، فقالوا : قد قُتِل ، فهَرب منهم مَن أطاقَ الهَرَب ، واختَفَوْا في دُور الكوفة ، وتوجّه منهم نحوَ القصر ثمانية آلاف لم يَجدوا مَنْ يقاتل بهم ، ووجدوا المختارَ في القَصْر ، فدخَلوا معه ، وكان أصحاب المختار ، قتلوا في تلك الليلة من أصحابِ مصعب بشراً كثيراً ، فيهم محمد بنُ الأشعث ، وأقبلَ مُصعبٌ حينَ أصبح حتى أحاط بالقصر ، فأقام مصعبٌ يُحاصِره أربعةَ أشهُر يَخرُج إليهم في كلّ يوم فيقاتلهم في سوق الكوفةِ من وجه واحد ، ولا يُقدَر عليه حتى قُتِل المختار ، فلما قُتِل المختار بعث مَن في القصر يَطلب الأمان ، فأبى مصعب حتى نزلوا على حُكْمه ، فلما نزلوا على حُكْمه قَتَل من العرب سبعمائة أو نحو ذلك ، وسائرُهم من العَجم ؛ قال : فلما خرجوا أراد مُصعَب أن يقتُل العجم ويتركَ العَرَب ، فكلمه من معه ، فقالوا : أي دِينٍ هذا؟ وكيف ترجو النصرَ وأنت تَقتُل العَجَم وتَترُك العَرَب ودِينُهم واحد! فقدّمهم فضرَبَ أعناقَهم .

قال أبو جعفر : وحدّثني عمرُ بنُ شبّة ، قال: حدثنا علي بن محمد ، قال: لما قُتل المختار شاور مصعبٌ أصحابَه في المحصورين الذين نـزلوا عـلى حكمه ، فقـال عبدُالـرحمن بنُ محمـد بنِ الأشعث ومحمـد بن عبدالرحمن بن سعيد بن قيس وأشباهُهم ممّن وَترهم المُختار : اقتُلهم ، وضَجّت ضَبّةُ ، وقالوا : دَمُ مُنذِر بن حسان ؛ فقال عبيدالله بن الحُرّ : أيّها الأمير ، اِدفعْ كلَّ رجل في يديك إلى عشيرته تمنّ عليهم بهم ، فإنهم إن كانوا قَتَلونا فقد قَتَلناهم ، ولا غِنى بنا عنهم في ثغورنا ، وادفع عبيدَنا الذين في يديك إلى مواليهم فإنهم لأيتامنا وأرامِلنا وضُعفائنا ، يردّونهم إلى أعمالهم ، واقتل هؤلاء الموالي ، فإنهم قد بدا كفرُهم ، وعظُم كِبرُهم ، وقلّ شُكرُهم . فضَحِك مُصعَب وقال للأحنف : ما ترى يا أبا بَحْر؟ قال: قد أرادني زيادٌ فعَصيْته ـ يعرّض بهم ـ فأمرَ مصعب بالقوم جميعاً فقُتِلوا، وكانوا ستة آلاف ، فقال عُقْبة الأسدي :

قـتَـلتـمْ سـتَّـةَ الآلافِ صَبْـراً	مـع العَهْـد المـوثَّقِ مكتَفِينَـا
جعلتمْ ذِمّـةَ الحَبَـطِيّ جسْـراً	ذَلـولاً ظَـهـرُهُ لِـلواطِئـيـنَـا
ومـا كـانـوا غَـدَاة دُعـوا فغُرُّوا	بـعَهْـدهِـمْ بـأَوّلِ حـائِنِينَـا
وكنتُ أمـرتُهمْ لـو طـاوَعُـوني	بضَـرْبٍ في الأَزِقّـة مُصْلِتِينـا

وقُتِل المختارُ ـ فيما قيل ـ وهو ابنُ سبع وستين سنة ، لأربع عشرةَ خلَتْ من شهر رمضان في سنة سبع وستين .

فلما فَرغ مصعب من أمر المختار وأصحابه ، وصار إليه إبراهيمِ بنُ الأشتر وجّه المهلب بن أبي صُفْرة على المَوْصِل والجزيرة وآذَرْبيجان وأرْمِينيّة وأقام بالكوفة .

وفي هذه السنة عزل عبدُالله بن الزبير أخاه مصعبَ بنَ الزّبير عن البصرة ، وبعَث بابنه حمزةَ بن عبدالله إليها ، فاختُلِف في سبب عزله إيّاه عنها ، وكيف كان الأمر في ذلك .

فقال بعضُهم في ذلك ما حدّثني به عمر ، قال : حدّثني علي بن محمد قال : لم يزل المُصْعب على البَصرة

حتى سار منها إلى المختار ، واستخلف على البصرة عُبيد الله بن مَعمر ، فقُتِل المختار ، ثم وفد إلى عبدالله بن الزبير فعزله وحبسه عنده ، واعتذَرَ إليه مِن عَزْله ، وقال : والله إني لأعلَم أنّك أحرَى وأكفى من حَمزةَ ، ولكني رأيتُ فيه رأي عثمانَ في عبدالله بن عامر حين عَزَل أبا موسى الأشعري وولّاه .

وحدّثني عمرُ ، قال : حدّثني علي بن محمد ، قال : قَدِم حمزةُ البَصرةَ والياً ، وكان جواداً سَخيًّا مخلّطاً ، يجود أحياناً حتى لا يَدَع شيئاً يملِكه ، ويمنع أحياناً مالا يمنع مِثلُه ، فظهرْت منه بالبَصرة خِفّة وضعف ، فيقال : إنه رَكب يوماً إلى فَيْض البَصْرة ، فلما رآه قال : إنَّ هذا الغَدِير إن رَفقُوا به ليكفينّهم صَيْفَهم ، فلما كان بعد ذلك ركب إليه فوافقهُ جازراً ، فقال : قد رأيت هذا ذاتَ يوم ، وظننت أن لن يكفيَهم ، فقال له الأحنف : إنّ هذا ماءٌ يأتينا ثم يَغيض عنّا . وشخص إلى الأهواز ، فلما رأى جبَلَها قال : هذا قُعَيْقِعان ـ لموضع بمكة ـ فسُمِّي الجبلُ قُعَيْقعانَ ، وبعث إلى مَرْدَانْشَاه فاستحثّه بالخراج ، فأبطأ به ، فقام إليه بسَيْفه فضربه فقتله ، فقال الأحنف : ما أحدّ سيفَ الأمير !

حدّثني عمرُ ، قال : حدّثني علي بن محمد ، قال : لما خَلّط حمزةُ بالبصرة وظهر منه ما ظهر ، وهَمَّ بعبدالعزيز بن بِشْر أن يضربَه ، كتب الأحنف إلى ابن الزبير بذلك ، وسأله أن يعيد مُصعباً . قال : وحمزة الذي عقد لعبدالله بن عُمير الليثيّ على قتال النّجدية بالبَحْرين .

حدثني عمرُ ، قال : حدّثنا علي بنُ محمد ، قال: لما عزل ابن الزُّبير حمزةَ احتَمَل مالاً كثيراً من مال البصرة ، فعرَض له مالكُ بنُ مِسْمَع ، فقال : لا ندعك تخرج بأعْطياتِنا . فضمِن له عبيدالله بن عُبيدِ بن مَعمَر العطاءَ ، فكَفّ ، وشخص حمزةُ بالمال ، فترك أباه وأتى المدينة ، فأودَع ذلك المال رجالاً، فذَهبوا به إلاّ يهوديًّا كان أودَعه فوفَى له ، وعَلِم ابنُ الزّبير بما صنع ، فقال: أبعده الله ! أردتُ أن أباهيَ به بني مَـرْوان فنَكَص .

وأمّا هشام بن محمد فإنه ذَكر عن أبي مخنف في أمر مُصعَب وعزل أخيه إيّاه عن البَصْرة وردِّه إيَّاه إليها غيرَ هذه القصَّة ، والذي ذكر من ذلك عنه في سياقِ خبر حُدّثتُ به عنه ، عن أبي المُخارِق الرّاسِبيّ ، أنّ مُصعَباً لما ظَهَر على الكُوفة أقامَ بها سنة معزولاً عن البصرة، عزله عنها عبدُالله ، وبعث ابنَه حَمزَةَ، فمَكَث بدلك سنة ؛ ثمّ إنه وَفد على أخيه عبدالله بمكة، فردّه على البَصْرة.

وقيل : إنّ مصعباً لما فرغ من أمرِ المُختار انصَرَف إلى البصرة وولّى الكوفةَ الحارثَ بنَ عبدِالله بن أبي ربيعة . قال : وقال محمد بن عمر لما قتل مُصعبٌ المختارَ ملكَ الكُوفة والبصرة .

وحجّ بالناس في هذه السنة عبدالله بن الزُّبير . وكان عامِلَه على الكُوفة مصعبٌ ، وقد ذَكرتُ اختلافَ أهلِ السيَر في العامل على البصرة .

وكان على قضاء الكوفة عبدالله بن عُتبةَ بن مسعود ، وعلى قَضاءِ البَصْرة هِشامُ بنُ هُبيرة ، وبالشـام عبدُالملك بن مرْوان.

وكان على خُراسان عبدُالله بنُ خازم السُّلميّ .

ثم دخلت سنة ثمان وستين

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأُمور الجليلة

فمن ذلك ما كان من ردّ عبدِ الله أخاه مُصعَباً إلى العراق أميراً ، وقد ذكرْنا السبب في ردّ عبدِ الله أخاه مُصعَباً إلى العراق أمِيراً بعد عزله إياه ، ولما ردّه عليها أميراً بعث مصعبُ الحارثَ بنَ أبي ربيعة على الكُوفة أميراً ، وذلك أنه بدأ بالبصرة مَرجِعَه إلى العراق أميراً بعد العزل ، فصار إليها .

وفي هذه السنة كان مَرجِعُ الأزارِقة من فارسَ إلى العِراقِ حتى صاروا إلى قرب الكوفة ، ودخلوا المدائن .

ذكر الخبر عن أمرِهم ومسيرهم ومَرجِعهم إلى العِراق :

ذكر هشامٌ ، عن أبي مِخنَف ، قال : حدّثني أبو المخارق الراسبي ، أن مُصْعباً وجّه عمرَ بنَ عُبيد الله بن مَعمرَ على فارسَ أميراً ، وكانت الأزارِقةُ لحقت بفارسَ وكرمانَ ونواحي أصْبَهان بعد ما أوقَع بهم المهلب بالأهواز ، فلما شخص المهلّب عن ذلك الوجه ووُجِّه إلى المَوْصل ونواحيها عاملاً عليها ، وعمر بن عبيدالله بن معمر على فارس ، انحطّت الأزارقةُ مع الزّبير بن الماحوز على عُمَر بن عبيدالله بفارسَ ، فلقيَهم بسَابورَ ، فقاتَلَهم قتالاً شديداً ، ثم إنه ظَفر بهم ظَفَرا بيّنا ، غيرَ أنه لم يكن بينهم كثير قَتْلَى ، وذهبوا كأنهم على حامَية ، وقد تركوا على ذلك المَعركة .

قال أبو مِخنف : فحدّثني شيخٌ للحيّ بالبَصْرة ، قال : إني لأسمعُ قراءة كتابِ عمرَ بنِ عُبيد الله :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإني أخبرُ الأميرَ أصلَحه الله أني لقيتُ الأزارقة التي مَرَقَتْ من الدّين واتبعتْ أهواءها بغير هدًى من الله ، فقاتلتُهم بالمسلمين ساعةً من النهار أشدَّ القتال . ثم إن الله ضرب وُجوهَهم وأدبارَهم ، ومنحنا أكتافَهم ، فقتل الله منهم من خاب وخسر ، وكلّ إلى خُسْران . فكتبتُ إلى الأمير كتابي هذا وأنا على ظهْر فرَسي في طلب القوم ، أرجُو أن يَجُذَّهم الله إن شاء الله ؛ والسلام .

ثم إنَّه تَبِعهم ومضَوْا من فورهم ذلك حتَّى نزلوا إصْطَخْرَ ، فسار إليهم حتّى لقيَهم على قنطرة طَمَستانَ ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، وقُتل ابنُه . ثمّ إنه ظَفِر بهم ، فَقَطعوا قنطرة طَمَسْتانَ ، وارتفعوا إلى نحو من أصبهان وكِرْمان ، فأقاموا بها حتى اجْتَبَروا وقَوُوا ، واستعدّوا وكَثُروا ، ثم أقبلوا حتى مروا بفارس وبها عُمرُ بنُ عُبيد الله بن مَعمر ، فقطعُوا أرضَه من غير الوَجْه الَّذِي كان فيه أخذوا على سابور ، ثم خرجوا على أرَّجانَ ، فلمّا رأى عمر بن عبيدالله أنْ قد قطعت الخوارجُ أرضَه متوجِّهة إلى البَصْرة خشيَ ألاّ يحتمِلها له مُصعَب بنُ الزبير ، فشمَّر في آثارهم مُسرِعاً حتى أتى أرّجان ، فوجدهم حين خرجوا منها متوجهين قِبَل الأهواز ، وبلَغ مُصعباً

إقبالُهم ، فخَرَج فعسكر بالناس بالجسر الأكبر ، وقال : واللّهِ ما أدرِي ما الّذِي أغنَى عنّي أنْ وضعتُ عمرَ بنَ عُبيد الله بفارسَ ، وجعلتُ معهُ جُنداً أجري عليهم أرزاقهم في كلّ شهر ، وأوَفّيهم أعطياتِهم في كل سنة ، وآمُرُ لهم من المَعاوِن في كل سنة بمثلِ الأعْطيات ، تقطَع أرضَه الخوارج إليّ ! وقد قطعتُ علّته فأمددتُه بالرّجال وقوّيتُهم ، والله لو قاتَلهم ثم فرّ كان أعذرَ له عندي ، وإن كان الفارّ غيرَ مقبولِ العذر ، ولا كريم الفعل .

وأقبلت الخوارجُ وعليهم الزبير بن الماحُوز حتى نزلوا الأهواز ، فأتتْهم عيونهم أن عمر بن عُبيد الله في أثرهم ، وأنّ مصعَب بن الزّبير قد خرج من البصْرة إليهم ، فقام فيهم الزُّبيرُ فحَمِد اللّهَ وأثنَى عليه ثم قال : أمَّا بعد ، فإنّ من سوء الرأي والحيرة وقُوعُكم فيما بين هاتَيْن الشَّوْكَتين ، انْهضوا بنا إلى عَدُوّنا نَلقَهم من وجه واحد . فسار بهم حتى قطع بهم أرضَ جُوخَى ، ثم أخذ على النَّهْرَ وانات، ثم لزم شاطىء دِجْلة حتى خرج على المدائن وبها كرْدَم بنُ مَرثَد بن نجبَة الفَزَارِي ، فشنّوا الغـارَة على أهـل المَدائن ، يُقتّلون الـولدان والنسـاءَ والرِّجال ، ويبقرون الحَبَالى ، وهرب كردم ، فأقبلوا إلى ساباطَ فوضَعوا أسيافَهم في النَّاس ، فَقَتلوا أمّ ولد لربيعة بن ماجد ، وقتلوا بُنانة ابنة أبي يزيد بن عاصم الأزدي ، وكانت قد قرأت القرآن ، وكانت من أجملِ النَّاس ، فلمّا غشوها بالسيوف قالت : ويْحَكُم ! هل سمعتم بأنّ الرجال كانوا يُقتِّلون النساء ! ويْحكم ! تَقتلون من لا يبسط إليكم يداً ، ولا يريدُ بكم ضَرًّا ، ولا يَملِك لنفسهِ نَفعاً! أتقتلون من يُنشَّأ في الحِلْيَة وهو في الخِصام غيرُ مُبين! فقال بعضُهم : اقتلُوها، وقال رجل منهم : لو أنكم تركتموها! فقال بعضُهم : أَعَجَبك جمالُها يا عدوّ الله ! قد كفرت وافتَتَنْت ، فانصرف الآخرُ عنهم وتركَهم ، فظننَّا أنَّه فارَقَهم ، وحملوا عليها فقتلوها ، فقالت رَيْطة بنتُ يزيدُ : سبحان الله ! أترَوْن اللّهَ يَرضى ما تَصْنَعون! تَقتُلون النساء والصبيان ومَن لم يُذنب إليكم ذَنْباً ! ثم انصرفتْ وحملوا عليها وبين يديها الرَّواع بنتُ إياسِ بنِ شُرَيح الهَمْداني ، وهي ابنة أخيها لأمّها ، فحَمَلوا عليها فَضَرَبُوها على رَأسها بالسيف ، ويصيب ذُبابُ السيف رأسَ الرَّوَاع فسقطتا جميعاً إلى الأرض ، وقاتلهم إياسُ بنُ شُرَيح ساعةً ، ثم صُرِع فَوَقع بين القَتلى ، فنَزَعوا عنه وهم يَرَون أنَّهم قد قَتَلوه ، وصُرِع منهم رجل من بَكر بنِ وائل يقال له : رَزِين بن المتوكِّل .

فلمَّا انصَرَفوا عنهم لم يَمت غيرُ بُنَانة بنت أبي يزيد ، وأمّ ولد ربيعة بن ناجد ، وأفاقَ سائرُهم ، فسقَى بعضُهم بعضاً من الماء ، وعصبوا جراحاتِهم ثم استأجَرُوا دوابّ ، ثمّ أقبلوا نحوَ الكوفة .

قال أبو مِخْنَف : فحدثتني الرّواع ابنةُ إياس ، قالت : ما رأيت رجلاً قطّ كان أجبن من رجل كان معنا وكانت معه ابنتُه ، فلمّا غُشِينا ألقَاها إلينا وهرب عنها وعنّا ولا رأينا رجلاً قطُّ كانَ أكرم من رجل كان معنا، ما نعرِفه ولا يَعرِفنا، لَمَّا غُشِينا قاتَل دونَنا حتى صُرِع بيننا ، وهو رُزين بنُ المتوكّل البَكْري . وكان بعد ذلك يزورُنا ويُواصِلنا . ثمّ إنَّه هلك في إمارة الحَجَّاج ، فكانت وَرَثَته الأعرابُ ، وكان من العباد الصالحين .

قال هشام بنُ محمَّد ـ وذكره عن أبي مِخنَف ـ قال : حدّثني أبي ، عن عمِّه أنّ مُصعَب بن الزبير كان بعث أبا بكر بن مِخنَف على إسْتان العال ، فلما قَدِم الحارثُ بن أبي ربيعة أقصاه ، ثم أقرَّه بعد ذلك على عَملِه السَّنة الثانية ، فلمّا قَدِمت الخوارجُ المدائنَ سرَّحوا إليه عصابةً منهم ، عليها صالحُ بنُ مِخراق ، فلَقِيَه بالكرخ فقاتَله ساعةً، ثم تَنازَلوا فنَزل أبو بكر ونَزلت الخَوارج ، فقُتل أبو بكر ويَسار مولاه وعبدُالرحمن بنُ أبي جِعال ، ورجل من قومِه ، وانْهَزم سائرُ أصحابِه ، فقال سُرَاقةُ بنُ مِرداس البارقي في بطنٍ مِنَ الأزْد :

أَلا يـا لقَـومي لـلهُمـومِ الـطَّوارِق وللحَدَث الجـائِي بـإِحدَى الصَّفـائِق
ومَـقْتَـلِ غِـطْريـفٍ كـريمٍ نِـجـارُهُ من المُقْـدِمِين الـذّائِـدِين الأَصادِقِ
أَتَـاني دُوَيْن الخَيْف قتلُ ابن مِخنَفٍ وقـد غـوَّرَتْ أُولى النُّجـوم الخَوافِقِ
فقُـلتُ: تَـلَقَّـاكَ الإلـهُ بـرحمـةٍ وصـلَّى عليـكَ اللّهُ ربُّ المَشَـارِقِ
لحا اللّهُ قـومـاً عَـرَّدُوا عنـكَ بُكـرةً ولم يَصبِـرُوا لِـلاّمِعـاتِ البَـوارِقِ
تـولَّـوْا فـأَجْلَوْا بـالضُّحَى عن زَعِيمِنـا وَسَيِّـدِنـا في المـأْزِقِ المُتضـايـق
فـأنت مَتى مـا جِئتَنـا في بُيـوتنـا سمِعْتَ عَـويـلاً مِنْ عَـوَانٍ وَعَـاتِقِ
يُبَكِّينَ محمـودَ الضَّـرِيبـة مـاجـداً صَبـوراً لـدَى الهَيْجاءِ عنـدَ الحقـائق
لقـد أَصبَحتْ نفسي لـذاكَ حَـزِينـةً وشـابتْ لِمَـا حمّلتُ منـه مفـارِقي

قال أبو مِخنف : فحدّثني حَذْرة بن عبدِالله الأزْدي ، والنَّضر بنُ صالح العَبْسي ، وفضيل بن خَدِيج ، كلهم أخبرنيه أن الحارث بن أبي ربيعة [الملقب بالقُباع] أتاه أهلُ الكوفة ، فصاحوا إليه وقالوا له : اخرُج فإنّ هذا عدوّ لنا قد أظَلّ علينا ليست له بقيَّة ، فخرج وهو يكدّ كدًّا حتّى نزل النُّخيلة فأقامَ بها أيّاماً ، فَوَثب إليه إبراهيمُ بنُ الأشتر ، فحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أمَّا بعد ، فإنَّه سار إلينا عدوّ ليست له تَقيَّة ، يَقتل الرجل والمرأة والمولود ، ويُخيف السَّبيل ، ويُخرّب البلادَ ، فـانْهض بنا إليـه ، فأمُـر بالـرّحيل . فخـرَج فنزل دَيـر عبدِالرحمن ، فأقام فيه حتَّى دخل إليه شَبَث بن رِبْعيّ ، فكلَّمه بنحو ممَّا كلَّمه به ابنُ الأشتر ، فارتحل ولم يكدّ ، فلمَّا رأى الناسُ بُطْء سيْره رَجزوا به فقالوا :

سَـار بنـا القُبَـاعُ سَيْـراً نُكْـرَا يَـسِيـرُ يـومـاً ويُـقِيـمُ شَـهْـرَا

فأشخصوه من ذلك المكان ، فكلَّما نزل بهم منزلاً أقامَ بهم حتَّى يضجَّ الناسُ به من ذلك ، ويَصيحوا به حول فُسْطاطه ، فلم يبلُغ الصَّراةَ إلاَّ في بِضعةَ عشر يوماً ، فأتى الصراة وقد انتهى إليها طلائعُ العدُوّ وأوائلُ الخُيول ، فلما أتتْهم العيونُ بأنَّه قد أتاهم جماعةُ أهلِ المِصر قَطَعوا الجِسْر بينهم وبينَ النَّاس ، وأخذ الناسُ يَرتجزون :

إنَّ الـقُبـاعَ سـارَ سَـيْـراً مَـلْسَـا بـينَ دَبِـيـرَى ودَبَـاهَـا خَمْـسـا

قال أبو مِخنَف : حدَّثني يونسُ بنُ أبي إسحاق ، عن أبيه ، أنّ رجلاً من السَّبيع كان به لَمَم ، وكان بقرية يقال لها جَوْبَر عند الخرّارة، وكان يُدعَى سِمَاكَ بنَ يزيد ، فأتت الخوارجُ قريتَهُ فأخَذوه وأخذُوا ابنتَه ، فقدّموا ابنتَه فقتَلوها ، وزعم لي أبو الرّبيع السَّلولي أنّ اسم ابنته أمّ يزيد ، وأنّها كانت تقول لهم : يا أهلَ الإسلام ، إنّ أبي مُصاب فلا تَقتُلوه ، وأمَّا أنا فإنَّما أنا جارية ، والله ما أتيتُ فاحشةً قطّ ، ولا آذيتُ جارة لي قطّ ، ولا تطلَّعتُ ولا تشرَّفتُ قطّ . فقدَّموها ليقتلوها ، فأخذتْ تُنادي : ما ذَنْبي ما ذَنْبي ! ثم سقطتْ مَغشيًّا عليها أو ميّتة ، ثم قَطَّعوها ، بأسيافهم . قال أبو الربيع :حَدّثَتْني بهذا الحديث ظِئرٌ لها نَصْرانيَّةٌ من أهلِ الخَوَرْنَق كانت معها حين قُتلتْ .

قال أبو مِخنَف : حدّثني يونسُ بنُ أبي إسحاق ، عن أبيه ، أن الأزارقة جاءت بِسِماكِ بن يزيد معهم حتَّى أشرَفوا على الصَّراة . قال : فاستقبل عسكرَنا ، فرأى جماعة الناس وكثرتهم ، فأخَذ ينادِينا ويَرفَع صوتَه :

اعبُرُوا إليهم فإنَّهم فَلٌّ خبيث ، فضربوا عند ذلك عُنقَه وصَلبوه ونحن نَنظُر إليه . قال : فلمّا كان الليلُ عبرتُ إليه وأنا رجل من الحيّ . فأنزلْناه فدَفَنّاه .

قال أبو مخنف: حدّثني أبي أن إبراهيم بن الأشتر قال للحارث بن أبي ربيعة : اندب معي الناسَ حتّى أعبر إلى هؤلاء الأكلُب ، فأجيئكَ برؤوسِهم الساعةَ ؛ فقال شَبَث بن رِبْعي وأسماءُ بنُ خارجة ويزيد بن الحارث ومحمّد بن الحارث ومحمّد بن عُمَير : أصلحَ الله الأمير ! دَعْهم فليذْهبوا ، لا تَبدأهم ؛ قال : وكأنَّهم حَسَدوا إبراهيم بنَ الأشتر .

قال أبو مخنف : وحدّثني حَصِيرةُ بن عبدِالله وأبو زهير العَبْسي أنّ الأزارقةَ لما انتهوا إلى جِسْر الصّراة فرأوْا أنّ جماعة أهلِ المِصر قد خرجوا إليهم قطعوا الجسرَ ، واغتَنَم ذلك الحارث ، فتحبَّس . ثم إنّه جلس للناس فحَمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإن أول القِتال الرّميَّة بالنّبل ، ثم إشراع الرّماح ، ثم الطعن بها شَزْراً ؛ ثم السَّلّة آخر ذلك كلّه قال : فقام إليه رجل فقال ، قد أحسَن الأمير أصلَحه الله الصّفة ، ولكن حتام نَصْنع هذا وهذا البحر بيننا وبين عدوّنا ! مُرْ بهذا الجسْر فليُعَدْ كما كان ، ثم اعُبرْ بنا إليهم ، فإنّ الله سيريك فيهم ما تُحبّه ، فأمر بالجسر فأعيدَ ، ثم عبر الناسُ إليهم فطاروا حتّى انتَهوْا إلى المَدائن، وجاء المسلمون حتّى انتَهواْ إلى المدائن ، وجاءت خيل لهم فطاردت خيلاً للمسلمين طَرْداً ضَعِيفاً عند الجِسْر . ثمّ إنّهم خرجوا منها فأتبعهم الحارثُ بنُ أبي رَبيعةَ عبدَالرحمن بنَ مخنف في ستّة آلاف ليُخرجهم من أرضِ الكوفة ، فإذا وَقَعوا في أرضِ البصرة خَلاّهم فأتبعهم حتى إذا خَرَجـوا من أرضِ الكوفـة ووقعوا إلى أصبهـان انصرف عنهم ولم يقاتلهم ، ولم يكن بينه وبينهم قِتال ، ومضوا حتّى نزلوا بعَتّاب بنِ وَرْقاء بجَيّ ، فأقاموا عليه وحاصروه ، فخرج إليهم فقاتلهم فلم يُطِقهم ، وشَدّوا على أصحابه حتّى دخلوا المدينة ، وكانت أصبهان يومئذ طُعْمةً لإسماعيل بن طَلحة من مُصعَب بن الزبير ، فبعث عليها عتّاباً ، فَصَبَر لهم عتّاب ، وأخذ يخرج إليهم في كلّ أيام فيُقاتِلهم على باب المدينة ، وَيَرْمُون من السور بالنَّبْل والنشّاب والحِجَارة ، وكان مـع عتّاب رجـل من حَضرَمَوْت يقال له أبو هُرَيرة بنُ شريح ، فكان يَخرُج مع عتّاب ، وكان شجاعاً ، فكان يَحمِل عليهم ويقول :

كيف تَـرَوْن يـا كِـلابَ النّـارِ ... شَـدَّ أبـي هُـرَيْـرَة الـهَـرَّارِ
يـهِـرُّكـم بـالـلّيـلِ والـنهـارِ ... يـا بن أَبي المـاحـوزِ والأَشـرارِ
كيف تُرَى جَيَّ على المِضْمـارِ !

فلمّا طال ذلك على الخوارج من قوله كَمن له رجل من الخَوَارج يظنون أنّه عبيدة بن هلال ، فخرج ذات يوم فصنع كما كان يصنع ، ويقول كما كان يقول ، إذ حَمَل عليه عبيدة بنُ هِلال فضَرَبه بالسيف ضربةً على حبل عاتِقِه فصرعه ، وحَمَل أصحابُه عليه فاحتملوه فأدخَلوه وداوَوْه ، وأخذَت الأزارقةُ بعد ذلك تُناديهم يقولون : يا أعداءَ الله ، ما فَعَل أبو هُريرة الهرّار؟ فينادونهم : يا أعداء الله ، والله ما عليه من بأس، ولم يلبث أبو هريرة أن بَرِىءَ ، ثم خرج عليهم بعدُ ، فأخذوا يقولون : يا عدوَّ الله ، أما واللّهِ لقد رجونا أن نكون قد أزرناك أمّك ؛ فقال لهم : يا فسّاق، ما ذكركم أمّي ! فأخذوا يقولون: إنه ليغضب لأمـه ، وهو آتيهـا عاجـلاً . فقال لـه أصحابُهُ : وَيْحك ! إنّما يَعنُون النّارَ ، فَفَطِن فقال : يا أعداء الله ! ما أعقّكم بأمّكم حين تنتفون منها! إنما تلك أمكم، وإليها مصيركم. ثم إن الخوارج أقامت عليهم أشهراً حتى هلك كُراعهم ، ونفذت أطعِمتهم ، واشتدّ

عليهم الحصار ، وأصابهم الجَهد الشديد ، فدعاهم عتَّاب بن ورقاء فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمَّا بعد أيها الناس ، فإنه قد أصابكم من الجهد ما قد تَرون ، فوالله إن بقي إلاَّ أن يموتَ أحدُكم على فِراشه فيجيء أخوه فيَدفِنه إن استطاع ؛ وبالحَري أن يَضعُف عن ذلك ، ثم يموت هو فلا يجد من يَدفِنه ، ولا يصلي عليه ، فاتَّقوا الله ، فوالله ما أنتم بالقليل الَّذِين تهون شوكتهم على عدوهم ، وإنّ فيكم لفرسانُ أهل المصر ، وإنكم لصلحاء . من أنتم منه! اخرجوا بنا إلى هؤلاء القومِ وبكم حياة وقوَّة قبل ألا يستطيع رجلٌ منكم أن يمشي إلى عدوّه من الجَهْد ، وقبل ألا يستطيع رجل أن يمتنع من امرأة لو جاءتْه ، فقاتلَ رجلٌ عن نفسه وصبر وصدق ، فوالله إني لأرجو إن صدقتموه أن يُظفركم الله بهم ، وأن يظهركم عليهم . فناداه الناس من كل جانب : وفِّقتَ وأصبتَ ، اخرُج بنا إليهم ، فجمع إليه الناس من الليل ، فأمَر لهم بعَشاء كثير ، فعَشِيَ الناسُ عنده ؛ ثم إنَّه خرج بهم حين أصبح على راياتهم ، فصبَّحهم في عسكرهم وهم آمِنون من أن يُؤتَوا في عسكرهم ، فشَدّوا عليهم في جانبِه ، فضاربوهم فأخلوا عن وجه العسكر حتَّى انتهَوْا إلى الزّبير بن الماحوز ، فنزل في عِصابة من أصحابه فقاتَل حتى قُتِل ، وانحازت الأزارقةُ إلى قَطَريّ ، فبايعوه ، وجاء عَتَّاب حتَّى دخل مدينتَه ، وقد أصاب مِن عسكرهم ما شاء ، وجاء قَطَريّ في أثره كأنَّه يريد أن يقاتله ، فجاء حتى نزل في عسكر الزّبير بنِ الماحُوز ، فتزعم الخوارجُ أنّ عينا لِقَطَري جاءه فقال : سمعتُ عتَّابا يقول : إنّ هؤلاء القومَ إنْ رَكِبوا بَناتِ شَحَّاج ، وقادُوا بَناتِ صهَّال ، ونزلوا اليَومَ أرضاً وغداً أخرى ، فبالحَرِيّ أن يبقوا ؛ فلمَّا بلغ ذلك قَطَريًّا خرج فذهب وخَلاّهم .

قال أبو مخنف : قال أبو زهير العبسي وكان معهم : خرجنا إلى قطري من الغد مُشاةً مُصْلتين بالسيوف ؛ قال : فارتحلوا والله فكان آخر العهد بهم . قال : ثم ذهب قطري حتَّى أتى ناحية كِرْمان فأقام بها حتَّى اجتمعت إليه جموعٌ كثيرة ، وأكل الأرض واجتبى المال وقويَ ، ثم أقبَل حتى أخذ في أرض أصبهان . ثم إنَّه خرج من شِعْب ناشِط إلى أيذَج ، فأقام بأرضِ الأهواز والحارث بن أبي ربيعة عامل المُصعَب بن الزبير على البصرة ، فكتب إلى مصعب يُخبره أنّ الخوارجَ قد تحدّرتْ إلى الأهْواز ، وأنَّه ليس لهم إلاَّ المهلَّب ، فبعث إلى المهلَّب وهو على المَوْصِل والجزيرة . فأمرَه بقتال الخوارج والمَسير إليهم ، وبعث إلى عامله إبراهيم بن الأشتر ، وجاء المهلَّب حتَّى قَدِم البصرة ، وانتَخَب الناس ، وسار بمن أحَبّ ، ثم توجَّه نحو الخَوارج ، وأقبلوا إليه حتَّى التقَوا بسُولاَفَ ، فاقتتلوا بها ثمانيةَ أشهُر أشدّ قِتال رآه النّاس ، لا يُنقع بعضهم لبعض من الطَّعن والضَّرب ما يَصُدّ بعضهم عن بعض .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة كان القَحْطُ الشديدُ بالشام حتى لم يَقدِروا من شِدّته على الغَزْو .

فيها عَسكر عبدُالملك بنُ مروانَ ببُطنانِ حَبيب من أرضِ قِنَّسْرين ، فمُطِروا بها ، فكَثُر الوحل فسمَّوْها بُطْنان الطّين ، وشَتَا بها عبدُالملك ، ثم انصرَفَ منها إلى دِمَشق .

وفيها قتل عبيدالله بن الحرّ .

ذكر الخبر عن مقتله والسبب الذي جرّ ذلك عليه :

رَوَى أحمدُ بن زهير ، عن علي بن محمد ، عن علي بن مجاهد ، أن عُبيدَ الله بن الحُرّ كان رجلاً من خِيار قومِه صَلاحاً وفَضلاً ، وصلاةً واجتهاداً ، فلما قُتل عثمانُ وهاجَ الهيْجُ بين علي ومعاوية ، قال : أما إن الله ليعلم أني أحبّ عثمانَ ، ولأنصُرنَّه ميّتاً . فخرج إلى الشام ، فكان مع معاوية ، وخرج مالك بن مِسمَع إلى

معاوية على مثل ذلك الرأي في العثمانيَّة ، فأقام عُبيدُ الله عندَ معاوية ، وشهِد معه صِفّين، ولم يزل معه حتى قُتل علي عليه السلام، فلما قُتِل علي قَدِم الكوفةَ فأتى إخوانَه ومن قد خَفّ في الفتْنة ، فقال لهم : يا هؤلاء ، ما أرى أحداً ينفعه اعتزالُه ، كنَّا بالشام ، فكان من أمرِ معاوية كَيْتَ وَكَيْت . فقال له القوم : وكان من أمرِ علي كَيْت وكَيْت ، فقال : يا هؤلاء ، إنْ تُمكننا الأشياء فاخلعوا عُذرَكم ، واملِكوا أمرَكم ؛ قالـوا : سنلتقي ، فكانوا يلتقون على ذلك .

فلما مات معاوية هاج ذلك الهيْج في فتنة ابن الزبير، قال: ما أرى قريشاً تنصِف ، أين أبناءُ الحَرائر ! فأتاه خَلِيعُ كلّ قبيلة ، فكان معه سبعمائة فارس ، فقالوا : مُرْنا بأمرِك ، فلمَّا هَرب عُبيدُ الله بنُ زياد وماتَ يَزيدُ بنُ معاوية ، قال عُبيدُالله بن الحرّ لِفْتيانه : قد بيَّن الصّبحُ لذِي عَيْنَيْن ، فإذا شئتم ! فخرج إلى المدائن فلم يدع مالاً قُدّم من الجَبَل للسّلطان إلَّا أخذه ، فأخَذ منه عطاءَه وأعطية أصحابِهِ ، ثم قال : إنّ لكم شركاءَ بالكوفة في هذا المال قد استوجَبوه ، ولكن تعجّلوا عطاء قابلٍ سَلفاً ، ثم كتب لصاحِبِ المال براءةً بما قبض من المال ، ثم جعل يتقصىَّ الكُوَر على مِثل ذلك . قال : قلت : فهل كان يتناول أموال الناس والتّجار ؟ قال لي : إنَّك لغيرُ عالِم بأبي الأشْرس، والله ما كان في الأرض عربيٌّ أغْيَرَ عَنْ حُرَّة ولا أكفَّ عن قبيح وعن شَراب منه ، ولكن إنَّما وضعه عند الناس شِعْرُه ، وهو من أشعر الفِتيان . فلم يَزَل على ذلك من الأمر حتىَّ ظهر المُختار ، وبَلَغه ما يَصنَع بالسَّواد ، فأمر بامرأته أمّ سَلَمة الجُعفيّة فحُبِست ، وقال : والله لأقتُلنَّه أو لأقتلنّ أصحابه ، فلمَّا بلغ ذلك عُبيدَ الله بنَ الحُرّ أقبلَ في فِتْيانه حتىَّ دخل الكوفة لَيْلاً ، فَكَسَر بابَ السجن ، وأخرَج امرأتَه وكلَّ امرأة ورجل كان فيه ، فبعث إليه المختار مَن يقاتله ، فقاتلهم حتىَّ خرج من المِصْر ، فقال حينَ أخرج امرأتَه من السجن :

ألـم تَـعْـلَمِي يـا أُمَّ تـوبَـةَ أَنَّـنِي ... أَنَـا الْفَارِسُ الحَـامِي حَقَـائِقَ مَـذْحِـج
وأَنِّي صَبَحتُ السِّجْنَ في سوْرة الضُّحَى ... بكـلِّ فَتًى حـامي الـذِّمـار مُـدَجَّـجِ
فمـا إنْ بَـرِحْنَ السجن حتى بـدا لنا ... جَبِينٌ كَقَـرْنِ الشمس غَيْـرُ مُشَـنَّـجِ
وخـدٌّ أَسِيـل عـن فَـتَـاةٍ حَيِيَّةٍ ... إلَينـا سقـاهـا كـل دانٍ مُثَـجّـجِ
فـمـا الـعـيش إلَّا أن أَزُورَكِ آمِنًـا ... كعـادتِنا من قَبْـل حَـرْبي ومُخْـرَجي
ومـا أنْتِ إلَّا همَّـةُ النفس والـهـوى ... عَلَيْـكِ السـلامُ من خليط مُسَحَّـجِ
ومـا زلتُ مَحْبـوساً لحبسكِ وَاجِمـاً ... وإنِّي بمـا تَـلْقَيْـن من بَـعْـدِهِ شَـجِ
فبـالله هَـلْ أبْصَـرْتِ مِثليَ فـارِسـاً ... وقد وَلَجُوا في السجن من كُلّ مَوْلِجِ !
ومثلي يُـحـامي دون مِـثـلِكِ إنَّـني ... أَشُـدُّ إذا مـا غَـمْـرَة لـم تـفـرَّجِ
أضـارِبهم بـالسيف عَنْـكِ لتَـرجعي ... إلى الأمن والعيش الرفيعِ المُخَرفَجِ
إذا مـا أحـاطـوا بي كـررتُ عليْهمُ ... كَكَـرِّ أبي شِبْلين في الخِيس مُحْـرَجِ
دعـوتُ إليَّ الشـاكـريَّ ابنَ كـامـل ... فـوَلَّى حَثِيثـاً رَكْضُـهُ لم يُعَـرِّجِ
وإن هَتَفُـوا بـاسمي عَـطَفْتُ عَلَيْهِمُ ... خُيُـولَ كِرَامِ الضرب أكثرُهَـا الـوَجي
فـلا غَـرْوَ إلَّا قـولَ سَلْمَى ظَعينَتي ... أَمـا أَنْتَ يـابن الحُـرِّ بـالمُتَحـرِّجِ !
دَعِ القَـوْم لا تَقْتُلْهُم وانجُ سـالمـاً ... وشَمّـرْ هَـدَاك اللّهُ بـالخَيـل فـاخْـرُجِ

وإني لأَرْجُـو يـا ابنـة الخَيـر أن أُرَى على خيـر أَحْـوَال المُؤَمَّـلِ فـارتجي
أَلَا حبـذا قـولـي لأَحْمَـر طَيِّـىءٍ ولابن خُبَيْبٍ قـد دنـا الصبْح فـادلـج
وقـولي لهذا سِرْ وَقَـولي لـذا ارتحِـلْ وقـولي لـذا من بعـد ذلـك أَسـرِج

وجعل يعبث بعُمّالِ المختارِ وأصحابِه ، ووَثبتْ هَمْدان مع المختار فأحرقوا دارَه ، وانتهبوا ضيْعته بالجُبّةِ والبُداة ، فلما بلغه ذلك سار إلى مَاه إلى ضِياع عبدِالرحمن بن سعيدِ بنِ قيس ، فأنهبها وأنهب ما كان لهمْدانَ بها ، ثمّ أقبل إلى السَّواد فلم يدع مالاً لهَمْداني إلَّا أخذَه ، ففي ذلك يقول :

ومـا تَـرَكَ الكـذَّابُ مِنْ جُـلِّ مـالِنَـا ولا الـزرقُ من همـدَانَ غيْـرَ شـريـدِ
أَفي الحَق أن ينْهبْ ضيـاعِيَ شـاكـرٌ وتـأْمنَ عنـدي ضَيْعَـة ابنِ سَعيـدِ!
أَلـم تَعْـلَمـي يـا أُمَّ تـوبَـةَ أنَّـنِي على حـدثـان الـدهـر غيْـرُ بَلِيـدِ
أَشُـدُّ حيـازِيمـي لكـلِّ كـريـهَـةٍ وإنـي عـلى مـا نـاب جـدُّ جَليـدِ
فـإن لم أُصَبِّـحْ شـاكـراً بكتيبَـةٍ فعـالجتُ بـالكفَّين غُـلَّ حَـديـدِ
هُـمُ هـدمـوا داري وقـادوا حليـلتي إلى سِجْنِهِمْ والمسلمـون شُـهـودي
وهم أعجلوهـا أن تَشُـدَّ خمـارَهـا فيـا عَجَبـاً هـلِ الـزمـان مقيـدي!
فمـا أنـا بـابن الحُـرِّ إن لم أَرُعْهُمُ بخَيـلٍ تـعـادى بـالكمـاةِ أُسُـودِ
ومـا جَبُنَـتْ خيـلي ولكـن حَـملتُهـا عـلى جَحْفـلٍ ذي عُـدّةٍ وعَـديـدِ

وهي طويلة . قال : وكان يأتي المَدائنَ فيمرّ بعمَّال جُوخَى فيأخذ ما معهم من الأمْوال ، ثم يميل إلى الجَبَل ، فلم يزَل على ذلك حتَّى قُتِل المختار ، فلما قُتِل المختار قال الناس لمصعب في ولايته الثانية : إن ابن الحُرّشاق بن زياد والمختار ، ولا نأمَنُه أن يثب بالسواد كما كان يفعل ، فحبسه مُصعَب فقال ابن الحُرّ :

مـن مُبـلغُ الـفِـتْيَـانِ أَنَّ أخـاهُـمُ أَتَى دونَـهُ بـابٌ شَـديـدٌ وحـاجبُـه
بمنـزلَـة مـا كـان يـرْضى بمثلِهَـا إذا قـام عـنَّتْـه كبـولٌ تَجـاوبُـهْ
على الساق فوق الكعب أَسْوَدُ صامتٌ شـديـدٌ يُـداني خَـطْوَهُ ويُقَـارِبُـهْ
ومـا كـان ذا من عُـظم جُـرْمٍ جَنيْتُـهُ ولكن سَعى الساعي بما هُـوَ كـاذِبُـهْ
وقد كان في الأَرض العـريضَةِ مسلكٌ وأيُّ امـرىءٍ ضـاقَتْ عليه مـذاهِبُـهْ!
وفي الـدهـر والأيـام للمـرءِ عِبْـرَةٌ وفيمـا مضى إن نـاب يَـوْمـاً نـوائبُـهْ

فكلَّم عبيدالله قوماً من مذحجَ أن يأتوا مصعباً في أمره ، وأرسل إلى وجوههم ، فقال : ائتوا مصعبا فكلّموه في أمري ذاته ، فإنَّه حَبَسَني على غيرجُرْم ، سعى بي قومٌ كذَبةٌ وخَوّفُوه ما لم أكنِ لأفعَله ، وما لم يكن من شأني . وأرسل إلى فِتيان من مَذْحج وقال : البسوا السلاح ، وخُذُوا عدّة القتال ، فقد أرسلتُ قوماً إلى مُصعب يكلمونه في أمري ، فأقِيموا بالباب ، فإن خرج القومُ وقد شفّعهم فلا تَعرِضوا لأحد ، ولْيَكُنْ سلاحُكم مكفَّراً بالثياب ، فجاء قوم من مَذحِج فدخلوا على مُصعب فكلمـوه ، فشفَّعهم ، فأطلَقـه . وكان ابنُ الحُـرّ قال لأصحابه : إن خرجوا ولم يشفّعهم فكابروا السجن فإني أعينكم من دَاخل ، فلما خرج ابنُ الحُرّ قال لهم : أظهِروا السلاح ، فأظهَروه ، ومضى لم يَعرِض له أحد ، فأتَى منزلَه ، وندم مصعب على إخراجِه ، فأظهَر ابنُ

الحُرِّ الخِلافَ ، وأتاه الناسُ يهنِّئونه ، فقال : هذا الأمر لا يصلح إلاَّ لِمثل خُلفائكم الماضين ، وما نَرَى لهم فينا نِدًّا ولا شَبيهاً فنُلقِي إليه أزمَّتنا ، ونمحضه نصيحتنا ، فإن كان إنَّما هو مَن عزَّ بزّ ، فعلامَ : نَعقد لهم في أعناقنا بَيعةً ، وليسوا بأشجَعَ منَّا لقاءً ، ولا أعظمَ منَّا غناء! وقد عَهِد إلينا رسول الله ﷺ : ألاّ طاعةَ لمخلوق في معصيةِ الخالق ، وما رأيْنا بعدَ الأربعةِ الماضِين إماماً صالحاً ، ولا وزيراً تقيًّا ، كلهم عاصٍ مخالِف ، قويّ الدنيا ، ضعيفُ الآخرة ، فعلام تُستحَلّ حرمتنا ، ونحن أصحاب النُّخيلة والقادسيَّة وجَلولاء ونِهاوَند! نَلقَى الأسنة بنُحورنا والسيوفَ بِجباهِنا ، ثم لا يعرف لنا حقّنا وفضلنا ؛ فقاتلوا عن حريمكم ، فأيّ الأمرِ ما كان فلَكُم فيه الفضلُ ، وإني قد قلبت ظهر المِجَنّ ، وأظهرتُ لهم العداوة ، ولا قُوَّة إلاَّ بالله . وحاربهم فأغار فأرسل إليه مصعبٌ سيفَ بن هانِىء المُراديّ ، فقال له : إنّ مصعباً يُعطِيك خراج بادوريا على أن تُبايع وتدخل في طاعته ؛ قال : أوَليسَ لي خَراجُ بادوريا وغيرها ! لست قابلاً شيئاً ، ولا آمَنُهم على شيء ، ولكني أراك يا فتى ـ وسيفٌ يومئذ حَدَثٌ ـ حَدثاً ، فهل لك أن تَتْبَعني وأموّلك! فأبى عليه ، فقال ابن الحُرّ حين خرج من الحَبْس :

لا كُـوفَـةُ أُمِّـي ولا بَـصْـرَةُ أَبِي ... ولا أنـا يَثْنِيني عن الـرحْلَة الـكَسَـلْ

ـ قال أبو الحسن : يُروَى هذا البيتُ لسُحَيْم بن وثيل الرِّياحي ـ :

فـلا تحْسَبَنِّي ابنَ الـزُّبَـيْرِ كَـنـاعِسٍ ... إذا حَـلَّ أَغْفَى أو يقـال لَـهُ آرتحِـلْ
فـإنْ لم أُزِرْكَ الخَيـلَ تَـرِدِي عـوابِسـاً ... بفُـرْسانها لا أُدْعَ بـالحـازِمِ البَـطَلْ
وإن لم تَـرَ الغَـارَاتِ مِنْ كُـلِّ جانبٍ ... عليك فتَنْـدَمْ عـاجلاً أيُّهـا الـرّجـلْ
فـلا وضعَتْ عنـدي حصَـانٌ قنَـاعهَـا ... ولا عِـشْـتُ إلاَّ بـالأمـانِيِّ والـعِـلَلْ

وهي طويلة .

فبعث إليه مُصعَب الأبردَ بن قرة الرياحيّ في نفر ، فَقاتله فهزمَه ابنُ الحُرّ ، وضَرَبه ضربةً على وجهه ، فبعث إليه مصعبٌ حُرَيْثَ بنَ زَيْد ـ أو يزيدَ ـ فبارَزه ، فقَتَله عُبيدُالله بن الحُرّ ، فبعث إليه مصعب الحجَّاج بن جارية الخثعمي ومُسلم بن عَمرو ، فلَقِياه بنهر صرْصر ، فقاتَلهم فهزَمَهم ، فأرسل إليه مصعب قوماً يدعونه إلى أن يؤمّنه ويصِله ، ويولّيه أيَّ بلد شاء ، فَلَم يَقبَل ، وأتى نَرْسَى ففر دِهْقَانُها ظيزجشْنَس بمالِ الفَلُّوجة ، فتَبعه ابنُ الحُرّ حتَّى مرّ بعَين التَّمر وعليها بِسْطام بنُ مَصقَلة بن هُبيرة الشَّيبانيّ، فتعوَّذ بهم الدّهقان ، فخرجوا إليه فقاتَلُوه ـ وكانت خيلُ بسطام خَمْسين ومائةَ فارس ـ فقال يونس بن هاعان الهَمْداني من خَيْوان ، ودعاه ابنُ الحُرّ إلى المُبارَزة : شرٌّ دهر آخره ، ما كنتُ أحسبني أعيش حتى يدعوني إنسانٌ إلى المُبارزة ! فبارَزه فضَرَبَه ابنُ الحُرّ ضربةً أَثْخَنته ، ثم اعْتَنقا فخرَّا جميعاً عن فرسيهما ، وأخذ ابنُ الحُرّ عِمامةَ يونسَ وكتَّفه بها ثم ركب ، ووافاهم الحجَّاج بن حارثة الخَثْعَمي ، فَحَمَل عليه الحجَّاج فأسره أيضاً عُبيدالله ، وبارز بِسطام بن مصقلة المجشِّرَ ، فاضطربا حتَّى كره كلُّ واحد منهما صاحبَه ، وعلاه بِسطام ، فلمَّا رأى ذلك ابن الحُرّ حَمَل على بِسْطام واعتنقه بسطامٌ ، فَسقَطا إلى الأرض ، وسقَط ابنُ الحرّ على صدرِ بِسطام فأسره ، وأسر يومئذ ناساً كثيراً ، فكان الرجل يقول : أنا صاحبُك يومَ كذا ، ويقول الآخر : أنا نازلٌ فيكم ، ويَمُتّ كلّ واحد منهم بما يَرَى أنَّه يَنفعه ، فيخلّي سبيله ، وبعثَ فوارسَ من أصحابه عليهم دَلْهَمٌ المُرادِيّ يَطلُبون الدّهقان ، فأصابوه ، فأخذوا المالَ قبلَ القتال ، فقال ابنُ الحُرّ :

لَــوْ أَنَّ لــي مِـثْـلَ جَـريـرٍ أَرْبَـعَـهْ   صبحْتُ بَيْت المـالِ حتى أَجْمَعهْ
ولـم يُـهـلني مُـصْـعبٌ ومـنْ مَـعَـه   نِـعْمَ الـفَتَى ذٰلكُمُ آبـن مَـشْـجَـعَـهْ

ثم إن عُبيدَ الله أتى تَكْرِيتَ ، فهرَب عاملُ المهلَّب عن تكريتَ ، فأقام عُبيد الله يجبي الخراج ، فوجّه إليه مصعبٌ الأبردَ بن قرّة الرّياحيّ والجَوْن بنَ كَعْب الهَمْـداني في ألف ، وأمدّهُما المهلَّب بيـزيد بنُ المغفَّـل في خمسمائة ، فقال رجلٌ من جُعْفي لعبيد الله : قد أتَاكَ عددٌ كثير ، فلا تُقاتِلْهم ، فقال :

يُخَـوِّفُـنِي بـالـقَـتْـلِ قـومِـي وإنَّمـا   أَمُـوتُ إذا جـاءَ الـكتـابُ المؤَجَّـلُ
لَعـلَّ القنا تُـدْني بأَطْـرافِهـا الغِنَى   فـنَحْيـا كِـرَامـاً أو نَكُـرُّ فـنـقْـتَـلُ

فقال للمجشّر ودَفَع إليه رايتَه ، وقدّم معه دَلْهَماً المرادي ، فقاتَلهم يومين وهو في ثـلاثمائـة ، فخرج جَرير بنُ كريب ، وقُتِل عَمرو بن جُندَب الأزديّ وفُرسان كثيرمن فُرْسانه ، وتحاجَزوا عندَ المساء ، وخرج عُبيدُ الله من تَكريتَ فقال لأصحابه : إني سائرٌ بكم إلى عبدالملك بن مَرْوان ، فتهيَّئوا ، وقال : إني أخاف أن أفارقَ الحياةَ ولم أذعرْ مُصعْباً وأصحابه ، فارجِعوا بنا إلى الكوفة . قال : فسار إلى كَسْكَر فَنَفى عامِلها ، وأخذ بيت مالِهَا ، ثمّ أتى الكوفة فنزل لحّام جرير ، فبعث إليه مُصعبٌ عمرَ بن عُبيد الله بن معمر ، فقاتَلَه ، فخرَج إلى دَيْر الأعور ، فبعث إليه مُصْعَبٌ حجّار بن أبجر ، فانهزم حجّار ، فشَتَمه مصعبٌ وردّه ، وضم إليه الجوْن بن كعب الهَمْداني وعمر بن عُبيدالله بن مَعمر ، فقاتلُوه بأجمعهم ، وكثرت الجراحـات في أصحاب ابن الحُـرّ وعُقِرتْ خُيولهم ، وجُرح المجشّر ، وكان معه لواءُ ابن الحُرّ ، فدَفَعه إلى أحْمَر طيّىء ، فانهزَمَ حجّار بن أبجر ثم كرّ ، فاقتتلوا قِتالاً شديداً حتّى أمسَوْا ، فقال ابنُ الحُرّ :

لــو أَنَّ لِـي مِـثْـلَ الـفتـى الـمُـجَشِّـرِ   ثـلاثـةً بَـيَّـتُّـهُـمْ لاَ أَمـتَـرِي
سـاعَـدنــي لَـيْـلَةَ دَيْـرِ الأَعْـوَرِ   بـالـطَّعن والضَّـربِ وعنـدَ المَعبَـرِ
لَطـاحَ فيهـا عُمـر بنُ مَعمــر

وخرج ابنُ الحُرّ من الكوفة ، فكَتَب مصعبٌ إلى يزيد بن الحارث بن رُؤيم الشَّيْباني ـ وهو بالمَدائن ـ يأمره بقتال ابن الحُرّ ، فقدّم ابنه حَوْشباً فَلقِيَه بباجِسْرى ، فهزَمَه عُبيدُالله وقُتِل فيهم ، وأقبل ابنُ الحُـرّ فدخـل المَدائن ، فتَحصّنوا ، فخرج عبيدُالله فوجَّه إليه الجون بن كَعْب الهَمْدانيّ وبِشْر بن عبدالله الأسدي ، فنزل الجون حَوْلَايَا ، وقَدم بِشر إلى تَامَرَّا ، فلقِي ابنَ الحُرّ ، فَقَتله ابنُ الحُرّ ، وهزم أصحابه ، ثم لقي الجون بن كعب بَحْولايا ، فخرج إليه عبدالرحمن بن عبدالله ، فحَمل عليه ابنُ الحُرّ فـطعَنه فقتَله وهـزم أصحابَـه ، وتَبِعهم ، فخرج إليه بشير بنُ عبدالرّحمن بن بشير العِجْلي ، فالتَقوا بُسورَا فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانحاز بشير عنه ، فرجع إلى عمله ، وقال : قد هزمتُ ابنَ الحُرّ، فبلغ قولُه مُصعَباً ، فقال : هذا مِن الذين يُحبّون أن يُحمَدُوا بما لم يَفْعلوا . وأقامَ عُبيد الله في السَّواد يُغيرُ ويجبي الخراج ، فقال ابنُ الحُرّ في ذلك .

سلُوا آبن رُؤيم عن جِـلاَدِي ومـوْقِفِي   بـإيـوانِ كسـرى لا أُولِّيهمُ ظَهْـرِي
أَكُـرُّ عليهـمْ مُـعْـلِمـاً وَتَـراهُـمُ   كمِعْزَى تحَنَّى خَشيةَ الـذئب بالصَّخْرِ
وبَيَّتُهُمْ في حِصنِ كِسرَى بن هُـرْمُـزٍ   بمشْـحـوذةٍ بيضٍ وخَـطِّيّـةٍ سُمْـرِ
فـأَجـزيتُهُم طعنـاً وضـربـاً تـراهُمُ   يَلوذُون منـا مَـوْهِنـاً بـذُرا القَصْـرِ

يَـلُوذون مِـنّـي رَهبـةً ومَـخـافـةً لـواذاً كما لاَذ الحمـائمُ من صَقْـرِ

ثم إن عُبيدَ الله بن الحُرّ ـ فيما ذكر ـ لحق بعبد المَلِك بن مَرْوان ، فلمّا صار إليه وجّهه في عشرة نفر نحوَ الكُوفة ، وأمره بالمسير نحوَها حتى تلحقه الجنودُ، فسار بهم ، فلمّا بلغ الأنْبار وجّه إلى الكوفة من يُخبِر أصحابَه بقدومه ، ويَسألهم أن يخرجوا إليه ، فبلغ ذلك القيسيَّة ، فأتوا الحارث بن عَبدالله بن أبي ربيعة عامل ابن الزّبير على الكُوفة ، فسألوه أن يبعث معهم جيشاً ، فوجَّه معهم ، فلمّا لقُوا عُبيد الله قاتَلَهم ساعـة ، ثم غرقَت فرسُه ، ورَكب معبراً فوَثب عليه رجلٌ من الأنْباط فأخذ بعَضُدَيه وضرَبَه الباقون بالمَرادِيّ ، وصاحوا : إنّ هذا طلبةُ أمير المؤمنين ، فاعْتنقا فغَرقا، ثم استخرَجوه فجَزّوا رأسَه ، فبَعَثوا به إلى الكُوفة ثم إلى البَصْرة .

قال أبو جعفر: وقد قيل في مَقتله غير ذلك من القول ؛ قيل : كان سببُ مَقتَل عُبيد الله بن الحُرّ أنّه كان يغشَى بالكوفة مُصعَباً ، فرآه يُقدّم عليه أهلَ البصرة ، فكتب إلى عبدالله بنِ الزّبير ـ فيما ذُكر ـ قصيدةً يعاتِب بها مُصعَبا ويخوّفهُ مَسيرَه إلى عبدِالملك بنِ مَروان، يقول فيها :

أَبْلِغْ أميـرَ الـمـؤمـنـيـنَ رِسـالـةً فَلَسْتُ عـلى رأيٍ قـبـيـحٍ أواربُـهْ
أفي الحقّ أن أُجْفَى وَيَجعَـل مُصْعَبٌ وَزِيـرَيْـهِ مَن قـد كنتُ فيـه أحـارِبُـهْ!
فـكيـفَ وقـد أبليتُكم حقَّ بيْعتـي وحـقِّيَ يُـلْوى عـنـدكُم وأطـالِـبُـهْ
وأَبـليتُـكُـمْ مَـالاً يُـضَـيَّـعُ مِـثلُهُ وآسـيْتُكم والأمـرُ صَعْبٌ مَـراتبُـهْ
فلمَّا آستنار الملكُ وآنقـادَتِ العِـدَا وأُدْرِكَ مِـن مـال العـراقِ رغـائـبُـهْ
جَفـا مُصعَبٌ عنّي ولـو كـان غيـرَهُ لأصبَـحَ فيـمـا بيننـا لا أُعـاتِـبُـهْ
لقـد رابَني من مُصعب أنّ مُصْعَبـا أرَى كُـلَّ ذِي غِشٍّ لنا هـو صـاحِبُـهْ
ومـا أنـا إنْ حَـلأْتُـمُـوني بِـوارِدٍ على كَـدرٍ قـد غُصّ بـالصَّفْـو شـارِبُـهْ
ومـا لِامـرِىءٍ إلاّ الّـذِي اللّهُ سـائقٌ إليـه ومـا قـد خَطَّ في الـزُّبْـر كـاتِبُـهْ
إذا قمتُ عنـد البـاب أدْخِـلَ مُسْلمٌ ويمنعُني أن أدخُـلَ البـابَ حـاجِبُـهْ

وهي طويلة .

وقال لمُصعَب وهـو في حَبْسه ، وكان قد حُبس معه عطيَّة بنُ عَمرو البَكْريّ ، فخرج عطيَّـة ، فقال عُبيد الله :

أقـولُ لـه صـبـراً عَـطِيُّ فـإنَّـمـا هـو السجن حتّى يَجعلَ اللّهُ مَخْـرجـا
أرَى الـدّهـرَ لي يـوْمين يـومـاً مـطرّداً شَـريـداً ويـومـاً في المُلوك مُتَـوَّجَـا
أتَـطْعَـنُ في دِيـني .غَـدَاةَ أَتَـيْتُـكُـمْ وللدّين تُـدْنى البـاهليَّ وحَشْـرَجَـا!
أَلَمْ تـر أنَّ الملكَ قـد شِيـنَ وَجهُـهُ ونَبْـعُ بـلادِ الله قـد صـارَ عَـوْسَجَـا!

وهي طويلة .

وقال أيضاً يُعاتب مُصعَبًا في ذلك ، ويَذكُر له تقريبَه سُويد بن مَنْجوف ، وكان سُوَيد خفيف اللحية :

بـأيّ بـلاءٍ أمْ بـأيـةِ نـعـمـة ... تَـقـدَّمُ قَبْـلي مُـسـلمٌ والمـهـلَّبُ
ويُـدعَى ابن منْجـوف إمـامي كـأنـه ... خصيٌّ أتى لـلماءِ والـعَـيْر يَـسـرُبُ
وشيـخُ تَميـمٍ كـالـثُّغَـامـةِ رأسُـهُ ... وعَـيْـلان عنَّـا خـائفٌ مُـتـرَقِّـبُ
جَعلتُ قُصـور الأَزْدِ ما بـينَ مِنبجٍ ... إلى الغـافِ من وادِي عُمـانَ تصـوّبُ
بـلادٌ نَفى عـنهـا العـدوَّ سُـيـوفنـا ... وصُـفـرةُ عنـا نـازحُ الـدَّار أَجْـنبُ

وقال قصيدةً يهجو فيها قيس عَيْلان ، يقول فيها :

أنـا آبنُ بني قَيْس فـإنْ كنتَ سـائـلاً ... بـقيسٍ تَجِـدْهُـم ذروَةً في القبـائـل
ألم تَـر قيسـاً قيس عَيـلان بَـرقَـعَتْ ... لِحـاهـا وبـاعتْ نَبْلَها بـالمَغـازِلِ!
ومـا زِلتُ أرجـو الأزدَ حتَّى رأيتُهـا ... تُـقصِّرُ عـن بُـنْـيـانِهَا المـتـطاولِ

فكتب زُفر بنُ الحارث إلى مُصعب : قد كَفيتك قتال ابن الزّرقاء وابن الحُرّ يهجو قيساً . ثم إنّ نَفراً بني سُلَيم أخذوا ابنَ الحُرّ فأسَروه ، فقال : إني إنَّما قلت :

ألم تَـر قَيْسـاً قيسَ عَيـلانَ أقبَلتْ ... إلينـا وسـارتْ بـالقَنا والقنـابـلِ

فقتله رجلٌ منهم يقال له عَيَّاش فقال زُفَر بن الحارث :

لمـا رأيـتُ الـنـاسَ أولاد عَـلَّةٍ ... وأغـرق فينا نَـزْعـةً كُـلُّ قـائـلِ
تـكلَّمَ عـنَّـا مَـشْيُـنـا بسُـيـوفِنـا ... إلى الموتِ وآستِنْشاط حَبْل المَراكِل
فلو يَسـألُ آبـنُ الحـرّ أُخبِـرَ أنَّها ... يمـانـيَـةٌ لا تُـشـتَـرَى بـالمَـغـازل
وأُخبِـرَ أنَّـا ذَاتُ عِـلمٍ سُـيـوفُـنـا ... بـأعنـاقِ ما بـينَ الـطُّلَى والكـواهِـل

وقال عبدُ الله بن هَمَّام :

تَـرنَّمْتَ يـا بنَ الحُـرِّ وحدَكَ خَـالِيـاً ... بقـولِ آمرىءٍ نَشـوانَ أو قـولِ سـاقِطِ
أتـذكُرُ قـومـاً أوجَعَتْـك رِمـاحُهُمْ ... وذَبّـوا عَنِ الأحسـابِ عنـدَ المـآقِطِ
وَتَبكي لِمـا لاَقَـت ربيعـةُ منهـمُ ... ومـا أنتَ في أحسـابِ بكـرٍ بـواسطِ!
فـهـلَّا بِـجُـعْـفـيٍّ طَـلَبْتَ ذُحُـولَهـا ... ورهْـطك دنياً في السِّنـين الفَـوارِط!
تَـركـنـاهُـمُ يـومَ الـثَّـريّ أذلّـةً ... يـلوذُون من أسيـافِـنـا بـالـعَـرَافِطِ
وخـالَـطكم يـوم النُّخَيْـل بجَمْعِـه ... عُمَـيْرٌ فـما استَبشَـرتـمُ بـالمُخـالِطِ
ويـوم شـراحيـلٍ جَـدعْنـا أنـوفَكُمْ ... ولـيس عـلـيـنـا يـومَ ذاكَ بقـاسط
ضَـرَبنـا بحـدِّ السَّيْف مفـرِق رأسـه ... وكـان حـديثـاً عهْـدُهُ بـالمَـواشِطِ
فـإن رغمتْ من ذاك آنفُ مَـذحـجٍ ... فـرغـمـاً وسخْـطاً لـلأنـوف السَّـواخِطِ

قال أبو جعفر : وفي هذه السَّنة وافَت عَرَفات أربعةُ ألوية ، قال محمَّد بنُ عمر : حدَّثني شُرَحبيل بنُ عَوْن ، عن أبيه ، قال : وقفتُ في سنة ثمان وستين بعَرَفات أربعةُ ألوية : ابنُ الحنفيَّة في أصحابه في لواء

عند جبل المُشاة ، وابنُ الزّبير في لواء ، فقام مَقامَ الإمام اليومَ ، ثم تقدّمَ ابنُ الحنفيَّة بأصحابه حتّى وقفوا حذاءَ ابن الزبير ، ونجدةُ الحَزوري خَلفَهما ، ولواءُ بني أميَّة عن يسارهما ، فكان أوّل لواء انفض لواءُ محمَّد بن الحنفيَّة ، ثم تَبعه نَجدة ، ثم لواء بني أميَّة ، ثم لواءُ ابن الزّبير ، واتَّبعه الناس .

قال محمد : حدّثني ابن نافع ، عن أبيه ، قال : كان ابنُ عمرَ لم يدفع تلك العشيَّة إلاّ بدَفْعة ابنِ الزّبير ، فلمَّا أبطأ ابنُ الزّبير وقد مضى ابنُ الحنفيَّة ونَجدة وبنو أميَّة ـ قال ابن عمر : ينتظر ابنُ الزبير أمر الجاهلية ـ ثم دَفع ، فدَفع ابنُ الزّبير على أثره .

قال محمَّد : حدّثني هشامُ بنُ عُمارة ، عن سعيد بنِ محمَّد بن جُبَير ، عن أبيه ، قال : خفتُ الفتنَة ، فمشيت إليهم جميعاً ، فجئت محمَّدَ بن علي في الشِّعب ، فقلتُ : يا أبا القاسم ، اتَّقِ الله فإنَّا في مَشعر حَرام ، وبلد حرام ، والناس وفدُ الله إلى هذا البيت ، فلا تُفسد عليهم حَجَّهم ؛ فقال : واللّهِ ما أريد ذلك ، وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ، ولا يُؤتَى أحدٌ من الحاجّ من قبَلي ، ولكني رجلٌ أدفَع عن نفسي من ابن الزبير ؛ وما يروم منّي ، وما أطلب هذا الأمر إلاّ ألاّ يختلف عليَّ فيه اثنان ! ولكن ائتِ ابنَ الزبير فكلّمه ، وعليك بنَجْدة ، قال محمَّد : فجئتُ ابنَ الزبير فكلَّمته بنحو ما كلَّمتُ به ابنَ الحنفيَّة ، فقال : أنا رجل قد اجتمع عليَّ الناسُ وبايَعوني ، وهؤلاء أهلُ خلاف ، فقلت : أرَى خيراً لك الكَفَّ ؛ قال : أفعَل ، ثم جئتُ نَجدةَ الحَروري فأجدُه في أصحابه ، وأجدُ عكرمةَ غلامَ ابن عبَّاس عنده ، فقلت له : استأذِن لي على صاحبك ؛ قال : فدخل ، فلم يَنشَب أن أذِن لي ، فدخلتُ فعظَّمتُ عليه ، وكلّمته كما كلَّمت الرّجلين ، فقال : أمَّا أن ابتدىء أحداً بقتال فلا ، ولكنْ مَن بدأ بقتال قاتلتُه ؛ قلتُ : فإني رأيتُ الرّجلين لا يُريدان قتالَك ، ثم جئتُ شيعةَ بني أميَّة فكلَّمتهم بنحو ما كلَّمت به القوم ، فقالوا : نحن على ألا نُقاتلَ أحداً إلاّ أن يقاتلَنا ، فلم أرَ في تلك الألوية قوماً أسكَنَ ولا أسلَمَ دفعةً من ابن الحنفيَّة .

قال أبو جعفر : وكان العاملُ لابن الزّبير في هذه السنة على المدينة جابرُ بنُ الأسود بن عوف الزّهري ، وعَلَى البَصرة والكوفة أخوه مُصعب ، وعلى قضاءِ البَصْرة هشامُ بنُ هُبيرة ، وعلى قضاء الكوفة عبدُالله بنُ عُقْبة بن مسعود ، وعلى خُراسانَ عبدُالله بن خازم السُّلَمي ، وبالشام عبدُ الملك بن مَرْوان .

ثم دخلت سنة تسع وستين

ففيها كان خروج عبدالملك بن مروان - فيما زعم الواقدي - إلى عين وَرْدة ، واستخلف عمرو بن سعيد بن العاص على دمشق فتحصّن بها ، فَبَلَغ ذلك عبدالملك ، فرجع إلى دمشق ، فحاصره - قال : ويقال : خرج معه - فلمّا كان بِبُطْنانِ حَبيب ، رجع إلى دمشق فتحصّن فيها ، ورجع عبدالملك إلى دمشق .

وأمّا عوانة بن الحكم فإنّه قال - فيما ذكر هشام بن محمد عنه : - إن عبدالملك بن مروان لما رجع من بُطْنان حبيب إلى دمشق مكث بدمشق ما شاء الله ، ثم سار يريد قَرقِيسياءَ ، وفيها زُفَر بنُ الحارث الكلابي ومعه عمرُو بن سعيد ، حتى إذا كان ببُطنان حبيب فتك عَمرُو بن سعيد ، فرجع لَيْلاً ومعه حُمَيد بن حُريث بن بَحْدل الكلبي وزُهير بن الأبرد الكلبي ، حتى أتى دمشق وعليها عبدالرحمن ابن أمّ الحَكَم الثّقفي قد استخلفه عبدالملك ، فلمّا بلغه رجوعُ عمرو بن سعيد هَرَب وتَرَك عملَه ، ودخَلَها عمرو فغَلَب عليها وعلى خزائنها .

وقال غيرهما : كانت هذه القصة في سنة سبعين . وقال : كان مسير عبدالملك من دمشق نحوَ العراق يريد مُصعب بن الزّبير ، فقال له عمرو بن سعيد بن العاص : إنّك تَخرُج إلى العراق ، وقد كان أبوك وعَدَني هذا الأمر ، من بعده ، وعلى ذلك جاهدت معه ، وقد كان من بلائي معه ما لم يَخف عليك ، فاجعل لي هذا الأمر من بعدك ، فلم يُجبه عبدُالملك إلى شيء ، فانصرف عنه عمرو راجعاً إلى دمشق ، فرجع عبدالملك في أثره حتّى انتهى إلى دمشق .

رجع الحديث إلى حديث هشام ، عن عوانة ، قال : ولمّا غلب عمرو على دِمَشق طلب عبدالرحمن ابن أمّ الحَكَم فلم يُصِبه ، فأمر بداره فهُدِمت واجتمع الناسُ ، وصعِدَ المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس ، إنّه لم يقُم أحد من قريش قبلي على هذا المِنبَر إلاّ زعم أنّ له جنةً وناراً ، يُدخل الجنّة من أطاعه ، والنار من عصاه ، وإني أخبركم أنّ الجنة والنارَ بيدِ الله ، وأنّه ليس إليّ من ذلك شيءٌ ، غير أن لكم عليَّ حُسنَ المؤاساة والعطيّة . ونزل .

وأصبح عبدالملك ، ففقد عمرو سعيد ، فسأل عنه ، فأخبِر خَبره ، فرجع عبدالملك إلى دِمَشق ، فإذا عمرو قد جلّل دِمَشق المُسوحَ فقاتَله بها أيّاماً ، وكان عمرو بن سعيد إذا أخرج حميد بن حُرَيث الكلبي على الخَيْل أخرَج إليه عبدُالملك سُفْيانَ بن الأبردِ الكَلْبي ، وإذا أخرج عَمرو بن سعيد زهير بن الأبرد الكلبي أخرَج إليه عبدالملك حسَّانَ بن مالك بنَ بَحْدل الكلبي .

قال هشام حدّثني عوانة ، أنّ الخيلين تواقَفتا ذاتَ يوم ، وكان مع عَمرو بنِ سعيد رجلٌ من كَلْب يقال له

رَجاء بن سرَاج ، فقال رجاء : يـا عبدَالـرّحمن بنَ سليم ، ابرُز ـ وكـان عبدُالـرحمن مع عبـدِالملك ـ فقال عبدُالرحمن : قد أنْصف القَارَةَ من رامَاها ، وبرز له ، فاطّعَنا وانقـطَع ركابُ عبـدِالرحمن ، فنجَـا منه ابنُ سراج ، فقال عبدُالرّحمن : والله لولا انقطاع الرّكاب لـرميت بما في بـطنِك من تبْن ، ومـا اصطلح عمـرو وعبدُالملك أبداً ، فلمّا طال قِتالُهم جاءَ نساءُ كَلْب وصِبْيـانُهم فبَكَيْنَ وقُلْن لسُفيـانَ بن الأبرد ولابن بَحْـدل الكلبي : عَلام تَقتُلون أنفسَكم لسلطانِ قُرَيش ! فحَلَف كلّ واحد منهما ألّا يرجع حتّى يرجع صاحبُه ، فلمّا أجمعوا على الرجوع نظروا فوجدوا سُفيان أكبرَ من حُريث ، فطلبوا إلى حُرَيث ، فرجع . ثم إن عبدالملك وعمراً اصطَلَحا ، وكَتبا بينهما كتاباً ، وآمنَه عبدُالملك وذلك عشيَّة الخميس .

قال هشام : فحدَّثني عَوانة أنّ عَمرو بنَ سعيد خرج في الخَيْل متقلّداً قوساً سوداء، فأقبل حتى أوطأ فرسه أطنـاب سُرادِق عبـدالملك ، فانقـطعت الأطنابُ وسقط السـرادق ، ونزل عمـرٌو فجلس وعبدالملك مُغضَب ، فقال لعمرو : يا أبا أميَّة ، كأنك تشبَّهُ بتقلُّدك هذه القوسَ بهذا الحيّ من قيس! قال: لا ، ولكني أتشبَّه بمن هو خيرٌ منهم ؛ العاص بن أميَّة . ثمّ قام مغضباً والخيلُ معه حتى دخل دِمَشق ، ودخل عبدالملك دِمَشق يوم الخميس ، فبعث إلى عمرو أن أعطِ الناس أرزاقَهم ، فأرسل إليه عمرو : إنّ هذا لك ليس ببلد فاشخص عنه . فلمّا كان يوم الاثنين وذلك بعد دخولِ عبدالملك دِمَشق بأربع بعث إلى عَمرو أن ائتِني ـ وهو عند امرأته الكلبية ، وقد كان عبدُالملك دعا كُريب بنَ أبرهة بنَ الصَّبَاح الحميري فاستشاره في أمرِ عمرو بن سعيد ، فقال له : في هذا هلكت حِمْيَرٌ ، لا أرَى لك ذلك ، لا ناقتي في ذا ولا جملي ـ فلما أتى رسول عبدالملك عمراً يدعوه صادف الرسولُ عبدالله بن يزيد بن معاوية عند عمرو ، فقال عبدالله لعمرو بن سعيد: يا أبا أميَّة ، والله لأنت أحبُّ إليَّ مِن سَمْعي وبصري ، وقد أرى هذا الرجل قد بعث إليك أن تأتيَه ، وأنا أرى لك ألّا تَفعل ، فقال له عمرو: ولِمَ؟ قال: لأنّ تُبيع ابنُ امرأةِ كَعْب الأحبار . قال: إنّ عظيماً من عظماءِ ولـدِ إسماعيل يرجع فيُغلق أبواب دِمَشق ، ثم يَخرج منها ، فلا يلبث أن يُقتل ؛ فقال له عمرو : والله لو كنتُ نائماً ما تخوَّفت أن ينبّهني ابنُ الزَّرقاء ، ولا كان ليجترىء على ذلك مني ، مع أن عثمان بن عفَّان أتاني البارحة في المنام فألبسني قميصه ـ وكان عبدالله بن يزيد زوج أم موسى بنت عمرو بن سعيد ـ فقال عمرو للرسول : أبلغه السلام ، وقل له : أنا رائح إليك العشيَّةَ إن شاء الله . فلما كان العشي لبس عمرٌو دِرْعا حَصِينة بين قباء قُوهيّ وقميص قُوهيّ ، وتقلَّد سيفه وعنده امرأتهُ الكلبية، وحميد بن حُرَيث بن بَحْدل الكلبي ، فلما نهض متوجهاً ، عثر بالبساط ، فقال له حميد : أما والله لئن أطعْتني لم تأتِهِ ، وقالت له امرأتهُ تلك المَقالَةَ ، فلم يلتفتْ إلى قولهم ، ومضى في مائة رجل من مواليه ، وقد بعث عبدُالملك إلى بني مَرْوان فاجتَمَعوا عندَه ، فلمّا بلغ عبدالملك أنّه بالباب أمر أن يُحبَس مَن كان معه، وأذن له فدَخل ، ولم تَزَل أصحابُه يُحْبَسون عند كلّ باب حتى دخل عمرٌو قاعةَ الدّار ، وما معه إلاّ وصيف له ، فَرَمى عمرٌو ببصره نحوَ عبدالملك ، فإذا حـوله بنـو مروان ، وفيهم حسَّان بن مالك بن بحدل الكلبي وقبيصة بن ذُؤيب الخُزاعي ، فلما رأى جماعَتَهم أحسَّ بالشرّ ؛ فالتفت إلى وصيفهِ فقال : انطلِق ويْحَك إلى يَحيى بنِ سعيد ، فقل له يأتيني . فقال له الوصيف ولم يفهم ما قال له : لبّيك! فقال له : اغْرُب عني في حرقِ الله وناره . وقال عبدُالملك لحسَّان وقبيصة : إذا شئتما فقُومَا فالتَقِيا وعمراً في الدار ، فقال عبدالملك لهما كالمازح ليطمئنّ عمرو بن سعيد : أيّكما أطولُ ؟ فقال حسَّان : قَبيصةُ يا أمير المؤمنين أطولُ مني بالإمرة ، وكان قبيصةُ على الخاتم . ثم التفت عَمرو إلى وصيفه فقال : انطلِقْ إلى يحيى فمُرْه

أن يأتيَني، فقال له : لبَّيك ، ولم يفهم عنه ، فقال له عمرو : اغْرُب عني ، فلمّا خرج حسّان وقبيصة أمر بالأبواب فغلِّقتْ ، ودخل عمرو فرحب به عبدالملك ، وقال : ها هنا يا أبا أميَّة ، يَرحمك الله ! فأجلسَه معه على السَّرير ، وجعل يحدثه طويلاً ، ثم قال : يا غلام ، خذ السَّيف عنه ، فقال عمرو : إنَّا لله يا أميرَ المؤمنين! فقال عبدالملك : أَوتطْمع أن تَجلِس معي متقلّداً سيفَك! فأخذ السيف عنه ، ثم تحدَّثا ما شاء الله ، ثم قال له عبدالملك : يا أبا أمية ؛ قال : لَبَّيك يا أمير المؤمنين ؛ فقال : إنَّك حيث خلعتَني آليتُ بيمين إنْ أنا ملأتُ عيني منك وأنا مالِكٌ لك أن أجمعك في جامعة ، فقال له بنو مَرْوان : ثم تُطلِقه يا أمير المؤمنين؟ قال: ثم أطلِقه ، وما عسيتُ أن أصنَع بأبي أميَّة! فقال بنو مَرْوان : أبِرّ قَسم أميرِ المؤمنين ، فقال عمرو : قد أبرّ الله قسمك يا أمير المؤمنين ، فأخرج من تحت فراشِه جامعةً فطرحها إليه ، ثم قال : يا غلام ، قم فاجمعْه فيها ؛ فقام الغلام فَجَمَعه فيها ، فقال عمرو : أذكّرك الله يا أميرَ المؤمنين أن تُخرِجني فيها على رؤوس الناس! فقال عبدالملك : أمَكْراً أبا أميَّة عند الموت! لاها الله إذاً! ما كنّا لنُخرِجَك في جامعة على رؤوس الناس ، ولما نخرجها منك إلا صُعداً . ثم اجتبذه اجتباذةً أصاب فمَه السريرُ فكَسرَ ثَنِيَّته ، فقال عمرو : أذكِّرك الله يا أمير المؤمنين أن يدعوك إلى كسر عَظم منّي أن تركب ما هو أعظم من ذلك . فقال له عبدالملك : والله لو أعلم أنك تُبْقي عليَّ إن أبقِيَ عليك وتصلح قريش لأطلقتُك ، ولكن ما اجتمع رجلان قطّ في بَلدة على مِثل ما نحن عليه إلاّ أخرج أحدُهما صاحبه . فلمّا رأى عمرو أنّ ثنيَّته قد اندقَّت وعرف الَّذي يريد عبدالملك ، قال : أغدْراً يابن الزّرقاء !

وقيل : إن عبدالملك لما جذب عمراً فسقطت ثَنيَّته جعل عمرٌو يمسّها، فقال عبدالملك له : أرى ثنيَّتَك قد وقعتْ منك موقِعا لا تطيب نفسُك بعدَها . فأمر به فضُرِبَ عنقه .

رجع الحديث إلى حديثِ عَوانة . وأذّن المؤذّنُ العصرَ ، فخرج عبدُالملك يصلِّي بالناس ، وأمر عبدَالعزيز بنَ مروان أن يقتله ، فقام إليه عبدُالعزيز بالسَّيف ، فقال له عمرو : أذكِّركُ الله والرّحِمَ أن تليَ أنتَ قَتْلي ، وليتولّ ذلك مَنْ هو أبْعَد رحِماً منك! فألقى عبدالعزيز السيفَ وجلس ، وصلّى عبدُالملك صلاةً خفيفة ، ودخل ، وغُلِّقت الأبواب ورأى الناسُ عبدَالملك حيث خرج وليس عمرٌو معه ، فذكروا ذلك ليحيى بن سعيد فأقبَل في النَّاس حتى حلَّ بباب عبدِالملك ومعه ألفُ عبدٍ لعمرو ، وأناس بعدُ من أصحابِه كثير ، فجعل من كان معه يصِيحون : أسمِعْنا صوْتَك يا أبا أميَّة! وأقبل مع يحيى بن سعيد حُميد بن حُرَيث وزُهَير بن الأبْرد فكسروا بابَ المقصورة ، وضربوا الناسَ بالسيوف ، وضرب عبدٌ لعَمْرو بن سعيد يقال له مصْقَلة الوليدَ بن عبدالملك ضربةً على رأسه ، واحتمَله إبراهيمُ بن عربي صاحبُ الديوان فأدخله بيتَ القراطيس ، ودخل عبدالملك حين صلَّى فوجد عمراً حيًّا ، فقال لعبدالعزيز : ما منعك من أن تَقتُله! قال: مَنَعني أنَّه ناشدني الله والرّحِمَ فرَقَقْتُ له . فقال له عبدُالملك : أخزى الله أمَّكَ البَوّالة على عَقِبيْها ، فإنَّك لم تُشبه غيرَها ـ وأمّ عبدالملكَ عائشةُ بنتُ معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أميَّة ، وكانت أمّ عبدالعزيز ليلى ، وذلك قول ابن الرُّقيات :

ذاك ابنُ لَيلى عبدُالعزيزِ ببا بِلْيون تَغدُوا جِفانُهُ رُذُمَا

ثم إنَّ عبدالملك قال: يا غلام، ائتِني بالحَرْبة . فأتاه بالحَرْبة فهزّها ، ثم طعنه بها فلم تَجُز، ثم ثَنّى فلم تَجز ، فضرب بيَدِه إلى عَضُد عمرو ، فوجَدَ مسّ الدِّرْع ، فضحك ، ثم قال : ودارعٌ أيضاً يا أبا أميَّة ! إن كنت لمعدًّا! يا غلام ، ائتني بالصَّمصامة ، فأتاه بسَيفه ، ثم أمر بعَمْرو فصُرِع ، وجَلَس على صدرِه

فذَبَحه وهو يقول :

يـا عمرُو إن لا تَـدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصَتي أَضْـرِبْك حيثُ تقـولُ الهَامـةُ اسقُوني

وانتفض عبدالملك رِعدة ـ وكذلك الرجلُ زعموا يُصيبُه إذا قَتَل ذا قَرابة له ـ فحُمل عبدالملك عن صدره فوُضع على سريره، فقال: ما رأيتُ مِثلَ هذا قطّ، قَتَلَه صاحبُ دُنْيا ولا طالبُ آخرة. ودخل يحيى بنُ سعيد ومن معه على بني مرْوان الدارَ فجرّحوهم ومن كان معهم من مواليهم، فقاتَلُوا يحيى وأصحابَه، وجاء عبدُ الرحمن ابنُ أمّ الحَكَم الثَّقفي فدَفَع إليه الرأس، فألقاه إلى النَّاس، وقامَ عبدُالعزيز بنُ مَروان فأخَذَ المال في البدور، فجعل يُلقِيها إلى الناس، فلمّا نظر الناسُ إلى الأموال ورأوا الرأسَ انتَهبُوا الأموالَ وتفرّقوا. وقد قيل: إنّ عبدَ الملك بن مروانَ لمّا خرج إلى الصّلاة أمر غلامَه أبا الزُّعَيْزِعَةِ بقتلِ عَمرو، فقتَلَه وألقى رأسَه إلى النَّاس وإلى أصحابه.

قال هشام: قال عَوانةُ: فحدّثتُ أنّ عبد الملك أمرَ بتلك الأموال التي طُرحتْ إلى الناس فجُبِيَتْ حتَّى عادت كلّها إلى بيت المال، ورُمِي يحيى بنُ سعيد يومئذ في رأسه بصخرة، وأمر عبدُ الملكِ بسريرِه فأبرز إلى المسجد، وخرج فجلس عليه، وفُقِد الوليد بن عبد الملك فجعل يقول: ويْحكم! أين الوليد؟ وأبيهِمْ لئن كانوا قتلوه لقد أدَرَكوا ثأرَهم، فأتاه إبراهيمُ بنُ عربيّ الكِنانيّ فقال: هذا الوليد عندي، قد أصابتْه جِراحة، وليس عليه بأس، فأتِيَ عبدُ الملك بيحيى بن سعيد، فأمر به أن يُقتَل، فقام إليه عبدُ العزيز، فقال: جَعَلني الله فِداك يا أميرَ المؤمنين! أتُراك قاتلاً بني أميَّة في يوم واحد! فأمر بيحيى فحُبِس، ثم أتِيَ بعنبسة بن سعيد فأمر به أن يقتل، فقام إليه عبد العزيز بن مروان، فقال: اذكر الله يا أمير المؤمنين في استئصال بني أمية وهلاكها! فأمر بعَنْبسة فحُبِس، ثمّ أتِيَ بعامر بنِ الأسود الكلبيّ فضرب رأسَه عبدُ الملك بقَضِيب خَيْزُران كان معه، ثم قال: أتقاتلني مع عمرو وتكون معه عليّ! قال: نعم، لأنّ عَمرا أكرَمني وأهنتَني، وأدنـاني وأقصيتني، وقرّبني وأبعـدْتني، وأحسن إليَّ وأسأتَ إليّ! فكنتُ معه عليك. فأمر به عبدُ الملك أن يُقتَل ، فقام عبدُ العزيز فقال: أذكركَ الله يا أميرَ المؤمنين في خالي! فوهَبه له. وأمر ببني سعيد فحُبسوا، ومكث يحيى في الحَبْس شهراً أو أكثر. ثمّ إنّ عبد الملك صَعِد المنبر، فحَمِد اللّهَ وأثنَى عليه، ثم استشار الناس في قتله، فقام بعضُ خطباء الناس فقال: يا أميرَ المؤمنين، هل تلد الحيَّةُ إلاّ حيّة! نرى والله أن تَقتُله فإنّه منافق عدوّ. ثمّ قام عبدُالله بن مَسعَدةَ الفَزاريّ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ يحيى ابنُ عمِّك، وقرابتُه ما قد علِمت، وقد صنعوا ما صنعوا، وصنعت بهم ما قد صنعتَ، ولست لهم بآمِنٍ، ولا أرَى لك قتلهم، ولكن سيِّرهم إلى عدوّك، فإن هم قُتِلوا كنتَ قد كُفيت أمرهم بيَدِ غيرك، وإن هم سَلِموا ورجعوا رأيتَ فيهم رأيك.

فأخذ برأيه، وأخرَجَ آلَ سعيد فألحقَهم بمُصعَب بن الزبير، فلمّا قدِموا عليه دخل يحيى بنُ سعيد، فقال له ابن الزبير: انفلتَّ وانحصّ الذَّنَب، فقال: والله إن الذنَب لبَهلُبْهِ! ثمّ إن عبد الملك بعث إلى امرأةِ عمروَ الكلبيَّة: ابعثي إليّ بالصّلح الَّذي كنتُ كتبته لعمرو، فقالت لرسوله : ارجع إليه فأعلِمْه أني قد لففتُ ذلك الصلحَ معه في أكفانِه ليُخاصِمك به عند ربِّه، وكان عَمرو بنُ سعيد وعبدُ الملك يلتقيان في النَّسب إلى أميَّة، وكانت أمّ عَمرو أمّ البنين ابنةُ الحَكَم ابنِ أبي العاص عمَّةَ عبد الملك.

قال هشام: فحدّثنا عَوانة أنّ الّذي كان بين عبدِ الملك وعمرو كانَ شرًّا قديماً، وكان ابنَا سعيد امهما البنين، وكان عبدُ الملك ومعاويةُ ابني مَرْوان، فكانوا وهم غِلْمان لا يزالون يأتون أمَّ مَرْوان بن الحَكَم الكنان يتحدّثون عندها، فكان ينطلق مع عبدِ لملك ومعاوية غلام لهم أسوَد، وكانت أمّ مروانَ إذا أتَـوْها هيَّأتْ له طعاماً، ثمّ تأتيهم به فتضع بين يديْ كلّ رجل صَحفةً على حدَة، وكانت لا تزال تؤرّش بين معاويةَ بن مروا ومحمَّد بن سعيد، وبين عبد الملك وعَمرو بنِ سعيد، فيَقتتِلون ويتصارمون الحين، لا يكلِّم بعضُهم بعضاً وكانت تقول: إن لم يكن عند هذين عقـل فعند هـذين، فكان ذلـك دأبها أتَـوْها حتّى أثبتت الشَّحْنـاء صدورهم.

وذكر أنّ عبدَالله بن يزيد القَسْريّ أبا خالد كان مع يحيى بن سعيـد حيث دخل المسجـد فكسر باد المقصورة، فقاتل بني مَرْوان، فلمّا قتِل عمرو وأخرِج رأسه إلى النّاس رَكب عبدُ الله وأخـوه خالـد فلَحِق بالعراق، فأقام مع وُلد سعيد وهم مع مُصعَب حتّى اجتمعت الجمـاعةُ عـلى عبد الملك، وقـد كانت عي عبدالله بن يزيد فُقِئت يوم المَرْج، وكان مع ابن الزبير يُقاتِل بني أميَّة، وإنه دخل على عبدالملك بعد الجماعة فقال: كيف أنتم آلَ يزيدَ؟ فقال عبدالله: حُرباء حُرباء، فقال عبد الملك: ذلك بما قدّمتْ أيديكم، وما الل بظلاّم للعَبِيد.

قال هِشام عن عوانة: إنّ وُلْد عمرو بن سعيد دَخَلوا على عبد الملك بعد الجماعة وهم أربعة: أميَّة وسعيد، وإسماعيل، ومحمَّد، فلمّا نظر إليهم عبدُ الملك قال لهم: إنّكم أهل بَيْت لم تزالوا تَرَوْن لكم على جمي قومِكم فَضْلاً لم يَجعَلْه الله لكم، وإنَّ الّذي كان بيني وبين أبيكم لم يكن حديثاً، بل كان قديماً في انفُس أوّليك على أوّلينا في الجاهليّة. فأقطع بأميَّة بن عمرو ـ وكان أكبرهم ـ فلم يقدر أن يتكلَّم، وكان أنبلَهم وأعقلَهم، فق سعيدُ بنُ عمرو وكان الأوسطَ فقال: يا أميرَ المؤمنين ما تَنعي علينا أمراً كان في الجاهليَّة، وقد جاء الله بالإسلا فَهَدم ذلك، فوعَدَنا جنَّة، وحذَّرنا ناراً! وأمّا الّذي كان بينك وبين عَمرو فإنّ عَمراً ابن عمك، وأنت أعلَم و صنعت، وقد وَصَل عَمرو إلى الله ، وكَفَى بالله حسيباً ، ولعَمري لئن أخذتَنا بما كان بينك وبينَه لبطن الأرض خيرٌ لنا من ظَهرها. فرقّ لهم عبدُ الملك رقَّةً شديدة. وقال: إنّ أباكم خيَّرني بين أن يقتُلني أو أقتلَه، فاختر قتلَه على قتلي، وأمَّا أنتم فما أرغبني فيكم، وأوصلني لقرابتكم، وأرعاني لحقِّكم! فأحسن جائزتَهم، ووصَله وقرّبهم.

وذكر أنّ خالد بنَ يزيد بنَ معاوية قال لعبد الملك ذات يوم: عجبٌ منك ومِن عَمرو بن سعيد، كيف أصبت غرتّه فقتلتَه! فقال عبد الملك:

دَانَـيـتُـه مِـنِّـي لِـيَـسـكُـنَ رُوعُه ... فـأَصُـولَ صَـولَـةَ حـازِمٍ مُستَمكنِ
غَـضَـبـاً ومـحـمِـيـةً لـدِيـنـي إنَّـه ... لـيسَ المُـسِيءُ سبيلُه كـالمُحسِن

قال عَوانة، لقيَ رجلٌ سعيدَ بنَ عمرو بن سعيد بمكّة، فقال له: وربِّ هذه البَنِيَّة، ما كان في القوم مِث أبيك، ولكنّه نازع القومَ ما في أيديهم فعَطِب.

وكان الواقدي يقول: إنّما كان في سنة تسع وستين بين عبدالملك بن مروان وعمرو بن سعيد الحصار وذلك أن عمرو بنَ سعيد تحصّن بدمَشق فرجَع عبدُالملك إليه من بُطنان حَبيب ، فحاصَرَه فيها ؛ وأمّا قتلُه إيّ

فإنّه كان في سنة سبعين .

وفي هذه السَّنة حكم مُحَكِّم من الخوارج بالخَيْف من مِنًى فقُتِل عند الجمرة ، ذَكر محمَّد بنُ عمرَ أن يحيى ابن سعيد بن دينار حدّثه عن أبيه، قال : رأيته عند الجمرة سَلّ سيفه ، وكانوا جماعةً فأمسَك الله بأيديهم ، وبَدَر هو من بينهم ، فحكم ، فمال الناسُ عليه فَقَتلوه .

وأقام الحجَّ للناس في هذه السنة عبدالله بن الزبير .

وكان عاملَه فيها على المصرَين : الكوفة والبَصْرة أخوه مصعب بن الزّبير . وكان على قضاء الكوفة شُرَيح وعلى قضاء البَصْرة هِشام بنُ هُبيرة ، وعلى خُراسان عبدُالله بنُ خازم .

ثم دخلت سنة سبعين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففي هذه السَّنة ثارت الرّوم ، واستجاشوا على مَن بالشام من ذلك من المسلمين ؛ فصالح عبدُالملك ملكَ الروم ، على أن يؤدّي إليه في كلّ جمعة ألفَ دينار خوفاً منه على المسلمين .

وفيها شخص ـ فيما ذكر محمد بن عمرَ ـ مصعبُ بن الزبير إلى مكّة فقدمها بأموال عظيمة ، فقسمها في قومه وغيرهم ، وقدم بدوابّ كثيرة وظَهْر وأثقال ، فأرسل إلى عبدالله بن صَفْوانَ وجُبَير بن شَيْبة ، وعبدالله بن مطيع مالاً كثيراً ، ونحر بُدْناً كثيرة .

وحجّ بالنَّاس في هذه السَّنة عبدُالله بن الزّبير .

وكان عُمَّاله على الأمصار في هذه السنة عمَّاله في السنة الَّتي قبلها على المعاون والقضاء .

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك مسيرُ عبدالملك بن مَرْوان فيها إلى العراق لحرب مُصعب بن الزبير ، وكان عبدالملك ـ فيما قيل ـ لا يزال يقرب من مصعب ، حتى يبلغ بُطنان حَبيب ، ويخرج مصعب إلى بَاجُمَيرًا ، ثم تهجُم الشتاء فيرجع كلّ واحد منهما إلى موضعه ، ثم يعودان ؛ فقال عدي بن زيد بن عدي بن الرّقاع العاملي :

لعمْري لقدْ أصحرَتْ خيلُنا ... بأكْناف دِجْلَةَ للمُصعَبِ
إذا ما مُنافق أهل العِرَا ... قِ عُوتب ثُمّتَ لم يُعْتَبِ
دَلَفْنا إليهِ بذي تُدرإٍ ... قليل التَّفَقُّدِ للغُيَّبِ
يهزُّون كلَّ طويل القَنا ... ةِ مُلْتَئِم النَّصْلِ والثَّعْلَبِ
كَأَنَّ وغَاهُمْ إذا ما غَدَوْا ... ضجيجُ قَطًا بلدٍ مُخصب
فقدَّمنا واضحٌ وجْهُهُ ... كريم الضَّرائب والمَنْصِبِ
أُعِينَ بِنَا ونُصِرْنا بهِ ... ومن يَنْصُر اللّهُ لم يُغلَبِ

فحدّثني عمر بن شَبّة ، قال : حدّثني علي بن محمد ، قال : أقبل عبدُالملك من الشام يريد مُصعباً ـ وذلك قبل هذه السنة ، في سنة سبعين ـ ومعه خالد بن عبدالله بن خالد بن أسِيد ، فقال خالد لعبد الملك : إن وجَّهتَني إلى البصرة وأتْبعْتَني خيلاً يسيرة رجوتُ أن أغلب كل عليها . فوجَّهه عبدالملك ، فقدمها مستخفياً في مواليه وخاصّته ، حتى نزل على عمرو بن أصمع الباهلي .

قال عمر: قال أبو الحسن : قال مسلمة بن محارب : أجار عمرو بن أصمع خالداً ، وأرسل إلى عبَّاد بن الحُصين وهو على شُرطة ابن معمَرـ وكان مُصعب إذا شخص عن البصرة استخلَف عليها عبيدالله بن عبيدالله بن معمر ـ ورجا عمرو بن أصمع أن يبايعه عبَّاد بن الحُصين ـ بأنّي قد أجَرْتُ خالداً فأحببت أن تعلم ذلك لتكون لي ظَهراً . فوافاه رسولُه حين نزل عن فرسه ، فقال له عبّاد: قل له : والله لا أضع لبدَ فرسي حتى آتيَكَ في الخيل . فقال عمرو لخالد : إني لا أغرّك ، هذا عبَّاد يأتينا الساعة ، ولا والله ما أقدر على منعك؛ ولكن عليك بمالك بن مسْمَع .

قال أبو زيد : قال أبو الحسن : ويقال إنَّه نزل على علي بن أصمع ، فبلغ ذلك عبَّاداً فأرسل إليه عبَّاد : إني سائر إليك .

حدّثني عُمر بن شبّة ، قال: حدّثني علي بن محمد، عن مسلمة وعَوانة أنّ خالداً خـرج من عند ابن أصمع يركض ، عليه قميص قُوهيّ رقيق ، قد حَسَره عن فخذيه ، وأخرَج رجليه من الرّكابين ؛ حتى أتى مالكاً ، فقال : إني قد اضطررتُ إليك ، فأجرْني ، قال : نعم ، وخرج هو وابنه ، وأرسل إلى بكْر بن وائل والأزد ؛ فكانت أوّل راية أتته رايةُ بني يشكُر . وأقبل عبّاد في الخيل ، فتواقَفُوا ، ولم يكن بينهم ، فلما كان من الغد غدوا إلى حُفرة نافع بن الحارث التي نُسبت بعدُ إلى خالد ، ومع خالد رجال من بني تميم قد أتوْه ؛ منهم صعصعة بن معاوية ، وعبدالعزيز بن بشر ، ومرّة بن مِحْكَان ، في عدد منهم ؛ وكان أصحاب خالد جُفريَّة ينسبون إلى الجُفْرة، وأصحاب ابن معمر زُبَيْريَّة ؛ فكان من الجُفْريَّة عبيدالله بن أبي بَكْرة وحُمْران والمغيرة بن المهلّب، ومن الزبيرية قيس بن الهيثم السُّلمي ؛ وكان يستأجر الرجال يقاتلون معه، فتقاضاه رجل أجرةً فقال: غداً أعطيكها، فقال غَطَفان بن أنيف، أحد بن كعب بن عمرو:

لبِئس مـا حَكَمتَ يـا جـلاجـلُ النَّقْـدُ دَيْنٌ والـطِّعـانُ عـاجِـلُ
وأنْـتَ بالبـابِ سميرٌ آجِـلُ

وكان قيس يعلّق في عنق فرسه جلاجل ، وكان على خيل بني حنظلة عمرو بن وبرة القحيفي ؛ وكان له عبيد يؤاجرهم بثلاثين ثلاثين كل يوم ، فيعطيهم عشرة عشرة ، فقيل له :

لبئس مـا حكـمت يـا بـنَ وَبـرَه تُعـطَى ثـلاثينَ وتُعْـطِي عَشـره

ووجّه المصعب زَحْر بن قيس الجُعْفيّ مَدداً لابن مَعمَر في ألف ، ووجّه عبدُالملك عُبيدَالله بنَ زياد بن ظَبْيانَ مدداً لخالد ، فكَره أن يدخلَ البَصرة ، وأرسل مطرَ بن التّوءم فرجع إليه فأخبره بتفرّق الناس ، فَلحق بعبدالملك .

قال أبو زيد : قال أبو الحسن : فحدّثني شيخٌ من بني عرين ، عن السكن بن قَتادة ، قال : اقتتلوا أربعةً عشرين يوماً ، وأصيبتْ عينَ مالك ، فضجر من الحرب ، ومشت السفراء ، بينهم يوسف بنُ عبـدالله بن عثمان بنَ أبي العاص ، فصالحه ، على أن يُخرج خالداً وهو آمن ، فأخرج خالداً من البصرة ، وخاف ألا يجيز المُصعبُ أمانَ عُبيدالله ، فَلحق مالك بثأج ، فقال الفَرزدق يَذكر مالكاً ولُحوقَ التميمية به وبخالد :

عـجِبْـتُ لأقـوامٍ تـميـمٌ أبُـوهُـمُ وهُمْ في بني سعـدٍ عِـظامُ المَبـارِكِ
وكـانـوا أعـزَّ النـاسِ قبـلَ مَسيرِهِمْ إلى الأزْد مُصْفَـرًّا لِحاهـا ومـالِـكِ
فمـا ظَنُّكم بـابن الحَـوَارِيِّ مُصْعَبٍ إذا افتَـرّ عن أنيابِـه غَيْـرَ ضـاحِـكِ
ونـحنُ نـفَيْـنـا مـالكـاً عـن بِـلادِهِ ونـحن فَـقَـأْنـا عَيْـنَـهُ بـالـنّـيَـازِكِ

قال أبو زيد : قال أبو الحسن : حدّثني مسلمة أنّ المُصعَب لمّا انصرَف عبدُالملك إلى دمشق لم يكن له همَّة إلاّ البصرة ، وطَمِع أن يُدرك بها خالداً ، فوجده قد خرج ، وأمّن ابنُ مَعمَر النّاس ، فأقام أكثرهم ، وخاف بعضهم مُصعَباً فشخص ، فغضب مُصعَب على ابن مَعمَر ، وحَلَف ألاّ يوليه ، وأرسل إلى الجُفْريّة فسبَّهم وأنّبهم .

قال أبو زيد : فزعم المدائني وغيرُه مِن رُواة أهل البَصْرة أنّه أرسَل إليهم فأُتِيَ بهم ، فأقبل على عُبيد الله بن أبي بَكرة ، فقال : يابنَ مَسْروح ، إنّما أنت ابنُ كَلْبة تعاوَرُها الكلاب ، فجاءت بأحمر وأسوَد وأصفرَ من

كلّ كلب بما يُشبهه ، وإنّما كان أبوك عبداً نَزل إلى رسول الله ﷺ من حصن الطائف ، ثم أقمْتم البيِّنة تدّعون أن أبا سُفْيانَ زنى بأمِّكم ، أما والله لئن بقيت لألحقنَّكم بنَسبكم . ثمّ دعا بحُمْران فقال : يابن اليَهوديَّة ، إنّما أنت علْج نَبَطيّ سُبيت من عَيْن التَّمر. ثم قال للحَكَم بن المنذر بن الجارود: يابن الخبيث، أتَدري مَن أنت ومن الجارود! إنّما كان الجارود علجا بجزيرة ابن كاوَان فارسيًّا، فقطع إلى ساحل البحر، فانتمى إلى عبد القيس، ولا والله ما أعرف حَيًّا أكثرَ اشتمالاً على سَوْءة منهم. ثم أنكح أختَه المُكَعبر الفارسي فلم يُصب شرَفاً قطّ أعظم منه ، فهؤلاء ولدُها يابن قُباذ . ثم أُتِيَ بعبدالله بن فضالة الزّهراني فقال : ألستَ من أهل هَجَر ، ثم من أهل سَماهيج ! أما والله لأرُدَّنّك إلى نَسَبك. ثمّ أتي بعلي بن أصمع ، فقال : أعَبْد لبني تميم مرَّةً وعَزْيٌ من باهلة ! ثم أُتِيَ بعبد العزيز بن بشْر بن حَنَّاط فقال: يا بن المشتور، ألم يسرق عمُّك عنزاً في لَهد عمرَ؛ فأمر به فسيِّر ليقطعه! أما والله ما أعنتَ إلاّ من يَنكح أختَك ـ وكانت أختُه تحت مقاتل بن مِسمَع ـ ثم أُتِيَ بأبي حاضر الأسدي فقال : يابن الإصْطَخريَّة ، ما أنتَ والأشراف! وإنما أنت من أهل قَطَر دَعيٌّ في بني أسد، ليس لك فيهم قريب ولا نسيب. ثم أُتِيَ بزياد بن عمرو فقال : يابن الكَرْمانيّ ، إنَّما أنت علْج من أهل كَرْمان قطعت إلى فارسَ فصرتَ مَلاّحاً ، مَالَكَ وللحَرْب ! لأنْتَ بَجرّ القَلْس أحذَقُ . ثمّ أتِيَ بعبدالله بن عثمانَ بن أبي العاص فقال : أعَلَيّ تُكَثِّر وأنتَ علْج من أهل هَجَر ، لحق أبوك بالطَّائف وهم يضمّون من تأشَّب إليهم يتعزَّزون به! أما والله لأردّنَّك إلى أصلك . ثم أتِيَ بشَيْخ بن النُّعْمان فقال : يابن الخبيث ، إنَّما أنت علْج من أهل زَنْدَوَرْد ، هَربت أمك وقُتل أبوك ، فتزوّج أختَه رجلٌ من بني يشكر، فجاءت بغلامين ، فألحقنَاك بنسبها ، ثم ضربهم مائةً مائةً، وحلّق رؤوسهم ولحاهم وهدمَ دُورهم ، وصَهرَهم في الشّمس ثلاثاً ، وحملهم على طلاق نسائهم ، وجمَّر أولادَهم في البُعوث ، وطاف بهم في أقطار البصرة، وأحلفهم ألاّ يَنكحوا الحَرائر . وبعث مُصعبٌ خداشَ بنَ يزيدَ الأسَديّ في طلب من هَرَب من أصحاب خالد ، فأدرَك مُرّة بن مُحكان فأخذه ، فقال مُرّةُ :

بني أَسَدٍ إن تَقتلوني تُحاربُوا ... تميماً إذا الحرب العَوَانُ اشمَعَلَّتِ
بني أسد هَلْ فيكمُ من هَوَادَةٍ ... فتَعْفُونَ إنْ كانَتْ بِيَ النَّعلُ زَلَّتِ
فلا تَحْسبِ الأعْداءُ إذ غبتُ عَنهُمُ ... وأُوريتُ مَعْناً أنَّ حربيَ كلَّتِ
تَمشَّى خِداشُ في الأسِكَّة آمِناً ... وقد نَهلَتْ مِنِّي الرِّماحُ وعَلَّتِ

فقرّبه خداش فقتله ـ وكان خِداش على شُرْطة مُصعب يومئذ ـ وأمر مصعب سنانَ بن ذهل أحد بني عمرو بن مَرْثَد بدار مالك بن مسمع فهدمها ، وأخذ مُصعب ما كان في دار مالك ، فكان فيها أخذ جارية ولدتْ له عمرَ بن مُصعَب . قال : وأقام مُصعَب بالبصرة حتى شخص إلى الكوفة ، ثم لم يزل بالكوفة حتى خرج لحرب عبدالملك ، ونزل عبدالملك مسكَن ، وكتب عبدُالملك إلى المَرْوانيَّة من أهل العراق ، فأجابَه كلُّهم وشرط عليه ولاية أصبهان ، فأنعَم بها لهم كلّهم ، منهم حَجَّار بنُ أبجَر ، والغَضْبان بن القَبَعْثَرَى ، وعتَّاب بن ورقاء ، وقَطَن بنُ عبدالله الحارثيّ ، ومحمَّدُ بن عبدالرحمن بن سَعيد بن قيس ، وزَحْر بن قيس ، ومحمَّد بنُ عُمَير ، وعلى مقدّمته محمد بن مروان ، وعلى ميمنته عبدُالله بنُ يزيدَ بن معاوية ، وعلى ميسرته خالدُ بن يزيدَ ، وسار إليه مصعب وقد خذلَه أهلُ الكوفة .

قال عروة بن المغيرة بن شُعْبة : فخرج يسيرُ متّكئاً على مَعرفة دابَّته ، ثم تَصفَّح الناس يميناً وشمالاً فوقعت عينُه عليَّ ، فقال : يا عُرْوة ، إليَّ ، فدنوتُ منه ، فقال : أخبرني عن الحسين بن علي ، كيف صَنع

بإبائه النزول على حُكم ابن زياد وعَزمه على الحرب ؟ فقال :

إنَّ الأُلَى بـالـطَّف من آلِ هـاشِـمٍ تـأسَّـوْا فَسَنّـوا للكـرَام التـأسِّـيَـا

قال : فعلمتُ أنه لا يَريمُ حتى يُقتَل ، وكان عبدالملك ـ فيما ذَكَر محمد بن عمر عن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أبي فرّة ، عن إسحاقَ بن عبدالله بن أبي فَرْوة ، عن رَجاء بن حَيْوَة ـ قال : لمّا قتل عمرو بن سعيد وضع السيف فقتل من خالفه ، فلمّا أجمع بالمسير إلى مُصعب وقد صفت له الشامُ وأهلها خَطَب الناسَ وأمرهم بالتهيُّؤ إلى مصعب ، فاختلف عليه رؤساء أهل الشام من غير خلاف لما يريده ، ولكنهم أحَبُّوا أن يقيمَ ويقدّم الجيوش ، فإن ظفروا فذاك ، وإن لم يظفروا أمدَّهم بالجيوش خشيةً على الناس إن أصِيب في لقائه مصعباً لم يكن وراءه ملك ، فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، لو أقمتَ مكانَك وبعثتَ على هؤلاء الجيوش رجلاً من أهل بيتك ، ثم سرّحتَه إلى مصعب ! فقال عبدُالملك : إنَّه لا يقوم بهذا الأمر إلاّ قرشي له رأي ، ولعلِّي أبعث من له شجاعة ولا رأي له ، وإني أجد في نفسي أني بصيرٌ بالحرب ، شجاعٌ بالسَّيف إنْ ألجئتُ إلى ذلك ، ومصعب في بيت شجاعة ، أبوه أشجع قريش، وهو شجاع ولا علم له بالحرب، يُحبّ الخفض، ومعه من يُخالفه ، ومعي من ينصح لي . فسار عبدالملك حتى نزل مَسْكِن ، وسار مصعب إلى باجُمَيْرَا ، وكتب عبدالملك إلى شيعته من أهل العراق ، فأقبل إبراهيمُ بنُ الأشتر بكتاب عبدالملك مختوماً لم يقرأه ، فدفعه إلى مصعب ، فقال : ما فيـه؟ فقال: ما قرأته ، فقرَأه مصعب فإذا هو يدعوه إلى نفسه ، ويجعل له ولاية العراق ، فقال لمصعب : إنَّه والله ما كان من أحد آيس منه مني ، ولقد كتب إلى أصحابك كلّهم بمثل الَّذي كتب إليَّ ، فأطعْني فيهم فاضـربْ أعناقهم . قال : إذاً لا تُناصحُنا عشائرُهم . قال: فأوقرْهم حديداً وابعث بهم إلى أبيض كسرَى فاحبسْهم هنالك ، ووكِّل بهم من إن غُلِبْتَ ضرب أعنقهم ، وإن غَلبت مَننتَ بهم على عشائـرهم . فقال : يـا أبا النعمان ، إني لَفي شغل عن ذلك، يرحَم الله أبا بَحْر ، إنْ كان ليَحذّرني غدرَ أهل العراق ، كأنّه كان يَنظُر إلى ما نحن فيه !

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا محمَّد بن سَلاّم ، عن عبدالقاهر بن السَّري ، قال : همَّ أهلُ العراق بالغَدْر بمُصعَب ، فقال قيسُ بنُ الهيثم : ويحكَم ! لا تُدخلوا أهلَ الشام عليكم ، فوالله لئن تَطعَّموا بعيشكم لَيُضْفِينّ عليكم منازلَكم ، والله لقد رأيتُ سَيِّدَ أهلِ الشام على باب الخليفة يفرح إن أرسَلَه في حاجة ، ولقد رأيتُنا في الصّوائف وأحدُنا على ألف بعير ، وإنّ الرجلَ من وجوههم ليَغزُو على فَرَسه وزادُه خَلْفَه .

قال: ولمّا تدَانَى العسكران بدَيْر الجاثَليق من مَسْكِنَ ، تَقدّم إبراهيمُ بنُ الأشتر فحَمَل على محمـد بن مَرْوان فأزالَه عن موضعه ، فوجَّه عبدالملك بن مـروان عبدالله بن يـزيد بن معـاوية ، فقـرب من محمد بن مروان . والتقى القومُ فَقُتِلَ مُسلم بن عَمرو الباهليّ ، وقتِل يَحيَى بن مبشّر ، أحد بني ثعلبة بن يَرْبوع ، وقتل إبراهيم بن الأشتر ، فهرب عتَّاب بن وَرْقاء ـ وكان على الخيل مع مصعب ـ فقال مصعب لقطَن بن عبدالله الحارثي : أبا عثمان ، قَدِّم خيلك ، قال : ما أرى ذلك ، قال : ولِمَ؟ قال: أكرَه أن تُقتَل مذْحجٌ في غير شيء ، فقال لحجَّار بن أبجَر : أبا أسيد ، قدّم رايتَك ؛ قال : إلى هذه العَذرة ! قال : ما تتأخَّر إليه والله أنتن وألأم ؛ فقال لمحمد ين عبدالرحمن بن سعيد بن قَيْس مثل ذلك ، فقال : ما أرَى أحداً فَعَل ذلك فأفْعله ، فقال مصعب : يا إبراهيم ولا إبراهيمَ ليَ اليوم!

حدّثني أبو زيد ، قال : حدّثني محمد بن سلاّم ، قال : أخبر ابنُ خازم بمسير مُصعب إلى عبدالملك ، فقال : أَمَعَه عمر بنُ عُبيد الله بن معمر؟ قيل : لا ، استعمله على فارس ، قال : أفمعَه المهلَّب بنُ أبي صفرة؟ قيل : لا ، استعمله على الموصل ، قال : أفمعَه عبَّاد بن الحُصين؟ قيل : لا ، استخلفه على البصرة ، فقال : وأنا بخُراسان :

خُـذِيني فجُـرِّيني جَعَـارِ وَأَبْشِـرِي ... بلَحْمِ آمرِىءٍ لم يَشْهَدِ اليـوْمَ ناصِـرُهْ

فقال مصعب لابنه عيسى بن مُصعَب : يا بُنيّ ، اركَب أنتَ ومن معك إلى عمِّك بمكّة فأخبره ما صنع أهلُ العراق ، ودَعني فإني مَقْتول . فقال ابنُه : واللّهِ لا أخبر قريشاً عنك أبداً ، ولكن إن أردت ذلك فالحقْ بالبصرة فهم على الجماعة ، أو الحَقْ بأمير المؤمنين . قال مصعب : والله لا تتحدّث قريش أني فررت بما صنعتْ ربيعةُ من خذلانها حتى أدخُل الحرمَ مُنهزِماً ، ولكن أقاتل ، فإنْ قُتلت فلعَمْري ما السَّيف بعار ، وما الفرار لي بعادة ولا خُلُق ، ولكن إن أردت أن تَرجع فارجع فقاتِلْ . فرجع فقَاتل حتَّى قتل .

قال علي بن محمد عن يحيى بن إسماعيل بن أبي الُمهاجر ، عن أبيه إن عبدالملك أرسل إلى مصعب مع أخيه محمد بن مروان : إنّ ابنَ عمِّك يعطيك الأمان ، فقال مصعب : إنّ مثلي لا ينصرِف عن مثلِ هذا الموقف إلّا غالباً أو مغلوباً .

وقال الهيثم بن عدِيّ : حدّثنا عبدالله بن عَيَّاش ، عن أبيه ، قال : إنّا لوُقُوفٌ مع عبدالملك بن مروان وهو يُحارب مصعباً إذْ دنا زِياد بن عمرو ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ إسماعيلَ بن طَلْحة كان لي جارَ صدق ، قَلّما أرادَني مُصعب بسوء إلاّ دَفَعهُ عني ، فإن رأيتَ أن تؤمّنَه على جرمه ! قال : هو آمن ، فمضى زياد ـ وكان ضَخماً على ضَخم ـ حتّى صار بين الصّفَّين ، فصاح : أين أبو البخْتَري إسماعيلُ بنُ طَلْحة ؟ فخرج إليه ، فقال : إني أريد أن أذكرُ لك شيئاً ، فَدَنا حتّى اختلفت أعناقُ دوابِّهما ـ وكان الناسُ ينتَطقون بالحَواشي المحشوّة ـ فوَضَع زياد يده في منطقة إسماعيل ، ثم اقتَلَعه عن سَرْجه ـ وكان نَحيفاً ـ فقال : أنشدك الله يا أبا المغيرة ، إنّ هذا ليس بالوفاء لمصعب ، فقال : هذا أحب إليّ من أن أراك غَداً مقتولاً .

ولَمّا أبى مصعب قبول الأمان نادَى محمد بن مروان عيسى بن مصعب وقال له : يابن أخي ، لا تقتل نفسك ، لك الأمان ، فقال له مُصعب : قد آمَنَك عَمُّك فامض إليه ، قال : لا تتحدّث نساءُ قريش أني أسْلَمتك للقتل ؛ قال : فتقدّم بين يديَّ أحتَسِبْك ، فقاتل بين يديه حتى قتل ، وأثخِن مصعب بالرّمي ، ونظر إليه زائدة بن قدامة فشَدّ عليه فطعنه ، وقال: يا لثارات المختار ! فصرعه ، ونزل إليه عُبيدالله بنُ زياد بنِ ظَبْيانَ ، فاحتزّ رأسه ، وقال : إنَّه قَتَل أخي النابِىء بن زياد ، فأتِيَ به عبدالملك بن مروان فأثابَه ألف دينار ، فأبَى أن يأخذها ، وقال : إني لم أقتله على طاعتك ، إنما قتلتُه على وِتْرِ صَنَعه بي ، ولا آخذُ في حَمْلِ رأس مالاً . فَتَركه عند عبدالملك .

وكان الوِتْر الذي ذَكَرَه عُبيدُالله بن زياد بن ظبيانَ أنه قتل عليه مصعباً أنّ مصعباً كان وَلي في بعض ولايتهِ شرطه مطرِّف بن سيدان الباهلي ثم أحد بني جَأوة فحدّثني عمرُ بنُ شَبَّة ، قال : حدّثني أبو الحسن المَدائنيّ ومَخلَد بنُ يحيى بن حاضر ، أنّ مطرّفاً أُتِيَ بالنابِىء بن زياد بن ظَبْيان ورجل من بني نُمَير قد قطعا الطريق ، فقتل النابِىء ، وضرب النميريّ بالسياط فتَركه ، فجمع له عبيدُالله بنُ زياد بن ظَبْيان جَمْعا بُعد أن عزله مُصعب عن

البصرة وولّاه الأهواز ، فخرج يريده ، فالتَقَيا فتواقفا وبينهما نهر، فعبر مطرّف إليه النّهرَ ، وعاجَله ابنُ ظَبْيانَ فطعَنه فقتَلَه ، فبعث مصعبٌ مكرم بن مطرّف في طَلَب ابن ظبْيانَ ، فسار حتّى بلغ عسكَرَ مُكرَم ، فنُسِب إليه ، ولم يلقَ ابنَ ظَبْيان . ولحق ابن ظَبْيان بعبدالملك لمّا قُتِل أخوه ، فقال البَعيثُ اليَشْكُريّ بعد قتْل مُصعَب يَذكُر ذلك :

ولمّا رأينا الأمرَ نكْساً صُدُورُهُ ... وهمّ الهَوادِي أنْ تكُنَّ تواليَا
صَبَرْنا لأمر الله حتّى يُقيمَهُ ... ولم نَرْضَ إلّا مِنْ أُمَيَّةَ واليا
ونحْنُ قَتَلنا مُصْعَباً وابنَ مُصعبٍ ... أَخا أسدٍ والنَّخَعِيَّ اليمانِيَا
ومرّتْ عُقَابُ الموتِ مِنّا بمسلمٍ ... فأَهْوَتْ له ناباً فأَصبَحَ ثاوِيَا
سقَيْنا ابن سيدانٍ بكأسٍ رويَّةٍ ... كَفَتْنا ، وخيرُ الأمر ما كان كافيا

حدّثني أبو زيد ، قال : حدّثني علي بن محمد ، قال : مرّ ابن ظَبْيانَ بابنة مطرِّف بالبصرة ، فقيل لها : هذا قاتلُ أبيك ، فقالت : في سبيل الله أبي ، فقال ابنُ ظَبْيان :

فلا في سبيلِ الله لاقى حِمَامَهُ ... أَبُوكِ ولكنْ في سبيلِ الدَّرَاهِم

فلمّا قُتل مُصعب دعا عبدُالملك بنُ مروان أهلَ العراق إلى البيعة ، فبايَعوه ، وكان مُصعَب قُتل على نهر يقال له الدُجَيْل عند دَيْر الجاثَليق فلمّا قُتل أمرَ به عبدُالملك وبابنه عيسى فدُفِنا .

ذكَر الواقديّ عن عثمان بن محمّد ، عن أبي بكر بن عُمَر ، عن عروة قال : قال عبدُالملك حين قُتِل مُصعَب : وارُوهُ فقد والله كانت الحُرْمة بيننا وبينَه قديمةً ، ولكن هذا المُلْك عقيم .

قال أبو زيد : وحدّثني أبو نعيم ، قال : حدّثني عبدُالله بنُ الزّبير أبو أبي أحمَد ، عن عبدالله بن شريك العامري ، قال : إني لَواقفٌ إلى جنب مصعب بن الزّبير فأخرجتُ له كتاباً من قَبائي ، فقلتُ له : هذا كتابُ عبدالملك ، فقال: ما شئتَ ، قال : ثم جاء رجلٌ من أهل الشام فدخل عسكره ، فأخرج جارية فصاحت : واذُلّاه ! فنظر إليها مُصعَب ، ثم أعرَض عنها .

قال : وأُتِيَ عبدُالملك برأس مُصعب ، فنظر إليه فقال : متى تَغذو قريشٌ مِثلَك! وكانا يتحدّثان إلى حُبّى ، وهما بالمدينة ، فقيل لها : قُتِل مصعب ، فقالتْ : تَعِس قاتِلُه ! قيل : قتله عبدُالملك بنُ مروان ، قالت : بأَبي القاتلُ والمقتول!

قال : وحَجّ عبدُالملك بعدَ ذلك ، فدخلتْ عليه حُبّى ، فقالت: أقتلتَ أخاكَ مُصعَبا؟ فقال:

من يذُقِ الحرْبَ يَجِدْ طَعْمَهَا ... مُرًّا وتتْرُكْهُ بجعجاعِ

وقال ابن قيس الرُّقيّات :

لقد أوْرَثَ المِصرَيْنِ خِزْياً وذِلّةً ... قتيلٌ بدَيْر الجاثَليقِ مُقيمُ
فما نصحتْ لله بكرُ بنُ وائلٍ ... ولا صَبرت عندَ اللِّقاءِ تميمُ
ولو كان بَكْرِيًّا تَعطَّفَ حَوْلَهُ ... كتائبُ يَغلِي حَمْيُها ويَدُومُ
ولكنّه ضاعَ الذمامُ ولَمْ يكن ... بها مُضَرِيٌّ يَوْمَ ذاكَ كريم

جَـزَى اللهُ كُـوفيًّـا هنـاك مـلامَـةً ... وَبَـصْـرِيَّـهـم إنَّ الـمُـلِـيمَ مُـلِيم
وإنَّ بني الـعَـلاَّتِ أَخلَوْا ظُـهـورَنـا ... ونـحن صـريـح بـيْنَـهُـمْ وصـمـيـمُ
فـإن نفْنَ لا يَبْقَـوْا وَلاَ يَـكُ بعْـدَنـا ... لِـذِي حُـرْمَـةٍ في المسلمين حَـريمُ

قال أبوجعفر : وقد قيل : إنّ ما ذكرتُ من مَقتَل مصعب والحرب التي جرتْ بينه وبين عبدالملك كانت في سنة اثنتين وستين ، وأن أمر خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد ومصيره إلى البَصْرة من قِبَل عبدالملك كان في سنة إحدى وسبعين ، وقُتِل مصعب في جُمَادَىٰ الآخرة .

وفي هذه السَّنة دخل عبدُالملك بنُ مروانَ الكوفةَ وفرّق أعمالَ العراق والمصريْن الكوفة والبصرة على عُمَّاله في قول الواقدي ؛ وأمَّا أبو الحسن فإنَّه ذَكَر أنَّ ذلك في سنة اثنتين وسبعين .

وحدّثني عمرُ ، قال : حدّثني علي بن محمد ، قال : قُتِل مصعب يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلتْ من جُمادى الأولى أو الآخرة سنة اثنتين وسبعين .

ولَّما أتَى عبدُالملك الكوفةَ ـ فيما ذكر ـ نزل النُّخَيلة ، ثم دعا النَّاسَ إلى البيعة ، فجاءت قُضاعةُ ، فرأى قِلَّة ، فقال : يا معشر قُضاعة ، كيف سَلِمتم من مُضَرَ مع قِلَّتكم! فقال : عبدُالله بنُ يَعلى النَّهدي : نحن أعزّ منهم وأمنَع ؛ قال : بِمَن؟ قال : بمن معك منَّا يا أميرَ المؤمنين . ثم جاءت مَذْحج وهَمْدان فقال : ما أَرَى لأحد مع هؤلاء بالكوفة شيئاً . ثم جاءت جُعفِيٌّ ، فلمّا نظر إليهم عبدُالملك قال : يا معشر جعفي ، اشتَملْتم على ابن أختكم ، وواريتموه؟ يعني يحيى بن سعيد بن العاص ـ قالوا : نعم ، قال : فهاتوه ؛ قالوا : وهو آمنٌ؟ قال : وتَشترطون أيضاً! فقال رجل منهم : إنا والله ما نشترط جَهْلاً بحقِّك ، ولكنَّا نتسحَّب عليه تَسحُّب الولد على والِده ، فقال : أما والله لَنِعمَ الحيُّ أنتم ؛ إن كنتم لفُرساناً في الجاهليَّة والإسلام ، وهو آمِن ، فجاؤوا به وكان يُكنى أبا أيوب ، فلمَّا نظر إليه عبدُالملك قال أبا قبيح ، بأيّ وجهٍ تَنظُر إلى ربِّك وقد خلعْتَني ! قال : بالوجه الَّذي خلقه ، فبايع ثمّ ولى فنظر عبدُالملك في قَفاه فقال : لله دَرّه ! أيُّ ابن زَوْمَلَةَ هو ! يعني غَريبة .

وقال علي بن محمد : حدّثني القاسم بن مَعْن وغيرهُ أن مَعْبَد بنَ خالد الجَدَليّ قال : ثمّ تقدّمْنا إليه معشرَ عَدْوان ، قال : فقدَّمنا رجلاً وَسيماً جَميلاً ، وتأخَّرتُ ـ وكان مَعبَد دميماً ـ فقال عبدُالملك : من؟ فقال الكاتب : عَدْوان ، فقال عبدُالملك :

عــذيــرَ الـحيِّ مـن عَـدْوا ... نَ كـانـوا حَـيَّـةَ الأَرضِ
بـغـى بـعـضُـهُـمُ بَـعْـضـاً ... فَـلَـم يَـرْعَـوْا على بَـعضِ
ومـنـهـم كـانـتِ الـسَّـادَا ... تُ والمُـوفُون بـالقَـرْضِ

ثم أقبلَ على الجميل فقال : إيه! ففال : لا أدري ، فقلتُ مِن خَلْفِه :

ومـنـهـمْ حَـكَـمٌ يـقـضِـي ... فـلا يُـنـقَـض مـا يَـقـضِـي
ومـنهـمْ مـن يـجـيـزُ الـحـ ... ـجَّ بـالـسُّـنـة والـفَـرْضِ
وهُـم مُـذْ ولِـدوا شَـبّـوا ... بـسِـر الـنـسـب الـمـحض

قال : فتركني عبدُالملك ، ثم أقبلَ على الجميل فقال : مَن هو؟ قال : لا أدري ؛ فقلتُ مِن خلفه : ذو

الإصبع ؛ قال : فأقبَل على الجميل فقال : ولِمَ سمّي ذو الإصبع؟ فقال: لا أدري ؛ فقلتُ مِن خلفِه : لأنّ حيّةً عضّت إصبَعَه فقطَعَتْها ، فأَقْبَل على الجميل فقال : ما كان اسمُه؟ فقال : لا أدري ؛ فقلتُ مِن خلفه : حُرْثان بن الحارث ؛ فأقبَل على الجميل ، فقال : من أيِّكم كان؟ قال: لا أدري ، فقلت مِن خلفِه : مِن بني ناج ، فقال :

أَبَعْدَ بني نـاجٍ وَسَعْيِـك بينهمْ ... فـلا تُتْبِعنْ عَيْنَيك مـا كـان هـالِكَا
إذا قُلْتُ مَعْـرُوفـاً لأُصلح بينهـمْ ... يقـول وُهَيْبٌ : لا أُصـالـح ذَلكـا
فـأَضحِي كَـظَهْـر العَيْـر جُبَّ سَنَـامُهُ ... تُـطيفُ بـه الـوِلْـدانُ أحـدبَ بَـاركـا

ثم أقبَل على الجميل ، فقال : كم عطاؤك؟ قال: سَبْعمـائة ، فقـال لي : في كَمْ أنتَ؟ قلتُ : في ثلاثمائة ؛ فأقبل على الكاتبَيْن ، فقال : حُطّا من عطاء هذا أربعمائة . وزيداها في عطاء هذا ، فرجعتُ وأنا في سبعمائة ، وهو في ثلاثمائة ثم جاءت كِندة فنظر إلى عبدالله بن إسحاقَ بن الأشعث ، فأوصَى به بِشْراً أخاه ، وقال : اجعلْه في صَحابتِك . وأقبَل داودُ بن قحذَم في مائتين من بكر بن وائل ، عليهم الأقبية الداوديّة ، وبه سُمّيَتْ ، فجلس مع عبدالملك على سريره ، فأقبل عليه عبدُالملك ، ثم نهض ونهضوا معه ، فأتبعهم عبدُالملك بصره ، فقال : هؤلاء الفُسّاق ، والله لولا أنّ صاحبهم جاءني ما أعطاني أحدٌ منهم طاعة .

ثم إنّه وَلّى ـ فيما قيل ـ قَطَنَ بن عَبدالله الحارثيّ الكوفةَ أربعين يوماً ثم عَزَله ، وَولّى بِشْرَ بنَ مَرْوان وصَعِد مِنبرَ الكُوفة فخَطَب فقال :

إنَّ عبدَالله بنَ الزبير لو كان خليفةً كما يزعم لخرج فآسى بنفسه ، ولم يغرزْ ذَنَبَه في الحرَم . ثم قال : إني قد استعملتُ عليكم بِشرَ بنَ مروان ، وأمَرْته بالإحسان إلى أهل الطاعة ، والشدّة على أهل المعصية ، فاسمعوا له وأطيعوا .

واستعملَ محمَّد بنَ عُمَير على هَمَذان ، ويَزيدَ بنَ رُوَيم على الرَّيّ ، وفرّق العُمّالَ ، ولم يفِ لأحد شرطَ عليه ولايةَ أصبهان ؛ ثم قال : عليَّ هؤلاء الفُسّاق الذين أنغَلُوا الشام ، وأفسدوا العراق ، فقيل : قد أجارهم رؤساءُ عشائرِهم ، فقال : وهل يجير عليَّ أحد ! وكان عبدُالله بن يزيد بن أسد لجأ إلى علي بن عبدالله بن عبّاس ، ولجأ إليه أيضاً يحيى بن مَعْيُوف الهمداني ، ولجأ الهذيل بن زُفَرَ بن الحارث وعمرو بن زيد الحَكَميّ إلى خالد بنِ يزيدَ بن معاوية ، فآمَنهم عبدُالملك ، فظَهروا .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة تنازَع الرّياسة بالبصرة عُبيدُالله بن أبي بكرة وحُمران بن أبان ، فحدّثني عمر بن شبَّة قال : حدثني علي بن محمد قال : لما قُتِل المُصعَب وثب حُمرانُ بن أبان وعُبيد الله بن أبي بَكْرة فتنازَعا في ولاية البَصرة ، فقال ابن أبي بكرة : أنا أعظم غناءً منك ، أنا كنتَ أُنْفِق على أصحاب خالد يوم الجُفْرة . فقيل لحُمران : إنّك لا تقوَى على ابن أبي بَكْرة ، فاستَعِنْ بعبدالله بن الأهتم ، فإنّه إن أعانك لم يقْوَ عليك ابنُ أبي بَكْرة ، ففعل ، وغلب حُمْران على البَصْرة وابن الأهتمِ على شُرطها .

وكان لحُمْرَان منزلةٌ عند بني أميّة ؛ حدثني أبو زيد قال : حدَّثني أبو عاصم النُّبيل قال : أخبرني رجلٌ قال : قَدِم شيخٌ أعرابي فرأى حُمرانَ فقال : من هذا؟ فقالوا : حُمْران ؛ فقال : لقد رأيتُ هذا وقد مال رِداؤه عن عاتقِهِ فَابتدره مروان وسعيدُ بنُ العاص أيّهما يسوّيه . قال أبو زيد : قال أبو عاصم : فحَدَّثتُ بذلك رجلاً

من ولد عبدِالله بنِ عامر، فقال: حدّثني أبي أنّ حُمْرَانَ مَدَّ رجلَه فابتدر معاوية وعبدالله بن عامر أيّهما يَغمِزها.

وفي هذه السنة بعث عبدُالملك خالدَ بن عبدالله على البَصرة والياً، حدّثني عمر، قال: حدّثني علي بن محمد، قال: مكث حمرانُ على البصرة يسيراً، وخرج ابن أبي بَكرة حتّى قَدِم على عبدِالملك الكوفة بعد مقتل مُصعَب، فولّى عبدُالملك خالدَ بن عبدالله بن خالد بن أسيد على البصرة وأعمالِها، فوجَّه خالدُ عُبيدَالله بن أبي بَكْرة خليفته على البصرة، فلمّا قَدِم على حُمْران، قال: أَقَدْ جئت لاجئت! فكان ابنُ أبي بَكْرة على البَصرة حتّى قدِم خالد.

وفي هذه السنة رَجع عبدُالملك ـ فيما زَعَم الواقدي ـ إلى الشام.

قال: وفيها نَزَع ابنُ الزبير جابرَ بن الأسود بن عوف عن المدينة، واستعمل عليها طلحة بن عبدالله بن عوف. قال: وهو آخر والٍ لابن الزّبير على المدينة، حتّى قدم عليها طارقُ بنُ عَمرو مولى عثمان، فَهَرَّب طلحة، وأقام طارقٌ بالمدينة حتّى كتب إليه عبدالملك.

وحَجَّ بالناس في هذه السَّنة عبدُالله بنُ الزّبير في قول الواقدي.

وذكر أبو زيد عن أبي غَسَّانَ محمَّد بن يحيى، قال: حدّثني مصعب بنُ عثمانَ، قال: لمّا انتَهَى إلى عبدالله بنِ الزبير قتلُ مُصعب قام في الناس فقال:

الحمد لله الذي له الخلق والأمر، يؤتي الملك من يشاء، ويَنزِع الملك ممّن يشاء، ويُعِزُّ من يشاء، ويُذِلّ من يشاء. ألا وإنَّه لم يُذْلِل الله من كان الحق معه وإن كان فرداً، ولم يُعزِزْ من كان وليُّه الشّيطان وحُزبُهُ وإن كان معه الأنام طُرًّا. ألا وإنه قد أتانا من العراق خبرٌ حزننا وأفرَحَنا، أتانا قَتل مصعب رحمةُ الله عليه، فأما الَّذي أفرَحنَا فعلِمْنا أنّ قتلَه له شهادة، وأمَّا الذي حَزّننا فإنّ لفراقِ الحميم لوعة يَجِدها حميمُه عند المصيبة، ثم يَرْعَوي من بعدها ذو الرأي إلى جميل الصبرِ وكريمِ العَزَاء، ولئن أُصِبت بمصعب لقد أصبت بالزبير قبلَه، وما أنا من عثمانَ بخِلْوِ مصيبة، وما مصعب إلّا عبدٌ من عَبيد الله وعَونٌ من أعواني. ألا إنّ أهل العراق أهلُ الغَدْر والنفاق، أسلَموه وباعُوه بأقلِّ الثمن، فإنْ يُقتل فإنّا والله ما نموت على مَضاجِعنا كما تموت بنو أبي العاص، والله ما قُتِل منهم رجلٌ في زَحْف في الجاهليّة ولا الإسلام، وما نموت إلّا قَعْصاً بالرّماح، وموتاً تحت ظِلال السيوف. ألا إنّما الدنيا عاريَة من المَلِك الأعلى الَّذي لا يزول سلطانُه، ولا يَبِيدُ مُلكُه، فإن تُقبِل لا آخذها أخذ الأشرِ البَطر، وإن تُدْبر لا أبْك عليها بكاءَ الخَرِق المَهِين؛ أقول قولي هذا وأستغفرُ الله لي ولكم.

وذكر أنّ عبدَالملك لمّا قتل مصعباً ودخل الكوفة أمرَ بطعام كثير فصُنِع، وأمر به إلى الخَوَرْنَق، وأذِن إذناً عامًّا، فدخل الناسُ فأخذوا مجالسهم، فدخل عمرو بن حُرَيْث المخزوميّ فقال: إليَّ وعلى سريري، فأجلسَه معه، ثم قال: أي الطعام أكلتَ أحبَّ إليك وأشهى عندك؟ قال: عَناق. حَمراء قد أجيد تمليحُها، وأحكِم نضجها، قال: ما صنعتَ شيئاً، فأين أنتَ من عُمْروس راضع قد أجيدَ سَمطُه، وأحكِم نُضجُه، اختلجتَ إليك رجْلَهُ، فأتبعتَها يدَه، غُذي بشَريجَيْنِ من لبن وسمن. ثم جاءت الموائد فأكلوا، فقال عبدُالملك بنُ مَرْوان: ما ألذَّ عيشَنَا لو أنّ شيئاً يدوم! ولكنّا كما قال الأوّل:

وكـل جـديـدٍ يـا أُمَـيـمَ إلى بِلًى ... وكـلُّ امْرِىءٍ يَـوْمـاً يَصيـرُ إلى كـانْ

فلما فرغ من الطعام طاف عبدُالملك في القصر يقول لعَمرو بنِ حُرَيث : لِمَنْ هذا البيت؟ وَمَنْ بَنَى هذا البيت ؟ وعَمرو يُخبره ، فقال عبدُالملك :

وكُــلُّ جــديــدٍ يــا أُمَــيـمَ إلـى بِـلًى ... وكـلُّ امـرىءٍ يــومـاً يصيــرُ إلى كـانْ

ثمّ أتى مجلسَه فاستَلْقى ؛ وقال :

اعْـمــل عــلى مَهَــلٍ فــإنَّــك مَـيّتٌ ... واكــدَحْ لـنَـفْسِـك أيّهَـا الإنـسَــانْ
فكـأَنَّ مـا قــد كـان لم يـكُ إذ مضى ... وكـأَنَّ مـا هــو كـائــنٌ قــد كــانْ

وفي هذه السنة افْتَتح عبدُالملك ـ في قول الواقدي ـ قَيْسارِيَّة .

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث الجليلة

قال أبو جعفر : فمن ذلك ما كان من أمر الخوارج وأمر المهلّب بن أبي صُفْرة وعبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسِيد .

ذَكَر هِشامُ بن محمد ، عن أبي مخنف أن حصِيرة بن عبد الله وأبا زُهير العبسي حدّثاه أن الأزارقة والمهلَّب بعدما اقتتلوا بسُولافَ ثمانية أشهر أشدَّ القتال ، أتاهم أن مصعب بن الزّبير قد قُتِل ، فبلغ ذلك الخوارجِ قبل أن يبلغ المهلَّب وأصحابه ، فناداهم الخوارجُ : ألا تُخبِروننا ما قولكم في مُصعب ؟ قالوا : إمام هُدًى ؛ قالوا : فهو وليّكم في الدنيا والآخرة؟ قالوا : نعم ، قالوا : وأنتم أولياؤه أحياءً وأمواتاً؟ قالوا: ونحن أولياؤه أحياءً وأمواتاً ؛ قالوا: فما قولُكم في عبدالملك بن مروان؟ قالوا: ذلك ابن اللَّعين ، نحن إلى الله منه بُراء ، هو عندنا أحلُّ دماً منكم ، قالوا : فأنتم منه بُراء في الدُّنيا والآخرة ؟ قالوا : نعم كبراءتنا منكم ؛ قالوا : وأنتم له أعداءً أحياءً وأمواتاً؟ قالوا: نعم نحن له أعداء كعداوتنا لكم ، قالوا : فإنّ إمامَكم مُصعَباً قد قتله عبدالملك بن مروان ، ونراكم ستجعلون غداً عبدالملك إمامكم ، وأنتم الآن تتبرّؤون منه ، وتلعَنون أباه! قالوا: كذبتم يا أعداء الله . فلما كان من الغد تبيّنَ لهم قتلُ مصعَب ، فبايع المهلَّب الناس لعبدالملك بن مروان فأتتهم الخوارجُ فقالوا : ما تقولون في مصعب؟ قالوا: يا أعداء الله ؛ لا نخبركم ما قولنا فيه ، وكرهوا أن يكذِّبوا أنفسَهم عندهم ، قالوا : فقد أخبرتمونا أمسِ أنه وليّكم في الدنيا والآخرة ، وأنكم أولياؤه أحياءً وأمواتاً ، فأخبرونا ما قولكم في عبدالملك؟ قالوا: ذاك إمامنا وخليفتُنا ـ ولم يجدوا إذ بايعوه بُدًّا من أن يقولوا هذا القول ـ قالت لهم الأزارقة: يا أعداء الله ، أنتم أمسِ تتبرّؤون منه في الدّنيا والآخرة، وتزعمون أنكم له أعداء أحياءً وأمواتاً ، وهو اليوم إمامكم وخليفتُكم ، وقد قتل إمامَكم الذي كنتم تولّونه! فأيها المحقّ ، وأيهما المهتدِي ، وأيهما الضالّ ! قالوا لهم : يا أعداء الله ، رضِينا بذاك إذ كان وليّ أمورنا ، ونرضى بهذا كما رضينا بذاك ، قالوا : لا والله ولكنّكم إخوان الشياطين ، وأولياء الظالمين ، وعبيدُ الدنيا . وبعث عبدالملك بن مروان بشر بن مروان على الكوفة ، وخالد بن عبدالله بن خالد بن أسِيد على البَصْرة . فلما قَدم خالد أثبت المهلَّب على خَراج الأهواز ومَعُونتها ، وبعث عامر بن مِسْمع على سابُور ، ومُقاتِل بن مسمع على أرْدشِير خُرَّة ، ومِسمَع بن مالك بن مِسمَع على فَسَا ودرابْجِرْد ، والمغيرة بن المهلب على إصطخر .

ثم إنه بعث إلى مُقاتِل فَعَثَه على جيش ، وألحَقَه بناحية عبدالعزيز فخرج يطلب الأزارقة ، فانحطّوا عليه من قِبَل كَرْمان حتى أَتَوْا دَارابْجِرد، فسار نحوَهم . وبعث قَطَريٌّ مع صالح بن مخْراق تسعمائة فارس ، فأقبَل

يسيرُ بهم حتى استقبَل عبدالعزيز وهو يسير بالناس ليلاً ، يجرون على غير تعبية ، فهزم الناس ، ونَزَل مُقاتِل بن مِسمَع فقاتل حتى قُتِل ، وانهزم عبدُالعزيز بنُ عبدالله ، وأخذت امرأتُه ابنة المنذر بن الجارود ، فأقيمت فيمن يزيد ، فبلغت مائة ألف ـ وكانت جميلةً ـ فغار رجلٌ من قومها كان من رؤوس الخوارج يقال له : أبو الحديد الشَّنِّي ، فقال : تنحّوا هكذا ، ما أَرَى هذه المُشركة إلاَّ قد فتنتْكم ، فضرب عنقَها . ثم زعموا أنه لَحِق بالبَصْرة ، فرآه آلُ منذر فقالوا : والله ما ندري أنحْمَدُك أم نُذمّك ! فكان يقول : ما فعلتُه إلاَّ غيرة وحَمِيّة .
وجاء عبدُالعزيز حتى انتهى إلى رامَهُرْمُز ، وأتى المهلّب فأخبر به ، فبعث إليه شيخاً من أشياخ قومه كان أحدَّ فرسانه ، فقال : ائته فإن كان منهزماً فعَزِّهِ وأخبره أنه لم يفعل شيئاً لم يفعله الناسُ قبله ، وأخبره أن الجنود تأتيه عاجلاً ، ثم يُعزّه الله وينصُره . فأتاه ذلك الرجل ، فوجدوه نازلاً في نحو من ثلاثين رجلاً كئيباً حزيناً ، فسلم عليه الأزْدي ، وأخبره أنه رسول المهلّب ، وبلّغه ما أمرَه به ، وعرض عليه أن يذكر له ما كانت له من حاجة .
ثم انصرف إلى المهلب فأخبره الخبر ، فقال له المهلب : الحق الآن بخالد بالبصرة فأخبره الخبر ، فقال : أنا آتيه أخبرُه أنّ أخاه هُزِم ! والله لا آتيه ، فقال المهلّب : لا والله لا يأتيه غيرُك ، أنتَ الذي عاينتَه ورأيته ، وأنت كنتَ رسولي إليه ، قال : هو إذاً بهديك يا مهلّب أن ذهبَ إليه العامَ ، ثم خرج . قال المهلّب : أمّا أنت والله فإنك لي آمن ، أما والله لو أنك مع غيري ، ثم أرسلك على رجليك خرجت تشتد ! قال له وأقبَل عليه : كأنك إنما تمنّ علينا بحِلْمك ! فنحن والله نُكافئكَ بل نزيد ، أما تَعلَم أنا نُعرّض أنفسنا للقتل دُونَك ، ونحميك من عدوّك ! ولو كنا والله مع من يجهل علينا ، ويبعثنا في حاجاته على أرْجُلِنا ، ثم احتاج إلى قتالنا ونُصْرتنا جعلناه بيْنَنا وبين عدوّنا ، ووقينا به أنفسنا . قال له المهلّب : صدقتَ صدقتَ . ثم دعا فتًى من الأزْد كان معه فسرَّحه إلى خالد يخبِره خبَرَ أخيه ، فأتاه الفتى الأزدي وحوله الناسُ ، وعليه جُبّةٌ خضراءُ ومُطرفٌ أخضَر ، فسلم عليه ، فردّ عليه ، فقال : ما جاءَ بك ؟ قال : أصلحك الله ! أرسلني إليك المهلب لأخبرَك خبرَ ما عاينتُه ، قال : وما عاينتَ ؟ قال : رأيت عبدَ العزيز برامَهُرمُز مهزوماً ، قال : كذبت ، قال : لا ، والله ما كذبتُ ، وما قلتُ لك إلّا الحقّ ، فإن كنتُ كاذباً فاضربْ عُنقي ، وإن كنتُ صادقاً فأعطِني أصلحك الله جُبّتَكَ ومُطرفَكَ . قال : وَيْحَك ! ما أيسرَ ما سألت ، ولقد رضيت مع الخطر العظيم إن كنت كاذباً بالخطر الصَّغير إن كنت صادقاً . فحَبَسه وأمر بالإحسان إليه حتى تبيّنتْ له هزيمةُ القوم ، فكَتَب إلى عبدالملك :

أما بعد ، فإني أخبِر أميرَ المؤمنين أكرمه الله أني بعثتُ عبدَالعزيز بن عبدالله في طلب الخوارج ، وأنّهم لقُوه بفارِسَ ، فاقتَتلوا قتالاً شديداً ، فانهَزَم عبدُالعزيز لما انْهَزَم عنه الناس ، وقتِل مقاتل بنُ مِسمَع ، وقدم الفَلّ إلى الأهْواز . أحببتُ أن أعلمِ أميرَ المؤمنين ذلك ليأتيني رأيُه وأمرُه أنزل عندَه إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمةُ الله .

فكَتَب إليه :

أما بعد ، فقد قَدِم رسولُك في كتابِك ، تُعلِمني فيه بَعْثَتك أخاك على قتال الخوارج ، وبهزيمة مَنْ هُزم ، وقَتْل مَن قُتِل ، وسألتُ رسولك عن مكان المهلّب ، فحدّثني أنه عاملٌ لك على الأهواز ، فقَبح الله رأيك حين تَبْعث أخاك أعرابيًّا من أهل مكّة على القتال ، وتدَع المهلب إلى جنبك يَجبي الخَراج ، وهو المَيْمونُ النقيبةُ ، الحَسَن السياسة ، البصير بالحَرْب ، المُقاسي لها ، ابنها وابنُ أبنائها ! انظر أن تنهض بالناس حتى تَستقبِلهم

بالأهواز ومن وراء الأهواز . وقد بعثتُ إلى بِشْر أن يُمدّك بجَيْش من أهل الكوفة ، فإذا أنت لقيتَ عدوَّك فلا تَعمَل فيهم برأي حتى تُحضره المهلّب ، وتستشيره فيه إن شاء الله. والسلامُ عليكَ ورحمةُ الله .

فشَقّ عليه أنّه فَيَّل رأيَه في بِعْثةِ أخيه وتَرْكِ المهلّب ، وفي أنه لم يَرضَ رأيَه خالصاً حتى قال : أحضرْه المهلّبَ واستشرْه فيه .

وكَتَب عبدُ الملك إلى بِشْر بنِ مَرْوان :

أما بعد ، فإني قد كتبتُ إلى خالد بن عبدالله آمُرُه بالنّهوض إلى الخوارج ، فسرِّحْ إليه خمسةَ آلاف رجل ، وابعثْ عليهم رجلاً من قِبَلك ترضاه ، فإذا قَضَوْا غزاتَهم تلك صرفْتَهم إلى الرّيّ فقاتَلُوا عدوَّهم ، وكانوا في مَسالِحهم ، وجَبَوْا فيئهم حتى تأتي أيام عقبهم فتُعقبهم وتبعث آخرين مكانَهم .

فقطع على أهل الكوفة خمسةَ آلاف ، وبعث عليهم عبدالرَّحمن بن محمد بن الأشعث ، وقال : إذا قضيتَ غزاتَك هذه فانصرفْ إلى الرَّي . وكتب له عليها عهْداً . وخرج خالدٌ بأهل البصرة حتى قَدِم الأهواز ، وجاء عبدالرحمن بن محمد ببعث أهل الكوفة حتّى وافاهم بالأهواز ، وجاءت الأزارقة حتى دَنَوْا من مدينة الأهواز ومن مُعسكَر القوم ، وقال المهلَّب لخالد بن عبْدالله : إني أَرَى ها هنا سُفُناً كثيرة ، فضُمَّها إليك ، فوالله ما أظُنّ القومَ إلاّ مُحرِقيها . فما لبث إلاّ ساعةً حتى ارتفعتْ خيلٌ من خيلهم إليها فحرّقَتْها . وبعث خالد بن عبدالله على ميمنته المهلَّبَ ، وعلى ميسَرته داود بن قحذَم من بني قيس بن ثعلبة ، ومرّ المهلَّب على عبدالرحمن بن محمد ولم يُخندق ، فقال : يابن أخي ، ما يَمنعك من الخَنْدق! فقال: واللّهِ لهمْ أهوَنُ علي من ضَرْطة الجَمَل ، قال : فلا يَهُونوا عليك يابن أخي ، فإنَّهم سِباعُ العَرَب ، لا أبرح أو تَضرِب عليك خندقاً ؛ ففعل .

وبلغ الخوارجَ قول عبدالرحمن بن محمد لهم : « أهوَنُ عليَّ مِن ضَرْطة الجمل » ، فقال شاعرُهم :

يا طالِبَ الحقِّ لا تُستَهْو بالأَمَلِ ... فإنَّ من دون ما تَهوَى مَدَى الأَجلِ
واْعمَل لربِّك واْسألْه مَثوبَتَهُ ... فإنَّ تَقْواه فاْعلمْ أفضلُ العملِ
واغْزُ المَخانيثَ في الماذِيِّ مُعْلَمةٍ ... كيما تُصبِّح غَدْواً ضَرْطَةَ الجملِ

فأقاموا نحواً من عشرين ليلةً . ثم إن خالداً زَحَف إليهم بالناس ، فرأوا أمْراً هالهم من عَدَد الناس وعُدّتِهم ، فأخذوا يَنْحازُون ، واجترأ عليهم الناس ، فكَرّت عليهم الخيل ، وزحف إليهم فانصرفوا كأنَّهم على حامِية وهم مولُّون لا يروْن لهم طاقة بقتال جماعة الناس ، وأتبعهم خالد بن عبدالله داود بن قحذَم في جيش من أهل البصرة ، وانصرف خالد إلى البصرة ، وانصرف عبدالرحمن بن محمد إلى الرَّي وأقام المهلَّب بالأهواز ، فكتب خالد بن عبدالله إلى عبدالملك :

أمَّا بعد ، فإني أخبر أمير المؤمنين أصلحه الله أني خرجتُ إلى الأزارقة الَّذين مرقوا من الدِّين ، وخرجوا من وِلاية المسلمين ، فالتقيْنا بمدينة الأهْواز فتناهضْنا فاقتتلنا كأشدِّ قتال كان في الناس. ثم إن الله أنزَل نصرَه على المؤمنين والمسلمين ، وضربَ الله وجوه أعدائه ، فاتبعهم المسلمون يقتّلونهم ، ولا يَمنعون ولا يمتنعون ، وأفاءَ الله ما في عسكرهم على المسلمين ، ثم أتبعتُهم داودَ بنَ قَحْذَم ، والله إن شاءَ مهلِكهم ومستأصِلهم ؛ والسلام عليك .

فلمّا قَدم هذا الكتاب على عبدالملك كتب عبدُ الملك إلى بشْر بن مروان :

أما بعد ، فابعث من قِبَلك رجلاً شجاعاً بصيراً بالحرب في أربعة آلاف فارس ، فلْيَسيروا إلى فارس في طلب المارقة ، فإنّ خالداً كتب إليَّ يخبرني أنّه قد بعث في طلبهم داود بن قَحْذَم ، فمرْ صاحبك الَّذِي تَبعث ألا يُخالف داودَ بن قَحْذَم إذا ما التَقيا ، فإن اختلافَ القوم بينهم عَوْن لعدوّهم عليهم . والسلامُ عليك .

فبعث بشر بن مروان عَتّاب بن ورقاء في أربعة آلاف فارس من أهل الكوفة ، فخرجوا حتّى التقَوا هم وداودُ بنَ قَحْذم بأرض فارس ، ثم اتَّبعوا القوم يطلبونهم حتى نَفقتْ خيولُ عامَّتهم ، وأصابَهم الجَهْد والجوع ، ورَجع عامَّةُ ذَيْنِك الجَيْشَين مُشاةً إلى الأهواز ، فقال ابن قيس الرّقيّات ـ من بني مخزوم ـ في هزيمة عبدالعزيز وفِراره عن امرأته :

عبدالعزيز فضَحْتَ جَيْشَك كلَّهمْ ... وتركتَهم صرعى بكلِّ سبيل
من بين ذِي عَطَشٍ يجودُ بنفْسِه ... ومُلَحَّب بين الرِّجال قَتيل
هلاَّ صبرْتَ مع الشهيد مقاتِلاً ... إذ رُحْتَ منتكث القُوىَ بأَصيل
وتركت جَيْشَك لا أميرَ عليهمُ ... فارجع بِعارٍ في الحياةِ طَويل
ونَسيتَ عِرسك إذ تُقَادُ سَبِيَّةً ... تُبكى العيونَ برنَّةٍ وعَويلِ

وفي هذه السنة كان خروج أبي فُدَيك الخارجي ، وهو من بني قَيْسِ بن ثعلبة ، فغلب على البحرين ، وقتل نجدةَ بن عامر الحَنَفي ، فاجتمع على خالد بن عبدالله نُزولَ قَطَريّ الأهواز وأمرُ أبي فُديك ، فبعث أخاه أميَّة بن عبدالله على جُند كثيف إلى أبي فُدَيك ، فهزمه أبو فُدَيك ، وأخذ جاريةً له فاتّخذها لنفسه ، وسار أميَّةُ على فرس له حتّى دخل البَصْرة في ثلاثة أيّام ، فكتب خالدٌ إلى عبدالملك بحالِه وحالِ الأزارقة .

وفي هذه السنة وجّه عبدُالملك الحجّاجَ بن يوسفَ إلى مكة لقتال عبدالله بن الزّبير ، وكان السبب في توجيهه الحَجّاجَ إليه دونَ غيره ـ فيما ذُكر ـ أن عبدَالملك لمّا أراد الرّجوع إلى الشام ، قام إليه الحجّاج بن يوسف فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إني رأيتُ في منامي أني أخذتُ عبدالله بن الزبير فسلَخْته ، فابْعثْني إليه ، وولّني قتالَه . فبعثه في جيش كثيف من أهل الشام ، فسار حتّى قَدِم مكّة ، وقد كتب إليهم عبدُالملك بالأمان إنْ دخلوا في طاعتِه. فحدَّثني الحارثُ ؛ قال : حدَّثني محمَّد بن سَعْد ، قال : أخبَرَنا محمَّد بن عمرَ ، قال : حدَّثنا مُصعَب بن ثابت ، عن أبي الأسود ، عن عبَّاد بن عبدالله بن الزبير ، قال : بعث عبدالملك بن مروان حين قُتِل مصعب بن الزبير الحجّاجَ بن يوسف إلى ابن الزّبير بمكّة ، فخرج في ألفين من جُندِ أهل الشام في جُمَادى من سنة اثنتين وسبعين ، فلم يَعرِض للمدينة ، وسلَك طريقَ العِراق ، فنزل بالطّائف ، فكان يَبْعَث البُعوثَ إلى عَرَفة في الخيل ، ويبعث ابن الزّبير بَعْثاً فيقتتلون هنالك ، فكلّ ذلك تُهزَم خيل ابنِ الزّبير وتَرجِع خيلُ الحجّاج بالظّفَر . ثم كتب الحجّاج إلى عبدِالملك يستأذنه في حصار ابن الزبير ودخولِ الحَرَم عليه ، ويُخبِره أن شوكَتَه قد كَلَّت ، وتَفرَّق عنه عامَّة أصحابه ، ويَسأله أن يمدّه برجال ، فجاءَه كتابُ عبدِالملك ، وكتب عبدُالملك إلى طارِق بن عَمْرو يأمره أن يَلحَق بمن معه من الجُنْد بالحجّاج ، فسار في خمسة آلاف من أصحابه حتّى لحق بالحَجّاج . وكان قُدومُ الحَجّاج الطائفَ في شعبان سنة اثنتين وسبعين . فلمّا دخل ذو القعدة رَحَل الحجّاج من الطائف حتّى نزل بئرَ مَيْمون وحصرَ ابن الزّبير .

وحجّ الحجّاجُ بالناس في هذه السنة ، وابن الزبير محصور ، وكان قدومُ طارق مَكّة لهلالِ ذي الحِجّة ، ولم يَطُف بالبَيْت ، ولم يصل إليه وهو مُحرِم ، وكان يَلبَس السلاح ، ولا يَقرَب النساء ولا الطيب إلى أن قُتل عبدُالله بن الزبير . ونَحرَ ابنُ الزّبير بُدْناً بمكّة يومَ النحر ، ولم يحجَّ ذلك العامَ ولا أصحابه لأنّهم لم يَقِفوا بعَرَفة .

قال محمد بن عمر : حدّثني سعيد بن مسلم بن بابك ، عن أبيه ، قال : حجَجتُ في سنة اثنتين وسبعين فَقَدِمْنا مكّة ، فدخَلناها من أعلاها ، فنجدُ أصحابَ الحجّاج وطارق فيما بين الحَجون إلى بئرِ مَيْمون ، فطفْنا بالبيت وبالصّفا والمَرْوة ، ثم حَجّ بالناس الحجّاجُ ، فرأيتُه واقفاً بالهَضَبات من عرفة على فرس، وعليه الدِّرع والمِغفَر ، ثم صَدَر فرأيتُهُ عَدَل إلى بئرِ ميمون ، ولم يَطفْ بالبيت وأصحابه متسلّحون ، ورأيتُ الطّعام عندهم كثيراً ، ورأيت العير تأتي من الشام تحمل الطّعام ؛ الكعْك والسّويق والدّقيق ؛ فرأيتُ أصحابَه مخاصيبَ ، ولقد ابْتعْنا من بعضهم كعكاً بدرْهم ، فكفانا إلى أن بَلغنا الجُحْفة وإنّا لثلاثة نفر .

قال محمّد بن عمر : حدّثني مصعب بنُ ثابت ، عن نافع مَولى بني أَسَد ، قال ـ وكان عالماً بفتنة ابنِ الزّبير ـ قال : حُصر ابنُ الزّبير ليلةَ هلالِ ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين .

وفي هذه السنة كتب عبدُالملك إلى عبدِالله بن خازم السّلَميّ يدعوه إلى بَيْعته ويُطعِمه خُراسانَ سبعَ سنين ، فَذَكر عليُّ بن محمد أن المفضّل بن محمد ويحيى بن طُفيل وزهير بن هُنَيد حدّثوه ـ قال : وفي خبر بعضهم زيادةٌ على خبر بعض ـ أن مصعب بن الزبير قُتِل سنة اثنتين وسبعين وعبدالله بن خازم بأَبْرشَهْر يُقاتِل بحِير بن وَرْقاء الصُّرَيميّ صُرَيم بن الحارث ؛ فكَتَب عبدُالملك بنُ مروان إلى ابن خازم مع سورة بن أَشْيم النُّمَيري : إنّ لك خُراسانَ سبعَ سنين على أن تُبايع لي . فقال ابنُ خازم لسَوْرة : لولا أن أضرّب بين بني سُلَيم وبني عامر لقتلتُك ولكن كلْ هذه الصحيفة ، فأكلَها .

قال : وقال أبو بكر بن محمد بن واسع : بل قدِم بعهد عبدالله بن خازم سوادةُ بن عبيد الله النُّمَيري .

وقال بعضُهم : بعَث عبدُالملك إلى ابن خازم سِنَان بن مكمّل الغَنويّ ، وكتب إليه : إنّ خُراسان طُعْمة لك ، فقال له ابن خازم : إنما بَعثك أبو الذِّبّان لأنك مِن غَنِيّ ، وقد عَلم أني لا أقتُل رجلاً من قيس ، ولكن كلْ كِتابَه .

قال : وكتب عبدُالملك إلى بكير بن وشاح أحدِ بني عَوْف بن سعد ـ وكان خليفة ابن خازم على مَرْوَ ـ بعهده على خراسان ووعده ومنّاه ، فخلع بكيرُ بن وشاح عبدالله بن الزبير ، ودعا إلى عبدالملك بن مروان ، فأجابه أهلُ مَرْوَ ، وبلغ ابنَ خازم فخاف أن يأتيَه بُكَير بأهلِ مَرْو ، فيجتمع عليه أهلُ مَرْو وأهل أبْرشَهْر ، فترك بَحِيراً ، وأقبل إلى مرْو يريد أن يأتيَ ابنه بِالتِّرمِذ ، فأتبعه بحير ، فلحقه بقرية يقال لها بالفارسية : « شاهميغد » ، بينها وبين مَرْو ثمانية فَراسخ .

قال : فقاتله ابن خازم ، فقال مولًى لبني ليث : كنت قَريباً من معترك القوم في منزل ، فلما طَلعت الشمسُ تهايجَ العسكران ، فجعلتُ أسمَع وقْعَ السيوف ، فلمّا ارتَفع النهارُ خفيَت الأصواتُ ، فقلتُ : هذا لارتفاع النّهار ، فلمّا صلّيت الظهر ـ أو قبلَ الظهر ـ خرجتُ ، فتلَقّاني رجلٌ من بني تميم ، فقلتُ : ما الخبر؟ قال : قتلتُ عدوَّ الله ابن خازم وها هو ذا ، وإذا هو محمول على بغل ، وقد شدّوا في مَذاكِيره حَبْلًا وحجراً وعدلوه به على البَغْل .

قال : وكان الّذي قتله وَكيعُ بنُ عُمَيرة القُرَيعيّ وهو ابن الدَوْرَقِيَّة ، اعتور عليه بحير بن وَرْقاء وعمَّار بنُ عبدالعزيز الجُشمي ووكيع ، فطعَنوه فصَرَعوه ، فقعد وكيع على صدره فقتَله ، فقال بعضُ الوُلاة لوَكيع : كيف قتلتَ ابنَ خازم؟ قال : غلبتُه بفَضْل القَنا ، فلمّا صُرع قعدتُ على صدره ، فحاول القيامَ فلَم يَقدِر عليه ، وقلتُ : يا لَثارات دُوَيلة ! ودُوَيْلَةُ أخٌ لوَكيع لأمّه ، قُتِل قبل ذلك في غير تلك الأيام.

قال وكيع : فتَنخَّم في وجهي وقال : لعنك الله! تقتل كبش مضَر ، بأخيك . علْجٍ لا يساوي كفًّا من نوًى ـ أو قال : مِن تراب ـ فما رأيت أحداً أكثر ريقاً منه على تلك الحال عند الموت .

قال : فذَكَر ابنُ هُبيرة يوماً هذا الحديثَ فقال : هذه والله البَسالة . قال : وبعث بَحِير ساعةَ قُتل ابن خازم رجلاً من بني غُدانة إلى عبدالملك بن مَرْوانَ يُخبره بقتل ابن خازم ، ولم يَبعث بالرأس ، وأقبل بُكَير بنُ وشاح في أهل مَرْو فوافاهم حين قتل ابن خازم ، فأراد أخذ رأس ابن خازم ، فمنعه بَحيرٌ ، فضربه بكير بعمود ، وأخذ الرأسَ وقَيَّد بحيراً وحبسه ، وبعث بكير بالرأس إلى عبدالملك ، وكتب إليه يُخبره أنّه هو الذي قتله ، فلمّا قُدِم بالرأس على عبدالملك دعا الغُدانيّ رسولَ بَحير وقال : ما هذا ؟ قال : لا أدري ، وما فارقتُ القومَ حتّى قُتِل ، فقال رجل من بني سُليم :

ألَـيْلَتَـنـا بـنـيـسـابُـورَ رُدِّي	عليَّ الصبـحَ وَيْحـك أو أنِيـري
كـواكبُـهـا زَوَاحِـفُ لاغِبَـاتٌ	كَـأنَّ سمـاءَهـا بيـدي مُـدِيـرِ
تَـلومُ عـلى الـحـوادثِ أُمُّ زيـدٍ	وهـل لكِ في الحـوادثِ من نَكيرِ!
جَـهلن كَـرامـتي وصَـدَدنَ عـنّي	إلـى أجـل من الـدّنيـا قصيـر
فـلو شهِـدَ الـفـوارس من سُـلَيْم	غَـدَاةَ يُـطَاف بـالأسَـدِ العَقيـرِ
لـنـازَلَ حـولَـه قـومٌ كِـرامٌ	فَعَـزَّ الـوتـرُ في طلب الـوُتـورِ
فـقـد بَقِيتْ كـلابٌ نـابِـحـاتٌ	ومـا في الأرضِ بعـدَك من زَئيـرِ

فولي الحجّ بالناس في هذه السنة الحجّاج بن يوسف .

وكان العامل على المدينة طارقٌ مولى عثمان من قِبَل عبدالملك ، وعلى الكوفة بِشْر بن مروان ، وعلى قضائها عُبيدالله بنُ عبدالله بن عُتبةَ بن مسعود . وعلى البصرة خالدُ بنُ عبدالله بن خالد بن أسِيد ، وعلى قضائها هشام بن هُبيرة . وعلى خُراسان في قول بعضهم عبدُالله بن خازم السُلَميّ ، في قول بعض : بكير بن وِشاح . وزعم مَن قال : كان على خُراسانَ في سنة اثنتين وسبعين عبدُالله بنُ خازم أنّ عبدالله بن خازم إنّما قتل بعدما قتل عبدالله بن الزُّبير ، وأنّ عبدالملك إنّما كتب إلى عبدالله بن خازم يدعوه إلى الدخول في طاعته على أن يُطْعِمه خُراسان عشرَ سنين بعدما قتِل عبدُالله بنُ الزُّبير ، وبعث برأسه إليه ، وأنّ عبدالله بنَ خازم حلَف لمّا ورد عليه رأسُ عبدالله بنِ الزبير ألاّ يُعطيه طاعةً أبداً ، وأنّه دعا بطست فغَسل رأسَ ابن الزبـير ، وحَنَّطه وكفَّنه ، وصلَّى عليه ، وبعث به إلى أهل عبدالله بن الزُّبير بالمدينة ، وأطعم الرسول الكتاب ، وقال : لولا أنَّك رسولٌ لضربتُ عنقك . وقال بعضهم : قطع يَدَيه ورجلَيه وضرَبَ عنقه .

فصل نذكر فيه الكتّاب من بدء أمر الإسلام

روى هشام وغيره أنّ أوّل من كتب من العرب حرب بن أميَّة بن عبد شمس بالعربيَّة ، وأنَّ أوّل من كتب بالفارسيَّة بيوراسب ، وكان في زمان إدريس . وكان أوّل من صنّف طبقاتِ الكتّاب وبيّن منازلهم لهراسب بن كاوغان بن كيمُوس .

وحُكِي أن أبروَيْز قال لكاتِبه : إنما الكلام أربعةُ أقسام : سؤالُك الشيءَ ، وسؤالُك عن الشيء ، وأمرُك بالشيء ، وخبرك عن الشيء ؛ فهذه دعائمُ المقالات إن التُمس لها خامس لم يوجد ، وإن نقص منها رابعٌ لم تَتِمّ ، فإذا طلبتَ فأسجح ، وإذا سألتَ فأوضح ، وإذا أمرْت فاحْتم ، وإذا أخبرت فحقّق .

وقال أبو موسى الأشعري : أوّل من قال : أما بعدُ داود ، وهي فصلُ الخِطاب الذي ذكره الله عنه .

وقال الهَيْثم بنُ عَديّ : أوّل مَن قال : أما بعدُ قسّ بنُ ساعدةَ الإياديّ .

أسماء من كتب للنبيّ ﷺ

علي بن أبي طالب عليه السلام وعثمان بن عفان ، كانا يكتبان الوحْيَ ؛ فإن غابا كتبه أبيُّ بنُ كعب وزيدُ بنُ ثابت .

وكان خالد بنُ سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سُفْيان يَكتُبان بين يديه في حوائجه .

وكان عبدُالله بنُ الأرقم بن عبد يَغُوثَ والعلاءُ بن عُقبة يَكتُبان بين القوم في حوائجهم ، وكان عبدُالله بنُ الأرقم ربّما كتب إلى الملوك عن النبيّ ﷺ .

وكتب لأبي بكر عثمانُ ، وزيدُ بنُ ثابت ، وعبدُ الله بنُ الأرقم وعبدُ الله بنُ خلَف الخُزاعي ، وحَنْظلة بن الربيع .

وكتَبَ لعمرَ بن الخطاب زيدُ بنُ ثابت ، وعبدُالله بنُ الأرقم ، وعبدُالله بنُ خَلَف الخُزاعي أبو طلحة الطلَحات على ديوان البَصْرة ، وكتب له على ديوان الكوفة أبو جَبيرةَ بن الضحّاك الأنصاريّ .

وقال عمر بن الخَطّاب لكتّابه وعُمّاله : إنّ القوّة على العمل ألّا تؤخِّروا عملَ اليوم لغَد ، فإنكم إذا فعلتُم ذلك تداءَبتْ عليكم الأعمال ، فلا تَدْرون بأيها تبدؤون ، وأيّها تأخذون . وهو أوّلُ مَنْ دوَّن الدَّواوين في العَرَب في الإسلام .

وكان يكتُب لعثمانَ مروانُ بنُ الحَكَم ، وكان عبدُالملك يكتُب له على ديوان المدينة ، وأبو جَبيرة الأنصاري على ديوانِ الكوفة ، وكان أبو غطفان بن عوف بن سعد بنِ دينار من بني دُهمانَ من قيس عَيْلان يَكتُب له ، وكان يَكتُب له أهيبُ مولاه ، وحمران مولاه .

وكان يكتُب لعلي عليه السلام سعيدُ بنُ نمْران الهمدانيّ ، ثم وليَ قضاءَ الكوفة لابن الزّبير . وكان يكتب له عبدالله بن مسعود ، ورُوي أنّ عبدالله بنَ جُبيرة كتب له . وكان عُبيدُالله بنُ أبي رافع يكتُب له . واختلف في اسم أبي رافع ، فقيل : اسمُه إبراهيم ، وقيل : أسلم ، وقيل : سنان ، وقيل : عبدُالرحمن .

وكان يَكتُب لمعاوية على الرّسائل عبيد بنُ أَوْس الغَسّانيّ . وكان يَكتب له على ديوان الخَراج سَرجُون بنُ منصور الرّوميّ . وكتب له عبدُالرحمن بنُ دَرّاج ، وهو مَولَى معاوية ، وكَتَب على بعض دواوينِه عُبيدُالله بنُ نصر بن الحجاج بن عَلاء السُّلَميّ .

وكان يَكتُب لمعاوية بن يزيدَ الرّيانُ بنُ مسلم ، ويَكتُب له على الديوان سرجُون . ويُروَى أنه كتب له أبو الزعَيْزِعة .

وكَتَب لعبدالملك بن مروان قبيصةُ بنُ ذؤيب بن حَلحلة الخُزاعيّ ، ويُكْنى أبا إسحاق . وكَتَب على ديوان الرسائل أبو الزعَيْزِعة مولاه .

وكان يَكتُب للوليد القَعقاعُ بنُ خالد ـ أو خُلَيد العَبْسيّ ، وكتب له على ديوان الخراج سليمانُ بنُ سعد الخُشَنيّ ، وعلى ديوان الخاتَم شُعيبُ العُمَانيّ مولاه ، وعلى ديوان الرّسائل جناح مولاه ، وعلى المستَغلّات نفيع بنُ ذُؤيب مولاه .

وكان يَكتُب لسليمان سليمانُ بنُ نعيم الحِمْيريّ .

وكان يَكتُب لمسلَمة سميع مولاه ، وعلى ديوان الرسائل اللّيث بن أبي رُقَيّة مولَى أمّ الحَكَم بنت أبي سُفْيان ، وعلى ديوان الخراج سليمانُ بن سعد الخُشَنيّ ، وعلى ديوان الخاتَم نُعَيمُ بن سلامة مَولًى لأهل اليمن من فِلَسْطين ؛ وقيل : بل رجاء بن حَيْوَة كان يتقلّد الخاتَم .

وكان يَكتب ليزيدَ بن المهلب المغيرةُ بن أبي فَرْوة .

وكان يكتب لعمرَ بن عبدالعزيز اللّيثُ بنُ أبي رقيّة مولى أمّ الحَكَم بنت أبي سُفْيان ، ورَجاء بن حَيْوة . وكتب له إسماعيلُ بن أبي حكيم مولى الزّبير ، وعلى ديوان الخراج سليمانُ بنُ سعد الخُشَنيّ ، وقلّد مكانَه صالح بن جُبيرة الغَساني ـ وقيل : الغُدَانيّ ـ وعديّ بنُ الصّباح بن المثنى ، ذكَر الهيثمُ بنُ عديّ أنه كان من جِلّة كُتّابه .

وكَتَب ليزيدَ بن عبدالملك قبل الخلافة رجلٌ يقال له يزيد بن عبدالله ، ثم استكتب أسامة بن يزيدَ السُّلَيحيّ .

وكتب لهشام سعيد بن الوليد بن عمرو بن جَبَلة الكلبي الأبْرَش ، ويُكنَى أبا مخاشع ، وكان نصر بن سَيّار يتقلّد ديوان خراج خُرَاسان لهشام . وكان من كتّابه بالرُّصافة شعيبُ بنُ دينار .

وكان يكتب للوليد بن يزيد بكير بن الشمّاخ ، وعلى ديوان الرسائل سالمُ مولَى سعيد بن عبدالملك ، ومِن كتّابه عبدُالله بنُ أبي عمرو ، ويقال : عبدالأعلى بن أبي عمرو ، وكتب له على الحضرة عَمْرو بنُ عُتْبة .

وكتَبَ ليزيد بن الوليد الناقص عبدُالله بنُ نُعيم ، وكان عَمرو بن الحارث مولى بني جُمَح يتولّى له ديوانَ الخاتَم ، وكان يتقلد له ديوانَ الرسائل ثابتُ بنُ سليمانُ بن سعد الخُشَني ـ ويقال الرّبيع بن عرعرة الخُشَني ـ وكان يتقلد له الخراجَ والدّيوانَ الذي للخاتَم الصغير النّضرُ بنُ عَمْرو من أهل اليمن .

وكتب لإبراهيم بن الوليد ابن أبي جمعة ، وكان يتقلّد له الديوانَ بفِلسطين ، وبايع الناس إبراهيم ـ أعني ابن الوليد ـ سوى أهل حِمْصَ ، فإنهم بايعوا مروانَ بنَ محمد الجَعْديّ .

وكتب لمروانَ عبدُالحميد بنُ يحيى مولى العلاء بن وَهْب العامريّ ، ومُصعَب بن الربيع الخَثْعميّ ، وزيادُ بنُ أبي الوَرْد . وعلى ديوان الرسائل عثمانُ بنُ قيس مولى خالد القَسْري . وكان من كتّابه مخلَّد بن محمد بن الحارث ـ ويُكْنى أبا هاشم ـ ومن كتّابه مُصعَب بن الرّبيع الخَثْعمي ، ويُكْنَى أبا موسى . وكان عبدُالحميد بنُ يحيى من البلاغة في مكان مَكين ، ومما اختير له من الشعر :

تَرحّلَ ما ليس بالقافِلِ ... وأعقَبَ ما لَيْسَ بالزّائِلِ
فلَهْفي على الخَلَفِ النازلِ ... ولَهفي على السلفِ الراحلِ
أُبكِّي على ذا وأَبكِي لذا ... بكاءَ مُولَّهةٍ ثاكِلِ
تُبَكِّي من آبنٍ لها قاطعٍ ... وتبكي على آبنٍ لها واصلِ
فليستْ تفتُرُ عن عَبْرةٍ ... لها في الضّمير ومن هامِلِ
تقضَّت غَواياتُ سُكْرِ الصِّبَى ... وردَّ التُّقَى اعنَنَ الباطِلِ

وكتَب لأبي العباس خالدُ بن بَرْمَك ، ودفع أبو العباس ابنتَه رَيْطة إلى خالد بن بَرْمك حتى أرضعتها زوجتُه أم خالد بنت يزيد بلبان بنت لخالد تُدعَىٰ أمَّ يحيى ، وأرضعت أم سلمة زوجة أبي العبَّاس أمّ يحيى بنت خالد بلبان ابنتها رَيطة . وقلَّد ديوان الرسائل صالح بن الهَيْثم مولىٰ رَيْطة بنت أبي العبَّاس .

وكتب لأبي جعفر المنصور عبدُالملك بن حُميد مولى حاتم بن النعمان الباهلي من أهل خُراسان ، وكتب له هاشم بن سعيد الجُعْفي وعبدُالأعلى بن أبي طَلْحة من بني تميم بواسِطَ . ورُوي أنّ سليمانَ بنَ مخلد كان يَكتُب لأبي جعفر ، وممَّا كان يَتمثّل به أبو جعفر المنصور :

وما إنْ شَفَى نفساً كأمرِ صريمةٍ ... إذا حاجةٌ في النفس طالَ اعتراضُها

وكتب له الرَّبيع . وكان عُمارةُ بن حَمزةَ من نُبلاَء الرِّجال ، وله :

لا تَشْكوَنْ دهْراً صَححْتَ بِهِ ... إنَّ الغِنَى في صِحَّة الجِسمِ
هَبْك الإمامُ أكنتَ منتفِعاً ... بغضارةِ الدّنيا مع السُّقْمِ!

وكان يتمثَّل بقول عبد بني الحَسْحَاس :

أمِنْ أُمَيَّةَ دمعُ العين مَذْرُوفُ ... لو أن ذا منكَ قبلَ اليومِ معروفُ
لا تُبكِ عينَك إنَّ الدّهْرَ ذو غيرٍ ... فيه تفرَّقَ ذو إلْفٍ ومألوفُ

وكتب للمهدي أبو عُبيد الله وأبانُ بن صَدقة على ديوان رسائله ، ومحمَّد بن حُمَيد الكاتب على ديوان جُنْده ويعقوب بن داود ، وكان اتَّخذه على وَزارته وأمْره ، وله :

عَجباً لتصريفِ الأمو ... رِ محبَّةً وكراهيَهْ
والدَّهرُ يَلعَب بالرِّجا ... لِ له دوائرُ جاريَه

ولابنه عبدالله بن يعقوب ـ وكان له محمَّدٌ ويعقوبُ ، كلاهما شاعرٌ مجيدٌ :

وزع المَشيبُ شراستي وغَرامي ... ومَرَى الجفونَ بمُسْبَلٍ سَجّامِ

ولقد حَرَصتُ بأن أُواري شخصه ... عن مقلتيَّ فرُمْتُ غَيرَ مرام
وصبغتُ ما صَبَغَ الزمانُ فلم يدمْ ... صِبغي ودامت صبغةُ الأيام
لا تبعدِنَّ شبيبةٌ ذيّالةٌ ... فارقتُها في سالفِ الأعوام
ما كان ما استصحَبْت من أيّامها ... إلّا كبعضِ طوارقِ الأحلامِ

ولأبيه :

طَلِّق الدُّنيا ثلاثاً ... واتَّخِذ زَوْجا سِواها
إنّها زَوْجةُ سَوْءٍ ... لا تُبالي مَنْ أتَاها

واستوزر بعدَه الفَيْض بن أبي صالح ، وكان جواداً .

وكتب للهادي موسى عُبيدُالله بن زياد بن أبي ليلى ومحمَّد بن حُمَيد . وسأل المهديّ يوماً أبا عُبيد الله عن أشعار العرب ، فصنَّفها له ، فقال : أحكمُها قولُ طَرفة بن العَبْد :

أرى قبرَ نحامٍ بخيلٍ بماله ... كقَبْرِ غَويٍّ في البَطالة مُفسِدِ
ترى جُثوتَينْ من تُرابٍ عليهما ... صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مصمَّدِ
أرَى الموتَ يعْتام الكرامَ ويصطفِي ... عقيلةَ مالِ الفاحِش المتشدِّدِ
أرَى العَيْشَ كنزاً ناقصاً كلَّ ليلة ... وما تنقُص الأيام والدهر يَنفَدِ
لعُمرك إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى ... لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياه باليَدِ

وقوله :

وقد أرانا كِلاَنا هَم صاحِبِه ... لو أنَّ شيئاً إذا ما فاتَنا رَجَعَا
وكان شيءٌ إلى شيءٍ ففرَّقه ... دَهرٌ يَكُر على تفريقِ ما جَمَعا

وقول لبيد :

ألا تسألانِ المرءَ ماذا يُحاوِلُ ... أنَحْبٌ فيُقضىَ أم ضلالٌ وباطلُ
ألاَ كلُّ شيءٍ ما خلا اللّهَ باطلُ ... وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ
أرى الناسَ لا يدرون ما قدرُ أمرِهِمْ ... بلى كلُّ ذي رأيٍ إلى الله واسِلُ

وكقول النابغة الجَعْدي :

وقد طالَ عهدي بالشّباب وأهلِه ... ولاقيتُ رَوْعاتٍ تُشيبُ النَّواصيَا
فلم أجِدِ الإخوانَ إلّا صحابةً ... ولم أجِدِ الأهلين إلّا مثاوياً
ألم تعْلمي أن قد رُزِئتُ مُحارِباً ... فما لكِ منه اليوم شيءٌ ولا لِيا

وكقول هُدْبَة بن خَشْرَم :

ولستُ بمِفراحٍ إذا الدهرُ سرَّني ... ولا جازعٍ من صَرفه المتقلِّبِ
ولا أتبغى الشرَّ والشرُّ تاركي ... ولكن مَتَى أُحمَلْ على الشّرِّ أركبِ

ومـا يَعـرف الأقـوامُ للدَّهـر حَقَّـهُ ... ومـا الـدّهـرُ مِمـا يكـرهـون بمُعتِبِ
ولـلدهـر في أهـل الـفـتى وتِـلادِهِ ... نـصيـب كَـحـزِّ الجـازِرِ المتـشعِّـب

وكقول زيادة بن زيد ؛ وتمثَّل به عبدُالملك بن مروان :

تـذكَّـر عن شُحطٍ أُميمـةَ فـارْعَـوى ... لهـا بعـد إكثـارٍ وطُـول نـحيـبِ
وإنَّ امـرأً قد جَـرّب الـدهـر لم يَخَفْ ... تـقـلُّبَ عَـصْـرَيـه لغـيرُ لـبيـبِ
هـل الـدهـرُ والأيـام إلّا كـما تَـرَى ... رزيئـةُ مـالٍ أو فـراقُ حـبـيـبِ
وكـلّ الـذي يـأتي فـأنـتَ نَسيبُـهُ ... ولـستَ لشيءٍ ذاهـبٍ بنَـسـيـبِ
ولـيس بعـيـدٌ مـا يجيء كـمقـبـلٍ ... ولامـا مَضَى مـن مُـفْـرِحٍ بـقَـريـبِ

وكقول ابن مُقبِل :

لمَّـا رأَت بَـدل الـشَّبـابِ بـكتْ لـه ... والـشَّـيـب أرْذلُ هـذه الأبـدالِ
والـنـاس همـهُـمُ الـحيـاةُ ولا أرَى ... طـول الحيـاة يَـزيـدُ غـيرِ خَبـالِ
وإذا افتقـرتَ إلى الـذَّخـائـرِ لم تَجِـدْ ... ذُخـراً يكـون كصـالـحِ الأعـمـال

ووزر له يحيى بن خالد. ووَزَر للرشيد ابنه جعفر بن يحيى بن خالد ، فمن مَلِيح كلامه : الخَطّ سِمَة الحِكمة ، به تفصَّل شُذورُها ، ويُنظَم منثورُها . قال ثمامة : قلتُ لجعفر بن يحيى : ما البيان؟ فقال : أن يكون الاسم محيطاً بمعناك ، مُخبِراً عن مَغْـزاك ، مُخرجـاً من الشركـة ، غير مستعـانٍ عليه بـالفِكرة . قـال الأصمعي : سمعتُ يحيى بنَ خالد يقول : الدنيا دُوَل ، والمال عاريّة ، ولنا بمن قَبلَنا أسْوة ، وفينا لمن بعدنا عِبْرة.

ونأتي بتسمية باقي كتاب خلفاء بني العباس إذا انتهيْنا إلى الدّولة العبّاسيّة إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين

ذكر الكائن الذي كان فيها من الأمور الجليلة

فمن ذلك مقتَل عبدالله بن الزبير.

ذكر الخبر عن صفة ذلك :

حدّثني الحارث ، قال : حدّثنا محمد بن سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر . قال : حدّثني إسحاق بن يحيى ، عن عُبيد الله بن القبطيّة ، قال : كانت الحرب بين ابن الزّبير والحجّاج ببطن مكّة ستّة أشهر وسبعَ عشرةَ ليْلة .

قال محمَّد بنُ عمر: وحدّثني مصعب بنُ ثابت ، عن نافع مولى بني أسد ـ وكان عالماً بفتنة ابن الزبير. قال : حُصِر ابن الزّبير ليلةَ هلالِ ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين وقتل لسبع عشرةَ ليلة خلتْ من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ، وكان حصرُ الحجّاج لابن الزبير ثمانية أشهر وسبعَ عشرة ليلة .

حدّثنا الحارث ، قال : حدّثنا محمد بن سعد ، قال : أخبرَنا محمد بن عمر: قال : حدَّثني إسحاقُ بنُ يحيى ، عن يوسف بن ماهَك ، قال : رأيتُ المَنجنيقَ يُرمَى به ، فرعدت السماء وبرقت ، وعلا صوتُ الرّعد والبرق على الحجارة ، فاشتمل عليها ، فأعظم ذلك أهلُ الشام ، فأمسَكوا بأيديهم ، فرفع الحجّاج بِرْكة قَبائه فغرَزَها في منطقته ، ورفع حجر المَنجنيق فوضعه فيه ، ثم قال : ارمُوا ، ورمى معهم . قال : ثمّ أصبحوا ، فجاءت صاعقة تتبعها أخرى ، فقتلتْ من أصحابه اثنَي عشرَ رجلاً ، فانكسر أهلُ الشام ، فقال الحجّاج : يا أهلِ الشام ، لا تُنكروا هذا فإني ابن تِهامة ، هذه صواعقُ تِهامة ، هذا الفتح قد حضر فأبشِروا ، إنّ القوم يُصيبُهم مثل ما أصابكم ، فصعقت من الغد . فأصيب من أصحاب ابن الزبير عِدّة ؛ فقال الحجّاج : ألا تَرَوْن أنّهم يصابون وأنتم على الطّاعة ، وهم على خلاف الطاعة ! فلم تزل الحربُ بين ابنِ الزبير والحجّاج حتّى كان قُبيلَ مَقتله وقد تفرّق عنه أصحابه ، وخرج عامّة أهل مَكة إلى الحجّاج في الأمان .

حدّثني الحارث ، قال : حدّثنا ابنُ سعد ، قال : أخبرنا محمَّد بنُ عمر ، قال : حدَّثني إسحاق بن عبدالله ، عن المنذر بنِ جَهْم الأسَديّ ، قال : رأيتُ ابنَ الزبير يوم قُتِل وقد تفرّق عنه أصحابُه وخذله من معه خذلانا شديداً ، وجعلوا يخرجون إلى الحجّاج حتّى خرج إليه نحوٌ من عشرةِ آلاف .

وذكر أنّه كان ممَّن فارقه وخرج إلى الحجّاج ابناه حَمزة وخُبَيب ، فأخذا منه لأنفسهما أماناً ، فدخل على أمّه أسماء ـ كما ذكر محمَّد بنُ عمرَ عن أبي الزّناد ، عن مَخرَمة بن سليمان الوالبيّ ، قال : دخل ابنُ الزبير على أمّه

حين رأى من الناس ما رأى من خِذْلانهم ، فقال : يا أمَّه ؛ خذَلني الناسُ حتَّى ولدي وأهلي ، فلم يَبق معي إلاَّ اليسير ممَّن ليس عنده من الدّفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا ، فما رأيُك؟ فقالت: أنت واللّهِ يا بُنيَّ أعلم بنفسك ، إن كنتَ تعلم أنَّك على حقّ وإليه تدعو فامض له ، فقد قُتل عليه أصحابك ، ولا تُمكّن من رقبتك يتلعَّب بها غِلمانُ أميَّة ، وإن كنتَ إنما أردتَ الدّنيا فبئس العبدُ أنتَ ! أهلكتَ نفسَك ، وأهلكت من قُتِل معك ، وإن قلتَ : كنتُ على حق فلمّا وَهَن أصحابي ضعُفتُ ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدّين ، وكم خلودُكَ في الدنيا ! القتلُ أحسن. فدنا ابن الزُّبير فقبَّل رأسها وقال : هذا والله رأيي ، والذي قمتُ به داعياً إلى يومي هذا ما ركَنْت إلى الدنيا ، ولا أحببتُ الحياةَ فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلاَّ الغضب لله أن تُستحَلّ حُرَمه ، ولكنّي أحببتُ أن أعلم رأيك ، فزدتيني ، بصيرةً مع بصيرتي . فانظري يا أمّه فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتدَّ حُزْنك ، وسَلّمي الأمر لله ، فإنّ ابنَكِ لم يتعمَّد إتيان مُنكَر ، ولا عَملاً بفاحشة ، ولم يَجُرْ في حكم الله ، ولم يغدر في أمان ، ولم يتعمَّد ظُلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عُمَّالي فرضيتُ به بل أنكرتُه ، ولم يكن شيءٌ آثَرَ عندي من رِضا ربي . اللهمّ إني لا أقول هذا تزكية منّي لنفسي ، أنت أعلمُ بي ؛ ولكن أقولُه تعزية لأمي لتسلوَ عنّي . فقالت أمه : إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حَسَناً إن تقدّمَتني ، وإن تقدّمْتُك ففي نفسي ، اخرج حتَّى أنظر إلى ما يصير أمرك . قال : جزاك الله يا أمَّه خيراً ، فلا تَدَعى الدّعاء لي قبلُ وبعدُ. فقالت: لا أدَعه أبداً ، فمن قُتِل على باطل فقد قُتِلَت على حقّ . ثم قالت : اللَّهمّ ارحمْ طول ذلك القيام في اللّيل الطويل ، وذلك النَّحيب والظَمَأ في هَواجِرِ المدينة ومكَّة ، وبرَّه بأبيه وبي . اللَّهمّ قد سلَّمته لأمرك فيه ، ورضيتُ بما قضيتَ ، فأثِبْني في عبدالله ثوابَ الصابرين الشاكرين .

قال مصعب بنُ ثابت : فما مكثتْ بعدَه إلاَّ عَشْراً ، ويقال : خمسة أيَّام .

قال محمد بنُ عمر : حدَّثني موسى بنُ يعقوب بن عبدالله ، عن عمّه قال : دخل ابنُ الزبير على أمه وعليه الدّرع والمِغفَر ، فوقف فسلَّم ، ثم دنا فتناول يدها فقبَّلها . فقالت : هذا وداع فلا تَبعَد ، قال ابن الزبير : جئت مودِّعا ، إني لأرى هذا آخر يوم من الدنيا يمرّ بي ، وإعلمي يا أمَّه أني إن قُتِلت فإنَّما أنا لحم لا يضرّني ما صُنع بي ، قالت : صدقتَ يا بُنيَّ ، أتمِم على بصيرتك ، ولا تُمكِّن ابن أبي عَقيل منك ، وادنُ مني أُوَدّعْك ، فدنا منها فقبَّلها وعانَقَها ، وقالت حيث مَسَّت الدّرْع : ما هذا صنيعُ من يريد ما تريد ! قال : ما لبستُ هذا الدّرع إلاَّ لأشدّ منك ، قالت العجوز : فإنَّه لا يشدّ منّي ، فنَزَعها ثم أدرج كمَّيْه ، وشدّ أسفَل قميصِه ، وجُبَّةُ خزّ تحت القميص فأدخلَ أسفلَها في المِنطقة ، وأمّه تقول : البس ثيابَك مشمَّرةً . ثم انصرفَ ابن الزبير وهو يقول :

إنــي إذَا أعْــرِف يــومِــي أصــبِــرْ إذ بَـعْـضُـهـمْ يَـعْـرِفُ ثـم يُـنـكِـرْ

فسمعت العجوزُ قولَه ، فقالت : تَصبِّر واللّهِ إنْ شاء الله ، أبوك أبو بكر والزّبير ، وأمّك صفيّة بنتُ عبدالمطَّلب .

حدَّثني الحارث، قال : حدَّثني ابن سعد ، قال : أخبرني محمَّد بن عمر ، قال : أخبرنا ثورُ بن يزيد ، عن شيخ من أهل حِمْصَ شهد وقعة ابن الزُّبير مع أهل الشام ، قال : رأيته يوم الثلاثاء وإنَّا لنطلع عليه أهل حمص خمسمائة خمسمائة من باب لنا ندخلُه ؛ لا يدخله غيرُنا، فيخرج إلينا وحدَه في أثرنا ، ونحن منهزِمون

منه ، فما أنسىٰ أرجوزةً له :

إنِّـي إذَا أعــرِفُ يـومِـي أصـبِـرْ وإنَّـمـا يَـعْـرِف يَـوْمَـيْـهِ الـحُـرّ

إذْ بعضُهــمْ يعرِف ثـم يُنـكِرْ

فأقول : أنت والله الحرّ الشريف ، فلقد رأيتُه يقف في الأبْطح ما يدنو منه أحدٌ حتّى ظننّا أنّه لا يقتَل .

حدَّثني الحارث ، قال : حدَّثنا ابنُ سعد ، قال : أخبرنا محمَّد بن عمر ، قال : حـدَّثنا مصعب بن ثابتٍ ، عن نافع مولى بني أسد ، قال : رأيتُ الأبوابَ قد شُحِنت من أهل الشام يـوم الثلاثـاء ، وأسلَم أصحابُ ابن الزّبير المحارس ، وكثرهم القومُ فأقاموا على كلّ باب رجالاً وقائداً وأهل بلد ، فكان لأهل حمص الباب الَّذِي يواجه بابَ الكعبة ، ولأهل دِمَشق باب بني شَيْبة ، ولأهل الأرْدُنّ باب الصّفا ، ولأهل فِلَسطين باب بني جُمَح ، ولأهل قِنَّسْرِين باب بني سَهْم ، وكان الحجَّاج وطارق بن عمرو جميعاً في ناحية الأبطح إلى المروة ، فمرّة يَحمِل ابنُ الزبير في هذه الناحية ، ومرة في هذه الناحية ، فلَكأنَّه أسدٌ في أجمة مـا يُقدِم عليـه الرّجال ، فيعدو في أثَر القوم وهم على الباب حتّى يُخرِجَهم وهو يرتجز :

إنـي إذا أعــرف يــومِـي أصــبــرْ وإنَّــمــا يَعــرف يــومَـيْــه الـحُــرّ

ثم يصيح : يا أبا صَفوان، ويلُ أمّه فَتْحا لو كان له رجال !

لو كان قِرْني وَاحِداً كَفَيْتُهْ

قال ابن صفوان : إي والله وألف .

حدَّثني الحارث ، قال : حدَّثنا ابنُ سعد ، قال : أخبرنا محمَّد بنُ عمرَ ، قال : فحدَّثني ابنُ أبي الزّناد وأبو بكر بنُ عبدالله بن مصعب ، عن أبي المنذر . وحدَّثنا نافع موْلى بني أسد ، قالا : لمَّا كان يوم الثلاثاء صبيحةَ سبع عشرة من جُمادَىٰ الأولى سنة ثلاث وسبعين وقد أخذ الحجَّاجُ على ابن الزبير بالأبواب ، بات ابنُ الزّبير يصلّي عامَّة اللّيل ، ثم احتبَىٰ بحمائلِ سيفه فأغفى ، ثم انتبه بالفجر فقال : أذّن يا سعد ، فأذَّن عند المقام ، وتوضَّأ ابنُ الزبير ، وركع ركعتي الفجر ، ثم تقدَّم ، وأقام المؤذِّن فصلَّى بأصحابه ، فقرأ ﴿ نٓ والقَلَم ﴾ حَرْفاً حرفاً ، ثم سلَّم ، فقام فَحَمِد الله وأثنَى عليه ثم قال :

اكشفوا وجوهَكم حتَّى أنظر ، وعليهم المغَافر والعمائم ، فَكَشفوا وجوهَهم فقال : يا آل الزبير ، لو طِبْتم لي نَفْساً عن أنفسكم كنَّا أهلَ بيت من العرب اصطُلِمْنا في الله لم تصبْنا زبَّاءُ بتَّة . أمَّا بعد يا آل الزبير ، فلا يرُعْكم وقعُ السيوف ، فإني لم أحضر موطناً قطّ إلاّ ارتثِثْتُ فيه من القتل ، وما أجدُ من أدواء جراحها أشدّ ممَّا أجد من ألمِ وقعِها . صونوا سيوفَكم كما تصونون وجوهَكم ، لا أعلم امرأً كَسَر سيفَه ، واستَبقَى نفسَه ، فإنّ الرجلَ إذا ذهب سلاحُه فهو كالمرأة أعزل ، غُضوا أبصارَكم عن البارقة ، وليَشْغَلْ كلّ امرىء قِرْنَـه ، ولا يُلهينَّكم السؤالُ عنّي ، ولا تقولُنّ : أين عبدالله بن الزبير؟ ألا من كان سائلاً عنّي فإني في الرَّعِيل الأول .

أبى لابن سَلْمَى أَنَّـهُ غـيـرُ خـالِـدٍ مُـلاقي المنـايـا أيَّ صَـرْفٍ تيمَّمَـا

فَـلَسْـتُ بـمُـبـتـاعِ الـحَـيـاةِ بـسُـبَّـةٍ ولا مُـرتَقٍ مِن خَشْيَـةِ المـوتِ سُلَّمَـا

احملوا على بركة الله .

ثم حمل عليهم حتّى بلغ بهم الحَجُون ، فرُمِي بآجُرّة فأصابته في وجههِ فأرعش لها ، ودمى وجهُه ، فلمّا وجد سخونة الدّم يسيل على وجهه ولحيته قال :

فَلَسْنَا على الأعقاب تَدْمَى كُلُومُنا ... ولكنْ على أقدامِنَا تَقْطُرُ الدّما

وتغاوَوْا عليه .

قالا : وصاحت مولاة لنا مجنونة : وا أمير المؤمنيناه! قالا : وقد رأتْه حيث هوى، فأشارتْ لهم إليه ، فقتل وإنّ عليه ثيابَ خَزّ . وجاء الخبر إلى الحجّاج ، فسجد وسار حتّى وقف عليه وطارق بنُ عمرو، فقال طارق : ما وَلَدت النساءُ أذكرَ من هذا؛ فقال الحجّاج : تَمدَح من يُخالف طاعةَ أمير المؤمنين! قال: نعم ، هو أعذَر لنا ، ولولا هذا ما كان لنا عُذر ، إنَّا مُحاصروه وهو في غير خَندَق ولا حصن ولا مَنعة منذ سبعة أشهر ينتصف منّا ، بل يفضل علينا في كلّ ما التقينا نحن وهو ؛ فبلغ كلامُهما عبدالملك ، فصوّب طارقاً .

حدّثنا عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن رجاله، قال: كأني أنظر إلى الزبير وقد قتل غلاماً أسوَد ، ضَرَبه فعرقَبه ، وهو يمرّ في حملتِه عليه ويقول : صَبْراً يابن حام ، ففي مثلِ هذه المواطن تَصْبر الكرام !

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: أخبَرَنا محمَّد بنُ عمر ، قال : حدَّثني عبدالجبّار بنُ عُمَارة ، عن عبدالله بن أبي بكر بن محمَّد بن عمرو بن حزْم ، قال : بعث الحجّاجُ برأس ابن الزّبير ورأسِ عبدالله بنِ صفْوان ورأس عُمارة بن عمرو بن حزم إلى المدينة فنصبتْ بها ، ثم ذُهِب بها إلى عبدالملك بن مروان ، ثم دخل الحجّاج مكّة، فبايع مَن بها مِن قريش لعبد الملك بن مروان .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة ولّى عبدُالملك طارقاً مولى عثمان المدينة فوليها خمسة أشهر .

وفي هذه السنة توفّيَ بِشرُ بن مروانَ في قول الواقديّ ، وأمّا غيرُه فإنَّه قال : كانت وفاته في سنة أربع وسبعين .

وفيها أيضاً وجَّه ـ فيما ذُكر ـ عبدالملك بن مروان عمر بن عبيدالله بن معمر لقتال أبي فُدَيك ، وأمره أن يندب معه من أحبّ من أهل المِصْرين ، فقدِم الكوفة فندب أهلها ، فانتدب معه عشرةُ آلاف ، ثم قَدِم البَصْرة فندب أهلها ، فانتدب معه عشرةُ آلاف ، فأخرج لهم أرزاقَهم وأعطياتِهم ، فأعطُوها . ثم سار بهم عمر بن عُبيدالله ، فَجَعل أهلَ الكوفة على الميمنة وعليهم محمد بن موسى بن طلحة ، وجعل أهل البصرة على الميسرة وعليهم ابن أخيه عمر بن موسى بن عُبيدالله ، وجعل خيلَه في القلب ، حتّى انتَهوْا إلى البحرَيْن ، فصفّ عمر بنُ عبيدالله أصحابه ، وقَدِم الرّجّالة في أيديهم الرّماح قد ألزموها الأرض ، واستتروا بالبراذع ، فَحَمل أبو فُدَيك وأصحابُه حملةَ رجل واحد ، فَكَشفوا ميسرة عُمرَ بن عبيدالله حتّى ذهبوا في الأرض إلا المغيرة بن المهلَّب ومَعْن بن المغيرة ومُجّاعة بن عبدالرحمن وفُرسان الناس فإنَّهم مالوا إلى صَفّ أهلَ الكوفة وهم ثابتون ، وارتُثّ عمرُ بن موسى بن عبيدالله ، فهو في القتلى قد أثخِن جراحةً . فلمّا رأى أهلُ البصرة أهلَ الكوفة لم ينهزموا تذمّموا ورجعوا وقاتلوا وما عليهم أمير حتى مرّوا بعمر بن موسى بن عبيدالله جريحاً فحملوه حتّى أدخلوه عسكرَ الخوارج وفيه تبْن كثير فأحرقوه ، ومالت عليهم الرّيح ، وحمل أهلُ الكوفة وأهلُ البصرة حتّى استباحوا عسكرَهم وقتلوا أبا فُدَيك ، وحَصَروهم في المُشقَّر ، فنزلوا على الحكم ، فقتل عمر بن عُبيدِالله منهم ـ فيما

ذكِر ـ نحواً من ستّة آلاف ، وأسَر ثمانمائة ، وأصابوا جارية أميّة بن عبدالله حُبْلَى من أبي فدَيك وانصَرَفوا إلى البَصْرة .

وفي هذه السنة عَزَل عبدُالملك خالدَ بنَ عبدالله عن البصرة وولّاهـا أخاه بِشْر بن مـروان ، فصارت ولايتها وولايةُ الكوفة إليه ، فشخص بِشر لَمّا وُلِّيَ مع الكوفة البصرة إلى البصرة واستَخلف على الكوفة عمرو بنَ حرَيث .

وفيها غزا محمَّد بنُ مروانَ الصائفة ، فهزم الرّوم .

وقيل : إنّه كان في هذه السنة وقعةُ عثمانَ بن الوليد بالرّوم في ناحية أرْمينيةَ وهو في أربعة آلاف والروم في ستين ألفاً ، فهَزَمَهم وأكثرَ القَتلَ فيهم .

وأقام الحجّ في هذه السَّنة للناس الحجَّاج بن يوسف وهو على مكَّة واليمن واليمامة ، وعـلى الكوفـة والبصرة ـ في قول الواقدي بشر بنُ مروان ، وفي قول غيره على الكوفة بِشْر بن مَرْوان ، وعلى البصْرة خالد بن عبدالله بن خالد بن أسِيد ، وعلى قضاء الكوفة شُرَيح بن الحارث ، وعلى قَضَاء البَصْرة هشامُ بنُ هُبيرة ، وعلى خُراسانَ بُكَير بن وِشاح .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين

ذكر ما كان فيها من الأحداث الجليلة

قال أبو جعفر : فمما كان فيها من ذلك عزلُ عبدِالملك طارقَ بن عمرو عن المدينة ، واستعماله عليها الحجَّاج بن يوسف ، فقدِمها ـ فيما ذكر ـ فأقام بها شهراً ثم خرج معتمراً .

وفيها كان ـ فيما ذُكِر ـ نَقْضُ الحجَّاج بن يوسفَ بنيان الكعبة الَّذي كان ابنُ الزبير بناه ، وكان إذ بناه أدخل في الكعبة الحِجْر ، وجعل لها بابَيْن ، فأعادها الحجَّاجُ على بنائها الأوّل في هذه السنة ، ثمّ انصرف إلى المدينة في صفر ، فأقام بها ثلاثة أشهر يتعبَّث بأهل المدينة ويتعنَّتهم ، وبنى بها مسجداً في بني سلمة ، فهو يُنسَب إليه .

واستخفّ فيها بأصحاب رسول الله ﷺ ، فَخَتَم في أعناقهم ؛ فذَكَر محمَّد بنُ عمرانَ بن أبي ذئب ، حدّثه عمَّن رأى جابر بن عبدالله مختوماً في يده .

وعن ابن أبي ذئب ، عن إسحاق بن يزيد ، أنه رأى أنس بن مالك مختوماً في عنقه ، يريد أن يُذِلّه بذلك .

قال ابن عمر : وحدَّثني شُرَحبيل بن أبي عون ، عن أبيه ، قال : رأيتُ الحجَّاج أرسل إلى سهل بن سعد فدعاه ، فقال : ما منعك أن تنصر أميرَ المؤمنين عثمانَ بنَ عفَّان ! قال : قد فعلتُ . قال : كذبتَ ، ثمّ أمرَ به فختم في عنقِهِ برَصاص .

وفيها استَقْضَى عبدُالملك أبا إدريسَ الخَوْلانيَّ ـ فيما ذَكَر الواقدي .

وفي هذه السنة شَخَص في قول بعضِهم بِشر بن مروان من الكوفة إلى البَصْرة والياً عليها .

وفي هذه السنة وُلِّيَ المهلَّبُ حَرْبَ الأزارِقة مِن قِبَل عبدِالملك .

ذكر الخبر عن أمره وأمرهم فيها :

ولمَّا صار بِشْر بالبصرة كتب عبدُالملك إليه ـ فيما ذَكَرَ هشامٌ عن أبي مخنف ، عن يونس بن أبي إسحاق ، عن أبيه :

أمَّا بعد ، فابعث المهلَّب في أهل مصره إلى الأزارقة ، ولينتخب من أهل مصره وجوههم وفُرسانهم وأولي الفَضْل والتجربة منهم ، فإنَّه أعرف بهم ، وخلّه ورأيه في الحرب ، فإني أوثَقُ شيء بتجربته ونصيحته

للمسلمين ، وابعثْ من أهل الكوفة بَعْثاً كثيفاً ، وابعث عليهم رجلاً معروفاً شريفاً ، حسيباً صليباً ، يعرف بالبأس والنَّجْدة والتَّجربة للحَرْب ، ثم أنهِض إليهم أهلَ المِصْرين فلْيتبِعوهم أيَّ وجهٍ ما توجَّهوا حتَّى يُبيدَهم الله ويستأصلَهم . والسلام عليك .

فدعا بِشْرٌ المهلَّبَ فأقرأه الكتاب ، وأمره أن ينتخب مَنْ شاء ، فبعث بجُديع بن سَعيد بن قَبيصة بن سرّاق الأزْدي ـ وهو خالُ يزيدَ ابنِهِ ـ فأمره أن يأتي الدّيوان فينتخب الناسَ ، وشقّ على بشر أنّ إمرةَ المهلَّب جاءتْ من قِبَل عبدالملك ، فلا يستطيع أن يبعث غيره ، فأوغرتْ صدره عليه حتى كأنَّه كان له إليه ذنب . ودعا بشر بن مروانَ عبدالرحمن بن مخنف فبعثه على أهل الكوفة ، وأمره أن ينتخب فُرسانَ الناس ووجوهَهم وأولي الفَضْل منهم والنَّجْدة .

قال أبو مخنف : فحدّثني أشياخ الحي ، عن عبدالرحمن بن مخنف قال : دعاني بشر بن مروانَ فقال لي : إنَّك قد عرفتَ منزلتَك منّي ، وأثَرَتك عندي ، وقد رأيتُ أن أولِّيَك هذا الجيش للذي عرفتُ من جزئك وغنَائك وشَرَفك وبأسِك ، فكن عند أحسن ظني بك . انظرْ هذا الكذا كذا ـ يقع في المهلب ـ فاستبدّ عليه بالأمر ، ولا تقبلنّ له مشورة ولا رأياً ، وتَنَقَّصْه وقصِّر به .

قال : فترَك أن يُوصيني بالجُنْد ، وقتالِ العدُوّ ، والنَّظر لأهل الإسلام ، وأقبل يُغرِيني بابن عمِّي كأني من السُّفهاء أو ممَّن يُستَصْبى ويُستجهَل ، ما رأيتُ شيخاً مِثلي في مثل هيئتي ومنزلتي طُمِع منه في مثل ما طَمع فيه هذا الغلامُ منّي ، شبَّ عمرو عن الطَّوْق .

قال : ولما رأى أني لست بالنَّشيط إلى جوابه قال لي : مالَك؟ قلتُ : أصلَحَك الله ! وهل يسعني إلاَّ إنفاذ أمرِك في كلِّ ما أحببت وكرهت ! قال : امضِ راشداً . قال : فودّعتُه وخرجتُ مِن عنده ، وخرج المهلَّب بأهل البصرة حتَّى نزل رامَ مَهُرْمُز فلقيَ بها الخوارج ، فخندق عليه ، وأقبل عبدالرحمن بن مخنف بأهل الكوفة على ربع أهل المدينة معه بِشْر بنُ جريرٍ ، وعلى ربع تميم وهَمْدان محمَّد بن عبدالرحمن بن سعيد بن قيس ، وعلى ربع كِنْدَةَ وربيعةَ إسحاقُ بنُ محمَّد بن الأشعث ، وعلى ربع مَذحِج وأسَد زَحْر بن قيس . فأقْبل عبدُالرحمن حتَّى نزل من المهلَّب على مِيل أو مِيل ونصف . حيث تراءى العسكران برام مَهُرْمُز ، فلم يلبَث الناسُ إلاَّ عشراً حتَّى أتاهم نعيّ بِشر بن مروان ، وتُوفيَ بالبصرة ، فارفضَّ ناس كثيرٌ من أهل البصرة وأهل الكوفة ، واستخلف بشر خالد بن عبدالله بن أسيد ، وكان خليفته على الكوفة عمرو بن حُرَيث ، وكان الَّذين انصرفوا من أهل الكوفة زَحْر بن قيس وإسحاق بن محمَّد بن الأشعث ومحمَّد بن عبدالرحمن بن سعيد بن قيس ، فبعث عبدُالرحمن بن مخنف ابنَه جعفراً في آثارهم ، فردّ إسحاقَ ومحمَّداً ، وفاتَه زَحْر بن قيس ، فحبسهما يومين ، ثمّ أخذ عليهما ألّا يفارقاه ، فلم يلبثا إلاّ يوماً حتى انصرفا ، فأخذا غير الطريق ، وطُلبا فلم يُلحَقا ، وأقبَلا حتى لحقا زَحْر بنَ قيس بالأهواز ، فاجتمع بها ناس كثير ممَّن يريد البَصْرة ، فبلغ ذلك خالد بن عبدالله فكتب إلى الناس كتاباً وبعث رسولاً يضرب وجوهَ الناس ويردّهم ، فقدم بكتابه مولًى له ، فقرأ الكتاب على الناس ؛ وقد جُمعوا له :

بسم الله الرّحمن الرحيم ، من خالد بنِ عبدالله ، إلى من بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين . سلامٌ عليكم ، فإني أحمَد إليكم الله الَّذي لَا إله إلاّ هو ، أمَّا بعد ، فإنّ الله كتب على عباده الجهاد ، وفرض طاعةَ وُلاةِ الأمر ، فمن جاهد فإنَّما يُجاهد لنفسه ، ومن ترك الجِهادَ في الله كان الله عنه أغنى ، ومن عَصَى وُلاةَ الأمر والقُوّام

بالحق أسخَط اللّهَ عليه، وكان قد استَحقّ العُقوبة في بشره، وعرّض نفسَه لاستفاءَة مالِه وإلقاءِ عطائه، والتسيير إلى أبعد الأرض وشَرّ البلْدان. أيها المسلمون، اعلموا على من اجترأتم ومن عصيتم! إنّه عبدُ الملك بنُ مروان أميرُ المؤمنين، الذي ليست فيه غَمِيزة، ولا لأهلِ المعصيةِ عنده رُخْصة، سوْطه على مَن عَصى، وعلى مَن خالَف سيفُه، فلا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً، فإني لم آلُكُم نصيحةً. عبادَ الله، ارجعوا إلى مَكْتبِكم وطاعةِ خليفتِكم، ولا ترجِعوا عاصِين مخالِفين فيأتيَكم ما تكرهون. أقسِم بالله لا أثقَف عاصياً بعد كتابي هذا إلاّ قتلتُه إن شاء الله؛ والسلام عليكم ورحمة الله.

وأخَذَ كلما قرأ عليهم سطراً أو سطرين قال له زَحْر: أوْجز؛ فيقول له مولى خالد: واللّهِ إني لأسمع كلامَ رجلٍ ما يريد أن يفهم ما يَسمع. أشهَد لا يعيج، بشيء مما في هذا الكتاب. فقال له: اقرأ أيها العبد الأحمر ما أمِرتَ به، ثم ارجع إلى أهلك، فإنك لا تدري ما في أنفسنا.

فلما فرغ من قراءته لم يلتفت الناسُ إلى ما في كتابه، وأقبَل زَحْر وإسحاقُ بنُ محمد ومحمد بن عبد الرحمن حتى نزلوا قريةً لآل الأشعث إلى جانب الكوفة، وكتبوا إلى عمرو بنِ حُرَيث:

أما بعد، فإنّ الناس لّما بلغَهم وفاةُ الأمير رحمةُ الله عليه تفرّقوا فلم يَبقَ معنا أحد؛ فأقبلنا إلى الأمير والي مصرِنا، وأحببنا ألاّ نَدخل الكوفة إلاّ بإذن الأمير وعلمه.

فكتب إليهم:

أما بعد، فإنكم تركتم مكْتَبكم وأقبَلْتم عاصين مخالفين، فليس لكم عندنا إذْن ولا أمان.

فلما أتاهم ذلك انتَظروا حتى إذا كان الليل دخلوا إلى رحالهم، فلم يزالوا مقيمين حتى قَدِم الحجاج بنُ يوسف.

وفي هذه السنة عزل عبدُ الملك بُكيرَ بن وشاح عن خُراسان، وولّاها أميةَ بن عبدالله بن خالد بن أسِيد.

ذكر الخبر عن سبب عزل بُكَير وولايةِ أميّة:

وكانت ولايةُ بُكَير بن وِشاح خُراسان إلى حين قدم أمية عليها والياً سنتين في قول أبي الحَسَن، وذلك أن ابن خازم قتِل سنة ثلاث وسبعين وقدم أميّة سنة أربع وسبعين.

وكان سبب عزل بُكير عن خُراسان أنّ بحِيراً ـ فيما ذَكَر عليٌّ عن المفضّل ـ حبَسهُ بُكير بن وشاح لما كان منه فيما ذكرت في رأس ابن خازم حين قتله، فلم يزل محبوساً عنده حتى استعمل عبدُ الملك أميّة بنَ عبدالله بن خالد بن أسيد، فلما بلغ ذلك بُكيراً أرسل إلى بَحِير ليصالحَه، فأبى عليه وقال: ظَنّ بُكير أنّ خُراسان تبقى له في الجماعة! فمشت السفراء بينهم، فأبى بَحِير، فدخل عليه ضرار بن حصين الضَّبيّ، فقال: ألا أراك مائقاً! يُرسل إليك ابن عمِّك يَعتذِر إليك وأنت أسيرُه، والمَشْرَفيّ في يده ـ ولو قتلك ما حبَقَتْ فيك عنز ـ ولا تَقبل منه! ما أنت بموفَّق. اقبَل الصّلح، واخرج وأنت على أمرك. فقبل مشورته، وصالح بُكَيراً، فأرسل إليه بكير بأربعين ألفاً، وأخذ على بَحير ألاّ يقاتله. وكانت تميم قد اختلفت بخُراسان، فصارت مُقاعس والبطونُ يتعصّبون له، فخاف أهلُ خُراسان أن تعود الحربُ وتَفسد البلاد، ويقهرهم عدوّهم من المشركين، فكتبوا إلى عبد الملك بنِ مَرْوان: إنّ خُراسان لا تصلح بعد الفتنة إلاّ على رجل من قريش لا يحسدونه ولا يتعصّبون عليه، فقال عبد

الملك: خُراسان ثَغْر المَشرق، وقد كان به من الشرّ ما كان، وعليه هذا التميميّ، وقد تعصّب الناس وخافوا أن يصيروا إلى ما كانوا عليه، فيَهلك الثّغر ومَنْ فيه، وقد سألوا أنْ أوليَ أمرَهم رجلًا من قريش فيسمعوا له ويطيعوا، فقال أميّة بنُ عبدالله: يا أمير المؤمنين، تداركهم برجل منك، قال: لولا انحيازُك عن أبي فُدَيك كنت ذلك الرجل. قال: يا أمير المؤمنين، والله ما انحزْتُ حتى لم أجدْ مُقاتَلاً، وخَذَلني الناس، فرأيت أنّ انْحيازي إلى فئة أفضل من تعريضي عصبةً بقيتْ من المسلمين للهلكة، وقد علم ذلك مَرّار بن عبد الرحمن بن أبي بَكْرة، وكتبَ إليك خالدُ بن عبدالله بما بَلَغه من عُذْري ـ قال: وكان خالد كتب إليه بعذره، ويُخبره أنّ الناس قد خذلوه ـ فقال مّرار: صدق أميّة يا أمير المؤمنين، لقد صبر حتى لم يَجد مقاتَلاً، وخَذلَه الناس. فولّاه خُراسان، وكان عبدُ الملك يُحِبّ أميّة، ويقول: نتيجتي، أي لِدتي، فقال الناس: ما رأيْنا أحداً عُوّض من هزيمة ما عُوّض أمية، فرّ من أبي فُدَيْك فاستُعْمل على خراسان؛ فقال رجل من بكر بنِ وائل في مَحبس بُكَير بن وشاح:

أَتَتْكَ العِيسُ تَنْفخُ في بُراها ... تُكشّفُ عَنْ مَناكِبِها القُطوعُ
كأنَّ مَواقِعَ الإكوارِ منها ... حَمامُ كَنائس بُقْع وُقوعُ
بأَبْيَضَ من أميَّةَ مضرحيٍّ ... كأنَّ جبينَهُ سَيْفٌ صنيعُ

وبَحير يومئذ بالسِّنْج يَسأل عن مسير أميّة؛ فلما بلغه أنه قد قارب أبْرشَهْر قال الرجل من عجم أهل مرْوَ يقال له رُزَين ـ أو زرير: دُلّني على طريق قريب لالقَى الأميرَ قبل قدومه، ولك كذا وكذا، وأجزل لك العطية؛ وكان عالماً بالطريق، فخرج به فسار من السِّنج إلى أرض سَرَخْسَ في ليلة، ثمّ مضى به إلى نيسابورَ فوَافَى أميّة حين قدم أبرَشَهْر، فلقيَه فأخبره عن خُراسان وما يُصلح أهلَها وتَحسُن به طاعتُهم، ويخف على الوالي مؤونتهم، ورفع على بُكَير أموالاً أصابها، وحَذّره غدرَه.

قال: وسار معه حتى قدم مَرْو، وكان أمية سيّداً كريماً، فلم يَعرِض لبُكَير ولا لعماله، وعرض عليه أن يوليَه شُرطتَه، فأبى بُكَير، فولّاها بَحير بن وَرْقاء، فلام بُكيراً رجالٌ من قومه، فقالوا: أبيتَ أن تلي، فولَّى بَحيراً وقد عرفتَ ما بينكما! قال: كنتُ أمس واليَ خُراسانَ تُحمَل الحِرابُ بين يديّ، فأصير اليوم على الشرطة أحمل الحربة!

وقال أمية لبُكَير: اختَر ما شئت من عَمل خُراسانَ، قال: طُخارِسْتان، قال: هي لك. قال: فتجهزَ بُكَير وأنفَق مالاً كثيراً، فقال بحير لأمية: إنْ أتى بُكَير طُخارِسْتانَ خلعك، فلم يزل يحذّره حتى حذِر، فأمَره بالْمُقام عندَه.

وحجَّ بالناس في هذه السنة الحجّاج بنُ يوسفَ. وكان وَلي قضاءَ المدينة عبدَالله بنَ قيس بن مَخرَمة قبل شخُوصِه إلى المدينة كذلك، ذُكِر ذلك عن محمّد بن عمر.

وكان على المدينة ومكّةَ الحجّاجُ بنُ يوسف، وعلى الكوفة والبَصرة بشْرُ بنُ مَرْوان، وعلى خُراسان أميّة بن عبدالله بن خالد بنِ أسيد، وعلى قضاء الكُوفة شُرَيح بن الحارث، وعلى قضاء البصرة هشامُ بنُ هُبَيرة، وقد ذُكِر أنّ عبدَ الملك بن مروانَ اعتمر في السنة، ولا نَعلَم صحّةَ ذلك.

ثمّ دخلت سنة خمس وسبعين

ذكرُ الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمن ذلك غزوة محمد بن مروان الصائفة حين خرجت الروم من قِبَل مَرْعش.

وفي هذه السنة ولّى عبدُ الملك يحيى بن الحكم بن أبي العاص المدينة.

وفي هذه السنة وَلّى عبدُ الملك الحَجّاجَ بنَ يوسفَ العراقَ دون خُراسان وسِجِسْتان.

وفيها قَدِم الحجّاج الكوفة. فحدّثني أبوزيد، قال: حدّثني محمد بنُ يحيى أبوغَسّان، عن عبدالله بن أبي عُبيدَة بن محمّد بن عمّار بن ياسر، قال: خرج الحجّاج بن يوسف من المدينة حين أتاه كتاب عبد الملك بن مروانَ بولاية العراق بعد وفاة بشر بن مَرْوان في اثني عشر راكباً على النّجائب حتى دخل الكوفة حين انتَشَر النهار فجاءةً، وقد كان بشْر بعث المهلّب إلى الحَروريّة، فبدأ بالمسجد فدَخَله، ثمّ صعِد المنبرَ وهو متلثّم بعمامة خَر حمراء، فقال: عليَّ بالناس، فحسبوه وأصحابه خارجةً، فهَمّوا به، حتى إذا اجتَمَع إليه الناسُ قام فكشف عن وجهه قال:

أنـا ابـنُ جَـلاَ وطَـلاَّعُ الـثَّـنَـايـا مَتَى أَضَـعِ الـعِمـامَـة تَـعْـرفـوني

أما والله إنّي لأحمل الشرَّ محملَه، وأحذُوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤوساً قد أيْنعت وحانَ قِطافُها، وإني لأنظر إلى الدِّماء بين العمائم واللِّحَى.

قـد شَمَّـرَتْ عن سـاقِهَـا تَشْميـراً

هـذا أوان الشَّـد فـاشـتـدِّي زِيَـمْ قـد لَفَّهـا الـليـلُ بِسَـوَّاقٍ حُـطَمْ

لـيَسَ بـراعِـي إبِـلٍ ولا غَـنَـمْ ولا بـجـزَّارٍ عـلى ظـهـرِ وَضَـمْ

قـد لـفَّـهَـا الـلـيْـلُ بـعـصْلَبِـيِّ أَرْوَعَ خَـرَّاجٍ مـن الـدَّوِّيِّ

مُـهَـاجِـرٍ لَـيْسَ بـأَعْـرَابِـيِّ

لـيس أوان يـكْـره الـخِـلاطُ جـاءَت بـه والـقُـلُص الأعـلاطُ

تَـهـوِى هُـويَّ سـابقِ الـغَـطاطِ

وإني واللّهِ يا أهل العراق ما أغمَز كتَغْماز التّين، ولا يقَعْقَعُ لي بالشِّنان ولقد فُرِرْت عن ذَكاء، وجَرَيْت إلى الغاية القصوى. إن أمير المؤمنين، عبدَ الملك نَشَر كنانتَه ثمّ عَجَم عيدانَها فوجدني أمَرَّها عُودا، وأصلبَها مِكسرا، فوجّهني إليكم؛ فإنكم طالما أوضَعْتم في الفتَن، وسنَنْتم سنن الغيّ. أما واللّهِ لأحُوَنّكم لَحْوَ العود،

ولاعصبنّكم عَصْب السلَمة، ولأضربنكم ضربَ غرائب الإبلِ. إني والله لا أعِد إلاّ وَفَيْت، ولا أخلُق إلاّ فَرَيْت. فإيّاي وهذه الجماعات وقيلاً وقالا، وما يقول، وفيمَ أنتم وذاكَ؟ واللّهِ لتسْقيمُنَّ على سُبُلِ الحق أو لأدَعَنّ لكلّ رجل منكم شُغْلاً في جَسَده. مَن وَجَدتُ بعد ثالثة من بَعْثِ المهلب سَفكْتُ دَمَه، وأنهبْتُ مالَه.

ثم دخل منزله ولم يزدْ على ذلك.

قال: ويقال: إنه لما طال سكوتُه تَناوَل محمد بنُ عُمَير حَصىً فأراد أن يَحصِبه بها، وقال: قاتله الله! ما أعيَاه وأدمّه! والله إنّي لأحسَب خبرَه كُروَائه. فلما تكلم الحجاج جَعل الحَصَى يَنتثر من يدِه ولا يعقل به، وأنّ الحجاج قال في خُطْبته:

شاهت الوجوه! إنّ الله ضَرَب ﴿مثلاً قريَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمئنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُها رَغداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فكَفَرَتْ بأَنْعُم اللّهِ، فأَذَاقَهَا اللّهُ لِباسَ الجُوع والخَوْفِ بما كَانُوا يَصْنَعُون﴾[1]، وأنتم أولئك وأشباه أولئك، فاستوثقوا واستقيموا. فوالله لأذيقنّكم الهَوان حتىً تَدِرُّوا، ولأعصبنّكم عَصْب السَّلَمة حتىً تنقادوا، أقسِم بالله لتقبلُنّ على الإنصاف، ولتَدَعُنّ الإرجاف، وكان وكان، وأخبرني فلان عن فلان، والهَبْر وما الهَبْر! أو لأهْبُرنكم بالسَّيف هبْراً يدَع النساءَ أيامىَ، والولدان يتامى، وحتىً تمشوا السُّمَّهى، وتقلعوا عن هَاوهَا. إيَّاي وهذه الزّرافاتِ، لا يركَبَنَّ الرجلُ منكم إلاّ وحدَه. ألا إنَّه لوساغ لأهل المعصية معصيتُهم ما جُبِي فيءٌ ولا قُوتل عدوّ، ولعُطِّلت الثغور، ولولا أنَّهم يُغزَون كَرْهاً ما غزوا طَوْعاً، وقد بَلَغَني رَفْضكم المهلّب، وإقبالُكم على مصركم عُصاةً مخالفين، وإني أقسِم لكم بالله لا أجد أحداً بعد ثالثة إلاَّ ضربتُ عنقه.

ثمّ دعا العُرَفاءَ فقال: ألحقُوا الناس بالمهلَّب، وأتُوني بالبراءات بمُوافاتهم ولا تُغلقنّ أبوابَ الجسْر ليلاً ولا نهاراً حتًى تنقضيَ هذه المدّة.

تفسير الخُطْبة: قولُه: «أنا ابنُ جَلاَ»، فابنُ جلا الصُّبْح لأنَّه يجلو الظُّلمة. والثنايا: ما صَغُر من الجبال ونَتأ. وأينَع الثَّمر: بلغ إدْراكه. وقولُه: «فاشتدّي زِيَم»، فهي اسم للحَرْب. والحُطَم: الَّذي يَحطم كلَّ شيء يَمُرّ به. والوَضَمُ: ما وُقي به اللَّحم من الأرض. والعَصْلَبيّ: الشديد. والدَّوِّيّة: الأرض الفضاء الَّتي يُسمَع فيها دَوِيُّ أخفاف الإبل. والأعلاط: الإبلُ الَّتي لا أرسانَ عليها، أنشد أبو زيد الأصمعيّ:

واعـرَوْرَت العُلُطُ العُـرْضيُّ تـركضُـهُ   أُمُّ الفـوارس بـالـدِّيـدَاءِ والـرَّبَعَـهْ

والشِّنان، جمع شَنَّة: القِرْبة الباليَة اليابسة، قال الشاعر:

كـأنَّـك مِـنْ جِـمَـالِ بـنِـي أُقَـيْشٍ   يُـقَـعْـقَـعُ خَـلْفَ رِجـلَيْـه بِـشَـنّ

وقولُه: «فعَجَم عيدانَها»، أي عَضَّها، والعَجَم بفتح الجيم: حَبّ الزبيب، قال الأعشى:

ومَـلفـوظُـهـا كـلَقيط الـعَـجَـمْ

وقوله: «أمَرّها عُوداً»، أي أصلبَها، يقال: حبْل مُمَرّ، إذا كان شديدَ الفتْل. وقولُه: «لأعصِبنَّكم عَصْب السَلمَة»، فالعَصْب القَطْع، والسلَمَة؛ شجرةٌ من العِضاهْ. وقولُه: «لا أخلُق إلاّ فَرَيْت»، فالخَلْق: التَّقدير،

(١) سورة النحل: ١١٢.

قال الله تعالى: ﴿منْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقةٍ وغير مُخَلَّقةٍ﴾[١]، أي مقدَّرة وغير مقدّرة، يعني ما يتمّ وما يكون سِقْطا، قال الكُمَيت يصف قربة:

لـم تَجْشَمِ الخـالقـاتُ فِـرْيَتهـا ولـم يَفِضْ مِن نِـطاقِـهـا السَّـرَبُ

وإنّما وصف حواصل الطَّير، يقول: ليست كهذه. وصَخْرة خَلْقاء، أي مَلْساء، قال الشاعر:

وبَـهْـوٌ هَـواءٌ فـوقَ مـورٍ كـأنَّـه من الصَّخْـرة الخَلْقـاءِ زُحْلوقُ مَلعَبِ

ويقال: فَريتُ الأديم إذا أصلحتَه، وأفرَيت، بالألف إذا أنتَ أفسَدْته. والسُّمَّهَى: الباطل، قال أبو عمرو الشَّيْبَانيّ: وأصله ما تُسمِّيه العامةُ مُخاطَ الشَّيطان، وهو لُعاب الشَّمس عند الظَّهيرة، قال أبـو النَّجم العِجْليّ:

وذَابَ لـلشَّـمسِ لُـعَـابٌ فـنـزَلْ وقـامَ مِـيـزانُ الـزَّمـان فـاعـتـدَلْ

والزَّرافات: الجماعات. تمّ التفسير.

قال أبو جعفر: قال عمر: فحدَّثني محمَّد بن يحيى، عن عبدالله بن أبي عُبَيدة، قال: فلمَّا كـان اليومُ الثالث سمع تكبيراً في السُّوق، فخرج حتَّى جلس على المنبر، فقال:

يا أهلَ العراق، وأهلَ الشِّقاق والنفاق، ومساوىء الأخلاق، إني سمعتُ تكبيراً ليس بالتَّكبير الَّذي يراد اللّهُ به في التَّرغيب، ولكنَّه التكبيرُ الَّذي يُراد به التَّرهيب، وقد عرفتُ أنَّها عَجاجةٌ تحتَها قَصْف. يا بني اللَّكيعة وعَبيد العصا، وأبناء الأيَامَى، ألا يَربَع رجلٌ منكم على ظَلْعه، ويُحْسن حَقْن دمه، ويبصر موضعَ قدمه! فأقسم بالله لأوشكُ أن أوقعَ بكم وقعةً تكون نكالاً لما قَبْلها، وأدباً لما بَعدَها.

قولُه: «تحتَها قَصْف»، فهو شدّة الرّيح. واللَّكعاء: الـوَرْهاء، وهي الحَمْقـاء من الإماء. والـظَّلع: الضَّعْف والوَهن من شدّة السير. وقوله: «تَهوى هُويّ سابق الغُطاط»، فالغُطاط بضم الغين: ضـربٌ من الطير. قال الأصمعيّ: الغَطَاط بفتح الغَين: ضربٌ من الطَّير، وأنشد لحسّان بن ثابت:

يُـغْشَـون حـتى مـا تَـهـرُّ كـلابُهُـمْ لا يَسـأَلـون عن الغَـطَاطِ المُـقْبِـلِ

بفتح الغين. قال: والغُطاط بضم الغين: اختلاط الضوء بالظلمة من آخر الليل، قال الراجز:

قـامَ إلـى أَدْمَـاءَ فـي الـغُـطَاطِ يَـمْشِي بِمِثْـلِ قَـائِم الـفُسْـطاطِ

تمّ التفسير.

قال: فقام إليه عُمَير بنُ ضابىء التَّميميّ ثمّ الحنظَليّ فقال: أصلَح اللّهُ الأمير! أنا في هذا البعث. وأنا شيخٌ كبير عليل، وهذا ابني، وهذا أشَبّ مني؛ قال: ومَنْ أنت؟ قال: عُمَير بنُ ضابىء التَّميميّ، قال: أسمعتَ كلامنا بالأمس؟ قال: نعم، قال: ألستَ الَّذي غزا أميرَ المؤمنين عثمانَ؟ قال: بلى؛ قال: وما حملك على ذلك؟ قال: كانَ حَبَس أبي، وكان شيخاً كبيراً، قال: أوَليس يقول:

هَمَمْتُ وَلم أفـعَـلْ وَكِـدْتُ وَلَيْتنِـي تَـرَكْتُ على عثمـانَ تَبكـي حَـلاَئلُهْ

---

(١) سورة الحج: ٥.

إني لأحسَب في قتلك صلاح المِصرَيْن، قم إليه يا حَرسيّ فاضرب عنقَه؛ فقام إليه رجلٌ فضرَب عنقَه، وأنهَب ماله.

ويقال: إنّ عَنبَسة بنَ سعيد قال للحجّاج: أتعرف هذا؟ قال: لا، قال: هذا أحدُ قَتَلة أمير المؤمنين عثمان؛ فقال الحجّاج: ياعدوَّ الله، أفلا إلى أمير المؤمنين بعثتَ بديلا! ثمّ أمر بضرْب عنقِه، وأمر منادياً فنادَى: ألا إنّ عُمَير بنَ ضابىء أتَى بعد ثالثة: وقد كان سمِع النداء، فأمرنا بقَتْله. ألا فإنَّ ذمّة الله بريئة ممّن بات الليلة من جُنْد المهلَّب. فخرج الناسُ فازدَحموا على الجِسر، وخرجت العُرَفاء إلى المهلَّب وهو برَامَهُرْمُز فأخذوا كتُبَه بالموافاة، فقال المهلَّب: قدم العراقَ اليومَ رجل ذَكَر: اليومَ قُوتِل العدوُّ.

قال ابن أبي عُبيدة في حديثه: فعَبر الجسْر تلك الليلة أربعةُ آلاف من مَذْحج؛ فقال المهلَّب: قدم العراقَ رجل ذَكَر.

قال عمر عن أبي الحسن، قال: لمّا قرأ عليهم كتابَ عبد الملك قال القارىء: أمّا بعد، سلامٌ عليكم فإني أحمَد إليكم الله. فقال له: اقطع، يا عبيد العصا، أيسلّم عليكم أميرُ المؤمنين فلا يَردّ رادٌّ منكم السَّلام! هذا أدبُ ابن نهية، أما والله لأؤدبنَّكم غير هذا الأدب، ابدأ بالكتاب، فلمّا بلغ إلى قوله: «أما بعد، سلامٌ عليكم»، لم يَبق منهم أحدٌ إلّا وقال: وعلى أمير المؤمنين السَّلام ورحمة الله.

قال عمر: حدّثني عبدُ الملك بنُ شَيبان بن عبد الملك بن مِسمَع، قال: حدّثني عمرو بن سعيد، قال: لمّا قدم الحجَّاجُ الكوفة خطبهم فقال: إنّكم قد أخللتم بعسكر المهلَّب، فلا يُصبحنّ بعد ثالثة من جُنْده أحدٌ، فلمّا كان بعد ثالثة أتى رجلٌ يَستدمي، فقال: مَن بك؟ قال: عمير بنُ ضابىء البُرْجُميّ، أمرتُه بالخروج إلى مُعسكَره فضربني ـ وكَذَب عليه. فأرسل الحجّاج إلى عُمير بن ضابىء، فأتِيَ به شيخاً كبيراً، فقال له: ما خلَّفَك عن مُعسكَرك؟ قال: أنا شيخ كبيرٌ لا حراك بي، فأرسلتُ ابني بديلاً فهو أجلد منّي جَلداً، وأحدَث مني سنًّا، فسلْ عما أقول لك، فإن كنتُ صادقاً وإلّا فعاقبني. قال: فقال عَنْبسة بنُ سعيد: هذا الّذي أتى عثمان قتيلاً؛ فلطم وجهه ووثب عليه فكسر ضلعين من أضلاعه، فأمر به الحجّاجُ فضربتْ عنقه. قال عمرو بنُ سعيد: فوالله إني لأسير بينَ الكوفة والحِيرة إذ سمعتُ رَجَزاً مُضَريًّا، فعدلْت إليهم فقلت: ما الخبر؟ فقالوا: قَدم علينا رجل مِن شرّ أحياء العَرَب من هذا الحيّ من ثمود، أسْتف الساقين، مَمْسُوح الجاعِرَتين أخفَش العينين، فقدّم سيّد الحيّ عميرَ بن ضابىء فضرَبَ عنقَه.

ولما قَتَل الحجاج عمير بن ضابىء لقي إبراهيم بن عامر أحد بني غاضِرَةَ من بني أسد عبدالله بن الزُّبير في السوق فسأله عن الخبر، فقال ابن الزّبير:

أقُولُ لإبـراهِيـمَ لـمَّـا لـقِيـتُـهُ ... ارَى الأمـر أمْسَى مُنْصِباً متشَعِّبـا
تَجَهَّزْ وأسْرِعْ والحق الجَيْشَ لا أرى ... سِوَى الجيْش إلّا في المَهالِك مَذْهَبَا
تَخَيَّـرْ فـإمَّـا أن تـزور ابنَ ضـابىء ... عُمَيـراً وإمَّـا أن تـزور الـمَـهـلَّبـا
همـا خُـطَّتـا كـرهٍ نَجَـاؤكَ مِنهُمَـا ... رُكُـوبُك حَـوْلِيًّـا من الثَّلج أشْهَبـا
فحـالَ ولـو كـانت خُـراسَـان دونَـه ... رآهـا مَكَـان السّـوقِ أوْ هِيَ أقْـربـا
فكـائنْ تَـرى من مُكْـرَهِ العَـدْوِ مُسْمنٍ ... تَحَمَّم حِنْـوَ السَّـرْج حتَّـى تحنَّبَـا

وكان قدوم الحجاج الكوفة ـ فيما قيل ـ في شهر رمضانَ من هذه السنة ، فوجّه الحَكم بن أيوب الثّقفيّ على البَصْرة أميراً ، وأمره أن يشتدّ على خالد بن عبدالله ، فلما بلغ خالداً الخبرُ خرج من البَصْرة قبل أن يدخُلَها الحكَمَ ، فنزل الجَلْحاءَ وشيَّعه أهلُ البصرة ، فلم يَبرَح مُصَلّاه حتى قسَّم فيهم ألف ألف .

وحجَّ بالناس في هذه السنة عبدُ الملك بن مروان ، حدَّثني بذلك أحمد بن ثابت عمّن حدّثه ، عن إسحاق ابن عيسى، عن أبي معشر . ووفد يحيى بن الحَكَم في هذه السنة على عبدالملك بن مروان ، واستخلف على عمله بالمدينة أبان بنَ عثمان ، وأمر عبدُالملك يحيى بن الحكم أن يقرّ على عمله على ما كان عليه بالمدينة . وعلى الكوفة والبصرة الحجّاج بن يوسف . وعلى خُراسان أميّة بن عبدالله . وعلى قضاء الكوفة شُرَيح ، وعلى قضاء البَصرة زُرارة بن أوْفى .

وفي هذه السنة خرج الحجّاجُ من الكوفة إلى البَصْرة ، واستَخْلَفَ على الكوفة أبا يَعْفُور عُروَة بن المغيرة بن شُعْبة ، فلم يزل عليها حتى رَجَع إليها بعد وَقْعة رُستقْباذ .

وفي هذه السنة ثار الناسُ بالحجّاج بالبَصرة .

ذكر الخبر عن سبب وثوبهم به :

ذكر هشام ، عن أبي مخنف ، عن أبي زهير العبسي ، قال : خرج الحجّاج بن يوسفَ من الكوفة بعدما قدمها ، وقتل ابن ضابىء من فوره ذلك حتى قدم البصرة ، فقام فيها بخُطْبة مِثل الذي قام بها في أهْل الكوفة ، وتوعدهم مِثل وعيده إياهم ، فأُتِيَ برجل من بني يَشْكرَ فقيل : هذا عاصٍ ، فقال : إنّ بي فَتْقاً ، وقد رآه بِشر فعذَرني ، وهذا عطائي مَرْدود في بيت المال ، فلم يقبل منه وقتله ، ففزِع لذلك أهل البصرة ، فخرجوا حتى تداكؤوا على العارض بقَنْطرة رامَهُرْمز ، فقال المهلّب : جاء الناسَ رجلٌ ذَكَر .

وخرج الحجّاج حتى نزل رُسْتقباذَ في أوّل شعبان سنة خمس وسبعين فثارَ النـاسُ بالحجـاج ، عليهم عبدالله بنُ الجارود ، فقتل عبدالله بن الجارود، وبعث بثمانية عشر رأساً فنُصبتْ بِرامَهُرْمُز للناس ، فاشتدّت ظهورُ المسلمين ، وساء ذلك الخوارج ، وقد كانوا رَجوْا أن يكونَ من الناس فُرقة واختلاف ، فانصرَف الحَجاج إلى البَصْرة .

وكان سبب أمر عبدالله بن الجارود أنّ الحجاج لما ندب الناسَ إلى اللحاق بالمهلب بالبصرة فشخصوا سار الحجاج حتى نزل رستقْباذ قريباً من دَسْتَوى في آخر شعبان ومعه وجوهُ أهل البصرة، وكان بينه وبين المهلّب ثمانيةَ عشرَ فَرْسَخاً ، فقام في الناس ، فقال : إنّ الزيادة التي زادكم ابنُ الزبير في أعطِياتكم زيادة فـاسِق منافق ، ولستُ أجيزُها . فقام إليه عبدالله بن الجارود العَبْديّ فقال : إنها ليست بزيادة فاسق منافق ، ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبدالملك قد أثبَتها لنا . فكذَّبه وتوعّده ، فخرج ابنُ الجارود على الحجاج وتابعـه وجوهُ الناس ، فاقتَتلوا قتالاً شديداً ، فقتل ابن الجارود وجماعة من أصحابـه ، وبعث برأسـه ورؤوس عشرة من أصحابه إلى المهلّب ، وانصرفَ إلى البصرة، وكتب إلى المهلب وإلى عبدالرحمن بن مخنف : أما بعد ، إذا أتاكم كتابي هذا فناهِضوا الخوارجَ ؛ والسلام .

وفي هذه السنة نفى المهلّب وابنُ مخنَف الأزارقةَ عن رامَهُرْمُز .

ذكر الخبر عن ذلك وما كان من أمرهم في هذه السنة :

ذكر هشام عن أبي مخنف ، عن أبي زهير العبسي ، قال : ناهض المهلب مخنف الأزارقة بَرامَهُرْمز بكتاب الحجاج إليهما لعشر بقِين من شعبان يومَ الاثنين سنة خمس وسبعين ، فأجلوهم عن رامَهُرْمُز من غير قتال شديد ، ولكنهم زَحفوا إليهم حتى أزالوهم ، وخرج القوم كأنهم على حامية ، حتى نزلوا سابُورَ بأرض منها يقال لها كازَرُون ، وسار المهلب وعبدُالرحمن بنُ مخنف حتى نزلوا بهم في أول رمضانَ ، فخندقَ المهلب عليه ، فذكر أهلُ البصرة أنّ المهلب قال لعبدالرحمن بن مخنف : إنْ رأيتَ أن تُخندق عليك فافعَل ؛ وإنّ أصحاب عبدالرحمن أَبَوْا عليه وقالوا : إنما خندقُنا سُيوفنا . وإن الخوارج زحفوا إلى المهلب ليلاً ليُبيِّتوه ، فوجدوه قد أخذ حِذْره ، فمالُوا نحوَ عبد الرحمن بن مخنف فوجدوه لم يخندق ، فقاتلوه ، فانهزم عنه أصحابُه ، فنزل فقاتل في أناس من أصحابه فقُتِل ، وقتِلوا حوله ، فقال شاعرهم :

لمن العسْكَرُ المكلَّلُ بالصَّرْ ... عى فَهُمْ بين ميِّتٍ وقَتِيلِ
فتَراهُم تَسْفِي الرياحُ عليهمْ ... حاصِبَ الرَّمْلِ بَعْدَ جَرِّ الذُّيولِ

وأما أهل الكوفة فإنهم ذكروا انّ كتاب الحجاج بن يوسفَ أتى المهلب وعبد الرحمن بن مخنف ، أنْ ناهِضَا الخوارجَ حين يأتيكما كتابي. فناهضاهم يومَ الأربعاء لعشر بقِين من رمضانَ سنة خمس وسبعين واقتَتَلوا قتالاً شديداً لم يكن بينهم فيما مضى قتالٌ كان أشدَّ منه ، وذلك بعد الظهر ، فمالت الخوارجُ بحدّها على المهلب بن أبي صُفْرة فاضطروه إلى عَسْكره ، فسرّح إلى عبد الرحمن رجالاً من صلحاء الناس ، فأتَوْه ، فقالوا : إنّ المهلب يقول لك : إنما عدوُّنا واحد ، وقد ترَى ما قد لقيَ المسلمون ، فأمِدَّ إخوانك يرحمك الله . فأخذ يُمِدّه بالخيل بعد الخيل ، والرّجال بعد الرّجال ، فلما كان بعد العصر ورأت الخوارجُ ما يجيء من عسكر عبد الرحمن من الخيل والرّجال إلى عسكر المهلب ظنوا أنه قد خَفَّ أصحابه ، فجعلوا خمس كتائبَ أو سِتًّا تُجاهَ عَسكر المهلب ، وانصرَفوا بحدّهم وجمعِهم إلى عبد الرحمن بن مخنَف ، فلما رآهم قد صمدوا له نزل ونزل معه القُرَّاء ، عليهم أبو الأحوص صاحبُ عبدالله بن مسعود ، وخُزَيمة بن نصر أبو نصر بن خُزَيمة العبسيّ الذي قُتل مع زيد بن عليّ وصُلب معه بالكُوفة ، ونزل معه من خاصّة قومه أحدٌ وسبعون رجلاً ، وحملت عليهم الخوارجُ فقاتلتْهم قتالاً شديداً . ثمّ إنّ الناس انكشفوا عنه ، فبقي في عِصابة من أهل الصّبر ثبتوا معه ، وكان ابنه جعفر بن عبد الرحمن فيمن بعثه إلى المهلب ، فنادَى في الناس ليتْبعوه إلى أبيه ، فلم يتْبعه إلاّ ناس قليل ، فجاء حتى إذا دنا من أبيه حالت الخوارجُ بينه وبين أبيه ، فقاتل حتى ارتثّته الخوارج ، وقاتل عبد الرحمن بن مخنف ومن معه على تلّ مُشرف حتى ذهب نحوٌ من ثُلثي الليل ، ثمّ قُتل في تلك العصابة ، فلما أصبحوا جاء المهلب حتى أتاه ، فدَفَنه وصلّى عليه ؛ وكتب بمُصابه إلى الحجاج ، فكتب بذلك الحجاج إلى عبد الملك بن مَرْوان ، فنعى عبد الرحمن بمِنًى ، وذمَّ أهلَ الكوفة ، وبعثَ الحجّاجَ على عسكر عبد الرحمن بن مخنف عتّابَ بن وَرقاء ، وأمره إذا ضمّتْهما الحَرْب أن يَسمَع للمهلّب ويطيع ، فساءه ذلك ، فلم يجدْ بُدًّا من طاعة الحجاج ولم يَقدر على مراجعته ، فجاء حتى أقام في ذلك العسكر ، وقاتل الخوارج وأمرُه إلى المهلب ، وهو في ذلك يَقضي أمورَه ، ولا يكاد يستشير المهلب في شيء . فلما رأى ذلك المهلب اصطنع رجالاً من الكوفة فيه بِسطام بن مَصْقَلة بن هُبيرة ، فأغراهم بعَتاب .

قال أبو مخنف عن يوسفَ بن يزيد : إن عتّابا أتى المهلّب يسأله أن يرزق أصحابَه ، فأجلسَه المهلّبُ معه

على مجلسه، قال: فسأله أن يرزق أصحابه سؤالاً فيه غِلظة وتجهُّم، قال: فقال له المهلب: وإنَّك لها هنا يابن اللَّخناء! فبنو تميم يَزعمون أنَّه رَدَّ عليه، وأمَّا يوسفُ بنُ يزيدَ وغيرُه فيَزعمون أنَّه قال: والله أنها لمعمّةٌ مُخْوِلَةٌ، ولوَددتُ أن الله فرّق بيني وبينك. قال: فجرى بينهما الكلام حتّى ذهب المهلَّب ليرفع القضيب عليه، فوثب عليه ابنُه المغيرة، فقبَض على القضيب وقال: أصلَح الله الأمير! شيخٌ من أشياخ العرب، وشريفٌ من أشرافهم، إنْ سمعتَ منه بعضَ ما تكرهه فاحتملْه له، فإنّه لذلك منك أهل، ففعل. وقام عَتّاب فرجع من عنده، واستقبله بسطامُ بنُ مَصقلَة يشتُمه، ويَقع فيه.

فلما رأى ذلك كَتَب إلى الحجَّاج يشكو إليه المهلَّب ويُخبره أنَّه قد أغرى به سُفهاء أهل المصر، ويسأله أن يضمَّه إليه، فوافق ذلك من الحجَّاج حاجةً إليه فيها لقي أشرافُ الكوفة من شبيب، فبعث إليه أن أقدم واترك أمر ذلك الجيش إلى المهلَّب، فبعث المهلَّب عليه حبيب بنَ المهلَّب.

وقال حُمَيد بنُ مسلم يرثي عبدَ الرحمن بن مخنف:

إن يـقـتُـلوك أبـا حـكـيـم غُـدوةً ... فـلـقـدْ تَـشُـدُّ وتَـقـتُـل الأبـطَالاَ
أو يُـثْكِـلُونـا سـيـداً لـمـسـوَّدٍ ... سَمْـحَ الخليقـةِ مـاجـداً مِفضـالاَ
فلَمِثـل قـتلك هَـدَّ قـومَـكَ كـلُّهُمْ ... مَـن كـان يَحـمِـلُ عنـهمُ الأثـقـالاَ
من كـان يَكشِفُ غُـرمهم وقتـالَهُـم ... يـومـاً إذا كـان الـقـتـالُ نِـزالاَ!
أقسمتُ مـا نِيلَتْ مَقـاتِـلُ نـفسِـه ... حـتـى تَـدَرَّعَ مـن دَمٍ سِـرْبـالاَ
وتـنـاجَـزَ الأبْـطالُ تـحـتَ لـوائِـه ... بـالـمَشْـرَفيَّـة في الأكُفّ نِصـالاَ
يـومـاً طـويـلاً ثـمّ آخـرَ لـيـلِهِـم ... حين استبـانوا في السمـاءِ هِـلالاَ
وتـكشَّفَتْ عـنـه الصُّفُـوف وخَيلُهُ ... فـهُـنـاكَ نـالَـتْـهُ الـرِّمـاحُ فـمـالاَ

وقال سُراقة بنُ مِرْداس البارقيّ:

أعَيْنَيَّ جُـودَا بـالـدُّمـوع السـواكبِ ... وكُـونَـا كَـواهِي شَنَّـةٍ مـعَ راكبِ
على الأزْدِ لمّـا أن أصِيب سَـراتُـهُمْ ... فنُـوحَـا لعيشٍ بعـدَ ذلـك خـائبِ
نُـرجِّي الخلودَ بعـدهـمْ وتَعُـوقنـا ... عـوائـقُ مـوتٍ أو قِـرَاعُ الكَتـائبِ
وكنَّـا بخيـرٍ قبـلَ قَتـل ابنِ مِخْنفٍ ... وكـلُّ امرىءٍ يـومـاً لبعضِ المـذاهب
أمـارَ دُمـوعَ الشَّيبِ من أهـل مِصرِهِ ... وعَجَّـل في الشُّبَّـان شَيْبَ الـذّوائبِ
وقـاتَـل حتى مـاتَ أكـرَمَ مِيتـةٍ ... وخَـرَّ عـلى خَـدٍّ كَـريم وحـاجـبِ
وضَـارَب عنـه المـارِقينَ عصـابـةٌ ... مِنَ الأزْدِ تمشي بـالسّيـوف القـواضبِ
فـلا ولَـدَتْ أُنـثَى ولا آبَ غـائـبٌ ... إلـى أهـلِه إنْ كـان لـيسَ بـآيب
فيـا عينُ بَكّي مِخنفـاً وآبـنَ مخـنفٍ ... وفُـرسـانَ قـومِي قُصْـرَةً وأقـاربي

وقال سُراقة أيضاً يَرثي عبدَ الرحمن بن مخنَف:

ثَـوَى سـيّـدُ الأزْديْـن أزْد شَـنُـوءَةٍ ... وأزد عُـمـان رهـن رَمْس بـكـازِرِ
وضـارب حـتَّى مـاتَ أكـرم مِيتـةٍ ... بـأبيضَ صـافٍ كـالعقيقـة بـاتـرِ

وصُــرِّعَ حــولَ التَّــلِّ تحتَ لــوائــه كِـرامُ المَسـاعي من كِـرَام المعـاشِــر
قضَى نحبَــهُ يـومَ اللِّقــاء ابنُ مِخنفٍ وأدبَــر عــنــه كــلُّ ألــوَثَ دَاثــر
أمــدَّ فـلم يُـمــدَدْ فــراحَ مُـشَـمّــراً إلى الله لم يَــذهبْ بــأثــواب غَــادِرِ

وأقامَ المهلَّب بسابُورَ يقاتِلُهم نحواً من سنة.

وفي هذه السَّنة تحرَّك صالح بنُ مُسَرّح أحدُ بني امرىء القيس، وكان يرى رأيَ الصُّفْريّة. وقيل: إنَّه أوّل من خرج من الصُّفْريّة.

ذكر الخبر عن تحرُّك صالح للخروج وما كان منه في هذه السنة

ذكر أنّ صالح بن مسرّح أحد بني امرىء القيس حجّ سنة خمس وسبعين ومعه شبيبُ بنُ يزيدَ وسُوَيد والبَطين وأشباهُهم.

وحجَّ في هذه السنة عبدُ الملك بنُ مروان، فهمّ شبيب بالفتْك به، وبلغه ذَرْءٌ من خبرَهم، فكتب إلى الحجَّاج بعد انصرافه يأمره بطلبهم، وكان صالح يأتي الكوفةَ فيقيم بها الشهر ونحوه فيلقَى أصحابه ليَعِدَهم، فنبتْ بصالح الكوفة لّما طلبه الحجَّاج، فتنكَّبَها.

ثم دخلت سنة ست وسبعين

ذكر الكائن من الأحداث فيها

فمن ذلك خروج صالح بن مسرّح.

ذكر الخبر عن خروج صالح بن مسرّح وعن سبب خروجه

وكان سببُ خروجه ـ فيما ذَكَر هشام، عن أبي مِخْنف، عن عبدالله بن علقمة، عن قَبيصة بن عبد الرّحمن الخَثْعميّ ـ أنّ صالح بنَ مسرّح التميميَّ كان رجلاً ناسكاً مُخبِتا مصفرّ الوجه، صاحب عبادة، وأنه كان بدَارَا وأرض المَوْصل والجزيرة له أصحابٌ يُقرئهم القرآن ويفقههم ويقصّ عليهم، فكان قبيصة بنُ عبد الرحمن حدّث أصحابنا أنّ قصص صالح بن مسرِّح عنده، وكان ممّن يرى رأيَهم، فسألوه أن يبعث بالكتاب إليهم، ففعل.

وكان قصصه: ﴿الحمْد للّهِ الّذي خَلَق السَّموات والأَرْضَ وجَعلَ الظُّلُماتِ والنُّورَ ثم الَّذِين كَفَروا بِرَبِّهم يَعْدِلُونَ﴾(١). اللهمّ إنَّا لا نَعدل بك، ولا نحْفِد إلاّ إليك، ولا نَعبُد إلاّ إيَّاك، لك الخَلْق والأمر، ومنك النَّفع والضرّ، وإليك المصير. ونَشهد أنّ محمَّداً عبدُك الَّذي اصطفيتَه، ورسولُك الَّذي اخْتَرْتَه وارتضَيْتَه لتبليغ رسالاتك، ونصيحة عبادك، ونَشهَد أنَّه قد بَلَّغ الرسالة، ونَصَح للأمَّة، ودعا إلى الحقّ، وقام بالقِسْط، ونصر الدِّين، وجاهد المشركين، حتَّى توفَّاه الله ﷺ. أوصيكم بتقوى الله والزّهدِ في الدنيا، والرّغبةِ في الآخرة وكثرةِ ذكر الموت، وفراقِ الفاسقين، وحبِّ المؤمنين، فإنّ الزَّهادة في الدنيا تُرغِّب العبدَ فيما عند الله، وتُفرّغ بدنَه لطاعة الله، وإنّ كثرةَ ذِكر الموت يُخيف العبد من ربِّه حتى يَجأرَ إليه، ويستكِين له، وإن فراق الفاسقين حقٌّ على المؤمنين، قال الله في كتابه: ﴿وَلاَ تُصلِّ عَلَى أَحَد مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُم كَفَروا بِاللّهِ ورسوله ومَاتُوا وهُمْ فاسِقُون﴾(٢). وإن حُبّ المؤمنين للسّبب الَّذي تُنال به كرامة الله ورحمته وجنَّتُه، جعلنا الله وإيّاكم من الصادقين الصابرين. ألا إنّ مِن نعمة الله على المؤمنين أنْ بعث فيهم رسولاً من أنفسِهم، فعلَّمهم الكتابَ والحكمة وزَكَّاهم وطَهّرهم ووفّقهم في دِينهم، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، حتَّى قبضه الله، صلواتُ الله عليه، ثمّ وليَ الأمر من بعدِه التقيّ الصدّيق على الرّضا من المسلمين، فاقتدى بهديه، واستن بسُنّته، حتى لحِق بالله ـ رحمه الله ـ واستَخلف عمرَ، فوَلاَّه الله أمر هذه الرعيّة، فعَمِل بكتاب الله، وأحيا سُنة رسول الله، ولم يُحنِقْ في

---

(٢) سورة التوبة: ٨٤.

الحقّ على جِرّته، ولم يخفْ في الله لومة لائم، حتى لَحِقَ به رحمةُ الله عليه، ووليَ المسلمينَ مِن بعده عثمان، فاستأثر بالفَيء، وعَطّل الحدُود، وجارَ في الحُكْم، واستَذَل المؤمن، وعـزّز المجرِم، فسـار إليه المسلمـون فقتلوه، فبرىء الله منه ورسولُه وصالحُ المؤمنين؛ ووَلِي أمر الناس من بعده عليّ بنُ أبي طالب، فلم ينشب أن حكّمَ في أمر الله الرّجال، وشَكّ في أهل الضلال، وركن وأدْهن، فنحن من عليّ وأشياعِه بُراء، فتيسّروا رحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحَزّبة، وأئمة الضلال الظَّلمة ولِلخروج من دارِ الفناء إلى دار البقاء، واللّحاق بإخواننا المؤمنين الموقِنين الذِين باعوا الدنيا بالآخرة، وأنفقوا أموالَهم التماس رضوان الله في العاقبة، ولا تجزعوا من القتل في الله، فإنَّ القتل أيْسرُ مِن الموت، والموتُ نازلٌ بكم غيرما ترجُم الظنون، فمفرّق بينكم وبين آبائكم وأبنائكم، وحلائِلِكم ودنياكم، وإن اشتدّ لذلك كُرْهكم وجزعكم. ألا فبِيعوا اللّهَ أنفسَكم طائعين وأموالَكم تدخلوا الجنة آمنين، وتعانِقوا الحُور العِين، جعلنا الله وإيَّاكم من الشاكرين الذاكرين، الذِين يَهْدون بالحقّ وبه يَعدِلون.

قال أبو مخنف: فحدّثني عبدُالله بنُ عَلْقمة، قال: بينا أصحابُ صالح يختلفون إليه إذْ قال لهم ذاتَ يوم: ما أدرِي ما تنتظرون! حتّى متى أنتم مقيمون! هذا الجوْر قد فشا، وهذا العَدْل قد عفا، ولا تَزداد هذه الولاةُ على الناس إلاّ غلواً وعَتُوًّا، وتباعداً عن الحقّ، وجُرأةً على الرّبّ؛ فاستعِدّوا إلى إخوانِكم الذين يريدون مِن إنكار الباطل والدعاء إلى الحقّ مِثلَ الذي تريدون، فيأتوكم فنلتقي وننظر فيما نحن صانعون، وفي أيّ وقت إنْ خرجْنا نحن خارجون.

قال: فتَراسل أصحابُ صالح، وتلاقَوا في ذلـك، فبَيْناهم في ذلـك إذْ قَدِم عليهم المحلّل بن وائـل اليَشْكُريّ بكتاب من شَبيب إلى صالح بن مسرّح:

أما بعد، فقد علمتُ أنَّك كنت أردتَ الشخوص، وقد كنتَ دعوتَني إلى ذلك فاستجبْتُ لك، فإن كان ذلك اليوم من شأنك فأنتَ شيخ المسلمين، ولن نَعدِل بك منّا أحداً، وإن أردت تأخيرَ ذلك اليوم أعلَمْتني؛ فإنّ الآجال غادِية ورائحة، ولا آمَن أن تخترِمَني المنِيّةُ ولما أجاهِد الظالِمين. فيا لَه غَبْناً، ويا لَه فَضْلاً متروكاً! جَعَلَنا الله وإيّاك ممن يريد بعَمله اللّهَ ورضوانَه، والنظر إلى وجهه، ومرافقةَ الصالحين في دار السلام. والسلام عليك.

قال: فلما قَدِم على صالح المحلّل بن وائل بذلك الكتابِ من شبيب كتب إليه صالح:

أما بعد، فقد كان كتابُك وخبرُك أبطآ عني حتى أهمَّني ذلك، ثمّ إنّ امرأً من المسلمين نبّأني بنبإ مُخرجِك ومَقدَمك، فنَحمَد الله على قضاء ربّنا. وقد قَدِم عليَّ رسولُك بكتابك، فكلّ ما فيه قد فهمتُه، ونحن في جهاز واستعداد للخروج، ولم يمنعْني من الخروج إلاّ انتظارك، فأقبِل إلينا، ثمّ اخرج بنا متى ما أحبَبْت، فإنك ممن لا يستغنَى عن رأيه، ولا تُقضَى دونَه الأمور. والسلام عليك.

فلما قَدِم على شبيب كتابُه بعث إلى نفر من أصحابه فجمعهم إليه؛ منهم أخوه صماد بن يزيد بن نُعيم، والمحلل بن وائل اليَشْكُريّ، والصقر بن حاتم من بني تَيم بن شيبان، وإبراهيم بن حجر أبو الصُّقير من بني مُحَلِّم، والفضل بنُ عامر من بني ذُهْل بن شَيْبان، ثمَّ خرج حتى قَدِم على صالح بن مسرّح بِدارًا، فلمّا لقيَه قال:

اخرُج بنا رحمك الله! فوالله ما تزداد السنَّة إلاّ دُروساً، ولا يَزداد المجرمون إلاّ طُغْياناً. فبثّ صالحٌ رسله في أصحابه، وواعدهم الخروج في هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ستٍّ وسبعين. فاجتمع بعضُهم إلى بعض، وتهيَّئوا، وتيسروا للخروج في تلك اللَّيلة، واجتمعوا جميعاً عنده في تلك الليلة لِميعاده.

قال أبو مخنف: فحدّثني فَرْوة بن لقيط الأزْديّ، قال: والله إني لَمَع شبيب بالمَدائن إذْ حدّثنا عن مخرجهم، قال: لما همِمنا بالخروج اجتمعْنا إلى صالحِ بنِ مسرّح ليلة خرج، فكان رأيي استعراضُ الناس لِمَا رأيتُ من المنكر والعدوان والفساد في الأرض، فقمتُ إليه فقلت: يا أميرَ المؤمنين، كيف تَرَى في السيرة في هؤلاء الظلَمة؟ أنقتلهم قبل الدّعاء، أم ندعوهم قبلَ القتال؟ وسأخبرك برأيي فيهم قبل أن تُخبرَني فيهم برأيك؛ أمّا أنا فأرَى أن نَقتُل كلّ من لا يرى رَأينا قريباً كان أو بعيداً، فإنا نخرج على قوم غاوين طاغين باغِين قد تركوا أمر الله، واستحوذ عليهم الشيطان. فقال: لا بل ندعوهم، فلعمْري لا يُجيبك إلاّ مَن يرى رأيَك وليقاتِلَنّك مَنْ يزرِي عليك، والدعاءُ أقطع لحجَّتِهم، وأبلغ في الحجة عليهم. قال: فقلت له: فكيف ترى فيمن قاتَلنا فظفرْنا به؟ ما تقول في دِمائهم وأموالهم؟ فقال: إن قتلنا وغنمنا فلنا، وإن تجاوزنا وعفونا فموسّع علينا ولنا. قال: فأحسن القول وأصابَ، رحمة الله عليه وعلينا.

قال أبو مخنف: فحدّثني رجلٌ من بني محلّم أنّ صالحَ بنَ مسرح قال لأصحابه ليلَة خرج: اتَّقوا الله عبادَ الله، ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس إلاّ أن يكونوا قوماً يريدونكم، وينصِبون لكم، فإنكم إنّما خرجتم غَضبا لله حيث انتُهكتْ محارمه، وعُصي في الأرض، فسُفكت الدماء بغير حلِّها، وأخِذت الأموال بغير حقّها، فلا تَعيبوا على قوم أعمالاً ثمّ تعملوا بها، فإن كلّ ما أنتم عاملون عنه مسؤولون، وإنّ عُظْمَكم رجّالة، وهذه دوابّ لمحمّد بن مروان في هذا الرُّسْتاق، فابدؤوا بها، فشُدّوا عليها، فاحمِلوا أراجلَكم، وتقوّوا بها على عدُوّكم.

فخرجوا فأخذوا تلك الليلة الدوابّ فحَمَلوا رَجّالتهم عليها، وصارت رجّالتُها فُرساناً، وأقاموا بأرض دارا ثلاثَ عَشْرَة ليلة، وتَحصَّن منهم أهل دارا وأهلُ نَصِيبينِ وأهلُ سِنْجار، وخرج صالحٌ ليلة خرجَ في مائة وعشرين ـ وقيل في مائة وعشرة ـ قال: وبلغ مخرجهُم محمد بن مروان وهو يومئذ أميرُ الجزيرة، فاستخفّ بأمرهم، وبعث إليهم عديّ بن عديّ بن عُميرة من بني الحارث بن معاوية بن ثور في خَمسمائة، فقال له: أصلَح الله الأمير! أتَبعثني إلى رأس الخوارج منذ عشرين سنة! قد خرج معه رجالٌ من ربيعة قد سُمُّوا لي، كانوا يعازّوننا، الرجلُ منهم خيرٌ من مائة فارس في خمسمائة رجل. قال له: فإني أزيدك خمسمائة أخرى، فسر إليهم في ألف، فسار من حرّان في ألف رجل، فكان أوّل جيش سار إلى صالح وسار إليه عديّ، وكأنّما يساق إلى الموت، وكان عديّ رجلاً يتنسّك، فأقبَل حتى إذا نزل دوْغانَ نزل بالنّاسِ وسرّح إلى صالح بن مسرّح رجلاً دَسَّه إليه من بني خالد من بني الورْثة؛ يقال له: زِياد بن عبدالله، فقال: إنّ عديًّا بَعَثَني إليك يسألُك أن تخرج من هذا البلد وتأتيَ بلداً آخر فتُقاتِلَ أهلَه؛ فإنّ عديًّا لِلقائك كاره، فقال له صالح: ارجِع إليه، فقل له: إن كنتَ ترى رأينا فأرِنا في ذلك ما نَعرِف، ثمَّ نَحن مُدلجون عنك من هذا البلد إلى غيره، وإن كنتَ على رأي الجبابرة وأئمة السَّوء رأيْنا رأينا، فإن شئنا بدأنا بك، وإن شئنا رحلنا إلى غيرك. فانصرف إليه الرسولُ فأبلَغه ما أرسِل به، فقال له: اِرْجع إليه فقل له: اِرْجِع إليه فقل له: إني واللَّهِ ما أنا على رأيك، ولكني أكره قتالَك وقتال غيرك،

فقاتِلْ غيري، فقال صالح لأصحابه: إرْكبوا، فَرَكبوا وحَبَس الرجلَ عنده حتى خرجوا، ثمّ تركه ومضَى بأصحابه حتى يأتيَ عديّ بن عديّ بن عميرة بن سُوقِ دَوغان وهو قائمٌ يصلّي الضّحى، فلم يَشعُر إلّا والخيل طالعةٌ عليهم، فلما بَصُروا بها تنادوا، وجعل صالحٌ شبيباً في كَتيبة في ميمنة أصحابه، وبعث سويد بن سليم الهنديّ من بني شيبان في كتيبة في ميسرةِ أصحابه، وَوقَف هو في كَتيبة في الْقَلْب، فلما دنا منهم رآهم على غير تعبية، وبعضهم يجول في بعض، فأمَر شبيباً فحمل عليهم، ثمّ حمل سويد عليهم فكانت هزيمتهم ولم يُقاتلوا، وأتِيَ عديّ بن عديّ بدابَّته وهو يصلّي فركبها ومضى على وجهه، وجاء صالحُ بن مسرّح حتى نزل عسكره وحوى ما فيه، وذهب فلُّ عَدِيّ وأوائلُ أصحابِه حتى دخلوا على محمَّد بنِ مروان، فغَضِبَ، ثم دعا خالدَ بن جَزْء السُّلَمِيّ فبعثه في ألف وخمسِمائة، ودعا الحارثَ بنَ جَعْوَنة من بني ربيعة بن عامر بن صعْصَعة فَبعثه في ألف وخمسمائة، ودعاهما، فقال: أُخرجا إلى هذه الخارجة القليلة الخبيثة، وعجِّلا الخروج، وأغِذّا السيْر، فأيّكما سبق فهو الأمير على صاحبه؛ فخرجا من عنده فأغذّا السير، وجعلا يسألان عن صالح بن مسرّح فيقال لهما: إنّه توجّه نحو آمِدَ، فأتبعاه حتى انتهيا إليه، وقد نزل على أهل آمد فنزلا ليلاً، فَخندَقا وانتهيَا إليه وهما متساندانِ كلّ واحد منهما في أصحابه على حدته، فوجّه صالح شَبيباً إلى الحارث بنِ جعْونة العامريّ في شطر أصحابه، وتوجّه هو نحْو خالد بن جَزْء السُّلَميّ.

قال أبو مخنف: فحدّثني المُحَلّميّ، قال: انتهوا إلينا في أوّل وقت العصر، فصلّى بنا صالح العصر، ثمّ عبّانا لهم فاقتتلْنا كأشدّ قتال اقتتله قومٌ قطّ، وجعلنا والله نرى الظفرَ يحمل الرجل منّا على العشرة منهم فيهزمهم، وعلى العشرين فكذلك، وجَعلتْ خيلهُم لا تَثبت لخَيلنا.

فلما رأى أميراهُم ذلك ترجّلا وأمرا جُلّ من معهما فترجّل، فعند ذلك جعلنا لا نَقدِر منهم على الذي نريد، إذا حَمَلْنا عليهم استقبلتْنا رَجّالَتهم بالرّماح، ونضحتنا رماتُهم بالنّبل، وخيلُهم تُطاردنا في خلال ذلك، فقاتلناهم إلى المَساء حتى حالَ الليلُ بيننا وبينهم، وقد أفشَوْا فينا الجراحة، وأفشيْناها فيهم، وقد قَتَلوا منا نحواً من ثلاثين رجُلاً، وقتلْنا منهم أكثرَ من سبعين، ووالله ما أمسينا حتى كرهناهم وكرهونا، فوقفْنا مُقابِلَهم ما يَقْدمون علينا وما نقدَمُ عليهم، فلما أمسوا رجعوا إلى عسكرهم، ورجعْنا إلى عسكرنا فصلّينا وتروّحْنا وأكلنا من الكِسَر.

ثمّ إنّ صالحاً دعا شبيباً ورؤوسَ أصحابِه فقال: يا أخلّائي، ماذا ترون؟ فقال شبيب: أرَى أنّا قد لقينا هؤلاء القومَ فقاتلناهم، وقد اعتَصموا بخندقهم، فلا أرى أن نقيم عليهم، فقال صالح: وأنا أرى ذلك، فخرجوا من تحت ليلتِهم سائرين، فمضوا حتى قطعوا أرضِ الجزيرة، ثمّ دخلوا أرضَ المَوصِل فساروا فيها حتى قطعوها ومضَوا حتى قطعوا الدّسْكَرَة.

فلما بلغ ذلك الحجّاج سرّح إليهم الحارث بنَ عميرة بن ذي المِشعار الهَمْدانيّ في ثلاثة آلاف رجل من أهل الكوفة، ألف من المقاتلة الأولى، وألفين من الفَرْض الذي فرض لهم الحجّاج. فسار حتى إذا دنا من الدّسْكرة خرج صالح بن مسرّح نحو جَلولاءَ وخانِقِين، وأتبعه الحارثُ بن عميرةَ حتى انتهى إلى قرية يقال لها المدبّج من أرض الموصِل على تُخومِ ما بينها وبين أرضِ جُوخَى، وصالح يومئذ في تسعين رجلاً، فعبّى

الحارث بن عميرة يومئذ أصحابه، وجعل على ميمنته أبا الرّوّاغ الشاكريّ، وعلى ميسرته الزّبير بن الأروَح التميميّ، ثمّ شدّ عليهم ـ وذلك بعد العصر ـ وقد جعل أصحابه ثلاثَة كراديس؛ فهو في كُرْدوس، وشبيب في كُرْدوس في ميمنَته، وسُوَيد بن سليم في كرْدوس في الميسرة، في كلّ كُرْدوس منهم ثلاثون رجلاً.

فلما شدّ عليهم الحارثُ بن عميرة في جماعة أصحابه انكشف سُوَيد بن سليم وثبت صالح بنُ مسرّح فقُتِل، وضارب شبيبٌ حتى صُرِع، فوقع في رجّالة، فشدّ عليهم فانكشفوا، فجاء حتى انتهَى إلى موقف صالح بن مسرّح فأصابه قتيلاً، فنادى: إليّ يا معشر المسلمين؛ فلاذُوا به، فقال لأصحابه: ليجعل كلّ واحد منكم ظهرَه إلى ظهر صاحبه، وليطاعِن عدوَّه إذا أقدَم عليه حتى ندخل هذا الحِصن، ونرى رأينا؛ ففعلوا ذلك حتى دخلوا الحصن وهم سبعون رجلاً بشَبيب، وأحاط بهم الحارثُ بنُ عميرة مُمْسِياً، وقال لأصحابه: احرقوا الباب، فإذا صار جَمْراً فدعوه فإنهم لا يَقدِرون على أن يخرجوا منه حتىّ نصبّحهم فنقتلهم. ففعلوا ذلك بالباب، ثمّ انصرَفوا إلى عسكرهم، فأشرَف شبيب عليهم وطائفةٌ من أصحابه، فقال بعضُ أولئك الفَرْض: يا بني الزّواني، ألم يُخزكم الله! فقالوا: يا فُسّاق، نعم تقاتلوننا لقتالِنا إيّاكم إذْ أعماكُم الله عن الحقّ الّذي نحن عليه، فما عُذْركم عند الله في الفَرْيِ على أمّهاتِنا! فقال لهم حُلَماؤهم: إنّما هذا من قول شباب فينا سُفهاء، والله ما يُعجِبنا قولهم ولا نستحلّه. وقال شبيب لأصحابه: يا هؤلاء، ما تَنظِرون! فوالله لئن صبّحكم هؤلاء غُدْوةً إنّه لَهَلاكُكم، فقالوا له: مرنا بأمرِك، فقال لهم: إنّ اللّيل أخفَى للوَيْل، بايعوني ومَن شئتم منكم، ثم اخرجوا بنا حتّى نشُدّ عليهم في عسكرهم، فإنّهم لذلك منكم آمنون، وأنا أرجو أن ينصُركم الله عليهم. قالوا: فابسُطْ يدك فلنُبايعْك، فبايَعوه، ثمّ جاؤوا ليخرجوا، وقد صار بابُهم جمراً، فأتوا باللُّبود فبلّوها بالماء، ثمّ ألقَوْها على الجَمْر، ثمّ قطعوا عليها، فلم يشعرُ الحارث بن عميرة ولا أهلُ العسكر إلاّ وشبيب وأصحابُه يضربونهم بالسيوف في جوفِ عسكرِهم، فضارب الحارث حتىّ صُرِع، واحتمَلَه أصحابُه وانهزموا، وخلَّوْا لهم العسكر وما فيه، ومضَوا حتى نزلوا المدائن، فكان ذلك الجيشُ أوّلَ جيش هزَمَه شبيب، وأصيب صالحُ بن مسرّح يومَ الثلاثاء لثلاثَ عشرة بقيتْ من جُمادَى الأولى من سنته.

وفي هذه السنة دخل شبيب الكوفةَ ومعه زوجتُه غزَالة.

ذكر الخبر عن دخوله الكوفة وما كان من أمره وأمرِ الحجّاج بها والسبب الّذي دعا شبيباً إلى ذلك:

وكان السبب في ذلك ـ فيما ذكر هشامٌ، عن أبي مِخْنَف، عن عبد الله بن علقمة، عن قبيصة بن عبد الرحمن الخَثْعميّ ـ أنّ شبيباً لمّا قُتِل صالحُ بنَ مسرّح بالمدبَّج وبايعه أصحابُ صالح، ارتفع إلى أرض المَوْصل فلقيَ سلامة بن سيّار بن المضاء التَّيْميّ تَيْمَ شيبان، فدعاه إلى الخروج معه، وكان يَعرفه قبل ذلك إذ كانا في الدّيوان والمَغازي، فاشترَط عليه سلامةُ أن ينتخِب ثلاثين فارساً، ثم لا يغيب عنه إلاّ ثلاثَ ليال عدداً. ففعل؛ فانتخب ثلاثين فارساً، فانْطلق بهم نحو عَنَزة، وإنّما أرادهم ليَشفي نفسه منهم لقتلهم أخاه فَضالة، وذلك أنّ فَضالة كان خرج قبل ذلك في ثمانية عشر نَفْساً حتّى نزل ماءً يقال له الشَّجَرة من أرض الجبال، عليه أثْلة عظيمة، وعليه عَنزة، فلمّا رأتْه قال بعضهم لبعض: نقتلهم ثمّ نغدو بهم إلى امير فنُعطَى ونُحبىَ، فأجمعوا على ذلك، فقالت بنو نصر أخوالُه: لعَمر الله لا نساعدكم على قتل ولَدنا. فنهضتْ عَنَزَةُ إليهم فقاتَلوهم فقَتلوهم، وأتَوا برؤوسهم عبدَ الملك بنَ مروان، فلذلك أنْزَلهم بانِقيَا، وفرض لهم، ولم تكن لهم فرائضُ قبلَ ذلك إلاّ

قليلة، فقال سلامة بنُ سيَّار، أخو فضالة يَذكُر قتل أخيه وخِذلان أخوالِه إيَّاه:

وما خِلْتُ أَخْوَالَ الفَتَى يُسلمونَهُ لِوَقْع السلاح قبلَ ما فَعَلَتْ نَصْرُ

قال: وكان خروج أخيه فَضالةَ قبل خروج صالح بن مسرِّح وشَبيب.

فلمّا بايع سلامةُ شبيباً اشترط عليه هذا الشرط، فخرج في ثلاثين فارساً حتَّى انتهى إلى عَنزة، فجعل يَقتل المحلّة منهم بعد المحلة حتَّى انتهى إلى فريق منهم فيهم خالته، وقد أكبَّت على ابنٍ لها وهو غلام حين احتلم، فقالت وأخرجتْ ثديَها إليه: أنشدك بَرحم هذا يا سلامة! فقال: لا والله، ما رأيتُ فضالة مذ أناخ بعُمر الشَّجرة ـ يعني أخاه ـ لتقومِنّ عنه، أو لأجْمَعنّ حافَّتكِ بالرّمح، فقامت عن ابنها عند ذلك فقَتَله.

قال أبو مِخنَف: فحدّثني المفضّل بن بكر من بني تَيْم بنِ شيبان أنّ شبيبا أقبل في أصحابه نحو رَاذانَ، فلمّا سمعتْ به طائفة من بني تَيم بنِ شيبانَ خرجوا هُرّابا منه، ومعهم ناس من غيرهم قليل، فأقبلوا حتى نزلوا دَير خرّازاد إلى جنب حَوْلا يا، وهم نحو من ثلاثةِ آلاف، وشبيب في نحو من سبعين رجلا أو يزيدون قليلا، فنزل بهم؛ فهابوه وتحصّنوا منه. ثمّ إنّ شبيبا سرَى في اثني عشرَ فارساً من أصحابه إلى أمه، وكانت في سَفْحٍ ساتيدَما نازِلةً في مَظلّة من مَظالّ الأعراب: فقال لآتينّ بأمّي فلأجعلنّها في عسكري فلا تفارقني أبداً حتَّى أموتَ أو تموت. وخرج رجلان من بني تَيم بن شيبانَ تخوَّفَا على أنفسِهما فنزلا من الدّير، فَلحقا بجماعة من قومهما وهم نُزول بالجالِ منهم على مسيرةِ ساعة من النهار، وخرج شَبيبٌ، في أولئك الرّهط في أوّلهم وهم اثنا عشر، يريد أمّه بالسفح، فإذا هو بجماعة من بني تَيْم بن شيبان غارّين في أموالهم مقيمين، لا يرَوْن أنّ شبيباً يمرّ بهم لمكانهم الّذي هم به، ولا يشعر بهم، فحمل عليهم في فرْسانه تلك، فقتل منهم ثلاثين شيخاً؛ فيهم حَوْثرةُ بنُ أسَد ووَبرة بن عاصم اللّذان كانا نَزَلا من الدَّير، فلحقا بالجبال، ومَضى شبيب إلى أمه فحملَها من السّفح، فأقبل بها، وأشرف رجلٌ من أصحاب الدّير من بكرِ بن وائل على أصحابِ شبيب، وقد استَخلف شبيب أخاه على أصحابه مصاد بن يزيد، ويقال لذلك الرّجلِ الّذي أشرف عليهم سلاّمُ بن حيان، فقال لهم: يا قوم، القرآن بيننا وبينكم، ألم تسمعوا قول الله: ﴿ وإنْ أَحَدٌ مِنَ الْمشركينَ اسْتَجَارَكَ فأجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾، قالوا: بلى، قال لهم: فكفّوا عنّا حتَّى نُصبح، ثمّ نخرج إليكم أمان لنا منكم، لكيلا تَعرِضوا لنا بشيء نكرهه حتَّى تَعرضوا علينا أمركم هذا، فإن نحن قَبلنا حُرمتْ عليكم أموالنا ودماؤنا، وكنَّا لكم إخواناً، وإن نحن لم نقبَله ردَدْتمونا إلى مأمَننا، ثمّ رأيتم رأيكم فيما بيننا وبينكم؛ قالوا لهم: فهذا لكم. فلما أصبحوا خرجوا إليهم، فعَرَض عليهم أصحابُ شبيب قولَهم، ووصفوا لهم أمرَهم، فقَبِلوا ذلك كلَّه، وخالطوهم، ونَزلوا إليهم، فدخل بعضُهم إلى بعض، وجاء شبيب وقد اصطلحوا، فأخبَره أصحابُه خبـرَهم، فقال: أصَبتم ووُفِّقتم وأحسنتم.

ثمّ إن شبيباً ارتحل فخرجت معه طائفة وأقامتْ طائفةٌ جانحة، وخرج يومئذ معه إبراهيمُ بن حَجَر المحلَّميّ أبو الصُّقَير كان مع بني تَيْم بن شيبان نازلاً فيهم، ومضى شبيب في أداني أرض المَوْصل وتُخُوم أرض جُوخَى، ثمّ ارتفع نحو أذرَبيجانَ، وأقبل سفيان بن أبي العالية الخَثْعميّ في خيل قد كان أمر أن يدخل بها طَبَرِسْتان، فأمِر بالقُفولِ، فأقبلَ راجعاً في نحو من ألف فارس، فصالح صاحب طَبَرستانَ.

قال أبو مخنف: فحدّثني عبدُ الله بنُ علقمة عن سفيان بن أبي العالية الخثعميّ أنّ كتاب الحجَّاج أتاه: أما

بعد، فسرْ حتَّى تنزل الدّسْكرة فيمن معك، ثمّ أقِم حتَّى يأتيَك جيشُ الحارث بن عميرة الهَمْدانيّ بن ذي المِشعار، وهو الَّذي قتَلَ صالحَ بن مسرّح وخيل المناظر، ثمّ سِرْ إلى شبيب حتّى تُناجزَه. فلمَّا أتاه الكِتابُ أقبَل حتَّى نزل الدّ سكرة، ونُوديَ في جيشِ الحارثِ بنِ عميرة بالكوفة والمَدائن: أنْ بَرِئت الذِّمّة من رجل من جيش الحارث بنِ عميرة لم يُواف سُفيان بن أبي العالية بالدّسْركة.

قال: فخرجوا حتَّى أتوه، وأتته خيلُ المناظر، وكانوا خمسمائة، عليهم سَوْرة بن أبْجَر التميميّ من بني أبَان بنِ دارم، فوافَوْه إلاّ نحواً من خمسين رجلا تخلّفوا عنه، وبعث إلى سُفيان بن أبي العالية ألاّ تبرح العسكَر حتَّى آتيَك. فعَجِل سفيانُ فارتحل في طلب شبيب، فَلحِقه بخانِقِين في سَفْح جبل على ميمنته خازمُ بن سُفيان الخثعميّ من بني عمرو بن شَهْران، وعلى ميسرته عديّ بن عميرة الشَّيبانيّ، وأصحَر لهم شبيب، ثم ارتفع عنهم حتَّى كأنَّه يكره لقاءه، وقد أكمن له أخاه مصاداً معه خمسون في هَزْم من الأرض.

فلمَّا رأوْه جَمع أصحابَه ثمَّ مضى في سفح الجبل مُشرّقاً فقالوا: هرب عدوّ الله فاتّبعوه، فقال لهم عديّ بن عميرة الشَّيبانيّ: أيّها الناس، لا تعجلوا عليهم حتَّى نَضرب في الأرض ونسير بها، فإن يكونوا قد أكمنوا لنا كميناً كنَّا قد حَذرْناه، وإلاّ فإنّ طلبهم لن يفوتنا. فلم يسمع منه الناس، وأسرعوا في آثارهم. فلمَّا رأى شبيب أنَّهم قد جازوا الكَمِينَ عَطَف عليهم.

ولما رأى الكَمينُ أن قد جاوَزُوهم خرَجوا إليهم، فحمل عليهم شبيب من أمامِهم، وصاح بهم الكمين مِن ورائهم، فلم يقاتلهم أحد، وكانت الهزيمة، فثبت ابنُ أبي العالية في نحو من مائتي رجل، فقاتلهم قتالا شديداً حسناً؛ حتَّى ظنّ أنَّه انتصف من شبيب وأصحابه. فقال سُويد بن سُليم لأصحابه: أمِنْكم أحد يَعرف أميرَ المؤمنين القوم ابنَ أبي العالية؟ فوالله لئن عَرَفْتُه لأجهدَنّ نفسي في قتْلِه، فقال شبيبُ: أنا مِن أعرَف الناس به، أما تَرَى صاحب الفرس الأغرّ الَّذي دونَه المُرامية! فإنَّه ذلك، فإن كنت تريدُه فأمهِلْه قليلاً. ثمّ قال: يا قعنب، اخرج في عشرين فأتهم من ورائهم، فخرج قعنب في عشرين فارتفع عليهم.

فلمَّا رأوه يريدُ أن يأتيَهم من ورائهم جعلوا يتنقّضون ويتسلّلون، وحمل سُوَيد بنُ سُليم على سُفيان بن أبي العالية فطاعنه، فلم تصنع رُمْحاهما شيئاً، ثم اضطربا بسيْفيهما ثمَّ اعتنق كل منهما صاحبه، فوقعا إلى الأرض يعتركان؛ ثم تحاجزوا وحمَلَ عليهم شبيب فانكشفوا، وأتى سُفيان غلامٌ له يقال له غَزْوان، فنزل عن بِرْذَونه، وقال: اركبْ يا مولاي، فَرَكب سفيان، وأحاط به أصحاب شبيب، فقاتَل دونَه غَزْوان فقُتل، وكانت معه رايتُه. وأقبل سُفيان بن أبي العالية حتّى انتهى إلى باب مَهْرُوذ، فنزل بها، وكتب إلى الحجَّاج:

أمَّا بعد، فإني أخبِر الأميرَ أصلَحه الله أني اتَّبعت هذه المارقةَ حتَّى لحِقتُهم بخانِقِين فقاتلتهم، فضرَب الله وجوههم، ونصرنا عليهم، فبينا نحن كذلك إذْ أتاهم قوم كانوا غُيَّبا عنهم، فَحَملوا على الناس فهزموهم، فنزلتُ في رجال من أهل الدّين والصّبر فقاتلتهم، حتَّى خررتُ بين القتلى، فَحُمِلت مرتثًّا، فأُتيَ بي بابل مهروذ، فها أنا بها والجند الَّذين وجَّههم إليّ الأمير وافَوا إلا سَوْرَةَ بن أبْجَر فإنه لم يأتني ولم يشهد معي حتّى إذا ما نزلت بابل مَهْروذ أتاني يقول ما لا أعرفُ، ويَعتذر بغير العُذْر. والسلام.

فلمَّا قرأ الحجَّاجُ الكتاب قال: مَنْ صنع كما صنع هذا، وأبلى كما أبلى فقد أحسن. ثم كتب إليه:

فأخذَها، ثمّ خرج يسيرُ في أرض جُوخَى، ثم مضىَ نحو تَكْريت، فبينا ذلك الْجُنْد في المدائن إذ أرجفَ الناسُ بينهم، فقالوا: هذا شبيب قد دَنَا، وهو يريد أن يبيِّت أَهْل المدائن اللَّيلة، فارتحَل عامَّة الجُنْد. فَلَحِقوا بالكوفة.

قال أبو مخنف: وحدّثني عبدُ الله بنُ عَلْقمة الخَثْعميّ، قال: والله لقد هربوا من المدائن وقالوا: نُبيِّتُ اللَّيلة،وإنّ شبيباً لبتكريت، قال: ولَّما قَدِم الفَلّ على الحَجّاج سرَّح الجَزْل بن سعيد بن شُرحبيل بن عَمرو الكنديّ.

قال أبو مخنف: حدّثنا النَّضر بنُ صالح العَبْسيّ وفُضيلُ بنُ خديج الكِنديّ أنّ الحجَّاج لَّما أتاه الفَلّ قال: قبح الله سَوْرة! ضَيَّع العسكر والجُنْد، وخرج يبيِّت الخَوارِج، أمَّا والله لأسُوءنَّه، وكان بعدُ قد حَبَسه ثمّ عَفَا عنه.

قال أبو مخنف: وحدّثني فَضيل بن خديج أنّ الحجَّاج دعا الجَزْل ـ وهو عثمان بنُ سعيد ـ فقال له: تيسر للخروج إلى هذه المارقة، فإذا لقيتَهم فلا تعجلْ عجلةَ الخَرِق، ولا تُحجِم إحجامَ الواني الفَرِق، هل فهمتَ؟ لله أنتَ يا أخا بني عمرو بن معاوية! فقال: نعم أصلَح الله الأمير قد فهمت؛ قال له: فاخرج فعسْكِر بديْر عبد الرحمن حتَّى يخرج إليك الناس، فقال: أصلَحَ الله الأمير! لا تبعثنَّ معي أحداً من أهل هذا الجُنْد المفلول المهزوم، فإن الرعب قد دخل قلوبَهم، وقد خشيتُ ألاّ ينفعك والمسلمين منهم أحد؛ قال له: فإنّ ذلك لك، ولا أراكَ إلاّ قد أحسنْتَ الرأي ووُفِّقتَ. ثمّ دعا أصحابَ الدّواوين فقال: اضربوا على الناس البَعْث، فأخرجوا أربعة آلاف من الناس، من كلّ رُبع ألف رجل، وعجّلوا ذلك، فجُمعت العُرفاء، وجلس أصحابُ الدّواوين، وضَربوا البعث فأخرجوا أربعةَ آلاف، فأمرهم بالعسكر فعَسْكروا، ثمَّ نودي فيهم بالرّحيل، ثم ارتحلوا ونادى منادي الحَجَّاج: أن بَرئت الذّمة من رجل أصبْناه من هذا البعث متخلِّفاً؛ قال: فمضى الجَزْل بنُ سعيد، وقد قدم بين يديه عياض بن أبي لينة الكِنْديّ على مُقدّمته، فخرج حتَّى أتى المدائنَ، فأقام بها ثلاثاً، وبعث إليه ابنُ أبي عُصَيْفير بفرس وبِرْذَوْن وبغلين وألفيْ درهم، ووضع للناس من الجزر والعلف ما كفاهم ثلاثة أيام حتّى ارتحلوا، فأصاب الناس ما شاؤوا من تلك الجزر والعَلَف الَّذي وَضَع لهم ابْنُ أبي عُصيْفير. ثمَّ إنّ الجزل بنَ سعيد خرج بالناس في أثر شبيب، فطَلَبه في أرض جُوخَى، فجعل شبيب يُريه الهيبة، فيَخرج من رُسْتاق إلى رُسْتاق، ومن طَسّوج إلى طَسّوج، ولا يقيم له إرادة أن يفرّق الجزل أصحابه، ويتعجَّل إليه فيلقاه في يسير من الناس على غير تعبية، فجعل الجَزْل لا يسير إلاّ على تعبية، ولا ينزل إلاّ خندق على نفسه خندقاً، فلمَّا طال ذلك على شبيب أمرَ أصحابه ذاتَ ليلة فسرَوْا.

قال أبو مخنف: فحدّثني فروة بن لَقيط أنّ شبيباً دعانا ونحن بدير بيرما ستون ومائة رجل، فجعل على كلّ أربعين من أصحابه رجلا، وهو في أربعين، وجعل أخاه مصاداً في أربعين، وبعث سُوَيد بن سُليم في أربعين، وبعث المحلَّل بن وائل في أربعين، وقد أتتْه عيونهُ فأخبرتْه أنّ الجزل بن سعيد قد نزل ديرَ يزدَجِرْد، قال: فدعانا عند ذلك فعبَّانا هذه التعبية، وأمرنا فعلَّقْنا على دوابنا، وقال لنا: تيسَّروا فإذا قضمتْ دوابُّكم فاركبوا،وليسر كلّ امرىء منكم مع أميره الَّذي أمَّرنا عليه، ولْينظر كل امرىء منكم ما يأمرُه أميرُه فليتَّبعه. ودعا أمراءنا فقال لهم: إني أريد أن أبيِّت هذا العسكرَ اللَّيلة، ثم قال لأخيه مصاد: إيتهم فارتفعْ من فوقهم حتَّى تأتيَهم من ورائهم من قِبَل حُلوان، وسآتيهم أنا من أمامي من قِبَل الكوفة، وأتِهم أنتَ يا سُوَيد من قِبَل المشرق، وأتِهم أنتَ يا

محلّل من قَبَل المغرب، ولْيَلِج كلّ امرىء منكم على الجانب الَّذي يَحمِل عليـه، ولا تُقلِعوا عنهم، تَحمِلون وتكرّون عليهم، وتصيحون بهم حتّى يأتيَكم أمري. فلم نزل على تلك التعبية، وكنتُ أنا في الأربعين الَّذين كانوا معه، حتى إذا قَضِمتْ دوابُّنا ـ وذلك أوّل اللّيل أوّلَ ما هدأت العيون ـ خرجْنـا حتى انتَهينا إلى دَيْـر الخرارة، فإذا للقوم مَسلَحة، عليهم عِياض بن أبي لينة، فما هو إلّا أن انتهَينا إليهم، فحمَلَ عليهم مصاد أخو شبيب في أربعين رجلا، وكان أمام شبيب، وقد كان أراد أن يَسبِق شبيبـاً حتّى يرتفـع عليهم ويأتيهم من ورائهـم كما أمره، فلمّا لقيَ هؤلاء قاتَلهم فصبروا ساعةً، وقاتلوهم. ثمّ إنّا دفعنا إليهم جميعاً، فحَمَلْنا عليهم فهزمناهم، وأخذوا الطريق الأعظم، وليس بينهم وبين عسكرهم بدَيْر يَزْدَجِرد إلّا قَريب من مِيل. فقال لنا شبيب: اركبوا معاشر المسلمين أكتافهم حتّى تَدخُلوا معهم عسكرَهم إن استطعتم؛ فاتّبعناهم والله مُلظِّين بهم، ملحِّين عليهم، ما نرفّه عنهم وهم منهزمون، ما لهم همّة إلّا عسكرهم، فانتهوا إلى عسكرهم، ومنعهم أصحابُهم أن يدخُلوا عليهم، ورَشَقونا بالنَّبْل، وكانت عيون لهم قد أتَتْهم فأخبرتْهم بمكاننا، وكان الجَزْل قد خندق عليه، وتحرّز ووضع هذه المسلحة الَّذين لقِيناهم بدَيْر الخَرّارة، ووَضَع مسلحةً أخرى ممّا يلي حُلوان على الطريق، فلمّا أن دفعنا إلى هذه المسلَحة التي كانت بدَيْر الخرّارة فألحقْناهم بعسكر جماعتهم ورجعت المسالح الأخر حتى اجتمعت، ومنعها أهل العسكر دخول العسكر وقالوا لهم: قاتِلوا، وانضحوا عنكم بالنَّبل.

قال أبو مخنف: وحدّثني جَرير بن الحسين الكنديّ، قال: كان على المَسلحَتينْ الأخْرَيَيْن عاصمُ بنُ حجر على الَّتي تلي حُلْوان، وواصلُ بنُ الحارث السَّكونيّ على الأخرى. فلمّا أن اجتمعت المَسالحُ جَعل شبيبٌ يَحْمل عليها حتّى اضطرّها إلى الخندقَ، ورَشَقَهم أهلُ العسكر بالنَّبل حتّى ردّوهم عنهم. فلمّا رأى شبيب أنّه لا يصل إليهم قال لأصحابـه: سِيروا وَدَعُوهم، فمضى على الطريق نحو حُلْوان حتّى إذا كان قريباً من موضع قِباب حسين بن زُفَر من بني بَدْر بن فزارة ـ وإنّما كانت قبابُ حُسين بن زُفَر بعد ذلك ـ قال: لأصحابه: انزلوا فاقضِموا وأصلِحوا نَبَلكم وتروّحوا وَصَلّوا ركعتين، ثمّ اركبوا؛ فنزلوا ففعلوا ذلك. ثمّ إنّه أقبل بهم راجعاً إلى عسكر أهل الكوفة أيضاً، وقال: سِيروا على تعبيَتِكم الَّتي عبّأتكم عليها بدير بيرما أوّل الليل، ثمّ أطِيفوا بعسكرهم كما امرتكم، فأقبلوا. قال: فأقبَلْنا معه وقد أدخل أهلُ العسكر مَسالحهم إليهم، وقد أمّنونا فما شعروا حتى سمعوا وَقع حَوافِر خيولنا قريباً منهم، فانتهينا إليهم قُبيلَ الصّبح فأحَطْنا بعسكـرهم، ثم صيّحنا بهم من من كـلّ جانب، فإذا هم يُقاتلوننا من كلّ جانب، ويرموننا بالنَّبل. ثم إنّ شبيبـا بعث إلى أخيه مصاد وهو يقاتلهم من نحو الكوفة أنْ أقبِل إلينا وخلِّ لهم سبيل الطريق إلى الكوفة فأقبل إليه، وترك ذلك الوجه، وجعلنا نقاتلهم من تلك الوجوه الثلاثة؛ حتّى أصبحْنا، فأصبحنا ولم نستفلّ منهم شيئاً، فسرنا وتركناهم، فجعلوا يصيحون بنا: أين يا كلاب النار! أينَ أيَّتها العصابة المارقة! أصبِحوا نخرجْ إليكم، فارتفعنا عنهم نحواً من مِيل ونصف، ثم نزلْنا فصلّينا الغَداةَ، ثمّ أخذْنا الطريق على براز الرُّوز، ثمّ مَضينا إلى جَرجَرايا وما يليها، فأقبلوا في طلبنا.

قال أبو مخنف: فحدّثني مولى لنا يُدَعى غاضرة أو قيصر، قال: كنت مع الناس تاجراً وهم في طلب الـ[حرو]ريّة، وعلينا الجَزْل بنُ سعيد، فجعل يتبعهم فلا يسيرإلّا على تعبية، ولا يَنزل إلّا على خندق، وكان شبيبٌ يَدعه ويَضرب في أرض جُوخَى وغيرها يكسر الخَراج، وطال ذلك على الحجّاج، فكتب إليه كتاباً، فقرىء على الناس:

أما بعد، فإني بعثتُك في فرسان أهل المِصر ووجوه الناس، وأمرتُك بإتباع هذه المارقة الضّالة المُضلَّة حتّى تلقاها، فلا تُقلِع عنها حتّى تَقتلها وتُفنيها؛ فوجدتَ التعريسَ في القُرَى والتَّخييمَ في الخَنادق أهوَن عليك من المُضيّ لما أمرتك به من مناهَضتهم ومناجَزتِهم. والسَّلام.

فقرىء الكتابُ علينا ونحن بقطراثا ودَيْر أبي مَرْيم، فشَقّ ذلك على الجَزْل، وأمَر الناسَ بالسَّير، فخرجوا في طلب الخوارج جادّين، وأرجَفنا بأميرنا وقلنا: يُعزَل.

قال أبو مخنف: فحدّثني إسماعيلُ بنُ نعيم الهَمْدانيّ ثمّ البُرسميّ أنّ الحجّاج بعثَ سعيد بنَ المجالد على ذلك الجيش، وعَهِد إليه إن لقيتَ المارقةَ فازحفْ إليهم ولا تُناظرْهم ولا تُطاولْهم وواقِفْهم واستَعِن بالله عليهم، ولا تصنع صنيع الجَزْل، واطلبهم طلبَ السَّبع، وحِدْ عنهم حَيدَان الضَّبع وأقبل الجَزْل في طلب شبيب حتّى انتهوا إلى النَّهْروان فأدركوه فلزم عسكرَه، وخندق عليه. وجاء إليه سعيدُ بن المجالد حتّى دخل عسكرَ أهل الكوفة أميراً، فقام فيهم خطيباً فحمِد الله وأثْنَى عليه ثمّ قال:

يا أهلَ الكوفة، إنّكم قـد عجزتم ووَهَنتمْ وأغضَبتم عليكم أمِيـرَكم. أنتم في طلب هذه الأعـاريب العُجْف منذ شهرين، وهم قد خرّبوا بلادكم، وكسروا خراجكم، وأنتم حاذرون في جَوْف هذه الخَنادق لا تزايلونها إلّا أن يَبلُغَكم أنّهم قد ارتَحَلوا عنكم، ونزلوا بلداً سِوى بلدكم، فاخرجوا على اسم الله إليهم.

فخرج وأخرج الناس معه، وجمع إليه خيول أهل العسكر، فقال له الجزل: ما تريد أن تصنع؟ قال: أريد أن أقدم على شبيب في هذه الخيل، فقال له الجَزْل: أقِمْ أنت في جماعة الجيش؛ فـارِسِهم وراجلهم، وأصحِرْ له؛ فوالله ليقدمنّ عليك، فلا تُفرِّق أصحابك؛ فإنّ ذلك شرّ لهم وخيرٌ لك. فقال له: قف أنت في الصّف، فقال: يا سعيد بن مجالد، ليس لي فيما صنعتَ رأي، أنا بريءٌ من رأيك هذا، سَمِع اللهُ ومَن حضر من المسلمين. فقال: هو رأيي إن أصبتُ؛ فالله وفَّقني له، وإن يكن غيرَ صواب فأنتم منه بُراء، قال: فوقف الجَزل في صفّ أهل الكوفة وقد أخرجهم من الخندق، وجعل على ميمنتهم عياض بن أبي لينة الكِنْديّ، وعلى ميسرتِهم عبد الرحمن بن عوف أبا حُميد الرّواسيّ، ووَقف الجزل في جماعتهم واستقدم سعيد بن مجالد، فخرج وأخرج الناسَ معه، وقد أخذ شبيبُ إلى بَرَاز الرُّوز، فنزل قَطِيطِيا، وأمر دهْقَانَها أن يشتريَ لهم ما يُصلحهم، ويتّخذ لهم غَداءً، ففعل، ودخل مدينة قِطيطِيا وأمر بالباب فأغلِق، فلم يَفرغ من الغداء حتى أتاه سعيد بنُ مجالد في أهل ذلك العسكر، فصعد الدّهقان السور فنظر إلى الجُنْد مقبلين قد دنَوا من حِصْنه، فنزل وقد تغيَّر لونُه، فقال له شبيب: مالي أراك متغيِّر اللون! فقال له الدّهقان: قد جاءتك الجنود من كلّ ناحية، قال: لا بأس، هل أدرَك غداؤنا؟ قال: نعم، قال: فقرِّبْه، وقد أغلَق الباب، وأُتيَ بالغداء، فتغدَّى وتوضّأ وصلّى ركعتين، ثمّ دعا ببغل له فركبه.

ثمّ إنّهم اجتمعوا على باب المدينة، فأمر بالباب فَفُتح، ثمّ خرج على بغله فحملَ عليهم. وقال: لا حكمَ إلّا للحَكَم الحكيم، أنا أبو مدله، اثبتوا إن شئتم. وجعل سعيد يجمّع قومه وخيلَه، ويُزلفها في أثره، ويقول: ما هؤلاء! إنّمـا هم أكلَةُ رأس، فلمّا رآهم شبيب قد تقـطّعوا وانتشـروا لفَّ خيله كلّها، ثمّ جمعهـا، ثم قال: استعرضوهم استعراضاً، وانظروا إلى أميرهم، فوالله لأقتلنّه أو يقتلني. وحَمل عليهم مستعرضاً لهم، فهَزَمهم وثبت سعيد بن المجالد، ثمّ نادى أصحابه: إليّ إليّ، أنا ابن ذي مُرّان! وأخذ قَلَنْسُوتَه فوضعها على قَرَبوس

سَرْجه، وحَمَل عليه شبيب فعمَّمه بالسيف، فخالط دماغَه، فخرّ ميتاً، وانهزم ذلك الجيش، وقتِلوا كلّ قِتْلة، حتّى انتهوا إلى الجَزْل، ونزل الجزل ونادى: أيها النّاس، إليّ. وناداهم عِياضُ بن أبي لينة: أيها الناس، إن كان أميركم القادم قد هَلَك فأميركم الميمونُ النَّقيبة المبارك حيٌّ لم يَمت، فقاتل الجزل قِتالا شديداً حتّى حُمِل من بين القتلَى، فحُمل إلى المدائن مرْتثًا، وقَدم فلّ أهل ذلك العسكر الكوفة، وكان من أشدّ الناس بلاءً يومئذ خالدُ بن نَهيك من بني ذُهْل بن معاوية وعياض بن أبي لِينة، حتى استنقذاه وهو مرَتَثّ. هذا حديثُ طائفة من الناس، والحديث الآخرُ قتالهم فيما بين دَيْر أبي مريم إلى بَراز الرّوز. ثمّ إنّ الجَزْل كتب إلى الحجّاج.

قال: وأقبَل شبيب حتّى قَطع دجْلة عند الكَرْخ، وبعث إلى سوق بغداد فآمنهم، وذلك اليوم يوم سُوقهم، وكان بلغه أنّهم يخافونه، فأحَبّ أن يؤمنهم، وكان أصحابهُ يريدون أن يشتروا من السوق دوابّ وثيابا وأشياءَ ليس لهم منها بُدّ، ثمّ أخذ بهم نحو الكوفة، وساروا أول الليل حتّى نزلوا عُقْر المَلِك الّذي يلي قصر ابن هُبَيرة. ثمّ أغذَّ السَّيرَ من الغد، فبات بين حَمّام عمر بن سعيد وبين قُبِّينَ. فلمّا بلغ الحجّاج مكانه بعث إلى سُوَيد بن عبد الرحمن السعديّ، فبعثه في ألفيْ فارس نقاوة، وقال له: اخرجْ إلى شبيب فالقه، واجعل ميمنةً ومَيسرة، ثمَّ انزل إليه في الرّجال فإن استطرد ذلك فدعه ولا تتبعه. فخرج فعسكر بالسَّبخة، فبلغه أنّ شبيباً قد أقبل، فأقبل نحوه وكأنّما يساقُون إلى الموت، وأمر الحجّاج عثمان بن قَطن فعسكَر بالناس بالسَّبَخة، ونادى: ألا بَرئت الذِّمَّة من رجل من هذا الجند باتَ اللَّية بالكوفة لم يَخرُج إلى عثمان بن قَطَن بالسَّبَخة! وأمر سُوَيد بن عبد الرحمن أن يسيرَ في الألفين اللّذين معه حتّى يلقى شبيباً فعبَر بأصحابه إلى زُرَارة وهو يعبِّئهم ويحرّضهم إذ قيل له: قد غشيَك شبيب، فنزل ونزل معه جُلُّ أصحابه، وقَدَّم رايتَه ومضى إلى أقصى زُرارة، فأخبِر أن شبيباً قد أخبر بمكانك فتركك، ووجد مخاضةً فعبر الفُرات وهو يريد الكوفة من غير الوجه الّذي أنت به. ثم قيل له: أما تراهم! فنادى: في أصحابه، فركبوا في آثارهم.

وإنّ شبيباً أتى دارَ الرّزق، فنزَلها، فقيل: إن أهل الكوفة بأجمعهم معسكرون بالسَّبَخة، فلمّا بلغهم مكانُ شبيب صاح بعضهم ببعض وجالوا، وهَمّوا أن يَدخلوا بالكوفة حتّى قيل لهم: إنّ سويد بن عبد الرحمن في آثارهم قد لحقهم وهو يقاتِلُهم في الخيل.

قال هشام: وأخبرَني عمرُ بنَ بشير، قال: لمّا نزل شبيب الدير أمر بغنَم تُهيَّأ له، فصَعِد الدّهقان، ثمّ نزل وقد تغيّر لونُه، فقال: ما لك! قال: قد والله جاءك جمعٌ كثير؛ قال: أبلَغ الشِّواءُ بعدُ؟ قال: لا، قال: دَعْه. قال: ثمّ أشرف إشرافةً أخرى، فقال: قد والله أحاطُوا بالجَوْسق، قال: هات شِواءَك، فجعل يأكل غير مكترِث لهم، فلما فرغ توضّأ وصلّى بأصحابه الأولى، ثمّ تقلّد سَيفين بعد ما لبس درْعه، وأخذ عمود حديد ثمّ قال: أسرجوا لي البغلة، فقال أخوه مصاد: أفي هذا اليوم تُسرَّج بغلة! قال: نعم أسرجوها، فركبها، ثم قال: يا فلان، أنت على المَيْمَنة وأنت يا فلان على الميسرة، وقال لمصاد: أنت في القلب، وأمر الدّهْقان ففتح الباب في وجوههم. قال: فخرج إليهم وهو يحكّم، فجعل سعيد وأصحابه يرجعون القَهقَرى حتّى صار بينهم وبين الدَّير نحوٌ من مِيل. قال: وجعل سعيد يقول: يا معشر هَمْدان، أنا ابن ذي مُرّان، إليّ إليّ. ووجّه سِرْبا مع ابنه وقد أحسّ أنّها تكون عليه، فنظَر شبيب إلى مصاد فقال: أثكَلَنيك الله إنْ لم أثكله وَلده. قال: ثمّ علاه بالعَمود، فَسَقَطَ ميتاً، وانهزم أصحابُه وما قُتِل بينهم يومئذ إلاّ قتيل واحد. قال: وانكشف أصحابُ سعيد بن مجالد حتّى أتَوا بالجَزْل، فناداهم الجزل: أيها الناس، إليّ إليّ. وناداهم عِياض بنُ أبي لينة: أيها الناس، إنْ يكن أميرُكم

هذا القادمُ قد هلك فهذا أميرُكم الميمون النقيبة، أقبِلوا إليه، وقَاتِلوا معه؛ فمنهم من أقبل إليه، ومنهم من ركب رأسَه منهزماً، وقاتل الجَزْلُ قتالا شديداً حتّى صُرع، وقاتل عنه خالدُ بن نهيك وعياض بن أبي لِينة حتّى استنقَذاه وهو مُرْتَثٌ، وأقبَل الناسُ منهزمين حتّى دخلوا الكوفة، فأتِي بالجَزْل حتى أدخِل المدائن، وكُتب إلى الحجّاج بن يوسف.

قال أبو مِخْنَف: حدّثني بذلك ثابتٌ مولى زُهير:

أمّا بعد، فإني أخبر الأمير أصلَحه الله أني خرجت فيمن قِبَلي من الجند الّذي وجّهني إلى عدوّه، وقد كنت حفظتُ عهدَ الأمير إليّ فيهم ورأيَه، فكنتُ أخرجُ إليهم إذا رأيت الفُرْصة، وأحبِس الناس عنهم إذا خشيت الوَرْطة، فلم أزل كذلك، ولقد أرادني العدوّ بكلّ رِيدة فلم يُصِب منّي غِرّةً، حتّى قدم عليّ سعيدُ بن مجالد رحمة الله عليه، ولقد أمرته بالتؤدَة، ونهيته عن العَجلة، وأمرتُه ألّا يقاتلهم إلّا في جماعة الناس عامّةً، فعصاني، وتعجّل إليهم في الخيل، فأشهدتُ عليه أهل المِصْرَيْن أنّي بريء من رأيه الّذي رأى، وأني لا أهوى ما صَنع. فمضى فأصيب تجاوز الله عنه، ودُفِع النـاسُ إليّ، فنزلتُ ودعـوتُهم إليّ، ورفعتُ لهم رايَتي، وقاتلتُ حتّى صُرعتُ، فحملني أصحابي من بين القَتلى، فما أفقت إلّا وأنا على أيديهم على رأس مِيل من المعركة، فأنا اليومَ بالمدائن في جراحة قد يموت الرجلُ من دونها ويُعافَى مِن مِثلها. فليسال الأمير أصلحه الله عن نصيحتي له ولجنده، وعن مكايدتي عدوّه، وعن موقفي يومَ البأس، فإنه يستبين له عند ذلك أني قد صَدقته ونصحتُ له. والسلام.

فكتب إليه الحجّاج:

أمّا بعد، فقد أتاني كتابُك وقرأته، وفهمتُ كلَّ ما ذكرتَ فيه، وقد صدّقتُك في كلّ ما وصفتَ به نفسَك من نصيحتك لأميرك، وَحيْطتِك على أهلِ مصْرك، وشدّتك على عدوّك، وقد فهمتُ ما ذكرتَ من أمر سعيد وعجلته إلى عدوّه، فقد رضيتُ عَجَلتَه وتُؤَدَتك، فأمّا عجلته فإنها أفضت به إلى الجنّة، وأمّا تُؤَدَتُك فإنّها لم تَدَع الفرصة إذا أمكنتْ، وترْكُ الفرصة إذا لم تُمكِن حَزْمٌ، وقد أصبتَ وأحسنتَ البلاء، وأجِرْتَ، وأنتَ عندي من أهل السمع والطاعة والنّصيحة، وقد أشخصتُ إليك حيَّان بن أبجر ليداويَك ويعالجَ جِراحتَك، وبعثتُ إليك بألفَيْ درهم فأنفِقْها في حاجتك وما ينوبُك. والسلام.

فقدم عليه حَيَّان بن أبجر الكناني من بني فراس ـ وهم يعالِجون الكَيَّ وغيرَه ـ فكان يداويه، وبعث إليه عبد اللّه بن أبي عُصَيفير بألف درهم، وكان يعوده ويتعاهدُه باللُّطَف والهديَّة ـ قال: وأقبل شبيب نحو المدائن؛ فعلم أنَّه لا سبيل له إلى أهلها مع المدينة، فأقبل حتَّى انتهَى إلى الكرْخ، فعبر دجلة إليه، وبعث إلى أهل سُوق بَغْداد وهو بالكَرْخِ أن أثبتوا في سُوقكم فلا بأس عليكم ـ وكان ذلك يوم سوقهم ـ وقد كان بلغه أنَّهم يخافونه. قال: ويَخرُج سُويد حتَّى جعل بيوتَ مُزَينة وبني سُلَيم في ظهره وظهور أصحابه، وحمل عليهم شبيب حملةً منكرة، وذلك عند المساء، فلم يقدِر منهم على شيء، فأخذ على بيوت الكُوفة نحو الحِيرة، وأتبعه سُويد لا يفارقه حتَّى قطع بيوتَ الكوفة كلَّها إلى الحِيرة، وأتبعه سُوَيد حتى انتهى إلى الحيرة، فيَجِده قد قَطَع قنطرَة الحِيرة ذاهباً، فتَرَكه وأقام حتى أصبح، وبعث إليه الحجَّاج أن أتبعه فأتبعه، ومَضى شبيب حتَّى أغار في أسفل الفُرات على من وجد من قَوْمه، وارتفع في البرّ من وراء خَفَّان في أرض يقال لها الغلطة، فيصيب رجالاً من بني الورْثة،

فحَمَل عليهم، فاضطرّهم إلى جَدَد من الأرض، فجعلوا يَرْمونه وأصحابَه بالحجارة من حجارة الأرجاء كانت حولَهم، فلَمّا نَفِدَت وصل إليهم فقتل منهم ثلاثةَ عشر رجلاً، منهم حنظلة بن مالك ومالك بن حنظلة وحمران بن مالك؛ كلّهم من بني الورْثة.

قال أبو مخنف: حدّثني بذلك عطاءُ بن عَرْفَجة بن زياد بن عبد الله الوِرثيّ. ومضى شبيب حتّى يأتي بني أبيه على اللصف (ماءٌ لرَهطه) وعلى ذلك الماء الفزر بن الأسود، وهو أحد بني الصَّلت، وهو الّذي كان يَنهى شبيباً عن رأيه، وأن يُفسِد بني عمه وقومه، فكان شبيب يقول: والله لئن ملكتُ سبعةَ أعنَّة لأغزُوَنّ الفِزْر. فلمّا غشيَهم شبيب في الخيل سأل عن الفِزْر فاتّقاه الفِزْر، فخرج على فرس لا تُجارَى من وراء البيوت، فذهب عليها في الأرض، وهرب منه الرجال، ورجع وقد أخاف أهلَ البادية حتّى أخذ على القُطقُطانة، ثم على قصر مُقاتِل، ثم أخذ على شاطىء الفُرات حتّى أخذ على الحَصّاصة، ثم على الانبار، ثم مضى حتّى دخلَ دقُوقاء، ثم ارتفع إلى أداني آذربيجان. فترَكه الحجّاج وخرج إلى البَصْرة، واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة، فما شعر الناس بشيء حتّى جاء كتابٌ من ماذرواسب دِهقان بابل مَهْرُوذ وعظيمها إلى عروة بن المغيرة ابن شُعْبة أنّ تاجراً من تجّار الأنْبار من أهل بلادي أتاني فذَكَر أن شبيباً يريد أن يدخُل الكوفة في أول هذا الشهر المستقبل، أحببتُ إعلامَك ذلك لترَى رأيك، ثمّ لم ألبث إلّا ساعةً حتّى جاءني جابيان من جُباتي فحدّثاني أنّه قد نزل خانِيجار. فأخذ عروة كتابَه فأدْرجَه وسَرّح به إلى الحجّاج بالبصرة، فلمّا قرأه الحجّاج أقبل جواداً إلى الكُوفة، وأقبل شبيب يسيرُ حتّى انتهى إلى قرية يقال لها حَرْبى على شاطىء دجْلة فعبر منها، فقال: ما اسمُ هذه القرية؟ فقالوا: حَرْبَى، فقال: حرْب يَصْلَى بها عدوّكم، وحرَب تُدخِلونه بيُوتهم، إنّما يتطيَّر من يَقُوف ويَعيف، ثم ضرب رايتَه وقال لأصحابه: سيروا، فأقبَل حتّى نزل عَقَرقُوفَا، فقال له سُويد بن سُليم: يا أميرَ المؤمنين، لو تحولتَ بنا من هذه القرية المشؤومة، الاسم! قال: وقد تطيَّرت أيضاً! والله لا أتحوّل عنها حتّى أسيرَ إلى عدوّي منها، إنّما شؤمُها إن شاء الله على عدّوكم تحمِلون عليهم فيها، فالعَقْر لهم.

ثم قال لأصحابه: يا هؤلاء، إن الحجّاج ليس بالكوفة، وليس دون الكوفة إن شاء الله شيءٌ، فسيروا بنا. فخرج يُبادِر الحجّاج إلى الكوفة، وكتب عُروةُ إلى الحجّاج أن شبيبا قد أقبل مسرعاً يريد الكوفة، فالعجلَ العجلَ. فطوى الحجّاج المنازل، واستبَقا إلى الكوفة، ونزلها الحجّاج صلاةَ الظهر، ونزل شبيبٌ السَّبَخة صلاةَ المغرب، فصلَّى المغرب والعِشاء، ثم أصاب هو وأصحابه من الطّعام شيئاً يسيراً، ثم ركبوا خيولهم فدخلوا الكوفة، فجاء شبيب حتّى انتهى الى السوق، ثم شدّ حتى ضربَ بابَ القصر بعموده.

قال أبو المنذر: رأيت ضربَة شبيب بباب القصر قد أثّرت أثراً عظيماً، ثم أقبل حتّى وقف عند المَصْطبة، ثم قال:

وكأنَّ حافِرَها بكلِّ خَمِيلَةٍ ... كَيْلُ يَكِيلُ به شَحِيحٌ مُعْدِمُ
عَبْدٌ دَعِيٌّ من ثمودٍ أصلُه ... لا بل يُقال أبُو أبيهمْ يَقْدُمُ

ثم اقتَحموا المسجد الأعظم وكان كبيراً لا يفارقه قومٌ يصلّون فيه، فقَتل عقيلَ بن مصعب الوداعي وعديّ بن عمرو الثّقفيّ وأبا لَيْث بن أبي سُلَيم مولى عَنْبسة بن أبي سُفْيان، وقتلوا أزهرَ بن عبد الله العامري، ومَروا بدار حَوْشب وهو على الشُّرط فوقفوا على بابه وقالوا: إنّ الامير يدعو حَوْشبا، فأخرج ميمون غلامه بِرْذَونَ حَوْشب ليركبه حَوشب، فكأنّه أنكرهم فظنُّوا أنَّه قد اتّهمهم، فأراد أن يدخل، فقالوا له: كما أنت،

حتَّى يَخْرُج صاحبُك . فسمع حَوْشب الكلامَ ، فأنكَر القوم ، فخرج إليهم ، فلمّا رأى جماعتَهم انكرَهم ، وذهب لينصرِف فعجَّلوا نحوه ، ودخل وأغلَق الباب ، وقتلوا غلامَه ميموناً ، وأخذوا بِرْذَونه ومَضوا حتى مرّوا بالجحَّاف بن نبيط الشَّيْباني من رَهْط حَوشب ، فقال له سويد : انزلْ إلينا ، فقال له : ما تصنع بنُزولي ! قال له سويد : أقضيك ثمن البكْرة الَّتي كنتُ ابتعتُ منك بالبادية ، فقال له الجحّاف : بئس ساعةُ القَضاء هـذه الساعة ، وبئس قَضاءُ الدَّين هذا المكان ! أما ذكرتَ أمانتَك إلاّ واللَّيل مظلم ، وأنت على ظهر فرسِك ! قبَّح اللهُ يا سويد دينا لا يَصلُح ولا يتمّ إلا بقتل ذوي القَرابة وسفك دماء هذه الأمَّة .

قال : ثم مضَوا فمرّوا بمسجد بني ذهل فلقوا ذُهل بن الحارث ، وكان يصلِّي في مسجد قومه فيُطيلُ الصلاة ، فصادفوه منصرفاً إلى منزله ، فشدّوا عليه ليقتُلوه ، فقال : اللهمَّ إني أشكو إليك هؤلاء وظلمَهم وجَهلَهم . اللَّهم إني عنهم ضعيف ، فانتصرْ لي منهم ! فضربوه حتَّى قتلوه ، ثم مضَوا حتَّى خرجوا من الكوفة متوجِّهين نحو المردَمة .

قال هِشام : قال أبو بكر بنُ عَيَّاش : واستقبلَه النَّضرُ بنُ قَعقاع بن شور الذهْلي ، وأمّه ناجيـة بنت هانىء بن قبيصة بن هانىء الشَّيباني فأبطَره حين نظر إليه ـ قال : يعني بقوله : « أبطَرَه » أفزعه ـ فقال : السلام عليكَ أيها الأمير ورحمة اللهِ ، قال له سويد مبادراً : أميرَ المؤمنين ، وَيْلكَ ! فقال : أمير المؤمنين . حتَّى خرجوا من الكوفة متوجِّهين نحو المردمة ، وأمر الحجَّاج المنادي فنادى : يا خيلَ الله ارْكبي وأبْشِري ، وهو فوق بابِ القَصْر ،وثمَّ مصباحٌ مع غلام له قائم ، فكان أوّل من جاء إليه من الناس عثمان بن قَطَن بن عبد اللهِ بن الحصين ذي الغُصّة ، ومعه مواليه ، وناس من أهله ، فقال : أنا عثمان بن قَطَن ، أعلموا الأمير مكاني فليأمر بأمره ، فقال له ذلك الغلام : قفْ مكانك حتَّى يأتيَك أمرُ الأمير ، وجاء الناسُ من كلّ جانب ، وبات عثمانُ فيمن اجتمع إليه من الناس حتَّى أصبح .

ثم إن الحجَّاج بعث بُسْرَ بن غالب الأسَديّ من بني والبة في ألفي رجل ، وزائدة بن قدامةَ الثقفي في ألفيْ رجل ، وأبا الضريس مولى بني تميم في ألف من الموالي ، وأعْينَ ـ صاحب حمّام أعينَ مَولى بِشْر بن مروان ـ في ألف رجل ، وكان عبد الملك بن مروان قد بعث محمَّد بن موسى بن طلحة على سِجِسْتان ، وكتب له عليها عهده ، وكتب إلى الحجَّاج : امَّا بعد ، فإذا قدم عليك محمد بن موسى فجهِّز معه ألفَي رجل إلى سِجِسْتان ، وعجِّل سَراحه . وأمرَ عبد الملك محمَّد بن موسى بمكاتبة الحجّاج ، فلمّا قدم محمَّد بن موسى جعل يتحبَّس في الجهاز ، فقال له نصحاؤه : تعجَّل أيها الامير إلى عَمَلك ، فإنَّك لا تَدري ما يكون من أمر الحجَّاج ! وما يبدو له . فأقام على حالِه ، وحدَث من أمر شبيب ما حدثَ ، فقال الحجَّاج لمحمَّد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله : تلقى شبيباً وهذه الخارجةَ فتجاهِدْهم ثم تَمضِي إلى عملك ، وبعث الحجَّاج مع هؤلاء الأمَراء أيضاً عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر بن كُرَيز القُرَشيّ وزياد بن عمرو العَتَكيّ ، وخرج شبيبٌ حيث خرج من الكوفة ، فأتى المردمة وبها رجل من حضرَ مَوْت على العُشور يقال له ناجية بن مَرْثد الحضرمي ، فدخل الحمَّام ودخل عليه شبيب فاستحرجه فضرب عنقه ، واستقبل شبيب النضر بن القَعْقاع بن شَوْر ـ وكان مع الحجَّاج حين أقبل من البصرة ، فلمَّا طوى الحجَّاج المنازل خلَّفه وراءه ـ فلما رآه شبيب ومعه أصحابه عرفه ، فقال له شبيب : يا نضر بن القَعْقَاع ، لا حُكم إلاّ لله ـ وإنَّما أراد شبيب بمقالته له تَلقِينَه فلم يفهم النَّضر ـ فقال ﴿إنَّا لله وإنَّا إليْهِ راجعون﴾ ، فقال أصحاب شبيب : يا أمير المؤمنين ، كأنَّكَ إنَّما تريد بمقالتك أن تلقَّنه فشدّوا على نضر فقتَلوه .

قال: واجتمعتْ تلك الأمراء في أسفل الفرات، فترك شبيب الوجهَ الذي فيه جماعة أولئك القوّاد، وأخذ نحو القادسيَّة، ووجَّه الحجَّاج زَحْر بن قيس في جَريدة خيل نقاوة ألف وثمانمائة فارس، وقال له: أتْبع شبيباً حتى تواقعَه حيثما أدركْتَه، إلاّ أن يكون منطلقاً ذاهباً فاتركه ما لم يعطف عليك أو ينزل فيقيم لك، فلا تبرحْ إن هو أقام حتَّى تواقعه، فخرج زَحْر حتى انتهى إلى السَّيْلحِين، وبلغ شبيباً مَسيرُه إليه، فأقبل نحوه فالتَقيَا، فجَعل زَحْر على ميمنته عبدالله بن كَنَّاز النَّهدي، وكان شجاعاً، وعلى ميسرته عديّ بن عديّ بن عميرة الكنديّ الشيبانيّ، وجمع شبيب خيلَه كلَّها كَبْكَبةً واحدة، ثمّ اعترض بها الصفَّ، فوجف وجيفا، واضطرب حتَّى انتهى إلى زَحْر بن قيس، فنزل زَحْر بن قيس، فقاتل زَحْر حتَّى صُرع، وانهزم أصحابُه، وظَنّ القومُ أنَّهم قد قتلوه، فلما كان في السَّحَر وأصابَه البرد قام يتمشّى حتَّى دخل قريةً فبات بها، وحُمل منها إلى الكوفة وبوَجْهه ورأسِه بضعةَ عشر جراحة ما بين ضربة وطعنة، فمكث أيَّاماً، ثمّ أتى الحجَّاج وعلى وجْهه وجراحه القُطن، فأجْلسه الحجَّاج معه على السَّرير، وقال لمن حوله: مَن سَرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنَّةِ يمشي بين الناس وهو شَهيد فلينظْر إلى هذا. وقال أصحاب شبيب لشبيب وهم يظنّون أنَّهم قد قتلوا زَحْراً: قد هزمنا لهم جُنْداً، وقَتَلنا لهم أميراً من أمرائهم عظيماً، انصرفْ بنا الآن وافرين، فقال لهم: إنّ قتلنا هذا الرجل، وهزيمتنا هذا الجند، قد أرْعبتْ هذه الأمراء والجنود التي بُعثَتْ في طلبكم، فاقصِدوا بنا قصدَهم فوالله لئن نحن قتلناهم ما دون الحجَّاج من شيء واخْذ الكوفة إن شاء الله. فقالوا: نحن لرأيك سمع تَبع، ونحن طوع يديك.

قال: فانقضّ بهم جواداً حتَّى يأتي نَجْران ـ وهي نَجْران الكوفة ناحية عَيْن التَّمر ـ ثمّ سأل عن جماعة القوم فخُبّر باجتماعهم برُوذبار في أسفل الفُرات في بِهْقُباذ الأسفل، على رأس أربعة وعشرين فرسخاً من الكُوفة. فبلغ الحجَّاجَ مسيره إليهم، فبعث إليهم عبد الرحمن بن الغَرق مولى ابن أبي عَقِيل ـ وكان على الحجَّاج كريماً ـ فقال له: الحق بجماعتهم ـ يَعني جماعةَ الأمراء ـ فأعلمْهم بمسير المارقة إليهم، وقل لهم: إنْ جمعكم قِتالٌ فأميرُ الناس زائدة بن قدامة، فأتاهم ابن الغرق فأعْلمهم ذلك، وانصرَفَ عنهم.

قال أبو مِخْنَف: فحدّثني عبد الرحمن بن جُنْدب قال: انتهى إلينا شَبيب وفينا سَبعة أمراء على جماعتهم زائدةُ بن قدامة، وقد عبَّى كل أمير أصحابه على حِدَة، ففي ميمنتنا زيادُ بن عمرو العتكي، وفي ميسرتنا بِشْر بن غالب الأسدي، وكلّ أمير واقف في أصحابه. فأقبل شبيبٌ حتَّى وقف على تَلّ، فأشرف على الناس وهو على فرس له كُمَيت أغرّ، فنظر إلى تعبيتهم، ثم رجع إلى أصحابه، فأقبل في ثلاثِ كتائب يوجفون، حتَّى إذا دنا من الناس مضتْ كتيبة فيها سوَيْد بن سُليم فتقف في ميمنتنا ومضت كتيبة فيها مَصاد أخو شبيب، فوقفتْ على ميسرتنا، وجاء شبيبٌ في كتيبة حتَّى وقف مُقاتل القلب. قال: وخرج زائدةُ بن قدامة يسيرُ في الناس فيما بين ميمنتهم إلى ميسرتهم يحرّض الناس ويقول:

يا عبَاد الله، أنتم الكثيرُون الطيّبون، وقد نـزل بكم القليلون الخبيثون، فـاصبروا ـ جُعِلت لكم الفِداء ـ لكرّتَين أو ثلاث تَكرّون عليهم، ثم هو النَّصر ليس بينه حاجز ولا دونه شيء. ألا ترْون إليهم والله ما يكونون مائتي رجل، إنّما هم أكَلَة رأسٍ، إنّما هم السّرّاق المُرّاق، إنَّما جاؤوكم ليُهَريقوا دماءكم، ويأخـذوا فَيئَكم، فلا يكونوا على أخذه أقوَى منكم على مَنْعه، وهم قليل وأنتم كثير، وهم أهلُ فُرْقة وأنتم أهلُ جَماعة، غُضّوا الأبصار، واستقبلوهم بالأسِنَّة، ولا تحملوا عليهم حتى آمركم، ثمّ انصرف إلى مَوْقفه.

قال: ويَحْمِل سُوَيد بن سليم على زياد بن عَمرو، فانكشف صَفُّهم، وثَبَت زياد في نحو من نصف

أصحابه ، ثم ارتفع عنهم سُوَيد قليلا ، ثم كرّ عليهم ثانيةً ، ثم اطّعنوا ساعة .

قال ابو مخنف : فحدثني ،فروة بن لقيط ، قال : أنا والله فيهم يومئذ ، قال : اطّعَنّا ساعةً وصبروا لنا حتّى ظننتُ أنّهم لن يزولوا ، وقاتل زياد بنُ عمرو قتالاً شديداً ، وجعل ينادي : يا خيلي ، ويشُدّ بالسيف فيقاتِل قتالاً شديداً ، فلقد رأيتُ سويدَ بنَ سليم يومئذ وإنَّهُ لأشجع العرب وأشدّه قتالاً ، وما يُعرض له . قال : ثمّ إنا ارتَفَعْنا عنهم آخِراً فإذا هم يتقوّضون ، فقال له أصحابه : ألا تراهم يتقوّضون! احْمِل عليهم ، فقال لهم شبيب : خلّوهم حتّى يَخِفّوا ، فتركُوهم قليلاً ، ثم حمل عليهم الثالثة فانهزموا . فنظرت إلى زياد بن عمرو وإنَّه ليُضرَب بالسيف وما مِن سيف يُضْرَب به إلاّ نبا عنه وهو مجفَّف ، ولقد رأيته اعتوره أكثرُ من عشرين سيفاً فما ضَرّه من ذلك شيء . ثمّ إنه انهزم وقد جُرِح جراحةً يسيرة ، وذلك عند المساء .

قال : ثم شدَدْنا على عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر فهزمناه ، وما قاتَلَنا كثيرَ قتال ، وقد ضارب ساعةً وقد بلغني أنه كان جُرِح ثُم لحق بزياد بن عمرو ، فمضينا منهزمين حتى انتهينا إلى محمد بن موسى بن طلحة عند المغرب ، فقاتلنا قتالاً شديداً وصبر لنا .

ذكر هشامٌ عن أبي مِخنَف ، قال : حدّثني عبد الرحمن بن جندَب وفروة بن لقيط ، أن أخا شبيب مصاداً حمل على بِشرْ بن غالب وهو في الميسرة ، فأبْلَى وكُرم والله وصبر ، فنزل ونزل معه رجالٌ من أهل الصَّبر نحوٌ من خمسين ، فضارَبوا بأسيافهم حتّى قُتِلوا عن آخِرهم ، وكان فيهم عروة بن زُهير بن ناجذ الأزْديّ ، وأمه زرارة أمرأة ولدتْ في الأزْد ، فيقال لهم بنو زُرارة ، فلمّا قَتَلوه وانهَزم أصحابُه مالُوافشدّوا على أبي الضُّرَيْس مولى بني تميم ، وهو يلي بِشر بن غالب ، فهزموه حتى انتهَى إلى موقف أعْيَنَ ، ثم شَدّوا عليه وعلى أعْيَنَ جميعاً فهزموهما حتّى انتهوا بهما إلى زائدة بن قدامة ، فلمّا انتهوا اليه نزل ونادى : يا أهلَ الاسلام ، الأرضَ الأرض ، إليّ إليّ ! لا يكونوا على كُفْرهم أصبر منكم على إيمانِكم ، فقاتلهم عامَّة اللَّيل حتّى كان السَّحَر . ثم إن شبيباً شدّ عليه في جماعة من أصحابه فقتَله وأصحابه وتركهم رِبْضةً حولَه من أهلِ الحِفاظ .

قال أبومخنف : وحدّثني عبد الرحمن بن جندب قال : سمعتُ زائدةَ بن قدامة ليلتئذ رافعاً صوتَه يقول : يا أيها الناس ، اصبروا وصابِروا ، ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تَنْصُروا الله يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ . ثمّ والله ما بَرح يقاتلُهم مقبلا غيرَ مدبر حتّى قُتِل .

قال أبومِخْنَف : وحدّثني فروة بن لَقيط أنّ أبا الصُّقَيْر الشَّيبانيّ ذكر أنه قَتَل زائدة بن قدامة ، وقد حاجَّه في ذلك آخر يقال له الفَضْل بن عامر . قال : ولَّما قَتَل شبيبٌ زائدةَ بن قدامة دخل أبو الضُّرَيس وأعينَ جَوْسَقا عظيماً ، وقال شبيب لأصحابه : ارفَعوا السيف عن الناس وادعوهم إلى البَيْعة ، فَدَعَـوْهم إلى البيعة عنـد الفجْر .

قال عبدُ الرحمن بن جُنْدَب : فكنتُ فيمن قدم إليه فبايعه وهو واقفٌ على فرس وخيلُه واقفة دونه ، فكل من جاء ليبايعه نُزع سيفُه عن عاتِقه ، وأخذ سلاحُه منه ، ثم يُدْنى من شبيب فيسلّم عليه بإمرة المؤمنين ، ثم يخلّى سبيله . قال : وإنّا لكذلك إذ انفجر الفَجر ومحمَّد بن موسى بن طلحة بن عبيدالله في أقْصى العسكر ، معه عصابةٌ من أصحابه قد صبروا ، فلمّا انفجر الفجر أمر مؤذّنه فأذن ، فلمّا سَمِع شبيب الأذان قال: ما هذا؟ فقال: هذا محمَّد بن موسى بن طلحـة بن عُبيدالله لم يَبـرَح، فقال: قـد ظننت أنّ حُمقه وخُيَـلاءه سيحمله على هذا، نَحُّوا هؤلاء عَنّا وانزلوا بنا فلنُصلّ. قال: فنزل فأذّن هو، ثمّ استقدم فصلّى بـأصحابـه، فقرأ:

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾(١)، و﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بالدِّينِ﴾(٢)، ثم سلّم، ثم رَكِبوا فَحَمَلَ عليهم فانكش طائفة من أصحابه، وثبتتْ طائفة. قال فروة: فما أنسى قولَه وقد غَشيْناه وهو يقاتل بسيفه وهو يقول: ﴿آ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذينَ صَا وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذِبينَ﴾ (٣).

قال: وضارب حتّى قتِل. قال: فسمعتُ أصحابي يقولون: إنّ شبيباً هو الَّذي قتله. ثمّ إنّا نزلْنا فأخذ كان في العسكر من شيء، وهرب الّذين كانوا بايعوا شبيباً، فلم يبق منهم أحد.

وقد ذكر من أمر محمَّد بن موسى بن طلحة غيرُ أبي مِخْنَف أمراً غير الّذي ذكرته عنه، والذي ذكر من د أنّ عبدَ الملك بن مروان كان ولّى محمَّدَ بن موسى بن طلحة سِجِستان، فكتب إليه الحجَّاج: إنك عامل كلّ مر رت به، وهذا شبيب في طريقك. فعدل إليه محمَّد، فأرسل إليه شبيب: إنك امرؤ مخدوع، قد اتّقى الحجّاج، وأنت جارٌ لك حقّ، فانطَلِقْ لِما أمِرتَ به ولك الله لا آذَيْتك، فأبى إلاّ محاربته، فواقفه شبيب، و إليه الرسول، فأبى إلاّ قتاله، فدعا إلى البراز، فبرز إليه البطِين ثم قعنب ثم سويد، فأبى إلاّ شبيباً، فة لشبيب: قد رغب عنا إليك، قال: فما ظنّكم هذه الأشراف! فبرز إليه شبيب، وقال: إني أنشدُكَ اللّهَ في دَمِا فإنّ لك جواراً. فأبى إلاّ قِتاله، فحَمَل عليه شبيبٌ فضربه بعصا حديدٍ فيها اثنا عشرة رطلاً بالشأميّ، فهشـ بيضة عليه ورأسه فسقط، ثم كفَّنه ودفنه، وابتاع ما غنموا من عسكره، فبعث به إلى أهله، واعتذر إلى أصح وقال: هو جاري بالكوفة، ولي أن أهَبَ ما غنمتُ لأهل الرِّدّة.

قال عمرُ بنُ شَبَّة : قال أبو عبيدة : كان محمَّد بنُ موسى مع عمر بن عبيد اللّه بن معمر بفارس ، و معه قتال أبي فُدَيك وكان على ميمنته ، وشُهِر بالنَّجْدة وشدة البأس وزوّجه عمر بن عُبيدالله بن معمر ابنَ عثمانٍ وكانت أخته تحت عبد الملك بن مروان ـ فولاه سِجِسْتان ، فمرّ بالكوفة وبها الحجَّاج بن يوسف فقيل للحجَّاج ، إن صار هذا إلى سَجَسْتان مع نجدته وصهْره لعبد الملك فلجأ إليه أحد ممَّن تطلب ،مَ منه ، قال : فما الحيلة ؟ قيل : تأتيه وتسلّم عليه ، وتذكر نجدته وبأسه وأن شبيباً في طريقه ، وأنَّه قد أعيا وأنَّك ترجو أن يريحَ الله منه على يده ، فيكون له ذكر ذلك وشهرته . ففعل ، فعدل إليه محمَّد بن موسى طلحة بن عُبيد اللّه ، فواقعه شبيب ، فقال له شبيب : إني قد علمتُ خِدَاعَ الحجَّاج ، وإنَّما اغترّك ووقى نفسه ، وكأني بأصحابك لو قد التَقَتْ حَلْقَتَا البطان قد أسلَموك ، فصُرِعت مَصرع أصحابِك ، فأ وانطلق لشأنِك ، فإني أنفسُ بك عن الموت ، فأبَى محمَّد بن موسى ، فبارَزَه شبيب فقتله .

رجع الحديث إلى حديث أبي مِخْنَف . قال عبدُ الرحمن : لقد كان فيمن بايعَه تلك الليلة أبو بُرْدة بن موسى الأشعري ، فلمَّا بايعه قال له شبيب : ألسْتَ أبا بردة! قال : بلى ، قال شبيب لأصحابه : يا أخلاّئ أبو هذا أحد الحَكَمين ، فقالوا : ألا نقتل هذا ؟ فقال : إنّ هذا لا ذنبَ له فيما صنع أبوه ؛ قالوا: أجل، ق وأصبح شبيب : فأتى مقبلاً نحو القصر الَّذِي فيه أبو الضُّريس وأعين فرَموه بالنَّبل، وتحصنا منه، فأقام ذلك ا عليهم ، ثم شخص عنهم ، فقال له أصحابه : مادون الكوفة أحد يمنعنا ؛ فنظر فإذا أصحابهُ قد جُرِح

(١) سورة الهمزة : ١ .
(٢) سورة الماعون : ١ .
(٣) سورة العنكبوت : ١ ـ ٣

فقال لهم : ما عليكم أكثر ممّا قد فعلتم ، فخرج بهم على نِفَّر ، ثم على الصَّراة ، ثم على بَغْداد ، ثم خرج إلى خانِيجَار فأقام بها .

قال : ولمّا بلغ الحجّاج أن شبيباً قد أخذ نحو نِفَّر ظَنّ أنّه يريد المدائن ـ وهي باب الكوفة ، ومَن أخذ المدائن كان ما في يده من أرض الكوفة اكثر ـ فهال ذلك الحجّاج ، وبعث إلى عثمان بن قَطَن ، ودعاه وسرّحه إلى المدائن ، وولّاه منبَرها والصّلاة ومَعونة جُوخى كلّها وخَراجَ الأَسْتان . فخرج مسرعاً حتّى نزل المدائن ، وعزل الحجّاجُ عبدَالله بن أبي عُصَيفير؛ وكان بها الجَزْل مقيماً أشهراً يُداوِي جراحَتَه، وكان ابن أبي عصيفير يعوده ويكرمه، فلمّا قدم عثمانُ بن قطن المدائن لم يَعُدْه، ولم يَكن يَتعاهده ولا يُلطِفه بشيء، فقال الجزل : اللّهمّ زِد ابنَ عصيفير جوداً وكرماً وفضلاً، وزد عثمان بن قطن ضِيقاً وبُخلاً. قال: ثم إن الحجّاج دعا عبدَ الرحمن بنَ محمد بن الأشعث فقال: انتخِب الناس، واخرج في طلب هذا العدوّ، فأمره بنُخْبة ستّةِ آلاف، فانتخب فُرْسان الناس ووجوههم، وأخرج من قومِه ستّمائة من كِنْدة وحَضْرَموت، واستحثّه الحجّاجُ بالعسكر، فعسكر بدير عبد الرحمن، فلمّا أراد الحجّاج إشخاصَهُم كتب إليهم.

أما بعد ، فقد اعتدتُم عادة الأذلّاء ، وولّيتم الدُّبر يومَ الزَّحْف ، وذلك دأب الكافِرين ، وإني قد صفحتُ عنكم مرّة بعد مرّة ، ومرّة بعد مرّة ، وإني اقسِم لكم بالله قَسَماً صادقاً لئن عدتم لذلك لأوقِعنّ بكم إيقاعاً أكون أشدَّ عليكم من هذا العدوّ تَهرُبون منه في بطون الأودية والشِّعاب ، وتَستترون منه بأثناء الأنْهار وألْواذ الجبال ، فخافَ من له مَعقولٌ على نفسِه ، ولم يَجعل عليها سبيلاً ، وقد أعذَر من أنذَر .

وقد أسمعتَ لَوْ نادَيتَ حَيّاً ... ولكنْ لا حياةَ لمن تُنادِي

والسلام عليكم .

قال : ثم سرّح ابن الأصمّ مؤذّنَه ، فأتى عبدَ الرحمن بن محمّد بن الأشعث عندَ طلوع الشمس، فقال له : ارتحِلْ الساعةَ ونادِ في الناس : أن برئتِ الذّمّةُ عن رجلٍ من هذا البَعْث وَجدنْاه متخلفاً فخرج عبدُ الرّحمن بن محمد بن الأشعَث في الناس حتّى مَرّ بالمدائن فنزل يوماً وليلةً ، وتشرّى أصحابه حوائجَهم ، ثم نادَى في الناس بالرّحيل ، فارتحلوا ، ثم أقبلوا حتى دَخل على عثمان بن قَطن ، ثم أتى الجَزْل فَسَأله عن جِراحَته ، وسأله ساعةً وحدثه . ثم إنّ الجَزْل قال له : يا بن عمّ : إنّك تسير إلى فرُسان العَرَب وأبناء الحرب ، وأحْلاس الخَيل ، والله لكأنّما خُلِقوا من ضُلوعها ، ثم بُنوا على ظهورها ، ثم هم أسْد الأجم ، الفارسُ منهم أشدّ من مائة ، إن لم تبدأ به بدأ ، وإن هُجهج أقدمَ ، فإني قد قاتلتُهم وبلوْتُهم ، فإذا أصحرتُ لهم انتَصفوا مِنّي ، وكان لهم الفضل عليّ، وإذا خَندقت عليّ وقاتلتُهم في مضيق نلتُ منهم بعضَ ما أحب، وكان لي عليهم الظَّفَر، فلا تلقهم وأنت تستطيع إلا في تعبيةٍ أو في خندق. ثم إنه ودّعه، فقال له الجَزْل: هذه فَرَسي الفُسَيْفِساء، خُذها فإنها لا تجَاري. فأخذها ثم خرج بالناس نحو شبيب، فلمّا دنا منه ارتفع عنه شبيبٌ إلى دَقُوقاء وشَهْرَزُور، فخرج عبدُ الرحمن في طلبه، حتّى إذا كان على التخوم أقام، وقال: إنما هو في أرض المَوْصِل، فليقاتِلوا عن بلادهم أو ليَدَعوه، فكتب إليه الحجّاج بنُ يوسف:

أمّا بعد ، فاطلب شبيباً واسلُك في أثره أين سلَك حتّى تُدرِكَه فتقتله أو تَنفيه ، فإنّما السلطان سلطانُ أمير المؤمنين والجندُ جندُه والسلام .

فخرج عبدُ الرحمن حين قرأ كتابَ الحجّاج في طلب شبيب ، فكان شبيبٌ يدَعه حتى إذا دنا منه بيّته ،

فيجده قد خندق على نفسه وحَذِر ، فيمضِي ويَدَعه ، فيتبعه عبد الرحمن ، فإذا بلغه أنَّه قد تحمّل وأنَّه يسير أقل في الخيل ، فإذا انتهى إليه وجَده قد صَفَّ الخيل والرّجال وأدنى المرامية ، فلا يصيبُ له غِرّة ، ولا له عِلّة ، فيمضِي ويدعه .

قال : ولمَّا رأى شبيب أنَّه لا يصيب لعبد الرحمن غِرّةً ولا يصل إليه ، جعل يَخْرُج إذا دنا منه عبد الرحمن في خيله ، فينزل على مسيرةِ عشرين فرسخاً ، ثم يقيم في ارض غَليظة حَزْنة ، فيجيء عبد الرحمن ، فإذا دنا من شبيب ارتحل شبيب فسار خمسةَ عشرَ أو عشرين فرسخاً ، فنزل منزلا غليظاً خَشناً ، ثم يقيم حتَّى يدنو عبد الرحمن .

قال أبو مخنف : فحدّثني عبد الرحمن بن جُندب أنّ شبيباً كان قد عَذّب ذلك العسكَر وشقّ عليهم ، وأحفى دوابَّهم ، ولَقُوا منه كلَّ بلاء ، فلم يزل عبد الرحمن يتَّبعه حتَّى مـر به على خانِقين ثم على جلولاء ثم على تامرّا ، ثم أقبلَ حتَّى نزل البتّ ـ قرية من قُرَى المَوْصل على تُخوم المَوْصل ، ليس بينها وبين سواد الكوفة إلاّ نهر يسمَّى حَولايا ـ قال : وجاء عبدُ الرحمن بن محمَّد بن الأشعث حتَّى نزل في نهر حولايا وفي راذان الأعلى من أرض جُوخَى ، ونزل عَواقيل من النَّهر ، ونزلها عبدُ الرحمن حيث نزلها وهي تُعجِبه ، يرى أنَّها مثل الخندق والحصن . قال : وارسل شبيب إلى عبد الرحمن : إنّ هذه الأيام أيامُ عيدٍ لنا ولكم ، فإن رأيتم أن تُوادِعونا حتَّى تمضي هذه الأيَّام فافعلوا . فقال له عبدُ الرحمن : نعم ، ولم يكن شيء أحبّ إلى عبد الرحمن من المطاولة والموادعة . قال : وكتب عثمان بن قَطَن إلى الحجَّاج :

أما بعد ، فإني اخبِر الأميرَ أصلَحه الله أنّ عبد الرحمن بن محمَّد قد حفَر جُوخَى كلَّها خَندقاً واحداً ، وخَلَّى شبيباً وكسر خَراجها وهو يأكل أهلَها . والسلام .

فكتب إليه الحجّاج :

أمَّا بعد ، فقد فهمتُ ما ذكرتَ لي عن عبد الرحمن ، وقد لَعَمري فعل ما ذكرت ، فسِرْ إلى الناس فأنتَ أميرُهم ، وعاجِل المارقَة حتَّى تلقاهم ، فإن الله إن شاء الله ناصِرُك عليهم . والسلام .

قال : وبعث الحجَّاج إلى المـدائن مطرّف بن المغيـرة بن شعبة ، وخـرج عثمان حتى قـدِم على عبـد الرحمن بن محمَّد ومَنْ معه من أهل الكوفة وهم مُعسكرون على نهر حَوْلايا قريباً من البتّ ، عشيَّة الثلاثاء ، وذلك يوم التَّروية ، فنادى الناس وهو على بغله : أيّها الناس ، اخرجوا إلى عدوّكم . فوثب إليه الناس ، فقالوا : نُنْشِدك الله ، هذا المساء قد غُشينا ، والناس لم يُوطِّنوا أنفسهم على القتال ، فبت اللَّيلة ثم اخرج بالناس على تعبية . فجعل يقول : لأناجزَنَّهم ، ولتكوننّ الفرصة لي أولهم . فأتاهم عبد الرحمن فأخذ بعنان دابَّته ، وناشده اللّه لمّا نزل ، وقال له عَقيلُ بن شدّاد السَّلُوليّ : إن الَّذي تريد من مُناجَزتهم الساعة أنت فاعلُه غداً ، وهو غداً خيرٌ لك وللناس . إن هذه ساعة رِيح وغُبرة ، وقد أمسيت فانزل ، ثم ابكِرْ بنا إليهم غُدْوةً . فنزل ، فسفت عليه الريحُ ، وشَقّ عليه الغُبارُ ، ودعا صاحب الخراج العُلُوج فَبنَوا له قُبَّةً فَبات فيها ، ثمّ أصبح يومَ الأربعاء ، فجاء أهلُ البتّ إلى شبيب ـ وكان قد نزل ببيعَتهم ـ فقالوا : أصلحَك الله ! أنت ترحم الضّعفاء وأهلَ الجزْية ، ويكلمك من تلي عليه ، ويَشْكون إليك ما نزل بهم فتنظر لهم ، وتكفّ عنهم ، وإن هؤلاء القوم جبابرة لاَ يُكلِّمون ولا يَقْبَلون العُذْر ، والله لئن بَلغهم أنَّك مقيم في بيعتنا ليَقتُلننّا إن قُضي لك أن تَرتَحِل عنَّا ، فإن رأيت فانزل جانبَ القَرْية ولا تجعل لهم علينا مقالاً ، قال : فإني أفعل ذلك بكم ، ثم خرج فنزل جانبَ

القَرْيـة . قال : فباتَ عثمان ليلتَه كلَّها يحرِّضهم ، فلمّا أصبح ـ وذلك يومَ الأربعاء ـ خرج بالنَّاس فاستقبلتهم ريحٌ شديدة وغبرة ، فصاحَ الناس إليه ، فقالوا : نُنْشدُك الله أن تخرج بنا في هذا اليوم ، فإنّ الريح علينا ! فأقام بهمْ ذلك اليومِ ، وأراد شبيبٌ قتالهم ، وخرجَ أصحابُه ، فلمّا رآهم لم يَخرجُوا إليه أقام ، فلمّا كان ليلة الخميس خرج عثمانُ فعبّى الناسَ على أرباعِهم ، فجعل كلّ رُبْع في جانب العسكر ، وقال لهم : اخرُجوا على هذه التعبية ، وسألهم : من كان على ميمنتكم ؟ قالوا : خالد بن نَهيك بن قيس الكِنْديّ ، وكان على ميسرتنا عَقِيل بن شدَّاد السَّلولي ، فدعاهما فقال لهما ، قفا مواقفكما الَّتي كنتما بها ، فقد ولَّيتكما المجنَّبتين ، فاثبتا ولا تَفِرّا ، فوالله لا أزول حتّى يزول نَخْل راذان عن أصوله . فقالا : ونحن والله الَّذي لا إله إلا هو لا نَفِرّ حتّى نظفر أو نُقتَل ، فقال لهما : جزاكما الله خيراً . ثم أقام حتّى صلّى بالناس الغداة ، ثم خرج فجعل ربْع أهل المدينة تميم وهَمْدان نحو نهرَ حوْلايا في الميسَرة ، وجعل ربع كِندة وربيعةَ ومَذحج وأسد في الميمنة ، ونزل يمشي في الرّجال ، وخرج شبيب وهو يومئذ في مائة وأحد وثمانين رجلا ، فقطع إليهم النّهر ، فكان هو في ميمنة أصحابِه ، وجعل على ميسرته سُوَيد بن سُليم ، وجعل في القلب مصاد بن يزيدَ أخاه ، وزحفوا وسما بعضُهم لبعض .

قال أبو مخنف : فحدّثني النَّضر بن صالح العبسي أن عثمان كان يقول فيُكثر : ﴿ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إنْ فَرَرْتُمْ مِنَ المَوْتِ أَوِ القَتلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إلاَّ قَلِيلاً ﴾[1] . أين المحافظون على دينهم ، المحامون عن فيئهم ! فقال عَقِيل بن شَدّاد بن حُبْشي السَّلُولي : لعلّي أن أكون احدَهم ، قتِل أولئك يومَ روُذْبار . ثم قال شبيب لأصحابه : إني حاملٌ على ميسرتهم ممَّا يلي النهر ، فإذا هزمتُها فليحمِل صاحبُ ميسرتي على ميمنتهم ، ولا يبرح صاحب القلب حتى يأتيَه أمري . وحمل في ميمنة أصحابه ممَّا يلي النَّهر على ميسرة عثمان بن قَطَن فانهزموا ، ونزل عقيل بنُ شدّاد فقاتَل حتَّى قُتِل ، وقُتل يومئذ مالكُ بنُ عبد الله الهَمْداني ، ثم المُرْهبي ، عمّ عيَّاش بن عبد اللّه بن عيَّاش المُنْتوف ، وجعل يومئذ عَقيل بن شَدّاد يقول وهو يُجالِدهم :

لأضْــرِبَــنّ بـالـحُـسَـام الـبـاتِـر ضَـرْبَ غُـلاَم مِـنْ سَـلُولٍ صـابـر

ودخل شبيب عسكَرهم ، وحمل سُويد بن سليم في مَيسَرة شبيب على ميمنة عثمان بن قَطَن فهَزَمها ، وعليها خالد بن نهيك بن قيس الكنديّ ، فنزل خالد فقاتل قتالاً شديداً ، وحمل عليه شبيبٌ من ورائه وهو على ربْع كِندة وربيعةَ يومئذ ، وهو صاحب الميمنة ، فلم ينثنِ شبيبٌ حتى علاه بالسيف فقتلـه ، ومضى عثمان بن قَطَن وقد نزلت معه العُرَفاء وأشرافُ الناس والفُرسان نحو القلب ، وفيه أخو شبيب في نحو من ستين راجلاً ، فلمّا دنا منهم عثمانُ بن قُطَن شدَّ عليهم في الأشراف وأهلِ الصبر فضاربوهم حتَّى فرّقوا بينهم ، وحمل شبيب بالخيل من ورائهم ، فما شعروا إلاّ والرّماح في أكتافهم تُكِبّهم لوجُوهِهم ، وعطف عليهم سُوَيد بنُ سليم أيضاً في خَيْله ، ورجع مصاد وأصحابُه ، وقد كان شبيب رَجَّلهم ، فاضطربوا ساعةً ، وقاتل عثمان بن قَطَن فأحسَن القتال . ثم إنَّهم شَدّوا عليهم فأحاطوا به ، وحَـمل عليه مصاد أخو شَبيبِ فضربه ضربةً بالسيف استدارَ لها ، ثمّ قال : ﴿وكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾[2] ثمّ إنّ الناس قتلوه ، وقُتل يومئذ الأبْرَد بنُ ربيعة الكِنْديّ ، وكان على تَلّ ، فألقى سلاحه إلى غلامه وأعطاهُ فرسه ، وقاتل حتى قُتِل . ووقع عبدُ الرحمن فرآه ابن أبي سَبْرة الجُعفّي وهو على

(١) سورة الأحزاب : ١٦ .

(٢) سورة الأحزاب : ٣٧ .

بغلة فعَرَفه، فنزل إليه فناوَله الرّمح وقال له :اركب، فقال: عبد الرحمن بن محمّد: أيّنا الرَّديف؟ قال: ابنُ أبي سَبْرة: سبحانَ الله! أنت الأمير تكون المقدّم، فَركب وقال لابن أبي سَبْرة: ناد في الناس: الحَقوا بدَيْر أبي مرْيم، فنادَى، ثمّ انطلَقَا ذاهبَين، ورأى واصلُ بن الحارث السَّكونيّ فرسَ عبدِ الرحمن الّذي حمله عليه الجَزْلُ يجُول في العسكر، فأخذها بعضُ أصحاب شبيب، فَظَن أنّه قد هلك، فطلبه في القتلى فلم يجِدْه، وسأل عنه فقيل له: قد رأيْنا رجلاً قد نزل عن دابّته فحمَله عليها، فما أخلقه أن يكون إيّاه؛ وقد أخذ ها هنا آنفاً. فأتبعه واصلُ بنُ الحارث على بِرْذَوْنه ومع واصِل غلامُه على بَغْل، فلمّا دَنوا منهما قال محمّد بن أبي سَبْرة لعبد الرحمن: قد واللهِ لَحِق بنا فارِسان، فقال عبدُ الرحمن: فهل غيرُ اثنين؟ فقال: لا، فقال عبد الرحمن: فلا يعجز اثنان عن اثنين: قال: وجعل يحدّث ابن أبي سَبْرة كأنّه لا يكترث بهما، حتّى لحقهما الرجلان، فقال له ابنُ أبي سَبْرة: رحمك الله! قد لحِقنا الرّجلان، فقال له: فانزل بنا، فنزلا فانتضيا سيفَيهما، ثمّ مضَيا إليهما، فلما رآهما واصِل عرَفهما، فقال لهما: إنّكما قد تركتما النزول في موضعه، فلا تَنزلا الآن، ثمّ حسَر العمامة عن وجهه، فعرفاه فرحّبا به، وقال لابنِ الأشعث: إني لَمّا رأيتُ فرسك يجولُ في العسكر ظننتُك راجلاً، فأتيتك بِبِرذَوني هذا لتركَبَه، فترك لابن أبي سَبْرة بغلته، ورَكب البِرْذَون، وانطلق عبدُ الرحمن بنُ الأشعث حتّى نزل دَيْر اليعار، وأمرَ شبيبٌ أصحابَه فرفعوا عن الناس السَّيف، ودعاهم إلى البَيْعة، فأتاه من بقي من الرَّجّالة فبايعوه، وقال له أبو الصُّقَيْر المحلِّميّ: قتلت من الكوفيّين سبعةً في جوف النَّهر كان آخرهم رجلاً تعلّق بثوبي وصاح، ورهبني حتّى رِهبْتُه، ثمَّ إني أقدَمْت عليه فقتَلتُهُ. وقُتِل من كندة مائة وعشرون يومئذ وألفٌ من سائرِ الناس أو ستّمائة، وقُتِل عُظْم العُرَفاء يومئذ.

قال أبو مِخْنَف: حدّثني قُدامة بن حازم بنِ سُفْيان الخَثْعميّ أنّه قَتَل منهم يومئذ جماعةً، وبات عبد الرحمن بنُ محمّد تلك الليلة بدَير اليعار، فأتاه فارسان فصعِدا إليه فوقَ البيت، وقام آخرُ قريباً منهما فخلا أحدُهما بعبد الرحمن طويلاً يناجيه، ثمّ نزل هو وأصحابُه، وقد كان الناسُ يتحدّثون أنّ ذلك كان شبيباً، وأنّه قد كان كاتبه، ثمّ خرج عبد الرحمن آخر الليل فسار حتى أتى دَيْرَ أبي مريم، فإذا هو بأصحاب الخيل قد وضع لهم محمّد بن عبد الرحمن بن أبي سَبْرة صُبَرَ الشَّعير والقَتْ بعضهُ على بعض كأنه القُصور، ونحر لهم من الجزر ما شاؤوا، فأكلوا يومئذ، وعَلفوا دوابَّهم، واجتمع الناسُ إلى عبد الرحمن بن محمَّد بن الأشعث فقالوا له: إنْ سمعَ شبيبٌ بمكانك أتاك وكنتَ له غنيمة، قد ذهب الناس وتفرّقوا وقُتِل خيارهم فالحقْ أيها الرجل بالكوفة. فخرج إلى الكوفة ورجع الناسُ أيضاً، وجاء فاختبأ من الحجّاج حتّى أخَذ الأمانَ بعد ذلك.

وفي هذه السَّنة أمر عبدُ الملك بن مروان بنَقْش الدّنانير والدَّراهم. ذكَر الواقديّ: أنّ سعدَ بن راشد حدّثه عن صالح بن كَيْسانَ بذلك.

قال: وحدّثني ابن أبي الزّناد، عن أبيه، أنَّ عبدَ الملك ضرب الدراهمَ والدَّنانيرعامَئذ، وهو أوّل من أحدَث ضرْبَها.

قال: وحدّثني خالدُ بنُ أبي ربيعة، عن أبي هلال، عن أبيه، قال: كانت مثاقيلُ الجاهلية الّتي ضرَبَ عليها عبدُ الملك اثنين وعشرين قيراطاً إلاّ حبّة، وكان العشرةُ وزنَ سَبْعة.

قال: وحدّثني عبد الرحمن بن جرير اللَّيثيّ عن هلال بن أسامة قال: سألتُ سعيد بن المسيّب في كَمْ

تجب الزكاة من الدّنانير؟ قال: في كلّ عشرين مثقالاً بالشأميّ نصفُ مثقال، قلت: ما بالُ الشأمي من المصريّ؟ قال: هو الّذي تُضرب عليه الدّنانير. وكان ذلك وزن الدّنانير قبل أن تُضرَب الدّنانير، كانت اثنين وعشرين قيراطاً إلّا حبّة، قال سعيد. قد عرفتهُ، قد أرسلتُ بدَنانيرَ إلى دِمَشق فضُرِبتْ على ذلك.

وفي هذه السّنة: وفد يحيى بن الحَكَم على عبدِ الملك بنِمَرْوان ووَليَ أبانُ بنُ عثمانَ المدينَةَ في رجب.

وفيها استُقضِيَ أبانُ بنُ نوفل بن مُساحِق بن عَمرو بنِ خِداش من بني عامر بن لؤيّ.

وفيها وُلِد مروانُ بنُ محمّد بن مَرْوان.

وأقام الحجّ للناس في هذه السنة أبانُ بنُ عثمانَ وهو أميرٌ على المدينة، حدّثني بذلك أحمدُ بنُ ثابت، عمّن ذَكره، عن إسحاقَ بنِ عيسى، عن أبي معشر، وكذلك قال الواقديّ.

وكان على الكوفة والبصرة الحجّاج بنُ يوسف، وعلى خُراسانَ أميَّة بنُ عبد الله بن خالد، وعلى قضاء الكوفة شُرَيْح، وعلى قضاء البَصْرة زُرَارة بن أوْفى.

ثم دخلتْ سنة سبع وسبعين

ففي هذه السنة قتل شبيبٌ عَتّاب بن ورقاءَ الرّياحيّ وزُهرة بنَ حَوِية.

ذكر الخبر عن سبب مقتلهما:

وكان سبب ذلك فيما ذَكر هشام عن أبي مخنف، عن عبد الرحمن بن جندَب وفَرْوة بن لَقِيط، أنّ شبيباً لمّا هزم الجيشَ الّذي كان الحجّاج وجّهَه مع عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث أليه، وقتَل عثمان بن قطن، وذلك في صَيْف وحرّ شديد، اشتدّ الحرّ عليه وعلى أصحابِهِ، فأتَى ماه بَهْزاذان فتصيّف بها ثلاثة أشهر، وأتاه ناسٌ كثير ممّن يطلب الدُّنيا فَلِحقُوا به، وناس ممّن كان الحجّاج يَطلبهم بمال أو تِباعات؛ كان منهم رجلٌ من الحيّ يقال له الحرّ بنُ عبد الله بنِ عَوْف، وكان دِهْقانان من أهل نهر دُرْقِيط قد أساءَا إليه وضَيّقَا عليه، فشَدَّ عليهما فقَتَلهما، ثم لَحِق بشبيب فكان معه بماه، وشَهِد معه مواطنَه حتّى قُتل، فلمّا آمن الحجّاجُ كلَّ مَنْ كان خَرَج إلى شبيب من أصحاب المال والتّباعات ـ وذلك بعد يوم السَّبَخة ـ خرج إليه الحرّ فيمن خرج، فجاء أهلُ الدّهقانَين يَستعدُون عليه الحجّاج، فأتِيَ به فدخل، وقد أوصى ويئِس من نفسه، فقال له الحجّاج: يا عدوَّ الله، قتلتَ رَجُلين من أهل الخراج! فقال له: قد كان أصلَحَك الله ما هو أعظم من هذا، فقال: وما هو؟ قال: خروجي من الطاعة وفراق الجماعة، ثمّ آمنتَ كلَّ من خرج إليك، فهذا أماني وكتابُك لي. فقال له الحجّاج: أوْلى لك! قد لَعَمري فعلتُ، وخَلِّ سبيلَه.

قال: ولمّا انفسخ الحَرّ عن شبيب خرج من ماه في نحو من ثمانمائة رجل، فأقبل نحو المَدائن وعليها مُطرّف بنُ المغيرة بنِ شُعبْة، فجاء حتّى نزل قناطرَ حُذيفَةَ بن اليَمان، فكتب ماذرواسب عظيم بابل مهروذ إلى الحجّاج.

أمّا بعد: فإني أخبِر الأميرَ أصلَحهُ الله أنّ شبيباً قد أقبل حتى نزل قناطر حُذَيفة، ولا أدري أين يُريد!

فلمّا قرأ الحجّاج كتابَه قام في الناس فحَمِد اللهَ وأثنى عليه ثمّ قال:

أيها الناس، والله لتقاتِلُنّ عن بلادكم وعن فَيْئكم أو لأبعثنّ إلى قوم هم أطوع وأسمَع وأصبرُ على اللأواء والغيظ منكم، فيقاتلون عدوّكم، ويأكلون فيئكم.

فقام إليه الناس من كلّ جانب، فقالوا: نحن نُقاتِلُهم ونُعتِب الأميرَ، فليندبنا الأميرُ إليهم فإنّا حيث سَرّه. وقام إليه زُهْرة بن حَوِيةِ وهو شيخ كبيرٌ لا يستتمّ قائماً حتّى يؤخذَ بيَدِه. فقال له: أصلح اللهُ الأميرَ! إنّك

إنَّما تَبعَث إليهم الناسَ متقطِّعين، فاستنفِر الناسَ إليهم كافةً فليَنفروا إليهم كافَّة، وابعثْ عليهم رجلاً ثَبْتا شُجاعاً مجرّباً للحرب ممّن يرى الفِرارَ هَضْماً وعاراً والصبْر مجداً وكرماً. فقال الحجّاج: فأنت ذاك فاخرج، فقال: أصلح الله الأميرَ؟ إنما يصلح للناس في هذا رجل يَحْمِل الرّمح والدّرع، ويهزّ السيفَ، ويَثبت على مَتن الفرس، وأنا لا أطيق من هذا شيئاً، وقد ضعف بصري وضعفتُ، ولكن أخرْجني في الناس مع الأمير، فإني إنما أثبت على الراحلة فأكون مع الأمير في عسكره وأشيرَ عليه برأيي. فقال له الحجّاج: جزاك الله عن الإسلام وأهلِه في أوّل الإسلام خيراً، وجزاك اللهُ عن الإسلام في آخِرِ الإسلام خيراً، فقد نصحت وصدقتَ، أنا مُخْرِج الناسَ كافَّة. ألاَ فسيروا أيّها الناس. فانصرف الناسُ فجعلوا يَسيرون وليس يَدرون مَنْ أميرُهم!

وكتب الحجّاج إلى عبد الملك بن مروان:

أمّا بعد، فإني أخبر أميرَ المؤمنين أكرَمه الله أنّ شبيباً قد شارف المدائن وإنّما يريد الكوفَة، وقد عجز أهلُ الكوفة عن قتاله في مواطن كثيرة، في كلها يَقتُلُ أمراءهَم، ويَفُلّ جنودهم؛ فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يبعثَ إلى أهل الشأم فيُقاتِلوا عدوَّهم ويأكلوا بلادَهم فلْيَفعل، والسلام.

فلمّا أتى عبدَ الملك كتابُه بعث إليه سُفْيان بن الأبرد في أربعة آلاف، وبعث إليه حبيبَ بن عبد الرحمن الحكَميّ من مَذْحج في ألفين، فسَرَّحهم حين أتاه الكتاب إلى الحجّاج، وجعل أهلُ الكوفة يتجهزّون إلى شبيب ولا يدرون مَن أميرُهم! وهم يقولون: يبعث فلاناً أو فلاناً، وقد بعث الحجّاج إلى عتّاب بن وَرْقاء ليأتيَه وهو على خَيْل الكوفة مع المهلَّب، وقد كان ذلك الجيش من أهل الكوفة هم الّذين كان بِشْر بنُ مروانَ بعث عبد الرحمن بن مِخْنَف عليهم إلى قطريّ، فلم يلبث عبدُ الرحمن بنُ مِخْنَف إلاّ نحواً من شهرين حتّى قدم الحجّاج على العراق، فلم يلبثْ عليهم عبدُ الرحمن بنُ مخنف بعد قدوم الحجّاج إلاّ رَجبَ وشعبان، وقَتَل قطريٌّ عبدَ الرحمن في آخرِ رمضان، فبعث الحجّاج عتّاب بنَ ورقاءَ على ذلك الجيش من أهل الكوفة الّذين أصيب فيهم عبدُ الرحمن بنُ مخنف، وأمر الحجّاجُ عَتّاباً بطاعةِ المهلَّب، فكأنّ ذلك قد كَبُر على عتّاب، ووقع بينَه وبين المهلَّب شرّ، حتّى كتب عَتّاب إلى الحجّاج يَستعفِيه من ذلك الجيش ويضمُّه إليه، فلمّا أن جاءه كتابُ الحجّاج بإتيانه سُرَّ بذلك.

قال: ودعا الحجّاج أشرافَ أهل الكوفة؛ فيهم زُهرةُ بن حَويَّة السَّعْديّ من بني الأعرَج، وقَبيصة بن والق التَّغْلبيّ، فقال لهم: مَن تَرون أن أبعثَ على هذا الجيش؟ فقالوا: رأيُك أيّها الأمير أفضل؛ قال: فإني قد بعثتُ إلى عتّاب بنَ ورقاء؛ وهو قادمٌ عليكم الليلة أو القابلة، فيكون هو الّذي يسير في النّاس؛ قال زُهْرة بن حَويَّة: أصلحَ الله الأميرَ! رَمَيْتَهم بِحَجَرِهِم، لا والله لا يَرجع إليك حتّى يَظفَر أو يُقتَل. وقال له قَبيصةُ بن وَالق: إني مُشيرٌ عليك برأيي، فإن يكن خطأ فبعدَ اجتهادي في النصيحة لأمير المؤمنين وللأمير ولعامّة المسلمين، وإن يك صَواباً فاللهُ سدَّدني له؛ إنّا قد تحدّثنا وتحدّث الناسُ أنّ جيشاً قد فَصل إليكَ من قِبلَ الشأم، وأن أهلَ الكوفة قد هُزموا وفُلُّوا واستَخَفّوا بالصبر، وهان عليهم عارُ الفِرار. فقلوبهم كأنّها ليست فيهم، كأنّما هي في قوم آخرين، فإن رأيتَ أن تبعث إلى جيشك الّذي أمْدِدتَ به من أهلِ الشأم، فيأخذوا حِذْرَهم، ولا يبيتُوا إلاّ وهم يرون أنّهم مُبيَّتون فعلت، فإنك تُحارب حُوَّلا قُلَّباً، ظَعّانا رَحّالا، وقد جهزّتَ إليه أهل الكوفة ولستَ واثِقاً بهم كلّ الثقة، وإنما إخوانهم هؤلاء القوم الّذين بُعثوا إليك من الشأم. إنّ شبيباً بينا هو في أرض إذْ

هو في أخرى، ولا آمن أن يأتيَهم وهم غارّون فإن يَهلِكوا نَهلك ويهلك العراق. فقال: للهِ أنت! ما أحسن ما رأيت! وما أحسن ما أشرت به عليّ!

قال: فبعث عبد الرحمن بن الغرِق مَولى عَقيل إلى مَنْ أقبل من أهل الشأم، فأتاهم وقد نـزلوا هِيتَ بكتاب من الحجّاج:

أمّا بعد، فإذا حاذَيْتم هِيتَ فدَعُوا طريقَ الفُرات والأنبار، وخذوا على عين التّمر حتّى تقدمُوا الكوفة إن شاء الله، وخذوا حذركم، وعجِّلوا السَّيرَ. والسلام.

فأقبل القومُ سِراعاً. قال: وقدم عتّاب بنُ وَرْقاء في اللّيلة الّتي قال الحجّاج إنّه قادم عليكم فيها، فأمَرَه الحجّاج فخرج بالناس فعسكر بهم بحَمّام أعينَ، وأقبل شبيب حتى انتهى إلى كَلْوَاذَا فقطع منها دِجلة، ثم أقبل حتّى نَزَل مدينة بَهُرَسير الدّنيا، فصار بينه وبين مطرّف بن المغيرة بن شُعْبة جِسر دِجْلة.

فلمّا نزل شبيب مدينةَ بَهُرَسير قَطَع مطرِّف الجِسْر، وبعث إلى شبيب: أن ابعثْ إليّ رجالاً من وجوه أصحابك أدارِسهم القرآن، وأنظر فيما تدعو إليه. فبعث إليه شبيب رجالاً من وجوهِ أصحابه؛ فيهم قعْنَب وسُوَيد والمحلّل، فلمّا أرادوا أن ينزلوا في السفينة بعث إليهم شبيب ألّا تدخلوا السفينة حتّى يَرجع إليّ رسولي من عند مطرّف، فرجع الرسولُ. وبعث إلى مطرّف أن ابعث إليّ من أصحابِك بعَددِ أصحابي يكونوا رهناً في يدي حتى تردّ عليّ أصحابي. فقال مطرّف لرسوله: الِقَه وقل له: كيف آمَنك أنا على أصحابي إذا أنا بعثتُهم الآن إليك، وأنتَ لا تأمنني على أصحابك! فرجع الرسولُ إلى شبيب فأبلَغه، فأرسَل أليه شبيب: إنّك قد علمتَ أنّا لا نستحلّ الغَدْر في ديننا، وأنتم تفعلونه وتستحِلّونه، فبعث إليه مطرِّف الرّبيعَ بنَ يزيد الأسَديّ وسليمانَ بن حذيفة بن هلال بن مالك المُزَنيّ ويزيد بن أبي زياد مولاه وصاحب حَرَسه، فلمّا صاروا في يديْ شَبيب سرّح إليه أصحابه، فأتوا مطرّفاً فمكثوا أربعة أيّام يتراسلون، ثمّ لم يتّفقوا على شيء، فلمّا تبيّن لشبيب أنّ مطرّفاً غير تابعِه ولا داخل معه تهيّأ للمسير إلى عتّاب بن وَرْقاء وإلى أهل الشأم.

قال أبو مِخنَف: فحدّثني فَروة بنُ لَقِيط أنّ شبيباً دعا رؤوس أصحابِه فقال لهم: إنّه لم يثبِّطني على رأي قد كنتُ رأيته إلّا هذا الثّقفيّ منذ أربعة أيّام، قد كنتُ حدّثتُ نفسي أن أخرُج في جريدةِ خيل حتّى ألقَى هذا الجيش المُقْبِل من الشأم رجاءَ أن أصادِف غِرّتهم أو يَحذَروا فلا أبالي كنت ألقاهم منقطعين من المِصْر، ليس عليهم أمير كالحجّاج يَستندون إليه ولا مصرٌ كالكوفة يَعتصِمون به؛ وقد جاءتني عيوني اليوم فخبـرّوني أن أوائلَهم قد دخلوا عَينَ التّمر، فهم الآن قد شارفوا الكوفة، وجاءتني عُيوني من نحو عَتّاب بن وَرْقاء فحدّثوني أنه قد نزل بجماعة أهلِ الكُوفة الصّراة، فما أقرب ما بيننا وبينهم! فتيسّروا بنا للمَسير إلى عَتّاب بنِ وَرْقاء.

قال: وخاف مطرّف أن يَبلُغ خبرُه وما كان من إرساله إلى شبيب الحجّاج، فخرج نحو الجبال، وقد كان أراد أن يقيمَ حتّى ينظر ما يكون بين شبيب وعَتّاب، فأرسل إليه شبيب: أمّا إذ لم تُبايعني فقد نبذتُ إليك على سواء، فقال مطرّف لأصحابه: اخرجوا بنا وافرين فإنّ الحجّاج سيقاتِلُنا، فيقاتلنا وبنا قوّةٌ أمثَلُ. فخرج ونزل المدائن؛ فعَقَد شبيب الجسْر، وبعث إلى المدائن أخاه مصاداً، وأقبل إليه عَتّاب حتّى نزل بسُوق حَكَمة، وقد أخرج الحجّاج جماعةَ أهلِ الكوفة مقاتلتهم، ومن نشط إلى الخروج من شبابهم، وكانت مقاتلتهم أربعين ألفاً سوى الشّباب، ووافى مع عَتّاب يومئذ أربعون ألفاً من المقاتِلة وعشرة آلاف من الشّباب بِسُوقِ حَكَمة، فكانوا

خمسين ألفاً، ولم يَدَع الحجّاج قُرَشيّا ولا رجلا من بُيوتاتِ العَرَب إلاّ أخرَجه.

قال أبو مِخنَف: فحدّثني عبدُ الرحمن بنُ جُندَب، قال: سمعتُ الحجّاج وهو على المِنبَر حين وجّه عَتّاباً إلى شبيب في الناس وهو يقول: يا أهل الكوفة، اخرُجوا مع عَتّاب بنِ وَرْقاء بأجمَعكم، ولا أرَخّص لأحد من الناس في الإقامة إلاّ رجلا قد ولّيناه من أعمالنا. ألاَ إنّ للصابر المجاهد الكرامة والأثَرة، ألا وإنّ للناكل الهارِبِ الهَوانَ والجَفْوة. والّذي لا إله غيره لئن فعلتم في هذا الموطنِ كفِعلكم في المواطن الّتي كانت لأولِيَنّكم كنفا خَشناً، ولأعْرُكنّكم بِكَلكلٍ ثقيل.

ثم نزل، وتَوافَى الناس مع عتّاب بسُوقِ حَكَمة.

قال أبو مِخنَف: فحدّثني فَروةُ بنُ لقيط، قال: عرضَنا شبيبٌ بالمدائن فكنّا ألف رجل، فقام فينا فحَمِد الله وأثنى عليه ثمّ قال: يا معشرَ المسلمين؛ إنّ الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مائة ومائتان وأكثر من ذلك قليلاً، وأنقص منه قليلاً، فأنتم اليومَ مئون ومئون، ألا إني مصلٍّ الظهرَ ثمّ سائِر بكم. فصلّى الظهر ثمّ نُودِي في الناس: يا خيل اللّهِ اركبي وأبشِري، فخرج في أصحابه، فأخذوا يتخلّفون ويتأخّرونَ، فلمّا جاوَزْنا ساباطَ ونزلنا معه قَصّ علينا وذَكّرنا بأيّام الله، وزَهّدنا في الدنيا، ورغّبنا في الآخرة ساعةً طويلة، ثمّ أمر مؤذّنه فأذّن، ثمّ تقدّم فصلّى بنا العصر، ثمّ أقبَلَ حتّى أشرف بنا على عَتّاب بنِ وَرْقاء وأصحابِه، فلما أن رآهم من ساعتِهِ نزل وأمر مؤذّنه فأذّن، ثمّ تقدم فصلّى بنا المغرب، وكان مؤذّنه سلاّم بنُ سَيّار الشّيبانيّ، وكانت عيونُ عَتّاب بن وَرْقاء قد جاؤوه فأخبَروه أنّه قد أقبل إليه، فَخرَج بالناس كلّهم فعبّأهم، وكان قد خندَق أوّل يوم نزل، وكان يُظهِر كلّ يوم أنّه يريد أن يسير إلى شبيب بالمدائن، فبلغ ذلك شبيباً، فقال: أسيرُ إليه أحَبّ إليّ من أن يسير إليّ، فأتاه، فلمّا صَفّ عَتّاب الناسَ بعثَ على ميمنته محمّد بن عبدِ الرحمن بنِ سعيد بنِ قيس، وقال: يابن أخي، إنّك شريف فاصبر وصابِر، فقال: أمّا أنا فواللّهِ لأقاتلنّ ما ثَبت معي إنسان. وقال لقَبيصَة بن والق - وكان يومئذ على ثُلثُ بني تَغلِب: اكفِني المَيسَرة، فقال: أنا شيخٌ كبير، كثيرٌ مني أن أثبت تحتَ رايتي، وقد انبتّ مني القِيام، ما أستَطيع القيام إلاّ أن أقام؛ ولكنّ هذا عبيدالله بن الحُليس ونُعَيم بن عُلَيم التَّغلَبيّان - وكان كل واحد منهما على ثُلث من أثلاث تَغلِب - فقال: ابعثْ أيّهما أحببتَ، فأيّهما بعثت فلتبعثنّ ذا حَـزم وعَزْم وغَنـاء. فبعث نُعيم بن عُلَيم على ميسرته، وبعث حنظلة بن الحارث اليربوعيّ - وهو ابن عم عَتّاب شيخ أهل بيته - على الرّجّالة، وصفّهم ثلاثَةَ صُفُوف: صفٌّ فيهم الرجال معهم السيوف، وصفّ وهم أصحاب الرّماح، وصفّ فيه المُرامِية، ثمّ سار فيما بين الميمنة إلى الميسرة يمرّ بأهلِ راية راية؛ فيحثّهم على تَقوى الله، ويأمُرهم بالصّبر ويَقصّ عليهم.

قال أبو مِخنَف: فحدّثني حَصيرة بنُ عبد الله أن تميم بن الحارث الأزديّ قال: وَقف علينا فَقصّ علينا قصصاً كثيراً، كان ممّا حفِظتُ منه ثلاثَ كلمات؛ قال: يا أهلَ الإسلام، إنّ أعظم الناس نصيباً في الجنّة الشهداء، وليس الله لأحد من خلقهِ بأحمَدَ منه للصّـابرين، ألا تَـرَون أنّه يقـول: ﴿ واصْبِرُوا إنَّ اللهَ مَـعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١)! فمن حمِد اللهُ فعلَه فما أعظم درجته، وليس الله لأحد أمقَتَ منه لأهلِ البَغْي؛ ألا ترون أنّ عدوّكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه، لا يرون إلاّ أنّ ذلك لهم قُرْبةً عند الله! فهم شِرار أهلِ الأرض وكِلاب

(١) سورة الأنفال: ٤٦.

أهلِ النار، أين القصاص؟ قال ذلك فلم يُجبْه واللّهِ أحدٌ مِنّا، فلمّا رأى ذلك، قال: أين مَنْ يَروِي شعرَ عَنْتَرَة؟ قال: فلا والله ما رَدّ عليه إنسان كلمةً. فقال: إنّـا لله! كأني بكم قد فررْتُم عن عَتَّاب بن وَرْقاء وتركتموه تَسِفي في استهِ الرِّيح.

ثم أقبل حتى جلس في القلب معه زُهْرة بن حَوِيَّة جالس وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وأبـو بكر بن محمد بن أبي جَهْم العَدويّ. وأقبَل شبيبٌ وهو في ستّمائة وقد تخلّف عنه من الناس أربعمائة، فقال: لقد تخلّف عنّا من لا أحِبّ أن يُرَى فينا. فبعث سُوَيد بن سُلَيم في مائتين إلى المَيْسرة، وبعث المحلّل بن وائل في مائتين إلى القلب، ومضى هو في مائتين إلى المَيْمنة بين المغرب والعشاء الآخرة حين أضاء القمرُ، فناداهم: لِمَن هذه الرايات؟ قالوا: راياتُ ربيعة. فقال: شبيب: راياتٌ طالمًا نصرت الحقّ، وطالما نصرت الباطل، لها في كلّ نصيبٌ، والله لأجاهدنَّكم محتسباً للخير في جِهادِكم، أنتم ربيعة وأنـا شبيب، أنا أبـو المدلّـة، لا حُكْم إلا لِلْحَكَم، اثبتُوا إن شئتمْ. ثمّ حَمَل عليهم وهو على مسنَّاة أمامَ الخَندق فَفضّهم، فثبت أصحابُ رايات قبيصةَ بن والق وعبيد بن الحُلَيْس ونُعَيم بن عليم، فقُتلوا، وانهزمت الميسرة كلُّها وتَنادَى أنـاس من بني تَغلِب: قُتِل قبيصة بن والق. فقال شبيب: قتلتم قبيصةَ بن والق التغلبيّ يا مَعشر المسلمين! قال الله: ﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فانْسَلَخَ مِنْها فأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ﴾[(١)]، هذا مثل ابن عمّكم قبيصة بن والق، أتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم فأسلَم، ثمّ جاء يُقاتلكم مع الكافرين! ثمّ وقف عليه فقال: وَيْحَك! لو ثبتَّ على إسلامك الأوّل سعدتَ، ثمّ حمل من الميسرة على عَتَّاب بنِ وَرْقاءَ، وحمل سُوَيد بن سليم على الميمنة وعليها محمّد بن عبد الرحمن، فقاتَل في الميمنة في رجال من بني تميم وهَمْدان، فأحسنوا القتال، فما زالوا كذلك حتّى أتُوا فقيل لهم: قُتِل عَتَّاب بن ورقاء، فانفضّوا، ولم يزل عَتّاب جالساً على طِنْفِسّة في القَلب وزُهرة بن حَوِيَّة معه، إذ غَشِيَهم شبيب، فقال له عَتّاب: يا زُهرة بن حَوِيَّة، هذا يومٌ كَثُر فيه العدد، وقَـلَّ فيه الغَنـاء، والهفي على خمسمائة فارس من نحو رجال تميم معي من جميع الناس! ألا صابرٌ لعدُوّه! ألا مُؤاسٍ بنَفْسه! فانفَضّوا عنه وتَركوه، فقال له زهرة: أحسنتَ يا عَتّاب، فعلتَ فعلَ مثلك، والله والله لو منحتَهم كتِفَك ما كان بقاؤك إلّا قليلاً، أبشر فإني أرجو أن يكون اللهُ قد أهدى إلينا الشَّهادة عند فَناء أعمارِنا؛ فقال له: جَزاك الله خيراً ما جَزَى آمراً بمعروف وحاثاً على تَقوَى.

فلمّا دنا منه شبيب وثب في عصابة صبرتْ معه قليلة، وقد ذهب الناسُ يميناً وشمالاً، فقال له عمّار بنُ يزيدَ الكلبيّ من بني المدينة: أصلَحَك الله! إنّ عبدَ الرحمن بنَ محمَّد قد هَرَب عنك فانصَفَق معه أناسٌ كثير، فقال له: قد فرّ قبل اليوم، وما رأيتُ ذلك الفتى يُبالي ما صنع، ثمّ قاتلهم ساعة وهو يقول: ما رأيتُ كاليوم قطّ مَوْطناً لم أبْتَلَ بمثله قطّ أقلّ مقاتلاً ولا أكثر هارِباً خاذلاً؛ فرآه رجلٌ من بني تغلِب من أصحابِ شبيب من بني زيد بن عمرو يقال له عامر بن عمرو بن عبد عَمرو، وكان قد أصابَ دَماً في قومه، فلَحِق بشبيب، وكان من الفرسان، فقال لشبيب: والله إني لأظنّ هذا المتكلّم عَتّابَ بنَ وَرْقاء! فحمل عليه فطعَنَه، فوَقَع فكان هو وليَ قتلَهُ. ووطِئَتِ الخيلُ زُهرة بن حَوِيَّة، فأخذ يَذُبّ بسيفه وهو شيخ كبير لا يستطيع أن يقومَ، فجاء الفضلُ بنُ عامر الشَّيبانيّ فَقَتله، فانتهى إليه شبيب فوجَده صريعاً فعَرَفه، فقال: مَنْ قَتَل هذا؟ فقال الفضل: أنا قتلته، فقال شبيب: هذا زُهْرة حَوِيّة، أما والله لئن كنتَ قتِلت على ضلالة لربَّ يوم من أيّامِ المسلمين قد حَسُن فيه

(١) سورة الأعراف: ١٧٥.

بلاؤك، وعظم فيه غنَاؤكَ! ولربّ خيلٍ للمشركين قد هزمْتَها، وسَرِيَّة لهم قد ذعرتها وقرية من قراهم جَمّ أهلُها قد افتتحتَها، ثم كان في عِلم الله أن تُقتَل ناصراً للظَّالمين!

قال أبو مِخنَف: فحدّثني فَرْوة بنُ لقَيط قال: رأيناه واللهِ توجّعَ له، فقال رجل من شُبَّان بكر بنِ وائل: واللهِ إنّ أمير المؤمنين منذ اللّيلة ليتوجَّع لرجل من الكافرين! قال: إنَّك لستَ بأعرف بضلالتهم منّي، ولكني أعرف من قديم أمرِهم مالا تعرف؛ ما لو ثبتوا عليه كانوا إخواناً. وقُتِل في المعركة عمَّار بن يزيدَ الكلبيّ، وقُتل أبو خَيثمة بن عبد الله يومئذ، واستَمكن شبيبٌ من أهل العسكر والناس، فقال: ارفعوا عنهم السيف، ودعا إلى البيعة، فبايعه الناس من ساعتهم، وهربوا من تحت ليلتهم، وأخذ شبيب يُبايعهم، ويقول: إلى ساعة يَهْرُبُون. وحوى شبيب على ما في العسكر، وبعث إلى أخيه، فأتاه من المدائن، فلمّا وافاه بالعسكر أقبَل إلى الكوفة وقد أقام بعسكره ببيت قرّة يومين، ثم توجَّه نحو وجه أهلِ الكوفة، وقد دخل سُفْيان بنُ الأبرد الكلبيّ وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مَذْحِج فيمن معهما من أهل الشـأم الكوفـة، فشَدّوا للحَجّـاج ظهرَه، فاستغنى بهما عن أهل الكوفة، فقام على مِنبر الكوفة فحَمِد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمَّا بعد يا أهل الكوفة، فلا أعزَّ الله من أراد بكم العِزّ، ولا نَصرَ من أراد بكم النَّصْر، اخرُجوا عنَّا، ولا تَشهَدوا معنا قتال عدوّنا، الحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى، ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملاً، ومن لم يكن شَهِدَ قتالَ عَتَّاب بنِ وَرْقاء.

قال أبو مِخنَف: فحدّثني فروة بن لقيط، قال: والله لخَرَجْنا نَتْبَع آثارَ الناس، فانتهي إلى عبد الرحمن بن محمَّد بن الأشعث ومحمَّد بن عبد الرحمن بنِ سعيد بنِ قيس الهمْدانيّ، وهما يَمشِيان كأني أنظر إلى رأسِ عبد الرحمن قد امتلأ طِيناً، فصددتُ عنهما، وكرهت أن أذْعَرَهما، ولو أني أوذِن بهما أصحاب شبيب لقُتلا مكانَهما، وقلت في نفسي: لئن سُقْت إلى مِثْلِكما من قومي القتلَ ما أنا برشيدِ الرأي؛ وأقبل شبيبٌ حتّى نزل الصَّراة.

قال أبو مِخنَف: فحدّثني موسى بن سوار أنّ شبيباً خرج يريدُ الكوفَة، فانتهى إلى سُورا، فندب الناس، فقال: أيُّكم يأتيني برأس عامل سُورا؟ فانتدب له بَطِينٌ وقعنَب وسُوَيد ورجُلان من أصحابه، فساروا مغذين حتَّى انتهوا إلى دار الخَراج والعُمَّال في سَمَرَّجة، فدخلوا الدّار وقد كادُوا الناسَ بأن قالوا: أجيبو الأميرَ، فقالوا: أي الأمراء؟ قالوا: أميرٌ خرج من قِبَل الحجَّاج يريد هذا الفاسق شبيباً ،فاغترّ بذلك العامل منهم. ثم إنهم شَهَروا السيوف وحَكَّموا حين وصلوا إليه فضربوا عنقَه، وقبضـوا على مـا كان من مـال، ولحقوا بشبيب، فلمَّا انتهوا إليه قال: ما الَّذي أتيتُمونا به؟ قالوا: جئناك برأس الفاسق وما وجدنا من مال، والمال على دابَّة في بُدور ه، فقال شبيب: أتيتمونا بفِتنة للمسلمين، هلُمّ الحَرْبة يا غلام، فخرّق بها البُدور، وأمر فنُخِس بالدّابة والمالُ يتناثر من بدوره حتّى وردت الصَّراة، فقال: إن كان بقي شيء فاقذفه في الماء. ثمّ خرج إليه سُفْيان بن الأبرد مع الحجَّاج، وكان أتاه قبلَ خروجه معه، فقال: ابعَثْني أستقبِله قبل أن يأتيَك، فقال: ما أحِبّ أن نفترق حتى ألقاه في جماعتكم والكُوفةُ في ظهورنا والحصنُ في أيدينا.

وفي هذه السنة دَخَل شبيبٌ الكوفَة دَخلَتَهُ الثانية.

ذكر الخبر عن ذلك وما كان من حربه بها الحجَّاج.

قال هشام : حدّثني أبو مِخْنَف ، عن موسى بن سوار ، قال : قَدِم سَبْرة بن عبد الرحمن بن مِخْنَف من الدَّسكرة الكوفةَ بعد ما قدم جيش الشأم الكوفة ، وكان مُطَرّف بن المغيرة كَتَب إلى الحجّاج : إنّ شبيباً قد أطلّ عليّ ، فابعث إلي المَدَائن بَعْثاً . فبعث إليه سبْرَة بن عبد الرحمن بن مخنف في مائتي فارس ، فلمّا خرج مطرّف يريد الجبل خرج بأصحابه معه وقد أعلمهم ما يريد ، وكتم ذلك سَبْرة ، فلمّا انتهَى إلى دَسْكرة الملك دعا سَبْرة فاعلمه ما يريد ، ودعاه إلى أمره ، فقال له : نعم أنا معك ، فلمّا خرج من عنده بعث إلى أصحابِه فجمعَهُم ، وأقبل بهم فصادف عَتَّاب بنَ وَرْقَاء قد قُتِل وشبيباً قد مضى إلى الكوفة ، فأقبل حتى انتهى إلى قرية يقال لها بيطرى ، وقد نزل شبيب حَمَّام عُمر ، فخرج سَبْرة حتّى يعبر الفرات في معبر قرية شاهي ، ثم أخذ الظَّهر حتّى قَدِم على الحجَّاج ، فوجه أهل الكوفة مَسْخوطاً عليهم ، فدخل على سُفْيان بن الأبرَد ، فقصّ قصّته عليه وأخبره بطاعته وفراقِه مُطَرّفاً ، وأنه لم يشهد عَتَّاباً ولم يشهد هزيمةً في موطن من مواطن أهلِ الكوفة ، ولم أزل للأمير عاملا ، ومعي مائتا رجل لم يشهدوا معي هزيمةً قطّ ، وهم على طاعتهم ولم يَدخلوا في فتنة . فدخل سُفيانُ إلى الحجّاج فخَبَّره بخبر مَا قَصّ عليه سَبْرة بن عبد الرحمن ، فقال : صَدقَ وبرّ ! قُلْ له : فليشهد معنا لقاءَ عدوّنا ، فخرج إليه فأعلمه ذلك . وأقبَل شبيب حتّى نزل موضع حَمَّام أعين ، ودعا الحجَّاج الحارث بن معاوية بن أبي زرعة بن مسعود الثّقفي فوجّهه في ناس من الشّرطَ لم يكونوا شهدوا يوم عَتّاب ، ورجالا كانوا عمَّالا في نحو من مائتي رجل من أهل الشأم ، فخرج في نحو من ألف ، فنزل زُرَارَة ، وبلغ ذلك شبيباً ، فتعجَّل إليه في أصحابه ، فلمّا انتهى إليه حمل عليه فقَتَلَه ، وهَزَم أصحابه ، وجاءت المنهزمة فدخلوا الكوفة ، وجاء شبيب حتّى قطع الجِسر ، وعسكر دونه إلى الكوفة ، وأقام شبيب في عسكره ثلاثةَ أيّام ، فلم يكن في أول يوم إلّا قتل الحارث بنُ معاوية ، فلمّا كان في اليوم الثاني أخرج الحجَّاج مواليَهُ وغِلمانَه عليهم السلاح ، فأخذوا بأفواهِ السِّكَك ممّا يلي الكُوفَة ، وخرج أهلُ الكوفة فأخذوا بأفواه سِكَكهم ، وخشوا إن لم يخرجوا مَوْجدة الحجَّاج وعبد الملك بن مروان . وجاء شبيب حتى ابتني مسجداً في أقصى السَّبَخة مما يلي موقفَ أصحاب القتّ عند الأيوان ، وهو قائمٌ حتّى الساعة ، فلمّا كان اليومِ الثالث أخرج الحجَّاج أبا الوَرْد مولى له عليه تِجْفاف ، وأخرج مجفَّفة كثيرة وغِلماناً له ، وقالوا : هذا الحجَّاج ، فَحَمَل عليه شبيبٌ فقتله ، وقال : إن كان هذا الحجَّاج فقد أرَحْتُكم منه .

ثم إن الحجّاج أخرج له غلامه طُهمانَ في مِثَل تلك العُدّة على مثل تلك الهيئة ، فَخرج عليه شبيبٌ فقتله ، إن كان هذا الحجَّاج فقد أرَحْتُكم منه .

ثم إنّ الحجَّاج خرج ارتفاعَ النهار من القَصْر فقال : ائتوني ببَغْل أركبهُ ما بَيْني وبين السَّبَخة ، فأتي ببغل محجَّل ، فقيل له : إن الاعاجمَ أصلحك اللهّ تَطيَّرُ أن تَركَب في مثل هذا اليوم مثلَ هذا البَغل ، فقال : ادنُوه مِنّي ، فإنّ اليوم يومٌ اغرّ محجَّل ، فركبه ثمّ خرج في أهل الشأم حتّى أخذ في سكة البريد ، ثمّ خرج في اعلى السَّبَخة ، فلمّا نظر الحجّاج إلى شبيب وأصحابه نزل ، وكان شبيب في ستّمائة فارس ، فلما رأى الحجّاج قد خرج إليه أقبل بأصحابه ، وجاء سبْرة بن عبد الرحمن إلى الحجَّاج فقال : أين يأمرني الأمير أن أقف ؟ فقال : قِفْ على أفواه السكَك ، فإن جاؤوكم فكان فيكم قتالٌ فقاتِلوا ، فانطَلَق حتّى وَقف في جماعة الناس ، ودعا الحجَّاج بكرسي له فقعَدَ عليه ، ثم نادَى : يا اهل الشأم ، أنتم أهلُ السَّمع والطاعة والصَّبر واليَقين ، لا يغلبنّ باطلُ هؤلاء الأرجاس حقَّكم ، غضّوا الأبصار ، واجثُوا على الرّكَب ، واستقبلوا القوم بأطراف

الأسِنَّة ، فجثَوا على الركب ، وأشرَعوا الرّماح ، وكأنَّهم حَرّة سوداء ، وأقبَل إليهم شبيب حتّى إذا دنا منهم عبّى أصحابه ثلاثة كَرَاديس ، كتيبة معه ، وكَتيبة مع سُويد بن سُليم ، وكتيبة مع المحلِّل بن وائل ، فقال لسويد : احمِل عليهم في خيلك ، فحَمَل ، عليهم ، فثَبتوا له ، حتّى إذا غشيَ أطرافَ الأسنَّة وثبوا في وجهه ووجوه أصحابه ، فطَعنوهم قُدُماً حتّى انصرف ، وصاحَ الحجّاج : يا أهل السَّمع والطاعة ، هكذا فافعلوا . قدِّم كُرسيّ يا غلام ، وأمر شبيب المحلِّل فَحَمَل عليهم ، ففعلوا به مِثلَ ما فعلوا بسُويد ، فناداهم الحجّاج ، يا أهلَ السمعِ والطاعة ، هكذا فافعلوا ، قدِّمْ كُرْسيّ يا غلام .

ثمّ إنّ شبيباً حَمَل عليهم في كتيبته فَثَبتُوا له ، حتّى إذا غشى أطرافُ الرّماح وثَبوا في وجهه ، فقاتَلَهم طويلا . ثم إنّ أهل الشأم طَعَنوه قُدُما حتّى ألْحَقُوه بأصحابه ، فلمّا رأى صبرَهم نادى : يا سويد ، احمِل في خَيْلك على أهل هذه السكة - يَعني سِكّة لحّام جرير - لعلك تزيل أهلَها عنها ، فتأتي الحجّاج من ورائه ، ونَحمل نحن عليه من أمامه . فانفرد سُوَيْد بن سُليم فَحَمَل على أهل تلك السكة ، فرمى من فوق البيوت وأفواه السكك ، فانصَرفَ ، وقد كان الحجّاج جعل عروة بن المغيرة بن شعبة في نحو من ثلاثمائةرجل من جهل الشأمِ رِدْءاً له ولأصحابه لئلاّ يُوْتَوا من ورائِهِ .

قال أبو مخنف : فحدّثني فَروة بن لَقيط : إنّ شبيباً قال لنا يومئذ : يا أهل الأسلام إنّما شريْنا لله ، ومن شرى لله لم يكبر عليه ما أصابه من الأذى والألم في جَنْب الله . الصَّبرَ الصّبر ؛ شَدّة كشَدّاتكم في مواطِنِكم الكريمة . ثمّ جمع أصحابَه ، فلمّا ظنّ الحجّاج أنه حاملٌ عليهم قال لأصحابه : يا أهل السمع والطاعة ، اصبِروا لهذه الشّدّة الواحدة ، ثمّ وربِّ السماء ما شيءٌ دونَ الفتح . فَجثَوا على الرُّكَب ، وحَمَل عليهم شبيب بجميع أصحابه ، فلمّا غشيهم نادى الحجّاج بجماعة الناس ، فوثبوا في وجهه ، فما زالوا يَطعُنون ويَضربون قُدماً ويَدفَعون شبيباً وأصحابَه وهو يقاتِلُهم حتّى بلغوا موضع بُسْتان زائدة ، فلما بلغ ذلك المكان نادى شبيب أصحابَه : يا أولياءَ الله ، الأرضَ الأرض ، ثمّ نزل وأمر أصحابه فنزل نصفُهم وترك نصفهم مع سُوَيد بن سليم ، وجاء الحجّاج حتى انتهى إلى مسجد شبيب ، ثم قال : يا أهل الشأم ، يا أهلَ السَّمع والطاعة ، هذا أوّل الفَتْح والَّذي نفسُ الحَجّاج بيَده! وصَعد المسجد معه نحوٌ من عشرين رجلاً معهم النَّبْل ، فقال : إن دَنَوْا منا فارشقوهم ، فاقتتلوا عامَّة النهار من أشدّ قتال في الأرض ، حتّى أقرّ كل واحد من الفريقين لصاحبه . ثمّ إنّ خالد بن عَتّاب قال للحجّاج : ائذَنْ لي في قتالهم فإني مَوْتور ، وأنا ممّن لا يُتّهم في نصيحة ، قال : فإني قد أذنْت لك ، قال : فإني آتيهم من ورائهم حتّى أغيرَ على عسكرهم ؛ فقال له : إفعل ما بدا لك ، قال : فخرج معه بعصابة من أهل الكوفة حتّى دخل عسكَرهم من ورائهم ، فقتل مصَاداً أخا شَبيب ، وقتَل غزالةَ امرأته ، قتلَها فروةُ بنُ الدّفان الكَلبيّ . وحرّق في عسكره ، وأتيَ ذلك الخبرُ الحَجّاج وشبيباً ، فأمّا الحجّاج وأصحابه فكَبّروا تكبيرة واحدة ، وأمّا شبيب فوثب هو وكلّ راجل معه على خيولهم ، وقال الحجّاج لأهل الشأم : شُدّوا عليهم فإنّه قد أتاهم ما أرعب قلوبَهم . فشَدّوا عليهم فَهزَموهم ، وتَخلّف شبيب في حامِيَة الناس .

قال هشام : فحدّثني أصغر الخارجيّ ، قال : حدّثني من كان مع شبيب قال : لما انهزم الناسُ فخرج من الجسْر تَبعه خيل الحجّاج ، قال فجعل يَخفِق برأسه ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، التَفِت فانظرْ مَن خَلفَك ، قال : فالتفتَ غيرَ مكترث ، ثم أكبّ يخفِق برأسه ؛ قال : ودَنَوا منّا ، فقلنا : يا أمير المؤمنين ، قد دنَوا منك ، قال : فالتفت والله غيرَ مكترِث ، ثمّ جعل يخفق برأسه . قال : فبعث الحجّاج إلى خيله أن دعوه في حرق الله

ونارِه ، فتَركوه ورجعوا .

قال هشام : قال أبو مِخنَف : حدّثني أبو عمرو العذريّ ، قال : قَطَع شبيب الجِسْر حين عَبَر . قال : وقال لي فَرْوة : كنتُ معه حين انهزمْنا فما حَرّكَ الجسر ، ولا اتّبعونا حتّى قَطَعنا الجسر .ودخل الحجّاج الكُوفَة ، ثم صَعِد المِنبرَ فحَمَدَ الله ، ثم قال : والله ما قُوتِلَ شبيب قَبْلها ، ولّى ولله هارباً ، وترك أمرأته يُكسَر في آستِها القَصَب .

وقـد قيل في قتال الحجّاج شبيباً بالكُوفة ما ذَكَره عُمر بن شَبَّة قال : حدّثني عبدُ اللّه بن المغيرة بن عطيَّة ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدثنا مزاحم بن زُفر بن جسّاس التَّيمي ، قال : لما فَض شبيبٌ كتائبَ الحجّاج أذن لنا فدخلنا عليه في مَجلِسه الّذي يبيت فيه وهو على سرير عَليه لِحاف ، فقال : إني دعوتُكم لأمر فيه أمان ونظر ، فأشيروا عليّ ، إنّ هذا الرجل قد تبَحْبَح بُحْبُوحَتَكم ، ودخل حَريمَكم ، وقتل مُقاتِلتكم ، فأشيروا عليّ ، فأطرَقوا ، وفَصَل رجل من الصّفّ بكرسيّه فقال : إنْ أذِن لي الأميرُ تكلَّمت ، فقال ؛ تكلم ، فقال : إنّ الأمير والله ما راقب الله ، ولا حَفظ أميرَ المؤمنين ، ولا نَصَح للرعيَّة ، ثم جلس بكرسيه في الصفّ . قال : وإذا هو قُتَيبة ، قال : فَغضِب الحجّاج وألقَى اللحاف ، ودَلّى قَدَميه من السرير كأني أنظر إليهما ، فقال : مَن المتكلِّم ؟ قال : فخرج قُتيبةُ بكُرسيِّه من الصّفّ فأعاد الكلاَم ، وقال : فما الرأي ؟ قال : أن تَخرُج إليه فتحاكِمَه ، قال : فارتد لي مُعسكراً ثم لغدُ إليّ ، قال : فخرجْنا نَلعَن عَنْبسة بن سعيد ، وكان كلَّم الحجّاج في قُتيبة ، فجعله من أصحابه ، فلمّا أصبَحْنا وقد وقدْ أوصَيْنَا جميعاً ، غَدونا في السلاح ، فصلَّى الحجّاج الصبّح ثم دخل ، فجعل رسوله يخرج ساعةً بعد ساعة فيقول : أجاء بعدُ ؟ أجاء بعدُ ؟ ولا ندري مَن يريد ! وقد أفعمت المقصورةُ بالناس ، فَخَرَج الرسولُ فقال : أجاء بعدُ ؟ وإذا قُتيبةُ يمشي في المسجد عليه قباء هرويّ أصفر ، وعمامة خزّ أحمر ، متقلّداً سيفاً عريضاً قصيرَ الحمائل كأنّه في إبطِه ، قد أدخل برْكه قَبائه في مِنطَقتِه ، والدّرع يصفق ساقَيْه فَفُتح له الباب فدخل ولم يُحْجَب ، فَلَبِث طويلا ثمّ خرج ، وأخرج معه لواءً منشوراً ، فصلّى الحجّاج ركعتين ثم قام فتكلّم وأخرج اللواء من باب الفيل وخرج الحجّاج يتبعه ، فإذا بالباب بغلة شَقراء غرّاءُ محجَّلة فركِبها ، وعارضه الوُصَفاء بالدّوابّ ، فأبَى غيرَها ، وركب النَّاسُ ، وركبَ قُتيبة فرساً أغرّ محجَّلاً كُمْيتا كأنَّه في سَرْجه رُمّانة من عُظمْ السَّرج ، فأخذ في طريق دار السقاية حتّى خرج إلى السَّبَخة وبها عسكر شبيب ، وذلك يوم الأربعاء ، فتواقَفوا ، ثم غَدْوا يومَ الخميس للقتال ، ثم غادوهم يوم الجمعة ، فلمّا كان وقت الصلاة انهزَمت الخوارج .

قال أبو زيد : حدّثني خلاد بن يزيد ، قال : حدّثنا الحجّاج بنُ قتيبة ، قال : جاء شبيبٌ وقد بعث إليه الحجّاج أميراً فقتَله ، ثم آخر فَقَتَله ، أحدُهما أعْيَنُ صاحبُ حَمَّام أعْيَنَ ، قال : فجاء حتّى دخل الكوفة ومعه غزالة ، وقد كانت نذرتْ أن تُصلّي في مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيهما البقرة وآل عمران . قال : ففعلتْ . قال : وأتّخذ شبيب في عسكره أخْصاصاً ، فقام الحجّاج فقال : لا أراكم تَناصَحون ، في قتال هؤلاء القوم يا أهل العراق ! وأنا كاتبٌ إلى أمير المؤمنين ليمُدّني بأهل الشأم . قال : فقام قُتيبَة فقال : إنَك لم تنصح ِ للّه ولا لأمير المؤمنين في قِتالهم .

قال عمرُ بن شَبّة : قال خَلّاد : فحدّثني محمَّد بنُ حفص بن مُوسى بن عُبيد الله بن مَعمر بن عثمان التميميّ أنّ الحجّاج خَنَق قُتيبة بعِمامته خَنْقاً شديداً .

ثمّ رَجعَ الحديثُ إلى حديث الحجّاج وقُتيبة . قال : فقال: وكيف ذاك؟ قال: تَبعث الرجل الشريف وتبعث معه رَعاعا من الناس فينهزمون عنه . ويَستحِي فيقاتل حتّى يُقتَل ، قال : فما الرأي ؟ قال : أن تخرج بنفسك ويخرج معك نظراؤك فيؤاسُونك فأنفسهم . قال : فلعنه مِنْ ثَمّ . وقال الحجّاج : واللهِ لأبرزُنّ له غداً ، فلمّا كان الغدُ حضر الناس ، فقال قتيبة : اذكرْ يمينَك أصلح اللهُ الأمير ! فلعنوه أيضاً ، وقال الحجّاج : اخرج فارتدْ لي مُعسكَراً ، فذهب وتهيّأ هو وأصحابُه فخرجوا ، فأتى على موضع فيه بعض القَذَر ، موضع كُناسة ، فقال : ألقُوا لي ها هنا . فقيل : إنّ الموضع قَذِر ، فقال : ما تَدعونني إليه أقذَر ، الأرض تحتَه طيِّبة ، والسماءُ فوقه طيِّبة . قال : فنزل وصَفّ الناس وخالد بن عَتّاب بن وَرْقاء مسخوط عليه فليس في القوم ، وجاء شبيب وأصحابه ، فقرّبوا دوابّهم ، وخرجوا يمشون ، فقال لهم شبيب : الهُوا عن رَمْيكم ، ودِبُّوا تحت تِراسِكم ، حتّى إذا كانت أسنّتهم فوقها ، فأزلِقوها صُعُداً ، ثمّ ادخُلوا تحتَها لتستقِلوا فتقطّعوا أقدامهم ، وهي الهزيمة بإذن الله . فأقبلوا يدبّون إليهم . وجاء خالد بن عتّاب في شاكريَّته ، فدار من وراء عسكرهم ، فأضرم أخْصاصَهم ، بالنار ، فلمّا رأوْا ضوءَ النار وسمعوا مَعْمَعتَها التفتوا فرأوها في بيوتهم ، فولّوا إلى خَيْلِهم وتَبِعهم الناسُ ، وكانت الهزيمة . ورضِيَ الحجّاج عن خالد ، وعَقَدَ له على قتالهم .

قال : ولمّا قَتَل شبيبُ عَتّاباً أراد دخول الكوفة ثانية ، فأقبل حتى شارَفها فوجّه إليه الحجّاج سيف بن هانيء ورجلاً معه ليأتياه بخبر شبيب ، فأتيا عسكره ، ففطن بهما ، فقتل الرجل ، وأفلت سيفٌ ، وتَبِعه رجلٌ من الخوارج ، فأوثب سيفٌ فرسه ساقية ، ثم سأل الرجلَ الأمانَ على أن يُصدقه ، فآمنه ، فاخبره أنّ الحجّاج بعثه وصاحبَه ليأتياه بخبر شبيب .

قال : فأخبرْه أنا نأتيه يوم الاثنين . فأتى سيف الحجّاج فأخبره ، فقال : كَذَب وماق ، فلمّا كان يومَ الاثنين توجَّهوا يريدون الكوفة ، فوجَّه إليهم الحجّاج الحارثَ بن معاوية الثَّقفي ، فلقيه شبيب بزرارَة فقتله ، وهزم أصحابَه ودنا من الكوفة فبعث البَطين في عشرة فوارس يرتاد له مَنزِلا على شاطيء الفرات في دار الرِّزْق ، فأقبل البَطِين وقد وجّه الحجّاج حَوشبَ بن يزيدَ في جمع من أهل الكوفة ، فأخذوا بأفواهِ السِّكَك ، فقاتَلَهم البَطِين فلم يقو عليهم ، فبعث إلى شبيب فأمدّه بفوارس ، فعَقَروا فرس حَوْشب وهزموه ونجا ، ومضَى البَطين إلى دار الرِّزق ، وعسكر على شاطيء الفرات ، وأقبَل شبيب فنزل دون الجسْر ، فلم يوجِّه إليه الحجّاج أحداً ، فمضى فنزل السَّبَخة بين الكُوفة والفُرات ، فأقام ثلاثاً لا يوجِّه إليه الحجَّاج أحداً ، فأشير على الحجّاج أن يخرج بنفسه ، فوجَّه قتيبةَ بن مسلم ، فهيّأ له عسكراً ثم رجع ، فقال : وجدتُ المَأتي سَهْلا ، فسِرْ على الطائر الميمون ، فنادى في أهل الكوفة فخرجوا ، وخرج معه الوجوهُ حتّى نزلوا في ذلك العسكر وتواقفوا ، وعلى مَيْمنة شبيب البَطِين ، وعلى مَيسَرته قَعْنب مولىً بني أبي ربيعة بن ذهل ، وهو في زُهاء مائتين ، وجعل الحجّاج على ميمنته مطرَ بن ناجية الرِّياحيّ ، وعلى ميسرته خالد بن عَتّاب بن وَرْقاء الرِّياحيّ في زُهاء أربعة آلاف ، وقيل له : لا تُعَرِّفه موضعَك ، فتنكّر وأخفي مكانَه ، وشبَّه له أبا الورد مولاه ، فنظر إليه شبيب ، فحمل عليه ، فضربه بعمود وزنُه خمسة عشر رِطْلاً فقتَله ، وشبَّه له أعينَ صاحب حمَّام أعَين بالكوفة . وهو مولًى لبكر بن وائل فقَتَلَه ، فركب الحجّاج بغلَه غَرّاء محجَّلة ، وقال: إن الدِّين أغُر محجَّل . وقال لأبي كعب : قدّم لواءك ، أنا ابن أبي عَقِيل . وحمل شبيب على خالد بن عَتّاب وأصحابه ، فبلغ بهم الرَّحبة ، وحملوا على مطر بن ناجية فكشفوه ، فنزل عند ذلك الحجّاج وأمَرَ أصحابَه فنزلوا ، فجلس على عباءة ومعه عنْبسة بن سعيد ، فإنّهم على

ذلك إذْ تناول مَصقلة بن مُهَلهل الضَّبي لجامَ شبيب ، فقال : ما تقول في صالح بن مُسَرّح ؟ وبمَ تَشهَد عليه ؟ قال : أعَلى هذه الحال ، وفي هذه الحَزّة ! والحجّاج يُنظر ، قال : فبرىء من صالح ، فقال مَصقلة : برىء الله منك ، وفارقوه إلا أربعين فارساً هم أشدّ أصحابه ، وانحاز الآخرون آلى دار الرّزْق ، وقال الحجّاج : قد اختلفوا ، وأرسَل إلى خالد بن عَتّاب فأتاهم فقاتَلَهم ، فقُتِلت غَزالةُ ، ومَرّ برأسِها إلى الحجّاج فارسٌ فعرفه شبيبٌ ، فأمر عُلوان فشدّ على الفارس فقتَلَه وجاء بالرأس ، فأمر به فغُسل ودفنه وقال : هي أقرب إليكم رُحْماً ـ يَعني غزالة .

ومضى القومُ على حامِيَتهم ، ورجع خالدٌ إلى الحجّاج فأخبره بانصراف القوم ، فأمَره أن يحمل على شبيب فحمل عليهم ، وأتبعهُ ثمانية ، منهم قعنب والبَطين وعُلْوان وعيسى والمهذَّب وابن عُوَيمر وسِنان ، حتى تبعوا به الرّحبة ، وأتِيَ شبيب في موقفه بخُوط بن عُمير السَّدوسيّ ، فقال له شبيب : يا خُوط ، لاحُكْمَ إلاّ لله . فقال : لا حُكم إلاّ لله ، فقال شبيب : خُوط من أصّحابكم ، ولكنّه كان يخاف ، فأطلقه ، وأتي بعُمَير بن القَعْقَاع . فقال له : لا حُكم إلا لله يا عُمَير ، فجعل لا يفقه عنه ، ويقول : في سبيل الله شبابي ، فردّد عليه شبيبٌ : لا حُكْمَ إلاّ لله ، ليتخلّصه ، فلم يفقهْ . فأمر بقتله ، وقُتل مصاد أخو شَبيب ، وجعل شبيب ينتظِر النَّفر الذّين تبعوا خالداً فأبطؤوا ، ونعس شبيب فأيقَظَه حبيب بن خدرة ، وجعل أصحابُ الحجّاج لا يُقدِمون عليه هيبةً له ، وسار إلى دار الرّزْق فجمع رِثَّة من قُتلِ من أصحابه ، وأقبـل الثمانيـة إلى موضـع شبيب فلم يجدونه ، فظنوا أنّهم قتلوه ، ورجع مطرٌ وخالدٌ إلى الحجّاج فأمَرَهما فأتبعا الرّهط الثمانية ، وأتبع الرّهط شبيباً ، فمضوْا جميعاً حتّى قطعوا جِسر المدائن ، فدخلوا دَيْراً هنالك وخالد يَقْفُوهم ، فحصرهم في الدَّير ، فخرجوا عليه فهزموه نحواً من فرسخين حتّى ألقَوْا أنفسَهم في دجْلة بخَيلهم ، وألقى خالدٌ نفسَه بفرسه فمرَّ به ولواؤه في يده ، فقال شبيب : قاتله الله فارساً وفَرسَه ! هذا أشدّ الناس ، وفرسُه أقوى فرس في الأرض ، فقيل له : هذا خالدُ بن عَتّاب ، فقال : مُعْرَقٌ له في الشجاعة ، والله لو علمتُ لأقحمتُ خلفه ولو دَخَل النار .

رجع الحديث إلى حديثِ أبي مِخنَف . عن أبي عَمرو العُذْريّ ، أن الحجّاج دخل الكوفـة حين انهزَم شبيب ، ثم صَعِد المنبر ، فقال : والله ما قُوتل شَبيب قطّ قَبْلها مِثلَها ، وَلّى والله هارباً ، وترك أمرأته يُكَسر في آستها القصب . ثمّ دعا حبيب بن عبد الرحمن الحكميّ فبعثه في أثره في ثلاثة آلاف من أهل الشأم ، فقال له الحجّاج : احذَر بياتَه ، وحيثما لقيتَه فنازِله ، فإن الله قد فَلَّ حَدَّه ، وقصم نابَه . فخرج حبيبُ بنُ عبد الرحمن في أثر شبيب حتّى نزل الأنبار ، وبعث الحجّاج إلى العمّال أن دُسُّوا إلى أصحاب شبيب أنّ مَنْ جاءنا منهم فهو آمِن ؛ فكان كلّ من ليست له تلك البصيرة ممّن قد هدّه القتال يجيء فيؤمن ، وقبل ذلك ما قد نادى فيهم الحجّاج يوم هُزموا : إنّ من جاءنا منكم فهو آمِن ، فتفرّق عنه ناس كثير من أصحابه ، وبلغ شبيباً مَنْزَلُ حبيب بن عبد الرحمن الأنبارَ ، فأقبَل بأصحابه حتّى إذا دنا من عسكرِهم نَزَل فصلّى بهم المغرب .

قال أبو مِخنَف : فحدّثني أبو يزيدَ السكسَكيّ ، قال : أنا والله في أهل الشأم ليلَة جاءنا شبيب فبيَّتنا . قال : فلمّا أمسَيْنا جَمعَنا حبيبُ بنُ عبد الرحمن فجَعَلنا أرباعاً ، وقال لكل رُبْع منا : ليُجزِىء كلّ رُبْع منكم جانبَه ، فإن قاتل هذا الرّبع فلا يُغثهم هذا الرّبْع الآخرَ ، فإنّه قد بلغني أنّ هذه الخوارج منّا قريب ، فوطّنوا أنفسَكم على أنّكم مبيَّتون ومقاتَلون ، فما زِلنا على تعِبيتَنا حتّى جاءنا شبيب فبيَّتنا ، فشدَّ على رُبْع منّا ، عليهم عثمانُ بنُ سُعيد العذريّ فضاربهم طويلا ، فما زالتْ قدمُ إنسان منهم ، ثمّ تركهم وأقبلَ على الرّبْع الآخر ،

وقد جعل عليهم سعد بن بجل العامريّ فقاتلهم ، فما زالت قدم إنسان منهم ، ثمّ تركهم واقبَل على الرّبْع الآخر وعليهم النعمان بن سَعْد الحميريّ فما قدر منهم على شيء ، ثمّ أقبل على الربع الآخرَ وعليهم ابنُ أقيصِر الخَثْعميّ فقاتلهم طويلا ، فلم يَظفر بشيء ، ثم اطاف بنا يحمِل علينا حتى ذهب ثلاثة أرباع اللّيل ، وألزَ بنا حتى قلنا ، لا يُفارِقنا ، ثم نازلنا راجلا طويلا ، فسقطتْ والله بيننا وبينهم الأيدي ، وفُقئت الأعيُنُ ، وكثرت القتلى ، قتلنا منهم نحواً من ثلاثين ، وقتلوا منّا نحواً من مائة ، والله لو كانوا فيما نرى يزيدون على مائة رجل لأهلَكونا ، وايمُ الله على ذلك ما فَارقونا حتّى مَلِلناهم ومَلّونا ، وكرهونا وكرِهناهم ، ولقد رأيت الرجل منّا يضرب بسيفه الرجل منهم فما يضرّه شيء من الاعياء والضّعف ولقد رأيت الرّجل منّا يقاتل جالساً يَنْفَحُ بسَيْفه ما يستطيع أن يقوم من الإعياء ، فلمّا يئسوا منّا ركب شبيب ثمّ قال لمن كان نزل من أصحابه : اركبوا ، فلمّا استوَوا على متُون خُيولهم وجّه منصرفاً عنّا .

قال أبو مِخنَف : حدّثني فروة بن لقيط ، عن شبيب ، قال : لمّا انصرفنا عنهم وبنا كآبة شديدة ، وجراحة ظاهرة ، قال لنا : ما أشدّ هذا الّذي بنا لو كنّا إنما نطلب الدنيا ! وما أيسرَ هذا في ثواب الله ! فقال أصحابُه : صدقت يا أمير المؤمنين ، قال : فما أنسَى منه إقبالَه على سُويد بن سليم ولا مقالتَه له : قتلتُ منهم أمس رجلين : أحدُهما أشجَع الناسِ ، والآخر أجْبَن الناس ، خرجتُ عشيَّة أمس طليعةً لكم فلقيتُ منهم ثلاثة نفر دخلوا قريةً يشترون منها حوائجَهم ، فاشترى أحدهُم حاجتَه ، ثمّ خرج قبل أصحابه وخرجتُ معه : فقال : كأنّك لم تشترِ عَلفاً ، فقلتُ : إنّ لي رُفقاءَ قد كَفَوْني ذلك ، فقلت له : أين تَرى عدوَّنا هذا نَزَل ؟ قال : بلغني أنّه قد نزل منّا قريباً ، وايم الله لودِدْت أنّي قد لقيتُ شبيبَهم هَذا ، قلت : فتحبّ ذلك ؟ نعم ، قلت : فخذ حِذْرَك ، فأنا والله شبيب ، وانتضَيْت سَيْفي ، فخَرَّ والله مَيّتا ، فقلت له : ارتفع وَيْحَك ! وذهبتُ أنظرُ فإذا هو قد مات ، فانصرفتُ راجعاً ، فأستقبِل الآخر خارجاً من القرية ، فقال : أين تذهب هذه الساعة ؟ وإنّما يرجع الناس إلى عسكرهم ! فلم أكلّمه ، ومضيتُ يقرّب بي فرسي ، وأتبعني حتّى لَحِقني ، فقطعت عليه فقلت له : مالَك ؟ فقال : أنتَ والله من عَدّونا ؟ فقلتُ : أجل والله ، فقال : واللّه لا تبرح حتّى تَقْتلني أو اقتُلَك ، فحمَلت عليه وحَملَ عليّ ، فاضطربْنا بسيْفينا ساعةً ، فوالله ما فضَلْتُه في شدّة نَفْس ولا إقدام إلاّ أن سيفي كان أقطَع من سيفه ، فقتَلتُه ، قال : فمضَينا حتّى قطعنا دِجلة ، ثم أخذْنا في أرض جُوخَى حتى قَطعْنا دجلَة مرّة أخرى من عند واسِط ، ثم أخذنا إلى الأهوا ثمّ إلى فارس ، ثم ارتفعْنا إلى كرْمان .

وفي هذه السنة هلك شبيبٌ في قولِ هشامِ بنِ محمَّد ، وفي قول غيرِه كان هلاكُه سنة ثمان وسبعين .

ذكر سبب هلاكه :

قال هشام ، عن أبي مِخنَف : قال : حدّثني أبو يزيدَ السَّكْسَكيّ ، قال : أقفَلنا الحَجّاج إليه ـ يعني إلى شبيب ـ فقسّم فينا مالاً عظيماً ، وأعطَى كل جريح منا وكل ذي بلاء ، ثمّ أمر سفيان بن الأبرد أن يسيرَ إلى شبيب ، فتجهزّ سُفيان ، فشقّ ذلك على حبيب بن عبد الرحمن الحكميّ ، وقال : تبعث سُفْيانَ إلى رجل قد فللتَه وقتلت فرسانَ أصحابه . فأمضى سفيان بعدَ شهرين ، وأقام شبيب بكِرْمان ، حتّى إذا انجبر واستراش هو وأصحابُه أقبل راجعاً ، فيستقبله سُفْيان بجِسْر دُجيلِ الأهواز ، وقد كان الحجّاج كتب إلى الحَكَم بن أيّوب بن الحَكَم بن أبي عَقيل ، وهو زوج ابنة الحجّاج وعاملُه على البَصْرة .

أما بعد ، فابعثْ رجلا شجاعاً شريفاً من أهل البصْرة في أربعة آلاف إلى شبيب ، ومُرْه فلْيَلْحق

بسُفْيان بن الأبرد ، وليَسمع له ولْيُطعْ .

فبعث إليه زياد بن عَمْرو العَتكيّ في أربعة آلاف ، فلم ينته إلى سُفيان حتّى التقى سُفْيان وشبيب ، ولّ أن التقيا بجِسْر دجيل عبر شبيب إلى سُفيان فوجد سُفْيان قد نَزَل في الرجال ، وبعث مُهاصر بن صيفيّ العُذريّ على الخيل ، وبعث على ميمنته بِشر بن حسَّان الفِهْريّ ، وبعث على ميسرته عمر بن هُبَيرة الفزاريّ ، فأقبل شبيب في ثلاثة كراديسَ من أصحابه ، هو في كتيبة وسُوَيد في كتيبة ، وقَعنَب المُحَلّـميّ في كتيبة ، وخلَّف المحلَّل بن وائل في عسكره . قال : فلمَّا حمل سُويد وهو في ميمنته على ميسرة سُفْيانَ ، وقعنبٌ وهو في ميسرته على ميمنته حَمَل هو على سُفْيان ، فاضْطَرَبْنا طويلا من النهار ، حتَّى انحازوا فرجعوا إلى المكان الّذي كانوا فيه ، ثمّ كَرّ ، علينا هو وأصحابه اكثرَ من ثلاثين كَرّة ، كلّ ذلك لا نزول من صَفّنا . وقال لنا سُفْيان بن الأبرد : لا تتفرّقوا ، ولكن لِتزحَف الرجالُ إليهم زحفاً ، فوالله ما زلْنا نطاعِنُهم ونضاربهم حتَّى اضطررناهم إلى الجِسْر ، فلمّا انتهى شبيب إلى الجِسْر نزل ونزل معه نحوٌ من مائة رجل ، فقاتَلناهم حتى المساء أشدّ قتال قاتله قومٌ قطّ . فما هو إلاّ أن نزلوا فأوقعوا لنا من الطَّعن والضّرب شيئاً ما رأينا مِثلَه من قوم قطّ . فلمّا رأى سفيانُ أنّه لا يَقدِر عليهم ، ولا يأمن مع ذلك ظفرهم ، دعا الرّماةَ فقال : ارشقُوهم بالنَّبل، وذلك عند المساء ، وكان التقاؤهم نصفَ النهار ، فرماهم أصحابُ النَّبل بالنَّبل عند المساء ، وقد صَفَّهم سُفْيان بن الأبرد على حِدَة ، وبعث على المُرامِية رجلا ، فلمّا رشقوهم بالنَّبل ساعةً شدّوا عليهم ، فلمّا شدّوا على رُماتنا شَدّدْنا عليهم ، فشغَلْناهم عنهم ، فلما رموا بالنَّبل ساعةً ركب شبيب وأصحابُه ثمّ كَرُّوا على أصحاب النَّبل كرّةً صُرِع منهم اكثرُ من ثلاثين رجلا ، ثمّ عطف بخَيْله علينا ، فمشى عامداً نحونا ، فطاعَنَّاه حَتَّى اختلط الظلام ، ثمّ انْصَرَف عنَّا ، فقال سُفيان لأصحابه : أيُّها الناس ، دعُوهم لا تتّبعوهم حتى نُصبِّحهم غُدْوة . قال : فكفَفْنا عنهم وليس شيء أحبّ إلينا من أن ينصرفوا عنَّا .

قال أبو مخنَف : فحدّثني فَرْوة بن لَقيط ، قال : فما هو إلاّ أن انتهَينا إلى الجِسْر ، فقال : اعبرُوا معاشر المسلمين ، فإذا أصبَحْنَا باكَرْناهم إن شاء الله ، فَعَبرْنا أمامه ، وتخلّف في أخرانا ، فأقبل على فرسه ، وكانت بين يديه فرس أنثى ماذيانة ، فنزا فرسُه عليها وهو على الجِسر فاضطربَت الماذِيانة ، ونزل حافرُ رجل فرس شبيب على حرف السّفينة ، فسقط في الماء ، فلّما سَقَط قال : ﴿ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً ﴾ . فارتمس في الماء ، ثمّ ارتفَع فقال : ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ .

قال أبو مِخنَف : فحدّثني أبو يزيد السَّكْسكيّ بهذا الحديث ـ وكان ممَّن يقاتله من أهل الشأم ، وحدّثني فَروة بن لُقيط ، وكان ممَّن شهد مواطنَه ـ فأمَّا رجل من رهطة من بني مُرّة بن همَّام فإنَّه حدّثني أنه كان معه قوم يقاتلون من عشيرته ، ولم يكن لهم تلك البصيرةُ النافذة، وكان قد قتل من عشائرهم رجال كثيراً ، فكأن ذلك قد أوجع قلوبَهم ، وأوغَرَ صدورَهم ، وكان رجلٌ يقال له مُقاتل من بني تيم بن شَيْبان من أصحاب شبيب فلمّا قتل شبيبٌ رجالاً من بني تَيم بن شيبان أغار هو على بني مُرّة بن همَّام فأصاب منهم رجلا ، فقال له شبيب ما حَملك على قَتلِهم بغير أمري ! فقال له : أصلحك الله ! قتلتُ كفَّار قومي ، وقتلت كفَّار قومك ، قال : وأنت الوالي عليّ حتَّى تقطع الامور دُوني ! فقال : اصلحَك الله ! أليس من ديننا قتل مَنْ كان على غير رأينا ، منَّا كان أو مِنْ غيرنا ! قال : بلى قال : فإنَّما فعلت ما كان ينبغي ، ولا والله يا أمير المؤمنين ما أصبت من رهطك عُشر ما أصبت من رهطي ، وما يحلّ لك يا أمير المؤمنين أن تجد من قَتْل الكافرين ؛ قال : إني لا أجِد من ذلك . وكان

معه رجال كثير قد أصاب من عشائرهم ، فزعموا أنّهَ لّما تخلّف في أخْريات أصحابِه قال بعضُهم لبعض : هل لكم أن نقطع به الجِسْر فندْرك ثأرَنا الساعة ! فقطعوا الجِسْر ، فمالت السفُن ، فَفزِع الفرس ونفر ، ووقع في الماء فغرِق .

قال أبو مخنَف : فحدّثني ذلك المُرّيّ بهذا الحديث ، وناسٌ من رَهْط شبيب يَذْكرون هذا أيضاً ، وأمّا حديث العامّة فالحديثُ الأوّل .

قال أبو مِخنَف : وحدّثني أبو يزيدَ السَّكْسَكيّ ، قال : إنّا والله لنتهيَّأ للانصراف إذ جاء صاحبُ الجسر فقال : أين أميرُكم ؟ قلنا : هو هذا ، فجاءه فقال : أصلَحَك الله ! إن رجلاً منهم وقع في الماء ، فتنادَوا بينهم : غَرِق أميرُ المؤمنين ! ثمّ إنّهم انصرفوا راجعين ، وتركوا عسكرَهم ليس فيه احد ، فكبّر سُفيانُ وكبّرنا ، ثم أقبل حتّى انتهى إلى الجسر ، وبعث مُهاصِر بن صَيفيّ فعبر إلى عسكرهم ، فاذا ليس فيه منهم صافِرٌ ولا آثر، فنزل فيه، فإذا أكثرُ عسكر خلقِ الله خيراً ، وأصبَحْنا فطلبنا شبيباً حتى استخرَجْناه وعليه الدّرع ، فسمعتُ النّاس يزعمون انه شقّ بطنه فأخرج قلبَه ، فكان مجتمِعاً صُلْباً كأنّه صَخْرة ، إنّه كان يَضرِب به الأرض فيَثب قامةَ إنسان ، فقال سفيان : اِحْمَدوا الله الّذي أعانكم فأصبح عسكرهم في أيدينا .

قال أبو زيد عُمر بنُ شَبَّة : حدّثني خلاد بن يزيد الأرقط ، قال : كان شبيب يُنْعَى لأمّه فيقال : قتِل فلا تَقبل قال : فقيله لها : إنّه غرِق ، فَقبِلتْ ، وقالت : إني رأيتُ حين ولدتُه أنّه خرج مِنّي شهاب نار ، فعَلِمتُ أنه لا يُطفِئه إلا الماء .

قال هشام عن أبي مَخنَف : حدّثني فَروة بن لقيط الأزْديّ ثمّ العامريّ أن يزيد بن نُعيْم أبا شبيب كان ممّن دخل في جيش سَلْمان بن ربيعة إذ بعث به وبمن معه الوليد بنْ عُقْبة عن أمرِ عثمانَ إيّاه بذلك مدَدًا لأهل الشأم ارض الروم ، فلمّا قَفَل المسلمون أقيمَ السَّبى للبيع ، فرأى يزيد بن نُعَيم أبو شبيب جاريةً حمراءَ ، لا شَهْلاء ولا زَرْقاء طويلةً جميلةً تأخُذُها العين ، فابتاعَها ثم أقبل بها ، وذلك سنة خمس وعشرين أوّل السنـة ، فلمّا أدخلَها الكوفة قال : أسلِمي ، فأبتْ عليه ، فضربها فلم تـزدَ إلا عصياناً ، فلمّا رأى ذلك أمر بها فأصلِحت ، ثم دعا بها فأدخِلتْ عليه ، فلما تَغَشّاها تَلقَّتْ منه بحَمْل فولدَتْ شبيباً ، وذلك سنة خمس وعشرين في ذي الحجّة في يوم النَّحر يومَ السبت . واحبت مولاها حباً شديداً ـ وكان حَدِثة ـ وقالت : إن شئت أجبتُك إلى ما سألتَني من الاسلام ، فقال لها : شئتُ ، فأسلَمت ، وولدتْ شبيباً وهي مُسْلمة ، وقالت : إني رأيت فيما يَرَى النائم أنّه خرج من قُبُلي شِهابٌ فثقب يسطع حتّى بلغ السماء وبَلَغ الآفاقَ كلَّها ، فبينا هو كذلك إذ وقع في ماء كثير جارٍ فخبا ، وقد ولدته في يومِكم هذا الّذي تُهريقون فيه الدماء ، وإني قد أوّلْتُ رؤيايَ هذه أني أرى ولِدي هذا غُلاماً ، أراه سيكون صاحب دماء يُهَريقها ، وإني أرى أمره سيعلو ويَعظم سريعاً . قال : فكان أبوه يختلف به وبأمّه إلى البادية إلى أرض قومه على ماء يُدعَى اللِّصَف .

قال أبو مِخنَف : وحدّثني موسى بنُ أبي سُويد بن رادِي أنّ جُنْدَ أهل الشأم الّذين جاؤوا حملوا معهم الحَجَر فقالوا : لا نفرّ من شبيب حتّى يفرّ هذا الحجر ؛ فبلغ شبيباً أمرُهم ، فأراد أن يكيدهم ، فدعا بأفراس أربعة ، فربط في أذنابها تِرَسة في ذَنَب كلّ فرس تُرْسَيْن ، ثمّ ندب معه ثمانيَة نفر من أصحابه ، ومعه غلامٌ له يقال له حيَّان ، وأمره أن يحمل معه إداوَةً من ماء ، ثم سار حتّى يأتي ناحيةً من العسكر ، فأمر أصحابه أن يكونوا في نواحي العسكر ، وأن يجعلوا مع كلّ رجلين فرساً ، ثم يُمسُّوها الحديدَ حتّى تجد حرَّه ويخلّوهـا في العسكر ،

وواعدهم تلعةً قريبةً من العسكر، فقال: من نجا منكم فإنّ موعده هذه التّلْعة؛ وكره أصحابُه الإقدامَ على ما أمرهم به، فنزل حيثُ رأى ذلك منهم حتى صنع بالخَيْل مِثلَ الّذي أمرهم، ثمّ وغلتْ في العسكر، ودخل يَتْلوها مُحكّماً فضرب الناسُ بعضُهم بعضاً، فقام صاحبُهم الّذي كان عليهم، وهو حبيب بن عبد الرحمن الحَكَميّ، فنادى: أيها الناس، إنّ هذه مكيدة، فالزَموا الأرض حتّى يتبيّنَ لكم الأمرُ، ففعلوا وبقي شبيب في عسكرهم، فلزم الأرض حيث رآهم قد سكنوا، وقد أصابتْه ضَربةُ عمود أوهنتْه، فلمّا أن هدأ الناسُ ورجعوا إلى أبنيتهم خرج في غِمارهم حتّى أتى التلعة، فإذا هو بحَيَّان، فقال: أفرِغ يا حيَّان على رأسي من الماء؛ فلمّا مدّ رأسه ليصبّ عليه من الماء همّ حيَّان أن يَضرِب عنقه، فقال لنفسه: لا أجد لي مكرُمةً ولا ذِكراً أرفعَ مِن قتلِي هذا، وهو أماني عند الحجّاج، فاستقبلتْه الرِّعْدة حيثُ هَمّ بما هَمَّ به، فلمّا أبطأ بِحَلّ الإداوة قال: ما يُبطئك بحَلّها! فتناوَل السِّكين من مَوْزَجِه فخرَقها به، ثمّ ناوَلَها إياه، فأفرَغ عليه من الماء. فقال حيان: منَعَني واللّهِ الجُبْن وما أخذَني من الرِّعدة أن أضرِب عُنقه بعد ما هممتُ به. ثمّ لَحِق شبيب بأصحابه في عسكره.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة خرج مُطَرِّف بن المغيرةِ بنِ شُعْبة على الحجَّاج، وخلع عبد الملك بن مروان ولحق بالجبال فقُتل.

ذكر السبب الذي كان عند خروجه وخلعِه عبد الملك بن مروان:

قال هشامٌ عن أبي مِخنَف، قال: حدّثني يوسفُ بن يزيدَ بن بكر الأزْديّ أنّ بني المغيرة بن شعبة كانوا صُلَحاء نُبَلاء، أشرافاً بأبدانهم سوى شَرف أبيهم ومنزلتِهم في قومهم. قال: فلمّا قدم الحجّاج فلقوه وشافَهَهم عَلِم أنّهم رجال قومه وبنو أبيه، فاستعمل عُروةَ بن المغيرة على الكوفة ومطرِّفَ بن المغيرة على المدائن، وحمزة بن المغيرة على هَمَذان.

قال أبو مِخنَف: فحدّثني الحُصَين بن يزيد بن عبد الله بن سعد بن نُفَيل الأزْديّ، قال: قَدِم علينا مطرِّف بنُ المغيرة بنِ شُعْبة المدائن فصَعَد المنبَر فحَمِد اللّهَ وأثنَى عليه ثم قال: أيّها الناس، أن الأمير الحجَّاج أصلحه اللّهُ قد ولّاني عليكم، وأمَرَني بالحُكْم بالحق، والعدل في السيرة، فإن علمتُ بما أمَرني به فأنا أسعدُ الناس، وإن لم أفعلْ فنفسي أو بَقْتُ، وحظّ نفسي ضيَّعت، ألا إني جالس لكم العَصْرين، فارفَعوا إليّ حوائجَكم، وأشيروا عليّ بما يصلحكم ويُصلح بلادكم، فإني لن آلُوكم خيراً ما استَطعتُ. ثم نزل.

وكان بالمدائن إذ ذاك رجالٌ من أشراف أهل المِصْر وبيوتات الناس، وبها مقاتِلة لا تسعُها عدّة، إن كان كَوْن بأرض جُوخَى أو بأرض الأنبار. فأقبل مطَرّف حين نزل حتّى جلس للناس في الأيوان، وجاء حكيمُ بن الحارث الأزدّي يمشي نحوه، وكان من وجوه الأزد وأشرافِهم، وكان الحجَّاج قد استعمَله بعد ذلك على بيت المال ـ فقال له: اصلحَك الله! إني كنتُ منك نائياً حين تكلَّمت، وإني أقبلتُ نحوك لاجيبَك، فوافَق ذلك نزولك، إنّا قد فهمنا ما ذكرت لنا، إنّه عهد إليك، فأرشد الله العاهدَ والمعهود إليه، وقد منّيتَ من نفسك العَدل، وسألتَ المعونة على الحقّ، فأعانك الله على ما نويتَ، إنّك تُشبِه أباك في سيرته برضا الله والناس، فقال له مطرّف: ها هنا إليّ، فأوسَع له فجلس إلى جَنْبه.

قال أبو مِخنَف: فحدّثني الحُصَين بن يزيدَ أنّه كان من خيرعامل قدم عليهم قطّ، أقمعه لُمريب، وأشدّه إنكاراً للظلم، فَقدِم عليه بشر بن الأجْدَع الهَمْداني، ثم الثوريّ، وكان شاعراً فقال:

إنّي كَلِفتُ بَخْود غيرِ فاحشةٍ غَرَّاءَ وَهْنَانَةٍ حُسَّانَةِ الجِيدَ

كـأنها الشمس يـومَ الـدَّجْنِ إذ بـرَزَتْ ... تمشي مَـعَ الآنس الهيفِ الأَمـاليـدِ
سـلِّ الـهـوى بعَـلْنـدَاةٍ مُـذَكَّـرَةٍ ... عنها إلى المُجْتَدَى ذي العُرْف والجود
إلى الفتى المـاجدِ الفيَّاضِ نَعرفهُ ... في النـاس سـاعَـة يُحْلَى كـلّ مردُود
مـنَ الأكـارم أنْسَـابـاً إذا نُسِبُـوا ... والحـامِلِ الثِّقْـلِ يـومَ المغـرَم الصِّيدِ
إنـي أعِيـذُكَ بـالـرحمنِ مِـن نَفَـرٍ ... حمـر السِّبال كـأُسْـدِ الغابـةِ السُّـودِ
فُـرسانُ شَيْبـان لم نسمـعْ بِمثلِهِم ... أبنـاءُ كـلِّ كـريم النَّجـلِ صِنـديـدِ
شَـدُّوا على ابنِ حُصينٍ في كَتِيبَتِـهِ ... فـغـادَرُوهُ صـريعـاً لـيلَةَ العِيـدِ
وابنُ المجـالِـدِ أرْدَتْـهُ رِمـاحُـهُـمُ ... كـأنمـا زَلَّ عن خَـوصـاءِ صَيْخُـودِ
وكـلُّ جَمـعٍ بـروذبـارَ كـان لهمْ ... قـد فُضَّ بالـطَّعن بينَ النَّخـلِ والبيـدِ

فقال له: وَيْحَكَ! ما جئت لترغّبنا، وقد كان شبيب أقبل من ساتيدما، فكتب مطرّف إلى الحجّاج:

أمَّا بعد، فإني أخبِر الاميرَ أكرَمه اللهُ أنّ شبيباً قد أقبل نحونا، فإن رأى الأمير أن يمدّني برجال أضبط بهم المَدائن فَعَل، فإن المدائن بابُ الكوفة وحصنُها.

فبعث إليه الحجّاج بن يوسفَ سَبْرَة بن عبد الرحمن بن مِخْنَف في مائتين وعبد الله بن كنّاز في مائتين، وجاء شبيب فأقل حتّى نزل قناطرَ حُذَيفة، ثم جاء حتّى انتهى إلى كَلْوَاذا، فعَبر منها دِجلة، ثم أقبل حتّى نزل مدينة بَهرُسير ومطرّف بن المغيرة في المدينة العتيقة الّتي فيها منزل كسْرى والقَصْر الأبيض، فلمّا نزل شبيب بَهرُسير قطع مطرّف الجسر فيما بينه وبين شبيب، وبعث إلى شبيب أن ابعثْ إليّ رجالا من صُلحَاء أصحابك أدارِسْهم القرآن، وأنظر ما تَدْعون إليه، فبعث إليه رجالا، منهم سويد بن سُليم وقعْنب والمحلّل بن وائل، فلما أدنَي منهم المِعْبر وأرادوا أن يَنزلوا فيه أرسلَ إليهم شبيب ألاّ تدخلوا السّفينة حتّى يرجع إليّ رسولي من عند مطرّف، وبعث إلى مطرّف: أن ابعثْ إليّ بِعدّة من أصحابك حتّى تردّ عليّ أصحابي، فقال لرسوله: القَه فقل له: فكيف آمنُكَ على أصحابي إذا بعثْتُهم الآن إليك، وأنتَ لا تأمنني على أصحابك! فأرسَلَ إليه شبيب: إنَّك قد علمتَ أنّا لا نستحلّ في دِيننا الغَدْر، وأنتم تفعلونه وتهوّنونه. فسَرّح إليه مطرّف الربيعَ بن يزيد الأسدّي، وسليمان بن حُذَيفَة بن هلال بن مالك المزَنيّ، ويزيدَ بن أبي زياد مولى المغيرة ـ وكان على حَرَس مطرّف ـ فلمّا وقعوا في يديه بعث أصحابَه إليه.

قال ابو مِخْنَف:

حدّثني النّضرُ بن صالح، قال: كنت عند مطرّف بن المغيرة بن شُعبة فما أدرى أقال: إني كنت في الجند الّذين كانوا معه، أو قال: كنت بإزائه حيث دخلتْ عليه رُسُل شبيب! وكان لي ولأخي وَدّاً مكرماً، ولم يكن ليستر منّا شيئاً، فدخلوا عليه وما عنده أحدٌ من الناس غيري وغير أخي حلّام بن صالح، وهم ستّة ونحن ثلاثة، وهم شاكُون في السلاح، ونحن ليس علينا إلاّ سيوفنا، فلمّا دَنوا قال سُوَيْد: السَّلام على من خاف مقام ربه وعرف الهُدَى وأهلَه، فقال له مطرّف: أجل، فسلَّم الله على أولئك، ثم جلس القومُ، فقال لهم مطرّف: قُصّوا عليّ أمركم، وخبّروني ما الّذي تطلُبون؟ وإلام تَدْعون؟ فحَمِد الله سُويدُ بن سُليم وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد، فإنّ الذي نَدْعو إليه كتاب الله وسنّة محمد ﷺ، وإنّ الذي نقمنا على قومنا الاستئثار بالفَيْء وتعطيل الحدود والتسلّط بالجبرّية. فقال لهم مطرّف: ما دعوتم إلاّ إلى حقّ، ولا نقَمْتم إلاّ جَوْراً

ظاهراً ، أنا لكم على هذا مُتابع ، فتابِعوني إلى ما أدعوكم إليه ليجتمعَ أمري وأمرُكم ، وتكون يدي وأيديكم واحدة ، فقالوا :هات اذكر ما تريد أن تَذكُر ، فإن يكن ما تدعونا إليه حقّاً نُجِبْك ، قال : فإني أدعوكم إلى أن نقاتل هؤلاء الظَّلَمَة العاصين على إحداثهم الّذي احدثوا، وأن ندعوَهم إلى كتاب الله وسنَّة نبيِّه، وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين، يؤمّرون عليهم من يرضوْن لأنفسهم على مثل الحال التي تركهم عليها عمرُ بنُ الخطاب، فإنّ العرب إذا علمتْ إنّ ما يراد بالشورَى الرّضا من قريش رَضوا، وكثر تبعُكم منه وأعوانُكم على عدوّكم، وتمّ لكم هذا الأمر الّذي تريدون.

قال : فوَثبوا من عنده ، وقالوا : هذا ما لا نجيبك إليه أبداً ، فلمّا مَضْوا فكادوا أن يخرجوا من صُفَّة البيت التفت إليه سُويد بن سليم ، فقال : يا بن المغيرة ، لو كان القوم عُدَاةً غُدُراً كنتَ قد أمكنتَهم من نفسك ، ففَزِع لها مطرّف ، وقال : صدقتَ وإله موسى وعيسى .

قال : ورجعوا إلى شبيب فأخبروه بمقالته، فطَمِع فيه ، وقال لهم : إنْ أصبحتم فليأتِه أحدُكم ، فلمّا أصبحوا بعث إليه سُويداً وأمَرَه بأمره ، فجاء سُوَيد حتّى انتهى إلى باب مطرّف ، فكنت أنا المستأذِن له ، فلمّا دخل وجلس اردتُ أن أنصرفَ ، فقال لي مطرّف : اجلسْ فليس دونَك سِتر ، فجلستُ وأنا يومئذ شابّ أغيَد ، فقال له سويد : مَن هذا الذي ليس لك دونَه سِتْر؟ فقال له : هذا الشَّريف الحسيب ، هـذا ابن مالك بن زهير بن جَذِيمة ، فقال له : بَخ أكرمت فارتبِط ، إن كان دينُه على قدْر حسبه فهو الكامل ، ثم أقبل عليه فقال : إنَّا لقِينا أميرَ المؤمنين بالّذي ذكرتَ لنا ، فقال لنا : القَوْه فقولـوا له : ألستَ تَعلَم أنّ اختيـار المسلمين منهم خيرَهم لهم فيما يرون رأيٌ رشيد ! فقد مضتْ به السنة بعدَ الرسول ﷺ ، فإذا قال لكم : نعم ، فقولوا له : فإنَّا قد اخترنا لأنفسنا أرضَانا فينا ، وأشدَّنا اضطلاعاً لِمَا حُمّل ، فما لم يغيِّر ولم يُبدّل فهو وليُّ أمرِنا . وقال لنا: قُولوا له فيما ذكرت لنا من الشورى حين قلتَ: إنّ العرب إذا علمتْ أنّكم إنّما تريدون بهذا الأمر قريشاً كان أكثر لتبعكم منهم، فإنّ أهل الحق لا ينقصُهم عند الله أن يقلّوا، ولا يزيد الظالمين خيراً أن يَكثروا، وإن تَركْنا حقّنا الّذي خرجْنا له، ودخولنا فيما دعوتنا إليه من الشورى خطيئةٌ وعَجْز ورُخصةٌ إلى نصر الظالمين ووَهْن، لأنّا لا نرى أنّ قريشاً أحقّ بهذا الأمر من غيرها من العرب ، وقال: فإن زعم أنّهم أحقّ بهذا الأمر من غيرها من العرب فقولوا له: ولِمَ ذَاك؟ فإن قال: لقرابة محمَّد ﷺ بهم فقولوا له: فوالله ما كان يَنبغِي إذاً لأسلافنا الصالحِين من المهاجرين الأوّلين أن يتولّوا على أسْرة محمَّد، ولا على ولد أبي لَهَب لو لم يبقَ غيرُهم، ولولا أنّهم علموا أنّ خيرَ الناس عند الله أتقاهم، وأنّ أوْلاهم بهذا الأمر أتْقاهم وأفضَلهم فيهم، وأشدّهم اضطلاعاً بحَمْل امورهم ما تولّوا أمور الناس، ونحن أوّل مَن انكر الظلم وغيَّر الجَوْر وقاتَل الأحزاب، فإن اتَّبَعنا فله مالَنا وعليه ما عَلَينا، وهو رجلٌ من المسلمين، وإلا يفعلْ فهو كبعضٍ من نُعادِي ونُقاتِل من المشركين.

فقال له مطرّف: قد فهمتُ ما ذكرتَ، اِرجع يومَك هذا حتّى تنظرَ في أمرنا.

فرجع ، ودعا مطرّف رجـالاً من اهل ثقاتِـه وأهـل نُصحائـه ، منهم سليمانُ بن حـذيفة المُـزَنّي . والرّبيع بن يزيد الأسَديّ . قال النَّضر بن صالح : وكنتُ أنا ويزيد بن أبي زياد مولىَ المغيرة بن شُعبة قائمين على رأسه بالسَّيف ، وكان على حَرَسه ، فقال لهم مطرّفٌ : يا هؤلاء ، إنّكم نُصَحائي وأهل مودّتي ومَنْ اثق بصلاحه وحسن رأيه ، والله ما زلتُ لاعمال هؤلاء الظَّلَمة كارها ، أنكِرها بقلبي ، وأغيّرها ما استَطَعتُ بفعلِي وأمري ، فلمّا عظمتْ خطيئتُهم ، ومرّ بي هؤلاء القومُ يجاهدونهم ، لم أرَ أنَّه يسعني إلاّ مناهَضَتَهم وخِلافَهم إنْ

وجدتُ أعواناً عليهم ، وإني دعوتُ هؤلاء القوم فقلت لهم كَيْتَ وكَيْتَ ، وقالوا لي كيتَ وكَيت ، فلستُ أرى القتالَ معهم ، ولو تـابَعوني عـلى رأيي وعلى مـا وصفتُ لهم لخلعتُ عبد الملك والحجّـاج ، ولسِرْت إليهم أجاهِدهم . فقال له المُزَنيّ : إنَّهم لن يُتابعوك ، وإنَّك لن تُتابِعَهم فأخفِ هذا الكلامَ ولا تُظهره لأحد ، وقال له الأسَديّ مِثْل ذلك ، فَجَثا مولاه ابن أبي زياد على ركبتَيه ثم قال : والله لا يَخفَى ممَّا كان بينَك وبينَهم على الحجَّاج كلمة واحدة ، ولَيُزادن على كل كلمة عشرة أمثالها ، والله أن لو كنتَ في السَّحاب هارباً من الحجَّاج ليلتمسنّ أن يصل إليك حتَّى يُهلِكك أنتَ ومنْ مَعك ، فالنَّجاءَ النجاء من مكانك ، هذا ، فإنَّ أهلَ المَدائن من هذا الجانب ومن ذاك الجانب ، وأهل عسكر شبيب يتحدّثون بما كان بينك وبين شبيب ، ولا تمس من يومِك هذا حتَّى يَبْلُغَ الخبرُ الحجَّاج ، فاطلبْ داراً غيرَ المَدائن . فقال له صاحباه : ما نَرَى الرأي إلاّ كما ذكر لك ، قال لهما مطرِّف : فما عندَكما ؟ قالا : الاجابَة إلى ما دعوتَنا إليه والمؤاساةَ لك بأنفسِنا على الحجَّاج وغيرِه . قال : ثمّ نظر إليّ، فقال: ما عندَكَ؟ فقلتُ: قتال عدوِّك والصَّبر معك ما صبرتَ، فقال لي: ذاكَ الظَّنّ بك.

قال : ومكث حتَّى إذا كان في اليوم الثالث أتاه قعنب فقال له : إنْ تابَعتنا فأنتَ منَّا ، وإن أبيت فقد نابذْناك، فقال : لا تَعجَلوا اليومَ فإنَّا نَنظر .

قال : وبعث إلى أصحابه أن ارحلوا اللّيلة من عند آخِركم حتَّى تُوفُوا الدَّسْكرة معي لحدَث حدث هنالك .

ثم أدلَج وخرج أصحابُه معه حتَّى مرَّ بدَيْر يزدَجِرد فنزله ، فلقيه قَبيصةُ بن عبد الرحمن القحافيّ ، من خَثْعم ، فدعاه إلى صُحبته ، فصَحِبه ، فكَساه وحَمَلَه ، وأمَرَ له بنَفقة ، ثم سَار حتَّى نزل الدّسكـرة ، فلمّا أراد أن يرتحل منها لم يجد بدّاً من أن يُعلِمَ أصحابَه ما يريد ، فجمع إليه رؤوس أصحابِه ، فذكر الله بما هو أهلُه وصلَّى على رسوله ، ثم قال لهم : أمَّا بعد ، فإنّ الله كتب الجهاد على خَلْقه ، وأمر بالعدل والاحسان ، وقال فيما أنزَلَ علينا : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِّـرِ والتَّقْوَى ، وَلاَ تعـاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والعُـدْوَانِ واتَّقُوا الله إنَّ الله شـدِيدُ العِقَابِ ﴾[1] وإني أشهِد الله أني قد خلعتُ عبد الملك بن مروانَ والحجَّاج بن يوسف ، فمن أحبَّ منكم صُحبتي وكان على مثل رأيي فليُتابعْني ، فإن له الأسوة وحُسن الصّحبة ، ومن أبى فليذهب حيث شاء ، فإني لست أحبّ ان يتَّبعني من ليست له نيَّةٌ في جهاد أهلِ الجوْر ، أدعوكم إلى كتاب الله وسنَّة نبيِّه وإلى قِتال الظَّلمة ، فإذا جمع اللهُ لنا أمرَنا كان هذا الامرُ شُورَى بين المسلمين يرتَضون لأنفسهم من أحبُّوا .

قال : فَوثَب إليه أصحابُه فبايعوه ، ثم إنَّه دخل رحلَه وبعث إلى سَبْرة بن عبد الرحمن بن مِخْنَف وإلى عبد الله بن كنَّاز النَّهديّ فاستخلاهما ، ودعاهما إلى مثل ما دعا إليه عامَّة أصحابه ، فأعطَياه الرِّضَا ، فلمّا ارْتَحَل انصرفا بمن معهما من أصحابِه حتَّى أتَيَا الحجَّاج فوجداه قد نازل شبيباً ، فشهِدا معه وقعة شبيب . قال : وخرج مطرِّف بأصحابه من الدَّسْكرة موجِّهاً نحو حُلْوان ، وقد كان الحجَّاج بعث في تلك السنة سُويد بن عبد الرحمن السَّعدّي على حُلوان وماسبذان ، فلمّا بَلَغه أنّ مطرِّف بن المغيرة قد أقبل نحو أرضِه عَرَف أنَّه إن رَفَق في أمره أو داهن ، لا يقبل ذلك منه الحجَّاج ، فجمع له سُويد أهلَ البلد والأكراد ، فأما الأكراد فأخـذوا عليه ثَنِيَّـة حُلْوان ، وخرج إليه سُويد وهو يحبّ أن يَسلَم من قتاله ، وأن يُعافَى من الحجَّاج ، فكان خروجُه كالتعذير .

قال أبو مِخنَف : فحدّثني عبدُ الله بن علقمة الخثعميّ أنّ الحجَّاج بن جارية الخَثعميّ حين سمع بخروج

---

(١) سورة المائدة : ٢ .

مطرّف من المدائن نحو الجبل أتْبعه في نحو من ثلاثين رجلا من قومه وغيرهم . وقال : وكنت فيهم فلحِقْناه بحُلْوانَ ، فكنّا ممّن شهد معه قتال سُوَيد بن عبد الرحمن .

قال أبو مخنف: وحدثني بذلك أيضاً النّضْر.

قال أبو مِخنَف: وحدّثني عبدُالله بنُ علقمة. قال: ما هو إلاّ أن قَدِمنا على مطرّف بن المُغيرة، فسُرَّ بمَقدَمنا عليه، وأجلس الحجّاج بنَ جارية معه على مجلسِه.

قال أبو مِخنَف: وحدّثني النضرُ بن صالح، وعبدُالله بنُ علقمة، أنّ سُويداً لمّا خرج إليهم بمن معه وقف في الرّجال ولم يخرج بهم من البُيوت، وقَدِم ابنهُ القَعقاع في الخَيْل، وما خيلُه يومئذ بكثير.

قال أبو مخنَف : قال النّضر بن صالح : اراهم كانوا مائتين ، وقال ابن علقمة : أراهم كانوا يَنقصُون عن الثّلاثمائة . قال : فدعا مطرّف الحجّاج بن جارية فسَرَّحه إليهم في نحو من عِدّتهم ، فأقبَلوا نحوَ القَعْقاع وهم جادّون في قتاله ، وهم فرسان متعالِمون ، فلمّا رآهم سُويد قد تيَّسروا نحوَ ابنهِ ارسَل إليهم غلاماً يقال له رُستْم ـ قُتل معه بعد ذلك بَديْر الجَماجم ـ وفي يده رايةُ بني سعد ، فانطلق غلامُه حتّى انتهَى إلى الحجّاج بن جارية ، فأسرَّ إليه : إن كنتم تريدون الخروج من بلادنا هذه إلى غيرها فاخرجوا عنّا ، فإنّا لا نريد قتالكم ، وإن كنتم إيانا تريدون فلا بدّ من مَنْع ما في أيدينا . فلمّا جاءه بذلك قال له الحجّاج بنُ جارية : ائتِ أميرنَا فاذكرْ له ، ما ذكرت لي ، فخرج حتى أتى مطرّفا فذَكر له مِثل الّذي ذكرْ للحجّاج بن جارية ، فقال له مطرّف : ما اريدكم ولا بلادَكم ، فقال له : فالزمْ هذا الطريقَ حتّى تَخرُج من بلادنا ، فإنّا لا نجد بدأمن أن يَرَى الناسُ وتسمع بذلك أنّا قد خرجنا إليك . قال : فبعث مطرّف إلى الحجّاج فأتاه ، ولَزِموا الطريقَ حتى مرّوا بالثّنيَّة فإذا الأكرادُ بها ، فنزل مطرّف ونزل معه عامَّة أصحابِه وصَعِد اليهم في الجانب الأيمن الحجّاجِ بنُ جارية ، وفي الجانب الأيسر سليمانُ بنُ حُذَيفة ، فهزَماهم وقَتَلاهم ، وسِلم مطرّف وأصحابُه فمضَوا حتّى دنَوْا من هَمَذان ، فتركهَا وأخذَ ذات اليسار إلى ماه دينار ، وكان أخوه حمزة بن المغيرة على هَمَذان ، فكَره أن يدخَلها فيُتّهم أخوه عند الحجّاج ، فلمّا دخل مطرّف ارض ماه دينار كتب إلى أخيه حمزة :

أمّا بعد ، فإن النَّفقة قد كَثُرت والمؤنـة قد اشتدّت ، فامدّد أخاك بما قدَرتَ عليه من مال وسلاح .

وبعث إليـه يزيـد بن أبي زيادٍ مـولى المغيرة بن شُعبـة ، فجاء حتّى دخـل على حمزةَ بكتـاب مـطرّف ليلاً. فلمّا رآه قال له : ثكلتك أمُّك ! أنت قتلتَ مطرّفا ؟ فقال له : ما أنا قتلتُه جُعلتُ فدَاك ! ولكنّ مطرّفاً قتل نفسَه وقتلَني ، وليتَه لا يقتلُك ، فقال له : وَيْحَك ! مَن سَوّل له هذا الأمر ! فقال : نفسُه سوّلتْ هذا له ، ثم جلس إليه فقصّ عليه القصص ، وأخبَرَه بالخبر ، ودفع كتابَ مطرّف إليه ، فقرأه ثمّ قال : نعم ، وأنا باعثٌ إليه بمال وسلاح ، ولكن أخبرني تَرَى ذلك يَخفَى لي ؟ قال : ما أظنّ أن يخفى ، فقال له حمزة : فوالله لئن أنا خذلته في أنفع النَّصرَين له نصر العلانية ، لا أخذلُه في أيسر النَّصْرين نصر السَّريرة . قال : فسرّح إليه مع ؛ بن ابي زياد بمال وسلاح ، فأقبل به حتّى أتى مطرّفاً ونحن نزولٌ في رُسْتاق من رِساتِيق ماه دينار ، يقال له : سامان مُتاخِم أرضَ أصبهان ، وهو رُستان كانت الحمراءُ تَنزله .

قال أبو مِخنَف : فحدّثني النّضرُ بن صالح ، قال : والله ما هو إلاّ أن مضى يزيدُ بن أبي زياد ، فسمعتُ أهلَ العسكر يتحدثون أنّ الأمير بَعث إلى أخيه يسأله النفقة والسلاح ، فأتيتُ مطرّفاً فحدّثته بذلك ، فضرب بيده على جَبهته ثم قال : سبحان الله ! قال الأوّلُ : ما يخفى إلاّ ما لا يكون ، قال : وما هو إلا أن قدم

يزيدُ بن أبي زياد علينا ، فسار مطرّف بأصحابه حتى نزل قُمّ وقاشان وأصبَهان .

قال أبو مِخنَف : فحدّثني عبدُ الله بن علقمة أنّ مطرّفا حين نزل قُمّ وقاشانَ واطمأن، دعا الحجّاج بن جارية فقال له : حدِّثني عن هزيمة شبيب يومَ السَّبَخة أكانت وأنتَ شاهدَها ، أم كـنتَ خرجتَ قبل الوَقْعة ؟ قال : لا بل شهدتُها ، قال : فحدِّثني حديثَهم كيف كان ؟ فحدَّثه ، فقال : إني كنتُ أحبّ أن يَظفَر شبيب وأن كان ضالاً فيقتل ضالاً . قال : فظننت أنه تمنى ذلك لأنه كان يرجو أن يتمّ لـه الذي يَـطلُب لو هلك الحجّاج . قال : ثم إنّ مطرفاً بعث عمّاله .

قال أبو مِخنَف : فحدّثني النّضرُ بن صالح أنّ مطرّفا عمل عملا حازما لولا أنّ الأقدار غالبة . قال : كتب مع الرّبيع بن يزيد إلى سُويد بن سِرحَان الثقفيّ ، وإلى بكيربن هارونَ البَجَليّ:

أما بعد ، فإنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيّه ، وإلى جهاد مَنْ عند عن الحق، واستأثر بالفيء ، وترَك حُكم الكتاب ، فإذا ظهر الحق وَدُمِغ الباطل ، وكانت كلمةُ الله هي العليا ، جعلْنا هذا الأمرَ شُورَى بين الأمة يرتضي المسلمون لأنفسهم الرضا ، فمَن قَبِل هذا منّا كان أخانا في ديننا ، وولّينا في محيانا ومماتِنا ، ومن ردّ ذلك علينا جاهدْناه واستنصرْنا الله عليه فكَفَى بنا عليه حجة ، وكفى بتركه الجهادَ في سبيل الله غَبْنا ، وبمُداهنة الظالمين في أمر الله وَهْنا! إن الله كتب القتال على المسلمين وسماه كُرْهاً ، ولن يُنالَ رضوانُ الله إلاّ بالصّبر على أمر الله ، وجهاد أعداء الله ، فأجيبوا رحمَكم الله إلى الحقّ، وادعوا إليه مَن ترجون إجابتَه، وعرِّفوه ما لا يَعرِفه، وليقْبِل إليّ كلُّ من رأى رأينا، وأجاب دعوتَنا ، ورأى عدّوه عدّونا، أرشدنا الله وإياكم، وتاب علينا وعليكم، إنه هو التّواب الرحيم. والسلام.

فلما قَدِم الكتابُ على ذَيْنك الرجلين دَبَّا في رجال من أهل الريّ ودَعَوا من تابعَهما، ثم خرجا في نحومن مائة من أهل الرّي سرّاً لا يُفطَن بهم، فجاؤوا حتى وافوا مطرّفا. وكتب البراءُ بن قبيصة، وهوعامل الحجّاج على أصبَهانَ.

أما بعد ، فإن كان للأمير أصلحه الله حاجةٌ في أصبهانَ فليبعث إلى مطرّف جيشاً كثيفاً يستأصله ومن معه ، فأنه لا تزال عصابة قد انتفحتْ له من بلدة من البلدان حتى تُوافَيه بمكانه الذي هو به ، فإنه قد استكثَف وكَثُر تَبَعه ، والسلام .

فكتب إليه الحجّاج :

أما بعد ، إذا أتاك رسولي فعَسْكِرْ بمن معك ، فإذا مرّ بك عَدِيّ بن وتّاد فاخرج معه في أصحابك ، واسمع له وأطِع . والسلام .

فلما قرأ كتابَه خرج فعسكَر ، وجعل الحجّاج بن يوسف يسرِّح إلى البراء بن قَبيصة الرّجال على دوابِّ البريد عشرين عشرين ، وخمسة عشر خمسةَ عشر ، وعشرة عشرة ، حتى سرّح اليه نحوا من خمسمائة ، وكان في ألفين . وكان الأسوَد بن سعد الهمذانيّ ، أتى الرَّيّ في فتح الله على الحجّاج يومَ لقي شبيبا بالسّبَخة ، فمرّ بهَمَذانَ والجبال ، ودخل على حمزةَ فاعتذر إليه ، فقال الأسودَ : فأبلغت الحجّاج عن حمزة ، فقال : قد بلغني ذاك ، وأراد عزلَه ، فخشي أن يَمكر به ، وأن يمتنع منه ، فبعث إلى قيس بن سعد العِجْليّ - وهو يومئذ على شُرطة حمزة بن المغيرة ولبني عِجْل ورَبيعةَ عددٌ بهَمَذان - فبعث إلى قيس بن سعد بعَهده على هَمَذان ، وكتب إليه أن أوثِقْ حمزةَ بن المغيرة في الحديد ، واحبسْه قِبَلك حتى يأتيَك أمري .

فلما أتاه عهده وأمرهُ أقبل ومعه ناس من عشيرته كثير ، فلما دخل المسجد وافق الأقامة لصلاة العصر ،

فصلّى حمزة ، فلما انصرف حمزة انصرف معه قيس بن سعد العجليّ صاحب شُرَطه ، فأقرأه كتابَ الحجَّاج إليه ، وأراه عهدَه ، فقال حمزة ، سمعاً وطاعة ، فأوثقه وحبَسه في السجن ، وتولى أمر هَمَذان ، وبعث عمّاله عليها ، وجعل عماله كلهم من قومه ، وكتب إلى الحجَّاج :

أما بعد ، فإني أخبر الأميرَ اصلحه الله ، أني قد شددتُ حمزةَ بن المغيرة في الحديد ، وحبَسْته في السجن ، وبعثتُ عمّالي على الخرَاج ، ووضعتُ يدي في الجباية ، فإن رأى الأميرُ أبقاه اللهُ أن يأذَن لي في المَسير إلى مطرّف أذن لي حتى أجاهدَه في قومي ، ومن أطاعَني من أهل بلادي ، فإني أرجو أن يكون الجهادُ اعظمَ اجراً من جباية الخرَاج . والسلام .

فلما قرأ الحجاج كتابَه ضَحِك ثمّ قال : هذا جانب آشراً مّا قد أمنّاه . وقد كان حمزة بهمَذان أثقَل ما خلق الله على الحجَّاج مخافة أن يمدّ أخاه بالسلاح والمال ، ولا يدري لعله يبدو له فيعقّ ، فلم يزل يكيده حتى عزله ، فاطمأنّ وقصد قصْد مطرّف .

قال أبو مِخْنَف : فحدّثني مطرّف بن عامر بن واثلة أنّ الحجاج لماقرأ كتابَ قيس بن سعد العِجْليّ وسمع قولَه : إنْ احَبَّ الأميرُ سرت إليه حتى اجاهده في قومي ، قال : ما أبغض إليّ أن تَكثر العربُ في ارض الخراج . قال : فقال لي ابن الغرق : ما هو إلا أن سمعتها من الحجّاج فعلمتُ أنه لو قد فَرَغ له قد عَزَله .

قال : وحدّثني النّضر بن صالح أنّ الحجاج كتب إلى عديّ بن وتّاد الأياديّ وهو على الرّيّ يأمره بالمسير إلى مطرّف بن المغيرة وبالممرّ على البَراء بن قبيصَة ، فإذا اجتمعوا فهو أميرُ الناس .

قال أبو مِخنَف : وحدّثني أبي عن عبد الله بن زهير ، عن عبد الله بن سُليم الأزْديّ ، قال : إنيّ لَجالسٌ مع عديّ بن وتّاد على مجلسه بالرّيّ إذْ أتاه كتاب الحجّاج ، فقرأه ثمّ دفعه إليّ ، فقرأته فإذا فيه :

أما بعد ، فإذا قرأتَ كتابي هذا فانهض بثلاثة أرباع مِن معك من أهل الرّيّ ، ثمّ أقبِل حتى تمرّ بالبراء بن قبيصَة بجَيّ ، ثم سِيرَا جميعا ، فإذا لقيتهما فأنتَ أمير الناس حتى يَقتل الله مطرّفاً ، فإذا كَفَى الله المؤمنين مُؤُونتَه فانصرِف إلى عملك في كَنَف من الله وكَلاءتَه وسِتره ، فلما قرأتُه قال لي : قمْ وتجهزْ .

قال : وخرج فعسكَرَ ، ودعا الكُتّاب فضرَبوا البَعْث على ثلاثة أرباع الناس ، فما مضت جُمُعة حتى سرنا فانتهيْنا إلى جَيّ ، ويُوافينا بها قبَيصة القُحافيّ في تِسعمائة من أهل الشأم ، فيهم عُمر بن هُبيرة ، قال : ولم نلبث بجَيّ إلاّ يومين حتى نهض عديّ بن وتّاد بمن أطاعه من الناس ومعه ثلاثة آلاف مُقاتِل من أهل الرّيّ وألف مُقاتل مع البَراء بن قبيصة بعثهم إليه الحجّاج من الكوفة ، وسبعمائة من أهل الشأم ، ونحو ألف رجل من أهل أصبَهان والأكراد ، فكان في قريب من ستة آلاف مُقاتِل ، ثمّ أقبَل حتى دخل على مطرّف بن المغيرة .

قال أبو مِخنَف : فحدّثني النّضر بنُ صالح ، عن عبد الله بن علقمة ، أن مطرّفاً لما بلغه مسيرُهم إليه خَندَق على أصحابه خَنْدقاً ، فلم يزالوا فيه حتى قدموا عليه .

قال أبو مِخنَف : وحدّثني يزيدُ مولى عبد الله بنِ زهير ، قال : كنتُ مع مولاي إذ ذاك ، قال : خرج عديّ بن وتّاد فعبّى الناسَ ، فجعل على ميمنتِه عبدَ الله بن زهير ، ثمّ قال للبرَاء بن قبيصة : قُمْ في الميسرَة ، فغضب البراء، وقال : تأمرني بالوقوف في الميسرة وأنا أمير مِثلك ! تلك خَيْلي في الميسرة، وقد بعثتُ عليها فارسَ مُضَرَ الطُّفيل بن عامر بن واثله ، قال : فأنْهِيَ ذلك إلىعديّ بن وتّاد ، فقال لابن أقيصر الخثعميّ : انطلِق فأنت على الخيل ، وانطلِق إلى البراء بن قبيصة فقل له : إنك قد أمرت بطاعتي ، ولست من الميمنة والميسرة والخيل والرجالة في شيء ، إنما عليك أن تؤمَر فتُطع ، ولا تَعرض لي في شيء اكرهه فأتنكّر لك ـ وقد كان

له مُكرِما .

ثمّ إنّ عديّا بعث على الميسرة عمر بن هبيرة ، وبعثه في مائة من أهل الشأم ، فجاء حتى وقف برايته ، فقال رجل من أصحابه للطُّفيل بن عامر : خَلِّ رايتَك وتَنَحَّ عنّا ، فإنما نحن أصحابُ هذا الموقف ، فقال الطُّفيل : إني لا أخاصمكم ، إنما عقد لي هذه الراية البَراء بن قبيصة ، وهو أميرُنا ، وقد علمْنا أنّ صاحبكم على جماعة الناس ، فإن كان قد عَقَد لصاحبكم هذا فبارَكَ الله له ، ما أسمَعَنا وأطوعنا! فقال لهم عمرُ بنُ هبيرة : مهلا ، كُفّوا عن أخيكم وابن عمِّكم ، رايتنا رايتك ، فإن شئتَ آثرْناك بها . قال : فما رأينا رجُلَين كانا أحلَم منهما في موقفهما ذلك . قال ، : ونزل عديّ بن وتّاد ثمّ زحف نحو مطرّف .

قال أبو مِخْنَف : فحدّثني النّضر بن صالح وعبد الله بن علقمة أنّ مطرّفا بعث على ميمنته الحجّاج بَن جارية ، وعلى ميسرته الرّبيع بن يزيدَ الأسديّ ، وعلى الحامية سليمان بن صخر المُزَنيّ ، ونزل هو يمشي في الرّجال ، ورايتُه مع يزيد بن أبي زياد مولَى أبيه المغيرة بن شعبة . قال : فلما زحف القوم بعضهم إلى بعض وتدانَوْا قال لبكير بن هارونَ البَجَليّ : اخرُج إليهم فادعهم إلى كتاب الله وسُنة نبيه ، وبَكِّتْهم بأعمالهم الخبيثة . فخرج إليهم بكير بن هارونَ على فرس له أدهَمَ أقرح ذنوب عليه الدِّرع والمِغفَر والساعدان ، في يده الرمح ، وقد شدّ درعَه بعصابة حَمراءَ من حواشي البرُود ، فنادى بصوت له عال رفيع : يا أهلَ قِبلتنا ، وأهلَ مِلّتنا ، وأهل دعوتنا ، إنا نسألكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي علمه بما تُسرّون مثل عِلمه بما تُعلنون لَمّا أنصفتُمونا وصدَقْتمونا ، وكانت نَصِيحتُكم لله لا لخَلقه ، وكنتم شهداءَ لله على عباده بما يعلَمُه الله من عباده . خبّروني عن عبد الملك بن مروان ، وعن الحجّاج بن يوسف ، ألستم تعلمونهما جبّارَيْن مستأثرَيْن يتبعان الهَوى ، فيأخذان بالظِّنّة ، ويَقتُلان على الغَضَب . قال : فتنادوْا من كل جانب : يا عدوّ الله كذبتَ ، ليسا كذلك ، فقال لهم : ويْلَكم ﴿ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَـذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَـذَابٍ وَقَدْ خَـابَ مَنْ آفْتَرَى ﴾(١) ، ويْلَكم ، أو تعلمون من الله ما لا يعلم ، إني قد استشهدتكم وقد قال الله في الشهادة : ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّه آثِمٌ قَلْبُه ﴾(٢) ، فخرج إليه صارمٌ مولَى عديّ بن وتاد وصاحب رايته ، فحمل على بُكَير بن هارونَ البجَليّ ، فاضطربا بسيفَيهما ، فلم تعمل ضربةُ مولَى عدّي شيئاً ، وضربه بكير بالسيف فقتَله ، ثم استقدم ، فقال : فارس لفارس ، فلم يخرج إليه أحدٌ ، فجعل يقول :

صَـارِمُ قَـدْ لاَقَيْت سَيْفـاً صَـارِمـاً وأسَـداً ذا لِـبْـدَة ضُـبَـارِ مَـا

قال : ثمّ إنّ الحجّاج بن جارية حمل وهو في الميمنة على عُمر بن هبيرة وهو في الميسرة ، وفيها الطُّفيل بن عامر بن واثلة ، فالتقى هو والطُّفَيل ـ وكانا صديقَين متؤاخيَيْن ـ فتعارفا ، وقد رفَع كل واحد منهما السيفَ على صاحبه ، فكفَّا أيديهَما ، واقتتلوا طويلا . ثمّ إنّ ميسرةَ عديّ بن وتّاد زالت غيرَ بعيد ، وانصرف الحجاج بن جارية إلى موقفه . ثمّ إن الربيع بن يزيد حَمَل على عبد الله بن زُهير ، فاقتتلوا طويلا ، ثمّ إن جماعة الناس حملتْ على الأسَديّ فقتلْته ، وانكشفتْ ميسرة مطرف بن المغيرة حتى انتهت إليه . ثمّ إنّ عمرَ بن هُبيرة حمل على الحجاج بن جارية وأصحابه فقاتَلَه قتالا طويلا ، ثمّ إنه حـذّره حتى انتهى إلى مطرّف ، وحمل ابن أقيصر الخثعميّ في الخَيْل على سليمان بن صخر المُـزَنيّ فقتَلَه ، وانكشفت خيلُهم ، حتى انتهى إلى مطرّف ، فثمّ

(١) سورة طه : ٦١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٣ .

اقتتلتْ الفُرسان أشدّ قتال رآه الناس قطّ ، ثمّ إنه وصل إلى مطرّف .

قال أبو مِخْنَف : فحدّثني النَّضْرُ بن صالح أنه جعل يناديهم يومئذ : ﴿ يا أَهْلَ الْكِتَاب تَعَالَوا إلى كلمةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ ألَّا نعبدَ إلا الله وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ولا يتَّخذ بعضُنَا بعضاً أَرْبَاباً من دُونِ الله فإنْ تولَّوا فَقُولُوا آشهَدوا بأَنَّا مُسلِمون ﴾(١) .

قال : ولم يزل يقاتل حتى قُتل ، واحتزّ رأسَه عُمر بن هبيرة ، وذكر أنه قتله ، وقد كان أسرع إليه غيرُ واحد ، غير أنّ ابن هُبيرة احتزَّ رأسه وأوفده به عديّ بن وتاد وحظِيَ به ، وقاتل عمر بن هبيرة يومئذ وأبلى بلاءً حسناً .

قال أبو مخنف : وقد حدّثني حكيم بن أبي سفيان الأزديّ أنه قتل يزيد بن زياد مولى المغيرة بن شعبة ، وكان صاحب راية مطرّف . قال : ودخلوا عسكر مطرّف ، وكان مطرّف ، قد جعل على عسكره عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف الأزديّ ، فقتِل ، وكان صالحاً ناسكاً عفيفا .

قال أبو مخنف : حدثني زيد مولاهم أنه رأى رأسه مع ابن أقيصر الخثعميّ ، فما ملكتُ نفسي أن قلت له . أما والله لقد قتلتَه من المصلّين العابدين الذاكرين الله كثيراً . قال : فأقبل نحوي وقال : منْ أنت ؟ فقال له مولاي : هذاغلامي ماله؟ قال : فأخبره بمقالتي ، فقال : إنه ضعيف العقل ، قال :ثم انصرفنا إلى الرّيّ مع عديّ بن وتاد . قال : وبعث رجالا من أهلِ البلاء إلى الحجاج ، فأكرمهم وأحسن إليهم . قال : ولما رجع إلى الري جاءت بجيلة إلى عدّيّ بن وتّاد فطلبوا لبكير بن هارون الأمان فآمنه ، وطلبت ثقيف لسُويد بن سرحان الثقفيّ ، الامان فآمنه ، وطلبت في كلّ رجل كان مع مطرّف عشيرتهُ فآمنهم وأحسن في ذلك، وقد كان رجال من أصحاب مطرف أحيط بهم في عسكر مطرف، فنادوا : يا بَراء، خذلْتَنا الأمان، يا براء، اشفَع لنا. فشفَع لهم، فتُركوا، وأسَر عدّي ناساً كثيراً فخَلّى عنهم.

قال أبو مخنف : وحدّثني بن صالح أنه أقبل حتى قدم على سويد بن عبد الرحمن بحلوان ، فأكرمه وأحسن إليه ، ثم إنه انصرف بعد ذلك إلى الكوفة .

قال أبو مِخْنَف : وحدّثني عبدُ الله بن علقمة أن الحجّاج بن جارية الخَثعميّ أتى الريّ وكان مَكتَبُه بها ، فطُلب إلى عديّ فيه ، فقال : هذا رجلٌ مشهور قد شُهِر مع صاحبه ، وهذا كتابُ الحجاج إليّ فيه .

قال أبو مِخْنَف : فحدّثني أبي عن عبد الله بن زُهير قال : كتب فيمن كلمه في الحجاج بن جارية ، فأخرج إلينا كتابَ الحجّاج بن يوسف :

أما بعد : فإن كان اللهُ قتلَ الحجّاج بن جارية فبُعْداً له . فذاك ما أهوَى وأحِبّ ، وإن كان حيّاً فاطلبه قَبَلك حتى توثِقَه ، ثم سَرِّح به إلى إنّ شاء الله . والسلام .

قال : فقال لنا : قد كُتِبَ إلي فيه ، ولا بدّ من السمع والطاعة ، ولو لم يُكتَب إليّ فيه آمنته لكم ، وكففتُ عنه فلم أطلبْه . وقمنا من عنده . قال : فلم يزل الحَجّاج بن جارية خائفا حتى عُزل عديّ بن وتّاد، وقدم خالد بن عتّاب بن وَرَقاء فمشيتُ إليه فيه ، فكلّمته فآمنه . وقال حبيب بن خِدْرَة مولى لبني هلال بن عامر :

هــل أتى فــائــدَ عن أيســارِنــا . إذ خَـشِيـنَـا مِنْ عَـدُوٍّ خـرُقـاً
إذ أتــانـا الخَــوْفُ من مــأْمَنِنـا فَـطَويـنــا في سَـوادٍ أُفُـقـا

(١) سورة آل عمران : ٦٤ .

وسَلِي هَـدْيَـةَ يَـوْمـاً هـل رَأَتْ ... بـشَـراً أكـرَمَ منَّـا خُـلُقـا!
وسَلِيهـا أعَـلَى العـهـدِ لنـا ... أو يُـصِـرُّونَ عـلينـا حَنَـقَـا
ولَـكَـمْ مـن خُـلّة مـن قَبـلِهـا ... قَـدْ صَـرَفْنَا حَبلَهَا فـانـطَلَقَـا
قَـدْ أَصَبْنَا العَيْشَ عَيْشاً نـاعـماً ... وأصَبْنَـا الْـعَيْشَ عَـيْشـاً رَنَـقَـا
وأصَبْتُ الـدَّهْـرَ دهـراً أَشْتَهِي ... طبَقـاً منـه وألـوى طبَـقَـا
وشَهِـدْتُ الخيلَ في مَلْمُـومَـةٍ ... مـا تـرى منهنَّ إلا الحَـدَقَـا
يَـتَسَـاقَـوْنَ بـأطـرافِ القَنَـا ... من نَجيعِ الموتِ كـأسـاً دَهقـا
فـطِرادُ الخيـلِ قـد يُـؤْنِقُـني ... ويـردّ الـلهْـوُ عـني الأَنَـقَـا
بمُشِيـحِ البَيْض حتّى يَتـركـوا ... لسُيـوفِ الهِنْـد فيهـا طُـرُقَـا
فـكـأنّي مـن غـدٍ وافقـتـهـا ... مثـل مـا وافـقَ شَـنٌّ طَبَـقَـا

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة وقع الاختلاف بين الأزارقة أصحاب قَطَريّ بن الفُجَاءَة ، فخَـالفه بعضهم واعتزلَه ، وبايع عبد رَبّه الكبير ، وأقام بعضُهم على بيعة قطريّ .

ذكر الخبر عن ذلك ، وعن السبب الذي من أجله حدث الاختلاف بينهم حتى صار أمرهم إلى هلاك :

ذكر هشامٌ عن أبي مِخْنَف : عن يوسف بن يزيد ، أنّ المهلّب أقام بسابورَ فقاتَلَ قَطَرياً وأصحابه من الأزارقة بعد ما صرف الحجّاج عتابَ بن وَرْقاء عن عسكره نحواً من سنة . ثم إنه زاحَفَهم يوم البُسْتان فقاتَلَهم قتالاً شديداً ، وكانت كِرْمانُ في أيدي الخوارج ، وفارس في يد المهلّب ، فكان قد ضاق عليهم مكانُهم الّذي هم به ، لا يأتيهم من فارس مادّة ، وَبَعُدَتْ ديارهم عنهم ، فخرجوا حتى أتوا كرمانَ وتبعهم المهلّب حتى نزل بجيرَفْتَ ـ وجيرفْتُ مدينة كرمان ـ فقاتَلَهم بها اكثر من سنة قتالا شديداً ، وحازهم عن فارس كلها ، فلما صارت فارسُ كلُّها في يدي المهلب بعث الحجّاج عليها عّمالَه وأخذها من المهلّب ، فبلغ ذلك عبد الملك ، فكتب إلى الحجّاج :

أما بعد ، فدَعْ بَيدَ المهلَّب خراجَ جبالِ فارسَ ، فإنه لا بـد للجيش من قوّة ، ولصاحب الجيش من معونة ، ودعْ له كُورَة فَسَاوَدرابجرْدَ ، وكورةِ إصْطَخْر .

فترَكَها للمهلّب ، فبعث المهلَّب عليها عمّاله ، فكانت له قوّةً على عدّوه وما يصلحه ، ففي ذلك يقول شاعر الأزدْ وهو يعاتِب المهلب :

نـقـاتِـلُ عـن قُـصـورِ دَرَابَـجـرِد ... ونَـجْـبِـي لـلمُـغـيـرَةِ والـرُّقَـادِ

وكان الرُّقاد بن زياد بـن همّام ـ رجلٍ من العَتيك ـ كريماً على المهلَّب ، وبعث الحجاج إلى المهلب البراءَ بنَ قبيصة ، وكتب إلى المهلب :

أما بعد ، فإنك والله لو شئت فيما أرى لقد اصطلمتَ هذه الخارجة المارقّة ، ولكنّك تحبّ طول بقائهم لتأكل الأرض حولَك ، وقد بعثتُ إليك البراءبن قبيصة ليُنهِضك إليهم ، فانهض إليهم إذا قَدِم عليك بجميع المسلمين ، ثمّ جاهدهم أشدّ الجهاد ، وإيَّاك والعِللَ والأباطيلَ ، والامورَ التي ليست لك عندي بسائغة ولا جائزة ، والسلام .

فأخرَج المهلب بنيه ، كلَّ أبن له في كَتيبة ، وأخرَج الناسَ على راياتهم ومَصافِّهم وأخماسهم ، وجاء البَرَاء بن قبيصة فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم . فأخذَت الكتائبُ تحمل على الكتائب ، والرّجالَ على الرجال ، فيقتتلون أشدَّ قتال رآه الناس من صَلاة الغداة إلى انتصاف النهار ، ثم انصرفَوا ، فجاء البَرَاء بن قُبيصةَ إلى المهلب فقال له : لا والله ما رأيت كبَنيك فُرسانا قطّ ، ولا كفُرسانِك من العرب فُرسانا قطّ ، ولا رأيت مِثلَ قوم يقاتلونك قطّ أصبرَ ولا أبأسَ ، أنتَ واللهّ المعذور ، فرجع بالناس المهلّب ، حتى إذا كان عند العصر خرج إليهم بالناس وبنيه في كتائبهم ، فقاتلوه كقتالهم في أول مرّة .

قال أبو مخنَف : وحدّثني أبو المغلّس الكنانيّ ، عن عمه أبي طلحة ، قال : خرجت كتيبةٌ من كتائبهم لكتيبة من كتائبنا ، فاشتدّ بينهما القتال ، فأخذَتْ كلُّ واحدة منهما لا تصُدّ عن الاخرى ، فاقتتلْنا حتى حجَزَ الليلُ بينهما ، فقالت إحداهما للأخرى : ممن أنتم ؟ فقال هؤلاء : نحن من بني تميم ، وقال هؤلاء : نحن من بني تميم ، فانصرَفوا عند المساء ، قال المهلَّب للبَراء : كيف رأيت ؟ قال : رأيتُ قوماً والله ما يعينك عليهم إلا الله . فأحسَنَ إلى البراء بن قبيصة وأجازه ، وحمَلَه وكساه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، ثمّ انصرف إلى الحجاج فأتاه بعذر المهلب ، وأخبره بما رأى ، وكتب المهلّب إلى الحجّاج :

أما بعد ، فقد أتاني كتابُ الأمير أصلحه الله ، واتهامه إيّاي في هذه الخارجة المارقة ، وأمرني الأميرُ بالنهوض إليهم ، وأشهاد رسوله ذلك ، وقد فعلت ، فليسأْله عما رأى ، فأما أنا فوالله لو كنت أقدر على استئصالهم وإزالتهم عن مكانهم ثمّ أمسكتُ عن ذلك لقد غششتُ المسلمين ، وما وفَيتُ لأمير المؤمنين ، ولا نصحتُ للأمير ـ أصلحه الله ـ فمعاذ الله أن يكون هذا من رأيي ، ولا مما أدِين اللهَ به ، والسلام .

ثمّ إنّ المَهلب قاتلهم بها ثمانية عشر شهراً لا يستقلّ منهم شيئاً ، ولا يرى في موطنٍ يُنْقَعون له ولمن معه من أهل العراق من الطعن والضرب ما يَرْدَعُونهم به ويَكفّونهم عنهم .

ثم إنّ رجلًا منهم كان عاملا لقَطَريّ على ناحية من كِرْمان خرج في سَريّة لهم يُدعَى المُقعْطَر من بن ضَبَّة ، فقَتَل رجلا قد كان ذا بأس من الخوارج ، ودخل منهم في ولاية ، فقتله المُقعْطَر ، فوثَبت الخوارج إلى قَطَري ، فذكروا له ذلك ، وقالوا : أمْكنّا من الضّبيّ نقتله بصاحبنا ، فقال لهم : ما أرى أن افعل ، رجلٌ تأوّل فأخطأ في التأويل ما أرى أن تقتلوه ، وهو من ذوِي الفضل منكم ، والسابقة فيكم ، قالوا : بلى ، قال لهم : لا ، فوقع الاختلاف بينهم ، فولوا عبدَ ربّ الكبير ، وخلعوا قَطَريًا ، وبايع قطريًاً منهم عصابةٌ نحواً من ربعهم أو خمسهم ، فقاتلهم نحواً من شهر غُدوةً وعَشية .

فكتب بذلك المهلّب إلى الحجّاج :

أمابعد ، فإن الله قد ألقى بأسَ الخوارج بينهم ، فخلع عظمهمُ قطريا وبايعوا عبد ربّ ، وبقيت عصابة منهم مع قطريّ ، فهم يقاتل بعضهم بعضاً غُدُوًّ وعشيّاً ، وقد رجوتُ أن يكون ذلك من أمرهم سبب هلاكهم إن شاء الله ، والسلام .

فكتب إليه :

أما بعد فقد بلغني كتابُك تَذكر فيه اختلاف الخوارج بينها ، فإذا أتاك كتابي هذا فناهِضْهم على حال اختلافهم وافتراقهم قبل أن يجتمعوا ، فتكونَ مؤونتهم اعليك أشدّ ، والسلام .

فكتب إليه :

أما بعد ، فقد بلغني كتابُ الأمير ، وكلّ ما فيه قد فهمتُ ، ولستُ أرى أن أقاتلهم ما داموا يَقتلُ بعضُهم

بعضا ، وينقص بعضُهم عدَدَ بعض ، فإن تموا على ذلك فهو الذي نريد وفيه هلاكُهم ، وإن اجتمعَوا لم يجتمعوا إلّا وقد رقَّق بعضُهم بعضاً ، فأناهِضُهم على تفيئة ذلك، وهم أهوَن ما كانوا وأضعَفُه شوكةً ، إن شاء الله ، والسلام .

فكفّ عنه الحجّاج ، وتركهم المهلب يقتتلون شهراً لا يحرِّكهم .

ثم إنّ قَطَريّا خرج بمن اتبعه نحو طَبرستانَ ، وبايع عامّتهم عبد رَبِّه الكبير ، فنهض إليهم المهلّب ، فقاتلوه قتالاً شديداً ، ثمّ إنّ الله قتلهم فلم ينجُ منهم إلّا قليل ، وأخذ عسكرهم وما فيه وسُبُوا لأنهم كانوا يَسبون المسلمين . وقال كعبُ الأشقريّ ـ والأشقَر بطنٌ من الأزد ـ يذكر يومَ رامَهُرْمُز ، وأيام سابَور ، وأيام جَيرَفْتَ :

يا حفصَ إني عَدَاني عنكم السفرُ ... وقد أرِقْتُ فآذى عَيْنِيَ السهرُ
عُلِّقْتَ يا كعبُ بعد الشَّبيبِ غانيةً ... والشَّيبُ فيه عن الأهواء مزْدَجرُ
أممْسكٌ أنتَ عنها بالَّذي عَهِدَتْ ... أم حَبْلها إذ نَأتْكَ اليومَ مُنْبَتِرُ
عُلّقتُ خَوْداً بأعلى الطَّفّ مَنزِلُها ... في غُرَفَة دونها الأبوابُ والحَجرُ
دُرْماً مَنَاكِبُهَا رَيَّا مآكِمُهَا ... تكاد إذ نَهَضتْ للمشي تنبَتِرُ
وقد تركْتُ بِشطِّ الزَّابِييْن لها ... دارا بها يسْعَدُ البَادُونَ والحَضَرُ
وأخْتَرْتُ دارا بها حيٌّ أسَرُّ بِهمْ ... ما زال فيهم لمن نختارُهُمْ خِيَرُ
لمَّا نَبَتْ بي بِلَادي سِرتُ مُنتجِعاً ... وطَالِبُ الخير مُرْتادٌ ومُنتَظِرُ
أبا سعيد فأني جئت مُنتجِعاً ... أرجُو نَوالَك لمّا مَسَّني الضَّرَ
لولا المهلَّبُ ما زُرْنا بلادَهُمُ ... ما دامت الأرض فيها الماءُ والشجرُ
فما من الناس من حيٍّ عَلِمتُهُمُ ... إلا يُرَى فِيهم من سَيْبِكم أثرُ
أحيَيْتَهُم بِسجَال مِن نَدَاكَ كما ... تحيَا البلادُ إذا ما مَّسها المطرُ
إنِي لأرجو إذا ما فاقةٌ نزَلَتْ ... فضلا من الله في كفَّيكَ يَبْتَدِرُ
فأجبرْ أخاً أو هَي الفقر قوَّته ... لعلَّه بعدَ وهْي العظْمِ ينجبرُ
جَفَا ذَوُو نَسَبي عنِّي وأخلفَني ... ظني فللهِ دَرِّي كيف آتمِرُ
يا وَاهِبَ القَينةِ الحَسناءِ سُنَّتُها ... كالشمس هِرْكَولةٌ في طَرْفها فَتَرُ
وما تزال بُدُورُ منك رائحة ... وآخرون لهم من سَيْبك الغُرَر
نماك للمجد أملاكٌ وَرِثْتُهم ... شُمُّ العَرَانينِ في أخلاقهمْ يَسَرُ
ثارُوا بقتْلَى وأوتارٍ تُعدّدُها ... في حِينٍ لا حَدَثٌ في الحرب يَتَّئرُ
واستسلم الناسُ إذ حلَّ العدوُّ بهم ... فما لأمرهمُ وردٌ ولا صَدَرُ
وما تجاوَزَ بابَ الجسر من أحد ... وعَضَّتِ الحربُ أهلَ المصرِ فانجحَروا
وأدخل الخوفُ أجوافَ البيوت على ... مِثْلِ النساءِ رجال ما بهم غِيَرُ
واشتدَّت الحربُ والبَلوَى وحلَّ بنا ... أمرٌ تَشَمَّرُ في أمثالِهِ الأُزُر
نظلّ من دون خفض مُعصِمين بهم ... فَشمَّر الشيخُ لما أعظمَ الخَطَرَ

كنا نَهوِّنُ قَبلَ اليومِ شأنَهُمُ حتى تَفَاقَمَ أمرٌ كان يُحتَقرُ
لمَّا وَهَنَّا وقد حلُّوا بساحَتِنا واستُنفِر الناسُ تاراتٍ فما نَفَرُوا
نادَى امرؤٌ لا خلافَ في عَشِيرَتِه عَنه وليس به في مِثلِهِ قِصَرُ
أفشى هنالك ممَّا كان مذ عصروا فيهم صنائع مما كان يُدَّخَرُ
تلبَّسُوا لقِراعِ الحربِ بَزَّتَها فأصبَحُوا من وراءِ الجسر قد عَبرُوا
ساروا بألويَة للمجدِ قد رُفِعْت وتحتَهُنَّ لُيُوثٌ في الوغَي وُقُرُ
حتى إذا خَلَّفُوا الأهوازَ واجتمعوا بِرَامَهُرْمُزَ وافاهُمْ بها الخبرُ
نَعيُّ بِشرٍ فجال القومُ وانصدعوا إلا بَقَايا إذا ما ذُكِّرُوا ذَكَرُوا
ثم استمرَّ بنا راضٍ بِبَيعتِه يَنوي الوفاءَ ولم نغْدِرْ كما غَدَرُوا
حتى اجتمعنا بسَابورِ الجنود وقد شُبَّتْ لنا ولهم نارٌ لها شَرَرُ
نَلقَى مساعِيرَ أبطالاً كأنهمُ جِنٌّ نقارِعُهُمْ ما مثلُهم بَشَرُ
نُسْقَى ونَسْقِيهمُ سَمًّا عَلَى حنَقٍ مُستأنِفِي الليْلِ حتّى أسْفَرَ السَّحَرُ
قَتْلَى هنالك لا عقلٌ ولا قَوَدٌ مِنَّا ومنهم دِماءٌ سفكَها هدَرُ
حتى تَنَحَّوْا لنا عنها تسُوقُهُمُ منَّا ليوث إذا ما أقدَموا جَسروا
لم يُغنِ عنهم غداةَ التلِّ كيدُهُمُ عند الطِّعان ولا المكرُ الذي مَكَرُوا
باتَتْ كتائبُنا تَردِي مُسَوَّمَةً حولَ المهلَّبِ حتى نَوَّرَ القمرُ
هناك ولَّوْا جِزاناً بعد ما فَرِحوا وحالَ دونَهُمُ الأنهارُ والجُدُرُ
عبَّوْا جنودَهُم بالسَّفح إذ نَزلوا بكازَرُونَ فما عزُّوا ولا ظفروا
وقد لقوا مَصْدَقاً منا بمنزلةٍ ظنُّوا بأن يُنصَرُوا فيها فما نُصِرُوا
بدَشْت بارينَ يومَ الشِّعْبِ إذا لُحقتْ أسدٌ بسفكِ دماءِ الناس قد زَئِرُوا
لاقَوْا كتائبَ لا يُخلونَ ثَغْرَهُمُ فيهمْ على من يقاسي حربهم صَعَرُ
المقْدِمين إذ ماخيلهم وردَتْ والعاطفين إذا ما ضيِّع الدُّبرُ
وفي جُبَيرِينَ إذ صفُّوا بزَحفهم ولَّوا خَزَايَا وقد فلُّوا وقد قُهِرُوا
والله ما نزلوا يوماً بساحَتِنا إلَّا أصابَهُمُ من حربنا ظَفَرُ
نَنْفِيهمُ بالقنا عن كلِّ منزلةٍ تَرُوحُ منا مساعِيرٌ وتَبْتَكرُ
ولوا حذاراً وقد هزُّوا أسِنَّتَنا نحو الحروب فما نجّاهمُ الحذرُ
صَلْتُ الجبين طويلُ الباعِ ذو فُرَحٍ ضَخْمُ الدَّسيعَة لا وَانٌ ولا غُمُرُ
مُجَرّبُ الحربِ ميمونٌ نَقِيبتُهُ لا يُسْتَخَفُّ ولا من رأيِهِ البَطَرُ
وفي ثلاثِ سنين يستدِيمُ بنا يُقارِعُ الحربَ أطواراً ويأتمرُ
يقولُ إنَّ غداً مُبْدٍ لناظره وفي الليالي وفي الأيام مُعتَبَرُ
دعوا التَّتابُع والأسراع وارتقبُوا إنَّ المُحارِبَ يَستأني ويَنتظرُ
حتى أتته أمورٌ عندها فرجٌ وقد تبين ما يأتي وما يذَرُ

لما زَوَاهمْ إلى كَرمانَ وانصدعوا … وقد تقاربتِ الاجالُ والقدرُ
سرنا إليهم بمثل الموجِ وازدَلَفوا … وقبلَ ذلك كانت بيننا مِئرُ
وزادَنا حَنقاً قتلى نُذَكِّرُها … لا تَسْتَفيقَ عيونٌ كلَّما ذُكِروا
إذا ذكَرنا جَرُوزاً والذينَ بها … قتلى مضى لهمُ حولانِ ما قُبِرُوا
تأتي علينا حزَازاتُ النفوس فما … نُبقي عليهم وما يبقون إن قَدَرُوا
ولا يُقيلونَنا في الحرب عثرتَنا … ولا نقيلُهمُ يوماً إذا عثروا
لا عُذرَ يُقْبَلُ منَّا دون أنفسِنا … ولا لهم عندنا عذرٌ لو اعتذَروا
صفَّانِ بالقاع كالطَّودين بينهما … كالبرقِ يلمعُ حتى يشْخَصَ البصرُ
على بصائرَ كلٌّ غيرُ تاركها … كلا الفريقين تُتلى فيهم السُّوَرُ
يَمشون في البيض والأبدان إذ وردُوا … مَشْي الزوامل تهدي صفَّهْم زُمَرٌ
وشيخنا حوله منَّا مُلمْلَمةٌ … حيٌّ من الأزْد فيما نابَهُمْ صُبُرُ
في موطنٍ يقطعُ الأبطال مَنظُرهْ … تُشاطُ فيه نُفوسٌ حين تبتكر
ما زال منَّا رجالٌ ثمَّ نَضْرِبُهُمْ … بالمشرفي ونارُ الحرب تَستَعِرُ
وباد كلُّ سلاحٍ يُستعان به … في حَومة الموت إلا الصارم الذَّكَرُ
نَدُوسُهمْ بعَناجيجٍ مُجَفَّفةٍ … وبيننا ثمَّ من صُم القَنا كِسَرُ
يغشَيْنَ قتلى وعقَرَى ما بها رَمَقٌ … كأنما فوقها الجاديُّ يُعتصرُ
قتلى بقتلى قِصاصٌ يُستقادُ بها … تَشفي صُدُورَ رجال طالما وُتِرُوا
مُجاورين بها خيلاً مُعَقَّرةً … للطيرِ فيها وفي أجسادهم جَزَرُ
في معركٍ تحسَبُ القتلى بساحته … اعجازَ نخلٍ زَفَتْهُ الريحُ ينعقرُ
وفي مواطِنَ قبلَ اليوم قد سَلَفتْ … قد كان للأزد فيها الحمدُ والظَّفرُ
في كل يوم تُلاقِي الأزدُ مُفظَعةً … يَشيبُ في ساعةٍ من هولها الشعرُ
والأزدُ قومي خيارُ القوم قد علموا … إذا قُرومُهم يومَ الوغى خطروا
فيهم مَعاقِلُ من عزٍّ يلاذُ بها … يوماً إذا شمَّرَتْ حربٌ لها دِرَرُ
حيٌ بأسيافِهِمْ يَبغونَ مَجدَهُمُ … إنَّ المكارمَ في المكروهِ تُبْتَدَرُ
لولا المهلَّب للجيش الَّذي وردوا … انهارَ كَرْمَانَ بعد الله ما صدرُوا
إنَّا اعتَصَمْنا بحبل الله إذ جحَدوا … بالمُحْكَمَاتِ ولم نَكْفُرْ كما كَفَرُوا
جاروا عن القصد والأسلام واتَّبعوا … ديناً يخالفُ ما جاءت به النُّذُرُ

وقال الطفيل بن عامر بن واثلة وهو يذكر قتلَ عبد ربه الكبير وأصحابه ، وذهاب قَطَريّ في الأرض واتّباعهم إياه ومراوغته إيّاهم :

لقد مسَّ منَّا عبدَ ربّ وجندَهُ … عقابٌ فأمسى سَبيهمُ في المقاسمِ
سما لهمُ بالجيش حتى أزَاحَهُم … بكرمانَ عن مثوى من الأرض ناعِم
وما قطَريُّ الكُفر إلا نَعَامَة … طريدٌ يَدّوي ليلة غير نائمِ

إذا فـرّ منّـا هـاربـا كـان وجهُـهُ طـريقاً سـوى قصدِ الهُـدى والمعـالِم
فليس بمـنجيـهِ الفـرارُ وإنْ جَـرَتْ بـه الفُلكُ في لُـجٍّ من البحـرِ دائـم

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة كانت هَلَكة قَطَريّ وعبيدةبن هلال وعبد ربّ الكبير ومن كان معهم من الازارقة .

ذكر سبب مهلَكهم :

وكان سبب ذلك أنّ أمر الذين ذكرنا خبرهَم من الأزارقة لما تشتّت بالاخْتلاف الذي حدث بينهم بكرمان فصار بعضهم مع عبد ربه الكبير وبعضهم مع قطرّي ووهَي أمرُ قطريّ ، توجّه يريد طَبَرستان ، وبلغ أمرُه الحجّاج ، فوجّه ـ فيما ذكر هشامٌ عن أبي مِخنَف ، عن يونس بن يزيدَ ـ سفيان بن الأبرد ، ووجّه معه جيشاً من أهل الشأم عظيما في طلب قَطَريّ ، فأقبل سفيان حتى أتى الرَّي ثمّ أتبعهم . وكتب الحجّاج إلى إسحاق بن محمد بن الأشعث وهو على جيش لأهل الكوفة بطَبرستان ، إن اسمَع واطِع لسُفيان . فأقبَل إلى سفيان فسار معه في طَلَب قطريّ حتى لحقوه في شِعْب من شِعاب طَبَرستان ، فقاتلوه ، فتفرقّ عنه اصحابهُ ، ووقع عن دابته في أسفل الشعب فتَدَهدى حتى خرّ إلى أسفله ، فقال معاوية بن مِحصن الكنديّ : رأيته حيث هَوَى ولم أعرفْه ، ونظرت إلى خمس عشرَة امرأةً عربيّة هنّ في الجمال والبَزازة وحُسن الهيئة كما شاء ربُّك ، ما عدا عجوزا فيهنّ ، فحملتُ عليهنّ فصرفتهنّ إلى سُفيانَ بن الأبرد .

فلما دنوتُ بهنّ منه انتحتْ لي بسيفها العجوزُ فتَضرب به عنقي ، فقطَعَت المِغْفر ، وقطَعَت جلدةً من حَلْقي ، واختلج السيفَ فأضرب به وجهَها ، فأصاب قِحفَ رأسها ، فوقعت ميّتة ، وأقبلتُ بالفَتيات حتى دفعتهنّ إلى سُفيان وإنه ليضحك من العجوز : وقال : ما اردت إلى قتل هذه اخزاهَا الله ـ فقلت : أو ما رأيتَ اصلحَك الله ضربتَها إيايَ ! والله إن كادت لتقتلني ، قال : قد رأيتُ ، فوالله ما ألومك على فعلك ، أبعَدَها الله . ويأتي قطريّاً حيث تَدهدى من الشعب علجٌ من اهل البلد ، فقال له قطريّ : اسِقني من الماء ـ وقد كان اشتدّ عطشه ـ فقال : اعطني شيئاً حتى اسقيكَ ، فقال : وَيْحَك ، والله ما معي إلاّ ما ترى من سلاحي ، فأنا مُؤتيكَه إذا أتيتني بماء ، قال : لا بل أعطنيه الآن ، قال : لا ، ولكن ائتني بماء قبلُ ، فانطلق العِلْج حتى اشرف على قَطَري ، ثمّ حدر عليه حَجَراً عظيماً ، من فوقه دهدَاه عليه ، فأصاب إحدى ورَكيه فأوهتْه ، وصاح بالناس ، فأقبلوا نحوَه ، والعلْجُ حينئذ لا يعرف قَطَريًّا ، غير أنه يظنّ أنه من أشرافهم لحسن هيئته ، وكمال سلاحه ، فدفع إليه نفرٌ من أهل الكوفة فابتَدروه فقتلوه ، منهم سَورَة بن أبجر التميميّ ، وجعفر بن عبـد الرحمن بن مِخنَف ، والصباح بن محمد بن الأشعث ، وباذام مولَى بني الأشعث ، وعمر بن أبي الصَّلت بن كنّارا مولَى بني نصر بن معاوية ، وهو من الدّهاقين ، فكل هؤلاء ادّعَوا قتلَه ، فدفع إليهم أبو الجَهْم بن كنانة الكلْبي ـ وكلهم يزعم أنه قاتله ـ فقال لهم : ادفعوه إليّ حتى تصطلحوا ، فدفعوه إلي .

فأقبل به إلى اسحاق بن محمد ـ وهو على أهل الكوفة ـ ولم يأته جعفر لشيء كان بينه وبينه قبل ذلك ـ وكان لا يكلمه ، وكان جعفر مع سُفيان بن الأبرد ، ولم يكن معه اسحاق ، وكان جعفر على ربع أهل المدينة بالريّ ، فلما مرّ سفيان بأهل الرّيّ انتخب فرسانهم بأمر الحجاج ، فسار بهم معه ، فلما أتى القومُ بالرأس فاختصموا فيه إليه وهو في يديْ أبي الجَهْمْ بن كنانة الكلبي ، قال له : امضِ به انت ،ودعْ هؤلاء المختلِفين ، فخرج برأس قطري حتى قدم بهلى الحجّاج،ثمّ أتى به عبد الملك بن مروان ، فالحق في ألفين ، وأعطى فطما ـ يعني أنه يفرض

للصّغار في الدّيوان ـ وجاء جعفر إلى سُفْيان فقال له : أصلحَك الله ! إن قَطَريًّا كان أصاب والدي فلم يكن لي همّ غيره ، فاجمع بيني وبين هؤلاء الذين ادّعوا قتلَه ، فسَلْهم ، ألم أكن أمامهم حتى بدرتُهم فضربتُه ضربةً فصرعتُه ، ثم جاؤوني بعد ، فأقبلوا يضربونه بأسيافهم ! فإن أقرّوا لي بهذا فقد صَدَقوا ، وإن أبَوا فأنا أحلف بالله أني صاحبه ، وإلّا فلْيحلفوا بالله أنهم أصحابه الذين قتلوه ، وأنهم لا يعرفون ما أقول ، ولا حق لي فيه . قال : جئت الآن وقد سرّحنا بالرأس . فانصَرفَ عنه فقال له أصحابه : أما والله إنك لأخلق القوم أن تكون صاحبه .

ثم إن سفُيان بن الأبرد اقبل منصرفا إلى عسكر عبيدة بن هلال ، وقد تحصن في قصر بقُومِس ، فحاصره فقاتَله اياماً . ثم إنّ سُفيانَ بن الأبرد سار بنا إليهم حتى أَحَطنا بهم ، ثمّ أمر منَاديَهُ فنادى فيهم : أيّما رجل قتل صاحبَه ثمّ خرج إلينا فهو آمن ، فقال عبيدةبن هلال :

لَعَمري لقد قام الأصَمُّ بخطبةٍ … لذى الشّكّ منها في الصُّدورِ غَليلُ
لَعَمري لئن أعطيتُ سفيان بَيْعتي … وفارقْتُ ديني إنّني لجهولُ
إلى الله أشكو ما ترى بجيادِنا … تَساوَكُ هزْلَي مُخّهنَّ قليلُ
تعاوَرَها القُذّافُ من كلّ جانب … بقُومِسَ حتى صَعْبهُنَّ ذلولُ
فإن يكُ أفناها الحِصارُ فربّما … تَشَحّطَ فيما بينهنَّ قتيلُ
وقد كنَّ ممّا إن يُقَدْنَ على الوَجَي … لهنَّ بأبوابِ القِبابِ صَهيلُ

فحاصرهم حتى جهدوا ، وأكلوا دوابَّهم . ثمّ إنهم خرجوا إليه فقاتَلوه ، فقتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحجّاج ، ثمّ دخل إلى دُنباوَنْد وطَبَرسْتان ، فكان هنالك حتى عزلَه الحجّاج قبل الجَماجم .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة قَتَلَ بُكيرُ بن وِشاح السعديّ أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد :

ذكر سبب قتله أياه:

وكان سبب ذلك ـ فيما ذكر علي بن محمد ، عن المفضّل بن محمد ـ أنّ أمية بن عبد الله وهو عاملُ عبدِ الملك بن مروانَ على خُراسان ، وليّ بكيراً غزو ما وراء النهر ، وقد كان ولاه قبل ذلك طُخارسْتان ، فتجهزّ للخروج إليها وأنفق نفقةً كثيرةً ، فوشى به إليه بحير بن ورقاء الصُرَيميّ على ما بيّنت قبل ، فأمره أميّة بالمقام .

فلما ولّاه غزوَ ما وراء النهر تجهزّ وتكلف الخيل والسلاح ،وادّان من رجال السُّغْد وتجارِهم ، فقال بحير لأميّة : إنْ صار بينك وبينه النهر ولقى الملوك خلع الخليفة ودعا إلى نفسه ، فأرسل إليه أمية : أقم لعلي أغزو فتكون معي ، فغضب بكير وقال : كأنه يُضارّني . وكان عَتابُ اللَّقْوة الغُدَانيّ استدان ليخرج مع بكير، فلما أقام أخذه غرماؤه ، فحبِس فأدّى عنه بُكير وخرج ، ثمّ أجمع أميَّة على الغزو . قال : فأمر بالجهاز ليغزو بخارَى ، ثم يأتي موسى بن عبد الله بن خازم بالتِّرمَذ ، فاستعدّ الناسُ وتجهزّوا ، واستخلف على خُراسانَ ابنه زياداً ، وسار معه بكير فعسكَر بكُشْمَاهَن ، فأقام أياماً ، ثمّ أمر بالرحيل ، فقال له بحير : إني لا آمن أن يتخلف الناس فقل لبُكَير : فلتكن في الساقة ولتحشر الناس . قال : فأمَره أميَّة فكان على الساقة حتى أتى النهر ، فقال له أمية : اقطع يا بكير ، فقال عتّاب اللَّقوة الغُدانيّ: أصلَحَ الله الأمير! اعبر ثم يَعبرُ الناسُ بعدَك . فعبَر ثمّ عبَر الناس ، فقال أمية لبكير : قد خفت ألّا يضبط ابني عمله وهو غلام حدَث ، فارجع إلى

مروَ فاكفِينها فقد ولَّيتَكَها ، فزيَّن ابني وقم بأمره . فانتخب بكير فُرساناً من فُرسان خُراسان قد كان عرفهم ووَثق بهم وعبرَ ، ومضى أمية إلى بُخارَى وعلى مقدّمته أبو خالد ثابت مولى خُزاعة . فقال عتّاب اللقوة لبكير لما عبر وقد مضى امية : إنا قتلْنا انفسَنا وعشائرَنا حتى ضبطْنا خُراسان ، ثم طلبنا أميراً من قُريش يجمع أمرنا ، فجاءنا أميرٌ يَلعَب بنا يحوِّلنا من سجن إلى سجن ، قال : فما ترى ؟ قال : أحرقْ هذه السفن ، وامض إلى مَرْوَ فاخلع أمية ، وتقيم بمروَ تأكلها إلى يوم ما ، قال : فقال الأحنف بن عبد الله العنبريّ : الرأيُ ما رأى عتّاب ، فقال بكير: إنّي أخاف أن يَهلك هؤلاء الفُرسان الذين معي ، فقال: أتخاف عدم الرّجال! أنا آتيك من أهل مروَ بما شئت إن هلك مِنْ هؤلاء الذين معك ، قال: يهلك المسلمون ، قال: إنما يكفيك أن ينادي مناد: من أسلم رفعْنا عنه الخَراج فيأتيك خمسون ألفاً من المصلين اسمَع لك من هؤلاء وأطوَع ، قال: فيهلك أميةُ ومن معه ، قال: ولِمَ يَهلِكون ولهم عُدّة وعَدَد ونجدة وسلاح ظاهر وأداة كاملة ، ليقاتلوا عن أنفسهم حتى يبلغوا الصين! فأحرَق بكير السفُن ، ورجع إلى مرْوَ ، فأخذ بن أمية فحبسه ، ودعا الناس إلى خلع أمية فأجابوه ، وبلغ أمية ، فصالح أهلَ بُخارى على فِدْية قليلة ، ورجع فأمر باتخاذ السفن ، فاتُّخذت له وجُمعت ، وقال لمن معه من وجوه تميم : ألا تعجبون من بكير! إني قدمتُ خُراسانَ فحذّرته ، ورُفع عليه وشُكي منه ، وذكروا أموالاً أصابها ، فأعرضت عن ذلك كله ، ثم لم أفتشه عن شيء ولا أحداً من عُماله ، ثم عرضت عليه شرطتي فأبَى ، فأعفيته ، ثمّ وليته فحُذِّرته ، فأمرتُه بالُمقام وما كان ذلك إلا نظراً له ، ثم رددته إلى مروَ ، وولّيته الأمر ، فكفر ذلك كلَّه ، وكافأني بما ترون . فقال له قوم : أيها الأمير. لم يكن هذا من شأنه ، إنما أشار عليه بإحراق عتابُ اللَّقوة ، فقال: وما عتّاب! وهل عتاب إلاّ دجاجة حاضنة ، فبلغ قولُه عتابا ، فقال عتاب في ذلك :

إنَّ الحَـوَاضِنَ تـلقـاهـا مجـفَّـفـةً ... غُلْبَ الـرِّقاب على المنسوبـةِ النُّخُبِ
تـركتَ أمـرَك من جُبْنٍ ومـن خَـوَرٍ ... وجئـتَنَـا حُـمُـقـاً يـا ألأمَ الـعـربِ
لمـا رأيتَ جبـالَ السُّغْـدِ مُعْـرضـةً ... ولَّيتَ مـوسى ونـوحـا عُكْـوَةَ الـذَّنَبِ
وجئـتَ ذيخـاً مُـغِـذًّا مـا تُكـلمُـنـا ... وطِـرْتَ من سَعَفِ البحرينِ كـالخَربِ
أوعِـدْ وعِيدَك إني سـوف تعـرِفني ... تحتَ الخـوافِقِ دون العـارضِ اللجِبِ
يَـخُبُّ بـي مشـرفٌ عـار نـواهـقـهُ ... يغْشَى الكتيبـةَ بين العَـدْوِ والـخَبَـبِ

قال : فلما تهيأت السفن ، عَبَر أمية وأقبَل إلى مروَ ، وتـرك موسى بن عبـد الله ، وقال : اللهمّ إني أحسنت إلى بُكير ، فكفَر إحساني ، وصنع ما صنع ، اللهمّ اكفنيه .

فقال شّماس بن دثار ـ وكان رجع من سجِسْتانَ بعد قتل ابن خازم ، فغزا مع أمية : أيها الأمير ، أنا أكفيكه إن شاء الله ، فَقدَّمَه أميةُ في ثمانمائة ، فأقبَل حتى نزل باسان وهي لبني نصر ، وسار إليه بكيرٌ ومعه مُدركُ بن أنيف وأبوه مع شماس ، فقال : أما كان في تميم احدٌ يحاربني غيرك ! ولامَه . فأرسل إليه شماس : أنت ألوَم وأسوأ صنيعاً مني ، لم تَفِ لأمية ولم تشكر له صنيعَه بك ، قَدم فأكرمك ولم يَعرِض لك ولا لأحد من عمّالك .

قال : فبيّته بكير ففرّق جمعَه وقال : لا تَقتُلوا منهم أحداً ، وخذوا سلاحَهم ، فكانوا إذا اخذوا رجلا سلَبوه وخلّوا عنه ، فتفرّقوا ، ونزَل شماس في قرية لطيىء يقال لها : بُوينة ، وقدِم أمية فنزل كَشْماهن ، ورجع

إليه شَمّاس بنُ دثار فقدّم أمية ثابتَ بن قطبة مولَى خُزاعة ، فلقيه بكير فأسر ثابتا وفرّق جمعَه ، وخلى بكير سبيلَ ثابت لَيَد كانت له عنده . قال : فرجع إلى أمية ، فأقبل أمية في الناس ، فقاتله بكيرٌ وعلى شُرطة بكير أبو رُستم الخليل بن أوْس العَبْشَميّ ، فأبلى يومئذ ، فنادوه : يا صاحب شرطة عارمة ـ وعارمةُ جاريةُ بكير ـ فأحجم ، فقال له بكير : لا أبَالَك، لا يَهدّك نداءُ هؤلاء القوم ، فإن للعارمة فَحْلا يمنعها ، فقدّم لواءَك ، فقاتلوا حتى انحاز بكير فدخل الحائط ، فنزل السوقَ العتيقة ، ونزل أمية بَاسَانَ فكانوا يلتقون في ميدان يَزيدَ ، فانكشفوا يوماً ، فحماهم بكير ، ثمّ التقَوا يوماً أخر في الميدانْ ، فضرب رجلٌ من بني تميم على رجله فجعل يَسحَبها ، وهُريم يحمِيه ، فقال الرجل : اللهمّ أيِّدْنا فأمدَّنا بالملائكة ، فقال له هُريم : أيها الرّجل ، قاتلْ عن نفسك ، فإنّ الملائكة في شُغْل عنك ، فتَحامَلَ ثمّ أعاد قولَه : اللهمّ أمدّنا بالملائكة ، فقال هُـريم : لتكُفنّ عني أو لأدعنّك والملائكة ، وحَماهُ حتى ألحقَه بالناس . قال : ونادى رجلٌ من بني تميم : يا أميةُ ، يا فاضِحَ قريش ، فآلى أمية إن ظفر به أن يذبحه ، فظفر به فذبحه بين شُرفَتَيْن من المدينة ، ثمّ التقَوا يوماً أخر ، فضرب بكير بن وشاح ثابت بن قطبة على رأسه وانتمَى : أنا ابن وشاح ، فحمل حُريث بن قطبة أخو ثابت على بكير ، فانحاز بكير ، وانكشف أصحابه ، وأتبع حُريث بكيراً حتى بلغ القنطرة ، فناداه : أين يا بكير ؟ فكرّ عليه ، فضربَهُ حريثٌ على رأسه ، فقطع المِغفرَ ، وعَضّ السيفُ برأسه ، فصرع ، فاحتمَلَه أصحابُه ، فادخَلوه المدينة .

قال : فكانوا على ذلك يقاتلونهم ، وكان أصحابُ بكير يَـغدُون متفضلين في ثياب مصبَّغة ، وملاحفَ وأزرُ صُفرْ وحُمْر، فيجلسون على نواحي المدينة يتحدّثون ، وينادي منادٍ : مَن رَمَى بسهم رَمَيْنا إليه برأس رجل من ولِده وأهله ، فلا يرميهم أحد .

قال : فأشفق بكير ، وخاف إن طال الحصار أن يخذُله الناس ، فطلب الصلْح ، وأحبّ ذلك أيضاً أصحاب أمية لمكان عِيالاتهم بالمدينة ، فقالوا لأمية : صالِحْه ـ وكان أمية يحبّ العافية ـ فصالحه على أن يقضيَ عنه أربعمائة ألف ، ويَصِلَ أصحابَه ويوّليه أيضاً أيَّ كُورَ خُراسَان شاء، ولا يسمع قولَ بَحير فيه ، وإن رابَه منه رَيْب فهو آمن أربعين يوماً حتى يخرج عن مروَ ، فأخذ الأمان لبكير من عبد الملك ، وكَتَب له كتاباً على باب سِنْجان ، ودخل أميةُ المدينة .

قال : وقوم يقولون : لم يخرج بكير مع أمية غازياً ، ولكن أمية لما غزا استخلفه على مروَ فخلعه ، فرجع أميةُ فقاتَله ، ثمّ صالحه ودخَل مروَ ووفَى أمية لبكير ، وعاد إلى ما كان عليه من الأكرام وحُسنَ الأذْن ، وأرسَل إلى عتّاب اللقوة ، فقال : أنت صاحبُ المَشُورة ، فقال : نعمَ أصلَح الله الأمير ! قال : ولِمَ ؟ قال : خفَّ ما كان في يـدي ، وكَثُرَدَيْني ، وأعديت على غرمائي ، قال : وَيْحك ! فضربْت بين المسلمين ، وأحرقت السفن والمسلمون في بلاد العدوّ ، وما خفت الله ! قال : قد كان ذلك ، فاستغفِر الله ، قال : كم دَينُك ؟ قال : عشرون ألفاً ، قال : تكفّ عن غِشّ المسلمين وأقضِي دَينَك ؟ قال : نعم ، جعلني الله فِداك ! قال : فضَحِك أميَّة وقال : إن ظني بك غير ما تقول ، وسأقضي عنك . فأدّى عنه عشرين ألفاً ، وكان أمية سهلا ليناً سخيّاً ، لم يُعط أحدٌ من عُمال خُراسانَ بها مثل عطاياه ، قال : وكان مع ذلك ثقيلا عليهم ، كان فيه زَهوْ شديد ، وكان يقول: ما أكتفِي بخُراسان وسَجِسْتان لمَطبخي . وعَزل أميةُ بحيرا عن شرطته ، وولّاها عطاء بن أبي السائب ، وكتب إلى عبد الملك بما كان من أمر بكير وصفحِه عنه ، فضرب عبدُ الملك بَعثْا إلى أمية بخُراسان ، فَتَجاعَلَ الناس، فأعطَى شقيق بن سَليل الأسديّ جعَالَته رَجُلاً من جَرْم ، وأخذ أمية الناس بالخَراج ، واشتدّ عليهم

فيه، فجلس بكير يوماً في المسجد وعنده ناسٌ من بني تميم، فذكروا شدّة أمية على الناس، فذمّوه، وقالوا: سلّط علينا الدّهاقين في الجباية وبَحِير وضرار بن حصين وعبد العزيز بن جارية بن قدامة في المسجد فنقل بحير ذلك إلى أميةَ فكذبه فادّعى شهادة هؤلاء، وادّعى شهادة مُزاحم بن أبي المُجشر السلمي، فدعا أميةُ مزاحما فسأله فقال: إنه كان يمزح، فاعرض عنه امية ثم أتاه بحير فقال: اصلح الله الأمير، إن بُكَيرا واللّه قد دعاني إلى خلعك، وقال: لولا مَكانك لقتلتُ هذا القرشيّ وأكلتُ خُراسانَ، فقال أميّة: ما أصدق بهذا وقد فعل ما فعل، فآمنتُه ووصَلْته.

قال: فأتاه بضِرار بن حُصين وعبد العزيز بن جارية فشهدا أن بكيرا قال لهما: لو أطعتُماني لقتلتُ هذا القرشيّ المخنَّث، وقد دعانا إلى الفَتْك بك. فقال أمية: أنتم أعلم وما شهدتم، وما أظُنّ هذا به وإن تركه، وقد شهدتهم بما شهدتم عجزٌ، وقال: لحاجبه عبيدة ولصاحب حَرسِه عطاء بن أبي السائب: إذا دخل بكير، وبدل وشمردل ابنا أخيه، فنهضتُ فخذوهم. وجلس أمية للناس، وجاء بكير وابنا أخيه، فلما جلسوا قام عن سريره فدخل، وخرج الناس وخرج بكير، فحبسوه وابنيْ أخيه، فدعا أمية ببكير فقال: أنت القائل كذا وكذا؟ قال: تَثَبَّت أصلحكَ الله ولا تسمعنّ قول ابن المحلوقة! فحَبسه، وأخذ جاريته العارمةَ فحبَسها، وحبَس الأحنف بن عبد الله العنبري، وقال: أنت ممن أشار على بُكَير بالخَلْع.

فلما كان من الغد أخرج بُكَيرا فشهد عليه بحيرٌ وضِرار وعبد العزيز بن جارية أنه دعاهم إلى خَلْعه والفتكَ به، فقال: أصلحك الله! تثّبت فإنّ هؤلاء اعدائي، فقال أمية لزياد بن عُقْبة ـ وهو رأس أهل العالية ـ ولابن والآن العدويّ ـ وهو يومئذ من رؤساء بني تَميم ليعقوب بن خالد الذّهليّ: أتقتلونه؟ فلم يجيبوه، فقال لبَحِير: أتقتُله؟ فقال: نعم، فدفعه إليه، فنهض يعقوبُ بن القَعْقاع الأعْلم الأزْديّ من مجلسه ـ وكان صديقاً لبُكير ـ فاحتَضن أمية، وقال: أذكّرك الله أيها الأمير في بكير، فقد أعطيتَه ما أعطيتَه من نفسك، قال: يا يعقوب ما يقتله إلا قومه، شهدوا عليه، فقال عطاء بن أبي السائب الليثيّ وهو على حَرَس أمية: خلّ عن الأمير، قال: لا، فضَرَبه عطاء بقائم السيف، فأصاب انفَه فأدماه، فخرج، ثم قال لبحير: يا بحير، إن الناس اعطوا بكيراً ذمّتهم في صلحه، وأنت منهم، فلا تخفر ذمتك، قال: يا يعقوب، ما أعطيته ذمّةً. ثم أخذ بحير سيف بكير الموصول الذي كان أخذه من أسوار الترجمان تَرْجُمان ابن خازم، فقال له بكير: يا بحير، إنك تُفرّق أمر بني سعد إن قتلتني، فدع هذا القرشيّ يلي مني ما يريد، فقال بحير: لا والله يابن الاصبهانية لا تصلح بنو سعد ما دُمْنا حيَّيْن، قال: فشأنك يابن المحلوقة، فقتَلَه، وذلك يوم جمعة.

وقتل أمية ابني اخي بكير، ووهب جارية بكير العارمَة لبَحير، وكلِّمَ أمية في الأحنف بن عبد الله العنبرّيّ، فدعا به من السجن، فقال: وأنت ممن أشار على بُكير، وشتَمه، وقال: قد وهبتُك لهؤلاء.

قال: ثمّ وجة أميّةُ رجلا من خُزاعة إلى موسى بن عبد الله بن خازم، فقتَلَه عمرو بن خالد بن حُصين الكلابيّ غِيلة، فتفرّق جيشُه، فأستأمن طائفةٌ منهم موسى، فصاروا معه، ورجع بعضُهم إلى أمية.

وفي هذه السنة عبر النَهر، نهر بَلْخ أمية للغَزْو، فحُوصِر حتى جُهِد هو وأصحابه. ثم نجوا بعدما أشرَفوا على الهلاك، فانصرف والذين معه من الجُنْد إلى مروَ، وقال عبد الرحمن بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة يهجو أميّة:

الَا أبلغْ أميةَ أنْ سيُجزَى ثَواب الشَّرِّ إنَّ له ثَوَابا

ومَــن يَــنــظر عــتــابَــكَ أو يُــرِدْهُ   فــلستُ بــنــاظــر منــكَ الــعِتَــابَــا
محــا المعـروفَ منــك خـلالُ سَــوءٍ   مُـنحـتَ صَنيـعَهَـا بـابـاً فـبـابَـا
ومَـن سَـمَّـاكَ إذْ قـسَـم الأسـامِـى   أمـيَّـةَ إذ وُلِـدْتَ فـقـد أصـابـا

قال أبو جعفر : وحجّ بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان ، وهو اميرٌ على المدينة ، وكان على الكوفة والبَصْرة الحجّاج بن يوسف ، وعلى خُراسانَ أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد .

وحدّثني أحمدُ بن ثابت ، عمن حدّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، قال : حجّ أبانُ بن عثمانَ وهو على المدينة بالناس حجّتين سنة ستّ وسبعين وسبع وسبعين .

وقد قيل : إنّ هلاكَ شبيب كان في سنة ثمان وسبعين ، وكذلك قيل في هلاك قَطَريّ وعبيدة بن هلال وعبد ربه الكبير .

وغزا في هذه السنة الصائفَة الوليدُ .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

ذكر الخبر عن الكائن في هذه السنة من الأَحداث الجليلة .

فمن ذلك عَزْلُ عبدِالملك بن مروان أميَّة بن عبدالله عن خُراسان وضمّه خُراسان وسِجستانَ إلى الحجّاج بن يوسف . فلما ضمّ ذلك إليه فرّق فيه عمّاله .

ذكر الخبر عن العمّال الذين ولّاهم الحجّاج خُراسان وسجستان وذِكر السّبب في توليته مَن ولّاه ذلك وشيئاً منه

ذُكر أنّ الحجاج لما فرغ من شبيب ومطرّف شَخَص من الكُوفة إلى البَصْرة ، واستَخلَف على الكوفة المغيرةَ بنَ عبدالله بن أبي عقيل ـ وقد قيل : إنه استخلف عبدَالرحمن بن عبدالله بن عامر الحَضْرميّ ، ثمّ عَزَله ، وجعل مكانَه المغيرة بن عبدالله ـ فقدِم عليه المهلَّبُ بها ، وقد فرغ من أمر الأزارقة .

فقال هشام : حدَّثني أبو مخنَف عن أبي المُخارِق الراسبيّ ، أنّ المهلّب بن أبي صُفْرة لما فرغ من الأزازقة قَدِم على الحجاج ـ وذلك سنة ثمان وسبعين ـ فأجلَسه معه ، ودعا بأصحاب البلاء من أصحاب المهلّب ؛ فأخذ الحجّاج لا يَذكرَ له المهلَّب رجلاً من أصحابه ببلاء حَسن إلّا صدّقه الحجّاج بذلك ، فحَمَلَهم الحَجّاج وأحسَنَ عطاياهم ، وزاد في أعطِياتِهم ، ثمّ قال : هؤلاء أصحاب الفعال ، وأحقّ بالأموال ، هؤلاء حُماةُ الثغور ، وغيظ الأعداء .

قال هشام عن أبي مخنَف : قال يونسُ بنُ أبي إسحاق : وقد كان الحجّاج ولى المهلَّب سِجستانَ مع خُراسان ، فقال له المهلّب : ألا أدلّك على رجل هو أعلَم بِسِجِستانَ منيّ ، وقد كان وليَ كابُل وزابُل ،وجَباهم وقاتَلَهم وصالَحهم؟ قال له : بلى ، فمن هو؟ قال عبيدالله بن أبي بَكْرة .

ثمّ إنه بعث المهلّب على خُراسان وعبيدالله بن أبي بَكْرة على سِجِستان ، وكان العامل هنالك أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد بن أبي العِيص بن أمية ، وكان عاملاً لعبدالملك بن مَروان ، لم يكن للحجاج شيءٌ من أمره حين بُعث على العراق حتى كانت تلك السنة ، فعزلَه عبدُالملك وجمع سلطانه للحجّاج ، فمضى المهلب إلى خُراسانَ ، وعبيدالله بن أبي بكرة إلى سِجِستان ، فمكث عُبيدالله بن أبي بَكْرة بقية سنتهِ .

فهذه رواية أبي مخنف عن أبي المخارق، وأما علي بن محمد فإنه ذكر عن المفضّل بن محمد أن خُراسان وسِجستانَ جُمعتا للحجّاج مع العراق في أول سنة ثمان وسبعين بعدما قتل الخوارج ، فاستعمل عبيدالله بن أبي

بَكْرة على خراسان ، والمهلّب بن أبي صفرة على سِجِستان ، فكره المهلب سجستان ، فلقيَ عبدالرحمن بن عبيد بن طارق العَبْشَميّ ـ وكان على شُرْطة الحجاج ـ فقال : إنّ الأمير ولّاني سجستان ، وولى ابنَ أبي بَكْرة خُراسان ، وأنا أعرف بخراستانَ منه ، قد عرفتها أيام الحَكَم بن عَمرو الغِفاريّ ، وابن أبي بَكْرة أقوى على سِجستانَ مني ، فكلِّم الأميرَ يحوّلني إلى خُراسان ، وابن أبي بَكْرة إلى سِجستان ؛ قال : نعم ، وكلِّم زاذانَ فَرُّوخ يُعينُني ؛ فكلمه ، فقال : نعم ، فقال عبدالرحمن بن عبيدللحجّاج : وليتَ المهلب سجستان وابن أبي بَكْرة أقوى عليها منه ، فقال زاذان فَرّوخ : صَدَق ، قال : إنّا قد كتبنا عهدَه ، قال زاذان فروخ : ما أهْوَن تحويلَ عهدِهِ ! فحوّل ابن أبي بكرة إلى سِجستانَ ، والمهلّب إلى خُراسان ، وأخذ المهلّب بألف ألف من خرَاج الأهواز ، وكان ولّاها إيّاه خالد بن عبدالله ، فقال المهلّب لابنه المغيرة : إنّ خالداً ولّاني الأهواز، وولّاك إصْطَخْر ، وقد أخذني الحجاج بألف ألف ، فنصفٌ عليَّ ونصف عليك ، ولم يكن عند المهلّب مالٌ . كان إذا عزل استقرَض ؛ قال : فكلم أبا ماويَّة مولى عبدالله بن عامر ـ وكان أبو ماويَّة على بيتِ مال عبدالله بن عامر ـ فأسلف المهلّب ثلاثمائة ألف ، فقالت خَيْرَةُ القُشَيْرية امرأة المهلب : هذا لا يفي بما عليك ؛ فباعت حُليًّا لها ومتاعاً ، فأكمَل خمسمائة ألف ، وحمل المغيرة إلى أبيه خمسمائة ألف فحملها إلى الحجّاج ، ووجَّه المهلب ابنه حبيباً على مقدّمته ، فأتى الحجّاج فودّعه ، فأمر الحجّاج له بعشرة آلاف وبغلة خضراء ، قال: فسار حبيبٌ على تلك البغلة حتّى قَدِم خُراسانَ هو وأصحابُه على البريد ، فسار عشرين يوماً ، فتلقاهم حين دخلوا حملُ حطب ، فنَفَرَت البغلة فتعجّبوا منها ومن نِفارها بعد ذلك التّعب وشدة السير . فلم يعرض لأمية ولا لعمّاله ، وأقام عشرةَ أشهر حتى قدم عليه المهلّب سنة تسع وسبعين .

وحجّ بالناس في هذه السنة الوليدُ بنُ عبدالملك ، حدَّثني بذلك أحمدُبنُ ثابت عمن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر .

وكان أميرَ المدينة في هذه السنة أبانُ بنُ عثمان ، وأميرَ الكوفة والبَصرة وخُراسان وسِجستان وكِرمان الحجّاجُ بنُ يوسف ، وخليفتَه بخُراسان المهلّبُ ، وبسجستان عُبيد الله بن أبي بَكْرة ، وعلى قضاء الكوفة شُريح ، وعلى قضاء البَصرة ـ فيما قيل ـ موسى بن أَنَس .

وأغزَى عبدالملك في هذه السنة يَحيى بنَ الحَكَم .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين

ذكر ما كان فيها من الأحداث الجليلة

فمن ذلك ما أصاب أهل الشأم في هذه السنة من الطّاعون حتى كادوا يفنَوْن من شدّته، فلم يغزُ في تلك السنة أحدٌ ـ فيما قيل ـ للطاعون الذي كان بها، وكثرة الموت.

وفيها ـ فيما قيل ـ: أصابت الرّومُ أهلَ أنطاكية.

وفيها غزا عُبيدالله بنُ أبي بكرة رُتْبيل.

ذكر الخبر عن غزوته إيّاه:

قال هِشام: حدَّثني أبو مخنف، عن أبي المُخارق الراسبيّ، قال: لما ولَّى الحجاجُ المهلّب خُراسان، وعبيدالله بن أبي بكرة سجستانَ، مضى المهلّب إلى خراسان وعبيدالله بن أبي بَكْرة إلى سجستان، وذلك في سنة ثمان وسبعين، فمكث عبيدُالله بن أبي بَكْرة بقيّة سنته. ثم إنه غزا رُتْبيل وقد كان مصالحاً، وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خَراجاً، وربما امتنع فلم يفعل، فبعث الحجّاج إلى عُبيدالله بن أبي بَكْرة أنْ ناجزْه بمن معك من المسلمين فلا ترجع حتى تستبيحَ أرضَه، وتَهدِمَ قِلاعَه، وتَقتُل مُقاتِلَته، وتَسبيَ ذرّيته. فخرج بمن معه من المسلمين من أهل الكوفة وأهلِ البَصرة، وكان على أهل الكوفة شُرَيح بن هانىء الحارثيّ ثم الضبابي، وكان من أصحاب علي، وكان عُبيدالله على أهل البَصْرة، وهو أمير الجماعة، فمضى حتى وَغَل في بلاد رُتْبيل، فأصاب من البقر والغنم والأموال ما شاء وهَدَّم قِلاعاً وحُصوناً، وغلب على أرض من أرضهم كثيرة، وأصحاب رُتْبيل من الترك يخلون لهم عن أرض بعد أرض، حتى أمعَنوا في بلادهم ودنَوا من مدينتهم، وكانوا منها ثمانية عشرَ فرسخاً، فأخذوا على المسلمين العقابَ والشِّعاب، وخلّوهم والرَّساتيق، فسُقط في أيدي المسلمين، وظنوا أنْ قد هلكوا، فبعث ابن أبي بَكْرة إلى شُرَيح بن هانىء: إنّي مصالح القوم على أن أعطِيَهم مالاً، ويخلّوا بيني وبين الخروج، فأرسل إليهم فصالحهم على سبعمائة ألف دِرهم، فلقيه شُريح فقال: إنك لا تصالح على شيء إلاّ حَسِبه السلطان عليكم في أعطِيَاتِكم، قال: لو مُنِعنا العطاءَ ما حَيينا كان أهوَن علينا من هلاكنا؛ قال شُريح: والله لقد بلغتُ سِنًّا، وقد هلكتْ لِدَاتي، ما تأتي اليَّ ساعة من ليل أو نهار فأظنّها تمضي حتى أموت، ولقد كنت أطلب الشهادة منذ زمان، ولئن فاتتني اليومَ ما إخالني مُدْرِكها حتى أموت، وقال: يا أهل الإسلام تعاونوا على عدوّكم؛ فقال له ابنُ أبي بَكْرة: إنك شيخ قد خَرِفْتَ، فقال شريح: إنما حسبك أن يقال: بُستان ابن أبي بَكْرة وحَمام ابن أبي بَكْرة، يا أهل الإسلام، من أراد منكم الشهادةَ فإليَّ. فاتبعه ناسٌ

من المتطوّعة غير كثير، وفُرسان الناس وأهل الحِفاظ، فقاتلوا حتى أصيبوا إلاّ قليلاً، فجعل شُريح يرتجز يومئذ ويقول:

أُصبحتُ ذا بَثٍّ أقاسي الكِبَرا قد عِشتُ بين المشركين أعصُرَا
ثُمَّتَ أدركتُ النبيَّ المُنذِرا وبعدَه صِدِّيقَهُ عُمَرا
ويومَ مِهرانَ ويومَ تُستَرَا والجَمْعَ في صِفِّينِهم والنَّهَرَا
وباجُمَيْرَاتٍ مع المُشَقَّرا هيهاتَ ما أطوَلَ هذا عُمُرا

فقاتل حتى قُتِل في ناس من أصحابه، ونجا من نجا، فخرجوا من بلاد رُتْبيل حتى خرجوا منها، فاستقبَلَهم مَن خرجوا إليهم من المسلمين بالأطعمة، فإذا أكلَ أحدُهم وشبع مات، فلما رأى ذلك الناسُ حذِروا يطعمونهم، ثم يطعمونهم السَّمْن قليلاً قليلاً، حتى استمرؤوا. وبلغ ذلك الحجاج، فأخذه ما تقدّم وما تأخّر، وبلغ ذلك منه كلّ مبلغ، وكتب إلى عبدالملك:

أما بعد، فإنّ جنُد أمير المؤمنين الذين بسِجستان أصيبوا فلم يَنجُ منهم إلاّ القليل، وقد اجترأ العدوّ بالذي أصابه على أهل الإسلام فدخلوا بلادَهم، وغلبوا على حصونهم وقصورِهم، وقد أردت أن أوّجه إليهم جنداً كثيفاً من أهل المِصرَين، فأحببتُ أن أستطلع رأيَ أمير المؤمنين في ذلك، فإنْ رأى لي بعثة ذلك الجند أمضيْتُه، وإن لم يَرَ ذلك فإن أميرَ المؤمنين أولَى بجنده، مع أني أتخوَّف إن لم يأت رُتْبيلَ ومن معه من المشركين جندٌ كثيف عاجلاً أن يستوْلُوا على ذلك الفَرْج كلِّه.

وفي هذه السنة قَدِم المهلّب خُراسانَ أميراً، وانصرف عنها أمية بن عبدالله، وقيل استعفَى شُريح القاضي من القضاء في هذه السنة، وأشار بأبي بُردَة بن أبي موسى الأشعريّ، فأعفاه الحجّاج وولّى أبا بُرْدة.

وحَجَّ بالناس في هذه السنة ـ فيما حدَّثني أحمد بن ثابت عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر ـ أبانُ بن عثمان، وكذلك قال الواقدي وغيرُه من أهل السيَر.

وكان أبان هذه السنة أميراً على المدينة مِن قِبَل عبدِالملك بن مروان وعلى العراق والمَشرِق كلّه الحجّاج بن يوسف.

وكان على خُراسانَ المهلب من قبَل الحجاج.

وقيل: إنّ المهلب كان على حربها، وابنه المغيرة على خرَاجِها، وعلى قضاء الكوفة أبو بُردة بن ابي موسى، وعلى قضاء البَصرة موسى بن أَنس.

ثم دخلت سنة ثمانين

ذكر الأحداث الجليلة التي كانت في هذه السنة

وفي هذه السنة جاء ـ فيما حدثت عن ابن سعد، عن محمد بن عمر الواقدي ـ سيل بمكة ذهب بالحُجّاج ، فغَرِقت بيوتُ مكة فسمّى ذلك العامُ عامَ الجُحَاف ، لأنَّ ذلك السيل جَحَف كلّ شيء مرّ به .

قال محمد بن عمر : حدَّثني محمد بن رفاعة بن ثعلبة ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال: جاء السيلُ حتى ذهب بالحُجّاج ببطن مكة ، فسمى لذلك عامَ الجُحاف ، ولقد رأيتُ الإبل عليها الحمولة والرجال والنساء تَمرّ بهم ما لأحد فيهم حِيلة ، وإني لأنظر إلى الماء قد بلغ الركنَ وجاوَزه .

وفي هذه السنة كان بالبَصرة طاعونُ الجارف ، فيما زعم الواقدي .

وفي هذه السنة قطع المهلب نهر بلْخ فنزل على كِسّ ، فذكر علي بن محمد، عن المفضّل بن محمد وغيره أنه كان على مقدّمة المهلب حين نزل على كِسّ أبو الأدهم زيادُ بنُ عَمر والزِّمّانيّ في ثلاثة الاف وهم خمسة آلاف إلَّا أن أبا الأدهم كان يُغني غَناءَ ألفَيْن في البأس والتدبير والنصيحة . قال: فأتى المهلب وهو نازل على كس ابن عم ملك الخُتَّل ، فدعاه إلى غزو الخُتّل، فوجّه معه ابنه يزيد، فنزل في عسكره، ونزل ابن عمّ الملك ـ وكان الملك يومئذ اسمه السَّبْل ـ في عسكره على ناحية ، فبيّت السَّبْل ابن عمه ، فكبّر في عسكره ، فظن ابن عم السبْل أنّ العرب قد غدَرُوا بُه ، وأنهم خافُوه على الغدر حين اعتزل عسكرَهم ، فأسره السبْلُ ، فأتى به قلعتَه فقتله . قال: فأطاف يزيدُ بنُ المهلب بقلعة السَّبْل ، فصالحوه على فِدْية حَمَلوها إليه ، ورجع إلى المهلب فأرسلت أمّ الذي قتله السبل إلى أمّ السبْل : كيف تَرجِين بقاء السبْل بعد قتل ابن عمه ،وله سبعة إخوة قد وَتَرهم ! وأتت أم واحد فأرسلت إليها: إن الأسْدَ تَقِلّ أولادُها ، والخنازير كثير أولادها .

ووجّه المهلب ابنه حبيباً إلى رَبِنْجَن فوافى صاحبَ بُخارَى في أربعين ألفاً، فدعا رجلٌ من المشركين إلى المبارزة ، فبرز له جَبَلة غلام حبيب ، فقتل المشْرِك ، وحمل على جمعهم ، فقتل منهم ثلاثةَ نفر، ثم رجع ورجع العسكر ، ورجع العدوّ إلى بلادهم ، ونزلتْ جماعةٌ من العدوّ قريةً ، فسار إليهم حبيب في أربعة آلاف ، فقاتَلَهم فظَفر بهم ، فأحرَقَها ، ورجع إلى أبيه فسميت المحترِقة . ويقال إن الذي أحرقها جَبَلة غلام حبيب .

قال : فمكث المهلب سنتين مقيماً بكسّ ، قيل له : لو تقدّمتَ إلى السغْدوما وراء ذلك! قال: ليتَ حَظّي من هذه الغَزْوة سلامة هذه الجُنْد ، حتى يرجعوا إلى مَرْوَ سالِمِين .

قال: وخرج رجلٌ من العدوّ يوماً ، فسأله البراز ، فبرز إليه هريم بن عدي ، أبو خالد بن هريم وعليه

عمامةٌ قد شَدّها فوق البَيْضة ، فانتهى إلى جَدْوَل ، فجاوَلَه المشرِك ساعة فقتله هُرَيم وأخذ سَلَبه ، فلامَه المهلب ، وقال : لو أصبت ثم أمددتَ بألفِ فارس ما عَدَلوكَ عندي ، واتهم المهلبُ وهو بكِسّ قوماً من مضرَ فحبسهم بها ، فلما قفل وصار صُلْحُ خلاّهم ، فكتب إليه الحجاج : إن كنت أصبتَ بحبسهم فقد أخطأتَ في تخليتهم ؛ وإن كنتَ أصبت بتخليتهم فقد ظلمتَهم إذ حبستَهم . فقال المهلب : خفْتُهم فحبستهم ، فلما أمنتُ خليتهم .

وكان فيمن حبَس عبدالملك بن أبي شيخ القشيري . ثم صالح المهلبُ أهلَ كِسّ على فدية ، فأقام ليقبضها ، وأتاه كتابُ ابن الأشعث بخَلْع الحجاج ويدعوه إلى مساعدته على خَلْعه ، فبعث بكتاب ابن الأشعث إلى الحجّاج .

وفي هذه السنة وجّه الحجّاج عبدَ الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى سِجستانَ لحرب رُتْبيل صاحِب الترك ، وقد اختلف أهل السيرَ في سبب توجيهه إياه إليها ، وأين كان عبدُ الرحمن يومَ ولاّه الحجّاج سجِستانَ وحرب رُتْبيل ، فأما يونس بن أبي اسحاق ـ فيما حدّث هشام ، عن أبي مِخْنَف عنه ـ فإنه ذَكر أنّ عبدالملك لما ورد عليه كتابُ الحجّاج بن يوسف بخبر الجيش الذي كان مع عُبيد الله بن أبي بَكْرة في بلاد رُتْبيل وما لَقُوا بها كتب إليه :

أما بعد ، فقد أتاني كتابُك تَذكُر فيه مُصابَ المسلمين بسجستانَ ، وأولئكَ قومٌ كَتَب اللهُ عليهم القتل فبرَزوا إلى مَضاجِعهم ، وعلى الله ثوابهم . وأما ما أردت أن يأتيكَ فيه رأيي من توجيه الجنود وإمضائها إلى ذلك الفَرْج الذي أصيب فيه المسلمون أو كفّها ، فإن رأيي في ذلك أن تُمْضيَ رأيَك راشداً موفَّقاً .

وكان الحجّاج وليس بالعراق رجلٌ أبغضَ إليه من عبدالرحمن بن محمدبن الأشعث ، وكان يقول : ما رأيتُه قطّ إلاّ أردتُ قتلَه .

قال أبو مِخْنَف : فحدّثني نمير بن وَعْلة الهَمْدانيّ ، ثمّ اليناعيّ ، عن الشعبيّ ، قال : كنتُ عند الحجاج جالساً حين دخل عليه عبدُ الرحمن بنُ محمد بن الأشعث ، فلما رآه .الحجاج قال : انظر إلى مِشيَتِه ، واللّه لَهممتُ أن أضرب عنقه . قال : فلما خرج عبدالرّحمن خرجت فسبقتُه وانتظرته على باب سعيد بن قيس السَّبيعيّ ، فلما انتهى إليّ قلت : ادخل بنا الباب ، إني أريد أن أحدّثك حديثاً هو عندَك بأمانة الله أن تذكرَه ما عاش الحجّاج .

فقال : نعم ، فأخبرتُه بمقالة الحجاج له ، فقال : وأنا كما زعم الحجاج إن لم أحاوِل أن أزِيله عن سلطانه ، فأجهَد الجهد إذ طال بي وبه بقاء .

ثمّ إنّ الحجاج أخذ في جهاز عشرين ألف رجل من أهل الكوفة ، وعشرين ألف رجل من أهل البَصْرة ، وجدّ في ذلك وشمّر ، وأعطَى الناسَ أعطياتِهم كمَلاً ، وأخذهم بالخيول الرّوائع ، والسلاح الكامل ، وأخذ في عرض الناس ، ولا يرى رجلا تُذكَر منه شجاعةٌ إلاّ أحسَن معونَته ، فمرّ عبيدالله بن أبي مِحْجن الثقفيّ على عبّاد بن الحصين الحَبَطيّ ، وهو مع الحجاج يريد عبدالرحمن ابن أم الحَكَم الثقفيّ ، وهو يَعرِض الناس ، فقال عبّادٌ : ما رأيتُ فرسا أرْوَعَ ولا أحسَنَ من هذا ، وإنّ الفرس قوّة وسلاح وإنّ هذه البغلة عَلَنْداة ، فزاده الحجاج خمسين وخمسمائة درهم ، ومرّ به عطية العنبريّ ، فقال له الحجّاج ؛ يا عبدَ الرّحمن ، أحسِنْ إلى هذا . فلما استَتَبّ له أمرُ ذَيْنِك الجندَين ، بعث الحجاج عطارد بن عمَر التميميّ فَعسكَر بالأهواز ، ثمّ بعث عبيدُ

الله بن حجَر بن ذي الجوشن العامريّ من بني كلاب . ثم بدا لـه ، فبعث عليهم عبدَالـرحمن بن محمد بن الأشعث وعزل عُبيدالله بن حجر ، فأتَى الحجاجَ عمُّه إسماعيلَ بن الأشعث ، فقال له : لا تبعثه فإني أخاف خلافَه ، والله ما جازَ جِسر الفرات قط فرأى لوالٍ من الوُلاة عليه طاعةً وسلطاناً ، فقـال الحجاج : ليس هناك ، هُولي أهيَب وفيّ أرغَب من أن يخالف أمري ، أو يخرج من طاعتي ، فأمضاه على ذلك الجيش ، فخرج بهم حتى قدم سِجستانَ سنة ثمانين ، فجمع أهلها حين قَدِمَها .

قال أبو مخنَف : فحدّثني أبو الزّبير الأرحَبيّ - رجل من هَمْدان كان معه - أنه صَعِد منبرَها فحمِد الله وأثنيَ عليه ثم قال : أيها الناس ، إنّ الأمير الحجّاج ولاّني ثغرَكم ، وأمَرَني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم وأباد خيارَكم ، فإياكم أن يتخلّف منكم رجل فيُحِلّ بنفسه العقوبة ، اخرجُوا إلى معسكـركم فعسكِروا بـه مع الناس . فعسكر الناسُ كلهم في معسكرهم ووُضِعت لهم الأسـواق ، وأخذ النـاسُ بالجهـاز والهيئة بـآلة الحرب ، فبلغ ذلك رُتْبيل ، فكَتَب إلى عبدالرحمن بن محمد يتعذر إليه من مُصاب المسلمين ويخبره أنه كان لذلك كارهاً ، وأنهم ألجؤوه إلى قتالهم ، ويسأله الصّلح ويَعرِض عليه أن يَقبلَ منه الخَراج ، فلم يُجِبه ولَم يقبَل منه . ولم يَنشَب عبدُ الرحمن أن سار في الجنود إليه حتى دخل اوّل بلاده ، وأخذ رُتْبيل يضمّ إليه جندَه ، ويدع له الأرض رُسْتاقا رستاقاً ، وحصْناً حصْناً ، وطفِق ابن الأشعث كلما حويَ بلَداً بعث إليه عامـلا ، وبعَثَ معه أعواناً ، ووضع البُرُد فيما بين كلّ بلد وبلد ، وجعل الأرصادَ على العِقاب والشعاب ، ووضع المَسالح بكلّ مكان مخوف ، حتى إذا جاز من أرضه أرضاً عظيمة ، وملأ يديه من البقر والغنم والغنائم العظيمة ، حبس الناسَ عن الوُغول في أرض رُتْبيل وقال : نكتفي بما أصبْناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ، وتجترىء المسلمون على طُرقُها ، ثمّ نتعاطى في العام المقبل ما وراءها ، ثم لم نزل نتنقصّهم في كلّ عام طائفةً من أرضهم حتى نقاتِلَهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريِّهم ، وفي اقصى بلادهم ، ومِمتنَع حصونهم ، ثمّ لا نزايل بلادَهم حتى يُهلكهم الله .

ثم كتب إلى الحجّاج بما فتح الله عليه من بلاد العدوّ ، وبما صنع الله للمسلمين ، وبهذا الرأي الذي رآه لهم .

وأما غيرُ يونسَ بن أبي إسحاق وغيرُ من ذكرت الرواية عنه في أمرابن الأشعث فإنه قال في سبب ولايته سِجستانَ ومسيره إلى بلادُ رُتْبيل غير الذي رويت عن أبي مِخنَف ، وزَعم أن السبب في ذلك كان أن الحجّاج وجّه هِميان بن عديّ السدُوسيّ إلى كرمانَ ، مَسلَحة لها ليمد عاملَ سجستانَ والسِّنْد إن احتاجـا إلى مَددَ ، فعصى هِميانُ ومن معه ، فوجّه الحجاج ابنَ الأشعث في محاربته ، فهزمه ، وأقام بموضعه .

ومات عُبيد الله بن أبي بَكْرة ، وكان عاملاً على سِجستان ، فكتب الحجاج عهدَ ابن الأشعث عليها ، وجهزَ إليها جيشاً أنفَق عليهم ألفَي ألف سوى أعطياتهم ، كان يُدعَى جيشَ الطواويس ، وأمره بالإقدام على رُتْبيل .

وحجّ بالنـاس في هذه السنـة أبان بنُ عثمـانَ ، كذلـك حدّثني أحمـد بن ثابت ، عمنّ ذكـره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، وكذلك قال محمّد بنُ عمر الواقديّ .

وقال بعضهم : الذي حجّ بالناس في هذه السنة سليمان بن عبدالملك .

وكان على المدينة في هذه السنة أبانُ بنُ عثمان ، وعلى العراق والمشرق كلّه الحجّاجُ بن يوسف ، وعلى

خُراسانَ المهلّب بن أبي صُفرة من قِبَل الحجاج ، وعلى قضاء الكوفة أبو بُرْدة بن أبي موسى ، وعلى قضاء البَصْرة موسى بن أنَس .

وأغزَى عبدُ الملك في هذه السنة ابنه الوليد .

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففي هذه السنة كان فتح قَاليقَلا ، حدّثني عمر بن شبّة ، قال : حدّثنا علي بن محمد ، قال : أغزَى عبدُ الملك سنة إحدى وثمانين أبنه عُبيدالله بنَ عبدالملك ، ففَتَح قالِيقلا .

وفي هذه السنة قُتِل بحِير بن ورقاء الصُّرَيميّ بخُراسانَ .

ذكر الخبر عن مقتله :

وكان سببُ قتله أنّ بَحيرا كان هو الذي تولى قتَل بُكَير بن وشاح بأمر أميّة بن عبدالله إياه بذلك، فقال عثمان بنُ رجاء بن جابر بن شدّاد أحدُ بنى عَوف بن سعد من الابناء يحضّ رجلا من الأبْناء من آل بُكَير بالوِتْر :

لعَمْري لَقَدْ أغْضَيْتَ عَيْناً عَلَى القَذَى ... وبِتَّ بَطِيناً من رَحِيقٍ مُرَوَّقِ
وخَلَّيْتَ ثأراً طُلَّ واختَرْتَ نَوْمَةً ... ومَن شربَ الصَّهْبَاءَ بالوِتْرِ يُسْبَقِ
فلو كنْتَ مِنْ عوْفِ بن سعدٍ ذُؤابَةً ... تَرَكْتَ بَحِيراً في دَمٍ مُتَرَقْرِقِ
فقل لبَحِيرٍ نَمْ ولا تخشَ ثائراً ... بعَوفٍ فعوفُ أهلُ شاةٍ حَبَلَّقِ
دَع الضأْنَ يوماً قد سُبِقْتُم بوِتركمْ ... وصرتُم حَدِيثاً بيْنَ غَرب ومَشْرقِ
وَهُبّوا فلو أمسى بُكَيْرٌ كعَهْدِهِ ... صحيحاً لَغَادَاهم بِجَأْواءَ فَيلَقِ

وقال أيضاً :

فلو كان بكرٌ بارِزاً في أدَاتِهِ ... وذي العَرْشِ لم يُقْدِم عليهِ بَحيرُ
ففي الدهر إنْ أبقانِيَ الدَّهرُ مَطلبٌ ... وفي اللّه طَلَّابٌ بذاكَ جدِيرُ

وبلغَ بحيرا أن الأبناء يتوّعدونه ، فقال :

توَعَّدني الأبناءُ جَهْلاً كأَنما ... يَرَون فِنائِي مُقْفِراً من بني كعبِ
رَفعْتُ له كفِّي بحدّ مُهَنَّد ... حُسامٍ كلون المِلح ذي رَوْنَقٍ عَضْبِ

فذكر عليّ بن مُحمد ، عن المفضّل بن محمد ، أن سبعة عشر رجلا من بني عوف بن كعب بن سعد تَعاقَدوا على الطلب بدِم بُكَير ، فخرج فتىً منهم يقال له الشمَرْدَل من البادية حتى قدِم خُراسان ، فنظر إلى بحير واقفاً ، فشدّ عليه فطعنه فصرعَه ، فظن أنه قد قتله ، وقال الناس : خارجيّ ، فراكَضَهم ، فعَثَر فرسُه فنَدر عنه فقُتِل .

ثمّ خرج صَعْصعة بن حرب العَوْفيّ ، ثمّ أحد بني جُندُب، من البادية وقد باع غُنَيْمات له ، واشترى حماراً، ومضى إلى سِجستانَ فجاور قَرابةً لبَحير هناك ولاطَفَهم ، وقال : أنا رجل من بني حنيفة من أهل اليمامة ، فلم يَزلْ يأتيهم ويجالسهم حتى أنِسوا به ،فقال لهم : إنّ لي بخُراسان ميراثاً قد غُلبتُ عليه ، وبلغني أنّ بَحيرا عظيمُ القَدْر بخُراسان، فاكتُبوا لي إليه كتاباً يُعينُني على طلب حقي ، فكتبوا إليه ، فخرج فقَدِمَ مَرْوَ والمهلّب غاز . قال : فلقيَ قوماً من بني عوف ، فأخبرَهم أمرَه ، فقام إليه مولى لبكير صَيْقَل ، فقبَّل رأسه ، فقال له صعصعة : اتخذ لي خِنْجَراً ، فعمل له خنجراً وأحماه وغَمَسه لَبَنِ أتانٍ مِراراً ، ثمّ شخَص من مِرْوَ فقطع النهر حتى أتى عسكَر المهلّب وهو بأخرونِ يومَئذ ، فلقي بَحيرا بالكتاب ، وقال : إني رجل من بني حنيفة ، كنتُ من أصحاب ابن أبي بَكْرة ، وقد ذهب مالي بَسِجِستان ، ولي ميراثٌ بمَرْوَ ، فقدمْت لأبيعَه ، وأرجع إلى اليمامة . قال : فأمر له بنَفقة وأنزله معه ، وقال له : استعِن بي على ما أحببتَ قال : أقيمُ عندَك حتى يقفل الناسُ ، فأقام شهراً أو نحواً من شهر يَحضرُ معه بابَ المهلَّب ومَجلسه حتى عرف به . قال : وكان بحِير يخاف الفَتْك به ، ولا يأمن أحداً ، فلما قَدِم صعصعةُ بكتابِ أصحابه قال : هو رجلٌ من بكر بن وائل ، فأمنه ، فجاء يوماً وَبحير جالس في مجلس المهلّب ، عليه قميص ورداء ونعلان ، فقعد خلفَه ، ثمّ دنا منه ، فأكب عليه كأنه يكلمه ، فوَجأه بخِنجره في خاصرته ، فغيَّبه في جوفه، فقال الناس : خارجيّ ! فنادَى : يا لثَارات بُكير ، أنا ثائر ببكير ! فأخذه أبو العَجْفاء بن أبي الخَرْقاء ، وهو يومئذ على شُرَط المهلب فأتيَ به المهلّب فقال له : بُؤساً لك ! ما أدركتَ بثأرك ، وقتلتَ نفسَك ، وما على بَحِير بأس ، فقال : لقد طعنته طعنةً لو قُسِمتْ بين الناس لَماتُوا ، ولقد وجدتُ ريح بطِنه في يدي ، فحَبَسه فدخل عليه السجنَ قومٌ من الابناء فقبّلوا رأسَه . قال : ومات بحِير من غد عند ارتفاع النهار ، فقيل لصَعْصعة : مات بَحير ، فقال : اصنَعوا بي الآن ما شئتم ، وما بدا لكم ، أليس قد حلّت نُذور نساء بني عوف ، وأدركتُ بثاري ! لا أبالي ما لقيت ، أما والله لقد أمكنني ما صنعتُ خاليا غَيْرَ مرّة ، فكرهت أن اقتُله سرّاً ، فقال المهلّب : ما رأيتُ رجلا أسخَى نفساً بالموت صبراً من هذا ، وأمرَ بقتله أبا سَوَيقة ابن عم لبَحِير ، فقال له أنس بن طلق : وَيحك ! قتِل بحير فلا تقتلوا هذا ، فأبى وقَتَله ، فشتَمه أنَس .

وقال آخرون : بعث به المهلّب إلى بحير قبل أن يموت ، فقال له انس بن طَلْق العَبْشميّ : يا بحير، إنك قتلتَ بكيراً ، فاستحِيْ هذا ، فقال بحير : ادنوه منّي ، لا والله لا أموت وأنتَ حيّ ، فادنوْه منه ، فوضع رأسَه بين رجليه وقال : أصبر عفاق ، إنه شرّ باق ، فقال بن طلحة لبَحِير : لعنك الله ، أكلّمك فيه وتقتله بين يديّ ! فطعنه بَحِير بسيفِه حتى قَتَله ومات بَحِير، فقال المهلب: إنا لله وإنا إليه راجعون، غَزوة أصيبَ بها بَحِير؛ فغَضب عوف بنُ كعب والأبناء وقالوا: علامَ قتل صاحبنا، وإنما طلب بثاره! فنازعتهم مُقاعس والبُطون حتى خاف الناس أن يَعظُم البأس ، فقال أهلُ الحِجَى : احمِلوا دمَ صَعْصعة، واجْعَلوا دمَ بحير بَواء ببُكَيْر بحير بَواء ببُكيْر فوَدَوا صَعْصعة، فقال رجل من الأبناء يَمدَح صعصعة:

لله درُّ فـتًـى تـجَـاوَزَ هَـمّـهُ ... دونَ الـعِـرَاق مَـفَـاوِزاً وبُـحُـورَا
مـا زال يَـدْأبُ نَـفْسَـهُ ويـكُـدُّهـا ... حـتّى تَـنَـاوَلَ فـي خَـرُونَ بَـحـيـرَا

قال : وخرج عبدُ ربه الكبير أبو وَكيع ، وهو من رَهْط صَعْصعة إلى البادية ، فقال لرَهْط بُكَير ، قُتِل صعصعة بطَلِبه بدِم صاحبكم ، فودَوْه ، فأخذ لصعصعةِ ديتَين .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة خالف عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الحجّاجَ ومَن معه من جُند العراق ، وأقبلوا إليه لحربه في قول أبي مِخنَف وروايته لذلك عن أبي المخارق الراسبيّ ، وأما الواقديّ فإنه زعم أنّ ذلك كان في سنة اثنتين وثمانين .

ذكر الخبر عن السبب الذي دعا عبدالرحمن بن محمّد إلى ما فعل من ذلك وما كان من صنيعه بعد خلافه الحجّاج في هذه السنة :

قد ذكرْنا فيما مضى قبلُ ما كان من عبد الرحمن بن محمد في بلاد رُتْبيل، وكتابه إلى الحجّاج بما كان منه هناك ، وبما عُرِض عليه من الرأي فيما يستقبل من أيامه في سنة ثمانين ، ونذكر الآن ما كان من أمره في سنة إحدى وثمانين في روايةِ أبي مِخنَف ، عن أبي المخارِق .

ذَكر هشامٌ عن أبي مِخنَف قال : قال أبو المُخارِق الراسبيّ : كتب الحجّاج إلى عبد الرحمن بن محمد جوابَ كتابه :

أما بعد ، فإن كتابك أتاني ، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه ، وكتابُك كتاب امرىء يحبّ الهدْنة ، ويستريح إلى الموادعَة ، قد صانع عدوًّا قليلاً ذليلاً، قد أصابوا من المسلمين جُنداً كان بلاؤهم حَسَناً ، وغنَاؤهم في الأسلام عظيما . لعَمرُك يا بن أمّ عبدالرحمن ، إنك حيث تكفّ عن ذلك العدوّ بجنْدي وحَدّي لسخِيُّ النفس عمّن أصيب من المسلمين . إني لم أعدد رأيكَ الذي زعمت أنك رأيتَه رأيَ مكيدة ، ولكني رأيتُ انه لم يحملك عليه إلاّ ضَعفك ، والتياثُ رأيك ، فامض لما أمرتـك به من الـوغول في أرضهم ، والهـدِم لحصونهم ، وقتـل مُقاتلتِهم ، وسَبْي ذَراريِّهم .

ثم أرْدفَه كتابا فيه :

أمابعد ، فمُرْ مَن قِبلَك من المسلمين فلْيحرُثوا وليقيموا ، فإنها دارُهم حتى يَفتَحها الله عليهم .

ثمّ أردفه كتاباً آخر فيه :

أما بعد ، فامِض لما أمرتكَ به من الوغول في أرضهم ، وإلاّ فإن إسحاق بن محمّد أخاكَ أميرُ الناس ، فخلّه وما وُلِّيتَهُ .

فقال حين قرأ كتابَه : أنا أحمل ثِقل إسحاق ، فعَرَض لـه ، فقال : لا تَفعـل ، فقال : وربّ هـذا ـ يَعني المُصحَف ـ لئن ذكرتَه لأحد لاقتلنّك . فظنّ أنه يريد السيف ، فوضع يَده على قائم السيف ، ثمّ دعا الناسَ إليه ، فحَمِد اللّه وأثنى عليه، ثم قال. أيها الناس، إني لكم ناصح ، ولصـلاحِكُم مُحِب، ولكم في كل مـا يُحيط بكم نفعُه ناظر ، وقد كان من رأيِي فيما بينكم وبين عدوّكم رأيٌ استشرتُ فيه ذوي أحلامِكم ، وأولى التجربة للحَرْب منكم ، فرضُوه لكم رأياً ، ورأوْه لكم في العاجل والآجل صلاحاً ، وقد كتبت إلى أميركمْ الحجّاج ، فجاءني منه كتاب يعجّزني ويضعفُني ، ويأمُرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدوّ ، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مَضيتم ، وآبى إذا أبيتم . فثارَ إليه الناسُ فقالوا : لا ، بل نأبَى على عدوّ الله ، ولا نَسمَع له ولا نطيع .

قال أبو مِخنَف : فحدّثني مطرّف بن عامر بن واثلة الكنانيّ أن أباه كان أوّل متكلّم يومئذ ، وكان شاعراً خطيباً ، فقال بعدَ أنْ حَمِد الله وأثنى عليه :

أما بعدَ ، فإنّ الحجّاج والله ما يَرَى بكم إلاّ ما رأى القائل الأولُ إذ قال لأخيه : احمِل عبدَك على الفَرَس ، فإن

هَلَك هلك، وإن نجا فَلَك . إن الحجّاج والله ما يبالي أن يخاطر بكم فيُقحِمَكم بلاداً كثير اللُّهوب واللُّصوب ، فإن ظفرتم فغنمتم أكَل البلادَ وحازَ المال ، وكان ذلك زيادة في سلطانه ، وأن ظَفر عدوّكم كنتم أنتم الأعداء البُغَضاء الذي لا يبالي عنتهم ، ولا يبقي عليهم ، اخلعوا عدوَّ الله الحجاج وبايعوا عبدَالرحمن ، فإني أشهدكم أنّي أوّل خالع . فنادَى الناس من كلّ جانب ، فعلنا فعلنا ، قد خلعْنا عدوّ الله ، وقام عبدُ المؤمن بن شَبَث بن رِبعيّ التميميّ ثانيا ـ وكان على شُرْطته حين أقبَل ـ فقال : عبادَ الله ، إنكم إن أطعتم الحجّاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ، وجمّركم تجميرَ فرعونَ الجنود ، فإنه بلغني أنه أول من جمّر البُعوث ، ولن تعاينو الأحبّة فيما أرى أو يموتَ أكثركم . بايِعوا أميرَكم ، وانصرفوا إلى عدّوكم فانفوه عن بلادِكم ، فوثَب الناس إلى عبدالرحمن فبايعوه ، فقال : تبايعوني على خَلع الحجّاج عدوّ الله وعلى النصرة لي وجِهاده معي حتى ينفيَه الله من أرض العراق . فبايعه الناس ، ولم يذكر خلع عبدالملك إذ ذاك بشيء .

قال أبو مِخنَف : حدّثني عمر بن ذرّ القاصّ أنّ أباه كان معه هنالك ، وأنّ ابن محمد كان ضَرَبه وحبَسه لانقطاعه كان إلى أخيه القاسم بن محمد ، فلمّا كان من أمره الذي كان من الخلاف دعاه فحمَلَه وكساه وأعطاه ، فأقبَل معه فيمن أقبَل ، وكان قاصّاً خطيباً .

قال أبو مِخنَف : حدّثني سيف بن بشْر العِجليّ ، عن المنخّل بن حابس العبديّ أنّ ابنَ محمّد لما أقبل من سِجِستانَ أمرّ على بُسْتِ عياضَ بن هميان البَكريّ ، من بني سَدُوس بن شَيْبان بن ذهل بن ثعلبة ، وعلى زَرَنْج عبدالله بن عامر التميميّ ثم الدارِميّ ، ثم بعث إلى رُتْبيل ، فصالحه على أنّ ابنَ الأشعث إن ظَهَر فلا خَراجَ عليه أبداً ما بقِيَ ، وإنْ هُزم فأراده ألجأه عندَه .

قال أبو مِخنَف : حدّثني خُشَينة بن الوَليد العبسيّ أن عبدالرحمن لمّا خرج من سِجِستانَ مقبلا إلى العراق سار بين يديه الأعشَى على فرس ، وهو يقول :

شَطَّت نَوَى مَنْ دارُهُ بالإيوانْ ... إيوانِ كِسْرى ذي القُرَى والرِّيحانْ
مِنْ عاشِقٍ أمسَى بزَابُلِسْتانْ ... إنَّ ثقيفاً منهُم الكذَّابانْ
كذَّابُهَا الماضِي وكذابٌ ثانْ ... أمكَنَ ربِّي مِن ثقيفِ هَمْدَانْ
يوماً إلى الليلِ يُسَلِّي ما كانْ ... إنَّا سَمَوْنا للكَفُور الفَتَّانْ
حين طَغَى في الكفر بعدَ الإيمانْ ... بالسَّيِّد الغِطْريفِ عبدِ الرَّحمنْ
سارَ بجمْع كالدَّبَى من قَحْطانْ ... ومِن مَعَدٍ قد أتى آبن عَدْنانْ
بجحْفَلٍ جَمٍّ شديدِ الإرْنانْ ... فقلْ لحجَّاجٍ وليّ الشيطانْ
يثبُتْ لجمْعِ مَذْحِجٍ وهَمْدانْ ... فإنَّهمْ ساقُوه كأسَ الذَّيْقانْ

ومُلحِقُوهُ بقُرَى ابنِ مَرْوَانْ

قال : وبعَث على مقدمته عطية بن عَمرو العنبريّ ، وبعث الحجّاج إليه الخيل ، فجعل لا يَلقَى خيلا إلا هزمَها ، فقال الحجاج : مَن هذا ؟ فقيل له : عطيّة ، فذلك قولُ الأعشى :

فإذا جَعَلتَ دُرُوب فا ... رِسَ خَلَفَهُمْ درْباً فَدَرْبَا
فابْعَث عطِيَّةَ في الخيو ... لِ يُكِبُّهُنَّ عَلَيْكَ كَبَّا

ثمّ إن عبد الرحمن أقبل يسير بالناس ، فسأل عن أبي إسحاق السَّبيعيّ ، وكان قد كتبه في أصحابه ، وكان يقول : أنت خالي ، فقيل له : ألا تأتيه فقد سأل عنك ! فكِره أن يأتيَه ، ثمّ أقبل حتى مرّ بكَرْمان فبعث عليهم خَرَشة بن عمرو التميميّ ، ونزل أبو إسحاق بها ، فلم يدخل في فتنته حتى كانت الجماجم ، ولما دخل الناسُ فارسَ اجتمع الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا : إنا إذا خلعنا الحجّاج عاملَ عبدالملك فقد خلعْنا عبدَالملك ، فاجتمعوا إلى عبدالرحمن ، فكان أوّل الناس .

قال أبو مِخنَف فيما حدّثني أبو الصّلت التيميّ : خَلَع عبدَالملك بن مروان تيحانُ بن أبْجر من بني تيم الله ابن ثعلبة، فقام فقال : أيها الناس ، إني خلعت أبا ذِبّان كخلْعي قميصي ، فخلعه الناسُ إلاّ قليلا منهم ، ووَثبوا إلى ابن محمد فبايعوه ، وكانت بيعتُه : تُبايعون على كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلّين ، فإذا قالوا : نعم بايَعَ . فلما بلغ الحجّاج خلعُه كتب إلى عبدالملك يخبره خبرَ عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث ، ويسأله أن يعجل بعثة الجنود إليه ، وبعث كتابه إلى عبدِالملك يتمثّل في آخره بهذه الأبيات ، وهي للحارث بنَ وَعلة :

سَائِلْ مُجَاوِرَ جَرْمٍ هل جَنَيْتُ لهمْ ... حَرْباً تُفَرِّقُ بين الجِيرَةِ الخُلُطِ
وهلْ سَمَوْتُ بَجَرَّارٍ له لَجَبٌ ... جَمِّ الصَّوَاهِلِ بين الجمِّ والفُرُط
وهل تركتُ نساءَ الحَيِّ ضاحيةً ... في سَاحَةِ الدّارِ يسْتَوْقِدْنَ بالغُبُطِ

وجاء حتى نزل البصْرة . وقد كان بلغ المهلب شقاق عبدالرحمن وهو بسجسْتان ، فكتب إليه :

أما بعد ، فإنك وضعتَ رِجْلك يا بن محمد في غَرْز طويل الغَيّ على أمة محمد ﷺ . الله الله فانظر لنفسك لا تُهلِكْها ، ودماء المسلمين فلا تَسفِكْها ، والجماعة فلا تفرّقها ، والبَيعة فلا تَنكُثْها ، فإن قلتَ : أخاف الناسَ على نفسي فالله أحقّ أن تخافه عليها من الناس ، فلا تُعرّضها لله في سَفْك دم ، ولا استحلال محرّم والسلام عليك .

وكتَبَ المهلّب إلى الحجّاج :

أما بعد فإنّ أهلَ العراق قد أقبلوا إليك وهم مِثلّ السيل المنحدر من عَل، وليس شيء يردّه حتى ينتهي إلى قراره ، وإنّ لأهل العراق شِرَّة في أوّل مخرجهم وصبَابة إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يردّهم حتى يَسقطوا إلى أهليهم، ويشمّوا أولادهم، ثمّ واقفهم عندها، فإن الله ناصرُك عليهم إن شاء الله .

فلما قرأ كتابَه قال : فعَل الله به وفعَل ، لا والله ما لي نَظَر . ولكنْ لابن عمّه نَصَح . لما وقع كتابُ الحجاج إلى عبدالملك هاله ثمّ نزل عن سريره وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، ودعاه فأقرأه الكتاب ، ورأى ما به من الجَزَع ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنْ كان هذا الحدث من قِبَل سِجستان ، فلا تَخفْه ، وإن كان من قِبَل خُراسانَ تخوّفته . قال : فخرج إلى الناس فقام فيهم فَحمِد الله وأثنَى عليه ثم قال :

إن أهل العراق طال عليهمْ عمري فاستعجَلوا قَدَري . اللهم سلط عليهم سيوفَ أهل الشأم حتى يَبلغوا رضاك، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سُخطك. ثمّ نزل.

وأقام الحجّاجُ بالبَصْرة وتجهزَ ليَلقَى ابن محمّد ، وترك رأيَ المهلب وفرسان الشأم يَسقطون إلى الحجاج ، في كلّ يوم مائة وخمسون وعشرة وأقلّ على البُرد من قِبَل عبد الملك، وهو في كلّ يوم تَسقُط إلى عبدِ الملك كُتُبه ورُسله بخبر ابن محمد أيِّ كورة نَزَل، ومن أيِّ كورة يَرتحِل، وأيُّ الناس إليه أسرَع .

قال أبو مِخنَف : حدّثني فُضيل بن خديج أنّ مكتبه كان بكرْمان ، وكان بها أربعة آلاف فارس من أهل الكوفة وأهل البصرة ، فلما مرّ بهم ابن محمد بن الأشعث ، انجَلفوا معه ، وعزم الحجاج رأيه على استقبال ابن الأشعث ، فسار بأهل الشأم حتى نزل تُسْتَر ، وقدم بين يديه مطهر بن حّر العكّيّ ـ أو الجُذاميّ ـ وعبدالله بن رُمَيثه الطائيّ ، ومطهرٌ على الفريقين ، فجاءوا حتى انتَهْوا إلى دُجَيْل ، وقد قطَع عبدالرحمن بن محمد خيلا له ، عليها عبد الله بن أبان الحارثيّ في ثلاثمائةفارس ـ وكانت مَسلحةً له وللجُنْد ـ فلما انتهى إليه مطهرٌ بن حرّ أمَرَ عبدالله بن رُمَيثة الطائيّ فأقدَم عليهم ، فهزمتْ خيلُ عبدالله حتى انتهتْ إليه ، وجُرح أصحابه .

قال أبو مخنَف : فحدّثني أبو الزبير الهَمْدانيّ ، قال : كنتُ في أصحاب ابن محمد إذ دعا الناس وجمعهم إليه ثمّ قال : اعبُروا إليه من هذا المكان ، فأقحم الناسُ خيولَهم دُجْيْل من ذلك المكان الذي أمرهم به ، فوالله ما كان بأسرَع من أن عَبرَ عُظْم خيولَنا ، فما تكاملت حتى حملْنا على مطهّر بن حرّ والطائيّ فهزمناهما يوم الأضحى في سنة إحدى وثمانين وقتلناهم قتْلا ذريعاً ، وأصبنا عسكرَهم ، وأتت الحجاجَ الهزيمةُ . وهو يخطُب ، فصَعِد إليه أبو كعب بن عُبيد بن سَرْجِس فأخبَرَه بهزيمة الناس ، فقال : أيّها الناس ، ارتحِلوا إلى البصرة إلى معسكر ومقاتَل وطعام ومادّة ، فإن هذا المكان الذي نحن به لا يَحمل الجند . ثم انصَرف راجعاً وتبعتْه خيولُ أهل العراق ، فكلما أدركوا منهم شاذّاً قَتَلوه ، وأصابوا ثِقْلا حووْه ، ومضىٰ الحجاج لا يَلوي على شيء حتى نزل الزاوية ، وبعث إلى طعام التجار بالكلّاء فاخذه فحَمَله إليه ، وخلّى البَصرَة لأهل العراق . وكان عامله عليها الحَكَمَ ابن أيوبّ بن الحكم بن أبي عقيل الثقفّي ، وجاء أهل العراق حتى دخلوا البصرة . وقد كان الحجاج حين صدم تلك الصّدمة وأقبل راجعاً دعا بكتاب المهلّب ، فقرأه ثم قال : لله أبوه ! أيّ صاحب حرب هو ! أشار علينا بالرأي ، ولكنّا لم نقبل .

وقال غيرُ أبي مِخنَف : كان عامل البصرة يومئذ الحَكم بن أيوّب على الصّلاة والصدقة ، وعبد الله بن عامر بن مِسمع على الشُّرَط ، فسار الحَجّاج في جيشه حتى نزل رُسْتُقْباذ وهي من دَسْتَوَى من كور الأهواز ، فعَسكر بها ، وأقبل ابنُ الأشعث فنزل تُسْتَر ، وبينهما نهر ، فوجّه الحَجّاج مُطَهّر بن حرّ العَكيّ في ألفي رجل ، فأوقعوا بمسلحة لأبن الأشعث ، وسار ابن الأشعث مبادرا ، فواقَعهم ، وهي عشيّةُ عرفَة من سنة إحدى وثماين ، فيقال : إنهم قَتَلوا من أهل الشأم ألفاً وخمسمائة ، وجاءه الباقون منهزمين ، ومعه يومئذ مائةٌ وخمسون ألف ألف ، ففرّقها في قُوّاده ، وضمّنهم إياها ، وأقبل منهزماً إلى البَصْرة وخطب ابن الأشعث أصحابَه فقال : أما الحَجّاج فليس بشيء ، ولكنا نريد غزوَ عبدالملك ، وبلغ أهلَ البَصرة هزيمةُ الحجّاج ، فأراد عبدُ الله بنُ عامر بن مِسمَع أن يقطع الجِسر دونَه ، فرَشاه الحَكَم بن أيّوبَ مائة ألف ، فكفّ عنه . ودخل الحجّاج البَصرة . فأرسل إلى ابن عامر فانتزع المائة الألف منه .

رَجْع الحديث إلى حديث أبي مَخنَف عن أبي الزّبير الهَمْدانيّ .

فلما دخل عبدُالرحمن بنُ محمد البَصرةَ بايعه على حرب الحجاج ، وخلْع عبدِالملك جميعُ أهلها من قُرّائها وكُهولها ، وكان رجل من الأزد من الجَهاضِم يقال له عُقْبة بن عبدالغافر له صحابة ، فنزا فبايع عبدالرحمن مستبصراً في قتال الحجاج ، وخَنْدق الحَجّاجُ عليْه ، وخندقَ عبدالرحمن على البصرة . وكان دخولُ عبدِالرحمن البَصرة في آخر ذي الحجة من سنة إحدى وثمانين .

وحجّ بالناس في هذه السنة سليمانُ بنُ عبدالملك ، كذا حدّثني أحمدُ بن ثـابت ، عمن ذكره ، عن

إسحاقَ بن عيسى، عن أبي مَعشَر. وكذلك قال الواقديّ ،وقال: في هذه السنة وُلد ابن أبي ذئب.

وكان العاملَ في هذه السنة على المَدينة أبانُ بنُ عثمان ، وعلى العراق والمشرِق الحجاجُ بنُ يوسف ، وعلى حرب خُراسانَ المهلَّب ، وعلى خَراجها المغيرة بن مهلب من قِبَل الحجاج ، وعلى قَضاء الكوفة أبو بُرْدة بن أبي موسى ، وعلى قَضاء البصرة عبد الرحمن بن أُذَيْنة.

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين

ذكر الخبر عن الكائن من الأحداث فيها

فمن ذلك ما كان بين الحجاج وعبدِالرحمن بنِ محمد من الحروب بالزّاوية .

ذكر هشامُ بنُ محمد ، عن أبي مِخنَف ، قال : حدّثني أبو الزّبير الهَمْداني قال : كان دخولُ عبدالرحمن البصرة في آخر ذي الحجة ، واقتتلوا في المحرّم من سنة اثنتين وثمانين ، فتزاحفوا ذاتَ يوم ، فاشتدّ قتالهم . ثمّ إن أهل العراق هزموهم حتى انتهْوا إلى الحجاج ، وحتى قاتلوهم على خنادقهم ، وانهزمْت عامة قريش وثَقيف ، حتى قال عبيد بن مَوهَب مولى الحجاج وكاتبه :

فـر البَــراءُ وابـن عَـمِّـهِ مُـصْـعـبٌ   وفـرَّتْ قـريشٌ غـيْــرَ آل سَـعِـيــد

ثمّ إنهم تزاحفَوا في المحرمّ في آخره في اليوم الذي هزمَ فيه أهلُ العراق أهلَ الشأم ، فنكصتْ ميمنتهم وميسرتهم ، واضطربتْ رماحهم ، وتقوضّ صفُّهم ، حتى دَنوا منّا ، فلما رأى الحجاج ذلك جثا على ركْبتيه ، وانتَضى نحوا من شبر من سَيْفه ، وقال : لله درّ مُصْعَب ! ما كان أكرمه حين نزل به ما نَزَل ! فعلمت أنه والله لا يريد أن يفرّ . قال : فغمزتُ أبي بعيني ليأذن لي فيه فأضربَه بسيفي ، فغمزَني غمزةً شـديدة ، فسكنت ، وحانتْ مني التفاتة ، فإذا سُفيان بنُ الأبرد الكلبيّ قد حَمَل عليهم فهَزَمهم من قِبَل الميمنة ، فقلتُ : أبشر أيُّها الأمير ، فإنّ الله قد هزَم العدوّ . فقال لي : قم فانظر ، قال : فقمتُ فنظرت ، فقلتُ : قد هزمهم الله ، قال : قُمْ يا زياد فانظر ، قال : فقام فنظر فقال : الحقّ أصلحك الله يقيناً قد هُزِموا ، فخرّ ساجداً ، فلما رجعت شتمني أبي وقال : أردتَ أن تُهلكني وأهل بيتي . وقتل في المعركة عبدالرحمن بن عَوْسجة أبو سُفْيان النِّهميّ ، وقتِل عقبة بن عبد الغافر الأزديّ ثمّ الجهضميّ ، في أولئك القرّاء في رِبْضة واحدة ، وقُتِل عبد الله بن رِزام الحارثّي ، وقُتِل المنذُرُ بنُ الجارود ، وقُتل عبدالله بن عامر بن مِسمَع ، وأُتِيَ الحجاجُ برأسه ، فقال : ما كنتُ أرى هذا فارقني حتى جاءني الآن برأسه ، وبارز سعيد بن يحيى بن سعيد بن العاص رجلا يومئـذ فقَتَله ، وزعموا أنه كان مولًى للفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، كان شجاعاً يُدعَى نُصَيرا ، فلما رأى مِشيتَه بين الصفَّين ، وكان يلومه على مِشْيته قال : لا ألومُه على هذه المِشْية أبداً .

وقتل الطفيل بن عامِر بن واثلة ، وقد كان قال وهو بفارسَ يُقبل مع عبدالرحمن من كَرْمانَ إلى الحجاج :

ألا طَـرَقَتْنـا بــالغَـريَّيْـن بَعْـدَ مَـا   كَلِلْنَـا على شَـحْط المـزَارِ جَـنُـوبُ

قال أبو مِخْنَف : فحدّثني هشام بنُ أيوب بن عبدالرحمن بن أبي عقيل الثقفيّ أنّ الحجّاج أقام بقيّة المحرّم وأوّل صفر ، ثم استعمل على البَصرة أيّوب بن الحكم بن أبي عقيل ، ومضى ابن الأشعث إلى الكوفة ، وقد كان الحجاج خلّف عبدالرحمن بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عامر الحَضْرميّ ، حليف حَرْب ابن أمية على الكوفة .

قال أبو مِخْنَف ـ كما حدّثني يونس بن أبي إسحاق : إنه كان على أربعة آلاف من أهل الشأم .

قال أبو مِخْنَف : فحدّثني سهمُ بن عبدالرحمن الجُهنيّ أنهم كانوا ألفين ، وكان حنظلة بنُ الوّراد من بني رِياح بن يَرْبوع التميميّ ، وابن عتّاب بن وَرْقاء على المدائن ، وكان مطرُ بن ناجية من بني يَرْبوع على المعونة ، فلما بلغه ما كان من أمر ابن الأشعث أقبَل حتى دنا من الكوفة ، فتحصّن منه ابنُ الحضْرميّ في القصر ، ووثب أهلُ الكوفة مع مطر بن ناجية بابن الحَضْرميّ ومن معه من أهل الشأم فحاصَرَهم ، فصالحوه على أن يخرجوا ويخلّوه والقصر ، فصالحهم .

قال أبو مِخْنَف : فحدّثني يونس بن أبي إسحاق أنه رآهم يَنزِلون من القصر على العَجَل ، وفتح باب القصر لمطر بن ناجية ، فازدَحَم الناسُ على باب القصر ، فزُحم مَطَر على باب القصر ، فاخترط سيفَه ، فضَرَب به جَحْفلة بغل من بغالِ أهل الشأم وهم يخرجون من القصر ، فألقى جَحْفلته ودخل القَصْر ، واجتمع الناس عليه فأعطاهم مائتي دِرْهم . قال يونس : وأنا رأيتها تُقسَم بينهم ، وكان أبو السقر فيمن أعِطيَها . وأقبل ابنُ الأشعث منهزماً إلى الكوفة ، وتبَعه الناسُ إليها .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة كانت وقعة دَيْر الجَماجم بين الحجّاج وابن الأشعث في قول بعضهم . قال الواقديّ : كانت وقعةُ دَيْر الجَماجم في شعبانَ من هذه السنة ، وفي قول بعضهم : كانت في سنة ثلاث وثمانين .

ذكر الخبر عن ذلك وعن سبب مصير ابن الأشعث إلى دَيْر الجَماجم وذكر ما جرى بينه وبين الحجّاج بها :

ذكر هشام عن أبي مِخْنَف : قال : حدّثني أبو الزبير الهَمْدانيّ ثمّ الارحبيّ ، قال : كُنت قد أصابتْني جِراحة ، وخرج أهل الكوفة يستقبلون أبنَ الأشعث حين أقبَل ، فاستقبلوه بعدما جازَ قنطَرة زبارا ، فلما دنا منها قال لي : إن رأيتَ أن تعدل عن الطريق ـ فلا يرى الناسُ جِراحَتَك فإني لا أحبّ أن يستقبلهم الجرحى ـ فافعل . فعدلتُ ودخل الناسُ ، فلما دخل الكوفة مالَ إليه أهل الكوفة كلهم ، وسبقتْ همْدان إليه ، فحفّت به عند دارِ عمرو بن حُرَيث إلاّ طائفةً من تميم لَيْسوا بالكثير قد أتَوا مطَرَ بن ناجية ، فأرادوا أن يقاتِلوا دونَه ، فلم يُطيقوا قتالَ الناس . فدعا عبد الرحمن بالسلاليم والعَجَل ، فوُضَعَتْ ليَصعَد الناسُ القَصْر ، فصعِد الناسُ القصر فأخذوه ، فأتِيَ به عبدالرحمن بن محمد ، فقال له : استبقني فإني أفضلُ فُرسانِك وأعظمُهم عنك غناء ، فأمر به فحُبس ، ثم دعا به بعد ذلك فعفا عنه . وبايَعه مَطَرٌ ، ودخلَ الناس إليه فبايعوه ، وسَقَط إليه أهلُ البصرة ، وتَقَوَّضَتْ إليه المَسالح والثغور ، وجاءه فيمن جاءه من أهل البصرة عبدالرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب ، وعرِف بذلك ، وكان قد قاتل الحجّاج بالبَصْرة بعد خروج ابن الأشعث ثلاثا ، فبلغ ذلك عبدالملك بنُ مروان ، فقال : قاتل الله عُديّ الرَّحمن ، إنه قد فرّ ! وقاتل غلمانٌ من غِلمان قريش بعده ثلاثا . وأقبل الحجّاج من البصرة فسار في البرّ حتى مرّ بين القَادسيّة والعُذَيب ، ومَنَعوه من نزول

القادسيّة ، وبعث إليه عبدُالرحمن بنُ محمد بن الأشعث عبدالرحمن بن العبّاس في خيل عظيمة من خيل المصرَيْن فمنعوه من نزول القادسيّة ، ثم سايروه حتى ارتفعوا على وادي السباع ، ثمّ تسايَروا حتى نزل الحجاج ديرَ قُرَّة ، ونزل عبدُالرحمن بنُ العباس ديرَ الجماجم ، ثمّ جاءابن الأشعث فنزل بدير الجماجم والحجّاج بدير قُرّة ، كان الحجاج بعد ذلك يقول : أما كان عبدُالرحمن يزْجُر الطيرَ حيث رآني نزلتُ ديرَ قُرَّة ونـزل ديرَ الجماجم !

واجتمع أهلُ الكوفة وأهلُ البَصْرَة وأهلُ الثغور والمسالح بدَيْر الجماجم والقرّاء من أهل المِصرَين ، فاجتمعوا جميعاً على حرب الحجاج ، وجمَعَهم عليه بغضُهم والكراهية له ، وهم إذ ذاك مائة ألف مُقاتل ممن يأخذ العطاء ، ومعهم مثلهم من مَواليهم . وجاءت الحجاجَ أيضاً أمدادُهُ من قِبَل عبدالملك من قبل أن ينزل ديرَ قُرَّة ، وقد كان الحجّاج أراد قبل أن يَنزِل ديرَ قُرَّة أن يرتفع إلى هِيتَ وناحية الجزيرة إرادةَ أن يقترب من الشأم والجزيرة فيأتيَه المددُ من الشأم من قريب ، ويقترب من رَفاغة سِعْر الجزيرة ، فلما مرّ بدَيْر قرة قال : ما بهذا المنزل بُعدٌ من أمير المؤمنين ، وإنّ الفلاليج وعين التمر إلى جَنْبنا . فنزل فكان في عسكره مخندِقاً وابن محمد فى عسكره مخندقاً ، والناس يخرجون في كلّ يوم فيقتتلون ، فلا يزال أحدهما يُدني خَندقَه نحو صاحبه ، فإذا رآه الآخر خندقَ أيضاً ، وأدنَى خندقه من صاحبه . واشتدّ القتال بينهم . فلما بلغ ذلك رؤوس قريش وأهل الشأم قِبَل عبدالملك ومواليه قالوا : إن كان إنما يُرْضِي أهل العراق أن يُنزَعَ عنهم الحجّاج ، فإنَّ نزْع الحجّاج أيسرُ من حَرْب أهلِ العراق ، فانزعْه عنهم تُخْلص لك طاعتُهم ، وتحقن به دِماءنا ودِماءَهم . فبعث ابنه عبدالله بن عبدالملك ، وبعث إلى أخيه محمد بن مروان بأرض المَوْصل يأمره بالقدوم عليه ، فاجتمعَا جميعاً عنده ، كلاهما في جُنْدَيهما ، فأمرهما أن يَعرِضا على أهل العراق نزعَ الحجّاج عنهم ، وأن يُجرِيَ عليهم أعطياتِهم كما تُجري على أهل الشأم ، وأن ينزل ابن محمد أيّ بلد من عراق شاءَ ، يكون عليه والياً ما دام حيا ، وكان عبدالملك والياً ، فإن هم قبلوا ذلك عُزِل عنهم الحجاج ، وكان محمد بن مروان أمير العراق ، وإن أبَوا أن يقبلوا فالحجّاج أميرُ جماعة أهلِ الشأم ووليّ القتال ، ومحمد بن مروانَ وعبدالله بن عبد الملك في طاعته . فلم يأتِ الحجاجَ أمرٌ قطّ كان أشدّ عليه ولا أغيَظ له ولا أوجَعَ لقَلْبه منه مخافةَ أن يقبلوا فيُعزَلَ عنهم ، فكَتَب إلى عبدالملك :

يا أميرَ المؤمنين ، والله لئن أعطيتَ أهلَ العراق نَزْعي لاَ يلبثون إلاّ قليلا حتى يخالفوك ويسيروا إليك ، ولا يزيدهم ذلك إلاّ جرأةً عليك ، ألم تر وتَسمع بوثُوب أهلِ العراق مع الأشترعلى ابن عفّان ، فلما سألهم ما يريدون قالوا : نزعَ سعيدُ بن العاص ، فلما نزعه لم تتمّ لهم السنةَ حتى ساروا إليه فقتلوه ! إنَّ الحديدَ بالحديدِ يُفْلَح . خارَ الله لك فيما ارتأيتَ . والسلام عليك .

فأبيَ عبدُ الملك إلاّ عرضَ هذه الخِصال على أهل العراق إرادةَ العافية من الحَرْب . فلما اجتمعنا مع الحجّاج خرج عبدُالله بن عبد الملك فقال : يا أهل العراق ، أنا عبدُالله بنُ أمير المؤمنين ، وهو يُعطيكم كذا وكذا ؛ فذَكر هذه الخصالَ التي ذكرْنا . وقال محمدبنُ مروان : أنا رسولُ أمير المؤمنين إليكم ، وهو يَعرِض عليكم كذا وكذا ، فذَكَر هذه الخصالَ . قالوا : نرجع العشيّة ، فرجعوا فاجتمعوا عند ابن الأشعث ، فلم يَبْقَ قائدٌ ولا رأس قوم ولا فارسٌ إلاّ أتاه ، فحمِد الله ابن الأشعث وأثنَى عليه ثمّ قالَ :

أما بعد ، فقد أعطِيتم أمراً انتهازكم اليوم إياه فرصة ، ولا آمنُ أن يكون على ذي الرّأي غداً حَسْرة ، وإنكم اليومَ على النّصف وإن كانوا اعتدّوا بالزاوية فأنتم تعتدّون عليهم بيَوْم تُسْتَر ، فاقبلوا ما عُرضوا عليكم

وأنتم أعزّاءُ أقوياءُ ، والقومُ لكم هائبون وأنتم لهم منتقِصون . فلا والله لا زِلتم عليهم جُرّاء ، ولا زلتمْ عندَهم أعزّاء ، إن أنتم قبلتم أبداً ما بقيتم .

فوَثب الناسُ من كل جانب ، فقالوا : إنّ الله قد أهلكهم ، فأصبحوا في الأزْل والضّنْك والمجاعة والقلّة والذلّة ، ونحن ذوو العَدَد الكثير ، والسعر الرفيغ ، والمادّة القريبة ، لا والله لا نقبل .

فأعادوا خلعَه ثانية . وكان عبدالله بن ذواب السلميّ وعَمير بن تيحان أوّل من قام بخلعه في الجماجم ، وكان اجتماعهم على خلعة بالجماجم أجمع من خلعهم إياه بفارس .

فرجع محمد بن مروانَ وعبدالله بن عبدالملك إلى الحجاج فقالا : شأنَك بعَسْكرك وجندِك فاعمل برأيك ، فإنا قد أمِرنا أن نسمَع لك ونطيع ، فقال : قد قلتُ لكما : إنه لا يُراد بهذا الأمر غيرُكما ، ثم قال : إنما أقاتل لكما، وإنما سلطاني سلطانُكما، فكانا إذا لَقِياه سلّما عليه بالإمرة، وقد زَعَم أبويزيدَ السَّكْسَكيّ انه إنّما كان أيضاً يسلّم عليهما بالإمرة إذا لقيَهما، وخلّياه والحرب فتولاّها .

قال أبو مِخْنَف : فحدّثني الكلبيّ محمد بن السائب أنّ الناس لما اجتمعوا بالجماجم سمعتُ عبدالرحمن بن محمد وهو يقول : ألا إنّ بني مَرْوان يعيَّرون بالزّرقاء ، والله ما لهم نسبٌ أصحّ منه إلا أن بني أبي العِاص أعلاجٌ من أهل صَفّورِيَة ، فإن يكُنْ هذا الأمر في قريش فعنّي فُقِئتْ بَيضة قريش ، وإن يَك في العرب فأنا ابن الأشعث بن قيس - ومدّ بها صوتَه يُسمِع الناسَ - وبَرزَوا للقتال ، فجعل الحجّاجُ على ميمنته عبدَالرحمن ابنَ سُليم الكلبيّ ، وعلى مَيسرَته عُمارةُ بنُ تميم اللّخميّ ، وعلى خيلهسُفْيان بنالأبرد الكلبي ، وعلى رجاله عبدُالرحمن بنُ حبيب الحكميّ ، وجعل ابن الأشعث على ميمنته الحجّاج بن جارية الخثعميّ ، وعلى ميسَرته الأبرد بن قرّة التميميّ ، وعلى خَيله عبدالرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث الهاشميّ ، وعلى رجاله محمد بن سعد بن أبي وَقّاص ، وعلى مجفّفته عبدالله بن رِزَام الحارثيّ ، وجعل على القرّاء جَبَلة بن زَحْر بن قيس الجعفيّ ، وكان معه خمسةَ عشرَ رجلا من قريش ، وكان فيهم عامر الشعبيّ ، وسعيد بنُ جبير وأبو البختريّ الطائيّ ، وعبدالرحمن بن أبي ليلى .

ثم إنهم أخذوا يتزاحفون في كلّ يوم وَيقتتلون ، وأهل العراق تأتيهم موادّهم من الكوفة ومن سوادها فيما شاءوا من خِصبِهم ، وإخوانُهم من أهل البَصْرة وأهل الشأم في ضِيق شديد ، قد غلتْ عليهم الأسعار ، وقَلّ عندهم ، الطعام ، وفَقَدوا اللّحم ، وكانوا كأنهم في حصار ، وهم على ذلك يُغادون أهل العراق ويراوِحونهم فيقَتَتلون أشدّ القتال : وكان الحجاجُ يُدني خندقه مرّة وهؤلاء أخرى ، حتى كان اليوم الذي أصيبَ فيه جَبلة بن زحْر . ثمّ إنه بعث إلى كُمَيل بن زياد النخعيّ ، وكان رَجُلاً رَكيناً وقوراً عند الحرب ، له بأس وصوتٌ في الناس ، وكانت كتيبتُه تُدعى كتيبةَ القرّاء ، يُحمل عليهم فلا يكادون يبرحون ، وَيحملون فلا يكذبون ، فكانوا قد عرفوا بذلك ، فخرجوا ذاتَ يوم كما كانوا يخرجون ، وخرج الناسُ ، فعبىّ الحجاج أصحابَه ، ثمّ زحف في صُفوفه ، وخرج ابن محمّد في سبعة صفوف بعضها على أثَر بعض ، وعبّى الحجاج لكتيبة القرّاء التي مع جَبلَة ابن زَحْر ثلاث كتائب ، وبعثَ عليها الجرّاح بن عبدالله الحَكَميّ ، فأقبلوا نحوَهم .

قال أبو مِخْنَف : حدّثني أبو يزيد السَّكْسَكيّ ، قال : أنا والله في الخيل التي عُبّيت لجبلةَ بن زَحْر ، قال : حمَلْنا عليه وعلى أصحابه ثلاث حملات ، كلّ كتيبة تحمل حَمْلة ، فلا والله ما استنقَصْنا منهم شيئاً .

وفي هذه السنة تُوُفيّ المغيرةُ بنُ المهلّب بخُراسانَ .

ذَكَر عليّ بنُ محمد ، عن المفضل بن محمد ، قال : كان المغيرةُ بنُ المهلب خليفةَ أبيه بمَرْو على عَمَله كله ، فمات في رَجب سنة اثنتين وثمانين ، فأتى الخبر يزيد ، وعلمَه أهلُ العسكر فلم يُخبِروا المهلّب ، وأحبّ يزيد أن يبلّغه ، فأمر النساء فصرَخْن ، فقال المهلّب : ما هذا ؟ فقيل : مات المغيرة ، فاسترْجَع ، وجَزِع حتى ظهر جزَعُه عليه ، فلامه بعضُ خاصّته ، فدعا يَزيد فوجّهَه إلى مَرْوَ ، فجعل يُوصِيه بما يعمل ودموعه تَنحدر على لحيته . وكتب الحجّاج إلى المهلب يعزّيه عن المغيرة ، وكان سيداً ، وكان المهلب يومَ مات المغيرة مقيماً بكِسّ وراء النهر لحرْب أهلِها .

قال : فسار يزيدُ في ستين فارساً ـ ويقال : سبعين ـ فيهم مُجّاعة بن عبدالرحمن العَتَكيّ ، وعبدالله بن مُعمّر بن سُمير اليَشكريّ ، ودينار السجِسْتانيّ ، والهيثم بن المنخّل الجُرْموزيّ ، وغَزوان الإسكاف صاحب زَمّ ـ وكان أسلَمَ على يد المهلب ـ وأبو محمد الزِّميّ ، وعطية ـ مولى لعتيك ـ فلقيَهم خمسمائة من الترك مَفازةِ نَسَفَ ، فقالوا : ما أنتم ؟ قالوا : تجّار ، قالوا : فأين الأثقال ؟ قالوا : قدّمناها ، قالوا : فأعطُونا شيئاً ، فأبى يَزيد ، فأعطاهم مُجّاعة ثوباً وكرابيسَ وقَوساً ، فانصرَفوا ثمّ غَدرُوا وعادوا إليهم ، فقال يزيد : أنا كنتُ أعلمُ بهم فقاتلوهم ، فاشتدّ القتال بينهم ، ويزيدُ على فرس قريب من الأرض ، ومعه رجلٌ من الخَوارج كان يزيدُ أخَذه ، فقال : استَبقْني ، فمنّ عليه ، فقال له : ما عندَك؟ فحمَل عليهم حتى خالطهم وصار من ورائهم وقد قَتَل رجلا ، ثمّ كرّ فخالطهم حتى تقدّمهم وقَتَل رجلا ثمّ رَجع إلى يزيدَ ، وقتل يزيدُ عظيما من عظائمهم . ورُمي يزيدُ في ساقه ، واشتدّت شوكتهم ، وهرب أبو محمد الزّميّ ، وصبر لهم يزيدُ حتى حاجَزوهم ، وقالوا : قد غَدرنا ، ولكن لا ننصرف حتى نموتَ جميعاً أو تموتوا أو تُعطونا شيئاً ، فحلف يزيدُ لا يعطيهم شيئاً ، فقال مُجّاعة : أذكّرك الله ، قد هلك المغيرة ، وقد رأيتَ ما دخل على المهلب من مصابه ، فأنشُدك الله أن تصابَ اليومَ !

قال : إنّ المغيرة لم يعدُ أجلَه ، ولستُ أعدو أجَلي . فرمى إليهم مجّاعة بعمامة صفراءَ فأخذوها وانصَرَفوا ، وجاء أبو محمد الزّميّ بفوارسَ وطعام ، فقال له يزيد : أسلَمتنا يا أبا محمد ، فقال : إنما ذهبتُ لأجيئكم بمَدَد وطعام ، فقال الراجز :

يـزيـدُ يـا سَـيفَ أبـي سعـيـدْ ... قـد عـلـمَ الأقـوامُ والـجـنـودْ
والجمـعُ يَـوم المجمـع المشهـودْ ... أنـك يـوم الـتُّـركِ صَـلبُ الـعـودْ

وقال الأشقريّ :

والتُّـرك تعـلمُ إذ لاَقى جُـمـوعَـهُـمُ ... أنْ قـد لقـوهُ شِهـابـاً يَفـرِج الـظُّلَمـا
بفِتيَـةٍ كـأُسُـودِ الغـابِ لم يَجِـدوا ... غيـرَ التـأسِّي وغيـرَ الصبرِ مُعتَصَمَـا
نـرى شَـرائـجَ تَغشى القـومَ من علقٍ ... ومـا أرى نـبـوةً منـهـمْ ولا كَـزَمـا
وتحتَـهُمْ قـرَّحٌ يَـرْكَبْنَ مـا رَكِـبـوا ... مـن الكـريـهـة حتى يَنْتعلن دَمَـا
في حـازَّةِ المـوتِ حتى جَـنَّ لَيـلُهُمُ ... كِـلاَ الفـريقين مـا وَلَّى ولا انهـزمـا

وفي هذه السنة صالَح المهلب أهل كسّ على فِدْية ، ورحلَ عنها يريد مَرْوَ .

ذكر الخبر عن سبب انصراف المهلّب عن كِسّ .

ذكر عليّ بنُ محمد ، عن المفضّل بن محمد ، أن المهلب اتّهم قوماً من مُضرَ فحبسهم وقَفَل من كِسّ

وخلّفهم ، وخَلّف حريث بنَ قُطْبة مولَى خُزاعة ، وقال : إذا استوفيتَ الفِدْية فرُدَّ عليهم الرُّهُن، وقطع النَّهر فلما صار ببَلْخَ أقام بها وكَتَب إلى حُرَيث : إني لستُ آمَن إن رددت عليهم الرّهْن أن يغيروا عليك ، فإذا قبضتَ الفِديةَ فلا تخلّ الرُّهن حتى تقدم أرض بَلْخ . فقال حُريث لملك كِسّ : إنّ المهلب كتب إليّ أن أحبس الرُّهُن حتى أقدم أرض بَلْخ ، فإن عَجّلت لي ما عليك سلّمتُ إليك رهائنَك ، وسرت فأخبرتُه أن كتابه ورد ، وقد استوفيتُ ما عليكم ، ورددتُ عليكم الرهُن ، فعجّل لهم صُلحَهم ، وردّ عليهم من كان في أيديهم منهم . وأقبَل فعرَضَ لهم الترك ، فقالوا : افْدِ نفسَك ومن معك ، فقد لقينا يزيد بن المهلّب ففَدَيّ نفسه . فقال حُرَيث : ولدَتْني إذاً أمّ يزيد ! وقاتَلَهم فقتَلهم ، وأسرَ منهم أسرَى فقَدوْهم ، فمنّ عليهم وخلاّهم ، وردّ عليهم الفِداء . وبلغ المهلّب قولُه : ولدتْني أمّ يزيدَ إذاً ، يأنف العبدُ أن تَلده رَحِمُه . وغَضِب .

فلما قدم عليه بَلخ قال له : أين الرّهُن ؟ قال : قبضتُ ما عليهم وخلَّيتهُم ، قال : ألم اكتبْ إليك ألاّ تخلّيَهم ، قال : أتاني كتابُك وقد خليتُهم ، وقد كُفيتُ ما خفتَ ، قال : كذبتَ ، ولكنك تقرّبت إليهم و إلى مَلكِهم فأطلعتَه على كتابي إليك . وأمَرَ بتجريده ، فجَزِع من التجريد حتى ظَنّ المهلبُ أن به برصاً ، فجرّده وضَرَبه ثلاثين سَوْطاً . فقال حُرَيث : وَدَدْتُ أنه ضربني ثلاثمائة سَوْط ولم يجرّدني ، أنفاً واستِحياء من التجريد ، وحلف ليَقتلنّ المهلّب .

فركب المهلب يوماً وركب حُرَيث ، فأمر غلامين له وهو يَسيرُ خلفَ المهلّب أن يضرباه ، فأبى أحدُهما وتَرَكه وانصرف ، ولم يجترىء الآخر لمّا صار وحده أن يُقدَم عليه ، فلما رجع قال لغلامه : ما منعك منه ؟ قال : الأشفاق والله عليك ، ووالله ما جزعتُ على نفسي ، وعلمتُ أنا إنْ قتلناه أنك ستُقتَل ونقتَل ، ولكن كان نظري لك ، ولو كنت أعلم أنك تسلم مِن القَتل لقتلتُه .

قال : فترك حُرَيث إتيانَ المهلّب وأظهر أنه وَجِعٌ ، وبلغ المهلّب أنه تمارَض وأنه يريد الفتك به ، فقال المهلب لثابت بن قطبة : جئني بأخيك ، فإنما هو كبعض ولدي عِنْدي ، وما كان ما كان منّي إليه إلاّ نظراً له وأدباً ، ولربما ضربتُ بعضَ ولدي أؤدّبه . فأتى ثابت أخاه فناشَدَه ، وسأله أن يركَبَ إلى المهلب ، فأبى وخافَه وقال : والله لا أجيئُه بعد ما صَنَع بي ما صَنَع ، ولا آمنُه ولا يأمُنني . فلما رأى ذلك أخوه ثابت قال له : أما إنْ كان هذا رأيُك فاخرج بنا إلى موسى بنِ عبد الله بن خازم ، وخاف ثابت أن يَفتِك حريثٌ بالمهلّب فيُقتلون جميعاً، فخرجا في ثلاثمائة من شاكرّيتهما والمنقطعين إليهما من العرب .

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة توفِّيَ المهلب بن أبي صُفْرة .

ذكر الخبر عن سبب موته ومكان وفاته :

قال علي بن محمد : حدَّثني المفضّل ، قال : مضى المهلب منصرفهُ من كس يريد مرْو، فلما كان بزاغولَ من مَرْو الرُّوذ أصابتْه الشَّوْصة ـ وقوم يقولون : الشوْكة ـ فدعا حبيباً ومن حضره من ولده، ودعا بسهام فحزمتْ ، وقال: أترونكم كاسِريها مجتمعةً؟ قالوا: لا ، قال: أفترَوْنكم كاسريها متفرّقة؟ قالوا: نعم؛ قال: فهكذا الجماعة، فأوصيكم بتَقوَى الله وصلةِ الرّحِم، فإن صلة الرحم تنسيء في الأجل، وتُثري المال، وتُكثر العَدَد وأنهاكم عن القطيعة، فإن القطيعة تُعْقِب النار، وتورث الذلة والقلة ، فتحابوا وتواصلوا ، وأجمعوا أمرَكم ولا تختَلفوا ، وتبارُّوا تجتمعْ أمورُكم ؛ إن بني الأم يختلفون، فكيف ببني العَلات! وعليكم بالطاعة والجماعة ، وليكن فعالُكم أفضل من قولكم، فإني أحبّ للرجل أن يكون لعمله فضلٌ على لسانه ، واتقوا الجوابَ وزَلّة

اللسان ، فإن الرجل تزلّ قدمُه فينتعش من زَلته ،ـ ويزلّ لسانُه فيَهلك. اعرفوا لَمن يغشاكم حقَّه ، فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرةً له ، وآثروا الجُودَ على البُخْل ، وأحِبّوا العَرَب واصطنعوا العُرْف ، فإنّ الرجل من العرب تَعدُه العِدةَ فيموتَ دونَك ، فكيف الصنيعة عنده! عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة، فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة، وإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوّه قيل : أتى الأمرَ من وَجْهه ،ـ ثم ظفِر فحُمد ، وإن لم يظفر بعد الأناة قيل : ما فرّط ولا ضَيّع ، ولكن القضاء غالب. وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السنَن ، وأدب الصّالحين ، وإياكم والخِفّة وكثرَة الكلام في مجالسكم ، وقد استخلفتُ عليكم يزيد ، وجعلت حبيباً على الجُنْد حتى يقدم بهم على يزيد ، فلا تُخالفوا يزيد ، فقال له المفضل : لو لم تقدمه لقدّمناه .

ومات المهلّب وأوصى إلى حبيب ، فصلى عليه حبيب ، ثم سار إلى مَرْوَ . وكتب يزيدُ إلى عبدالملك بوفَاةِ المهلب واستخلافِهِ إياه ، فأقرّه الحجاجُ . ويقال: إنه قال عند موته ووصيته : لو كان الأمرُ إليَّ لوليتُ سيد ولدي حبيباً. قال: وتوفيَ في ذي الحِجة سنة اثنتين وثمانين ، فقال نهارُ بن تَوسِعة التميمي :

أَلَا ذَهبَ الغـزوُ الـمُقـرِّبُ لـلغِنَـى ... ومـات النَّـدى والجُـودُ بعـد المهلَّبِ
أقـامَـا بمـروَ الـرُّوذِ رَهْنَى ضـريحِهِ ... وقـد غُيّبَـا عن كـلّ شـرقٍ ومغـربِ
إذا قيـلَ أيُّ النـاسِ أولـى بنعمـةٍ ... عـلى النـاسِ؟ قـلنـاه ولم نَـتَهَـيَّبِ
أبـاحَ لنـا سهـلَ البـلادِ وحـزنَهـا ... بخيـلٍ كـأرسـال القَـطَا المُتَسَـرِّبِ
يُـعـرِّضُـهـا لـلطَّعنِ حتـى كـأنـمـا ... يُـجلِّلهـا بـالأرجُـوان الـمُـخـضَّـبِ
تُـطيفُ بـه قَحـطانُ قـد عُصِّبتْ بـه ... وأحـلافُـهـا من حيّ بكـرٍ وتَـغلِبِ
وَحَـيَّـا مَـعـدٍّ عُـوَّذٌ بِـلِوائـه ... يُـفـدُّونَـه بـالـنـفس الأم والأَب

وفي هذه السنة ولي الحجاج بن يوسف يزيد بن المهلب خُراسان بعد موت المهلّب .

وفيها عَزَل عبدُ الملك أبانَ بن عثمان عن المدينة، قال الواقدي: عزله عنها لثلاث عشرة ليلة خلتْ من جُمادَىٰ الآخرة .

قال: وفيها ولّى عبدُالملك هشام بن إسماعيل المخزومي المدينة. وعَزَلَ هشامُ بن إسماعيل عن قضاء المدينة لما وليها نوفَلَ بن مُساحق العامري ، وكان يحيى بن الحكم هو الذي استقضاه على المدينة، فلما عُزل يحيى وَوليها أبانُ بن عثمان أقرّه على قضائها؛ وكانت ولاية أبانَ المدينةَ سبع سنين وثلاثةَ أشهر وثلاث عشرةَ ليلة ، فلما عَزَل هشام بن إسماعيل نوفل بن مُساحق عن القضاء ولّى مكانَه عَمرو بن خالد الزُّرَقي .

وحجّ بالناس في هذه السنة أبانُ بن عثمان ، كذلك حدَّثني أحمدُ بن ثابت عمّن ذكره ، عن إسحاقَ بن عيسى ، عن أبي معشر .

وكان على الكوفة والبَصْرة والمَشرق الحجّاجُ ، وعلى خُراسانَ يزيد بن المهلب من قبَل الحجّاج .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين

ذكر الأحداث التي كانت فيها

فمما كان فيها من ذلك هزيمةُ عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث بدَيْر الجمَاجم .

ذكر الخبر عن سبب انهزامه :

ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مِخنَف ، قال : حدّثني أبو الزّبير الهمْدانيّ ، قال : كنتُ في خَيل جبَلَة بن زحْل ، فلما حَمَل عليه أهل الشأم مرة بعد مرّة ، نادانا عبدالرحمن أبي ليلى الفقيه فقال : يا معشَر القرّاء ، إنّ الفِرار ليس بأحد من الناس بأقبحَ منه بكم ، إني سمعتُ علياً - رفع الله درجته في الصّالحين ، وأثابَه أحسَن ثوَاب الشهداء والصدّيقين - يقول يومَ لقينا أهل الشأم : أيها المؤمنون ، إنه مَن رأى عُدوانا يُعمَل به ، ومُنكَراً يُدعَى إليه ، فأنكرَه بقَلْبه فقد سَلم وبَرِىء ، ومن أنكر بَلسانه فقد أجر ، وهو أفضل من صاحبه ، ومَن أنكَر بالسيف لتكون كلمةُ الله العُليَا وكلمةُ الظالمين السفْلَى ، فذلك الذي أصابَ سبيلَ الهُدى ، ونـوّر في قلبه اليقين . فقاتِلوا هؤلاء المُحِلين المُحدِثين المبتدِعين الذين قد جهلوا الحقّ فلا يعرفونه ، وعَمِلوا بالعدوان فليس يُنْكرونه .

وقال أبو البَخْتريّ : أيّها الناس ، قاتلوهم على دينكم ودُنْياكم ، فوالله لئن ظهَروا عليكم ليُفسِدُنّ عليكم دِينَكم ، وليَغلِبُنّ على دنياكم .

وقال الشعبيّ : يا أهل الأسلام ، قاتِلوهم ولا يأخذُكم حَرَجٌ من قتالهم ، فوالله ما أعلم قوماً على بَسيطِ الأرض أعمَل بِظُلم ، ولا أجْورَ منهم في الحُكم ، فليكن بهم البدار.

وقال سعيد بن جُبير : قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم بنيّة ويقين ، وعلى آثامهم قاتِلوهم على جَوْرِهم في الحُكْم ، وتجبرّهم في الدين ، واستذلالِهم الضّعفاء ، وإماتتهم الصّلاة .

قال أبو مخنَف ، قال أبو الزّبير : فتهيّأنا للحَمْلة عليهم ، فقالَ لنا جَبَلة : إذا حملتهم عليهمْ فاحملوا حملةً صادقة ، ولا تردّوا وجوهكم عنهم حتى تُوَاقِعُوا صَفّهم . قال : فحملنا عليهم حملةً بجدّ منّا في قتالِهم ، وقوّة منا عليهم ، فضربنا الكتائبَ الثلاثَ حتى اشفترّت ، ثم مضينا حتى واقعْنا صفّهم فضربناهم حتى أزلْناهم عنه ، ثمّ انصرفْنا فمررنا بجَبَلة صريعاً لا نَدري كيف قُتل .

قال : فهدّنا ذلك وجبُنّا موقفُنا الذي كنّا به ، وإنْ قُرّاءنا لمتوافِرون ، ونحن نَتنَاعى جبلةَ بن زَحْر بيننا ، كأنما فقدَ به كلّ واحد منا أباه أو أخاه ، بل هو في ذلك الموطِن كان أشدّ علينا فَقداً . فقال لنا أبو البَخْتريّ الطائيّ : لا يستبينَنّ فيكم قتلُ جَبَلة بن زَحْر ، فإنما كان كرجل منكم أتتْه منيّته ليَومها ، فلم يكن ليتقدّم يومُه ولا ليتأخر عنه ، وكلّكم ذائق ما ذاق ، ومدعوّ فمجيب . قال : فنظرتُ إلى وجوه القرّاء فإذا الكآبة على وجوههم بيّنة ،

وإذا ألسنتهم منقطِعة ، وإذا الفَشَل فيهم قد ظَهَر ، وإذا أهلُ الشأم قد سُرّوا وجَذِلوا ، فنادَوا : يا أعداءَ الله ، قد هَلَكتم ، وقد قَتَل الله طاغُوتكم .

قال أبو مِخْنَف : فحدّثني أبو يَزيد السَّكسكيّ أنّ جَبَلة حين حَمل هو وأصحابهُ علينا انكشفْنا ، وتبعونا وافترقتْ منا فرقة فكانت ناحيةً فنظرْنا فإذا أصحابه يتبعون أصحابَنا ،وقد وقف لأصحابهليرجعوا إليه على رأس رَهْوة ، فقال بعضُنا ، هذا والله جَبَلة بن زَحْر ، احملوا عليه ما دام أصحابه مشاغيلَ بالقِتال عنه لعلّكم تصيبونه . قال : فحملْنا عليه ! فأشهدُ ما وَلّى ، ولكن حَمل علينا بالسيف . فلمّا هبط من الرَّهوة شَجرْناه بالرّماح فأذْرَيناه عن فرسه فوقع قتيلا ، ورجع أصحابهُ ، فلما رأيناهم مقبلين تنحيْنا عنهم ، فلما رأوْه قتيلاً رأينا من استرجاعهم وجزعِهم ما قرّت به أعينُنا ، قال : فتبيّنّا ذلك في قتالهم إيانا وخروجِهم إلينا .

قال أبو مخنَف : حدّثني سهم بن عبدالرحمن الجُهَنيّ ، قال : لما أصيب جَبَلة هدّ الناسَ مَقتَله ، حتى قدم علينا بسطام بن مَصقَلة بن هُبيرة الشيبانيّ ، فشجع الناسَ مَقدمُه ، وقالوا : هذا يقوم مقامَ جَبَلة ، فسَمع هذا القولَ من بعضهم أبو البَختريّ ، فقال : قُبِّحتم ! إن قتل منكم رجل واحد ظننتمْ أن قد أحيط بكم ، فإن قُتل الآن ابن مصقَلة ألقيتم بأيديكم إلى التهلكة ، وقلتم : لم يَبقَ أحد يقاتِل معه ! ما أخلقَكم أن يُخلّفَ رجاؤنا فيكم ! وكان مَقدم بِسطام من الرّيّ ، فالتقى هو وقتيبة في الطريق ، فدعاه قُتيبة إلى الحجّاج وأهلِ الشأم ، ودعاه بِسطام إلى عبدالرحمن وأهلِ العراق ، فكلاهما أبي على صاحبه ، وقال بِسطام : لأن أموتَ مع أهل العراق أحَبّ إليّ من أن أعيشَ مع اهل الشأم ، وكان قد نزل ماسَبَذان ، فلمّا قَدم قال لابن محمد : أمِّرْني على خيل ربيعةَ ، ففعل ، فقال لهم : يا معشر ربيعة ، إن فيّ شَرسَفةً عند الحرب فاحتملوها لي ـ وكان شُجاعاً ـ فخرج الناسُ ذاتَ يوم ليَقتتلوا ، فَحمل في خيل ربيعة حتى دخل عسكَرهم ، فأصابوا فيهم نحواً من ثلاثين أمرأةً من بين أمَة وسُرّية ، فأقبل بهنّ حتى إذا دنا من عسكره ردّهنّ ، فجئن ودخلْن عسكر الحجاج ، فقال : أولَى لهم ! مَنَع القومُ نساءَهم ،أما لو لم يردّوهنّ لسبيت نساؤهم غداً إذا ظَهرت . ثم اقتتلوا يوماً آخَر بعد ذلك ، فحمَل عبدالله بن مُلَيل الهَمْدانيّ في خيل له حتى دخل عسكرهم فسبا ثمانيَ عشرةَ أمرأةً ، وكان معه طارقُ بن عبدُالله الأسَديّ ـ وكان رامياً ـ فخرج شيخٌ من أهل الشأم من فُسطاطِه ، فأخذ الأسديّ يقول لبعض أصحابه : استرْ منّي هذا الشيخَ لعلّني أرميه أو أحمل عليه فأطعنه ، فإذا الشيخ يقول رافعا صوتَه : اللهمّ لُمّنا وإيّاهم بعافية ، فقال الأسَديّ : ما أحبّ أن أقتَل مثلَ هذا ، فتركه ، وأقبَل ابن مليل بالنساء غيرَ بعيد ، ثمّ خلّى سبيلَهن أيضاً ، فقال الحجّاج مِثْل مقالتِه الأولى .

قال هشام : قال أبي : أقبل الولَيد بن نُحيْت الكلبيّ من بني عامر في كتيبة إلى جَبَلة بن زَحْر ، فانحطّ عليه الوليد من رابية ـ وكان جسيماً ، وكان جبَلة رجلا رَبْعةً ـ فالتَقيا ، فضربَه على رأسه فسَقط ، وانهزَم أصحابُه وجِيء برأسِه .

قال هشام : فحدّثني بهذا الحديث أبو مِخنَف وعَوانة الكلبيّ ، قال : لمّا جيء برأس جبلة بن زَحْر إلى الحجاج حَمَلة على رمحين ثمّ قال : يا أهل الشأم ، أبشروا ، هذا أوّل الفتح ، لا والله ما كانت فِتنة قطّ فخبَتْ حتى يُقتل فيها عظيمٌ من عظماء أهل اليَمَن ، وهذا من عظمائهم . ثمّ خرجوا ذاتَ يوم فخرج رجلٌ من أهل الشأم يدعو إلى المبارزَة ، فخرج إليه الحجَّاج بن جارية ، فحمل عليه ، فطعَنه فأذْراه ، وحمل أصحابُه فاستنقَذوه ، فإذا هو رجل من خَثْعَم يقال له أبو الدَّرداء،فقال الحجاج بن جارية : أما إنيّ لم اعرفه حتى وقع ،

ولو عرفتُه ما بارزته ، ما أحبّ أن يصابَ من قومي مِثله . وخرج عبدالرحمن بن عوف الرّواسيّ أبو حميد فدعا إلى المبارزة، فخرج إليه ابن عمّ له من أهل الشام،فاضطربا بسيفيهما، فقال كلّ واحد منهما: أنا الغلام الكلابيّ، فقال كلّ واحد منهما لصاحبه: منْ أنت؟ فلمّا تساءَلا تحاجَزا. وخرج عبدُالله بن رِزام الحارثيّ إلى كَتيبة الحجّاج، فقال: أخرُجوا إليّ رجلاً رجلا، فأخرج إليه رجلٌ، فقتَله ثمّ فعل ذلك ثلاثة أيام، يَقتُل كلّ يوم رجلاً، حتى إذا كان اليوم الرابع أقبَل، فقالوا: قد جاء لا جاء الله به! فدعا إلى المبارَزة، فقال الحجاج للجرّاح: أخُرج إليه، فخرج إليه. فقال له عبدُالله بنُ رُزام ـ وكان له صديقاً: وَيْحَك يا جرّاح! ما أخرجك إليّ! قال: قد ابتُليتُ بك، قال: فهل لك في خير؟ قال: ما هو؟ قال: أنهزم لك فترجع إلى الحجاج وقد أحسنتَ عنده وحَمِدَك، وأما أنا فإني أحتمل مقالَة الناس في انهزامي عنك حُبّاً لسلامتك، فإني لا أحبّ أن أقتلَ من قومي مِثلك، قال: فافعل، فحَملَ عليه فأخذ يستَطرد له ـ وكان الحارثيّ قد قطعتْ لهاتُه ، وكان يَعطَش كثيراً، وكان معه غلامٌ له معه إداوةٌ من ماء، فكلّما عَطِش سقاهُ الغلام ـ فاطّرد له الحارثيّ، وحَمَل عليه الجرّاح حملةً بجدٍّ لا يريد إلاّ قتله، فصاح به غُلامُه: إنّ الرجل جادّ في قتلك! فعَطَف عليه فضربه بالعمود على رأسه فصَرَعه، فقال لغلامه: انضَحْ على وجهه من ماء الإداوة، واسقِه، ففعل ذلك به، فقال: يا جرّاح، بئْسَما ما جزَيْتني، أردتُ بك العافية وأردتَ أن تُزيرني المنيّة! فقال: لم أرِدْ ذلك، فقال: انطَلِقْ فقد تركتُك للقرابة والعشيرة.

قال محمّد بن عمر الواقديّ : حدّثني ابن أبي سَبْرة ، عن صالح بن كَيْسان ، قال سعيد الحَرشيّ : أنا في صفّ القتال يومئذ إذ خرج رجلٌ من أهل العراق ، يقال له : قدامة بن الحَريش التميميّ ، فوقف بين الصّفين ، فقال : يا معشر جَرامِقة أهلِ الشأم ، إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة رسوله ، فإن أبيتم فليخرج إلي رجلٌ ، فخرج إليه رجلٌ من أهل الشأم فقتَله ، حتى قتل أربعة ، فلما رأى ذلك الحجّاج أمر منادياً فنادَى : لا يَخرج إلى هذا الكَلْب أحد : قال : فكفّ الناس . قال سعيد الحَرَشيّ: فدنوتُ من الحجّاج فقلت : أصلحَ الله الأمير ! إنك رأيتَ إلاّ يَخرُج إلى هذا الكلب أحد ، وإنما هلك مَن هلك مِن هؤلاء النفر بآجالهم ، ولهذا الرجل أجلٌ ، وأرجو أن يكون قد حضر ،فأذن لأصحابي الذين قَدِموا معي فليخرج إليه رجل منهم ، فقال الحجّاج : إن هذا الكلب لم يزل هذا له عادة وقد أرعب الناس ، وقد أذنت لاصحابك ، فمن أحبّ ان يقوم فليَقم . فرجع سعيد الحَرشيّ إلى أصحابه فأعلمهم ، فلما نادى ذلك الرجل بالبراز بَرَز إليه رجل من أصحاب الحَرشيّ ، فقتله قدامةُ ، فشقّ ذلك على سعيد ، وثَقُل عليه لكِلاَمه الحجاج ، ثم نادى قدامة : مَن يُبارِز ؟ فدنا سعيد من الحجاج ، فقال : أصلَحَ الله الأمير ! ائذَن لي في الخروج إلى هذا الكَلْب ، فقال : وعندَك ذلك ؟ قال سعيد : نعم ، أنا كما تحبّ ، فقال الحجاج : أرِني سيفَك ، فأعطاه إياه ، فقال الحجاج : معي سيفٌ أثقَل من هذا ، فأمر له بالسيف ، فأعطاه إياه ، فقال الحجّاج ـ ونظر إلى سعيد فقال : ما أجوَدَ درعَك وأقوى فرسك ! ولا أدري كيف تكون مع هذا الكلب ! قال سعيد : أرجو أن يُظفِرني الله به ، قال الحجاج : اخرج على بَرَكة الله . قال سعيد: فخرجتُ إليه، فلما دنوتُ منه، قال: قفْ يا عدوَّ الله ، فوقفتُ، فسرّني ذلك منه، فقال: اختَر إما أن تُمكِنني فأضربَك ثلاثاً، وإما أن أمكِنك فتضربَني ثلاثا، ثمّ تُمكِنني. قلت: أمكِنّي، فوَضَع صدرَه على قَرَبوسه ثمّ قال: اضربْ، فجمعتُ يديّ على سَيْفي، ثمّ ضربتُ على المِغفَر متمكّناً، فلم يصنع شيئاً، فساءني ذلك من سيفي ومِن ضَرْبتي، ثمّ أجمع رأيي أن أضربَه على أصل العاتق، فإما أن أقطع وإما أن أوهن يدَه عن ضربته، فضربتُه فلم أصنَع شيئاً؛ فساءني ذلك ومن غاب عنّي ممّن هو في ناحية العسكر

حين بلغه ما فعلت، والثالثة كذلك. ثمّ اخترط سيفاً ثم قال: أمكنيّ، فأمكَنْته، فضربني ضربةً صَرَعني منها، ثم نزل عن فرسه وجلس على صَدْري، وانتزَع من خُفّيْه خِنْجراً أو سكّيناً فوضعها على حَلْقي يريد ذَبْحي، فقلتُ له: أنشُدُك الله! فإنك لست مصيباً من قتلي الشرف والذكر مثلَ ما أنت مصيب من تَرْكي، قال: ومن أنت؟ قلت: سعيد الحَرَشيّ، قال: أوْلي يا عدوَّ الله! فانطَلِقْ فأعلِم صاحبك ما لقيت. قال سعيد: فانطلقتُ أسعَى حتى انتهيتُ إلى الحجاج، فقال: كيف رأيتَ! فقلتُ الأميرُ كان أعلمَ بالأمر.

رجع الحديث إلى حديث أبي مِخنَف، عن أبي يزيد، قال: وكان أبو البَخْتريّ الطائيّ وسعيد بن جُبَير يقولان: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُؤَجَّلاً ... ﴾[1] إلى آخر الآية، ثم يَحمِلان حتى يُواقِعا الصّفّ.

قال أبو المُخارِق: قاتلْناهم مائةَ يومٍ سَوَاء أعدّها عدّاً. قال: نَزلنا ديرَ الجماجم مع ابن محمد غداةَ الثلاثاء لليلة مضتْ من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين، وهُزمنا يوم الأربعاء لأربع عشرة مضتْ من جُمادي الآخرة عند امتداد الضّحى ومُتُوع النهار، وما كنا قطّ أجرأ عليهم ولا هم أهوَن علَيْنا منهم في ذلك اليوم.

قال: خرجْنا إليهم وخرجوا إلينا يومَ الأربعاء، لأربع عشرة مضتْ من جُمادى الآخِرة، فقاتلْناهم عامّة النهار أحسنَ قتال قاتلناهُمُوه قَطّ، ونحن آمنون من الهزيمة، عالُون للقوم، إذ خرج سُفيان بنُ الأبرد الكلبيّ في الخيل من قِبَل ميمنة أصحابه، حتى دنا من الأبرد بن قُرّة التميميّ، وهو على مَيْسرة عبد الرحمن بن محمد فوالله ما قاتَلَه كبير قتال حتى انهزم، فأنكرها الناسُ منه، وكان شجاعاً، ولم يكن الفِرار له بعادة، فظنّ الناسُ أنه قد كان أومِن، وصُولح على أن يَنهزم بالناس، فلما فعلها تقوّضت الصفوفُ من نحوه، ورَكب الناس وجوههم وأخذوا في كلّ وجه، وصَعِد عبد الرحمن بن محمد المِنبرَ، فأخذ يُنادِي الناس: عباد الله، إليّ أنا ابنُ محمد، فأتاه عبدُالله بن رزام الحارثيّ، فوقف تحت منبره، وجاء عبدُالله بن ذؤاب السُّلَميّ في خيل له، فوقف منه قريباً، وثبت حتى دنا منه أهلُ الشأم، فأخذت نَبلُهم تحوزُه، فقال: يابن رِزام، احمِل على هذه الرجال والخيل، فحمل عليهم حتى أمعَنوا. ثمّ جاءت خيل لهم أخرى ورَجّالة، فقال: احمل عليهم يابن ذُؤاب، فحمَل عليهم حتى أمعَنوا، وثبت لا يبرَح مِنبرَه، ودخل أهل الشأم العسكر، فكبّروا، فصَعَد إليه عبدُالله بن يزيد بن المغفَّل الأزديّ ـ وكانت مُلَيكة ابنة أخيه امرأة عبد الرحمن ـ فقال: انزل، فإني أخافُ عليك إن لم تنزل أن تؤسَر، ولعلك إن انصرفْت أن تجمع لهم جَمعا يُهلكهُم الله به بعد اليوم. فنزل وخَلّى أهل العراق العسكر، وانهزَموا لا يلوُون على شيء، ومضى عبدُ الرحمن بن محمد مع ابن جَعدة بن هُبيرة ومعه أناس من أهل بيته، حتى إذا حاذَوا قريةَ بني جَعْدة بالفَلّوجة دعوا بمِعبَر، فعَبَروا فيه، فانتهى إليهم بسطام بنُ مَصقَلة، فقال: هل في السفينة عبدُ الرحمن بن محمد؟ فلم يكلّموه، وظنّ أنه فيهم، فقال:

لا وألَتْ نفس عليها تُحاذِرُ

ضَرَّمَ قَبْسٌ عليَّ البِلا دَ حتى إذا اضطَرَمت أجْذَما

ثم جاء حتى انتهى إلى بيته وعليه السلاح، وهو على فرسه لم يَنزِل عنه، فخرجتْ إليه ابنتُه فالتزمها،

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٥.

وخرج إليه اهلُه يبكون ، فأوصاهم بوصيّة وقال : لا تَبكُوا ، أرأيتم إن لم أترُكْكم ، كم عسَيتُ أن أبقَى معكم حتى أموت ! وإن أنا مَتّ فإن الذي رَزَقكم الآن حيٌّ لا يموت ، وسيَرْزقكم بعدَ وفَاتي كما رَزَقَكم في حياتي ، ثمّ ودّع أهلَه وخرج من الكُوفة .

قال أبو مِخنَف : فحدّثني الكلبيّ ، محمد بن السائب ، أنهم لما هُزِموا ارتفاع النهار حين امتدّ ومَتَع ، قال : جئت أشتدّ ومعي الرمح والسيف والتُّرس حتى بلغتُ أهلي من يومي ، ما ألقيتُ شيئاً من سلاحي ، فقال الحجاج: اتركوهم فليتبدّدوا ولا تتبعوهم، ونادى المنادي : مَن رجع فهو آمِن. ورجع محمد بن مروان إلى الموصل ، وعبدالله بن عبد الملك إلى الشأم بعد الوقعة ، وخلّيا الحجّاج والعراق ، وجاء الحجّاج حتى دخل الكوفة ، وأجلس مَصقَلة بن كرب بن رَقَبة العبدّي إلى جَنْبه وكان خطيباً، فقال : اشتم كلَّ امرىء بما فيه ممّن كُنّا أحسنا إليه ، فاشتمه بقّلة شكره ، ولؤم عهده ، ومن علمتَ منه عيباً فعبْه بما فيه ، وصغّرْ إليه نفسَه . وكان لا يبايعه أحدٌ إلّا قال له : أتشهد أنك قد كفرتَ ؟ فإذا قال : نعم ، بايَعه وإلّا قَتَله ، فجاء إليه رجل من خَثْعم قد كان مُعتزِلاً للناس جميعاً من وراء الفُرات ، فسأله عن حاله فقال : ما زلتُ معتَزلا وراءَ هذه النَطفة ، منتظراً أمرَ الناس حتى ظهرتَ ، فأتيتُك لأبايعَك مع الناس ، قال : أمتربِّص ! أتَشْهَد أنك كافر ؟ قال : بئسَ الرّجل أنا إن كنتُ عبدتُ اللهّ ثمانين سنةً ثمّ أشهد على نفسي بالكفر؛ قال : إذاً أقتُلَكَ ، قال : وإن قتلتَني فوالله ما بقي من عُمْري إلا ظِمءُ حِمار ، وإني لأنتظر الموتَ صباحَ مساءَ ، وقال : اضِربوا عنقه ، فضُربتْ عنقه ، فزَعَموا أنه لم يبق حولَه قرشيّ ولا شاميّ ولا أحد من الحزْبَيْن إلّا رحمه ورَثى له من القَتْل .

ودَعَا بكُميل بن زياد النَّخعيّ ، فقال له ؛ أنت المقتصّ من عثمانَ أمير المؤمنين ؟ قد كنت أحبّ أن أجدَ عليك سبيلا ، فقال : والله ما أدري على أينّا أنتَ أشدّ غضباً ؟ عليه حين أقادَ من نفسه ، أم عليّ حين عفوتُ عنه ؟ ثم قال : أيّها الرجل من ثَقيف ، لا تَصرِف عليَّ أنيابَك ، ولا تهدِّم عليَّ تهدُّم الكَثِيب، ولا تكشِرْ كَشَرانَ الذئب ، والله ما بقي من عمري إلاّ ظَمءُ الحمار ، فإنه يشرب غُدوةً ويموت عشيّة ، ويشرب عشيّة ويموت غُدوة، اِقض ما أنتَ قاض فإنّ الموعدَ اللّهُ، وبعد القتل الحساب. قال الحجاج: فإنّ الحْجة عليك، قال: ذلك إن قال: إن كان القضاء إليك، قال: بلى، كنت فيمن قتل عثمانَ، وخلعتَ أميرَ المؤمنين، اقتلوه. فقُدِّم فقُتل، قَتَله أبو الجَهْم بن كنانة الكلبيّ من بني عامر بن عوف، ابن عمّ منصور بن جمهور.

وأتي بآخرَ من بعده ، فقال الحجّـاج : إني أرى رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه بالكُفر ، فقـال : أخَادِعي عن نفسي ! أنا أكفَر أهل الأرض ، واكفَر من فرعون ذي الأوتاد ، فضحك الحجّاج وخلّى سبيلَه .

وأقام بالكوفة شهراً ، وعَزَل أهلَ الشأم عن بيوت أهل الكوفة .

وفي هذه السنة كانت الوقعة بمَسْكِن بين الحجّاج وابن الأشعث بعدما انهزم من دير الجماجم .

ذكر الخبر عن سبب هذه الوقعة وعن صفتها :

قال هشام : حدّثني أبو مِخنَف ، عن أبي يزيد السَّكْسَكيّ ، قال : خرج محمّد بن سعد بن أبي وَقّاص بعد وقْعة الجماجم حتى نزل المدائن ، واجتمع إليه ناسٌ كثير ، وخرج عبيدالله بن عبدالرحمن بن سمُرة بن حبيب بن عبـد شمس القُرشيّ حتى أتى البَصـرة وبها أيّـوب بن الحَكَم بن أبي عقيل ، ابن عمّ الحجـاج ، فـأخذها ، وخرج عبدالرحمن بن محمد حتى قدم البَصرة وهو بها ، فاجْتَمَعَ الناسُ إلى عبد الرحمن ونزل ، فأقبل عُبيد الله حينئذ إلى ابن محمد بن الأشعث، وقال له: إني لم أرِد فِـراقَك ، وإنما أخذتها لك. وخرج

الحجاج فبدأ بالمدائن، فأقام عليها خمساً حتى هيأ الرجال في المعابر، فلما بلغ محمد بن سعد عبورُهم إليهم خرجوا حتى لحِقوا بابن الأشعث جميعاً، وأقبَل نحوَهم الحجاج، فخرج الناسُ معه إلى مِسكِن على دُجيل، وأتاه أهلُ الكوفة والفُلول من الأطراف، وتَلاوم الناسُ على الفِرار، وبايع أكثرهم بِسطام بن مَصقَلة على الموت، وخندقَ عبدُ الرحمن على أصحابه، وبَشَق الماء من جانب، فجعل القتال من وجه واحد، وقدم عليه خالد بن جرير بن عبدالله القَسْريّ من خُراسان في ناس من بَعْث الكوفة، فاقتَتَلوا خمسَ عشرة ليلةً، من شعبان أشدَّ القتال حتى قُتل زيادُ بن غُنيم القَينيّ، وكان على مَسالِح الحجاج، فهدّه ذلك وأصحابَه هدّاً شديداً.

قال أبو مِخنَف : حدّثني أبو جَهْضَم الأزْديّ ، قال : بات الحجّاج ليلَه كلَّه يسير فينا قول لنا : إنكم أهل الطاعة ، وَهم أهل المعصية ، وأنتم تسعَوْن في رضوان الله ، وهم يَسعَون في سُخْط الله ، وعادة الله عندكم فيهم حَسنَة ؛ ما صدقتُموهم في موطِن قطّ ، ولا صبرتُم لهم إلاّ أعقَبَكم الله النصرَ عليهم والظفَر بهم ؛ فأصبِحوا إليهم عادِين جادّين، إني لست أشكّ في النصر إن شاء الله .

قال : فأصبِحنا ، وقد عبّأنا في السَّحَر ، فباكرناهم فقاتَلْناهم أشد قتال قاتلناهُمُوه قطّ ، وقد جاءنا عبدُالملك بن المهلب مجفّفا ، وقد كُشفتْ خيل سُفيان بن الأبرد ، فقال له الحجاج : ضمّ إليك يا عبدالملك هذا النّشَر لعلي أحمل عليهم، ففعَل ، وحمل الناسُ من كلّ جانب ، فانهزم أهلُ العراق أيضاً ، وقتِل أبو البَخْتريّ الطائي وعبدالرحمن بن أبي ليلى ، وقالا قبل أن يُقتَلا : إنّ الفِرار كلّ ساعة بنا لَقبيح . فأصيبا .

قال : ومشى بَسطام بن مَصقَلة الشيبانيّ في أربعة آلاف من أهل الحفَاظ من اهل المصرَيْن ، فكَسروا جفونَ السيوف ، وقال لهم ابن مَصقَلة : لو كنا إذا فررنا بأنفسنا من الموت نجوْنا منه فرَرنا ، ولكنا قد علمنا أنه نازل بنا عما قليل ، فأين المَحيد عما لا بدّ منه ! يا قوم إنكُم مُحِقون ، فقاتلوا على الحقّ ، والله لو لم تكونوا على الحقّ لكان موتٌ في عزّ خيراً من حياة في ذُل . فقاتَل هو وأصحابُه قتالا شديداً كَشَفوا فيه أهلَ الشأم مراراً ، حتى قال الحجّاج : عليّ بالرماة لا يقاتلهم غيرُهم ، فلما جاءتْهم الرّماة وأحاطَ بهم الناس من كلّ جانب قُتلوا إلا قليلاً ، وأخذ بكير بن ربيعة بن ثَرْوان الضّبيّ أسيراً ، فأتِيَ به الحجّاج فقتله .

قال أبو مِخنَف : فحدّثني أبو الجَهْضَم ، قال : جئت بأسير كان الحجّاج يعرفه بالبأس ، فقال الحجاج : يا أهل الشأم ، إنه من صُنْع الله لكم أنّ هذا غلام من الغِلْمان جاء بفارس أهل العراق أسيراً ، اضرب عنقَه ، فقتله .

قال : ومضى ابن الأشعث والفَلّ من المنهزمين معـه نحو سَجِسْتـانَ فأتْبَعهم الحجّـاج عمارة بن تميم اللخميّ ومعه ابنه محمد بن الحجّاج وعمارة أميرٌ على القوم ، فسار عمارة بن تميم إلى عبـدالرّحمن فـأدركه بالسوس ، فقاتَلَه ساعـةً من نهار ، ثمّ إنه انهزَم هـو وأصحابـه فمضَوا حتى أتَـوا سابـور ، واجتمعت إلى عبد الرحمن بن محمد الأكرادُ مع من كان معه من الفُلول، فقَاتَلَهم عمارة بن تميم قتالاً شديداً على العَقَبة حتى جُرِح عمارة وكثيرٌ من أصحابه، ثمّ انهزم عمارة وأصحابه وخلَّوْا لهم عن العقبة، ومضى عبدُ الرحمن حتى مرّ بكَرمان.

قال الواقديّ : كانت وقعة الزاوية بالبَصرة في المحرّم سنة ثلاث وثمانين .

قال أبو مِخنَف : حدّثني سيف بن بِشر العِجْليّ ، عن المنخّـل بن حابس العبـديّ ، قال : لما دخل عبدالرحمن بن محمد كَرْمان تلقاه عَمرو بن لَقيط العبديّ ـ وكان عامَله عليها ـ فهيأ له نُزُلا فَنَزَل ، فقال له شيخ من عبد القَيس يقال له مَعقِل : والله لقد بَلَغنا عنك يابن الأشعث أن قد كنت جَباناً ، فقال عبدُالرحمن : والله

ما جَبُنْتُ ، والله لقد دَلَفْتُ الرّجال بالرّجال ، ولففت الخيلَ بالخيل ، ولقد قاتلتُ فارساً ، وقاتلت راجلاً ، وما انهزمتُ ، ولا تركتُ العرْصة للقوم في مَوْطِن حتى لا أجد مُقاتلا ولا أرى معي مُقاتِلا ، ولكني زاولتُ مُلْكا مؤجلا . ثمّ إنه مضى بمن معه حتى فوّز في مَفازة كرْمان.

قال أبو مِخنَف : فحدّثني هشام بن أيوّبَ بن عبدالرحمن بن أبي عَقيل الثقفيّ ، قال : لما مضى ابن محمد في مفازه كَرمان وأتْبعه أهلُ الشأم دخل بعضُ أهل الشأم قصراً في المَفازة ، فإذا فيه كتاب قد كَتَبه بعضُ أهل الكوفة من شِعرْ أبي جلدة اليَشكُريّ ، وهي قصيدة طويلة :

أيـا لَـهْفـاً ويـا حَـزَنـاً جـمـيـعـاً ... ويـا حَـرَّ الـفـؤاد لِـمَـا لَـقِـيـنَـا !
تـركـنـا الـدّينَ والـدنـيـا جميعـاً ... وأسـلمْـنـا الـحـلائـلَ والـبـنـيـنـا
فـمـا كـنّـا أُنـاسـاً أهـل ديـنٍ ... فَـنَصبِـرَ في الـبـلاءِ إذا ابـتـلـيـنـا
ومـا كـنَّـا أنـاسـاً أهـل دنْـيَـا ... فـنـمْـنَـعَـهـا وَلَـوْ لَـمْ نـرجُ ديـنـا
تـركـنـا دُورنـا لـطَغَـامِ عَـكٍّ ... وأنـبـاطِ الـقُـرَى والأشـعَـريـنـا

ثمّ إنّ ابن محمد مضى حتى خرج على زَرَنْج مدينة سِجِسْتان ، وفيها رجل من بني تميم قد كان عبدالرحمن استعمَلَه عليها ، يقال له عبدالله بن عامر البّعار من بني مُجَاشع بن دارِم فلما قَدِم عليه عبدالرحمن بن محمد منهزماً أغلقَ باب المدينة دونَه ، ومنعه دخولَها ، فأقام عليها عبدالرحمن أياماً رجاءَ افتتاحها ودخولها . فلما رأى أنه لا يصل إليها خرج حتى أتى بُسْتَ ، وقد كان استعمل عليها رجلا من بكر بن وائل يقال له عِياض بن هِمْيان أبو هشام بن عياض السدوسيّ ، فاستقبَلَه ، وقال له : انزِل ، فجاءحتى نزل بـه ، وانتظر حتى إذا غفَـل أصحاب عبد الرحمن وتفرّقوا عنه وثب عليه فأوثَقَه ، وأراد أن يأمنَ بها عند الحجّاج ، ويتخذ بها عندَه مكاناً .

وقد كان رُتبيل سمع بمقدم عبدالرّحمن عليه ، فاستقبله في جنوده ، فجاء رُتْبيل حتى أحاط ببُسْت، ثمّ نزل وبعث إلى البكريّ ، والله لئن آذَيتَه بما يُقذِي عينَه ، أو ضررته ببعض المضرّة ، أورزأته حَبْلا من شَعَر لا أبرح العَرْصة حتى أستنزِلَك فأقتُلك وجميعَ من معك ، ثمّ أسبي ذراريَّكم ، وأقسِّم بين الجند أموالَكم . فأرسل إليه البكريّ أن أعطنا أماناً على أنفسِنا وأموالنا ، ونحن ندفعه إليك سالماً وما كان له من مال مُوَفّراً . فصالحهم على ذلك ، وآمنهم ، ففَتَحوا لابن الأشعث الباب وخلّوا سبيلَه ، فأتى رُتْبيل فقال له : إنّ هذا كان عاملي على هذه المدينة ، وكنتُ حيث ولّيته واثقابه ، مطمئناً إليه ، فغَدَرَ بي وركب مني ما قد رأيتَ ، فأذن لي في قتْله ، قال : قد آمنتُه وأكرَه أن أغدر به ، قال : فأذْن لي في دفْعه وَلهزِه ، والتصغير به ، قال : أمّا هذا فنعم ، ففعَل به عبدُالرحمن بن محمد ، ثمّ مضى حتى دخل من رُتْبيل بلاده ، فأنزله رُتْبيل عنده وأكرمه وعظّمه ، وكان معه ناس من الفَلّ كثير .

ثمّ إن عُظم الفُلول وجماعةَ أصحاب عبدالرحمن ومن كان لا يرجو الأمان ، من الرؤوس والقادة الذين نصبوا للحجّاج في كلّ موطن مع ابن الأشعث ، ولم يَقبَلوا أمانَ الحجّاج في أوّل مرّة ، وجهَدوا عليه الجهْد كلَّه ، أقبلوا في أثر ابن الأشعث وفي طلبه حتى سَقَطوا بَسجستان،فكان بها منهم وممن تَبِعهم من أهل سِجِسْتان وأهل البلد نحو من ستّين ألفاً ، ونزلوا على عبدالله بن عامر البعّار فحصروه ، وكَتَبوا إلى عبدالرحمن يخبرونه بقـدومِهم وعدَدهم وجمـاعتِهم ، وهو عنـد رُتبيل . وكـان يصلي بهم عبـدالرحمن بن العبـاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، فكَتَبوا إليه : أن أقبِلْ إلينا لعلنا نسير إلى خُراسان ، فإنّ بها منا جُنْدا عظيماً ، فعلّهم

يبايعوننا على قتال أهلِ الشأم ، وهي بلادٌ واسعة عريضة ، وبها الرّجال والحُصون . فخرج إليهم عبد الرحمن بن محمد بمن معه ، فحصروا عبدالله بن عامر البعّار حتى استنزلوه ، فأمر به عبدالرحمن فضُرب وعُذب وحُبِس . وأقبل نحوَهم عمارة بن تميم في أهل الشأم ، فقال أصحابُ عبد الرحمن بن محمد لعبد الرحمن : اخرُج علينا عن سِجِستَانَ فلندعها له ونأتي خُراسان ، فقال عبدُ الرحمن بن محمد : على خُراسان يزيد بن المهلب ، وهو شابٌ شجاع صارم ، وليس بتارك لكمْ سلطانَه ، ولو دخلتموهَا وجدتموه إليكم سريعاً ، ولن يدع أهل الشأم اتّباعكم ، فأكره أن يجتمعَ عليكم أهلُ خُراسان وأهل الشأم ، وأخاف ألّا تنالوا ما تَطلبون ، فقالوا : إنما أهل خُراسانَ منّا ، ونحن نرجو أن لو قد دخلناها أن يكون من يتبعنا منهم أكثر ممن يقاتلنا ، وهي أرضٌ طويلة عريضة ننتجِي فيها حيث شئنا ، ومكث حتى يُهلَكَ اللّه الحجّاج أو عبد الملك ، أو نرى من رأينا . فقال لهم عبد الرحمن : سيرُوا على اسم اللّه .

فساروا حتى بلغوا هَراةَ ، فلم يشعُروا بشيء حتى خرج من عسكره عُبيدالله بنُ عبدالرحمن بن سَمُرة القرشيّ في ألفين ، ففارقَه ، فأخذ طريقاً سوى طريقهِم ، فلمّا أصبح ابن محمد قام فيهم فحَمِد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال :

أما بعد ، فإني شهدتكم في هذه المَواطن ، وليس فيها مَشهدَ إلّا أصبر لكم فيه نفسي حتى لا يَبقَى منكم فيه أحد ، فلما رأيتُ أنكم لا تقاتلون ، ولا تَصبرون ، أتيتُ ملجأ ومَأمناً فكنتُ فيه ، فجاءتْني كتُبكم بأن أقبِل إلينا ، فإنا قد اجتمعْنا وأمرُنا واحد ، لعلنا نقاتل عدّونا ، فأتيتكم فرأيت أن أمضي إلى خُراسان ، وزعمتم أنكم مجتمعون لي ، وأنكم لن تفرّقوا عني ، ثمّ هذا عبيدالله بن عبد الرّحمن قد صنع ما قد رأيتم ، فَحسبي منكم يومي هذا فاصنعوا ما بدا لكم ، أما أنا فمنصرف إلى صاحبي الذي أتيتكم من قبَله ، فمن أحبّ منكم أن يتّبعني فليتّبعْني ، ومن كَرِه ذلك فليذهبْ حيث أحبّ في عياذ من الله .

فتفرّقتْ منهم طائفة ، ونزلتْ معه طائفة ، وبقي عُظْم العسكر ، فوثَبوا إلى عبدالرحمن بن العبّاس لما انصرفَ عبدُالرحمن ، فبايعوه . ثمّ مضى ابن محمد إلى رُتبيل ومضَوا هم إلى خُراسان حتى انتهوا إلى هَرَاةَ ، فلقوا بها الرّقاد الأزديّ من العَتيك ، فقَتلوه ، وسار إليهم يزيد بن المهلب .

وأما علي بن محمد المدائنيّ فإنه ذكر عن المفضّل بن محمد أن ابن الأشعث لما انهَزَم من مَسكِن مضى إلى كابُل ، وأنّ عبيدالله بن عبدالرحمن بن سَمُرة أتى هَراةَ ، فذّم ابن الأشعث وعالَه بفراره ، وأتى عبد الرّحمن بن عباس سجستان فانضم إليه فلّ ابنِ الأشعث ، فسار إلى خُراسانَ في جمع يقال عشرين ألفاً ، فنَزَل هَراةَ ولقوا الرُّقّاد بن عبيد العَتَكي فَقتلوه ، وكان مع عبد الرحمن من عبد القيس عبد الرحمن بن المنذر بن الجارود ، فأرسل إليه يزدُ بن المهلّب : قد كان لك في البلاد متَّسعٌ ، ومن هو أكّل مني مدّاً وأهوَنُ شوْكه ، فارتحِلْ إلى بلد ليس فيه سلطان ، فإني أكره قِتالَك ، وإن أحببتَ أن أمِدَّك بمال لسفرِك اعنتك به ، فأرسَلَ إليه : ما نزلنا هذه البلادَ لمحاربة ولا لمقام ، ولكنا أردنا أن نريحَ ، ثمّ نَشخَص إن شاء الله ، وليس بنا حاجةٌ إلى ما عرضتَ .
فانصرَفَ رسولُ يزيدَ إليه ، وأقبل الهاشميّ على الجباية ، وبلغ يزيدَ ، فقال : من أراد أن يُريحَ ثمّ يجتازَ لم يجْب الخَراجَ ، فقدّم المفضّل في أربعة آلاف ـ ويقال في ستة آلاف ـ ثم أتبعه في أربعة آلاف ، ووزَن نفسَه بسلاحِه ، فكان أربعمائة رطل ، فقال : ما أراني إلّا قد ثَقُلت عن الحرب ، أيّ فرس يحملني! ثمّ دعا بفرسه الكامل فرَكبه ، واستخلَف على مروَ خالَه جُدَيع بن يزيد ، وصيّر على مَرْوَ الرُّوذ ، فأتى قبرَ أبيه فأقام عندَه ثلاثة أيام ، وأعطى من

معه مائةَ دِرهم مائةَ دِرهم، ثمّ أتى هراةَ فأرسل إلى الهاشميّ: قد ارحْت واسمنْت وجَبيْتَ، فلك ما جبَيْتَ، وإن أردت زيادةً زدناك، فاخرج فوالله ما أحبّ أن اقاتلَك. قال: فـأبى إلاّ القتالَ ومعـه عُبيدالله بن عبـد الرحمن بن سَمُرة، ودسَّ الهاشميّ إلى جندِ يزيدَ يمنّيهم ويدعوهم إلى نفسِه، فأخبر بَعضهم يزيدَ، فقال: جَلَّ الأمرُ عن العتاب، أتغدَّى بهذا قبل أن يتعشّى بي، فسار إليه حتى تدانى العسكران، وتأهّبوا للقتال، وأُلقِيَ ليزيدَ كرسيّ فقعد عليه، وولَّى الحربَ أخاه المفضّل، فأقبل رجلٌ من أصحاب الهاشميّ ـ يقال له خُليد عَيْنَيْن من عبد القيس ـ على ظَهْر فَرسه، فرفع صوتَه فقال:

دَعتْ يـا يَـزِيـدَ بنَ المهـلّب دَعَـوْةً ... لهـا جَـزَعٌ ثم استهـلّتْ عُيُـونُـهـا
ولـو يُسمِـع الـداعي النِّداءَ أجـابَها ... بِصُمّ القَنَـا والبيض تُلْقَى جفُـونُها
وقـد فَـرَّ أشـرافُ العِـراق وغـادَرُوا ... بهـا بقَـراً للحيْـن جُمًّـا قُـرونُـهـا

وأراد أن يحضّ يزيد: فكست يزيدُ طويلا حتى ظنّ الناس أن الشِّعر قد حرّكه، ثمّ قال لرجل: نادِ وأسمعْهم، جَشّموهم ذلك، فقال خُلَيد:

لبئس المنـادِي والمنـوَّهُ بـاسمِـه ... تُنَـادِيـهِ أبكـارُ العِـراقَ وَعُـونُها
يَـزِيـدُ إذا يُـدعَـى لِيَـوْم حَـفيـظَةٍ ... ولا يَمْنَـعُ السَّوْآتِ إلاّ حُصُـونـهـا
فـإنـيّ أراه عـن قـليـلٍ بـنـفسِـهِ ... يُـدانُ كمـا قـد كـان قَبْـلُ يَـدِينُهـا
فـلا حُـرَّةٌ تَـبكِيـهِ لـكنْ نـوَائـحٌ ... تُبكّي عليـه البُقْـعُ منهـا وَجُـونُهـا

فقال يزيدُ للمفضّل: قدِّم خليلَك، فتقدّم بها، وتهايجوا فلم يكن بينهم كبيرُ قتال حتى تفرّق الناس عن عبدالرحمن، وصبر وصبرتْ معه طائفةٌ من أهل الحِفاظ، وصبر معه العبديّون، وحمل سعد بن نجد القُرْدوسيّ على حُلَيس الشيبانيّ وهو أمام عبدالرحمن، فطعنه حُلَيس فأذراه عن فرسه، وحماه أصحابُه، وكثرهم الناس فانكشفوا، فأمر يزيدُ بالكَفّ عن اتباعهم، وأخذوا ما كان في عسكرهم، وأسَروا منهم أسرَى، فولى يزيدُ عطاءَ بنَ أبي السائب العسكر، وأمَرَه بضمّ ما كان فيه، فأصابوا ثلاثَ عشرة امرأة، فأتوا بهنّ يزيدَ، فدفعهن إلى مرّة بن عطاء بن أبي السائب، فحملَهنّ إلى الطَّبَسَين، ثم حملهنّ إلى العراق. وقال يزيد لسعد بن نجد: من طَعَنك؟ قال: حليس الشيبانيّ، وأنا والله راجلا أشدّ منه وهو فارس. قال: فبلغ حُليساً، فقال: كذب والله، لأنا أشدُّ منه فارساً وراجلاً. وهـرب عبدالـرحمن بن منذر بن بِشر بن حـارثة فصـار إلى موسى بن عبدالله بن خازم قال: فكان في الاسر محمد بن سعد بن أبي وقـاص وعمر بن مـوسى بن عبدالله بن مَعمَـر وعيّاش بن الأسود بن عوف الزّهريّ، والهلقام بن نُعيم بن قعبد بن زُرارة، وفيروز حصين، وأبو العِلْج مولَى عُبيدِالله بن معمر، ورجل من آل أبي عَقيل، وسَوّار بن مروان، وعبد الرحمن بن طلحة بن عبدالله بن خَلف، وعبدالله بن فَضالة الزّهرانيّ. ولحق الهاشميّ بالسِّند، وأتى ابن سمرة مروَ، ثمّ انصرف يزيدُ إلى مروَ وبعث بالأسرى إلى الحجاج مع سَبْرة بن نَخْف بن أبي صُفْرة، وخلى عن ابن طلحة وعبدالله بن فضَالة، وسعى قومٌ بعُبيدالله بن عبد الرحمن بن سَمُرة، فأخذه يزيدُ فحبسه.

وأمّا هشام فإنه ذكر أنه حدّثه القاسم بن محمد الحضرميّ، عن حفص بن عمرو بن قَبيصة، عن رجل من بني حنيفة يقال له جابر بن عمارة، إنّ يزيدَ بنَ المهلب حبس عندَه عبدَالرحمن بن طلحة وآمنه، وكان الطلحيّ قد آلَى على يمينٍ ألا يَرَى يزيدَ بن المهلَب في موقف إلا أتاه حتى يقبِّل يدَه شكراً لما أبْلاه. قال: وقال

محمد بن سعد بن أبي وقاص ليزيدَ : أسألك بدعوة أبي لأبيك ! فخلِّ سبيلَه . ولقول محمد بن سعد ليزيدَ : « أسألك بدعوةِ أبي لأبيك » حديثٌ فيه بعض الطول .

قال هشام : حدّثني أبو مِخْنَف : قال : حدّثني هشام بن أيوب بن عبدالرحمن بن أبي عَقِيل الثقفيّ ، قال : بعث يزيدبن المهلب ببقية الأسرى إلى الحجاج بن يوسف ، بعمَر بن موسى بن عُبيد اللهّ بن مَعمَر ، فقال : أنت صاحبُ شرطة عبد الرحمن ؟ فقال : أصلح الله الأمير ! كانت فتنةٌ شملت البَرَّ والفاجر ، فدخلنا فيها ، فقد أمكَنَك الله منا ، فـإنْ عفوتَ فبحلمـك وفضلِك ، وإنْ عاقبْت عـاقبتَ ظَلَمَةمـذنِبين ، فقـال الحجاج : أما قولك : « إنها شمِلتَ البرّ والفاجرَ » فكذبتَ ، ولكنها شملت الفُجّارَ ، وعوفي منها الأبرار ، وأما اعترافك بذَنْبك فعسى أن ينفَعك . فعزُل ، ورجا الناس له العافية حتى قُدم بالهلقام بن نعيم ، فقال له الحجّاج : أخبرْني عنك ، ما رجوتَ من إتباع عبدالرحمن بن محمد ؟ أرجوتَ ان يكون خليفةً ؟ قال: نعم ، رجوتُ ذلك ، وطمِعت أن يُنزلني منزلَتك من عبدالملك ، قال : فغضب الحجّاج وقال : اضربـوا عنقَه ، فقُتل .

قال : ونظر إلى عمرَ بن موسى بن عبيدالله بن معْمَر وقد نُحِّي عنه فقال : اضربُوا عُنقَه ، وقتل بقيّتهم . وقد كان آمن عَمرو بن أبي قرّة الكنديّ ثمّ الحجْريّ وهو شريف وله بيتٌ قديم ، فقال : يا عمرو ، كنت تُفضي إليّ وتحدّثني أنك تـرغب عن ابن الأشعث وعن الاشعث قبله ، ثمّ تبعتَ عبدالـرّحمن بن محمد بن الأشعث ، والله ما بك عن اتّباعهم رغبةٌ ، ولا نَعمةَ عين لك ولا كرامة .

قال : وقد كان الحجّاج حينَ هُزِم الناس بالجماجم نادى مناديه : مَن لحِق بقتَيْبة بن مسلم بالريّ فهو أمانُه ، فلحق ناسٌ كثير بقتيبة ، وكان فيمن لحق به عامر الشَّعبيّ ، فذكر الحجّاجُ الشعبيَّ يوماً فقال : أين هو ؟ وما فعل ؟ فقال له يزيد بن أبي مسلم : بلغني أيها الأمير أنه لحق بقتيبة بن مسلم بالرّيّ ، قال : فابعث إليه فلنُؤتَ به فَكَتَب الحجّاج إلى قتيبة : أما بعد ، فابعث إليّ بالشعبيّ حين تَنظُر في كتابي ، هذا ، والسّلام عليك ، فسُرّح إليه .

قال أبو مِخْنَف : فحدّثني السريّ بن اسماعيل عن الشعبي ، قال : كنتُ لابن أبي مسلم صَديقاً ، فلما قُدِم بي على الحجّاج لقيتُ ابن أبي مسلم فقلتُ : أشِرْ عليّ ، قال : ما أدري ما أشيرُ به عليك غير أن أعتَذر ما استطعت من عذر ! وأشار بمثِل ذلك عليّ نُصحَائي وإخواني ، فلما دخلتُ عليه رأيتُ والله غيرَ ما رأوا لي ، فسلّمت عليه بالأمرة ، ثم قلت: أيّها الأمير ، إنّ الناس قدْ أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يَعلم اللهّ أنه الحقّ ، وأيمُ الله لا أقول في هذا المقام ألاّ حَقّاً ، قد والله سوّدنا عليك ، وحرّضنَا وجهدنا عليك كلّ الجهـد ، فما آلونا ، فما كنا بالأقوياء الفَجَرة ، ولا الاتقياء البرَرَة ، ولقد نصرك الله علينا ، وأضفَرَكَ بنا ، فإن سطوتَ فبذُنوبنا وما جَرّت إليه أيدينا ، وإن عفوتَ عنا فبحلمك ، وبعد الحجة لك علينا ، فقال له الحجاج : أنت واللهّ أحبّ إليّ قولا ممن يدخل علينا يَقطر سيفُه من دمائنا ثمّ يقول : ما فعلتُ ولاشهدتُ ، قد أمِنتَ عندنا يا شَعبيُّ ، فانصرِفْ . قال : فانصرفتُ ، فلما مَشيتُ قليلا قال : هلمّ يا شعبيّ ، قال : فوَجِل لذلك قلبي ، ثمّ ذكرتُ قولَه : « قد أمِنْتَ يا شَعبيّ » فاطمأنت نفسي ، قال : كيف وجدت الناس يا شَعبيّ بعدنا ؟ قال ـ وكان لي مكرماً : فقلتُ : أصلَح الله الأمير ! اكتحلتُ والله بعدَك السَّهَر ، واستوعَرْتُ الجَناب ، واستحلَسْتُ الخوف ، وفقدْتُ صالح الاخوان ، ولم أجد من الأمير خَلَفا . قال : انصرِف يا شعَبيّ ، فانصرَفْتُ .

قال أبو مِخْنَف : قال خالد بن قَطَن الحارثيّ : أتِيَ الحجّاجُ بالأعشى ، أعشىَ هَمْدانَ ، فقال : أيه يا عدوُ

الله ! أنشِدْني قولَك : « بين الأشجّ وبين قيس » ، أنفِذْ بيتَك ، قال : بل أنشُدُك ما قلتُ لك ، قال : بل أنشدْني هذه ، فأنشَدَه :

أبـى الله إلاّ أن يُـتَـمِّـمَ نُـورَهُ   ويُـطْفيءَ نُـورَ الفَـاسِقِينَ فَيَـخمُـدا
ويُظِهِرَ أهْلَ الحَقّ في كلّ مَـوْطِنٍ   ويُعْدِلَ وَقْعَ السَّيْفِ من كان أصيَدا
ويُـنْـزِلَ ذُلّاً بـالـعِـراقِ وأهـلِهِ   لِما نَقَضُوا العَهْدَ الوثيقَ المؤكَّدَ
وما أحْدَثوا مِنْ بِدْعَةٍ وعظيمةٍ   من القَوْلِ لم تَصْعدْ إلى الله مَصْعدا
ومَا نكَثوا مِنْ بَيْعةٍ بعْد بَيْعةٍ   إذَا ضَمِنُوها اليَوْمَ خَاسُوا بها غَدَا
وجُبْناً حَشاهُ رَبُهمْ في قلوبِهِمْ   فما يقْرَبونَ الناس إلا تَهدُّدا
فَلا صِدْقَ في قَولٍ ولا صَبْرَ عِنْدَهمْ   ولكِنَّ فخراً فيهِمُ وتَزيُّدا
فكَيْفَ رأيت اللّهَ فَرَّقَ جَمْعَهُمْ   ومَزَّقهُمْ عَرْضَ البلادِ وشَرَّدَا !
فَقَتْلاهم قَتلى ضَلالٍ وفِتْنةٍ   وحيُّهُمُ أمسى ذَلِيلا مُطرَّدا
ولما زَحَفْنَا لابنِ يُوسفَ غُدْوةً   وأبْرَقَ مِنّا العَارِضَانَ وأرْعَدا
قَطَعْنَا إليه الخندقَين وإنّما   قَطَعْنا وأفضينا إلى الموتُ مُرصِدا
فكافحنا الحجّاجُ دُونَ صُفُوفِنا   كِفاحاً وَلَمْ يضْرِبْ لذلك مَوْعِدا
بصَفٍّ كأنَّ البَرقَ في حَجَراتِهِ   إذا ما تجَلَّى بَيْضُهُ وتَوقّدا
دلَفْنَا إليه في صُفُوفٍ كأنَّها   جِبَالُ شَرَوْرَى لو تُعانُ فَتَنْهَدا
فما لَبِثَ الحجّاج أنْ سَلَّ سَيْفَهُ   علَيْنَا فولَّى جَمْعُنا وتَبَدَّدَا
وما زاحَفَ الحجّاجُ إلا رأيتَهُ   مُعَاناً مُلَقًّى لِلْفتُوحِ مُعَوَّدا
وإنَّ ابْنَ عباسٍ لفي مرجَحنَّةٍ   نُشبّهُهَا قِطْعاً من الليْلِ أسوَدا
فما شَرَعُوا رُمْحاً ولا جَرَّدُوا له   ألا رُبَّمَا لاقى الجَبانُ فَجَرَّدا
وكرَّتْ عَلَيْنَا خَيْلُ سُفْيَانَ كَرَّةً   بفُرسانها والسَّمْهريَّ مُقَصدَا
وسُفْيَان يَهْديها كأنَّ لِواءَهُ   من الطعنِ سِندٌ باتَ بالصِّبغِ مُجْسدَا
كُهولٌ ومُرْدٌ مِنْ قُضَاعَةَ حَوْلَهُ   مَسَاعيرُ أبطال إذا النِّكْسُ عَرَّدا
إذا قال شُدُّوا شَدَّةً حمَلوا مَعاً   فأنْهَلَ خِرْصانَ الرِّماح وأوردَا
جُنُودُ أَميرِ المؤمنينَ وخَيْلُهُ   وسلطَانُهُ أمسى عزيزاً مؤيَّداً
فيَهْني أميرَ المؤمنينَ ظُهُورُه   على أمة كانوا بُغاةً وحُسّدا
نزَوْا يَشتكونَ البَغْيَ من أمرائهمْ   وكانوا هُمُ أبغَى البغاةِ وأعنَدَا
وجَدْنا بَني مروَانَ خَيْرَ أئمّةٍ   وأفضلَ هذي النّاس حِلْماً وسُودَدا
وخَيْرَ قُريشٍ في قريش أرُومَةً   واكرمَهمْ إلا النبيَّ مُحَمّدا
إذا ما تَدَبَّرنا عَواقِبَ أمرِهِ   وجَدْنا أميرَ المؤمنين مُسَدَّدا
سَيُغلَب قومٌ غالبُوا اللهَ جَهرةً   وإن كايَدُوهُ كانَ أقوَى وأكْيَدا
كذاك يضِلُّ اللّهُ من كان قلبُه   مريضاً ومَنْ وَالى النِّفَاقَ وألحدَا

فقد تركوا الأهلِينَ والمالَ خلفَهُمْ ... وبِيضاً عليهِنَّ الجلابيب خُرَّدَا
يُنادينهم مُسْتَعْبِراتٍ إليهمِ ... ويُذرينَ دَمعاً في الخُدُودِ وإثمِدَا
فإلاّ تُنَاوِلْهُنَّ مِنكَ برحْمةٍ ... يكنَّ سَبايَا والبُعُولَةُ أعبُدَا
أنكثاً وعِصْياناً وغَدْراً وذِلّةً ... أهانَ الإلهُ من أهانَ وأبْعَدَا
لقد شَأم المِصْرَيْنِ فَرْخُ مُحَمدٍ ... بحقّ وما لاقى من الطَير أسْعَدَا
كما شأمَ اللهُ النُّجَيْرَ وأهلَهُ ... بجَدٍّ لهُ قد كانَ أشقى وأنكَدَا

فقال أهل الشأم : أحْسَن ، أصلح الله الأمير ! فقال الحجّاج : لا ، لم يحْسن ، إنكم لا تدرون ما أراد بها ، ثمّ قال : يا عدوّ الله ، إنا لسنا نَحْمَدُك على هذا القول ، إنما قلت : تأسفُ ألا يكون ظَهر وظَفر ، وتحريضاً لأصحابك علينا ، وليس عن هذا سألناك ، أنفذْ لنا قولَك :

بينَ الأشَجّ وبينَ قيْسٍ باذخٌ

فأنفذَهَا ، فلما قال :

بَخْ بَخْ لوالِدِه وللمَوْلودِ.

قال الحجاج : لا واللهِ لا تُبَخبِخ بعدَها لأحد أبداً ، فقدّمه فضَرَب عُنقَه .

وقد ذُكر من أمر هؤلاء الأسرى الذين أسَرَهم يزيدُ بن المهلب ووجّههم إلى الحجّاج ومن فُلول ابن الأشعث الذين انهزموا يومَ مسكِنٍ أمرٌ غيرَما ذكره أبو مِخنَف عن أصحابه . والذي ذُكِر عنهم من ذلك أنه لما انهزم ابنُ الأشعث مضى هؤلاء مع سائر الفَلّ إلى الريّ ، وقد غلب عليها عمر بن أبي الصّلت بن كنارا مولى بني نَصْر بن معاوية ، وكان من أفْرَس الناس ، فانضمّوا إليه ، فأقبَل قتيبةُ بنُ مسلم إلى الرّيّ من قِبَل الحجّاج وقد ولاّه عليها . فقال النفرُ الذين ذكرت أنّ يزيد بن المهلّب وجّههم إلى الحجّاج مقيّدين وسائر فلّ ابن الأشعث الذين صاروا إلى الريّ لعمرَ بن أبي الصّلت : نولّيك أمرنَا وتحارب بنا قتيبة ، فشاور عُمر أباه أبا الصّلت ، فقال له أبوه : والله يا بُنيّ ما كنتُ أبالي إذا سار هؤلاء تحت لوائك أن تُقتَل من غد . فعقد لواءَه ، وسار فَهزُم وهُزم أصحابه ، وانكشفوا إلى سِجِسْتان ، واجتمعتْ بها الفُلول ، وكتبوا إلى عبدالرحمن بن محمد وهو عند رُتْبيل ، ثم كان من أمرهم وأمرِ يزيدَ بن المهلب ما قد ذكرتُ .

وذكرَ أبو عبيدة أن يزيدَ لما أراد ان يوجّه الأسرى إلى الحجّاج قال له اخوه حبيب : بأيّ وجه تَنظر إلى اليمانية وقد بعثت ابن طلحة ! فقال يزيدُ : هو الحجّاج ، ولا يُتعرّض له ! وقال : وَطّن نفسَك على العَزْل ، ولا تُرسل به ، فإنّ له عندنا بلاءً ، قال : وما بلاؤه ؟ قال : لُزم المهلب في مسجد الجماعة بمائتي الف ، فأدّاها طلحة عنه. فأطلَقه ، وأرسل بالباقين، فقال الفرزدق:

وَجَد ابنُ طلحةَ يومَ لاقى قومَه ... قَحطانَ يوم هَراةَ خيرَ المعشَرِ

وقيل : إنّ الحجّاج لما أُتي بهؤلاء الاسرى من عند يزيد بن المهلب قال لحاجبه : إذا دعوتُك بسيّدهم أتني بفَيْرُوز ، فأبرز سريره ـ وهو حينئذ بواسِط القَصَب قبل أن تُبنىَ مدينة واسط ـ ثمّ قال لحاجبه : جئني بسيّدهم ، فقال لفَيروز : قم ، فقال له الحجّاج : أبا عثمان ، ما اخرجَك مع هؤلاء ؟ فوالله ما لحمُك من لحومِهم ، ولا دمُك من دمائهم ! قال : فتنةٌ عمّت الناس ، فكنّا فيها ، قال اكتبْ لي أموالَك ، قال : ثمّ

ماذا ؟ قال : اكتبها أوّل ، قال : ثمّ أنا آمِن على دمي ؟ قال : اكتبها ، ثمّ أنظُر ، قال : اكتبْ يا غلام ، ألف ألف ألفيْ ألف، فذكَر مالاً كثيراً، فقال الحجّاج: أين هذه الأموال؟ قال: عندي، قال: فأدّها، قال: وأنا آمن على دمي؟ قال: واللهِ لتؤدينها ثم لاقتلنك، قال: والله لا تَجمعَ مالي ودمي، فقال الحجّاج للحاجب: نَحِّهِ، فنحّاه.

ثمّ قال : ائتني بمحمد بن سعد بن أبي وقّاص ، فدعاه ، فقال له الحجّاج : إيهاً يا ظلّ الشيطان أعظمَ الناس تِيهاً وكبراً : تأبى بيعةَ يزيد بن معاوية ، وتشبّه بحسين وابن عُمر ، ثمّ صرتَ مؤذناً لابن كنارا عبد بني نصر - يَعْني عمر بن أبي الصَّلت - وجعل يَضرِب بعُود في يده رأسَه حتى أدماه ، فقال له محمد : أيها الرجل ، مَلكْتَ فأسجحْ ! فكفّ يده ، فقال : إنّ رأيتَ أن تكتبَ إلى أمير المؤمنين فإن جاءك عفوٌ كنتَ شريكاً في ذلك محموداً ، وإن جاءك غيرُ ذلك كنتَ قد أعذَرتَ . فأطرق مَليًّا ثمّ قال: اضرب عنقَه ، فضُربت عنقُه .

ثمّ دعا بعمر بن موسى فقال : يا عبد المرأة ، أتقوم بالعَمود على رأس ابن الحائك ، وتَشرَب معه الشراب في حمّام فارسَ ، وتقول المقالَة التي قلت ! أين الفرزدق ؟ قم فأنشِدْه ما قلت فيه ، فأنشَدَه :

وخَضَبْتَ أَيْرَكَ للزِّناءِ ولم تكنْ يومَ الهِياجِ لِتَخْضِبَ الأبطالا

فقال : أما واللّهِ لقد رفعتُه عن عقائِل نِسائك ، ثمّ أَمَر بضَرْب عِنقه .

ثمّ دعا ابن عبيد اللّهِ بن عبد الرحمن بن سُمرة ، فإذا غُلام حَدَث ، فقال : اصلَحَ الله الأمير ! ما لي ذنبٌ ، أنما كنت غلاماً صغيراً مع أبي وأمي لا أمرَ لي ولا نهيْ ، وكنت معهما حيث كانا ، فقال : وكانت أُمُّك مع أبيك في هذه الفِتن كلّها ؟ قال : نعم ، قال على أبيك لعنةُ اللّهِ .

ثمّ دعَا بالهِلْقام بن نعيم فقال : اجعل ابنَ الاشعث طَلَب ما طَلَب ، ما الذي أمّلت أنتَ معه ؟ قال : أمّلتُ أن يملك فيولّيني العراقَ كما ولّاك عبدُ الملك . قال : قم يا حَوْشَب فاضربْ عنقَه ، فقام إليه ، فقال له الهِلْقام : يابن لقيطة ، أتَنكَأ القرح ! فضرب عنقه .

ثمّ أتى بعبدالله بن عامر، فلما قام بين يديه قال: لا رأتْ عيناك يا حجّاج الجنة إن أقلتَ ابنَ المهلب بما صَنَع، قال: وما صَنَع؟ قال:

لأنّه كاسَ في إطلاقِ أسرَتِهِ وقادَ نحوَكَ في أغلالها مُضَرا
وَقَى بقومِكَ وِرْد الموتِ أسرَتَه وكان قومُك أدنى عندَه خَطَرا

فأطرَق الحجّاج مَلِيًّا ووَقرَتْ في قلبه، وقال: وما أنت وذاك! اضرب عنقَه. فضُربتْ عنقُه. ولم تزل في نفس الحجّاج حتى عَزَل يزيدَ عن خُراسان وحبَسَه.

ثمّ أمر بفَيْروزَ فعذّب ، فكان فيما عُذّب به أن كان يُشدّ عليه القصب الفارسيّ المشقوق ، ثم يجرّ عليه حتى يخرّق جسدَه ، ثم يُنْضَح عليه الخَلّ والمِلح ، فلما أحسّ بالموت قال لصاحب العذاب : إن الناس لا يَشُكّون أني قد قُتلتُ ، ولي ودائع وأموال عند الناس ، لا تودّى إليكم أبداً ، فأظهروني للناس لِيعلَموا أني حيّ فيؤدّوا المالَ . فأعلِم الحجّاج ، فقال : أظهروه ، فأخرِج إلى باب المدينة ، فصاحَ في الناس : مَنْ عرفني فقد عَرَفني ، ومن أنكَرني فأنا فيروزُ حصين ، إنّ لي عند اقوام مالاً ، فمن كان لي عندَه شيء فهو له ، وهو منه في حلّ ، فلا يؤدينّ منه أحد درهماً ، ليُبلغ الشاهدُ الغائبَ . فأمر به الحجّاج فقُتل . وكان ذلِك ممّا رَوَى الوليدُ بن

هشام بن قحذَم ، عن أبي بكر الهُذَلي .

وذكر ضَمْرة بن ربيعة ، عن أبي شَوْذب ، أنّ عمّال الحجّاج كتبوا إليه : إنّ الخَراج قد انكسر ، وإنّ أهلَ الذمّة قد اسلموا ولَحقوا بالأمصار ، فكَتَب إلى البَصْرة وغيرهَا أنّ من كان له أصلٌ في قرية فليخرج إليها . فخرج الناسُ فعَسكَروا ، فجعلوا يَبكون وَينادُون : يا محمّداه يا محمّداه ! وجعلوا لا يدرون أين يذهبون ! فجعل قرّاء أهل البصرة يخرجون إليهم متقنّعين فيبكون لما يَسمعون منهم وَيرَوْن . قال : فقدِمَ ابن الأشعث على تَفيئةِ ذلك ، واستبْصَر قرّاء أهل البَصْرة في قتال الحجّاج مع عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث .

وذكر عن ضَمرة بن ربيعةَ عن الشيْبانيّ ، قال : قَتَلَ ، الحجّاجُ يوم الزاوية أحَد عشر ألفاً ، ما استحَيا منهم إلّا واحدا ، كان ابنهُ في كُتّاب الحجاج ، فقال له : أتحبّ أن نَعفوَ لك عن أبيك ؟ قال : نعم ، فتركهَ لابنه ، وإنما خدعَهم بالأمان ، أمر منادياً فنادى عند الهزيمة : ألا لا أمانَ لفلان ولا فلان ، فسمّى رجالا من أولئك الأشراف ، ولم يقَل : الناس آمنون، فقالت العامّة : قد آمَن الناس كلهم إلّا هؤلاء النفَر ، فأقبلوا إلى حُجْرته فلما اجتمعوا أمرهَم بوَضْع أسلِحتِهم ، ثم قال : لآمرنّ بكم اليومَ رجلا ليس بينكم وبينه قرابة ، فأمر بهم عُمارة بن تميم اللخميّ فقرّبهم فقتَلهم .

وروي عن النّضر بن شُميل ، عن هشام بن حَسان ، أنه قال : بلغ ما قَتَل الحجّاج صبراً مائةً وعشرين ، او مائةً وثلاثين ألفاً .

وقد ذُكر في هزيمة ابن الأشعث بمَسكن قولٌ غيرُ الذي ذكره أبو مِخنَف ، والذي ذُكرمن ذلك ان ابن الأشعث والحجّاج اجتمعًا بمَسكِن من أرض أبزقباذ ، فكان عسكرُ ابن الأشعث على نهر يُدعَى خداش مؤخّر النهر ، نهر تِيرَى ، ونزل الحجاج على نهر أفريذ والعسكران جميعاً بين دِجلَة والسّيب والكَرْخ ، فاقتتلوا شَهْرا ـ وقيل : دون ذلك ـ ولم يكن الحجّاج يَعرف إليهم طريقاً إلّا الطريق الذي يلتَقُون فيه ، فأتَى بَشَيْخ كان راعياً يُدعى زَوْرقا ، فدلّه على طريق من وراء الكَرْخ طولُه ستّة فراسخ ، في اجَمة وضَحْضاح من الماء ، فانتخب أربعة آلاف من جِلّة أهلِ الشأم ، وقال لقائدهم : لِيكُن هذا العِلْج أمامَك ، وهذه أربعةُ آلاف درْهم معك ، فإن أقامَكَ على عسكرهم فادفع المال إليه ، وإن كان كَذْباً فاضربْ عنقَه ، فإن رأيتَهم فاحمِلْ عليهم فيمن معك ، وليكنْ شِعارُكم : يا حجّاج يا حجّاج . فانطلق القائد صلاةَ العصر ، والتَقى عسكرُ الحجّاج وعسكرُ ابن الأشعث حين فَصَل القائد بمن معه وذلك مع صلاة العصر ، فاقَتَتلوا إلى الليل ، فانكشف الحجّاج حتى عبر السَّيب ـ وكان قد عقده ـ ودخل ابنُ الأشعث عسكَرَه فانتَهبَ ما فيه ، فقيل له : لو اتّبعته؟ فقال : قد تعِبنا ونصِبْنا ، فَرَجَعَ إلى عسكرِه فألقَى أصحابُه السلاحَ ، وباتوا آمنين في أنفسِهم لهم الظّفر . وهجم القومُ عليهم نصفَ الليل يصيحون بشِعارهم ، فجعل الرجلُ من أصحاب ابن الأشعث لا يدري أين يتوجّه ! دُجيل عن يساره ودِجلة أمامَه ، ولها جُرْف منكَر ، فكان من غَرق أكثر ممن قُتِل . وسمَع الحجاج الصوتَ فعبر السِّيب ، إلى عسكره ، ثمّ وجّه خيلَه إلى القوم فالتقى العسكران على عسكر ابن الأشعث ، وانحازَ في ثلاثمائة، فمضى على شاطيء دِجلَة حتى أتى دُجَيلا فعبَره في السفن ، وعَقَروا دوابّهم ، وانحَدَروا في السفن إلى البصْرة ، ودخل الحجّاج عسكَره ، فانتهب ما فيه ، وجعل يَقتُل من وجد حتى قَتَل اربعة آلاف ، فيقال : إنّ فيمن قُتِل عبدالله بن شدّاد بن الهاد ، وقتل فيهم بِسْطام بن مَصقَلة بن هُبيرة ، وعمر بن ضُبيْعة الرّقاشيّ ، وبشر بن المنذر بن الجارود والحكَم بن مَخرَمة العبدّيينْ ، وبُكَير بن ربيعة بن ثَرْوان الضّبيّ ، فأتي الحجاجُ

برؤوسهم على تُرْس ، فجعل يَنظُر إلى رأس بِسطامَ ويتمثّل :

إذا مَـررْتَ بـوادِي حَـيَّـةٍ ذَكَـرٍ فـاذهبْ ودَعني أقـاسي حيـةَ الـوادِي

ثم نظر إلى رأس بُكير ، فقال : ما ألقى هذا الشقيّ مع هؤلاء . خُذْ بأذنه يا غلام فالقِه عنهم . ثمّ قال : ضَعْ هذا الترس بين يديْ مسمعَ بن مالك بن مَسمَع ، فوُضع بين يديه ، فبكى ، فقال له الحجّاج : ما أبكاك ؟ أحزناً عليهم ؟ قال : بل جَزَعاً لهم من النار .

وفي هذه السنة : بَنى الحجّاج واسطاً ، وكان سبب بنائه ذلك ـ فيما ذُكِر ـ أنّ الحجّاج ضرب البَعْث على أهل الكُوفة إلى خُراسان ، فعسكروا بحمّام عُمر . وكان فتىً من أهل الكوفة من بني أسَد حديثُ عهدٍ بعُرس بابنةِ عمّ له ، انصرف من العسكر إلى ابنة عمِّه لَيلا ، فطرق البابَ طارقٌ ودَقّه دقاً شديداً ، فإذا سَكرانُ من أهل الشأم ، فقالت للرجل ابنةُ عمِّه : لقد لقينا من هذا الشأمي شرّاً ، يفعل بنا كلَّ ليلة ما تَرَى ، يـريد المكروهَ ، وقد شكوته إلى مشيخة أصحابه ، وعَرَفوا ذلك ، فقال : ائذنوا له ، ففعلوا ، فأغلَق البابَ ، وقد كانت المرأة نجدّت منزلها وطيَّبتْه ، فقال الشاميّ : قد آن لكم ، فاستقناه الأسـديّ . فأندَر رَأسَه ، فلما أذَّن بالفَجْر خرج الرّجل إلى العسكر وقال لامرأته : إذا صلّيت الفجر فابعثي إلى الشاميّين أن أخرِجوا صاحبَكم ، فسيأتون بكِ الحجاجَ ، فاصدقِيه الخبَر على وجهِه ، ففعلتْ ، ورُفع القتيلُ إلى الحجاج ، وأدخلت المرأة عليه وعنده عَنْبسة بن سعيد على سريره ، فقال لها : ما خَطْبُك ؟ فـأخبرتْـه ، فقال : صـدَقْتِنِي . ثم قال لـولاة الشاميّ : ادفنوا صاحبَكم فإنه قتيلُ الله إلى النار ، لا قَوَدَ له ولا عَقْل ، ثمّ نادى مناديه : لا ينزلنّ أحدٌ على أحد ، واخرُجوا فعَسكروا . وبعث رُوّادا يرتادون له مَنزِلا ، وأمعن حتى نزل أطراف كَسْكَر ، فبينا هو في موضع واسِط إذا راهبٌ قد أقبل على حمار له وعبرَ دِجلَة ، فلما كان في موضع واسطَ تفاجّت الأتان فبالتْ ، فنزل الراهبُ فاحتفر ذلك البول ، ثمّ احـتمَلَه فرمى به في دِجْلة ، وذلك بَعينْ الحجّاج ، فقال : عليّ به ، فأتي به ، فقال : ما حَمَلك على ما صنعتَ ؟ قال نجد في كُتُبنا أنه يُبْنى في هذا الموضع مَسجدٌ يُعْبد الله فيه ما دامَ في الأرض أحدٌ يوحِّده . فاختطّ الحجّاج مدينةَ واسِطَ ، وبنَى المسجدَ في ذلك الموضع .

وفي هذه السنة عَزَل عبدُالملك ـ فيما قال الواقديّ ـ عن المدينة أبَانَ بنَ عثمان ، واستَعمَل عليها هشامَ بن إسماعيل المخزوميّ .

وحَجّ بالناس في هذه السنة هِشامُ بن إسماعيلَ ، حدّثني بذلك أحمدُ بن ثابت ، عمن حدّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر .

وكان العمّال في هذه السنة على الأمصار سِوَى المدينة هم العمّال الذين كانوا عليها في السنة التي قبلَها . وأمّا المدينة فقد ذكرنا من كان عليها فيها .

ثم دخلت سنة اربع وثمانين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففيها كانت غزوةُ عبدالله بن عبدالملك بن مَرْوانَ الرّوم ، ففتَح فيها المَصِّيصَة ، كذلك ذَكَر الواقديّ .

وفيها قَتَل الحجّاج أيوبَ بن القِرِّيَّة ، وكان ممن كان مع ابن الأشعث ، وكان سبب قتله إياه ـ فيما ذُكر ـ أنه كان يدخل حَوْشب بن يزيد بعد انصرافه من دَيْر الجَماجم ـ وحَوْشب على الكوفة عامل للحجّاج ـ فيقول حَوْشب : انظروا إلى هذا الواقف معي ، وغداً أو بعدَ غد يأتي كتاب من الأمير لا استطيع إلاّ نفاذَه ، فبينا هو ذاتَ يوم واقف إذ أتاه كتابٌ من الحجّاج :

أما بعد ، فإنك قد صرت كَهْفا لمُنافِقي أهلِ العراق ومَأوًى ، فإذا نظرتَ في كتابي هذا فابعثْ إليَّ بابن القِرِّيَّة مشدودة يدُه إلى عنقه ، مع ثقةٍ مِن قِبلَك .

فلما قرأ حوشب الكتابَ رَمَى به إليه ، فقرأه فقال : سمعاً وطاعة ، فبعث به إلى الحجاج مُوثَقاً ، فلما دخل الحجّاج قال له : يا بن القِرِّيَّة ، ما أعددتَ لهذا الموقف ؟ قال : أصلح الله الأمير ! ثلاثةَ حروف كأنهنَّ رَكْبٌ وُقوف ، دنيا ، وآخرةٌ ، ومعروف . قال : اخرج مما قلتَ ، قال :أفعل،أما الدنيا فمالٌ حاضر ، يأكلُ منه البرّ والفجر ، وأما الآخرة فميزان عادل ، ومَشهد ليس فيه باطل ، وأما المعروف فإن كان عليّ اعترفتُ ، وإن كان لي اعْتَرفتُ . قال : إمّا لا فاعترف بالسيف إذا وَقَعَ بك . قال : أصلح الله الأمير ! أَقِلْني عَثْرتي ، وأسغني رِيقي ، فإنه ليس جوادٌ إلا له كَبْوة ، ولا شجاعٌ إلاّ له هَبْوة . قال الحجّاج : كلا واللّهِ لأرُيَنّك جهنّم ، قال : فأرِحْني فإنيّ أجد حَرَّها ، قال : قدّمْه يا حَرَسيّ فاضرب عنقَه . فلما نظر إليه الحجّاج يتشحَّط في دمه قال : لو كنّا تركْنا ابن القِرّية حتى نَسمعَ من كلامه ! ثمّ أمر به فأخرج فرُمِيَ به .

قال هشام : قال عَوانة : حين مَنَعَ الحجاجُ من الكلام ابن القرِيَّة : قال له ابنُ القِرِّية : أما واللّهِ لو كنت أنا وأنت على السواء لسكنا جميعاً ، أولاً لقَيْتَ مَنِيعاً .

وفي هذه السنة فَتَح يزيدُ بنُ المهلّب قلعةَ نيزك ببَاذَغيس .

ذكر سبب فتحه إياها :

ذَكَر عليّ بنُ محمد ، عن المفضّل بن محمد ، قال : كان نيزَك يَنزل بقَلْعة باذغيس ، فتحينّ يزيدُ غزوَه ، ووَصعَ عليه العيون ، فبلغه خروجُه ، فخالفه يزيدُ إليها ، وبلغ نيزَك فرجع ، فصالحَه على أن يدفع إليه ما في القلعة من الخزائن ، ويَرتحِل عنها بعِياله ، فقال كَعْب بنُ معْدانَ الأشقَريّ :

وبــاذَغـيسُ الـتـي مَن حــل ذُرْوَتـهـا عـزُّ الملوكَ فـإن شَـا جَـار أوْ ظَلمـا
مَـنـيـعـةٌ لـم يَـكِـدْهـا قـبـله مـلكٌ إلا إذا وَاجَـهَـتْ جـيشـاً لـه وجَـمـا

تخَـالُ نيـرانهـا من بُعـد مِنـظرهـا بعضَ النّجـوم إذا مـاليـلُهـا عَتـمـا
لمّـا أطـافَ بهـا ضـاقتْ صـدورهُمُ حتى أقـرّوا لـه بـالحُكم فـاحتكمـا
فـذلّ سـاكِـنَهـا مـن بَعـدِ عِـزَّتـهِ يُعـطى الجِزَى عـارفاً بـالذل مُهتضما
وبـعـد ذلـك أيـامـاً نـعـدّدهـا وقبلهـا مـا كَشَفْتَ الكرب والـظلمـا
أعـطاك ذاك ولـيُّ الـرزق يَقْسِمُـهُ بين الخـلائق والمحـرومُ من حُـرمـا
يـداك إحـداهمـا تُسقى العـدو بهـا سَمًّـا وأخـرى نـداهـا لم يَـزَلْ دِيَمَا
فـهـل كَسَيْـب يـزيـدَ أوْ كـنـائـلِهِ إلا الفـراتُ وإلا النيـلُ حيـن طَمـا
ليسـا بـأجـوَد منـه حينَ مَـدِّهِمـا إذ يـعلوَانِ حـداب الأرض والأكَمـا

وقال :

ثَنـائي عـلى حيِّ الـعتيـك بـأنَّهـا كـرامٌ مقـاريهـا ، كِـرامٌ نصـابُهـا
إذا عـقـدوا لـلجـارِ حَـلَّ بِـنـجْـوةٍ عـزيـز مَـراقيهـا، منيـع هضَـابُهـا
نَفى نـيـزَكـاً عن بـاذَغيسَ ونيـزكٌ بمنـزلـة أعيـا الملوكَ اغتِصـابُهـا
مُـحَـلّقَـةٍ دونَ الـسـمـاءِ كـأنـهـا غمَـامـةُ صَيف زلّ عنهـا سحـابُهـا
ولا يبلُغ الأرْوى شمـاريخَهـا العـلا ولا الـطيـرُ إلّا نسـرُهـا وعُقـابهـا
ومـا خُـوفَتْ بـالـذئب وِلْـدانُ أهلها ولا نَـبَحَـتْ إلا الـنـجـومَ كِـلَابُـهـا
تمنّيتُ أن ألقى العتيـكَ ذوي النُّهيَ مُـسلّطة تُـحـمي بـمـلكٍ ركـابُـهـا
كمـا يتمنى صاحبُ الحـرثِ أُعطشَت مَـزارِعُـهُ غيثـاً غَـزيـراً رَبـابُـهـا
فَـأُسْقيَ بعـد اليـأس حتى تحَيَّـرَتْ جَـداولـهـا رِيّـاً وعَـبّ عـبـابُـهـا
لـقـد جمـع اللهّ الـنـوى وتَشـعَّبَـتْ شعُـوبٌ مِنَ الآفـاقِ شَتى مـآبـهـا

قال : وكان نيزك يُعظِّم القلعة إذا رآها سَجَد لها . وكَتَبَ يزيدُ بن المهلب إلى الحجّاج بالفَتْح ، وكانت كُتُب يزيد إلى الحجاج يَكتبها يحيى بن يَعمر العَدْوانيّ ، وكان حليفاً لهُذيل ، فكتب : إنا لَقينا العدوَّ فمنحنَا الله أكتافَهم ، فقتلْنا طائفةً ، وأسرْنا طائفة ، ولحقَتْ طائفة برؤوس الجبال وعَراعِر الأدوية ، وأهضامِ الغيطان وأثناء الانهار ، فقال الحجّاج : من يكتب ليزيـدَ ؟ فقيل : يحيى بن يَعمـر ، فكَتَب إلى يزيـدَ فحمَلَه على البريد ، فقَدِم عليه أفصَح الناس ، فقال له : أينَ وُلِدتَ ؟ قال : بالأهواز ، قال : فهذه الفَصاحـة ؟ قال : حفظتَ كلامَ أبي وكان فصيحاً . قال : مِن هناك فأخبرني هل يَلحَن عنبسة بن سعيد ؟ قال : نَعَم كثيرا ، قال : ففُلان ؟ قال : نعم ، قال : فأخبرني عنّي أألحن ؟ قال : نعم تلحَن لْحنا خفيًّاً ، تزيد حرفاً وتَنقص حرفاً ، وتجعلَ أنْ في موضع إنْ ، وإنْ في موضع أنْ ، قال : قد أجّلتكِ ثلاثاً ، فإن أجدْك بعدَ ثلاث بأرض العراق قتلْك .

فرَجع إلى خُراسان .

وحجّ بالناس في هذه السنة هشامُ بن إسماعيلَ المخزوميّ ، كذلـك حدّثني أحمد بن ثابت ، عمّن ذَكَرهَ ، عن إسحاقَ بن عيسى ، عن أبي معشر .

وكانت عمّال الأمصار في هذه السنة عمّالها الذين سمّيتُ قبلُ في سنة ثلاث وثمانين .

ثمّ دخلت سنة خمس وثمانين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففيها كان هلاكُ عبدِ الرحمن بن محمد بن الأشعث .

ذكر السبب الذي به هلك، وكيف كان :

ذَكَر هشام بن محمد ، عن أبي مِخْنَف ، قال : لما انصرفَ ابنُ الأشعث من هَرَاةَ راجعاً إلى رُتْبيل كان معه رجلٌ من أَوْد يقال له عَلْقمة بن عمرو ، فقال له : ما أريد أن أدخلُ معك ، فقال له عبدالرحمن : لمَ ؟ قال : لأني أتخوّف عليك وعلى من معك ، والله لكأني بكتاب الحجّاج قد جاء ، فوَقع إلى رُتْبيل يُرغبّه ويُرهّبه ، فإذا هو قد بعث بك سَلْماً أو قَتَلكم . ولكن ها هنا خمسمائة قد تبايعْنا على أن ندخل مدينةً فنتحصّن فيها ، ونقاتلَ حتى نُعطَيَ أماناً أو نموتَ كراما . فقال له عبد الرحمن : أما لو دخلتَ معي لآسيْتُك وأكرَمْتك ، فأبى عليه علقمةُ ، ودخل عبد الرّحمن بن محمد إلى رُتْبيل . وخرج هؤلاء الخمسمائة فبعثوا عليهم مودودا النَّضْري ، وأقاموا حتى قدم عليهم عُمارة بن تميم اللَّخميّ فحاصَرَهم ، فقاتلوه وامتنعوا منه حتى آمنهم ، فخرجوا إليه فوفي لهم .

قال : وتتابعتْ كُتُب الحجّاج إلى رُتْبيل في عبد الرحمن بن محمد أن ابعث به إلى ، وإلا فوالذي لا إله إلاّ هو لأوطِئَنّ أرضَك ألفَ ألف مُقاتِل . وكان عند رُتْبيل رجلٌ من بني تميم ثمّ من بني يَربوع يقال له عُبيد بن أبي سُبَيع ، فقال لرُتْبيل : أنا آخذُ لك من الحجّاج عهداً ليَكُفّنّ الخراجَ عن أرضك سبعَ سنينَ على أن تَدفَع إليه عبدالرحمن بن محمّد ، قال رُتْبيل لعبيد : فإن فعلتَ فإنّ لك عندي ما سألتَ .

فكَتَب إلى الحجّاج يُخبره أنّ رُتْبيل لا يعصِيه ، وأنه لن يَدَع رُتْبيل حتى يبعثَ إليه بعبد الرحمن بن محمد ، فأعطاه الحجّاج على ذلك مالاً وأخذ من رُتْبيل عليه مالاً ، وبعث رُتْبيل برأس عبدالرحمن بن محمد إلى الحجّاج ، وترك له الصلح الذي كان يأخذه منه سبعَ سنين . وكان الحجّاج يقول : بعث إلى رُتْبيل بعدوّ الله . فألقى نفسه من فوق إجّار فمات .

قال أبو مِخنَف : وحدّثني سليمان بن أبي راشد . أنه سمع مُلَيكةَ ابنة يزيدَ تقول : والله لَماتَ عبدُالرحمن وإنّ رأسَه لعلى فَخِذي ، كان السلّ قد أصابَه ، فلما مات وأرادوا دَفنه بعث إليه رُتْبيل فَحزّ رأسَه ، فبعث به إلى الحجاج ، وأخذ ثمانية عشرَ رجلا من آل الأشعث فحبَسهَم عندَه ، وترك جميعَ من كان معه من أصحابه . وكتب إلى الحجّاج بأخذه الثمانية عشر رجلا من أهل بيت عبدالرحمن ، فكتب إليه : أن اضرِب رقابَهم ، وابعث إليّ برؤوسهم ، وكره أن يُؤتَي بهم إليه أحياءً فَيُطلبَ فيهم إلى عبدالملك ، فيترك منهم أحداً .

وقد قيل في أمر ابن أبي سُبيع وابن الأشعث غير ما ذكرتُ عن أبي مِخنَف ، وذلك ما ذكر عن أبي عُبيدة مَعمر بن المثنّى أنه كان يقول : زعم أن عُمارة بن تميم خرج من كَرْمان فأتى سجستانَ وعليها رجلٌ من بني العنبر

يُدعى مودودا ، فحصَره ثمّ آمنه ، ثم استولى على سِجِستانَ ، وأرسل إلى رُتْبيل . وكَتَب إليه الحجّاج : أمابعد ، فإني قد بعثتُ إليك عُمارة بن تميم في ثلاثين ألفاً من أهل الشأم لم يخالِفوا طاعة ، ولم يَخلَعوا خليفة ، ولم يَتّبعوا إمامَ ضلالة ، يُجرى على كل رجل منهم في كلّ شهر مائة دِرهْمْ ، يستطعِمون الحربَ استطعاماً ، يَطلُبون ابن الأشعث . فأبى رُتْبيل أن يسلمه . وكان مع ابن الأشعث عُبيد بن أبي سُبيع التميميّ قد خصه به، وكان رسولَه إلى رُتْبيل ، فخص برتبيل ايضا ، وخفّ عليه . فقال القاسم ابن محمد بن الأشعث لأخيه عبدالرحمن : إني لا آمن غدرَ التميميّ ، فاقتلْه ، فهَمّ به ، وبلغ ابن أبي سُبيع ، فخافَه فوشَى به إلى رُتْبيل ، وخوّفه الحجّاج ، ودعاه إلى الغَدْر بابن الأشعث فأجابه ، فخرج سراً إلى عُمارة بن تميم ، فاستعجل في ابن الأشعث، فجعل له ألفَ ألف، فأقام عندَه، وكَتَب بذلك عُمارة إلى الحجّاج، فكتب إليه أن أعطِ عبيداً ورُتْبيلَ ما سألاك واشترطْ، فاشترط رُتبيلُ ألّا تغزى بلادُه عشر سنين، وأن يؤدّيَ بعد العشر سنينَ في كلّ سنة تسعمائة ألف، فأعطى رُتْبيل وعبيدا ما سألا، وأرسَل رتبيل إلى ابن الأشعث فأحضره وثلاثين من أهل بيته، وقد أعدّ لهم الجوامع والقيود، فألقى في عنقِه جامعةً، وفي عنق القاسم جامعة، وأرسل بهم جميعاً إلى أدنى مَسالح عمارة منه، وقال لجماعة من كان مع ابنِ الأشعث من الناس: تفرّقوا إلى حيث شئتم، ولما قرب ابن الأشعث من عمارة ألقَى نفسَه من فوق قَصْر فمات، فاحتزّ رأسه، فأتى به وبالأسرى عمارة، فضرب أعناقهم، وأرسل برأس ابن الأشعث وبرؤوس أهلِه وبامرأته إلى الحجّاج، فقال في ذلك بعضُ الشعراء:

هيهات موضعُ جُثّةٍ من رأسِها ... رأسٌ بمصرَ وجثّة بالرُّخّجِ

وكان الحجاج أرسل به إلى عبد الملك ، فأرسل به عبدالملك إلى عبدالعزيز وهو يومئذ على مِصر .

وذكر عمر بن شبّة أن ابن عائشة حدّثه قال : أخبرَني سعد بن عُبيدالله قال : لما أتي عبدُ الملك برأس ابن الأشعث أرسَل به مع خصيّ إلى امرأة منهم كانت تحتَ رجل من قريش ، فلما وُضع بين يديْها قالت : مرحباً بزائر لا يتكلّم ، مَلِك من الملوك طَلب ما هو أهلُه فأبت المقادير . فذهب الخَصيّ يأخذ الرأس فاجتذبتْه من يدِه ، قالت : لا والله حتى أبلغ حاجتي ، ثم دعت بخطميّ فَغسَلَتْه وغلّفتْه ، ثم قالت : شأنَك به الآن . فأخذه ، ثم أخبر عبدالملك ، فلمّا دخل عليه زوجُها ، قال : إن استطعتَ أن تصيبَ منها سَخْلة .

وذكر أن ابن الأشعث نظر إلى رجل من أصحابه وهو هاربٌ إلى بلاد رتْبيلَ فتمثّل :

يطردُه الخوف فهو تائهٌ ... كذاكَ مَنْ يكرَهُ حَرَّ الجِلادِ
مُنخَرقُ الخُفَّين يشكو الوَجَا ... تنكُبُه أطراف مَرْوٍ حِدادِ
قد كان في الموت له راحةٌ ... والموتُ حَتْمٌ في رقابِ العبادِ

فالتفت إليه فقال : يا لحية ، هلاّ ثبتَّ في موطن من المواطن فنَموت بين يديك ، فكان خيراً لك مما صرتَ إليه !

قال هشام : قال أبو مِخنَف : خرج الحجّاج في أيامه تلك يسير ومعه حُمَيد الأرْقَط وهو يقول :

ما زالَ يَبني خَنْدَقاً ويَهدِمُهْ ... عن عسكر يقودُه فيُسلِمُه
حتّى يصيرَ في يديْكَ مَقسِمُهْ ... هيهاتَ من مصفِّه مُنهَزَمُهْ
إنَّ أَخَا الكِظاظِ من لا يسأَمُهْ

فقال الحجّاج : هذا اصدقُ من قولِ الفاسق أعشى هَمْدان :

نُـبِّئْـت أن بُـنيّ يـو ... سيف خـرَّ مـن زَلَقٍ فـتبَّـا

قد تبيّن له من زَلَقَ وتبَّ وَدحَض فانكبّ ، وخاف وخابَ ، وشكّ وارتاب ، ورفع صوته فما بقى أحدٌ إلاّ فَزِع لغضبه، وسَكت الأرَيقط ، فقال له الحجّاج : عدْ فيما كنت فيه ، مالَكَ يا أرْقط ! قال إني جُعلت فداك أيّها الأمير وسلطان الله عزيز ، ما هو إلا أن رأيتُك غضبتَ فأرعدَتْ خصائلي ، واحزألّتْ مَفاصلي ، وأظلم بَصَري ، ودارت بي الأرض ، قال له الحجّاج : أجلْ ، إنّ سلطان الله عزيز ، عدْ فيما كنت فيه ، ففعَلَ .

وقال الحجّاج وهو ذاتَ يوم يسيرُ ومعه زياد بن جَرير بن عبدالله البَجَليّ وهو أعوَر ، فقال الحجّاج للأريقط : كيف قلتَ لابن سَمُرة ؟ قال: قلت :

يـا أعـورَ الـعَيْـن فَـدَيْـتُ الـعُـورَا ... كنتَ حَبِسـت الخَـنْـدَقَ المـحْفـورا
يـرُدُّ عـنْـك الـقَـدَرَ الـمـقـدورا ... ودائـرات الـسَّـوْءِ أن تَـدورا

وقد قيل : إن مَهلك عبدالرحمن بن محمّد كان في سنة أربع وثمانين .

وفي هذه السنة عَزَل الحجّاج بن يوسف يزيدَ بن المهلّب عن خُراسان وولاها المفضّل بن المهلّب أخا يزيد .

ذِكَر السبب الذي من أجله عزله الحجّاج عن خُراسان واستعمَل المفضّل

ذَكَر علي بنُ محمد ، عن المفضّل بن محمد ، أن الحجّاج وَفَد إلى عبدالملك ، فمرَّ في مُنصرَفه بدير فنزَلَه ، فقيل له : إنّ في هذا الدَّير شيخاً من أهل الكُتُب عالماً ، فدعا به فقال : يا شيخ ، هل تجدون في كُتُبكم ما أنتم فيه ونحن ؟ قال : نعم ، نجد ما مضى من أمْرِكم وما أنتم فيه وما هو كائن ، قال أفمسميٌّ أم موصوفاً ؟ قال : كلّ ذلك ، موصوف بغير اسم ، واسم بغير صفة ، قال : فما تجدون صفَة أمير المؤمنين ؟ قال : نجده في زماننا الذي نحن فيه ، ملك أقرَع ، مَن يقم لسبيله يُصرَع ، قال : ثم من ؟ قال : اسم رجل يقال له الوَليد ، قال : ثم ماذا ؟ قال : رجل اسمه اسمُ نبيّ يفتَح به على الناس ، قال : أفتعرفني ؟ قال : قد أخْبِرت بك . قال : أفتعلم ما ألِي ؟ قال : نعم ، قال : فمن يَلِيه بَعدي ؟ قال : رجلٌ يقال له يزيد ، قال : في حياتي أم بعد مَوتي ؟ قال : لا أدري ، قال : أفتعرف صفتَه ؟ قال : يغدُر غُدرةً ، لا أعرف غير هذا .

قال : فوَقَع في نفسه يزيدَ بن المهلب ، وارتَحل فسار سَبْعاً وهو وَجِلٌ من قولِ الشيخ ، وقَدِم فكتَبَ إلى عبدالملك يَستَعفيه من العراق ، فكتب إليه : يا بن أمّ الحجّاج ، قد علمتُ الذي تغزو ، وأنك تريد أن تعلَم رأيي فيك ، ولعَمري إني لأرَى مكانَ نافع بن عَلْقمة ، فالْهُ عن هذا حتى يأتي الله بما هو أت ، فقال الفرزدق يَذكُر مسيرَة :

لـو أنَّ طيْـراً كُلِّفتْ مثـلَ سَيْـره ... إلـى واسطٍ مـن إيـليـاءَ لَمَلَّتِ
سَرى بالمهـارِي مِنْ فِلَسطينَ بعدمـا ... دنـا الليـلُ من شمس النهـار فـوَلَّتْ
فمـا عـاد ذاك اليـومُ حتى أنـاخهـا ... بمَيْسـان قـدْ ملَّتْ سُـراهـا وكـلَّت
كـأنَّ قُطاميّـاً على الرّحْـل طـاويـاً ... إذا غمْـرةُ الـظَّلمـاء عنْـه تـجلَّت

قال فبينا الحجّاج يوماً خالٍ إذ دعا عبيدَ بن مَوْهب، فدخل وهو يَنكُتُ في الأرض ، فرفع رأسه فقال : ويحَك يا عُبيد ! إن أهل الكتب يَذكُرون أنّ ما تحت يدي يليه رجلٌ يقال له يزيد ، وقد تذكرت يزيدَ بنَ أبي كبشة ويزيدَ بنَ حُصَين بن نُمَير ، ويزيد بن دينار ، فليسوا هناك ، وما هوَ إن كان إلاّ يزيد بن المهلب ، فقال عبيد : لقد شرّفتَهم وأعظمت وِلاَيتهم ، وإنّ لهم لعَدَداً وجَلَداً ، وطاعة وحظّاً ، فأخلق به . فأجمع على عزل يزيد فلم يجد له شيئاً حتى قدم الخيار بن أبي سَبْرة بن ذُؤيب بن عَرْفجة بن محمد بن سُفيان بن مُجاشِع ـ وكان من فُرسان المهلب ـ وكان مع يزيد ـ فقال له الحجاج : أخبَرني عن يزيد ، قال : حَسَن الطاعة ، لينَ السيرة ! قال : كذبت ، أصدِقني عنه ، قال : الله أجلّ واعظم ، قد أسرج ولم يُلجم ، قال : صدقتَ ، واستعمل الخيارَ على عُمان بعد ذلك .

قال : ثمّ كَتَب إلى عبدالملك يذمّ يزيدَ وآلَ المهلّب بالزبيريّة ، فكتب إليه عبدُالملك : إني لا أرى بآل المهلب طاعتهم لآل الزّبير ، بل أراه وفاء منهم لهم ، وإنّ وَفاءهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لي: فكَتَب إليه الحجّاج يخوّفه غدرَهم لما أخبره به الشيخ . فكتب إليه عبدُالملك : قد أكثرتَ في يزيدَ وآل المهلّب ، فسمّ لي رجلاً يَصلُح لخُراسان ، فسَمّى له مُجّاعة بن سعر السعديّ ، فكتب إليه عبدُ الملك : إن رأيك الذي دعاك إلى استفساد لآل المهلّب هو الذي دعاك إلى مُجّاعة بن سعر ، فانظر لي رجلا صارما ، ماضيا لأمرك ، فسَمّى قتيبة بن مسلم ، فكتب إليه : ولّه . وبلغ يزيد أنّ الحجّاج عَزَله ، فقال لأهل بيته : مَن تَرْون الحجّاج يولي خُراسانَ ؟ قالوا : رجلا من ثَقيف ، قال : كلاّ ، ولكنه يكتب إلى رجل منكم بعَهْده ، فإذا قدمتُ عليه عزَلَه وولى رجلاً من قيس ، وأخلِق بقتيبة ! قال : فلما أذن عبدالملك لَلحجّاج في عَزْل يَزيدَ كره أن يكتب إليه بعزله ، فكتب إليه ان استخلف المفضَّل وأقبِل . فاستشار يزيدُ حُضَينَ بنَ المنذر ، فقال له : أقم واعتلّ ، فإنّ أميرَ المؤمنين حَسَن الرأي فيك ، وإنما أتيتَ من الحجّاج ، فإنْ اقمتَ ولم تَعجل رجوتُ أن يكتب إليه ان يقرّ يزيد ، قال : إنّا أهلُ بيت بُورِك لنا في الطاعة ، وأنا اكره المعصية والخِلاف ، فأخذ في الجهازَ ، وأبطأ ذلك على الحجّاج ، فكتب إلى المفضّل : إني قد ولّيتُك خُراسانَ ، فجعل المفضّل يستحِثّ يزيدَ ، فقال له يزيد : إنّ الحجّاج لا يُقرّك بعدي ، وإنما دعاه إلى ما صَنَع مخافَةُ أن امتنِعَ عليه ، قال : بل حسدتَني ، قال يزيد : يا بن بَهلة ، أنا أحسدُك! ستعلم . وخرج يزيدُ في ربيع الآخر سنة خمس وثمانين . فعزل الحجاجُ المفضّل ، فقال الشاعر للمفضّل وعبدالملك وهو أخوه لأمّه :

يـا بَنـيْ بـهـلةَ إنـمـا أخْـزاكـمـا ... ربّـي غَـدَاةَ غَـدَا الهُـمَـامُ الأزْهَـرُ
أحَـفَـرْتُـمُ لأخـيـكُـم فَـوَقَـعْـتَـمُ ... في قَعْـرِ مُـظْلِمَـةٍ أخُـوهـا المُعْـوِرُ
جُـودُوا بتَـوْبـةِ مُخـلِصِيـنَ فـإنَّمـا ... يَـأبَـى ويـأنَف أن يَـتُـوبَ الأخسَـرُ

وقال حُضَين ليزيد :

أمَـرْتـك أمْـرَاً حـازمـاً فَعَصَيْتَـني ... فـأصْبحْتَ مَسْلوب الأمـارَةِ نـادِمـا
فمـا أنـا بـالبَـاكي عَليـكَ صَبَـابـةً ... ومـا أنـا بـالـدّاعي لتَـرْجـعَ سَـالِمَـا

فلما قدم قتيبة خراسان قال لحضين : كيف قلت ليزيد ؟ قال قلت :

أمَـرْتـكَ أمْـراً حـازمـاً فعصيتـني ... فَنَفْسَـكَ إوْلِ اللوْمَ إنْ كُـنْتَ لائـمـا

فـإن يَبلغ الحجّـاج أنْ قـدْ عَصَيْتَـهُ ... فـإنَّـك تَـلْقى أمْـرَهُ مـتَـفَـاقـمـا

قال : فماذا أمرتَه به فعصاك ؟ قال : امرتُه ألّا يَدَع صفراء ولا بيضاءَ إلّا حَمَلَها إلى الأمير ، فقال رجل لعياضٍ بن حضين : أما أبوك فوجَده قتيبةُ حين فرّه قارِحاً بقوله : « أمرته أن لا يدعَ صَفْراءَ ولا بيضاءَ إلّا حملها إلى الأمير » .

قال عليّ : وحدّثنا كُلَيب بن خَلَف ، قال : كتب الحجّاج إلى يزيدَ أن اغزُ خُوارزم ، فكَتَب إليه : أيها الأمير ، إنها قليلة السَّلب ، شديدةُ الكَلَب . فكَتَب إليه الحجّاج : استخلِف واقدم ، فكَتَب إليه إني أريـد أن أغزوَ خُوارزم . فكَتَب إليه : لا تَغزُها فإنها كما وصَفت ، فغزا ولم يُطِعه ، فصالحه أهل خُوارزم ، وأصاب سَبْياً ممّا صالحوه ، وقَفَل في الشتاء ، فاشتدّ عليهم البردُ ، فأخذ الناس ثيابَ الأسرَى فلبسوها ، فمات ذلك السبيُ من البَردْ . قال : ونزل يزيدُ بلستانة ، وأصاب أهلَ مَروْ الرُّوذ طاعونٌ ذلك العام ، فكتب إليه الحجاج : ان اقدم ، فقَدَم ، فلم يمرّ ببلد إلّا فَرَشوا له الرَّياحين . وكان يزيدُ ولّي سنة اثنتين وثمانين ، وعزل سنة خمس وثمانين ، وخرج من خُراسان في ربيع الآخر سنة خمس وثمانين ، وولي قتيبة .

وأما هشام بن محمد ، فإنه ذكر عن أبي مِخنَف في عزل الحَجّاج يزيدَ عن خُراسان سبباً غير الذي ذكره عليّ بنُ محمد ، والذي ذُكر من ذلك عن أبي مِخنَف أن أبا المُخارق الراسبيّ وغيره حدّثوه أن الحجّاج لم يكن له حين فَرَغَ من عبد الرحمن بن محمد همٌّ إلّا يزيدَ بن المهلّب وأهـل بيته ـ وقد كان الحجاج أذَل أهلَ العراق كلّهم إلّا يزيد وأهل بيته ومَن معه من أهل المِصْرَين بخُراسان ، ولم يكن يتخوّف بعدَ عبد الرحمن بن محمد بالعراق غيرَيزيد بن المهلب ـ فأخذوا الحجاجُ في مواربة يزيدَ ليستخرجَه من خُراسان ، فكان يبعث إليه ليأتيه ، فيعتلّ عليه بالعدوّ وحَرْب خُراسان ، فمكث بذلك حتى كان آخر سلطان عبـدالملك . ثم أنّ الحجّاج كتب إلى عبدالملك يشير عليه بعَزْل يزيدَ بن المهلّب ، ويخبره بطاعة آل المهلب لابن الزّبير ، وأنه لا وفاء لهم ، فكتب إليه عبدُالملك : إنّي لا أرى تقصيرا بولَد المهلب طاعتَهم لآل الزبير ووفاءهم لهم ، فإنّ طاعتهم ووفَاءهم لهم ، هو دعاهم إلى طاعتي والوفاء لي .

ثمّ ذكر بقية الخبر نحوَ الذيذَكَره عليّ بن محمّد .

وفي هذه السنة غزا المفضّل باذغيس ففتَحَها .

ذكر الخبر عن ذلك:

ذَكَر عليّ بن محمد ، عن المفضل بن محمد : قال : عزل الحجّاج يزيد ، وكتَبَ إلى المفضّل بولايته على خُراسان سنة خمس وثمانين ، فولَيها تسعةَ أشهر ، فغزا باذَغيسَ ففتَحَها وأصاب مغنماً ، فقسَمه بين الناس ، فأصاب كلّ رجل منهم ثمانمائة درهم ، ثمّ غزا أخْرون وشُومان ، فظفَر وغَنِم ،وقَسمَ ما أصاب بين الناس ، ولم يكن للمفضّل بيت مال ، كان يُعطِي الناسّ كلّما جاءه شيء ، وإن غنم شيئاً قسَمَه بينهم ، فقال كعبٌ الأشقريّ يمدح المفضّل :

تـرى ذا الغِنَى والفَقـر من كـلّ مَعْشـرٍ ... عصَـائِبَ شتّى يَنْتَـوُونَ الـمفـضَّـلا
فمن زائـرٍ يـرجُـو فَـواضِـلَ سَيْبِـه ... وآخَـرَ يَقضِي حـاجَـهُ قد تـرحَّـلا
إذا مـا انتَـوَينـا غيْـر أرضـكَ لم نَجِـد ... بـهـا منـتـوىً خَـيْـراً ولا مُـتَـعَـلَّلا
إذا مـا عَـدَدنـا الأكـرَمين ذَوِي النُّهى ... وقـد قـدّمـوا من صـالـحٍ كنت أوَّلا

لعَمْري لقد صال المفضَّلُ صَوْلَةً أباحَتْ بشُومانَ المناهل والكلا
ويوم ابن عبَّاس تناولتَ مثلها فكانت لنا بين الفريقين فَيْصَلَا
صَفَتْ لك أخلاقُ المُهَلَّبِ كُلُّها وسُرْبِلْتَ من مَسْعاتِهِ ما تَسَرْبلَا
أبوك الذي لم يسْمع ساعٍ كسعيه فأوْرثَ مَجْداً لم يكن مُتَنحَّلا

وفي هذه السنة قُتِل موسى بنُ عبدالله بن خازم السُّلَميّ بالتِّرمِذ .

ذكر سَببِ قتلِه ومصيره إلى الترّمذ حتى قُتِل بها :

ذُكر أن سبب مصيره إلى التِّرمذ كان أنّ أباه عبدالله بن خازم لما قَتَل مَنْ قَتَل من بني تميم بفرْتَنا ـ وقد مَضَى ذِكرى خبرَ قتلِهِ إيّاهم ـ تفرّقَ عنه عُظمُ من كان بقيَ معه منهم ، فخرج إلى نيسابورَ وخاف بني تميم على ثقله بمَرْو ، فقال لابنه موسى : حوّل ثقَلي عن مَرْو ، واقطع نهرَ بَلْخَ حتى تلجأ إلى بعض الملوك أو إلى حصن تقيم فيه . فشَخَص موسى من مَرو في عشرين ومائتي فارس ، فأتى آمُل وقد ضوى إليه قومٌ من الصَّعاليك ، فصار في أربعمائة ، وانضمّ إليه رجال من بني سُلَيم ، منهم زُرْعة بن علقمة ، فأتى زمَّ فقاتلوه ، فظَفِر بهم وأصاب مالاً ، وقطع النهر ، فأتى بُخارَي فسأل صاحبها أن يلجأ إليه ، فأبى وخافَه ، وقال : رجل فاتك ، وأصحابُه مِثله أصحاب حَرْب وشَرّ ، فلا آمنه . وبعث إليه بصلة عين ودوابّ وكُسْوة ، ونزل على عظيم من عظماء أهل بُخارَي في نوقان ، فقال له : إنّه لا خيرَ في المُقام في هذه البلاد ، وقد هَابَك القومُ وهم لا يأمَنونك . فأقام عند دِهقْان نوقانَ أشهراً . ثمّ خرج يلتمس ملكاً يَلجَأ إليه أو حِصْناً ، فلم يأت بلداً إلاّ كَرِهوا مُقامَه فيهم ، وسألوه أن يخرج عنهم .

قال عليّ بن محمد : فأتى سمرقَنْد فأقام بها ، وأكرَمَه طَرْخونُ مَلِكُها ، وأذِن له في المُقام ، فأقام ما شاء الله ، ولأهل الصُّغد مائدةٌ يوضَع عليها لحم وَدِك وخُبْز وإبريق شراب وذلك في كلّ عام يوماً ، يُجعل ذلك لفارس الصُّغْد فلا يَقرَبه أحد غيرُه ، هو طعامه في ذلك اليوم ، فإنْ أكل منه أحدٌ غيرُه بارَزَه فأيُّهما قَتَل صاحبَه فالمائدةُ له ، فقال رجلٌ من أصحاب موسى : ما هذه المائدة ؟ فأخبر عنها ، فسكت ، فقال صاحب موسى : لآكلنّ ما على هذه المائدة ، ولأبارزنّ فارسَ الصُّغْد ، فإن قتلتُه كنتُ فارسَهم . فجلس فأكل ما عليها ، وقيل لصاحب المائدة ، فجاء مُغضَباً ، فقال : يا عربيّ ، بارِزْني ، قال : نعم ، وهل أريدُ إلاّ المُبارزَة ! فبارزَه فقتلَه صاحب موسى ، فقال مَلِك الصّغد : أنزلتُكم وأكرمتُكم فقتلتم فارس الصّغد ! لولا أنّي أعطيتُك وأصحابَك الأمان لقتلتُكم ، اخرُجوا عن بلدي ، ووَصَله . فخرج موسى فأتى كِسّ فكَتَب صاحبُ كِسّ إلى طَرْخونَ يستنصِره ، فأتاه ، فخرج إليه موسى في سبعمائة فقاتَلَهم حتى أَمسَوْا ، وتَحاجزَوا وبأصحاب موسى جراحٌ كثيرة ، فلما أصبحوا أمرهم موسى فحلّقوا رؤوسهَم كما يَصنَع الخوارج ، وقطعوا صفِنات أخبِيَتهم كما يصنع العَجَم إذا استماتوا .

وقال موسى لزُرْعة بن علقمة : انطلِق إلى طَرْخون فاحتلْ له . فأتاه ، فقال له طَرخون : لِمَ صَنَع أصحابك ما صنَعوا ؟ قال : استقتلوا فما حاجتك إلى أن تَقتل أيّها الملك موسى وتُقْتَل ! فانك لا تصل إليه حتى يقتَل مثل عدتّهم منكم ، ولو قتلتَه وإياهم جميعاً ما نلت حظّاً ، لأنّ له قَدراً في العَرَب ، فلا يلي أحدٌ خُراسانَ إلاّ طالَبَك بدمه ، فإن سلمتَ من واحد لَم تَسلَم من آخَر ؛ قال : ليس إلى تَرْكِ كِسّ في يدِه سبيل ؛ قال :

فكُفّ عنه حتى يَرتحِل ، فكفّ وأتى موسى التِّرْمِذ وبها حصن يُشرِف على النهر إلى جانب منه ، فنزل موسى على بعض دَهاقين التِّرمذ خارجاً من الحِصْن والدِّهقان مُجانِب لِتِرْمِذشاه ، فقال لموسى : إنّ صاحبَ التِّرمِذ متكرّم شديدُ الحياء ، فإن ألطفْتَه وأهَدْيْت إليه أدخلَكَ حِصنَه ، فإنه ضعيف ، قال : كلاّ ، ولكنّي أسألُه أن يُدخلِني حِصنَه ، فسأله فأبىَ ، فما كَرِهَ موسى وأهدى له وألطَفه ، حتّى لطف الذي بينهما ، وخرج فتصيّد معه ، وكثر إلطاف موسى له ، فصَنَع صاحبُ الترمذ طعاماً وأرسل إليه : إنّي أحِبّ أكرِمَك ، فتغدَّ عندي ، وائتني في مائة من أصحابك . فانتخَب موسى من أصحابه مائةً ، فدخلوا على خُيولهم ، فلما صارت في المدينة تصاهَلَتْ ، فتطيّر أهلُ الترْمذ وقالوا لهم : انزلوا ، فنزَلوا ، فأدخِلوا بيتاً ، خمسين في خمسين ، وغدّوهم .

فلما فرَغوا من الغَداء اضطجع موسى ، فقالوا له : اخرُج ، قال : لا أصيب مَنزلاً مِثلَ هذا ، فلستُ بخارج منه حتى يكون بيتي أو قَبْري . وقاتَلوهم في المدينة ، فقُتِل من أهِل الترمذ عدّة ، وهرب الآخرون فدخلوا مَنازِلهم ، وغلب موسى على المدينة ، وقال لِترمِذ شاه : اخرج : فإنيّ لستُ أعرض لك ولا لأحد من أصحابك . فخرج الملِك وأهلُ المدينة فأتوا الترْكَ يستنصرونهم ، فقالوا : دخل إليكم مائـة رجل فأخرَجوكم عن بلادكم ، وقد قاتلناهم بِكسّ ، فنحن لا نقاتل هؤلاء . فأقام ابن خازم بالتِّرمِذ ، ودخل إليه أصحابُه ، وكانوا سبعمائة ، فأقام ، فلمّا قُتِل أبوه انضمّ إليه من أصحاب أبيه أربعمائة فارس ، فقوي ، فكان يخرج فيُغير على مَن حولَه . قال : فأرسل الترك قوماً إلى أصحُاب موسى ليَعلَموا عِلمَه ، فلما قَدِموا قال موسى لأصحابه : لا بدّ من مَكيدة لهؤلاء ـ قال: وذلك في أشدّ الحرّ ـ فأمر بنار فأجِّجَتْ، وأمَرَ أصحابَه فلَبسوا ثيابَ الشتاء، ولبسوا فوقَها لُبوداً، ومدُّوا أيديَهم إلى النار كأنهم يصطَلُون. وأذن موسى للترك فدخلَوا، ففَزِعُوا ممّـا رأَوا، وقالوا: لِمَ صنعتم هذا؟ قالوا: نجد البَرْد في هذا الوقت، ونجد الحرّ في الشتاء، فـرجعوا وقـالوا: جِنٌّ لا نُقاتِلهم. قال: وأراد صاحبُ الترك أن يغزوَ موسى، فوّجه إليه رُسُلاً، وبعث بسمّ ونُشّاب في مسك، وإنما أراد بالسمّ أنّ حربَهم شديدة، والنشّاب الحرب، والمسك السلم، فاخترْ الحربَ أو السلم، فأحرق السمّ، وكسر النشاب، ونثر المِسْك، فقال القوم: لَمْ يريدوا الصّلح، وأخبر أنّ حربهم مثل النار، وإنه يَكْسرُنا، فلم يَغزُهم.

قال : فولي بُكيْرُ بن وشاح خُراسانَ فلم يَعرِض له ، ولم يوجّه إليه أحداً ، ثمّ قدم أميَّة فسار بنفسه يريدُه ، فخالَفَه بكير ، وخلع ، فرجع إلى مرْو ، فلما صالح أمية بكيراً أقام عامَه ذلك ، فلما كان في قابِل وجّه إلى موسى رجلاً من خُزاعَة في جَمع كثير ، فعاد أهلُ الترمذ إلى الترك فاستنصَروهم فأبَوا ، فقالوا لهم : قد غزاهم قومٌ منهم وحصروهم ، فإنْ أعنّاهم عليهم ظفِرنْا بهم ، فسارت الترْك مع أهل الترْمذ في جمع كثير ، فأطاف بموسىَ الترك والخُزاعيّ ، فكان يُقاتِل الخُزاعيّ أول النهار والتركَ آخِر النهـار ، فقاتَلَهم شهـرين أو ثلاثة ، فقال موسى لعمرو بن خالد بن حصين الكلابيّ ـ وكان فارساً : قد طال أمرُنا وأمرُ هؤلاء ، وقد أجمعتُ أن أبيِّت عسكرَ الخُزاعيّ ، فإنهم للبيات آمنون ، فما ترى ؟ قال : البيَات نِعمّا هو ، وليكن ذلك بالعَجَم ، فإنّ العرب أشدّ حَذَراً ، وأسرَع فَزَعاً ، وأجرأ على الليل من العَجَم ، فبَيِّتْهم فإنيّ أرجو أن ينصرَنا الله عليهم ، ثمّ ننفردَ لقتال الخُزاعيّ فنحن في حصن وهم بالعرَاء ، وليسوا بأوْلَى بالصبر ، ولا أعلم بالحَرْب منّا . قال : فأجمَعَ موسى على بيات الترك ، فلما ذهب من الليل ثُلثُه خرج في أربعمائة ، وقال لعمرو بنِ خالد : اخرجوا بعَدنا وكُونوا منّا قريباً ، فإذا سمعتم تكبيرَنا فكبّروا ، وأخذ على شاطىء النهر حتى ارتفع فوقَ العسكر ، ثمّ أخذ من

ناحية كفتان ، فلمّا قَرُبَ من عسكرهم جعل أصحابَه أرباعاً ، ثمّ قال : أطيفوا : بعسكرِهم ؛ فإذا سمعتم تكبيرَنا فكبِّروا ، وأقبَل وقدَّم عَمْراً بين يديه ومشَوْا خلفَه ، فلما رأته أصحاب الأرصاد قالوا : من أنتم ؟ قالوا : عابِري سبيل .

قال : فلما جاوزا الرَّصَد وأطافوا بالعسكر وكبّروا ، فلم يشعر الترك إلّا بوَقْع السيوف ، فثاروا يقتل بعضهم بعضاً وولّوا ، وأصيب من المسلمين ستّة عشر رجلاً ، وحَووا عسكَرَهم وأصابوا سلاحاً ومالاً ، وأصبح الخُزاعيّ وأصحابه قد كسرَهم ذلك ، وخافوا مِثلها من البَيات ، فتحذّروا . فقال لموسى عمرو بن خالد : إنك لا تَظفر إلّا بمكيدة ولهم أمداد وهم يكثرون ، فدَعْني آتِهم لعلّي أصيب من صاحبهم فرصة ؛ إني إن خلوتُ به قتلتُه ، فتناوَلْني بضرب ، قال : تتعجّل الضرّب وتتعرّض للقتل ! قال : أما التعرّض للقتْلْ فأنا كلّ يومٍ متعرِّضٌ له ، وأما الضرب فما أيْسَرَهُ في جَنْب ما أريد . فتناوَلَه بضرب ، ضربه خمسين سَوْطاً ، فخرج من عسكر موسى فأتى عسكر الخُزاعيّ مستأمِناً وقال : أنا رجل من أهل اليَمَن كنتُ مع عبدالله بن خازم ، فلما قُتِل أتيتُ ابنَه فلم أزل معه ، وكنتُ أوّل من أتاه ، فلما قدمت اتهمَني ، وتعصّب عليّ ، وتنكّر لي وقال لي : قد تعصّبت لعدّونا ، فأنت عينٌ له ، فضَرَبني ، ولم آمَن القَتْل ، وقُلت : ليس بعد الضرب إلّا القتل ، فهربت منه ، فآمنه الخُزاعيّ وأقام معه .

قال : فدخل يوماً وهو خالٍ ولم يَرَ عنده سلاحاً ، فقال كأنه يَنصحَ له : أصلَحَك الله ! إنّ مِثلَك في مثل حالك لا ينبغي أن يكون في حال من أحواله بغير سلاح ، فقال : إنّ معي سلاحاً ، فرفَع صدر فراشه فإذا سَيفٌ منتضىً ، فتناوَله عَمرو فضرَبَه فقتله ، وخرج فركب فرسَه ، ونَذروا به بعد ما أمعَن ، فطلبوه ففاتَهم ، فأتى موسى وتفرّق ذلك الجيش ، فقطع بعضُهم النهر ، وأتى بعضُهم موسى مستأمِناً ، فآمنه ، فلم يوجِّه إليه أميّةُ أحداً .

قال : وعُزِل أميّة ، وقَدِم المهلب أميرا ، فلم يَعرِض لابن خازم ، وقال لبنيه : إياكم وموسى ، فإنكم لا تزالون وُلاةَ هذا الثغر ما أقام هذا الثطّ ، بمكانِه ، فإنْ قُتل كان أوّل طالع عليكم أميراً على خُراسان رجلٌ من قيس . فمات المهلب ولم يوّجه إليه أحداً ، ثم تولى يزيدُ بنُ المهلب فلم يَعرِض له . وكان المهلب ضرب حُرَيْث بن قُطْبة الخُزاعيّ ، فخرج هو وأخوه ثابت إلى موسى ، فلما ولي يزيد بن المهلب أخذ أموالَهما وحرَمَهما وقَتَل أخاهما لأمهما ، الحارث بن مُنقِذ وقَتَل صِهراً لهما كانت عندَه أمّ حفص ابنةُ ثابت ، فبلَغهما ما صنع يزيد .

قال : فخرج ثابت إلى طَرْخون فَشَكا إليه ما صنع به ـ وكان ثابت محبَّباً في العَجَم ، بعيدَ الصّوت ، يعظمونه ويثقون به ، فكان الرّجل منهم إذا اعطى عهداً يريدُ الوفَاء به حلفَ بحياة ثابت فلا يَغدِر ـ فغَضِب له طَرْخون وجمَع له نَيْزك والسُّبَل وأهلَ بخارى والصَّغانيان ، فقدِموا مع ثابت إلى موسى بن عبدالله وقد سُقِط إلى موسى فَلّ عبدالرحمن بن العباس مِن هَراةَ ، وفلّ ابن الأشعث من العراق ومن ناحية كابُل ، وقومٌ من بني تميم ممن كان يقاتل ابن خازم في الفتنة من جهل خُراسان ، فاجتمع إلى موسى ثمانية آلاف من تميم وقيس وربيعة واليمن ، فقال له ثابت وحرَيْث : سرْ تقطع النهر فتُخرِج يزيدَ بنَ المهلب عن خُراسان ، ونوليك ، فإنّ طَرْخون ونَيزَك والسبل وأهلَ بُخارَى معك ، فهمّ أن يفعَل ، فقال له أصحابه :إن ثابتا وأخاه خائفان ليزيد ، وإن أخرجت يزيدَ عن خُراسان وأمِنَا تولّيا الأمر وغلباك على خُراسان ، فأقمْ مكانَك . فقبل رأيَهم ، وأقام

بالترْمِذ . وقال لثابت : إنْ أخرجْنا يزيد قَدِم عاملٌ لعبدالملك ، ولكنا نخرِج عمَّال يزيدَ من وراء النهر مما يلينا ، وتكون هذه الناحية لنا نأكلها ، فرضِي ثابت بذلك ، وأخرج من كان من عمال يزيدَ من وراء النهر ، وحُملت إليهم الأموالُ ، وقويَ أمرُهم وأمرُ موسى ، وانصرف طرخون ونيزك وأهل بخارى والسُّبل إلى بلادهم ،وتدبير الأمر لحرْيث وثابت ، والأميرُ موسى ليس له غيرُ الاسم ، فقال لموسى أصحابُه : لسنا نرى من الأمر في يديك شيئاً اكثر من اسم الأمارة ، فأمَّا التدبير فلِحُريث وثابت ، فاقتُلهما وتولَّ الأمرَ . فأبى وقال : ما كنت لأغدر بهما وقد قوَّيا امري ، فحسَدُوهما وألحّوا على موسى في أمرهما حتى أفسَدوا قلبَه ، وخوّفوه غدرَهما ، وهمَّ بمتابَعتهم على الوثُوب بثابت وحُريث . واضطرَب أمرُهم ، فإنهم لفي ذلك إذ خرجتْ عليهم الهَياطِلة والتُّبَّت والتُّرك ، فأقبلوا في سبعين ألفاً لا يعُدّون الحاسرَ ولا صاحبَ بَيْضة جمّاء ، ولا يعدون إلاّ صاحبَ بَيْضة ذات قَوْنَس . قال : فخرج أبنُ خازم إلى رَبَض المدينة في ثلاثمائة راجل وثلاثين مجفّفاً ، وألقِيَ له كرسيٌ فقعد عليه . قال : فأمر طَرْخون أن يثلم حائطَ الرّبض ، فقال موسى : دَعُوهم ، فهدموا ودخل أوائلهم ، فقال : دعُوهم يكثرون ، وجعل يقلّب طَبْرزِينا بيده ، فلما كثروا قال : الآن امنعوهم ، فركب وحمل عليهم فقاتَلَهم حتى أخرَجهم عن الثُّلمة ، ثم رجع فجلس على الكرسيّ وذمّر الملكُ أصحابه ليعودوا ، فأبَوْا ، فقال : لفرسانه : هذا الشيطان ، منْ سَرّه أن ينصرَ إلى رستم فلينظْر إلى صاحب الكرسيّ ، فمن أبى فليقّدم عليه . ثمّ تحوّلت الأعاجم إلى رُسْتاق كفتان . قال : فأغاروا على سَرْح موسى ، فاغتمّ ولم يَطعم ، وجعل يعبث بلِحيته ، فسار ليلا على نهر في حافَتَيْه نبات لم يكن فيه ماء ، وهو يُفضِي إلى خَندَقهم ، في سبعمائة ، فأصبحوا عند عسكرهم ، وخرج السَّرْح فأغار عليه فاستاقه ، وأتبعه قومٌ منهم ، فعطف عليه سَوَّار ، مولًى لموسى ، فطعن رجلاً منهم فصرَعَه ، فرجعوا عنهم وسَلِم مُوسى بالسَّرح ، قال : وغاداهم العَجَم القتال ، فوقف مَلِكُهم على تلّ في عشرة آلاف في أكمل عُدة ، فقال موسى : إن أزلتم هؤلاء فليس الباقون بشيء . فقصد لهم حُرَيْثُ بن قُطْبة فقاتَلَهم صدرَ النهار ، وألحّ عليهم حتى أزالوهم عن التلّ ، ورُمي يومئذ حُريث بُنشابه في جبهته ، فتحاجزوا ، ، فبَيَّتهم موسى ، وحمل أخوه خازم بن عبدالله بن خازم حتى وصل إلى شمعة مَلِكهم ، فوجأ رجلاً منهم بقَبِيعة سيفِه ، فطعن فَرسه ، فاحتَمله فألقاه في نهر بَلْخ فغَرق ، وعليه درْعان ، فقتل العجمَ قَتْلاً ذريعاً ، ونجا منهم من نجا بشرّ ، ومات حُريث بن قطبة بعد يومين ، فدُفن في قّبته .

قال : وارتحل موسى ، وحَملوا الرؤوسَ إلى التِّرمذ ، فبنَوا من تلك الرؤوس جوسقين ، وجعلوا الرؤوس يقابل بعضها بعضاً . وبلغ الحجّاج خبرُ الوقعة ، فقال : الحمدلله الذي نَصرَ المنافقين على الكافرين ، فقال أصحاب موسى : قد كُفِينا أمرَ حُريث ، فأرحْنا من ثابت ، فأبَى وقال : لا . وبلَغَ ثابتا بعضُ ما يخوضون فيه ، فدسّ محمد بن عبدالله بن مَرثَد الخُزاعيّ ، عمّ نَصْر بن عبدالحميد عامل أبي مسلم على الرّيّ ـ وكان في خدمة موسى بن عبدالله ـ وقال له : إياك أن تتكلم بالعربية ، وإن سألوك من أين أنتَ ! فقل : من سَبْي الباميان ، فكان يخدم موسى وَينقُل إلى ثابت خبرَهم ، فقال له : تحفَّظْ ما يقولون . وحَذِر ثابت فكان لا ينام حتى يرجَع الغلام ، وأمر قوماً من شاكِريّته يحرسونه ويبيتون عندَه في داره ، ومعهم قوم من العَرَب وألح القوم على موسى فأضجَروه ، فقال لهم ليلةً : قد أكثرتم علي ، وفيم تريدون هلاكَكَم ، وقد أبرَمْتموني ! فعلى أيّ وجه تَفتِكون به ، وأنا لا أغدر به ! فقال نوح بن عبدالله أخو موسى : خَلِّنا وإياه ، فإذا غدا إليك غُدوةً عَدلْنا به إلى بعض الدّور ، فضربْنا عنقَه فيها قبل أن يصلَ إليك . قال : أمَا والله إنه لهَلاككم ،وأنتم أعلم ـ والغلام يَسمَع ـ فأتى

ثابتاً فأخبَره، فخرج من ليلته في عشرين فارساً فمضى وأصبَحوا وقد ذهب فلم يَدْروا من أين أوتُوا، وفَقَدوا الغلام، فعلِموا أنه كان عَيْنا له عليهم، ولحق ثابت بحشورا فنَزل المدينة، وخرج إليه قومٌ كثير من العَرَب والعجَم، فقال موسى لأصحابه: قد فتحتم على أنفسكم باباً فسُدّوه، وسار إلى موسى، فخرج إليه ثابت في جمع كثير فقاتلَهم، فأمر موسى بإحراق السور، وقَاتلَهم حتى الجئوا ثابتاً وأصحابَه إلى المدينة، وقاتلوهم عن المدينة.

فأقبل رقبة بن الحرّ العَنبريّ حتى اقتحم النار، فانتهى إلى باب المدينة ورجل من أصحاب ثابت واقفٌ يحمِي أصحابَه فقَتَله، ثمّ رجع فخاض النار وهي تَلتهِب، وقد آخذْت بجوانب نَمَط عليه، فرَمَى به عنه ووقَفَ، وتحصّن ثابت في المدينة، وأقام موسى في الرّبَض، وكان ثابت حين شَخَص إلى حشورا أرسَل إلى طَرْخون فأقبَل طرْخون مُعيناً له، وبلغ موسى مجيء طَرْخون، فرجع إلى التّرْمذ، وأعانه أهلُ كِسّ ونَسفَ وبُخارَي ، فصار ثابت في ثمانين ألفاً، فحَصَروا موسى وقطعوا عنه المادّة حتى جُهدوا.

قال: وكان أصحابُ ثابت يَعبُرون نهراً إلى موسى بالنهار ـ ثمّ يرجعون بالليل إلى عسكرهم، فخرج يوماً رَقَبة ـ وكان صديقاً لثابت، وقد كان يَنهي أصحاب موسى عمّا صنعوا ـ فنادى ثابتاً، فبَرزَ له ـ وعلى رَقَبة قَباء خَزّ فقال له: كيف حالك يا رقبه؟ فقال: ما تسأل عن رجل جبه خَزّ في حَمارَّة القَيْظ! وشكا إليه حالهم، فقال: أنتم صنعتم هذا بأنفسِكم، فقال: أما والله ما دخلتُ في أمرهم، ولقد كرهتُ ما أرادوا، فقال ثابت: أين تكون حتى يأتيك ما قُدّر لك؟ قال: أنا عند المُحلّ الطفاوي ـ رجلٌ من قيس من يَعْصُر ـ وكان المحلّ شَيخاً صاحب شراب ـ فنزل رَقَبة عنده.

قال: فبعث ثابت إلى رَقَبة بخمسمائة درهم مع علي بن المهاجر الخزاعيّ، وقال: إن لنا تجّاراً قد خرجوا من بَلْخَ، فإذا بلغك أنهم قد قدموا فأرسِلْ إليّ تأتِكَ حاجَتُك. فأتى على باب المُحِلّ، فدخل فإذا رَقَبة والمحل جالسان بينهما جَفْنة فيها شراب، وخِوانٌ عليه دَجاج وأرغفة، ورَقبة شَعِث الرأس، متوشّح بملحفة حمراء، فَدفع إليه الكِيس، وأبلَغه الرسالة وما كلمه، وتناول الكيس وقال له بيَدِه، اخرجْ، ولم يكلّمه.

قال: وكان رقبةُ جَسيما كبيراً، غائرَ العينيِن، ناتِيء الوَجْنَتين، مفلّج، بين كلِّ سِنَّيْن له موضع سنّ، كأنّ وجْهه تُرْس.

قال: فلمّا أضاق أصحابُ موسى واشتدّ عليهم الحصار قال يزيد بنُ هزيل: إنما مقَام هؤلاء مع ثابت والقَتْل أحسَنُ من الموت جُوعاً، والله لأفتكنّ بثابت أو لأموتنّ. فخرج إلى ثابت فأستأمَنَه، فقال له ظُهير: أنا أعرَفُ بهذا منك، إنّ هذا لم يأتِك رغبةً فيك ولا جَزَعاً لك، ولقد جاءك بُغدْرة، فاحذَرْه وخَلْني وإياه، فقال: ما كنتُ لأقدِم على رَجل أتاني، لا أدري أكذلك هو أم لا. قال: فدَعني أرتهن منه رَهْناً، فأرسل ثابت إلى يزيدَ فقال: أما أنا فلم أكن أظنّ رجلاً بغدر بعدما يَسأل الامان، وابنُ عمِّك أعلَم بك مني، فانظر ما يُعامِلك عليه، فقال يزيد لظهير: أبيتَ يا أبا سعيد إلا حَسَداً! قال: أما يكفيك ما تَرَى من الذُّل! تشرّدتُ عن العِراق وعن أهلي، وصرتُ بخُراسان فيما ترى، أفما تَعطِفك الرَّحمُ! فقال له ظُهير: أما والله لو تُرْكْتُ ورأيي فيكَ لما كان هذا، ولكن أرْهِنّا ابنيْك قُدامة والضحّاك. فدَفَعهما إليهم، فكانا في يديْ ظُهير.

قال: وأقام يزيدُ يَلتَمس غِرّةَ ثابت، لا يَقدِر منه على ما يريد، حتى مات ابنٌ لزياد القصير الخُزاعيّ، أتى أباه نَعيّه من مَرْوَ، فخرج متفضّلا إلى زياد ليعزّيه، ومعه ظُهير ورَهطٌ من أصحابه، وفيهم يزيد بن هُزَيل، وقد غابت الشمس، فلما صار على نهر الصغانيان تأخّر يزيد بن هزيل ورجلان معه، وقد تقدم ظُهير وأصحابه،

فدنا يزيد من ثابت فضر به فعضّ السيف برأسه، فوصل إلى الدماغ. قال: ورمى يزيد وصاحباه بأنفسِهم في نَهْر الصَّغانيان، فرمَوْهم، فنجا يزيدُ سباحة وقُتل صاحباه، وحُمِل ثابت إلى منزله، فلما أصبح طَرْخون أرسَل إلى ظهير: إئتني بابنَيْ يزيدَ، فأتاه بهما، فقدّم ظهيرٌ الضّحاك بن يزيدَ فقتله، ورمى به وبرأسه في النهر، وقدّم قدامَة ليقتلَه، فالتفتَ فوقَعَ السيف في صَدره، ولم يُبِنْ فألقاه في النهر حيًّا فغَرِق، فقال طرخون: أبوهما قتلهما وغدرُه. فقال يزيد بن هزيل: لأقتلنّ يا بنيّ كلَّ خُزاعيّ بالمدينة، فقال له عبدالله بنُ بُدَيل بن عبدالله بن بُدَيل بن وَرْقاء ـ وكان ممن أتى موسى من فَلّ ابن الأشعث: لو رُمْتَ ذاك من خُزاعة لَصعُب عليكَ. وعاش ثابت سبعةَ أيام ثمّ مات. وكان يزيدُ بن هزيل سخيًّا شجاعاً شاعراً، ولي أيّام ابن زياد جزيرة ابن كاوان، فقال:

قد كنتُ أدعو اللهَ في السرّ مخلصاً ليُمْكِّنني من جزيةٍ ورِجالِ
فأترُك فيها ذكر طَلحةَ خاملًا ويُحمَدُ فيها نائلي وفِعالي

قال: فقام بأمر العَجَم بعد موت ثابت طَرْخون، وقام ظُهَير بأمر أصحاب ثابت، فقاما قياماً ضعيفاً، وانتشَر أمرُهم، فأجمع موسى على بَياتِهم، فجاء رجلٌ فأخبرَ طرخون، فضَحِك وقال: موسى يَعجز أن يدخل متوَضأه، فكيف يبيّتنا! لقد طار قلْبك، لا يحرسنّ الليلة أحدٌ العَسكَر. فلما ذهب من الليل ثُلثُه خرج موسى في ثمانمائة قد عبّاهم من النهار، وصيّرهم أرباعاً. قال: فصيّر على رُبْع رَقَبة بن الحرّ وعلى رُبْع أخاه نُوح بن عبدالله بن خازم، وعلى رُبْع يزيدَ بن هزيل، وصار هو في ربع، وقال لهم: إذا دخلتم عسكرَهم فتفرّقوا، ولا يمُرَّن أحدٌ منكم بشيء إلّا ضربه، فدخلوا عسكرَهم من أربع نواحٍ لا يمرّون بدابّة ولا رجل ولا خِباء ولا جوالق إلّا ضَرَبوه. وسمع الوجبَة نَيْزك فَلبس سلاحَه، ووقف في ليلة مظلمة، وقال لعليّ بن المُهاجر الخُزاعي: انطلق إلى طرْخونَ فأعلمه مَوقفي، وقل له: ما ترى أعمل به، فأتى طرخَون، فإذا هو في فازة قاعدٌ على كرسيّ وشاكِرّيته قد أوقَدوا النيرانَ بين يديْه، فأبلغه رسالةَ نَيزَك، فقال: اجلسْ، وهو طامح ببصره نحَو العسكر والصّوت، إذا أقبل مُحْمِيَةُ السُّلميّ وهو يقول: «حم لا يُنْصَرونَ»، فتفرّق في الشاكرّية، ودخل محمِيَةُ الفازة، وقام إليه طرْخون فَبَدره فَضربه، فلم يُغنِ شيئاً، قال: وطَعَنه طرْخون بذُباب السيف في صَدْره فصَرَعه، ورجع إلى الكرسيّ فجلس عليه، وخرج محمِيه يَعدُو.

قال: ورجعت الشاكرّية، فقال لهم طَرْخون: فرَرتم من رجل! أرأيتم لو كان ناراً هل كانت تُحرِق منكم أكثر من واحد! فما فَرَغ من كلامه حتى دخل جوارِية الفازّة، وخَرَج الشاكرّية هُرّبا، فقال للجواري: اجلِسْن، وقال لعليّ بن المهاجر: قُمْ، قال: فخرجا فإذا نوح بن عبدالله بن خازم في السُّرادق، فتجاوَلا ساعة، واختلَفا ضربتيْن، فلم يَصنعَا شيئاً، وولّى نوح وأتبَعه طَرْخون، فطَعَن فرس نُوح في خاصِرتَه فشَبّ، فسَقَط نُوح والفَرَس في نهر الصَّغانيان، ورجع طَرْخون وسيفُه يَقطُر دماً، حتى دخل السرادق وعلي بن المهاجر معه، ثم دخلا الفازة.

وقال طَرْخون للجواري: ارجعن، فرَجعنَ إلى السرادق، وأرسَل طرخون إلى موسى: كُفَّ أصحابك؟ فإنا نرتحل إذا أصبحْنا، فأنا نرتحل إذا اصبحنا فرجع موسى إلى عسكره فلما اصبحوا ارتحل طرخون والعجم جميعاً فأتى كلّ قوم بلادهم، قال: وكان أهل خُراسانَ يقولون: ما رأَيْنا مِثلَ موسى بن عبدالله بن خازم، ولا سمعنا به، قاتَلَ مع أبيه سنتين، ثمّ خرج يسير في بلاد خُراسان حتى أتى مَلِكا فغلَبه على مدينته وأخرَجَه منها، ثمّ سارت إليه الجُنود من العَرَب والترك فكان يُقاتِل العرب أوّل النهار والعَجَم آخر النهار، وأقام في حِصنه خمسَ عشرة سنة، وصار ما وراء النهر لموسى، لا يُعازّه فيه أحدٌ.

قال : وكان بقومس رجلٌ يقال له عبدالله ، يَجتمع إليه فِتيانٌ يتنادَمون عندَه في مؤونته ونفقتَه ، فلزِمه ديْن ، فأتى موسى بن عبدالله ، فأعطاه أربعة آلاف ، فأتى بها أصحابَه ، فقال الشاعر يُعاتب رجلا يقال له موسى :

فمـا أنتَ مُـوسَى إذ يُنـاجِـي إلٰهَـهُ ولا وَاهِب القَيْنَـات مـوسَى بنُ خـازِمِ

قال : فلما عُزل يزيدُ ووُلِّي المفضّل خُراسانَ أراد أن يحظى عند الحجّاج بقتالَ موسى بن عبد الله ، فأخرج عثمانَ بن مسعود ـ وكان يزيدُ حَبَسه ـ فقال : إني أريد أن اوجهك إلى موسى بن عبد الله ، فقال : والله لقد وَترَني ، وإنيّ لثائر بابن عمتي ثابت وبالخُزاعيّ ، وما يدَ أبيك وأخيك عندي وعندَ أهل بيتي بالحَسنة ، لقد حبستموني وشرّدتم بني عمّي ، واصطَفَيْتم أموالهم . فقال له المفضَّل : دع هذا عنك ، وسرْ فأدْرِك بثأرِك ، فوّجهه في ثلاثة آلاف ، وقال له : مُرْ منادياً فليُناد : مَن لحق بنا فلَه ديوان ، فنادَى بذلك في السوق ، فسارَعَ إليه الناس . وكتب المفضّل إلى مدرِك وهو ببلْخ أن يسيرَ معه ، فخرج ، فلما كان ببَلْخ خرج ليلةً يطوف في العسكر ، فسَمِع رجلا يقول : قتلُه والله ، فرَجَع إلى أصحابه ، فقال : قتلتُ موسَى وربِّ الكعبة ! .

قال : فأصبَح فسار مِنْ بَلْخ وخرج مدرك معه مُتثاقِلاً ، فقطع النهرَ فنَزل جزيرةً بالتِّرمِذ يقال لها اليومَ جزيرة عثمان ـ لنزول عثمانَ بها في خمسة عشر ألفاً ـ وكتب إلى السَّبل وإلى طَرْخونَ فقَدموا عليه ، فحَصَروا موسى ، فضيَّقوا عليه وعلى أصحابه ، فخرج موسى ليلاً فأتى كفتان ، فامتار منها ، ثمّ رجع فمكث شهرين في ضِيق ، وقد خَنْدق عثمان وحذر البَيَات ، فلم يَقدِر موسى منه على غِرَّة ، فقال لأصحابه : حتى متى! اخرُجُوا بنا فـاجعلوا يومكم ، إمـا ظفرتم وامـا قُتِلتم ، وقال لهم : اقصِـدوا للصّغد والتـرك ، فخرج وخلّف النضرَ بنَ سليمان بن عبدالله بن خازم في المدينة ، وقال له : إن قُتلتُ فلا تدفعنّ المدينة إلى عثمان ، وادفعها إلى مُدرِك بن المهلّب . وخرج فصيّر ثُلثَ أصحابه بإزاء عثمان وقال : لا تهايجوه إلاّ أن يقاتلكم ، وقصد لطَرْخون وأصحابه ، فَصدقوهم ، فانهزم طرْخونُ والترك ، وأخذوا عسكَرهم فجعلوا يَنقلُونه ، ونظر معاويةُ بن خالد بن أبي بَرْزة إلى عثمانَ وهو على بِرْذَون لخالد بن أبي برْزة الأسلميّ ، فقال : انزل أيها الأمير ، فقال خالد : لا تنزلْ فإنّ معاوية مشؤوم . وكرّت الصُّغد والترك راجعةً ، فحالوا بين موسى وبين الحصن ، فقاتَلهم ، فعُقِر به فَسقَط ، فقال لمولًى له : احملني ، فقال : الموتُ كَريه ، ولكن ارتدِف ، فإنْ نجوْنا نجوْنا جميعاً ، وإن هلكْنـا هلكنا جميعـاً . قال : فارتَدَف ، فنظر إلى عثمانُ حين وَثَب فقال : وَثْبةُ موسى وربِّ الكعبة! وعليه مِغفَر له مُوشًى بخزّ أحمرَ في أعلاه ياقوتة اسمانْجُونيَّة ، فخرج من الخندق فكَشَفوا أصحابَ موسى . فقصد لموسى ، وعثرتْ دابة موسى فسَقَط هو ومَوْلاه ، فابتدَرُوه فانطَووا عليه فقتلوه ، ونادى منادِي عثمان : لا تَقتُلوا أحداً ، من لقيتموه فخُذوه أسيراً .

قال : فتفرّق أصحابُ موسى ، وأسِر منهم قومٌ ، فعُرِضوا على عثمان ، فكان إذا أتي بأسير من العرب قال : دِماؤنا لكم حلال ، ودماؤكم علينا حرام ! ويأمر بقتلِه ، وإذا أتِيَ بأسير من المَوالي شَتمه ، وقال : هذه العربُ تقاتلني ، فهَلّا غضبتَ لي ! فيأمر به فُيشدَخ . وكان فَظّاً ، غليظاً فلم يسلِّم عليه يومئذ أسيرٌ إلاّ عبدالله بنَ بُدَيل بن عبدالله بن بُديْل بن وَرْقاء ، فإنه كان مولاه ، فلما نظر إليه أعرَض عنه وأشار بيده ان خَلّوا عنه ، ورَقَبه بن الحرّ لما أتِي به نَظَر إليه وقال : ما كان من هذا إلينا كبيرُ ذَنْب ، وكان صديقاً لثابت ، وكان مع قوم فَوَفى لهم ، والعَجَب كيف أسرْتُموه ! قالوا : طعُن فرسُه فسَقَطَ عنه في وِهدة فأسِر ، فأطلقَه وحَمله ، وقال لخالد بن أبي بَرْزة : ليكُن عندَك . قال : وكان الذي أجهَز على موسى بن عبدالله واصلُ بن طَيْسلة العَنْبريّ .

ونظر يومئذ عثمانُ إلى زُرعة بن عَلقمة السُّلميّ والحجاج بن مروان وسِنان الاعرابيّ ناحيةً فقال : لكم الامان ، فظنّ الناسُ أنه لم يؤمنهم حتى كاتَبوه .

قال: وبقيت المدينةُ في يَدَي النضرْ بن سليمان بن عبدالله بن خازم ، فقال: لا ادفعُها إلى عثمان. ولكني ادفعها إلى مُدرك، فدفعها إليه وآمَنه، فدفَعها مُدرك إلى عثمانَ. وكتب المفضّل بالفَتْح إلى الحجّاج، فقال الحجّاج: العجب من ابن بَهْلة - آمرهُ بقَتْل ابن سَمُرة فيكتب إليّ أنه لمآبه ويكتب إلي: إنه قَتَل موسى بن عبدالله بن خازم، قال: وقُتِل موسى سنة خمس وثمانين، فذَكر البحتريّ أن مَغراء بن المغيرة بن أبي صُفْرة قَتَلَ موسى فقال:

وقد عَرَكْتْ بالتِّرمذ الخيلُ خازماً ونوحاً وموسى عَركةً بالكَلاكل

قال : فضرب رجل من الجند ساق موسى، فلما ولّى قتيبة أخبر عنه فقال : ما دعاك إلى ما صنعتَ بفتى العرب بعد مَوْته!! قال : كان قَتَل أخي ، فأمَر به قُتَيْبة فقُتِل بين يديه .

وفي هذه السنة أراد عبدُالملك بن مروانَ خلعَ أخيه عبدِالعزيز بن مَرْوان .

ذكر الخبر عن ذلك وما كان من أمرهما فيه :

ذكَر الواقديّ أنّ عبدَالملك همّ بذلك ، فنَهاه عنه قَبيصةُ بن ذُؤيب ، وقال : لا تَفعل هذا ، فإنك باعثٌ على نفسك صوتَ نعّار ، ولعلّ الموتَ يأتيه فتستريحَ منه ! فكفّ عبدُالملك عن ذلك ونفسُه تُنازِعه إلى أن يَخلعَه . ودخل عليه رَوْح بن زِنْباع الجُذاميّ - وكان أجلَّ الناس عندَ عبدالملك - فقال : يا أمير المؤمنين ، لو خلعتَه ما انتَطَح فيه عنْزان ، فقال : ترَى ذلك يا أبا زرْعة ؟ قال : إي والله ، وأنا أوّلُ من يُجيبُك إلى ذلك ، فقال : نَصيحٌ إن شاء الله . قال : فبينا هو على ذلك وقد نامَ عبدُالملك ورَوْح ابنُ زِنْباع إذ دخل عليهما قَبيصة بن ذُئيب طروقا ، وكان عبدالملك قد تقدّم إلى حُجّابه فقال : لا يُحجب عنّي قبيصة أي ساعة جاء من ليل أو نهار ، إذا كنت خالياً أو عندي رجل واحد ، وإن كنت عند النساء أدخِل المجلس واعلِمتُ بمكانه فَدَخل ، وكان الخاتَمُ إليه ، وكانت السكّة إليه ، تأتيه الأخبارُ قبل عبدِالملك ، ويَقرأ الكتبَ قبلَه ، ويأتي بالكتاب إلى عبدالملك مَنْشورا فيقرؤه، إعظاماً لقبيصة - فدخل عليه فسلم عليه وقال : آجرَك الله يا أميرَ المؤمنين في أخيك عبدالعزيز ! قال : وهل تُوفِّي ؟ قال : نعم ، فاسترجَع عبدُالملك ، ثمّ أقبَل على رَوْح فقال : كفانا الله أبا زُرْعة ما كنا نريد وما أجمعنا عليه ، وكان ذلك مخالفاً لك يا أبا إسحاق ، فقال قَبيصة : ما هو ؟ فأخبَرَه بما كان ، فقال قبيصة : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ الرأي كله في الأناة ، والعجلةُ فيها ما فيها ، فقال عبدُالملك : ربما كان في العَجَلة خيرٌ كثير ، رأيتَ أمرَ عمرو بن سعيد ، ألم تكن العَجَلة فيه خيراً من التأنّي !

وفي هذه السنة تُوفِّي عبدُ العزيز بن مَروان بمصرَ في جُمادَى الأولى ، فضمّ عبدالملك عَمَله إلى ابنه عبدِالله بن عبدالملك ، وولاّه مصرَ .

وأما المدائنيّ فإنه قال في ذلك ما حدّثنا به أبو زَيد عنه ، أنّ الحجّاج كَتَب إلى عبدالملك يزيّن له بيعةَ الوليد ، وأوفَدَ وفداً في ذلك عليهم عمرانُ بن عِصام العَنَزيّ ، فقام عِمْران خطيباً ، فتكلّم وتكلّم الوَفْد وحَثّوا عبدَالملك ، وسألوه ذلك ، فقال عمران بنُ عِصام :

أميرَ المؤمنينَ إليك نُهدِي على النأي التحيَّةَ والسلاما
أجِبْني في بَنيكَ يكُنْ جوابي لهم عاديّةً ولنا قِوَامَا

فلو أنْ الوليدَ أُطاعُ فيه … جَعلتَ له الخلافةَ والذِّماما
شَبيهُكَ حَولَ قُبَّته قريشٌ … به يَستَمطِرُ الناسُ الغماما
ومثلك في التُّقى لم يَصْبُ يوماً … لدُنْ خَلَعَ القلائدَ والتَّماما
فإن تُؤثِرْ أخاكَ بها فإنَّا … وجدِّكَ لا نُطِيقُ لها أتِّهاما
ولكنَّا نُحاذِر من بَنيه … بَني العَلَّاتِ مأثَرَةً سَمَامَا
ونخشى إن جَعَلتَ المُلكَ فيهمْ … سَحَاباً إن تَعُودَ لهم جَهَامَا
فلايَكُ ما حَلبْتَ غداً لقوم … وبعدَ غدٍ بَنُوكَ هُمُ العِيامَا
فأقسِمُ لو تَخَطَّأني عِصامٌ … بذلك ما عذَرتُ به عِصاما
لو أنِّي حَبَوتُ أخاً بفضل … أريدُ به المقالةَ والمقاما
لعَقَّبَ في بَنِيَّ على بنيه … كذلك أو لَرُمتُ له مرامَا
فَمَنْ يَكُ في أقاربه صُدُوع … فصَدْعُ الملكِ أبطؤهُ التئَامَا

فقال عبدُالملك : يا عِمرانُ ، إنه عبدالعزيز ، قال : احتَلْ له يا أميرَ المؤمنين .

قال علي : أراد عبدُ الملك بيعةَ الوليد قبل أمرَ ابن الأشعث ، لأنّ الحَجّاج بعثَ في ذلك عمران بن عصام ، فلما أبى عبدُالعزيز أعرض عبدُ الملك عمّا أراد حتى ماتَ عبدُالعزيز ، ولما أراد أن يَخلَع أخاه عبدَ العزيز ويبايعَ لابنه الوليد كتب إلى أخيه : إن رأيت أن تصيرِّ هذا الأمر لابن اخيك ، فأبى ، فكَتَب إليه : فاجعلها له من بعدك ، فإنه أعزّ الخلق على أمير المؤمنين . فكتب إليه عبدالعزيز : إني أرَى في أبي بكر بنِ عبد العزيز ما تَرَى في الوليد ، فقال عبدُالملك : اللهمّ إنّ عبدالعزيز قَطَعَني فاقطعْه . فكتب إليه عبدُ الملك : احمل خراجَ مصرَ . فكَتَب إليه عبدُ العزيز : يا أمير المؤمنين ، إني وإيّاك قد بلَغْنا سِنّاً لم يبلغْها أحدٌ من أهلِ بيتك إلّا كان بقاؤه قليلا ، وإنيّ لا أدري ولا تَدرِي أيُّنا يأته الموتُ أوّلا ! فإن رأيتَ إلّا تغثّث عليّ بقية عمري فافعلْ .

فرّق له عبدُ الملك وقال : لعَمْري لا أغثّث عليه بقية عُمرِه ، وقال لابنَيه : إن يُرد الله أن يُعطِيكموها لا يَقْدِرْ أحدٌ من العباد على ردّ ذلك . وقال لابنيه : الوليد وسليمان : هل قارَفتُما حَراما قطّ ؟ قال: لا والله ، قال الله أكبر ، نِلتُماها ورب الكعبة !

قال : فلما أبى عبدُالعزيز أن يجيبَ عبدَ الملك إلى ما اراد ، قال عبدُالملك : اللهمّ قد قطعَني فاقطَعه ، فلما مات عبدُالعزيز قال أهلُ الشأم : رَدّ على أمير المؤمنين أمرَه ، فدعا عليه ، فاستُجيب له .

قال : وكتب الحجاج إلى عبدالملك يشيرُ عليه أن يستكتب محمد بن يزيدَ الأنصاريّ ، وكتب إليه إن أردتَ رجلا مأموناً فاضلاً عاقلاً وَديعا مُسلِماً كتُوما تتخّذه لنفسِك ، وتَضعَ عندَه سِرَّك ، وما لا تحبّ أن يَظهَر ، فاتخذ محمد بن يزيدَ . فكتب إليه عبدُالملك : احمله إلي . فَحَمله ، فاتَّخذَهُ عبدُالملك كاتباً . قال محمد : فلم يكن يأتيه كتابٌ إلا دفعه إليّ ، ولا يَستُر شيئاً إلّا أخبَرَني به وكَتَمه الناسَ ، ولا يكتُبُ إلى عامل من عماله إلا أعلَمنيه ، فإني لجالسٌ يوماً نِصفَ النهار إذا ببَريد قد قَدِم من مصرَ، فقال: الأذن على أمير المؤمنين. قلت: ليست هذه ساعة إذن، فاعلمني ما قد قدمت له قال: لا قلتُ: فإن كان معك كتاب فادفعه إلي. قال: لا، قال: فأبلغ بعضَ من حضَرَني أمير المؤمنين، فخرج فقال: ما هذا؟ قلتُ: رسولٌ قَدِمَ من مصرَ، قال: فخُذ الكتاب، قلتُ: زَعَم أنه ليس معه كتاب، قال: فسَلْه عما قَدِم له، قلتُ: قد سألتهُ فلم يُخبِرْني قال أدخِلْه،

فأدخَلته، فقال: آجرَك الله يا أميرَ المؤمنين في عبد العزيز! فاسترْجعَ وبَكَى ووَجَم ساعةً ثمّ قال: يَرحَم الله عبدالعزيز! مَضَى والله عبدُ العزيز لشأنِه، وتركَنَا وما نحن فيه، ثمّ بكى النساءُ وأهل الدار، ثمّ دعاني من غَد، فقال: إنّ عبددَ العزيز رحمه الله قد مَضَى لسبيله، ولا بدّ للناس من عَلَم وقائم يقومُ بالأمرْ من بَعدي، فمن تَرَى؟ قلت: يا أميرَ المؤمنين، سيّد الناس وأرضاهم وأفضلُهم الوليدُ بنُ عبد الملك، قال: صدقتَ وفّقك الله! فمَن تَرى أن يكون بعدَه؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أين تَعْدلها عن سليمان فَتَى العرب! قال: وفّقتَ، أما إنّا لو تركْنا الوليدَ وإياها لجعلهَا لبنيه، اكتُب عَهد للوليد وسُليمانَ مِنَ بَعدِه، فكتبتُ بيعةَ الوليد ثم سليمان من بعده. فغَضب عليَّ الوليدُ فلم يُولّني شيئاً حين أشرْتُ بسليمان من بعده.

قال علي، عن ابن جُعْدبة: كتب عبدُالملك إلى هشام بن إسماعيلَ المخزوميّ أن يدعوَ الناس لبيعة الوليد وسليمان، فبايعوا غيرَ سعيد بن المسيَّب، فإنه أبى، وقال: لا أبايع وعبدالملك حَيّ، فضَرَبه هشام ضَرْباً مُبرِّحاً، وألبَسَه المسُوحَ، وسرّحه إلى ذباب ـ ثنيّة بالمدينة كانوا يُقتلون عندَها ويُصلَبون فظنّ أنهم يريدون قتلَه، فلما انتَهوا به إلى ذلك الموضع رَدّوه، فقال: لو ظننت أنهم لا يَصْلبوني ما لبستُ سراويلَ مُسوح، ولكن قلتُ: يصلبونني فيسترني. وبلغ عبدُالملك الخبرُ، فقال: قبح الله هشاماً! إنما كان ينبغي أن يدعوه إلى البيعة، فإن أبى يَضرِب عنقَه، أو يكفّ عنه.

وفي هذه السنة بايع عبدُ الملك لابنَيه: الوليد، ثمّ من بعده لسليمان، وجعَلَهما وليَّيْ عهد المسلمين، وكتب ببيعتِه لهما إلى البُلدان، فبايع الناس، وامتنع من ذلك سعيدُ بنُ المسيَّب، فضربه هشام بن إسماعيل ـ وهو عامل عبدالملك على المدينة ـ وطافَ به وحَبَسه، فكتبعبد الملك إلى هشام يلومُه على ما فَعَل من ذلك، وكال ضربه ستّين سَوْطا، وطاف به في تُبّان شَعر حتى بلغ به رأس الثنيّة.

وأما الحارث فإنه قال: حدّثني ابن سَعْد، عن محمد بن عمرَ الواقديّ، قال: حدثنا عبدُالله بن جعفر وغيرُه من أصحابنا قالوا: استعمَل عبدُالله ابن الزبير جابر بنِ الأسود بن عوف الزّهري على المدينة، فدَعا الناس إلى البَيْعة لابن الزبير، فقال سعيدُ بنُ المسيَّب: لا، حتى يجتَمعَ الناس، فضرَبَه ستّين سَوْطاً، فَبَلغ ذلك ابن الزبير، فكَتَب إلى جابر يلومُه، وقال: ما لَنا ولسعيد، دَعْه!

وحدّثني الحارث، عن ابن سعد، أن محمد بَنَ عَمر أخبَره، قال: حدّثنا عبدُالله بنُ جعفر وغيره من أصحابنا أن عبد العزيزَ بن مروانَ توفي بمصرَ في جَمادى سنة أربع وثمانين، فعقد عبدُالملك لابنيه الوليد وسليمانَ العهد، وكتب بالبَيعة لهما إلى البُلدان، وعامِلُه يومئذ هشامُ بن إسماعيل المخزوميّ، فدعا الناسَ إلى البَيعة، فبايَع الناسُ، ودعا سعيد بن المسيّب أن يبايع لهما، فأبى وقال: لا حتى أنظرَ فضَرَبه هشام بن إسماعيل ستين سَوْطاً، وطاف به في تُبّان شَعر حتى بلغ به رأسَ الثنيّة، فلما كرّوا به قال: اين تَكُرّون بي؟ قالوا: إلى السجْن، قال: والله لولا أني، ظننتُ أنه الصَّلب لما لَبِست هذا التُّبان أبداً، فردّه إلى السجن، وحبَسَه وكَتَب إلى عبدالملك يُخبِره بخلافه، وما كان من أمره، فكتب إليه عبدُ الملك يَلوُمُه فيما صنَع ويقول: سعيدُ والله كان أحوَج أن تصل رحمَه من أن تَضرَبه، وإنا لنعلم ما عندَه من شِقاقٍ ولا خِلاف.

وحجّ بالناس في هذه السنة هِشامُ بن إسماعيل المخزوميّ، كذلك حدثّنا احمدُ بن ثابت عمن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وكذلك قال الواقديّ.

وكان العامل على المَشرق في هذه السنة مع العِراق الحجّاج بن يوسف.

ثمّ دخلت سنة ستّ وثمانين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك هلاكُ عبدالملك بن مروان ، وكانَ مهلَكه في النصف من شوّال منها . حدّثني احمدُبن ثابت عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، قال : توفّي عبدُ الملك بنُ مروانَ يومَ الخميس للنّصف من شوّال سنة ست وثمانين ، فكانت خلافتُه ثلاثَ عشرَة سنَة وخمسةَ أشهر .

وأما الحارث فإنه حدّثني عن ابن سعد ، عن محمد بن عمَر ، قال حدّثني شُرَحبيل بن أبي عَوْن ، عن أبيه ، قال : أجمَعَ الناسُ على عبد الملك بنمروان سنة ثلاث وسبعين .

قال ابنُ عمر : وحدّثني أبو معشر نَجيح ، قال : مات عبدُ الملك بن مروانَ بدمشقَ يومَ الخميس للنصف من شوال سنة ست وثمانين ، فكانت ولايتُه منذ يوم بُويع إلى يوم توفي إحدى وعشرين سنةً وشهراً ونصفاً ، كان تسع سنين منها يقاتِل فيها عبدالله بن الزبير ، ويسلَّم عليه بالخلافة بالشأم ، ثمّ بالعراق بعد مقتَل مصعب ، وبقي بعد مَقتَل عبدالله بن الزبير واجتماع الناس عليه ثلاثَ عشرةَ سنةً وأربعةَ أشهر إلّا سبعَ ليال .

وأما عليّ بن محمد المدائنيّ ، فإنه - فيما حدّثنا أبو زيد عنه - قال : مات عبدالملك سنة ست وثمانين بدمشق ، وكانت ولايتُه ثلاثَ عشرَة سنةً وثلاثة أشهُر وخمسةَ عشَر يوماً .

ذكر الخبر عن مبلغ سنّه يومَ تُوفّي

اختلَف أهلُ السِّيَر في ذلك ، فقال أبو معشر فيه - ما حدَّثني الحارثُ عن ابن سعد ، قال : أخبَرنا محمد بن عمَر ، قال : حدَّثني أبو معشر نَجيح . قال : مات عبدُالملك بنُ مروانَ وله ستّون سنةً .

قال الواقدي : وقد رُوِي لنا أنه مات وهو ابن ثمان وخمسين سنةً . قال : والأول أثبَت . وهو على مولِدِه ، قال : وولد سنة ست وعشرين في خلافة عثمانَ بن عَفّان رضي الله عنه ، وشَهِد يومَ الدار مع أبيه وهو ابن عشر سنين .

وقال المدائني علي بن محمد - فيما ذكر ، أبو زيد عنه : ماتَ عبدُالملك وهو ابنُ ثلاثٍ وستّين سنة .

ذكر نسبه وكنيته

أمّا نسبُه ، فإنه عبدُالملك بنُ مروانَ بن الحَكَم بن أبي العاص بن أميّة بن عبدشمس بن عبدمناف . وأمّا

كنيَتُه فأبو الوليد . وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أميّة ، وله يقول ابن قيس الرُّقيّات :

أنْتَ ابنُ عائِشَةَ الّتي فَضَلَتْ أُرُومَ نِسَائِهَا
لم تَلتَفِتْ لِلِدَاتِهَا ومَضَتْ على غُلَوائِهَا

ذكر أولاده وأزواجه

منهم الوَليد ، وسليمان ، ومَرْوان الأكبر ـ دَرَجَ ـ وعائشة ؛ أمّهم ولاّدة بنت العبّاس بن جَزْء بن الحارث بن زهير بن جَذِيمة بن رَوَاحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قُطَيعة بن عَبْس بن بَغِيض .

ويزيد ، ومَرْوان ، ومعاوية ـ دَرَج ـ وأمّ كُلْثوم ، وأمّهم عاتكة بنت يَزيدَ بن معاوية بن أبي سُفْيان .

وهشام ، وأمّه أمّ هشام بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي . وقال المدائني : اسمها عائشة بنت هشام .

وأبو بكْر ، واسمُه بكار ، أمّه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عُبَيْدالله ، والحَكَم ـ دَرَجَ ـ أمه أمّ أيّوب بنت عمرو بن عثمانَ بن عفّان .

وفاطمة بنت عبدِالملك ، أمّها أمّ المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هِشام بن المغيرة .

وعبدالله ومَسلَمة والمنذر وَعَنْبسة ومحمد وسعيد الخير والحجّاج ؛ لأمهاتِ أولاد .

قال المَدائني : وكان له من النساء ـ سوى من ذكرْنا ـ شقراءُ بنتُ سَلَمة بن حلبَس الطائي ، وابنة لعلي بن أبي طالب عليه السلام ، وأمّ أبيها بنت عبدالله بنِ جعفر .

وذَكَر المدائني ، عن عوانة وغيره أنّ سَلَمة بن زيد بن وهب بن نُباتَة الفَهميّ دخل على عبدالملك فقال له : أيّ الزمان أدركتَ أفضل؟ وأيّ الملوك أكمَل؟ قال : أما الملوك فلَمْ أرَ إلاّ ذامًّا وحامداً ؛ وأما الزمان فيَرفَع أقواماً ويَضَع أقواماً ، وكلهم يَذُمّ زمانَه لأنه يُبلي جديدَهم ، ويُهرِم صغيرَهم ، وكلّ ما فيه منقطع غير الأمل ؛ قال : فأخبِرْني عن فَهْم ، قال : هم كما قال مَن قال :

دَرَج اللّيْلُ النَّهَارَ على فَهـ ـمِ بنِ عَمْرو فأصبحُوا كالرَّميمِ
وخَلَتْ دارُهُمْ فأضحَتْ يَبَاباً بَعْدَ عزٍّ وثَرْوَة ونعيمِ
كَذاك الزمانُ يَذْهَبُ بالنا س وتبْقَى ديَارُهُمْ كالرُّسومِ

قال : فمن يقول منكم :

رأيتُ الناسَ مذ خُلقُوا وكانوا يُحبُّون الغَنِيَّ من الرجالِ
وإن كان الغَنيُّ قليلَ خيْر بَخيلاً بالقليل من النوالِ
فما أدْري عَلامَ وفيمَ هذا وماذا يَرْتَجُون من البَخالِ!
أَلِلدّنيا؟ فَلَيْسَ هُنَاك دنْيا ولا يُرْجى لحادثَةِ اللّيَالي

قال : أنا .

قال علي : قال أبو قطيفة عَمرو بن الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيْط لعبدِالمَلِك بنِ مَرْوان :

نُبِّئتُ أَنَّ آبنَ القَلمَّس عابَني ومَن ذا من النَّاس الصحيحُ المسَلَّمُ!
فأبصرَ سُبْلَ الرشدِ سيّدُ قومه وقد يُبْصِرُ الرشْدَ الرئيسُ المُعَمَّمُ
فَمن أنتمُ؟ ها خَبِّرونا من انتُمُ؟ وقد جعلت أشياءُ تبْدُو وتُكْتَمُ

فقال عبدالملك : ما كنتُ أرى أنّ مِثلَنا يقال له: مَن أنتُمْ! أما واللّهِ لولا ما تَعلم لقلتُ قَوْلاً ألحقكم بأصلكم الخبيث ، ولضربتُك حتى تموت .

وقال عبدُالله بنُ الحجّاج الثعلبيّ لعبدِالملك :

يا بنَ أبي العاص ويا خيرَ فَتَى أنتَ سِدادُ الدِّينِ إن دِينٌ وَهَى
أنتَ الَّذِي لا يَجعلُ الأمرَ سُدَى جيبتْ قريش عنكم جَوْبَ الرَّحَى
إنَّ أَبا العاصِ وفي ذاك اعْتَصَى أَوْصَى بَنيهِ فَوَعَوْا عنه الوَصَى
إنْ يَسعروا الحرْبَ ويأبوا ما أَبَى الطاعِنين في النُّحورِ والكُلَى
شَزْراً ووصْلاً للسيوف بالخُطَا إلى القتال فَحَوَوْا ما قد حَوَى

وقال أعشَى بني شَيْبان :

عرفتْ قرَيشٌ كلُّها لِبَني أبي العاص الإمَارهْ
لأبَرِّها وأحَقِّها عند المَشورَةِ بالإِشَارَهْ
المانعين لِمَا وَلُوا والنافعِين ذوي الضَّرارهْ
وَهُمُ أَحَقُّهُمُ بها عند الحلاوة والمرارهْ

وقال عبدالملك: ما أعلم مكانَ أحد أقوَى على هذا الأمر منّي ، وإنّ ابنَ الزّبير لطويلُ الصّلاة ، كثيرُ الصّيام ، ولكنْ لبخله لا يَصلُح أن يكون سائساً .

خلافة الوليد بن عبدالملك

وفي هذه السنة بُويع للوليد بن عبدالملك بالخلافة ، فَذُكِر أنه لما دَفَن أباه وانصرف عن قَبره ، دَخَل المسجدَ فصعد المنبرَ ، واجتَمَع إليه الناس ، فَخَطَبَ فقال : إنَّا لله وإنا إليه راجعون ! والله المستعان على مصيبتنا بموتِ أميرِ المؤمنين ، والحمدُ لله على ما أنعَم به علينا من الخلافة . قومُوا فبايِعوا .

فكان أوّل مَنْ قام لبَيعته عبدُالله بن هَمّام السَّلوليّ ، فإنه قام وهو يقول :

اللّهُ أعْطَاكَ الَّتي لا فَوْقَها وقد أراد المُلْحِدُون عَوْقَها
عَنْكَ ويأبىٰ اللّهُ إلاَّ سَوْقَها إلَيكَ حتى قَلَّدُوك طَوْقَها

فبايَعَه ، ثم تتابعَ الناسُ على البَيعة .

وأما الواقدي فإنه ذكر أنّ الوليدَ لّما رجع من دَفْن أبِيه ، ودُفِنَ خارج باب الجابية ، لم يَدخُل منزلَه حتى صعد على مِنبرِ دِمشقَ ، فحمِد الله وأثنى عليه بما هو أهلُه ، ثم قال :

أيّها الناسُ ، إنه لا مُقدِّم لِما أخّر الله ، ولا مؤخّر لِمَا قَدّم الله ، وقد كان من قضاء الله وسابِق عِلمِه وما كَتَب على أنبيائه وحَمَلة عرشِه الموت . وقد صار إلى منازل الأبرار وليّ هذه الأمة الذي يحق عليه لله من الشدّة على المُريب ، واللّين لأهل الحق والفَضل ، وإقامة ما أقام الله من مَنار الإسلام وأعلامه ؛ مِن حَجّ هذا البيت ، وغَزْو هذه الثغور ، وشَنّ هذه الغارة على أعداء الله ، فلم يكن عاجزاً ولا مُفرِّطاً . أيها النـاس ، عليكم بالطاعة ، ولزومِ الجماعة ، فإنّ الشيطان مع الفرد . أيها الناس ، مَن أبدَىٰ لنا ذاتَ نفسِه ضَرَبْنا الذي فيه عَيْناه ، ومن سَكَت ماتَ بدائه .

ثم نَزَل ، فنَظَر إلى ما كان من دوابّ الخلافة فحَازه ، وكان جبّاراً عنيداً .

وفي هذه السنة قَدِم قتيبةُ بن مسلم خُراسانَ والياً عليها من قبَل الحجّاج ، فذكر علي بن محمد أنّ كُليب ابن خَلَف ، أخبَره عن طُفَيل بن مِرْداس العميّ والحَسَن بن رُشيد ، عن سليمان بن كثير العمي ، قال : أخبرَني عمّي قال: رأيت قُتيبةَ بنَ مُسلِم حين قَدِم خُراسانَ في سنة ست وثمانين ، فقَدِم والمفضّلُ يَعـرِض الجُند ، وهو يريد أن يغزُوَ أخْرون وشُومان ، فَخَطَب الناس قُتيبة ، وحثّهم على الجهاد ، وقال :

إنّ الله أحلّكم هذا المَحلّ ليُعزَّ دينَه ، ويذبَّ بكم عن الحُرُمات ، ويزيد بكم المال استفاضة ، والعدوّ وَقْماً ، ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق ، وكتاب ناطق ، فقال : ﴿ هُوَ الذي أرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ﴾[١] . ووعَدَ المجاهدين في سبيله أحسنَ الثواب ، وأعظَمَ الذُّخر عندَه فقال : ﴿ ذٰلكَ بأنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ في سَبِيلِ اللّهِ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ أحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾[٢] . ثم أخبرعمن قُتِل في سبيله أنه حيّ مرزوق ، فقال : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللّهِ أمْوَاتاً بَلْ أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهم يُرْزَقُونَ ﴾[٣] . فتنجَّزوا موعودَ ربِّكم ووطِّنوا أنفسَكم على أقصى أثر وأمضى ألم ، وإيّاي والهُوَينى .

ذكر ما كان من أمر قتيبة بخُراسان في هذه السنة :

ثم عَرَض قُتيبةُ الجُندَ في السلاح والكُراع ، وسار واستخلَفَ بمرْوَ على حَرْبهـا إياسَ بن عبدالله بن عمرو ، وعلى الخَراج عثمان بن السعديّ ، فلما كان بالطالَقان تلقّاه دَهاقينُ بَلْخَ وبعضُ عُظَمائهم فساروا معه ، فلما قَطَع النهرَ تلقّاه تيش الأعوَر مَلِك الصّغانيانِ بهَدايا ومِفتاح من ذهب ، فدعاه إلى بلاده ، فأتاه وأتى ملك كفتان بهدايا وأموال ، ودعاه إلى بلاده ، فمضى مع تيش إلى الصَّغَانيان ، فسلَّم إليه بلادَه ، وكان ملك أخْرون وشُومان قد أساءَ جوارَ تيش وغزاه وضَيّق عليه ، فسار قُتيبةُ إلى أخْرون وشُـومان ـ وهُما من طُخارسْتانَ ، فجاءه غشتاسبان فصالَحه على فِدْية أدّاها إليه ، فَقِبلها قتيبة ورضي ، ثم انصرف إلى مَرْوَ ، واستخلف على الجند أخاه صالحَ بنَ مسلم ، وتقدّم جندَه فسبَقهم إلى مَرْوَ ، وفَتَح صالح بعد رجوع قتيبة

---

(١) سورة التوبة : ١٢٠ ـ ١٢١ ـ

(٢) سورة الصف : ٩ .

(٣) سورة آل عمران ١٦٩ .

باسارا ، وكان معه نصر بن سَيّار فأبلَىٰ يوَمئذ ؛ فوَهَبَ له قريةً تُدْعَى تنجانة ، ثم قَدِم صالح على قُتيبةَ فاستعمَلَه على التِّرمذ .

قال : وأما الباهليّون فيقولون : قَدِم قتيبةُ خُراسانَ سنة خمس وثمانين فعَرَض الجندَ ، فكان جميعُ ما أحصَوا من الدرّوع في جُندْ خُراسان ثلاثمائة وخمسين دِرْعاً ، فغزا أخْرون وُشومان ، ثم قَفَل فركِبَ السفُن فانْحدَرَ إلى آمُل ، وخَلّف الجُنْد ، فأخذوا طريقَ بَلْخ إلى مَرْو ، وبلغ الحجّاج ، فكَتَب إليه يلومه ويعجّز رأيَه في تخليفه الجندَ ، وكتب إليه : إذا غزوت فكنْ في مُقدَّم الناس ، وإذا قفلتَ فكن في أُخْرَياتهم وساقَتِهم .

وقد قيل : إنّ قتيبةَ أقامَ قبلَ أن يَقطَع النهر في هذه السنة على بَلْخ ، لأنّ بعضها كان منتقِضاً عليه ، وقد ناصبَ المسلمين ، فحارَبَ أهلَها ، فكان ممن سَبَى امرأة بَرْمك ، أبي خالد بن بَرْمك ـ وكان بَرمَك على النُّوبَهار ـ فصارت لعبدالله بن مسلم الذي يقال له الفقير ، أخي قُتَيبة بن مسلم ، فوَقَع عليها ، وكان به شيء من الجُذام . ثمّ إنّ أهلَ بَلْخ صالحوا من غَد اليوم الذي حارَبَهم قُتيبةُ ، فأمَر قتيبة بردّ السَّبْي ، فقالت امرأة برْمَك لعبدالله بن مسلم : يا تازِي ، إنّي قد عَلِقْتُ منك . وحضرتْ عبدالله بن مسلم الوفاةُ ، فأوصَى أن يُلحق به ما في بطنها ، وردّت إلى بَرْمَك ، فذكر أنْ ولدَ عبدِالله بن مُسلم جاؤوا أيامَ المهدّي حين قَدِم الرّيّ إلى خالد ، فادّعَوْه ، فقال لهم مُسلِم بنُ قتيبة : إنه لا بدّ لكم إن استلْحَقْتموه ففَعَل مِنْ أن تُزوّجوه ، فتركوه وأعرضوا عن دَعْواهم . وكان بَرْمَك طبيباً ، فدَاوَى بعد ذلك مَسلمةَ من عِلّة كانت به .

وفي هذه السنة غزا مَسْلمة بن عبدالملك أرضَ الرّوم .

وفيها حَبِس الحجّاج بنُ يوسفَ يزيدَ بنَ المهلَّب ، وعَزَل حبيبَ بن المهلَّب عن كرمانَ ، وعبدالملك بن المهلب عن شُرْطته .

وحَجّ بالناس في هذه السنة هِشامُ بنُ إسماعيلَ المخزوميّ ، كذلك حدّثني أحمد بنُ ثابت ، عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر .

وكذلك قال الواقدي .

وكان الأمير على العِراق كله والمَشْرِق كلّه الحجاج بنُ يُوسف . وعلى الصّلاة بالكُوفة المغيرة بن عبدالله بن أبي عَقِيل . وعلى الحرب بها من قبل الحجّاج زِيادُ بن جريرِ بن عبدالله . وعلى البَصْرة أيّوب بن الحَكَم . وعلى خُراسانَ قُتيبة بن مُسلِم .

ثم دخلت سنة سبع وثمانين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففي هذه السنة عَزَل الوليدُ بنُ عبدالملك هشامَ بنَ إسماعيل عن المدينة ، وورَدَ عزلُه عنها ـ فيما ذُكر ـ ليلةَ الأحد لسبعِ ليال خلَوْن من شهر ربيع الأوّل سنة سبع وثمانين . وكانت إمْرته عليها أربعَ سنين غيرَ شهر أو نحوه .

وفي هذه السنة ولّى الوليدُ عمرَ بنَ عبدالعزيز المدينةَ . قال الواقدي : قدِمَها والياً في شهر ربيع الأول ؛ وهو ابن خمس وعشرين سنة ، ووُلد سنة اثنتين وستّين .

قال : وقَدِم على ثلاثين بعيراً ، فنَزَل دارَ مَروانَ . قال : فحدَّثني عبدُالرحمن بن أبي الزِّناد ، عن أبيه ، قال : لما قَدِم عمر بنُ عبدالعزيز المدينةَ ونَزَل دارَ مروانَ دخل عليه الناسُ فسلَّموا ، فلما صلّى الظهرَ دعا عشرةً من فُقهَاء المدينة : عُرْوَةَ بنَ الزبير ، وعبيدَالله بن عبدِالله بن عُتبة ، وأبا بكر بن عبدالرحمن ، وأبا بكر بن سليمان بن أبي حثمة ، وسليمان بن يَسَار ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبدالله بن عمر ، وعبدالله بن عبدالله بن عمرو ، وعبدالله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زَيْد ؛ فدخلوا عليه فجلسوا ، فحمِد اللّهَ وأثنَى عليه بما هو أهلُه ، ثمّ قال :

إني إنما دعوتكم لأمر تؤجَرون عليه ، وتكونون فيه أعواناً على الحق ، ما أريد أن أقطَع أمراً إلاّ برأيكم أو برأيِ من حَضَرَ منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدّى ، أو بلَغَكم عن عامل لي ظُلامة ، فأحَرّجُ الله على مَنْ بلغه ذلك إلاّ بلّغني .

فخرجوا يُجزُونه خيراً ، وافترقوا .

قال : وكتَب الوليدُ إلى عمرَ يأمرُه أنْ يقف هشامَ بن إسماعيلَ للناس ، وكان فيه سيِّىء الرأي .

قال الواقدي : فحدّثني داودُ بن جُبير ، قال : أخبرتْني أمّ وَلد سعيد بن المسيّب أن سعيداً دعا ابنَه ومواليَه فقال : إنّ هذا الرجل يُوقف للناس ـ أو قد وُقف ـ فلا يتعرّضْ له أحدٌ ولا يؤذِه بكلمة ، فإنا سنتْرُك ذلك للّه وللرَّحِم ، فإن كان ما علمتُ لسيِّىء النظر لنفسهِ ، فأمّا كلامُه فلا أكلِّمه أبداً .

قال : وحدّثني محمد بنُ عبدالله بنِ محمد بن عمَر ، عن أبيه ، قال : كان هشامُ بنُ إسماعيلَ يسيء جِوارَنا ويؤذِينا ، ولقّى منه علي بنُ الحسين أذًى شديداً ، فلما عُزل أمَرَ به الوليدُ أن يُوقَف للناس ، فقال : ما أخاف إلاّ من علي بنِ الحسين . فمَرّ به علي وقد وُقِف عند دارِ مَرْوان ، وكان علي قد تقدَّم إلى خاصّته ألاّ

يَعرِض له أحد منهم بكلمة ؛ فلما مرّ ناداه هشامُ بنُ إسماعيل : اللّهُ أعلمُ حيث يجعَل رِسالاته .

وفي هذه السنة قَدِم نَيزَك على قُتيبة ، وصالَح قتيبةُ أهلَ باذَغيس على ألّا يَدخُلها قتيبة .

ذكر الخبر عن ذلك :

ذكَر علي بنُ محمد أن أبا الحَسَن الجُشَمِيّ أخبَرَه عن أشياخ من أهل خُراسانَ ، وجبلة بن فرّوخ عن محمد بن المثنّى ، أنّ نيزك طَرْخان كان في يديه أسراءُ مِن المسلمين ، وكتب إليه قُتيبة حينَ صالَحَ مَلِكَ شُومان فيمن في يدَيه مِن أسرَى المسلمين أن يُطلِقهم ، ويهدّده في كتابه ، فخافَه نيزك ، فأطلَق الأسرى ، وبَعث بهم إلى قتيبة ، فوجّه إليه قتيبة سُليماً الناصح مولَى عُبيدالله بن أبي بَكرة يدعوه إلى الصّلح وإلى أن يؤمّنه ، وكتب إليه كتاباً يَحلِف فيه بالله : لئن لم يقدم عليه ليغزونّه ، ثمّ ليطلبنّه حيث كان ، لا يُقلع عنه حتى يَظفَر به أو يموتَ قبل ذلك . فقَدِم سُلَيم على نَيزَك بكتاب قتيبة ـ وكان يَستنصحه ـ فقال له : يا سليم ، ما أظنّ عند صاحبك خيراً ، كَتَب إليّ كتاباً لا يُكتَب إلى مِثلي ! قال له سليم : يا أبا الهَيّاج ، إنّ هذا رجل شديد في سلطانه ، سَهْل إذا سُوهِل ، صعب إذا عُوسِر ، فلا يمنعْك منه غِلظة كتابِه إليك ، فما أحسنَ حالَك عندَه وعندَ جميع مُضَر! فقَدِم نيزك مع سُليم على قُتيبة ، فصالَحه أهلُ باذَغيس في سنة سبع وثمانين على ألّا يَدخُل باذَغيس .

وفي هذه السنة غزا مَسلَمة بنُ عبدالملك أرضَ الرّوم ، ومعه يزيدُ بن جُبَير ، فلقي الرّومَ في عدد كثير بسُوسَنة من ناحية المَصّيصَة .

قال الواقدي : فيها لاقَى مسلمةُ مَيْمونا الجُرْجمانيّ ومع مَسلمة نحوٌ من ألفِ مُقاتِل من أهل أنطاكِيةَ عند طُوَانَة ، فقتَل منهم بَشَراً كثيراً ، وفتَح الله على يديه حُصوناً .

وقيل : أنّ الذي غَزَا الرّوم في هذه السنة هشامُ بن عبدالملك ، ففتَحَ الله على يديه حِصْنَ بولَق وحِصن الأخرم وحِصْن بولس وقمقم ، وقتَل من المُستعرِبة نحواً من ألفِ مُقاتِل ، وسَبَى ذراريَّهم ونساءَهم .

وفي هذه السنة غزا قتيبة بِيْكَنْد .

ذكر الخبر عن غَزْوَته هذه :

ذكَر علي بنُ محمد أن أبا الذّيّال أخبَره عن المهلّب بن إياس ، عن أبيه ، عن حسين بن مُجاهِد الرّازي وهارون بن عيسى ، عن يونس بن أبي إسحاق وغيرهم ، أن قتيبة لما صالَحَ نِيزك أقام إلى وَقْت الغَزْو ، ثم غزا في تلك السنة ـ سنة سبع وثمانين ـ بيكند ، فسار من مَرْوَ وأتى مَرْوَ الرّوذ ، ثم أتى آمُلَ! ثم مضى إلى زَمّ فقَطَع النهر ، وسار إلى بِيكَنْد ـ وهي أدنى مدائنِ بُخارَى إلى النهر ، يقال لها مدينة التجّار على رأس المَفازة من بُخارَى ـ فلما نزل بعَقْوَتهم استنصَروا الصُّغْد ، واستمدّوا مَن حَولهم ، فأتَوْهم في جمع كثير ، وأخذوا بالطريق ، فلم ينفذ لقتيبة رسولٌ ، ولم يَصِل إليه رسول ، ولم يجرِ له خبرٌ شَهْرَين ، وَأَبطأ خبرُه على الحجّاج ، فأشفَق الحجّاج على الجند ، فأمر الناسَ بالدّعاء لهم في المساجد ، وكتب بذلكُ إلى الأمصار وهم يَقتَتِلون في كلّ يوم .

قال : وكان لقُتيبة عينٌ يقال له تنذر من العَجَم ، فأعطاه أهل بُخارَى الأعلى مالاً على أن يَفْثأ عنهم قتيبة ؛ فأتاه ، فقال : أخْلني ، فنهَض الناسُ واحتَبَس قتيبةُ ضِرارَ بنَ حصين الضّبيّ ، فقال تنذر : هذا عاملٌ يَقدُم عليك ، وقد عُزل الحجاج ، فلو انصرفتَ بالناس إلى مرْوَ ! فدعا قُتيبة سِيّاه مولاه ، فقال : اضرِب عُنُقَ

تنذر ، فقتَله ، ثم قال لضِرار : لم يبق أحدٌ يَعلَم هذا الخبر غَيْري وغيرك ، وإنّي أعطِي اللّهَ عَهْداً إن ظَهَر هذا الحديثُ من أحد حتى تَنقضيَ حربُنا هذه لألحقنّك به ؛ فاملِكْ لسانَك ، فإنّ انتشار هذا الحديث يَفُتّ في أعضاد الناس . ثم أذِن للناس .

قال : فدخلوا ، فَرَاعَهم قَتلُ تنذر، فوَجَموا وأطرَقوا ، فقال قتيبة : ما يَروعُكم مِن قتل عبد أحانَه الله! قالوا : إنا كنا نظنّه ناصحاً للمسلمين ، قال : بل كان غاشًا فأحانَه الله بذنْبه ، فقد مضى لسبيله ، فاغدُوا على قتال عدوّكم ، والقَوْهم بغيرِ ما كنتم تلقونهم به . فغدا الناسُ متأهّبين ، وأخذوا مَصافَّهم ، ومَشَى قُتيبة فحضّ أهلَ الرايات ، فكانت بين الناس مُشاوَلة ، ثم تزاحَفوا والتقَوا ، وأخذتِ السيوفُ مأخذَها ، وأنزَل اللّهُ على المسلمين الصبر ، فقاتلوهم حتى زالت الشمس ، ثم مَنَح اللّهُ المسلمين أكتافَهم ، فانهَزَموا يريدون المدينة ، واتبعهم المسلمون فشَغَلوهم عن الدّخول فتفرّقوا ، وركِبهم المسلمون قَتْلاً وأسراً كيف شاؤوا، واعتصَم مَن دَخَل المدينة بالمدينة، وهم قليل، فوَضَع الفَعلَة في أصلها ليَهدِمها، فسألوه الصلحَ فصالحهم، واستعمل عليهم رجلاً من بني قُتيبة.

وارتَحل عنهم يريدُ الرّجوع ، فلما سار مَرحلةً أو اثنتَين، وكان منهم على خَمسة فراسخ نَقَضوا وَكَفروا ، فقتلوا العاملَ وأصحابَه ، وجدّعوا آنُفَهم وآذانَهم ، وبلغ قتيبة فرجع إليهم ، وقد تحصّنوا ، فقاتَلَهم شهراً ، ثم وضع الفعلة في أصل المدينة فعلّقُوها بالخَشَب ، وهو يريد إذا فرغ من تعليقها أن يحرق الخشب فتنهدِم ، فسقط الحائط وهم يعلّقونه ، فقتل أربعين من الفَعلَة ، فطلبوا الصّلح ، فأبى وقاتَلَهم ، فَظَفِر بهم عَنْوة ، فقتل من كان فيها من المُقاتِلة ، وكان فيمن أخِذُوا في المدينة رَجُل أعوَر كان هو الذي استجاش التُّرْك على المسلمين ، فقال لقتيبة : أنا أفدِي نفسي ، فقال له سُلَيم الناصح : ما تَبذُل ؟ قال: خمسةَ آلافِ حريرة صينية قيمتُها ألف ألف ، فقال قيتبة : ما تَرَون ؟ قالوا : نرى أنّ فداءه زيادة في غنائم المسلمين ، وما عسى أن يبلغ من كَيْد هذا! قال : لا والله لا تُروَّع بك مسلمةٌ أبداً ، وأمَرَ به فقُتِل .

قال علي: قال أبو الذيّال ، عن المهلّب بن إياس ، عن أبيه والحسن بن رُشيد ، عن طُفَيل بن مِرْداس ، أنّ قتيبة لما فتح بِيكَنْد أصابوا فيها من آنيةِ الذهب والفضّة ما لا يُحصَى ، فولّىَ الغنائمَ والقَسْم عبدالله بن وَألان العدويّ أحد بني مَلَكان ـ وكان قتيبة يسمِّيه الأمينَ ابنَ الأمين ـ وإياس بن بَيْهَس الباهليّ ، فأذابا الآنِيَة والأصنامَ فرَفَعاه إلى قتيبةَ ، ورَفعا إليه خَبَث ما أذابَا ، فوهبه لهما ، فأعطِيا به أربعين ألفاً ، فأعلماه فَرَجع فيه وأمَرهما أن يُذِيباه فأذاباه ، فخرج منه خمسون ومائة ألف مِثقال ـ أو خمسون ألف مثقال ـ وأصابوا في بِيكَنْد شيئاً كثيراً ، وصار في أيدي المسلمين من بيكَنْد شيء لم يُصيبوا مِثلَهُ بخُراسان . ورجع قتيبة إلى مروَ ، وقَوِيَ المسلمون ، فاشتَروا السلاح والخيلَ ، وجُلبتْ إليهم الدّوابّ ، وتنافسوا في حُسن الهيئة والعُدّة ، وغالَوْا بالسلاح حتى بَلَغ الرّمح سبعين ؛ وقال الكُمَيت :

ويَـومَ بِيكَنْـدَ لا تُحصَى عـجـائبـهُ ومـا بُـخـارَاءُ ممّـا أخـطأ الـعَـدَدُ

وكان في الخزائن سِلاحٌ وآلةٌ من آلة الحرب كثيرة ، فكَتَب قتيبةُ إلى الحجّاج يستأذِنه في دَفْع ذلك السلاح إلى الجُنْد ، فأذن له ، فأخرجوا ما كان في الخزائن من عُدّة الحرب وآلةِ السَّفر ، فقَسّمه في الناس ، فاستعدّوا ، فلما كان أيامُ الربيع ندب الناسَ وقال : إنّي أغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حَمْل الزاد ، وأنتقلكم قبل أن تحتاجوا إلى

الإدّفاء ؛ فسار في عُدّة حَسَنة من الدّوابّ والسلاح ، فأتى آمُلَ ، ثم عبرَ من زَمّ إلى بُخارَى ، فأتى نومُشَكث - وهي من بُخارَى - فصالحوه .

قال علي :حدَّثنا أبو الذيّال ، عن أشياخ من بني عَدِيّ ، أنّ مسلماً الباهليَّ قال لِوَألانَ : إنّ عندي مالاً أحبّ أن أستودِعَكَه ، قال : أتريد أن يكون مكتوماً أو لا تكره أن يَعلَمه الناسَ؟ قال: أحِبّ أن تَكتُمه ؛ قال : ابعث به مع رجل تَثِق به إلى موضع كذا وكذا ، ومُرْه إذا رأى رجلاً في ذلك الموضع أن يَضَع ما معه ويَنصِرف ؛ قال : نعم ، فجَعَل مسلم المال في خُرْج ، ثمّ حَمَله على بغل وقال لمولًى له : انطلِق بهذا البغل إلى مَوضع كذا وكذا ، فإذا رأيت رجلًا جالساً فخلِّ عن البَغْل وانصَرِف . فانطَلَق الرجلُ بالبَغْل ، وقد كان وَألان أتى الموضعَ لِميعاده ، فأبطأ عليه رسولُ مسلم ، ومضى الوقتُ الذي وَعدَه ، فظنّ أنه قد بدا له ، فانصرف ، وجاء رجلٌ من بني تَغلِبَ فجلس في ذلك الموضع ، وجاء مولَى مسلم فرأى الرَجل جالساً ، فخلَّى عن البغل ورَجعَ ، فقام التغلبيُّ إلى البَغْل ، فلما رأى المال ولم يَر مع البَغْل أحداً قاد البغَل إلى منزله ، فأخذ البغلَ وأخذَ المال ، فظنّ مسلم أن المال قد صار إلى وَألان ، فلم يسأل عنه حتى احتاج إليه ، فَلَقِيَه فقال : ما لي ! فقال : ما قبضت شيئاً ، ولا لك عندي مال . قال : فكان مُسلِم يشكوه ويتنقّصه . قال : فأتى يوماً مجلس بني ضُبَيعة فشَكاه والتغلبيُّ جالسٌ ، فقام إليه فخلاَ به وسأله عن المال ، فأخبَرَه ، فانطلَقَ به إلى منزله ، وأخرج الخُرْج فقال : أتعرفه؟ قال : نَعَم ، قال : والخاتَم؟ قال : نعم ؛ قال ؛ اِقبض مالَكَ ، وأخبرَه الخَبر ، فكان مسلم يأتي الناسَ والقبائلَ التي كان يشكو إليهم وألان فَيَعذِره ويُخبرهم الخبرَ ، وفي وألان يقول الشاعر :

لست كَوَألاَنَ الَّذي سَادَ بالتُّقى ولستَ كعمران وَلَا كالمُهلَّبِ

وعِمْرَانُ : ابنُ الفصِيل البُرْجُميّ .

وحجّ بالناس في هذه السنة - فيما حدَّثني أحمد بن ثابت ، عمّن ذكرَه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي مَعشَر - عمَر بن عبدالعزيز ، وهو أميرٌ على المدينة .

وكان على قضاء المدينة في هذه السنة أبو بكر بن عَمْرو بن حَزْم من قِبَل عُمَر بن عبدالعزيز .

وكان على العراق والَمشرِق كلِّه الحجّاج بن يوسف ، وخليفته على البَصْرة في هذه السنة - فيما قيل - الجَرَّاح بنُ عبدِالله الحَكَميّ . وعلى قضائها عبدالله بن أذَينة ، وعامِله على الحَرْب بالكوفةِ زياد بن جَرير بن عبدالله ، وعلى قَضائِها أبو بكر بن أبي موسى الأشعري ، وعلى خُراسانَ قُتيبة بن مسلم .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

فمن ذلك ما كان من فَتْح الله على المسلمين حِصْناً من حصون الرّوم يُدعَى طُوانة في جُمادَى الآخرة ، وشَتَوا بها ، وكان على الجيش مَسْلمة بنُ عبدالملك ، والعبّاس بن الوليد بن عبدالملك .

فذكر محمد بن عمَر الواقديّ أن ثورَ بنَ يزيدَ حدّثه عن أصحابه قال : كان فَتْح طُوانَة على يَديْ مَسلَمة ابن عبدالملك والعباس بن الوليد ، وهَزَم المسلمون العدوّ يومئذ هزيمةً صاروا إلى كنيستهم ، ثمّ رَجَعوا فانهَزَم الناس حتى ظَنّوا ألا يجتبروها أبداً ، وبقِيَ العباس معه نُفَير ؛ منهم ابن مُحَيْرِيز الجُمَحيّ ، فقال العباس لابن مُحَيرِيزَ : أين أهلُ القرآن الذين يريدون الجنة؟ فقال ابنُ مُحَيريز : نادِهم يأتوك ؛ فنادَىٰ العبّاس : يا أهلَ القرآن ! فأقبَلوا جَميعاً ، فهزَم الله العدوّ حتى دخلوا طُوانة .

وكان الوليدُ بنُ عبدالملك ضرب البَعْث على أهل المدينة في هذه السنة . فذكَر محمد بنُ عمر ، عن أبيه ، أنّ مَخرمة بن سليم الوالبي قال : ضرب عليهم بعث ألفين . وأنهم تجاعَلوا فخرج ألف وخمسمائة ، وتخلّف خمسمائة ، فغَزوا الصائفة مع مَسلَمة والعبّاس ، وهما على الجيش . وإنهم شتَوا بطُوانة وافتَتَحوها .

وفيها وُلِد الوليدُ بنُ يزيدَ بن عبدالملك .

وفيها أمَر الوليدُ بنُ عبدالملك بهَدْم مسجِد رسولِ الله ﷺ وهدمِ بيوت أزْواج رسولِ الله ﷺ وإدخالها في المسجد ، فذَكَر محمد بنُ عمر ، أنّ محمد بن جعفر بن وِرْدان البنّاء قال : رأيتُ الرسولَ الذي بعثَه الوليدُ بن عبدالملك قَدِم في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان وثمانين ، قدم مُعتجِراً ، فقال الناس: ما قَدِم به الرسول ! فَدَخَل على عمَر بن عبدالعزيز بكتاب الوليدِ يأمره بإدخال حُجَر أزْواج رسول الله ﷺ في مسجد رسول الله ، وأن يشتريَ ما في مؤخّره ونواحيه حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع ويقول له : قدّم القِبْلة إنْ قَدَرت ، وأنت تقدر لمكان أخوالك ، فإنهم لا يخالفونك ، فمن أبى منهم فمرْ أهل المصر فليقوّموا له قيمة عدل ، ثم اهدمْ عليهم وادفعَ إليهم الأثمان ، فإنّ لك في ذلك سَلَف صِدق ؛ عمر وعثمانَ فأقرأهم كتابَ الوليد وهم عندَه ، فأجاب القوم إلى الثمن ، فأعطاهم إياه ، وأخذَ في هَدْم بيوتِ أزواج النبي ﷺ وبناء المسجد ، فلم يَمكُث إلاَّ يَسيراً حتى قَدِم الفَعلَة ، بَعَث بهم الوليد .

قال محمد بن عمَر : وحدّثني موسى بن يعقوبَ ، عن عمّه ، قال : رأيت عمَر بنَ عبدالعزيز يَهدِم المسجد ومعه وجوهُ الناس: القاسم ، وسالم ، وأبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث ، وعُبيدالله بن عبدالله بن عُتْبة ، وخارجة بن زيد ، وعبدالله بن عبدالله بن عمَر ، يُرُونه أعلاماً في المسجد ويقدّرونه ، فأسَّسُوا أساسَه .

قال محمد بن عمر: وحدَّثني يحيى بنُ النعمان الغِفاري ، عن صالح بن كَيْسان ، قال : لما جاء كتابُ الوليد من دِمشقَ وسار خمس عشرةَ بهدم المسجد ، تجرّد عمرُ بنُ عبدالعزيزَ . قال صالح : فاستعملني على هَدْمه وبنائه ، فهدَمْناه بعمّال المدينة ، فبدأنا بِهَدْم بيوت أزواج النبي ﷺ حتى قَدِم علينا الفَعلَة الذين بَعَث بهم الوليد .

قال محمد : وحدّثني موسى بنُ أبي بكر، عن صالح بن كَيْسان ، قال: ابتدأنا بَهْدْم مسجِد رسولِ الله ﷺ في صَفَر من سنة ثمان وثمانين ، وبَعَثَ الوليدُ إلى صاحب الرّوم يُعلِمه أنه أمر بهدم مَسجد رسولِ الله ﷺ ، وأن يُعينَه فيه ، فبعث إليه بمائة ألفِ مثقال ذهب ، وبَعث إليه بمائة عامل ، وبعث إليه من الفُسَيْفِساء بأربعين حِمْلاً ، وأمر أن يتتبَّع الفُسَيْفِساء في المدائن التي خُرّبت ، فبعث بها إلى الوليد ، فبعث بذلك الوليد إلى عمرَ بنِ عبدالعزيز .

وفي هذه السنة ابتدأ عُمر بنُ عبدالعزيز في بناء المسجد .

وفيها غَزَا أيضاً مَسلمَةُ الرّوم ، ففُتِح على يديه حُصونٌ ثلاثة : حِصن قُسْطَنْطِينة ، وغَزَالة ، وحِصْن الأَخْرم . وقتل من المستَعربة نحوٌ من ألف مع سَبْيِ الذرّيّة وأخذِ الأموال .

وفي هذه السنة غزا قتيبة نومُشْكَث ورامِيثَنه .

ذكر الخبر عمّا كان من خبر غزوته هذه :

ذكَر علي بنُ محمد، أنّ المفضّل بن محمد أخبَره عن أبيه ومصعب بن حيّان ، عن مولًى لهم أدرك ذلك ، أن قتيبة غزا نومشكَث في سنة ثمان وثمانين ، واستَخلَفَ على مرْو بشّار بن مُسلم ، فتلقّاه أهلُها ، فصالَحهم، ثم صار إلى راميثنة فصالَحه أهلُها ، فانصرَفَ عنهم وزحَفَ إليه الترْك ، معهم السُّغْد وأهلُ فَرْغانة ، فاعتَرَضوا المسلمين في طريقِهم ، فلَحِقوا عبدالرحمن بن مسلم الباهلي وهو على الساقة ، بينه وبين قُتيبة وأوائلِ العسكر مِيلٌ ، فلما قربوا منه أرسل رسولاً إلى قتيبة بخبره ، وغِشيَه الترْك فقاتَلوه ، وأتى الرسولُ قتيبةَ فرَجَع بالناس ، فانتهى إلى عبدالرحمن وهو يقاتلُهم ، وقد كاد الترْك يسْتَعمِلُونهم ، فلما رأى الناس قتيبة طابت أنفسهم فصَبَروا ، وقاتلوهم إلى الظهر ، وأبلَى يومئذ نيزكُ وهو مع قتيبة ، فهزَم اللّهُ الترك ، وفض جمعهم ، ورجع قتيبةُ يُريدُ مَرْو ، وقطع النهر من الترْمِذ يريد بَلْخ ، ثم أتى مَرْوَ . وقال الباهِلِيّون : لقي الترْك المسلمين عليهم كُور مغانون التركيّ ابن أخت مَلِك الصّين في مائتي ألف ، فأظهر اللّهُ المُسلِمين عليهم .

وفي هذه السنة كتب الوليد بنُ عبدالملك إلى عمرَ بن عبدالعزيز في تسهيل الثنايا وحَفْر الآبار في البُلْدان .

قال محمد بن عمر: حدَّثني ابنُ أبي سَبْرة ، قال : حدَّثني صالح بن كَيْسان ، قال : كتب الوليدُ إلى عمَر في تسهيل الثنايا وحَفْر الآبار بالمدينة ، وخرجتْ كتبُه إلى البُلْدان بذلك ، وكتب الوليدُ إلى خالِد بنِ عبدالله بذلك . قال : وحَبَس المجذَّمين عن أن يخرجوا على الناس ، وأجرَى عليهم أرزاقاً ، وكانت تُجرَى عليهم .

وقال ابن أبي سَبْرة ، عن صالح بنِ كَيْسان ؛ قال : كتب الوليدُ إلى عمَر بن عبدالعزيز أن يعمل الفوّارة التي عند دار يزيدَ بن عبدالملك اليومَ ، فعَمِلَها عمرُ وأجرَى ماءَها ، فلما حجّ الوليد وَقَف عليها ، فنظر إلى بيت الماء والفوّارة ، فأعجبتْه ، وأمَرَ لها بقُوّام يَقُومون عليها ، وأن يُسقَى أهلُ المَسجِد منها ، ففعَل ذلك .

وحجّ بالناس في هذه السنة عمرُ بنُ عبدالعزيز في رواية محمد بن عمر. ذكر أنّ محمد بن عبدالله بن جُبير ـ مولًى لبني العباس ـ حدَّثه عن صالح بن كَيْسان ، قال : خرج عُمر بن عبدالعزيز تلك السنة ـ يعني سنة ثمان وثمانين ـ بعدّة من قريش ، أرسل إليهم بِصلات وظَهْر للحُمولة ، وأحرموا معه من ذي الحُلَيفْة ، وساق معه بُدْنا ، فلما كان بالتّنعيم لقيَهم نَفَر من قريش ، منهم ابن أبي مُلَيكة وغيره ، فأخبروه أنّ مكّة قليلة الماء ، وأنهم يخافون على الحجّاج العَطَش ، وذلك أن المطر قلَّ ، فقال عمر : فالمَطْلب ها هنا بيِّنٌ ، تعالوا نَدْع الله. قال: فرأيتُهم دَعَوْا ودعا معهم ، فألّحوا في الدّعاء. قال صالح : فلا واللّهِ إن وصلنا إلى البيت ذلك اليوم إلاّ مع المطر حتى كان مع الليل ، وسَكَبت السماء ، وجاء سَيْلُ الوادي ، فجاء أمرٌ خافَه أهلُ مكة ، ومُطرت عَرفةُ ومِنًى وجُمْعٌ ؛ فما كانت إلاّ عُبْراً ، قال : ونبتت مَكّة تلك السنة للخِصْب.

وأمّا أبو مَعشَر فإنه قال : حجّ بالناس سنة ثمان وثمانين عمرُ بنُ الوليد بن عبدالملك ، حدَّثني بذلك أحمدُ بنُ ثابت عمّن ذكره ، عن إسحاقَ بن عيسى عنه .

وكانت العمّال على الأمصار في هذه السنة العمّال الذين ذكرْنا أنهم كانوا عمّالها في سنة سبع وثمانين .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك افتتاحُ المسلمين في هذه السنة حصنَ سُورية ، وعلى الجيش مَسلَمة بن عبدالملك ، زَعَم الواقدي أنّ مَسلمَة غزا في هذه السنة أرضَ الرّوم ، ومعه العبّاس بنُ الوليد ودخَلاَها جميعاً ثم تفرّقا ، فافتتح مَسلَمة حصنَ سُورِية ، وافتَتح العبّاس أذروليّة ، ووافق من الرّوم جَمْعاً فَهزَمهُم .

وأما غيرُ الواقدي فإنه قال: قصد مَسلمة عَموريّة فوافق بها للرّوم جَمعاً كثيراً ، فهَزَمهم الله ، وافتتح هِرَقْلة وقمودية .

وغزا العبّاس الصائفة من ناحية البُدَنْدُون .

وفي هذه السنة غزا قُتيبةُ بُخارَى ، ففتح رامِيثنه . ذكر علي بنُ محمد عن الباهليّين أنهم قالوا ذلك ، وأن قتيبة رَجَع بعدما فتحها في طريق بَلْخ ، فلمّا كان بالفارِياب أتاه كتابُ الحجّاج : أن رِدْ وَرْدان خُذَاه . فَرَجع قتيبة سنة تسع وثمانين ، فأتى زَمّ ، فقطع النهر ، فلَقِيَه السُّغد وأهل كِسّ وَنَسف في طريق المَفازة ، فقاتَلوه ، فظَفِر بهم وَمَضى إلى بُخارَى ، فَنزل خَرْقانة السفْلى عن يمين وَرْدان ، فلقوه بجمع كثير ، فقـاتَلَهم يومَـين وليلَتَين ، ثم أعطاه الله الظَّفَر عليهم ؛ فقال نَهار بن تَوسِعَة :

وبـاتـت لَهُـمْ منّـا بـخَـرْقـانَ لَيْـلة ... ولَـيْلَتُـنـا كـانت بِـخَـرْقـانَ أَطْـوَلاَ

قال علي : أخبرَنا أبو الذيّال ، عن المهلّب بن إياس وأبو العلاء ، عن إدريس بن حنظلة ، أنّ قتيبة غزا وَرْدانَ خُذَاه ملك بُخارَى سنة تسع وثمانين فلم يُطِقْه ، ولم يَظفر من البلد بشيء ، فرجع إلى مرْو ، وكَتَب إلى الحجاج بذلك ، فكَتَب إليه الحجاج : أنْ صَوِّرْها لي ، فبعث إليه بصُورتها ، فكتبَ إليه الحجّاج : أن ارِجع إلى مَراغِتك فتُبْ إلى الله مما كان منك ، وأتِها من مكانِ كذا وكذا .

وقيل : كَتَب إليه الحجاج أن كِسْ بكسّ وانسفْ نَسف ورِدْ وَرْدان ، وإيّاك والتحويط ، ودَعْني من بُنيّاتِ الطريق .

وفي هذه السنة وليَ خالد بن عبدالله القَسْريّ مكّة فيما زعم الواقدي ، وذَكَر أنّ عمر بن صالح حدَّثه عن نافع مولَى بني مخزوم ، قال : سمعت خالدَ بنَ عبدالله يقول على منبرِ مَكّة وهو يخطب :

أيّها الناس ، أيّهما أعظمَ؟ أخليفةُ الرّجل على أهلِه ، أمْ رسوله إليهم؟ واللّهِ لو لم تعلَموا فَضْل الخَليفة ، إلاّ أنّ إبراهيمَ خلِيلَ الرّحمن استَسْقى فسَقاه ملْحاً أجاجاً ، واستسقاه الخليفةُ فسقاه عَذباً فراتاً ، بِئراً حَفرَها

الوليد بنُ عبدالملك بالثَّنيّتين ـ ثَنِيّة طوًى وثنيّة الحَجُون ـ فكان ينقلَ ماؤها فيوضَع في حوض من أَدَم إلى جَنْب زمزمَ ليُعْرف فضلُه على زَمْزَم .

قال : ثم غارت البئر فذهبتْ فلا يُدرَىٰ أين هِيَ اليوم .

وفيها غَزَا مَسْلمة بنُ عبدالملك التُّرْكَ حتى بلغ البابَ من ناحية أذْرَبيجـان ، ففَتَح حُصـوناً ومـدائنَ هنالك .

وحَجّ بالناس في هذه السنة عمر بنُ عبدالعزيز ، حدَّثني بذلك أحمدُ بنُ ثابت ، عمّن ذَكَره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي مَعشَر .

وكال العمّال في هذه السنة على الأمصار العمال في السنة التي قَبْلَها ، وقد ذكرناهم قَبْل .

ثم دخلت سنة تسعين

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

ففي هذه السنة غزا مَسْلمةُ أرضَ الرّوم ـ فيما ذَكَر محمد بنُ عمَر ـ من ناحية سُورية ، ففتح الحُصونَ الخمسةَ التي بسُورِية .

وغزا فيها العباس بن الوليد؛ قال بعضهم : حتى بَلَغ الأرزَن ؛ وقال بعضُهم : حتى بَلَغ سُورِية . وقال محمد بنُ عمر : قولُ مَن قالَ : حتى بَلَغَ سُورِية أصحّ .

وفيها قَتَل محمّدُ بنُ القاسم الثقفيّ داهَر بن صصّة مَلِك السِّند ، وهو على جيش من قِبَل الحجّاج بنِ يوسف .

وفيها استَعمَل الوليدُ قُرَّةَ بن شريك على مصرَ موضع عبدِالله بن عبدالملك .

وفيها أسرت الرّومُ خالدَ بن كَيْسان صاحب البحر ، فذهبوا به إلى مَلِكهم ، فأهداه ملك الروم إلى الوَليد بنِ عبدالملك .

وفيها فَتَح قُتيبةُ بُخارَى ، وهَزَم جُموعَ العدوّ بها .

ذكر الخبر عن ذلك :

ذكر علي بن محمد أن أبا الذيّال أخبَرَه عن المهلّب بن إياس؛ وأبو العلاء، عن إدريس بن حَنْظلة ، أنّ كِتَاب الحجّاج لّما ورد على قتيبة يأمره بالتوبة مما كان ، من انصرافه عن وَرْدانَ خُذاه ملك بُخارَى قبل الظفر به والمصير إليه ، ويعرّفه الموضَع الذي ينبغي له أن يأتيَ بلده منه ، خرج قُتيبة إلى بُخارَى في سنة تسعين غازياً ، فأرسَلَ وَرْدان خذاه إلى السُّغْد والتُّرْك ومَن حَولَهم يستنصِرونهم، فأتوْهم وقد سَبَق إليها قتيبةُ فحَصَرهم ، فلمّا جاءتهم أمدادُهم خرجوا إليهم ليقاتلوهم ، فقالت الأزْد : اجعَلونا على حِدَة، وخَلُّوا بيننا وبين قتالهم . فقال قتيبة : تقدَّموا ؛ فتقدَّموا يقاتِلونهم وقتيبةُ جالسٌ ، عليه رِداءٌ أصفر فوقَ سلاحِه ، فصَبَروا جميعاً مليًّا ، ثم جالَ المسلمون ، ورَكِبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا في عسكر قتيبة وجازوه حتى ضربَ النساءُ وجوهَ الخيل وبكَين ، فكرّوا راجعين ، وانطوت مُجنّبتَا المسلمين على الترك ، فقاتلوهم حتى ردّوهم إلى مواقفهم ، فوقف الترك على نَشَز ، فقال قتيبة : مَن يُزيلُهم لنا عن هذا الموضع؟ فلم يقدم عليهم أحد ، والأحياء كلّها وقوفٌ .

فمشى قتيبة إلى بني تميم ، فقال : يا بني تميم ، إنكم أنتم بمنزلة الحطميّة ، فيومٌ كأيّامكم ، أبى لكم الفداء! قال: فأخذ وكيعٌ اللواءَ بيَده ، وقال : يا بني تميم ، أتسلِموني اليوم؟ قالوا : لا يا أبا مطرّف ـ وهريم بن أبي طَحْمَةَ المُجاشعيّ على خيل بني تميم ووكيع رأسُهم ، والناس وقوف ـ فأحجَموا جميعاً ، فقال وكيع : يا هُريمُ ، قَدِّم ، وَدفع إليه الرّاية ، وقال : قدّم خيلَك فتقدَّم هُرَيم ، ودَبّ وكيع في الرجال، فانتهى هُريم إلى نهر بينه وبين العدوّ فوقف ، فقال له وكيع : اقحم يا هُرَيم ؛ قال : فنظر هُرَيم إلى وكيع نظرَ الجَمَل الصَئول وقال: أنا أقحِم خيلي هذا النهرَ ، فإن انكشفتْ كان هلاكُها! واللّهِ إنك لأحمق ؛ قال : يا بن اللَّخناء ، ألا أراك تردّ أمري! وحَذَفه بعَمود كان معه ، فضَرَب هريم فرسَه فأقحمَه ، وقال : ما بعد هذا أشدّ من هذا ، وعبر هُريم في الخَيل ، وانتهى وَكيع إلى النهر ، فدعا بخَشَب ؛ فقَنْطَر النهر وقال لأصحابه : مَن وطّن منكم نفسَه على الموت فليَعبُر ، ومَن لا فلْيَثْبت مكانَه ؛ فما عبَر معه إلا ثمانمائة راجل ، فدبّ فيهم حتى إذا أعيوا أقعدَهم فأراحوا حتى دنا من العدّو ، فجعل الخيلَ مجنّبتين ، وقال لهريم : إني مُطاعن القوم ، فاشغِلْهم عنّا بالخيل ، وقال للناس : شُدّوا ، فحملوا فما انثنَوْا حتى خالطوهم ، وحَمل هُريم خيلَه عليهم فطاعنوهم بالرّماح ، فما كفّوا عنهم حتى حَدّروهم عن موقفهم ، ونادى قتيبة : أما تَرَون العدوّ منهزمين ! فما عبرَ أحدٌ ذلك النهر حتى ولَّى العدوّ منهزِمين ، فأتبعهم الناسُ ، ونادى قتيبة : مَن جاء برأس فله مائة .

قال : فزعم موسى بن المتوكّل القُرْيعيّ ، قال : جاء يومئذ أحدَ عشرَ رجلاً من بني قُرَيع ، كلّ رجل يجيء برأس ، فيقال له : من أنت؟ فيقول : قُريعيّ . قال : فجاء رجل من الأزْد برأس فألقاه ، فقالوا له : مَن أنت؟ قال : قُريعيّ ؛ قال : وجَهْم بنُ زَحْر قاعد ، فقال : كَذبَ واللّهِ أصلحك الله! إنه لابن عَمّي ؛ فقال له قُتيبة : وَيحك ! ما دعاك إلى هذا؟ قال : رأيتُ كلَّ من جاء قُريعيّ : فظننتُ أنه ينبغي لكلّ من جاء برأس أن يقول : قُريعيّ . قال : فضحك قُتيبة .

قال: وجُرح يومئذ خاقان وابنُه، ورجع قتيبةُ إلى مَرْوَ، وكتب إلى الحجّاج: إني بعثتُ عبدَالرحمن بنَ مسلم، ففتح الله على يديه.

قال : وقد كان شهد الفتحَ مولًى للحجّاج ، فقَدِم فأخبرَه الخبر ، فغَضِب الحجّاج على قتيبة ، فاغتمّ لذلك ، فقال له الناس. ابعثْ وَفْداً من بني تميم وأعطِهم وأرضِهم يُخبروا الأميرَ أنّ الأمرَ على ما كتبْتَ ، فبعثَ رجالاً فيهم عُرام بن شُتير الضّبي ، فلمّا قدموا على الحجّاج صاح بهم وعاتبهم ودعا بالحجّام بيَده مِقراض فقال : لأقطَعنّ ألسنتكم أو لتصدقُنّي ، قالوا : الأميرُ قتيبة ، وبعث عليهم عبدَالرحمن ، فالفتحُ للأمير والرأس الذي يكون على الناس ، وكلّمه بهذا عُرام بن شُتير ، فسَكن الحجّاج .

وفي هذه السنة جدّد قتيبةُ الصلحَ بينه وبين طَرْخون مَلِك السُّغْد .

ذكر الخبر عن ذلك:

قال علي : ذَكَر أبو السَّري عن الجهَم الباهلي ، قال : لما أوقع قتيبة بأهل بُخارَى ففَضّ جمعهَم هابَه أهلُ السُّغْد ، فرجع طَرْخون مَلك السُّغد ومعه فارسان حتى وقف قريباً من عسكر قُتيبة ، وبينهما نَهر بُخارى ، فسأل أن يَبعث إليه رجلاً يكلمه ، فأمر قتيبةُ رجلاً فدنا منه .

وأما الباهليّون فيقولون: نادى طَرْخونُ حيّانَ النَّبَطِيّ فأتاه ، فسألهم الصّلح على فِدْية يؤدّيها إليهم ، فأجابه قتيبة إلى ما طَلَب ، وصالحه ، وأخذَ منه رَهْناً حتى يَبعثَ إليه بما صالحه عليه ، وانصرف طرخون إلى بلاده ، ورجع قتيبةُ ومعه نِيزَك .

وفي هذه السنة غَدَرَ نِيزَك ، فنقض الصّلح الذي كان بينه وبين المسلمين وامتنعَ بقلعته ، وعاد حَرْبا ، فغَزاه قُتيبة .

ذكر الخبر عن سبب غدرِه وسببِ الظَّفَر به:

قال علي: ذَكَر أبو الذيّال ، عن المهلّب بن إياس والمفضَّل الضبي ، عن أبيه ، وعلي بن مجاهد وكُلَيب بن خَلَف العميّ ؛ كلّ قد ذكر شيئاً فألّفته،وذَكَر الباهليّون شيئاً فألحقته في خَبَر هؤلاء وألفتُه ؛ أنّ قتيبة فَصَل مِن بخارَى ومعه نِيزَك وقد ذَعَره ما قد رأى من الفُتوح ، وخاف قتيبة ، فقال : لأصحابه وخاصّته : مُتَّهم أنا مع هذا ، ولستُ آمَنُه ؛ وذلك أنّ العربي بمنزلة الكَلْب ؛ إذا ضربتَه نَبَح ، وإذا أطعَمْته بَصْبَصَ واتّبعك ، وإذا غَزَوْته ثمّ أعطيتَه شيئاً رضيَ ، ونسيَ ما صنعتَ به ، وقد قاتَلَه طرْخونُ مراراً ، فلما أعطاه فديةً قبِلَها ورضيَ ، وهو شديد السَّطْوة فاجر فلو استأذنت ورجعتُ كان الرأي ، قالوا : استأذِنه . فلما كان قتيبة بآمُل استأذَنَه في الرّجوع إلى تُخارِسْتان ، فأذن له ، فلما فارق عسكرَه متوجِّهاً إلى بَلْخَ قال لأصحابه : أغِذُّوا السَّيرَ ؛ فساروا سيراً شديداً حتى أتَوا النّوبَهار ، فنَزَل يصلّي فيه وتبرّك به . وقال لأصحابه : إني لا أشكُّ أنّ قتيبة قد نَدم حين فارقْنا عسكَرُه على إذنه لي ، وسيُقدِم الساعة رسولُه على المُغيرة بن عبدالله يأمرُه بحبْسي ، فأقيموا ربيئةً تنظر ، فإذا رأيتم الرسولَ قد جاوَز المدينةَ وخرج من الباب فإنه لا يبلغ البُروقان حتى نبلغ تخارِستان ، فيبعث المغيرة رجلاً فلا يُدرِكنا حتى ندخلَ شِعب خُلم ؛ ففعلوا .

قال : وأقبل رسولٌ من قِبل قتيبة إلى المغيرة يأمُرُه بحبس نِيزَك . فلما مرّ الرّسول إلى المغيرة وهو بالبُروقان ـ ومدينة بَلْخ يومئذ خَراب ـ ركب نِيزَك وأصحابه فمضَوا ، وقَدِم الرسولُ على المغيرة فركب بنفسه في طلبه ، فوَجَده قد دَخَل شِعب خُلْم ، فانصرف المغيرة ، وأظهَر نِيزَك الخلع ، وكتب إلى أصبهبذ بَلْخ وإلى باذام مَلِك مَرْوَرّوذ، وإلى سهرب مَلِك الطالقان ، وإلى ترسُل ملك الفارياب ، وإلى الجُوزّجانيّ ملك الجُوزجان يدعوهم إلى خَلْع قتيبة ، فأجابوه ، وواعَدَهم الرّبيع أن يجتمعوا ويغزُوا قتيبة . وكتب إلى كابل شاه يَستظهِر به ، وبعث إليه بثَقَله ومالِه ، وسأله أنْ يأذَن له إن اضطر إليه أن يأتيَه ويؤمِّنَه في بلاده ، فأجابه إلى ذلك وضَمَّ ثقَلَه .

قال : وكان جبْغويه مَلِك تخارستان ضعيفاً ، واسمه الشذّ ، فأخذه نِيزَك فقيَّده بقَيْد من ذَهَب مخافة أن يَشغَب عليه ـ وجبغويه ملك تخارستان وَنِيزَك من عبيدِه ـ فلما استوثق منه وضَعَ عليه الرّقَباء ، وأخرج عاملَ قُتيبةَ من بلاد جبْغويه ، وكان العامل محمد بن سُلَيم الناصح ، وبلغ قتيبة خلعَه قبل الشتاء ، وقد تفرّق الجند فلم يَبقَ مع قتيبة إلاّ أهل مَرْو ، فبعث عبدالرحمن أخاه إلى بَلْخ في اثنيْ عشرَ ألفاً إلى البروقان ، وقال : أقم بها ، ولا تُحدِث شيئاً ، فإذا حَسَر الشتاء فعَسْكِر وسِرْ نحو تخارستان ، واعلم أني قريب منك ، فسار عبدُالرحمن فنزل البروقان ، وأمهلَ قتيبة حتى إذا كان في آخر الشتاء كَتَبَ إلى أبرشهر وبِيوَرْد وسَرَخَسْ وأهل هَراة ليقدَموا قبل أوانِهم الذي كانوا يَقدَمون عليه فيه.

وفي هذه السنة ، أوقع قتيبة بأهل الطالَقان بخراسان ـ فيما قال بعض أهل الأخبار ـ فقتل من أهلها مقتلةً

عظيمة ، وصلب منهم سِمَاطيْن أربعة فراسخ في نظام واحد .

ذكر الخبر عن سبب ذلك :

وكان السبب في ذلك ـ فيما ذُكر ـ أنّ نيزكَ طرخان لما غدر وخَلَع قتيبة وعَزَم على حَربه ، طابقَه على حربه مَلِك الطالَقان ، وواعَدَه المصيرَ إليه مَن استجاب للنهوض معه من الملوك لحرب قُتيبة ، فلما هَرَب نيزَك من قتيبة ودخل شِعب خُلم الذي يأخذ إلى طُخارِستان عَلِم أنه لا طاقةَ له بقُتيبة ، فهَرَب ، وسار قُتيبةُ إلى الطالقان فأوقع بأهلها ، ففعل ما ذكرتُ فيما قبل .

وقد خُولِف قائلُ هذا القول فيما قال من ذلك ، وأنا ذاكرُه في أحداث سنة إحدى وتسعين .

وحَجّ بالنّاس في هذه السنة عمرُ بنُ عبدالعزيز ، كذلك حدَّثني أحمد بن ثابت عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي مَعشَر . وكذلك قال محمد بن عمر .

وكان عمرُ بن عبدالعزيز في هذه السنة عامل الوليد بن عبدالملك على مكّة والمدينة والطائف . وعلى العراق والمشرِق الحجّاج بن يوسف ، وعامل الحجّاج على البَصْرة الجرّاح بن عبدالله . وعلى قَضائها عبدالرحمن بن أذينة ، وعلى الكوفة زياد بن جَرير بن عبدالله . وعلى قضائها أبو بكر بن أبي موسى . وعلى خُراسان قتيبة بن مُسلِم . وعلى مصر قُرّة بن شَريك .

وفي هذه السنة هَرَب يزيدُ بن المهلّب وإخوته الذين كانوا معه في السجن مع آخرين غيرهم ، فَلَحِقوا بسُليمانَ بن عبدالملك مستجيرين به من الحجّاج بن يوسف ، والوليدِ بن عبدالملك .

ذكر الخبر عن سبب تخلّصهم من سجن الحجاج ومسيرِهم إلى سليمان :

قال هشام : حدَّثني أبو مخنَف، عن أبي المُخارِق الراسبي ، قال : خرج الحجّاج إلى رُسْتُقْباذ للبَعْث ، لأنّ الأكرادَ كانوا قد غلبوا على عامة أرضِ فارسَ ، فخرج بيزيدَ وبإخوته المفضّل وعبدالملك حتى قَدِم بهم رستقْباذ ؛ فجعلهم في عسكرِه ، وجعل عليهم كهَيْئة الخَنْدق ، وَجَعَلَهم في فُسطاط قريباً من حُجْرته ، وجعل عليهم حَرَساً من أهل الشام ، وأغرَمَهم ستّة آلافِ ألف ، وأخذ يعذّبهم ، وكان يزيدُ يَصبِر صبراً حَسَناً ، وكان الحجّاج يَغيظُه ذلك ، فقيل له : إنه رُمي بنُشابة فثَبَت نصلُها في ساقه ، فهو لا يمسّها شيء إلاّ صاح ، فإن حرّكت أدنى شيء سمعْت صوتَه ، فأمَر أن يعذَّب ويُدهَق ساقُه ، فلما فُعل ذلك به صاحَ ، واخته هند بنت المهلّب عند الحجّاج ، فلما سمعتْ صِياحَ يزيدَ صاحتْ وناحتْ ، فطلَّقها . ثم إنه كفّ عنهم ، وأقبَل يستأدِيهم ، فأخذُوا يؤدّون وهم يَعمَلون في التخلّص من مكانهم ، فبعثوا إلى مروانَ بنَ المهلب وهو بالبَصْرة يأمرونه أن يضمّر لهم الخيل ، ويُري الناسَ أنه إنما يريد بيعَها ويَعرضها على البيع ، ويُغلي بها لئلاّ تُشتَرى فتكون لنا عُدَّة إن نحن قَدرنا على أن ننجوَ مما ها هنا . ففعل ذلك مَروان ، وحبيب بالبَصرة يعذَّب أيضاً ، وأمر يزيدُ بالحَرَس فصُنع لهم طعام كثير فأكلوا ؛ وأمَر بشراب فسُقُوا ، فكانوا متشاغِلين به ، ولبِسَ يزيدُ ثيابَ طَبّاخه ، ووضَعَ على لحيته لحيةً بَيْضاء ، وخرج فرآه بعضُ الحرس فقال : كأنّ هذه مِشْية يزيد ! فجاء حتى استعرض وجهَه ليلاً ، فرأى بياضَ اللِّحية ، فانصرف عنه ، فقال: هذا شيخ . وخرج المفضّل على أثره ، ولم يُفطَن له ، فجاؤوا إلى سُفنهم وقد هيَّئوها في البطائح ، وبينهم وبين البَصرة ثمانية عشرَ فَرْسخاً ، فلما انتهَوا إلى

السفن أبطأ عليهم عبدُالملك وشُغِل عنهم ، فقال يزيد للمفضّل : اركَب بنا فإنه لاحقٌ ، فقال المفضّل - وعبد الملك أخوه لأمّه - وهي بهلة ، هندية : لا والله ، ولا أبرَح حتى يجيء ولو رجعتُ إلى السجن فأقام يزيدُ حتى جاءهم عبدالملك ، وركبوا عند ذلك السفُن ، فساروا ليلَتَهم حتى أصبحوا ، ولما أصبح الحَرَس عَلِموا بِذَهابهم ، فرُفع ذلك إلى الحجّاج ، وقال الفرزدق في خروجهم :

فلمْ أر كالرَّهْط الذينَ تَتابَعوا ... على الجِذْع والحرَّاسُ غيرُ نِيامِ
مَضَوْا وهُمُ مُسْتَيْقنُونَ بِأنَّهمْ ... إلى قَدَرٍ آجالُهُمْ وحِمَامِ
وإنْ منهمُ إلاّ يُسَكِّن جأْشَهُ ... بِعَضْب صقِيلٍ صارمٍ وحُسامِ
فلمَّا التقَوْا لم يلتَقوا بمُنَفَّهٍ ... كبيرٍ ولا رَخْصِ العظام غلامِ
بمثلِ أبيهمْ حين تمّت لِدَاتُهُمْ ... لخمسين قلْ في جُرْأةٍ وتمامِ

ففزع له الحجّاج ، وذهبَ وهمه أنّهم ذَهبوا قِبَل خُراسان ، وبعث البريدَ إلى قتيبة بن مسلم يحذِّره قدومَهم ، ويأمرُه أن يستعدّ لهم ، وبعث إلى أمراء الثغور والكُوَر أن يرصدوهم ، ويستعدّوا لهم ، وكتب إلى الوليدبنِ عبدالملك يُخبِره بهَرَبهم ، وأنه لا يراهم أرادوا إلاّ خُراسان . ولم يزل الحجّاج يظنّ بيزيدَ ما صنع ، كان يقول : إني لأظنه يحدِّث نفسَه بمِثل الذي صنع ابنُ الأشعث .

ولما دنا يزيدُ من البطائح ، من مَوْقُوع استقبلتْه الخيل قد هُيّئت له ولإخوته ، فخرجوا عليها ومعهم دليلٌ لهم من كَلْب يقال له : عبدالجبّار بن يزيدَ بن الربعة ، فأخذ بهم على السَّمَاوَة ، وأُتيَ الحجّاج بعد يومين ، فقيل له : إنما أخذ الرجل طريقَ الشام ، وهذه الخيلُ حَسْرَى في الطريق ، وقد أتى من رآهم موجَّهين في البرّ ، فبعث إلى الوليد يُعلِمه ذلك ، ومَضَى يزيدُ حتى قَدِم فِلَسطين ، فنَزَل على وهيب بن عبدالرّحمن الأزْديّ - وكان كريماً على سليمان - وأنزل بعضَ ثَقله وأهلِه على سُفْيان بن سليمان الأزدي ، وجاء وهيب بن عبدالرحمن حتى دخل على سليمان ، فقال : هذا يزيدُ بن المهلَّب ، وإخوتُه في منزلي ، وقد أتوك هُرّاباً من الحجّاج متعوِّذِين بك ؛ قال : فأتِني بهم فهم آمِنون لا يُوصَل إليهم أبداً وأنا حيّ . فجاء بهم حتى أدخَلَهم عليه ، فكانوا في مكان آمِن ، وقال الكلبي دليلهُم في مَسيرهم :

ألا جَعَلَ اللّهُ الأخلاَّءَ كلَّهُمْ ... فداءً على ما كان لابنِ المُهلَّبِ
لَنِعْمَ الفتى يا مَعْشَر الأزد أسْعَفتْ ... رِكابُكُمُ بالوهب شَرْقيَّ مَنْقَبِ
عَدَلْنَ يَميناً عنهمُ رَمْلُ عالِجٍ ... وذات يمينِ القوم أعلامُ غُرَّبِ
فَإلاّ تُصَبِّحْ بعدَ خَمْسٍ ركابُنا ... سليمانَ مِن أهل اللِّوى تتأَوَّبِ
تَقَرُّ قَرار الشَّمس ممّا وراءنا ... وتذْهَبُ في داجٍ مِنَ الليلِ غَيْهَب
بِقومٍ هُمُ كانوا الملوكَ هَدَيْتُهُمْ ... بِظَلْماءَ لم يُبْصَرْ بها ضَوءُ كوكب
ولا قَمرٍ إلاّ ضَئيلاً كأنه ... سِوارٌ حَنَاهُ صائغ السُّور مُذْهَب

قال هشام : فأخبَرني الحَسَن بن أَبَان العُلَيمي ، قال : بينا عبدالجبار بن يزيدَ بن الرَّبعة يَسِري بهم فسقطتْ عِمامةُ يزيدَ ، ففقَدَها فقال : يا عبدَالجبار ، إرجعْ فاطلُبْها لنا ، قال : إنّ مِثلي لا يُؤمَر بهذا ، فأعاد ؛ فأبى ، فتناوَلَه بالسوط ، فانتَسَب له ، فاستحيا منه ، فذلك قولُه :

أَلَا جَعَلَ اللّهُ الأَخِلَّاءَ كُلَّهُمْ فِداءً على ما كان لابن المهلَّبِ

وكتب الحجّاج : إن آل المهلب خانوا مالَ الله وهرَبوا منّي ولحِقوا بسليمان ، وكان آل المهلّب قَدِموا على سليمان ، وقد أمِر الناس أن يحصّلوا ليسرّحوا إلى خراسان ، لا يَرَون إلاّ أنّ يزيدَ توجّه إلى خُراسان ليَفتِن مَن بها . فلما بلغ الوليدَ مكانُه عند سليمان هوّن عليه بعضَ ما كان في نفسه ، وطار غضباً للمال الذي ذَهَب به . وكتب سليمانُ إلى الوليد : إنّ يزيدَ بنَ المهلب عندي وقد آمنته ، وإنما عليه ثلاثة آلاف ألف ، كان الحجّاج أغرَمَهم ستّة آلاف ألف فأدَّوْا ثلاثةَ آلاف ألف ، وبقي ثلاثة آلاف ألف ، فهيَ عليّ . فكتب إليه : لا والله لا أؤمّنه حتى تبعث به إليّ . فكتب إليه : لئن أنا بعثتُ به إليك لأجيئنّ معه ، فأنشدُك اللّهَ أن تفضَحني ولا أن تُخفِرني . فكَتَب إليه : واللّهِ لئن جئتَني لا أؤمنه . فقال يزيد : ابعثني إليه ، فوالله ما أحبّ أوقع بينك وبينه عداوةً وحَرْباً ، ولا أن يتشاءَم بي لكما الناسُ ، ابعث إليه بي ، وأرسل معي ابنَك ، واكتُب إليه بألطفِ ما قدَرتَ عليه . فأرسَلَ ابنه أيّوب معه . وكان الوليد أمَرَه أن يَبعَث به إليه في وَثاق ، فبعَث به إليه ، وقال لابنه : إذا أردتَ أن تَدخُل عليه فادخلْ أنتَ ويزيد في سِلسلة ثم ادخُلا جميعاً على الوليد ، ففعل ذلك به حين انتهيا إلى الوليد ، فدخَلا عليه ، فلما رأى الوليدُ ابنَ أخيه في سِلسلة ، قال : واللّهِ لقد بلغْنا من سليمان ! ثم إنّ الغلام دَفَع كتابَ أبيه إلى عمّه وقال : يا أميرَ المؤمنين ، نفسي فداؤُك ! لا تُخفر ذِمّة أبي ، وأنت أحقّ من مَنعها ، ولا تَقطَع منّا رجاءَ من رجَا السلامة في جوارِنا لمكاننا منك ، ولا تُذِلّ من رَجا العِزّ في الانقطاع إلينا لعزّنا بك . وقرأ الكتَاب :

لعبدالله الوليد أمير المؤمنين من سليمان بن عبدالملك . أما بعدُ يا أميرَ المؤمنين ، فوالله إن كنتُ لأظنّ لو استجار بي عدوّ قد نَابَذَك وجاهَدَك فأنزلتُه وأجَرْتُه أنك لا تُذلّ جارِي ، ولا تُخفر جوارِي ، بلْه لم أجِرْ إلاّ سامعاً مطيعاً حَسَنَ البلاء والأثَر في الإسلام هو وأبوه وأهل بيته ، وقد بعثتُ به إليك ، فإنْ كنتَ إنما تَغْزو قطيعَتي والإخفار لذمّتي ، والإبلاغ في مَسَاءتي ، فقد قدرتَ إن أنت فعلت . وأنا أعيذُك بالله من احتراد قَطيعَتي ، وانتهاكِ حُرْمتي وتركِ بِرّي وصِلَتي ، فوالله يا أميرَ المؤمنين ما تَدرِي ما بقائي وبقاؤك ، ولا متى يُفرّق الموت بيني وبينَك! فإن استطاع أمير المؤمنين أدام الله سرورَه ألا يأتي علينا اجلُ الوَفاة إلاّ وهو لي واصل ، ولحقّي مؤدّ ، وعن مساءتي نازع ، فَليَفعل . والله يا أميرَ المؤمنين ما أصبحتُ بشيء من أمر الدنيا بعد تَقوَى الله فيها بأسَرَّ منّي برضاك وسرورِك . وإنّ رضاك مما ألتمِس به رضوانَ الله ، فإنْ كنتَ يا أميرَ المؤمنين تريد يوماً من الدّهر مسرّتي وصِلَتي وكَرامَتي وإعظامَ حقّي فتجاوَزْ لي عن يزيدَ ، وكلّ ما طلَبْته به فهو عليّ .

فلما قرأ كتابَه ، قال : لقد شَقَقنا على سليمانَ ! ثمّ دعا ابنَ أخيه فأدناه منه . وتكلّم يزيدُ فحَمِد اللّهَ وأثنَى عليه وصلى على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال :

يا أمير المؤمنين ، إنّ بلاءكم عندنا أحسنُ البَلاء ، فمن يَنْس ذلك فلَسنا ناسيه ، ومن يَكفُر فلَسنا كافريه ، وقد كان من بلائنا أهلَ البيت في طاعتكم والطعن في أعين أعدائكم في المواطن العِظام في المشارق والمَغارب ما إنّ المنة علينا فيها عظيمة .

فقال له : اجْلس ، فجلس فآمَنه وكفّ عنه ، ورجع إلى سليمانَ وسَعى إخوتُه في المال الذي عليه ، وكتَب إلى الحجّاج :

إني لم أصِل إلى يزيدَ وأهلُ بيته مع سليمان ، فاكفُف عنهم ، والْهُ عن الكتاب إليَّ فيهم .

فلما رأى ذلك الحجاج كفّ عنهم . وكان أبو عُيينَة بن المهلّب عند الحجّاج عليه ألف ألف درْهم ، فَتَركها له ، وكفّ عن حبيب بن المهلب . ورَجَع يزيدُ إلى سليمانَ بن عبدالملك فأقام عندَه يُعلِّمه الهَيْئة ، ويَصنَع له طيِّبَ الأطعمة ، ويُهدِي له الهَدايا العِظام . وكان من أحسن الناس عنده منزلةً ، وكان لا تـأتي يزيدَ بنَ المهلب هدّية إلّا بعث بها إلى سليمان ، ولا تأتي سليمانَ هديّةٌ ولا فائدةٌ إلّا بعث بنصفها إلى يزيدَ بن المهلّب ، وكان لا تُعجِبه جاريةٌ إلّا بعث بها إلى يزيدَ إلّا خطيئة الجارية . فبلغ ذلك الوليد بن عبدالملك ، فدعا الحارث بن مالك بن ربيعة الأشعري ، فقال : انطلِق إلى سليمان فقل له : يا خالفةَ أهلِ بيتـه ، إن أمير المؤمنين قد بلغه أنه لا تأتيك هديّة ولا فائدةٌ إلّا بعثتَ إلى يزيدَ بنِصْفها ، وإنك تأتي الجاريةُ من جواريك فلا يَنقضِي طُهرُها حتى تَبعَث بها إلى يزيدَ ، وقَبِّحْ ذلك عليه ، وَعَيِّرْه به ، أتراك مبلّغاً ما أمرتُك به؟ قال: طاعتُك طاعة، وإنما أنا رسول؛ قال: فأته فقل له ذلك ، وأقِمْ عندَه ، فإني باعث إليه بهدية فادفعها إليه ، وخُذْ منه البراءة بما تَدفَع إليه .

ثمّ أقبلَ فمَضى حتى قَدِم عليه وبين يديه المُصحَف ، وهو يقرأ ، فدخل عليه فسلّم ، فلم يردّ عليه السلام حتى فرغ من قراءته ، ثمّ رفع رأسَه إليه فكلّمه بكلّ شيء أمَرَه به الوليدُ ، فتمعَّر وجهُه ، ثم قال : أما والله لئن قدرتُ عليكَ يوماً من الدهر لأقطعنَ منك طابقاً! فقال له : إنما كانت عليَّ الطاعة .

ثم خرج مِن عندِه . فلما أتى بذلك الذي بعث به الوليدُ إلى سليمانَ ، دخل عليه الحارثُ بنُ ربيعة الأشعريّ وقال له : أعطِني البراءَة بهذا الذي دفعتُ إليك ، فقال : كيف قلتَ لي؟ قال : لا أعيدُه عالماً أبداً ، إنما كان عليَّ فيه الطاعة . فسَكَن ، وعلِم أن قد صَدَقه الرّجل ، ثم خرج وخرجوا معه ، فقال : خُذُوا نصفَ هذه الأعْدال وهذه الأسْفاط وابعثوا بها إلى يزيدَ .

قال : فعَلِم الرجُل أنه لا يطيع في يزيدَ أحداً ، ومكَث يزيدُ بن المهلّب عند سليمانَ تسعةَ أشهر .

وتُوفيّ الحجاج سنةَ خمس وتسعين في رمضانَ لِتسع بقِين منه في يوم الجمعة .

فهرس موضوعات المجلد الثالث